جيمس جورج فرايزر



الغصن الذهبي

دراسة في السحر والدين

ترجمة: نايف الخوص



جيمس جورج فرايزر

الغصن الذهبي

دراسة في السحر والدين

ترجمة : نايف الخوص

عنـــوان الكتـــاب : الغصن الذهبي
دراسة في السحر والدين
The Golden Bough
a study of magic and religion
اســـم المؤلـــف : جيمس جورج فرايزر
James George Frazer
المترجـــــم: نايف الخوص
الـنـاشـــر: دار الفـرقـد
الطبعـــة الأولـــى : 2014
التنفيــذ والإشــراف : دار الفرقد
الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق
هـاتف : 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص . ب : 34312 فـاكس: 6660915 (00963-11)
البريـــد الإلكترونـــي : alfarqad70@ Gmail.com / hotmail.com
الموقـع علـى شـبكة الإنترنـت: http://www.alfarqad.com

كلمة المترجم

عندما يرغب المترجم في اختيار كتاب يقدمه لأبناء لغته يقف حائراً أمام عدد الكتب الأجنبية الهائل، ثم يرتبك أمام الأسئلة: أي الكتب يحتاجها القارئ العربي دون غيرها؟ هل الكتب الحديثة أفضل من القديمة؟ ولماذا تفتقد مكتباتنا لمراجع مهمة مثل **الغصن الذهبي** ولماذا لم يعاد تزويد السوق بهذا المرجع الهام وقد نفدت آخر نسخة مترجمة له منذ السبعينات. يتألف الغصن الذهبي من اثني عشر مجلداً وهذا ما يجعله صعب القراءة في عصرنا هذا عصر السرعة. وعند التفكير بترجمته غمرتني السعادة عندما عثرت على تلخيص لذلك العمل الكبير في مجلد واحد.

لقد اخترت كتابي الماضي **التفكير الجانبي** لأنه يساعد على كسر قيود التفكير المنطقي الذي يسيطر على عقولنا فيجعلنا نرى الأشياء من منطلق واحد تَكَرَّسَ مع مرور الزمان واستنفد جميع الطاقات الفكرية والإبداعية. وإذا كان شعاري ـ **أمانة الترجمة تبدأ باختيار الموضوع** ـ هو الذي حدا بي إلى اختيار ذلك الكتاب لأنه يحرر من هيمنة التفكير التقليدي، فما الذي جعلني أختار كتابي هذا **الغصن الذهبي**؟ وما علاقة التفكير الجانبي بالغصن الذهبي؟ الجواب هو: يساعد الكتابان العقلَ على التمرد على الرؤية التقليدية للأمور، ويساهمان في تحرير الإنسان من الوقوع في أسر التسمية التي تبرئ أو تدين المُسمى دون جريمة ارتكبها. في التفكير الجانبي تحررنا من رؤيتنا الجاهزة للكلمات مثل **الأشرار** فتعلمنا كيف نُحكّم عقولنا قبل إطلاق الحكم على مسميات مثل **الإرهابي**، **والديمقراطي**، والمستبد وصرنا نحكم على المنعوتين بها من خلال ذنوبهم أو منجزاتهم وليس من خلال تسميتهم بها. وفي **الغصن الذهبي** يساعدنا جيمس فرايزر على التحرر من مواقفنا المسبقة من عبارات مثل **البدائية**، **والسحر**، **والخرافة**، **والأديان البدائية** التي يسمونها الآن معتقدات قديمة، فيضعها في مضمارها اللائق دون إدانتها أو تقديسها المسبَقَين.

تعريف بالكاتب:

وُلد سير جيمس فرايزر في غلاسكو، أسكتلندة عام 1854 م. كان أبوه صيدلانياً وأمه ابنة جورج بوغل الذي عمل مفوضاً بريطانياً في التيبت. وفي عام 1774 أصبح بوغل بعد أن عمل مبعوثاً في الهند الشرقية أول البريطانيين المسافرين إلى البلاد النائية المنعزلة. نشأ جيمس فرايزر في جو يعج بحكايات السفر وطرائف الشعوب والأعراق الأخرى بالإضافة إلى تشرُّبه تعاليم الكنيسة الأسكتلندية الحرة بتأثير من أبيه. تعلم اللاتينية والإغريقية وهو صغير، ثم توسع في هاتين اللغتين عندما تابع تحصيله العلمي في جامعة غلاسكو حيث درس الفيزياء بإشراف لورد كليفين. حصل على البكالوريس في اللغة اليونانية والرومانية وآدابهما وذلك عام 1878 من جامعة كمبريدج. وفي العام التالي حاز شرف عضوية ألفا عندما قدم أطروحته التي تناولت أفلاطون. واستجابة لرغبة أبيه الذي كان يطالبه دائماً باعتماد مهنة معينة، عاد إلى دراسة القانون، وبعد أربع سنوات استدعي لنقابة المحامين. وبما أنه يرى هذا العمل خارج نطاق اهتمامه، لم يعمل في مجال المحاماة بل عاد إلى كامبريدج لينغمس في العمل الذي يعشقه وهو البحث في العادات والأساطير. باشر ترجمة قصص وتعليقات الرحالة الإغريقي بايسانياس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد. ولضخامة العمل الذي بدأه لم يستطع أن ينجز سوى ستة مجلدات حتى عام 1898. تأثر كثيراً بكتاب **الثقافة البدائية** للكاتب إدوارد تايلور.

راسل الكثير من الأساتذة والموظفين العاملين في البعثات التبشيرية في جميع أنحاء العالم للحصول على معلومات عن الشعوب الأصلية التي كانوا على احتكاك بها. وبعد أن جمع ثروة من المعلومات والتقارير عن الرحالة والكشافة القدامى بالإضافة إلى ما التقطه من معلومات هنا وهناك مثل ترجمته للرحالة الإغريقي بايسانياس، أصدر كتابه الأول بعنوان **الطوطمية** في عام 1887. ثم نشر **الغصن الذهبي** عام 1890، العمل الذي احتوى ثروة من الأساطير والأديان والمحرمات الاجتماعية والمعتقدات والعادات السائدة في عدد واسع من الثقافات مما كون رؤية جديدة لطبيعة المجتمع والبشرية. كما سلطت تلك الثروة الضوءَ على مواضيع هامة مثل الولادة والتطور والموت وإعادة الولادة، وأبرزت أهميتها في عدد هائل من الثقافات العالمية.

أهمية الغصن الذهبي التاريخية:

ذكرنا في معرض حديثنا عن التعريف بالكاتب بعضاً من تأثيراته وطبيعة نتاجه، ونتناول الآن طيف تأثيره الواسع الذي تعدى حدود البحث في الميثولوجيا ليبلغ الأدب والفن وعلم النفس فترك أثراً كبيراً على عدد كبير من الأدباء والفنانين نذكر منهم جيمس جويس، و ت.س. إليوت، ووليام بتلر ييتس، و د. إتش. لورانس، و إزرا باوند وروبرت غرفز، وماري رينو. لكنه تناول في كتابه قضية الدين بطريقة جديدة نسبياً، بمعنى أنه اعتبره موضوعاً دنيوياً. وفسح المجال أمام القارئ ليقارن بين بُنَى المسيحية الأولى وبين شعائر ومعتقدات العديد من القبائل البدائية الوثنية، مما أثار انتباه القارئ إلى التشابه الكبير، بل التطابق أحياناً، مع القصص الواردة في الأديان. أثار **الغصن الذهبي** موجة احتجاج كبيرة مما اضطره لنزع هذه المواد في طبعاتٍ لاحقة. وبالتالي تأتي الطبعات التي نشرت عمله مختصراً – والتي يعتبر هذا الكتاب المترجم واحداً منها – منزوعة المواد التي اعتبرت عدائية للمسيحية.

وجد سيغموند فرويد هذا العمل غنياً جداً بما يحتويه من معلومات رمزية تفيد في تطوير نظرياته في التحليل النفسي. كما تأثر الطبيب النفساني السويسري كارل يونغ بملاحظات فرايزر فاعتبرها ركيزة قوية بنى عليها الكثير في المجال الروحاني لدعم نظريته في اللاشعور الجمعي، خاصة فيما يتعلق بما سماه الدافع الديني الشامل لدى البشرية جمعاء. كما اعتمد جوزيف كامبيل على فرايزر في نظرته للميثولوجيا، والمجتمع، والنفس البشرية. وبنى الفيلسوف ريني جيرارد على **الغصن الذهبي** نظريته في التقليد. وطبعاً ترك عمل فرايزر أثراً كبيرا في جيل كامل من الميثولوجيين بالإضافة إلى توثيق ودراسة الدين والأنماط الإجتماعية عند الشعوب البدائية بما فيها من اختلافات وعناصر مشتركة، ورصد القوى التي نصنعها فتصنعنا. وبهذا يكون قد تناول الدين بطريقة جديدة نسبياً عندما اعتبره موضوعاً دنيوياً.

اعتبر علماء الأنثروبولوجيا الكثيرَ من افتراضات فرايزر القيمة واستنتاجاته قاصرة. كما دحض علماء الآثار إدعاءه لعادة قتل الملك السنوي في الثقافات القديمة. وأثبت علم الأنثربولوجيا الثقافي أن المجتمعات البشرية لا تسلك طريقاً واحداً في التطور، أي لا تتبع نمط الدارونية الاجتماعية، التي حَدَت بفرايزر ليفترض ما

افترضه. ورغم أن السحر التعاطفي مازال متبعاً حتى يومنا هذا، اعتبروا ما اعتمد عليه من مواد خاصة بدراسة الأعراق البشرية والثقافات في بلوغ نتائجه، اعتبروها غير كاملة وأنها خضعت لأهواء المستعمرين البيض الذين جمعوها.

إن ما فعله فرايزر من إنجازات بما فيها **الغصن الذهبي** هو مبادرة جريئة فسحت المجال أمام إبداعات كثيرة. ويمكن أن نعتبر فرايزر باحثاً في أعماق ثقافته خلال مقارنته المنظومات العقائدية في وقت ساد معتقد عام يعتبر العادات والمعتقدات الأخرى مؤسسات قاصرة بحاجة إلى اجتثاث. وبالحماس نفسه الذي سعت فيه البعثات التبشيرية المسيحية لمسح التقاليد الأخرى، سعى فرايزر في **الغصن الذهبي** إلى دعم إعادة ولادة الوثنية. إن الشرح الإثنوغرافي المفصل لثقافات القبائل غير المسيحية وتحليله للشعائر والتقاليد الأوربية المرتبطة بطبيعة عبادة الإلهة أصبحت المصدر الرئيس لمن أراد إعادة بناء ما طمسته المسيحية. لذلك في خمسينات القرن العشرين، وبعد وفاة فرايزر بسنوات، تمكن جيرارد غاردنر وأليستر كراولي من وضع أسس ديانة **ويكا** الوثنية الجديدة التي تؤمن بتعدد الآلهة وتعتمد على تقاليد ترتكز على الطبيعة أي فترة ما قبل المسيحية، فاعتبرها كل من لم يؤمن بها شكلاً من أشكال السحر.

على الرغم من الفضيحة التي انتشرت في أوساط ضيقي العقول، مُنح فرايزر درجة الفروسية عام 1915 لإسهاماته بعلم أصل الإنسان وتطوره، فاستقر في جامعة كمبريدج واستمر في بحوثه بهمّة عالية حتى السنين الأخيرة من حياته. ورغم أن حادثاً سبب النزيف لعينيه عام 1930 فبدأتا بالضعف التدريجي حتى أصيب بالعمى الكامل، رغم ذلك لم يفتر في عمله أبداً، وظل يعمل بمساعدة معاونيه الذين كانوا يعينونه بالنشاطات التي تعتمد على اليدين والعينين. ويأتي على رأس هؤلاء المعاونين زوجتُه ليلي التي أمضت حياتها معه وهي تشجعه في تطوير عمله. مات السير جيمس فرايزر في السابع من أيار عام 1941 عن عمر يناهز سبعة وثمانين عاماً، وماتت السيدة فرايزر بعده بساعات، وكأنه طوطمها المرتبط، ودُفِنَا معاً جنباً إلى جنب في مقبرة القديس جيل في كامبردج.

ملاحظات حول ترجمة هذا الكتاب وقراءته.

تتناسب أهمية الكتاب طرداً مع نظرة القارئ ومقارنته ببنيته الفكرية. يعرض الكتاب الكثير من التفاصيل التي قد يمر عليها القارئ مرور الكرام فلا يحللها أو يقارنها بممارسات نقوم بها اليوم وربما اعتبرها تفاصيل مملة لا طائل منها، وسأدرج مثالاً على ذلك أدناه. عندما نقرأ هذا الكتاب سنغير موقفنا من عبارة البدائي، فلا نستخدمها من قبيل السخرية والاحتقار لأن في بنيتنا الجسدية والفكرية والعقائدية أكثر من 90٪ من البدائية. وعندما ننظر للبدائيين علينا أن نتذكر جيداً أن أحفادنا في المستقبل سينعتوننا بالبدائية مع ابتسامة ساخرة يرسمها الولد المتطور عندما يتخيل جده الخَرِف الذي كان يستخدم الحاسوب المحمول، أو يستغرب كيف كان أجداده يدفعون الباهظ من الجهد والمال والأرواح وهم يتنازعون على عدة كيلومترات مربعة من الأرض لأنهم سجناء فكرة لم يستطيعوا التخلص منها. ما أشبه موقف حفيدنا منا بموقفنا من عروسة النيل التي كانت تُرمى في النيل سنوياً. ما هي المعاناة التي يعانيها إنسان القرن الواحد والعشرين وستصبح مجرد مسخرة أو مجرد دراسة تاريخية يوماً ما؟ دعونا الآن نكشف عن معاناة ندفع ثمنها وهي بدائية بمفهوم الأجيال القادمة، ثم نخفف منها لأنها غير ذات قيمة كونها تافهة في المنظور المستقبلي.

في معرض وصف العادات والطقوس والشعائر يلاحظ القارئ أن السير جيمس فرايزر يسهب في التفاصيل التي يشعر القارئ أنه قد عرف مغزاها فيظن أنه لا داعي لها. وما أن يساوره هذا الشعور حتى يصادف تفصيلاً يرى فيه قيمة كبيرة وكأنه وجد قطعة ذهبية بين القش. ثم يقول القارئ العربي لنفسه: "لماذا لم يوصلني فرايزر إلى هذا التفصيل مباشرة؟" الجواب هو أن فرايزر لم يكتب لبيئة محددة أو ثقافة معينة بل وصف الطقوس كما هي، وعلى القارئ أن يأخذ منها ما يشاء ويحللها بطريقته. وربما وجد أحدُ القراء تفصيلات تافهة ويراها قارئٌ آخر في غاية الأهمية. كلٌ حسب ميوله وثقافته.

لنأخذ مثالاً على ذلك. في الصفحة 51، الفصل الخامس وصفاً طويلاً مفصلاً لشعيرة يحرض فيها الناسُ الطقسَ على هطول المطر. اقرأه الآن..... إليكم تعليقات عدة أشخاص على النص نفسه بطرق مختلفة. يقول الشخص الأول: (هذا هراء.

كان الإنسان البدائي قاصراً عقلياً ، ولم يكن يدرك أن هذه الوسائل عبثية لا طائل منها.) ويقول الشخص الثاني:(نعم! مامن قرية إلا وأرسلنا إليها نذيرا. من آدم إلى يومنا هذا لابد أن كل إنسان قد بُلِّغ كيف يعبد ربه ويصل إليه بطرق شتى اختلفت من بيئة لآخرى ومن زمن لآخر.) ويقول الشخص الثالث:(إذن هكذا! مازلنا نمارس طقوساً سحرية لا جدوى منها ، لكن بطريقة مختلفة تشذَّبت وتلوَّنت مع مرور الزمن.) ويقول الشخص الرابع: (هناك شخص ذكي كان يقود الجماعة في طقسها هذا ، وربما تكرست الفكرة لديه بالممارسة المستمرة فصدَّق نفسه وقضى موقعهُ في القبيلة أن يمثل الدور بذكاء وصدق. بينما رفض شخص آخر ممارسة هذا الطقس لعبثيته، فاتُّهِم بالكفر والزندقة ، ونُبذَ من ذلك المجتمع.) وربما كان هناك آراء أخرى لأشخاص آخرين قرؤوا عن هذه العادة البدائية.

وأخيراً دعوني أوضح استخدام لفظ الجلالة (الله) في اللغة الإنكليزية. هناك كلمة god وتبدأ بالحرف اللاتيني الصغير وتعني أحد الآلهة الكُثُر في الأساطير وجمعها (آلهة). أما كلمة goddess وتعني أنثى الإله وسميناها إلهة أو إلاهة وجمعها إلاهات وهي واحدة من الإلاهات الكثيرات في الأساطير. أما كلمة God بالحرف اللاتيني الكبير، فترجمناها (الله)، وذكرناها بهذا الشكل كما وردت في النص الإنكليزي دون التدخل بالزمن الذي اختاره فرايزر ليعني الله الواحد.

أتمنى أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا الكتاب حتى ينال استحسانكم. وإلى اللقاء في كتاب آخر

نايف الخوص

2010/10/10

مقدمـــة

ان الهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو السؤال التالي: ما هو المبدأ الذي نظّم انتقال قدّيسيّة ديانا في أريسيا؟ عندما وطدت نفسي للإجابة على هذا السؤال منذ أكثر من ثلاثين سنة اعتقدت أنه سيكون جواباً قصيراً. ولكن سرعان ما اكتشفت - كي يكون جواباً واضحاً - أنه من الضروري البحث في قضايا أشمل لم يتم الخوض فيها سابقاً. وفي طبعات متلاحقة احتل هذا السؤال وأسئلة أخرى مشابهة حيّزا أكبر وتفرعت التساؤلات في اتجاهات عدة أصبح فيها المجلدان اثني عشر مجلداً. هذا بالإضافة إلى تمنيات البعض في إصدار شكل أدق. وما هذا المختصر إلا محاولة لتلبية تلك الرغبة ولجعل هذا العمل أكثر انتشاراً ليشمل دائرة أوسع من القراء. وعند الاختصار الكبير الذي أُجري على النسخة الأصلية حاولت جاهداً الإبقاء على المبادئ الرئيسة فيه مع عدد وافر من الأدلة التي تشرح تلك المبادئ بوضوح. وبرغم العرض المركّز أحيانا كان لابد من الإبقاء على اللغة الأصلية. وللإبقاء على أكبر قدر من النص الأصلي تم الاستغناء عن الملاحظات ومراجعها. وعلى القارئ الذي يود التأكد من مرجع أي عبارة أن يعود الى العمل الأوسع الموثق والمزود بالمراجع كاملةً.

لم أضف في هذا المختصر مادة جديدة ولم أبدّل بآراء الطبعة الماضية لأن الأدلة وحسب معرفتي تخدم إما في التأكيد على النتائج السابقة أو تؤدي دور الأمثلة الحية التي تشرح تلك المبادئ. نطرح هنا مسألة إعدام الملك كمثال: تشير الأدلة جميعها إلى تزايد انتشار عادة إعدام الملك سواء كان هذا الإعدام عند آخر مدة معينة أو بسبب ضعفه الجسماني. وهناك مثال واضح على هذا النوع من المَلَكيّة المحدودة وهو مملكة الخزر في جنوب روسيا حيث يُعدم الملك عند انتهاء فترته المحددة سلفاً أوعند حدوث كارثة عامة مثل القحط أو المجاعة أوالهزيمة في الحرب، كلها أشياء

تدل على إخفاق قدراته الطبيعية. لقد سيق الدليل على الإعدام المنتظم لملوك الخزر من تقارير الرحالة العرب القدامى والتي جمعتها بنفسي من مكان آخر. وقدَّمت أفريقيا عدة أمثلة حية عن ممارسة مشابهة لقتل الملك. ربما كان من أَميز هذه الأمثلة العادة المتبعة سابقاً في بونيرو، إذ يتم اختيار شخص أشبه بالملك من سلالة معينة ويجسِّد هذا الشبيه الملك السابق ويعيش مع أرملاته في مقبرته ضمن المعبد ثم يُخنق بعد أسبوع. تُوازي هذه العادة تماماً الاحتفال البابلي القديم ساكايا والذي يُلبَس فيه شبيهُ الملك الرداء الملكي ويُسمح له بالتمتع بعشيرات الملك الفعليات، وبعد خمسة أيام يُعرّى، ويُجلد ثم يُقتل. والجدير بالذكر أن هذا المهرجان ورد في كتابات مسمارية، ما يعزز التفسير الذي ذكرته عن مهرجان السنه الجديدة وهو استمرار لمهرجان بيوريم اليهودي. وهناك أمثلة أخرى كُشِفت مؤخراً توازي الملوك الكهنوتيين في أريسيا، وهم ملوك وكهنة أفريقيون جرت عادة قتلهم بعد مضيّ خمس أو سبع سنوات بعد تعرضهم لهجوم من قبل رجل قوي يحل محلهم في الكِهانة أو الملكية.

اعتماداً على الأمثلة وغيرها لا يمكننا اعتبار تناقل كِهانة ديانا في أريسيا شيئا استثنائياً؛ بل يتأكد مبدأ الانتقال عندما نرى انتشار هذا العرف الواسع في أفريقيا. ولا أجرؤ على التحدث عما تشير إليه الحقائق عن تأثير قديم من أفريقيا على إيطاليا أو حتى إلى وجود سكان أفريقيين في جنوب أوروبا. فالعلاقات التاريخية منذ ما قبل التاريخ بين القارتين مازالت غامضة وقيد البحث.

سنترك الحكم على صحة هذا العُرف الى المستقبل وسأبقى مستعداً للتخلي عنه حالما يأتي اقتراحٌ أفضل منه. وفي الوقت نفسه أرغب في الاحتراس من سوء فهم هدف هذا الكتاب عندما أتركه لحكم العامة الذين يميلون إلى هذا الفهم الخاطئ رغم أني حاولت تصحيح ذلك سابقاً. وإذا ما أسهبت في شرح عبادة الأشجار في هذا العمل لم أقصد بالتأكيد المبالغة في أهميتها في تاريخ الدين بل ربما لأستخلص منها نظاماً ميثولوجياً متكاملاً. و يبقى الدافع الأكبر لكل هذا هو عجزي عن تجاهل الموضوع في محاولة تفسير مدلول حمل الكاهن للقب "ملك الغابة" والذي من إحدى مهامه الرسمية قطع الغصن – الغصن الذهبي - من شجرةٍ في الغابة المقدسة. لكني بَعيدٌ كل البعد عن اعتبار إجلال الشجرة ذا أهمية مميزة في

تطور الدين بل هو عامل ثانوي إذا ما قورن بالخوف من البشر الموتى الذي أعتبره القوة الأعظم في نشأة الدين البدائي. أتمنى بعد هذا التنصل الصريح ألاّ أُجَازَى بدفع غرامة اعتناقي لنظام ميثولوجي أنظر إليه على أنه خاطئ وعبثي ومناف للعقل. لكني على معرفة وثيقة بعُدّار الذنوب الخرافي الذي ما إن تقطع له رأساً حتى يدهمك الآخر أو ينبت الرأس ذاته من جديد. كلي ثقة بحيادية القرّاء وذكائهم اللذان يشذّبان من سوء فهمه معتمدين على إعلاني الصريح هذا.

جـ فرايزر

الفصل الأول
ملك الغـــابة

1ـ ديانا و فيربيوس

من ذا الذي لايعرف لوحة تورنر " الغصن الذهبي "؟ يغمر المشهد توهج الخيال الذهبي الذي يسبر فيه تورنر بعقله الديني أجمل المناظر الطبيعية ويغيِّر في مظهرها كي تصبح رؤية بحيرة الغابة الصغيرة "نيمي" كالحلم ـ مرآة ديانا كما سمَّاها القدامى. لم ير أحدٌ تلك المياه الهادئة المُحتَضَنَة في أعماق الهضاب الألبانية الخضراء واستطاع أن ينساها. أما الغابتان اللتان تغفوان على ضفافها والقصر الإيطالي الذي تمتد حدائقه على المنحدر لتصل إليها بالكاد يشوشان هدوء المشهد أو عزلته. وربما ماتزال ديانا نفسها مستمرة على هذا الشاطئ المنعزل وتسكن هذه الغابة الطبيعية.

في التاريخ القديم كان هذا المشهد موقعاً لمأساة غريبة ومتكررة. على شاطئ البحيرة الشمالي، مباشرةً تحت المنحدر الصخري الشاهق الذي تسكنه القرية الحديثة" نيمي" بأمان كانت الغيضة المقدسة ومقام "ديانا الغابة". كانت تعرف البحيرة والغيضة باسم "أيك أريسيا". لكن أريسيا واسمها المعاصر "ريتشيا" كانت على بعد ثلاثة أميال على سفح جبل " ألبان" وتتفصل عنه بمنحدر شديد عن البحيرة التي تقع على فتحة تشبه الفوهة البركانية على سفح الجبل. في هذه الغيضة المقدسة هناك حلقة من الأشجار ترى فيها شخصاً فظيعاً يترصد فريسته في أي وقت من النهار وربما ليلاً ايضاً. يحمل في يده سيفاً مسلولاً ويبقى متحفزاً للقتال، ينظر حوله وكأنه يتوقع انقضاض العدو عليه في أية لحظة. إنه قاتلٌ وكاهنٌ والشخص الذي يتمكن من النظر إليه سيقتله عاجلاً أم آجلاً ويحل محله فيصبح هو الكاهن. تلك كانت القاعدة في المقام. لا ينجح أي مرشح للكِهانة إلا بذبح الكاهن وعندها سيبقى هو الكاهن حتى يتمكّن من قتله من يفوقه قوةً وحِرفةً.

المنصب الذي يشغله في هذه الفترة الخطيرة يمنحه لقب الملك؛ لكن ما من رأس يعشش فيه القلق أو تزوره الأحلام الشريرة أكثر من الرأس الذي يحمل ذلك التاج. سنة تمضي وأخرى تأتي، في الصيف والشتاء، في الطقس السيء والجميل، يبقى الملك مضطراً للمراقبة وحده، وعندما يغلبه النعاس يعرِّض حياته للخطر. أقل ما يمكن من الاسترخاء بعد السهر، وأدنى وهن في قوة أطرافه أو أي ضعف في مهارته الدفاعية تعرِّضه لخطر الدمار وربما ينذر شعرُه الأشيب بصلاحية قتله. بَعَثَ منظره العتمة في نفوس للحجاج التُّقاة فدخل إلى المشهد الجميل وكأنه غيمة مُغمَّة في يوم مشمس. تبدو سماء إيطاليا الزرقاء الحالمة متناغمة مع تموجات الغابة وبريق الأمواج تحت أشعة الشمس، لكن كل هذا يتشوه بمنظره القاسي المنذر بالشر. نحن نبني هذه الصورة لأنفسنا كما شاهدها مسافرٌ حديث العهد في إحدى ليالي الخريف الوحشية حين تكدست أوراق الخريف المتساقطة بينما كانت الريح تغني على وقع موسيقا جنائزية تنعي السنة الميتة. إنها صورة محزنة مع موسيقا كئيبة على أرضية الغابة التي تُظهر السواد والتموج ومن ورائها السماء الواطئة والعاصفة، أما الرياح فتطلق تنهداتها في الأغصان، وتتوشوش الأوراق الذابلة تحت الأقدام، وتتداخل موجات المياه الباردة على الشاطئ وتخطو جيئة وذهاباً بالقرب منه، ومع الغسق تارةً وتارةً في الظلمة يظهر شخص أسود مُطلِقاً طقطقة الفولاذ على كتفه عندما يظهر القمر الشاحب راكباً على قزع السحب يحدق فيه من بين الأغصان التي فقدت بريقها.

ليس لهذه القاعدة الكهنوتية ما يوازيها في التاريخ القديم، ولا يمكن تفسيرها على أساسه. ولكي نجد تفسيراً لها علينا الغوص أعمق ميدانياً. ولا أظن أن أحداً ينكر ما تحتويه هذه العادة من نكهة العصر البربري وتبدو في بقائها حتى الآن وبعزلتها الفاضحة في مجتمع إيطالي مهذب مثل صخرة أزلية بارزة وسط ممر مكسو بالعشب الناعم المشذب. إنها البساطة ذاتها والبربرية التي تبعث الأمل في شرح أسباب هذه العادة. لأن بحوثاً حديثة العهد في التاريخ القديم كشفت عن التشابه الجوهري – مع وجود فروق سطحية كثيرة - الذي بنى عليه العقل البشري أول فلسفة بسيطة عن الحياة. بناءً على ذلك، إذا استطعنا أن نثبت وجود العادة البربرية - مثل الكِهانة في نيمي - في مكان آخر، وإذا ما استطعنا أن نكشف عن

الدوافع التي قادت الى هذا العُرف، وإذا ما استطعنا أن نثبت فعالية هذه الدوافع السليقية في المجتمع الإنساني التي أَنتجت في ظروف مختلفة العديدَ من الأعراف المختلفة في خصوصياتها والمتشابهة في أسسها العامة؛ وإذا ما عرفنا أخيراً أن هذه الدوافع مع ما نتج عنها من أعراف كانت معمولاً بها فعلاً في التاريخ القديم؛ فلابد لنا أن نستنتج أنه في عهد أعمق شكلت الدوافع ذاتها ولادة الكهانة في نيمي. ولا يصل هذا الاستنتاج البعيد عن الدليل المباشر على كيفية ظهور الكهانة، لا يصل إلى حد البرهان. لكنه ربما كان ممكناً بحسب درجة الكمال التي معها تكتمل الشروط التي ذكرتها تواً. يهدف هذا الكتاب إلى تجميع هذه الشروط لتقديم تفسير كاف للكهانة في نيمي.

أبدأ بتقديم بعض الحقائق والأساطير التي وردتنا عن هذا الموضوع. حسب إحدى الروايات، بدأت عادة عبادة ديانا في نيمي بعد أن قتل أوريستيس ملكَ القرم ثواس، وهرب مع أخته إلى إيطاليا، جالباً معه صورة ديانا في تاوريك مُخبَّأةً في حزمة من الحطب. و بعد موته نُقِلت عظامه من أريسيا إلى روما ودُفِنت أمام معبد زحل، في منحدر كابيتولاين بجانب معبد كونكورد. أما الطقس الأحمق الذي تُنسب أسطورته إلى ديانا تاوريك هو معروف لدى القارئ الكلاسيكي؛ ويُقال أن كل غريب يحط على الشاطئ كان يُذبح عند مذبحها. لكن ذلك الطقس أخذ شكلاً ألطف عندما انتقل إلى إيطاليا. هناك ضمن المقام في نيمي شجرة معينة لايمكن كسر أي غصن منها إلاّ من قبل عبدٍ فارٍّ يكسر واحداً فقط. ويمكّنُه نجاحه في ذلك من منازلة الكاهن لجولة واحدة وإذا ما غلبه يحل محله ويأخذ لقب ملك الغابة. وحسب الرأي العام في الأمبراطورية الرومانية القديمة كان هذا الفرع المشؤوم هو الغصن الذهبي الذي – وهو في إمرة سيبيل – اقتلعه إينياس قبل أن يجري رحلته الخطيرة إلى عالم الأموات. يُقال أن هروب العبد يمثل هروب أوريستيز، أما صراعه مع الكاهن فهو ذكرى للأضاحي التي كانت تُقدَّم يوماً الى ديانا تاوريك. ظل مبدأ استخدام السيف هذا في تناقل الكهانة سارياً حتى العهد الأمبراطوري؛ ومن بين غرائب كاليغولا أنه ـ معتبراً كاهن نيمي قد طال بقاؤه في منصبه ـ استأجر رجلاً أكثر بأساً وقوة منه ليقتله. كما أشار أحد المسافرين الإغريق الذي زار إيطاليا في عهد انطونينز أن منصب الكاهن ظل جائزة لمن ينتصر على الكاهن السابق في جولة واحدة حتى ذلك العهد.

مازلنا قادرين على تمييز بعض ملامح عبادة ديانا في نيمي حتى الآن. ويبدو من خلال العطايا التي وُجدت في الموقع أنهم فهموا ديانا على أنها صيَّادة، بالإضافة إلى أنها تمنح البركة للرجال والنساء وتسهل ولادة الحاملات على وشك الوضع. ولعبت النار الدور الأكبر في طقوسها. ففي الاحتفال السنوي الذي يقام في الثلاثين من آب أي في الوقت الأكثر قيظاً من السنة ترى أيكها يشع بالكثير من المشاعل والتي ينعكس ضوؤها الأحمر الوهاج على صفحة البحيرة؛ وظل ذلك اليوم ذا طقوس مقدسة في مواقد منازل إيطاليا في طولها وعرضها. ووُجِد الكثير من التماثيل البرونزية الصغيرة في فِنائها التي تظهر فيه ديانا كإلهة ترفع مشعلاً بيدها اليمنى. أما النساء اللواتي لبَّت ديانا دعاءهن فقد أتين متوَّجات بالأكاليل وحاملات مشاعل منيرة إلى مقامها إيفاءً للنذر. كما نذر أحدهم قنديلاً منيراً دائماً في مزار صغير في نيمي لسلامة الأمبراطور كلوديوس وعائلته. أما المصابيح الفخارية التي وُجدت في المزار فتخدم الغرض نفسه لأناس أكثر تواضعاً. وهنا يصبح نَذْرُ إنارة القناديل ـ كممارسة كاثوليكية في الكنائس ـ واضحاً كعادة مماثلة. كما يشير لقب ديانا ـ فيستا ـ بوضوح إلى الحفاظ على النار المقدسة إلى الأبد. هناك قاعدة دائرية مرتفعة في الركن الشمالي الشرقي من المعبد فوق ثلاث درجات وعليه آثار رصف من الفسيفساء ربما كان داعماً لمعبد ديانا الدائري كربَّة النار مثل معبد فيستا الدائري في السوق الروماني. يبدو أن النار المقدسة كانت تُرعَى هنا من قِبل عذراوات فيستا لأنه وُجِد رأس لإحداهن في ذلك المكان وكانت النار الدائمة تُعبَد وتُرعى من قِبل خادمات مقدسات من أقدم العصور إلى أحدثها في لاتيوم. وفي الاحتفال السنوي للإلهة جرت عادة تتويج كلاب الصيد والامتناع عن إزعاج الوحوش كما كان الناس يذهبون في طقوس تطهيرية على شرفها ويُحضَّر الخمر ويُحتفل بكعك الأطفال الذي كان يُقدَّم ساخناً على صحون من أوراق الشجر وتفاح يُعلَّق على شكل عناقيد على الغصون.

لم تتولَّ ديانا السلطة وحدها بل شاركها في ذلك إلهتان أقل منها شأناً في حَرَمِها في الغابة. إحدى هاتين الإلهتين هي إجيريا حورية الماء العذب التي تخرج من الصخور البازلتية وتسقط مع الشلالات الرشيقة لتهبط في بحيرة تُدعَى لو مولو، هنا أُقيمت طواحين قرية نيمي المعاصرة. وذكر أوفيد خرير المياه على حصى الجدول

الذي كثيراً ما شرب من مائه. اعتادت الحاملات أن يضحِّين لأجل إجيريا لأنها مثل ديانا كانت تسهل عملية الولادة. وجرى التقليد أن الحورية هي زوجة أو عشيرة الملك الحكيم نوما الذي تزوجها سراً في الأيك المقدس أما القوانين التي منحها للرومان فهي من وحي تبادله الفكري مع أُلوهيتها. يقارن بلوتارش هذه الملحمة بقصص الحب بين الإلهات والرجال الفانين مثل حب سيبيل والقمر للشابين الجميلين آتيس وإنديميون. وحسب بعض الروايات لم يكن مكان لقاء الأحبة في غابات نيمي بل في إيكٍ خارج بورتا كابينا في روما حيث تدفق من كهف مظلم نبع آخر لإجيريا. في كل يوم اعتادت عذراوات فيستا الرومانية إحضار الماء في أباريق خزف على رؤوسهن من هذا النبع لتنظيف معبد فيستا. في عهد جوفينال تم تغليف الصخرة بالرخام ودُنِّس المكان المقدس في الأيك من قبل عصابات اليهود الفقراء الذين كانوا يبحثون عن أرض مثل الغجر. يمكن أن يكون النبع الصاب في بحيرة نيمي هو إجيريا الحقيقية والأصلية وعندما استقر أول المنتقلين في هضاب ألبان على ضفاف تايير جلبوا معهم الحورية ووجدوا وطناً جديداً لها في أيكٍ خارج البوابات. وخلال ما تبقى من الحمامات التي اكتُشِفت في فِنائه والتماثيل الكثيرة التي كانت تمثل الجسم البشري يتبين لنا أن مياه إجيريا كانت تُستَخدم لشفاء المرضى الذين ربما عبَّروا عن آمالهم تارة وعرفانهم تارة في نَذْرِ تماثيل تشبِّه مرضهم في أعضاء الإلهة وفقاً للعادة الجارية في الكثير من أنحاء أوروبا. و يبدو أن النبع مازال يحتفظ بمنافع طبية حتى يومنا هذا.

كان فيربيوس من بين المعبودات الثانوية في نيمي. تقول الأسطورة أن فيربيوس ذلك البطل الإغريقي الشاب الوسيم والعفيف الذي تعلم فن الصيد من القنطور تشيرون وأمضى معظم وقته في الغابة الخضراء يطارد الوحوش مع صديقته الوحيدة الصيادة العذراء آرتيميس ـ وهي مثيلة ديانا عند الإغريق. كان يدعوه فخرُه بها الى احتقار حُبِّ جميع النساء وهذا ما أدى إلى هلاكه؛ لأن أفروديت شعرت بالذل فحرَّضت زوجة أبيها فايدرا على حبِّه. وعندما احتقر مبادرتها اشتكته لأبيه ثيسيوس كذباً. صدق الأب هذا التجني و توسل لوليِّه بوسيدون أن ينتقم له على خطئه المزعوم. وبينما كان هيبولايتس يسوق عربته على شاطئ سارونيك أرسل إلهُ البحر ثوراً شرساً خرج من بين الأمواج. جفلت أحصنة العربة ورمت بهيبولايتس عن

العربة وجرَّته بين حوافرها إلى حتفه. لكن المُحبَّة ديانا حملت هيبولايتس وأقنعت الطبيب ايسكولابيوس أن يعيد صيادها الشاب الجميل إلى الحياة مستخدماً أدويته العشبية. سخط جوبيتر لعودة إنسانٍ فانٍ من بوابات الموت وقذف بالطبيب لهيدز لتَدَخُّله في ما لا يعنيه. لكن ديانا خبَّأت حبيبها عن الإلهة الغاضبة في غيمة سميكة وغيرت في هيئته كي يبدو أكبر من عمره بسنين ثم حملته بعيداً إلى وهاد نيمي ووضعته في عُهدة الحورية إجيريا ليعيش هناك وحيداً مغموراً تحت اسم فيربيوس في أعماق غابات إيطاليا. هناك صار ملكاً وهناك خَصص فِناءً لديانا. أنجب ولداً وسيماً ـ أسماه فيربيوس ـ لم يستكِن كوالده بل قاد جماعة بجيادٍ نارية وانضم إلى اللاتينيين في حربهم ضد آنياس والطرواديين. لم يُعبَد فيربيوس في نيمي فقط بل في أمكنة أخرى لأنه حسبما سمعنا أن كاهناً كرَّس نفسه لخدمته في كامبانيا. كانت الجياد تُستبَعد من أيك آريسيا لأنها هيَ التي قتلت هيبولايتس؛ فمن غير الشرعي تشويه صورته. اعتقد بعضهم أنه الشمس، لكن الحقيقة ـ كما قال سيرفيوس – هو إله مرتبط بديانا كارتباط آتيس بأم الآلهة، وإركثونيوس بمينيرفا، و أدونيس بفينوس. ربما تساءلنا على الفور عن طبيعة هذا الإرتباط. لابد من لفت النظر إلى أنه خلال أعمال كثيرة قام بها وأثبت قدرة كبيرة في الحياة. وليس لنا أن نشك أن القديس هيبولايتس في اللائحة الرومانية ـ والذي جرَّته الجياد في الثالث عشر من آب، يوم ديانا الخاص ـ هو البطل الإغريقي ذاته تحت الاسم نفسه والذي بعد أن مات مرتين على يد همجٍ آثمين عاد الى الحياة سعيداً كقديس مسيحي.

بعد هذه القصص لم نعد بحاجة إلى أدلّة أن عبادة ديانا في نيمي خالية من مغزى تاريخي. ومن الواضح أنها قصص تنتمي إلى تلك المجموعة الهائلة من الأساطير التي حيكَت لتفسر أصل الطقوس الدينية وليس لها أساس سوى تشابهها، حقيقيةً كان أم خيالية، الذي يمكن تتبعه آثاره بين بعض الطقوس الأجنبية. إن التناقض بين أساطير نيمي هذه هو بالفعل تناقض شفاف لأن أساس العبادة يعود تارة إلى أوريستيس وتارة إلى هيبولايتس. إن كان هذا أم ذاك، لابد من التحقيق في ميزات الطقس. فالقيمة الحقيقية لهذه الروايات هي في شرحها لطبيعة العبادة خلال تقديمها نموذجاً للمقارنة أولاً، وأنها تحمل شاهداً غير مباشر للعصر المهيب بإبرازها

ضياع الأصل الحقيقي في سديم القِدَم الخرافي ثانياً. بناءً على الاعتبار الأخير، ربما تشكل أساطير نيمي موثوقية أكبر من التقاليد التاريخية الظاهرة. شهد على ذلك كاتو الأكبر الذي قال أن الأيك المقدس قد خُصِّص لديانا من قبل إجيريوس بايبيوس أو لانوفيوم المستبد من لورينتوم لمصلحة أهالي تسكولوم، آريسيا، لانوفيوم، لورينتوم، كورا، تيبور، بوميتا وآرديا. يشهد هذا التقليد على العصر العظيم للمقام كونه يعود إلى ما قبل 495 ق.م السنة التي فيها صُرِفَ بوميتيا عن العمل من قبل الرومان واختفى من التاريخ. ولا نستطيع الاعتقاد أن هذه القاعدة البربرية في كهانة آريسيا قد تم اعتمادها من قبل اتحاد مجتمعات متحضرة مثل المدن اللاتينية. لابد أنها انحدرت من زمن يعود إلى ما قبل الذاكرة البشرية عندما كانت إيطاليا في حالة همجية أكثر مما نعرفه في الفترة التاريخية. ويتزعزع التقليد أكثر مما يُثبَت عندما نعزو تأسيس المقام لشخص معين مثل مانيوس إجيريوس الذي قال: " هناك عدة مانيوسيين في آريسيا". يؤيد هذا القول الأشبه بالمثل الشائع الزعم القائل أن مانيوس إجيريوس سلف لسلالة طويلة متميزة، في حين يعتقد البعض أنه يعني وجود الكثير من المشوهين في آريسيا، واشتقوا كلمة مانيوس من مانيا والتي تعني (بعبع) المستخدمة في إخافة الأطفال. استخدم الناقد الروماني الاسم مانيوس لوصف الشحّاذين الذين يستلقون منتظرين الحجاج في منحدر آريسيا. هذا التعارض في الرأي بين مانيوس إجيريوس من آريسيا وإجيريوس لايفيوس من تسكالوم بالإضافة الى تشابه كلا الاسمين الأُسطوريين إجيريا يثير الريبة. يبدو التقليد كما دوَّنه كاتو عرضياً، ويبدو صاحبه محترماً أكثر مما يسمح لنا أن نرمي بافتراضه على أنه محض خيال قاصر. بل يمكن اعتباره تجديداً وإعادة بناء للمقام. على أي حال يبين هذا الاعتقاد أن الأيك كان مكاناً عاماً للعبادة للكثير من أقدم المدن في البلد إن لم يكن لجميع الاتحاد اللاتيني.

2 – أرتيميس وهيبولايتس

كما أسلفت ليس لأساطير أوريستيس و هيبولايتس في آريسيا أية قيمة تاريخية لكنها بالتأكيد تساعدنا في فهم العبادة في نيمي من خلال مقارنتها مع الطقوس والأساطير في المقامات الأخرى. السؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا ركّز مؤلف هذه الأساطير على أوريستس و هيبولايتس ليعلّل وجود فيربيوس وملك الغابة؟ أما بالنسبة لأوريستس فالجواب واضح. هو وصورة ديانا تاوريك التي لاتشبع إلاّ بالدم البشري ليسا إلاّ توضيحاً جلياً للأساس الإجرامي لتناقل الكِهانة في آريسيا. أما بالنسبة لهيبولايتس ليست الحالة واضحة تماماً. فطريقة موته توحي بسببٍ كافٍ لاستبعاد الجياد عن الأيك؛ لكن لايكفي كدليل لتحديد هويته. علينا ان نذهب أعمق من خلال التمحص في العبادة بالإضافة إلى أسطورة هيبولايتس.

كان لهيبولايتس مقام في وطن أسلافه ترويزن. وكان هذا المقام في مكان جميل على خليج شبه محاط باليابسة حيث بساتين الليمون والبرتقال وأشجار السرو الطويلة التي تحلق عالياً مثل الرماح فوق بساتين هيسبيرايدز وهي الآن تغطي القطاع بشاطئ خصيب على سفوح الجبال الوعرة. وخلف مياه الخليج الهادئة تظهر جزيرة بوسيدون المقدسة التي تحمي الخليج من البحر المفتوح وتختفي قممها تحت عتمة النخيل الأخضر. هنا على هذا الشاطئ الجميل كان يُعبَد هيبولايتس. في مقامه معبد على صورته القديمة ويقوم على خدمته كاهن أخذ على عاتقه الخدمة طوال حياته. في كل سنة كانت تُقَام على شرفه مهرجانات الأضاحي، وعلى موته المبكر يقام العزاء بالبكاء والتاويح الحزينة من قبل صبايا أبكار. وينذر الشباب والصبايا لمعبده خصلاً من شعرهم قبل زواجهم. رغم أن الناس لايظهرون ذلك، كان ضريحه في ترويزن ومن المرجح جداً أنه موجود في هيبولايتس الوسيم، وعشيق آرتيمس، والذي قُصِف عمره في ريعانه، والذي تنعيه الصبايا، فيه عشيق فانٍ لإلهة ظهرت كثيراً في الدين القديم والذي يشكل أدونيس أشهر نموذج لها. تكرر تنافس آرتيمس وفايدرا على حب هيبولايتس تحت عدة أسماء: تنافس أفرديت و برسبراين على حب أدونيس؛ إذ يشكل فيادرا نسخة مكررة عن أفروديت. فالنظرية هذه لم تظلم هيبولايتس أو آرتيمس لأن آرتيمس هي أصلاً إلهة الخصب، وحسب مبادئ الدين القديم، على التي تخصِّب الطبيعة أن تكون هي نفسها خصبة. وبالتالي لابد

أن يكون لها زوج. بناءً على هذه النظرة كان هيبولايتس زوجاً لآرتيمس في ترويزن، وما قُدِّمت له خصل الشعر المقصوصة من قبل الشباب والبكارى قبل زواجهن إلاَّ لتقوية الرباط مع الإلهة ولرفع إثمارية الأرض والماشية والبشر. وما يؤكِّد ثانية على هذه النظرة هو عبادة قوتين أنثويتين باسم داميا وأوكسيسيا المرتبطتين بعلاقة أكيدة بخصب الأرض. وعندما عانت إبيداوروس من الشح لجأ الناس طاعةً لإله الحكمة إلى حفر صورة لداميا وأوكسيسيا على خشب الزيتون المقدس. ولم يستطيعوا إنجاز هذا العمل قبل إعطاء الأرض ثمارها الجديدة. وكان يُقام مهرجان لرمي الحجارة على شرف أولئك الصبايا العذراوات في مقام هيبولايتس في ترويزن. ومن السهل التحقق من ممارسة عادات مماثلة في أنحاء كثيرة من العالم للتعبير عن تأمين المحصول الجيد. ونستطيع تلمُّس قصة الموت المأساوي للشاب هيبولايتس في قصص مماثلة لشباب جميلين آخرين دفعوا حياتهم ثمناً لنشوة عابرة في حبهم لإلهة أزلية. لم يكن هؤلاء العشاق التعيسون مجرد أساطير، والحكاياتت التي تتبعت دمهم المسفوك في أزهار البنفسج الداكنة واللون القرمزي في شقائق النعمان واحمرار الورود إنما تدل بشاعرية على الشباب والجمال اللذين سرعان مايزولان مع أزهار الصيف. في هذه الحكايات فلسفة أعمق عن علاقة حياة الإنسان مع حياة الطبيعة، فلسفة نجم عنها ممارسات مأساوية. وسنناقش لاحقاً تلك الفلسفة وتلك الممارسات.

3ـ إعادة مختصرة

ربما أدركنا لماذا ربط الأوائل هيبولايتس، زوج لآرتيمس بفيربيوس الذي– على حد قول سيرفيوس ـ ارتبط بديانا وأدونيس بفينوس أو آتيس بأم الآلهة. لأن ديانا أو آرتيميس كانت إلهة الخصب بشكل عام ولولادة الأطفال بشكل خاص. فهي كمثيلتها الإغريقية بحاجة إلى عشير ذكر. وإذا كان سيرفيوس مصيباً، كان شريكها هذا هو فيربيوس. في شخصه كمؤسس للأيك المقدس وكأول ملك في نيمي، من الواضح أن فيربيوس هو السلف الأصلي الأسطوري لسلالة الكهنة الذين خدموا ديانا تحت لقب ملك الغابة. والذين انتهوا نهاية عنيفة مثله. من الطبيعي إذاً أن يقيموا علاقة مع إلهة الأيك مثل علاقة فيربيوس معها أو باختصار، علاقة الملوك

الفانين مع ملكة الغابة ديانا نفسها. وإذا كانت الشجرة التي يحرسها بروحه هي تجسيداً لها بالذات، لم يعبدها الكاهن كإلهة فقط بل يعانقها كزوجته. ليس في هذا الافتراض أي عبثية والدليل أنه حتى في عهد بليني كان أحد نبلاء الرومان يتمتع بشجرة زان جميلة في أيك مقدس آخر لديانا على تلال ألبان؛ إذ كان يعانقها ويقبلها ويستلقي في ظلها ويصب الخمر على جذعها. من الواضح أنه اعتبر الشجرة إلهة. وإذا كانت عادة زواج الرجال من الأشجار سارية في الهند و بعض أنحاء الشرق حتى الآن، فما الذي يمنع ممارسة هذه العادة في لاتيوم القديمة.

اعتماداً على هذه الأدلة كلها نتوصل إلى النتيجة التالية: تنضوي عبادة ديانا في أيكها المقدس في نيمي على أهمية كبيرة وقِدَمٍ أعمق من الذاكرة لدرجة أنها تُقَدَّس كإلهة الغابات والوحوش وربما الماشية الأليفة وفواكه الأرض؛ وأنها تبارك الرجال والنساء في ذريتهم وتساعد الأمهات في ولادتهن. لهذا السبب تُوقَد النار المقدسة بشكل دائم حول المعبد ضمن الفِناء ويقوم على خدمة تلك النار عذراوات عفيفات؛ ويرتبط فيها أيضاً حورية الماء إجيريا التي أعفَت ديانا من أحد وظائفها الخاصة وهي إغاثة النساء في مخاضهن والتي شاع عنها ارتباطها بأحد ملوك الأيك المقدس، بالإضافة إلى أن ديانا نفسها كان لها صاحبها فيربيوس الذي كان بالنسبة لها ما كان أدونيس لفينوس وآتيس لسيبيل وأخيراً كان يُمَثِّل فيربيوس في العصور التاريخية في سلالة الكهنة المعروفين بملوك الغابة والذين ماتوا جميعهم بالسيف بشكل منتظم على أيدي خلفائهم والذين ارتبطت حياة كلٍ منهم بشجرة معينة بالأيك مابقيت هذه الشجرة سليمة لم يلحقها الأذى ظل في مأمن من الهجوم.

من الواضح أن هذه النتائج التي توصلنا إليها لا تكفي بحد ذاتها لتفسير مبدأ تعاقب الكِهانة الخاص، لكنها تحقيق في مجالٍ سيقودنا للاعتقاد أنها تحتوي على أول الخيط لحل المسألة. علينا هنا أن نتَّجه نحو تحقيق أوسع، طويل وشاق، لكن فيه الكثير من متعة وسحر الرحلة البحرية التي نزور من خلالها الكثير من البلاد الأجنبية الغريبة وما فيها من شعوب غريبة وعادات أغرب. الرياح تعصف بالصاري، فلننفض أشرعتنا و نترك الساحل الإيطالي خلفنا لبعض الوقت.

الفصل الثاني
المــلوك الكهنة

بدأنا بالإجابة عن سؤالين أولهما: لماذا كان على كاهن ديانا في نيمي أو ملك الغابة أن يذبح سلفه؟ والثاني: لماذا عليه ان يكسر غصناً من شجرة معينة والذي كان برأي العامة وحسب الشاعر الروماني فيرجيل **الغصن الذهبي**؟ أما السؤال الذي سنسارع للإجابة عليه هو لقب ذلك الكاهن، أي لماذا يُسمَّى ملك الغابة؟ ولماذا يُكَنَّى منصبه بالمَلَكية؟

كان الإرتباط بين اللقب الملكي والواجبات الكهنوتية شائعاً في إيطاليا واليونان. ففي روما والمدن الأخرى في لاتيوم كان يُسمَّى الكاهن **ملك الأضاحي** أي ملك طقوس الأضاحي. كما كانت زوجته تحمل لقب **ملكة الطقوس المقدسة**. وفي جمهورية أثينا كان قائد القدّاس السنوي الثاني يدعى الملك وتدعى زوجته الملكة، بينما كانا يقومان بمهمة دينية. وكان للكثير من الجمهوريات الأغريقية الأخرى ملكاً إسمياً مهمته كهنوتية يتمركز عمله حول النار العامة للدولة. وكان لبعض هذه الدول الإغريقية عدة ملوك اسميين قاموا بأعمالهم في آنٍ معاً. كما جرت العادة في روما أن يُعَيَّن ملك الأضاحي بعد عزل الملك لكي يقدِّم الأضحية التي كان يقدمها الملك السابق. وهناك نظرة مماثلة سادت في اليونان عن نشأة الملوك الكهنة. الرأي بحد ذاته ممكن، وما يثبت ذلك هو إسبارطة كدولة وحيدة تقريباً حافظت على الشكل الملكي للحكومة في العصور التاريخية. ففي إسبارطة قُدِّمَت جميع أضاحي الدولة من قبل الملوك لأنهم ينحدرون من الآلهة. واحتل أحد ملوك إسبارطة كِهانة زيوس إسبارطة والآخر احتل كِهانة زيوس السماء. هذا الجمع بين الوظائف الكهنوتية والسلطة الملكية معروف لدى الجميع. ففي أقصى آسيا، تركيا تقريبا، كان هناك مدن كبيرة لكبار رجال الدين مأهولة بآلاف العبيد المقدَّسين

يحكمهم أحبار متمرسون بالسلطة الدنيوية واللاهوتية مثل البابوات في روما العصور الوسطى. من هذه المدن كانت زيلا وبيسينوس. وكان ملوك الطيطون (الألمان) في العهد الوثني يحتلون منصب الملك بالإضافة إلى ممارستهم صلاحيات كبير الكهان. أما أباطرة الصين فكانوا يقدِّمون الأضاحي العامة بطقوس وفق أصول دقيقة. وكان ملك مدغشقر يتربع على أعلى الهرم الكهنوتي. وفي الاحتفال الكبير بالسنة الجديدة يُضحَّى بعجلٍ لمصلحة المملكة، ويقف الملك فوق الأضحية ويقدِّم صلوات الشكر بينما كان مرافقوه يذبحون الحيوان. وفي الممالك التي تحافظ على استقلالها في شرق أفريقيا مازال الملك يضحي على قمم الجبال ويدير طقوس الأضحية البشرية. كما يكشف بصيصٌ من التقاليد عن وحدة السلطتين الروحية والدنيوية في واجباتهم الملكية والكهنوتية لدى ملوك أمريكا الوسطى الذين تميَّزت عاصمتهم بلانيك - التي دُفِنت الآن تحت الغابات المدارية - بآثارها الغامضة الجليلة.

عندما نقول أن الملوك كانوا أيضاً كهنة، لانقصد تفريغ الجانب الديني لمنصبهم من محتواه. ففي تلك الأيام لم تكن الألوهية التي تحمي الملك كلاماً فارغاً بل تعبيراً عن اعتقاد غير مسرف. لم تُبَجّل الآلهة لكونها كهنة بل لكونها وسيطاً حامياً بين الناس والآلهة وقادرة على منح رعاياها وعابديها بركات من المفترض أنها أبعد من منال الفانين ويمكن السعي وراءها فقط عبر الصلاة والأضاحي المُقدَّمة لكائنات خارقة غير مرئية. لذلك من المفترض أن من يمنح المطر وأشعة الشمس في الموسم المناسب لتجعل المحاصيل تنمو هم الملوك. قد يبدو هذا غريباً بالنسبة لنا لكنه كان شيئاً ثميناً بالنسبة لطريقة التفكير القديمة. يصعب على البدائيين التمييز بين قوى الطبيعة والقوى الخارقة للطبيعة كما تفعل الشعوب الأكثر تطوراً. بالنسبة للبدائي يعمل العالم إلى حد كبير بفعل قوى خارقة للطبيعة تحركها دوافع مثل دوافعه هو، أي معرَّضة للإثارة والشفقة على المستغيث، ويمكن تحريض آمالها ومخاوفها. في عالم مُدرَك بهذه الطريقة لايجد الإنسان حدوداً لقدرته على التأثير في مسار الطبيعة لتسخيرها لمصلحته. فالصلوات والوعود والتهديدات قد تؤمِّن الطقس الجميل والمحصول الوفير من الآلهة. وإذا ما صادف وتَجسَّد إلهٌ أحياناً في شخصه فإنه لا يعود في حاجة إلى الاستغاثة بكائن أعلى منه؛ فهو يملك بذاته كل القوى الضرورية ليعزز وجوده ووجود قومه.

يمكن فهم فكرة العلاقة بين الآلهة والانسان بهذه الطريقة. أما الطريقة الأخرى هي التاليه: مع فكرة انتشار القوى الروحية في العالم كان لدى الإنسان فكرة مختلفة ـ ربما كانت أقدم – نستطيع أن نتلمَّس منها البذرة الأولى للقانون الطبيعي المعاصر وهو اعتبار الطبيعة سلسلة أحداث تتكرر دون تغيير ودون تدخل القوى البشرية. البذرة التي أتكلّم عنها موجودة في ما يمكن أن يُسمَّى السحر التعاطفي الذي لعب دوراً كبيراً في معظم أنظمة الخرافات. في المجتمعات القديمة كان الملك غالباً هو الساحر والكاهن. بالواقع، يبدو أنه وصل إلى السلطة بفضل حنكته المفترضة في فن الخير وفن الشر. إذن لكي نفهم تطور الملكية والشخصية المقدسة التي وُظّفَ معها المنصب في عيون الشعوب البربرية الهمجية، لابد لنا من معرفة مبادئ السحر لصياغة مفهوم السيطرة غير العادية التي فرضها النظام الخرافي على العقل البشري في جميع العصور وفي جميع أنحاء العالم. لهذا أرى أن نبحث هذا الموضوع بشئ من التفصيل.

الفصل الثالث

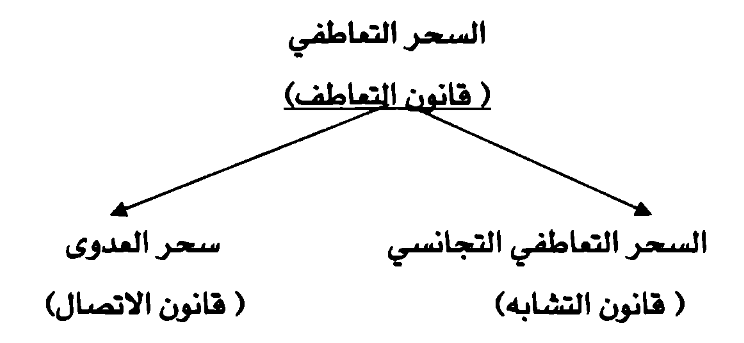
1ـ مبادئ السحر

إذا ماحللنا المبادئ التي يرتكز عليها السحر نجدها تنحصر في اثنين، الأول هو: **الشئ يأتي بمثله أو الأثر يشبه المؤثر**، والثاني: **الأشياء التي كانت يوماً متحدة تظل على صلة بعد انفصالها الفيزيائي**. يمكن أن نسمي المبدأ الأول **قانون التشابه** والثاني **قانون الانتشار أو الاتصال**. باعتماده على مبدأ التشابه يوحي لنا الساحر أنه يعطي الأثر الذي يرغبه بمجرد تقليده، وبناءً على المبدأ الثاني يستطيع الساحر أن ينزل بالشخص كل ما ينزله بشئ مادي كان يوماً على صلة به سواءً كان جزءاً من جسمه أو غير ذلك. ويمكن أن نسمي السحر المعتمد على مبدأ التشابه سحر التجانس أو سحر المحاكاة. أما السحر المعتمد على قانون الانتشار والاتصال فيمكن أن نسميه سحر العدوى. ويفضل أن ندل على السابق بعبارة التعاطف التجانسي. أما العبارة البديلة **تقليد** أو **محاكاة** فهي توحي إن لم تكن تنضوي على عامل القوة الواعية التي تحاكيها وبهذا تضيِّق مجال السحر كثيراً. يعتقد الساحر ضمناً عندما يمارس هذه المبادئ أنه ينظم عمليات الطبيعة غير الحية أو بالأحرى يفترض ضمناً أن قانونيَ التشابه والاتصال ينطبقان على جميع الأشياء و ليسا مقتصرين على النشاطات البشرية. باختصار: **السحر هو نظام زائف لقوانين الطبيعة بالإضافة إلى أنه مرشد خدّاع للسلوك؛** أو أنه علم زائف **بالإضافة إلى أنه فن جهيض.** عندما نعتبره نظام القوانين الطبيعية، أي القواعد التي تحدد تسلسل الأحداث في العالم أجمع، يمكن أن نسميه السحر النظري. وعندما نعتبره مجموعة الأسس التي يتبعها البشر لبلوغ أهدافهم يمكن أن نسميه السحر العملي. في الوقت نفسه يجب أن نحتفظ في أذهاننا بأن الساحر البدائي لايعرف من السحر إلا جانبه العملي، فهو لايحلل العملية الذهنية التي تعتمد عليها الممارسة ولا يجرِّد المبادئ التي تحدد

نشاطه. بالنسبة له، كما هو بالنسبة لغالبية الناس، المنطق ضمني وليس ظاهري فهو يُخضِع الأمور للمنطق تماماً مثلما يهضمُ الطعامَ جاهلاً تماماً للمعالجة الذهنية أو النفسية التي تشكل جوهر هذه العملية أو تلك. باختصار، السحر بالنسبة له فن دائماً وليس علم، ففكرة العلم مفقودة بالنسبة لعقله غيرالمتطور. وعلى طالب الفلسفة أن يتتبع سلسلة الأفكار التي توجِّه سلوكه، أو أن يرسم الخيوط البسيطة التي تتألف منها الكبكوبة المخربصة، أو أن يستخلص المبادئ المجردة من التطبيقات المحسوسة؛ أو باختصار أن يميز العلم الكاذب وراء الفن الزائف.

إذا كان تحليلي لمنطق الساحر صحيحاً يكون المبدآن العظيمان هما تطبيقين خاطئين لترابط الأفكار. يعتمد السحر التعاطفي التجانسي على ترابط الأفكار بالتشابه، ويعتمد سحر العدوى على ارتباط الأفكار بالاستمرارية. يخطئ السحر التعاطفي التجانسي بافتراضه أن الأشياء التي تتشابه هي متطابقة، أما خطأ سحر العدوى فهو اعتباره أن الأشياء التي كانت على اتصال ستظل على اتصال. لكن الفرعين مرتبطان عملياً؛ ـ أو لنكن أكثر دقة – يمكن ممارسة السحر التعاطفي التجانسي أو سحر المحاكاة بشكل منفصل، لكن عندما نمارس سحر العدوى نجد أنفسنا نطبق مبدأ التجانس أو المحاكاة. ويصعب علينا قليلاً الإمساك بهذين الشيئين معاً لكن الأمر سيتجلّى عندما نشرحهما بالأمثلة لأن كلا المسارين الفكريين هما في الحقيقة بسيطان كونهما معروفين بشكل محسوس، أما معرفتهما المجردة فهي سهلة على الأذكياء وصعبة على الأغبياء أينما كانوا أو على الذكاء البدائي الفج. ويمكن إدراك النوعين من السحر تحت الاسم العام: سحر التجانس، كونهما يفترضان عمل الأشياء عن بعد عن طريق التعاطف الخفي، فالباعث ينتقل من شئ إلى آخر عبر ما يمكن أن نسميه الأثير غير المرئي. تماماً كما يسلم العلم المعاصر بوجود شئ مشابه وبالتحديد عندما يفسِّر كيفية تأثيرالأشياء في بعضها بعضاً عبر فضاءٍ يبدو فارغاً.

ربما كان من المناسب أن نضع فروع السحر وقوانينه في مخطط على الشكل التالي:



و سأشرح الآن هذين الفرعين للسحر التعاطفي بالأمثلة بادئاً بالسحر التعاطفي التجانسي.

2ـ السحر التعاطفي التجانسي أو سحر المحاكاة

ربما كان التطبيق الأوسع انتشاراً لمبدأ **الشئ يعطي شبيهه** هو محاولة الكثير من الشعوب عبر الكثير من العصور إنزال الأذى أو الدمار بالعدو من خلال إنزال الأذى أو الدمار بصورته معتقدين أنه عندما تبدأ الصورة بالمعاناة يشرع صاحبها بالمعاناة نفسها وعندما تُمحَق الصورة يموت صاحبها. وتكفي القلَّة القليلة من الأمثلة لإظهار انتشار هذا السحر الواسع في جميع أنحاء العالم واستمراره الكبير عبر العصور. فمنذ آلاف السنين كان معروفاً في الهند وبابل ومصر بالإضافة إلى بلاد الإغريق وروما ، ومازال حتى هذا اليوم ملاذ الشريرين المَكَرَة في أستراليا وأفريقيا وأسكتلندة. قد بَلَغَنا أن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية يعتقدون أنه خلال رسم صورة لشخص على الرمال أوالرماد أو الصلصال أو إضمار أي شئ على أنه جسمه ومن ثم وخزه بعصا حادة أو إيذاؤه فإنهم ينزلون الأذى نفسَه في الشخص المُمَثَّل في الرسم. مثال على ذلك هو هندي من قوم أوجيبوي. عندما يرغب بإيذاء شخص ما فإنه يصنع تصويراً له على الخشب ويغرز في قلب الصورة أو رأسها إبرة أو يطلق عليها سهماً معتقداً أنه كلما يغرز الإبرة في الصورة أو يضرب السهم في جسمه المجسَّم فإن عدوه سيخضع إلى الألم الحاد نفسه في جسمه وإذا أراد أن يقتل الشخص فإنه يحرق تلك الدمية ثم يدفنها متلفظاً بكلمات سحرية. أما هنود البيرو ،

يصنعون قالباً من الشحم الممزوج بالحبوب مقلدين في شكل القالب هيئة الشخص الذي يكرهونه أو يخافونه ثم يحرقون المجسَّم على الدرب التي يتوقعون مرور الضحية فيها. ويسمون هذه العملية (حرق روحه).

وهناك سحر ماليزي من النوع نفسه. خذ قطعاً صغيرة من أظافر، شعر، أو حواجب أو بصاق شخص، أي ما يكفي لتمثيل كل جزء من جسم الضحية المقصودة، ثم تجعلها على شكله من شمع مشط نحل مهجور، وابدأ بشوي الشكل ببطء بوضعه فوق قنديلٍ أو مصباحٍ كل ليلة ولمدة سبع ليال، وقل:

ليس شمعاً الذي أحرقه

إنه كبد وقلب وطحال فلان الفلاني الذي أحرقه.

و بعد المرة السابعة احرق المجسم، فتموت الضحية. يجمع هذا السحر بين سحر العدوى والسحر التجانسي التعاطفي لأن الشكل شبيه العدو بالإضافة إلى احتوائه على أشياء كانت يوماً ما على صلة به تحديداً أظافره أو شعره أو بصاقه. وهناك شكل آخر لسحر ماليزي يشبه كثيراً ممارسة قوم أوجيبوي وهو أن تصنع جثة من شمع خلية نحل فارغة بطول قدم واحد ثم اخرق عين الصورة فتصاب الضحية بالعمى؛ اخرق المعدة فتمرض الضحية؛ اخرق الرأس فتصاب الضحية بالصداع؛ اخرق الصدر فتعاني الضحية من صدرها. وإذا ما أردت قتله فوراً، ثبِّته خلال طعنه من رأسه حتى قدمه وكفّنه كما تُكَفَّن الجثة وصلِّ عليه وكأنك تصلي على الميت ثم ادفنه وسط الطريق التي ستمر منها الضحية. ولكي لايكون دمه في رقبتك، عليك أن تقول:

لست أنا الذي أدفنه

إنه جبريل الذي يدفنه

وهكذا يتحمل الملك جبريل وزر الجريمة لأنه أقدر منك بكثير على تحمله.

لم يُمَارَس السحر التجانسي التعاطفي مستخدماً الصور بهدف إخراج الناس المكروهين من العالم فحسب بل استُخدِم أيضاً بنيِّةٍ حسنة لمساعدة أناس آخرين بالدخول إليه. أي أنه استُخدِم لتسهيل الولادة أو إرزاق العاقر ذرية. بعض النساء العاقرات اللواتي يرغبن في أن يصبحن أمهات من قوم باتاك في سومطرة يصنعن دمية

خشبية على شكل طفل ويضعنها في أحضانهن معتقدات أن هذا سيؤدي إلى تحقيق أمنياتهن. وفي بابر آرشبيلاغو، تلجأ المرأة التي تريد أن تنجب إلى دعوة رجلٍ يكون أباً لأسرة كبيرة كي يصلي لأوبيليرو أي روح الشمس. كما تحضر المرأة دمية قطنية حمراء وتمسكها وكأنها ترضعها. ويمسك الرجل طيراً بين رجليه ويجعله فوق رأسها و يقول: " يا أوبيليرو بحق هذا الطير دع الطفل ينزل، دع الطفل يسقط، أتوسل إليك، أتضرع إليك، دع الطفل ينزل بين ذراعي وفي حضني." ثم يسأل المرأة: " هل أتى الطفل؟ " فتجيبه: " نعم، ها هو يرضع". بعد ذلك يضع الرجل الطير على رأس الزوج ثم يتمتم بعض الكلمات. ثم يُقتَل الطير ويوضع مع بعض من نبات التنبول في مكان الأضاحي المحلي. وبعد انتهاء هذا الطقس يشيع في القرية أن تلك المرأة قد أودعت الفراش، فيأتي أصدقاؤها لتهنئتها. هنا يمثل التظاهر بولادة الطفل شعيرة سحرية خالصة بهدف التأكيد على أن الطفل سيُولَد، لكنهم يحاولون تثبيت فعالية الشعيرة بالصلاة والأضحية. أي يندمج السحر بالدين ويُعَزَّز به.

بعض من قوم داياك في بورنيو، يدعون ساحراً عندما تكون امرأة في مخاضٍ صعبٍ كي يسهِّل عليها ولادتها بطريقة منطقية خلال معالجة جسمها باليدين. ويكرس ساحرٌ آخر نفسه خارج الحجرة للوصول إلى الغرض نفسه لكن بطريقة تبدو لنا غير منطقية على الإطلاق لأنه يتظاهر على أنه المرأة المُنجِبة ويضع حجراً على بطنه ويلفُّه حول جسمه ليمثل الجنين بالرحم ثم يتبع التوجيهات التي يصرخ بها زميله عند مشهد العملية من خلال تحريك الطفل المزيف مُقلِّداً حركات الولادة الحقيقية.

وهناك مبدأ مماثل في التزييف - وهو لأجل الأولاد - قاد شعوباً أخرى لاستخدام ولادة وهمية عبر ما يشبه التبني أو حتى وسيلة لإعادة شخص، من المفترض أنه ميت، إلى الحياة. وإذا ما تظاهرت أنك تلد ولداً أو حتى رجلاً مسناً ملتحياً ليس فيه قطرة دم واحدة منك، يصبح ذلك الولد أو الرجل ابنك حسب جميع المعاني والأهداف. لهذا يخبرنا المؤرخ ديودوراس أن زيوس أقنع زوجته الغيور هيرا أن تتبنى هرقل، فذهبت الإلهة إلى سريرها وضمَّت بقوة هذا البطل القوي إلى صدرها، أدخلته من ثوبها وأسقطته إلى الأرض تقليداً للولادة؛ ويضيف المؤرخ أنه حتى في زمنه كان يقوم البرابرة بالشئ نفسه عندما كانوا يتبنون أطفالاً. في الوقت الحالي لايزال البلغار

والأتراك البوسنيون يستخدمون هذه الطريقة. تأخذ المرأة الولد الذي تنوي تبنيه فتدسه أو تسحبه من تحت ثيابها وبعد ذلك تعتبره ابنها. أما بعض قوم البيروان في ساراواك عندما ترغب امرأة في تبنى رجل وامرأة بالغة يجتمع حشد كبير من الناس ويحتفلون بهذه المناسبة. تجلس المرأة المتبنيِّة على مقعد مرتفع مغطّىً ثم يزحف الشخص من بين أرجلها. وحالما يظهر من الأمام يُرمَى عليه زهر النخل العطر ويُربَط إلى المرأة. ثم تمشي المرأة المُتبنية ومعها الابن أو الابنة المُتبناة مربوطين ببعضهما كالبطة إلى نهاية المنزل ويعودان أمام المشاهدين. الرباط الناشئ بينهما في تقليد الولادة هذا هو عروة وثقى؛ وأيّ عدوان يرتكب ضد الولد المُتبنّى يعتبر اعتداءً أكثر من ارتكابه ضد ولدٍ حقيقي. وفي بلاد الإغريق القديمة عندما كانوا يظنون خاطئين أن أحدهم قد مات وأُقيمت جنازةً له، يبقى عندما يظهر لاحقاً، في نظرهم ميتاً حتى يخضع لولادة جديدة عبر تمريره من حضن امرأة وتغسيله وتلبيسه ملابس الوليد ثم يُسلّم الى الحاضنة. ولايُسمَح له بالاختلاط برَبعه حتى يمر بهذه المراسم بمنتهى الدقة. وفي الهند القديمة في ظروف مماثلة يُوضَع الرجل المفترض أنه مات في حوض مملوء بمزيج من الماء والشحم، ويجلس وقبضتاه مرفوعتان إلى صدره ولاينطق بحرف واحد مثل الجنين في الرحم، وتُقامُ فوق رأسه شعائر مقدسة تماماً كالاحتفال الذي يُقامُ لدى المرأة الحامل. وفي الصباح التالي يخرج من الحوض ويمر بجميع الشعائر التي اشترك فيها من صغره كأن يتزوج امرأة أو يخطب زوجته القديمة بنفس الشعائر.

هناك استخدام آخر للسحر التعاطفي التجانسي لشفاء المريض أو درء المرض عنه. إذ كان الهندوس القدامى يؤدون مراسم دقيقة التفاصيل تعتمد على السحر التعاطفي التجانسي لمعالجة مرض اليرقان. الهدف الرئيسي من العلاج هو نقل اللون الأصفر من المريض إلى الكائنات أو الأشياء الصفراء مثل الشمس التي ينتمي إليها اللون الأصفر وجلب اللون الأحمر من مصدر حيوي نضر وهو الثور الأحمر تحديداً. بهذه النية يتلو الساحر القول السحري التالي:

"إلى الشمس يذهب ما تعاني من ألم القلب واليرقان، ونحوطك بلون الثور الأحمر! نحوطك باللون الوردي طيلة عمرك. ليُحفظ هذا الشخص من الأذى ويتخلص من اللون الأصفر! الأبقار التي إلهها أحمر، هي نفسها حمراء في كل

شكل لها في كل قوة لها نحوطك. وإلى الذعرة، إلى السمن، إلى الببغاء ليذهب لونك الأصفر."

بينما يقوم الساحر بهذا يعطي الكاهنُ الرجلَ ماءً منقوعاً مع شعر الثور الأحمر ليرشفه ويفضي عليه اللون الأحمر، يصب الكاهن الماء على ظهر الثور ويجعل المريض يشربه؛ ويوضع المريض على جلد ثور أحمر ويربط بقطعة جلدية. ولكي يحسِّن من لونه ويخلِّصه تماماً من اصفراره يتابع على الشكل التالي: يمرغه من رأسه إلى أخمص قدمه بالشوفان الممزوج بالكركم والتوميريك وهي نباتات صفراء، يضعه على السرير ويربط ثلاثة طيور - ببغاء وسُمَّن و ذُعرة - تحت السرير بخيط أصفر. ثم يصب الماء على المريض ليغسل عنه الشوفان الأصفر ومعه بلا شك يغسل اليرقان من المريض إلى الطيور. بعد ذلك، لكي يعطي اللون النهائي لبشرة المريض، يأخذ بعض شعرات من ثور أحمر ويغلفها بورقة ذهبية ويلصقها على جلد المريض. كما لجأ من كان يعاني من اليرقان الشديد من القدامى إلى تبادل النظر الحاد مع كروان الصخر الخائض كي يشفى من مرضه. ويقول بلوتارك: " تلك هي طبيعة الكائن فهو ينتزع و يتلقى المرض الذي يصدره مثل تيار عبر النظر". لذلك من المتعارف بين مربي الطيور أن يحجبوا تماماً هذا الطائر لكي لايستفيد منه المصاب باليرقان دون مقابل يجنونه. لاتقتصر مزايا هذا الطائر على لونه بل أيضاً عيناه الذهبيتان الكبيرتان اللتاي تسحبان بطبيعتهما اليرقان الأصفر. ويخبرنا بيلي عن طائر آخر وربما هو نفسه الذي أعطاه الإغريق اسم اليرقان لأن مريض اليرقان الذي كان ينظر إليه يشفى ويسبب موت الطائر. كما يذكر أيضاً عن حجر يعتقد أنه يشفي من اليرقان لأن لونه شبيه بلون المصاب باليرقان.

من محاسن السحر التعاطفي التجانسي هو أنه يمكن تطبيقه كعلاج على الطبيب بدلاً من تطبيقه على الضحية التي تتحرر من كل المشكلات والتوعكات في حين يرى طبيبه ينتفض ألماً أمام عينيه. فمثلاً يعمل فلاحو بيتش في فرنسا معتقدين أن التقيؤ الطويل الأمد سببه أن المعدة، كما يقولون، قد تخلخل تثبيتها فتسقط. لذلك يطلبون الخبير ليعيدها إلى مكانها المناسب. وبعد سماعه الأعراض يرمي الخبير نفسه على الأرض بحركات بهلوانية مريعة لكي يخلخل معدته. و بعد نجاحه في هذا يعود ويقوم بسلسلة حركات أخرى مصحوبة بتجهمات وتكشيرات

بهدف تثبيتها ثانيةً، وهكذا يشفى المريض مقابل خمسة فرنكات. وبطريقة مماثلة يقوم الطبيب من قوم داياك عندما يستدعى لمعالجة مريضٍ ما بالتظاهر أنه ميت مستلقياً على الأرض. وبالتالي يُعامَل وكأنه ميت إذ يُلَفُّ ببساط ويخرج من البيت ويُلقَى على الأرض. وبعد ساعة من الزمن يأتي طبيب آخر ويفك المتظاهر بالموت ويعيده إلى الحياة. ومن المفترض أن يشفى المريض كما شفي الميت. وهناك علاج للورم الخبيث يعتمد على مبدأ السحر التعاطفي التجانسي وصفه مارسيلوس باردو وهو طبيب القصر للملك ثيودوسيوس الأول في في أثناء عمله الطريف في الطب، وهو كالتالي: خذ جذر نبات رعي الحمام، اقطعه وعلّق طرفه حول رقبة المريض والطرف الآخر في دخان النار. وبينما يجف الجذر في الدخان، يجف الورم الخبيث ويختفي. وإذا رفض المريض أن يكافئ الطبيب ينتقم الأخير لنفسه من خلال رمي نبات رعي الحمام في الماء كي يمتص الجذرُ الماءَ ويعود الورم لصاحبه. وينصح الحكيم نفسه من كان يعاني من بثور جلدية أن يراقب النجم الهاوي ويمسح البثور بقطعة قماش بسرعة في أثناء هبوطه. فتنزل البثور من جلد المريض كما ينزل النجم من السماء. ولكن على المريض أن يحذر شديد الحذر ألا يمسح البثور بيد عارية لأنها عندئذ ستنتقل من الجلد إلى اليد.

ويلعب السحر التعاطفي التجانسي والسحر التعاطفي بشكل عام دوراً كبيراً بالإجراءات التي يتخذها صياد السمك لتأمين مورد وافر من الطعام. وحسب مبدأ الشئ يأتي بشبيهه، يقوم الصياد وأصدقاؤه بتقليد أشياء يقصدون بلوغها. ومن ناحية أخرى يتجنبون لدرجة الوسوسة ما يتصورونه مشابه لأشياء كارثية فعلاً.

لم يُمارَس السحر التعاطفي بانتظام من أجل تامين مورد العيش في أي مكان في العالم أكثر منه في وسط أستراليا. هنا تتقسم القبائل إلى جماعات لكل منها رمز من نبات أو حيوان يسمى طوطم. وكل منها مسؤولة عن مضاعفة طوطمها لمصلحة الجميع عبر مراسم سحرية. معظم الطواطم هي حيوانات ونباتات مأكولة والهدف الأساسي من هذه المراسم هو تأمين هذا المورد أو أشياء أخرى للقبيلة كلها. وغالباً ما تكون المراسم تقليداً لما يرغبون في انتاجه، أي أن السحر تعاطفي تجانسي أو محاكاة. يقوم قائد طوطم الببغاء الأسترالي عند قوم وارامونغا بمضاعفة عدد هذه الطيور عن طريق الإمساك بمجسم الببغاء الأبيض وتقليد صوته

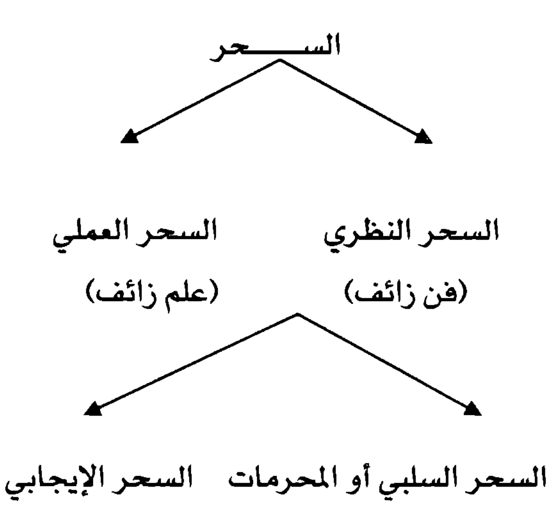
الأجش. ويؤدي قوم وتشيتي من أرونتا وهم أصحاب طوطم اليرقة، يؤدون مراسم لمضاعفة عدد اليرقات التي يستخدمها أفراد آخرون من القبيلة كغذاء لهم. وأحد هذه المراسم هي محاكاة تمثل الحشرة الكاملة عند خروجها من الخادرة. ينصبون هيكلاً من أغصان طويلة ونحيفة لتمثيل الحالة الخادرية لليرقة ويجلس عدد من رجال طوطم اليرقة يغنون لهذا الكائن في جميع مراحله. ثم ينسحبون من الهيكل مقرفصين يغنون للحشرة وهي تخرج من الخادر. من المفترض أن يضاعف هذا التصرف من عدد اليرقات. وأيضاً لمضاعفة عدد طيور الآمو الذي يشكل مادة غذائية هامة يلجأ رجال طوطم الآمو إلى رسم طوطمهم المقدس على الأرض وخاصة الأجزاء التي يحبون أكلها من ذلك الطوطم، وتحديداً الشحم والبيض. يجلس الرجال حول هذا الرسم ويغنون وهم يلبسون غطاء رأس يمثل الرقبة الطويلة والرأس الصغير لذلك الطائر. ثم يقلدون ظهور الطائر بينما هو واقف ينظر في جميع الإتجاهات دون هدف معين.

أما هنود كولومبيا البريطانية فيعتمدون بشكل كبير على السمك المتوفر في بحارهم وأنهارهم. وعندما يجوعون لعدم قدوم السمك في الموسم المعتاد يقوم ساحر نوتكا بصنع صورة على شكل سمكة ويضعها في الماء بالإتجاه الذي تظهر منه عادة. يسبب هذا الطقس المرافق للصلاة قدوم السمك على الفور. ويستخدم سكان جزيرة توريس سترايت مجسمات للأطوم والسلحفاة ليجرُّون هاذين الحيوانين إلى موتهما بواسطة السحر. ويعتقد قوم تورادجاس في سيليبس الوسطى أن الأشياء المتشابهة تجذب بعضها بعضاً بواسطة الروح التي تعيش فيها أو عبر الأثير النشيط. لذلك يقومون بتعليق عظام فك الأيل والخنزير البري في بيوتهم لكي يجذبوا مثل تلك الحيوانات إلى طريق الصيادين. وفي جزيرة نياس وعندما يقع الخنزير في الحفرة المنصوبة له، يأخذون الحيوان ويفركون ظهره بتسع أوراق ساقطة معتقدين أنها ستسبب سقوط تسع خنازير أخرى في الحفرة نفسها كما سقطت أوراق الشجرة التسع. وفي جزر ساباورا وهاريكو ونويسالاوت في الجزر الهندية الشرقية، يبحث من يهمُّ بنصب الفخ للسمك في البحر عن شجرة نقرت ثمارها العصافير ويقص من هذه الشجرة فرعاً قوياً يصنع منه العمود الرئيسي للفخ، لاعتقاده أنه كما استدرجت الشجرة الكثير من الطيور لنقرها كذلك يستدرج الفرع السمكات للفخ.

ولدى القبائل الغربية في غينيا البريطانية الجديدة يستخدم سحرٌ لمساعدة الصياد في تحقيق طعنات رمح ناجحة في الأطوم أو السلحفاة، يضع الصياد خنفساء تسكن جوزة الهند في المقبض حيث يثبت رأس الرمح. من المفترض أن هذا يجعل رأسَ الرمح يلتصق في الأطوم أو السلحفاة تماماً كما تلتصق الخنفساء على جلد الانسان عندما تعضه. وعندما يرمى الصياد الكمبودي شباكه ولا يحصل على شئ يتجرد من جميع ملابسه ويبتعد قليلاً ثم يمشي بشكل عادي ويقع في الشبكة وكأنه لم يرها ثم يصرخ "أواه ما هذا؟ أخشى أنني وقعت في الصيد". بعد ذلك لابد للشبكة أن تلتقط صيدها. وهناك محاكاة أخرى مازالت في الذاكرة في المرتفعات الأسكتلندية. يخبرنا الموقّر جمس ماكدونالد وهو الآن في راي في كايثس، أنه في طفولته كان يصطاد السمك مع أصدقائه في لوتش آلين ولم يكن عندهم من الطُعم مايكفي لوقت طويل فكانوا يلقون بواحد منهم في الماء ويسحبونه وكأنه سمكة وبعد ذلك يبدأ السمك السلمون بالقضم. وقبل أن يخرج الهندي من قوم كارير لنصب الفخ ينام وحده بجانب النار مدة عشرة ليال واضعاً قطعة صغيرة من عصا بشكل تبقى مضغوطة قليلاُ على رقبته. وبالتالي يجعل هذا السحر عصا الفخ تنزل مباشرة على رقبة الدلق. وعند الغاليرايس الذين يسكنون مقاطعة في شمال هالماهيرا وهي جزيرة كبيرة إلى الشرق من غينيا الجديدة جرت العادة أنه عند تلقيم البندقية قبل الخروج للصيد يجب أن تضع الطلقة في فمك قبل أن تقحمها في البندقية وبالتالي فإنك عملياً تأكل لحم الطريدة التي لن تخطئ الطلقة في تحقيقها. أما الماليزي الذي يضع طعماً في فخ منصوب للتمساح فيحرص في أثناء انتظاره نتيجة فخه أن يبدأ في أكل طبقه ببلع ثلاث لقم من الرز تباعاً لأن هذا سيساعد الطعم في انزلاقه في حلق التمساح. كما يحرص شديد الحرص ألاّ يستخرج أي عظام من طبقه لأنه لو فعل ذلك لفقدت العصا الحادة التي تثبت الطعم مفعولها بشكل مشابه ويهرب التمساح بالطعم. لهذا يحترس الصياد من ذلك بأن يجعل شخصاً آخر يسحب العظمات من طبقه قبل أن يبدأ وجبته لأنه وفي أية لحظة سيُفرَض عليه الخيار بين بلع العظمة أو فقدان التمساح.

في القاعدة الأخيرة مثال على الأشياء التي يمتنع عنها الصياد وإلاّ ـ حسب مبدأ الشئ يأتي بشبيهه ـ ستفسد عليه حظه. إذن يجب الانتباه لنظام السحر التعاطفي

لأنه لايقتصر على المبادئ الإيجابية بل يقتضي وجود عدد كبير من المبادئ السلبية أو الممنوعات. فهو يعلّمك ليس ماتفعله فقط بل ما يجب أن تحجم عن فعله. المبادئ الإيجابية هي السحر أما المبادئ السلبية فهي الممنوعات. وفي الحقيقة يبدو أن تعاليم السحر، معظمها إن لم تكن كلها، هي تطبيق خاص للسحر التعاطفي بقانونيه التشابه والاتصال. رغم أن هذين المبدأين لم يُصاغا بعبارة مفهومة بشكل مجرد لدى الإنسان البدائي لكنه يؤمن بهما ضمناً كمنظم لمسار الطبيعة المستقلة تماماً عن الإرادة البشرية. ويعتقد أنه إذا تصرف بشكل ما ستظهر نتائج حتمية لهذين القانونين بشكل أو بآخر. وفي حال لم يرض عن نتائج عمل ما أو تبينت له خطورة الأمر، من الطبيعي ألاّ يعود لمثل هذا التصرف كي لا يعرض نفسه لخطر هو بغنى عنه. أو بالأحرى يحجم عن ذلك بناءً على اعتقاده الخاطئ بفكرتي السبب والنتيجة لأنه يتوهم الأذى القادم وبالتالي يخضع للمحرَّم. وهكذا يكون المحرم تطبيقاً سلبياً للسحر العملي. يقول السحر الإيجابي: افعل هذا لكي يحدث كذا وكذا. أما السحر السلبي فيقول: لاتفعل هذا لكي لايحصل كذا وكذا. يهدف السحر الإيجابي إلى إنتاج عمل معين أما هدف السحر السلبي أو المُحَرَّم هو تجنب شئ غير مرغوب فيه. لكن لبلوغ الأهداف المرغوب فيها وغير المرغوب فيها من المفترض العمل بقانوني التشابه والاتصال. لكن بما أن الشئ المرغوب فيه لن يحصل فعلاً عبر اتباع المراسم السحرية كذلك لن ينتج أشياء سيئه عن خرق المحرمات. واذا كان الشر المفترض سيأتي حتماً بعد خرق المحرمات فإن تلك المحرمات ليست محرمات بل قواعد أخلاقية أو مفهوم عام. إن قولنا: "لاتضع يدك في النار"؛ ليس تحريماً بل قاعدة أو مفهوم عام لأن الشر القادم هو واقع وليس خيال. أي باختصار، ما التعاليم السلبية التي ندعوها محرمات إلاّ عبث كامل مثل التعاليم الحضيَّة التي ندعوها سحراً إيجابياً. وما هذان الشيئان إلاّ طرفان متناقضان أو قطبان للخطأ المدمِّر نفسه، المتجسد في الإدراك الخاطئ لتداعي الأفكار أي السحر بقطبيه الإيجابي والمحرمات. وإذا ما أطلقنا اسماً عاماً " السحر " على النظام الخاطئ ككل بشقيه النظري والعملي فإن المحرمات تكون في الجانب السلبي من السحر العملي. دعونا نضع هذا في الجدول التالي:



لقد أدرجت هذه الملاحظات عن العلاقة بين السحر والمحرمات لأني على وشك التعريف ببعض الأمثلة عن المحرمات التي يمتنع عنها الصيادون البريون والبحريون وآخرون. وما أرغب الوصول إليه هو أنهم يندرجون تحت عنوان السحر التعاطفي كونه تطبيقاً خاصاً للنظرية العامة. ومن هذه الأمثلة أن صِبْيَة الأسكيمو يُمنَعون من ممارسة لعبة (مهد القطة) وفيها تربط اليدان بخيطان متشابكة، لأنهم لو فعلوا ذلك لعُقِدَت أصابعهم فيما بعد في خيط الحربون. من الواضح أن المحرم هنا هو تطبيق لقانون التشابه، كأساس للسحر التعاطفي التجانسي؛ لأن انعقاد أصابعه عندما يكون طفلاً سيؤدي إلى انعقاد أصابعه بخيط الحربون عندما يصبح رجلاً يصطاد الحيتان. وكذلك بعض زوجات الصيادين من قوم الهزول في جبال الكريثيا اللواتي يمتنعن عن الغَزْل وقت يكون أزواجهن يأكلون وإلاّ ستتقلب الطريدة كالمغزل ولا يتمكن زوجها من ضربها. من الواضح هنا أنهم يطبقون قانون التشابه. وكذلك في معظم أجزاء إيطاليا الشمالية القديمة إذ مُنِعَ النساء قانونياً من المشي بشكل متعرج في الطرقات العامة أو أن يحملن مغازلهن بشكل علني لأن هذا سيؤذي الموسم. ربما أتت الفكرة من أن دوران المغزل سيؤدي إلى جعل السنابل تلتف فتُمنَع من النمو بشكل مستقيم. وكذلك عند قوم آينوس في زاغالين، تُمنَع الحامل

من الغَزْل أو ربط الحبال مدة شهرين قبل وضعها لأنهم يعتقدون أن هذا سيؤدي إلى عقد أحشاء الجنين مثل الخيط. وفي بيلاسبور وهي مقاطعة هندية، ولسبب مشابه عندما يقوم مختار القرية بالاجتماع بمجلسه يمنع الجميع من الغَزْل لأن هذا يؤدي إلى دخول النقاش في دائرة مفرغة لاتفضي لنتيجة كما يحصل للمغزل. أما في بعض جزر الهند الغربية فيجب على أي قادم لبيت الصياد أن يدخل بشكل مستقيم دون التوقف عند الباب ولو فعل غير ذلك لفعلت الطريدة الشئ نفسه وتوقفت عند الطُّعم ورجعت بدلاً من الوقوع في الفخ. وللسبب نفسه، في توراداجاس في سيليبس الوسطى، يمنع على أيٍ كان أن يتوقف أو يقف عند سُلّم منزلٍ فيه امرأة حامل لأن هذا التأخُّر سيؤدي إلى إعاقة الولادة. وكذلك في عدة أجزاء من سومطرة يمنع على المرأة في ظروف مماثلة أن تقف عند الباب أوعلى الدرجة الأخيرة من سلم المنزل ولو ارتكبت مثل هذه الحماقة لعانت من ألم وإرهاق عند الولادة بسبب إهمالها مبادئ الحيطة الأساسية. أما الماليزيون الذين يعملون في البحث عن الكافور فيأكلون طعامهم جافاً ويحرصون ألاّ يطحنوا ملحهم ناعماً. يعود السبب في هذا إلى أن الكافور يكون على شكل حبات ناعمة في شقوق على جذع شجرة الكافور. فإذا ما أكل الباحث عن الكافور ملحه ناعماً فإنه سيجد الكافور على شكل حبات ناعمة أما إذا أكل ملحه خشناً سيجد الكافور على درجة الخشونة نفسها. أما صيادو الكافور في بورنيو فيستخدمون قشرة نخل بينانغ المتينة كصحن للطعام وخلال فترة رحلة الصيد كلها يمتنعون عن غسل الصحن خوفاً من انحلال الكافور واختفائه من سيقان الأشجار. من الواضح أنهم يخافون من غسل الصحون كي لا تُغسَل معها حبيبات الكافور المطمورة في الأشجار. إن المنتج الرئيسي في بعض أجزاء من لاوس وهي منطقة في سيام، هو الراتنج وهو صمغ يسيل من حشرة حمراء على أغصان الأشجار الفتية والتي تُلصَق عليها باليد كائنات صغيرة. يمتنع كل من له علاقة بجمع الصمغ عن غسل نفسه خصوصاً رأسه لأنه عندما يزيل الفطور من شعره يبعد الحشرات الأخرى عن الأغصان. وكذلك قبيلة الأقدام السوداء الهندية، الذين ينصبون الفخوخ للنسور يمتنعون تماماً عن أكل البراعم في في أثناء مراقبة الفخ ويفسرون ذلك قائلين أنه عندما تكون البراعم في معدة الصياد تحرض النسور المقتربة من الفخ على أن تستحك وبدلاً من أكل الطعم تجلس النسور وتهرش في

جلدها. باتباع هذا التيار من الأفكار يمتنع صيَّاد النسور من استخدام المخرز في أثناء نصب الفخ لأنه لو حكَّ بالمخرز فإن النسر يحك نفسه. وتقع المشكلة نفسها لو استخدمت زوجته أو أولاده المخرز وهم في بيتهم في أثناء بحث أبيهم عن النسور. كما يمتنعون أيضاً عن الإمساك بتلك الأداة لئلا يعرِّضوا أباهم لخطر الإيذاء الجسدي.

من أكثر وأهم المحرمات التي كان يخافها الإنسان البدائي هي تناول بعض الأطعمة، وكلها تندرج تحت قانون التشابه وبالتالي هي أمثلة على السحر السلبي. ومثلما يأكل البدائي الكثير من النباتات والحيوانات كي يكتسب ميزات يرغبها ويعتقد أنها تتمتع بها، كذلك يمتنع عن بعضها الآخر التي يرى فيها صفات غير مرغوب بها ويخشى أن تنتقل إليه. في تناول الأطعمة السابقة، إنما يمارس السحر الإيجابي وفي امتناعه عن الأطعمة اللاحقة إنما يمارس السحر السلبي. سنسوق الكثير من الأمثلة على السحر الإيجابي فيما بعد، أما الآن سنقدم أمثلة على السحر السلبي. في مدغشقر يُمنَع الجنود من تناول أطعمة معينة وإلاَّ حسب مبدأ السحر التجانسي التعاطفي يَفْسَدون باكتسابهم صفات ملازمة لتلك الأصناف. لايتذوقون القنفذ على الإطلاق، لأنهم يخافون من نزوعه إلى التقوقع على شكل كرة عندما يصاب بالذعر فيسبغ على من يتناوله سمة الانكماش والرعديدية. كما يمنع على الجندي تناول ركبة الثور وإلاَّ ستضعف ركبتاه ويعجز عن المشي. كذلك يحرص المحارب شديد الحرص على عدم تناول الديك الذي مات في القتال أو أي شئ مات طعناً بالرمح؛ كما يُحَرَّم قتل الحيوان الذكر في منزل كان صاحبه مسافراً في الحرب. أما من يأكل ديكاً مذبوحاً في القتال فلسوف يموت هو ذبحاً في ساحة القتال. وإذا ما تناول حيواناً مات مطعوناً فإنه سيطعن هو نفسه، وأما من يُذبح في بيته حيوانٌ ذكر فلسوف يُقْتَل هو وربما في اللحظة نفسها والطريقة نفسها. والأكثر من ذلك يُمْنَع على الجندي في مالاغاسي أن يتناول الكِلى لأنه في لغة مالاغاسي تتطابق كلمة **كِلية** و **مُصطاد**؛ إذن سيقع ضحية الصيد إذا أكل الكِلى.

ربما لاحظ القارئ أن هذه الأمثلة عن المحرمات تفترض أن السحر يفعل فعله عبر مسافة بعيدة. لذلك يمتنع بعض نساءُ وأطفالُ صيادي النسور من الهنود سوداء الأقدام من استخدام المخرز في في أثناء غياب أبيهم لكي لايخدش النسر آباءهم أو

أزواجهن. وكذلك قتل الحيوان الذكر في بيت جندي ذهب للحرب لكي لا يسبب ذلك قتل الرجل. إن الإيمان بالتأثير التعاطفي بين شيئين بعيدين هو جوهر السحر. للعلم بعض الشكوك ولو بسيطة في التأثر عن بعد أما السحر فليس لديه أي شك في ذلك، فالإيمان بالتخاطر هو أحد مبادئه الأساسية. إذن لايواجه ابن هذا العصر الذي يدافع عن فكرة تأثير العقول في بعضها بعضاً عن بعد أية صعوبة في إقناع البدائي بذلك لأن الأخير آمن بها منذ زمن بعيد، بل تجاوز أخاه المتحضِّر في الإيمان بأنه عَمِل بقناعاته بترابط منطقي في حين - بحدود معرفتي - لم يظهرها أخوه المعاصر إلا في حيز الممارسة. فالبدائي مقتنع أنه ليست المراسم السحرية وحدها هي التي تؤثر في الأشخاص أو الأشياء بل التصرفات اليومية البسيطة أيضاً. لذلك تخضع التصرفات مع الأصدقاء في مناسبات هامة إلى مجموعة قواعد دقيقة نوعاً ما وأي إهمال لها من المفترض أن يجلب المصيبة أو الموت لأناس غائبين. ينطبق هذا بشكل خاص على مجموعة الرجال في الصيد أو الحرب إذ ينتظرون من أهلهم في المنزل القيام بأشياء خاصة ويمتنعون عن القيام بأشياء أخرى بغية تأمين سلامة ونجاح الصيادين أو المحاربين. وسأدرج هنا بعض الأمثلة على التخاطر السحري بوجهيه السلبي والإيجابي.

عندما يشرع مطارد الفيلة في لوس أنجلس في رحلته يحذر زوجته من قص شعرها أو وضع الزيت على جسمها في في أثناء غيابه لأنها إن فعلت ذلك سيمزق الفيل الشباك وإن زيَّتت جسمها سينزلق الفيل من بين حبال الشبك. وعندما يخرج أحد سكان قرية داياك لصيد الخنازير في الأدغال لايلمس من يبقى في البيت الزيت أو الماء بأيديهم في في أثناء غياب أصدقائهم لأنهم لو فعلوا ذلك لصارت أيديهم كأنها مطلية بالزبدة ولانزلقت الفريسة من بين أيديهم.

يعتقد صيادو الفيلة في أفريقيا الشرقية أن خيانة زوجاتهم في غيابهم سيمكِّن الفيلة من مطارديها مما يؤدي إلى الأذى أو الموت. لهذا يوقِف الصياد رحلته ويعود إلى منزله إذا سمع عن سوء تصرف صدر عن زوجته. أما إذا أخفق الصياد من واغوغو في صيده أو هوجم من قبل أسد، فإنه يعزو ذلك لسوء تصرف من زوجته في البيت ويعود إليها وهو يشتاط غضباً. في أثناء غيابه في الصيد، عليها أن تمنع أي شخص مهما يكن أن يقف أمامها أو يمر من خلفها وهي جالسة، كما يتوجب عليها أن تستلقي

ووجها إلى السرير. وكان يعتقد هنود الموكسوس في بوليفيا أن خيانة الزوجة في في أثناء غياب زوجها يسبب له لسعة من أفعى أو عضة من جاكوار. وبالتالي مجرد حصول مثل هذه الأشياء لأحرٍ ما يقتضي إنزال العقوبة بزوجته وغالباً عقوبة الموت سواء كانت مذنبة أم بريئة. كما يعتقد صياد آليوتيان أنه لن يظفر بصيد أي ثعلب ماء إذا كانت زوجته غير مخلصة في غيابه أو كانت ابنته غير عفيفة جنسياً.

أما هنود هويكول في المكسيك فيعتبرون الصبَّار نباتاً نصف إلهي لأنه يجعل آكله في حالة من النشوة. لاينمو ذلك النبات في بلادهم وعلى رجالهم أن يجلبوه في رحلة تدوم أربعة وثلاثين يوماً تقام لهذا الغرض سنوياً. كما تسهم الزوجات في البيت بسلامة أزواجهن خلال عدم الجري أو المشي السريع في أثناء وجود أزواجهن في الطريق. كما يفعلن ما بوسعهن للاستفادة من فوائد هذه الرحلة المقدسة التي تأتي على شكل مطر وموسم جيد وما إلى هنالك. بهذه النوايا يفرضون على أنفسهم قيوداً كالتي تُفرَض على أزواجهن. إذ يمتنع كلا الطرفين وحتى يحين موعد مهرجان الصبار من الاستحمام إلاّ في مناسبات معينة ولايجوز الاستحمام عندئذ إلاّ بمياه يأتون بها من بلد بعيد حيث ينمو النبات المقدس. وعليهم عندئذ أيضاً أن يصوموا كثيراً ولايأكلوا الملح ويفرضوا على أنفسهم امتناعاً شديداً عن ممارسة الجنس. وكل من يخالف هذا القانون سيعاقب بالمرض ويعرِّض نفسه لعاقبة خسران ما يجاهد إليه الجميع؛ لكي يكسبوا العافية والحظ والحياة لابد لهم من جمع الصبار ويقطين إله النار. لكن بما أن النار الطاهرة لاتنفع النساء والرجال المدنسين، عليهم بالإضافة إلى البقاء على طهرهم في الوقت الراهن عليهم أن يطهروا أنفسهم من لطخات ذنوب الماضي. وبعد أربعة أيام من شروع الرجال تجتمع النساء حول جدهن النار ويعترفن له بكل الرجال الذين أقمن معهم علاقة جنسية منذ الطفولة وحتى الآن. لايمكنهن إخفاء علاقة واحدة وإلاّ ما استطاع أزواجهن العثور على نبتة صبار واحدة. ولكي ينشطن ذاكرتهن يحتفظن بخيط فيه عقد بعدد المرات التي أقمن فيها علاقة عشق. تأتي إحداهن بهذا الخيط إلى المعبد وتقف أمام النار وتقول بصوت عال ما أقامته من علاقات إسماً بعد إسم. و بعد أن تفرغ من اعترافها ترمي بالخيط في النار فيلتهمه الإله بلهبه المقدس وهنا تُغفَرُ ذنوبها وتغادر المعبد بسلام. وبعد ذلك ترى النساء كارهات حتى مرور الرجال من قربهن. وكذلك

يفعل الباحثون عن الصبار فيجعلون صدورهم خالية من كل عيب وعند ارتكابهم أية هفوة صغيرة يعقدون الخيط مرة واحدة بعد إبلاغهم الرياح الخمس ثم يسلّمون سُبحَتَهم للقائد الذي يقوم بدوره بحرقها في النار.

لدى الكثير من قبائل ساراواك قناعة لاتتزعزع وهي أن النساء اللواتي يرتكبن الزنا في في أثناء غياب أزواجهن في البحث عن الكافور في الأدغال يسببن تبخر الكافور الذي حصل عليه أزواجهن. ويستطيع الأزواج كشف خطايا زوجاتهم خلال عقد معينة في الشجرة. ويقال أن الكثير من الزوجات قُتِلنَ قديماً على يد أزواجهن الغيورين بناءً على أدلة لاتتجاوز تلك العُقَد. والأكثر من ذلك، لاتجرؤ امرأة من كان في رحلة يجمع الكافور على وضع المشط على شعرها لأن هذا سيجعل الشقوق بين أنسجة الشجر فارغة كالفراغ بين أسنان المشط بدلاً من امتلائها بالحبيبات النفيسة. وفي جزر آلكي إلى الجنوب الغربي من غينيا الجديدة، حالما تشرع السفينة بالإبحار إلى ميناء بعيد يهرعون بأسرع ما يمكن لتغطية المكان الذي كانت ترسو فيه بأغصان النخيل ويصبح ذلك المكان مقدساً. ولا يعبر أي شخص ذلك الميناء حتى تعود السفينة إلى الوطن؛ لأن عبوره قبل ذلك الحين يسبب دمار السفينة. والأكثر من ذلك، طوال فترة الرحلة تبقى أربع فتيات تم اختيارهن لأداء مهمة مفادها البقاء على تعاطف متواصل مع البحّارة ويتصرفن تصرفات تسهم في سلامة ونجاح الرحلة البحرية. لا يجوز - إلاّ لأغراض خاصة جداً - مغادرة الغرفة المخصصة لهن، كما تبقى الفتيات بحالة سكون تام ما دامت السفينة في عرض البحر ويَبقين في حالة رسوخ على البساط وأيديهن متشابكات بين ركبهن. ولا يجوز أن يلتفتن يميناً أو يساراً أو يصدرن أية حركة مهما كانت؛ ولو فعلن ذلك لتسببن بانخباط السفينة وانقلابها، ولايجوز تناول الطعام اللزج مثل الأرز بجوز الهند والحليب لأن هذا يسبب انسداد مسار السفينة في الماء. ثم تُخَفّف حدة تلك القواعد عندما يعتقدون أن السفينة وصلت وجهتها لكن تبقى الفتيات ممنوعات من تناول الأسماك ذات الحسك الحاد أو السمك اللاسع وإلا تورط البحّارة بمشاكل عويصة.

مع انتشار الإيمان بالتواصل التعاطفي عن بعد بين الأصدقاء لاعجب في أن تكون للحرب خصوصية في استثارة العواطف البشرية الأكثر عمقاً ورقّةً، والناتجة عن الرغبة في عودة من يربطهم بهم أواصر عميقة والذين قد يقاتلون ويموتون في أية

لحظة بعيدين عنهم. لهذا يلجأ أهلهم في البيت إلى اعتماد وسائل ـ قد نستغربها لما فيها من عاطفية أحياناً أو سخف أحياناً أخرى – بغرض تأمين نهاية طبيعية بل مشرِّفة لمن يحبون. لذلك في بعض مقاطعات بورنو وعندما يذهب واحدٌ من قوم داياك لصيد الرؤوس، على زوجته – أو أخته إن لم يكن متزوجاً ـ أن ترتدي السيف ليلاً نهاراً كي لايَغيب سلاحُه عن باله، وعليها أيضاً أن لا تنام في النهار أو تخلد إلى النوم قبل الثانية صباحاً وإلاَّ فُوجئ زوجها أو أخوها بعدو في في أثناء نومه. ومن بين أهالي بانتينغ داياك البحرية في ساراواك تتبع النساء مجموعة قواعد بمنتهى الدقة عندما يكون أزواجهن في ساحة القتال. بعض هذه القواعد سلبية وبعضها إيجابية لكنها كلها تشترك بمبدأي السحر التعاطفي التجانسي والتخاطر. وإليكم بعض الأمثلة عليها. على المرأة أن تستيقظ في الصباح الباكرعند بزوغ الفجر كيلا يفرط زوجها في نومه. وإن دهنت المرأة نفسها بالزيت ينزلق زوجها. على المرأة ألا تنام أو تغفو نهاراً وإلا يصاب زوجها بالنعاس في أثناء مسيره. على المرأة أن تصنع البوشار وتنثره على الشرفة كل صباح كي يكون زوجها خفيف الحركة. كما يجب عليها المحافظة على ترتيب الغرف بوضع جميع الصناديق بجانب الجدار لأنه لو تعثر أحد في البيت لسقط زوجها الغائب ووقع تحت رحمة عدوه. ومن كل وجبة لابد من الاحتفاظ ببعض الأرز كي يجد زوجها طعاماً يأكله فلا يجوع أبداً. كما يمنع بأي شكل من الأشكال أن تجلس المرأة جلسة طويلة تجعل رجليها تتشنجان وإلاَّ تيبست مفاصل رِجْلَي زوجها وصار عاجزاً عن الفرار أمام عدوه. لذلك كي تُبقِي على رجلي زوجها مرنتين عليها دائماً أن تغير من شكل جلستها وتتمشى على الشرفة. كما يجب ألا تغطي وجهها وإلا عجز زوجها عن رؤية طريقه بين أشجار الأدغال وأعشابها الطويلة. كما تمنع المرأة من الخياطة بالإبرة وإلا داس زوجها على المسامير المنصوبة له في طريقه من قبل العدو. وعندما تفرِّط المرأة بإخلاصها لزوجها يموت في بلد العدو. بعض هذه القواعد كانت محترمة منذ بضع سنوات خلت في قبيلة البانتنغ بينما كان أزواجهن يحاربون مع الانكليز ضد التمرد. لكن ياللحسرة! رغم كل هذا الاحتراس الدقيق لم تستطع الزوجات حماية أزواجهن بل واجهوا حتفهم رغم حيطة وحذر زوجاتهم.

وفي جزيرة تيمور لايغادر الكاهن الأكبر معبده في أثناء الحرب، ويُؤتى بالطعام أو يُصنع له داخل المعبد لأنه منشغل في إبقاء النار مشتعلة ولو انطفأت لسقط المحاربون في ساحة المعركة ولبقوا يتساقطون لطالما أن الموقد بارد. والأكثر من ذلك عليه دائماً أن يشرب الماء الساخن طوال فترة غياب الجيش لأنه مع كل رشفة من الماء البارد تثبط عزيمة الجنود ويعجزون عن قهر الأعداء. وفي جزر آلكي بعد مغادرة المحاربين تعود النساء إلى بيوتهن وتحضِّرن سلّة من الفواكه والحجارة، يدهنَّ الفواكه والحجارة بالزيت، ثم يضعنها على طاولة ويباركنها متمتمات:

" يا إلهنا الشمس، ياإلهنا القمر، اجعل الطلقات ترتد عن أزواجنا وإخوتنا ومخطوبينا وكل أقاربنا كما ترتد قطرات المطر عن الأشياء المدهونة بالزيت. "

وحالما تُسمع أول طلقة تُوضع السلة جانباً وتندفع النسوة خارج المنزل وبأيديهن مراوحهن ثم يلوِّحن باتجاه العدو ويركضن في القرية وهن يغنين:

" يا أيتها المراوح الذهبية، اجعلي طلقاتنا تصيب هدفها وطلقات العدو تخطئه."

في هذه العادة يعتبر تزييت الحجارة - كي تجعل الطلقات ترتد عن الرجال مثل قطرات المطر عن الحجارة - جزءاً من سحر المحاكاة أو السحر التعاطفي التجانسي. لكن الصلاة للشمس توسلاً لجعل السحر ذا فعالية هي أمر ديني وربما كانت إضافة لاحقة. ويبدو تلويح المراوح سحراً لتوجيه الطلقات نحو أو بعيداً عن علامة يحددنها حسب خروجها من بنادق الصديق أو العدو.

ويقول أحد مؤرخي مدغشقر القدامى:

" في أثناء غياب الرجال في الحرب وحتى عودتهم لاتكف النساء عن الرقص ليل نهار ولايستلقين في بيوتهن أو يدخلن الطعام إليه. ورغم رغبتهن الجنسية لايمكن على الإطلاق — مهما بلغت المغريات - أن يمارسن الجنس مع شخص آخر في أثناء وجود أزواجهن في الحرب. تفعل النسوة ذلك بناءً على إيمانهن الراسخ بأنه لو فعلنها لوقع أزواجهن قتلى أو جرحى. كما يعتقدن أن الرقص يمنح أزواجهن القوة والشجاعة والحظ الجيد؛ ولا يمنحن أنفسهن أي قسط من الراحة، كما يعتبرن هذه العادة ممارسة دينية.

وعند الأقوام المتكلمي لغة التشي في ساحل العاج تلون زوجات الخارجين مع الجيش أنفسهن بالأبيض ويتزيّن بالخرز والأشياء السحرية. وفي موعد المعركة المتوقعة يركضن وهن يحملن بنادقهن أو عصي منقوشة على شكل بنادق ثم يضربن البوبو، وهي ثمرة تشبه البطيخ نوعاً ما، فيشطرنها وكأنهن يقطعن رؤوس الأعداء. لاشك أن الإيماء هنا ليس إلاّ سحر محاكاة ليمكّن الرجال من القيام بقطع رؤوس الأعداء كما فعلت النساء بالبوبو. وفي مدينة فارمن في أفريقيا الغربية، وبينما كانت حرب أشانتي حامية الوطيس منذ بضع سنين، شاهد السيد فيتسجيرالد ماريوت رقصة تؤديها النساء اللواتي ذهب أزواجهن إلى الحرب وكنَّ يلوّن أنفسهن بالأبيض ويرتدين رداءً قصيراً ليس إلاّ. وعلى رأسهن ساحرة بردائها الأبيض القصير جداً، وتصفف شعرها الأسود بحيث يبدو مثل قرنٍ طويل، وتغطي وجهها وصدرها وذراعيها وأرجلها بزخرفة دقيقة لدوائر وأَهِلَّة. ويحملن جميعهن ذيول الجواميس أو الخيل على شكل فرشاة مطلية بالأبيض ويغنين في أثناء الرقص:

" ذهب أزواجنا إلى بلاد أشانتي؛ فليكنسون أعداءهم عن سطح الأرض."

عند هنود ثومبسون في كولومبيا البريطانية، وبينما يذهب الرجال في طريقهم إلى الحرب، كانت النسوة يؤدين رقصات على فترات متكررة. من المعتقد أن هذه الرقصات تضمن النجاح في مهمتهم. تلوح الراقصات بسكاكينهم وترمين بعصيان مدببة الرأس وتدفعن بعصي معقوفة الرأس إلى الأمام ثم إلى الخلف مراراً و تكراراً. يرمز رمي العصي إلى اختراق العدو أو تفاديهن كما ترمز حركة العصي المعقوفة إلى الأمام وإلى الخلف إلى سحب الخطر عن رجالهن. استُخدمت عقفة العصا بشكل خاص كأداة لحفظ الحياة. وكانت النسوة دائما توجهن أسلحتهن نحو بلاد الأعداء. كما كانت النساء تلوّن وجوههن باللون الأحمر وتغنين وترقصن وتصلين للسلاح كي يحمي أزواجهن ويساعدهم على قتل الأعداء. و بعضهن الآخر يثبّتن نسراً على رأس عصا. وعندما تنتهي الرقصة تُخَبّأ هذه الأسلحة. وإذا اعتقدت المرأة أنها رأت شعراً أو قطعة من جلدة رأس على السلاح عندما تخرجه من مخبئه تعرف أن زوجها قد قتل عدواً. وإذا رأت لطخة دم تعرف أن زوجها قد جُرِحَ أو مات. كذلك النساء في قبيلة يوكي في كاليفورنيا تبقين راقصات في حلقات باستمرار - عندما يذهب أزواجهن للقتال - ولا تنمن أبداً بل تبقين تنشِدن وتلوِّحن بالعصي السحرية

المورقة. ومن بين هنود هايدا في جزر الملكة تشارلوت تستيقظ النسوة باكراً عندما يخرج أزواجهن للحرب ثم يتظاهرن أنهن في حرب مع أولادهن ثم يأخذنهم كعبيد. من المفترض أن هذا التصرف يساعد أزواجهن على القيام بفعلٍ مماثل. وإذا ما كانت الزوجة قليلة الإخلاص لزوجها فإنه سيموت في الحرب. مدة عشر ليال تبقى النساء مستلقيات معتمدات على إبرة البوصلة بالإتجاه الذي أبحرت به جناديلهم. وبعد ذلك يعكسن الاتجاه لأنه من المفترض أنهم بدأوا طريق العودة في عرض البحر. وكذلك في ماسيت كانت نساء هايدا ترقصن وتغنين أغاني حربية طوال فترة غياب أزواجهن في الحرب كما يُبقين كل شئ من حولهن في منتهى الترتيب. وكان من المعتقد أن الزوجة تتسبب بموت زوجها إذا أهملت في مراعاة تلك العادات. وكذلك عندما يخرج مجموعة من قوم أورينيكو من هنود كاريب إلى الحرب يبدأ أصدقاؤهم في القرية يحسبون بكل دقة يستطيعونها لتحديد اللحظة التي يقوم فيها محاربوهم بالهجوم. ثم يأخذون اثنين من الفتية ويلقونهما على منصة وينزلون بهما أشد وأعنف الجلد بالسوط على ظهريهما العاريين. يستسلم الفتَيَان للتعذيب دون أدنى همس ويشد من عزيمتهما العقيدة الراسخة التي نشأا عليها منذ نعومة أظفارهما والتي تقول أنه في تماسكهما وصمودهما الذي يقويهما على الامتحان العنيف يكمن النجاح وعلى جَلَدْهِما يعتمد نصر رفاقهما في المعركة.

من بين الفوائد الكثيرة التي استُخْدمت فيها البراعة الزائفة في مبدأ سحر المحاكاة أو السحر التعاطفي التجانسي هو التسبب للنباتات بأن تحمل ثمارها في الموسم المحدد لها. في ثورنجن يحمل الرجل الذي يبدر بذور الكتان حقيبة طويلة تمتد من كتفه إلى ركبته ثم يمشي بخطى طويلة كي تتأرجح الحقيبة المعلقة على ظهره إلى الأمام وإلى الخلف. يُعتقَد أن هذا يجعل خيوط الكتان تلوح مع الرياح. وفي وسط سومطرة يبدر النساء الأرز ويتركن شعرهن يتدلى على ظهورهن كي يجعلن الأرز ينمو بقوة على سيقان طويلة. و كذلك في مهرجان المكسيك الذي يقام على شرف إلهة الذرة أو ما يسمونها " الأم ذات الشعر الطويل". يبدأ المهرجان في وقت يبلغ فيه النبات نموه الكامل ويبدأ الشعر بالانطلاق من كوز الذرة كعلامة لاكتمال تشكّل الحَبِّ. ترخي النساء في هذا المهرجان شعرهن يهززنّه ويسدلنّه في أثناء رقصهن، الأمر الذي يعتبر عماد الطقس لكي يجعلن شعر الذرة ينمو بوفرة وبالتالي

يصبح الحب كبيراً ومنبسطاً. وفي الكثير من أنحاء أوروبا من المؤكّد أن الرقص أو القفز عالياً هو شكل من أشكال التعاطف التجانسي لجعل المحصول ينمو عالياً. لذلك يقولون في فرانش كومتي أنه عليك أن ترقص في المهرجان كي تجعل القنب ينمو عالياً.

الفكرة التي تقول بتأثر النبات تعاطفياً ـ تجانسياً من موقف الشخص تصبح جليةً واضحة في حديث امرأة ماليزية عندما سُئلت عن سبب تعرية الجزء العلوي من جسمها في أثناء جمع محصول الأرز فبررت قائلة أنها عندما تفعل ذلك إنما تجعل قشرة الأرز أَرَقّ لأنها تعبت من سحن الأرز ذات القشرة السميكة. من الواضح أنها تعتقد أنها كلما لبست لباساً أرق كلما صارت قشرة الأرز أرق. ومن المعروف لدى فلاحي بافاريا والنمسا أن للمرأة الحامل فضلاً كبيراً على نقل الخصوبة؛ فهم يعطون أول ثمرة للشجرة لامرأة عندها طفل، بهذا ستعطي الشجرة ثماراً أوفر العام القادم. ومن الناحية الأخرى يعتقد قوم الباغاندا أن المرأة العاقر تنقل عقمها إلى بستان زوجها وتمنع الأشجار من حمل الثمار؛ لذلك غالباً ما يطلّقونها. أما الأغريق والرومان فكانوا يقدمون الأضاحي من النساء الحاملات لإلهتي الذرة والأرض لكي تُعَبَّأ الأرض وتكبر حبات الذرة في أكوازها. وعندما احتج الكاهن الكاثوليكي على هنود أورينوكو لأنهم يجعلون النساء تبدرن الحقول في الشمس الحارقة وأبناؤهن على صدورهن. ردوا عليه قائلين:

" يا أبانا، أنت لاتفهم هذه الأشياء لذلك تغضب منا؛ أنت تعرف أن النساء يحملن أطفالاً أما نحن الرجال لانفعل ذلك. عندما تبدر المرأة يحمل الساق الواحد سنبلتين أو ثلاثاً، و يعطي جذر اليوكا ملء سلتين أو ثلاث وهكذا يتضاعف كل شئ. لماذا هذا؟ ببساطة لأن المرأة تعرف كيف تثمر وتعرف كيف تجعل البذور التي تبدرها تثمر. إذن دعهن يبدرن فنحن الرجال لانعرف أن نفعل مثلهن."

إذن بناءً على نظرية السحر التعاطفي التجانسي يستطيع المرء أن يؤثر في النبات سلباً أو إيجاباً حسب حالته وسلوكه السئ أو الجيد: فمثلاً تجعل المرأة المثمرةُ النبات مثمراً أما المرأة العاقر تجعله عقيماً. لقد تسبب الإيمان بطبيعة الصفات الشخصية المعدية أو الحوادث المؤذية بظهور عدد من الممنوعات أو قواعد التفادي: أي امتناع الناس من القيام بفعل أشياء معينة لئلا يفسدوا ثمار الأرض بالتعاطف

والتجانس خلال حالتهم غير المرغوب فيها. إذاً جميع عادات الامتناع وقواعد التفادي هي أمثلة على السحر السلبي أو المحرمات. وتأييداً لصحة ما نسميه عدوى التصرفات أو الحالات الشخصية، يقول قوم غاليلاريز أنه يُمنع إطلاق السهام من قوسك تحت شجرة مثمرة وإلاّ ترمي الشجرة ثمارها حتى لو وقع السهم على الأرض. وعندما تأكل البطيخ عليك ألاّ تمزج البذور التي تبصقها من فمك مع البذور التي وضعتها جانباً بغية زرعها لأنك لو زرعت البذرة التي بصقتها فإنها سترمي براعمها قبل انعقادها تماماً كما بصقتها من فمك. قادت هذه الفكرة بالذات فلاحي بافاريا إلى الاعتقاد أنه لو سُمِحَ لقصاصة الغرسة أن تقع على الأرض فإن الشجرة التي تنمو من هذا الغرسة سترمي ثمارها قبل أوانها. وعندما يبدر قوم الشامس من كوتشيتشينا حقول الأرز الجافة ولايرغبون في هطول المطر يعمدون إلى أكل الأرز جافاً كي يمنعوا المطر من إفساد محصولهم.

من المفترض في الأمثلة السابقة أن يؤثر الشخص تعاطفياً ـ تجانسياً في النبات إذ ينقل العدوى للنباتات عن طريق التشبُّه بصفات موجودة فيه أوحوادث ناجمة عنه جيدةً كانت أم سيئة. لكن بناءً على مبدأ السحر التعاطفي ـ التجانسي من المفترض أن يكون التأثير متبادلاً: أي أن النباتُ ينقل العدوى للإنسان تماماً كما ينقلها الإنسانُ للنبات. لذلك أعتقدُ أن هناك فعلاً وردَّ فعل تماماً كما في الفيزياء. إن هنود تشيروكي محترفون في علم النبات العملي من النوع التعاطفي ـ التجانسي. وبما أن الجذور السلكية للنبات الوتري قوية جداً لدرجة أنها تستطيع أن توقف المحراث في الثلم، يعمد نساء تشيروكي إلى غسل رؤوسهن بخلاصة هذا النبات ليصبح شعرهن قوياً. وكذلك يغسل لاعبو الكرة في تشيروكي أجسامهم بالطريقة نفسها كي يجعلوا من عضلاتهم قوية. من المعتقد أيضاً عند قوم غاليلاريز أنه إذا أكلت ثمرة وقعت على الأرض فإنك مهيّأً للتعثر والوقوع وإذا أكلت شيئا منسياً (مثل حلاوة بالبطاطا أو موزة متروكة في صحن في الموقد) ستصبح نَسَّاءً. كما يؤيدون الرأي القائل أنه على المرأة أن تستهلك موزتين من نفس العنقود كي تنجب توأمان. كما يعتقد هنود غواراني في أمريكا الجنوبية أنه إذا أكلت المرأة حبة مضاعفة من الدُّخن فإنها ستصبح أمّاً لتوأمين. وهناك تطبيق طريف لهذا المبدأ من أيام الديانة الفيدية في الهند وهو سحر يجعل الأمير المعزول يستعيد مُلكه جراء تناوله طعاماً

مطبوخاً على نار من خشب أرومة شجرة مقطوعة. بهذا تنتقل القوة التجديدية الموجودة في الشجرة إلى الطعام خلال النار ثم إلى الأمير الذي أكل من طعام مطبوخ على نار من خشب من تلك الشجرة. وكذلك يعتقد السودانيون أنه من يسكن بيتاً مبنياً من نبات شائك فإن حياته ستكون شائكة مثله وممتلئة بالمشكلات.

هناك فرع مفيد من السحر التعاطفي ـ التجانسي يعتمد الموتى كوسيلة؛ فبما أن الموتى لايرون أو يسمعون أو يتكلمون كذلك يمكنك حسب المبدأ التعاطفي ـ التجانسي أن تنقل العمى والبكم والطرش باستخدام عظام الميت أو شئ مرتبط بعدوى الموت. لذلك يقوم بعض شبان الغاليلريز الذين يريدون إقناع عشيقاتهم بحبهم بأخذ رمادٍ من أحد القبور ونثره على سقف بيت محبوبته تماماً فوق المكان الذي ينام فيه أهلها. هذا بتصورهم يمنعهم من الاستيقاظ في أثناء حديثه مع حبيبته لأن تراب القبر سيجعل نومهم عميقاً كالأموات. أما سارقو البيوت ليلاً في كل العصور وفي كل مكان فيؤيدون هذا النوع من السحرالذي يعينهم على ممارسة مهنتهم. لذلك يعمد الساطون على البيوت في سلافونيا الجنوبية أحياناً إلى القيام قبل الشروع بعمليتهم برمي عظام رجل ميت على المنزل قائلين بتهكم لاذع:

" فليصح أهل هذا البيت إذا صحت هذه العظام."

وبعد ذلك لايمكن لشخص فيه روح أن يفتح عينيه. وكذلك في جافا يأخذ السارقون تراباً من قبر وينثرونه حول البيت الذي يقصدون سرقته الأمر الذي سيجعل كل من في البيت في نوم عميق. وبالنية نفسها ينثر الهندوسي رماداً من خشب محترق على باب البيت وكذلك يفعل هنود البيرو بغبار عظم الناس الموتى. أما اللصوص في روثنيا فيستخرجون نخاع عظم قصبة الرجل الميت ويسكبون الشحم الحيواني فيه ويبدأون بحرقه ويمشون ثلاث مرات حول المنزل ومعهم هذا القنديل المحترق، الأمر الذي يجعل أهل المنزل ينامون كالأموات. و يقوم الروثيني بصنع شبَّابة من قصبة آدمي ويعزف عليها فيغلب النعاس على كل من يسمع العزف. واستخدم هنود المكسيك لهذا الغرض الشرير ساعِدَ امرأة ماتت وهي تنجب طفلاً لكنه لابد من الحصول على هذا الساعد عبر السرقة. ثم يضربون به الأرض قبل دخولهم المنزل المقصود بالسرقة؛ عندها يفقد كل من في المنزل أية قدرة على الحركة أو الكلام فهم كالأموات يسمعون ويرون كل شئ لكن لاحول لهم

ولاقوة بل ينام بعضهم ويأخذون بالشخير. في أوروبا تُعزى الصفات نفسها إلى يد المجد وهي عبارة عن يد رجل مات شنقاً، مجففة ومغمَّسة بالخل. وإذا ما تم صنع شمعة من شحم شرير مات على المشنقة أيضاً وأضيئت الشمعة على يد المجد وكأنها شمعدان فإنها تجعل كل من تُقَدَّم له فاقد القدرة على الحركة وكأنه ميت. أحياناً تُستَخدَم يد الميت كشمعة أو مجموعة شمعات تُلقى في النار وإذا استيقظ أحد سكان المنزل هذا يعني أن إحدى الأصابع لاتشتعل. لايمكن إطفاء هذه الأضواء الشنيعة إلاّ بالحليب. وأحياناً يُنصَح أن تكون الشمعة من إصابع طفل حديث الولادة والأفضل منه جنين لم يولد بعد، وأحياناً أخرى يعتقد أنه على اللص أن يجعل لكل شخص في المنزل شمعة خاصة به لأنه لو كانت الشمعة صغيرة لاستيقظ أحدهم والتقط اللص. وبعد أن تُشعَل هذه الشمعات لايجوز إطفاؤها إلاّ بالحليب. في القرن السابع عشر اعتاد اللصوص على قتل امرأة حامل كي يأتوا بشمعات من رحمها. كما اعتقد السارق الإغريقي القديم أنه يستطيع أن يُسكِت أشرس الكلاب الحارسة ويجعلها تهرب خلال اصطحابه لجذوة من كومة الخشب المُعَدة لحرق الميت. أما نساء بلغاريا وسيرفيا اللواتي يضقن ذرعاً بالقيود العائلية فيأخذن عملة نقدية نحاسية من عيون جثة ثم يغسلنها بالماء والنبيذ ويعطين السائل الناتج لأزواجهن كي يشربوها. وما إن يشربوها حتى يصبحوا كالأموات الذين أُخِذت منهم تلك القطع النقدية غافلين عن هفوات زوجاتهم.

ويعتقد أن في الحيوانات ميزات قد تكون مفيدة للإنسان ويُستَخدَم السحر التعاطفي التجانسي لنقل تلك الميزات للكائنات البشرية بطرق عديدة. لذلك يعمد بعض أهالي بيكوتنا إلى ارتداء جلد ابن مقرض كسحر لأنه حيوان يتمتع بصفة العناد وبالتالي يجعلهم مستعصين على أن يُقتَلوا. ولبلوغ الغرض نفسه أيضاً يصطحب بعضهم حشرة حية لكن أحد أعضائها معطوب. وكذلك يرتدي محاربو بيغوانيون رأس ثور بلا قرون على رأسهم ويضعون جلد ضفدع على عباءتهم لأن الضفدع ملساء إنزلاقية أما الثور فاقد القرون فمن الصعب الإمساك به. وبالتالي يعتقد من يلبس هذا السحر أنه من الصعب الإمساك به والضفدع. والواضح أن المحارب في جنوب أفريقيا يضفر خصلة من شعر جرذ مع ضفيرته السوداء المتجعدة كي يغنم بفرص كثيرة في الخلاص من رمح الأعداء مثلما يتجنب الجرذ الأشياء التي تُلقى عليه.

لذلك نرى الطلب المتزايد على شعر الجرذان عند اقتراب الحرب. وينصح أحد كتب الهند القديمة أن يُبْنَى المذبح الذي تقدم عليه أضحية النصر من تراب تمرغ عليه خنزير غير مخصي لأن قوة ذلك الخنزير تتجسد في تلك التربة. وعندما تعزف على عود من وتر واحد وتكون أصابعك تفتقر إلى المرونة، ماعليك إلا أن تأتي بعنكبوت طويل الأرجل ثم تحمصه وتفرك أصابعك بالرماد الناتج؛ الأمر الذي يجعل أصابعك مرنة ورشيقة كأرجل العنكبوت – هذا على حد أعتقاد الغاليلاريز. ولكي يعيدوا عبداً هارباً يرسم العرب دائرة على الأرض ويثبتون مسماراً في مركزها ويربطون خنفساء بخيط إلى المسمار ويحرصون أن تكون الخنفساء من جنس الهارب عبداً كان أم أَمَةً. وعندما تزحف الخنفساء فإنها ستدور وتجعل الخيط يلتف حول المسمار فيقصر النطاق ثم يقصر حتى تصل الخنفساء إلى المسمار. و هكذا بفضل السحر التعاطفي - التجانسي يعود العبد الفار إلى سيِّده.

و من بين القبائل الغربية في غينيا البريطانية الجديدة يقوم من يقتل أفعى بحرقها ثم يمرغ ساقه برمادها قبل الذهاب إلى الغابة لأن ذلك يقي من عضة الأفاعي لعدة أيام قادمة. وإذا كان في ذهن أحد أهالي سالفونيا الجنوبية أن يسرق أشياء ثمينة من السوق فما عليه إلا أن يحرق قطة عمياء ويرش من رمادها على الرجل المقصود، وليكن أحد التجار، ويستطيع بعدها أن يأخذ ما يشاء من دكانه لأن صاحبها فقد أدنى درجات الذكاء وصار عاجزاً كالقطة التي نُثِرَ منها الرماد. وربما ذهبت الأمور أعمق من ذلك ويستطيع السارق أن يسأل بكل جرأة: " هل دفعت لك؟ " فيرد البائع المخدوع: " ماذا؟ نعم بالتأكيد ". التصرف الفالح الذي يقوم به السكان الأصليون في وسط أستراليا الذين يرغبون بإطالة لِحاهم هو ببساطة كالتالي: يقوم الرجل بوخز ذقنه بشوكة ثم بعناية يمرر عليها عصا أو حجراً سحرياً يمثل نوعاً من الجرذان الذي يتمتع بشاربين طويلين. بهذا تنتقل خاصية الشاربين الطويلين بشكل طبيعي إلى العصا أو الحجر الذي يمثل الجرذ ثم إلى الذقن التي تنعم نتيجة لذلك بنمو وفير للِّحية. كما اعتقد الإغريق القدامى أن أكل لحم بومة متيقظة يمنع الإنسان من النوم؛ وكذلك يمكنك أن تجعل نظر الأعشى كنظر النسر عن طريق دهن عينيه بمرارة النسر؛ وكذلك تستطيع بيوض الغراب إعادة السواد إلى الشعر الأشيب، لكن على من يريد من أولئك أن يصلح ما أفسده

الزمن عليه أن يحرص على الإبقاء على فمه فاغراً في أثناء وضع البيض على شعره كي لا ينتقل السواد إلى أسنانه كما انتقل إلى شعره ولو حصل هذا لما استطاع أن يعيد بياض أسنانه مهما بلغت قوة الفرك. إنها صبغة قوية وباستخدامها تحصل على فوائد أكثر بكثير مما تتوقع.

لقد أثارت الأشكال الجميلة على ظهر الأفاعي إعجاب هنود الهويكول، لذلك يقوم زوج المرأة التي تهم بالحياكة أو التطريز بالتقاط حية كبيرة ويضعها على عصا مشقوقة وتقوم المرأة بتمرير يدها ملامسة ظهر الأفعى من أوله حتى آخره ثم تمرر يدها على جبينها وعينيها كي تتمكن من إنجاز نماذج الأشكال المتشابكة على ظهر الأفعى.

وانطلاقاً من مبدأ السحر التعاطفي التجانسي، تستطيع الأشياء الجامدة تماماً مثل النباتات والحيوانات أن تنشر بركتها أو لعنتها على المحيط الذي توجد فيه. و حسب طبائعها ومهارته يستطيع الساحر أن يسمح بمرور تيار السعادة أو الحزن أو يمنعهما. لذلك تقوم النساء في سمرقند بدهن راحة كف الطفل بالغراء عندما يطعمنه قطعة سكاكر ليمصها لأن هذا سيجعل كلماته حلوة عندما يكبر ويساعد على التصاق الأشياء الثمينة على يديه وكأنها مغرَّاة. كما كان يعتقد الإغريق أن ارتداء فروة نعجة مزقها الذئب تنزل الأذى في لابسها فتتسبب له بالحك والتهيج في جلده. كما ساد عندهم الرأي القائل بأن وضع حجر عضَّه رجلٌ ما في إناء من الخمر يسبب التشاجر بين كل من يشرب من ذلك الخمر. كما جرت العادة عند عرب مؤاب بأن تستعير المرأة التي لم تنجب طفلاً ثوباً من امراة أنجبت الكثير من الأطفال على أمل أن تحصل على إثمارية صاحبة الثوب. وكذلك القفر من قوم سوفالا يحزنون شديد الحزن إذا ما ضُرِبوا بشئ أجوف مثل قصبة أو قش بل يفضلون أن يُضْرَبوا بعصا غليظة أو قضيب معدني مع أنه ينزل بهم أذى كبيراً. ويعود لاعتقادهم أن من يُضْرَب بشئ أجوف سيعاني من ضياع جوهره طوال عمره. كذلك هناك صَدَفَة كبيرة في البحار الشرقية يُطْلِقُ عليها البوغين من قبائل السيليب اسم الرجل المسن. في أيام الجُمَع يقومون بقلب أولئك الرجال المسنين أي الصدفات رأساً على عقب ويضعونها على عتبة بيوتهم معتقدين أن كل من يخطو فوق هذه الصدفات سيطول عمره حتى يصبح مسناً. في البداية كان يُطلَب من صبي

البراهمان وهم الطبقة الكهنوتية العليا عند الهندوس أن يدوس برجله اليمنى على الحجر في حين يكررون الكلمات التالية:

" دُس على الحجر؛ و كن صلباً كالحجر."

كما يقومون بهذا الطقس نفسه مكررين الكلمات نفسها عند زواج العروس البراهمانية. وفي مدغشقر يعمدون إلى دفن حجر في أسفل العمود الرئيسي للبيت وذلك ليعكسوا الحظ العاثر. وما القسم الذي يُقْسَم على الحجر إلا ليأخذ القسم قوة وثباتاً كالحجر. لذلك يروي لنا المؤرخ الدانمركي ساكسو غراماتيكوس قائلا:

" جرت العادة عند القدامى عندما كانوا يختارون ملكاً أن يقفوا على حجر مزروع في الأرض ويعلنوا أصواتهم لكي يستوحوا من الحجر ثباته ويمنحوا فعلهم صفة الديمومة. "

هناك فعالية سحرية تكمن في جميع الحجارة بشكل عام بسبب خاصيتين تشملهما جميعاً وهما الوزن والصلابة. لكن تتفرد حجارة معينة بفضائل سحرية مميزة حسب ميزاتها الخاصة مثل شكلها ولونها. فمثلاً استخدم هنود البيرو حجارة معينة على شكل رأس كوز الذرة لجعل الذرة أوفر، واستخدموا لرفع عدد الأغنام حجارة على شكل غنمة وكذلك حجارة أخرى للبطاطا.

ساد اعتقاد مشابه في ميلانيسيا وهو أن لبعض الحجارة قوى إعجازية تتناسب مع شكلها وطبيعتها. مثال على ذلك قطعة المرجان التي حتتها مياه الشاطئ والتي تشبه إلى حد مدهش ثمرة الخبز لذلك يقوم الإنسان الذي يجد حجراً كهذا في جزر بانكس بوضعها على جذر أشجار الخبز معتقداً أنها ستجعل الشجرة تزيد من حملها. وفي حال أتت النتائج مؤاتية لتوقعاته يضع حجارة أقل شبهاً لأناس آخرين بجانب حجره كي يسبغ عليها القوة السحرية التي تسكن حجره. وكذلك يعتقدون أن الحجارة التي عليها أشكال دائرية تجلب المال الوفير. وإذا ما وجد أحدهم حجراً كبيراً مع عدد من حجارة أصغر تحتها – مثل خنزيرة على كومة الزبالة – يصبح واثقاً أن التبرع بالمال على تلك الحجارة سيجلب له الخنازير. في هذه الحالات وحالات أخرى مشابهة يعزو الميلانسيون القوة السحرية ليس للحجر نفسه بل للروح التي تسكن فيه. لذلك يسعى أحدهم لكسب ودّ الروح من خلال وضع العطايا على ذلك

الحجر. لكن مفهوم كسب ود الأرواح يقع خارج دائرة السحر ويدخل في دائرة الدين. وعندما يوجد هذا المفهوم في المنطقة المشتركة مع أفكار وممارسة سحرية بحتة، من المفترض أن تكون تلك الأفكار أو الممارسة هي أصل المفهوم الديني الذي يتم تطعيمه في مرحلة أكثر تقدماً. نقول هذا لأن هناك أرضية قوية للاعتقاد أنه في مسيرة تطور الفكر يسبق السحرُ الدينَ. سنعود لهذه النقطة قريباً جداً.

في مخزون القدامى الكثير من الميزات السحرية للحجارة النفيسة ومن المنطقي جداً أنهم ارتدوا تلك الحجارة لأنها تجلب الحظ الجيد قبل أن تكون مجرد مواد للزينة. لذلك أطلق الإغريق القدامى اسم شجرة العقيق على الحجر الذي يحمل آثاراً تشبه الشجرة. واعتقدوا أن ربط قطعتين من تلك الحجارة على قرني أو رقبة الثور الذي يحرث يجلب المحصول الوفير. كما تخيلوا أن حجر الحليب يدرُّ الحليب الوفير عند الأم التي تشربه منحلاً مع العسل. مازال حجر الحليب يستخدم للغرض نفسه من قبل نساء كريت وميلوس حتى يومنا هذا، وفي ألبانيا ترتدي المرضعات ذلك الحجر كي يؤمن لها حليباً مدرارا. وآمن الإغريق بقدرة حجر معين على الإشفاء من عضة الأفعى ومن هنا أُطلِق على الحجر اسم " حجر الأفعى " ويستخدم عن طريق سحنه حتى يصبح مسحوقاً ثم يُرَشّ على الجرح. أما حجر الجمشت ذو اللون الخمري فيأخذ اسمه من كلمة بمعنى (غير سكران) لأن من يلبسه يظل مُقِلاً من شرب الخمر. أما الأخَوان اللذان يرغبان في أن يعيشا متوحدين فيلبسان قطعتين مغنطيسيتين تشدهما إلى بعضهما بعضاً وتمنعانهما من الخصام.

أتى في كتب الهندوس القديمة قاعدة تقول أنه يجب على الرجل في ليلة زفافه أن يجلس وزوجته بعد الغروب صامتين حتى تتألق النجوم في السماء. وعند ظهور نجم القطب عليه أن يخاطب ذلك النجم قائلاً:

" ألا أيها النجم الثابت، أراك أثبت النجوم، كن معي ثابتاً، كن ناصراً لي "

ثم يلتفت إلى زوجته ويقول:

" لقد منحني إياك بريهاسباتي، كي تنجبي مني الذرية أنا زوجك وتعيشي معي مائة خريفاً "

الواضح هنا أن المقصود من هذا الطقس هو الحماية من تقلب الحظ وزوال النعيم بمساعدة النجم الثابت لِمَا فيه من تأثير دائم. أنها الرغبة التي عبَّر عنها الشاعر الإنكليزي كيتس في السونيتا الأخيرة له:

ألا أيها النجم المتألق، ليتني ثابتاً مثلك

ولست في بهاء فريد في قبة الليل.

كان لابد لسكان السواحل من الوقوع تحت تأثير مشهد المد والجزر، وحري بهم أن يجدوا علاقة دقيقة وتناغماً خفياً بين المد والجزر من جهة وحياة الإنسان أو الحيوانات أو النباتات من جهة أخرى، كل هذا ينضوي تحت مبادئ الفلسفة البدائية للتعاطف والتشابه. لم يروا في المد مجرد رمزاً بل وجدوا فيه سبباً للخير والإزدهار والحياة. في حين وجدوا في الجزر رمزاً كئيباً للإخفاق بالإضافة إلى أنه قوة حقيقية تؤدي إلى الضعف والموت. يتصور الفلاح في بريتون أن بدَارَ البرسيم ينمو بقوة في أثناء المد أما إذا ما تم البدار في أثناء الجزر فلن يبلغ نموه الكامل ويسبب الانتفاخ والموت للبقرة التي تأكله. وتعتقد زوجة ذلك الفلاح أنه يمكن صنع أفضل الزبدة عندما ينتهي الجزر ويبدأ المد حينما يظل الحليب يرغي في الوعاء حتى تنقضي ساعة المد، وأن الماء المنضوح من البئر أو الحليب المحلوب من البقرة في أثناء المد يغلي في الوعاء حتى يطفطف على النار. وحسب رأي بعض القدامى أن جلد الفقمة حتى بعد انفصالها عن جسمها يبقى في تعاطف خفيّ مع البحر كما لوحظ انزعاج تلك الجلود في أثناء الجزر. وهناك اعتقاد قديم آخر يُنسَب إلى أرسطو مفاده أن الكائن لا يمكن أن يموت إلا في أثناء الجزر. وإذا ما وثقنا بالكاتب الروماني القديم بليني فإن هذا مثبت بالتجربة التي أُجريت على الكائنات البشرية على سواحل فرنسا. وهذا فيلوستراتوس يؤكد لنا من مدينة كاديز في جنوب غرب إسبانيا أن المحتضرين لايسلمون أرواحهم مادام المد قائماً. ويسود هذا التصور في بعض أنحاء أوروبا. ويعتقد الناس على ساحل كانتابريان أن المصابين بمرض عضال لا يقضون إلا عند تراجع المد. في البرتغال وعلى طول ساحل ويلز وبعض المناطق على ساحل بريتاني وهي مدينة جنوب غرب فرنسا يسود اعتقاد أن الولادات تحصل عندما يكون المد قادماً أما الوَفَيَات فتحصل عند قدوم الجزر. ويؤكد ديكنز وجود هذه الخرافة في إنكلترا قائلا على لسان السيد يغوتي:

" لايمكن أن يموت الناس على طول الساحل إلا عندما يكون المد في آخره ولايمكن أن يولدوا إلا عندما يكون المد في أوجهِ و لا يولدون بالشكل الصحيح إلا في أثناء الفيضان. "

كما يسود الاعتقاد أن معظم الوفيات تحصل عند الجزر على طول الساحل الإنكليزي من نورثمبرلاند وحتى كنت. ولابد أن شكسبير عاش هذا الاعتقاد لأنه جعل فالستف يموت كما ورد في نص المسرحية:

" بين الثانية عشرة والواحدة، عند انحسار المد."

و نجد من يعتقد بهذا على سواحل الهادي في أمريكا الشمالية بين قوم هايدا. فعندما يوشك الخيرون من هؤلاء القوم على الموت فإنه يرى جندولاً عليه بعض من أصدقائه الميتين أتين مع المد ويرحبون به في أرض الأرواح قائلين:

" تعال معنا الآن لأن المد على وشك الانحسار وعلينا المغادرة. "

وفي ميناء ستيفنز في ويلز الجنوبية الجديدة يدفن السكان الأصليون موتاهم عند أوج المد وليس في الجزر لكي لا تحمل المياه المنحسرة روح الميت إلى بلاد بعيدة.

و لكي يضمن الصينيون عمراً مديداً يلجأون إلى سلسلة معقدة من الأعمال السحرية التي تؤكد وجود الجوهر السحري المنبثق من المبادئ التعاطفية التجانسية من الأوقات والفصول ومن الأشخاص والأشياء. والغريب أنهم يستخدمون الكفن كأداة لذلك السحر. يعمد الكثير من الصينين إلى تأمين كفنهم وهم أحياء ويطلب معظمهم من عذراوات أو صبايا في مقتبل شبابهن أن يقصصنه ويخطنه لهم. إنهم يحسبون الأمر بحكمة على الشكل التالي: بما أنه من المرجح أن أمام الصبيَّة عمراً طويلاً أمامها لتعيشه فإن جزءاً من قوة الحياة ستنتقل بالتأكيد إلى القماش وبهذا يؤخرون استخدامه ككفن سنوات طويلة قادمة. ومن المفضل أن يُصنَع الكفن في سنة كبيسة لأنه وحسب تفكير الصينين الكفن المصنوع في سنة طولها غير عادي يمتلك القدرة على إطالة العمر لدرجة غير عادية. من بين أجزاء الكفن هناك قطعة يسرفون في صنعها ليسبغوا عليها ميزة ثمينة. إنها عباءة حريرية طويلة من أعمق درجات الأزرق مطرز عليه بخيطان من الذهب كلمتا العمر المديد. تُعْرَف هذه القطعة بعباءة العمر المديد وتُعتَبَر عند الصينين علامة على رعاية الأولاد لوالديهم

وإشارة دقيقة إلى طاعتهم. وبما أن الغرض من العباءة هو إطالة العمر فإن صاحبها يلبسها في مناسبات احتفالية خاصة ليجعل أثر العمر المديد الناتج عن الحروف الذهبية الكثيرة المزينة بها يأخذ مفعوله الكامل. و لايفوت الصيني أبداً ارتداء تلك العباءة في عيد ميلاده لأن المتعارف عند الصينين أن يستجمع المرء طاقته الكاملة في عيد ميلاده كي يصرف تلك الطاقة على صحته بقية ذلك العام. مزدهياً في طيلسانه الباهر، وراشفاً لآثاره المباركة من كل سُمٍّ في جلده، يتقبَّل صاحب العباءة التهاني بكل اعتزاز من أصدقائه وأقربائه الذين يعبِّرون بحرارة عن إعجابهم بهذا اللباس الرسمي وعن طاعة الأولاد الذين قدموا هذه الهدية الثمينة والمفيدة لمن كان مصدر وجودهم.

هناك تطبيق آخر لمبدأ الشبيه يأتي بشبيهه في المعتقدات الصينية وهو اعتبارهم شكل المدينة ذا تأثير بالغ على مصيرها. و لابد لهذا المصير من أن يتغير عند تغيير المعالم التي تسهم في شكل المدينة. مثال على هذا مدينة تسون تشوفو التي تشبه بخطوطها العريضة سمك الشبوط. ظلت هذه المدينة عرضة للسلب والنهب المتكررين من قبل مدينة مجاورة تشبه بشكلها شبكة الصيد حتى أدرك أهل المدينة السابقة ذلك فأقاموا معبدين طويلين في منتصفها. مازال هذان المعبدان يرتفعان كبرجين في مدينة تسون تشوفو حتى الآن فهما يقومان منذ إقامتهما بتأثير إيجابي كبير لأنهما يعترضان الشبكة الخيالية قبل سقوطها وإمساكها بسمك الشبوط الخيالي. كذلك قام الحكماء في مدينة شنغهاي منذ أربعين عاماً باستخدام خبرتهم الطويلة في الكشف عن سبب التمرد المحلي. وأكدوا بعد تمحص طويل أن التمرد ناجم عن شكل المعبد الكبير الذي أُقيم حديثاً و لسوء الحظ على شكل سلحفاة وهي حيوان يحمل أسوأ الطباع. أصبحوا بعد ذلك أمام مشكلة عويصة وخطر مداهم لأنهم إذا تركوا المعبد قائماً سيسمحون باستمرار المشاكلات وربما بحدوث مشكلات أسوأ، وإذا هدموه سيكون هذا تصرفاً غير تقي. لكن العبقري أستاذ الضرب بالرمل كان بمستوى المشكلة واستطاع أن يذللها ويتفادى أخطارها عن طريق إنشاء بئرين يمثلان عيني السلحفاة ثم سارعوا إلى إعماء ذلك الحيوان سيء السمعة وجعلوه عاجزاً عن القيام بأي تصرف سيء.

يتم اللجوء أحياناً إلى السحر التعاطفي ـ التجانسي لمحق نذير الشؤم عن طريق التنكر. ويهدف السحر في هذه الحالة إلى ترويغ المُقَدَّر بوضع مصيبة مفتعلة لتحل محل المصيبة الفعلية. ففي مدغشقر تحول هذا النمط من خداع القدر إلى نظام متبع. وبما أنهم يؤمنون أن مصير الإنسان محسوم منذ ساعة ولادته، لا يمكن التهرب من مصيره السيء المحتوم إلا إذا أزحنا الأذى على حد تعبيرهم بواسطة البديل. وهناك طرق عديدة لانتزاع الأذى إحداها أن من يُولَد في الثاني من شباط فإن بيته سيحرق عندما يكبر، ولكي نمسك الزمن من ناصيته ونتفادى المصيبة يقوم أصدقاء الطفل بإقامة كوخ في البستان أو في الحظيرة ويحرقونه. ولنجعل الطقس فعالاً حقاً يجب أن تكون الأم وابنها في الكوخ عند حرقه ثم يُخْرَجان منه كالجمرة من النار قبل فوات الأوان. وكذلك الأمر في تشرين الثاني الرطب، شهر الدموع، من يولد فيه محكوم بالحزن ولكن لتفريق الغيوم التي تخيم على مستقبله عليه أن يرفع غطاء وعاء يغلي ويلوح به. ويتحقق قدره بالقطرات التي تنزل وبذلك تمنع الدموع من أن تسيل من عينيه. وإذا قضى القدر أن تأسو صبية لم تتزوج بعد على أطفالها الذين لم يولدوا بعد وتراهم ينزلون إلى قبرهم فإنها تستطيع تفادي المصيبة على الشكل التالي: يمكنها أن تقتل جندباً وتلفه في خرقة وكأنه كفن وتندب فوقه مثل راشيل التي ندبت فوق أولادها وترفض المواساة أو العزاء. ثم تأخذ اثني عشر جندباً أخرى وتقطع أجنحتها وأرجلها وتضعها بجوار الجندب الميت المُكَفَّن. يمثل طنين الحشرات المعذبة نحيب النادبين في الجنازة وتمثل الحركاتُ إلى اليمين وإلى اليسار اللطمَ. و بعد دفن الجندب الفقيد تترك الفتاة بقية الجنادب تتابع الندب حتى يخلصها الموت من آلامها. وبعد نبش شعرها تخرج من المقبرة وتعتلي عربة يسوقها شخص منغمس في الحزن. بعد هذا كله تتطلع بكل غبطة إلى رؤية أولادها الذين سيعيشون لتموت قبلهم لأنه لايمكن أن تَدْفُن وتَنْدُب مرتين. وإذا عبس الحظ في وجه إنسان منذ ولادته وحل الفقر عليه لم يبارحه أبداً يمكن أن يزيل هذا النحس عنه بشرائه لؤلؤتين رخيصتين ويقوم بدفنهما لأن الغني وحده الذي يرمي اللآليء.

3 ـ سحر العدوى

لقد ركزنا حتى الآن على الفرع التعاطفي للسحر الذي يمكن أن نسميه السحر التعاطفي ـ التجانسي أو سحر المحاكاة. وكما رأينا يرتكز على المبدأ الأساسي وهو أن الشبيه يأتي بشبيهه أو الأثر يشبه المؤثر. أما الفرع الثاني من السحر والذي سميناه سحر العدوى ينطلق من فكرة أن الأشياء التي كانت يوماً ما على اتصال لابد أن تبقى على اتصال تعاطفي حتى بعد انفصالها عن بعضها بعضاً بحيث يتأثر الشيء الأول مما يخضع له الشيء الثاني. وهنا نرى الخطأ الذي يقع فيه سحر العدوى وهو ترابط الأفكار الخاطئ تماماً كالذي وقع فيه السحر التعاطفي التجانسي. ويمكن القول إن السحر بنوعيه يعتمد على الأساس الفيزيائي نفسه وهو وسط مادي من نوع معين يشبه تماماً الأثير في الفيزياء المعاصرة. ومن المفترض أن يوحِّد ذلك الوسط الأجسام البعيدة وينقل الانطباع من طرف لآخر. وخير مثال على سحر العدوى هو ذلك الذي يفترض تعاطفاً سحرياً بين الشخص وأي جزء منفصل عنه مثل شعره وأظافره الذي يفرض إرادته على الشخص الذي قطعت منه تلك الأجزاء. تسود هذه الخرافة في جميع أنحاء العالم وسندرج أمثلة على الشعر والأظافر في وقت لاحق من هذا العمل.

شاع لدى بعض قبائل أستراليا ممارسة اقتلاع سن أو سنين من الجزء الأمامي من فم الصبي خلال طقوس إدخاله في محفل الرجال ولا يمكن أن يتمتع بحقوق وامتيازات الرجل الكامل حتى يخضع لهذا الطقس. مازال السبب وراء هذه الممارسة غامضاً ولكن ما يهمنا منه هو إيمانهم باستمرار العلاقة التعاطفية بين الفتى وأسنانه حتى بعد استخراجها من لثته. وكذلك نرى أن بعض القبائل حول نهر دارلنغ في ويلز الجنوبية الجديدة يضعون السن المستخرج تحت لحاء شجرة قرب النهر أو قرب بئر، وعندما ينمو اللحاء فوق السن يعرفون أن الصبي سيعاني من مرض في فمه. ولدى قبائل مورنغ وقبائل أخرى في ويلز الجنوبية الجديدة، يأخذ رجل مسن على عاتقه العناية بالسن المستخرج ويتم نقله من رئيس إلى آخر حتى يكون قد نُقِلَ في مجتمعه كله ليعود السن في النهاية إلى والد الفتى وبعدها إلى الفتى نفسه. ولكن يجب عند نقله من يد إلى يد ألا يوضع مطلقاً في حقيبة تحتوي مواد سحرية وإلا سيحدق بصاحب السن خطرٌ كبير. وقد تبنى الدكتور هاويت يوماً العناية

بأسنان استُخرجت من مستجدين في طقوس الدخول في عالم الرجولة وحينها طلب كبار القبيلة منه وبكل جديَّة ألا يحملها في حقيبة تحتوي أحجار كريستال. وبرروا ذلك بأن السحر سينتقل من الكريستال إلى الأسنان ومن ثم يؤذي الأولاد. وبعد سنة من عودة الدكتور هاويت من تلك الطقوس، زاره أحد رؤوس قبيلة المورنغ الذي كلف نفسه عناء السفر مسافة 400 كم تقريباً ليسترجع الأسنان. وقال أنه أُرسِلَ من قبلهم لأن أحد الصِّبْيَة قد أصابه مرض واعتقدوا أن أسنانه قد لحق بها أذى أثَّر في صحته. وأكد الدكتور له أن الأسنان بقيت في علبة بعيدة عن أية مواد يمكن أن تؤثر فيها مثل أحجار الكريستال؛ وعاد الرجل حاملاً الأسنان محجوبة وملفوفة بعناية بالغة.

يحرص قوم باسوتو على حجب الأسنان المستخرجة لئلا تقع في أيدي كائنات سحرية تسكن المقابر وتتمكن من إيذاء صاحبها بتطبيق السحر عليها. منذ خمسين سنة في سَسِكس احتجَّت إحدى الخادمات بشدة على رمي الأسنان اللبنية المتساقطة مؤكدة أنها لو وُجِدَت من قبل حيوان ما وقُضِمَت فإن السن الجديد للطفل سيكون حتماً مثل سن الحيوان الذي قضم السن القديم. ودعَّمَت تلك الخادمة قولها بمثال وهو السيد سيمون العجوز الذي عانى من وجود علة خَلقية في فكه الأعلى وهو سن خنزير كبير وكان يُرجِع تلك العلة إلى أمه التي رمت أحد أسنانه المتساقطة مصادفةً في معلف الخنازير. وهناك اعتقاد مشابه يعتمدعلى مبادئ السحر التعاطفي التجانسي جعل الناس يقومون بممارسة معينة ليستبدلوا الأسنان القديمة بأسنان جديدة أفضل. ففي أنحاء كثيرة من العالم اعتاد الناس على وضع الأسنان القديمة بمكان تستطيع الفئران أو الجرذان العثور عليه على أمل أن يستمر التعاطف بين الأسنان القديمة والجديدة فتحصل الجديدة منها على تَمَيُّز وقوة أسنان القوارض نفسها. ومثال على ذلك هو العرف المتبع في ألمانيا والذي يقضي بوضع الأسنان المقتلعة في جحر، وإذا طبَّقنا هذا على أسنان لبنية متساقطة لتخلَّص الطفل من ألم الأسنان. وهناك طريقة أخرى لتبقى أسنان الطفل سليمة وهي أن يذهب بسنه المتساقط خلف الموقد ويرميه من خلف ظهره قائلاً:

" أيها الفأر اعطني سنك الحديدي؛ وخذ سني العظمي."

وبعيداً عن أوروبا في راراتونغا في المحيط الهادي تتلى الصلاة التالية عن استخراج أسنان الأطفال:

" أيها الفأر الكبير، أيها الفأر الصغير

هذا سني القديم

أتضرع أن تمنحني سناً جديداً"

ثم يُرمى السن على سقف المنزل القشي لأن الفئران تعشش هناك. ويعود سبب مناشدة الفئران في هذا المقام إلى أن أسنان الفئران هي أقوى الأسنان بحدود معرفة أهالي المنطقة.

من بين الأجزاء الأخرى التي يعتقد أنها تبقى على اتصال تعاطفي بعد انفصالها فيزيائياً هي الحبل السري والمشيمة. هناك تواصل حميم بين المرء وتلك الأجزاء من حيث المصير الجيد أو السئ. فإذا تم التعامل مع الحبل السري والمشيمة بالشكل الصحيح وحُفِظَا بشكل جيد يترعرع صاحبهما، وإذا ضاعا أو تأذّيا فإن صاحبهما يعاني بشكل مشابه. لذلك ساد اعتقاد لدى قبائل معينة في أستراليا الغربية مفاده أن قدرة الرجل على السباحة مرهونة بالطريقة التي رمت فيها أمه المشيمة في الماء. كما يعتقد السكان الأصليون في كوينزلاند على نهر بينيفازر أن جزءاً من روح الطفل يبقى في مشيمته لذلك تأخذ الجدة المشيمة وتدفنها في الرمال ثم تقوم بوضع علامة على المكان بواسطة أغصان تثبتها في الأرض على شكل دائرة وتربطها من الأعلى ببعضها بعضاً فتبدو على شكل مخروط. وعندما أتى أنجيا ـ وهو الذي جعل الكثير من النساء تحمل عن طريق وضع أطفال من الطين في أرحامهن ـ ورأى المكان، أخذ الروح وحمله إلى مكان سكنه ـ وليكن شجرة مثلاً، أو فتحة في صخرة أو هور حيث تقيم الروح سنوات وسنوات. ليرجع يوماً ما ويعيد الروح إلى الطفل ويولد من جديد إلى هذا العالم. وفي بونابي وهي إحدى جزر كارولاين يوضع الحبل السري في صَدَفَة ويتخلصون من الصدفة بطريقة تتكيف مع المهنة التي اختارها الأهل لولدهم. أي يعلقونها في خيط على شجرة إذا أرادوا لابنهم أن يكون متسلقاً ماهراً. أما سكان جزيرة كاي فيعتبرون الحبل السري أخ الوليد أو أخته بحسب جنسه فيضعونه في وعاء على الرماد ويضعون الوعاء على أغصان شجرة كي تبقى تحت نظرهم للحفاظ على مصير الوليد. ومن بين الباتاك في سومطرة

وكذلك لدى الكثير من شعوب ارشيبيلاغو الهندية، تنتقل المشيمة إلى الأخ أو الأخت الأصغر كل حسب جنسه وتُدْفَن في المنزل. ويعتبرها الباتاك مرتبطة بسعادة الطفل ومقاماً للروح المتنقلة التي سنسمع عنها لاحقاً. أما باتاك الكارو فيؤكدون أن للإنسان روحين إحداها تعيش مدفونة بالمنزل وهي التي تجلب الأطفال.

كما يعتقد الباغاندا أن كل إنسان يولد ومعه روحان تتطابقان مع المشيمة التي يعتبرونها طفلاً ثانياً. تدفن الأم المشيمة عند جذر شجرة موز الجنة التي تعتبر مقدسة إلى أن ينضج ثمرها وتقطف لإقامة احتفال مقدس عند العائلة. وعند قوم شيروكي يُدْفَن الحبل السري للفتاة تحت هاون الحنطة لكي تكبر الفتاة وتصبح خبَّازة ماهرة أما حبل الصبي السري فيعلق على شجرة في الغابة لكي يصبح صياداً. كما يحفظ قوم الإنكا في البيرو الحبل السري بعناية فائقة ويجعلون الطفل يرضعه عندما يمرض. وفي المكسيك القديمة يعطون حبل الصبي السري للجنود كي يدفنوه في ساحة المعركة فيكتسب الصبي مَيْلاً للحرب. أما حبل الفتاة السري فيدفن قرب موقد الدار كي يمنحها حب المنزل ونَفَساً طيباً على الطبخ والخبز.

وحتى في أوروبا مازال يعتقد الكثير من الشعوب أن الحبل السري أو المشيمة هما اللذان يحددان مصير الطفل. لذلك يحتفظ أهل رينش بافاريا بالحبل السري لفترة معينة مغلفاً بالكتان وبعدها يوخز ويقطع بحسب جنسه ذكراً أم أنثى لكي يصبح صاحبه عاملاً ماهراً أو خياطة محترفة. وفي برلين تسلم القابلة الحبل السري جافاً للأب وتوصيه توصية شديدة كي يحافظ عليه لأن الطفل سيظل في مأمن من المرض ويكبر ويترعرع مادام الحبل السري مُصَان. وفي بيوس وبيرتش يحرص الناس على ألا يلقوا الحبل السري في الماء أو النار خشية أن يُحْرَق الولد أو يغرق.

في الكثير من أنحاء العالم يعتبر الحبل السري والأكثر منه المشيمة كائنين حيين، أخ الوليد أو أخته أو الجزء المادي الذي تقيم فيه الروح الحارسة. وما انتشار عادة معاملة المشيمة أو الحبل السري لاعتبارهما مؤثرين في شخصية وعمل الإنسان -كأن يكون متسلقاً حاذقاً أو جندياً شجاعاً، خياطة محترفة أو خبازة جيدة - إلاَّ دليل على العلاقة التعاطفية المفترضة بين الشخص ومشيمته أو حبله السري. وتعتبر المعتقدات الخاصة بالتعامل مع المشيمة وإلى حد أقل الحبل السري خطاً موازياً للتعاليم واسعة الانتشار عن تنقل الروح أو الروح الخارجية والعادات المعتمدة عليها

ومن التهور اعتبار هذا الربط بين المتشابهات مجرد مصادفة محضة بل في المشيمة أحد الأسس الملموسة على نظرية ممارسة الروح الخارجية. وسنتناول هذا الموضوع في قسم لاحق من هذا العمل.

هناك ممارسة طريفة لتعاليم سحر العدوى يعتمد على الاعتقاد واسع الانتشار الخاص بالعلاقة بين الجريح ومسبب الجرح أي كل ما يحصل لأداة الجرح ينتقل تأثيره سلباً أم ايجاباً إلى الجريح. لذلك يخبرنا بليني أنه إذا ما جَرَحْتَ رجلاً وندمت على فعلتك ما عليك إلا أن تبصق على اليد التي سببت الجرح فتخفف من ألمه. وفي ماليزيا عندما يحصل المرء على السهم الذي جرحه فإنه يحتفظ به في مكان رطب أو بين أوراق باردة فيَمثُل الإلتهاب إلى الشفاء السريع. أما الشخص الذي أطلق السهم فيكون في الوقت ذاته منشغلاً في جعل الجرح أسوأ مستخدماً كل وسيلة متاحة كأن يشرب مع زملائه عصيراً حاراً ويمضغ أوراقاً مهيِّجة لأنها تجعل الجرح يلتهب ويسوء كما يضع القوس قرب النار ليجعل الجرح ساخناً ولنفس الغرض يرمي رأس السهم في النار إذا استطاع الحصول عليه، كما يشدُّون وتر القوس من حين إلى آخر لتكون أعصاب الجريح متوترة والتهابه مُتَّقِداً. و يقول باكون:

" من المؤكد أن دهن السلاح الذي سبب الجرح يسرِّع بالتئام الجرح نفسه. و تبين هذه التجربة (التي لم أقتنع بها كلياً حتى الآن) النقاط التالية:

أولاً: يصنع المرهم الذي يدهن به من مكونات عديدة أغربها هو أشنيات نمت على جمجمة رجل مات ولم يدفن وشحم خنزير غير مخصي قُتِلَ في أثناء الولادة. "

ويؤكد الفيلسوف أن هذا المرهم النفيس يُدهن على السلاح. وإذا أُزيل المرهم عن السلاح مهما كان الجريح بعيداً وجاهلاً كل الجهل لما يحصل يعاني الجريح من نوبة ألم شديدة ولا يخفّ الألم حتى يعاد الدهن ثانيةً. و تابع قائلاً:

" وإذا عجزت عن الحصول على السلاح نفسه تستطيع أن تضع أداة معدنية أو خشبية تشبه السلاح في الجرح حيث ينزف فيقوم المرهم المدهون على السلاح بدوره الفعال. "

مازال هذا العلاج الذي ركز عليه بيكون لأنه يعتبره ناجعاً مازال شائعاً حتى الآن في مقاطعات انكلترا الشرقية. ففي سفولك عندما يُجْرَحُ رجل بمنجل أو صنارة

صيد يعتني بالأداة التي سببت له الجرح ويحافظ عليها لامعةً براقة ومدهونة بالزيت لتمنع الجرح من التقيح. وإذا غرزت شوكة في أحدهم أو كما يسمونها غصناً فإنه يرطب ويزيت الشوكة المستخرجة. ذات مرة أتى رجل إلى الطبيب يشكو من التهاب في يده من جراء شوكة دخلت فيها وهو يسيج الحقل، وعندما أخبره الطبيب أن يده تعاني من التهاب رد المريض قائلاً:

" لايمكن أن يحصل هذا لأني زيَّتُ الشوكة بعد أن اقتلعتها."

وإذا وطئ حصان على مسمار يقوم السائس بالاحتفاظ بالمسمار، ينظفه ويزيته كل يوم ليمنع حافر الحصان من التقيح. كذلك يعتقد عمال كامبردجشاير أنه إذا دخل مسمار حافر الحصان من الضروري تشحيم المسمار ووضعه في مكان آمن وإلا استعصى الشفاء على الحصان. ومنذ بضع سنين ذهب طبيب بيطري للعناية بحصان انفتح جانبه عندما انشق على عمود بوابة الحقل. ولدى وصول الطبيب إلى الحقل وجد أن المزارع لم يقم بأي إجراء للحصان بل انشغل بالمفصلة التي سببت الجرح وراح يزيتها ليساعد الحصان على الشفاء مهملاً رأي الطبيب المتعلم القادم من كامبردج. وكذلك يرى البسطاء أنه إذا ما طُعِنَ رجل بسكين لابد من تزييت السكين ووضعها بشكل معارض للسرير الذي يستلقي عليه المريض. وفي بافاريا يُنْصَح بتزييت قطعة من قماش الكتان وربطها على طرف الفأس الذي كان سبب الجرح شرط أن تكون الحافة الحادة موجهة نحو الأعلى، وما أن يجف الزيت على القماش حتى يشفى الجرح. وكذلك يقولون في جبال هارتز: عندما تجرح نفسك عليك أن تدهن السكين أو المقص بالشحم وتضعها في مكان جاف باسم الآب والأبن والروح القدس. وعندما تجف السكين يشفى الجرح. وهناك أيضاً أناس في ألمانيا يقولون أنه عليك أن تغرز السكين في مكان رطب في الأرض ويشفى جرحك عندما تصدأ السكين. وهناك أناس في بافاريا ينصحون باستخدام الدم في دهن الفأس أو الأداة الحادة ووضعها تحت الطنف أو الإفريز.

يذهب السكان الأصليون في أواسط أستراليا إلى درجة أعمق في مَنْطَقَةِ الأفكار أكثر مما يذهب إليه البسطاء في إنكلترا وألمانيا وأيضا الهمج في ميلانيسيا وأمريكا. فهم يدركون في ظروف محددة ضرورة تزييت أقارب الجريح لأنفسهم وتحديد طعامهم وضبط سلوكهم ليضمنوا شفاء مريضهم. لذلك تمتنع الأم

عن أكل لحم حيوان البوسوم عندما يتأخر شفاء ابنها من جرح الختان، وكذلك تمتنع عن أكل نوع معين من السحالي أو أفعى السجاد أو أي نوع من الشحوم كي لا تعيق شفاء ابنها. وتتابع تزييت العصي التي تحفر بها يومياً وتبقيها تحت ناظرها وقريبة من رأسها عند النوم ولاتسمح لأحد أن يلمسها. كذلك تدهن جسمها بالزيت يومياً فهذا يساعد ابنها بشكل ما على الشفاء. وهناك تطوير لاستخدام المبدأ ذاته عند الفلاحين الألمان البسطاء إذ يقوم الفلاح في بافاريا الرين وآلهي عندما تُكْسَر إحدى أرجل خنزيره أو شاته يقوم بربط قائمة الكرسي بضماد وجبيرة بالشكل المعتاد. ويبقى الكرسي تحت العناية لايجلس عليه أحد أو يحركه أو يدق عليه لأن هذا يسبب الألم للشاة أو الخنزير المريض ويؤخر شفاءه. من الواضح أنه في المثال الأخير قد خرجنا عن نطاق سحر العدوى ودخلنا في مجال السحر التعاطفي ـ التجانسي أو سحر المحاكاة إذ لا تنتمي رجل الكرسي على الإطلاق لرجل الشاة وما استخدام الضماد إلا تشابه زائف للعلاج الذي أحرى به أن يطبق على المريض الحقيقي.

تعتمد العلاقة التعاطفية المفترضة بين المريض والسلاح الذي سبب الأذى على فكرة أن الدم الموجود على السلاح يستمر بتبادل الشعور مع الدم الموجود في الجسم. ولأسباب مشابهة يحرص أهالي بابوان في تمليو وهي جزيرة على مقربة من غينيا الجديدة على إلقاء الضماد الذي استخدم على جروحهم في البحر خشية أن تقع تلك الخرق بأيدي الأعداء فيستخدمونها لأغراض سحرية. وذات مرة أتى أحدهم إلى البعثة التبشيرية طالباً معالجة جرح في فمه، فحرصت زوجته المخلصة كل الحرص على أن تجمع الضمادات المدماة كلها وترميها في البحر. قد تبدو هذه الفكرة غريبة علينا لكنها ليست كذلك عندما نؤمن بالعلاقة السحرية التعاطفية بين الشخص وملابسه أي كل مايحصل للملابس لابد أن يشعر به صاحب تلك الملابس مهما كان بعيداً عنها في ذلك الوقت. وعند قبيلة وتجوباولوك في فيكتوريا يحاول الساحر الحصول على بساط الرجل المصنوع من جلد حيوان الأبوسوم ويقوم بتحميصة رويداً رويداً على النار فيقع صاحب البساط في المرض وهو يقوم بذلك. وإذا ما أراد الساحر أن يبطل السحر يعطيه لأحد أصدقاء الرجل المريض ويطلب منه وضعه في الماء كي يتم غسل النارعنه. وعندما يقومون بذلك يشعر الرجل بالانتعاش

وربما يشفى. وفي تانا حاول أحد أهالي هيبرايدز وكان يضمر ضغينة شديدة لشخص آخر لدرجة أنه يتمنى له الموت، حاول الحصول على قطعة قماش لامست عرق جسم عدوِّه، وعندما نجح في ذلك راح يفرك قطعة القماش بأوراق وأغصان شجرة معينة. ثم لف القماش والأوراق والأغصان على شكل صرة مثل السجق وراح يحرقها ببطء. وما إن انتهى من حرقها حتى سقطت الضحية مريضة، وعندما تحولت إلى رماد مات الرجل المقصود. في هذا السحر الأخير ليس السحر التعاطفي بين القماش والرجل فَحَسْبْ، بل بين الرجل والعرق الذي خرج من جسمه. ولكن في حالات أخرى من هذا النوع من السحر مجرد قطعة الثياب تكفي لتَحَكُّم الساحر بالضحية. لذلك عندما كانت ساحرة من ثيوكريتوس تذيب صورة من الشمع كي تجعل عشيقها غير المخلص لها يذوب بحبها، لم تنس أن ترمي في النار قطعة قماش سقطت من عباءته في بيتها. وفي بروسيا يقولون أنك عندما تعجز عن الإمساك باللص يمكنك التقاط قطعة ثياب وقعت منه في أثناء هربه ثم تضربها بعنف كي يمرض اللص. لهذا الاعتقاد جذور عميقة في العقلية الشعبية فمنذ ثمانين أو تسعين سنة ضُبط رجل يسرق العسل في منطقة قريبة من بيريند فهرب الرجل تاركاً معطفه خلفه. وعندما علم بسخط صاحب العسل عليه وسمع أنه يضرب المعطف بقسوة أصابته الرهبة والذعر حتى لجأ إلى فراشه ثم مات.

ويمكن تطبيق السحر بدقة على شخص ما بالتعاطف ليس من خلال ملابسه أو أجزاء من جسمه فقط بل من خلال أثره على الرمال أيضاً. إنها خرافة منتشرة في جميع أنحاء العالم وهي إيذاء أقدام الشخص عن طريق إيذاء أثر أقدامه على الأرض. وفي جنوب شرق أستراليا يعتقد الناس أنهم يستطيعون أن يجعلوا الشخص أعرج إذا وضعوا قطعة حادة مثل الزجاج أو العظم أو الفحم الحجري في بصمة قدمه. وعندما رأى هاويت رجلاً من تاتونغولانغ يعرج سأله عن مشكلته فقال:

" لقد وضع أحدهم قارورة في قدمي"

كان يعاني من الروماتيزم لكنه ظن أن عدواً تقفّى أثر قدمه ودفن قطعة من زجاجة مكسورة فيه فدخل أثرها السحري إلى قدمه.

سادت ممارسات مشابهة في أنحاء كثيرة من أوروبا. فمثلاً يعتقد الناس في ميكلنبورغ أنه إذا ما أدخلت مسماراً في بصمة قدمٍ يغدو صاحبها أعرج. وأحياناً

يُطْلَبُ ممن يريد فعل ذلك أن يأتي بمسمار من تابوت. وفي بعض مناطق فرنسا يمكن اللجوء لطريقة مشابهة كي ينزل أحدهم الأذى بعدوه إذ يُروى عن ساحرة كانت تتردد على ستو في سافولك فوضع أحدهم مسماراً في بصمة قدمها فصارت عاجزة عن المشي ثمة خطوة واحدة حتى يتم نزع المسمار من البصمة. وفي المنطقة الجنوبية من سلافيا تلجأ الفتاة إلى أخذ بعض التراب من بصمة الرجل الذي تحب وتضعه في آنية الزهر ثم تزرع نبتة القطيفة وهي نوع من الزهور التي يعتقد أنها لا تذبل، مادام أن براعمها تزهر ولا تذبل كذلك يصبح حب عشيقها دائماً لا يذوي. وبهذا يأخذ سحر الحب مفعوله من خلال التراب الذي يطأ عليه الرجل. وهناك طريقة دانمركية قديمة تعتمد على العلاقة التعاطفية نفسها بين الرجل وبصمة قدمه، إذ كانوا عندما يوشكون على إبرام معاهدة ما يقوم الطرفان برشٍّ بصمات أقدام بعضهما بعضاً بدمهم الخاص لتوثيق العهد. وهناك خرافات من النوع نفسه سادت عند الإغريق القدامى وهي أنه إذا داس حصان على بصمة قدم ذئب يُصَاب الحصان بفقدان الحس وهناك قاعدة عامة تُعزَى لبايثاغوراس وهي: يمنع على الناس دق المسامير أو طعن بصمات الأقدام بالسكاكين.

استخدم الصيادون الخرافة نفسها في أنحاء كثيرة من العالم بهدف استدراج الطريدة. فمثلاً يلجأ الصياد الألماني إلى دق مسمار مُقتَلع من تابوت في روث طريدة حديث العهد معتقداً أن هذا يعيق الحيوان في هروبه. أما سكان فيكتوريا الأصليون فيضعون جمراً في أثر الحيوانات التي يطاردونها. ويأخذ صيادو هوتنتوت حفنة رمل من بصمات أقدام الطريدة ثم يرمونها في الهواء معتقدين أن هذا يجعل الحيوان يهبط. كما اعتاد هنزد ثومبسون وضع السحر على أثر الأيل الجريح؛ ولا يجدون ضرورة في متابعته بعد ذلك لأنه لم يعد قادراً على الإنتقال إلى مسافة بعيدة وسوف يموت. وكذلك هنود أوجيبواي الذين يضعون دواءً معيناً على أثر أول أيل أو دب يصادفونه ظانين أن هذا سيجلب الحيوان إلى مرأىً منهم حتى لو مضى على مروره من هناك رحلة يومين أو ثلاثة أيام لأن هذا السحر يختزل رحلة عدة أيام لتصبح عدة ساعات. أما صيادو قوم إيوي في غرب أفريقيا فيقومون بطعن بصمات الأقدام بعصا حادة الرأس ليجرحوا الطريدة ويتمكنوا من اللحاق بها.

تعتبر بصمة القدم الأثر الأكثر وضوحاً للإنسان لكنها ليست الوحيدة التي يمكن تطبيق السحر عليها. فمثلاً يعتقد السكان الأصليون في جنوب شرق أستراليا أن دفن قطع زجاجية أو حجارة حادة في مضجع المرء يمكن أن يسبب له الأذى. وتأخذ هذه الأشياء الحادة مفعولها خلال دخولها الجسم والتسبب بآلام حادة يعزوها الجاهلون الأوربيون إلى الروماتيزم. هنا نستطيع فهم الدافع وراء القاعدة المتبعة في بايثاغوريا وهي وجوب إزالة أثرك عن قماش السرير الذي نهضت منه. يُعتبر التصرف مجرد احتراس من السحر وهو واحد من عادات سلوكية كثيرة تشكل قواعد خرافية أَسَّسَها الآباء في بايثاغوراس والتي كانت بلا شك متبعة عند الأجداد برابرة الأغريق قبل عهد ذلك الفيلسوف.

4 ـ تطور الساحر

لقد انتهينا حتى الآن من دراسة المبادئ العامة للسحر التعاطفي وسقناها لنشرح تلك المبادئ أمثلة في مجال السحر الشخصي أي الطقوس السحرية والرقيات أو التعويذات التي مُورست بهدف تحقيق مصلحة أشخاص وأيذاء أشخاص آخرين. هناك في المجتمع البدائي ما يمكن أن نسميه السحر العام أي السحر الذي مورس لأغراض المجتمع كله. وعندما يُمَارس هذا السحر لأجل المصلحة العامة لا يعود القائم عليه مجرد ساحر خاص بل موظفاً رسمياً إلى حد ما وكان لنشأة هذه الطبقة من السحرة أهمية سياسية كبيرة بالإضافة إلى دورها الكبير في التطور الديني في المجتمع. وعندما تعتمد القبيلة في ازدهارها على أداء الطقوس السحرية يتبوأ السَّحرة موقعاً مهماً وسمعة رفيعة تجعلهم مؤهلين لتسلُّم السلطة من خلال منصب القائد أو الملك. لهذا استقطبت هذه المهنة إلى صفوفها أذكى الأشخاص وأكثرهم طموحاً في القبيلة لأنها تضع بين أيديهم مستقبل القبيلة ومسؤوليات لاتستطيع أية مهنة أخرى أن تتحملها مثل حكم القبيلة وشرفها وثروتها. أدركت العقول الذكية والمرهفة سهولة خداع إخوانهم الأضعف فاستخدموا الشعوذة لمصلحتهم. ولم يكن الساحر دائماً مخادعاً دجالاً بل كان في غالب الأحيان مقتنعاً كل الاقتناع بامتلاكه تلك القوى التي يعزوها إليه أفراد قبيلته ويميلون إلى الإيمان بوجودها لديه. وكلما كان الساحر أكثر حصافة كلما كان أقدر على فرض المغالطات على العقول الأضعف.

لذلك يمكن القول إن أعضاء المهنة الأكفاء هم الذين يدركون طبيعة عملهم المخادعة، وهم الوحيدون الذين يستطيعون بفضل قدراتهم المتميزة الوصول إلى مناصب عليا يصبح بيدهم الأمر والنهي. أما المآزق التي تواجههم فهي كثيرة ولايستطيع اجتيازها إلا الرجل الذي يملك الرأس الأبرد والذكاء الحاد ليخرج منها بأمان. ويجب ألا ننسى أبداً أنه ما من مطلب أو نذر أكثر زيفاً من الذي يطلبه الساحر ولا يمكن بلوغ هذا النذر إلا بالخداع مقصوداً كان أم غير مقصود. وبناء عليه فالساحر فائق الإيمان بمطالبه المفرطة مُعَرَّضٌ لخطر فقدان مهنته أكثر من ذاك المخادع القاصد لخداعه. يتوقع الساحر المخلص أن تأتي تعاويذه أُكُلَها المنتظرة، وعندما يخفق في ذلك (و في حقيقة الأمر هو دائماً يخفق) ويظهر إخفاقه (كما يحصل غالباً) ويتأخر خلافاً لزملائه المخادعين في إيجاد مبررات لإخفاقه فإنه يُسْتَبْعَدُ من عمله ويتلقى ضرباً على رأسه من قبل الساخطين الذين يعمل الساحر لحسابهم.

نستنتج من كل هذا أنه في هذه المرحلة من التطور الاجتماعي يرجع وقوع السلطة في أيدي أناس ذوي ذكاء عالي المستوى وأخلاقيات منحطَّة. وإذا ما تمت الموازنة بين ضرر خداعهم من جهة والمنافع التي يؤدونها بحصافتهم الفائقة من جهة أخرى فإن خيرهم يُرجَّح على شرهم. وكم من شرفاء حمقى أنزلوا الضرر في مواقعهم العالية أكثر مما يفعله الأوغاد. وما أن يبلغ الغشاش الداهية مأربه الشخصي وطموحه الأعلى حتى ينقلب في غالب الأحيان فيستخدم مواهبه وخبراته وقدراته لخدمة العامة. كثير من الرجال سلكوا أدنى الطرق الأخلاقية لبلوغ هدفهم في مجال الثروة أو السلطة السياسية أو غيرها واستخدموها بعد ذلك استخداماً فائق الفائدة. وفي مجال السياسة يمكن للمخادع المحترف والمنتصر الذي لا يرحم أن يتحول إلى ذلك الحاكم الحكيم الشهم الذي يبَجَّل في حياته ويُرثى له عند موته وتعجب الأجيال القادمة به وتصفق له. وأفضل مثالين على هذين النوعين من الرجال هما يوليوس قيصر وأغسطس. أما الأحمق فهو دائماً أحمق وكلما كانت الصلاحيات أوسع بين يديه كلما شكل خطراً أكبر في استخدامها. من أكبر الكوارث في التاريخ البريطاني هي انقطاع العلاقات الودية مع أميركا وما كان هذا ليحصل لولا أن جورج الثالث مغفل وشريف.

برز تأثير مهنة السحر العام على بنية المجتمع البدائي خلال وضع أمر الفصل في قضاياه في أيدي الإنسان الأقدر وتحويله ميزان القوى من الجماعة إلى الفرد والاستعاضة عن الديمقراطية، أو بالأحرى حكومة الأقلية المسنين، بالملكية لأنه على العموم لم يحكم المجتمع البدائي هيئة من الذكور البالغين بل مجلس الكبار. ومهما كانت الأسباب وأيّاً كانت صفات حاكم ذلك المجتمع، قدَّم هذا التحول في صيغة الحكم فائدة كبيرة فكان ظهور الملكية شرطاً جوهرياً لتخليص البشرية من الهمجية. ولم يكن هناك التزام أقسى على الكائن البشري أكثر من عادة أو تقليد الديمقراطية الهمجية؛ بالتالي كان من أصعب الأمور وأبطئها إحرازاً التقدم في أي مجال من مجالات ذلك المجتمع. إذن فالفكرة القديمة عن كون الهمجي البدائي هو الأكثر حرية هي عكس الحقيقة تماماً. بل كان عبداً ليس لسيدٍ مرئي بل للماضي ولأرواح أسلافه الموتى الذين يسكنون خطواته من الولادة إلى الموت ويحكمونه بهراوة حديدية. شكّل حكام المجتمع البدائي نموذج الحق وقوانين غير مكتوبة يطيعها البدائي طاعة عمياء دون أدنى تردد؛ فيجر الضعفاءُ الأغبياءُ الذين يشكلون النموذج السائد الأكفاءَ الأذكياءَ نحو الأسفل لأن سقوط اللاحق ممكنا أما ارتقاء السابق غير ممكن. ولم يعد هناك فرصة للخلاص سوى موهبة خارقة تغير العادات نحو الأفضل. حمل هذا المجتمع مظهرالشريحة الميتة الموحدة طالما استطاع إنسانياً أن يخفف من الفوارق الطبيعية وتفاوت الطباع والقدرات الموروثة فيبدي مساواة اصطناعية زائفة.

منطلقين من هذا المستوى الراكد للقضايا - والتي مدحها الحالمون زعماء الدهماء في عصور لاحقة واعتبروها الحالة المثالية أو العصر الذهبي للبشرية - رحَّب جميعُ الأخيار الحقيقيون، الذين أرادوا مصلحة إخوانهم، بكل ما من شأنه الارتقاء بالمجتمع وفسح المجال أمام المواهب لجعل درجات السلطة متناسبة مع القدرات الطبيعية للقائمين عليها. وما إن أخذت هذه المؤثرات مفعولها — ولم يعد بالإمكان كبتها — حتى تسارعت نسبياً وتيرة التقدم الحضاري. واستطاع الفرد الذي ارتقى إلى رأس السلطة تنفيذ تغييرات خلال فترة حياته كانت تحتاج سابقاً ربما لعدة أجيال؛ وغالباً ما كان ذلك الفرد رجل فكر ويتمتع بسلطة على العامة فانتهز تلك الفرصة لتحقيق تلك التغييرات. وحتى نزوات المستبد وأهواؤه ساعدت في كسر قيود

العادات التي ناء البدائي بكاهله تحتها. وحالما تخلصت القبيلة من حكم مجلس الكبار الضعفاء والمتشرذمين وضعت نفسها باتجاه عقل واحد قوي وعازم فأصبحت مرعبة بنظر القبائل المجاورة وبدأت مشروع التوسع الذي كان في مرحلة مبكرة من التاريخ ضرورياً لإحراز التقدم الفكري والصناعي والاجتماعي. ثم توسعت سلطة القبيلة بقوة السلاح من جهة والاستسلام الطوعي للقبائل الضعيفة من جهة أخرى، الأمر الذي وفّر للقبيلة الثروة وطبقة من العبيد حررت طبقات أخرى من انشغالها في الصراع الدائم وراء لقمة العيش، وقدمت لهم فرصة تكريس أنفسهم في البحث النزيه عن المعرفة التي كانت الأداة الأنبل والأقوى في تحسين مصير الإنسان.

وتجلى التقدم الفكري في النمو العلمي في انتشار الآراء الأكثر ليبرالية والمرافقة للتقدم الاقتصادي والصناعي الذي بدوره تلقى دفعاً كبيراً من الفتوحات وإقامة الأمبراطورية. وليس من قبيل المصادفة أن تأتي أعنف انفجارات النشاط في العقل البشري تماماً عقب النصر، ولهذا قامت جميع السلالات الحاكمة ببناء الحضارة ونشرها بعد الحروب كي ترمم الجراح التي أحدثتها فيها. والشاهد على هذا تاريخياً البابليون والإغريق والرومان والعرب وربما نعيش لنرى انفجاراً مماثلاً في اليابان. ولكي نردّ تيار التاريخ إلى أصله علينا القول أنه ليس مصادفةً ايضاً أن تكون القفزات الحضارية الطويلة قد حصلت برعاية الحكومات الاستبدادية والثيوقراطيه (الحكومات الكهنوتية) كالتي حصلت في مصر وبابل والبيرو حيث كان الحاكم الأعلى يُمنح الولاء العبودي من رعاياه لشخصيته المزدوجة التي تجمع الملك والإله. ويبدو مستهجناً القول أن تلك الحقبة الإستبدادية داعمة للبشرية وربما كان تناقضاً ظاهرياً أن نقول أنها أفضل معين للحرية. وفي النهاية لابد لنا من أن نعترف أنه في تلك الحقبة تمتع الإنسان بحرية أكبر بالمعنى الجوهري للكلمة لأنه استطاع التعبير عن أفكاره وتطويع مصيره في ظل الحكم المطلق والاستبداد الطاحن أكثر مما استطاع في ظل الحرية الشكلية في الحياة البدائية حيث يُحكَم على مصير الإنسان من المهد إلى اللحد ضمن قالب حديدي من العادات الموروثة.

يمكننا اعتبار مهنة السحر العام أحد الطرق التي سلكها أكفأ الرجال للوصول إلى السلطة العليا وأن تلك المهنة قد أسهمت في تحرير البشرية من عبودية العادات والتقاليد لتفتح الباب إلى حياة أرقى وأكثر حرية خلال نظرة أوسع للعالم.

لم تكن الخدمة التي قدمتها تلك المهنة للبشرية خدمةً بسيطة. ولابد هنا من ذكر فضل السحر في تمهيد الطريق أمام العلم وعلينا الاعتراف بأنَّ الفن الأسود الذي أدى دوراً شريراً هو نفسه شكَّل مصدراً للخير وإذا كان وليد الخطيئة فهو ذاته أبو الحرية والحقيقة.

الفصل الرابع
الســحر والدين

قد تكفي الأمثلة التي جمعناها في الفصل السابق لشرح مبادئ السحر التعاطفي بفرعيه اللذين أطلقنا عليهما تباعاً اسم السحر التعاطفي وسحر العدوى. وفي بعض الحالات لاحظنا وجود الأرواح التي حاولت كسب رضاها بالصلوات والأضاحي. لكن هذه الحالات كانت استثنائية بشكل عام وظهر فيها السحر مختلطاً ومشوباً بالدين. وعندما كان يُمَارس السحر التعاطفي الصِّرْف غير المطوَّر كان يعتمد على الفرضية القائلة بأن هناك أحداثاً في الطبيعة تستلزم حصول أحداث أخرى دون تعديل ودون تدخل القوة الشخصية أو الروحية. إذن يتطابق مفهوم ذلك السحر تماماً مع مفهوم العلم الحديث الذي يؤمن ضمناً بنظام الطبيعة ووحدتها. لم يشكّ الساحر في أن الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها وأن أداء الطقس بشكله المناسب والمصحوب بالرُّقْيَة المناسبة سيعطي حتماً النتيجة المطلوبة إلا إذا تعارضت تعاويذه مع سحر أكثر فعالية من قبل ساحر آخر. إذن فالساحر لا يتزلف لقوة عليا ولا يلتمس رحمة كائن متقلب أو قدر معاكس ولايهن أمام ألوهية مرعبة. لكنه في الوقت نفسه يؤمن بأن قوته مهما عظمت هي عشوائية وغير محدودة. ويمكن أن يستفيد من قوته تلك من خلال التزامه بقواعد فن السحر وما يمكن أن نسميه قوانين الطبيعة كما يدركها هو، وأي إهمال أو خرق مهما صغر لهذه القوانين يؤدي إلى الإخفاق ويعرِّض ممارس السحر غير المحترف إلى خطر كبير. وإذا ماادَّعى سيادته على الطبيعة تكون تلك السيادة بنيوية دستورية مقتصرة تماماً على مجال معين ومتطابقة مع ممارسة قديمة. ويمكن أن نلاحظ هنا التشابه الكبير بين المفاهيم السحرية والمفاهيم العلمية عن هذا العالم. ففي كليهما نرى انتظام تتابع الأحداث كونها محكومة بقوانين ثابتة يمكن حسابها والتنبؤ بها

بكل دقة؛ ويختفي عنصر التقلب أو المصادفة في مسيرة الطبيعة. ويبدو أن كليهما يفتحان أفق الاحتمالات واسعاً أمام من يعرف أسباب الأشياء ويستطيع أن يتلمس النوابض السرية التي تحرك الميكانيكية الواسعة المعقدة للعالم. لهذا السبب قام السحر والعلم بدور جذاب للعقل البشري وشكلا دافعاً للبحث عن المعرفة. واستدرجا الباحث الذي أنهكه البحث عن المعرفة إلى حيز خاب معه أمله من حدود معرفته الراهنة إذا ما قورنت بوعود المستقبل، وأخذاه إلى أعلى قمة جبل و جعلاه ينظر إلى الغيوم السوداء من تحته وإلى السديم المتدفق تحت قدميه. إنه منظر مدينة سمائية ربما كانت بعيدة لكنها تشع بالبهاء العلوي وتستحم بنور الأحلام.

لم يكمن خطأ السحر المميت في افتراضه تسلسل الأحداث الخاضع للقانون لكن في فهمه الخاطئ لطبيعة القوانين الخاصة التي تحكم هذا التسلسل. فإذا ما حلّلنا حالات السحر المتعددة التي بحثناها في الصفحات السابقة والتي تعتبر عينات شاملة للكل، نجد كما أشرت سابقاً أنها أخطأت في تطبيق واحد أو اثنين من القوانين الأساسية للفكر وتحديداً ربط الأفكار بالتشابه والاستمرار في المكان و الزمان. وأدى الربط الخاطئ للأفكار المتماثلة إلى السحر التعاطفي ـ التجانسي أو سحر المحاكاة، أما الربط الخاطئ لأفكار الاستمرار فقد أدى إلى سحر العدوى. تعتبر مبادئ الربط ممتازة بحد ذاتها وهي جوهرية لعمل العقل البشري. وإذا استُخدِمت بالشكل المنطقي تؤدي إلى العلم وإذا استخدمت بشكل غير منطقي فإنها تؤدي إلى السحر. وربما كان قولنا حشواً إذا ماذكرنا الحقيقة البديهية التالية: جميع السحر مزيف وعقيم، وإذا ما أصبح حقيقياً ومثمراً فإنه يتحول إلى علم. منذ أقدم العصور انشغل الانسان بالبحث عن القواعد العامة التي تسيِّر و تطوِّع الظواهر الطبيعية لمصلحته الخاصة. و مع طول البحث جاهد في جمع ذخيرة من القواعد بعضها ذهبٌ خالص وبعضها شوائب وخَبَث. شكلت القواعدُ الذهبية للعلوم التطبيقية أو ما نسميه الفنون، وشكل الزائف منها سحراً.

إذا كان السحر والعلم صنوان، من حقنا أن نتساءل عن علاقة السحر بالدين. ولابد من أن تتلون نظرتنا هذه بلون الفكرة التي نحملها عن طبيعة الدين نفسه؛ وهنا على الكاتب أن يحدد مفهومه للدين قبل أن يتابع البحث في علاقته بالسحر. وربما ليس هناك موضوع في العالم كله اختلفت عليه الآراء كما اختلفت حول

طبيعة الدين. ومن هنا فإن تعريف الدين تعريفاً يرضي الجميع هو أمر مستحيل. وكل ما يستطيع الكاتب قوله هو تحديد ما يعنيه هو بكلمة الدين ومن ثم يستخدم الكلمة بالمعنى الذي يقصده في سائر عمله. الدين كما أفهمه هو عبارة استرضاء أو استمالة قوى تفوق قوة الانسان يعتقد أنها توجه وتتحكم بسير أمورالطبيعة والحياة البشرية. وبناءً على هذا التعريف يتشكل الدين من عنصرين هما: العنصر النظري وهو الإيمان بالقوى العليا والعنصر العملي وهو محاولة إرضاء تلك القوى. من الواضح أن الأول يأتي أولاً لوجوب الإيمان بوجود الكائن الإلهي قبل محاولة استرضائه. ويبقى الإيمان محض نظرية مالم يؤد إلى الممارسة المتساوقة معه. وعلى حد تعبير القديس جيمس:

" الإيمان، مالم يُصْحَب بالعمل، يموت لأنه وحيد."

بالأحرى لايكون الإنسان متديناً حتى يضبطُ سلوكَه حبُّ الله أو الخوفُ منه. ومن ناحية أخرى، لا يكون السلوك دينياً حتى يُبنى على إيمان ديني. ومن هنا نجد شخصين يسلكان بشكل متطابق فنعتبر أحدهما دينياً والآخر غير ذلك. وإذا كان سلوك أحدهم بدافع الخوف من الإنسان نحكم عليه بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي حسب انسجام أو تعارض سلوكه مع الخير العام. ومن هنا تكون العقيدة والممارسة أو بالعبارة النظرية - الإيمان والعمل - متساويا الجوهرية بنظر الدين الذي لايقوم إلا على كليهما. أما السلوك الديني فلا يأخذ بالضرورة شكلاً طقسياً، أي لا يستلزم عند تقديم العطايا والأضاحي تلاوة الصلوات والجهر بالطقوس لأن الهدف من السلوك هو الذات الإلهية التي تفرح بالصدقة والرحمة والطهارة أكثر من دم القرابين وتنغيم الترانيم ودخان البخور، بل يرضي العابدون إلههم ليس بالسجود أمامه وترنيم المدائح أو إغراق المعبد بالهدايا الثمينة بل بكون المرء رؤوفاً رحيماً مع الناس تقليداً لكمال الطبيعة الإلهية بحدود ما تسمح به قدرات الانسان. ذلك كان الجانب الأخلاقي للدين الذي أوحى به الأنبياء اليهود والمثال النبيل لقدسية وخيرانية الله التي طُبِعَت في أذهاننا لاتغيب عنه. يقول ميكاه النبي اليهودي في القرن الثامن قبل الميلاد:

" لقد أراك أيها الانسان ما هو الخير ومايريده منك، أحسن العمل وأحب الرحمة وامشِ متواضعاً بصحبة الله. "

وفي وقت لاحق استطاعت المسيحية أن تسود العالم انطلاقاً من المفهوم الرفيع للطبيعة الخيرة لله والواجب الذي التزم الانسان بأدائه. وهنا يقول القديس جيمس:

" الدين الخالص أمام الله والآب هو هذا: زوروا الأيتام والأرامل وخففوا من معاناتهم فتخرجوا من هذا العالم غير مدنسين."

لكن عندما يقتضي الدين أولاً الإيمان بقوى تفوق قوة الإنسان وتحكم العالم، وثانياً محاولة كسب رضا تلك القوى، فإنه يَفترِض أن مسار الطبيعة مرن ومتقلب، وأنه يمكننا أن نقنع ونستميل تلك القوى القادرة على أن تعطف وتتحكم بتيار الأحداث لمصلحتنا وتحرفه عن مساره الطبيعي. وهنا تتعارض مرونة وتقلب الطبيعة مع المبادئ السحرية والمبادئ العلمية واللذين يعتبران سير عمل الطبيعة صلباً لايتبدل لا بالإقناع ولا بالتضرع أو الترهيب. ومن تناقض النظرتين يأتي السؤال المثير للجدل: هل القوى التي تحكم الطبيعة شخصية واعية أم حيادية غير واعية. الدين، على اعتباره استرضاء لقوى أعلى من قوة الإنسان، يفترض صحة البديل الأول. ومن المفترض أن يكون الكائن المُستَرضَى قوة شخصية واعية وأن سلوكه غير جازم ويمكن التغلب عليه كي يتحول بالإتجاه المرغوب فيه خلال مناشدة حكيمة لاهتماماته ورغباته وعواطفه. ولايمكن توجيه الاستماله أو الاسترضاء نحو شيء يعتبر فاقد الحياة ولا نحو أشخاص من المعروف أن تصرفاتهم تحت ظروف معينة محسومة بشكل مطلق. وبما أن الدين يفترض أن العالم يُدار بقوى واعية يمكن أن تغير هدفها بالإقناع يقف على الطرف النقيض مع السحر والعلم اللذين يسلمان جدلاً أن مسار الطبيعة محكوم بقوانين ثابتة وليس برغبات وأهواء شخصية بل بعملية ثابتة وقوانين تعمل بشكل ميكانيكي. بالحقيقة، يكون هذا الافتراض ضمني عند السحر، وصريح عند العلم. وصحيح أن السحر غالباً ما يتعامل مع الأرواح التي يعتبرها قوى شخصية من ذات النوع التي يتعامل معها الدين ولكنه عندما يتعامل معها بالشكل الصحيح إنما يعاملها كقوى غير عاقلة فيكرهها و يتحكم بها بدلاً من استرضائها واستمالتها كما يفعل الدين. إذن يفترض السحر أنها جميعاً قوى شخصية، إنسانيةً كانت أم إلهيةً، لكنها في النهاية عرضة لتلك القوى غير الشخصية التي تحكم كل الأشياء ويمكن التحكم بها إذا عرف أي إنسان كيف يتعامل معها ويديرها بالطقوس والسحر المناسب. ففي مصر القديمة كان

السحرة يدَّعون قدرتهم على إجبار أعلى الآلهة على طاعة أوامرهم ويهددونهم بالدمار في حالة العصيان. وأحياناً يدعي الساحر أنه سيبعثر عظام أوسيريس ويبدد أسطورته أذا تبين له عصيان الألهة. وكذلك الأمر في الهند في أيامنا هذه مازال الثالوث الهندوسي - براهما ويشنو وسيفا - عرضة للسحرة الذين يمارسون بسحرهم هيمنة على أقوى الآلهة حتى تنفذ أوامرهم ورغباتهم في السماء العلوية أو تحت الأرض. وهناك قول شائع في كل مكان في الهند:

" العالم كله بأمر الآلهة والآلهة بأمر السحر، والسحر بأمر البراهمان لذلك فالبراهمان هم ألهتنا."

يفسر الصراعُ الراديكالي بين السحر والدين الكراهيةَ الشديدة التي يكنها رجالُ الدين للسحرة عبر التاريخ. وما يثير حفيظة رجال الدين هو كبرياء السحرة الواثقين بقوتهم وسلوكهم العدواني نحو القوى العليا وممارستهم سلطة كالتي يمارسونها، أما رجال الدين - بإحساسهم المريع بالجلال الإلهي وبسجودهم المتواضع في حضرته — يعتبرونهم كافرين مجدفين مغتصبين لصلاحيات ينفرد بها الله وحده. وأحياناً يمكن أن نشك بدوافع عميقة تجتمع لتشحذ نصل الكراهية عند رجال الدين. يدعي الساحر بأنه الطريق الأمثل للشفاعة بين الإنسان والله لكن مشاعره تُجْرَح، وتتضرر مصالحه من قبل ممارس سحرٍ ندٌ له يقدم طريقاً أقرب وأسهل للحصول على الحظ بالمقارنة مع طريق إرضاء الله الممهدة لكنها انزلاقية.

يبدو هذا العداء مألوفاً لنا لكنه لم ينشب إلا من وقت ليس بعيد في تاريخ الدين. ففي المرحلة السابقة كانت وظائف الكاهن والساحر مقترنة ببعضها بعضاً أو لنقل لم تكن منفصلة أو مختلفة عن بعضها بعضاً. لجأ الإنسان كي يتوصل إلى هدفه إلى التودد للآلهة أو الأرواح عن طريق الصلوات والأضاحي بينما لجأ في الوقت نفسه للطقوس وصياغة الكلمات التي عوَّل عليها في الحصول على النتيجة المرجوة دون مساعدة الله أو الشيطان. ويمكن أن نختصر القول بأنه مارس الدين والطقوس الدينية في آن معاً، فكان ينطق الصلوات والتعويذات السحرية بالنَّفَس ذاته غير آبه بتناقض سلوكه النظري وغير مهتم إن كان سيحصل على مبتغاه بالوسيلة أياً كانت. وقد صادفنا أمثلة على هذا الخلط أو التشوش بين السحر والدين في ممارسات الميلانيزيين وغيرهم من الشعوب.

ظل هذا التشوش بين السحر والدين مستمراً عند الشعوب التي ارتقت إلى مستويات حضارية عالية، إذ كان منتشراً عند الهنود القدامى والمصريين القدامى، ولاشك أنها انقرضت لدى البسطاء الأوربيين في يومنا هذا. أما بالنسبة للهند القديمة، بلغنا من باحث سانسكريتي بارز ما يلي:

" لدينا معلومات مفصلة عن النَّفَسِ البدائي الخالص الذي ساد ممارسات طقوس الأضاحي التي انتشرت في المرحلة السابقة."

أما بالنسبة لأهمية السحر في الشرق وخاصة في مصر يقول البروفيسور ماسبيرو:

" يجب أن لا نلحق بكلمة السحر فكرة الانتقاص الذي يقفز إلى ذهن الإنسان المعاصر. لقد كان السحر هو أساس الدين. لم يكن أمام المؤمن الذي كان يرغب بالحصول على خير من إله معين فرصة نجاح سوى أن يأسر ذلك الإله عن طريق عدة طقوس وأضاحي وصلوات وتراتيل كشف عنها ذلك الإله بالذات والتي تجبره على أداء مايُطلب منه. "

وفي أوساط الطبقات الأوربية الجاهلة انتشر تشوش الأفكار بين السحر والدين وتكدُّس الخلط في أشكال عديدة. وقد بلغنا أنه في فرنسا:

" مازال الفلاحون يؤمنون أن الكاهن يمتلك قوة سحرية لاتقاوم يفرضها على العناصر. وخلال قراءة صلوات معينة لايعرفها إلا هو - ولايُخَوَّل أحدٌ غيره بقراءتها - يفرض سيطرة مطلقة على الأشياء وربما في لحظة خطر محدق يستطيع أن يمتلك تعزيز قوانين فيزيائية أزلية أو يعكسها، فتصبح الرياح والعواصف والبرد والمطر بأمره تلبي إرادته. وتصبح النار طوع رغبته فيستطيع بكلمة واحدة إطفاء الحريق."

فمثلاً اعتاد الفلاحون في فرنسا وربما مازالوا مقتنعين أن الكهنة قادرون خلال طقوس معينة تسمى "قداس الروح المقدسة" يبلغ إعجازها درجة لاتستطيع الإرادة الإلهية معارضتها، أن يجبروا الله على تنفيذ ما يطلب منه مهما كان الطلب مُغالياً ومتهوراً. ولا ينتاب أولئك الفلاحين أي شعور بالكفر أو العقوق فيلجؤون لهذه الطريقة الوحيدة ليمتلكوا مملكة السماء بهجوم ساحق. يرفض الكهنة العالميون إطلاق تسمية قداس الروح المقدسة على هذا الطقس وينفرد الرهبان وخاصة

الكبوشيون منهم بشهرتهم بممارسة تضرعات المعوزين التعساء مع بعض التردد. إذن نجد في القدرة على إكراه الإله التي يفترض البسطاء الكاثوليكيون وجودها عند كهنتهم هي مثيل القدرة التي يعزوها المصريون القدامى لسحرتهم. لنأخذ مثالاً آخر: مازال أهالي العديد من قرى منطقة بروفينس يرون في عدد محدود من الكهنة القدرة على تحويل مسار العاصفة. ففي بعض القرى عندما يحصل تغيير القس تسعى الأبرشية بشغف لمعرفة إن كان صاحب المنصب الجديد يمتلك تلك القدرة أم لا، فيضعونه تحت الإختبار عند أول إشارة لعاصفة قوية ويطلبون منه أن يفرق الغيوم المنذرة بالهطول وإذا كانت نتيجة الإختبار موافِقة لآمالهم يصبح الراعي الجديد جديراً باحترام رعيته ومحبتهم. وفي بعض الأبرشيات يكسب مساعد القس سمعة أكثر من القس نفسه في هذا المجال فتصبح العلاقة بينهما متوترة جداً فيعمد المطران إلى نقل القس إلى أبرشية أخرى. وفي غاسكون وعندما يريدون الانتقام من عدوٍ ما، يلجأ الرجال السيئون منهم إلى جعل القس يقوم بقداس يدعى " قداس القديس سيكير". القلة القليلة من القساوسة يعرفون عن هذا القداس وثلاثة أرباع من يعرفه منهم لايقومون به بدافع الحب أو المال. لايقوم بهذا الطقس الشنيع إلا القساوسة الشريرون وسيحاسبون حساباً عسيراً عليه في الآخرة، ولايستطيع المطران أو حتى مطران أوتش أن يتشفع لهم بل ينفرد البابا في روما بهذا الحق. لايقام قداس القديس سيكير إلا على أنقاض كنيسة مدمَّرة أو مهجورة حيث يرتع البوم و ينعب وترفرف الخفافيش من الفسق ويستأجر الغجر ليناموا الليل وتجثم الضفادع تحت المذبح المنتهك. في هذه الظروف يأتي القس ليلاً ومعه ضوء الحب وعند أول تكّة في الساعة الحادية عشرة يبدأ يغمغم القداس بالمقلوب لينهي قداسه عند منتصف الليل تماماً. تقوم محبوبته بدور الموظف المساعد. ويُبَارَك المضيف الأسود في ثلاث نقاط: لايقدس الخمر بل يشرب من ماء بئر رُمِيَت فيه جثة طفل غير معمَّد، ثم يضع إشارة الصليب لكن هذه المرة يضعها على الأرض وبقدمه اليسرى. ويقوم بأشياء أخرى لايقوم المسيحي بها إلا ويصاب بالعمى والصمم والبكم بقية حياته. أما الرجل الذي أُقيم القداس على نيته فيذوي شيئاً فشيئاً، لايعرف أحدٌ ما خطبه ويعجز الأطباء عن مساعدته ولايعرفون أنه يموت جراء قداس القديس سيكير.

رغم اندماج الدين بالسحر في عديد من العصور وفي أنحاء كثيرة من العالم هناك مايبرر اعتقادنا أن هذا الاندماج ليس بدائياً، وأن السحر وحده كان محط ثقة الناس في تلبية حاجاتهم التي تتجاوز رغباتهم الحيوانية المباشرة. وإذا مافكرنا بأساسيات الدين والسحر فاننا سنميل بحدسنا إلى الاعتقاد بأن السحر سبق الدين في تاريخ البشرية. كما رأينا لم يكن السحر إلا تطبيقاً خاطئاً لأبسط العمليات الذهنية وهي تحديداً ربط الأفكار بالتشابه والاستمرار بالإضافة إلى أن الدين يفترض عملية واعية تقوم بها قوى شخصية تفوق الإنسان خلف الشاشة المرئية للطبيعة. من الواضح أن مفهوم القوى الشخصية أكثر تعقيداً من مجرد التمييز البسيط لتشابه واستمرار الأفكار. ونظرية كون الطبيعة خاضعة لقوى واعية هو أمر عويص وأكثر إبهامية ويحتاج لإدراكه درجة ذكاء وتأمل أكثر علواً مما يحتاجه النظر إلى الأشياء على أنها مجرد تتابع سببي بالاستمرار والتشابه. حتى البهائم تستطيع ربط أفكار عن الأشياء المتشابهة التي تمر عليها بالتجربة وما كانت لتعيش يوماً واحداً لولا هذا الربط. لكن من يستطيع أن يوحي للحيوانات الاعتقاد بوجود حيوان استثنائي أو عدة حيوانات كبيرة غير مرئية وراء هذه الظواهر الطبيعية؟ وربما لا نظلم الحيوانات عندما نفترض أن شرف استنباط نظرية من هذا النوع لابد أنه مقتصر على العقل البشري. وبناءً عليه، إذا كان السحر قد استُخلِص من عمليات استقراء أولية أو ربما وقع العقل البشري فيه كخطأ عفوي، في حين يعتمد الدين على مفاهيم لاتستطيع أن ترقى إليها أعلى درجات الذكاء الحيواني، يُرَجَّح احتمال ظهور السحر قبل الدين في تطور الجنس البشري وأن الانسان حاول أن يطوِّع الطبيعة إلى رغباته بقوة السحر والتعاويذ قبل أن يتملق ويلاطف آلهة ساخطة متقلبة وخجولة محاولاً التسلل إلى ذهنها بالصلوات والأضاحي.

يمكن التأكيد استقرائياً على النتيجة التي وصلنا إليها استدلالياً بأفكار الدين والسحر خلال مشاهدات بين أصلاء استراليا وهم الهمج الأكثر بدائية الذين نعرف عنهم معلومات دقيقة. أن ممارسة السحر منتشرة لدى الجميع بينما يكاد الدين - على اعتباره إسترضاء للقوى الخارقة — أن يكون غير معروف تقريباً. يمكن القول أن جميع الناس في أستراليا هم سحرة وليس هناك ثمة كاهن واحد؛ جميعهم

يتصورون أنهم قادرون على التاثير في أندادهم وفي مسار الطبيعة بالسحر التعاطفي ولا يخطر ببال أحدهم أن يسترضي الآلهة بالصلوات والأضاحي.

وإذا مانظرنا إلى أقدم المجتمعات الإنسانية المعروفة الآن نجد أن السحر ثابت الوجود بينما الدين مُغَيَّب تماماً. أليس حري بنا التخمين أن السلالات المتحضرة اليوم قد مرت تاريخياً بذات المرحلة العقلية وأنهم حاولوا إكراه قوى الطبيعة على تحقيق رغباتهم قبل أن يفكروا بالحصول على مصالحهم بالعطايا والصلوات؟ باختصار، تماماً كما كان لكل ثقافة إنسانية من الناحية المادية عصر حجري كذلك من الناحية الذهنية كان في كل مكان عصر سحري. عندما نبحث في السلالات الحالية من غرينلاند و تيرا دي فوغو ومن إسكتلندة إلى سنغافورة، نلاحظ تميز بعض تلك الأقوام بتعدد الأديان وليس هذا التميز متناسباً مع تميز الحدود المشتركة لتلك الشعوب بل يتعداه إلى أصغر الدويلات وإلى المدينة الواحدة والقرية وربما العائلة الواحدة لدرجة أنه يجعل المجتمع متشققاً وملفقاً، منبوشاً ومخلخلاً بصدوعٍ عميقة ذات تأثيرات مدمِّرة من جراء النزاع الديني. رغم ذلك، عندما ندخل عميقاً في تلك الخلافات التي تؤثر بشكل رئيسي في المفكرين الأذكياء من المجتمع نجدهم يتفقون على طورٍ ذهني راسخ يشمل الدهماء الضعفاء والجهلة الخرافيين الذين يمثّلون الغالبية العظمى للمجتمع. ومن أهم منجزات القرن التاسع عشر أنه أدخل المِجَسَّ عميقاً في هذا الطور الذهني في أنحاء كثيرة من العالم ليكشف عن هويته في كل مكان. إنه طورٌ موجودٌ تحت أقدامنا هنا في أوروبا ويتضخم حتى يطفو على السطح في قلب البراري الأسترالية، المكان الذي لم تطحنه الحضارة تحت أقدامها. ليس هذا الايمان العالمي وهذه العقيدة الكاثوليكية إلا تصديقاً لفعالية السحر. في حين تختلف الأنظمة الدينية من بلد إلى آخر وفي البلد نفسه من عصر إلى آخر يبقى نظام السحر التعاطفي في كل مكان وفي جميع العصور متشابهاً في جوهره من حيث المبدأ والممارسة. فهو في أوساط الجهلة والخرافيين الأوربيين تماماً كما كان منذ آلاف السنين عند الهنود والمصريين القدامى وهو ذاته عند الجماعات الأكثر همجية التي تعيش في زوايا منسية من هذا العالم. وإذا كان تقفّي الحقيقة يعتمد على حساب عدد الذين يرفعون أيديهم أو عدد الأصوات فإن السحر سيحتكم

بمنطقية تفوق منطقية الكنيسة الكاثوليكية إلى الشعار المحترم الذي يقول: " استمد موثوقيتك من جدارتك".

لسنا الآن بصدد البحث في ما يحمله الوجود الدائم لهذه الطبقة الهمجية الصلبة تحت سطح المجتمع لأجل مستقبل البشرية، وفي بقائها في منأى عن التأثر بالتغيرات الدينية والثقافية السطحية. يرى الباحث الحيادي الذي قادته بحوثه إلى سبر أغوارها يرى فيها تهديداً محدقاً للحضارة. فنبدو وكأننا نمشي على قشرة صلبة رقيقة مهددة بالتصدع في أي لحظة من جراء استيقاظ القوة الهاجعة في الأسفل. ومن حين لآخر نسمع تمتمة أو نرى لهباً ينطلق في الهواء لينبهنا لما يجري من تحتنا. ومن حين لآخر نسمع كلمة ناعمة في مقال في جريدة تجفلنا بما ترويه عن صورة وُجِدَت في أسكتلندة مملوءة بالإبر المغروزة بغرض قتل وزيرٍ ما أو إقطاعي بغيض، أو عن امرأة في إيرلندة تشوَّت على نار حتى الموت، أو فتاة قُتِلت وقُطِّعت أرباً في روسيا لصناعة شموع من الشحم البشري كي يَستخدِمُ اللصوص نورَها دون أن يراهم أحد وهم يقومون بعملهم في عتمة الليل. إن تأثيرات هذه القوة الموجودة حتماً ستعين تقدمنا أو تدمر مابنيناه في المستقبل. وربما أخذتنا هذه القوة الخفية التي تثبت نفسها - بفضل الطاقة النابضة للأقلية من الناس أو أغلبيتهم ذات الثقل الساكن - إلى أعلى القمم أو إلى أسفل الحضيض. كل هذه المسائل مطروحة أمام الحكماء والأخلاقيين والساسة الذين تسبر نظرتهم مستقبل البشرية بعين طائر العقاب أكثر مما هي مطروحة على الطلاب المتواضعين الذين يبحثون في الماضي والحاضر. وبقدر ما للإيمان بالسحر صفة الديمومة وتوحيد العالم بقدر مانرى العقيدة الدينية محدودة وذات صفات متقلبة، الأمر الذي يجعلنا نفترض السحر كممثل للوجه التاريخي غير المشَذَّب الذي مرت به جميع الأعراق أو تمر به الآن في طريقها إلى الدين أو العلم.

إذا كان عصر السحر قد سبق عصر الدين في كل مكان، كما أغامر في الحدس، من الطبيعي أن نسأل عن الأسباب التي قادت الإنسانية جمعاء وليس جزءاً منها إلى نقل مبدأي الإيمان والممارسة من السحر إلى الدين. وعندما نفكر ملياً بتنوع وتعقيد الحقائق المطلوب شرحها وضآلة المعلومات التي تخدم ذلك الشرح نصبح شبه يائسين من إيجاد حل مقنع لهذه المسألة العويصة وأن كل ما يمكن أن نفعله في حدود معرفتنا في الوقت الحاضر هو وضع تخمين معقول. هنا أقترح - وبكامل

الحياء من عدم الثقة ـ أن الإدراك البطئ للزيف والعقم الموروثين للسحر جعلا المفكرين من الناس يبحثون عن نظرية أصح للطبيعة ومنهجاً أكثر نفعاً يأخذ مواردها بالحسبان. ولابد لذوي الذكاء الحاد أن يدركوا عدم جدوى الطقوس السحرية والتعاويذ وعجزها عن تحقيق الأهداف المرجوة منها في حين ظل أغلب الناس البسطاء يؤمنون بأنجعيتها. شكل اكتشاف عجز السحر تطوراً بطيئاً و جوهرياً في عقول الأذكياء الذين توصلوا إلى هذا الاكتشاف. كما قاد هذا الاكتشاف إلى إدراك الإنسان لعجزه عن تطويع القوى الطبيعية حسب رغبته تلك القوى التي كان يعتقد أنها تحت سيطرته التامة، وأدى إلى الاعتراف بجهل الإنسان وضعفه حين أدرك أنه أخذ بأسباب ليست بأسباب وأن جهوده المضنية المبذولة مع هذه الأسباب الوهمية كانت عبثاً فتبددت إبداعاته هباءً، لأنه كان يشد بخيوط لم تُربَط بشئ ظناً منه أنه يمشي إلى الهدف بشكل مباشر في حين كان يدور في دائرة ضيقة. لم تَكُف الأسباب التي كافح في إيجادها عن تجسيد نفسها لكنها كفّت عن العمل تحت تأثيره، فالمطر استمر في الهطول على الأرض الظمأى وثابرت الشمس على عملها اليومي وتابع القمر رحلته الليلية في السماء وتعاقبت الفصول حسب دورتها في النور والظل من خلال السحب وأشعة الشمس المنتشرة فوق الأرض، وظل الناس يولَدون للعمل والمآسي، وبعد إقامة قصيرة ينضمون إلى آبائهم في دار الإقامة الدائمة. في الواقع تابعت الأشياء مسيرتها السابقة مع ذلك بدت له مختلفة بعد سقوط المقاييس القديمة. لم يعد يُبقي في ذهنه تلك الفكرة الممتعة المتجسدة في أنه هو الذي يوجه الأرض والسماء في مساراتهما وأنها ستتوقف عن الدوران إذا ما رفع يده الضعيفة عن عجلتها. ولم يعد يرى في موت أعدائه دليلاً على قوة سحره العدواني بل أصبح يعلم أن أصدقاءه وأعداءه مستسلمون على حد سواء أمام قوة أقوى من أن يقوى على توجيهها ودخل في طاعةِ مصيرٍ لاحول له فيه ولاقوة.

وهكذا تحرر من مستنقعه القديم وتُرِك في بحر هائج تتقاذفه أمواج الشك والريبة بعد أن اهتزت بعنف ثقته القديمة بنفسه والتي كانت تمدُّه بالسعادة. ولابد أن ذلك الفيلسوف البدائي وقع في إرباك وقلق حزين حتى دخل ليرتاح في مأوى هادئ بعد رحلته العاصفة، في نظام الإيمان والممارسة الذي قدَّم حلاً لشكوكه المزعجة و بديلاً ـ رغم تقلقله ـ ومنحه سيادة على الطبيعة اضطر سابقاً إلى التخلي عنها

كارهاً. فإذا استغنى هذا العالَمُ في مسيرته عن مساعدة ذلك البدائي وأصحابه، لابد من وجود كائنات ـ مثله لكنها أقوى بكثير وغير مرئية ـ تدير مسلسل الأحداث الذي كان يعتمد يوماً على سحره الخاص. تلك القوى إذن هي التي كانت تنشئ الرياح العاتية وتجعل البرق يومض والرعد يهدر وتجعل للأرض رواسي وللبحر حدوداً كي لاتهرب مياهه، وهي التي تجعل تلك المصابيح البهية تشع في السماء، وتمنح طيور السماء لحماً تأكله وتقدم لوحوش البرية فريستها، وهي التي تأمر الأرض فتعطي ثمراً وفيراً، وتلبس الروابي غابات، و تجعل الينابيع تتفجر من تحت الصخر في الوديان، و تنبت الكلأ في السهوب بمياه راكدة، وهي التي تنفخ في أنف الإنسان فتجعله يحيا، أو ربما تودي به إلى الهلاك من المجاعة والوباء والحروب. لتلك القوى الجبارة التي رسمت الطبيعة البهية والأخاذة قدَّم الإنسان اعترافاً متواضعاً يعلن فيه اتكاله على قوتها غير المرئية ويتوسل إليها الرحمة أن تفرش طريقه بكل مايحتاجه، وأن تحميه من أخطار الحياة الزائلة والمسيَّرة بكل مافيها، وأخيراً أن ترسل روحه الأبدية محررةً من أثقال جسدها إلى عالم أكثر سعادة خالياً من الألم والأسى حيث يمكنه أن يرتاح مع أرواح الطيبين بسعادة وهناء أبديين.

بمثل هذه الطريقة ربما استطاعت العقول الراجحة إدراك النقلة العظيمة من السحر إلى الدين. لكن وجود هذه العقول لم يكف لإقامة تغيير سريع؛ بل على عكس ذلك، امتد عصوراً وعصوراً حتى بلغ حدَّه شبه الكامل. من المؤكَّد أن إدراك عجز الإنسان في تأثيره على مسار الطبيعة كان تدريجياً وعلى مدى طويل؛ إذ لم يكن بإمكانه أن يجتث سيادته الخيالية بضربة واحدة. بل تراجع عن موقعه الريادي درجة بعد درجة؛ وخطوة بعد خطوة سَلَّمَ وبحسرةٍ الأراضي التي كان يعتبرها ملكه. لقد أفلتت الرياح من قبضته، وتبعتها أشعة الشمس ثم المطر والرعد حتى اعترف بعجزه أمامها جميعاً، وراح يسلِّم مملكته ولاية بعد ولاية وخرجت عن طوعه إمارة بعد إمارة حتى انكمشت بلاده الواسعة لتصبح سجناً وصار فيه مقهوراً من شعوره بفقدان الحيلة أمام القوى غير المرئية التي تحيط به من كل جانب. من هنا بدأ الدين، من معرفة الإنسان الضئيلة لقوى تتفوق عليه، ثم تعمقت تلك المعرفة حتى وصلت حدَّ اعترافه باعتماده عليها كلياً وهكذا استعاض عن مشيئته الحرة بأقوى المواقف وضاعة وهو السجود أمام قوى غامضة وخفية واكتسب فضائل

جديدة أفضلها تسليم إرادته لإرادتها. لكن هذا الشعور المتعامق بالدين، أو هذا الاستسلام الكامل للآلهة سيؤثر في كل شئ، فقط عند أولئك الذين ينعمون بذكاء عالٍ ونظرة واسعة يدركون من خلالها اتساع الكون وصغر الانسان. لا يستطيع أصحاب العقول الضيقة استيعاب الأفكار العظيمة، ولا يرون في هذا العالم شيئاً آخر أهم منهم لقصر نظرهم وضيق مدركاتهم. ويصعب على مثل تلك العقول أن ترقى إلى مستوى الدين فهي مدربة من قبل أناس أفضل منهم على الالتزام المادي بتعاليمه وبمجاهرة لفظية بالمعتقدات ولكن قلوبهم مازالت متمسكة بخرافاتهم السحرية القديمة التي يمكن أن تكون مخزية أو ممنوعة، لكنها مستعصية على الاجتثاث من قبل الدين لِما لها من جذور عميقة في البنية الفكرية وطِباع غالبية البشر.

يمكن أن تغري القارئ الأسئلة التالية: لماذا لم يستطع الأذكياء كشف زيف السحر منذ وقت مبكر؟ وكيف لهم أن يتمسكوا بإرث محكوم عليه باليأس؟ وكيف يطاوعهم قلبهم اتباع سلوك مبجِّل ينتهي إلى اللاشيء، أو يتمتمون هراءات لاتقدم ولا تؤخر؟ لماذا التعلق بمعتقدات من الجلي أنها تتعارض مع التجربة؟ وكيف يجرؤون على تكرار تجارب أثبتت إخفاقها في غالب الأحيان؟ والجواب هو أنه لم يكن من السهل الكشف عن الزيف، لأن إخفاق السحر ليس واضحاً لأنه في معظم الحالات توصل إلى الحدث المرغوب بعد أداء الطقس المُعَدّ له على فترات قصيرة تارة وطويلة تارة أخرى؛ إذن فالأمر يستلزم عقولاً حادة الذكاء وغير عادية لتدرك أن هذه الحوادث ليست ناجمة عن الطقوس. فالطقس المقصود منه هبوب الرياح أو هطول المطر أو موت عدو ما كان دائماً يعقبه الحدث المرجو منه عاجلاً أم آجلاً؛ ويمكن هنا أن نعذر الانسان البدائي لاعتباره ذلك الحدث نتيجة مباشرة للطقس وأفضل برهان على فعاليته. وكذلك الطقوس التي كانت تجري في الصباح لأجل إشراق الشمس وفي الربيع ليستيقظ من ثباته الشتوي الحالم، كانت دائماً تتوج بالنجاح على الأقل في الأقاليم المعتدلة لأنه في هذه الأقاليم تطلق الشمس أشعتها الذهبية كل صباح وفي كل سنة تلبس الأرض عباءتها الغنية النضرة بالسندس الأخضر. من هنا يعير البدائي العملي بما فيه من غرائز حذرة أذناً صماء حيال إنسان حاد الذكاء وفيلسوف راديكالي من المفترض أنه أوعز بإشارات إلى أن شروق الشمس وحلول

الربيع ليسا نتيجة مباشرة لأداء دقيق لطقوس يومية أو سنوية ، وأن الشمس يمكن أن تستمر بالظهور والأشجار تتابع الإزهار حتى عند انقطاع تلك الطقوس. ومن الطبيعي ان تكون هذه الظنون الشكوكية قد واجهت ردود الاستخفاف والاحتقار لأنها أضغاث أحلام تمس الإيمان وتتعارض مع التجربة. وربما قال الذي دحض شكوكهم:

" هل هناك أوضح من أني أشعل شمعتي الرخيصة هذه على الأرض فتضرم الشمس نارها العظيمة في السماء؟ وكم يسرني بعد أن أضع عباءتي الخضراء في الربيع أن تمتنع الأشجار عن الاخضرار بعد ذلك. إنها حقائق واضحة للعيان وبناءً عليها أخذت موقفي هذا. إني إنسان عملي وواضح ولست منكم أيها المنظرون فالقو الشعرة ومبالغو التدقيق في المنطق. ليس عند ي اعتراض على نظرياتكم وتأملاتكم وما يتمخض عنها ولا أحتج على انغماسكم فيها شرط ألا تضعوها في حيز الممارسة، لكن أعطوني فرصة لأتثبت من الحقائق كي أعرف أين أنا. "

إن زيف هذا التحليل المنطقي مفضوح بالنسبة لنا لأنه يعالج حقائق توصلنا إلى قرارات بشأنها منذ زمن بعيد. ولكن لو طبقنا الحجج من النمط نفسه على قضية مازالت تحت الجدل ألا يعتبر الجمهور البريطاني تلك الحجج دامغة ويقيِّم قائلها على أنه منطقي تماماً راسخ العقل لاعلاقة له بالمباهاة أو التذاكي. إذن إذا استطاعت مثل هذه الحجج اجتياز الاختبار بيننا الآن، ليس غريباً أن تكون قد فاتت على الإنسان البدائي.

الفصل الخامس
التحكم السحري بالطقس

1ـ الساحر العام

قد يتذكر القارئ أن ما أدخلنا في متاهة السحر هو بحثنا في نوعين من الآلهة البشريين، الأمر الذي جعل خطوتنا تائهة حيرانة أودتنا إلى مقام عالٍ ننظر منه إلى الأسفل فنرى الطريق الطويل المتمعج الذي قطعناه وننظر إلى الأعلى فنرى ما ينتظرنا من طريق شاهق كي نتسلقه.

ونتيجة لهذا النقاش يمكننا تمييز نوعين من الآلهة البشريين هما على التوالي دينيون وسحريون. أما الإله الديني فهو كائن ـ مختلف عن الإنسان ومتفوق عليه ـ قُدِّر له ان يتجسد في جسم بشري لوقت طويل أو قصير مظهراً قوته ومعرفته خلال معجزات يظهرها وتنبؤات ينطقها بشكل محسوس في معبدٍ يتخذه مقاماً له. هذا هو النوع الذي يمكن أن نسميه الإله البشري المتجسد والموحى إليه. وفيه نرى الجسم البشري سهل الانقياد إلى الإثم لكن بروح إلهية خالدة. أما النوع الآخر وهو الإله السحري وهو مجرد إنسانٍ يتمتع بقوى عالية الدرجة تفوق مايدعيه أنداده لأنفسهم؛ ففي المجتمع البدائي نادراً ماكنت ترى إنساناً لايمارس السحر. وفي حين كان الإله الديني يسستمد ألوهيته من معبود ينزل ليخفي نوره الإلهي خلف القالب الدنيوي، كان يرسم الإله السحري قوته الخارقة بالتعاطف الفيزيائي مع الطبيعة ولم يكن مجرد إناء يحتوي الذات الإلهية. إن وجوده المتكامل جسماً وروحاً موزون بدقة ومنسجم مع العالم من حوله إلى درجة أنه يستطيع بلمسة إصبع أو التفاتة أن يثير رجفة كبيرة في بنية الأشياء في العالم أجمع، والعكس صحيح لأن بنيته العضوية الإلهية هي بمنتهى الحساسية إلى درجة أنها تتجاوب مع أبسط التغيرات في البيئة بينما لايشعر الناس العاديون بأدنى أثر لها. يمكننا رسم خط فاصل بين هذين

النوعين من الآلهة من الناحية النظرية لكننا لانستطيع تتبع الفروق بينهما من حيث الممارسة، ولسنا بصدد التركيز على هذا الموضوع هنا.

كما أشرنا أنه يمكن استخدام فن السحر للمصلحة الخاصة أو لمصلحة المجتمع ككل، ويمكن أن نسميه سحراً خاصاً أو سحراً عاماً حسب الهدف المستخدم لأجله. وكذلك أشرت إلى أن الساحر العام يستطيع أن يحتل مكانةً ذات تأثير هائل، ويستطيع إذا كان متبصراً قادراً أن يبلغ أعلى المناصب مثل القائد أو الملك. ومن هنا نرى أن البحث في السحر العام يؤدي بنا إلى فهم بواكير الملكية لأن القواد والملوك في المجتمع البدائي البربري استمدوا سلطتهم إلى حدٍ كبير من سمعتهم كسحرة.

من أهم المنافع العامة التي تم تأمينها عن طريق السحر هي تأمين المورد الغذائي الكافي. وربما أثبتت الأمثلة التي سقناها في الصفحات السابقة أن ممولي الغذاء وهم الصيادون وصيادو الأسماك والمزارعون لجؤوا جميعاً لممارسة السحر لتحقيق أغراضهم لكنهم فعلوا ذلك كأفراد لتحقيق مصلحتهم ومصلحة عائلاتهم أكثر من كونهم موظفين رسميين يعملون لمصلحة الناس جميعاً. أما السحرة الحرفيون فيقومون بأداء طقوس سحرية لمصلحة أولئك الصيادين وصيادي السمك والمزارعين. ففي المجتمع البدائي حيث يقوم الإنسان بالأعمال كافة لتلبية حاجاته الخاصة قبل ظهور التخصص بالعمل، ولم تبدأ بعد الطبقات الاجتماعية بالتشكل، كان كل فرد يمارس سحره الخاص خلال التعاويذ وغيرها لتحقيق منفعة شخصية أو إيقاع الأذى بعدوه. وهنا تم سلفاً اتخاذ خطوة عظيمة وهي إنشاء طبقة خاصة من السحرة أو بالأحرى تحديد مجموعة من الرجال الخبيرين لتحقيق هدف معين فيه مصلحة المجتمع كله، ووُجِّهَت تلك الخبرة إما للمرض أو الشفاء، التنبؤ بالمستقبل، تنظيم الطقس أو أي غرض آخر فيه منفعة عامة. ويجب هنا ألا يعمينا عقم الوسائل التي اتبعها معظم هؤلاء السحرة لتحقيق أهدافهم عن الأهمية الهائلة لهذه المؤسسة بحد ذاتها. إذ تحررت هذه المجموعة من الرجال في أواخر الحياة البدائية من حاجتها للعمل اليدوي ومنحوا الفرصة لا بل شجعوا على مواصلة بحوثهم في الكشف عن أسرار الطبيعة. وسرعان ما صار من واجبهم ومن اهتمامهم تحصيل معرفة تفوق معرفة أندادهم واطلاعهم على كل ما يدعم الإنسان في صراعه الشاق مع الطبيعة،

وكل مايخفف من معاناته ويطيل حياته. ومما أثار انتباهه خواص المواد والمعادن، أسباب المطر والجفاف، الرعد والبرق، تبدل الفصول، مقامات القمر، الرحلة اليومية والسنوية للشمس، حركة النجوم، لغز الحياة، و لغز الموت، كل هذ الأشياء أثارت عجب هؤلاء الفلاسفة الأُوَل وحفزتهم على إيجاد حلول لمسائل غالباً ما أسرت اهتمامهم بإلحاح من زبائنهم الذين كانوا ينتظرون منهم ليس مجرد فهم ما ينفع الإنسان في الطبيعة بل تنظيمها بشكل يخدم مصلحته؛ فكان من الصعب تحمل عواقب خطئهم للهدف. إن البحث البطئ وغير المنتهي عن الحقيقة يكمن في اختبار وصياغة الفرضيات المتجددة دائماً خلال قبول ما يتوافق مع الوقائع ورفض سواها. تبدو لنا الآراء التي اعتنقها الساحر البدائي عن أسباب ومسببات الطبيعية هراءً وخطأً فادحاً؛ لكنها كانت في أيامهم فرضيات مشروعة رغم أنها لم تخضع لاختبار التجربة. والجزاء العادل هو الملامة والاحتقار ليس لأولئك الذين استخدموا تلك النظريات البسيطة بل لأولئك الذين استمروا بالالتزام بها بعد ظهور ما هو أفضل منها. بالتأكيد ما من أشخاص لديهم حوافز للبحث عن الحقيقة أكثر من أولئك السحرة البدائيين. وكانت محافظتهم على مظهر العارف ضرورة قصوى لأن أي خطأ يُكْشَف عنهم قد يكلفهم حياتهم. وهذا بلا شك قادهم إلى ممارسة الخداع بهدف إخفاء جهلهم.؛ لكن هذا في الوقت نفسه زوَّدهم بأقوى الدوافع لاستبدال المعرفة الحقيقية بمعرفة زائفة، لأن معرفة الشئ ربما كانت أفضل سبيل لتبدو أنك تعرفه. مهما كان موقفنا عادلاً في رفض التظاهر المغالى به لأولئك السحرة واحتقار خداعهم الذي مارسوه على البشرية، تبقى تلك الطبقة بالنهاية منتجة لخيرٍ كبير لايُقَدَّر للبشرية. لقد كانوا الأسلاف المباشرين ليس فقط للفيزيائين والجراحين بل للباحثين والمكتشفين في كل فرع من فروع العلوم الطبيعية أيضاً؛ فهم الذين شرعوا بعمل تمّت متابعته حتى حصد أحفادهم ثمرة المنفعة المجيدة في العصور اللاحقة، وإذا كانت البداية واهية وضعيفة فإن هذا يُعزَى إلى الصعوبات المحتومة التي اعترضت طريق التحصيل المعرفي أكثر منه إلى القدرة الطبيعية أو الخداع المقصود من قبل أولئك الرجال أنفسهم.

2ـ التحكم السحري بالمطر

من الأشياء التي وطد الساحر العام نفسه للقيام بها من أجل خير القبيلة بل وأهمها هي السيطرة على الطقس وخصوصاً تأمين مورد كاف من الأمطار. فالماء جوهر الحياة وفي معظم البلدان يعتمد تأمينه على المطر. بدونه تذوي الخضار ويموت الناس والماشية. من هنا تظهر أهمية صانع المطر في المجتمعات البدائية، فظهرت طبقة من السحرة تهدف إلى تنظيم المورد المائي من السماء. أما الطرق التي حاولوا من خلالها تنفيذ مهامهم فقد ارتكزت غالباً وليس دائماً على مبدأ سحر المحاكاة أو السحر التعاطفي ـ التجانسي. فإذا ما أرادوا جلب المطر لجؤوا إلى تقليده من خلال رش الماء تشبُّهاً بالغيوم: وإذا كان هدفهم إيقاف المطر والتسبب بالجفاف، تجنبوا الماء ولجؤوا إلى الدفء والنار بقصد تجفيف الرطوبة الزائدة. لم تكن محاولات كهذه مقتصرة – كما يمكن أن يتخيل القارئ المتطور – على السكان العراة في أواسط أستراليا المتقدة أو بعض مناطق أفريقيا الشرقية أو الجنوبية حيث تضرب الشمس بلا رحمة من سماء زرقاء لا غيم فيها تلك الأراضي الظمأى والمتشققة. بل كانت أيضاً منتشرة بين الشعوب المتحضرة في مناطق المناخ الأوربي الرطب. وهنا سأشرح بأمثلة أسوقها من ممارسة كلا السحرين الخاص والعام.

في قرية قرب دوربات في روسيا، عندما تظهر الحاجة المُلِحَّة للمطر، جرت العادة أن يصعد ثلاثة رجال أشجار التنوب في غابة مقدسة قديمة. يضرب أحدهم بمطرقة على آنية أو برميل مقلداً الرعد؛ أما الثاني فيضرب جمرتين ببعضهما بعضاً حتى يتناثر منهما الشرر مقلداً البرق. أما الثالث الذي يُدْعَى صانع المطر فيضع حزمة من الأغصان في إناء ماء ثم يرش منها الماء في كل الاتجاهات. ولوضع حد للجفاف وجلب المطر اعتادت النسوة والفتيات أن يخرجن عاريات إلى أطراف قرية بلوسكا في عتمة الليل ويصببن الماء على الأرض. وفي هالماهارا أو جيلولو وهي جزيرة كبيرة إلى الغرب من غينيا الجديدة، يقوم الساحر بصنع المطر بغمسه غصناً من نوع معين من الأشجار في الماء وينثر الرذاذ على الأرض. وفي بريطانيا الجديدة يقوم صانع المطر بتغليف بعض الأوراق بنبات متسلق أحمر وأخضر بورقة موز ويرطب الحزمة بالماء ثم يدفنها في الأرض؛ ثم يقلد بصوت من فمه هطول المطر. ويقوم بعض الأوهاما وهم من هنود أمريكا الشمالية، عندما يذبل نبات الذرة بسبب العطش، يقوم أعضاء جمعية

الجاموس المقدس بملء وعاء كبير بالماء ويرقصون حوله أربع مرات. يغب أحدهم الماء منه ثم يثجُّه في الهواء محولاً الماء إلى سديم أو رذاذ تقليداً للمطر وبعدها يقلب الوعاء سافحاً الماء على الأرض حيث يغط الراقصون على الأرض يشربون الماء فيغطي الوحل وجوههم. وأخيراً يبخون الماء في الهواء محدثين سديماً رقيقاً في الجو. وهكذا ينقذون الذرة. وفي أيام الربيع اعتاد قوم ناتشز من أمريكا الشمالية على الإحتشاد ليبتاعوا من السحرة الطقسَ المفضَّل لمحاصيلهم. وعند الحاجة للمطر يهرع السحرة فيرقصون وبفمهم أنابيب مملوءة بالماء، ومخرَّمة مثل بزباز وعاء السقي، ينفخ صانع المطر الماء من تلك الفتحات باتجاه السماء حيث تتلبد السماء بغيوم أثقل. وعندما تكون الحاجة لطقس صاح كان يصعد إلى سقف الكوخ مادّاً يديه وينفخ بأقوى عزمه مومئاً للغيوم بالمضي في سبيلها. وعندما تمتنع المطر عن القدوم في الفصل المناسب يلجأ الناس في أنغونيلاند إلى مايُسمَّى معبد المطر. هنا يتم قص العشب ويصب القائد البيرة في وعاء ثم يدفنه في الأرض وهو يقول:

" يأيها السيد غاووتا لقد قسا قلبك علينا، فماذا تريدنا أن نفعل؟ لا بد أنَّا هالكون. أعط أولادك المطر، وتقبل منا هذه الهبة من البيرة. "

ثم يشترك الجميع في شرب ماتبقى من البيرة بما فيهم الأطفال. بعد ذلك يأخذون أغصاناً من الأشجار ويرقصون ويغنون للمطر. وعندما يعودون إلى القرية يجدون وعاءً ينتظرهم على البوابة أحضرته امرأة عجوز كي يغمسوا فيه أغصانهم ويلوحوا به عالياً كي ينثروا القطرات. بعد ذلك سيأتي المطر بالتأكيد مع الغيوم المثقلة. في هذه الممارسات نرى مزيجاً من السحر والدين؛ أما السحر الخالص فيتمثل بنثر القطرات وأما الصلوات للمطر وتقديم البيرة فهو طقس ديني بحت. ولدى قبيلة مارا في أستراليا الشمالية يذهب صانع المطر للبُركة ويغني عليها أغنية سحرية. ثم يأخذ قليلاً من الماء في يده يعبُّه ثم يبصقه في عدة اتجاهات. بعد ذلك يسكب الماء على نفسه وينثره حوله ثم يعود بهدوء إلى بلدته متوقعاً أن يتبعه هطول المطر. أما المؤرخ العربي المقريزي فيصف طريقةً لإيقاف المطر كانت تلجأ إليها إحدى قبائل حضرموت البدوية وهي على الشكل التالي. يقطعون غصن شجرة من الصحراء ويضعونه في النار حتى يحترق ثم يرشون الجمرة المحترقة بالماء. وبعد ذلك تخف حدة الأمطار تماماً مثلما تتلاشى قطرات الماء وهي تسقط على الجمر. و يقال أن بعض

أهالي أنغاميس الشرقية في مانيبور يقومون بطقوس مشابهة للوصول لهدف معاكس وهو جلب المطر. يقوم رئيس القرية بوضع جمرة محترقة على قبر رجل مات حرقاً ويطفئ الجمرة بالماء وهو يصلي لهطول المطر. هنا يقوم إطفاء الجمرة بالماء بدور محاكاة المطر كما يقوم الرجل الذي مات حرقاً بدورٍ مدعِّم من خلال شغفه لهطول المطر ليبرِّد حروقه ويخفف آلامه.

بالإضافة إلى العرب قامت أقوام أخرى باستخدام النار كوسيلة لإيقاف المطر. يقوم أهالي سولقا في بريطانيا الحديثة بتسخين حجارة لدرجة الاحمرار ثم يضعونها في المطر أو يرشون الرماد الحار في الهواء. يعتقدون أن المطر سيتوقف حالاً لأنه لا يحب الاحتراق بالحجارة والرماد الساخنين. أما قوم التيلوغوس فيرسلون فتاة صغيرة عارية تحت المطر ومعها قطعة خشب محترقة في يدها كي تريها للمطر. من المفترض أن هذه الوسيلة تخفف من تصبب المطر. وفي ميناء ستيفن في ويلز الجنوبية الجديدة اعتاد رجال الطب كي يستبعدوا المطر على رمي عصيان محترقة في الهواء وينفخون ويصرخون في الوقت ذاته. ويستطيع أي رجل في قبيلة أنولا في أستراليا الجنوبية أن يوقف المطر ببساطة عن طريق تسخين عصا خضراء في النار ثم يضربها عكس الريح.

وفي أوقات القحط يقوم قوم ديري في أستراليا الوسطى بندب الشح في البلاد وحالتهم على حافة الموت ويناشدون أرواح أسلافهم الغابرين الذين يسمونهم مورا موراس كي يمنحوهم القوة لجلب المطر الغزير. لأنهم يعتقدون أن الغيوم أجسامٌ تولِّد المطر بفعل طقوس يقومون بها وطقوس قبائل مجاورة بتأثير مورامورواس. أما الطريقة المتبعة لجلب المطر من الغيوم فهي التالية: يقومون بحفر حفرة طولها اثنا عشر قدماً وعرضها ثمانية إلى عشرة أقدام. ثم يضعون فوقها مخروطاً على شكل كوخ من فروع الأشجار وأغصانها. ويأتي ساحران يعتقد أنهما تلقّيا إلهاماً خاصاً من مورامورواس وقد تدمَّت أذرعتهم من قبل رجل مسن ذي تأثير كبير بإحداث جروح عميقة بحجارة صوان حادة؛ ويجعلون الدم السائل من سواعدهم إلى أكواعهم يقطر على بقية رجال القبيلة المحتشدين في الكوخ. وفي الوقت نفسه يرمي الرجلان النازفان حفنات من وبر يطير بعضه في الهواء ويلتصق بعضه الآ خر على أجسام رجال القبيلة الملطخة بالدماء. يُعتَقد أن الدم يمثل المطرَ كما يمثل الوبرُ الغيومَ. وفي أثناء

هذا الطقس يوضع في وسط الكوخ حجران كبيران فهما يجمعان الغيوم ويبشران بالمطر. ثم يحمل الساحران النازفان الحجرين مسافة عشرة أميال أو خمسة عشر ميلاً، يضعانهما في أعلى مكان ممكن على أطول شجرة. وفي الوقت نفسه يأتي الرجال الآخرون بجبصين ناعم ويرمونه في حفرة ماء. يرى موراموراس هذا فيدفعون الغيوم إلى الظهور بالسماء على الفور. وأخيراً يجتمع الذكور صغاراً وكباراً حول الكوخ، ينحنون وينطحونه برؤوسهم مثل الخرفان، يظلون هكذا حتى يشقون طريقهم بالقوة فيه ويظهرون من الطرف الآخر ويكررون هذه العملية إلى أن يتحطم الكوخ. ويُمنَعون عندما يفعلون هذا من استخدام أيديهم أو أذرعتهم، إلا فيما تبقى من فروع الشجر الثقيلة التي لا يمكن نزعها برؤوسهم. يمثل اختراقُ الكوخ برؤوسهم اختراقَ الغيوم، ويمثل سقوطُ الكوخِ سقوطَ المطرِ، ومن الواضح أن رفع الحجرين إلى أعلى الشجرة يمثل ارتفاع الغيوم في السماء. وأيضاً يتخيل قوم ديري أن الجلدة المأخوذة من الفتيان فيفي أثناء الختان لها قدرة قوية على إنتاج المطر. لهذا يحتفظ مجلس القبيلة الأعلى بمخزون صغير من تلك القلف كي تكون جاهزة للاستخدام. ويتم إخفاؤها بعناية إذ تُغَلَّف بالريش مع شحم من كلب بري وأفعى السجاد. تُمْنَع النساء بتاتاً من رؤية صرَّةٍ منها. وعندما ينتهي الطقس تُدفن القلفة أو الغرلة بعد استنفاد بركتها. وعند بعض القبائل يخضعون لعملية جراحية بعد هطول المطر وهي قطع جزء من جلد الصدر والذراع بشظية حادة من حجر الصوان. ثم يضربون على الجرح حتى يسيل الدم بغزارة أكبر ويفركونه بمغرة حمراء وهي عملة ذهبية. وبعدها تبقى الندبات أثراً باقياً على جلودهم. ويبرر أولئك القوم تصرفهم هذا بزعمهم أنهم يتمتعون بالمطر وهناك علاقة تربط الندبات بالمطر. يبدو أن العملية ليست مؤلمة لأنهم يضحكون ويمرحون في أثناء القيام بها. أما الأطفال فقليل منهم يقترب من منفذي العملية لأنهم يحتاجون إلى صبر أكثر كي يشاركوا في هذا الطقس. بعد ذلك يركضون معرِّضين صدورهم للمطر الهاطل وهم يغنون. أما اليوم التالي فلا يستطيعون الاستمرار بذلك الشعور السعيد لأن جروحهم تكون قد تيبَّست وبدأت بالألم. وأيضاً في جافا عندما يحتاجون للمطر يقوم رجلان بجلد بعضهما بعضاً حتى يسيل الدم من ظهريهما فهو يمثل المطر ويعتقدون أنه يسبب سقوطه على الأرض. أما أهالي إغهايو وهي مقاطعة في ابيسينيا، فاعتادوا على إنزال

صراع أكثر دموية ببعضهم بعضاً ، وبين قرية وأخرى، ولمدة أسبوع في الشهر الأول من كل سنة بهدف جلب المطر. وظلت هذه العادة جارية حتى منعها الأمبراطور منذ بضع سنوات. لكن في السنة التالية لمنعه كان المطر شحيحاً وتعالت الصيحات بين العامة حتى أذعن الأمبراطور للعادة ثانية وسمح للقتال الإجرامي بالاستئناف لكن هذه المرة مدة يومين فقط سنوياً. وقد اعتبر الكاتب الذي ذكر هذه العادة سفك الدماء تضحية استعطافية يقدمونها للأرواح التي تأتي بالمطر؛ لكن ربما كما في الطقوس الأسترالية والجافانية هي محاكاة للمطر. وربما اعتمد أنبياء بعل على المبدأ نفسه عندما استجلبوا المطر جراء جرح انفسهم بالسكاكين حتى تتدفق الدماء.

وهناك اعتقاد واسع الانتشار يقول أن للتوأمين قوة سحرية على الطبيعة خاصة المطر والطقس. وتسود هذه الخرافة عند بعض القبائل الهندية في كولومبيا البريطانية؛ الأمر الذي قادهم إلى فرض قيود أو ممنوعات استثنائية على والدي التوائم وظل المعنى الدقيق لهذا المنع غامضاً بشكل عام. لذلك يعتقد هنود تسيمشيان في كولومبيا البريطانية أن التوأمين يسيطران على الطقس؛ لهذا يصلُّون للرياح والمطر، قائلين " اهدئي ياأنفاس التوائم ". ويذهبون بعيداً عندما يعتقدون أن رغبات التوائم مُجابة دائماً: لذلك يخافهم الناس لما قد ينزلون من أذى بالإنسان الذي يكرهون. وباستطاعة التوائم أيضاً استجلاب سمك السلمون أو قنديل البحر لذلك يطلقون عليهم اسم " صانعو الوفور " وفي رأي هنود كواكيوتل في كولومبيا البريطانية أن التوائم قد تحولت من سمك السلمون لذلك يُمنعون من الاقتراب من الماء كي لايعودوا إلى أصلهم السمكي ثانيةً. يستطيعون في طفولتهم أن يأتوا بالرياح من جراء حركة بسيطة من أيديهم كما يأتون بالطقس الرديء أو الحسن ويشفون المرضى بالخشخيشة الخشبية. وكذلك يعتقد هنود النوتكا في كولومبيا البريطانية أن هناك علاقة بين التوائم وسمك السلمون لذلك لايلتقط التوائم سمك السلمون أو يمسكون بالسمك الطازج. كما يستطيعون التسبب بهطول المطر من خلال غسل وجوههم بعد تلوينها بالأسود فهذا يمثل تصبب المطر من الغيوم الداكنة. وأيضاً هنود شسواب مثل هنود ثومبسون يربطون بين التوائم والدب الرمادي، لذلك يسمون التوائم " الدببة الرمادية الصغيرة" وتتمتع بقوى خارقة. ويستطيعون على وجه

الخصوص التسبب بالطقس السيء خلال سفح الماء من سلة في الهواء؛ ويتسببون بالطقس الحسن بهزٍّ قطعة منبسطة من الخشب مربوطة بخيط إلى عصا؛ ويثيرون العواصف بنثر نهايات أغصان البيسكة.

وتُعزَى القوة نفسها للتوائم عند قبيلة البارونغا وهي قبيلة بانتو الزنجية الذين يسكنون شواطئ خليج ديلاغوا في جنوب شرق أفريقيا. ويطلقون اسم تيلو أي السماء على من تنجب توأمين، أما أولادها فيسمون أولاد السماء. وعندما يتطلعون عبثاً إلى العواصف التي تنفجر عادةً في أيلول و تشرين الأول، وعندما يُنذر القحط بالموت جوعاً، وعندما تتلهف الطبيعة لزخات مطر في ربيع جنوب أفريقيا بعد توهج الشمس طوال ستة شهور متتالية في سماء خالية من الغيوم، تقوم النساء بطقوس تجلب المطر على أرض ظمأى، فيقمن بتعرية أجسادهن ويبقين على حزام ساتر وغطاء رأس من الأعشاب أو سترة صغيرة صنعت من أعشاب نبات متسلق. بهذا المظهر المزين وبصرخات خاصة يغنين أغاني بذيئة وينتقلن من بئر إلى بئر ينظفنها من الوحل وما جمعته من أوساخ. يقال أن الآبار هي مجرد حفر في الرمال ركدت فيها المياه الفاسدة الراكدة. ثم تذهب النسوة إلى بيت أم بالمعمودية أنجبت توأمين ثم يسقينها بماء حملنه في أباريق صغيرة. وبعد ذلك ينصرفن في سبيلهن ينشدن بصوت عال أغاني خليعة ويرقصن رقصات غير محتشمة. لايمكن لرجل أن يرى تلك النسوة وهن في كسوتهن النباتية تلك وإذا صادفن أحدهم يضربنه بعنف ويلقين به جانباً. وبعد تنظيف الآبار يذهبن ليصببن الماء على قبور أجدادهن في الغابة المقدسة. وأحياناً يطلب منهن الساحر الذهاب إلى قبر توأم ويصببن الماء عليه لأنه بحاجة دائمة إلى الترطيب لهذا السبب ساد نظام دفن التوائم بجانب البحيرات. وإذا باءت محاولاتهن في استجلاب المطر بالإخفاق يتذكرون أنهم دفنوا توأماً يوماً على سفحٍ جاف ويقول الساحر في مثل هذه الحالة: " إن السماء غاضبة، خذوا جثمانه واحفروا له قبراً بجانب البحيرة. ". فيُلبَّى طلبه على الفور لأنهم يعتبرون هذه الطريقة هي الوحيدة لاستجلاب المطر.

بعض هذه الحقائق تدعم بقوة تفسير البروفيسور أولدنبورغ الذي تناول القواعد التي يتبعها البراهما عندما يحفظ أحدهم ترتيلاً خاصاً من مجموعة التراتيل الهندية القديمة المعروفة باسم سامافيدا. ويعتقد أن الترتيل الذي يحمل اسم أغنية ساغافاري

يجسد قوة سلاح إندرا ـ الرعد؛ وبما أنه سلاح فعال وخطير، على المتدرب الذي يحاول السيطرة عليه أن يُعْزَل عن أقرانه وينتقل إلى قرية في الغابة ويبقى هناك مدة من الوقت تتراوح بين – وحسب رأي أساتذة القانون – سنة إلى إثنتا عشرة سنة، يلتزم خلالها بقواعد معينة من بينها: من الواجب عليه أن يلمس الماء ثلاث مرات يومياً، ويلبس رداءً أسود ويأكل طعاماً أسود؛ وعندما تمطر يجب أن لا يقصد مأوى تحت سقف بل عليه أن يجلس في المطر ويقول: "الماء أغنية الساغافاري" وعندما يومض البرق يقول: "هذا مثل أغنية ساغافاري" وعندما يهدر الرعد يقول: " الأعظم يصدر الصوت العظيم. ". كما عليه ألا يعبر جدول ماء جار دون أن يلمس الماء، ولا يطأ سفينة إلا وحياته في خطر، وحتى هنا يجب أن يلمس الماء قبل صعوده سطح السفينة لأنه كما جرى القول: " في الماء تكمن فضيلة أغنية ساغافارس.". و عندما يسمح له تعلُّمَ أغنية ساغافاري عليه أن يغمس يديه في وعاء ماء وُضِعت فيه جميع أنواع النباتات. وإذا ما التزم رجل هذه المبادئ لابد أن يقوم إله المطر برجانيا بإرسال المطر تلبية لرغبته. من الواضح أن البروفيسور أولدنبورغ يريد القول:" إن المقصود من كل هذه القواعد هو إقامة التوحُّد بين البراهمان والماء لتجعله حليفاً لقدرات الماء وليحرسها من كل اعتداء. أما الرداء الأسود والطعام الأسود فيحملان المغزى نفسه؛ إذ مما لاشك فيه أنهما يدلان على السحب الماطرة خصوصاً عندما نتذكر أن الأضحية السوداء تُذبَح لسَوْقِ المطر؛ وهي سوداء تناغماً مع طبيعة المطر. وهناك سحر مطري آخر يقول بصراحة: " يرتدي رداءً أسود بحاشية سوداء، فهذه طبيعة المطر". لنا هنا أن نفترض أن عالم الأفكار والطقوس الفيدية قد احتفظ بممارسات سحرية من أقدم الأزمان والمقصود منها تهيئة صانع المطر لاستلام منصبه الذي سيكرس نفسه من أجله.

من الممتع أنه عندما يرغبون بإيقاف المطر يقضي المنطق البدائي قيام الطبيب الطقسي بعكس القواعد بكل دقة. ففي جزيرة جافا المدارية حيث يظهر الغطاء النباتي الكثيف دليلاً على وفور الأمطار، تندر طقوس صنع المطر ويشيع مكانها طقوس منع المطر. فعندما يقيم رجل احتفالاً كبيراً في الفصل الماطر وقد دعا إليه حشداً من الناس، يذهب إلى طبيب المطر ويطلب منه أن يسند الغيوم المنخفضة. وإذا وافق الطبيب على استخدام خبراته المهنية يشرع في تنظيم سلوكه وفق قواعد معينة

فور مغادرة الزبون. عليه أولاً أن يصوم: لا يشرب ولايستحم؛ وعندما يأكل القليل القليل يجب لهذا القليل أن يكون جافاً ويجب أن يمتنع البتة عن لمس الماء. ومن جانب المضيف، على الخادمات والخادمين ألا يغسلوا ثيابهم أو يستحموا وألا يمارسوا الجنس طوال مدة الإحتفال. يجلس الطبيب على بساط جديد في غرفة نومه ويتمتم أمام مصباح زيتي صغير قبيل بداية الإحتفال بالصلاة أو التعويذة التالية:

" يا جَدِّي و ياجَدَّتي سرويكويل (يبدو أن الاسم هنا عشوائي ويمكن استبداله بآخر) عودا إلى بلادكما، فإن بلادكما هي أكيمات، ضعوا دلاءكما هناك، أحكما إغلاقها ولاتَدَعا قطرة منها تهطل. " عندما يتلفظ الساحر بصلواته يرفع ناظريه إلى الأعلى وهو يحرق البخور. إذن يحرص طبيب المطر عند قوم تورادجا والذي عمله الأساسي هو إبعاد المطر ألا يلمس الماء قبل أو في أثناء أو بعد أداء واجبه المهني. فهو يمتنع عن الاستحمام، ويأكل بأيدٍ غير مغسولة، ولا يشرب إلا خمر التمر، وإذا كان عليه أن يعبر جدولاً عليه ألا يلامس الماء. و عندما يتم تحضيراته لاستلام مهامه يُبنَى له كوخ خارج القرية في حقل من الأرز، ويحتفظ في الكوخ بموقد صغير لاتُطفأ فيه النار أبدا. ويوقد فيها أنواع عديدة من الخشب من المفترض أنها تملك خاصية أستبعاد المطر؛ وينفخ بالاتجاه الذي ينذر بقدوم المطر، ماسكاً بيده كيساً صغيراً يحتوي على أوراق ولحاء يستمد منها قدرةً على إكراه الغيوم. لاتأتي هذه القدرة من تركيبها الكيميائي بل من أسمائها التي صادف أنها تدل على الجفاف أو التطاير. وإذا ظهرت الغيوم وهو يقوم بعمله يضع كلساً في تجويف يده وينفخه باتجاهها. وبما أن الكلس جاف جداً فهو يملك القدرة على تفريق الغيوم الرطبة. وإذا ما أراد للمطر أن يأتي فما عليه إلا أن يصب الماء في موقده، وعلى الفور ترى الأمطار تهطل حبالاً.

سيلاحظ القارئ كم تتباين طقوس أهالي جافا والتورادجا التي يقصدون منها منع المطر عن طقوس أولئك الهنود الذين يريدون جلب المطر. يُطلَب من الحكيم الهندي أن يلمس الماء ثلاث مرات يومياً بالإضافة إلى مناسبات خاصة، في حين يمنع الجافاني أو التورادجا أن يلمسها البتة. يعيش الهندي في الغابة ولا يمكنه أن يلجأ إلى مأوى عندما تمطر، بينما الجافاني أو التورادجافيجلس في بيته أو كوخه. يهدف الأول إلى التعاطف مع الماء خلال تلقي المطر على جسده والتكلم عنه باحترام أما

الآخرون فيشعلون المصباح والنار محاولين كل ما بوسعهم إبعاد المطر. مع ذلك يبقى المبدأ في التصرفات الثلاثة واحداً وفي كل منها، وبنوع من التصرفات الصبيانية لصنع المطر، يطابق نفسه مع الظاهرة الطبيعية التي يرغب في إنتاجها. إنه ذات الخطأ القديم وهو أن النتيجة تشبه السبب: فإذا أردت أن تصنع الطقس الرطب يجب أن ترطب نفسك وإذا أردت صنع الطقس الجاف لابد من أن تجفف نفسك.

في شرق أوروبا وفي يومنا هذا يقوم الناس بإقامة طقوس معينة بهدف صنع المطر والتي لا تعتمد فقط على الأفكارالسابقة نفسها بل تماثل حتى في تفاصيلها تلك الطقوس الممارسة بالنية نفسها من قبل قوم البارونغا في خليج ديلاغوا. ومن بين الإغريق في ثيسالي ومقدونيا. وعندما يدوم الجفاف وقتاً طويلاً أعتادوا إرسال وفد من الأطفال إلى الآبار والينابيع المجاورة، وعلى رأس الوفد تمشي فتاة مزينة بالورود ويقوم مرافقوها بالتبلل بالماء عند كل موقف وهم يغنون تضرعاً أغاني منها مايلي:

" بريبريا كلها مبللة

بللي الديرة كلها

بغاباتها وطرقاتها

وبما أنك ذاهبة لله صلّي الآن

ياإلهي، على السهول

أرسل لنا مطراً قليلاً هادئاً

كي نرى عرائش العنب تبرعم

وتصبح الحبات مملوءة مكتنزة

وتترعرع القطعان. "

وفي أيام القحط يقوم الصربيون بتعرية إحدى الفتيات تعرية حتى الجلد ثم يكسونها عشباً ونباتات وورود بما فيها وجهها الذي يختفي خلف غطاء من العشب الأخضر النضر. وعندما تتنكر بهذا الشكل تُسمَّى دودولا وتذهب في القرية مع مجموعة من الفتيات. يقفن أمام كل بيت ودودولا تدور حول نفسها وترقص مُحاطة بحلقة من الفتيات اللواتي يغنين إحدى أغاني دودولا وتقوم ربة البيت بسكب دلو من الماء عليها. ومن الأغاني التي يغنين هي:

" نحن نمشي في القرية

وتمشي الغيوم في السماء

نسرع في مشيتنا

فامشي يا غيوم أسرع

ها قد أدركتنا الغيوم

وروت الحنطة والعنب."

وعندما يحتاجون للمطر في بونا في الهند يُلبسُ الفتيانُ واحداً منهم بالأوراق ويسمونه ملك المطر. ثم يذهبون إلى كل منزل في القرية حيث يقوم رب المنزل أو ربته برش ملك المطر بالماء ويعطون جماعته أنواعاً شتى من الأطعمة. و بعد إتمام زيارة جميع المنازل يعرُّون ملك المطر من ثيابه النباتية ويحتفلون بتناول ما جمعوه من طعام.

يُمارس الاستحمام كسحر للمطر في بعض مناطق جنوب وغرب آسيا. وأحيانا وبعد الخدمة في الكنيسة يُرمى الكاهن في ردائه الأسود على الأرض وينقع بالماء من قبل أبارشته. وأحيانا تقوم النسوة بدون خلع ملابسهن بالاستحمام بين الناس في عيد يوحنا المعمدان وهن يغمسن في الماء مجسماً مصنوعاً من الأغصان والنباتات من المفترض أنه يمثل ذلك القديس. وفي كورش وهي مقاطعة في جنوب روسيا ، وعندما تصبح الحاجة ماسة للمطر ، توقف النسوة مسافراً عابراً ويلقينه في النهر أو يبللنه من رأسه حتى أخمص قدمه. وفيما بعد نرى أن ذلك المسافر العابر يُعتَبَر إلهاً يجسد إحدى قوى الطبيعة. ومن الأشياء المدونة في السجلات الرسمية أنه في أثناء الجفاف في العام 1790 جمع الفلاحون في شيروتز و ويربوتز جميع النساء وأجبروهن على الاستحمام لعل المطر تهطل. ومن السحر المطري في أرمينيا أن تُرمى زوجة الكاهن في الماء و تُبَلَّل. أما العرب في شمال أفريقيا فيرمون رجلاً مقدساً شاء أم أبى في الماء كعلاج لأزمة الجفاف. وفي مانهاسا وهي مقاطعة في شمال سيليبيز يستحم الكاهن بقصد السحر المطري. وفي سيليبيز الوسطى وعندما يطول الزمن ولا تُمْطِر وتبدأ سنابل الأرز بالذبول يقوم الكثير من القروين وخاصة صغار السن بالذهاب إلى غدير مجاور ويرشون بعضهم بعضاً بالماء وهم يصرخون بأعلى صوتهم أو ينفخون الماء على

بعضهم بعضاً من قصب البامبو. وأحياناً يقلدون زخات المطر بضرب سطح الماء بأيديهم أو يضعون ثمرة القرع على الماء ويضربون عليها بأصابعهم و كأنها طبل.

ومن المفترض أن للنساء قدرة على صنع المطر بالحراثة أو التظاهر بأنهن يحرثن. لذلك لدى قوم البشاو وكاكوسو طقس يسمى " حراثة المطر" يحيونه في زمن الجفاف. فتقوم البنات بارتداء النير ويجرنّه في النهر خائضات في الماء حتى الخصر. وفي الظروف نفسها تقوم النساء الأرمينيات باشيء ذاته. ترتدي أكبر النساء سناً أو زوجة الكاهن رداء الكاهن، أما البقية فيرتدين كالرجال ويجرنّ المحراث في الماء عكس التيار. وفي المنطقة القوقازية من جورجيا، وعندما يغيب المطر طويلاً تتيَّر البنات في سن الزواج، أي يضعن نير الثور أزواجاً أزواجا على أكتافهن ويمسك الكاهن بالعنان ويخضن بالنهر والبرك والمستنقعات مرتديات لباس الثور ويصلين ويصرخن ويبكين ويضحكن. وفي مقاطعة ترانسلفانيا وعندما تتشقق الأرض جفافاً تخرج الفتيات عاريات تماماً تقودهن امرأة مسنَّة عارية أيضاً ويسرقن مسلفة ثم يذهبن عبر الحقول إلى غدير ثم يجعلن المسلفة تطفو ويجلسن عليها ويشعلن لهباً ضعيفاً في كل زاوية منها مدة ساعة كاملة. ثم يتركن المسلفة على الماء ويذهبن إلى منازلهن. وهناك سحر مشابه يلجؤون إليه في بعض أنحاء من الهند إذ تجر النساء العاريات محراثاً عبر الحقل في الليل ويحرصن على ابتعاد الرجال لأن وجودهم يفسد السحر.

يستمد سحر المطر مفعوله من الأموات أحياناً. ففي كاليدونيا يقوم صانعو المطر بتلوين أجسادهم كاملة بالأسود ثم ينبشون جثة ميت ويأخذون عظامه إلى أحد الكهوف، ويعيدون تركيبه ويعلقون الهيكل فوق بعض أوراق القلقاس. ويُصَبُّ الماء فوق الهيكل حتى تسيل إلى الأوراق. يعتقدون أن أرواح الموتى تأخذ الماء وتحولها إلى مطر، ثم تجعلها تتصبب ثانيةً. وفي روسيا، إذا تم تصديق إشاعة عامة يسارع فلاحو المنطقة المهددة بالجفاف إلى نبش جثة شرب صاحبها الخمر حتى الموت ويرمونها في أقرب مستنقع أو بحيرة لأن لديهم قناعة تامة أن هذا سيؤمِّن لهم المطر المطلوب. وفي عام 1868عندما توقعوا محصولاً سيئاً بسبب الجفاف توصل أهالي قرية في مقاطعة تارشسانك إلى قناعة تامة بضرورة نبش جثة راسكولنيك أو ديسنتر الذي مات في كانون الأول الماضي. ويقوم بعضهم بضرب ما تُرِك من الجثة قريباً من

الرأس صارخين: " أعطنا المطر! " ويقوم آخرون بصب الماء عبر غربال. و هنا يمثل تصبب الماء زخات المطر وتذكرنا هذه الطريقة بالتي تخيلها ستريبسياديس في إريستوفينز عن صنع زيوس للمطر. وأحياناً يقوم التورادجاس بمناشدة واستعطاف الأموات. لذلك يوجد في قرية كالينغوا ضريح لقائد مشهور وهو جدُّ الحاكم الحالي، يذهب إليه الناس عندما تعاني الأرض من جفاف غير عادي ويصبون عليه الماء ويقولون: " يا جدنا ارحمنا، وإذا كانت إرادتك أن نأكل هذه السنة أرسل لنا المطر. " وبعد ذلك يعلقون قصبةً من البامبو كي ينزل الماء باستمرار من ثقب صغير منها. ويستمرون في تعبئة أنبوب البامبو حتى تُرْوى الأرض. وهنا في كاليدونيا الجديدة نجد السحر ممزوجاً بالدين لأن الصلاة على القائد الميت تصرفٌ ديني بحت تكمِّله المحاكاة السحرية للمطر على ضريحه. ورأينا قوم بارونغا في خليج ديلاغوا كيف يروون قبور أسلافهم، وخاصة قبور التوائم ويعتبرون ذلك سحراً مطرياً. وجرت العادة عند القبائل الهندية في منطقة أورينوكو أن يقوم أقارب الميت بنبش العظام من القبر بعد مضي عام على الدفن ثم يحرقونها وينثرون رمادها مع الريح لأنهم يعتقدون أن الرماد يتحول إلى مطر يرسله الميت مقابل المأتم الذي يُقَام له. كما أن لدى الصينيين قناعة بأنه عندما يبقى الجسم البشري غير مدفون تشعر أرواح مالكيه اللاحقين بعدم الراحة للمطر تماماً مثلما يبقى الأحياء معرضين دون مأوى للطقس القاسي. لذلك تحاول هذه الأرواح البائسة جاهدةً منع المطر من الهطول، وغالباً ما تنجح في ذلك. وبعدها يأتي الجفافُ وهو أكبر كارثة في الصين لأن المحاصيل والقحط والمجاعة تعقب المطرمباشرةً. لذلك تقوم السلطات الصينية أيام الجفاف بدفن عظام جافة لموتى لم يدفنوا وذلك بهدف وضع حد للكارثة خلال هطول المطر. وتشكل الحيوانات أيضاً جزءاً مهماً من سحر الطقس. تربط قبيلة أنولا في شمال أستراليا طائر الدولار بالمطر وتسميه طائر المطر. ويستطيع من يتخذ هذا الطائر طوطماً للقبيلة أن يصنع المطر عند بحيرة معينة. فيلتقط أفعى ويضعها حيَّةً في البُركة، وبعد أن يضعها تحت الماء لبعض الوقت يخرجها ويقتلها ويضعها بجانب أحد روافد البحيرة. ثم يصنع من العشب حزمة على شكل قوس مقلداً قوس قزح وينصبه فوق الأفعى. وما عليه بعد ذلك إلا أن يغني فوق الأفعى وقوس القزح المُقَلَّد؛ وبعده، عاجلاً أم آجلاً، ستهطل الأمطار. ويفسرون تصرفهم هذا بأنه في

قديم الزمان كان يعيش في هذه المنطقة طائر الدولار مع رفيقته الأفعى التي اعتادت أن تصنع المطر خلال بصاقها في الجو حتى يتشكل قوس قزح وتتجمع السحب وتهطل ا لمطر. وهناك طريقة شائعة في جافا يلجأ إليها الأهالي لصنع المطر وهي أنهم يحممون قطةً أو قطةً و قطاً، وأحياناً تُحمَل القطتان في موكب مصحوب بالموسيقا. وحتى في باتافيا يمكنك رؤية الأطفال من حين لآخر ذاهبين ومعهم قطة لهذا الغرض ثم يتركونها في حال سبيلها بعد أن يغمسوها في الماء.

أما قوم وامبوغوي في شرق أفريقيا، وعندما يريد الساحر صنع المطر، يأخذ شاةً سوداء وعجلاً أسود في يوم تسطع فيه الشمس ويضعهما على سطح منزل عام يسكنه الناس سويةً ثم تُقدَّما بكرشتيهما ويبعثر محتواها في كل الاتجاهات. بعد ذلك يصب ماءً ودواءً في وعاء؛ وعندما ينجح السحر يغلي الماء وتهطل المطر. ومن الناحية الأخرى، إذا ما أراد الساحر منع المطر من الهطول، ينسحب إلى داخل المنزل ويسخن بلورات صخرية في قرعة يابسة. ولكي يستجلبوا المطر يقوم قوم الواغوغو بذبح طائر أسود، شاة سوداء وبقرة سوداء على ضريح أسلافٍ لهم، ويرتدي صانع المطر ملابس سوداء في أثناء الفصل الماطر. ومن بين قوم الماتابيلي يستخدم الساحر صانع المطر دم وصفراء ثور أسود. وفي منطقة في سومطرة ولكي يستجلبوا المطر تتعرى نساء القرية قليلاً ويذهبن إلى النهر ويخضن فيه ويرششن بعضهن بعضاً. وأيضاً يضعن قطة سوداء في الجدول ويحاصرنها حتى تسبح بعض الوقت ثم يفسحن لها المجال للهرب نحو الضفة ويدفعنها لذلك بالنضح. أما قوم إسور في آسام فيقدموا عنزة سوداء على قمة جبل عالٍ في أيام القحط. كل تلك الحالات تشترك بقاسم مشترك وهو اللون الأسود للحيوان؛ فهذا اللون هو الذي يجعل السماء داكنة بغيومها الماطرة. للسبب نفسه يحرق قوم البيغوانا كرشة ثور عند المساء لأن هذا على حد قولهم "يسبب تجمع الغيوم مع الدخان الأسود وبالتالي يسبب الهطول." أما قوم التيموريس فيذبحون خنزيراً أسود لإلهة الأرض لأجل المطر وآخر أحمر أو أبيض لإله الشمس لأجل أشعة الشمس. أما قوم الأنغوني فيذبحون ثوراً أسود لأجل المطر وآخر أبيض لأجل الطقس الجميل. وفي منطقة في جبال اليابان العالية وعندما يتأخر هطول المطر طويلاً يذهب جماعة من أهالي القرية في موكب إلى سرير سيلٍ جبلي وعلى رأسهم الكاهن الذي يقود كلباً أسود. وفي موقع يختارونه يربطون الكلب بطوق

قصير إلى حجر ويجعلونه هدفاً لطلقاتهم وسهامهم. وعندما يدمغ دمه الحي ذلك الحجر يرمي جماعة القرية أسلحتهم ويرفعون أصواتهم هاتفين لتنين إله الجداول ويحضونه على إرسال زخات من المطر ليغسل بقعة الدم النجسة عن الصخرة. وجرت العادة أنه في مثل هذه المناسبات لابد أن يكون لون الضحية أسود كرمز للغيوم الماطرة التي يرجونها. وعلى العكس، إذا أرادوا طقساً جميلاً فلابد للضحية من أن تكون بيضاء ناصعة لا تشوبها أية لطخة.

إن الارتباط الحميم بين الضفدع والعلجوم بالماء أكسب هذين الحيوانين سمعة طيبة كراعيين للمطر؛ ولهذا يلعبان دوراً في السحر الذي يهدف لسحب زخات المطر من السماء. وبعض الهنود وهم الأورينوكو اعتبروا العلجوم إله الماء لذلك كانوا يخافون قتله. ويُعرَف عندهم أنهم يحبسون الضفدع تحت إناء ويضربونها أيام الجفاف. ويُقال أن هنود أيمارا يصنعون صوراً للضفادع وحيوانات مائية أخرى ويضعونها على قمم الجبال كوسيلة لجلب المطر. أما هنود ثومبسون في كولومبيا البريطانية وبعض أهالي أوروبا فيعتقدون أن قتل الضفدع يسبب تهطال الأمطار. وهناك طائفة هندوسية في أواسط الهند يربطون ضفدع إلى عصاة مكسوة بورق أخضر وأغصان شجرة نيم ويحملونها من باب إلى باب ويغنون:

" أرسلي المطر فوراً أيتها الضفدع، يا جوهرة الماء!

وأنضجي القمح والدُّخنَ في الحقول."

أما الكابُس والرديس وهما طائفتان كبيرتان من المزارعين وملاكي الأراضي في رئاسة مادراس، عندما يتأخر المطر تقوم نساؤهم بالتقاط ضفدع ويربطنها حية إلى أسنان مذراة جديدة مصنوعة من البامبو. ويوزعن على أسنانها أيضاً أوراق المارغوسا ويذهبن من باب لآخر وهن يغنين، "لابد للسيدة الضفدع أن تستحم. آه! يا إله المطر أنعم عليها ولو بقليل من الماء."، وبينما تغني نساء الكابو هذه الأغنية، تسكب النسوة من المنازل الماء على الضفدع وتعطينهم صَدَقة لقناعتهن أن هذا سيجلب الأمطار سيولاً.

أحياناً عندما يدوم الجفاف فترة طويلة، يتبع الناس خديعة لفظية لتغطية سحر المحاكاة فيتظاهرون أنهم كادوا يفقدون أنفاسهم غضباً وهم يتلون صلاة خلال التهديدات واللعنات وحتى القيام بحركات فيزيائية لانتزاع المياه من السماء من

كائن ما وكأنه تركهم ضائعين في عرض البحر. ففي قرية يابانية عندما يعطي حارس الآلهة أُذناً صماء لصلوات الفلاحين التي يتضرعون فيها لإرسال المطر، يطرحون صورته أرضاً، يلعنونه بصراحة ويقذفون برأسه في حقول الأرزّ النتنة. ويقولون: " لقد جنيت على نفسك بوجودك هنا بضع أيام ولتشعر بشعور الشواء في الشمس التي تحرق حقولنا المتشققة ". وفي ظروف مماثلة يسقط قوم فيلوب من سينيغامبيا معبوداتهم ويجرونها في الحقول ويلعنونها حتى يهطل المطر.

للصينين خبرة واسعة في استخدام العاصفة للسيطرة على مملكة السماء. لذلك يقومون عند الحاجة للمطر ببناء تنينٍ ضخمٍ من الورق والخشب ليمثل إله المطر، ويجولون به في موكب؛ ولكن عندما يتأخر المطر يحتقرون التنين المجسم ويقطعونه إرباً، أو أحياناً يهددون هذا الإله ويضربونه إن أحجم عن منح المطر، وأحياناً أخرى يخلعونه من منصبه الإلهي أمام العامة. أما إذا هطلت الأمطار المرغوب بها يُرَقُّونه إلى مرتبة أعلى بمرسوم إمبراطوري. في نيسان العام 1888 صلّت قبائل الماندرين في منطقة كانتون للإله لنغونغ ليوقف تصبب الأمطار المتواصل؛ وعندما رأوا منه آذاناً صماء لطلبهم سجنوه مدة خمسة أيام. كان لهذا مفعول إيجابي إذ توقفت الأمطار فمُنِحَ الإله حريته ثانيةً. وقبل بضع سنوات مرت فترة قحط فتم تكبيل الإله نفسه بالسلاسل وتُرِك عرضة لأشعة الشمس في ساحة المعبد عدة أيام كي يشعر بالحاجة الماسة للمطر. وكذلك عندما يحتاج أهالي سيامي للمطر يضعون أوثانهم في الشمس المحرقة؛ وإذا أرادوا الطقس الجميل يرفعون السقف عن المعبد ويعرضون أوثانهم للمطر. فلديهم اعتقاد بأن عدم رضا الآلهة عن الحالة التي يضعونهم فيها تسهم في إقناعهم بمنح الرغبات التي يطلبها عبدتُهم.

ربما أثار علم الأنواء في الشرق الأدنى سخرية القارئ، لكن عليه ألا ينسى أنهم لجؤوا إلى الوسائل نفسها في أوروبا المسيحية في وقتنا الحاضر. ففي نهاية نيسان من العام 1893 عانى الناس في صقلية من شح الماء إذ دام الجفاف ستة شهور كانت تشرق فيها الشمس وتغرب في سماء زرقاء تخلو من أية غيوم. وبدأت تذبل البساتين في كونكا دورو التي تطوّق باليرمو بحزام أخضر ساحر. بدأ الغذاء ينضب وأصاب الناس ذعرٌ هادئ فلجؤوا إلى جميع الوسائل لاستجلاب المطر دون جدوى. عجت الشوارع والبساتين بالمواكب. وراحت الناس برجالها ونسائها وأطفالها توشوش حبات

السبحة وقضوا ليالٍ بطولها أمام الصور المقدسة. وأضاءت الشموعُ المنذورة الكنائسَ في الليل والنهار. وعُلِّقت أغصان النخيل على الأشجار بعد مباركتها في أحد النخيل. وفي قرية سولاباروتا وحسب عادة قديمة جداً مسحوا الغبار عن الكنائس في أحد النخيل ونثروه في الحقول. في السنين العادية يقوم ذلك الغبار بوظيفة الحفاظ على المحاصيل؛ لكن في تلك السنة، صدِّق أو لاتصدق، فقدت كل مفعولٍ لها. وفي نيقوسيا خرج السكان حاسري الرؤوس، حفاة، يحملون الصُلُبَ ويجولون في أحياء المدينة ويجلدون بعضهم بعضاً بأسواط حديدية. كل تلك المحاولات كانت عبثاً. وحتى قديس باولو العظيم فرنسيس، والذي كان يقوم بمعجزة المطر سنوياً وكان يُحْمَل كل ربيع إلى بساتين السوق، إما لم يرغب بالمساعدة أو أنه لايستطيع المساعدة أصلاً. وأخفقت في استثارته كل الجماهير المحتشدة وصلوات الغروب والأنوار والمشاعل. أخيراً بدأ الفلاحون يفقدون صبرهم. اختفى جميع القديسين. وفي باليرما رموا القديس جوزيف في بستان ليدرك المشكلة بنفسه وأقسموا أن يبقوه هناك حتى يهطل المطر. وعاقبوا قديسين آخرين مثل الأطفال المشاكسين فأوقفوهما ووجوههما إلى الجدران. أما آخرون فقد كان نصيبهم أن نزعوا عنهم رداءهم الجميل ونفوهم من أبرشياتهم وهددوهم وأمعنوا في احتقارهم وغطّسوهم في بُرَكِ الخيل. وفي كالتانيسيتا تم انتزاع الأجنحة الذهبية عن أكتاف القديس الملاك ميخائيل ووضع أجنحة كرتونية بدلاً منها. وفي ليكاتا دفع القديس الراعي ثمناً أكبر عندما سلخوا عنه أي لباس وشتموه وكبلوه بالحديد ثم هددوه بالموت غرقاً أو شنقاً. وصرخت الجموع الغاضبة المحتشدة وقبضاتهم تهدد وجهه وتقول: " إمَّا المطر أو العباءة ".

وعندما تحرق الشمس حنطتهم يستغيث الزولو برحمة الآلهة، ويتربصون بطائر السماء، يقتلونه ويرمون به في بحيرة. ثم ترق السماء حناناً على موته؛: " فتندبه بالمطر وتقيم جنازة من العويل. " وتدفن المرأة ولدها في الأرض حتى الرقبة ثم تبتعد قليلاً وتطلق ولولة قابضة للصدر ولوقت طويل مفترضة أن السماء ستلين شفقة على هذا المشهد. ثم تحفر النسوة حول أولادهن وتخرجنهم وكلهن ثقة أن المطر قادم قريباً جداً. ويقولون أنهم يدعون "الله في الأعلى" ويطلبون منه إرسال الأمطار. وإذا أتت يطلقون عليها اسم " مطر أوسوندو". وفي أيام الجفاف يقود قوم الفوانش في

تينيريف أغنامهم إلى الأرض المقدسة وهناك يفصلون صغارها عن أمهاتها كي يرق قلب الله لثغائها. وفي كوماون، إحدى الطرق التي يوقفون بها هطول المطر هي سكب زيت مغلي في أذن كلب يسرى، فينبح الحيوان ألماً فيسمعه إندرا ويوقف المطر شفقة على معاناته. كما يحاول قوم تورادجا استجلاب المطر بوضعهم سيقان نبات معين في الماء ويقولون: " اذهبي واطلبي المطر، فلن أغرسك مادام أنها لا تمطر وبهذا ستموتين." ويربطون أيضاً بزّاقة إلى خيط ويعلقون الخيط على شجرة ويقولون للبزاقات: " اذهبي واطلبي المطر ومادام أنه ليس هناك مطر فلن أعيدك إلى الماء." بعدها تذهب البزاقات وتبكي وتشفق عليها الآلهة فترسل المطر. إن الطقوس السابقة هي دينية أكثر منها سحرية، لأنها تنضوي تحت طلب الرحمة من قوى أعلى.

من المفترض أن للحجارة خاصية جلب المطر شريطة أن تُعامل بطريقة مناسبة كأن نغمسها بالماء أو نرشها به. هناك في قرية ساموان حجر معين يضعونه بكل عناية في حجرة خاصة لأنه يمثل إله صانع المطر. يأخذه الكهنة في موكب أيام الجفاف إلى الجدول ويغطسونه بالماء. وعند قبيلة تاتاثي في جنوب ويلز الجديدة، يقوم صانع المطر بكسر قطعة من حجر بلوري ويقذفه بقوة نحو السماء ثم يلفُّ ما تبقى منه بريش طائر آمو وينقعه والريش في الماء ثم يخبئه مع غلافه بعناية. وعند قبيلة كيرامين في ويلز الجنوبية الجديدة يلجأ الساحر إلى سرير غديرٍ ما ويصب الماء على حجر دائري منبسط ثم يغطيه ويخفيه في مكان ما. وعند بعض قبائل شمال غرب أستراليا يعيد صانع المطر قطعاً منفلقة من الحجارة والتراب إلى حالها الأول بهدف صنع المطر فتتشكل كومة من الحجارة والرمال يضع فوقها حجره السحري. يرش الحجر بالماء ويضرم ناراً ضخمة. ثم يمشي حول الكومة منشداً أقوالاً سحرية ولايكف عن ذلك حتى يبلغ حالة الإرهاق التام. يمنع اقتراب الناس العاديين العلمانيين من البقعة المقدسة في أثناء القيام بالطقس الغامض السري. عندما يرغب قوم سلكا في بريطانيا الجديدة في استجلاب المطر يلوِّنون الحجارة بالأسود مستخدمين رماداً من فاكهة معينة ويضعونها خارجاً معرضة للشمس مع بعض النباتات والبراعم ثم يضعون باقة من الأغصان في الماء ويثقلونها بالحجارة في أثناء القيام بالسحر. بعدها لابد من قدوم المطر. وفي مانيبور وعلى هضبة عالية إلى

الشرق من العاصمة، هناك حجر تخيَّله العامة على أنه شبيه بالمظلة. وكلما أراد الأمير الهندي راجا مطراً جلب الماء من الغدير ورشه على الحجر. وهناك في سفامي في اليابان حجر يجلب المطر كلما صببت الماء عليه. أما قبيلة واكونديو من أفريقيا الوسطى فيرسلون طلباً إلى واوامبا الذين يعيشون على سفح جبال ثلجية وهم سعداء لامتلاكهم حجر الماء، ومقابل مبلغ مناسب من المال يغسل قوم واوامبا الحجر النفيس ويدهنونه بالزيت ثم يضعونه في وعاء مملوء بالماء. عندها لن تخطئ المطر هدفها. وفي صحارى أريزونا القاحلة وفي المكسيك الجديدة يلجأ الناس إلى أباتشي لصنع المطر إذ يحملون الماء من نبع معين ويصبونه على نقطة معينة في أعلى الصخرة. و بعد ذلك يتخيلون أن الغيوم ستتجمع و يبدأ المطر بالهطول.

لايقتصر هذا النوع من العادات على براري أفريقيا وآسيا أو صحارى أستراليا الحارة والعالم الجديد، فهي مازالت تُمارس في الطقس البارد وتحت سماء أوروبا الرمادية. هناك نبع ذو شهرة رومانسية يسمى بارينتون وهو في غابات بروسيلياند البرية ومازال فيه، إن صدقت الأسطورة، ينام الساحر ميرلين نوماً سحرياً خفيفاً تحت ظلال الزعرور البري. يقصده الفلاحون هناك كلما احتاجوا للمطر. يجمعون بعض الماء في إبريق ويصبونه على حجر مسطح بجانب النبع. وفي ينودونا هناك بركة جبلية وحيدة تُدعى دالاين، أو البحيرة السوداء. وهي واقعة في وادٍ سحيق كئيب ومحاطة بصخورعالية خطيرة. تقود إلى داخل هذه البحرة مداسات حجرية. وإذا داس أحدهم على هذه الحجارة وقذف الماء على أبعد حجر والذي يسمى المذبح الأحمر فإنه سيأتي بالمطر مع حلول الليل مهما كان الطقس حاراً. ربما اعتبروا هذا الحجر كما في ساموا إلهيّاً نوعاً ما. ويصبح الأمر أوضح عندما نفكر بعادة تُتَّبَع أحياناً عند رسم الصليب على نبع بارنتون لاستجلاب المطر، ومن الواضح هنا أن هذا السلوك هو بديل مسيحي حل محل الطريقة الوثنية القديمة في القذف بالماء على الحجر. وفي أمكنة عديدة من فرنسا ظلت وحتى وقت متأخر عادة غطس صورة القديس بالماء لاستجلاب المطر. لهذا يذهب السكان إلى نبع القديس جيرفس بجانب دير كوماغني القديم في موكب لطلب المطر تارة والطقس الجميل تارة أخرى حسب حاجة المحاصيل. وفي أوقات الجفاف يرمون في حوض النبع صورةً حجريةً قديمة للقديس وهو واقف في مشكاة ينفجر منها النبع. وفي كولوبريريس

وكارنتراس أعتادوا القيام بممارسة مشابهة بصور للقديس بونس والقديس جنز على التتالي. وفي العديد من قرى نافار أعتاد الناس طالبو المطر تقديم صلواتهم للقديس بطرس ولتدعيم صلواتهم كانوا يحملون صورة ذلك القديس إلى النهر ضمن موكب ثم يطلبون منه ثلاث مرات إعادة النظر في قراره وإذا ظل معانداً يرمونه في الماء رغم احتجاجه وهو يناشدهم بإدراك الحقيقة بالإضافة للالتزام بالتقوى والاكتفاء بتوجيه التحذير للصورة لأن التهديد له مفعول رميه في الماء نفسه. و بعدها لابد من قدوم المطر خلال أربع وعشرين ساعة. أما في البلدان الكاثوليكية فلاتروق للناس سلعة التحكم بصناعة المطر من خلال غطس الصور المقدسة في الماء. في منغوليا وعندما تعاني المحاصيل من الحاجة للمطر يأخذون صورة مقدسة يغمسونها في الماء كل يوم حتى تهطل المطر. وفي الشرق الأدنى يغطّس قوم شان في الماء صوراً لبوذا عندما يتلف المحصول بسبب الجفاف. في كل هذه الحالات ربما تعود هذه الممارسات في أصلها إلى السحر التعاطفي لكنها تتنكر تحت مظهر العقوبة أو التهديد.

مثل الشعوب الأخرى لجأ الرومان والإغريق للحصول على المطر عن طريق السحر بعد أخفق الصلاة والرِيّاح. فمثلاً في أكاديا وعندما ظمئت الأشجار والحنطة من الجفاف، قام كاهن زيوس بغطس غصن من شجر البلوط في نبع معين على قمة لبكايوس وعند اضطرابه أرسل الماءُ سحابة سديمية هطل منها المطر على الفور. مازالت طرق مشابهة لصناعة المطر متبعة في هالماهيرا قرب غينيا الجديدة. كان عند أهالي رانوب في ثيسالي عربة برونزية احتفظوا بها في أحد المعابد. وكلما احتاجوا مطراً عمدوا إلى هزِّ العربة وإذ بالمطر يهطل. ربما كانت طقطقة العربة محاكاة للرعد. وكما رأينا سابقاً أن محاكاة الرعد والبرق هي سحر مطري في روسيا واليابان. أمّا سالمونيوس الخرافي وهو ملك إيليس فقد قام بمحاكاة الرعد بجرٍّ أوعية برونزية خلف عربته أو بالسياقة فوق جسر برونزي وهو يطلق مشاعل متقدة تقليداً للبرق. وكان تصرفه هذا رغبة غير تقيَّة لأنه قلَّد عربة الرعد عند الإله زيوس وهي تجري على قبة السماء. في الواقع أعلن أنه زيوس بالفعل لهذا قُدِّمَت له الأضاحي. وقرب معبد المريخ خارج جدران روما، تم الاحتفاظ بحجر معين يدعى

لابيس متاليس. كانوا يقومون بجرِّ هذا الحجر إلى روما في أوقات الجفاف فمن المفترض أن يجلب المطر على الفور.

3 ـ التحكُم السحري بالشمس

بما أنه يؤمن بقدرته على صناعة المطر يتخيل الساحر أنه قادر على جعل الشمس تسطع وتجري أسرع ويؤجل شروقها أو غروبها. كان قوم أوجيبوي يظنون أن الشمس قد انطفأت في أثناء الكسوف. لذلك كانوا يطلقون في الهواء سهاماً على رأسها نار على أمل أن يعيدوا إشعال الضوء المتخافت. قام أيضاً قوم سينسيس في بيرو بإطلاق سهام نارية الرأس على الشمس في أثناء الكسوف لكن ليس لإعادة إشعال الشمس بل لإخافة الوحش الذي يتصارع معها ويسوقونه بعيداً. بالمقابل تقوم قبائل اورينوكو في أثناء الخسوف بدفن جمرات ملتهبة في التراب لأنه كما يقولون كي نطفئ القمر يجب على جميع النيران على الأرض أن تُطفْأ معه إلا ما كان منها غائباً عن ناظرهم. وفي أثناء الكسوف اعتاد الكامتشاكان أن يخرجوا النار من أكواخهم ويصلوا للأجرام السماوية كي تضيء كسابق عهدها. الصلاة الموجهة إلى الشمس تجعل الطقس دينياً أكثر منه سحرياً. أما هنود تشيلكوتين فكانوا يقيمون طقساً سحرياً خالصاً في مثل هذه المناسبات: يشمِّرون ثيابهم كما يفعلون في السفر ويتكئون على عصيّ وكأنهم ينوؤون تحت أحمالهم. ويتابعون الدوران في دائرة حتى ينقضي الكسوف. من الواضح أنهم كانوا يعتقدون أن سلوكهم هذا يدعم خطوات الشمس المتراخية وهي تقوم بدورانها المتعب في السماء. أما ملك مصر القديمة وهو ممثل للشمس فكان يمشي بوقار حول جدران المعبد ليتأكد من أن الشمس تقوم بجولتها اليومية حول السماء دون أي كسوف أو عوائق أخرى. وبعد الاعتدال الخريفي أقام المصريون القدامى احتفالاً سمُّوه " مولد عكاز الشمس" لأن ذلك الجرم يذوي يوماً بعد يوم في السماء وضوءه وحرارته ينقصان، ومن المفروض أنه بحاجة إلى مُتَّكأ. وفي كاليدونيا الجديدة وعندما يرغب الساحر بصنع أشعة الشمس يأخذ بعض النباتات والمرجان إلى أرض المقبرة ويضعها على شكل باقة مضيفاً إليها خصلتين من الشعر قُصَّتا من طفلة حية في العائلة بالإضافة إلى اثنين من الأسنان أو عظم فك من هيكل عظمي لأحد الأسلاف. ثم يتسلق إلى أعلى نقطة في

جبل حيث يُرى أول شعاع للشمس في الصباح. وهنا يضع ثلاثة أنواع من النبات على حجر مُسطّح ويضع غصناً من المرجان الجاف بجانبها ويعلق مجموعته السحرية فوق الحجر. في الصباح التالي يعود إلى المكان ويضرم النار في المجموعة السحرية وهي فوق الحجر في اللحظة نفسها التي تخرج فيها الشمس من البحر وبينما يتلولب الدخان نحو الأعلى يفرك الساحر الحجر بالمرجان الجاف ويتضرّع لأسلافه قائلاً: " يا أيتها الشمس، إني أفعل ذلك عسى تشتعلين وتلتهمين كل الغيوم في السماء". ثم يقومون بالطقس نفسه عند الغروب. وأيضاً يقوم أهالي كاليدونيا الجديدة بصنع الجفاف بواسطة حجر مثقوب على شكل قرص. وفي اللحظة التي تشرق فيها الشمس نفسها يمسك الساحر الحجر بيده ويمرر جمرة محترقة في الثقب مرات عدة وهو يقول: " إني أشعل الشمس كي تلتهم الغيوم وتجفف أرضنا، وكي لا يبطل كل مفعول لها." وكذلك يقوم سكان جزيرة بانكس بصنع أشعة الشمس بواسطة مجسَّم الشمس. يأخذون حجراً دائرياً يسمونه حجر الشمس، يشدون حوله جديلة حمراء ويعلقون عليها ريش البومة كي تمثل الأشعة ويغنون السحر المخصص بصوت منخفض. ثم يعلقونه على شجرة عالية مثل شجرة كارجوارينا أو الآثال في مكان مقدس.

من المفترض أن العطايا التي يقدمها البراهمان في الصباح هي لصنع الشمس، وبلغنا: " أنها لن تشرق مالم يقدموا تلك العطايا." أدرك المكسيكيون القدامى أن الشمس هي مصدر كل طاقة حيوية فأسموها إبالنيموهاتي أي (ما يعيش عليه الناس). لكنها بحاجة إلى تلقي الحياة من العالم مثلما تمنحه هذه الحياة. وبما أن القلب هو موطن الحياة ورمز الحياة، كانوا يقدمون لها قلوب الناس والحيوانات بدمها ليحفظوا حيوية الشمس ويساعدوها على الجريان في مدارها عبر السماء. لذلك نعتبر أضاحي المكسيكيين للشمس سحرية وليست دينية لأنها لم تُقَدَّم لمجرد إرضائها بل لتجديد طاقتها الحرارية والضوئية والحركية بشكل فيزيائي. كانت الحاجة المُلِحّة لتقديم الضحايا البشريين بغية تغذية نار الشمس تدعوهم لإضرام الحروب مع القبائل المجاورة بقصد أسر عدد منهم والتضحية بهم على المذبح. فكانت نظريتهم الخاطئة عن النظام الشمسي سبباً في استمرار الحروب الدائمة بين المكسيكيين وهذا ما أسهم في نظامهم القاسي حتى سجلوا أعلى نسبة وحشية في

التضحية بالبشر. ليس هناك مثال أوضح من النتائج الكارثية التي يمكن أن تنجم عن ممارسة خطأ تصوري بحت. اعتقد الإغريق القدامى أن الشمس تركب عربة وهي تعبر السماء. لذلك خصص قوم روديان سنوياً عربة بأربع عجلات وقذفوها في البحر كي تستخدمها الشمس لأنها معبودهم الرئيسي. ولا شك أنهم تخيلوا أن رحلة سنة كاملة كفيلة بأن تجعل الحصان والعجلات متهرئة. وبالدافع نفسه خصص الملك الوثني جوداه عربات وأحصنة للشمس، أما الإسبارطيون والفرس والماساغينا فقد ضحوا بالأحصنة لأجلها. واعتاد الإسبارطيون تقديم أضحية الحصان على قمة جبل تايغيثوس في سلسلة جبالٍ جميلةٍ رأوا الجرم العظيم يحط رحاله خلفها في آخر النهار. كان هذا التصرف طبيعياً عند أهالي قرية إسبارطة تماماً كما كان عادياً بالنسبة لسكان جزيرة روديس الذين اعتادوا رمي عربة وأحصنة في البحر الذي بدا لهم محط الشمس في كل مساء. في الجبل أم في البحر كانت تقف الأحصنة بجاهزية لخدمة الإله المتعب وتلقى هذه الهدية ترحيباً أكبر إذا تم استلامها عند نهاية الرحلة اليومية.

إذا اعتقد بعض الناس أنهم قادرون على إشعال الشمس وتسريعها كذلك تخيل آخرون أن باستطاعتهم تعويقها أو إيقافها. هناك في أحد ممرات جبال أنديز في بيرو برجان أثريان على مرتفعين متقابلين. على جدار كل منهما معاليق حديدية لنشر شبك يمتد من برج لآخر. قُصِد من الشبك التقاط الشمس في عُقَدِه. وعند انحراف الشمس خريفاً وابتعادها عن القطب الشمالي شيئاً فشيئاً يلعب أسكيمو إغلوليك لعبة (مهد القطة) لالتقاط الشمس في الشَّرَك بغية منع اختفائها. وكذلك عندما تنتقل الشمس شمالاً في الربيع يلعبون لعبة (الكرة والكوب) بغية تسريع عودتها. وعندما يرغب الأسترالي الأسود في إبقاء الشمس طالعة حتى يعود إلى بيته يضع بعض المرج على شُعبٍ من شجرة بمواجهة مغرب الشمس. وبالمقابل كي يجعلها تنزل بسرعة أكبر ينثر الأسترالي الرمال في الهواء وينضح من فمه باتجاه الشمس ليبطئ من غروبها ويخفيها وراء الرمال التي تبدو وكأنها تهبط خلفها في الليل.

مثلما تخيل بعض الناس أن بإمكانهم تسريع الشمس، تصور آخرون أنهم يستطيعون أن يجعلوا القمر يهرول بدلاً من حركته البطيئة. يعتمد سكان غينيا في حساب شهورهم على القمر، واشتهر بعضهم برمي الحجارة والرماح على القمر كي

يسرِّعوا تقدمه ويعجلوا عودة أصدقائهم الذين سافروا عن بيوتهم في رحلة الإثني عشر شهراً للعمل في مزارع التبغ. ويعتقد الماليزيون أن التوهج المتألق للشمس عند الغروب قد يصيب الشخص الضعيف بالحمى ولذلك يحاولون إطفاء هذا التوهج المتألق بنثر الرماد ورمي الماء نحوها. ويؤمن هنود شسواب بقدرتهم على جلب الطقس البارد إذا حرقوا خشب أشجارٍ ضربها البرق. ربما اعتمد هذا الاعتقاد على ملاحظة أن البرد يعقب العاصفة في بلادهم. لذلك وفي الربيع عندما يسافر أولئك الهنود على الثلج في أعالي البلاد يحرقون شريحة خشب من هذا النوع كيلا تذوب قشرة الثلج الصلبة.

4 ـ التحكم السحري بالرياح

مرة أخرى يعتقد البدائيون أنهم قادرون على صنع الرياح أو تهدئتها. فعندما يكون الطقس حاراً ويتوجب على أحد الياكوت أن يمشي مشواراً طويلاً، يأخذ معه حجراً وُجِدَ مصادفة في سمكة أو جوف حيوان ويلف عليه شعر حصان عدة لفات ويربطه إلى عصاً. ثم يلوِّح بها وهو ينطق السحر. ما إن يمضي وقت قصير حتى يبدأ النسيم العليل بالهبوب. ولكي يحصل على الرياح الباردة لتسعة أيام لابد أن يكون الحجر قد ترطَّب بدم طير أو وحش قبل عرضه على الشمس في حين يقوم الساحر بالدوران ثلاث مرات عكس اتجاه الجَرم. وإذا رغب أحد الهوتنتوت بقدوم الرياح يأخذ واحداً جلد سمكة ويعلقه على نهاية عمود وعند هبوط الجلد في العمود تفقد الرياح كل قوتها وتهبط كما هبط الجلد. أما سحرة فوجي فيرمون الصدف عكس اتجاه الرياح ليجعلوها تهبط. أما سكان جزيرة بيبيلي على مقربة من غينيا الجديدة فاشتهروا بصنع هبوب الرياح بأفواههم. وفي الطقس العاصف يقول بوغاديجيم: " لقد عادوا أهل بيبيلي إليها ثانية، هاهي تهب." وهناك ممارسة طريقة أخرى لصناعة الريح في غينيا الجديدة وهي ضرب ما يسمى (حجر الريح) بشكل خفيف بواسطة عصا أما إذا ضربوه بقوة فيأتي الإعصار. لذلك اعتادت الساحرات في اسكتلندا إثارة الريح بغمس خرقة في الماء وضربها ثلاث مرات على أحد الحجارة قائلين:

" إني أضرب هذه الخرقة على هذا الحجر

لأثير الرياح باسم ديفيليس

ولن تهدأ حتى أرغب بذلك ثانيةً "

وفي غرينلندا يفترضون أن المرأة الواضع تبقى لفترة معينة تمتلك قوة تهدئة العاصفة. وما عليها إلاّ الخروج من المنزل، وملء فمها بالهواء ثم نفخه داخل المنزل. وقديماً كان هناك عائلة في كوينث اشتهرت بقدرتها على تهدئة الرياح العاتية ولكن لا ندري كيف كان أعضاؤها يمارسون وظيفتهم التي أكسبتهم ليس مجرد شهرة في جميع أنحاء الأرخبيل بل درَّت عليهم أرباحاً مادية وفيرة. وحتى في العصر المسيحي في عهد قسطنطين أُنزلت عقوبة الموت في شخص من سوباتر في القسطنطينية بتهمة استخدام السحر في توجيه الرياح التي صادف أن أعاقت وضللت سفينة الحنطة المتجهة إلى سوريا ومصر، الأمر الذي أثار غضب الغوغاء الجائعين من البيزنطيين. أما السحرة الفنلنديون فكانوا يبيعون البحَّارة الرياح لكي يتمكنوا من متابعة إبحارهم عن طريق حبس الريح في ثلاث عقد. تُثار رياح معتدلة عند فك العقدة الأولى، ورياح عاتية عند فك الثانية، وإعصار عند فك الثالثة. أما أهالي أثيونيا الذين يفصلهم عن فنلندة لسان بحري فمازالوا يؤمنون بقوة جيرانهم الشماليين السحرية، ويعتبرون الرياح القاسية التي تهب ربيعاً من الشمال والشمال الشرقي والتي تجلب الحمى والروماتيزم مكائد حاكها سحرة فنلندا وساحراتهم. تخيم عليهم الكآبة ثلاثة أيام يسمونها أيام الصليب لأن أحد هذه الأيام يوافق عيد الصعود. يخاف الناس مثل الفيلين الخروج في هذه الأيام لئلا تضربهم رياح اللاب المميتة. وتقول الأغنية الإثيونية:

" رياح الصليب تندفع قوية

ما أثقل جناحيها وهي تكنس بعيداً

يارياح النحس والحزن

يا من يركب عصفاتها سحرة فنلندة."

ويقال أيضاً إن البحارة الذين يُصابون بأذى في خليج فنلندة يرون أحياناً شراعاً غريباً يتهادى نحو الخلف يلحق بهم بسرعة فائقة. وتأتي معه سحابة من الأشرعة

المتداخلة مع أسنان الرياح وتشق طريقها في الأمواج الزابدة وتردُّ الرذاذ في صفائح المياه المنشق، وتتورم أشرعتها حتى تكاد تنفجر وتتشدُّ حبالها حتى تكاد تتقطع، كل هذه مؤشرات يعرف منها البحارة أنها قادمة من فنلندة.

يُعزى فن ربط الرياح بعقد تنطلق كلما انفكت واحدة إلى سحرة اللاب وساحراتهم في شيتلاند، ليويس و جزيرة مان. ومازال البحارة يشترون الرياح في شيتلاند في مناديل أو خيطان تعقدها نساء تدَّعين سيطرتهن على العواصف. ويقال أن عجوزاً شمطاء كانت تكسب رزقها من بيع الرياح. ويعتقد قوم موتاموتو في غينينا الجديدة أن العواصف يرسلها الساحر أويابو كلما فتح حسب رغبته ثمرة بامبو. وعلى قمة آغو في توغو وهي منطقة في أفريقيا الغربية يسكن بُدٌّ يدعى باغبا والمفترض أنه يتحكم بالرياح والأمطار. كما يقال إن كاهنه يحتفظ بالرياح محبوسة في أوعية ضخمة.

غالباً ما تُعتبر الرياح القوية كائناً شريراً يمكن إبعاده أو توجيهه أو قتله. عندما يندر الغذاء من جراء العواصف والطقس السيء الطويلين يلجأ سكان أسكيمو الوسطى إلى سحر العاصفة. إذ يصنعون سوطاً طويلاً من نباتات بحرية ويذهبون إلى الشاطيء ويضربون به في اتجاه الريح صارخين: " هذا يكفي." وذات مرة عندما منعت الرياح الشمالية الشرقية الجليد من الذوبان على طول الساحل وبدأ الغذاء بالنفاذ أدى الأسكيمو طقساً لتهدئتة. أشعلوا النار على الشاطئ وتجمع الرجال حولها ينشدون. ثم تقدَّم رجل مسن نحو النار واستلطف عفريت الريح واستدرجه كي يأتي إلى النار لينال قسطاً من الدفء. وعندما قدَّروا أنه وصل هناك سكب الرجل المسن على النار إناءً من الماء اشترك في تجميعه كل أفراد القرية. وتبع ذلك وابل من السهام المتسارعة إلى مكان النار. وبما أن العفريت لايبقى حيث أُسيئت معاملته أطلقوا النيران في اتجاهات عديدة. كما طلبوا من قبطان سفينة أوروبية أن يطلق النيران من مدفعه على الريح. وفي الحادي والعشرين من شباط 1883 أدى أسكيمو بوينت بارو في آلاسكا طقساً مشابهاً بهدف قتل روح الرياح إذ قادت النساء العفريت من البيوت بالهراوات والسكاكين تاركات له منافذ في الهواء، أما الرجال المتجمعون حول النار فأطلقوا النار من بنادقهم وهرسوه تحت حجر كبير لحظة صعود البخار من جمر النار الهامدة التي أُلقي عليها قدر من الماء.

يعـزو هنـود لنغـوا في غـران تـشاكو الريـاح اللولبيـة إلى مـرور إحـدى الأرواح فيضربونها بالعصي حتى تخاف وتهرب. وعندما تهدم الريح أكواخهم يمسك قوم البياغوا جمرة متقدة ويركضون بها عكس اتجاه الريح مع التهديد والوعيد. أما آخرون فيضربون الهواء بلكماتهم ليخيفوا العاصفة. وعندما يتهدد غركوروس عاصفة قوية يخرج الرجال مسلحين ويزعق الأطفال والنساء بأعلى صوتهم ليجبروا العفريت على الرحيل. كما شوهد سكان قرية باتاك في سومطرة يندفعون من بيوتهم في أثناء العاصفة مسلحين بالسيوف والرماح وعلى رأسهم أميرهم ويضربون ويقطِّعون عدواً غير مرئي مع الصراخ والزعيق. كما شوهدت امرأة تدافع بحماس كبير عن بيتها وتضرب الهواء يمنة ويسرة بسيف ضالع طويل. وفي أثناء عاصفة رعدية وعند اقتراب الجلجلة شوهد قوم كايان من بورنيو وهم يستلون سيوفهم إلى منتصفها في أغمادها مهددين وكأنهم يخيفون عفاريت العاصفة. وفي أستراليا اعتقد الناس أن العواميد الرملية الحمراء الممتدة على طول الصحراء هي ممر للأرواح. وذات مرة جرى أحد الرياضيين وراء إحدى هذه الأرواح محاولاً قتلها بقذيفة من الخشب المعقوف. وعندما عاد من مهمته منهكاً بعد ساعتين أو ثلاث ساعات قال إنه تمكن من قتل العفريت كوتشي لكنه جرعليه ولابد أنه مات. أما بدو أفريقيا الشرقية فيقولون: " مامن ريح لولبية تمر من عندهم إلا وطاردها اثنا عشر رجلاً أشداء بخناجرهم يطعنون عواميد الغبار لتهرب الأرواح الشريرة التي يعتقدون أنها تركب هبوبها.

في ضوء هذه الأمثلة يُروى عن هيرودوتس قصة اعتبرها النقاد المعاصرون أسطورة لكنها صادقة تماماً. يقول - ودون التحقق من صحة الرواية - إنه ذات مرة في مدينة بسيلي وهي طرابلس الحالية هبت رياح من الصحراء الكبرى وجففت المستودعات المائية. تداول الناس المشورة فيما بينهم وساروا سوية لمحاربة الرياح الجنوبية ، لكنهم عندما دخلوا الصحراء غلبتهم رياح السموم ودفنتهم عن بكرة أبيهم لم ينج منهم رجل واحد. ربما روى الحكاية شخص شاهدهم وهم يغيبون معبئين بالطبول والصنجات داخل سحابة حمراء من الرمال اللولبية.

الفصل السادس
السحرة كملوك

ربما توصلنا من الأمثلة المدرجة حتى الآن إلى قناعة أنه في الكثير من البلدان والكثير من الأعراق هناك من ادّعوا السيطرة على قوى الطبيعة العظمى لمصلحة الناس. وبناءً على هذا لابد أن يكون لممارسي هذا الفن أهمية ونفوذ كبيران في المجتمع الذي وضع ثقته بتكهناتهم. ولاعجب أنهم تمتعوا بسمعة كبيرة وفرضوا رهبة للحصول على أعلى مستوى في سلطتهم على بقية أفراد المجتمع. في الحقيقة تحولوا إلى قادة وملوك.

دعونا نبدأ بالنظر إلى أدنى الأعراق البشرية التي نعرف عنها معلومات كافية ودقيقة. إنهم أصلاء أستراليا (أبوريجيني). لا يحكم هؤلاء البدائيون ملك أو قائد بل يسود قبائلهم دستور سياسي ديمقراطي لا بل أوليغاركي من رجال مسنين متنفذين يجتمعون في المجلس ويقررون الإجراءات العملية مستبعدين الشباب. يشبه تجمعهم الاستشاري عمل مجلس الشيوخ فيما بعد. وإذا أردنا أن نصك تسمية لهذه الحكومة ربما أسميناها (حكومة المسنين). ويبدو أن رؤساء الطواطم من كل قبيلة هم من يشكل مجلس الكبار الذي يدير أمور القبيلة عند أبوريجيني أستراليا. لقد ساهمت الطبيعة الصحراوية في وسط أستراليا في ابتعادهم عن الوقوع تحت التأثيرات الخارجية فبقوا على حالتهم البدائية. من واجب رؤساء العشائر أو الطواطم القيام بالطقوس السحرية بهدف مضاعفة الطواطم التي تتشكل في معظمها من حيوانات ونباتات مأكولة. هذا يعني أنه على رؤساء الطواطم تأمين الطعام للناس عن طريق السحر. بينما يكون من واجب آخرين أن يؤمّنوا هطول المطر لمصلحة المجتمع. باختصار، رؤساء الطواطم في أستراليا الوسطى هم سحرة عامّون. وتقع عليهم أيضاً مسؤولية المخزن المقدس الذي يكون عادة في شق صخري أو حفرة في الأرض حيث

تُحْفَظ الحجارة المقدسة والعصي المرتبطة فيها أرواح الناس أمواتاً كانوا أم أحياء. لذلك في الوقت نفسه يمارس القادة ما نسميه بالمهام المدنية مثل إنزال العقوبة بمن يخرق عادات القبيلة مع الاحتفاظ بمهامهم الرئيسة المقدسة والسحرية.

و عندما ننتقل من أستراليا إلى غينيا الجديدة، ورغم ارتفاع مستوى الثقافة عند أهالي غينيا، نرى أن الدستور الاجتماعي لدى البلدين هو دستور ديمقراطي أولغاركي في جوهره، أما رئاسة العشيرة أو الشيخة فما زالت في رحمها. لذلك كما يروي ماك غريغور عن غينيا الجديدة أنه لم يبلغ أحد منهم الدرجة الكافية من الحكمة أو الجرأة أو القوة ليقود ولو مقاطعة واحدة. وفي أحسن الأحوال لم يوجد ساحر مشهور ما فسح المجال أمام ابتزاز مبلغ معين من المال.

وهناك تقرير محلي يرجع أصل السلطة عند القادة الميلانيين إلى إيمانهم بأنهم على صلة مع الأشباح الأقوياء، ويمارسون نفوذاً خلال قوة الأشباح تلك. فإذا فرض القائد غرامة يلتزم الناس بها بدافع الخوف من سلطة الأشباح لأنهم يؤمنون بعمق أنها قادرة على إنزال المصائب والمرض على كل من يقاومها. وتهتز قدرة القائد على فرض الضرائب عندما يكثر عدد الناس الذين يكذِّبون بتعاون الأشباح معه. كذلك يروي الدكتور جورج براون أنه في بريطانية الجديدة " من المفترض دائماً أن يمارس القائد الحاكم مهام كهنوتية كأن يعلن أنه على اتصال دائم بالأرواح وأنه يستطيع من خلالهم استجلاب المطر وأشعة الشمس، المرض والصحة، الكوارث أو النجاح في الحروب أو استجلاب البركة أو اللعنة لأولئك الذين يطلبون أياً من هذه الأشياء مقابل دفع المبلغ المناسب."

ومع ارتقائنا على سلم الثقافة نأتي إلى أفريقيا حيث نجد أن رئاسة القبيلة أو الملكية قد وصلت إلى شكلها الكامل. وهناك أدلة كثيرة تبين أن صانع المطر هو الذي تحول إلى قائد. فمثلاً من بين وامبوغي وهم أهل بانتو في أفريقيا الشرقية كان الشكل الجوهري للحكومة هو جمهورية العائلة لكن سلطة السحرة الهائلة التي انتقلت بالوراثة سرعان ما رفعتهم إلى مصاف ملاكين صغار أو قواد. ومن بين القواد الثلاثة الذين كانوا على قيد الحياة في عام 1894، استمد اثنان منهم هيبتهما من كونهما ساحرين وحصلوا على كل ممتلكاتهم من الماشية عن طريق هدايا مقابل خدمات أدياها في ذلك المجال. كان فنهم الرئيس هو صنع المطر. ويُقال أن قواد

واتاتورو - وهم شعب آخر من شعوب أفريقيا الشرقية، كلهم سحرة — ليس لهم أي أثر سياسي مباشر. أيضاً من بين قوم واغوغو في أفريقيا الشرقية يقال أن سلطة القواد الرئيسية مستمدة من فنهم في صنع المطر. وإذا عجز القائد عن ذلك لابد أن يستعين بشخص آخر لاستجلابها.

ومن بين قبائل النيل الأعلى، غالباً ما يكون رجال الطب أنفسهم هم القواد. وتعتمد سلطتهم بشكل رئيس على قدرتهم على صنع المطر " لأن المطر هو الشئ الوحيد الذي يهم الناس في هذه المناطق، فإن تأخره يعني ضمنياً شقاء المجتمع. لذلك ليس عجيباً أن يكون الرجل الأمكر هو من يدعي قوة إنتاج المطر أو يكسب سمعة في هذا المجال، مراهناً على سذاجة أبناء قبيلته البسطاء. لذلك معظم قواد القبائل هم صانعو مطر ويتمتعون بشعبية تتناسب طرداً مع قدرتهم على الاستهطال في الفصل المناسب..... يبني القواد صانعو المطر قراهم على سفوح الجبال العالية لأنهم لاحظوا استقطاب تلك الجبال للغيوم وهكذا يكونون في مأمن عندما يتنبؤون بالطقس. بحوذة كل صانع مطر عدد من الحجارة مثل الحجر البلوري أو الجمش أفنتورين يحفظها في وعاء. وعندما يرغب بإنتاج المطر يغمرها بالماء ويأخذ بيده عصا خيزران مقشرة مشقوقة من الأعلى يومئ بها للغيوم كي تأتي أو يلوح لها كي تذهب بعيداً بالإتجاه الذي يجب أن تذهب فيه وهو يتمتم السحر. أو يصب الماء و أمعاء غنمة في تجويف صخري ويرش الماء باتجاه السماء. صحيح أن القائد يكسب ثروة محترمة من ممارسة قواه السحرية المفترضة لكنه ربما ينتهي نهاية عنيفة عندما يجتمع الناس الساخطون في أيام الجفاف ويقتلونه لأنه يحبس هطول المطر. مع ذلك يبقى هذا المنصب وراثي ينتقل من الأب لابنه. ومن بين القبائل التي تحترم هذا الإعتقاد وتمارس هذه العادة هي قبائل لاتوكا وباري ولالوبا لوكويا.

وفي أفريقيا الوسطى يعتقد أبناء قبيلة ليندو وهي إلى الغرب من بحيرة آلبرت أن أناساً معينين يمتلكون القدرة على صنع المطر. ويصبح صانع المطر فيهم قائداً أو بعض قائد. وأيضاً يكنُّ قوم بانيورو احتراماً كبيراً لموزع المطر ويُغرِقون كبير الموزعين بالهدايا لما له من سلطة مطلقة على المطر. إنه الملك وبإمكانه تفويض آخرين بالقيام بسلطته كي تُوزِّع الفائدة على الأسرة المالكة.

نصادف في أفريقيا الوسطى والغربية والشرقية نموذج القواد نفسه الذين يقومون بوظائف سحرية. ففي قبيلة **فان**، لايميزون بين الطبيب والقائد. القائد هو نفسه الطبيب والصائغ الذي يغنم الكثير لأن أبناء القبيلة يعتبرون مهنة الصائغ مقدسة ولايتدخل فيها سوى القواد.

ويروي أحد الكتاب العارفين عن العلاقة بين منصب الرئاسة وصانع المطر في جنوب أفريقيا: " قديماً كان القائد هو نفسه كبير صانعي المطر، ولايسمح القائد لغيره أن يمارس صنع المطر خوفاً من تفوقه عليه وبالتالي تعتمده القبيلة كصانع للمطر. كما يمنع القائد الآخرين من ممارسة هذا العمل لأن صانع المطر سيصبح غنياً وذا مسموعية جيدة. لذلك يجب أن تختص الملكية بصنع المطر. جرت العادة أن يكون صنع المطر مجداً يحققه القادة والأبطال لأنه هو جوهر القيادة وبالتالي تأتي القيادة نتيجه طبيعية له. وتصديقاً لهذا اعتاد تشاكا أحد قواد الزولو إصدار فرمان يحدد فيه أنه العرَّاف الوحيد في البلاد لأنه لوسمح لغيره بممارسة هذا العمل لكانت حياته في خطر. وينطبق هذا القول على قبائل جنوب أفريقيا بشكل عام. وكذلك يقول الدكتور موفات: " ليس صانع المطر شخصاً عادياً في نظر الناس وذلك لما له من تأثير في عقول المتفوقين منهم بما فيهم الملك الذي يُجبَر على تسليم الأمر لأصحاب الأمر في ديوانه الملكي. "

تدل هذه الأمثلة على أن الساحر العام وصانع المطر على وجه الخصوص تحول إلى ملك في أفريقيا. فالرهبة التي يفرضها الساحر والثروة التي يكدسها من مهنته ساهما في الرفع من شأنه. لكن على الرغم من أن مهنة صانع المطر هي فن مجز لكنه محفوف بأخطار كثيرة يتعرض لها غير المحترف أو من يعاكسه الحظ. وما جعل منصب الساحر العام منصباً محفوفاً بالأخطار هو إيمان الناس القاطع بقدرته على جعل المطر يهطل والشمس تسطع والفواكه تنمو. وبالمقابل يعزون الجفاف إلى إهماله وعناده المقصود لذلك يعاقبونه على إخفاقه في صنع المطر بالنفي أو القتل. ففي أفريقيا الغربية بعد إعطاء العطايا والصلوات للملك الذي يخفق في استجلاب المطر، يقوم رعاياه بربطه بالحبال ويقودونه بالقوة إلى أيك أجداده ليحصل منهم على المطر المطلوب. كما يعتبر البنجر في أفريقيا الغربية الطقس الجميل أو المطر من صنيع ملكهم فيغرقونه بالحبوب والماشية مادام الطقس جميلاً ويضربونه ويحقرونه

كي يغير الطقس عندما يتهدد محصولهم من الجفاف. وعندما يخفق المحصول ويحول الموج العالي بينهم وبين الصيد يتهمه قوم لوانغو بقسوة القلب وينزعون منه المُلْك. وفي ساحل الحبوب تقع مسئولية صحة المجتمع على الكاهن الأكبر أو ملك الفتش الذي يحمل لقب بوديو، وهو مسؤول عن خصوبة التربة ووفرة السمك في البحر والأنهار ويُخلع من منصبه عندما تعاني البلاد من سوء في هذه الأشياء. وفي أوسوكوما، وهي مقاطعة كبيرة على الشاطئ الجنوبي من فكتوريا نايانزي، إن مسألة الجراد والمطر جزءان لا يتجزءان من حكومة السلطان إذ يتوجب عليه أن يعرف كيف يجلب المطر ويبعد الجراد. وإذا عجز هو ورجاله عن القيام بهذه المهام يصبح وجوده مهدداً. وفي مناسبات معينة مثل الحاجة الملحَّة للمطر يتوارى السلطان عن الأنظار ويُؤخذ إلى أوتوتوا قرب ناسا. يؤمن الناس إيماناً عميقاً أنه على الحاكم أن يمتلك السيطرة على الطبيعة وظواهرها. وبلغنا أيضاً أنه لدى السكان الأصليين في منطقة نايانازا قناعة أن هطول المطر هو نتيجة للسحر ويؤول هذا الواجب المهم إلى قائد القبيلة. وإذا تأخر المطر عن ميعاده يتذمر الجميع. وكم من الملوك الصغار هجروا ديارهم بسبب الجفاف. ومن بين قبائل اللاتوكوا في النيل الأعلى وعندما تذوي المحاصيل ولا تثمر جهود القائد في جلب المطر يهاجمه الناس ويصادرون أملاكه ويطردونه، وغالباً ما يقتلونه.

وفي أنحاء عديدة من العالم ينتظر الناس من الملك أن ينظم مسار الطبيعة لمصلحة الناس ويعاقبونه عندما يخفق في ذلك. لذلك اعتاد قوم السيثيا على وضع ملكهم في القيد عندما يندر الغذاء. أما ملوك مصر القديمة المقدسون فيُلامون على تخريبهم المحاصيل كما كانوا يعتبرون الوحوش المقدسة مسؤولة عن مسار الطبيعة. وعندما تحل الكوارث مثل الوباء أو الجفاف كان الكهنة يأخذون تلك الحيوانات ليلاً يهددونها ويذبحونها إذا لم تخفّ وطأة الكارثة. وفي جزيرة نيو المرجانية أو الجزيرة المتوحشة، في جنوب الهادي، سادت هناك سلسلة من الملوك وبما أنهم هم أيضاً كبار الكهنة، فقد كان مفروضاً عليهم أن يجعلوا الغذاء ينمو، وقُتل الكثير منهم أيام الشُّح، وبعد أن تعاقب القتل عليهم واحداً تلو الآخر صار الجميع يرفضون أن يصبحوا ملوكاً. وهكذا اندثرت الملكية. ويروي الصينيون القدامى أنه في كوريا وقع اللوم على الملك عند هطول المطر الغزير أو

القليل وعندما يتأخر نضج المحصول، يقترح بعضهم عزل الملك ويرى بعضهم الآخر أن ذبحه أفضل.

ومن بين الهنود في أمريكا سجل أهالي المكسيك والبيرو أعلى تقدم نحو الحضارة في ظل الملكية والحكومات الكهنية لكن معرفتنا عن تاريخ هذين البلدين أقل من أن نقول إن أسلافهم كانوا قد توصلوا إلى المُلك عبر كونهم أطباء أو غير ذلك. لكن يبقى هناك أثر يمكن تقفيه في القَسَم الذي يؤديه ملوك إسبانيا عندما يعتلون العرش إذ يقسمون أنهم سيجعلون الشمس تسطع والغيوم تعطي مطراً والأرض تعطي ثمراً وفيراً. ومن المؤكد أن هالة من الغموض وجو من الرهبة يحيطان الساحر أو الطبيب لأنه ذو أهمية ونفوذ كبيرين وربما صار قائداً أو ملكاً على العديد من القبائل رغم أنه ينقصنا الدليل على ذلك. ويروي كاتلين في أمريكا الشمالية عن الأطباء: (تبوأ الأطباء مقاماً رفيعاً في القبيلة وحظوا بأعظم الإحترام في المجتمع قاطبة ليس لخبرتهم الطبية بل لحذاقتهم في السحر والأسرار التي يتعاملون معها... ففي جميع القبائل يقوم الأطباء أنفسهم بدور السحرة واستحضار الأرواح وقراءة البخت وهم أيضاً كبار الكهنة لأنهم هم الذين يقومون بالطقوس الدينية كافةً ويديرونها فينظر إليهم الجميع على أنهم وسطاء الوحي للأمة كافة. ولهؤلاء مقاعد بجانب القادة في مجالس الحرب والسلم فيُستَشارون قبل اتخاذ أي خطوة وتحظى آراؤهم بأكبر الاحترام والتبجيل. وكذلك في كاليفورنيا كان الساحر الكاهن ومازال أهم شخصية عند قوم مايدو. وفي غياب الحكومة تحظى كلمته بوزن عظيم ويُعتبَر هؤلاء السحرة طبقة ذات هيبة كبيرة ويطيعهم الناس تماماً كما يطيعون الحُكّام)"

وفي أمريكا الجنوبية يبدو أن السحرة والأطباء كانوا على طريق القيادة أو الملكية. ويقول في ذلك أحد المستوطنين على ساحل البرازيل وهو الفرنسي ثيفيت يقول: إن الهنود (يبجلون هؤلاء الأطباء ويشرِّفونهم لدرجة الهيام او التأليه. وبإمكانك رؤية العامة يذهبون للاجتماع معهم فيسجدون لهم ويصلُّون قائلين: "أبعد عني المرض وأبعد عني و عن أولادي الموت." وأشياء كهذه فيجيب:"لن تموتوا، لن تمرضوا" وأجوبة كهذه. لكن عندما يثبت كذب هؤلاء الكهنة وتنتهي الأمور إلى غير ما تنبؤوا، لا يتردد الناس في قتلهم لأنهم لا يستحقون اللقب أو الشرف الذي

يحظون به. ومن بين هنود لونغوا في غران تشاكو لكل قبيلة قائد يتمتع بسلطة محدودة. ويتحتم عليه في هذا المنصب أن يقدم الكثير من الهدايا لذلك نادراً ما يصبح غنياً أو يلبس أفضل مما يلبس أفراد قبيلته.) في الحقيقة تقع في يد الساحر معظم أمور السلطة وهو الذي تعوَّد على تلقي الهدايا بدلاً من تقديمها للغير. من مهام الساحر هذا أن ينزل بالعدو الوباء والمصائب ويحمي أفراد قبيلته من السحر العدواني. ويتلقى أجراً كبيراً لقاء خدماته هذه ويحظى خلالها على أعلى النفوذ والسلطة.

وفي ماليزيا يُنظَر إلى الأمير أو الملك بتبجيل خرافي لما يملكه من قوى خارقة، وهناك مايرر اعتقادنا ـ كما هو واضح عند القادة في أفريقيا ـ أنه بدأ كساحر بسيط. وما زال الماليزيون حتى يومنا هذا يعتقدون أن للملك تأثيراً شخصياً على الطبيعة مثل نمو المحاصيل وحمل الأشجار المثمرة. ويفترضون أن فضيلة الخصب هذه موجودة بدرجة أقل عند وكلائه وحتى عند أولئك الأوربيين الذين تولوا مسؤولية مقاطعات معينة. ففي سيلانغور ـ وهي إحدى الدويلات الأصلية في شبه الجزيرة الماليزية – يُعزى نجاح وإخفاق محصول الأرز إلى تبدل المسؤول عن المقاطعة. ويعتبر التورايتاس في جنوب سيليبيز أن ازدهار الأرز يعتمد على سلوك أمرائهم وأن الحكومة السيئة ويقصدون بذلك الحكومات التي لا تتماشى مع الأعراف القديمة هي السبب في إخفاق المحاصيل.

اعتقد الداياك في سارواك أن حاكمهم الإنكليزي المشهور راجابروك قد وُهِب فضيلةً سحريةً إن استخدمها بالشكل الصحيح يجعل محاصيل الأرز وفيرة. لذلك عندما كان يزور قبيلةً ما كانوا يأتون إليه بالبذور المُعدَّة لبدار العام التالي كي يخصبها. فكان يهز فوقها قلادات النساء والتي غمست سابقاً بخليط معين. وعندما كان يدخل قريةً ما كانت النسوة يغسلن ويحممن قدميه أولاً بالماء ثم بحليب من جوزة هند فتية ثم بالماء ثانيةً ويحتفظون بالمياه التي تلمس شخصه بهدف توزيعها على الحقول لاعتقادهم بأنها تجعل الحصاد وفيراً. أما القبائل البعيدة التي يصعب عليها زيارته وكانت ترسل له خرقة بيضاء مع بعض الذهب والفضة وبعد تلقيح هذه الأشياء كلها بفضيلته التكاثرية كانوا يدفنونها في حقولهم وهم كلهم ثقة بمحصول وفير في العام القادم. وعندما أشار يوماً أحد الأوربيين إليه أن محصول

الأرز عند قبيلة سامبان كان رقيقاً ، أجابه قائدها أنها لايمكن أن تكون غير ذلك لأن راجا بروك لم يزرهم. وتوسل له ليتوسط لدى بروك لاستمالته لزيارة القبيلة كي يزيح عن أراضيها هذا العقم.

إن العقيدة القائلة إن للملوك قوى سحرية خارقة يمكن بفضلها تخصيب التربة وإغناء رعاياهم بفوائد جمّة انتشرت عند أسلاف الأعراق الإريانية من الهند وحتى إيرلندا. وتركت هذه العقيدة أثراً في بلداننا حتى يومنا هذا. ففي كتاب قانون هندوسي قديم بعنوان (قوانين المانو) وصفٌ لحقبةِ ملكٍ صالح : (في تلك البلاد حيث يتجنب الملك أخذ ممتلكات الخطائين الفانين، تولد الناس في مواعيدهم ويعيشون عمراً طويلاً. يترعرع محصول الأزواج، لكل كما زرع، أما الأطفال فلا يموتون ولا يولدون مشوهين.) وفي بلاد الإغريق في عهد هوميروس كان يذكر الملوك القواد على أنهم إلهيون مقدسون وكذلك بيوتهم وعرباتهم وكان يعتقد أن الملك الصالح هو الذي أعطى للأرض لونها الأسود وجعلها تعطي القمح والشعير، وجعل الأشجار تحمل الثمار والقطيع يتكاثر أضعافاً والبحر يعطي السمك. في العصور الوسطى عندما سافر والديمار ملك الدانمارك إلى ألمانيا جلبت له الأمهات أولادهن وبدار أزواجهن ليضع عليهم يديه معتقدات أن أولادهن سيتحملن الحياة أكثر عندما تعززهم تلك اللمسة الملكية وللسبب نفسه طلب منه المزارعون أن ينثر لهم بدارهم. كما ساد اعتقاد عند الإيرلنديين القدامى أنه عندما أخذ ملوكهم بعادات أسلافهم كانت تأتي المواسم رحيمة والمحاصيل وفيرة والماشية مدرارة وصارت المياه تعج بالسمك وصارت الأشجار المثمرة بحاجة لتدعيم أغصانها التي تثقلها الثمار. وهناك مرسوم يُنسَب إلى القديس باتريك يعدُّ فيه بركات عهد أحد الملوك العادلين:(الطقس الحسن، البحار الهادئة، المحاصيل الوفيرة والأشجار التي تنبئ بحمل الثمار) ومن ناحية أخرى القحط، جفاف الأرض، آفة الثمار، و ندرة الحنطة كل هذه اعتبرت أدلة دامغة على عهد ملك طالح.

ربما كان آخر أثر لهذه الخرافات عند ملكنا الإنكليزي هو فكرة أنهم يستطيعون شفاء مرض سل الغدد بلمسة منهم. لذلك عُرِفَ المرض بـ **شر الملك**. وكانت الملكة إليزابيث في غالب الأحيان تمارس هبة الشفاء هذه. ففي يوم منتصف الصيف من عام 1633 قام الملك تشارلز الأول بشفاء مئة مريض مرة واحدة في

كنيسة القصر في هوليرود. وفي عهد ابنه تشارلز الثاني وصل رواج هذه الممارسة أَوْجَهُ حتى قِيل أن تشارلز الثاني لمس 100000 شخص خلال عهده بقصد الشفاء من سل الغدد. بلغ ازدحام الناس الذين يودون الوصول إليه حداً مرعباً. وفي إحدى المناسبات تعثر ستة أو سبعة أشخاص في الازدحام فلاقوا حتفهم من دوس الناس عليهم. أما ويليام الثالث ذو الرأس البارد فرفض بازدراء أن يسخِّر نفسه لهذه الهراءات الشعوذية وعندما حوصر قصره بالحشد التافه المعتاد، أمَر بابعادهم ومنحهم إعانة مالية. وفي مناسبة أخرى عندما اضطر إلى وضع يده على أحد المرضى قال له: " اللهم امنحه صحة أفضل وعقلاً أرجح" لكن الممارسة تجددت على يد المتعصب الغبي جمس الثاني وابنته الملكة آن.

زعم ملوك فرنسا أيضاً أنهم يملكون الهبة نفسها وهي الشفاء باللمس والتي ادعوا أنها هبة من القديس لويس. أما ملوكنا الإنكليز فقد ورثوها من إدوارد المعترف. وبالطريقة نفسها اعتقد أهل تونغا الهمجيون أن قوادهم قادرون على الشفاء من مرض سل الغدد وبعض حالات تليف الكبد بلمسة واحدة من أقدامهم. إذاً كان العلاج تعاطفي - تجانسي بحت، لأن المرض والشفاء كانا عن طريق التلامس مع شخصية ملكية أو بما يمتُّ لها بصلة.

يبدو أننا محقُّون في استدلالنا على أن الملك متحدِّر من سلالة سحرة أو أطباء في الكثير من أنحاء العالم. وعندما تُعزَل طبقة ما من السحرة وتُناط مهامها لطبقة أخرى توخياً لمصلحة المجتمع وأمنه، فإن هذه الطبقة الجديدة تكتسب السلطة والثروة تدريجياً حتى يزدهر قادتها ويتحولون إلى مقدسين. لكن الثورة العظيمة التي تبدأ بالديمقراطية وتنتهي بالاستبداد ترافقها ثورة فكرية تترك أثرها في مفهوم الملكية ووظائفها. ومع مرور الزمن يتضح لنا زيف السحر وتستبدل العقول النيرة الدين بالسحر، أي بكلمة أخرى يسلم السحرة زمام الأمور للكهنة الذين يعيدون المحاولة في السيطرة مباشرة على عمليات الطبيعة لمصلحة الإنسان. إنهم يسعون للوصول إلى لهدف نفسه بشكل غير مباشر عن طريق استجادهم بالآلهة ليفعلوا ما لا يتصوروا أنهم قادرون على فعله. من هنا نجد أن الملك الذي بدأ كساحر يميل إلى الاستعاضة التدريجية عن ممارسة السحر بالوظائف الكهنية مثل الصلاة والأضاحي. وبما أن التمييز بين البشر والألوهية غير واضح المعالم يتصور بعض

الناس أنه باستطاعتهم الارتقاء إلى مصاف الآلهة ليس بعد الموت بل في حياتهم وذلك عبر قدرة دائمة أو مؤقتة يسيطرون بواسطتها على كامل الطبيعة مستعينين بروح عظيمة قادرة. ما من طبقة استطاعت تحقيق الفائدة من الإيمان بإمكانية تجسد الله في البشر مثلما حقق الملوك. إن تعاليم التجسد ونظرية ألوهية الملوك بالمعنى الدقيق للكلمة هو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

الفصل السابع
تجسد الآلهة بالبشر

أتينا في الفصول السابقة بأمثلة من معتقدات الشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم وكانت كافية لإجلاء حقيقة إخفاق البدائيين في تمييز حدود سيطرتهم على الطبيعة والتي أصبحت جلية بالنسبة لنا فيما بعد. في ذلك المجتمع البدائي كان يفترض على كل فرد منهم أنه يتمتع بقوى نسميها نحن الآن خارقة للطبيعة لذلك كان التمييز بين الآلهة والناس شئ غامض نوعاً ما ، لا بل كان معدوماً إلى حد بعيد. عبر التاريخ وببطء تطورت فكرة الآلهة ككائنات متفوقة على البشر وتملك قوى يفقدها الإنسان كمّاً ونوعاً. في البداية لم يعتبر الإنسان البدائي تلك القوى الخارقة عظيمة أو متفوقة عليه لأنه كان من الممكن إخافتها وتطويعها كي تفعل مايمليه عليها. في هذه المرحلة التاريخية كان العالم يتمتع بديمقراطية عظيمة، فجميع الكائنات فيه طبيعية كانت أم خارقة للطبيعة تبدأ من منطلق واحد وهو إمكانية إقامة المساواة. لكن مع نمو المعرفة صار الإنسان يميز بوضوحٍ الفارقَ بين اتساع الطبيعة وصغره أو ضعفه أمامها. ولم يترافق تمييزه لعجزه مع اعتقاده بعجز تلك القوى الخارقة التي توهَّم أنها تسكن العالمَ كلّه. بل على العكس زادت في تثبيت مفهوم قدرتها. وذلك لأن المفهوم القائل بأن العالم نظام تحكمه قوى غير عاقلة ضمن قوانين غير قابلة للتغيير مفهوم لم يظهر بعد لا من قريب ولا من بعيد. لكن كان لابد من وجود إرهاصات لهذه الفكرة ليس في فن السحر بل في الكثير من أعماله اليومية. وكانت فكرة لم تتضح مادام أنه يفسر العالم ويراه كتجسيد لإرادة واعية ولقوى عاقلة. ومن هنا يشعر بنفسه أنه ضعيف وواهٍ وأن تلك القوى جبارة وضخمة لدرجة أنها تتحكم بآلية الطبيعة! وهكذا تلاشى شعوره القديم بالمساواة مع إلى الآلهة وبالوقت نفسه يطمح إلى توجيه الطبيعة بوسائله المجردة أي بالسحر

وصار ينظر أكثر فاكثر للآلهة على أنها الملاذ المستأمن الذي يحميه من تلك القوى الخارقة والتي كان يوماً يدعي مشاركتها. ومع تقدم المعرفة احتلت الصلاة والأضاحي المقام الأول في الطقوس الدينية. أما السحر الذي صُنِّفَ يوماً على أنه مساوٍ لها في المقام، هبط إلى الحضيض وصار يعتبر فناً أسود. لم يعد يعتبر مجرد انتهاك بل صار على الفور اختيالاً وكفراً في حضرة الآلهة وصار يمثل معارضة دائمة للكهنة الذين تعلو سمعتهم وتهبط مع ارتفاع وهبوط آلهتهم. لهذا نجد ـ بعد التمييز لاحقاً بين الدين والخرافة ـ أن الصلاة والأضاحي صارت مصدر تقوى ونورانية في المجتمع، في حين كان السحر ملاذ الخرافيين والجهلة. إن مفهوم القوى العناصرية كقوى شخصية فسح المجال لإدراك قوانين الطبيعة فعاد السحر المُعتمِد ضمناً على فكرة التسلسل المنطقي بين السبب والمسبب مستبعِداً الرغبة الشخصية عاد لينهض من موقعه المخزي ليبحث في السببية التي تسود الطبيعة ويشق الطريق أمام العلم وهكذا قادت تلك الكيمياء إلى كيمياء اليوم.

تعود فكرة الإنسان الإله أو الكائن البشري الذي وُهِبَ قوى إلهية خارقة أساساً إلى مرحلة أقدم من التاريخ الديني حيث يُنْظَر إلى الناس والآلهة على أنهما من المرتبة نفسها، قبل أن يفصلهما خليج يستحيل اجتيازه. لذلك تبدو لنا فكرة تجسد الآلهة على شكل بشر غريبة جداً لكن الإنسان البدائي لم ير فيها مايثير الاستغراب بل ينظر إلى الإنسان الإله أو الإله الإنسان على أنه فقط درجة أعلى من القوى الخارقة نفسها التي يدعيها بكل ثقة لنفسه. ولم يرسم حداً دقيقاً يفصل بين الإله والساحر القوي. كانت آلهته مجرد سحرة غير مرئيين يقومون خلف كواليس الطبيعة بالسحر والتعاويذ نفسها التي يقوم بها الساحر البشري بشكل مرئي وملموس أمام أعينهم. وبما أن الآلهة تظهر نفسها لمن يعبدها على شكل بشر، يصبح سهلاً على الساحرالذي يتمتع بقوى إعجازية أن يكسب سمعة الإله المُجَسَّد. وهكذا يبدأ الطبيب أو الساحر بسحر أكثر من عادي ثم يزدهر ليصبح شخصاً يجمع المَلِكَ والإله بأبهتهما الكاملة. وعندما نتكلم عنه كإله يجب أن نحرص على ألا نحمِّل المفهوم البدائي للإله الأفكار المجردة والمعقدة التي نرفقها نحن بهذه العبارة. وما أفكارنا عن هذا الموضوع الدقيق إلا ثمرة تطور أخلاقي وذهني طويلين وهي بعيدة كل البعد عن مفهوم الإنسان البدائي غير القادر على فهمها حتى لو شُرِحَت له. وقد

أُثير الكثير من الجدل حول ما إذا كان الدين عند الأعراق الدنيا قد انبثق من سوء تفاهم متبادل. لا يفهم البدائي أفكار الإنسان المتحضر، والقليل من المتحضرين يفهمون أفكار البدائيين. عندما يستخدم المتحضر كلمة إله يضع في ذهنه ذلك الكائن المختلف؛ وإذا تبادل البدائي والمتحضر موقعيهما لاينتج عن نقاشاتهم سوى الأخطاء والاختلاطات. وإذا ما أصر المتحضر على الاقتصار على كلمة الله لمفهوم الطبيعة الإلهية التي وضعنا نحن ملامحها، إذن لابد لنا من الاعتراف أن ليس للبدائيين إله على الإطلاق. لكن علينا أن نأخذ بالحقائق التاريخية القائلة أن فكرة معظم البدائيين الراقين عن قوى خارقة، يمكن أن تسمى مجازاً آلهة، تختلف كل الاختلاف عن المعنى الذي نقصده اليوم. وتمثل تلك الفكرة المتخلفة البدايات التي طور عنها الإنسان المتحضر مفهومه عن الألوهية، ولو تتبعنا مسار التطور الديني لوجدنا أن السلسلة التي تُوصلُنا إلى فكرة كبير الآلهة وفكرة البدائي عنه هي سلسلة متواصلة غير منقطعة.

آخذاً بعين الإعتبار التفسير والتحذير السابقين سأسوق أمثلة عن الآلهة التي عُبِدَت وهي متجسدة في كائنات بشرية نساءً ورجالاً. لم يكن مُتَجَسَّد الآلهة من البشر دائماً في الملوك أو المتحدّرين من أسرة ملكية بل كان أحياناً في أفراد من الطبقة الوضيعة. فمثلاً في الهند بدأ أحد الآلهة البشر حياته قصَّاراً للقطن وآخر إبناً لنجار. لهذا لن أحصر أمثلتي على الملوك منهم لأن هدفي هو شرح المبدأ العام لتأليه بشر أحياء أو بكلمة أخرى تَجَسُّد الآلهة على شكل بشر وهم منتشرون في المجتمع البسيط. ويمكن لهذا التجسد أن يكون مؤقتاً أو دائماً. في حالته المؤقتة يُعرَّف التجسد باسم الإلهام أو الإيحاء وتتجلى به المعرفة الخارقة وليس القوة الخارقة. ويمكن أن نقول إنها تظهر على شكل عِرافَة وتنبؤ أكثر منه معجزة. أما التجسد الآخر وهو الدائم فتسكن فيه الروحُ الإلهية الجسدَ البشري بشكل دائم، وهنا ينتظر الناس من الإله الانسان أن يثبت شخصه بإظهار المعجزات. ويجب ألا ننسى هنا أن الناس في هذه المرحلة الفكرية لا يعتبرون المعجزات مواعظ انبثقت عن القانون الطبيعي لأنهم غير عارفين بوجود القانون الطبيعي أصلاً، لذلك لايستطيعون إدراك العظة منه. بالنسبة للإنسان البدائي ليست المعجزة إلا إظهاراً غير عادي للقوة العامة.

انتشر الإيمان بالتجسد المؤقت في جميع أنحاء العالم. ومن المفترض أن هناك أناساً معينين يتملكهم إله أو وروح معينة فتتعطل شخصيتهم تعطلاً مؤقتاً طيلة فترة التملك هذه ويتجلى وجود الروح فيهم خلال رجفات تشنجية أو ارتجاف الجسد بالكامل، خلال تعابير على الوجه ومظاهر مثيرة، كل هذه لا تمت للشخص بصلة لكنها عائدة للروح التي دخلت جسده. وفي هذه الحالة غير العادية يقبل الناس كلَّ ما يتلفظ به على أنه قول الإله أو الروح التي تسكنه. لذلك يتلفظ الملك الذي يشخص الإله في جزر ساندويتش بأجوبة الوحي الوسيط وهو مختفٍ خلف حجاب من شبكة مضفورة من الأملود. أما في جزر جنوب المحيط الهادي فيدخل الإلهُ الكاهنَ فيزهو الأخير وكأنه إلهٌ ويتوقف عن كلامه وتصرفاته الإرادية ويبدأ بالحركة والقول تماماً تحت تأثير القوة الخارقة للطبيعة. في هذه الناحية، هناك تشابه كبير بين الوسيط الفظ عند بولينيسيا والوسيط عند أقوام الإغريق القدامى الشهيرة. حالما يدخل الإلهُ الكاهنَ يبدأ الأخير بتهيجات عنيفة ويُدخِل نفسه في نوبة عالية المستوى، فتتشنج عضلاته وأطرافه وينتفخ جسمه وتصبح ملامحه مرعبة وتتشوه تعابيره وتصبح عيناه وحشيتين ومُجْهَدتين. وغالباً ما يتمرغ على الأرض ويرغي من فمه وكأنه تحت تأثير الإله الذي يتملّكُه. ويكشف عن إرادة ذلك الإله خلال صرخات حادة وأصوات عنيفة غير مميزة. أما الكهنة الحاضرون هم الذين يدركون أسرار ما قاله وينقلونها إلى الناس. وبعد أن يتلفظ الكاهن بما أجاب به الوحي يبدأ البُرَحاء العنيف بالانقضاء ويسترد الكاهن هدوءه النسبي. لايبرحه الإله فور إتمام الاتصال بل يبقى أحياناً في نفس الكاهن يومين أو ثلاثة. وعلامة هذا التملك هو ارتداء الكاهن قطعة قماش محلية الصنع من نوع خاص على ذراعه. وتعتبر تصرفاته في هذه الفترة هي تصرفات الإله نفسه، لذلك يرصد الناس كل شاردة وواردة من كلماته وأفعاله. ويُعتَبَر الكاهن أوروهيا أي (تحت وحي الروح) مقدساً كالإله. وفي أوقات أخرى يسمونه تاورا أي (كاهن).

تكثر الأمثلة على الإيحاء المؤقت في جميع أنحاء العالم وهي معروفة الآن خلال كتب الايثولوجيا أي علم أعراق البشر إلى درجة أنه لاداعي للمزيد من الشرح للتعريف بمبدئه العام. والجدير بالذكر أن هناك نمطين من صنع الإيحاء المؤقت لسببين هما أنهما غير معروفين للناس كثيراً ولأننا سنأتي إلى ذكرهما في

مناسبات لاحقة. الأول هو صنع الإيحاء بمص الدم الطازج من أضحية مذبوحة. ففي معبد أبولو ديراتيوتيز في أرغوس يُذبَح خروف في الليل مرة كل شهر؛ ثم تذوق امرأة متعففة جنسياً ذلك الدم فتُلهَم من الإله وتبدأ بالتنبؤ. وفي آيجيرا في أكيبا تشرب كاهنة الأرض دماً طازجاً من ثور قبل نزولها إلى الكهف من أجل التنبؤ. ولدى كوروفكارا وهم طبقة من الشحاذين وملتقطي الطيور في جنوب الهند، يُعتَقد أن الإلهة كالي تنزل على الكاهن وتعطيه أجوبة الوحي بعد امتصاص دم يتدفق من حنجرة معزاة. وفي احتفال لقوم آلفور في ميناهاسا في جنوب سيليبيس، يندفع الكاهن باهتياج إلى الخنزير المذبوح ويقحم رأسه في الذبيحة ويشرب من الدم. ثم يُجرُّ عنها بالقوة ويُجلَسُ على كرسي ويبدأ بالتنبؤ عن محصول الأرز ذلك العام. ثم يندفع ثانية للذبيحة ويشرب من دمها وكذلك يجبرونه إلى العودة إلى الكرسي ليتابع تنبؤاته. يعتقدون أن به روحاً تتمتع بقوة التنبؤ.

يكمن النمط الآخر من التنبؤ المؤقت في استخدام شجرة أو نبتة مقدسة. ففي هندو كوش تُشعَل نار من أغصان شجرة الأرز المقدس وتستنشق الدينال أو السيبال وهي واضعة خماراً على رأسها. يخرج الدخان اللاذع حتى تتمكن منها التشنجات وتسقط فاقدة وعيها على الأرض. وبعد وقت قصير تنهض وتنشد بصوت عالٍ سحراً يردده خلفها الحضور. كما تأكل مُتَنَبِّئَةُ أبولو الغار المقدس وتتبخر به قبل الإدلاء بتنبؤاتها. أما الباشنال فيأكلون اللبلاب ويرتبط غضبهم الملهم بميزات النبتة غير السامة. وفي أوغندا يقوم الكاهن كي يُلهَم من الإله بتدخين الغليون بعنف حتى يُدْخِلَ نفسَه في نوبة شديدة؛ ويعتبر الناس نغمة صوته العالي أتية عبره من الإله. وفي مادورا وهي جزيرة على مقربة من ساحل جافا، لكل روح وسيلتها الخاصة وتكون على الأغلب من النساء أكثر مما تكون من الرجال. ولتحضِّر نفسها لاستقبال الروح تستنشق عبق البخور وهي جالسة ورأسها فوق المبخرة المتأرجحة. ثم تدخل تدريجياً في نوع من الغشية المصحوبة بزعقات وتشنجات عنيفة. من المفترض أن تكون الروح قد دخلت إليها الآن وعندما تهدأ، تُؤخَذ كلماتها على أنها وحي لأنها ألفاظ الروح الساكنة في داخلها في حين تغيب روحها بشكل مؤقت.

يعتقد أن الشخص الملهَم يحصل على معرفة إلهية وفي بعض الأحيان على قوة إلهية. عندما ينتشر الوباء في كمبوديا يجتمع أهالي القرية ويذهبون وعلى رأسهم

فرقة موسيقية إلى الرجل الذي اختاره الإله المحلي كمُتَجَسِّد مؤقت. وعندما يجدونه يُؤخَذ الرجل إلى مذبح الإله حيث يتم التجسد. فيحظى الرجل بتبجيل زملائه الذين يلتمسون منه حماية القرية من الوباء. وهناك صورة لأبولو في كهف مقدس في هيلاي قرب ماغنيزيا، يعتقد أنها تمنح قوة فوق طاقة البشر. لذلك عندما يُلْهَمُ المقدسون بها يقفزون من فوق الجُرُف وينتشلون الأشجار من جذورها ويحملونها على ظهورهم ويمرون بها في أضيق الشِّعاب. وما الأعمال البطولية التي يقوم بها الدراويش إلا من هذا النوع.

رأينا أن الإنسان البدائي أخفق في إدراك حدود قدرته على التحكم بالطبيعة فعزا لنفسه ولغيره من البشر قوى معينة نسميها الآن خارقة للطبيعة. ورأينا أيضاً أن أشخاصاً معينين ـ بالإضافة إلى هذه الخارقية للطبيعة ـ افترضوا أنهم أُلهموا لفترات قصيرة من قبل إله أو روح فتمتعوا خلال هذه الفترات بمعرفة وقوة ذلك الإله. بعد هذا الاعتقاد هناك خطوة سهلة أمامهم ليؤمنوا بشكل راسخ بتملُّك الإله بشكل دائم وأنهم بشكل ما يُمنَحون درجة عالية من القوة الخارقة للطبيعة فيُصنَّفون آلهةً وتُقَدَّم لهم البيعة والصلوات والأضاحي. أحياناً يقتصر هؤلاء الآلهة البشر على وظائف روحية وراء طبيعية بحتة. وأحياناً يحتلون منصب القمة بالإضافة لمنصبهم الروحي. في الحالة الأخيرة يشغلون منصب الملوك بالإضافة إلى كونهم آلهة، ونقول أنها حكومة ثيوقراطية. ففي ماركويساس وجزر واشنطن، كان هناك طبقة مُؤَلَّهَة في حياتها. ومن المفترض أنهم يمارسون قوة خارقة على العناصر: بإمكانهم أن يمنحوا المحصول الوفير أو يصيبوا الأرض بالقحط، ويمكنهم أيضاً أن يُنزِلوا المرض والموت؛ فتُقَدَّم لهم الأضاحي البشرية لتفادي سخطهم. ليس هناك من هذا النوع الكثير: واحد أو اثنان في كل جزيرة. إنهم يعيشون في عزلة غامضة. وأحياناً وليس دائماً تكون قواهم وراثية. قام أحد المبشرين بوصف أحد هذه الآلهة حسب مشاهدته الشخصية: إنه رجل طاعن في السن يعيش في منزل واسع مُحاط بسور. في المنزل مذبح من نوع ما، وعُلِّق على أعمدة المنزل وأشجاره هياكل عظمية بشرية رأسها إلى الأسفل. لا أحد يدخل السور إلا من المكرسين على خدمة ذلك الإله؛ يمكن لعامة الناس أن يدخلوا الفِناء في الأيام التي تُذْبَح فيها الأضاحي البشرية. يتلقى هذا الإله البشري أضاحي بشرية أكثر من أي إله آخر، وغالباً ما يجلس على منصة أمام منزله

ويطلب أضحيتين أو ثلاث أضاح بشرية دفعة واحدة. وكان يُلَبَّى نتيجة الذعر الذي يثيره. تلتمسه الناس من كل أنحاء الجزيرة وتأتيه الهدايا من كل حدب وصوب. وبلغنا أنه في كل جزيرة من جزر بحر الجنوب هناك رجل يمثل الإله أو يتشخص به الإله يسمونه إلهاً. أحياناً يكون هذا الإله البشري الملك نفسه وأحياناً يكون الكاهن أو معاون القائد.

لم يقتصر المصريون القدامى على تقديس القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات ذات الظلف بل توسع التقديس ليشمل البشر. عاش أحد هؤلاء الآلهة البشر في قرية أنابيس وكانت تُقَدَّم له الأضاحي المحروقة على المذبح. ويقول بروفيري أنه يأكل عشاءه على المذبح وكأنه إنسان عادي. وفي العصور القديمة (السابقة للعصور الوسطى)، جعل الفيلسوف الصقلي نفسه إلهاً وليس مجرد ساحر. وقال الشعر التالي مخاطباً الناس:

" يا أصحابي، في هذه المدينة التي تتسلق على المنحدر الأصفر

لقلعة أغريجنتم، التي تمنحكم العمل الصالح،

والتي تؤمن للغرباء المأوى الهادئ والجميل،

تحية لكم جميعاً! أمشي بينكم مبَجَّلاً محاطاً بالرفعة.

بالأكاليل المزهرة تتوجون جبيني النبيل،

لم أعد أنساناً فانياً، بل صرت كبير الآلهة الذي لا أموت.

اينما ذهبتُ يحتشد الناس ويقدمون العبادة،

تتبعونني بالآلاف بقصد معرفة الدرب الأقوم.

بعضكم يلتمس التنبؤات، و بعضكم يتلوى من ألم مبرح

ليسمع مني كلمات المواساة، فينقشع عنه الألم.

وأكد على أنه يستطيع تلقين تعاليمه عن كيفية جعل الرياح تهب أو تبقى ساكنة، والمطر يهطل أو تشع الشمس، المرض يتلاشى، والشباب يعود، والموتى ينهضون. عندما أعاد ديمتريوس بوليوسيتس الديمقراطية في عام 307 ق.م. أصدر أهالي أثينا مرسوم تشريف إلهي له ولأبيه أنتيغونوس اللذين كانا على قيد الحياة ويحملان لقب الآلهة المنقذة. أُقيمت المذابح للآلهة المنقذة وتم تعيين كاهن للإشراف

علـى عبادتهمـا. يـذهب النـاس ليلتقـوا منقـذهم بالتراتيـل والرقـصات، بالأكاليـل والبخـور والإراقـة (سـكب سـائل كـالخمر علـى الأرض أو علـى جـسد الأضـحية تكريمـاً لإلـه مـا). يحتـشدون بالـشوارع وهـم يغنـون لـه قـائلين إنـه الإلـه الحقيقـي الوحيـد، لأن الآلهـة الأخـرى قـد نامـت أو أنهـا انـدثرت أو اختـارت لنفـسها مـسكناً بعيـداً. هـذه القـصيدة كتبهـا شـاعر معاصـر لهـم كانـت تُنْشَد أمـام العامـة وتُغَنَّـى بشكل منفرد:

" من بين الآلهة كلها، الأقرب إلى قلوبنا

وأعظمهم أتى إلى المدينة.

جلبهما الزمانُ معاً

ديميتر وديميتريوس.

أتت هي لتقيم طقوس سيدتها المخيفة،

وأتى هو جميلاً فرحاً يضحك،

لاتليق الألوهية إلاّ له.

منظره مجيد وهو في وسطهم،

هم كالنجوم وهو كالشمس.

إبن بوسيدون، إبن افروديت

حيّوه جميعاً!

أما الآلهة الأخرى فإما رحلت بعيداً

أو أنها فقدت مسامعها،

أنت من نراه أمامنا الآن،

ليس ثمة إلهاً للحجر أو للغابة، لكنك كبير الآلهة الحقيقي

لذلك نصلي لك."

آمن الألمان القدامى بوجود شئ ما مقدس في المرأة، وبالتالي استشاروها على أنها وحي. وبلغنا أن نساءهم المقدسات كن ينظرن إلى الأنهر الدُّردارة ويستمعن لوشوشات الماء أو هديره، ويتنبأن من الصوت والصورة عما ينتظرهم. كانوا يعبدون

النساء على أنهن إلاهات حقيقيات وحية لكنهم في أغلب الأحيان يتعمقون أكثر في تبجيل الرجال. في عهد فيسباسيان هناك امرأة تدعى فيليدا من قبيلة بروكتيراي، كانت تعتبر إلهةً، وبشخصيتها تلك ملكت على شعبها واتسعت سلطتها إلى أبعد الحدود. كانت تعيش في برج على نهر ليب، أحد روافد الراين. وعندما أتى وفد من شعب كولون ليبرم معها معاهدة لم يسمح للسفراء بالمثول أمامها؛ بل أُقيمت المباحثات عبر وزير قام بدور الناطق عن ألوهيتها ونقل لهم ألفاظها الإلهية. يبين هذا المثال كيف التحمت فكرتا الألوهية والملكية في أذهان أجدادنا البسطاء. ويقال أنه منذ الغيناي في القرن الثاني قبل الميلاد وحتى بداية حقبتنا كان هناك دائماً من يمثل الإله و يسمى إلهاً. كان يسكن الجبل المقدس ويعمل مستشاراً للملك.

وهذا ما قاله المؤرخ البرتغالي القديم دووس سانتوس عن شعب زيمبا أو موزيمبا في جنوب شرق أفريقيا: " هم لايبجلون الأوثان ولا يحترمون أي إله، لكنهم يقدسون ويشرفون ملكهم ويعتبرونه إلهاً ويقولون إنه الأفضل والأعظم في العالم. أما الملك فيقول عن نفسه أنه وحده إله الأرض فهي لاتمطر إلا حسب رغبته ولا يأتي الطقس الحار إلا بإذنه، وإذا ما عصته السماء يطلق عليها السهام." وحكى أسقف قوم ماشونا في أفريقيا الجنوبية أنه كان لديهم إله وقد طرده قوم ميتابل. " يعود هذا إلى عادة طريفة في بعض القرى وهي أنهم يحتفظون بشخص يسمونه إلههم. ويبدو أنه يستشار من قبل الناس وتعطى له الهدايا، ومثال على هذا إله تابعاً للقائد ماغوندي. طلب منا الناس هناك ألا نطلق النار من بنادقنا كي لا نخيفه فيهرب. " كان على هذا الإله أن يقدِّم أتاوة سنوية لملك ماتابيل وقوامها أربعة ثيران سود مع تقديم رقصة واحدة. و قد شاهد أحد المبشرين ذلك ووصف لنا الجزء الأخير من مهمة الإله وهو ينفذها أمام الكوخ الملكي. يستمر الرقص ثلاث ساعات متواصلة مع الضرب على الرُّق وصك الصنجات ودندنة الأغنية ذات الإيقاع المنتظم ويشترك الإله داكن البشرة في الرقص المهيج هذا فيجثم على ركبتيه مثل الخياط، ويتعرق كالخنزير ويدور بخفة كي يجتاز امتحان قوة ومرونة رجليه الإلهيتين.

ويؤمن قوم الباغاندا في أفريقيا الوسطى بإله البحيرة نايانزا الذي يتجسد في رجل أو امرأة. يخاف هذا الإلهَ المُتَجَسِّدَ كلُّ الناس بما فيهم الملكُ والقادةُ. وعندما يحصل التجسد يتم إبعاد الرجل أو بالأحرى الإله مسافة ميل ونصف الميل عن

البحيرة. وينتظر هناك ظهور القمر الجديد قبل البدء بقيامه بواجباته المقدسة. ولحظة ظهور الهلال الخافت في السماء يصبح الملك ورعاياه كلهم تحت إمرة الرجل الإله، ويسمونه لوبار (إله). يقوم بالحكم كسلطةٍ عليا ليس في أمور الإيمان والطقوس فحسب بل في مسائل الحرب وسياسة الدولة أيضاً. وتؤخذ استشارته على أنها وحي وسيط بعد تقديم هدية كبيرة. ويتوقف المرضُ والشفاءُ على كلمة منه، وهو الذي يمسك المطر ويسبب المجاعة. أما قائد أوروا وهي منطقة كبيرة إلى الغرب من بحيرة تانغانيكا، " فيدَّعي لنفسه التشريفات الإلهية ويتظاهر أنه يمتنع عن الطعام لأيام طويلة دون الشعور بضرورته. و يصرح بأنه ليس بحاجة للطعام والشراب أو التدخين لكنه يأكل ويشرب ويدخن من قبيل المتعة ليس إلا. " وبعض النساء من قوم غالاس وعندما تتعب إحداهن من الواجبات المنزلية تبدأ بالتكلم بشكل غير متماسك وتبالغ في الحط من قدر زوجها. تلك علامات هبوط الروح المقدسة كالو عليها. على الفور يخر زوجها ساجداً لها ويهيم بها. بعد ذلك ترفض لقب زوجة المتواضع وتُدعَى لورد. ولا يعود يطلب منها واجبات منزلية وتتحول إرادتها إلى قانون إلهي.

أما قوم لوانغو فيشرِّفون ملكهم وكأنه إله ويسمونه سامبي وبانغو (إله). ويعتقدون أنه يمنحهم المطر متى شاء، ويأتونه مرة كل سنة يرجونه المطر في كانون الثاني. وعندها يقف الملك على عرشه ويطلق سهماً في السماء المفترض فإنها تجلب المطر. وينطبق هذا على ملك بومباسا الذي ظل حتى بضع سنين سابقة عندما انتهت ملكيته الروحية على الأرض وبعد أن قُتِل على يد البحارة الانكليز ورجال الأسطول، ظل الملك بينين المعبود الرئيسي يحتل منصباً أعلى من البابا في أوروبا الكاثوليكية لأنه ليس فقط وكيل الإله على الأرض بل هو بحد ذاته إله يطيعه ويجله رعاياه رغم أني أعتقد أن هذا الإجلال نابع من الخوف أكثر من الحب. وقال الملك إيداه لضباط إنكليز في بعثة النيجر: " جعلني الإله على صورته، أنا تماماً مثل الإله، وهو الذ ي جعلني ملكاً."

تميزت ملكية بورما بالتعطش إلى الدماء وتحديداً الملك بادونساخن الذي تدل سيماه على ضراوة طباعه. والضحايا التي هلكت على يده إعداماً هي أكثر من ضحايا الحرب مع العدو. اعتقد بادونساخن أنه أكثر من إنسان فاني وأن تميّزه

الاستثنائي كان مكافأة لأعمال عديدة قام بها، فوضع لقبه كملك جانباً بهدف جعل نفسه إلهاً. بناء على هذا وتقليداً لبوذا، الذي قبل ارتقاءه إلى مرتبة الآلهة، ترك قصره الملكي وسراي السلطان واعتزل العالم. انسحب بادونساخن من قصره إلى أكبر باغودا ـ وهو معبد متعدد الأدوار انشغل في إنشائه عدة سنوات. وراح يقيم فيه مؤتمرات مع أكثر رجال الدين ثقافة بهدف إقناعهم أن عهد بوذا الذي دام خمسة آلاف سنة قد انقض وأنه هو الإله الذي قُدِّر له أن يعقب تلك الفترة ويلغي القانون القديم ويُحِلّ شريعته الخاصة محله. لكن رجال الدين خذلوه وأعلنوا عكس ذلك. إن خيبة أمله بموقف الكهنة وحب السلطة وفقدان صبره من قيود الحياة الزاهدة جعله يتحرر من وهمه بأنه كبير الآلهة ويعود إلى قصره وإلى مقصورات غانياته. أما ملك سيام فيحظى بتبجيل مثل الآلهة، وعلى رعاياه ألا ينظروه في وجهه بل يسجدون عندما يمر ولا يظهرون أمامه إلا وركبهم وأكواعهم على الأرض. يكرسون لغة خاصة لشخصه وصفاته عندما يتكلمون معه وعنه. وحتى متكلمو لغتهم الأصلاء يجدون صعوبة في إتقان المفردات المخصصه له. شعرات رأسه، أخمص قدمه، النفس الخارج من جسمه، وأدق التفاصيل في شخصيته الظاهرة والباطنة تختص بأسماء معينة. كل النشاطات من نوم ومشي وأكل وشرب كلها تختص بمفردات معينة عندما تؤدى له. ويمنع استخدام هذه الكلمات للإشارة إلى تصرفات أي شخص آخر. ليس هناك ثمة كلمات في اللغة السيامية أرقى من تلك التي تستخدم لوصف الملك. لذلك كان المبشرون يُجْبَرون على استخدام الكلمة السيامية للملك عندما أرادوا التحدث عن الله.

لم تنتشر فكرة الآلهة البشر في أي بلد في العالم أكثر مما انتشرت في الهند. لم يتدفق الفضل الإلهي بسخاء على جميع طبقات المجتمع من الملك وحتى الحلاّب مثلما فعل في الهند. عند قوم التودا وهم شعب رعوي في هضاب نيلغيري في الهند الجنوبية، يعتبر الملبن مكاناً مقدساً، ويوصف الرجل الذي يرعى ذلك الملبن إلهاً. وعند سؤاله فيما إذا كان قوم تودا يحيون الشمس أجابهم أحد الحلابين الإلهيين: "هؤلاء المساكين يفعلون" ثم تابع رابتاً على صدره، " أنا إله! مالذي يجبرني على تحية الشمس؟" الجميع يسجد للحلابين حتى آباؤهم، ولايجرؤ أحد على رفض طلب لهم. لايُسمح لأحد أن يلمس الحلاب إلا إذا كان حلاباً. ويستخدم صوتاً إلهياً عندما

يعطي أجوبة وحيية لكل من استشاره. "كل ملك في الهند هو صورة مصغَّرة عن إله موجود." يتابع كتاب مانو في القانون الهندوسي: " حتى طفل الملك يجب ألا يُحتقر لكونه مجرد جسم فان، لكنه إله عظيم على شكل جسم بشري." ويقال أن هناك طائفة في أوريسا منذ عدة سنوات عبدت الملكة فكتوريا وهي على قيد الحياة واعتبرتها معبودتها الرئيسة. حتى يومنا هذا فكل الأشخاص من ذوي قوة مميزة أو بسالة عظيمة أو قوى إعجازية هم في خطر أن يُعبَدوا كآلهة. لذلك عبدت إحدى طوائف البنجاب إلهاً سموه نيكال سين. لم يكن ذلك الإله سوى المُحَصَّن الجنرال نيكالسون، ولم يكن بيد الجنرال أن يقول ما يقلل من شأن حماسهم وحبهم له. وكلما زاد من العقوبات المفروضة عليهم كلما زادت الرهبة التي يعبدونه بها. وفي بيناريس وليس إلا منذ عدة سنوات تجسد الإله المعبود في رجل هندوسي ابتهج باسمه الرخيم(سولمي بهاسكاراناداجي ساراسواتي) وكان مظهره مثل كاردينال مانينغ السابق لكنه أكثر براءة. عيناه تشعان بالمودة البشرية ووصفوه أن به متعة بريئة من التشريفات الإلهية التي منحوه أياها عبدته.

في تشينجافاد وهي مدينة صغيرة تبعد عشرة أميال عن بونا في الهند الغربية، عاشت عائلة يَعتَقِد قسم كبير من الماهراتا أن فيها واحداً من كل جيل يتجسد فيه إله ذو رأس فيل يدعى غانبوتي. تجسد الإله المشهور في عام 1640 في شخص براهمي في بونا، وهو تحديداً مورابا غوسين الذي أراد أن يجد خَلاصَه عن طريق التقشف وكبح الشهوات والصلوات. كانت طاعته مجزية. ظهر له الإله شخصياً في المنام ووعده أن يجعل جزءاً من روح غانبوتي المقدسة تعيش معه وفي ذريته حتى الجيل السابع وصدق الوعد الإلهي. تجسد الإله سبع مرات متتالية من الأب إلى الابن مُظهِراً نورانية غانبوتي في عالم الظلام. كان آخر هذه السلسلة إلهاً بديناً ضعيف النظر، مات عام 1810. نظر البراهمان إليه بقدسية كبيرة كلفت الكنيسة كثيراً كي تجعلهم يتخيلون باتزان أن العالم الذي لم يعرف غانبوتي سيستمر دون أن يتكبد الكثير. بحثوا عن مُتَجَسَّد مقدس آخر ووجدوا الوعاء الذي تتجدد فيه الروح المقدسة واستمرت سلسلة غير منقطعة من الأوعية من ذلك اليوم وحتى الآن. لكن هناك قانون غامض في الاقتصاد الروحي، نستنكر تأثيره في التاريخ الديني ولا حيلة لنا في تغييره، يقضي بأن المعجزات التي يقوم بها الإله الإنسان اليوم هي أقل من

أن تُقارَن بتلك التي قام بها أسلافه في الأيام الغابرة وأن الدليل الوحيد الباقي لجيل الخبثاء في الوقت الحاضر هو معجزة إطعام الحشد الكبير في العشاء الذي يقيمه سنوياً في تشينتشفاد.

هناك طائفة هندوسية لها الكثير من الأتباع في بومباي والهند الوسطى تعتقد أن القواد الروحيين أو كما يسمونهم ماهراجا هم تجسيد حقيقي للإله كريشنا. وعندما ينظر كريشنا بعين العطف من السماء إلى وزير مثلاً تلبية لأتباعه وممثليه على الأرض، يُقام طقس خاص يدعى (التكريس الذاتي) يجدد فيه العبدة المؤمنون أجسامهم وأرواحهم والأهم من ذلك تقديم ممتلكاتهم الدنيوية لمُتَجَسَّداتهم الجديرة بالعبادة. لهذا تُعلَّم النساء أن يؤمِنَّ بأنهن يستطعن تحقيق أعلى درجات النعيم لهن ولعائلاتهن عن طريق تسليم أنفسهن لتلبيةٍ رغبات تلك الكائنات التي تسكن فيها الطبيعة الإلهية على شكل بشر حقيقيين بما في ذلك شهواتهم البشرية.

لم تنج المسيحية من فساد هذه الضلالات التعسة. وفي الحقيقة، تم وصمها بمغالاة المدَّعين بألوهيةٍ تساويهم مع مؤسسها العظيم وربما تفوقه. في القرن الثاني ادَّعى مونتانوس فريجيات أنه الثالوث المتجسد الذي يتوحد فيه شخص الله الواحد والله الابن والله الروح القدس. لم تكن هذه الحالة فريدة في التظاهر المفرط للعقل المختل، فمن قديم الزمان وحتى يومنا هذا اعتقدت طوائف كثيرة أن المسيح لا بل الله بذاته هو متجسِّد بكل مسيحي تَلَقَّن مبادئ المسيحية بشكل كامل. واستمر أتباع هذه الطائفة بمعتقدهم إلى نتيجته المنطقية حتى عبدوا بعضهم بعضاً. كتب تيرتوليان عن وجود هذه الظاهرة عند إخوانه المسيحيين في كارتيج في القرن الثاني. وقضت تعليمات القديس كولومبا بعبادته كتجسيد للمسيح. وفي القرن الثامن تكلم إليباندوس في توليدو عن المسيح واصفاً إياه بـ (إله بين الآلهة) ويقصد بهذا أن كل المؤمنين كانوا آلهة بنفس درجة ألوهية عيسى. وهكذا جرت عادة عبادة بعضهم بعضاً عند آلبيجنز ولوحظ هذا مئات المرات في سجلات محاكم التفتيش في طولوس في أوائل القرن الرابع عشر.

وفي القرن الثالث عشر ظهرت طائفة تدعى (إخوة وأخوات الروح الحرة). تؤمن هذه الطائفة أن مواصلة التأمل يجعل أي إنسان قادراً على التوحد مع الرب بطريقة أقدس من أن توصف ويصبح بذلك مصدر كل الأشياء، كما تؤمن بأن من يصعد

إلى الله ويذوب بجوهره المبهج يتحول بالفعل إلى جزء من الله ويكون ابنه بمعنى الكلمة، على طريقة المسيح تماماً. وبعدها يتمتع بحصانة مجيدة تمنعه من الوقوع في شَرَك القوانين الإلهية والبشرية. عند الحصول على نعمة هذه القناعة يتغير مضمونه أما من حيث المظهر فيضفي جواً من الجنون والخبل. يجول المتشيعون من مكان إلى آخر يلبسون أفخم الثياب ويشحذون الخبز بصرخات متوحشة ويرفضون بكل عزة إي نوع من العمل الشريف أو ممارسة أية صناعة لأنها تشكّل عائقاً أمام التأمل الإلهي وأمام صعود الروح إلى أبي الأرواح. تتبعهم النساء اللواتي يعشن معهم بإلفة كاملة. ومنهم من يتقن براعة الحياة الروحية السامية ويستغني عن الملابس بالكامل في أثناء اجتماعاتهم معتبرين التواضع واللباقة من مظاهر الفساد الباطني، وميزتين للروح التي مازالت رازحة تحت سيطرة الطبيعة البشرية ولم ترتق للتوحد مع الروح الإلهية كمركز ومصدر لها. وأحيانا يتم تسريع توحدهم الصوفي على يد محاكم التفتيش ويقضون نحبهم في اللهب وهم يتمتعون ليس فقط بالصفاء الكامل بل بغبطة ونشوة الشعور بالنصر.

ظهر في عام 1830 في إحدى ولايات الاتحاد الأمريكي على الحدود مع كونتاكي دجّال أعلن أنه ابن الله منقذ البشرية وأنه ظهر على الأرض ليدعو الكفرة والمذنبين للقيام بواجبهم. وأعلن أنه إن لم يقوِّموا طريقهم خلال فترة معينة سيصدر إشارة يجعل العالم ينهار ويتحطم. لاقت هذه الإدعاءات المتطرفة رواجاً حتى عند الأثرياء وذوي المواقع الإجتماعية المرموقة. أخيراً أتى أحدُ الألمانيين وتوسَّل لهذا المسيح الجديد أن يصرِّح بهذه الكارثة الكبيرة لأبناء بلده باللغة الألمانية لأنهم لايفهمون اللغة الانكليزية ومن الإجحاف أن تصيبهم اللعنة دون دراية. عندها اعترف المخلص المفترض صراحةً أنه لا يعرف الألمانية. فأجاب الألماني: "ماذا!؟ أنت إبن الله ولا تتكلم جميع اللغات ولا تعرف حتى الألمانية؟ إذاً، أنت مهرطق محتال ومجنون أيضاً. مكانك هو مستشفى المجانين. " ضحك المشاهدون وغادروا خجلين من سذاجتهم لأنهم صدَّقوه.

تنتقل أحياناً الروح الإلهية إلى رجل آخر عند موت أحد المتجسَدين البشر. ويعتقد التراترة البوذيون بوجود عدد كبير من بوذا الأحياء يتولون مهمة اللاما الأكبر في الأديرة المهمة. عندما يموت أحد هؤلاء اللامات لايحزن أتباعه لأنهم واثقون أنه

سرعان ما يظهر ثانية ويأتي على هيئة طفل جديد. لكنهم يقلقون لأنهم لا يعرفون مكان ولادته. وإذا ما رأوا قوس قزح يأخذونه على أنه إشارة من اللاما الراحل ليدلهم على مهده. وأحياناً يكشف الطفل الإلهي عن نفسه فيقول:" أنا اللاما الأكبر، أنا بوذا الحي من الدير الفلاني. خذوني إلى ديري القديم فأنا رئيسه الخالد." إن كان ظهوره بتصريح جهري من بوذا أو بإشارة في السماء، تنصب الخيام ويقوم الحُجَّاج الفرحون وعلى رأسهم الملك أو أكثر أفراد العائلة المالكة شهرة ويذهبون ليجلبوا الطفل الإله الذي يولد في التيبت الأرض المقدسة. وللوصول إليه غالباً ما يتوجب عليهم عبور صحار مخيفة. وعندما يجدونه يخرون ساجدين ليعبدوه. وقبل أن يسموه اللاما الأكبر يجب أن يقنعهم بهويته. يسألونه عن الدير الذي يزعم أنه رئيسه وكم يبعد، وكم راهب فيه. عليه أيضاً أن يحكي عليهم عن عادات اللاما الميت وكيفية موته. ثم يضعون أمامه العديد من الكتابات وكتب الصلاة وأباريق الشاي فيختار منهم ما كان يستخدمه شخصياً في حياته السابقة. إذا استطاع القيام بهذا كله دون خطأ يتم الاعتراف به ويأخذونه ضمن احتفال نصر إلى دَيره. يرأس اللامات كلهم لاما دالاي في لهاسا، وهي أشبه بـ (روما التيبت). يعتبرونه إلهاً حياً وعند موته تولد روحه الإلهية على شكل طفل من جديد. وتقول بعض التقارير أنه يتم الكشف على لاما دالاي بالطريقة نفسها التي يُكشف بها عن اللاما العادي. وتتحدث تقارير أخرى عن إجراء قرعة بالسحب من الجرة الذهبية. تخضرُّ أوراق الأشجار حيث يولد وتزهر الورود بأمره وتتفجر الينابيع، وتعم بوجوده النعم الإلهية.

ليس اللاما هو الإله الوحيد في هذه البلاد. هناك سجل في المكتب الإستعماري في بكين دُوِّنت فيه جميع الآلهة المتجسدة في الأمبراطورية الصينية. يبلغ عدد الآلهة الذين حصلوا على رخصة مائة وستون إلهاً وتنعم منغوليا الجنوبية بأشعة شمس بفضل أكثر من سبع وخمسين إلهاً. وحرصاً على مصلحة رعاياها، تقوم الحكومة الصينية بمنع الآلهة الموجودين في السجل من الظهور في أي مكان آخر غير التيبت. وذلك خوفاً من ظهور إله في منغوليا يؤدي إلى مضاعفات سياسية خطيرة مثل إيقاظ الوطنية الهاجعة وإثارة روح الحرب عند المنغوليين فيتجمعون حول إله محلي طموح من الأسرة المالكة يحملهم على إنشاء مملكة روحية ودنيوية بحد السيف. بالإضافة إلى

هذه الآلهة العامة المرخصة هناك عدد كبير من الآلهة الخاصة الصغيرة، أو لنقل ممارسون إلهيون غير مرخصين يفعلون المعجزات ويباركون أهلهم في الزوايا والوكور، وفي السنوات الأخيرة تغاضت الحكومة الصينية عن ظهور هذه الآلهة الصغيرة التافهة خارج حدود التيبت. لكن حال ظهورها تبقي الحكومة العين عليها وعلى محترفي هذه المهنة، وما أن يسيئوا التصرف حتى تنزع منهم الرتبة على الفور ويُبْعَدون إلى أديرة نائية، ويُمنعون من الولادة ثانية في طفل جديد.

خلال بحثنا في الموقع الديني الذي يحتله الملك في المجتمعات البسيطة، يمكن أن نستدل على أن الإدعاء الذي يقدمه الملوك عن قوى إلهية خارقة للطبيعة في الأمبراطوريات التاريخية العظيمة مثل مصر والمكسيك والبيرو لم تكن نتاج هراء مهول وتعبير تذلل ومداهنة فارغ، بل كان استمراراً وإحياءً للتأليه البدائي القديم للملوك أحياء. فمثلاً كان قوم إنكا في بيرو يبجلون أولاد الشمس كآلهةٍ لا تخطأ ولا يحلم أي منهم بالتعدي على شخص من السلالة الملكية ويمس شرفه أو ممتلكاته. ولاينظر أبناء إنكا كما يفعل معظم الشعوب إلى المرض على أنه شر، بل يعتبرونه رسولاً من أبيهم الشمس يدعوهم إلى الذهاب إليه والتمتع بالراحة في السماء. لذلك كان الإنكا يستخدمون الكلمات التالية لمن كان يقترب من النهاية: " يدعوني أبي للذهاب إليه والراحة معه." ولا يعارضون إرادته بتقديم الأضاحي بقصد الشفاء بل يعلنون صراحة الدعوة للراحة. أندهش المحتلون الإسبان عندما صعدوا من الوديان الملتهبة إلى نجود الإنديز الشامخة، اندهشوا من التباين بين القبائل البدائية التي تركوها في الغابات الحارة والرطبة وبين أناس يتمتعون بدرجة عالية من الحضارة وممارسة الزراعة والعيش في ظل حكومات شبهها هامبولت بثيوقراطيات التيبت أو اليابان. إنهم أقوام تشيتشا وموسكا وموزكا منقسمون إلى مملكتين عاصمتاهما بوغوتا وتونجا يوحدهما الولاء الروحي الواضح للحَبْر الأكبر في سوكموزا أو إراكا. برهبنته الزاهدة الطويلة، اشتهر قائدهم الروحي بقدسية تجعل المطر والمياه طوع إرادته، والطقس ملبياً لرغبته. وكما رأينا كيف أن الملوك المكسيك يقسمون عند قبولهم الملكية بأن يجعلوا المطر يهطل والشمس تشع والأنهار تتدفق والأرض تعطي ثمارها بوفرة. وبلغنا أن شعب المكسيك قد عبد آخر ملوكهم كونيزوما على أنه إله.

ادَّعَى الملوك البابليون القدامى أنهم آلهة منذ عهد سارغون الآول وحتى السلالة الرابعة في أور وربما بعد ذلك. قام ملوك السلالة الرابعة في أور ببناء معابد على شرفهم ووضعوا فيها تماثيل في حَرَماتها وطلبوا من الناس تقديم الأضاحي لها. وقد خُصِّص الشهر الثامن للملوك وخُصِّصَ الخامس عشر من كل شهر لتقديم الأضاحي للقمر. أما ملوك البارثا من بيت أرساسيد فقد جعلوا من أنفسهم إخوة للشمس والقمر وعُبِدوا كآلهة. وكانوا يعتبرون من يلمس أحداً من عائلة أرساسيد في مشاجرة تدنيساً لهم.

أما ملوك مصر فكانوا يؤلَّهوا وهم على قيد الحياة. وكانت تُقدَّم لهم الأضاحي، وتُؤَدَّى عبادتهم في معابد خاصة يقوم عليها كهنة خاصون. في الحقيقة كانت عبادةُ الملوك تدفع بعبادةَ الآلهة إلى الظل. ففي عهد ميرينرا أعلن مسؤول كبير أنه بنى أمكنة مقدسة ليناشد فيها الناس أرواح الملك الخالد ميرينرا " أكثر من كل الآلهة. لاشك في أنه ادعى الألوهية الفعلية فهو الإله الأعظم وهوراس الذهبي ابن رع. ادعى سلطته ليس فقط على مصر بل على كل البلدان والأمم، العالم كلّه بطوله وعرضه بشرقه وغربه وكل ما تشرق عليه الشمس، السماء وما فيها والأرض وما عليها، كل الكائنات التي تدب على الأرض باثنين أو بأربع، كل ما يطير ويرفرف يقدِّم إنتاجه له. وكل ماهو لإله الشمس يؤول عقائدياً إلى ملك مصر. ألقابه مشتقة مباشرة من إله الشمس. " و بلغنا أيضاً "أن ملك مصر يستفد أثناء حياته جميع مفاهيم الألوهية التي ابتدعها المصريون لأنفسهم. هو إله يولد أعلى من البشر ليشغل منصبه الملكي ويصلح إلهاً بعد موته. لذلك كل ما هو معروف عن الألوهية يتلخص فيه."

لقد اكتملت الصورة الآن، فهي ليست أكثر من صورة عن تطور الملكية المقدسة التي بلغت أرقى شكل لها وأكمل تعبير لها عند ملوك مصر والبيرو. ويبدو أنه يعود أصل هذه المؤسسة إلى السحرة العامِّين والأطباء، وتعتمد منطقياً على الاستنتاج الخاطئ الناتج عن تداعي الأفكار إذ أخطأ الناس بين نظام أفكارهم ونظام الطبيعة فتخيلوا أن السيطرة التي مارسوها أو يبدو أنهم مارسوها على أفكارهم مكنتهم من ممارسة سيطرة مماثلة على الأشياء. افترض الناس أن بعضهم - لسبب أو لآخر، ولقوة أو ضعف في دورهم الطبيعي - يمتلك قوى سحرية من

أعلى الدرجات. بدأ هؤلاء بالتميز تدريجياً حتى شكلوا طبقة منفصلة قُدِّر لها أن تقود التطور البشري خلال نفوذها السياسي والديني والذهني. يتكون التقدم الاجتماعي كما نعلم من تبدلات متتالية في الوظائف أو بشكل أبسط لنقل أنه تقسيم العمل. وصار العمل الذي كان يقوم به الجميع بالتساوي صار موزعاً على طبقات مختلفة من العمال واكتمل تنفيذه شيئاً فشيئاً. ومادام أن الجميع يشتركون بالإنتاج، مادياً كان أم غير مادي، فقد صار المجتمع كله مستفيداً من التعمق في هذا التقسيم. يبدو أن السحرة والأطباء هم أقدم طبقة مهنية في تطور المجتمع. السحرة موجودون في كل قبيلة بدائية عرفناها وعند أدنى البدائيين وهم أصلاء أستراليا. إنهم الطبقة المهنية الوحيدة الموجودة. مع مرور الزمن ومع تقدم عملية التمايز انقسمت طبقة الأطباء إلى فصائل متعددة مثل شُفاة المرضى وصَنَعَة المطر وهكذا دواليك. ويتبوأ كل عضو متميز في فصيلته منصب القائد ويتطور تدريجياً حتى يصبح الملك المقدس ثم يرمي خلفه وظائفه السحرية القديمة ويستبدلها بمهمات كهنية وإلهية بسرعةٍ تتناسب مع حلول الدين محل السحر. وبعد ذلك تم فصل الجانب المدني عن الجانب الديني في الملكية وأعطيت السلطة الروحية لشخص ما والسلطة الدنيوية لآخر. وبالوقت نفسه مازال السحرة، الذين يمكن أن يُقمعوا ولكن لا يمكن أن يُستأصلوا بهيمنة الدين، مازالوا مدمنين على فنهم الخفي ويفضلونه على الطقوس الجديدة التي قوامها الأضاحي والصلوات. وعند حد معين استطاع الحصيفون من السحرة إدراك زيف السحر وَوَقعوا على طريقة أكثر فعالية يسيطرون فيها على الطبيعة لمصلحة الانسان، وباختصار استبدلوا العلم بالسحر. لا أستطيع الجزم أن التطور أخذ هذا الشكل الحدي في كل مكان، ولاشك في أنه اتخذ مساراً مختلفاً في مجتمعات أخرى. لكن ما أريد قوله أنه سلك هذا الطريق في توجهه العام. وإذا مانظرنا إلى التطور من المنطلق الصناعي نرى أنه انتقل من تماثل الوظائف إلى تنوعها، ومن الديمقراطية إلى الحكم المطلق. وبما أن موضوع بحثنا هو تطور وليس انحدار هذه المؤسسة المفيدة، لسنا معنيين هنا بالمرحلة التاريخية اللاحقة التي ضعف فيها الحكم المطلق و تم تبني أشكال أفضل من الحكم تلبية لحاجات البشرية العليا.

الفصل الثامن
ملوك الطبيعة المتخصصون

أثبتت البحوث السابقة أن ارتباط الوظائف المقدسة مع لقب ملك الغابة في نيمي وملك الأضاحي في روما وملك أثينا الذي يُكنَّى بالجلالة، كل هؤلاء كانوا قبل العصور القديمة ويلتقون عند قاسم مشترك في جميع المراحل من البربرية إلى الحضارة. ولم يشغل الكاهن الملك منصباً شكلياً بل كان يؤرجح الصولجان في يمينه ويهز المُلك في يساره. كل هذا يؤكد النظرة التقليدية لأصل الملوك الكهنة والاسميين في جمهوريات اليونان القديمة وإيطاليا. وعند التأمل ملياً باقتران السلطتين الروحية والدنيوية الموجود في الكثير من أنحاء العالم والذي ظل في ذاكرة الإيطاليين والإغريقيين عبر تقاليدهم، إنما نتحاشى الشك باحتمالية هذا التقليد. ومن المناسب هنا طرح السؤال التالي: ألا يمكن أن يعود أصل ملك الغابة إلى التقليد المحتمل الذي أدى إلى تعيين ملك الأضاحي في روما أو الملك الاسمي في أثينا؟ لنضع السؤال بشكل آخر: ألا يمكن أن يكون أسلافه من سلالة الملوك قد تم تجريدهم من السلطة السياسية وإبقاؤهم على الوظائف الدينية تحت ظل التاج؟ لدينا مبرران للإجابة بالنفي على هذا السؤال. أولهما هو مُقام الكاهن نيمي؛ والثاني هو لقبه (ملك الغابة). لو كان أسلافه ملوكاً بالمعنى العام للكلمة، لسكن مثل ملوك روما وأثينا في المدينة التي يُسلَّم فيها الصولجان ولكانت المدينة هي حتماً أريسيا لأنها الأقرب: تبعد ثلاثة أميال عن غابته المحرَّمة نحو شاطئ البحيرة. ولو أنه يحكم فترة محددة لما كان هذا في المدينة بل في الغابة الخضراء. أما لقبه فلا يسمح لنا بالافتراض أنه ملك بالمعنى العام للكلمة. بل على الأرجح كان ملك الطبيعة، وتحديداً جانب الطبيعة الذي أخذ عنه اللقب. وإذا ما بحثنا عن أمثلة عما يمكن أن نسميه ملوك الطبيعة المتخصصين، أي أشخاص من المفترض أنهم

يسيطرون على عناصر ومظاهر طبيعية، لوجدنا من أمثال ملك الغابة أكثر من الملوك الآلهة الذين يسيطرون على الطبيعة بشكل عام وليس على جزء خاص منها. وما أكثر الأمثلة عن آلهة الطبيعة المتخصصين.

على هضبة بوما قرب مصب نهر الكونغو يعيش ملك المطر والإعصار نامفولو فومو. وبلغنا أن ملوك بعض القبائل في النيل الأعلى لم تكن ملوكاً بالمفهوم العام، إذ لا تعرف هذه القبائل سوى ملوك المطر، ماتا كودون، فهم مزودون بقوة جلب المطر في الوقت المناسب، أي في فصل المطر. في نهاية آذار وقبل بدء هطول المطر تظمأ البلاد والصحراء القاحلة والماشية التي تشكل الثروة الرئيسية للشعب وتبدأ بالهلاك بسبب ندرة العشب. يذهب كل رب أسرة في أواخر آذار إلى ملك المطر ويهديه بقرةً عساه يأتي بالمطر المبارك من السماء ليسقي المراعي الجافة. وإذا لم يهطل المطر يتجمع الناس ويلحّون على الملك كي يجلبها؛ وإذا ظلت السماء خالية من الغيوم يبقرون بطنه لإيمانهم أنه يحتجز العواصف في ذاته. ويصنع الملوكُ المطرَ عند قبيلة باري عن طريق رش الماء على الأرض من جرس يهزونه بأيديهم.

ولدى القبائل في تخوم أبيسينيا هناك منصب مماثل وصفه لنا شاهد عيان: " كاهن ألفاي، كما سماه باريا و كوناما، إنسان عظيم يُعتَقد أنه قادر على صنع المطر. كان هذا المنصب موجوداً عند قوم آلجيد ومازال شائعاً عند زنوج النوبا. يعيش ألفاي باريا في الشمال منعزلاً مع عائلته قرب تيمبادير على أحد الجبال ويُستَشار من قبل كوناما. يأتيه الناس بالأتاوة على شكل ملابس و فواكه ويزرعون له حقلاً كبيراً خاصاً به. إنه أحد أنواع الملوك الذين يورثون منصبهم لأخيهم أو ابن أختهم. من المفترض أنه يستجلب المطر ويبعد الجراد. لكنه إن خيَّب ظن الناس به وانتشر جفاف شديد في المنطقة، يُرجَم ألفاي حتى الموت ويُجبَر أقرب الناس إليه على إلقاء الحجر الأول عليه. وعندما مررنا في البلد وجدنا أن رجلاً مسناً يشغل المنصب لكني سمعت أن جلب المطر خطير عليه مما حمله على التخلي عن منصبه.

في غابات كمبوديا الخلفية هناك ملكان: ملك النار وملك الماء. شاعت شهرتهما في جميع أنحاء شبه الجزيرة الهندية الصينية. لكن لم يصل إلى الغرب سوى صدىً ضعيف. وحتى بضع سنين خلت لم ألتق بشخص أوروبي شاهد أياً منهم؛

أي أنهم تحولوا إلى حكاية خرافية. والدليل على اندثارهم انقطاع الاتصالات بينهم وبين ملك كمبوديا الذي كان سابقاً يتبادل معهم الهدايا سنوياً. كانت وظيفتهم روحية خفية بحتة. إذ لم يتمتعوا بأية سلطة سياسية بل هم فلاحون عاديون يعيشون من عرق جبينهم وعلى العطايا التي تأتيهم من المؤمنين. ويقول أحد التقارير أنهم يعيشون في عزلة تامة ولم ير أحدهم وجه بشر على الإطلاق. يسكنون على التتالي في سبعة أبراج تعلو سبعة جبال ينتقلون كل سنة من برج إلى آخر. يأتي الناس خلسة ويتركون في متناول يدهم ما يمكّنهم من العيش. تدور الملكية سبع سنين وهي الفترة الكافية لاكتمال السكن في الأبراج السبعة؛ لكن الكثير منهم يموت قبل انقضاء مدته. ينتقل المنصب بالوراثة ضمن عائلة مَلَكيَّة واحدة ويقول بعضهم ضمن عائلتين ملكيتين ويحظون باحترام كبير وتُخَصَّص لهم عائدات معينة وهم معفيون من فلاحة الأرض. لكن أحداً لايرغب بهذه الكرامة وعند حصول فراغ في المنصب يغيب جميع المرشحين عن الأنظار. وتحكي رواية أخرى عن كره المرشحين للمنصب أو لقبول التاج (ولابد أن يكون المرشح قوي وعنده أولاد) وهذا لا يؤيد ما يشاع عن العزلة شبه التنسكية في الأبراج السبعة. لأنها تصور الناس وهم يسجدون للملك الغامض كلما ظهر للعيان إنما يفعلون ذلك خوفاً من أن يضرب إعصار مرعب البلاد إذا حُذفت مظاهر الإجلال هذه. ومثل الكثير من الملوك لذين سندرس عنهم لاحقاً، لايُسمح لملوك النار والماء أن يموتوا ميتة طبيعية لئلا تُدنَّس سمعتهم. لذلك عندما يمرض أحد الملوك مرضاً خطيراً يعقد المسنون جلسة شورى وعندما يرون أنه لن يشفى من مرضه يطعنونه حتى الموت. ثم يتم حرق جثته ويُجمَع رماده بخشوع ويتم تشريفه مدة خمس سنوات. يُعطى بعض الرماد لأرملته لتحتفظ به في جرَّةٍ يجب أن تحملها على ظهرها عندما تذهب لتبكيه على قبره.

وبلغنا أن ملك النار وهو الأهم لايُشك بقدرته الخارقة. ويؤدي مهامه في الأعراس والاحتفالات والأضاحي على شرف(يان) أو الروح. في هذه المناسبات ينفرد بمكان خاص ويُنشر على الممر المؤدي له قماش من القطن الأبيض. ويعود السبب في حصر الكرامة الملكية في العائلة نفسها إلى أن هذه العائلة تملك طلاسم تفقد فضيلتها عندما تنتقل إلى عائلة أخرى. تنقسم الطلاسم إلى ثلاثة: فاكهة من نبات متعرِّش تم جمعه في عهد الطوفان الأخير لكنه مازال نضراً أخضر اللون. والثاني هو نبات

الروطان وهو قديم جداً زهره لايذبل، وأخيراً سيف فيه يان أو روح تحميه وتقوم بالمعجزات. يُقال إنه روحُ عبدٍ صادف أن سقط دمه على النصل وهو يُصنع عند الحداد ومات موتاً طوعياً وهو يكفّر عن ذنب غير طوعي. يستطيع ملك الماء باستخدامه الطلسمين السابقين أن يحدث طوفاناً يغرق الأرض كلها. وإذا ما سحب ملك النار سيفه بضعة إنشات من غمده تختفي الشمس ويسقط الناس والوحوش في نوم عميق. أما إذا استله كله من غمده تكون نهاية العالم. هنا لابد من تقديم أضاحي من الجواميس الموسومة والخنازير والطيور والبط لأجل المطر.

خلافاً لعادة دفن الموتى المتبعة في ذلك البلد، تُحرَق أجسام هؤلاء الملوك ذوي الأسرار الخفية ويتم حفظ أظافرهم وبعض من أسنانهم وعظامهم ضمن طقوس دينية بغرض التعويذات. وفي أثناء تلاشي الجثة في المحرقة يهرب أقارب الساحر المختفي إلى الغابة ويختبئون خوفاً من ترقيتهم ليشغلوا المنصب الشاغر البغيض. يتبعهم الناس ويبحثون عنهم وينصِّبون من يكتشفون مخبأه أولاً ملكاً للنار أو الماء.

تلك كانت أمثلة على من أسميتهم **ملوك الطبيعة المتخصصون**. لكنها صرخة بعيدة تنطلق من غابات كمبوديا إلى أيطاليا ومنابع النيل. وبعد أن اكتشفنا ملك المطر والنار والماء مازال أمامنا اكتشاف ملك الغابة الذي يماثل كاهن آريسيا حامل هذا اللقب. وربما نجده قريباً من وطننا.

الفصل التاسع
عبادة الأشجار

1ـ أرواح الأشجار

لعبت عبادة الأشجار دوراً مهماً في التاريخ الديني عند العرق الآري في أوروبا. يبدو أن هذا الدور هو نتيجة طبيعية لأن أوروبا كانت مغطاة بغابات هائلة ربما منذ تكون الأرض. وكانت تبدو المناطق الجرداء وكأنها جزر صغيرة في محيط من الخضرة. امتدت الغابات من العصر الهرسيني إلى القرن الأول قبل الميلاد من الراين باتجاه الشرق وإلى مسافة غير معروفة وكان يمشي فيها الألمان شهرين متتاليين دون الوصول إلى نهاية. وزارها الأمبراطور جوليان بعد أربعة قرون فأوقعت الوحشة والرهبة في نفسه الحساسة. وأعلن أنه لم ير مثلها في الأمبراطورية الرومانية. مازالت غابات كنت وسوري وساسيكس بقايا من غابة أنديريدا التي غطت يوماً جنوب شرق الجزيرة بالكامل. ويبدو أنها امتدت غرباً حتى اتصلت بغابة أخرى امتدت من هامبشاير إلى ديفون. وفي عهد هنري الثاني كان المواطنون يصطادون الثور والخنزير البري في أدغال هامبستيد. وحتى في عهد تلانتاجينيت الذي أتى لاحقاً فبلغ عدد الغابات الملكية ثماني وستين غابة. ومنذ عهد أردين وحتى العصور الحديثة قيل أن السنجاب كان يقفز من شجرة إلى شجرة على طول وروكشاير كلها. وأظهرت التنقيبات في عدد كبير من القرى في وادي بو أن روما تأسست وكبرت في شمال إيطاليا على غابات كثيفة من شجر الدردار والكستناء وخاصة السنديان. يؤكد التاريخ ما قاله علماء أصل الإنسان وتطوره لأن الكتاب الكلاسيكيين أشاروا مراراً إلى الغابات الإيطالية التي اختفت الآن. وحتى القرن الرابع قبل الميلاد كانت روما منفصلة عن أتروريا الوسطى وسيمينيلن الموحشة والتي شبهها ليفي بغابات ألمانيا. وحسب المؤرخ الروماني لم يخترق قط تاجر قفارها الخالية عبر الطرقات،

واعتُبر عمل القائد الروماني بطولياً جريئاً لأنه – وبعد إرسال مستَطلعين ليكتشفوا تعقيداتها – قاد جيشه في الغابة مخترقاً سلاسل جبالها ومطلاً من الأعلى على حقول إتروريا الغنية. مازالت غابات الإغريق الجميلة من السنديان والصنوبر وأشجار أخرى تمتد على طول سفوح جبال أركاديا العالية، ومازالت تزركش بخضرتها الحلقوم العميق الذي يتسابق فيه لادون للانضمام إلى ألفيوس المقدس وظلت حتى بضع سنوات خلت تنعكس صورتهم على المياه الزرقاء الداكنة في بحيرة فينوس المنعزلة، لكن هذا كله ليس إلا عينات من الغابات التي غطت المساحات الشاسعة في العصر القديم والتي ربما جسَّرت المسافة بين شبه الجزيرة الإغريقية من البحر إلى البحر في غابر الأيام.

رأى غريم أن العبارة التيوتونية **معبد** يمكن أن يكون المقصود منها الحرم الألماني القديم وهو عبارة عن غابة طبيعية. على كل حال، إن عبادة الأشجار مشهود لها عند العائلات الأوروبية ذات الأصل الآري. ومن المعروف أن عائلة درويد من قوم سلت يعبدون شجرة السنديان والكلمة التي يستخدمونها للتعبير عن **الحرم** هي نفسها كلمة **فسحة** وهي باللاتينية nemus (نيموس) أي غيضة أو فسحة في الغابة وهي التي استمرت في الاسم nemi وشاع الأيك المقدس بين الألمان القدامى ولم تنقرض عبادة الأشجار عند خلفهم حتى يومنا هذا. ونستطيع أن نستدل على جدية عبادة الأشجار من خلال الجزاء القاسي الذي يفرضه القانون الألماني القديم على من يقشر لحاء شجرة حية. إذ يقضي القانون بأن تُقطَع سرة كل من يقشر لحاء شجرة حية وتُسمَّر على الجزء المُقشَّر ثم يدور الجاني حول الشجرة حتى تطوق أحشاؤه جزعها. الهدف من الجزاء هو الاستعاضة عن اللحاء الميت بشئ حي مأخوذ من الجاني؛ أي حياة مقابل حياة، حياة الرجل مقابل حياة الشجرة. وكان في أبسالا، وهي العاصمة الدينية القديمة في السويد، غابة قُدِّست كل شجرة فيها. وعبد الأسلاف الوثنيون الشجرة والأيك. ولم يتنصرن الليتوانيون حتى القرن الرابع عشر ومازال بعضهم يعبد الشجر في ذكرى يوم تحولهم للنصرانية من كل سنة. بعضهم كان يقدِّس شجرة السنديان وبعضهم الآخر يقدس الأشجار الكبيرة الظليلة التي كانوا يتلقون منها الأجوبة الوحيية. يحتفظ بعضهم بغابات حول بيوتهم وقراهم ويعتبرون كسر أي غصن منها ذنباً. كانوا يعتقدون أن من يقطع غصناً من غابة

كهذه إما يموت فوراً أو يُصاب في بعض أعضائه. وهناك الكثير مما يثبت عبادة الأشجار عند الأغريق وفي إيطاليا. ففي حرم اسكولابيوس في كوس مثلاً، يمنع منعاً باتاً قطع شجر السرو وكل من يفعل تفرض عليه غرامة وقدرها ألف دراخما. وربما لم يكن هذا الشكل القديم للدين مصاناً في أي مكان آخر أكثر مما هو مُصان في المدن. ففي السوق وهو المركز الأكثر ازدحاماً في الحياة الرومانية ظلت شجرة التين المقدسة تُعبّد حتى أيام الأمبراطورية ونشر ذبولها ذعراً في أرجاء المدينة. وعلى منحدر هضبة بالاتاين كانت شجرة قرانيا تعتبر من أقدس الأشياء في روما. وعندما لاحظ عابر سبيل تدلي أوراق الشجرة دبَّ الصوت فسمع صراخه كل من في الطريق وسرعان ما احتشد الناس راكضين باضطراب من كل حدب و صوب ومعهم دلاء الماء وكأنهم كما قال بلوتارخ يسارعون إلى حريق.

وكانت القبائل ذات الأصول الفنلندية ـ الأوغريانية تقيم العبادة الوثنية في معظمها في الغابات المقدسة المحاطة بسياج. كانت هذه الغابات عبارة عن فسحة أو مساحة مقطوعة الأشجار تحيط بها بعض الأشجار التي كانت تُعلّق عليها الأضاحي. وفي مركز تلك الفسحة، على الأقل عند الفولغا، كانت الشجرة المقدسة التي تنعدم أمامها قيمة كل شيء حولها. يتجمع أمامها العابدون والكاهن، وعلى أسفلها تُذبح الأضاحي كما تعتبر أغصانها منبراً للوعظ. لاتقطع فيها الأشجار ولا تُكسر الأغصان كما تُمنع النساء من دخولها.

من الضروري البحث في تفاصيل الأفكار التي تعتمد عليها عبادة النباتات. بالنسبة للإنسان البدائي كان العالم كله حي، والأشجار ليست استثناءً للقاعدة. وكان يعتقد أنها تملك روحاً مثل التي يملكها، ويعاملها على هذا الأساس. وهذا ما كتبه النباتي القديم برفيري: " يقولون إن الإنسان البدائي كان إنساناً تعساً في حياته لأن خرافاته لم تقتصر على الحيوانات بل تعدتها إلى النباتات فكان يعتبر ذبح ثور أو خروف ذنباً أكبر من قطع شجرة التنوب أو السنديان لأن في تلك الأشجار تسكن أرواح أيضاً. " وكذلك يعتقد هنود الهيداتسا في أمريكا الشمالية أن كل شيء في الطبيعة له روحه أو بكلمة أفضل طيفه. يجب احترام هذه الأطياف لكن ليس بالسوية نفسها. فمثلاً، من المفترض أن طيف غابة القطن — وهي أعظم شجرة في في وادي ميسوري الأعلى ـ يمتلك ذكاءً يساعد الهنود في مشاريع معينة إذا ما

استُخدم بالشكل الصحيح؛ أما أطياف الشجيرات والأعشاب ليس لها أهمية كبيرة. وعندما يعلو وادي ميسوري بالفيضان ربيعاً يحمل معه جزءاً من ضفافه ويجرف بعض الأشجار الطويلة في مجراه، ويقال هنا أن روح الأشجار تبكي في حين تظل الجذور تتكمش بالأرض حتى يسقط الجذع في النهر. كان الهنود يعتبرون قطع الأشجار العملاقة خطأً كبيراً وكلما احتاجوا لجذع شجرة كبيرة كانوا يلجؤون لاستخدام جذع سقط من تلقاء نفسه. وحتى وقت قريب ظل المسنون السُذَّج يرون أن المصائب التي تنزل بالناس ما هي إلا من استهتارهم بحقوق الغابات الحية. وكان قوم أيروكيواس يعتقدون أن كل جنس من الأشجار والشجيرات والأعشاب له روحه الخاصة به. فجرت العادة عندهم أن يقدموا الشكر لهذه الأرواح. ويتخيل وانيكا في أفريقيا الشرقية أن كل شجرة وخصوصاً شجرة الكاكاو لها روحها؛ " يعتبر تدمير شجرة الكاكاو مساوياً لجريمة قتل الأم على يد إبنها لأن تلك الشجرة تعطيهم الحياة والغذاء كما تفعل الأم." أما رهبان سيامي ـ معتقدين أن للشجرة روحاً في كل مكان وأن تدمير أي شئ هو نزع الروح منه – فلا يقصفون غصناً واحداً. تماماً كما يحجمون عن كسر ذراع شخص برئ. " هؤلاء الرهبان هم طبعاً بوذيون. لكن مذهب الأرواحية البوذي ليس نظرية فلسفية. إنها مجرد عقيدة بدائية تجسد نظام الدين التاريخي. والإفتراض الذي أتى به بينفي وآخرون كثيرون الذين يعتبرون نظريات الأرواحية وتيار التقمص الشائع في أوساط الشعوب الآسيوية البسيطة قد اشتُقُّوا من البوذية إنما هو عكس للحقائق.

أحياناً هناك فقط نوع معين من الأشجار تسكن فيها الأرواح. ففي غرابالج في دالماشيا يقال إن أشجار الزان والسنديان العظيمة وأشجار أخرى تحتوي على أطياف أو أرواح. وأي شخص يقطع واحدة منها لابد أن يموت في المنطقة نفسها أو على الأقل يعيش بقية حياته عاجزاً. وإذا ما تخوف حطّابٌ من أن يكون قد قطع شجرة من هذا النوع، يلجأ إلى قطع رأس دجاجة حية على أسفل الشجرة مستخدماً الفأس نفسه الذي قطع فيه الشجرة. هذا التصرف يحميه من الضرر حتى لو كانت الشجرة من النوع الحي. كما يُنظَر إلى شجرة القبك، في أفريقيا الغربية من السنغال إلى النيجر والتي تعلو بجذعها الهائل إلى ارتفاع شاهق فوق بقية أشجار الغابة، ينظر بإجلال ويعتقد أنها مسكن الإله أو الروح. ويعتقد متكلمو إيويس في

ساحل العبيد أن الإله يسكن هذه الشجرة العملاقة في الغابة ويحمل اسم هانتين. الأشجار التي يسكنها الإله - والأمر لا يقتصر على أشجار القبك المشرَّفة - يقومون بإحاطتها بزنار من أوراق النخيل؛ كما تُربط إلى جذعها أضاحٍ من الطيور وأحياناً من البشر أو توضع الأضاحي على أسفلها. لايمكن بأي شكل من الأشكال قطع أو إيذاء أي شجرة محاطة بزنار أوراق النخيل. وكذلك أشجار القبك التي لا يُعتقد أن فيها هانتين، ولايمكن قطعها إلا إذا قدم الحطاب أضحية من الطيور أو زيت النخيل ليطهر نفسه من الدنس المفترض. ويعتبر قطعها بدون أضحية اعتداءً عقوبته الموت. وفي جبال الكانغرا في البنجاب اعتادوا على التضحية بفتاة لشجرة الأرز سنوياً، ويتناوب أهل القرية على تقديم هذه الأضحية. ولم تُقطع الشجرة إلا منذ بضع سنوات.

وإذا كانت الشجرة حية هذا يعني أنها حساسة ويشكل قطعها عملية جراحية دقيقة يجب أن تؤدَّى بالعناية الممكنة حرصاً على شعور الشجرة التي يمكن أن تعود وتمزق الجراح المهمل. وعندما تُقطع شجرة السنديان يطلقون نوعاً من الصراخ والأنين يُسمع على بعد ميلٍ وكأنه نواح روحها الحارسة. أما قوم أوجيبوي فلايقطعون الشجرة الحية أو الخضراء كي لا تتعرض للألم ويدعي بعض الأطباء أنهم يسمعون عويل الشجرة تحت الفأس. لقد وَرَدَ صراخ الشجر من الألم والسخط عندما تقطع أو تحرق في الكتب الصينية وحتى في كتب التاريخ العادية. ومازال بعض الفلاحين المسنين يعتقدون أن الأشجار حية ولا يسمحون لأحد أن يجرح لحاءها دون سبب وجيه؛ لأنهم سمعوا من آبائهم أنها تتألم من الجرح تماماً كما يشعر الإنسان عندما يُجرَح. وعندما يقطعون شجرة يطلبون منها المغفرة. ويُقال إنه في بالاتينات العليا مازال الحطابون يطلبون المغفرة من الشجرة الجميلة القوية قبل قطعها. وفي جاركينو يتوسل الحطاب مغفرة الشجرة التي يقطعها. وعندما يقطع الإلوكان في لوزون الأشجار في الغابة البرية أو في الجبال، يتلون الشعر الذي معناه: "لا تنزعجي ياصديقتي، فنحن نقطع ما أُمِرنا بقطعه." يفعلون هذا كيلا يجلبوا لأنفسهم حقد الأرواح التي تعيش في تلك الشجرة فيصبحوا عرضة لانتقامها بالتسبب بمرض عضال أو أذية وحشية. أما قوم باسوكا في أفريقيا الوسطى فيعتقدون أنه عندما يقطع أحدهم شجرة ما تقوم الروح الغاضبة التي تسكنها بالتسبب بالموت

لرب عائلته. وتفادياً لهذه الكارثة يلجؤون لاستشارة طبيب قبل قطعها. إذا أعطاهم الخبير الإذن لمتابعة عملهم يقدِّم الحطّاب طيراً أو عنزة للشجرة وعلى الفور يضربها ضربة الفأس الأولى، ويضع فمه على الثلم الذي أحدثه ويمص بعضاً من نسغها. بهذه الطريقة يقيم بينه وبينها أُخوَّة تماماً كما يفعل شخصان يتآخيان خلال رَضع أحدهما من دم الآخر. بعد ذلك يصبح قادراً على قطع أخته الشجرة وهو مُحصَّن.

أما أرواح الخضار فلا تُعامَل بالإحترام نفسه. وإذا لم تنفع المعاملة الحسنة والكلمة الطيبة مع الخضار يلجأ الناس إلى إجراءات أقسى. هناك شجرة في جبال إنديز الشرقية تسمى ديورايان وهي ذات ساق ناعم وطويل يرتفع حتى ثمانين أو تسعين قدماً دون تفرع أي أغصان منه. وتحمل هذه الشجرة ثمرة لذيذة الطعم كريهة الرائحة. ويزرعها الماليزيون لأجل ثمرها ويقومون بطقوس معينة بهدف حثها على إخراج خصوبتها. وبالقرب من جوغرا في سيلانغور هناك غابة من أشجار ديورايان يتجمع عندها أهالي القرية في يوم اختاروه خصيصاً لهذا الغرض. ويأخذ ساحر القرية بلطة ويضرب بعنف عدة مرات على جذع أقل الأشجار خصوبة. ويقول: "والآن هل تحملين ثمراً أم لا؟ إن لم تفعلي سأقطعك." وتجيب الشجرة على لسان رجل آخر تسلق شجرة مانغوستين لأنه لايمكن تسلق شجرة ديورايان: " نعم سأحمل ثمراً؛ أرجوك لا تقطعني." وكذلك في اليابان وكي يجعلوا الأشجار تثمر يذهب رجلان إلى البستان. يصعد أحدهما الشجرة ويقف الآخر أمامها ومعه فأس. يسألها حامل الفأس إن كانت ستحمل ثمراً السنة القادمة ويهددها بالقطع إن لم تفعل. ويجيبه الرجل الآخر من بين الأغصان بالنيابة عنها أنها ستحمل بوفرة. يبدو لنا هذا النوع من البستنة غريباً لكن له ما يساويه في أوروبا. في عشية الميلاد يلوح الكثير من فلاحي سلافيا الجنوبية وبلغاريا بفؤوسهم مهددين الشجرة المثمرة العقيمة بينما يتشفع رجل آخر للشجرة المُهَدَّدة قائلاً: " لاتقطعها، ستحمل ثمراً عما قريب." يلوح الفأس ثلاث مرات وكذلك يمنع الشفيع الضربات الموشكة باستعطافه. بعد ذلك لابد من أن تحمل الشجرة ثماراً في السنة القادمة.

إن فكرة كون النباتات والأشجار كائنات حية جعلت الإنسان يتعامل معها على أنها ذكر وأنثى يتزاوجان بالفعل وليس بالمعنى البلاغي أو الشعري للكلمة. ليست الفكرة تصورية محضة لأن النباتات مثل الحيوانات لها جنسها وتتكاثر

بالتقاء عنصري الذكر والأنثى. كقاعدة عامة، عند الحيوانات الراقية تنفصل الأعضاء الذكرية عن الأنثوية بالكامل في حين يكون الذكر والأنثى في الفرد نفسه من الفصيلة نفسها في معظم النباتات. ليست هذه القاعدة شاملة ففي بعض الأنواع ينفصل ذكر النبات عن الأنثى. لاحظ بعض البدائيين هذا الفصل لأنه كما قال ماوريس: " عرف البدائيون جنس الشجرة وأعطوا اسماً خاصاً للأنثى وآخر للذكر في بعض الأشجار." عرف القدامى الفرق بين أنثى نخيل التمر وذكره وقاموا بتخصيبها بشكل اصطناعي من خلال هز غصن فيه غبار طلع من النخلة الذكر فوق زهر الأنثى، ويتم هذا التخصيب في الربيع. ويسمي وثيو هاران الشهر الذي يُخَصَّب فيه **شهر التمر** ويحتفلون في هذا الشهر بمهرجان زواج جميع الآلهة ذكوراً وإناثاً. خلافاً لزواج النخيل المثمر والحقيقي، يلعب زواج النباتات المزيف والعقيم دوراً في الخرافة الهندوسية. مثال على ذلك هو منع الهندوسي أو زوجته من أن يتذوقا ثمرة المانغو من بستان زرعه، حتى يزوِّج رسمياً إحدى شجراته كعريس من شجرة أنثى كعروس من التمر الهندي، ولابد أن تكون قريبة من بستانه وإذا لم يجد شجرة تمر هندي كعروس يمكن للياسمينة أن تفي بالغرض. وليست تكاليف الزواج سهلة لأنه كلما حضر عدد أكبر من البراهمانيين هذا الاحتفال كلما حقق صاحب البستان مجداً أعظم. ومن المعروف أن العائلة تبيع مالديها من ذهب وحلي وتستدين ماتستطيع استدانته كي تقوم بتزويج شجرة مانغو من ياسمينةٍ بكامل بهرجات الطقس. اعتاد الفلاحون الألمان في عشية عيد ميلاد المسيح أن يربطوا الأشجار المثمرة ببعضها بعضاً بحبل من القش لتزيد من ثمرها، ويقولون أن الأشجار الآن قد تزوجت.

في مولوكاس يعاملون شجرة الكلوف عندما تزهر معاملة المرأة الحامل. فلا يصدرون ضجيجاً قربها ولا يمررون بقربها نوراً أو ناراً في الليل، ولايقترب أحد منها وقبعته على رأسه، فعلى الجميع أن يحسر الرأس بحضرة هذه الشجرة. وإن لم تُتَّبَع هذه الاحتياطات تحجم الشجرة عن حمل ثمارها وتلقي بها بأسرع مايمكن مثل المرأة التي تجهض بغير وقتها لأنه أصابها الذعر في في في أثناء حملها. لذلك يتعاملون في الشرق مع زراعة الأرز باعتبارات المرأة الولّادة نفسها. ففي أمبويما عندما يبرعم

الأرز يقول الناس أنه حامل ولا يطلقون النار أو يصدرون ضجيجاً قرب الحقل خوفاً من إزعاج الأرز وإجهاضه فيغدو المحصول قشاً دون حب.

أحياناً يُعتقد أن أرواح الموتى تسكن الأشجار. لذلك تَعتبر قبيلة ديري من أستراليا الوسطى أشجار معينة مقدسة جداً تعتبرها تجسيداً لآبائها فيتكلمون معها بإجلال ويحرصون على ألّا تُقطع أو تُحرق. وإذا طلب منهم المستعمرون قطعها يحتجون بعنف ضد هذا مؤكدين أنهم يفقدون كل حظ لهم إذا ما فعلوا ذلك ويعاقبون من قبل أسلافهم. ويعتقد بعض سكان جزيرة الفليبين أن أرواح أسلافهم موجودة في أشجار معينة يصونونها لهذا السبب. وإذا ما أُجبروا على قطع إحداها يبررون أنفسهم تجاهها قائلين إن الكاهن هو الذي جعلهم يفعلون هذا. وتفضّل الأرواح أخذ مسكن لها في الأشجار العالية الراسخة ذات الأغصان المنتشرة. وعندما تصدر أوراقها حفيفاً مع النسيم يتصور السكان الأصليون أنها أصوات الأرواح فلا يمرون قرب هذه الأشجار دون انحناءة احترام طالبين العفو من الروح التي يقلقون مضجعها.

وفي كوريا تأخذ مسكناً لها في الأشجار أرواحُ الناس الذين ماتوا في الوباء وأرواح النساء اللواتي قضين في أثناء وضعهن. تُقَدَّم لهذه الأرواح عطايا الكعك والخمر ولحم الخنزير وتوضع على كومة من الحجارة تحت الأشجار. انتشرت عادةٌ في الصين منذ زمن بعيد لا أحد يذكر بدايتها وهي زراعة الأشجار على القبور لتقوية أرواح المدفونين تحت التراب ولحماية أجسادهم من التفسخ؛ ولأنهم يعتبرون أشجار السرو والصنوبر أكثر حيوية من باقي الأشجار كونها دائمة الخضرة اختاروها لتأدية هذا الغرض. لهذا السبب تنطبع الأشجار التي تنمو على القبور بهوية أرواح من رحلوا. وعند مياوكيا وهو عرق من الأصلاء في الصين الجنوبية والغربية تنتصب شجرة مقدسة على مدخل كل قرية من قراهم ويعتقد السكان أنها مسكونة بروح سلفهم الأول وهي التي تحكم مصيرهم. وأحياناً توجد غابة قرب القرية حيث تعاني الأشجار من الموت لدرجة أن أغصانها تعيق المرور، فلا يزيحها أحد حتى يأخذ الإذن من روحها وتقديم الأضحية لها. ولدى قوم مارافيس في جنوب أفريقيا تعتبر المقبرة مكاناً مقدساً لاتقطع فيها شجرة و لا يقتل فيها حيوان لأنه من المفترض أن كل شئ هناك مسكون بأرواح الموتى.

في معظم هذه الحالات إن لم يكن فيها كلها يُنظر إلى الروح على أنها مجسَّدة في الشجرة، تعيش فيها وتعاني وتموت معها. لكن هناك رأي آخر وربما أتى لاحقاً وهو أن الشجرة ليست الجسد ولكنها مجرد مسكن لروح الشجرة التي تستطيع أن تخرج منها وتعود إليها متى شاءت. يعتقد سكان سياو وهي جزيرة في الهند الشرقية، أن أرواح أجمات معينة تعيش في الغابة أو في أشجار منعزلة عظيمة. وعند اكتمال القمر تخرج الروح من مخبئها وتطوف في المكان. لها رأس كبير وأذرع وأرجل طويلة وجسم ثقيل. ولاسترضاء أرواح الغابة يأتي الناس بالعطايا من الطعام والطيور والماعز وما شابه ذلك إلى المكان الذي يفترضون أنه مسكون. ويعتقد شعب نياس أنه عندما تموت الشجرة تتحرر روحها وتصبح شريرة قادرة على قتل شجرة الكاكاو بمجرد إلقاء الضوء على أغصانها وتستطيع أن تسبب الموت لأطفال المنزل عندما تقوِّض أحد العواميد التي تدعم ذلك المنزل. وهم أيضاً يؤيدون الرأي القائلِ بأن أشجار معينة مسكونة على الدوام بعفاريت جوالة تتحرر عندما يصيب الشجرة أذى وتنطلق لتنفيذ مهمات ضارة. لذلك يحترم الناس هذه الأشجار ويحرصون على عدم قطعها.

هناك الكثير من الطقوس المتبعة التي تعتمد في أساسها على إيمانهم بأن الأرواح تسكن الأشجار وهي قادرة على مغادرتها برغبة منها عندما يحتاج الأمر. لذلك يناشد سكان جزيرة بيلو روح الشجرة التي يريدون قطعها أن تغادر وتسكن في شجرة أخرى. وعندما يرغب الزنجي في ساحل العبيد أن يقطع شجرة أشورين ويعرف أنه لايستطيع فعل ذلك مادامت تسكنها الروح، يلجأ للمخادعة فيضع على الأرض القليل من زيت النخيل كطُعمٍ، وعندما تخرج الروح غافلةً عن هذه الحيلة، كي تحصل مذاق زيت النخيل الطيب، يسارع الزنجي ويقطع مسكنها السابق. وعندما يرغب توبونكوس في سيليبيس في قطع أشجار قطعة أرض ليزرعوا عليها الأرز يبنون بيتاً صغيراً ويضعون فيه بعض الملابس الصغيرة والطعام والذهب. ثم يدعون أرواح الغابة جميعاً ويقدمون لها البيت الصغير بمحتوياته ويناشدونها الخروج من المنطقة. بعد ذلك يصبحون في مأمن من أي أذى. أما توموري وهم قبيلة أخرى في سيليبيس فيضعون مضغة من القرنفل عند أسفل الشجرة التي يريدون قطعها ويدعون الروح المقيمة في الشجرة أن تغير مسكنها كما يضعون سُلَّماً صغيراً على

الجذع كي تنزل بأمان وراحة. أما قوم مانديلنغ في سومطرة فيضعون اللوم في هذه الأفعال الآثمة على السلطات الألمانية. لذلك عندما يشق رجل طريقاً في الغابة ويضطر لقطع شجرة طويلة تسد طريقه، لايضع فأساً عليها قبل أن يقول: " يا أيتها الروح التي تسكن هذه الشجرة، لاتأخذي قطعي لمسكنك على محمل السوء لأن فعلي هذا ليس رغبة مني بل هو أمر من الحاكم." وعندما يجرِّد بقعة معينة من الشجر بقصد الاستصلاح، من الضروري أن يتوصل إلى تسوية مرشية مع أرواح الغابة المقيمة هناك قبل هدم مسكنها المورق. وللوصول لهذا الغرض يذهب إلى منتصف البقعة وينحني متظاهراً أنه يأخذ رسالة من الأرض. ثم يفتح قطعة من الورق ويقرأ بصوت مرتفع الرسالةَ المزعومة الموجهة من الحكومة الألمانية والتي تفرض عليه قطع الأشجار في البقعة دون تأخير. وبعد ذلك يقول:" هل تسمعين هذا أيتها الأرواح، علي القطع في الحال، أم تريدينني أن أُشنق؟"

حتى عندما تُقطع الأشجار وتتحول إلى ألواح خشبية وتُستخدم لبناء منزل يظل احتمال وجود روح الغابة قائماً فيها وبالتالي يسترضيها بعض الناس قبل أن يشغلوا المنزل. عندما يصبح المنزل جاهزاً للسكن يذبح قوم تروجان في سيليبيس عنزة أو خنزيراً أوجاموساً ويمسحون جميع الأشياء الخشبية في المنزل بدمائها. وإذا كان المنزل لوبو أو منزل روحي يذبحون طيراً أو كلباً على حافة السطح ويجعلون الدم ينزل من الجانبين. أما قوم تونابو الأكثر همجية فيذبحون في هذه الحالة كائناً بشرياً على حافة السطح. فهذه الأضحية على سطح اللوبو أو المعبد تماثل في هدفها مسح الدم على الأشياء المصنوعة من الخشب في المنزل العادي. الهدف من كل هذا هو استرضاء أرواح الغابة التي يمكن أن تبقى في ألواح الخشب؛ وبهذا يجعلون مزاجها جيداً فلا تؤذي من يسكن المنزل. ولأسباب مماثلة يخاف سكان سيليبيس ومولوكاس من زرع عمود أعلاه سافله عندما يبنون منزلاً لأن روح الغابة التي يمكن أن تكون في الخشب سترد الإهانة وتعود على سكان المنزل بالمرض. يؤيد قوم كاياس في بورنو الرأي القائل بأن أرواح الأشجار تقف موقفاً صلباً من قضية الشرف وترد الإزعاج والأذية لمن يؤذيها. لذلك وعندما يبنون منزلاً يضطرون في أثناء إنشائه إلى معاملة الكثير من الأشجار معاملة سيئة ويقومون بمسك فترة كفَّارة

مدتها سنة يحجمون خلالها عن الكثير من الأشياء مثل قتل الدببة والقطط البرية والأفاعي.

2ـ قوى أرواح الأشجار الخيرة

عندما يُنظَر للشجرة على أنها أكثر من مجرد جسم لروحها بل مسكن تستطيع أن تغادره متى شاءت، يكون الإنسان قد حقق تطوراً هاماً بالفكر الديني. الأرواحية تتحول إلى تعدد الآلهة. أي بدلاً من اعتبار كل شجرة كائناً حياً واعياً، يراها الإنسان الآن مجرد كتلة ميتة جامدة مسكونة لوقت طويل أو قصير من قبل كائن خارق يستطيع الانتقال بحرية من شجرة إلى أخرى وبهذا يتمتع بملكية معينة للأشجار أو بسيادة عليها، ولم يعد ذلك الكائن روح الشجرة بل أصبح إله الغابة. وحال انفصال روح الشجرة بشكل ما عن شجرة بعينها، بدأت بتغيير شكلها لتتحل جسم إنسان بمقتضى الميل العام في الفكر القديم إلى إِلباس الكائنات الروحية المجردة شكلاً بشرياً محسوساً. لذلك نرى آلهة الأجمة مصورة على شكل بشر في الفن الكلاسيكي، وما يميز تلك الآلهة هو غصن أو رمز مشابه. لكن تغير الشكل هذا لم يؤثر في الخواص الجوهرية لروح الشجرة. أي أن السلطة التي مارستها كروح شجرة متجسدة في شجرة، مازالت تمارسها وهي إلهاً للغابة. وهذا ما أود إثباته بالتفصيل الآن. سأبين أولاً أن الأشجار على اعتبارها كائنات حية تتمتع بقوة استهطال المطر واستسطاع الشمس واستكثار القطيع والأسراب، واستيلاد النساء بسهولة، وثانياً أن القوى نفسها تُعزى لآلهة الأشجار وتُفهم على أنها كائنات تجسيدية أي تحمل صفات بشرية أو أنها فعلاً متجسدة في أُناس أحياء.

أولاً، من المعتقد أن الأشجار تعطي المطر وأشعة الشمس. عندما كان المبعوث التبشيري جيوم من براغ يقنع الليتوانيين الوثنيين بقطع أشجارهم المقدسة، ذهب الكثير من النساء إلى أمير ليتوانيا يتوسلنه أن يمنع ذلك قائلات إنه يدمر بيت الإله الذي كانوا يحصلون منه على المطر وأشعة الشمس. أما قوم مانداري في آسام فيعتقدون أنه عند قطع الغابات المقدسة تُظهِر آلهة الأجمة استياءها بحبس المطر. ولكي يستهطلوا المطر يقوم سكان مونيو وهي قرية قريبة من مقاطعة ساغاينغ في

بورما العليا باختيار أكبر شجرة تمر هندي قريبة من القرية ويسمونها موطن الروح نات التي تتحكم بالمطر. ثم يقدمون الخبز وجوز الكاكاو وموز الجنة وطيوراً لروح القرية الحارسة التي تعطي المطر ويصلون قائلين: " يا أيها الإله نات ارحمنا نحن المساكين الفانين، ولا تحبس عنا المطر. وبما أن عطايانا خرجت عن طيب خاطر، دع المطر يهطل ليل نهار." بعد ذلك تتم إراقة الدماء على شرف روح شجرة تمر الهند. ثم تأتي ثلاث نساء ترتدين ملابس جميلة وقلادات وأقراط وتغنين أغنية المطر.

وثانياً، أرواح الأشجار هي التي تجعل المحصول ينمو. ففي كل قرية من قرى مونداريس هناك غابة مقدسة، وتعتبر آلهة الغابات مسؤولة عن المحاصيل وتتلقى تشريفات خاصة في الإحتفالات الزراعية العظيمة." انتشرت عند زنوج ساحل الذهب عادة الأضحية تحت أشجار معينة طويلة يعتقدون أنه إن قُطِعت واحدة منها تتلاشى ثمار الأرض كلها. كما يرقص قوم غالاس أزواجاً حول أشجار مقدسة ويصلون لأجل المحصول الجيد. في كل زوج امرأة ورجل يمسك كل منهما عصاة من طرفها. وتحت إبطيهما يحملان الحنطة الخضراء أو العشب. ويضع فلاحو السويد غصناً مورقاً على كل ثلم في حقول الحنطة معتقدين أن هذا يؤمِّن محصولاً وفيراً. وتظهر الفكرة نفسها في العادة الألمانية والفرنسية في عيد الحصاد في أيار. وهي عبارة عن غصن كبير أو شجرة ضخمة يجلبونها إلى القرية مع آخر عربة تأتي من الحصاد في الحقول وتُثبَّت على سطح منزل المزرعة أو مخزن الحبوب وتبقى هناك مدة سنة. وأثبت مانهاردت أن هذا الغصن أو الشجرة يجسد روح الأشجار وهو روح الخضرة بشكل عام وله أثر إخصابي متجدد خصوصاً على الحنطة. لذلك في سوابيا يرتبط عيد الحصاد بآخر سنابل الحنطة فتترك واقفة في الحقل؛ وفي أمكنة أخرى تُزرع شجرة في حقل الحنطة وتُربَط إلى جذعها آخر حزمة قُطِعت.

وثالثاً، روح الشجرة هي التي تجعل القطعان تتكاثر وهي التي تبارك للنساء في ذريتهن. في شمال الهند هناك شجرة مقدسة تُدعى أمبليكا أوفيسيناليس، . في الحادي عشر من كل شباط تُراق الدماء على أسفل الشجرة ويُربَط خيط أحمر أو أصفر حول جذعها وتُقدَّم لها الصلوات لأجل خصوبة النساء والحيوان والمحصول. وفي الهند الشمالية تُعتبر جوزة الكاكاو إحدى أقدس الثمار وتُدعى سريفالا أو ثمرة سْرِي وهي إلهة الثمار. إنها رمز الخصب وتُقدَّم في مُقامات في جميع أنحاء الهند العليا

للنساء اللواتي يرغبن بأن يصبحن أمهات. وفي مدينة كوا قرب كالابار القديمة اعتادوا على زرع شجرة نخيل تؤمّن الحمل للمرأة التي تأكل ثمرة من أغصانها. وفي أوروبا من المفترض أن شجرة أيار تمتلك قوى مماثلة بالتأثير على النساء والماشية. لذلك في بعض أنحاء ألمانيا وفي الأول من أيار ينصب الفلاحون شجرة أيار أو أغصان أيار عند أبواب إسطبلاتهم وزرائبهم، غصناً لكل حصان أو بقرة. ويعتقدون أن هذا يجعل البقرة تدر حليباً أكثر. كما بلغنا أن الآيرلنديين " يتصورون أن تعليق غصن شجرة أخضر في عيد أيار على البيت يعطي الكثير من الحليب ذلك الصيف."

وفي الثاني من تموز ينصب بعض من أهالي ويند شجرة سنديان في وسط القرية ويثبتون على أعلاها ديكاً حديدياً. يرقصون ويسوقون الماشية حولها كي تجعلها تزدهر. أما السيركاس فيعتبرون شجرة الإجاص حامية للماشية. لذلك يقطعون شجرة إجاص صغيرة في الغابة ويقطعون أغصانها ويحملونها إلى المنزل وتُعبَد كإله. في كل بيت تقريباً واحدة من أشجار الإجاص هذه. وفي يوم الاحتفال في الخريف تُحمَل الشجرة إلى المنزل ضمن طقس عظيم فيه الموسيقا وصرخات الفرح والبهجة من سكان المنزل الذين يمدحون وصولها بالسلامة. تُغطّى بالشموع ويربط إلى أعلاها الجبن. ويلتفون حولها يأكلون ويشربون ويغنون. ثم يودّعونها ويعيدونها إلى الساحة حيث تبقى بقية أيام السنة مسنودة إلى الحائط دون أن يعيرها أحد أي نوع من الاحترام.

وعند قبيلة توهو من ماوريس" تُعزى قوة جعل النساء خصبة إلى الأشجار. وترتبط هذه الأشجار بالحبل السري لسلفهم الأسطوري وقد ظل الحبل السري لجميع الأطفال يُعلّق فوقها إلى وقت قريب جداً. على المرأة العاقر أن تعانق مثل هذه الشجرة بذراعيها فتحمل بذكر أو بأنثى حسب معانقتها إياها من جهة الشرق أو الغرب. " وربما تعود العادة الأوربية الشائعة وهي وضع غصن أخضر في عيد أيار أمام أو على منزل المحبوبة إلى أصلها في الإيمان بقوة روح الشجرة الإخصابية. وفي بعض أنحاء بافاريا توضع مثل هذه الأغصان عند بيوت المتزوجين الجدد ولا يكفّون عن هذا حتى تقترب الزوجة من الوضع لأنهم في هذه المرحلة يقولون إن " الزوج نصب شجيرة لنفسه." وعند السلوفانيين الجنوبيين تضع المرأة العاقر التي تود الإنجاب قميصاً داخلياً جديداً على شجرة مثمرة عشية عيد القديس جورج. وفي الصباح

التالي وقبل شروق الشمس تتفحص الرداء فإذا وجدت بعض الكائنات الحية قد زحفت إليه فإنها تأمل في تحقيق رغبتها خلال سنة. ثم ترتدي الرداء وكلها ثقة بأنها ستثمر كالشجرة التي بقي عليها الرداء ليلة كاملة. وعند قوم كاراكيرغيس تتدحرج النسوة العاقرات على الأرض تحت شجرة تفاح مثمرة لتحصلن على ذرية. وأخيراً، تعزى الولادة السهلة عند النساء إلى الأشجار في السويد وأفريقيا. ففي بعض مناطق السويد كان هناك سابقاً مايسمى بالشجرة الحارسة (الليمون أو الدردار أو شجرة البق) بالقرب من كل مزرعة. لا يقطف أحد ورقة من الشجرة المقدسة ومن يؤذيها عقوبته الحظ السيء والمرض. اعتادت المرأة من النسوة الحاملات أن تتمسك بالشجرة بذراعيها لكي تسهل عليها الولادة. وعند بعض القبائل الزنجية في منطقة الكونغو تصنع النساء الحاملات لأنفسهن رداءً من لحاء شجرة مقدسة لأنهن يعتقدن أن هذه الشجرة تنجيهن من الخطر المرافق للوضع. وما قصة تمسك ليتو بشجرة نخيل وبشجرة زيتون أو شجرتين من الغار عندما وضعت التوأمين الإلهيين أبولو وأرتيميس إلا إشارة إلى أيمان الإغريقيين بفعالية أشجار معينة لتسهيل الولادة.

الفصل العاشر
الآثار الباقية من عبادة الأشجار في أوروبا المعاصرة

من الدراسة السابقة عن الصفات الخيرة التي تُعزى لأرواح الأشجار نستطيع أن نتعرف بسهولة على سبب انتشار عادات شجرة أيار أو صارية نوار التي انتشرت في احتفالات الفلاحين في أوروبا. في الربيع أو أوائل الصيف أو حتى في عيد منتصف الصيف، كانت ومازالت في أوروبا تنتشر عادة الخروج إلى الغابات و قطع شجرة وجلبها إلى القرية حيث تُنصَب وسط الجموع المبتهجة. أو أن الناس يقطعون أغصاناً ويربطونها على المنازل. الهدف من هذه العادات هو جلب بركة الأشجار إلى القرية والمنازل. ومن هنا أتت عادة زرع شجرة أيار أمام المنازل أو حمل شجرة أيار الخاصة بالقرية من باب إلى باب حتى تعم بركتها المنازل كلها. ومن بين الأمثلة الكثيرة التي تثبت هذا الموضوع اخترنا التالي.

في كتابه **وصف ويستميث** كتب هنري بيرس في عام 1682 يقول: " في عشية الفاتح من أيار تنصب كل عائلة أمام بيتها شجرة خضراء مكسوة بالورود الصفراء المتوفرة بكثرة في السهوب. وفي البلدان التي تكثر فيها الأخشاب ينصبون أشجار نخيل طويلة تظل تقريباً طوال السنة حتى يكاد الغريب يتخيل أن هذه الأشجار علامات على بائعي شراب الميزر وأن بيوتهم كانت بيوت ميزر." وفي نورثامبتونشاير اعتادوا غرس شجرة بطول عشرة إلى اثني عشر قدماً أمام كل بيت في يوم الفاتح من أيار حتى تبدو كأنها تنمو؛ وتُلقى عليها الورود وتتناثر حول الأبواب. "ومن بين العادات التي مازال أهالي الكورنوال يحتفظون بعادة تغطية أبوابهم وأروقتهم بأغصان القيقب والزعرور الخضراء في الفاتح من أيار ونصب الأشجار أو بقايا الأشجار أمام بيوتهم. "وفي شمال انكلترا شاعت سابقاً عادة يصحو فيها الشباب بعد منتصف الليل عند فجر الفاتح من أيار ويخرجون بالموسيقا والأبواق إلى الغابات حيث

يقصفون الأغصان ويصنعون باقات وتيجان من الورود. وبعد ذلك يعودون عند بزوغ الشمس ويربطون الأغصان المكسوة بالورود على أبواب ونوافذ المنازل. وفي ابينغدون في وركشاير يذهب الشباب في مجموعات في صباح الأول من أيار يغنون ترتيلة فرحة منها مايلي:

مازلنا نتجول طوال الليل

وجزءاً من هذا النهار

وها نحن نعود ثانيةً

ومعنا إكليل الفرح

لقد جئنا بإكليل الفرح إلى هنا

وها نحن نقف أمام بابكم

إنها بداية الإزهار الجميل

من شغل أيدي ربنا."

وفي مدينتي سافرون والدن وديبدين في إسكس تتجول فتيات صغيرات من باب إلى آخر في الأول من أيار وتغنين أغنية مطابقة للأغنية أعلاه تقريباً وهن يحملن أكاليل في منتصف كل منها دمية تلبس الأبيض. مازالت عادات كثيرة متبعة فعلاً في أنحاء متعددة من انكلترا. تأخذ الأكاليل بشكل عام شكل الدوائر المتداخلة بزاوية قائمة. وفي القرى في بعض أنحاء إيرلندا مازالت هذه العادة سارية إذ يكللون الدوائر بشجرة السُّمَّن وقطيفة المستنقع ويتدلى منها كرتان تغلفان أحياناً بورق الذهب والفضة ويُقال أنها تمثل أساساً الشمس والقمر.

وفي بعض قرى جبال فوزجيز وفي أول أحد من أيار تخرج الصبايا في مجموعات من منزل إلى آخر ويغنين أغنية مديح لأيار يذكرن فيها " الخبز والوجبة التي تأتي في أيار." فإذا أُعطين المال فإنهن يربطن غصناً أخضراً إلى الباب؛ وإذا رُفِضن يتمنين للعائلة أولاداً كثراً وقلة الخبز والطعام. وفي القسم الفرنسي من مايين يحمل بعض الصبية اسم ميلوتينز ويذهبون من مزرعة لأخرى في الأول من أيار ويغنون التراتيل التي يحصلون لقاءها على الشراب والمال؛ ويزرعون شجيرة صغيرة أو غصناً من شجرة. وبالقرب من سافين في ألساس يتجول الناس في مجموعات وهم يحملون

شجرة أيار. يرتدي أحدهم قميصاً أبيض ويصبغ وجهه بالأسود وتُحمل شجرة أيار الكبيرة أمامه ويحمل كل واحد من المجموعة شجيرة أصغر أيضاً. يحمل أحدهم سلة ضخمة يجمعون فيها البيض ولحم الخنزير المقدد وما شابه ذلك.

وفي الخميس الذي يسبق عيد أحد العنصرة " يخرج القرويون الروس إلى الغابة ويغنون الأغاني ويجدلون الأكاليل ويقطعون أشجار البتولا الصغيرة التي يلبسونها ملابس النساء ويزينونها بمزق وشرائط ملونة. ويأتي بعد ذلك الاحتفال الذي يأخذون في نهايته شجرة البتولا إلى منزل في القرية وهم يغنون و يرقصون رقصات الفرح وينصبونها في أحد المنازل حيث تبقى هناك ضيفةً مُعزَّزةً حتى عيد العنصرة. وخلال اليومين الفاصلين يقومون بزيارة المنزل حيث ينزل ضيفهم. لكن في اليوم الثالث أي في عيد العنصرة يأخذونها إلى النهر ويرمونها في مياهه." ثم يرمون وراءها أكاليلها. في هذه العادة الروسية يظهر تشخيص البتولا خلال إلباسها لباس المرأة أما رميها في النهر فهو على الأغلب سحر لأجل المطر.

وفي بعض أنحاء السويد ، عشية الأول من أيار يتجول الفتيان وهم يحملون حزماً من أغصان البتولا النضرة بورقها الكامل أو الجزئي. وعلى رأسهم عازف الكمان في القرية يجولون بين البيوت وهم يغنون أغاني أيار التي تدور فكرتها حول الطقس الجميل والمحصول الوفير وتباريك دنيوية وروحانية. يحمل أحدهم سلة يجمع فيها الهدايا من بيضٍ وما شابه. إذا ما استُقبلوا استقبالاً جيداً فإنهم يغرزون غصناً مورقاً على سقف بوابة المنزل. أما في السويد فتُقام مثل هذه الطقوس في منتصف الصيف. وفي عيد القديس يوحنا (الثالث والعشرون من حزيران) تُنَظّف البيوت بالكامل وتُزيَّن بزهور وأغصان خضراء. وتُزرع أشجار التنوب الصغيرة على الممشى إلى المنزل وفي أماكن أخرى حول الدار وغالباً ما تُزرع عرائش ظليلة في الحديقة. وفي ستوكهولم في هذا اليوم يُقام سوق الورق فتُعرض فيه للبيع آلاف الأعمدة بطول ستة إلى عشرة أقدام مزينة بالأوراق والزهور وقصاصات الورق الملونة وصدفات البيض المذهبة المربوطة بخيوط على عيدان القصب. وتُضرم النار على قمم الجبال ويرقص الناس حولها ويقفزون فوقها. لكن الحدث الأساسي في ذلك اليوم هو نصب عمود أيار وهو شجرة بيسية مستقيمة مجردة من الأغصان. تُوضع أحياناً قطع خشبية وأحياناً أقواس بشكل متعامد على العمود وتُزين بالأوراق والزهور وقصاصات من

أقمشة مختلفة وصدفات بيض مذهبة، ويوضع على رأس العمود دوَّارة أو علم." إن رفع العمود وتزيينه من قبل سيدات القرية هو قضية كبيرة في هذا الاحتفال فيتجمع حوله الناس من جميع أنحاء القرية ويرقصون حوله في حلقة كبيرة. وهناك عادات مماثلة تُقام في بعض أنحاء ألمانيا في منتصف الصيف. ففي جبال الهارتز العليا تُنصب شجرة تنوب مقشَّرة في العراء وتُزيَّن بالورود والبيوض الملونة بالأصفر والأحمر. ويرقص حولها الصغار صباحاً والكبار مساءً وفي بعض أنحاء بوهيميا يُنصَب أيضاً عمود منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا. يجلب الفتيان شجرة تنوب أو صنوبر طويلة من الغابة وينصبونها في مكان مرتفع ثم تزينها الفتيات بباقات صغيرة وأكاليل وأشرطة حمراء. وبعد ذلك يحرقونها.

لاحاجة هنا إلى أن نشرح بالتفصيل العادة التي سادت في أنحاء عديدة من أوروبا، انكلترا وفرنسا وألمانيا، وهي نصب شجرة أيار في عيد الفاتح من أيار، بل تكفي أمثلة قليلة. وصف الكاتب التطهيري فيليب ستابيز في كتابه **تحليل المفاسد** الذي نُشر لأول مرة في لندن عام 1583، وصف باستياء واضح كيف كانوا يأتون بعمود أيار في أيام الملكة بيس. يعطينا وصفه لمحة عن إنكلترا السعيدة في قديم الزمان:"استعداداً لأيار أو أحد العنصرة أو لأوقات أخرى يقوم الشباب والصبايا والكبار وزوجاتهم بالتسكع طوال الليل في الغابات والجبال وهم يمرحون ويعودون في الصباح ومعهم البتولا وأغصان الأشجار ليزينوا اجتماعاتهم، طبعاً لأنه سيحضر احتفالهم سيدٌ كبير يقوم بدور المراقب ويدير ألعابهم المسلية ورياضاتهم وهو تحديداً ساتان أمير الجبال. لكن أثمن ما يأتون به هو عمود أيار الذي يُعامل معاملة إجلال و إكبار. ويُلبسون عشرين أو أربعين نير لثيران الحراثة وعلى قرن كل ثور تشكيلة جميلة من الورود وتجر هذه الثيران العمود المكسو بزركشات من الورود إلى القرية ويتبع ثلاث مائة من الرجال والنساء والأطفال مسيره بتفان. وعندما يُرفع ترفرف في أعلاه المناديل والأعلام. ويفرشون الأرض حوله بالقش ويربطون أغصاناً خضراء حوله ويلعب حوله البهلوانيون والقواسون. وبعدها يرقصون حوله كما يرقص الوثنيون بخشوع حول أوثانهم. هذا هو النموذج الكامل إن لم يكن الواقع بذاته. وروى لنا شفاهياً أناس على قدر كبير من الشهرة أن أربعين أو ستين وربما مائة سيدة تذهبن إلى الغابة ليلاً وبالكاد يعود ثلثهن غير مدنسات.

في سوابيا يجلب الناس في الأول من أيار شجرة تنوب طويلة ويزينونها بالأشرطة وينصبونها في القرية ليرقص حولها الناس بمرح على أنغام الموسيقا. تبقى الشجرة خضراء على مدار السنة حتى تأتي الشجرة الجديدة في الأول من أيار القادم. وفي سكسونيا " لم يكتف الناس بإحضار الصيف بشكل رمزي (كملك أو ملكة) إلى القرية بل يجلبون الشجرة الحية الخضراء من الغابة إلى البيوت: إنها أشجار أيار أو أسبوع العنصرة التي ذُكِرت في الوثائق منذ القرن الثالث عشر. كان جلب الشجرة احتفالاً بحد ذاته إذ يذهب الناس إلى الغابة ليجلبوا شجرة أيار وأشجار صغيرة خاصةً التنوب والبتولا إلى القرية وينصبونها أمام بوابات المنازل أو إسطبلات الماشية أو في الغرف. وكما أشرنا سابقاً أن الشباب ينصبون مثل هذه الأشجار أمام بيوت عشيقاتهم. يُؤتى بهذه الأشجار المنزلية أو أشجار أيار بموكب مهيب إلى القرية وتُنصب في وسطها أو في سوق المدينة. ويقع الاختيار عليها برأي الجميع الذين يعطونها العناية الكاملة. غالباً ما تُعرَّى الشجرة من أغصانها وأوراقها فلايتركون منها إلا تاجها الذي تُعرَض عليه أنواع كثيرة من المؤونة مثل السجق والكعك والبيض بالإضافة إلى قطع القماش والأشرطة الملونة. يبذل الصغار كل جهدهم للحصول على هذه الأشياء كجوائز. وما العواميد الشحمية التي مازلنا نراها الآن في معارضنا إلا أثر باق عن عواميد أيار القديمة تلك. وشاع هناك سباق على الأقدام أو الأحصنة باتجاه شجرة أيار - تسلية في أحد العنصرة تجردت مع مرور الزمن من هدفها وبقيت كعادة شعبية محبوبة إلى يومنا هذا في أنحاء كثيرة من ألمانيا. وفي بوردو في الأول من أيار اعتاد أولاد كل حارة على إقامة عمود أيار في حارتهم والذي يزينونه بالأكاليل وبتاج كبير وعند كل مساء من ذلك الشهر يرقص الفتيان والفتيات ويغنون حول العمود. وحتى يومنا هذا مازالت أشجار أيار تُنصب في عيد أيار وتُزيَّن بالورود والأشرطة في كل ضيعة من منطقة بروفينس السعيدة. تحت تلك الأشجار يرتاح الكبار و يلهو الصغار.

من الواضح في كل هذه الحالات أن شجرة جديدة تُجلَب كل سنة. في إنكلترا كانت شجرة أيار في القرية شيئاً أساسياً لكنها تحولت فيما بعد إلى كونها دائمة ولا تُجدَّد كل سنة. بينما تجدد قرى بافاريا العليا عمود أيار كل ثلاث أو أربع أو خمس سنوات. إنه عبارة عن شجرة تنوب تُجلَب من الغابة وحولها الأكاليل والأعلام

والعبارات التي تزينها والجزء الأساسي فيها هو حزمة الرسوم النباتية الخضراء الداكنة التي توضع على قمتها لتذكرنا بأن ما نتعامل معه هو شجرة حية وليست عموداً ميتاً. لا يسعنا أن نشك هنا بأن الممارسة الأصلية كانت في كل مكان هي نصب شجرة أيار جديدة في كل سنة. وكان هدف العادة هو استحضار روح الخضرة المخصِبة وإحياؤها في الربيع. لكن في النهاية حصل تراجع، وبدلاً من شجرة خضراء كثيرة النسغ نُصِبت مكانها شجرة قديمة ذابلة سنة بعد سنة وبشكل دائم. وعندما أصبح معنى العادة طيّ النسيان وأصبحت شجرة أيار مجرد مركز يدور حوله المرح لم يعد الناس يرون مبرراً في قطع شجرة حية كل سنة وفضّلوا الإبقاء على الشجرة نفسها ولكن بتزيينها بورود نضرة في عيد أيار. وحتى عندما أصبح عمود أيار ثابتاً مازلنا نشعر بأن هناك حاجة لأن يحمل مظهر الشجرة الخضراء وليس العمود الميت. لذلك في ويفرهام في تشيشاير، هناك عمودا أيار يُزيّنان في عيد أيار بكامل العناية والإجلال القديم. تتدلى من جوانب كل منهما الأكاليل وعلى رأسه شجرة بتولا أو أي شجرة متعرشة طويلة بورقها وتتراكب عليهما سيقان أشجار منزوع منها اللحاء كي تعطي مظهر شجرة من القمة. إذن تجديد شجرة أيار هو مثل تجديد عيد حصاد أيار، فكلاهما يُقامان بقصد تأمين النصيب الكافي من النضرة عن طريق استحضار روح الخضرة والتخصيب والحفاظ عليها طوال السنة. لكن في حين يقتصر مفعول حصاد أيار على زيادة نمو المحاصيل تتعداه شجرة أيار أو غصن أيار ليشمل ـ كما رأينا ـ النساء والماشية. وأخيراً، الجدير بالملاحظة أن شجرة أيار القديمة تُحرَق في نهاية السنة. لكن في مقاطعة براغ يكسر الصغار قطعاً من شجرة أيار العامة ويضعونها خلف صورهم المقدسة في غرفهم حيث تبقى هناك إلى عيد أيار القادم وبعدها تُحرَق في الموقد. وفي ورتينبورغ تُترَك الأغصان التي تُنصَب في البيوت في عيد أحد النخيل مدة سنة قبل حرقها.

رأينا حتى الآن أن روح الشجرة تُدرك على أنها متجسدة أو متأصّلة في الشجرة. وعلينا الآن أن نبين كيف يرون روح الشجرة تتمثل بالشجرة وتنفصل عنها لتأخذ شكلاً بشرياً وتتجسد بالنساء أو الرجال الأحياء. والدليل على هذا الأثر التشخيصي البشري لروح الشجرة منتشر بشكل واسع في عادات الفلاحين الأوربيين.

هناك مجموعة أمثلة نتعرف خلالها كيف تتمثل روح الشجرة على شكل نباتي وإنساني في الوقت نفسه، وكأن الشكلين يقفان جنباً إلى جنب ليفسرا بعضهما بعضاً. في هذه الحالات تتمثل روح الشجرة على شكل دمية، وأحياناً على شكل شخص حي، وفي كلتا الحالتين يقف الشخص بجانب الدمية أو يوضع الغصن بجانب الشجرة كي يشكل كل زوج منها نقشاً ثنائي اللفة، بمعنى أن أحدهم ترجمة للآخر. هنا لا مجال للشك في أن روح الشجرة ممثلة فعلاً في شكل بشري. لذلك في بوهيميا وفي الأحد الرابع في لينت، يلقي الصغار دمية تُدعى الموت في الماء، ثم تذهب الفتيات إلى الغابة ويقطعن شجيرة صغيرة ويربطن إليها لعبة تُلبَس الأبيض وكأنها امرأة. ويذهبن ومعهن الشجرة والدمية من بيت إلى بيت يجمعن النفَحات وهن يغنين أغاني مع اللازمة التالية:

"لقد أخرجنا الموت من القرية

ونجلب الصيف للقرية."

وكما سنرى لاحقاً أن الصيف هو روح الخضرة تعود وتحيا في الربيع. وفي بعض أنحاء بلدنا يتجول الأطفال ويطلبون المال مع تقليد بسيط لعواميد أيار ومعهم دمية جميلة اللباس يسمونها سيدة أيار. في هاتين الحالتين تعتبر الشجرة والدمية مترادفتين بشكل واضح.

وفي ثان في منطقة الألزاس، هناك فتاة تُدعى زهرة نوار الصغيرة تُلبس الأبيض وتحمل شجرة أيار صغيرة تزهو بالأكاليل والأشرطة. تجمع مرافقاتها الهدايا من باب إلى باب وهن يغنين أغنية:

" يا زهرة نوار الصغيرة دوري ثلاث مرات،

دعينا ننعم برؤيتك وأنت تدورين!

يا زهرة أيار تعالي معنا إلى الغابة الخضراء،

سنكون كلنا فرحين.

فنذهب من أيار إلى الزهور."

وفي سياق الأغنية يعبرون عن تمنياتهم لهؤلاء الذين لا يعطونهم شيئاً وهي أن يأكل الدَّلق طيورهم وأن لا تحمل عرائشهم عناقيد ولا أشجارهم جوزاً ولا حقولهم

حنطة. من المفترض أن يعتمد إنتاج السنة على الهدايا التي تُقدَّم لمغنِّي أيار. في كل هذه الحالات يتجول الأطفال ومعهم الأغصان والأكاليل في عيد أيار ويغنون ويجمعون المال؛ كل هذا يعني أن باصطحابهم روح النبات يستجلبون الوفرة والحظ السعيد للبيوت ويتوقعون الحصول على المال لقاء خدمتهم هذه. في ليتوانيا الروسية وفي الأول من أيار اعتاد الناس على نصب شجرة خضراء في القرية. ثم يختار الأزواج الريفيون البسطاء أجمل فتاة ويتوجونها، يعصِّبون جبينها بأغصان التتوب ويضعونها قرب شجرة أيار حيث يرقصون ويغنون صارخين: " يا أيار يا أيار!" وفي **بري** (جزيرة فرنسا) تُنصَب شجرة أيار في القرية ويتوج رأسها بالورود وتُجدل تحت القمة الأوراق وتحتها الأغصان ثم تحتها أغصان خضراء ضخمة. ترقص الفتيات حولها ثم يُؤتى بفتىً مكسو بالأوراق ويدعى **الأب أيار**. في المدن الصغيرة من جبال فرانكنوالد في بافاريا الشمالية وفي الثاني من أيار، تُنصَب شجرة **والبر** أمام أحد الخانات ويرقص رجل حولها وهو مكسو بالقش من رأسه إلى أخمص قدمه بحيث تُربَط أوراق الحنطة فوق رأسه على شكل تاج. يُسمى هذا الرجل **والبر** ويؤخذ ضمن موكب في الشوارع المزينة بأغصان التتوب.

وعند سلافيي كارنثيا وفي عيد القديس جورج (الثالث و العشرون من نيسان)، يزين الشباب بالورود والأكاليل شجرة قُطِعت عشية الاحتفال. وتُحمل الشجرة في موكب مصحوب بالموسيقا وهتافات الفرح. الشخصية الرئيسية في الموكب هو جورج الأخضر وهو عبارة عن فتىً مكسو من رأسه لأخمص قدمه بأغصان التتوب الخضراء. وفي نهاية الاحتفال يُرمى القديس جورج أو بالأحرى ممثله في الماء. وعلى الفتى الذي يلعب درو جورج الأخضر أن يخرج من غلافه الورقي ببراعة دون أن يلحظ أحد ذلك. وفي أمكنة عديدة يُغطَّس الفتى الذي يلعب دور جورج الأخضر في النهر أو البركة بهدف تأمين المطر الذي يجعل الحقول والسهول خضراء في الصيف. في بعض المناطق تُخرَج الماشية بعد تتويجها في الإسطبلات وتُساق من دكان إلى آخر مصحوبة بالغناء:

"جورج الأخضر الذي جلبناه،

جورج الأخضر الذي نصحبه،

عساه يطعم قطعاننا حتى الشبع.

وإن لم يفعل لنذهبن به إلى الماء."

نرى هنا أن ما يُعزى لروح الشجرة المتجسدة في الشجرة من قوى كصنع المطر، وتربية الماشية، يُعزى لروح الشجرة المُمَثَّلة بالإنسان الحي أيضاً.

يشكل مهرجان جورج الأخضر الاحتفال الرئيسي في الربيع عند غجر ترانسيلفانيا و رومانيا. بعضهم يقيمونه في يوم الاثنين الشرقي وآخرون في عيد القديس جورج (الثالث و العشرون من نيسان). وفيه تُقطع شجرة صفصاف عشية المهرجان و تُزيَّن بالأكاليل والأوراق وتُنصَب في الأرض. وتقوم امرأة حامل بوضع ردائها ورداء ولدها تحت الشجرة وتتركهما هناك طوال الليل؛ إذا ما وجدت ورقة شجر على الرداء الصباح التالي، تعرف أن وضعها سيكون سهلاً. كما يذهب المرضى والمسنون إلى الشجرة في المساء، يبصقون عليها ثلاث مرات ويقولون " ستموتين قريباً لكن دعينا نعيش." ويتجمع الغجر حول شجرة الصفصاف. جورج الأخضر هو الشخصية الرئيسية في المهرجان، وهو فتىً مغطى من رأسه إلى أصابع أرجله بالأوراق الخضراء والورود. يرمي بضع حفنات من العشب لحيوانات القبيلة كي لا يشح عندهم العلف طوال السنة، ويدفعهم إلى الصفصاف ثم يخرجهم منه ويرميهم في مياه جارية ليستحضر أرواح المياه. أخيراً، يتظاهر أنه يرمي جورج الأخضر في الماء لكنه في الحقيقة هو دمية مصنوعة من الأغصان والأوراق تُغطَّس بالنهر. في هذا النوع من العادات تُعزى قوى منح الولادة السهلة للنساء ونقل الطاقة الحيوية للمرضى والمسنين للصفصاف بينما يمنح جورج الأخضر، وهو الإنسان الذي يمثل الشجرة، الغذاء للماشية ويرضي أرواح الماء بجعلها على تواصل مباشر مع الشجرة.

دون الحاجة لضرب أمثلة عن الموضوع نفسه، يمكن أن نلخص نتائج الصفحات السابقة بكلمات من مانهاردت الذي يقول:" تكفي العادات التي اقتبسناها لتوصلنا بكل تأكيد إلى النتيجة القائلة إنه في مواكب الأغصان تتمثل روح النبات بشجرة أيار وبالرجل الذي يُلبَس الأوراق الخضراء والورود وبالفتاة المزينة بالطريقة نفسها. إنها الروح ذاتها التي تحيي الشجرة وتؤثر في النباتات الأصغر التي لاحظناها في شجرة أيار وعيد حصاد أيار. من المنطقي جداً أن الروح تظهر نفسها في الوردة الأولى في الربيع وتتجلى بالفتاة التي تمثل زهرة نوار كمانح للمحصول أيضاً في شخصية والبر. من المفترض أن الموكب بما فيه من تمثيل للآلهة يعطي الأثر المفيد نفسه في

الطيور والأشجار المثمرة والمحاصيل بوجود الإله نفسه. بكلمة أخرى، ليس القائم بالدور مجرد صورة بل هو تمثيل فعلي لروح النبات؛ من هنا كان التعبير عن أمنية القائمين على زهرة أيار وشجرة أيار هي استثناء من يرفض إعطاءهم الهدايا من البيض ولحم الخنزير وما إلى هنالك من حصته في التباريك التي تمنحها الروح الجوالة. ويمكننا أن نستنتج هنا أن مواكب الشحاذة مع أشجار أيار أو أغصان أيار من بيت إلى آخر جالبة أيار أو الصيف كانت أصلاً جادةً وتحمل معنى السر المقدس. أي أن الناس كانوا يؤمنون بأن إله النمو موجود في الغصن بشكل غير مرئي. ويُؤخذ في الموكب إلى كل بيت ليمنح بركته. وغالباً ما نلحظ تجسيم روح النبات في مدلولات الأسماء: أيار، الأب أيار، سيدة أيار، وملكة أيار كل هذا يدل على أن روح النبات منصهرة مع تشخيص الفصل الذي تتجلى فيه قوى تلك الروح بشكل واضح."

ما توصلنا إليه حتى الآن هو أن روح الشجرة أو روح النبات بشكل عام تُمثَّل إما بالخضرة فقط أو بالشجرة، الغصن، الوردة أو باقتران الخضار مع الشكل البشري في آن معاً مثل استخدام الشجرة، الغصن أو الوردة مرتبطة بدمية أو بشخص حي. بقي علينا أن نبين أن تمثيل تلك الروح بشجرة أو بغصن أو بزهرة يختفي تماماً في بعض الأحيان بينما يستمر تمثيلها بشخص حي. وفي هذه الحالة تستمر الخضرة في الشخص عن طريق إلباسه الأوراق والورود أحياناً، وما يدل على تلك الخضرة هو الاسم الذي يحمله ذلك الشخص ذكراً كان أم أنثى.

لذلك في بعض أنحاء روسيا وفي عيد القديس جورج (الثالث والعشرون من نيسان) يُلبس شاب الأوراق والزهور، مثلما نفعل نحن في جاك في **الخضرة**. ويسميه السلوفان جورج **الأخضر** الذي يحمل مشعلاً مُضاءً بيد وفطيرةً باليد الأخرى ويذهب إلى حقول الحنطة وتتبعه الفتيات وهن يغنين الأغاني المناسِبة للمناسَبة. وبعد ذلك تُشعل دائرة من الحطب وتوضع الفطيرة في وسطها. ويجلس كل من شارك في الطقس حول النار يتقاسمون الفطيرة فيما بينهم. من الواضح في هذه العادة أن جورج **الأخضر** الذي يلبس الأوراق والورود مطابق لجورج الأخضر المتنكر والمرتبط بشجرة في عادات الكارينثان، ترانسلفانيا ورومانيا التي تُقام في اليوم نفسه. وفي روسيا، في أسبوع العنصرة تُلَبَّس شجرة تنوب ملابس امرأة وتُنصَب في المنزل. وتُتَّبع مثل هذه

العادة أيضاً في اثنين السجدة من قبل فتيات روسيات في مقاطعة بينسك. يخترن أجمل فتاة ويكسينها بأوراق وزهور التوب والقيقب ويحملنها ويجبن بها القرية.

وفي راهلا وحالما تبدأ الأشجار بالاخضرار في الربيع يتجمع الأولاد في يوم أحد ويخرجون إلى الغابة حيث يختارون أحد زملائهم ليكون رجل الورق الصغير. يكسرون أغصاناً من الشجر ويجدلونها حول الصبي حتى لا يظهر منه سوى حذاؤه خلف عباءته الورقية. ويفتحون ثقبين كي يرى منهما ويقوده صبيان كي لا يتعثر ويسقط. يغنون ويرقصون وهم يأخذونه من بيت إلى آخر يطلبون الطعام مثل البيض والقشدة والسجق والكعك. وفي النهاية يرشون الأوراق بالماء ويحتفلون بالأطعمة التي جمعوها. وفي فريكتال في سويسرا في أحد العنصرة يخرج الأولاد في الغابة ويلفُّون أحدهم بأغصان الأشجار ويسمونه **مُغفَّل العنصرة** ثم يصعد على ظهر حصان وبيده غصن أخضر ويعودون به إلى القرية. يتوقفون عند بئر القرية فينزل المغفل المكسو بالورق ويُغطَّس بالماء عن طريق وضعه في جرن. وبعدها يحق له أن يرش الجميع بالماء ويمارس حقه هذا خاصة على الفتيات والمتسكعين في الشوراع. يمشي المتسكعون أمامه ويتوسلون أن يرشهم بمياه العنصرة.

من أشهر الأمثلة على الفتى المتنكر بالأوراق في أنكلترا هو **جاك في الخضرة** وهو منظف المداخن الذي يمشي مكسواً بهرم من الأماليد المجدولة، والمغطاة باللبلاب يعلوه تاج من الورود والأشرطة. يرقص في عيد أيار ومعه أغصان البهشية واللبلاب وهو على رأس مجموعة من منظفي المداخن كي يجمعوا المال. وفي فريكنال هناك سلة تدعى سلة أسبوع العنصرة. حالما تبدأ الأشجار بالإزهار يتم اختيار مكان في الغابة يقوم فتيان القرية بصنع السلة فيه سراً خوفاً من أن يسبقهم أحد في ذلك. ويتم إجدال أغصان مورقة على شكل دائرتين إحداهما تُوضَع على أكتاف من يلبسها والأخرى تحيط بقائمتيه، كما تُفتح ثقوب لأجل عينيه وفمه وتُتَوَّج باقة كبيرة كل كسائه. وهو على هذا الحال يظهر فجأة في القرية خلف ثلاثة من الصبية وهم ينفخون الأبواق المصنوعة من لحاء الصفصاف. يهدف مساعدوه بشكل رئيسي إلى نصب سلة العنصرة فوق بئر القرية وإلى الحفاظ عليها وعليه هناك على الرغم من جهود صبية القرى المجاورة لنزع السلة ووضع سلتهم بدلاً منها.

من الواضح في هذه الأمثلة أن الشخص المكسو بالأوراق يماثل شجرة أيار أو غصن أيار أو دمية أيار التي يحملها الأطفال من بيت إلى بيت بقصد الشحاذة. كل هذه الشخصيات تمثل روح النبات المفيدة والتي يُقَدَّم الطعامُ والمالُ لقاء زيارتها المنزل.

غالباً ما يُطلق على الشخص المكسو بالورق الذي يمثل روح النبات الملك أو الملكة لذلك يسمونه ملك أيار أو ملك العنصرة أو ملكة أيار وما إلى هنالك. ويلاحظ مانهاردت أن هذه الألقاب تنضوي على أن الروح المتجسدة في الخضرة تدل على حاكم ذي قوى إبداعية عظيمة.

في قرية قرب سالزويديل تُنصب شجرة أيار في أسبوع العنصرة ويتسابق نحوها الصبية ومن يفوز بالوصول إليها أولاً يكون هو الملك ويوضع حول رقبته أكليل من الورود ويحمل في يده غصن أيار ليرش منه الندى مع تقدم الموكب. يغنون عند كل بيت أغنية يتمنون فيها الحظ السعيد لسكانه ويشيرون إلى "البقرة السوداء التي تحلب الحليب الأبيض في الإسطبل، وإلى الدجاجة السوداء التي تضع البيض الأبيض في العش، ويطلبون هدايا من البيض ولحم الخنزير وما شابه. وفي قرية أيلغوث في سيليسيا هناك طقس يُدعى سباق الملك ويقام في أسبوع العنصرة. يُنصب عمود مربوط إليه قطعة من القماش في السهل ويعبره الشباب على الأحصنة يحاول كل منهم خطف قطعة القماش وهو يعدو مسرعاً. من ينجح في خطفها ورميها في قرية أو دير مجاور يُعلَن ملكاً. من الواضح هنا أن العمود هو بديل عن شجرة أيار. وفي بعض قرى برونسويك في أسبوع العنصرة يُغلَّف ملك أيار تماماً بأغصان أيار. وفي بعض أنحاء ثورينجن أيضاً لديهم ملك أيار في أسبوع العنصرة لكنه يلبس لباساً مختلفاً. يُقام له قفص من الخشب يستطيع أن يقف فيه الرجل ويغطى تماماً بأغصان التنوب ويعلوه تاج من زهور التنوب ويتدلى جرس من أعلى القفص. يوضع هذا القفص في الغابة ويدخله الملك. ثم يأتي الناس ويبحثون عنه وعندما يجدونه يقودونه إلى القرية ويطلبون من الحاكم أو رجل الدين أن يحزر من في القفص الأخضر. وإذا أخطأوا الحزر يقرع ملك أيار الجرس برأسه ويدفع المخطئ غرامة من البيرة وماشابه. وفي وارستيدت يختار الفتيان بالقرعة اثنين أحدهما ملكاً ويُختار الآخر مشرفاً عاماً على القصر. يُغطى الأخير بالكامل بأغصان أيار ويلبس تاجاً خشبياً مرصعاً بالورود

ويحمل سيفاً خشبياً. ويتميز الملك بوضعه إكليلاً على قبعته وقصبة مع شريطة حمراء مربوطة إليها في يده. يطلبون البيض متنقّلين من بيت إلى آخر ومهددين أن يجعلوا دجاج من يبخل عليهم لا يضع تلك السنة. يظهر المشرف العام في هذه العادة ولسبب ما أنه اغتصب شارة العرش من الملك. وفي هيلدشيم يذهب خمسة أو ستة من الشبان في مساء اثنين السجدة يلسعون بأسواطهم الطويلة في الهواء في أوقات معينة ويجمعون البيض من البيوت. الشخصية الرئيسية في المجموعة هو الملك الورقي وهو فتىً مغطى تماماً بأغصان التنوب حتى لا يُرى منه سوى قدميه. ويُضاف إلى قِوامه غطاء رأس كبير مصنوع من أغصان التنوب. يحمل في يده عكازاً طويلة يحاول فيها التقاط الكلاب الضالة والأطفال. وفي بعض أنحاء بوهيميا وفي اثنين السجدة يتنكر الشباب بقبعات طويلة من لحاء التنوب المزين بالورود. ويلبس أحدهم لباس الملك ويُجَرُّ في عربة إلى بساتين القرية. وإذا مامرُّوا في طريقهم على بركة، تتقلب العربة فيها. وعندما يصلون البساتين يتجمعون حول الملك ثم يعتلي الصَّيَّاح حجراً أو يصعد شجرة ويقول من ذاكرته أهجوات عن كل بيت وسكانه. بعد ذلك ينزعون تنكرهم من اللحاء ويجوبون القرية في لباس العيد حاملين شجرة أيار ويشحذون الكعك والبيض وأحياناً يُعطَون الحنطة. وفي كروسفالغيولا قرب لانجينسالزا، وفي القرن الثامن عشر كانوا يقودون **ملك العشب** في موكب في أسبوع العنصرة. كان يوضع في صندوق هرمي الشكل مغطى بأغصان الحور، مزين في أعلاه بتاج ملكي من الأغصان والورود. وكان يركب ظهر الحصان وعليه الهرم الورقي بشكل يلمس جزؤه الأسفل الأرضَ ويُترك فيه فتحة فقط للوجه. وكان يحيطه موكب من عربات الفرسان الشبان إلى مجلس المدينة أو بيت الكاهن حيث يشرب الجميع البيرة. ويتم تعرية ملك العشب من كسائه الأخضر تحت سبعٍ من أشجار الزيزفون في سزمربورغ المجاورة كما يُسلَّم التاج لرئيس المدينة فتُغرز الأغصان في حقول الكتان كي تجعله أطول. يشكل هذا السلوك الأخير صفة واضحة تبين أثر الخصب الذي يُعزى إلى ما يمثل روح الشجرة. وفي جوار بيلسين في بوهيميا يُنصب في وسط القرية في أسبوع العنصرة كوخ هرمي الشكل من الأغصان الخضراء دون باب. يركب مجموعة من فتيان القرية إلى هذا الكوخ وعلى رأسهم الملك. يرتدي الملك سيفاً على جنبه وقبعة من رغيف السكر على رأسه. وفي جماعته قاضٍ وصيَّاح

وشخص يُدعى سالخ الضفدع أو منفذ الاعدام. يمثل دور هذا الأخير مهرج مضحك يرتدي ثياباً رثة ، وسيفاً قديماً صدئاً ويمتطي حصاناً تعساً وهو مباعد قدميه. لدى وصولهم الكوخ يترجل الصياح ويدور حول الكوخ باحثاً عن مدخل. وعندما لايجده يقول:" ربما هذه قلعة مسحورة؛ دخلها السحرة من بين الأوراق وليس فيها باب." وأخيراً يستل سيفه ويشق طريقه إلى داخل الكوخ فيجد كرسياً فيجلس عليه ويبدأ بإلقاء ترتيلة ينتقد فيها الفتيات والمزارعين وخادمي المزارع في المناطق المجاورة. وعندما يفرغ من هذا يتقدم سالخ الضفدع وبعد تقديم قفص فيه بعض الضفادع، ينصب مشانق يعلق عليها الضفادع على نسق. وفي جوار بلاس تختلف الطقوس في بعض أوجهها إذ يكسو الملك والجنود لحاء الشجر ويُزيّنون بالورود والأشرطة، وجميعهم يحملون سيوفاً ويركبون أحصنة رمادية وعليها أغصان خضر وزهور. وبعد أن تُنتَقد سيدات القرية وفتياتها ، يقوم الصيَّاح بوخذ ضفدع حتى تنقّ. ويصدر الملك حكم الإعدام على الضفدع فيقطع منفذ الإعدام رأسها ويرمي جسمها الدامي إلى المشاهدين. أخيراً ، يخرج الملك من الكوخ متبوعاً بالجند. إن وخذ الضفدع وقطع رأسها هما بلا شك كما لاحظ مانهاردت سحر مطري. ورأينا أن بعض هنود أورينوكو يضربون الضفادع بهدف واضح وهو إنتاج المطر وأن قتل الضفدع هو سحر مطري أوروبي.

غالباً ما تحل ملكة بدلاً من الملك في تمثيل روح الخضرة في الربيع. ففي القرب من **ليبكويك** وفي الأحد الرابع في **لينت** ترتدي الفتيات الأبيض وتزين شعورها بأول زهور الربيع مثل البنفسج والمرغريتا ويقدن في القرية فتاةً تُدعى الملكة وتُتوَّج بالزهور. يمنع على الجميع التوقف في أثناء سيرهن بل عليهن الاستمرار بالدوران والغناء في الموكب الذي يُعامل معاملة مهيبة. عند كل منزل تعلن الملكة وصول الربيع وتتمنى لسكان المنزل الحظ السعيد والبركات وتتلقى الهدايا مقابل عملها هذا. وفي هنغاريا الألمانية تختار الفتيات أكثرهن جمالاً لتمثل ملكة أسبوع العنصرة ويثبتن إكليل زهور مقنطر على جبينها ويحملنها في الشوارع وهن يغنين. ويقفن عند كل منزل ويغنين أغاني قديمة ويتلقين الهدايا. وفي جنوب شرق أيرلندا في عيد أيار اعتادوا على اختيار ملكة المنطقة مدة سنة كاملة. كانت هذه الملكة تُتوَّج بالورود البرية وكانوا يحتفلون ويرقصون ثم يلعبون الألعاب الريفية ثم يختتمون عيدهم

بموكب كبير في المساء. وأثناء توليها المنصب تترأس التجمعات الريفية في الرقص والألعاب المسلية طوال العام. وإذا ماتزوجت الملكة قبل عيد أيار القادم، تنتهي صلاحياتها ولا يتم انتخاب ملكة بديلة إلا عند حلول أيار القادم. والجدير بالذكر أن ملكة أيار شائعة جداً في فرنسا ومعروفة في إنكلترا.

تُمثِّل روح الخضرة أحياناً بملك أو ملكة، بسيد أو سيدة، بعريس أو عروس. وينبع هذا التناظر من التصوير البشري وتمثيل روح الشجرة من تزاوج الأشجار كما رأينا سابقاً. وفي هالفورد في ورروكشاير الجنوبية يذهب الأطفال من منزل إلى آخر في عيد أيار ويمشون أزواجاً وعلى رأسهم الملك والملكة بينما يحمل الصِّبية عمود أيار الذي يبلغ طوله ستة أو عشرة أقدام والمغطى بالورود والأوراق الخضراء. ويُربط قضيبان متصالبان بزاوية قائمة قبل رأسه بقليل. أيضاً يتم تزيين هذين القضيبين بالورود إذ يتدلى من طرفَي كل قضيب دائرة مزينة بالطريقة نفسها. يغني الأطفال في البيوت أغاني أيار ويتلقون المال الذي يُستخدم لتأمين الشاي في المدرسة عند المساء. وفي بوهيميا وهي قرية بجانب كونيغراتز وفي اثنين السجدة، يلعب الأولاد لعبة الملك، التي يمشي فيها الملك والملكة في الظُلَّة وترتدي الملكة إكليلاً بينما تحمل أصغر فتاة إكليلين على طبقٍ وتمشي خلفها. ويعتني بهما فتيان وفتيات يسمونهم رجال العريس ووصيفات العروس، ويذهبون من منزل إلى آخر ويجمعون المال. وكان هناك سمة أساسية في الإحتفال الشعبي بأسبوع العنصرة في سيليسيا وهوصراع على الملكية مازال قائماً حتى الآن. ويأخذ هذا الصراع أشكالاً عديدة وكلها تهدف في النهاية إلى شجرة أيار أو عمود أيار. فالشاب الذي يستطيع تسلق العمود الناعم ويُنزِل الجائزة هو ملك أسبوع العنصرة وحبيب عروسة أسبوع العنصرة. بعد ذلك يعود الملك وهو يحمل شجيرة أيار مع أصحابه إلى الحانة حيث يُختَتم المرح بالرقص والوليمة. وغالباً ما يتسابق المزارعون و العمال على ظهور الخيل للوصول إلى عمود أيار المزين بتاج وورود وأشرطة. من يصل أولاً إلى العمود يصبح الملك وعلى البقية أن يطيعونه طوال اليوم. أما آخر الواصلين من الخيالة فيصبح المهرج. يترجل الجميع عن خيلهم ويرفعون الملك على أكتافهم ثم يصعد برشاقة على العمود ويجلب التاج المربوط في أعلاه. أما المهرج فعليه أن يسرع إلى الحانة ويلف ثلاثين رغيفاً من الخبز ويتجرع ما يعادل ليترين من الخمر بأسرع مايمكن. وبعدها يتبعه الملك على

رأس المجموعة وهو يحمل التاج وشجيرة أيار. وإذا ما استطاع المهرج أن يوزع لفافات الخبز والخمر ويحيي الملك بخطاب مع كأس من البيرة يفوز بأن قام بواجبه ويدفع له الملك مكافأةً وإلا عليه أن يتدبر الأمر بنفسه. بعد الفروغ من الكنيسة يعرِّج الموكب المهيب إلى القرية وعلى رأسه الملك المزين بالورود وهو يحمل شجرة أيار. ثم يأتي المهرج وقد ارتدى ملابسه مقلوبةً، وعلى ذقنه لحية كتانية كبيرة وتاج أسبوع العنصرة على رأسه يتبعه فارسان يمثلان دور الحارسين. وعند كل منزل يتوقف الموكب ويطلب مساهمةً من ربة المنزل كي يشتروا صابوناً ينظفون فيه لحية المهرج. وتخولهم هذه العادة أن يأخذوا من المنزل أية مؤونة غير مقفل عليها. وأخيراً يأتون إلى المنزل الذي تعيش فيه حبيبة الملك، يحيونها على أنها ملكة أسبوع العنصرة وتكسب الهدايا المناسبة مثل زنانير ملونة وقماش ومئزر. بينما يكسب الملك جائزته مثل زناز أو لفاع وما شابه، ويحق له أن ينصب شجرة أسبوع العنصرة في فناء دار أبيه حيث تبقى أمارة مشرِّفة حتى اليوم نفسه من العام التالي. بعدها يتجه الموكب إلى الحانة حيث يفتتح الملك والملكة الرقص. وأحياناً ينجح الملك والملكة في الحصول على المنصب بطريقة مختلفة. رجل من القش بالحجم الطبيعي وعلى رأسه تاج وقبعة حمراء يتم نقله في عربة بين رجلين مسلحين كأنهما حارسان إلى مكان أشبه بمحكمة تنتظره كي تحكم عليه، ويتبعه إلى هناك حشد كبير. يُحكم على الرجل بالموت ويُربَط إلى خازوق في ساحة الإعدام. يحاول شبان معصوبو العينين أن يطعنوه برمح. ومن ينجح بذلك يصبح الملك وحبيب الملكة. وكانوا يسمون رجل القش هذا غولياث.

وفي أبرشية الدانمارك جرت العادة في أسبوع العنصرة أن تُلبَّس فتاة صغيرة على أنها عروس العنصرة و صبي صغير على أنه العريس. و تُزيَّن الفتاة بكل ماتتزين به العروس الفعلية وترتدي تاجاً من أنضر ورود الربيع على رأسها. ويبدو العريس زاهياً مثل الورود والأشرطة والأناشيط التي يرتديها. وتتزين الفتيات الأخريات بأفضل ما يستطعن من ورود الطوروليوس الصفراء. ثم يذهب الجميع بهيبة عظيمة من مزرعة إلى مزرعة. تمشي فتاتان صغيرتان على رأس الموكب وكأنهما وصيفتان وستة أو ثمانية من الخيَّالة تعدو على أحصنة صغيرة لتعلن قدومهم إلى القرية. كانوا يضعون في السلل ما يتلقونه من مساهمات مثل البيض والخبز والقشدة والقهوة والسكر

وشموع من الشحم الحيواني. وعندما يكملون جولتهم في المزارع تساعد زوجات المزارعين في التحضير لوليمة العرس ويرقص الأطفال بمرح وقباقيبهم تطقطق على أرض من الصلصال حتى تزقزق العصافير عند شروق الشمس. والجدير بالذكر أن هذا الوصف هو ما بقي في ذاكرة المسنين عن عروس أسبوع العنصرة ومواكب الأبهة.

رأينا أنه في السويد تتوافق الطقوس مع عيد أيار أو في أمكنة أخرى مع أسبوع العنصرة الذي يُقام في منتصف الصيف. لهذا نجد أنهم مازالوا في بعض أنحاء مقاطعة بليكيبنج السويدية يختارون عروس منتصف الصيف ويعيرونها تاج الكنيسة. تختار العروس عريساً لنفسها ويتم الجمع لهما كزوجين. ويختار كل واحد من بقية الشبان لنفسه عروساً. أما في النرويج فمازال يقام طقس مشابه حتى الآن.

وفي جوار بريانسون (داوفيني) وفي عيد أيار يختار الفتيان شاباً هَجَرته زوجته وتزوجت من رجل آخر ويغطونه بالأوراق الخضر. يستلقي الشاب على الأرض ويتظاهر أنه نائم. ثم تأتي فتاة تحبه وترغب بالزواج منه، توقظه وتمد يدها لتساعده في النهوض وتعطيه عَلَماً. ثم يذهبان إلى الحانة ويستهلان الرقص هناك. وعليهما أن يتزوجا فعلاً خلال السنة القادمة وإلا يُعامَلان معاملة الدرجة الثانية ويحرمان من صحبة الشباب ويصبحان مع المسنين. أما الفتى فيسمى عريس شهر أيار. وفي الحانة يخلع رداءه الورقي لتصنع منه شريكتُه في الرقص إكليلاً مرصعاً بالورود ويُقلدها إياه على صدرها عندما يقودها إلى الحانة في اليوم التالي. وهناك عادة روسية مشابهة لهذه العادة وتُقام في مقاطعة نيريختا في يوم الخميس الذي يسبق أحد العنصرة. تخرج الفتيات إلى غابة التتوب وتصنع من أغصانه السفلى إكليلاً. تُقَبِّلُ كل منهن الأخرى خلال الإكليل أزواجاً أزواجا. وكل اثنتين تبادلا القبلة تسميان بعضهما بعضاً رفيقة في المعمودية. ثم تتقدم إحدى الفتيات وتتظاهر وكأنها رجل ثمل وتلقي بنفسها على الأرض وتتدحرج على العشب وتتظاهر وكأنها في نوم عميق. تأتي فتاة أخرى وتقبل المتظاهرة بالنوم ثم تذهب الجماعة كلها إلى الغابة لترمي الأكاليل في الماء. وهناك يقرأن مصائرهن خلال مصير الأكاليل الطافية على سطح الماء. في يوم من الأيام ربما قام فتىً بدور النائم. أما العادات الفرنسية والروسية

فتتميز بعملية البحث عن العريس. وفي ثلاثاء المرافع يقوم السلوفانيون في أوبيركرينيجر بحمل دمية قشية مع صرخات فرحة جيئة وذهاباً في القرية. ثم يرمونها في الماء أو يحرقونها ويتنبؤون عن محاصيل السنة القادمة خلال ارتفاع اللهب. يلحق بالجماعة الصاخبين أنثى مقنعة تجرٌّ وراءها لوحاً كبيراً بسلك وتصرح أنها عروس مهجورة.

عندما نتأمل الأمثلة السابقة نلاحظ أن إيقاظ النائم المهجور في هذه الطقوس يمثل إعادة إحياء الخضرة في الربيع. لكنه من الصعب تطبيق الأجزاء الأخرى على العريس المهجور والفتاة التي توقظه من هجوعه. هل النائم هو الغابة المجردة من أوراقها أم هو أرض الشتاء العارية؟ هل الفتاة التي توقظه هي النضرة الجديدة أم شمس الربيع المُحْيِيَة؟ من الصعوبة بمكان أن نجيب على هذه الأسئلة بمجرد الأمثلة التي بين أيدينا.

في مرتفعات أسكتلندة، يُمَثَّل إحياء الخضرة في الربيع بشكل واضح في عيد القديسة العروس والذي يصادف الأول من شباط. وكما ورد في هيبرايدز " تأخذ سيدة كل عائلة وخادماتها حزمة من الشوفان ويلبسنها كي تظهر في مظهر النساء ويضعنها في سلة كبيرة ومعها هراوة خشبية ويسمين هذا **سرير العروس(برِد)**. ثم تصرخ السيدة والخادمات ثلاث مرات (لقد أتى برِد، أهلا بك يا برِد). يقمن بذلك تماماً قبل الذهاب إلى السرير وعندما ينهضن في الصباح التالي ينظرن في الرماد متوقعات رؤية صورة أثر هراوة برِد هناك. فإذا وجدنها يتوقعن محصولاً جيداً وسنة رخاء، وإذا لم يجدنها يعتبرن ذلك فألاً سيئاً." وهذا شاهد آخر يصف العادة نفسها على الشكل التالي:" في الليلة التي تسبق عيد تطهير العذراء الذي يصادف في الثاني من شباط، اعتادوا على صنع سرير من الحنطة والتين ويضعون فوقه أغطية أسرة بجانب الباب. وعندما يصبح السرير جاهزاً يذهب أحدهم خارجاً ويصرخ ثلاث مرات، ...(يا بريدجيت، يا بريدجيت، ادخلي فسريرك جاهز) و تبقى شمعة أو شمعتان مشتعلتان قربه طوال الليل." أيضا في جزيرة **مان** "وفي عشية الثاني من شباط كان يُقام سابقاً احتفال على شرف السيدة الإيرلندية التي ذهبت إلى جزيرة مان لتتلقى الشر من موغهولد. كان قوام العادة هو جمع حزمة من الأسَل الأخضر والوقوف على عتبة البيت والحزمة في أيديهم ودعوة القديسة بريدجيت لتزورهم تلك

الليلة. وتكون الدعوة بالكلمات التالية في اللغة الانكليزية (يا بريدجيت، يا بريدجيت، تعالي إلى بيتنا، تعالي إلى بيتنا الليلة. أفتحوا الباب لبريدجيت ودعوها تدخل.) بعد إعادة هذه العبارات عدة مرات يقومون بنثر الأسل على الأرض لتشكل سجاداً أو سريراً للقديس بريدجيت. وهناك عادة تشبه كثيراً هذه العادة وتُقام في الجزر النائية من مملكة مان القديمة" من الواضح حسب الطقوس السائدة في المرتفعات أن القديسة **العروس برايد** أو بريدجيت هي إلهة الخصب الوثنية متنكرة في عباءة مسيحية رثة. ربما كانت بريدجيت إلهة النار والمحصول السلتية ليس إلّا.

إن تسمية الروح بـ **العروس** وإلباسها لباس العرس إنما يعني ضمناً تمثيل روح الخضرة في الربيع. لذلك في بعض قرى آلتمارك وفي أسبوع العنصرة، وبينما يتجول الصبية حاملين شجرة أيار أو يقودون الفتى المكسو بالأوراق الخضراء والزهور، يقود الفتيات عروس أيار وهي فتاة ترتدي ثياب العروس وعلى شعرها إكليل جميل من الورود. يذهبن من بيت إلى بيت بينما تغني عروس أيار أغنية تطلب فيها الهدايا وتبشر سكان كل منزل بالخير طوال السنة إذا ما أعطوها شيئاً؛ وتحذرهم بأنهم لن يفلحوا بشئ إذا مارفضوا إعطاءها أي شيء. وفي بعض أنحاء وستفاليا تقود اثنتان من الفتيات فتاةً ثالثة متوَّجَة بالورود و تُدعى عروس أسبوع العنصرة من باب إلى باب ويغنين أغنية يطلبن فيها البيض.

الفصل الحادي عشر
آثار الجنسين على الخضرة

يمكننا من أن نستنتج خلال بحثنا السابق في مهرجانات الربيع والصيف في أوروبا أن أجدادنا البدائيين شخَّصوا قوى الخضرة على أنها ذكر وأنثى، وحاولوا بناءً على مبدأ سحر المحاكاة أو السحر التعاطفي أن يسرعوا نمو الأشجار والنباتات خلال تمثيل زواج آلهة الأجمة في شخصيات ملك وملكة أيار، عريس وعروس أحد العنصرة وما شابه. ولم تكن هذه التمثيلات مجرد رموز أو دراما مجازية أو مسرحيات رعوية هدفها إمتاع أو تعليم المشاهدين البسطاء بل كانت ضروباً من السحر المقصود منها جعل الغابة تخضرّ والعشب يشطأ والحنطة تتضاعف والزهور تنوِّر. ومن الطبيعي الافتراض أنه كلما كان زواج الممثلين المكسوين بالورود وأوراق الأشجار محاكياً دقيقاً لزواج جنيات الغابات كلما كان السحر أكثر فعالية. وهكذا يمكننا وضع احتمالية كبيرة هي أن الإسراف المشهَّر الذي يسود الطقوس لم يكن يوماً إفراطاً بأساسيات الشعائر بل كانوا يعتبرون زواج الأشجار والنباتات - وحسب رأي من أدوا هذه الطقوس - مخصباً أكثر عندما يحصل الاتحاد الحقيقي بين الجنسين البشريين. من العبث في يومنا هذا النظر إلى هذه العادات في أوروبا المتحضرة على أنها تهدف بوضوح إلى تحسين نمو الخضرة. لكن ما زالت الشعوب البدائية حتى يومنا هذا تستخدم لقاء الجنسين كوسيلة لتأمين إثمارية الأرض، وأن بعض الشعائر التي مازالت أو ظلت لوقت متأخر تُقام في أوروبا يمكن تفسيرها منطقياً على أنها أشكال مصغَّرة لممارسات مشابهة. وما يجعل الأمر جلياً واضحاً هو ما سنسرده الآن.

يظل رجال بيبيل في أمريكا الوسطى مبتعدين عن نسائهم مدة أربعة أيام قبل إيداع البذور في التربة وذلك بهدف إطلاق العنان لرغبتهم الجنسية في الليلة التي

تسبق الزرع؛ وهناك رجال معينون يؤقتون أداء العملية الجنسية في نفس اللحظة التي تُودَع فيها البذور في الأرض. وكان رجال الدين يفرضون على الرجال استخدام زوجاتهم كواجب ديني. والتفسير الوحيد الممكن لهذه العادة هو أن الأمور اختلطت على الهنود فظنوا أن هناك علاقة بين إنجاب البشر مع أداء النباتات للعملية نفسها، وتخيلوا أنه بلجوئهم إلى العملية السابقة بموعد متزامن يعزز العملية اللاحقة. وفي بعض أنحاء جاوة، و قبيل إزهار الأرز يزور الزوج وزوجته الحقول ليلاً ويقومون باللقاء الجنسي بهدف تحسين نمو المحصول. وفي ليتاي، سارماتا وبعض الجزر الواقعة بين الجهة الغربية من غينيا الجديدة والجزء الشمالي من أستراليا، يعتبر السكان الوثنيون أن الشمس هي العامل الذكري الذي تتخصب به الأرض الأنثوية. ويسمون الشمس **أوباليرا** أي **السيد شمس** ويمثلونه على شكل مصباح مصنوع من أوراق جوزة الكاكاو التي نراها معلقة في كل مكان من بيوتهم ومتدلية من شجرة التين المقدسة. وهناك حجر كبير منبسط تحت الشجرة والذي يلعب دور مسرح الأضاحي. كان يوضع على هذا الحجر رؤوس الأعداء المقطوعة ومازالت توضع في بعض الجزر. وعند بداية الفصل الماطر من كل سنة ينزل السيد شمس إلى الشجرة المقدسة ليخصب الأرض. و لتسهيل نزوله هذا يُوضع سلم من سبع درجات لخدمته. يُنصب السلم تحت الشجرة ويزيَّن بالتين المنقوش بأشكال العصافير التي تذيع صرخات أبواقها نبأ اقتراب وصول الشمس في الشرق. في هذه المناسبة تكثر التضحية بالكلاب والخنازير كما ينغمس الرجال والنساء في العربدة، و يتم تمثيل الاتحاد المبهم بين الشمس والأرض أمام العامة وسط الرقص والغناء خلال العملية الجنسية الفعلية تحت الشجرة. يهدف الاحتفال حسبما أبلغونا إلى استهطال المطر وتكثير الطعام والشراب، الماشية والأطفال والغنى من الجد الشمس. ويصلُّون ليجعلوا كل عنزة تحمل اثنين أو ثلاثة، و أن تتكاثر الناس وأن يُستعاض عن الخنازير الميتة بخنازير حية وأن تُملأ سلل الأرز، ... إلخ. ولكي يستميلوه لتحقيق مطالبهم يقدمون له لحم الخنزير والأرز والشراب الكحولي ويدْعونه للهبوط. وفي جزر البابار يتم رفع علم خاص في هذا المهرجان كرمز لطاقة الشمس المبدعة. ويُصنع من القطن الأبيض بارتفاع تسعة أقدام وهو على شكل رجل في الوقفة المناسبة. ومن الجور أن يتعاملوا مع هذه الطقوس المعربدة دون عاطفة جارفة وغير

ملجومة. ولا شك في أن هذه الطقوس تنظَّم بوقار وعناية كي تحقق الشرط الجوهري لتخصيب الأرض ورخاء الانسان.

ومن الطبيعي أن تستخدم الوسائل المتبعة في تنشيط نمو المحاصيل نفسها في تأمين إثمارية الأشجار. ففي بعض أنحاء أمبويانا عندما تنبئ حالة البراعم بأن المحصول ضئيل يذهب الرجال ليلاً عراة إلى المزارع ويعمدون إلى تخصيب الأشجار تماماً كما يحبِّلون زوجاتهم ويصرخون وهم يفعلون ذلك لزيادة البراعم. ومن المفترض أن يزيد هذا التصرف من وفور الثمار.

ويؤمن الباغاندا في أفريقيا الوسطى بالعلاقة الحميمة بين اللقاء بين الجنسين وخصوبة الأرض لدرجة أنهم يبعدون المرأة العقيمة لأنها تمنع بستان زوجها من الإثمار. والعكس صحيح، فالزوجان اللذان أثبتا أنهما يتمتعان بخصوبة غير عادية وقد أنجبا توائم، يعتقد الباغاندا أن لديهما قدرة مماثلة في زيادة إثمارية أشجار موز الجنة التي تزودهم بالغذاء الوفير. وهناك طقس يؤدَّى بعد وضع التوأمين بفترة قصيرة هدفه نقل فضيلة الإنتاجية من الأهل إلى أشجار موز الجنة. و فيه تستلقي الأم على ظهرها وسط العشب الكثيف قرب المنزل وتضع زهرة موز الجنة بين رجليها؛ ثم يأتي زوجها ويقزف بالوردة بعيداً بعضوه الذكري. وبعد ذلك يذهب الزوجان إلى البلد وهما يؤديان رقصات في بساتين الأصدقاء المفضلين بهدف زيادة إثمارية أشجار موز الجنة.

في أنحاء عديدة من أوروبا سادت عادات في الربيع والصيف تعتمد على الفكرة البدائية نفسها عن العلاقة بين الجنسين البشريين لتسريع نمو النباتات. ففي أوكرانيا مثلاً وفي عيد القديس جورج (الثالث والعشرون من نيسان) يخرج الكاهن مع مساعده القندلفت وهما يلبسان عباءتهما إلى القرية عندما تبدأ المحاصيل بالاخضرار ويباركانها. وبعد ذلك يستلقي الأزواج الذين تزوجوا حديثاً في الحقول ويتدحرجون عدة مرات عليها معتقدين أن هذا يسرِّع من نمو المحاصيل. وفي بعض أنحاء روسيا يتدحرج الكاهن نفسه بمساعدة امرأة ليجعل المحصول يشطأ ولا يأبه بالوحل والحفر التي يواجهها في أثناء القيام بعمله المفيد هذا. وإذا ما مانع الراعي هذا يتمتم قطيعه قائلاً: " يا أبانا الصغير وكأنك لا تتمنى لنا الخير ولا تريدنا أن نحصل على الحنطة رغم أنك تتمنى فعلاً أن تعيش على حنطتنا." وفي بعض أنحاء

ألمانيا في أيام الحصاد يتدحرج الرجال والنساء الذين حصدوا الحنطة في الحقول. ربما كان هذا أيضاً تصغيراً لعادة بدائية قديمة كانت تُقام بهدف إغناء الحقول بالخصب بالطرق المشابهة للتي كان يلجأ إليها قوم بيبيل في أمريكا الوسطى منذ زمن طويل ومازال يلجأ إليها مزارعو الأرز في الوقت الحاضر.

بالنسبة للباحث الذي يهمه متابعة مساره المتمعج عميقاً في العقل البشري وهو يتلمَّس طريقه باحثاً عن الحقيقة، يلاحظ أن المعتقدات النظرية المرتبطة بالتأثير التعاطفي للجنسين على الخضرة قادت بعض الناس إلى الانغماس بعواطفهم كوسيلة لتخصيب الأرض، في حين قادت آخرين إلى السعي نحو الهدف نفسه باستخدام الوسائل المُناظِرة. من اللحظة التي يبدرون فيها الذُرة حتى تبرعم، يبقى هنود نيكاراغوا في حالة عفة دائمة بابتعادهم عن زوجاتهم والنوم في مكان منفصل، ويحجمون عن أكل الملح وشرب الكاكاو أو البيرة، أو السائل المخمر المصنوع من الذرة. باختصار كان ذلك الموسم بالنسبة لهم ـ كما لاحظ المؤرخ الإسباني ـ موسم تقشف أو تمنُّع. ومازالت بعض قبائل الهنود في أمريكا الوسطى تمارس كبح الذات بهدف رفع مستوى المحصول. وبلغنا أن هنود كيكتشي ينامون بعيداً عن زوجاتهم ولا يأكلون اللحم مدة خمسة أيام، بينما تستمر فترة التمنُّع عن الملذات الشهوانية مدة ثلاثة عشر يوماً عند قوم لانكويرو وكاجابينيرو. لهذا يتَّبع بعض ألمان ترانسيلفانيا قاعدة تمنع الرجل عن زوجته أثناء فترة البدار في الحقول. ويتبع القاعدة نفسها كالوتازيغ في هنغاريا، وهم قوم يعتقدون أن تقصيرهم بالقيام بهذه العادة يؤدي إلى تعفن الحنطة. وكذلك يمتنع كبير قبيلة كايتيش في أستراليا الوسطى امتناعاً شديداً عن علاقاته الزوجية مع زوجته طوال فترة قيامه بالطقوس السحرية التي تهدف إلى إنماء العشب لأنه يؤمِن أن خرقه لهذه القاعدة يمنع بذور العشب من الشطء الصحيح. وفي بعض أنحاء جزر زيلانيزيا وعند تعريش نبات البطاطا، ينام الرجال بجوار بساتينهم ولا يقربون زوجاتهم. وإذا ما دخلوا بساتينهم وهم خارقون لقاعدة التمنع هذه، تفسد ثمارها.

دعونا نطرح السؤال التالي: لماذا تقود منطقياً معتقداتٌ مشابهة بعضَ الناس إلى العفة المتزمتة وبعضهم الآخر إلى الانغماس في الملذات؟ والجواب هو في طبيعة العقل البدائي. إذا أدرك الإنسان البدائي هويته خلال الطبيعة بشكل ما، وإذا عجز عن

التمييز بين غرائزه وعملياته وبين مناهج الطبيعة في تأمين تكاثر النباتات والحيوانات، يمكنه التوصل إلى إحدى نتيجتين. الأولى هي أن استسلامه لشهواته يساعده في تكاثر النباتات والحيوانات، والثانية أن الطاقة التي يرفض استهلاكها في إنتاج نوعه البشري تشكل مخزوناً تستفيد منه الكائنات الأخرى ـ حيوانية كانت أم نباتية ـ في تكاثر أنواعها. وهكذا ومن الفلسفة البسيطة نفسها ومن الأفكار البدائية نفسها المتعلقة بالطبيعة والحياة، تمكن الإنسان البدائي أن يستنبط طريقين مختلفين أحدهما الخلاعة والأخر التنسك.

بالنسبة للقراء الذين نشأوا في جو ديني مشبع بمثالية الشرق الزاهدة، يعتبر التفسير المعتمِد على كبح البدائيين لشهواتهم في ظروف معينة بعيد الاحتمال وغير ممكن. بل يعتبرون الطهارة الأخلاقية المرتبطة في أذهانهم باحترام هذه القاعدة هي التفسير الأرجح، وهنا يتفقون مع ميلتون باعتبارهم العفة بحد ذاتها فضيلة نبيلة وأن الكبح المفروض على أقوى غرائزنا الحيوانية هو المِحَكُّ الذي يميز البعضَ عن القطيع، ليصبح من يخضعها أجدر بالاستحسان الإلهي. يبدو نمط التفكير هذا طبيعياً بالنسبة لنا لكنه غريب جداً وغير مفهوم بالنسبة للبدائيين؛ عندما يقاوم البدائي في مناسبات معينة الغريزة الجنسية، لا يفعل ذلك بدافع من مثاليته الرفيعة ولا سعياً وراء الارتقاء الروحي إلى درجة النقاء الأخلاقي، بل لأجل هدف خفي ـ مع ذلك هو واضح ومحسوس ـ وهو أن يظفر بما هو على استعداد لأن يضحي به. تكفي الأمثلة التي سقناها لإثبات إن كان الأمر كذلك أو ربما كان كذلك. كما تبين الأمثلة أنه عندما تتصارع — أو يبدو أنها تتصارع ـ غريزة الحفاظ على الذات، المتمثلة بالبحث عن الغذاء، مع غريزة تكاثر النوع، تستطيع السابقةُ التغلب على اللاحقةِ لأنها أكثر جوهرية. باختصار، يريد البدائي أن يكبح ميله الجنسي من اجل الغذاء. كما يبدي استعداداً لكبح ذلك الميل لأجل النصر في الحرب. ولاتقتصر ممارسة كبح تلك الشهوات الحسية على المحارب في ساحة المعركة فقط بل يساعده أصدقاؤه في بيوتهم عن طريق كبح شهواتهم لإيمانهم أن هذا يمكِّن محاربيهم من التغلب على أعدائهم بسهولة أكثر. إن زيف هذا المعتقد جلي بالنسبة لنا، مثل المعتقد القائل بأن عفة الزُرَّاع تؤثر في نمو البذور، مع ذلك، فُرِضت هذه المعتقدات على البشرية رغم زيفها وعبثيتها. ولم يخل هذا الفرض من الفائدة، إذ

عزز النسل وجعله أقوى؛ وذلك لأن قوة الشخصية في عِرْقٍ ما ـ مثلما في الفرد ـ تكمن أساساً في القدرة على التضحية بالحاضر من أجل المستقبل وبعدم الرضوخ لإغراء المتعة الزائلة، إرضاءً لرغبته في موارد أبعد وأكثر ديمومة. وكلما ازدادت ممارسة القوة كلما ازدادت الشخصيةُ قوةً، هكذا حتى يصل الرجال إلى المستوى الراقي للبطولة برفضهم متاع الحياة وحتى رفض الحياة نفسها من أجل الوصول إلى الحقيقة وتحقيق البركة والحرية للأجيال القادمة.

الفصل الثاني عشر
الزواج المقدس

1ـ ديانا كإلهة للخصب

رأينا أنه حسب المعتقد الواسع الانتشار والذي لاتعوزه أسس الحقيقة، تعيد النباتات إنتاج نفسها عبر الاتحاد الجنسي بين العنصر الذكري والعنصر الأنثوي، وأنه حسب المبدأ التعاطفي التجانسي أو سحر المحاكاة، وأن هذا التكاثر قد أُثير بزواج حقيقي أو بمحاكاته من قبل رجالٍ ونساءٍ يظهرون الآن على شكل أرواح الخضرة. لعبت هذه الدراما السحرية دوراً كبيراً في الاحتفالات الشعبية في أوروبا واعتمدت على مبدأ القانون الطبيعي البسيط ما يبين أنها أتت من الماضي السحيق. ولانخطئ عندما نعتبر أنها تعود إلى زمن كان فيه أسلاف الأمم المتحضرة برابرةً يرعون قطعانهم ويزرعون الحنطة في بعض المساحات الجرداء ضمن الغابات الواسعة التي كانت تغطي الجزء الأكبر من أوروبا بدءاً من البحر المتوسط وانتهاءً بالمحيط القطبي الشمالي. لكن إذا استمرت تلك الأساليب السحرية الهادفة إلى نمو الأوراق والبراعم والعشب والزهور والثمار حتى يومنا هذا على شكل مسرحيات رعوية وألعاب تسالي شعبية، أليس منطقياً أن نفترض أنها كانت أكثر جدية قبل ألفي عام عند الشعوب القديمة المتحضرة؟ أو لنضع السؤال بكلمات أخرى، أليس مرجحاً أنه في احتفالات معينة عند القدماء هناك مرادفات لعيد أيار أو أسبوع العنصرة ومنتصف الصيف قبل أن تتضاءل الطقوس لتصبح مجرد عروض للأبهة الفارغة، وقبل أن تفقد دينيتها وشعائرها السحرية التي كان فيها الممثلون يدعمون فيها الآلهة والإلهات بشكل واع؟ في الفصل الأول من هذا الكتاب وجدنا مبرراً لحمل الكاهن لقب **ملك الغابة** في نيمي وأن زوجته إلهة الغابة هي ديانا نفسها. أليس من المعقول أنهما كانا كملك وملكة للغابة مثيلين جادين للمُمَثِّلَيْن الهزليين الذين

يؤديـان دَوْرَيّ ملـك وملكـة أيـار، أو عـريس وعـروس أسـبوع العنـصرة في أوروبـا المعاصـرة؟ ألا يمكـن أيضاً أن يكـون اتحادهمـا قـد تم ضـمن احتفـال زواج إلهـي؟ وكانـت تلـك الزواجـات الدراميـة للآلهـة والإلهـات تقـام، كمـا سـنرى الآن، ضـمن شعائر دينية في أنحاء عديدة من العالم؛ وليس هناك ما يمنع احتمال أن تكون الغابة المقدسـة في نيمـي هـي مـسرح هـذه الطقـوس الـسنوية. لـيس هنـاك دليل قـاطع علـى كونها كذلك، لكننا سنرى الآن أن القياس يدعم هذا الرأي.

كانت ديانا بشكل رئيس إلهة الغابات، كما كانت سيريس إلهة الحنطة وباكوس إله الخمر. وكانت مقامات هؤلاء في الغابات. وكانت جميع الغابات مقدسة بالنسبة لـ ديانا وهي غالباً تترافق في الوقْف مع إله الغابات سيلفانوس. لكن ومهما كان أصلها، لم تكن ديانا إلهة الأشجار فحسب، بل تطوَّرت مثل أختها الإغريقية أرتيميس لتشمل تشخيص ولادات الطبيعة بشكليها الحيواني والنباتي. وكونها سيدة الغابة الخضراء، ساد اعتقاد أن كل ما في تلك الغابات من وحوش أليفة أومتوحشة وكل الحيوانات التي تترصد فريستها في أعماق الأدغال المعتمة، والتي تمضغ الأوراق والأغصان النضرة، أو التي تحصد النباتات في الفسحات والمنخفضات، كل هذه كانت تحت سيادة ديانا. وبهذا تصبح الإلهة أم الصيادين والرعاة، تماماً كما كان سيلفانوس إلهاً للغابة والماشية. وفي فنلندة كانت تُعتبَر الوحوش البرية قطعانَ إله الغابة تابيو وزوجته الجميلة المهيبة. ولا يُقْدِم أحد على ذبح أي من هذه الحيوانات إلا بإذن مالكيها من الآلهة. لهذا كان يصلي الصياد لآلهة سيلفان وينذر لهم العطايا ويقدم الذبائح على ممرهم. وكذلك كانت أرواح الغابة تلك تؤمن الحمايةَ للماشيةُ، أينما كانت في المريط أو ترعى في الغابة. قبل أن يصطاد قوم غايو الأيل والماعز البري والخنازير والكلاب في غابات سومطرة، لابد لهم من الحصول على إذن سيد الغابة اللامرئي. وكان الحصول على هذا الإذن يتم وفق طريقة موصوفة بإشراف خبير في الغابات. يضع الخبير مضغة من التنبول أمام وتد مقصوص بطريقة معينة كي يمثل إله الغابة. وبعد ذلك يقوم بالصلاة على الروح ويبين في صلاته قبوله أو رفضه. ويخبرنا إريان في بحثه الذي تناول موضوع عادة السلتين القديمة التي يقدمون فيها أضحية سنوية الصيد لـ آرتيميس في عيد ميلادها، وذلك بشرائهم الأضحية من مالٍ جُمِع خصيصاً لخزانتها من غرامات على

كل ثعلب أو أرنب أو ظبية قُتِلَت في أثناء تلك السنة. وتبين هذه العادة أن الحيوانات البرية هي من ممتلكات الإلهة ومن الواجب تعويضها عن طريق الذبيحة.

لم تكن ديانا راعية الوحوش البرية وسيدة الغابات والتلال والفُرْجَات في الغابات والأنهار الخرَّارة فحسب بل كانت في نظرهم القمر، وخاصة قمر الحصاد الأصفر، فهي التي تملأ المزارع بالثمار الفحلة وتسمع صلوات النساء أثناء مخاضهن. وفي أيكها المقدس في نيمي كانت تُعبَد على أنها إلهة الولادات التي تمنح الذرية للنساء والرجال. لهذا نرى أن ديانا، مثل آرتيميس الإغريقية التي تُعَرَّف من خلالها، تُوصف بأنها إلهة الطبيعة بشكل عام وإلهة الخصب بشكل خاص. لاعجب أن تُمثَّل في مقاماتها في روما على شكل وثن أيفيان آرتيميس متعددة الأثداء، ومُحاطة بجميع الرموز المفعمة بالحيوية والإخصابية. ومن هنا نرى السبب الذي جعل القانون الروماني القديم المعزو إلى الملك تولوس هوستيليوس يقضي أنه عندما يُرتَكب سفاح القربى يجب أن تُقدَّم أضحية تكفيرية من قِبَل الحبر الأعظم في مقام ديانا. وكما نعلم أن جريمة سفاح القربى تسبب المجاعة لذلك من الواجب تقديم الكفارة لآلهة الخصب.

وبناء على المبدأ القائل بأن إلهة الخصب يجب أن تكون هي نفسها خصبة، يتعين على ديانا أن تمتلك شريكاً ذكراً. وإذا صدقت تعاليم سيرفيوس فقد كان زوجها هو فيربيوس الذي تَمثَّل أو على الأرجح تجسَّد في ملك الغابة في نيمي. ويهدف اتحادهما إلى تحسين إثمارية الأرض والبشر، ومن الطبيعي أن يؤمنوا أنه لا يمكن ضمان هذه الإثمارية إلا عن طريق إقامة حفلات زفاف كل سنة يتم فيها تمثيل دَوْرَي العريس والعروس بصور عنهما أو برجل وامرأة حيَّين. لم يذكر أي كاتب قديم أن هذه الحفلات قد أُقيمت في غابة نيمي، ومعرفتنا عن شعائر أريسيا ضئيلة جداً لكن الحاجة لهذه المعلومات لاتُعتبر دحضاً للنظرية. وبغياب الدليل القاطع، لابد من الاعتماد على القياس بعادات مماثلة تُمارَس في أماكن أخرى. وقد شرحنا في الفصل السابق أمثلة عن هذه الأدوات التي وهنت وانحرفت عن شكلها الأصلي نوعاً ما. أما الآن فنبحث بمثيلاتها القديمة.

2ـ زواج الآلهة

في بابل ارتفع مقام بعل بجلالٍ مثل الهرم فوق المدينة على سلسلة من أبراج أو طبقات ثمانية يعلو كل منها الآخر. وعلى البرج الأعلى الذي يمكن الوصول إليه بصعود لولبي حول بقية الأبراج، هناك معبد واسع وفيه سرير عظيم مفروش بوسادات فخمة وأغطية فارهة متدلية وبجانبه منضدة ذهبية. ليس هناك ثمة صورة واحدة ولا يمكن لكائن بشري أن يمضي ليلة هناك باستثناء امرأة واحدة على حد زعم كهنة تشالدين والتي اختارها الإله من بين كل نساء بابل. وقالوا إن الإله نفسه دخل المعبد ليلاً ونام في السرير العظيم مع المرأة التي لايمكن لها أن تضاجع أي رجل لأنها زوجة الإله.

وفي طيبة المصرية كانت تنام امرأة في معبد آمون على اعتبارها زوجة للإله، ومثل الزوجة البشرية لبعل في بابل، قالوا إنها لا تضاجع رجلاً قط. ويُشار إليها في النصوص المصرية على أنها " الزوجة الإلهية" وهي تتمتع بشخصية لاتقل أهمية عن ملكة مصر ذاتها. لأنه وحسب المعتقدات المصرية يتم الحصول على الملكية من الإله آمون الذي يأخذ شكل الملك الحاكم ويمارس الجنس مع الملكة وهو على هذا الشكل. وقد تم نقش وتلوين الإنجاب الإلهي بكامل التفاصيل على جدران أقدم معبدين في مصر وهما دير البحري والأقصر ولا تترك المخطوطات الملحقة بالرسوم أي شك حول المعنى المقصود من المشاهد.

وفي أثينا كان يتزوج إله العنب دايونيسوس من الملكة سنوياً ويبدو أن الخطبة وإتمام الزواج (الدُّخلة) الإلهي كان يحصل في هذا الطقس لكننا لا ندري إن كان دور الرجل تقوم به صورة أم رجل حقيقي. وعلمنا من أرسطو أن الطقس يحصل في مكان الإقامة الرسمية للملك والمعروفة باسم **حجرة الماشية** وهي بجانب مجلس المدينة في السفح الشمالي الشرقي لجبل أكروبوليس. لا يمكن أن يكون الهدف من الصورة إلا تأمين خصوبة عرائش العنب وسائر الأشجار المثمرة التي كان دايونيسوس إلهها. وهنا تتساوق هذه الطقوس شكلاً ومضموناً مع زيجات ملك وملكة أيار.

في الطقوس السرية التي تُقام في أيليوسيس في شهر أيلول يتمثل اتحاد إله السماء زيوس مع إلهة الحنطة ديميتر خلال اتحاد هيروفنت(الكاهن الإغريقي

القديم) مع كاهنة ديميتر. لكن جماعهما درامي ورمزي فقط لأن هيروفنت يشل قدرته الرجولية مؤقتاً باستخدامه نبات الشوكران. وبعد إطفاء المشاعل يهبطان إلى مكان معتم بينما ينتظر حشد العابدين بقلقٍ بالغٍ نتيجة العملية الغامضة التي يعتمد عليها خلاصهم. وبعد فترة يظهر هيروفنت وبلمح البصر يخرج للناس سنبلة القمح التي أتت ثمرةَ زواجهما الإلهي. ثم يصرخ بصوت مرتفع: "الملكة بريمو قد أنجبت ولداً مقدساً وهو بريموس، فالقادرون ينجبون القادرين." في الحقيقة لقد أنجبت أم الحنطة ولدها وكان مخاضها في الدراما السرية. ويبدو أن ظهور الحنطة المحصودة هو تتويج ذلك الطقس السري. وخلف هذه الهالة من الأبهة التي أحاطت الشعائر بالشعر والفلسفة في العصور اللاحقة، مازال يتراءى – وكأنه منظر للشمس خلف السديم – ذلك الاحتفال الريفي البسيط الذي كان يقام من أجل أن يعم الخير الوفير سهل أيليوسيان الواسع خلال تزويج إلهة الحنطة لإله السماء الذي يخصب الأرض الجرداء بالزخات التي تدب فيها الحياة. وكل بضع سنوات يحيي شعب باتايا بويوتيا احتفالاً يدعى دايدالا الصغير والذي يقطعون فيه شجرة سنديان من الغابة القديمة ويحفرون على الشجرة صورةً ويلبسونها كالعروس ويضعونها وإلى جانبها وصيفتها على عربة يقودها عجل. ثم يجرونها إلى ضفة نهر أسوبوس ويعيدونها ثانية إلى المدينة محاطة بالرقص والزمر. وكل ستين سنة يقوم شعب بويوتيا كله باحتفال دايدالا العظيم وفيه تُجر صور مماثلة يبلغ عددها الأربع عشرة وقد جُمِعت من احتفالات أصغر إلى نهر أسوبوس ومن ثم إلى قمة الجبل حيث تُحرق كلها في محرقة كبيرة. والمقصود من هذا المثال هو زواج زيوس من هيرا الذي توحيه هذه الاحتفالات بتمثيل صورة السنديان في لباس العروس. وفي السويد وكل سنة تُجَرُّ صورة فري بالحجم الطبيعي ـ و هو إله الخصب الحيواني والنباتي – في أنحاء البلد على عربة ترعاها فتاة جميلة تُدعى زوجة الإله. وتقوم أيضاً بوظيفة الكاهنة في معبده العظيم في أبسالا. وعندما تأتي العربة وعليها صورة الإله وعروسه، يحتشد الناس لاستقبالهما ويقدمون لهما الأضاحي لأجل سنة مثمرة.

إذن انتشرت عند الأمم القديمة عادة تزويج الإله إما من صور أو من كائنات بشرية. والفكرة التي تعتمد عليها العادة بسيطة جداً إلى درجة أنها تجعلنا نعتقد أن الأمم المتحضرة مثل البابليين والمصريين والإغريق قد ورثوها عن أجدادهم البدائيين.

وتصبح هذه الفرضية أقوى عندما نجد أن الطقوس من النوع نفسه واسعة الانتشار في أوساط الشعوب الأقل تحضراً. فمثلاً بلغنا أن قوم وتياكس في مقاطعة ماليز في روسيا مروا يوماً ما في عدة مواسم سيئة متتابعة. ولم يجدوا حيلة لحل مشكلتهم حتى تبين لهم أخيراً أن إلههم اللّعوب والمؤذي كرمنت غاضب لأنه غير متزوج. فقام وفد من الكبار بزيارة وتياك كورا وتم التشاور والتوصل إلى تفاهم بشأن الموضوع. وعندما عادوا إلى بيوتهم أعدُّوا كمية كبيرة من الخمر وجهزوا عربة تجرها أحصنة بكامل فرش الفرح وقادوها في موكب بالأجراس الرنانة متجهين إلى الغابة المقدسة في كورا وكأنهم يزفّون عروساً إلى بيتها الزوجي. وهناك أكلوا وشربوا الخمر بابتهاج طوال الليل، وفي الصباح التالي قصوا قطعة مربعة من العشب وأخذوها إلى قريتهم. وحصلوا على فائدة من تصرفهم هذا، لكنها فائدة أتت مصيبة على أهالي كورا لأن تحسن الخبز في ماليز سبب سوء الخبز في كورا. لذا وقع كبار كورا تحت ملامة وسخط أهلهم لأنهم وافقوا في بادئ الأمر على هذا الزواج. ويقول الكاتب الذي ينقل القصة: " ليس من السهل تخيل ما قصدوه من طقس الزواج هذا. ربما و كما يعتقد بيكتيريو قصدوا تزويج كيرمنت من ماكيلسن زوجة الأرض اللطيفة والمثمرة لكي تؤثر فيه لمصلحتهم." وكذلك عندما حُفِرت الآبار في بنغال، قام الأهالي بصنع صورة خشبية للإله وتم تزويجه لإلهة الماء.

غالباً ما تكون الفتاة التي حكم عليها مصيرها أن تكون زوجة الإله هي امرأة حية وليست غيمة أو شجرة. وقد عُرِف عن هنود قرية في بيرو أنهم يزوجون فتاة جميلة في الرابعة عشرة من عمرها لصنم حجري على شكل رجل يعتبرونه الإله هواكا. ويشارك جميع أهالي القرية في طقوس الزواج هذا والتي تدوم ثلاثة أيام يسودها الكثير من العربدة. لكن الفتاة تبقى عذراء وتُذبح كأضحية للوثن لأجل خير الناس. يُبدون لها الجلال المطلق ويعتبرونها إلهة. وفي كل سنة في أواسط آذار عندما يبدأ صيد السمك بالشبكة يزوج أهالي آلغونكن وهيورون شباكهم لفتيات صغيرات في السادسة أو السابعة من العمر. وفي احتفال الزواج توضع الشبكة بين فتاتين وتُحَض على التقاط أكبر عدد من الأسماك. وكان السبب في اختيارهن صغيرات السن هو ضمان عذريتهن. ويعود أصل هذه العادة إلى القصة التالية. في

إحدى السنوات عندما أتى موسم صيد السمك نصب قوم ألونغوين شباكهم كالعادة لكنهم لم يجنوا شيئاً. اندهشوا لإخفاقهم وعجزوا عن التصرف حيال الأمر حتى ظهرت لهم روح الشباك أوكي على شكل رجل طويل القامة ملئ الجسم، و قال بأسىً:" لقد فقدت زوجتي، وليس هناك مثلي في العزلة أحد، لذلك لم تنجحوا، ولن تفعلوا حتى تجدوا حلاً لمشكلتي."بناءً على ذلك عقد أهالي ألغونكوين مجلساً قرروا فيه أن يخلصوا روح الشباك من معاناته عن طريق تزويجه باثنتين من صغار فتياتهم كي لا يكون له مبرر للتذمر في المستقبل. وبعد أن قاموا بذلك عاد صيد السمك كما يحبون ويرضون. انتشر الخبر عند جيرانهم قوم هيورون فاتبعوا العادة نفسها. تُخصص حصة من السمك المصطاد لعائلتي الفتاتين اللتين مَثَّلتا دَوْرَي عروسي الشباك لتلك السنة.

ويعبد قوم أوراس في البنغال الأرضَ على أنها إلهة ويحتفلون بزواجها سنوياً من إله الشمس ضرم عندما تبرعم شجرة سال. ويكون هذا ضمن الطقوس التالية. يستحم الجميع ويهرعون إلى الغابة المقدسة سارنا بينما يجتمع النساء في منزل كاهن القرية. وبعد ذبح بعض الطيور إكراماً لإله الشمس وروح الغابة يأكل الرجال ويشربون. ثم يعود الكاهن إلى القرية على أكتاف رجل عتيد. وإلى مشارف القرية تخرج النساء لمقابلة الرجال ويغسلن أقدامهم. ثم يتجه الجميع بالطبل والزمر والغناء والرقص والقفز إلى بيت الكاهن المُزيَّن بأوراق الشجر والزهور. ثم يقيمون العرس المعتاد لتزويج الكاهن من زوجته كرمز لزواج الشمس من الأرض. وبعد ذلك يأكل الناس ويشربون ويمرحون ويرقصون ويغنون الأغاني الفاحشة. وأخيراً ينغمسون بأكبر العربدات. والهدف من هذا كله هو جعل الأرض الأم مثمرة. وهكذا يُحتفل بزواج الشمس والأرض متمثلتين بالكاهن وزوجته كسحر للتأكيد على خصوبة الأرض، وللغرض نفسه ـ وعلى مبدأ السحر التعاطفي التجانسي ـ ينغمس الناس بعربدة فاسقة.

والجدير بالذكر هنا أن الكائن الخارق الذي تُزوَّج له النساء غالباً ما يكون إلهاً أو روح الماء. لذلك كان موكاسا ـ و هو إله بحيرة فكتوريا نايانزا ـ يُستَعطَف من قبل قوم باغاندا في كل مرة يذهبون في رحلة بحرية طويلة ويخصصون له اثنتين من العذراوات لتخدماه كزوجتين. وكما كان يفعل قوم فيستال، عليهم أن يتعففوا

جنسياً لكنهم خلافاً لقوم فيستال يبدو أنهم غالباً يخونون إخلاصهم. وظلت هذه العادة سارية حتى تنصر قوم موانغا. يعبد قوم أكيكويو في أفريقيا البريطانية الشرقية ثعبان نهر معين. وكل بضع سنوات يزوِّجون إله الثعبان للنساء وخصوصاً الفتيات الصغيرات. ولإقامة هذا الزواج يأمر ببناء أكواخٍ أطباءُ القرية الذين أتموا زواجهم المقدس من نساء نذرن أنفسهن لدينِهن. وإذا رفضت الفتيات الذهاب إلى أكواخهن بالعدد المطلوب، يُقْبَضُ عليهن ويُجَرَّن إرضاءً للإله. أما المولودون جراءهذه الجماعات السرية فيتبناهم الإله ناغاي؛ وبالتالي هناك أولاد عند هذا القوم يُعتَقد أنهم أولاد الله. ويقال إنه ذات مرة عندما هدد بالدمار عددٌ كبير من التماسيح سكانَ جزيرة كايلي في بيرو، عَزَوا هذه المصيبة إلى رغبة أمير التماسيح بفتاة معينة فأجبروا والد الصبية العزباء على أن يلبس ابنته لباس عروس ويضعها في قبضة التمساح العاشق.

ويروى أن مثل هذه الزيجات قد انتشرت في جزر المالديف قبل إسلام أهلها. ووصف لنا الرحالة العربي إبن بطوطة تلك العادة وكيفية انتهائها. أكّد لنا أن أناساً موثوقين من أهالي الجزر والذين حدد أسماءهم أخبروه أنه عندما كانوا وثنيين كان يظهر لهم كل شهر روح شريرة من الجان الآتين من البحر على شكل سفينة مملوءة بالمصابيح المشتعلة. وكانت العادة أن يزين الأهالي عذراء صغيرة ويقودها إلى المعبد الوثني على الشاطئ الذي له نافذة مطلة على البحر. يتركون العذراء هناك طوال الليل وعندما يأتون في الصباح يجدونها ميتة وفاقدة لعذريتها. وكل شهر كانوا يقيمون القرعة فيما بينهم وعلى من تقع عليه القرعة أن يسلم ابنته لجني البحر. وتم إنقاذ آخر تلك النساء على يد بربر التُّقي الذي أعاد الجني إلى البحر عندما رتل القرآن.

تشبه رواية ابن بطوطة عن العفريت العاشق وزواجه من عروسات إنسية تشبه الحكاية الشعبية المعروفة التي وُجِدت لها أشكال كثيرة في اليابان وآنام في شرق سينيغامبيا واسكندنافيا واسكتلندة في الغرب. تختلف الحكايات في بعض تفاصيلها من شعب إلى آخر لكنها تسير على خط عام وهو أنه ابتليت بلد معينة بأفعى متعددة الرؤوس أو وحش ما يهدد بالدمار الناس كلهم إذا لم تُقدَّم له ضحية وبشكل دوري وعموماً تكون هذه الضحية عذراء. الكثير من الضحايا قضين حتى

وقعت القرعة على ابنة الملك. ويتم عرضها على الوحش لكن بطل الحكاية وهو غالباً من منبت متواضع يتدخل للدفاع عنها ويقتل الوحش ويتزوج الأميرة مكافأة على بطولته. في الكثير من الروايات يوصف الوحش على أنه ثعبان يسكن ماء البحر أو بحيرة أو نبع. وفي روايات أخرى هو ثعبان أو تنين يحتل الينابيع ويمنع جريان الماء ولايسمح للناس بالاستفادة من الماء حتى يقدموا له الضحية.

من الخطأ اعتبار كل هذه الروايات خيالاً محضاً من راويها. بل الأصح أن نعتبر أنها تعكس العادة الحقيقية للتضحية بالفتيات والنساء ليقمن بدور زوجات أرواح الماء التي يتخيلونها على شكل ثعابين أو تنانين جبارة.

الفصل الثالث عشر
ملوك روما وألبا

1ـ نوما وايجيريا

نستنتج من التحقيق في هذه الأسطورة أو العادة أن زواج قوى الماء والخضرة المقدس قد احتُفِل به من قبل شعوب عديدة بغية الرفع من خصوبة الأرض التي تعتمد عليها الحيوانات والناس، وأن رجلاً أو امرأة قد يلعبان دور العريس أو العروس في هذه الشعائر. وهذا ما يشجع حدسنا أنه في الغابة المقدسة في نيمي، حيث تظهر قوى الخضرة في الأشكال الجميلة لظلال الغابات، والشلالات الساقطة والبحيرة الزجاجية، كان يتم الاحتفال بزواج ملك وملكة أيار سنوياً بين ملك الغابة الإنسي وملكة الغابة الإلهية ـ ديانا. في هذا المضمار تظهر شخصية مهمة في الغابة وهي حورية الماء إيجيري التي عبدتها النساء الحاملات لأنها مثل ديانا تسهل عليهن عملية الوضع. ونستنتج من هذا أنه مثل العديد من الينابيع الأخرى تتمتع مياه إيجيري بقوة تسهيل الحمل بالإضافة إلى تسهيل الوضع. وأما النُذُر الموفاة التي وجدت في الموقع والمتعلقة بإنجاب الأطفال تدل على أنها قُدِّمت لإيجيريا أكثر منه إلى ديانا، أو ربما يمكننا القول إن حورية الماء إيجيري هي فقط شكل آخر لإلهة الطبيعة العظيمة ديانا، وسيدة الأنهار الخرارة والغابات الظليلة والتي اتخذت مسكناً لها في البحيرة ومرآةً لها في المياه الساكنة، والتي أحب نظيرها الإغريقي أرتيميس أن يسكن البرك والينابيع. ويؤكد تطابق إيجيريا وديانا قول بلوتارك أن إيجيريا هي إحدى حوريات السنديان التي اعتقد الرومان أنها ترأس كل غابة سنديان خضراء في حين كانت ديانا إلهة الغابات بشكل عام، ويبدو أنها ارتبطت بشكل وطيد بالسنديان خاصة لاسيما في الغابة المقدسة نيمي. ربما كانت إيجيريا جنيَّة الينبوع الذي يتفجر من أسفل السنديانة المقدسة. ويقال أن هذا الينبوع تدفق من أسفل سنديانة عظيمة

في دودونا وأنه من خريره استلهمت الكاهنة الوحي. وساد بين الإغريق اعتقاد أن شربة ماء واحدة من ينابيع أو آبار مقدسة كفيلة بمنح قوة التنبؤ. هذا مايبررالحكمة الإلهية التي تلهمها إيجيريا لزوجها الملكي أو عشيقها نوما. وعندما نتذكر كيف كان الملك في القديم مسؤولاً عن هطول المطر وإثمارية الأرض، يتبين لنا بوضوح أنه في أسطورة زواجات نوما وإيجيريا هناك ذكرى للزواج المقدس الذي أقامه ملوك روما بانتظام مع إلهة الخضرة والماء لتمكنهم من إظهار ألوهيته ووظائفه السحرية. في شعيرة كهذه يمكن أن تلعب دور الإلهة إما صورة أو امرأة أو ربما الملكة نفسها. وإذا كان توقعنا هذا صحيحاً فإن ملك وملكة روما قد ادعيا أنهما إله وإلهة عند زواجهما، تماماً كما فعل ملك وملكة مصر. وتشير أسطورة نوما وإيجيريا إلى أن الغابة المقدسة كانت مسرحاً للتزاوج الشبيه بتزاوج ملك وملكة أيار أو إله العنب وملكة أثينا وهما اللذان احتُفِل بزواجهما سنوياً كسحر لتأمين خصوبة الأرض والإنسان والدواب. وحسب بعض التقارير كانت الغابة المقدسة في نيمي هي مسرح الزواج الوحيد وبناء على المبرر نفسه لنا أن نفترض أن الغابة المقدسة هي مكان زواج ملك الغابة من الإلهة ديانا. ولتقارب مضمارَي البحث يصبح من المرجح أن الاتحاد الأسطوري بين ملك روما وإيجيريا هو نسخة مطابقة عن زواج ملك الغابة من ديانا أو مثيلتها أيجيريا. هذا لايقتضي بالضرورة أن يكون ملوك روما قد قاموا بوظيفة ملك الغابة في غابة أريسيا على الاطلاق، لكنهم استُثمِروا يوماً ما كشخصية مقدسة من النوع نفسه، وأنهم شغلوا شروط المنصب نفسه. ولنكن أكثر وضوحاً، من الممكن أنهم لم يحكموا بحق الوراثة لكن بفضل ألوهيتهم كممثلين أو مجسدين للإله عن طريق ارتباطهم بإلهة وعليهم أن يثبتوا كفاءتهم من فترة إلى أخرى ليقوموا بوظائفهم الإلهية من خلال جدارتهم بالقيام بعمل بطولي أو يتركوا التاج للخصم المنتصر. إن معرفتنا عن الملكية الرومانية أقل من أن تمكننا من التأكيد على أحد هذه الافتراضات دون الآخر؛ لكن هناك على الأقل بعض الإشارات هنا وهناك أو دلالات التشابه في هذه النقاط بين كهنة نيمي وملوك روما أو ربما بين أسلافهم البعيدين في العصور المظلمة التي سبقت فجر الأسطورة.

2ـ الملك كجوبيتر

في المقام الأول يبدو أن الملك الروماني متشخص بالإله جوبيتر نفسه. وحتى العصر الأمبراطوري ظل القواد العسكريون المنتصرون والحكام الفائزون في ألعاب السيرك يلبسون لباس جوبيتر الذي يستعيرونه من معبده العظيم في الهيكل؛ وهناك احتمالية كبيرة أن تكون العادة قد سادت عند القدامى والمعاصرين من الملوك الرومان الذين يُقَلِّدون اللباس التقليدي وأوسمة الشرف. كانوا يركبون عربة تسوقها عبر المدينة أحصنة متوجة بالغار في حين يمشي الجميع على أقدامهم، وكانوا يلبسون أردية بنفسجية اللون مطرزة أو موشحة بالذهب وفي اليد اليمنى غصن من الغار واليسرى صولجان من العاج نُقِش نسرٌ على أعلاه، وإكليل من الغار على جبينهم، وكانت وجوههم تُحَمَّر بالزنجفر وفوق رأسهم عبد يحمل تاجاً مدججاً بالذهب المُصاغ على شكل أوراق السنديان. بهذا المظهر يأتي تشبيه الإنسان بالإله من الصولجان الذي يعلو النسر ومن تاج السنديان والوجه الأحمر. فالنسر هو إبن جوف كبير آلهة اليونان، والسنديانة شجرة مقدسة، وصورته الحمراء وهو واقف في العربة رباعية الأحصنة في الهيكل كانت تتكرر بانتظام في أثناء الاحتفالات؛ وكان تحمير السمات الإلهية في غاية الأهمية لدرجة أنها واجب أساس يأخذه المراقب الأخلاقي على عاتقه. وبما أن موكب النصر ينتهي دائماً في معبد جوبيتر عند الهيكل، كان من المناسب أن يُشَّرف المنتصر الأكبر بتاج من ورق السنديان ليس لأن كل سنديانة وقف لجوبيتر فحسب بل لأن رومولوس بنى معبد جوبيتر قرب شجرة سنديان مبجلاً من قبل الرعاة والتي عليها كان يعلق الملك غنائمه التي غنمها من قائد العدو في المعركة. وقد بلغنا بخشوع كبير أن تاج السنديان مقدس في معابد جوبيتر. وهناك نص للشاعر الروماني أوفيد يثبت أنه كان رمز الإله الخاص.

لامبرر لرفض الفكرة التقليدية القائلة إن من بنى روما هم أناس أتوا من ألبا لونغا، وهي مدينة على سفوح تلال ألبا ومطلة على بحيرة كامبانا. لذلك إذا ادعى ملوك روما أنهم ممثلون لجوبيتر إله السماء والرعد والسنديان، فمن الطبيعي أن يدعي ملك ألبا الذي بنى أحفاده روما الادعاء نفسه. ويلاحظ أن السلالة الألبانية تحمل اسم سيلفي أو الغابة. ومغزى هذا الاسم هو أنه من منطلق الأمجاد التاريخية

لروما والتي تلهمها أينياس من العالم السفلي، ظهر فيرجل الشاعر القديم كممثل لسلالة سيلفي المتوجة بالسنديان. ويبدو أن إكليل أوراق السنديان كان جزءاً من أوسمة ملوك ألبا لونغا مثل أوسمة من تبعهم من ملوك روما. وفي كلتا الحالتين تدل هذه الأوسمة على أن الملك هو ممثل إله السنديان. وقد دُوِّن في الحوليات الرومانية أن أحد ملوك ألبا، وهو إما رومولوس وريمولوس أو ربما كان تحديداً أموليوس يلفيوس نصَّب نفسه إلهاً مساوياً لجوبيتر الأعلى. ولكي يدعم ادعاءه ويرهب رعاياه أنشأ آلات تصدر صوتاً كالرعد ووميضاً كالبرق. وقتّت ديدوراس ذلك في موسم الإثمار عندما يكثر الرعد، وأمر الملك جنوده بإغراق هدير المدافع الإلهية بضرب سيوفهم على الدروع. لكنه دفع ثمن كفره وصار هباءً منثوراً من جراء ضرب صاعقة لبيته في أثناء العاصفة المميتة. ابتلعت الأمطار البحيرة وفاضت حتى أغرقت قصره. وماتزال – كما يقول المؤرخ القديم – أثار القصر في قعر البحيرة ويمكنك رؤيتها عندما تكون المياه ضحلة وهادئة. تشير هذه الرواية مع مثيلتها رواية سالمونيوس ملك إيليس، إلى عادة حقيقية اتبعها الملوك قديما في إيطاليا واليونان والذين – مثل ملوك أفريقيا اليوم ـ طُلِبَ منهم أن ينتجوا المطر والرعد لأجل محصول جيد. وهنا يتحول ملك نوما الكاهن إلى خبير في جلب البرق من السماء. وإذا كان سحر المطر من خلال تقليد الرعد منتشراً بين العوام في أيامنا هذه فلماذا لا يكون قد انتشر بين الملوك في قديم الزمان؟

إذا كان ملوك ألبا وروما قد قلَّدوا جوبيتر كإله للسنديان بوضعهم تاج من ورق السنديان، لماذا لا يكونوا قد قلدوه أيضاً كإله للطقس وتظاهروا أنهم يصنعون الرعد والبرق. وإذا فعلوا ذلك فمن الممكن جداً أن يكونوا قد قاموا بدور سحرة عامين مثل جوبيتر في السماء والكثير من الملوك على الأرض، وعصروا بسحرهم زخات المطر عصراً من السماء الداكنة، كلما انشوت الأرض يصرخون طالبين الغيث المنعش. في روما كانت بوابات ماء السماء تُفتَح بواسطة الحجر المقدس ويبدو أن الطقوس شكلت جزءاً من شعائر جوبيتر إليسيوس، وهو الإله الذي يستخرج البرق الومَّاض والقطرات المطَّارة من الغيوم. ومن أنسب من الملك للقيام بأداء هذا الطقس وهو الممثل الحي لإله السماء؟

وإذا كان ملوك روما قد قلدوا هيكل جوف فأحرى بأسلافهم ملوك ألبا أن يكونوا قد قلدوا جوبيتر اللاتيني العظيم والذي كان مجلسه على قمة فوق المدينة الواقعة على أعلى جبل ألبا. ويقال إن جدهم الأسطوري الأول تحول إلى جوبيتر لاتيني بعد اختفائه من عالمهم بطريقة غامضة مثل ملوك لاتين القديمة. كما شكل مقام الإله على قمة الجبل مركزاً دينياً لاتحاد المدن اللاتينية لأن ألبا كانت عاصمتهم السياسية قبل أن تنتزع روما الريادة من أندادها القدامى. ومن الواضح أنه لم يُقَم معبد بمعنى الكلمة لجوبيتر على جبله المقدس بل كان يتلقى الأضاحي من عابديه في العراء. أما الجدار الضخم الذي بقي منه بعض الآثار والذي مازال يحيط بفناء **تاركوين الفخور**، آخر ملوك روما، فيشير إلى الاجتماع السنوي المقدس لاتحاد المدن اللاتينية. كان أقدم مقام على قمة الجبل الشاهقة هو عبارة عن أيك لإله السنديان جوبيتر بالإضافة إلى احتوائه على تاج ملك ألبا السندياني وما يماثله في هيكل جوبيتر في روما. ولنا أن نرجح أن تكون أشجار الأيك من السنديان. ومن المعروف أنه كانت قمة الجبل ألجيدوس مغطاة بغابات السنديان الداكنة. ومن بين القبائل التي انتمت إلى اتحاد المدن اللاتينية في ماضي الزمان وشاركت في الثور الأبيض المذبوح على قمة ألبا، مجموعةٌ سمَّت نفسها رجال السنديان أسوة بالغابات التي يعيشون فيها.

لكننا نخطئ إذا صورنا لأنفسنا أن البلاد كانت مغطاة بغابة سنديان متواصلة. هذا ثيوفراستوس يصف غابات لاتيوم كما كانت في القرن الرابع قبل الميلاد، قال:" يسود بلاد اللاتين كلها الرطوبة. وينمو الآس والغار في السهوب بالإضافة إلى الزان الجميل. وكان يكفي جزع شجرة واحدة منها لاستخدامه كعارضة رئيسة لسفينة تبحر في بحر تيراهنيا. أما الصنوبر والتنوب فينمو في الجبال. وما يسمونه أرض سيرس هو عبارة عن لسان بري يغطيه شجر السنديان والآس والغار الفاخر. ويقول الأهالي أن سيرسي كانت تعيش هناك ويدلون على قبر إلبينور الذي ينمو منه الغار كما تُصنَع الأكاليل وتتطاول أشجار الغار." إذن كان المنظر من قمة ألبا في أيام روما القديمة مختلف بشكل ما عما هو الآن. أما سلسلة الجبال وكانت جبال أبينين البنفسجية والتي جمعت الهدوء الأبدي والاضطراب المتوسطي الدائم فكانت تبدو مثل ما تبدو اليوم، تارة زاهية في أشعة الشمس وتارة

مختفية تحت ظلال الغيوم الداكنة لكن بدلاً من وقوعها في حمى كامبانا البنية تمتد بخطوط طويلة مع قنوات المياه وكأنها أقواس مكسرة من جسر كما يراها ميرزا، ولابد لنظرنا أن يتسارع ملاحقاً الغابات التي امتدت أميالاً وأميالاً على الجانبين حتى تتدرج خضرتها من قرمزي خريفي وذهبي منصهر إلى أن تتحول إلى زرقة الجبال البعيدة التي تنتهي عند البحر.

لكن جوبيتر لم يكن الملك الوحيد في أعالي هذه الجبال المقدسة بل كانت زوجته الإلهة جونو تسكن معه وكانت تُعبَد تحت اللقب نفسه، مونيتا، كما تظهر في هيكل روما. وكما أن تاج السنديان كان مقدساً في هيكل جوبيتر وجونو كذلك كان بديهياً أن يُقدَّس في جبل ألبا لأنه منحدر من نفس العبادة. إذن كان لإله السنديان إلهة سنديان في غابة السنديان المقدسة. لهذا كان يقترن إله السنديان زيوس في دودونا مع ديون وهو الاسم الذي يختلف فقط باللهجة عن جونو؛ لهذا كنا نراه دائماً يُزوَج من حين إلى آخر من صورة السنديان هيرا عند قمم ثيسايرون. ومن المحتمل ـ ولايمكن إثبات ذلك ـ أن يُحتَفَل بزواج جونو المقدس سنوياً من قبل الذين يعود أصلهم إلى الأرومة اللاتينية في الشهر الذي أطلقوا عليه تسمية الإلهة وهو شهر منتصف الصيف جون (June).

وكما كان الاحتفال بالزواج المقدس لجوبيتر وجونو يتم بغض النظر عن زمنه من السنة، كان يحتفل الإغريق بزواج مماثل بين زيوس وهيرا. هنا لنا أن نفترض أن الاحتفال كان يُقام في الجمهورية بصور الزوجين المقدسين التي يمثلها فلامين دياليس وزوجته فلامينيكا. كان فلامين دياليس كاهن جوف واحترمه الكتاب القدامى والجدد على أنه صورة جوبيتر الحية وتجسيد بشري لإله السماء. وفي غابر الزمان لابد أن ملك روما — كونه ممثل لجوبيتر — كان يلعب دور العريس الإلهي في هذا الزواج المقدس في حين لعبت الملكة دور العروس الإلهية، تماماً كما كان يتنكر ملك وملكة مصر في شخصيتين إلهيتين كما كانت تتزوج ملكة أثينا سنوياً من إله العنب دايونيسوس أيضاً. يبدو أن لعب ملك وملكة روما لدوري جوبيتر وجونو شيىء طبيعي لأن الإلهين نفسيهما كانا يحملان اسم الملك والملكة.

إن كان هذا حاصل أو غير حاصل، تبقى أسطورة نوما وإجيريا مجسِّدة لذكرى زمان كان فيه الملك الكاهن يمثل العريس الإلهي. ورأينا الأسباب التي

جعلتنا نفترض تجسيد ملوك روما بإله السنديان في الوقت الذي كانت إجيريا حورية السنديان وتثير قصة اتحادهما في الغابة المقدسة افتراض أن روما كانت بمرحلة فخامتها الملكية مقراً سنوياً لاحتفال مماثل كان يُقام في أثينا في زمن أرسطو. ويماثل زواج ملك روما من إلهة السنديان زواج إله العنب من ملكة أثينا يُقصَد من كليهما تسريع نمو الخضرة عن طريق السحر التعاطفي التجانسي. ولا يبقى لنا مجال للشك خلال شكلَي هذين الطقسين في أن روما كانت الأقدم وأنه قبل عثور الغزاة الشماليين بزمن طويل على العنب عند شواطئ البحر الأبيض المتوسط كان أجدادهم يزوِّجون إله الشجر من إلهة الشجر في غابات السنديان الواسعة التي غمرت شمال و وسط أوروبا. وفي إنكلترا المعاصرة اختفت معظم الغابات ولكن استمرت في الكثير من القرى الخضراء في الأرياف صورة خافتة لزواج مقدس في الاحتفال الريفي الجليل بعيد أيار.

الفصل الرابع عشر
وراثة المَلَكية في لاتيوم القديمة

عند بحثنا في كيفية توريث الملك الروماني لمهامه الكهنية إلى خلفه ملك الطقوس المقدسة، توصلنا إلى النتائج التالية: يمثل الملكُ الإلهَ جوبيتر بل يشخصه بالفعل. فجوبيتر هو العظيم ملك السماء والرعد والسنديان وهو الذي يصنع المطر خلال شخصيته تلك، وهو الذي يجلب الرعد والبرق لأجل رعاياه شأنه شأن آلهة الطقس في جميع أنحاء العالم. فهو لايقلد إله السنديان فحسب بل يرتدي إكليل السنديان وأوسمة الألوهية الأخرى، ويتزوج من حورية السنديان إجيريا التي تبدو شكلاً محلياً لديانا في شخصية إلهة الغابات والماء وولادة الأطفال. لقد توصلنا إلى هذه النتائج عبر الآلهة الرومانية والتي من الممكن جداً أن تنطبق على سائر المجتمعات اللاتينية. وربما كان لتلك المجتمعات أيضاً آلهتهم القدامى وملوكهم الكهنة الذين نقلوا مهامهم الدينية بعيداً عن سلطتهم المدنية إلى خلفائهم ملوك الطقوس المقدسة.

لكن مازال علينا أن نسأل، ما القاعدة التي اتبعتها قبائل اللاتين القديمة في تعاقب الملكية؟ حسب التقليد السائد كان هناك ثمانية ملوك لروما ولا يمكننا أن نشك في أن الخمسة الأخيرين قد جلسوا على العرش وفق تقليد تاريخي صحيح. والجدير بالملاحظة أنه رغم تحدّر الملك الأول لروما **رومولوس** كما يقال من البيت الملكي في ألبا والذي فيه تنتقل الملكية بالوراثة عبر الخط الذكري، لم يُخْلَف أي ملك من ملوك روما بابنه المباشر رغم أن للعديد منهم أبناء وأحفاد. ومن ناحية أخرى تحدّر أحدهم من ملك سابق عبر أمه وليس أبيه، وثلاثة منهم تحديداً: تاتيوس، وتاركوين الأكبر وسيرفيوس توليوس، خَلَفَهم أبناء حماهم الذين كانوا إما أجانب أو متحدرين من أصل أجنبي. يدعونا هذا إلى التفكير بأن الملكية كانت تنتقل عبر

الخط الأنثوي وكان يحصل هذا فعلاً عبر زواج الأجانب من أميرات ملكيات. وإذا أردنا وضع الفكرة بلغة تقنية نقول: كان يحكم تعاقب الملكية في روما وربما في لاتيوم قواعد معينة صاغت المجتمع القديم في أنحاء كثيرة من العالم، وتحديداً الأباعدية أو القرابة الأنثوية. الأباعدية هي القاعدة التي تجبر الرجل على زواجه من امرأة تنتمي إلى قبيلة غير قبيلته، الأمر الذي يجعل الرجل يترك مسقط رأسه ويعيش مع أهل زوجته، وهنا تصبح القرابة الأنثوية هي نظام تتبع القرابة ونقل اسم العائلة عبر النساء بدلاً من الرجال. وإذا كان هذا هو المبدأ الذي نظم توريث الملكية عند اللاتين القدامى، فسوف تكون الأمور على الشكل التالي: يكون المركز الديني والسياسي لكل مجتمع في النار دائمة الاشتعال في موقد الملك الذي ترعاه عذراوات فيستا في الأسرة الملكية. ويكون الملك من قبيلة أخرى، وربما كان من مدينة أخرى أو عرق آخر، وتزوج من ابنة سلفه واستلم الملكية معها. يرث أولادهما اسم الأم وليس اسم الأب، وتبقى البنات في بيتهن في حين يرحل الأبناء في الأرض ليستقروا مع زوجاتهم ملكات كن أم من العوام في بلد آخر. أما بعض أو كل البنات الباقيات في بيوتهن فيكرسن أنفسهن لخدمة النار في موقد الملك وقتاً قد يطول أو يقصر، لتصبح إحداهن زوجةً لخلف أبيها.

هناك فرضية تفسر الطريقة الطبيعية والبسيطة لبعض سمات التاريخ التقليدي لملكية لاتين. وهنا يصبح للأساطير التي تحكي عن ولادة الملوك من أمهات عذراوات وآباء إلهيين معنى أعمق. وإذا ماعرينا هذه الأساطير من عنصرها الخرافي، لايبقى لهذه الحكايات سوى مغزى واحد وهو أن المرأة أنجبت ولداً من أب مجهول، والريبة في الأبوة تتساوق مع نظام النسب الذي يهمل أصل طرفٍ ويركز على طرفٍ هو كلي الأهمية. وإذا كان آباء الملوك اللاتين مجهولين عند ولادتهم، فيدل هذا إما على انحلال عام في حياة الأسرة الملكية أو على تراخ معين في القواعد الأخلاقية في مناسبات معينة يعود فيها الرجال والنساء إلى فسوق عهود سابقة. فأعياد الإله ساتورن لم تكن نادرة في بعض مراحل التطور الاجتماعي. وفي بحثنا الخاص عن هذه الأعياد في الأرياف نرى أن هذا الفسوق قد مورس ولفترة طويلة في عيد أيار أو أسبوع العنصرة، هذا إن لم يكن أيضاً في عيد ميلاد المسيح. والأولاد الذين يولدون بالجماع غير الشرعي في احتفالات من هذا النوع ينسبون إلى الذي أُقيم الاحتفال على شرفه.

في هذا المضمار تبرز أهمية احتفال الابتهاج الصاخب والسُّكر الذي كان يقيمه العوام والعبيد في روما في يوم منتصف الصيف، وهو الاحتفال الذي ارتبط بالملك سيرفيوس توليوس المولود من النار، والذي يُقام على شرف فورتونا الإلهة التي أحبت سيرفيوس كحب إجيريا لنوما. وكان المرح العام في هذا الموسم يتضمن سباقاً على الأقدام وسباق القوارب، وكان يسعد نهر التايبر بالقوارب المكللة بالورود والتي يعب فيها الناس الخمر عبًّا. يبدو الاحتفال وكأنه نوع من ساتورناليا منتصف الصيف وتقليداً لساتورناليا الحقيقي الذي كان يصادف في منتصف الشتاء. وفي أوروبا المعاصرة كما سنعلم لاحقاً، صار احتفال منتصف الصيف العظيم احتفالاً لمحبي النار والذي اتسَّم بلقاء الأحبة الذين يقفزون فوق النار الموقدة متشابكي الأيدي أو يلقون الورود لبعضهم بعضاً من فوق اللهب. والكثير من نُذُر الحب تأتي من الورود التي تبرعم في هذا الموسم السري. إنه موسم الورود والحب. مع هذا فإن براءة وجمال احتفال كهذا يجب الا يعمينا عما كان يجري فيه من أمور أعمق في الماضي والتي كانت جوهر الطقس. وبالفعل استمرت هذه الأمور إلى جيلنا إن لم يكن إلى يومنا هذا عند فلاحي إستونيا البسطاء. وعلينا أيضاً ان نلحظ ميزة أخرى للاحتفال الروماني في منتصف الصيف، وهي تجديف قوارب مفروشة بالورود في النهر، الأمر الذي يثبت أنه كان إلى حد معين احتفالاً مائياً. فالماء لعب دائماً الدور الأكبر في طقوس منتصف الصيف وهذا مايفسر رمي العباءة في الاحتفال الوثني القديم والذي تخصصه الكنيسة للقديس يوحنا المعمدان.

أما الفرضية القائلة بأن ملوك اللاتين قد يولدون في احتفال الحب السنوي هو مجرد حدس، على الرغم من أن ولادة نوما التقليدية كانت في احتفال باريليا حيث يقفزالرعاة من فوق نيران الربيع كما يقفز العشاق من فوق نار منتصف الصيف، ربما زاد على طيف الفكرة لوناً من الاحتمالية. لكن من الممكن الشك في أن اباءهم ربما لم يظهروا حتى وقت طويل بعد موت الملوك، عندما بدأت شخصياتهم بالذوبان في دنيا أحلام الحكايات الخرافية. ولو كانوا مهاجرين غرباء وحجاج في أرض حكموها، لكان من الطبيعي أن ينسى الناس نسبهم، ويزودهم نسيانهم هذا بنسب آخر محاط ببريق بعيد عن الحقيقة. ولم ينبثق هذا التمجيد الذي أحاط بالملوك من الآلهة فحسب بل انبثق من كون الملوك تجسيداً للآلهة، خصوصاً في حياتهم، وما يبرر هذا هو ادعاؤهم الألوهية.

وإذا بقيت النساء ذات الدم الملكي في موطنهن وتزوجن من رجال من عرق آخر، وغالباً من بلد آخر وحكم هؤلاء الرجال كملوك بفضل زواجهم من أميرات ملكيات، هنا لانفهم سبب حمل الغرباء للتاج في روما فقط بل نجد مبرراً لنزول الأسماء الغريبة في قائمة ملوك ألبا أيضاً. وفي المجتمع الذي تُحسب فيه النبالة عبر النساء، ليصبح النسب للأم هو كل شيء، والنسب للأب لا شيء، وينتفي أي حرج بارتباط الفتيات من أعلى المقامات برجال من منبت وضيع أو حتى مع غرباء أو عبيد شريطة أن يكون أولئك الرجال أزواجاً مناسبين. ويبقى المهم هو أن العرق الملكي، الذي من المفروض أن يعتمد عليه إزدهار ووجود الشعب، يجب ان يُخلَّد بطريقة فعالة وحيوية، ولتحقيق هذا الغرض، يتوجب على نساء العائلة الملكية أن تحملن أطفالاً من رجال أقوياء جسدياً وراجحين عقلياً بمقاييس المجتمع القديم ليحقق الواجب المهم وهو التناسل. لهذا تُعتبر الميزات الشخصية للملك ذات أهمية حيوية. ولا ضير في كون الرجال من الأسرة الملكية ومن أصل إلهي، وإن لم يكن فالأمر ليس على شيء من الأهمية.

وفي أثينا كما في روما، نرى آثاراً لتعاقب العرش عبر الزواج من أميرة ملكية لاثنين من أقدم ملوك أثينا، تحديداً سيكروبس وأنفيكتايون اللذين تزوجا من ابنتي سلفيهما. إن هذا التقليد مدعَّم ببراهين تبين أن القرابة الأنثوية في أثينا سابقة للقرابة الذكرية.

وإذا لم أكن مخطئاً في افتراض أن العائلات الملكية في لاتيوم القديمة قد احتفظت ببناتها وأرسلت أبناءها ليتزوجوا أميرات ويحكموا أهل زوجاتهم، هذا يعني أن يحكم الأبناء الذكور أجيالاً متعاقبة وفي عدة ممالك. ويبدو أن هذا ما حصل في بلاد الإغريق القديمة والسويد القديمة الأمر الذي يدل على أن هذا العرف قد ساد شرعاً ومُورس من قبل أكثر من فرع من السلالة الآري في أوروبا. وتروي الكثير من العادات الإغريقية كيف يترك الأمير موطنه الأصلي ويرحل إلى بلد بعيد ويتزوج من ابنة الملك ويرث المملكة. ويرجع الكثير من الكتاب الإغريق هجرة الأمراء إلى هذا السبب. وشاع سبب آخر وهو اختفاء ابن الملك لجريمة ارتكبها. لكن هذا يفسر هروبه من بلده الأصلي لكنه لا يقدم مبرراً لكونه ملك في بلد آخر. ولنا هنا أن نشك في أن هذه أسباب استُنبطَت لاحقاً من قبل كتَّاب اعتادوا

على مبدأ إرث الابن لأملاك أبيه و مَلَكِيته، ويصعب عليهم تبرير عادة ترك أبناء الملوك لموطنهم الأصلي وملكهم في مملكة غريبة. ونصادف بعض آثار هذه العادة في التقاليد الاسكندنافية، حيث نقرأ عن أصهرة يشاركون في ملكية حماهم الملك حتى مع وجود أبناء لذلك الملك وخاصة خلال خمسة الأجيال التي سبقت هارولد ذا الشعر الأشقر، والأعضاء الذكور في عائلة ينغلينفر التي يُقال أنها أتت من السويد والتي حُكي عنها في القصص الأيسلندية ساغا والتي استولت على ست مناطق نرويجية على الأقل عن طريق الزواج من بنات ملوك محليين.

لهذا يبدو أنه في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي عند الشعوب الآري، جرت عادة اعتبار النساء القناة التي يمر منها الدم الملكي ووهبت تلك الشعوب الملكية في كل جيل لرجل من عائلة أخرى، أو من بلد آخر يتزوج إحدى الأميرات ويحكم قوم زوجته. وهناك نمط شائع من الحكايات الشعبية ـ بقيت ذكرى لتلك العادة الحقيقية ـ والتي تروي عن مغامر أتى من بلاد بعيدة وفاز بيد ابنة الملك التي بيدها نصف المملكة أو جميعها.

إذا كانت هذه هي الأفكار و الممارسات السائدة، فيصبح واضحاً أن المَلَكية كانت حصيلة زواج من امرأة من الدم الملكي. ويضع المؤرخ الدنمركي القديم ساكسو غراماتيكو هذه النظرة للملكية بوضوح في حديثه عن هيروترود، وهي ملكة أسكتلندة الأسطورية قائلاً: " كانت ملكة بالفعل ولو لا أنها أنثى لكانت هي الملك، لا بل الأصح، كل من تعتبره مستحقاً لسريرها كان ملكاً على الفور، وتسلمه مملكتها بنفسها. لهذا كان صولجانها ويدها مترافقين." تحمل هذه العبارة مغزى كبيراً لأنها تعكس ممارسة فعلية عند ملوك قوم البيكت. ونعرف أيضاً من خلال شهادة بيد أنه عندما يحصل شك في توريث الملكية، يلجأ البيكت إلى اختيار ملوكهم من الخط النسائي بدلاً من الخط الذكري.

من الطبيعي أن تختلف الميزات المطلوب توافرها بالرجل المناسب للمصاهرة الملكية حسب اختلاف الأفكار المنتشرة من وقت إلى آخر حول شخصية الملك أو بديله، لكن من المنطقي أن يحتل الجمال والقوة الجسدية المكانة الأبرز حسب قيم المجتمع البدائي.

يرتبط أحياناً الحق في الحصول على يد الأميرة والعرش بالفوز بسباق معين. فهؤلاء قوم أليتيميان ليبيا يمنحون المملكة لأقوى عدَّاء. وعند بعض البروسيين يتسابق المرشحون للنبالة على الخيل باتجاه الملك، ويحظى بدرجة النبالة أول الواصلين إلى الملك. وجرت العادة في الألعاب الأولمبية القديمة أن يقودها إنديميون الذي يأمر أولاده بالجري لأجل المملكة. ويقال إن قبره هو النقطة التي يبدأ منها المتسابقون جريهم. وربما كانت قصة هيبوس وهيبوداميا هي نسخة أخرى للأسطورة التي تحكي عن أولى السباقات التي لاتقل جائزة الفائز بها عن المملكة.

ربما تعكس هذه التقاليد عادات حقيقية في السباق للفوز بيد العروس لأن هذه العادات انتشرت عند الكثير من الشعوب رغم تضاؤلها عند الممارسة لتظهر على أنها مجرد شكل أو تمثيل. لذلك "هناك سباق يدعى **مطاردة الحبيب** وهو جزء من مراحل الزواج عند قوم كيرغيز، وفيه تتسلح العروس بسوط غليظ وتعتلي حصاناً رشيقاً سريعاً، ويطاردها الشباب الذين يطمحون إلى الحصول عليها. تكون هذه الفتاة من نصيب من يلحق بها ويلتقطها، لكن يبقى لها الحق في استحفاز حصانها واستخدام سوطها ببراعة للابتعاد عن عاشقيها الذين لاترغب بهم، وربما تفضل أحدهم اختارته استجابة لنداء قلبها. " وتوجد عادة السباق نحو العروس عند قوم الكورياك في شمال شرق أسيا. ويقوم السباق في خيمة كبيرة أُقيمت حولها حجرات منفصلة على شكل دائرة تدعى واحدتها بولوغ. تبدأ الفتاة بمحاولة الجري عبر هذه الحجرات دون أن يلتقطها أحد، وإذا نجحت في ألا يلتقطها العريس تكون قد تحررت من الزواج منه. تضع نساء المخيم كل العوائق أمام الرجل مثل تعثيره أو ضربه بالقضبان وما شابه، كي تتضاءل فرصته في النجاح إلا إذا كانت الفتاة راغبة به ومنتظرة إياه. وقد مورست مثل هذه العادات عند جميع شعوب تيوتون، لأن اللغات الألمانية والأنغلوسكسونية والنرويجية تستخدم عبارة **سباق العروس** للتعبير عن الزواج. الدليل الأكبر على ذلك هو وجود آثار لهذه العادة حتى يومنا هذا.

وهكذا يصبح الحق في الزواج من فتاة وخاصة أميرة هو جائزة تُمنح خلال سباق رياضي. ولم يعد مستغرباً إذاً أن يلجأ الملوك الرومان إلى هذه الطريقة القديمة في اختبار مؤهلات أصهرتهم المستقبليين وخلفائهم عندما يعرضون بناتهم للزواج. وإذا كانت نظريتي صحيحة، فإن الملك الروماني كان يتشخص جوبيتر وتتشخص الملكة عشيقته الإلهيه، وفي هاتين الشخصيتين تقوم طقوس الزواج المقدس بهدف

التسبب بنمو المحاصيل ورفع إثمارية الرجال والماشية وتكاثرهم. وبهذا يقومون بما نعتقد أنه قام به ملك وملكة أيار في مناطق أعمق في الشمال في قديم الزمان. رأينا الآن كيف أن الحق في لعب دور ملك أيار والزواج من ملكة أيار يُكسَب أحياناً خلال منافسة رياضية، وخصوصاً السباق. وربما كان هذا أثراً باقياً لعادة بحثناها توّاً، عادةً تهدف لاختبار لياقة المرشح للزواج. من المنطقي أن يكون هذا الاختبار قد جرى بقسوة كبيرة للتأكد من عدم وجود نقص يجعل الشخص عاجزاً عن أداء طقوس وشعائر ومهام مدنية وعسكرية يعتقدونها أساساً لسلامة وازدهار المجتمع. ومن الطبيعي أن يُطلَب منه ومن وقت إلى آخر أن يجدد قواه لاجتياز محنةٍ كي يبرز أمام الجمهور استمرار كفاءته لأداء المهام العليا. وهناك أثر لهذه العادة باقٍ في طقس معروف بـ **هروب الملك**، وظل يُقام سنوياً في روما حتى العهد الأمبراطوري. وفي الثاني والعشرين من شباط تُقدَّم أضحية في الكوميتيوم ـ المجلس العسكري، وبعدها يهرب ملك الطقوس المقدسة من الاجتماع. وربما كان هروب الملك أصلاً سباقاً للملكية السنوية التي تُقدَّم كهدية لأسرع عدَّاء. وفي نهاية السنة قد يهرب الملك ثانيةً لأجل فترة إضافية في منصبه، ويظل هكذا حتى يُهزَم ويعزل أو ربما يُقتَل. بهذه الطريقة يتحول ما كان سابقاً سباقاً ليأخذ شكل هروب ومطاردة. يبدأ الملك بالجري ثم يلحق به المنافسون، وإذا ما استطاعوا اللحاق به كان لزاماً عليه أن يسلِّم التاج لأسرعهم وربما يسلِّم حياته مع ذلك التاج. وفي مرحلة معينة ساد فيها شخصية قوية استمر على العرش بشكل دائم وجعل السباق السنوي أو الهروب مجرد شكل فارغ المضمون حتى بدا لهم شكلاً تاريخياً. وكان يُقام الطقس أحياناً على اعتباره إحياءً لذكرى طرد الملك من روما؛ لكن هذا تفكير ما بعديّ استُخدم لاحقاً لتبرير طقس أصبح معناه القديم منسياً. وعلى الأرجح أن يكون تمثيل دور ملك الطقوس المقدسة هو مجرد الحفاظ على عادة قديمة كانت تُقام سنوياً في مرحلة ملكية من قبل ملوك سابقين. وتبقى الضرورة الأصلية للطقس مجرد حدس. والمقصود من التفسير الحالي إظهار المعنى الواسع للصعوبة والإبهام اللذين ينخرط فيهما موضوع البحث.

إذا صدقت نظريتي في أن هروب الملك الروماني سنوياً هو أثر باق من زمن كانت به الملكية منصباً يمنح سنوياً مع يد الأميرة لرياضي فائز أو محارب مجالد (gladiator) يلعب دور العريس مع الأميرة كإله وإلهة في زواج مقدس يهدف إلى

تأمين الخصب للأرض عن طريق السحر التعاطفي ـ التجانسي. وإذا كنتُ محقاً في فرضيتي عن تشخيص الملوك في لاتين القديمة للإله وأنهم يُعدَمون بشكل منتظم وهم في شخصياتهم تلك، نستطيع أن نفهم أكثر سبب النهاية العنيفة التي يُقال إن الكثير منهم انتهى بها. ورأينا أنه حسب العادة، يُقتل أحد ملوك ألبا بصعقة هائلة وبجحود تقليداً لهدير صاعقة جوبيتر. ويقال إن رومولوس قد انتهى نهاية غامضة مثل إينياس أو ربما قطّعه إرباً النبلاءُ الذين كان يكرههم، وكان السابع من تموز ـ يوم قتله ـ هو مهرجان شبيه ببعض أوجهه بـ ساتورناليا. لذلك سُمح للإماء أن يحصلن على حريات كثيرة في ذلك اليوم، إذ كُنَّ يرتدين لباس الأحرار من النساء، ويغادرن المدينة بعباءات سيداتهن ويسخرن من كل من يلتقين به ويدخلن معه في مشاجرة بالضرب ورمي الحجارة. أما ثاني الملوك الذين انتهوا نهاية عنيفة هو تاتيوس زميل رومولوس من قوم سابين. يُقال إنه كان في لافينيوم يقدم أضحية عامة لآلهة سلفيين عندما دهمه رجال مستاؤون منه بمِدىً وسهامٍ أخذوها من المذبح. توحي مناسبة القتل وطريقته بأن ذبحه كان أضحية أكثر منه قتلاً. وكذلك تولولس هوستيليوس خَلَف نوما، يُقال إنه قُتل بصاعقة، في حين يرجح الكثير أنه قُتل بتحريض من أنكوس مارسيوس الذي خَلِفَه في الملك. وكما يقول بلوتارك عن ملوك نوما الكهنوتيين الأسطوريين، " تعززت سمعتهم إنه منخلال الخير الذي يعم خلفاءهم من الملوك. هذا لأنه من الخمسة الذين حكموا بعده، أُقصي آخرهم عن المُلك ومات في المنفى، ولم يمت الأربعة الآخرون ميتة طبيعية؛ فثلاثة منهم ذُبحوا وقضى تولوس هوستيليوس بضربات صاعقة."

وتوحي هذه الأساطير التي تحكي عن موت ملوك روما أن المنافسة التي كانوا يكسبون فيها العرش كانت أحياناً نزالاً مميتاً أكثر منه سباقاً. وإذا كانت الحال هكذا يصبح التشابه الذي تعقبناه بين روما ونيمي أقرب. ففي الحالتين يتعرض ممثلو الإله الأكبر لخطر العزل والموت على يد أي رجل عازم يثبت حقه الإلهي في المنصب المقدس من خلال ذراعيه القويتين وسيفه الماضي. ولم يعد مدهشاً أن يُحسَم الحق بالملكية عند اللاتين القدامى من خلال نزال وحيد؛ لأنه وحتى فترات تاريخية ظل قوم اومبريا يحتكمون بانتظام في نزاعاتهم الخاصة إلى المعركة، وكل من يقطع حنجرة خصمه يكون قد أثبت عدالة موقفه فوق أي اعتراض.

الفصل الخامس عشر
عبادة السنديان

ظهرت عبادة شجرة السنديان الخاصة بإله السنديان عند كل الفروع ذات الأصل الإرياني في أوروبا. وارتبطت تلك الشجرة عند الإغريق والإيطاليين بأسمى آلهتهم – زيوس وجوبيتر – إلهيّ السماء والمطر والرعد. وربما كان أقدم المقامات وأشهرها في اليونان هو مقام دودونا حيث يُبَجَّل زيوس في شجرة السنديان النبوئية. ويقال إن العواصف الرعدية التي كانت تقصف في دودونا كانت أكثر بكثير من أي مكان آخر في أوروبا وهذا ما يجعل المنطقة منزلاً للإله الذي كان يُسمَع في خشخشة أوراق السنديان وعجيج الرعد. وربما بقصد محاكاة الرعد كانت ترن الأجراس البرونزية مع الريح حول المقام حتى سُمِعَت تجلجل وتجرُسُ في الوديان المتجهمة الكئيبة التي تطبق عليها الجبال الجدباء. وكما رأينا في بويوشيا كيف كان الاحتفال المقدس بزواج زيوس وهيرا، إله السنديان وإلهة السنديان، يبدو أكثر هيبة عندما يقوم به مجموعة من الدول الدينية. وفي قمة ليكايوس في أركاديا تظهر شخصية زيوس بوضوح كإله للسنديان والمطر في السحر المطري الذي يمارسه كاهن زيوس عندما يغمس غصن بلوط من النبع المقدس. ولقدرته هذه، كان يصلي له الإغريقيون لأجل المطر. يبدو الأمر بمنتهى الطبيعية؛ لأنه غالباً وليس دائماً كان يأخذ زيوس مقامه على الجبال حيث تتجمع الغيوم وينمو السنديان. وعلى قلعة في أثينا كانت هناك صورة للأرض وهي تصلي لزيوس لأجل المطر. وفي أوقات الجفاف كان يصلي أهالي أثينا قائلين: "المطر المطر، يا عزيزنا زيوس، المطرعلى حقول الحنطة وسهول أثينا."

زيوس هو الذي يأتي بالبرق ويسوق المطر. وكان يُعبَد في أولمبيا وفي أمكنة أخرى تحت لقب العاصفة الرعدية؛ وهناك في أثينا مصلى زيوس البرق على جدار

المدينة، حيث كان الكهنة يراقبون البرق من فوق قمة بارنيس في مواسم معينة من السنة. كما كان يُسوِّر الإغريق المكان الذي تضربه الصاعقة ويكرسونه لنزول زيوس، أي للإله الذي نزل مع البرق من السماء. وكانت تُقام المذابح ضمن هذه المسوَّرات لتقدَّم بها الأضاحي. وهناك الكثير من هذه الأمكنة التي حكت عنها الكتابات المنقوشة في أثينا.

لذلك عندما يدعي ملوك الإغريق أنهم نزلوا من زيوس، أو حتى حملوا اسمه، لنا أن نفترض أنهم حاولوا ممارسة هذه المهمة الإلهية بصنعهم الرعد والمطر لخير شعبهم أو لإخافة أعدائهم وإيقاع الفوضى في صفوفهم. وبهذا ربما تعكس أسطورة سالمونيوس إدعاء طبقة كاملة من الملكيات الصغيرة التي حكم كل منها في قديم الزمان منطقته في أعالي أراضي اليونان المغطاة بالسنديان. ومثل أقاربهم ملوك أيرلندا، كان يُطلب منهم تأمين الخصب للأرض وإخصابية المواشي. فكيف لهم أن يلبوا هذه الحاجات بشكل يفوق تمثيل الدور من قبل قريبهم زيوس، ملك المطر والسنديان العظيم؟ لقد تشخصوه علانية كما تشخص الطليان جوبيتر.

في أيطاليا القديمة كان السنديان مقدساً عند جوبيتر، مثيل زيوس، وكان يُعبَد الإله في الهيكل في روما ليس كإله السنديان فحسب بل كإله المطر والرعد. وعند مقارنة التقوى السائدة تلك الأيام مع الشكوكية في عصر لم يؤمن فيه أحد بأن السماء هي سماء، أو يحرصون على تقديم حبة تين لجوبيتر، يخبرنا الكاتب الروماني أنه في قديم الزمان اعتادت سيدات نبيلات على الذهاب حافيات، مسدلات شعورهن، وصافيات الذهن إلى أعلى سفح الهيكل وهن يصلين لجوبيتر لأجل المطر. ويتابع الكاتب قائلاً أن المطر كان يصب صبًا ويعود الجميع كجرذان مبللة. ويتابع القول: " أما هذه الأيام فلم يعد الناس متدينين لذلك ترى الحقول تتشوى جفافاً."

عنما ننتقل من جنوب أوروبا إلى وسطها نظل نصادف إله السنديان العظيم بين البرابرة الآريين الذين يسكنون الغابات البكر الواسعة. ومن بين سلتيي غاول لايرى قوم درويد أقدس من نبتة الدِّبق والسنديان اللتين تنموان عليه؛ واختاروا غابات السنديان كمكان للخدمة المقدسة ولا يؤدون أياً من شعائرهم دون أوراق السنديان. يقول الكاتب الإغريقي:" يعبد السلتيون زيوس ويمثلونه على شكل شجرة سنديان طويلة." وقد حمل المحتلون السلتيون الذين استقروا في آسيا في القرن الثالث قبل

الميلاد معهم عبادة السنديان إلى موطنهم الجديد؛ لأنه في قلب آسيا الصغرى مرٌّ السيناتور الغالاتي في مكان يحمل اسم درايينميتوم (غابة السنديان المقدسة) أو (معبد السنديان)" وبالفعل تعتقد مراجع موثوقة أن اسم درويد لايعني أكثر من (رجال السنديان)."

احتل تبجيل الغابات المقدسة المقام الأول في الديانة الألمانية القديمة، وكانت شجرة السنديان أقدس الأشجار. ويبدو أنها سُخِّرت لإله الرعد، دونار أو ثونار، الكلمة المرادفة للكلمة النرويجية ثور، لشجرة سنديان مقدسة قرب جيسمار في هيسي، التي قطعها بونيفيس لاعتبارها وثنية في القرن الثامن، وكانت تحمل اسم **سنديانة جوبيتر** التي تعني في الألمانية القديمة **سنديانة دونار**" وخلال إله الرعد التيوتوني دونار، وثونار، وثور يظهر إله الرعد الإيطالي جوبيتر من الكلمة التي نستخدمها اليوم Thursday أي يوم ثونار التي يعادلها في اللغة اللاتينية dies Jovis. وعند التيوتونيين كما عند الإغريق والطليان، كان إله السنديان هو أيضاً إله الرعد وكان يُعتبر القوة المخصبة العظيمة التي ترسل المطر وتسبب إثمارية الأرض. وهذا آدام من بريمين يخبرنا قائلاً: " يمارس ثور سلطته في الجو؛ فهو الذي يحدد الرعد والبرق، الرياح والمطر، الطقس الجميل والمحصول." وبناءً على هذا يشبه إله الرعد التيوتوني مثيله الجنوبي زيوس وجوبيتر.

ويبدو أن شجرة السنديان كانت شجرة بيرون إله الرعد عند السلافيين، وهو نظير زيوس وجوبيتر. ويُقال إنه في نوفغورود كانت هناك صورة لبيرون على شكل إنسان يحمل بيده حجر الرعد. وكانت نيران السنديان تُوقَد على شرفه ليلاً نهاراً؛ وإذا انطفأت يدفع المسؤولون عنها حياتهم ثمناً لذلك. يبدو أن بيرون كان مثل زيوس وجوبيتر هو كبير الآلهة لدى شعبه فهذا بركوبيوس يخبرنا قائلاً: " يعتقد السلافيون أن أحد الآلهة – صانع البرق – هو وحده سيد الأشياء كلها وأنهم يذبحون له الثيران وكل الأضاحي."

وكان الإله الرئيس عند الليتوانيين هو بيركوناز أو بيركونز، إله الرعد والبرق ويشير الكثير إلى شبهه بزيوس وجوبيتر. وكان السنديان مقدس بالنسبة إليه، وعندما كانت تُقطع الأشجار من قبل البعثات التبشيرية المسيحية كانت تتعالى أصوات الناس احتجاجاً على تدمير آلهتهم. وكانت النار مستمرة الاشتعال من

خشب أشجار سنديان معينة على شرف بيركوناز؛ وإذا انطفأت هذه النار كانت تُشعَل ثانية بكسرات الخشب المقدس. ضحَّى الرجال لشجر السنديان لأجل محاصيلهم، كما ضحت النساء لأشجار الدِّبْق؛ هذا مايجعلنا نستنتج أنهم يعتبرون السنديان ذكراً والدبق مؤنثاً. وفي أوقات الجفاف كانوا يضحون بعجل أسود، وبمَعِزٍ أسود لإله الرعد في أعماق الغابات. ويتجمع الناس في مثل هذه المناسبات بأعداد كبيرة من بلدات مجاورة ويأكلون ويشربون ويدعون لبيركوانز. وكانوا يحملون وعاءً من البيرة ويدورون به ثلاثاً حول النار، ثم يصبون الشراب الكحولي على اللهب، وهم يصلُّون للإله ليرسل المطر. إذن كان الإله الرئيسي عند الليتوانيين شبيه جوبيتر وزيوس كونه إله السنديان والرعد والمطر.

وهكذا يتبين لنا من البحث الحالي أن إله السنديان والرعد والمطر كان يُعبَد قديماً من قبل جميع فروع العرق الآري في أوروبا وكان بالفعل الإله الرئيس في هيكل آلهتهم.

الفصل السادس عشر
ديانوس وديانا

في هذا الفصل رأيت أن نعيد باختصار النتائج التي قادتنا إليها تساؤلاتنا ونجمع الشعاعات المبعثرة لنسلطها على الشخص الأسمر وهو كاهن نيمي.

رأينا أنه في المراحل الأولى للمجتمع البشري ولجهل الناس بالعمليات الخفية للطبيعة وللحدود الدقيقة المتاحة أمام قدرتهم على التحكم بتلك العمليات وتوجيهها ادّعوا لأنفسهم عمليات نعتبرها نحن في أيامنا هذه أعمالاً إلهية أو فوق بشرية. وكانت تُعزَّز هذه الإدعاءات الزائفة بالأسباب التي أنجبتها، وتحديداً، الوحدة والنظام العجيبين اللذين كانت تقوم الطبيعة بعملها خلالهما مدوِّرةً عجلتها بكل سلاسة ودقة تُمَكِّنُ المراقب الصبور من تنبئه بالفترة، إن لم يكن بالساعة، التي تحقق فيها الطبيعة آماله وتبدد مخاوفه. وسرعان ما انطبع في ذهن البدائي تكرار الأحداث في هذه الدورة العظيمة، أو ربما سلسلة الدورات. ثم بدأ يتنبأ بها، وتنبؤه بها يجعله يخطئ التكرار بتأثير إرادته الخاصة أو بالتأثير المعاكس بفعل إرادة أعدائه. وهكذا بدت الزنبركات التي تشغل الآلة الكبيرة، ورغم أنها خفية وراء سر لا نحلم بكشفه، بدت للإنسان الجاهل أنها في متناوله: وتصور أنه يستطيع لمسها وتشغيلها بفن السحر لخيره وشر أعدائه. وبعد فترة تبين له زيف معتقداته واكتشف أن هناك أشياء لا يستطيع أن يقوم بها، ومنافع لا يقدر على جلبها لنفسه، ومعاناة لا يمكن لأقدر السحرة أن يتخلص منها. وهكذا أصبح الخير بعيد المنال والشر المحتوم يُعزى لفعل قوى غير مرئية، رِضاها يعني الحياة والسرور، وغضبُها يعني الموت والبؤس. وهنا حل الدين مكان السحر، والكاهن مكان الساحر. وفي هذه المرحلة الفكرية كانت تُدرَك غائيات الأشياء على أنها كائنات شخصية، كثيرة في عددها ومتنافرة في صفاتها، تشاطر طبيعة الإنسان وحتى

ضعفه على الرغم من أنها تفوقه قوة وتتعدى حياتُها وجودَ الإنسان سريع الزوال. وبما أنها حصيلة فلسفة ضعيفة لم تتحدد بعد حدودها الواضحة وفرديتها المميزة، فتذوب وتلتحم في أساسٍ ظاهرةٍ طبيعيةٍ وحيدة ومجهولة، والتي وحسب الميزات التي يوظفها لها خيالنا، تتضوي تحت أسماء رنانة ابتكرها الإنسان ليخفي جهله. وبالتالي، ومادام أن الناس نظروا إلى الآلهة على أنها كائنات قريبة منهم لاتسمو لمكانة مستحيلة البلوغ، رأوا أنه من الممكن أن يفوقوها عدداً ليبلغوا المستوى الإلهي في الحياة وبعد الموت. وربما كانت الآلهة المتجسدة في البشر من هذا النوع تقع في منتصف الطريق بين عصر السحر وعصر الدين. وإذا كانوا يحملون أسماء الآلهة ويظهرون أبَّهتها، فمن المفروض أن يبرعوا بمهام كان يقوم بها سلفُهم الساحر. ومن المتوقع منهم أن يؤمِّنوا الحماية لشعبهم من السحر الشرير، ويشفوه من المرض، ويباركوا له في ذريته، ويزودوه بمورد وفير من الغذاء من خلال تنظيم الطقس وأداء الشعائر الضرورية لتأمين الخصب على الأرض وتكاثر الحيوانات. ومن الطبيعي هنا أن يبلغ أعلى المراتب أولئك الذين يتمتعون بقوى عالية وبعيدة المدى، وفي وقت لم تتسع الهوة بين الروحانية والدنيوية، استطاعوا بلوغ المكانة العليا في الأمور المدنية والدينية، وبكلمة أخرى، كانوا ملوكاً وآلهةً في الوقت نفسه. لذلك نرى أن للسياج الإلهي الذي يحمي الملك جذوراً عميقة في التاريخ البشري، وظل الأمر على هذا النحو عصوراً طويلة قبل ضعف هذه الحماية أمام تكوين نظرة أعمق عن الإنسان والطبيعة.

في الحقبة الكلاسيكية للإغريق واللاتين القديم كان حكم الملوك في معظمه شيئاً متعلقاً بالماضي؛ وتكفي قصص نسبهم ولقبهم وخيلائهم لإثبات ما ادعوه من ممارسة لقوى خارقة وحكمهم بحق إلهي. لذلك وبلا أية مغالاة نرى أن ملك غابة نيمي على الرغم من تجريده فيما بعد من المجد وهبوطه في أيام الشر، كان يمثل سلسلة مقدسة طويلة من الملوك الذين تلقوا يوماً التبجيل والهيام من رعاياهم مقابل التبريكات المتعددة التي افترضوا أنهم وزعوها عليهم. والقليل الذي نعرفه عن ديانا في غابة أريسيا كاف لإثبات أنها إلهة الخصب، وخصوصاً الولادة. ومن المنطقي جداً أن تكون قد أُعينت على القيام بمهامها تلك من قبل كاهنها، ليأخذا شخصيّتيْ ملك وملكة الغابة في الزواج المقدس، الذي كان الغرض منه

جعل الأرض تزهو ببراعم الربيع وبثمار الخريف، وأن تفرح قلوب الرجال والنساء بذرية معافاة.

وإذا شغل كاهن نيمي منصب الملك بالإضافة إلى إله الغابة، لنا أن نسأل: أي الآلهة كان يجسده تحديداً؟ الجواب حسب آثار العصور القديمة، كان يمثل فيربيوس زوج وعاشق ديانا. لكن هذا الجواب لن يعيننا كثيراً لأننا لا نعرف عن فيربيوس أكثر من اسمه. ربما كان مفتاح اللغز في نار عذراوات فيستا التي كانت تُضرَم في الغابة. فالنار المقدسة التي كانت تُضرم وتُخدم بشكل دائم كانت تُوقَد من خشب السنديان، وفي روما نفسها وعلى بعد أميال قليلة من نيمي، كان وقود نار فيستا يتألف من أعواد السنديان وجذوعه وقد علمنا هذا من التحليل المجهري للجمر المتفحم هناك، والذي كشفه كومنداتور دجي بوني أثناء تنقيباته في السوق الروماني في نهاية القرن التاسع عشر. لكن شعائر العديد من المدن اللاتينية يبدو أنها متماثلة، ومن هنا تأتي النتيجة المنطقية وهي أن نار فيستا الموقدة في روما كانت من السنديان المقدس. وإذا كان هذا هو الوضع في نيمي، فمن الممكن أن تكون الغابة المقدسة تتألف من أشجار السنديان الطبيعية، وأن الشجرة التي كان يحرسها ملك الغابة ويفديها بحياته هي شجرة سنديان دائمة الخضرة ـ حسب قول فيرجيل — التي اقتلع منها اينياس الغصن الذهبي. إذن شجرة السنديان هي الشجرة المقدسة عند جوبيتر كبير آلهة اللاتين. وبالتالي يقتضي هذا ـ ولو بالبرهان الضعيف ـ أن ملك الغابة الذي ارتبطت حياته بالسنديانة، لم يكن يمثل ألوهيةً أقل من جوبيتر نفسه. ويتوافق هذا مع تاج أوراق السنديان الذي كانت تضعه سلالة ملوك ألبانيا وسيلفي، والذي كانوا يضعونه بشكل يشبه بل يضاهي بقوته جوبيتر اللاتيني الذي كان يسكن في قمة جبل ألبان. وليس مستبعداً أن ملك الغابة الذي حرس السنديانة المقدسة في سفح الجبل كان السلف الشرعي وممثل هذه السلالة القديمة في غابات سيلفي. وعلى كل الأحوال، إذا كنت محقاً في الافتراض أنه تحوَّل إلى جوبيتر بشري، يصبح فيربيوس الذي تحكي عنه الأسطورة، مجرد شكل محلي لجوبيتر ومظهر أصيل لإله الغابة الخضراء.

أما الفرضية اللاحقة التي تقول إن ملك الغابة قد لعب دور إله السنديان جوبيتر، فأمر يعززه البحث في شريكته الإلهية ديانا؛ فهي ملكة الغابة بشكل عام

وإلهة السنديان في نيمي بشكل خاص. في المقام الأول حملت لقب فيستا وهذا يجعلها مسؤولة عن النار الدائمة التي رأينا مبرراً لتغذيتها بخشب السنديان. لكن إلهة النار ليست بعيدة كثيراً عن إلهة الوقود التي تغذي تلك النار؛ وربما لم يفصل الذهن البدائي بوضوح بين تأجج النار وبين الخشب الذي يؤجج تلك النار. وفي المقام الثاني يبدو أن حورية إيجيريا في نيمي إنما هي مجرد شكل آخر لديانا، ويُقال أن إيجيريا هي نفسها درایاد، حورية السنديان. كما تقطن تلك الإلهة في أمكنة أخرى في إيطاليا في الجبال المغطاة بالسنديان. إذن كانت قمة ألجيدوس وهى أعلى قمة في جبال ألبان مغطاة بغابات داكنة من السنديان النفضي أو دائم الخضرة. وكانت الثلوج تغطي هذه الجبال الباردة فترة طويلة من السنة، كانوا يعتقدون أن هذه الغابات الكئيبة هي المسكن المفضل لديانا وهي نفسها صارت ملاذاً لقطاع الطرق في العصور الحديثة. وكذلك كان لديانا معبد على قمة تيفاتا المغطاة بالسنديان القديم دائم الخضرة، على سلسلة جبال أبينايين المطلة على سهل كامبانيان خلف كابوا. هناك كان صولا يشكر الإلهة على نصره على الماريين في السهل مؤكداً امتنانه في منقوشات بقيت ردحاً طويلاً في المعبد. نستنتج من هذا كله أن نيمي ملك الغابة شخَّص جوبيتر ملك السنديان واقترن بإلهة السنديان ديانا في الغابة المقدسة. وظل صدى اقترانهما الخفي إلى يومنا هذا عبر أسطورة حب نوما وإيجيريا اللذين يرى بعضهم أنهما كانا يلتقيان في هذه الغابات المقدسة.

يعترض بعضهم فيقول أن زوج جوبيتر هو جونو وليس ديانا، وأنه لو كانت ديانا هي قرينته لكان اسمه ديانوس أو ربما تشوه الاسم فأصبح جانوس. إنه اعتراض مُحِقّ لكن يمكن أن نرد عليه بأننا لو نظرنا إلى هذين الزوجين من الآلهة: جوبيتر و جونو من ناحية، و ديانوس و ديانا أو جانوس أو جانا من ناحية أخرى لوجدناهما نسختين متطابقتين اسماً ووظيفةً كونهما متطابقين في الشكل والمضمون. من حيث الأسماء، كلها أتت من الأصل الآري DI وتعني "برَّاق" كما يأتي في أسماء الآلهة الإغريقية الأخرى، زيوس وزوجته دايون. أما من حيث الوظيفة: فجونو وديانا كلتاهما كانتا إلهتي الخصب والولادة وكلتاهما مرتبطتان بالقمر. ولقد حار القدامى أنفسهم في طبيعة ووظيفة جانوس، ولا ندري أين كان بالضبط موطن حيرتهم. لكن فارو يرى أن جانوس هو إله السماء وقد عزز قوله بهوية الكلمة

وأصلها مع هوية وأصل كلمة ملك السماء جوبيتر، وايضاً بالعلاقة بين قرينتيه جونو وجاتورنا. ولأن نعت جانوس بجونية يشير إلى الزواج بين الإلهين، وحسب إحدى الروايات كان جانوس زوج حورية الماء جوتورنا، والتي يرى آخرون أنها عشيقة جوبيتر. والأكثر من ذلك كان التضرع يوجَّه إلى جانوس مثلما يوجَّه إلى جوف ويُنَاشَد باسم الأب. وفي الحقيقة كان يُنْعَت بجوبيتر ليس بمنطق المتعلمين القديس أوغستين بل بتقوى من العابدين الوثنين الذين قدَّموا الأضاحي لجوبيتر ديانوس. وهناك أثر لعلاقته بالسنديان في غابات جانيكولمن، وهي الهضبة الواقعة على الضفة اليمنى من تايبر، حيث قيل إن جانوس حكم كملك في أقدم عصور التاريخ الإيطالي.

إذا كنت محقاً، كان زوجَا الآلهة معروفين عند شعبي الإغريق وايطاليا بأسماء عديدة: زيوس ودايون، وجوبيتر وجونو، أو ديانوس(جانوس) و ديانا (جانا)، أسماء تدل على آلهة من جوهر واحد وتختلف في لهجات القبائل التي كانت تعبدها. في بادئ الأمر وعندما كانت الشعوب تقطن قريبة من بعضها بعضاً، لم يكن الاختلاف بأكثر من اسم واحد، أو بالأحرى لم يتجاوز الاختلاف قضية لهجة. لكن التباعد التدريجي للقبائل وعزلتها عن بعضها بعضاً عزز من تباعد أساليب عبادة وإدراك الآلهة الذين أتوا بهم من موطنهم الأصلي وأتى تناقض الأساطير والشعائر ليحوِّل الفرق بين الآلهة من إسميٍ إلى حقيقيٍ. وبالتالي ومع التقدم البطيء للثقافة وبعد انقضاء فترة الانفصال والبربرية، وعندما أصبحت السلطة السياسية للمجتمع الواحد تقضم وتضم الجيران الأضعف إلى الأمة، بدأت الشعوب المندمجة الاستغناء عن آلهتها مع الإستغناء عن لهجاتها لمصلحة الأصل الشامل وصار الشعب يعبد الإله الذي عبده أجداده قبل التشتت، لكنه الآن متنكر بفعل التأثير المتراكم للتفرع اللهجوي والديني لدرجة أنه صعب على ذلك الشعب أن يميز الهوية الأصلية فأخذ إلههم مكانه في هيكل الآلهة وكأنه إله منفصل.

إن تكرار الآلهة نفسها، وما ينتج عن الالتحام بين قبائل قريبة انعزلت عن بعضها بعضاً منذ زمن بعيد، يبرر ظهور جانوس بجانب جوبيتر وديانا أو جانا بجانب جونو في الديانة الرومانية. تبدو هذه النظرية أكثر معقولية من الرأي، الذي لقي رواجاً عند الباحثين المعاصرين، القائل بأن جانوس لم يكن أصلاً سوى إله الأبواب.

من المستبعد، على إله بأهميته وعظمته بجلّه الرومان على أنه إله الآلهة، أن يكون قد بدأ حياته بوّاباً متواضعاً. فهذه النهاية العالية المقام لا تنسجم أبداً مع تلك البداية. لكن الاحتمالية الأكبر هي أن يكون الباب (جانوا) قد سمّي على اسم جانوس وليس العكس. اعتمد هذا الرأي على كلمة (جانوا) ذاتها. إنها الكلمة النظامية بمعنى (باب) في جميع لغات العائلة الآرية من الهند إلى أيرلندا. وفي السنسكريتية هي (دُر) و(ثورا) في الإغريقية، و(تور) في الألمانية، و(دور) في الإنكليزية، و(فوريس) في اللاتينية. وبالإضافة إلى كلمة (دور) التي تشترك فيها اللاتينية مع أخواتها من العائلة الآرية، هناك أيضاً (جوانا) التي ليس لها مثيل في اللغات الهندية الأوربية. تبدو الكلمة وكأنها مشتقة من الاسم (جانوس). لكني أشعر أنها جرت عادة وضع صورة أو رمز لجانوس عند البوابة الرئيسية للمنزل لجعل المدخل بحماية الإله العظيم. لذلك كان يُعرَف الباب المحروس باسم (جانوا فوريس) أي الباب الجانوي، واختُصِرت العبارة مع الزمن إلى (جانوا)، كون الاسم فوريس مفهوماً ضمناً. وهكذا تحولت الكلمة إلى جانوا بسهولة طبيعية للدلالة على الباب بشكل عام، محروساً كان بصورة جانوس أو لم يكن.

إذا كان هذا الحدس صحيحاً، فإنه يفسر أصل وجود رأس مزدوج للإله جانوس والذي وَضَعَ براعة علماء الميثولوجيا على المحك. فعندما صار ضرورياً وضع صورة لجاوس على مداخل المدن والبيوت لحمايتها كان ضرورياً وضع الحارس الإله بشكل يحرس الطرفين: الأمام والخلف كي لاتغفل عينه عن المتسلل. فلو كان وجه الإله المراقب من جهة واحدة لَسَهُل القيام بمخالفات من وراء ظهره. ويعزز هذا التفسير للوثن ثنائي الرأس استخدام زنوج بوش في وسط سورينام لحارس يضعونه على مدخل القرية. يتألف الوثن من كتلة خشبية برأس بشري محفور بشكل غير منمق على الطرفين؛ ويُنصَب تحت بوابة المدينة على عمودين منتصبين وعمود متعارض. ويوضع بجانب الوثن قماش أبيض لحفظه من الشر وأحياناً تُوضَع عصاة تبدو وكأنها هراوة أو سلاح من نوع معين. وعلى طرف العارضة المتصالبة تتدلى كتلة خشبية بهدف ضرب رأس الروح الشريرة التي تحاول عبور البوابة. من الواضح أن هذا الصنم المعبود أو (الفَتَش) ثنائي الرأس على مدخل قرى الزنوج في سورينام مماثل تماماً لصور جانوس مضاعف الرأس الذي يمسك عصا في يد ومفتاحاً في اليد

الأخرى ويقف حارساً على بوابات روما، ولاشك في أنه في الحالتين هناك ما يبرر اتجاه الرأس بالجهتين وهو سهر الإله الحارس المتيقظ الذي يبقي عيناً على الأرواح المعادية من الخلف ومن الأمام مستعداً لضربهم بالهراوة. وهنا نستغني عن التفسير الجاف وغير الشافي، إذا صدّقنا أوفيد، أن جانوس المخادع يخيف المتسلل الروماني القلق.

وإذا ما طبقنا ماتوصلنا إليه على كاهن نيمي، لنا أن نفترض أنه كقرين لديانا كان يمثل أصلاً ديانوس أو جانوس أكثر مما يمثل جوبيتر، لكن بما أن الاختلاف بين هذين الإلهين هو أصلاً سطحي، إذا ما تعمقنا وراء الأسماء، أو نظرنا إلى وظائفهما غير الفعالة عملياً كإله للسماء والبرق والسنديان. لهذا كان مناسباً تمثيله البشري في نيمي في غابة سنديان دون سواها. ولقبه كملك الغابة يدل بوضوح على الشخصية الإلهية لسيلفا التي كان يقوم بخدمتها؛ ولذلك كان يهاجم كل من يكسر غصناً من شجرة معينة في الغابة، لأن حياته مرتبطة بتلك الشجرة المقدسة. إذن هو لم يخدم فقط بل كان يمثل إله السنديان الآري العظيم، وكإله السنديان لابد من ارتباطه بإلهة السنديان تحت إسم إيجيريا أو ديانا. ويعتبر ارتباطهما ـ مهما كان شكل زواجهما ـ ضرورياً لخصوبة الانسان والحيوان. بالاضافة لكونه ملك السنديان، كان ملك السماء والرعد والمطر، لذلك لابد من تمثيله بشكل بشري أسوة بالملوك الآلهة الأخرى، كي يجعل الغيوم تتجمع والرعد يقصف، والمطر ينزل في الموسم المناسب، لكي تحمل الحقول والبساتين ثماراً ويغطى العشب الوفير المراعي. ولابد أن يكون الشخص الذي يشتهر بامتلاكه كل هذه القدرات العظيمة شخصية مهمة. وما بقايا العطايا المنذورة التي وُجدت في أبنية المقامات ومخطوطات الكتَّاب الكلاسيكيين إلا إثبات على أنه في زمان لاحق كان أعظم وأشهر مقام في إيطاليا. وحتى في زمان سابق عندما كانت البلاد المنبسطة المحيطة مقسمة إلى قبائل والتي شكّلت الاتحاد اللاتيني، عُرِفت الغابة المقدسة على أنها موضع إجلال ورعاية من الجميع.

وتماماً كما كان ملك كمبوديا يرسل العطايا لملوك النار والماء الخفيين في أقاصي الغابات المدارية، كذلك نعتقد أنه من جميع جهات سهل **لاتينا** كانت عيون وخطوات الحجاج الطليان تتوجه نحو جبل ألبان الذي ينتصب شامخاً على الخط

الأزرق الضعيف لسلسلة أبينناين أو الأكثر زرقة كلما اتجهنا نحو البحر. إنه موطن كاهن نيمي المبهم، ملك الغابة. هناك بين الغابات الخضراء بجانب المياه الراكدة في الهضاب الموحشة، حَوَّلت عبادة الإريان القدامى لإله السنديان والرعد والسماء ومع مرور وقت طويل على العبادة الكهنية الدَّرويدية، قبل الثورة الثقافية و السياسية، حَوَّلت عاصمة الديانة لاتينا من غابة إلى مدينة، و من نيمي إلى روما.

الفصل السابع عشر
عبء المَلَكية

1ـ المحرمات الكهنية والملكية

في مرحلة ما من المجتمع القديم، كان يُعتقد أن الكاهن أو الملك مزوَّد بقوى خارقة أو أنه يجسد إلهاً ما وبناءً على هذا الاعتقاد من المفترض أن تنضوي الطبيعة تحت سيطرته بشكل ما ليكون المسؤول عن الطقس وإخفاق المحاصيل وما شابه من الكوارث. ويمارس سيطرته إلى حد ما على الطبيعة كما يمارسها على رعيته خلال أعمال إرادية؛ وبالتالي إذا ما حل الجفاف والمجاعة والوباء وأتت العاصفة، يعزو الناسُ هذه المصائب إلى إهماله ويحمِّلونه وزرها فيعاقبونه بالوثاق والجلد، وإذا ما استرسل في شرِّه يخلعونه ويقتلونه. ويفترضون أن الطبيعة أحياناً تستقل عن إرادته لكنه يبقى المركز الديناميكي للكون والذي ينبعث منه إشعاع القوة لينتشر في أرجاء السماء؛ وبالتالي، أي حركة منه مثل تحريك رأسه مثلاً أو رفع يده يشوش بعض أجزاء الطبيعة. إنه نقطة الاستناد التي يقع على عاتقها توازن العالم، وأي تخلخل فيها يخل بتوازنه الدقيق. لذلك من الواجب منحه العناية كما يتوجب عليه أن يمنحها؛ وهنا لابد من تنظيم حياته كلها وإلى أبسط تفاصيلها كي لايشوش تصرفٌ منه أو يخرب نظام الطبيعة المستقر. وخير مثال على هذا النوع من الملوك هو ميكادو أو دايري، إمبراطور اليابان الروحي. إنه تجسيد لإلهة الشمس التي تحكم الكون بما فيه من آلهة وبشر، ويجتمع في بلاطه جميع الآلهة ليقوموا بخدمته شهراً كاملاً سنوياً. وفي ذلك الشهر الذي يسمونه باليابانية (بلا آلهة) تبقى المعابد مهجورة. ويسمي اليابانيون إمبراطورهم ميكادو، وكما ورد في البلاغات والمراسيم الملكية (الإله المتجسد)، ويدعي أنه مسيطر على جميع آلهة اليابان. ومثال على ذلك المرسوم الملكي السنوي الصادر في عام 646 والذي يصف الأمبراطور بـ (الإله

المتجسد الذي يحكم الكون). وإليكم وصفاً كُتِبَ منذ مئتي عام عن حياة الميكادو:

" حتى هذه الأيام يتحدر الأمراء من هذه العائلة بل من خاصتهم الذين جلسوا على العرش، وينظر إليهم الناس على أنهم مقدسون لأنفسهم، أي أنهم باباوات بالولادة. وللحفاظ على هذه الأفكار الرفيعة في أذهان رعاياهم، عليهم أن يتلقوا عناية غير عادية كأشخاص مقدسين، عناية بمنظار عادات أمم أخرى، هي سخيفة وخارجة عن الموضوع. ومن المناسب أن نعطي هنا بعض الأمثلة. يُعتقد أنه من المهين لكرامته أن يلمس الأرض بقدميه؛ لذلك يجب أن يُحمَل الأمبراطورعلى أكتاف الرجال عندما يذهب إلى أي مكان. ويعاني الكثيرَ من منعه تعريض جسمه المقدس إلى الهواء الطلق، ولا يليق به أن تسطع الشمس على رأسه. كل أجزاء جسمه مقدسة، فهو لايجرؤ على القيام بقص شعره أو لحيته أو أظافره. فمهما بلغ منه الاتساخ يجب أن يُغَسَّل ليلاً وهو نائم؛ لأن ما يُؤخّذ من جسمه عندئذ يُؤخذ سرقةً ولاتتقص هذه السرقة من كرامته أو توحده. وفي القديم كان يُجبر على الجلوس على عرشه عدة ساعات من كل صباح وعلى رأسه التاج الأمبراطوري، وكأنه تمثال دون تحريك يديه أو قدمَيه، رأسَه أو عينيه، ولا حتى أي جزء من جسمه فبثباته هذا يحافظ على السلام والهدوء في أمبراطوريته؛ لأنه ولسوء الحظ إذا أدار رأسَه إلى جهة معينة ونظر مدة طويلة إلى أي جزء من أراضي الأمبراطورية، يُفهم من ذلك أن الحرب والمجاعة والنار والمصائب الأخرى على وشك أن تحل على البلاد. لكن بعد أن اكتشفوا أن حامي الأمبراطورية هو التاج الأمبراطوري والذي يؤمن بسكونه السلام للأمبراطورية، رأوا أنه من المناسب عتق شخص الأمبراطور وتكريسه للمتعة والتَّبطُّل، وإعفاؤه من هذا الواجب الثقيل، ولذلك صاروا يضعون التاج على العرش لبضع ساعات من كل صباح. أما طعامه فيجب إعداده بأوانٍ جديدة في كل مرة وتقديمه على الطاولة بصحون جديدة، نظيفة وأنيقة لكنها كلها مصنوعة من الصلصال العادي ثم توضع جانباً أو تُكسر بعد كل وجبة. بل تُكسر بشكل عام خشية أن تقع في أيدي أحد العوام، لأنه حسب معتقداتهم الدينية: العامي الذي يأكل من هذه الصحون يُصاب بالتهاب في الفم والبلعوم. كما يُخشى من الآثار السيئة الجانبية من إن يرتدي أحد العامة ملابس الـ دايري المقدس.

إذ يعتقدون أنه لو حدث أن ارتدى ذلك العامي لباساً للدايري دون أمره أو إذنه الصريح، فإن هذا سيسبب تورمات وآلام في كامل جسمه." وعن آثار الميكادو نفسها، يقول تقرير آخر أقدم عهداً: " إن إهانة معيبة تصيب كرامته إن داس الأرض بقدمه. كما لا يُسمَح للشمس أو القمر أن تسطع على رأسه. ولا يُؤخذ منه أي من فوائضه ولا يُقصُّ شعره ولا لحيته ولا أظافره. وعندما يأكل، يأكل بأوانٍ جديدة."

وهناك نوع آخر من الكهنة أو الملوك الأدنى مستوى عند البرابرة على الساحل الإفريقي. ففي تشارك بوينت في رأس بادرون في غينيا الدنيا، يعيش وحده في الغابة ملكٌ كاهن يدعى كوكولو. يمنع عليه لمس النساء أو مغادرة منزله أو حتى أن يبرح كرسيه كما يُجبَر على النوم جالساً لأنه لو اتكأ لسكنت الرياح وتوقفت الملاحة. فهو ينظم العواصف ويحافظ على الحالة العامة للطقس المتوازن. وعلى قمة آغو في توغو هناك روح أو فتش يحمل أهمية كبيرة لكامل البلد المحيط ويدعى باغبا. إليه تُعزى قدرة منح أو حبس المطر، كما أنه سيد الرياح بما فيها هارماتان تلك الرياح التي تهب من الداخل. يعيش كاهنه في منزل في أعلى قمة جبل حيث يحتفظ بالرياح في قوارير وجِرار ضخمة. كما أنه يصنع المطر، ولذلك يكسب كثيراً من التعاويذ والحُجُب التي يصنعها وهي عبارة عن أسنان ومخالب النمر. ورغم أن سلطته كبيرة وهو رئيس البلاد الفعلي، لكنه يخضع لقاعدة تمنعه من مغادرة الجبل وعليه أن يقضي كل حياته هناك. ويُسمَح له مرةً واحدة كل سنه بالنزول إلى السوق ليشتري بعض أشيائه لكنه عندما يفعل ذلك يُمنع من أن تطأ قدمه كوخ أي من الأهالي وعليه أن يعود إلى منفاه في اليوم نفسه. أما أمور الحكومة في القرى فيتم قضاؤها من قبل رؤساء فرعيين يقوم هو بتعيينهم. وفي مملكة الكونغو في إفريقيا الغربية كان هناك حَبر أعظم يدعى تشيتومي أو تشيتومبي، ويعتبره الزنوج إله الأرض وكلي القدرة في السماء. لذلك عليهم أن يقدموا له الثمار الأولى قبل أن يذوقوا المحاصيل الجديدة، خوفاً من المصائب المتراكمة التي قد تصيبهم لو خرقوا هذه القاعدة. وعندما يغادر مسكنه لزيارة مكان تحت سلطته القضائية، فعلى جميع المتزوجين أن يلتزموا صياماً جنسياً صارماً طوال فترة غيابه؛ فهم يعتقدون أنه لو حصل أي خرق لهذا الصيام فإن مصيبة ستحصل له. وحتى لو مات ميتة طبيعية

كانوا يظنون أن العالم بأسره سيتلاشى والأرض التي يحفظها بجدارته وقوته ستُمحَق على الفور.

ومن بين الأمم شبه البربرية في العالم الجديد لوحظ وجود ملكيات أو حكومات دينية مثل ملكية اليابان وخاصة الحَبر الأعظم زابوتيكس شبيه الميكادو. إنه ندٌّ قوي للملك نفسه، والأب الروحي الذي يحكم يابو حكماً مطلقاً، وهي إحدى المدن الرئيسية في المملكة. وبلغنا أنه مهما بالغوا في تبجيله فإنهم لا يوفونه حقه. يُنظَر إليه على أنه الإله الذي لا تستحق الأرض أن تحمله ولا تستحق الشمس أن تسطع عليه. كما تتدنس طهارته حتى عندما يلمس الأرض بقدميه. أما الذين يحفونه على أكتافهم فكانوا من أرقى العائلات. ولا يتنازل حتى أن ينظر إلى شيء من حوله؛ وكل من يقابله يخر بوجهه على الأرض خوف أن يصعقه الموت إذا ما رأى طيفه. كما يُفرض على كهنته الصيام الجنسي المنتظم وخصوصاً على حبره الأكبر؛ لكن " وفي أيام معدودة من كل سنة والتي غالباً ما يُحتَفل بها بالرقص والولائم، كان من العادي أن يسكر الكاهن الأكبر. وفي حالته هذه وهو بين السماء والأرض، يُؤتى بأجمل عذراء موقوفة لخدمة الآلهة." وإذا أنجبت منه طفلاً ذكراً، فإنه يُربَّى على أنه أمير بالدم. ويرث أكبر أولاده عرشه الديني. ليس لقواه حدود وربما كانت مثل قوى ميكادو أو تشيتومي.

في كل مكان كما في اليابان وأفريقيا الغربية، من المفترض أن نظام الطبيعة بل وجود العالم كله مرتبط بحياة الملك أو الكاهن، ومن الواضح أن رعاياه يعتبرونه مصدر الخطر المطلق ومصدر البركة المطلقة. ومن الناحية الأخرى، على الناس أن يشكروه على المطر وأشعة الشمس، على الرياح التي تسوق السفن إلى سواحلها، وحتى عليهم أن يشكروه على الأرض الصلبة التي يقفون عليها. لكنه قد يَمنع ما يُعطِي، وتعتمد الطبيعة على شخصه بالكامل، ودقيق هو ميزان النظام الذي يدور حوله كمركز إلى درجة أن أي خلل مهما صَغُر قد يهز الأرض حتى الأعماق. وإذا كانت الطبيعة تضطرب من جراء تصرف غير مقصود من الملك، فما بالك إذا مات ذلك الملك. من الواضح إذن، وبعيداً عن سلامتهم الشخصية التي قد تُعرَّض للخطر من تصرف متهور للملك أو موته، كان مطلوباً منه تصرفات دقيقة تلتزم بتلك القواعد التي تُعتبر ضرورية للحفاظ عليه وعلى شعبه والعالم كله. إن

فكرة كون الممالك القديمة محكومة حكماً مطلقاً، أو لا وجود لرعاياها إلا لأجل سيادتها، شيء لا يمكن تطبيقه على الممالك التي ندرسها الآن. بل على العكس، لا مبرر للسيادة فيها إلا لأجل الرعايا، ولا تكتسب حياة الملك قيمتها إلا عندما تحقق المطلوب منها وهو توجيه مسار الطبيعة لمصلحة الناس. وما إن يخفق في القيام بهذه المهمة، حتى يكف الناس عن احترامهم وحمايتهم وتنتفي عنهم البيعة الدينية وتتحول إلى نقمة واحتقار؛ فيُطرَد الملك بشكل مذرٍ، وعليه أن يسعد إذا ما نجا بروحه. يتلقى العبادة على أنه إله في اليوم الأول ثم يُقتَل على أنه مجرم في اليوم التالي. لكن تصرف الناس هذا يبقى خالياً من النزواتية أو التناقض. بل على العكس، إن تصرفهم هذا في منتهى التماسك. إذا كان ملكهم هو الإله، إذن عليه أن يكون أيضاً هو الحامي؛ وإذا لم يقم بهذه الحماية عليه أن يفسح المجال لشخص آخر كي يقوم بها. ومادام أنه يلبي متطلباتهم فلا حدود للرعاية التي يتلقاها، أو العناية التي عليه أن يبذلها على نفسه. على ملك كهذا أن يتلقى أفضل التشريفات والاحترام من قبلهم والتي يجبرونه على أخذها تجاه نفسه والتي لا تُتَّخذ لأجل كرامته، ولا لراحته بل ليحفظوه من أي سلوك يمكن أن يخرب تناغم الطبيعة ويورِّطه أو يورط شعبه والكون أجمع بكارثة. وبعيداً عن راحته واحترامه تشكل هذه العناية قيداً يحد من تصرفاته وعبئاً عليه، يصل إلى حد المأساة.

ويقال إنه كلما مُنح ملوك قوم لوانغا قوىً خارقة كلما زادت عليهم المحرمات التي عليهم أن يبتعدوا عنها؛ فيعمد شعب الملك إلى تنظيم كل تصرفاته: مشيته، وقفته، أكله وشربه، نومه وصحوه. تُطبق هذه القيود عليه منذ طفولته وتزداد في عددها وتزيد من تقشفه كلما كبُر سناً حتى يأتي يومُ تحيطه من كل جانب، إلى أن تصل درجة تجعله يغرق في محيط من الشعائر والمحرمات إذا ما نزل عن عرشه." هناك في فوهة بركانية هامدة، مُحاطة من كل جانب بالسفوح النحاسية اللون، تنتشر خيام وحقول البطاطا العائدة لريابا عاصمة الملك المحلي فرناندو بو. ويعيش هذا الكائن الغريب في أخفض نقطة من الفوهة محاطاً بحريم قوامه أربعين امرأة، ومُغطّى بالقطع النقدية الفضية. بدائي عارٍ يمارس نفوذه على الجزيرة أكثر مما يمارسه الحاكم الإسباني على سانتا إزابيل. فيه تعيش أرواح البوبي المُحافِظة أو أرواح سكان الجزيرة وكأنها متجسدة فيه. وحسب المعتقد البوبي الراسخ، لم ير

مَلِكهُم قط وجهاً شاحباً لأن هذا يسبب له الموت الفوري. ولايمكنه أن يتحمل النظر إلى البحر؛ ويُقال إنه لا يجوز أن ينظر إليه حتى عن بعد، ولهذا يقضي حياته والأغلال في قدميه في شفق الكوخ الداكن. من المؤكد أنه لم يطأ الشاطئ أبداً. ولا يستخدم شيئاً أبيض سوى سكينه وبندقيته؛ ولم يلمس قماش أوربي جسمه قط، ويلعن التبغ و الـ رم (وهو شراب مسكر) والملح.

ومن بين الشعوب التي تتكلم لغة أيوي على الساحل السلافي الملك هونفسه الكاهن الأعلى. وكان كذلك منذ زمن بعيد، ولايمكن لرعاياه أن يَصِلُوا إليه. ولايمكنه ترك مسكنه إلا ليلاً بغرض الاستحمام وما إلى هنالك. لايمكن لأحد سوى ممثله الذي يُدعى (الملك المرئي) مع ثلاثة من الكبار المُختارين أن يتحدثوا معه، وعندما يفعلون ذلك عليهم أن يجلسوا على رأس ثور وظهورهم متجهة نحوه. ولا يمكنه أن يرى أي شخص أوروبي ولا أي حصان، كما لايمكنه أن ينظر إلى البحر، ولهذا السبب لا يمكنه أن يغادر عاصمته ولا حتى لحظات. قواعد باتت تُهمَل لاحقاً. وحتى ملك داهومي نفسه محظور عليه رؤية البحر، و كذلك ملوك لوانغوا وأردرا العظيم في غينيا. إن البحر هو فتش أيوس بالنسبة للمنطقة الشمالية الغربية من داهومي، ويهدد كهنتُهم بالموت كلاً من الملك والناس إذا ما نظروا إلى البحر. ومن المعتقد أن ملك كايور في السنغال سيموت حتماً خلال سنة إذا ما عبر نهراً أو لساناً بحرياً. وفي ماشونا لاند وحتى أوقات ليست بعيدة كان يمنع على القادة أن يعبروا أنهاراً معينة وخصوصاً نهري بيوريكوي ونايايديري؛ وقد ظلت هذه القاعدة مُحتَرمة على الأقل من قبل قائد واحد في السنوات الأخيرة. لا يمكن للقائد أن يعبر النهر بأي شكل من الأشكال. إذا أقتضت الحاجة الماسة ذلك فإنه يُعصَّب العينين ويُحمَل عبر النهر بالأغاني و الصراخ. فلو عبره بنفسه لأصيب بالعمى أو يموت وعندها سيفقد الشيخة حتماً. لذلك وعند لاكافاليس وساكالافاس في جنوب مدغشقر، يُمنع الملوك من الإبحار في البحر أو اجتياز الأنهار. ويعتبر قوم ساكالافاس الرئيسَ كائناً مقدساً، لكن تفرض عليه مجموعة من القيود التي تضبط سلوكه كما يُفرَض على أمبراطور الصين. لا يمكنه أن يبتَّ بشئ على الإطلاق مالم يصرح السحرة أن الفأل موافق؛ كما لا يمكنه أكل الطعام الساخن ويُمنَع من مغادرة كوخه في أيام معينة. وعند قبائل هضاب آسام على الرئيس

وزوجته أن يمتنعا عن محرمات تخص الطعام؛ إذ يمنع عليهما أكل لحم الجاموس والخنزير و الكلب والطير والبندورة. وعلى الرئيس أن يكون عفيفاً، وزوجاً لزوجة واحدة فقط، كما عليه أن ينفصل عنها عشية عيد المحرمات العام. كما تقوم مجموعةٌ من القبائل بمنع الرئيس من تناول الطعام في القرى الغريبة، ويُحظر عليه تحت أية إثارة التلفظ بأية شتيمة. من الواضح أنهم يعتقدون أن أي خرق لهذه المحرمات من قبل الرئيس سيسبب وقوع مصيبةٍ على القرية بأسرها.

وَقَعَ ملوك أيرلندة القدامى بالإضافة إلى أربع مناطق أخرى وهي لينستر ومانستر وكوناوت وألستر تحت وطأة محرمات طريفة يهدف احترامها توفير رفاهية الناس والبلاد، ومن المفترض أنه تعتمد مصلحتهم عليها أيضاً. ومن هذه المحرمات ألا تشرق الشمس على ملك أيرلندة وهو في فراشه في تارا عاصمة أيرين القديمة، كما أنه من المحظر عليه أن يترجل في ماغ بريف في يوم أربعاء وهو يجتاز إلى ماغ كويلين بعد غروب الشمس، أو أن يحرض حصانه في فان تشومير، أو أن يذهب على سفينة يوم الاثنين الذي يعقب بيلتاين (عيد أيار)، أو أن يترك أثراً لجيشه في آثميغني يوم الثلاثاء الذي يعقب عيد القديسين. ولايُسمح لملك لنستر أن يتجول في تواثليفيان باتجاه يده اليسرى يوم أربعاء، أو ينام بين وثاير (دودور) ودويبهلين ورأسه يميل نحو أي منهما أو يعسكر مدة تسعة أيام في سهول غوالان، أو يسافر في الطريق إلى دويبهلين في يوم إثنين، أو أن يسوق في حصان قدماه سوداوان عبر ماغ ميستستن. وكان من المحظر على ملك مانستر التمتع باحتفال لوتش لين من يوم إثنين إلى الإثنين الذي يليه؛ ومن الوليمة ليلاً عند بداية الحصاد قبل جيم في ليتريتشا؛ ومن العسكرة مدة تسعة أيام عن سيوير؛ ومن أن يسلك تخماً يؤدي إلى غابهران. أما ملك كوناوت فيمنع عليه أن يقيم معاهدة تخص قصره القديم في غرواتشان بعد إقامة السلام في عيد القديسين أو أن يذهب في عباءة مرقطة على جواد مرقط إلى بور دال تشايس، أو أن يذهب إلى مجموعة نساء في سيغايس، أو أن يجلس في الخريف على ركام قبر كئيب لزوجة رجل من منطقة مين، أو أن يتبارى بالركض مع فارس على حصان رمادي أعور في آثغالتا بين عمودين. أما ملك ألستر فيمنع من حضور معرض للخيل في راثلاين بين شبان دال أرايد، أو أن يستمع لرفرفة أسراب طيور لين سايليتش بعد غروب الشمس، أو أن يحتفل بثور داير مكاير، أو أن يشرب مياهً من

بون نيمهيد بين الظلامين. وإذا ما التزم ملوك أيرلندة بدقة بهذه القواعد وبعادات أخرى أتت من أوقات لا يذكر أحد بدايتها، أعتقدوا أنه لن يصادفهم الحظ العاثر أو المصائب، وأنهم سيعيشون تسعين سنة دون أن يصيبهم الذبول أو الشيخوخة؛ وأنه لن يصيبهم الوباء أو الموت أثناء عهد هؤلاء الملوك؛ وأن المواسم ستكون ممتازة وتعطي الأرض الثمار بوفرة، في حين لو أستخفوا بالإلتزام بهذه المبادئ سيصيبهم الوباء والمجاعة والطقس السيء.

كان ملوك مصر يُعبَدون على أنهم آلهة، وكان سلوكهم اليومي يخضع لنظام بتفاصيل دقيقة وقواعد ثابتة. يقول ديودوراس: " اختلفت حياة ملوك مصر كل الاختلاف عن ملوك آخرين كانوا يفعلون ما يرغبون فعله، إذ خضعوا لثوابت قانونية لا تخص واجباتهم الرسمية فحسب بل تتعداها لتشمل دقائق حياتهم اليومية.... نظام يشمل برنامجه كل ساعات النهار و الليل يمنع الملوك من القيام بما يحلو لهم، بل حسب ما يوصف لهم... إذ عليهم أن يجلسوا لساعات محددة للقيام بتسيير أمور التجارة والقضاء؛ وفي ساعات محددة عليهم أن يستحموا أو يناموا مع زوجاتهم، أو باختصار، دقائق حياتهم كلها مرسومة. وقد شملت هذه الخطة واجباتهم البسيطة ونوع اللحم المحدد الذي عليهم أن يتناولوه والخمر الذي عليهم أن يشربوه وبكمية موصوفة. " وطبعاً كان هناك مبررات كافية لاحترام هذه القواعد ليس من قبل الفرعون القديم فقط بل من قبل الملوك الكهنة أيضاً في طيبة وإثيوبيا وحتى السلالة العشرين.

وربما كان من أطرف الأمثلة على المحرمات التي يجب أن يمتنع عنها الكهنة هي القواعد الموصوفة لفلامين دياليس في روما، والذي اعتُبِرَ الصورة الحية لجوبيتر وتجسيداً بشرياً لروح السماء. ومنها منع فلامين دياليس أن يمتطي حصاناً أو يلمسه، أو يرى جيشاً مسلحاً؛ أو أن يلبس خاتماً غير مكسور؛ أو يكون هناك ثمة عقدة في أي جزء من ثيابه؛ أو تُخرج من بيته نار سوى النار المقدسة؛ أو أن يلمس طحين قمح أو خبزاً مُخمَّراً؛ أو يلمس أو حتى يسمّي عنزة أو كلباً أو لحماً نيئاً أو فولاً أو لبلاباً؛ أو يمشي تحت عريشة عنب؛ كما يجب أن تُكسى قوائم سريره بالطين، و لا يمكن أن يقص شعره إلا رجل حر وبسكين برونزية، وعلى شعره أو أظافره المقصوصة أن تُدفَن تحت شجرة محظوظة؛ ويُحظّر عليه أن يلمس جسماً ميتاً

أو يدخل مكاناً تم حرق أحد فيه؛ ولا يمكنه أن يرى عملاً يُنجَز في أيام مقدسة؛ ولا يمكن كشف الغطاء عنه في الهواء الطلق؛ وإذا مادخل أحد بيته وهو مكبل فعلى وثاقه أن يُفكّ وأن يُسحب الحبل من ثقب في سقف المنزل ثم يُرمى إلى الشارع. وعلى زوجته الفلامينكا أن تتبع القواعد نفسها تقريباً بالإضافة إلى قواعد أخرى تخصها هي بالذات. مثلاً يُحظر عليها أن تنزل أكثر من ثلاث درجات من النوع الذي يسمى الدرج الإغريقي؛ وفي احتفالات معينة لا يمكن أن تمشط شعرها؛ ولا يجوز أن يَصنع حذاؤها من جلد وحش مات ميتة طبيعية، بل من وحش ذُبح أو كان أضحية؛ وإذا ما سمعت رعداً، غدت محرّمة حتى يُقدَّم لها أضحية كفارة.

ولدى شعب **غريبو** في سيراليون، هناك حَبْرٌ يحمل لقب **بوديا** وهو شبيه بعض الشيء بكاهن اليهود. وكان يتم تعيينه بوصية من الوحي. وأثناء طقوس تقليده لمنصبه يقومون بتزييته، وبوضع خاتم على كاحله كعلامة للمنصب، كما تُرش عواميد بيته بدم عنزة مذبوحة. وهو مسؤول عن طلاسم وأوثان عامة يقوم بإطعامها الأرز والزيت كلما حل شهر قمري جديد؛ كما يقوم بذبح الأضاحي لمصلحة المدينة وللأموات و للشياطين. قوته عظيمة جداً من حيث الظاهر، لكنها في الواقع محدودة؛ فهو لا يجرؤ على تحدي الرأي العام، وهو مسؤول عن أية محنة تصيب البلد وربما كلفته تلك المسؤولية حياته. ينتظر الناس منه أن يجعل الأرض تعطي بوفرة، وأن يؤمن للناس الصحة، وأن يبعد الحرب، وأن يعطل عمل السحرة. حياته مقيَّدة بمجموعة من المحرمات والقيود: فهو لايمكن أن ينام في أي منزل سوى مقامه الرسمي الذي يدعى **البيت المُزيَّت** إشارة إلى طقس التزييت الذي أُقيم عند تقليده لمنصبه. ويمنع عليه شرب الماء في الطريق العام. كما لايمكنه أن يأكل وهناك جثة في المدينة، ويحظر عليه أن ينعي الموتى. وإذا ما مات وهو شاغل لمنصبه يجب أن يُدفَن في غياهب الظلام وقلّة قليلة يسمعون عن موته، ولايجوزلأحد أن ينعي موته عند إعلانه على الملأ. وإذا ما كان ضحية للسم خلال تجريعه لحاء الساس السام، يجب أن يُدفَن تحت جدول مياه جارية.

وعند قوم **التودا** في الهند الجنوبية يلتزم الحلاب المقدس - الذي يعمل ككاهن الملبن المقدس – بمجموعة من القيود المضجرة والمرهقة طوال الفترة التي يتولى فيها منصبه التي قد تستمر سنوات عديدة. عليه أن يعيش في الملبن المقدس ولا يسمح له

بزيارة منزله أو أي منزل عادي في القرية. ويجب عليه أن يكون عازباً، وإذا كان متزوجاً لابد له من هجر زوجته. ويمنع على أي شخص أن يلمس الحلاب المقدس لأن هذا يدنس وحدته ويجعله يخسر منصبه. يُسمح للعامة أن يتصلوا به فقط يومي الإثنين والخميس، وعندما يحتاج لقضاء حاجة له في أيام أخرى، عليه أن يبلغ رسالته صياحاً عبر مسافة فاصلة تبلغ ربع ميل. كما يحظرعلى الحلاب المقدس أن يقص شعره أو يقلم أظافره طوال إشغاله لمنصبه، كما لا يعبر نهراً عن طريق الجسر بل عليه أن يخوض خلال مخاضات معينة؛ وإذا ما حدثت وفاة في قبيلته يمنع عليه حضور الجنازة إلا إذا استقال من منصبه وترك مكانته الرفيعة كحلاب مقدس ليصبح مجرد شخص من العامة. ويبدو أنه كان عليه أن يتخلى في الأيام الغابرة عن أختامه ودلائه عندما يفارق أيٌ من أفراد أسرته الحياة. لكن هذه القيود الثقيلة تبقى مفروضة بكاملها على الحلابين من الطبقة العليا.

2ـ انفصال السلطة الروحية عن السلطة الدنيوية

إن العبء الثقيل المرافق للمنصب الكهني أو الملكي هو الذي منح ذلك المنصب فعاليته. كان أمام الرجال خياران: إمَّا أن يرفضوا هذا المنصب، مما يجعله يؤول إلى التعليق المؤقت، أو أن يقبلوا به فيقعوا تحت وطأة حياة كئيبة كنُسَّاك منعزلين ينزلق من بين أصابعهم الواهنة عنان الحكومة لتمسكه قبضة قوية لأناس أخذوا على عاتقهم ممارسة السيادة الحقيقية بعيداً عن شكليتها. وقد اتسع هذا الصدع في السلطة العليا حتى أحدث فصلاً دائماً بين السلطتين الروحية والدنيوية. وصارت الدار الملكية القديمة تمارس الوظائف الدينيية المحضة بينما انتقلت أمور الحكومة المدنية إلى أيدي شبان من عرق أكثر حيوية.

لنتناول الموضوع بالأمثلة. في جزء سابق من هذا العمل رأينا كيف كان الكمبوديون مضطرين إلى إجبار الخلف على أخذ مَلَكية النار والماء، وأنه في الجزيرة البدائية آلت الملكية إلى الشغور لأنهم أخفقوا في إقناع أي منهم أن يتسلَّم هذا الامتياز الخطير. ففي بعض أنحاء أفريقيا الغربية، وعندما يموت الملك يقوم مجلس العائلة باختيار خلفه سرياً. ويتم اعتقال كل من يقع عليه الخيار فوراً

وتكبيله ورميه في بيت الفتش، حيث يبقى مقيماً حتى يقر بقبوله استلام التاج. وكثيراً ما يبحثُ الوارث عن وسيلة يتملص فيها من الشرف الذي سيثقله. وقد اشتهر رئيس عنيف بحمله السلاح بشكل دائم استعداداً لمقاومة إجباره على اعتلاء العرش. ويمنح بدائيو تيمي في سيراليون الحق لأنفسهم في أن يضربوا الخلف عشية التتويج كما ينفذون هذا الامتيازالدستوري بنيةٍ صادقة لدرجة أنه أحياناً لا يستطيع أن يعيش الملك طويلاً على عرشه. ولذلك كان يعمد القادة المتنفذون إلى اختيار شخص يكنُّون له الضغينة ويجبرونه على الملكية. وجرت العادة سابقاً في سيراليون أن يكبل الملك المختار بالسلاسل ثم يُجلَد. وبعدها تُفك الأغلال ويرتدي الثوب الملكي ويستلم بيديه رمز الكرامة الملكية وهو مجرد فأس منفّذ العقوبة. لذلك ليس من المدهش أن نقرأ التالي عن عادات انتشرت في سيراليون: " باستثناء قوميّ ماندينغو وسوزي كانت القلة القليلة من الملوك من السكان الأصليين للبلاد التي يحكمونها. فأفكارهم مختلفة تماماً عن أفكارنا، إلى درجة أن القليل منهم يتوق إلى هذا الشرف ونادراً ما نسمع عن منافسةٍ تسعى إليه."

يبدو أن ميكادو اليابان قد لجأ قبل غيره إلى طريقة نقل شرف وعبء السلطة العليا لولده؛ وما ظهور **التايكون** – وهو السلطة الدنيوية للبلاد – إلاّ من تنازل واحد من الميكادو لمصلحة ابن لم يتجاوز الثالثة من العمر. وبما أن السيادة قد اغتُصِبَت من الأمير الطفل، دافع عن الميكادو **اليوريتومو** وهو رجل يجمع الروحانية والإدارة، والذي قام بالإطاحة بالمغتصِب وإعادة الميكادو الظل، بينما احتفظ لنفسه بالجوهر وهو السلطة. ثم ورَّث لأحفاده المجد الذي أحرزه وبهذا أسس سلالة جديدة وهي **التايكونات**. وظل هؤلاء التايكونات الحكام الفعليين حتى منتصف القرن السادس عشر قبل أن يصيبهم ما أصاب الميكادو. فبعد أن وقعوا في شرك العادات والتقاليد المحتمة تحولوا إلى دُمىً نادراً ما تتحرك من مكانها في القصر وقد دخلت دائرة مفرغة من الطقوس الفارغة، في حين يدير عمل الحكومة الحقيقي مجلس الدولة. وفي تونكوين سارت الملكية في المضمار نفسه، إذ دخل الملوك دوامة الكسل والتأنث، حتى سَهُلَ خلع الملك عن عرشه من قبل مغامر طموح يُدعى ماك، والذي ارتقى من صياد سمك إلى ماندارين كبير. لكن أخو الملك **ترنغ** يطيح المغتصِب ويعيد الملك، محتفظاً لنفسه ولأخلافه بنفوذ القائد العام للقوات. منذ ذلك

الحين ورغم كل ما لدى الملوك من لقب وأبهة السيادة فإنهم لم يعودوا يمارسون الحكم. وظلوا متعزلين في قصورهم تاركين النفوذ السياسي الحقيقي في يد قواد الجيش الوارثين لمنصبهم.

وفي مانغايا، وهي جزيرة بولينيسية، وُضِعت السلطتان الدينية والدنيوية في أيدٍ مختلفة، إذ كانت الوظائف الروحانية في يد السلالة الملكية بينما كانت الحكومة الدنيوية في يد قائد منتصر في الحرب والذي كان منصبه مُكَمَّلاً بالملك. وكذلك الأمر في تونغا، بالإضافة للملك المدني، الذي استمد حقه في العرش من الوراثة ومن سمعته الحربية وعدد رجاله المقاتلين، كان هناك زعيم إلهي يعلوه مرتبة ويعلو القواد الآخرين بزعم انحداره من أحد الآلهة الرئيسه. تُقدَّم له الفاكهة الأولى كل سنة باحتفال ديني، معتقدين أنه لو لم يقدموا هذا لثأرت الآلهة من الشعب بشكل واضح. يستخدم الزعيم طريقة معينة في الكلام لا يستخدمها غيره، وكل ما يلمسه يتحول إلى مقدس ومحرَّم. وعندما يقابل الزعيمُ الملكَ على الأخير أن يخر على الأرض إحتراماً لقداسته حتى يعبر. ورغم أنه يملك التبجيل الأعلى نزولاً عند أصله المقدس لا يملك أية سلطة سياسية، وإذا ما تورط بقضايا الدولة يكون قد وقع في مخاطرة الصد من قبل الملك الذي في يده السلطة الحقيقية والذي ينجح بالنهاية في التخلص من خصمه الروحي.

وفي بعض أنحاء أفريقيا الغربية يحكم ملكان جنباً إلى جنب، الملك الديني أو الفتش والملك الدنيوي، لكن الملك الفتش هو الأعلى بالفعل. فهو الذي يتحكم بالطقس وما شابه، ويستطيع أن يعطِّل كل شيء. فعندما يضع عصاه الحمراء على الأرض لايستطيع أحد أن يعبر ذلك الطريق. إن تقسيم السلطة بين الحاكم الدنيوي والحاكم المقدس منتشر في كل مكان بقيت فيه ثقافة الزنوج أصيلة بعيدة عن التأثيرات، لكن حيثما تأثر شكل المجتمع الزنجي كما في داهومي وأشانتي، فهناك ميل نحو جعل السلطات كاملةً بيد ملك واحد.

وفي بعض أنحاء الجزيرة الهندية الشرقية تايمور نصادف تقسيم السلطة بشكل يشبه الملك المدني والملك الفتش في أفريقيا الغربية. يميز بعض قبائل تايمور بين اثنين من الراجا: راجا العادي أو راجا المدني الذي يحكم الناس، وبين راجا الفتش أو راجا المحرمات، وهو المسؤول عن التحكم بكل شئ يخص الأرض ومنتجاتها. ولهذا

الحاكم الأخير الحق بإعلان تحريم أي شيء؛ ويجب الحصول على إذنه قبل البدء باستصلاح أية قطعة من الأرض، كما عليه أن يؤدي الطقوس الضرورية في أثناء عملية الاستصلاح، ويناشدونه عندما يهددهم الجفاف أو أية مصيبة على محاصيلهم. ورغم أن رتبته أدنى من راجا المدني يمارس نفوذاً في غاية الأهمية على مسار الأحداث، لأن زميله الدنيوي مُلزَم بإعطائه المشورة في جميع القضايا المهمة. وفي بعض الجزر المجاورة مثل روتي وفلوريس الشرقية، يُطلَق على الحاكم الروحي من النوع نفسه أسماء محلية عديدة، والتي كلها تعني **سيد الأرض**. وفي مقاطعة ميكيو في غينينا البريطانية الجديدة هناك رئاسة ثنائية أيضاً. إذ ينقسم الناس إلى مجموعتين انقساماً عائلياً وكل مجموعة لها رئيسها. أحد الرئيسين هو رئيس الحرب والثاني رئيس المحرمات. تنتقل الرئاسة الأخيرة بالوراثة؛ وتنحصر مهمته بتحريم المحاصيل مثل جوز الأريقة وجوز الكاكاو كلما رغب بتحريم استخدامها. ومن منصبه يمكننا أن نكشف عن بداية السلالة الكهنية الحاكمة. تبدو وظائفه الآن أكثر سحرية منها دينية كونها مرتبطة بالتحكم بالغِلال أكثر منها استرضاءً للقوى العليا.

الفصل الثامن عشر
مخاطر الروح

1 ـ الروح الجُسَيم (مانيكان)

تعلمنا من الأمثلة السابقة أن منصب الكاهن أو الملك المقدس محفوف بسلسلة من الأعباء والقيود والمحرمات الهادفة بشكل رئيسي إلى الحفاظ على حياة الرجل الإلهي لأجل الناس. لكن إذا كان هدف المُحرمات هو الحفاظ على حياته، لنا أن نسأل: كيف يصل احترامهم له إلى هذه النهاية؟ ولكي نفهم هذا علينا أن نتعرف طبيعة الخطر الذي يهدد حياة الملك، والذي يحرسون الملك منه خلال فرضهم تلك القيود. وعلينا إذن أن نسأل: ما الذي يفهمه الإنسان القديم من الموت؟ وإلى أي الأسباب يعزوه؟ وكيف كان يفكر بإمكانية الاحتراس ضده؟

بما أن الإنسان البدائي كان بشكل عام يفسر عمليات الطبيعة غير الحية بافتراضه أنها ناتجة عن كائنات حية تعمل من وراء الظواهر الطبيعية، كذلك كان يسحب هذا التفسير على ظواهر الحياة نفسها. وحسب اعتقاده أن الحيوان يعيش ويتحرك بفعل وجود حيوان صغير بداخله يقوم بتحريكه: أي لا يمكن للإنسان أن يعيش أو يتحرك إلاّ إذا كان بداخله إنسان صغير أو حيوان يحركه. الحيوان القابع داخل الحيوان أو الإنسان الساكن داخل الإنسان هو الروح. وبما أن نشاط الحيوان أو الإنسان هو نتيجة وجود الروح، إذن فحالة النوم أو الموت هما نتيجة غياب تلك الروح؛ فالنوم أو الغشية شيء مؤقت أما الموت فهو الغياب الدائم للروح. وإذا كان الموت هو الغياب الدائم للروح، فالطريقة للاحتراس منه هي بمنع الروح من مغادرة الجسم أو ـ إن حصل وغادرت ـ بتأمين طريق عودتها. إن الحيطة التي اتخذها البدائيون للوصول إلى هذين الهدفين كانت عن طريق فرض شكل معين من الممنوعات أو المحرمات، وهي قواعد يُقصَد منها إما بقاء الروح أو تأمين

عودتها. بالمختصر، ليست المحرمات إلاّ نوعاً من الحفاظ على الحياة أو حراستها. سترد هذه الحالات العامة الآن بالأمثلة المفصلة.

عند مخاطبة بعض الأستراليين السود، قال أحد أعضاء البعثة الأوربية: " أنا لست واحداً، كما تعتقدون، بل اثنين " وضحكوا على ذلك، ثم تابع قائلاً: " لكم أن تضحكوا كما تشاؤون لكني أقول لكم أنا اثنان في واحد، فذلك الصبي العظيم الذي ترون هو واحد، لكن بداخله واحد آخر غير مرئي. يموت هذا الولد العظيم ويُدفَن، لكن الولد الصغير يطير بعيداً عندما يموت الولد العظيم." أجاب بعض السود على هذا قائلين: نعم، نعم. نحن أيضاً اثنان، ونملك جسماً صغيراً داخل صدورنا." وعندما سألناهم أين يذهب الجسم الصغير بعد الموت، أجاب بعضهم إنه يذهب خلف الأشجار، وأجاب آخرون أنه يدخل في مياه البحر وقال آخرون أنهم لا يدرون. يعتقد قوم هيورون أن الروح لها رأس وجسد، ذراعان وأرجل؛ أي باختصار هي نموذج كامل عن الإنسان نفسه. كما يعتقد الأسكيمو أن " للروح شكل الجسم الذي تنتمي إليه، لكنها من طبيعة أكثر رقة وأثيرية." وعلى حد اعتقاد قوم نوتاك، للروح شكل الإنسان المصغر؛ وموقعها هو تاج الرأس. ومادامت أنها تقف منتصبة، يبقى صاحبها سليماً معافى؛ وعندما تفقد وضعيتها المنتصبة لسبب ما، يفقد صاحبها حواسه. ومن بين القبائل الهندية عند نهر فريزر الأدنى، هناك من يعتقد أن للإنسان أربع أرواح، تأخذ الروح الرئيسية منها شكل المانيكان، بينما تأخذ الأرواح الأخرى أشكال طيف تلك الروح الرئيسية. ويفهم الماليزيون الروح على أنها إنسان صغير غير مرئي في معظم الأحيان ويبلغ حجمه حجم الإبهام، وهو يتناسب بشكله وحجومه وحتى بشرته مع الجسم الذي يسكنه. ولهذا المجسم طبيعة غير ملموسة، ورغم أنه غير محسوس، يمكن أن يسبب الإزاحة من جراء دخوله الجسم المحسوس، ويمكنه أيضاً أن يطير ويرفرف بسرعة من مكان إلى آخر؛ فهو غائب مؤقتاً عن الجسم عند النوم والمرض والغشية وغائب بشكل دائم عند الموت.

إن تشابه المانيكان مع الإنسان دقيق إلى أبعد الحدود، بالأحرى تشابه الروح مع الجسد؛ أي كما أن هناك أجساماً بدينة وأجساماً نحيفة، كذلك هناك أرواح بدينة وأرواح نحيفة؛ وكما أن هناك أجساماً ثقيلة وأجساماً خفيفة، أجساماً طويلة

وأجسام قصيرة، كذلك هناك أرواح ثقيلة وخفيفة، طويلة وقصيرة. يعتقد قوم نياس أنه قبل ولادته يُسأَل الإنسان عن ثقل وطول الروح التي يرغب فيها فيُعطى روحاً من الوزن والطول حسب رغبته. وأثقل روح أُعطيت لاتتجاوز العشرة غرامات. ويتناسب طول عمرالإنسان مع طول روحه؛ أما الأولاد الذين يموتون صغاراً إنما كانت أرواحهم قصيرة. أما مفهوم قوم فوجي عن الروح ككائن بشري صغير يظهر بوضوح في العادة المتبعة عند موت القائد في قبيلة ناكيلو. عندما يموت الرئيس يناديه رجال معينون وهم دفّانون بالوراثة وهو مُلقى على الأرض مزيَّن ومطلي بالزيت، على الفراش الجميل قائلين: "انهض ياسيدنا، انهض ياقائدنا، ودعنا نذهب. لقد استجدَّ اليومُ على الأرض." ثم ينقلونه إلى حافة النهر حيث يأتي القارب الروحي العبار لينقله إلى أرواح الناكيلو عبر النهر. وهم يعتنون بالرئيس في رحلته الأخيرة يأتون بأقرب الناس إليه لينحنوا عليه لإيوائه لأنه وكما شرح أحدهم لعضوٍ من البعثة، " إن روحه مجرد طفل صغير." أما أهل البونجاب الذين يوشمون أنفسهم يعتقدون أن الروح – وهي مُصَغَّر الرجل أو المرأة – تخرج من الجسم عند الموت وتتجه إلى السماء وهي موسومة بنفس الوشم الذي كان يزين جسمها في الحياة. وكما سنرى أحياناً أن الروح البشرية إنما تُدرَك ليس على شكل إنسان إنما على شكل حيوان.

2ـ غياب الروح واستردادها

من المفترض أن الروح تخرج من المنافذ الطبيعية للجسم خصوصاً الفم والمنخرين. لذلك نرى قوم سيليب يربطون أنف المريض وسرته وقدميه بصنانير صيد السمك كي تعلق الروح بالصنارة عندما تهرب. ويرفض قوم تيوريك على نهر بارام في بورنيو أن يفارقوا ومعهم حجارة تشبه الصنارة لأنها تربط الروح بالجسد وتمنع انفصال الروح عن المادة. وعندما يبدأ الساحر من داياك البحر عمله، من المفترض أن تملأ الصنانير أصابعه ليتثبت بواسطتها من الروح البشرية عندما تطير بعيداً ثم يعيدها إلى جسم الذي يعاني من أمر ما. ومن الواضح أن هذه الصنانير يمكن أن تلتقط أرواح الأعداء بالإضافة إلى أرواح الأصدقاء. وعملاً بهذا المبدأ يعلق صيادو الرؤوس في بورنيو صنانير خشبية بجانب جماجم أعدائهم المقتولين معتقدين أن هذا

يعينهم في غزواتهم على التقاط رؤوس جديدة. ومن وسائل الطبيب أو الساحر في هايدي عَظْمَةٌ مجوَّفة يحبس فيها الأرواح المغادرة ثم يعيدها إلى أصحابها. وكلما تثاءب الشخص بحضور الهندوس ينقفون بإبهامهم معتقدين أن هذا يعيق خروج الروح من الفم المفتوح. كما اعتاد قوم الماركويسكان أن يسدوا فم وأنف الميت الذي يحتضر كي يحافظوا على حياته ويمنعوا روحه من التسرب. وكذلك يُحكى عن أهالي كاليدونيا الجديدة وتحديداً قوم البغوبو في جزر الفليبين أنها توضع حلقات من أسلاك نحاسية حول معصم المريض وكاحله. ومن الناحية الأخرى يقوم قوم الـ **إيتوناما** في أمريكا الجنوبية بسد عيني وأنفه المحتضر كي لاتخرج روحه وتأخذ معها أرواحاً أخرى وكذلك يعمد أهالي نياس خوفاً من أن تقوم الأرواح الخفية بالتعرف على الجسد خلال النَّفَس، إلى حصر الروح الشاردة في مثواها الأرضي عن طريق سد الأنف أو ربط فكي الجثة. وقبل ترك الجثة يضع قوم ويكلبورا الأستراليون فحماً ساخناً في أذن الميت كي تبقى الروح في الجسد ويضمنوا أنها لن تلحق بهم. وفي سيليبس الجنوبية، كي يعيقوا خروج روح المرأة الواضعة، تربط القابلة عُصابة حول جسمها وتشدها بأقوى ما يمكن. ويتبع قوم مينانكابوري في سومطرة العادة نفسها بربط شلة من الخيطان أو سلك حول معصم المرأة أو خاصرتها في سرير الولادة كي تجد الروح المغادرة في أثناء المخاض المخرج مسدوداً أمامها. وخوفاً من هروب روح الوليد وضياعه فور الولادة، يقوم قوم ألفور من سيليبيس بسد جميع المنافذ في المنزل قبيل الولادة بما فيها ثقب مفتاح الباب؛ ويحشون جميع شقوق وصدوع الجدران كي لا تبتلع تلك الشقوق روح الوليد. وللأسباب نفسها يعمد جميع سكان المنزل بمن فيهم الأم الواضعة نفسها إلى الإبقاء على أفواههم مغلقة في أثناء عملية الولادة. وعندما طُرح عليهم السؤال: لماذا لم تسدوا أنوفكم كي لا تدخل الروح أحد المناخر؟ كان الجواب أن تناوب الشهيق والزفير عبر المنخرين يجعل الروح تُطرَد قبل استقرارها بالداخل. وهناك تعابير شائعة عند الشعوب المتحضرة تدل على أن خروج الروح عبر المنخرين أو الفم شيء طبيعي. وأمثلة على هذه التعابير هي: "وقلبه في يده" و "روحه عل شفاهه أو في أنفه".

غالباً ما يفهمون الروح على أنها طائر مستعد للطيران. وقد ترك هذا المفهوم الكثير من الآثار على معظم اللغات، واستمر في الشعر كاستعارة مكنية. وقد

مارس الماليزيون مفهوم روح الطائر بطرق عديدة. فإذا كانت الروح على جناح الطائر، إذن يمكن استدراجها بالأرز، ومنعها من الطيران أو إغراؤها بالعودة من طيرانها الخطير. ففي جافا وعندما يوضع الوليد أول مرة (لحظةً يعتبرها غير المثقفين في غاية الخطورة)، يوضع في خم دجاج ثم تصدر الأم صوت بقبقة وكأنها تدعو الدجاج. وفي سينتانغ، وهي مقاطعة في بورنيو، وعندما يقع شخص امرأة كان أم رجلاً أو طفلاً عن شجرة أو سطح منزل، وبعد أن يؤتى به إلى المنزل تهرع زوجته أو أحد أقاربه إلى مكان الحادث بأسرع مايمكن وينثر الأرز الملون بالأصفر وهو يقول:" بق، يق، ياروح فلان الفلاني، إنه في منزله الآن. بقبق يا أيتها الروح." ثم يجمع هذا الشخص الأرز في سلة ويحمله إلى الشخص المُصاب وينثر الحب من يده على رأسه قائلاً:" بق بق يا أيتها الروح!" من الواضح هنا أن الهدف من هذا السلوك هو استجرار روح الطائر المتخلفة إلى الشَّرَك ثم إعادتها إلى صاحبها.

من المفترض أن تتجول الروح مبتعدةً عن جسم النائم وتقوم فعلاً بزيارة الأمكنة والأشخاص وتنفذ فعلاً ما يراه الشخص في حلمه. فمثلاً عندما يستيقظ الهندي في البرازيل أو غويانا من نوم عميق، يكون راسخ القناعة بأن روحه كانت في رحلة صيد للسمك، أو تقطع الأشجار أو أي شيء كان يحلم به بينما كان جسمه مستلقياً في أرجوحته الشبكية. وذات مرة دبَّ الذعر بقرية كاملة في بورورو وكاد يهجر أهلها المكان لأن أحدهم حَلُم أن أعداءً تسللوا إليها. وذات يوم حلم أحد الهنود في ماكوسي أن رب عمله جعله يسحب الجندول إلى أعلى عند شلالات صعبة وكان هذا الهندي ضعيف الجسم، وفي الصباح التالي قام بتوبيخ سيده لائماً إياه لأنه يبحث عن وسيلة للتخلص منه. ويروى عن هنود غران تشاكو أنهم يرْوُون قصصاً غاية في الغرابة عن أشياء رأوها أو سمعوا عنها، لذلك يعتبرهم الغرباء الذين يجهلونهم كاذبين. لكن في حقيقة الأمر إنما هم مقتنعون تماماً بما يقصُّون عنه لأن هذه المغامرات هي أحلامهم والتي لا يفرقون بينها وبين الواقع الحي.

هناك بعض الأخطار لغياب الروح في أثناء النوم. لأنه إذا أُعيقت الروح بشكل دائم من العودة إلى الجسد، من المؤكد أن الشخص الذي حُرِم من العنصر الحيوي سيموت. لذلك يعتقد الألمان أن الروح تخرج من فم النائم على شكل فأر أبيض أو طير صغير، وفي هذه الحالة يصبح منع الفأر أو الطائر من العودة أمراً مميتاً للنائم.

لذلك يقولون في ترانسلفانيا أنه يجب ألا ندع الطفل ينام وفمه مفتوح وإلاّ تسللت الروح على شكل فأر ولا يستيقظ الطفل أبداً. وهناك أسباب كثيرة تعيق روح النائمين من العودة، منها أن تقابل الروحُ روحَ نائم آخر ويقتتل الروحان؛ لذلك عندما يستيقظ الزنجي في غينيا صباحاً وقد أصيب بالتهاب بالبلعوم يعتقد أن روحه جُلِدت من قبل روح أخرى في أثناء النوم. وربما تصادف الروحُ روحَ شخص مات توّاً وُيحملان بعيداً معاً؛ لذلك لاينام سكان المنزل في جزر آرو الليلة التي تعقب موت أحدهم لأنهم يفترضون بقاء روح الميت في المنزل ويخافون أن تلاقيها أرواحهم في الحلم أثناء النوم. وربما حصل حجر روح النائم أيضا بالمصادفة أو بالقوة الفيزيائية من العودة إلى الجسد. لذلك عندما يحلم أحد قوم الداياك بأنه سقط في الماء، يفترض أن هذه الحادثة حصلت لروحه فعلاً، فيقوم بإرسال أحد السحرة ليلتقط الروح مرة ثانية في شبكة يدوية من المياه التي سقطت فيها ثم يعيدها لصاحبها. أما قوم سانتال فيحكون كيف نام أحد الأشخاص واستيقظ ظمآن لأن روحه غادرت جسده على شكل سحلية ودخلت جرة ماء كي تشرب. وفي هذه الأثناء صادف أن أغلق صاحب الجرة فوهة الجرة مانعاً الروح من العودة إلى الشخص الميت. وبينما كان أصدقاؤه يقومون بالإجراءات لحرق الجثة أتى أحدهم وفتح الجرة كي يشرب. عندها تمكنت السحلية من الخروج وعادت إلى الجسد فانتعش على الفور ونهض، وراح يستفسر عن سبب بكاء أهله وأصدقائه. أخبروه أنهم اعتقدوا أنه مات وكانوا على وشك حرق جثته. فقال أنه كان في أسفل بئر للحصول على الماء لكنه وجد صعوبة في الخروج منه وأنه عاد لتوه. عندها أدركوا حقيقة الأمر كاملة.

لدى البدائيين قاعدة عامة وهي عدم إيقاظ النائم لأن روحه مفارقة، وقد لا تجد الوقت الكافي للعودة، لذلك يمرض الشخص الذي يستيقظ دون روحه. وإذا كان لابد من إيقاظ النائم، فيجب القيام بذلك تدريجياً كي يفسح المجال أمام الروح للعودة. وصادف أن واحداً من قوم الفيجيان في ماتوكو استيقظ فجأة لأن أحدهم داس على قدمه، فسمعوه يصرخ منادياً روحه ومتوسلاً إليها أن تعود. لقد كان يحلم أنه بعيد في تونغا وكان ذعره هائلاً عندما استيقظ فجأة فوجد جسمه في ماتوكو. لقد أحدق به الموت لولا استمالة روحه للعودة بسرعة عبر البحر كي تقيم في مسكنها المهجور. وكاد الرجل يموت لولا قيام أحد أعضاء البعثة بالتخفيف من روعه.

وربما كان الخطر أكبر- على حد اعتقاد البدائي - في نقل النائم من مكانه أو تغيير مظهره وهو نائم لأنه إذا حصل هذا ستعود الروح ولاتستطيع إيجاد الجسد أو التعرف عليه، وعندها يموت الشخص. ويعتبر قوم مينانكاباور أنه من غير اللائق تسويد أو توسيخ وجه النائم، لأنه ربما تقززت الروح من الدخول إلى الجسد الذي فقد مظهره السابق. ويتصور قوم الباتاني في ماليزيا أنه إذا قمنا بتلوين وجه الشخص في أثناء نومه فإن الروح لاتتمكن من تمييزه، لذلك يبقى نائماً حتى يتم غسل وجهه. وفي بومباي يعتبرون تغيير مظهر النائم مثل تلوين الوجه ورسم الشوارب لامرأة نائمة، بمثابة جريمة. لأنه عندما تعود الروح ولا تعرف جسدها، يموت الشخص.

لكن خروج الروح من الجسم لايحصل بالضرورة في أثناء النوم، بل يمكنها الخروج وهو في اليقظة ثم يأتيه المرض الذي ينتج عنه الموت. لذلك يستلقي الشخص من قبيلة ورنجري في أستراليا عندما يلفظ نفسه الأخير لأن روحه غادرته. ثم يلاحق الطبيب الروح ويلتقطها من منتصفها تماماً وهي تهبط مع توهج الشمس الغاربة، وما هذا التوهج إلاّ ضوء أرواح الموتى وهي تنزل إلى العالم السفلي مكان استراحة الشمس. وبعد أن يلتقط الطبيب الروح الشاردة، يعيدها تحت فروة حيوان الأبوسوم – وهو حيوان أمريكي يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر – المستلقي مع الرجل الميت، ويعيد له الروح كي يسترد عافيته بعد فترة. أما قوم كارين في بورما فهم دائمو القلق على أرواحهم لأنها تطوف بعيداً تاركة أجسادهم معرضة للموت. وعندما يكون هناك مبرر لخوف الإنسان من أن تسلك روحُه ذلك السلوك المميت، تقوم العائلة كلها بطقس معين للحفاظ على الروح أو استعادتها. فيعدُّون وجبة قوامها ديك ودجاجة ونوع خاص من الأرز بالإضافة إلى عنقود من الموز. ثم يقوم رب الأسرة بأخذ وعاء يستخدم لتقشيد الأرز ويضرب به ثلاث مرات على قمة سلم المنزل قائلاً: "برررررررو! عودي أيتها الروح، ولا تمكثي طويلاً خارج المنزل! فإنك ستتبللين عندما تمطر. وإذا سطعت الشمس ستحترقين. وسيلسعك البعوض، وستعضك العلقات ويلتهمك النمر ويسحقك الرعد. برررررررو! عودي أيتهاالروح! هذا المكان أفضل لك، حيث لاينقصك شيء تحتاجينه. تعالي لتأكلي في مأوىً من الريح والعاصفة" وبعد ذلك تشترك العائلة في الوجبة، وينتهي الطقس بأن يربط كل منهم معصمه الأيمن بخيط قام الساحر بتبخيره. وكذلك يعتقد قوم اللولو في غرب

الصين أن الروح تغادر الجسد في أثناء المرض المزمن. فيتلون لهذا ابتهالاً من نوع دقيق، داعين الروح باسمها متوسلين أن تعود من الجبال والوديان ومن الأنهار والغابات والحقول أو من أي مكان تشرد فيه. وفي الوقت نفسه توضع كؤوس من الماء والخمر ويوضع الأرز عند البوابة إغراءً للروح المتسكعة المتعبة. وعندما يفرغون من الطقس يربطون خيطاً أحمر حول معصم المريض ليقيدوا الروح، ويبقى الخيط على معصمه حتى يبلى ويسقط من تلقاء نفسه.

ويعتقد الناس في بعض قبائل الكونغو أنه عندما يمرض الانسان، تخرج روحه من جسده وتتسكع هائمة. ويُطلَب الساحر للمساعدة في القبض على الروح وإعادتها إلى المريض. وغالباً ما يعلن الطبيب أنه طارد الروح حتى حاصرها في غصن شجرة. ثم تخرج المدينة بأكملها مصطحبة الطبيب إلى تلك الشجرة حيث يُكلَّف رجل قوي بكسر الغصن الذي يفترض أنه يحوي روح المريض. ثم يحملون الغصن إلى المدينة مظهرين ملامح على وجوههم تبين أن الغصن ثقيل وصعب الحَمْل. وعندما يصبح الغصن في بيت الرجل المريض، يوضع بشكل منتصب بجانبه ويؤدي الساحر تعاويذ يعتقد أنها ترد الروح لصاحبها.

أما قوم **الباتاك** في سومطرة فيعزون الهزال والمرض والخوف الكبير والموت إلى غياب الروح عن الجسد. يحاولون في بادئ الأمر إقناعها بالعودة فيغرونها بنثر الأرز وكأنها طير. ثم يكررون هذه الكلمات: " عودي أيتها الروح إن كنت متأخرة في الغابات أو الجبال أو الوديان. انظري! إني أناديك **بتويمبا** **بـراس**، ببيضة الطير راجامو ليجا، بالأوراق الإحدى عشرة الشافية. لا تعيقوها، دعوها تعود فوراً إلى هنا، لا تعيقوها في الغابات أو على الجبال ولا في الوديان. أتضرع ألا يحصل هذا. هيا عودي إلى مسكنك!" وذات مرة عندما خرج أحد أهالي قرية كايان في سفر، جلبت الأمهات - خوفاً من أن تتبعه أرواح أطفالهن في رحلته — المهود الخشبية التي يحملن بها أبناءهن وتوسلن له أن يصلي للأرواح الصغيرة كي تبقى مع مهودها المعتادة وألّا ترافقه في ترحاله إلى أقاصي البلاد. وعلى كل مهد رُبط خيط بعروة بهدف إغراء الأرواح الشاردة، وكانوا يدخلون في العروة الإصبع الغض لكل طفل ليأمَنوا أن روحه الصغيرة لن تشرد بعيداً.

وفي قصة هندية ينقل أحد الملوك روحه إلى جسد براهمان ميت، ثم يقوم أحدب بنقل روحه إلى جسد الملك المهجور. أصبح الآن الأحدبُ ملكاً والملكُ براهماناً. وعندما أُغري الأحدب لإبراز مهارته في نقل روحه إلى جسد ببغاء ميت، انتهز الملك الفرصة واسترد جسمه الأصلي. وهناك قصة ماليزية من النوع نفسه مع فوارق في التفاصيل. وهي أن ملك نقل روحه عن غير دراية إلى قرد، فاقتحمت روح الوزير جسد الملك ببراعة وسيطر على الملكة والمملكة بينما أُضنِي الملك وهو على شكل قرد في البلاط. لكن ذات يوم قام الملك المزيف وهو يلعب رهان السباق في صراع الكبوش، وصادف أن سقط ميتاً الكبشُ الذي وضَعَ الملك الزائف الرهان عليه، لم تُجْدِ كلُّ الجهود نفعاً في إعادة الحيوية للكبش حتى دفعت الغريزة الرياضية عند الملك المزيف إلى أن تقفز روحُه إلى جسد الكبش الميت، وبهذا استطاع أن يجدد النزاع. وهنا وجد الملك الحقيقي فرصته وبسرعة بديهة وثب إلى جسده الأصلي، الذي صار شاغراً بسبب سلوك الوزير الطائش. ولاقى مغتصب المُلْك مصيره الذي يستحقه في جسم الكبش. كذلك يروي الإغريق كيف كانت روح هيرموتيموس كازوميناي تترك جسدها وتشرد في البلاد الواسعة. ثم تأتي لأهلها في الوطن بأخبار ما رأته في تجوالها. وذات يوم وعندما كانت روحه شاردة بعيداً نجح أعداؤه في السيطرة على جسده وأودعوه لهيب النار.

لاتغادر الروح جسدها طوعاً بشكل دائم، بل ربما يستخرجها بعض السحرة أو الأشباح أو الأرواح الشريرة. لذلك عندما تمر جنازة أمام المنزل عند قوم كارين يربطون أولادهم إلى البيوت بنوع معين من الخيوط، كي لاتغادر أرواحُهم أجسادَهم وتدخل في الجثة العابرة. يبقى الأطفال موثقين بهذا الشكل حتى تغيب الجنازة عن الأنظار. وعندما تورا الجثة الثرى وقبل أن يُردَّ عليها التراب يلتف النَّاعون والأصدقاء في حلقة حول القبر ويحمل كل منهم قصبة بامبو مشطورة بيد، وباليد الأخرى عصاً؛ ويقحم كل منهم البامبو في القبر ويجر العصا باتجاه أيك البامبو مشيراً للروح أنها تستطيع أن تتسلق خارجة من القبر. وعندما يُرَدُّ التراب على القبر تبقى قصبات البامبو بعيدة عن التراب لئلا تدفن الأرواح العالقة فيها غفلةً في القبر، وعندما يغادر الناسُ القبر يحملون معهم القصب راجين أن تعود الأرواحُ معهم. ولدى العودة من المقبرة يزود كلٌّ منهم نفسه بثلاثة من الأغصان المعقوفة وينادي روحَه أن تعود معه

ومن حين لآخر يقوم بحركة وكأنه يخطفها بالغصن ثم يغرسه في الأرض. إنما يفعل هذا ليدفع الروحَ إلى الحياة بدلاً من البقاء مع الموتى. وعندما يدفن قوم باتاك كارو أحداً وبعد نزول الجثة إلى القبر تقوم إحدى الساحرات بالجري حول القبر ضاربة بعصاها الهواء لتمنع أرواح الأحياء من الاقتراب لأنه لو انزلقت إحدى هذه الأرواح في القبر وغُطّيت بالتراب يموت صاحبها.

وفي يويا – إحدى جزر لويالتي – يبدو أن لأرواح الموتى القدرة على سرقة أرواح الأحياء. لذلك عندما يمرض أحدهم يذهب طبيب الأرواح مع حشد من الرجال والنساء إلى المقبرة. هنا ينفخ الرجال بالشبابة وتصفر النساء بنعومة لتستدرج الروح إلى المنزل. وبعد مضي وقت على هذا يمشون في موكب باتجاه المنزل بينما تثابر النساء بالصفير مع أصوات الشبّابات وهم يسوقون الروح الشاردة بنعومة على راحات أيديهم المفتوحة. ولدى وصولهم مسكن المريض يأمرون الروح بصوت عالٍ أن تدخل جسده.

وغالباً ماتقع الروح المختطَفة في أيدي الأرواح الشريرة. لذلك يعزو الصينيون النوبات والارتعاشات إلى أرواح مؤذية ترغب في إخراج الأرواح من أجسادها. وفي أموي تغتبط الأرواح التي تخدم الرضّع والأطفال من أسمائها السامية (الأحصنة العاديَة وكلاء السماء) و (العارفون الذين يسكنون بين السماء والأرض). عندما يرتعش الطفل تسرع الأم إلى سقف البيت وتلوِّح بقصبة من البامبو مربوط فيها رداء الطفل وتصرخ مرات عديدة قائلة: " يا ابني فلان الفلاني عد إلى البيت!" وفي الوقت نفسه يقوم أحد سكان المنزل بالضرب على جرسٍ على أمل لفت انتباه الروح الشاردة والتي من المفترض أن تميز الرداء المألوف بالنسبة إليها وتدخل فيه. ثم يوضع الرداء الذي صار يحتوي الروح بجانب الطفل، وإذا لم يمت الطفل فإنه سيشفى عاجلاً أم آجلاً. وبالطريقة ذاتها يقوم بعض الهنود بالتقاط الروح الضائعة في حذائهم ويعيدونها إلى أجسامهم من خلال ارتداء تلك الأحذية.

وعندما يتوعك أحد سكان مولوكوس يُعتقد أن شيطاناً قد حمل روحه إلى حيث يسكن في شجرة أو جبل أو تلة. فيأتي الساحر ويحدد مكان الشيطان ثم يذهب مع أصدقاء المريض إلى ذلك المكان ومعهم أرز مطبوخ وفواكه وسمك وبيض نيئ و دجاجةً ورداء حريري وذهب و سوار. يفرشون الطعام على الأرض ويقولون: "

لقد أتينا لنهبك أيها الشيطان هذه العطايا من طعام وملابس كي تطلق روح مريضنا الذي نصلي لأجله، وتدعها تتحد مع جسدها من جديد." ثم يأكلون بعضاً من الطعام و يطلقون الدجاجة كفدية لروح المريض. ثم يحملون الرداء الحريري والذهب والسوار عائدين تاركين البيض هناك. وعندما يصلون إلى البيت يضعون الأشياء التي عادوا بها في طبق عند رأس المريض ويقولون له: "ها قد حررنا روحك؛ إنك ستنجو وتعيش عل هذه الأرض حتى يشيب شعرك."

ويخشى العفاريتَ مَنْ ينتقل إلى بيت جديد. لذلك وعند حفلة الإنتقال تلك يقوم الكاهن في قوم آلفور ميناهاسا في سيليبيس بأداء طقس يعيد فيه أرواح سكان البيت. فيعلق حقيبة في مكان الأضحية ويتصفح مجموعة من الآلهة. هناك الكثير منهم إلى درجة أنه يحتاج إلى ليلة كاملة كي يغطيهم جميعاً. وفي الصباح يقدم لهم البيض وبعض الأرز. ومن المفترض في هذا الوقت أن تكون أرواح أهل المنزل قد تجمعت في الحقيبة، فيأتي الساحر ويرفع الحقيبة فوق رأس رب المنزل ويقول:" الآن روحك معك؛ فاذهبي أيتها الروح إلى الغد ثانية." ومن ثم يقوم بالشيء نفسه قائلاً الكلام نفسه مع ربة المنزل وبعدها لسائر أفراد العائلة. ويتَّبع نفس القوم طريقة يستردون بها روح الرجل المريض بأن يربطوا وعاءً بحزام ويدلُّونه من النافذة وكأنهم يصطادون حتى يلتقطوا الروح في الوعاء ثم يسحبونه إلى الأعلى. ولدى القوم أنفسهم عندما يعيد كاهن روح رجل مريض في قماش تسبقه فتاة تحمل ورقة نخيل من نوع خاص وتضعها فوق رأسه كالمظلة خوفاً من تبلل الروح إذا أمطرت ويتبعه رجل يلوح بسيفه مهدداً كي يثني الأرواح عن أية محاولة لاختطاف الروح التي التقطها.

وأحياناً يتم إعادة الروح الضائعة على شكل مرئي. يعتقد قوم الساليش أو هنود الرؤوس المنبسطة أنه يمكن لروح الإنسان أن تنفصل عن جسده لفترة معينة مسببةً الموت دون دراية الشخص بفقدانها. وهنا من الضروري إعادة الروح لصاحبها وإلاَّ سيموت. ينكشف اسم الإنسان الذي فقد روحه للساحر في منامه فيسرع ليعلمه بتلك الخسارة. وغالباً ما يتكبد عدد من الناس تلك الخسارة في الوقت نفسه، وجميع أسمائهم مكشوفة للطبيب وكلهم يستخدمونه لاسترداد أرواحهم. يتجول فاقدو أرواحهم في القرية طوال الليل من منزل إلى منزل يرقصون ويغنون. وقبيل بزوغ الفجر يذهبون إلى غرفة منعزلة مغلقة كي تصبح في ظلمة كاملة. ثم يُحدَث ثقب

في السقف خلاله يقوم الطبيب مستخدماً مجموعة من الريش بكنس الأرواح إلى الثقب وهي على شكل قطع صغيرة من العظام والقش الذي تصنع منه الحصيرة. وبعدها يقوم الطبيب وعلى ضوء شمعة بفرز أرواح الموتى وهي عديدة فإذا أعطى روح ميت لرجل حي، يموت الحي على الفور. يلتقط أرواحَ جميع الموجودين ويجعلهم يجلسون أمامه ويأخذ روح كلٍ منهم على شكل قطعة خشب أو عظمة أو صدفة، ويضعها على رأس صاحبها ويرْقِيها بالعديد من الصلوات ويُظْهِر قسمات على وجهه حتى تنزل إلى قلب صاحبها لتأخذ مكانها المناسب.

وربما استُخرِجَت الأرواح من أجسادها أو أُعيقت في تسكعها ليس من قبل الأشباح والعفاريت فحسب بل من الناس أيضاً وخصوصاً السحرة منهم. ففي فوجي، إذا رفض المجرم الاعتراف بجريمته يرسل الرئيس لإحضار لفاع قادر على التقاط روح الشرير. ولدى رؤية أو حتى ذكر هذا اللفاع يفصح المجرم عن كل ما في صدره. فإنه إن لم يفعل سيقومون بتلويح اللفاع فوق رأسه حتى يتم التقاط روحه وبعد أن يلفّونها بإحكام في قماش، يسمِّرونها إلى طرف جندول الرئيس. وبما أن جسد المجرم صار بدون روح فإنه سيتداعى للهزال والموت. وفي جزيرة دانجر يقوم السحرة بنصب الشِّراك لالتقاط الأرواح. وكانت تُصنع تلك الشراك من شبك قوي بطول يتراوح من أربعة إلى ثمانية أمتار وعلى كل من طرفيه هناك حلقات من حجوم مختلفة لتناسب أحجام أرواح مختلفة، لأن الأرواح السمينة تحتاج إلى حلقات كبيرة والأرواح النحيفة تحتاج لحلقات صغيرة. وعندما يضمر الساحر الضغينة لأحدهم ينصب شَرَك الأرواح بجانب بيته ويترقب طيران روحه. وإذا تم التقاط الروح على شكل حشرة أو طائر سيموت الرجل حتماً. وفي بعض أنحاء أفريقيا الغربية ينصب السحرة أفخاخاً لالتقاط الأرواح الشاردة من أجسادها في أثناء النوم؛ وعندما يتم التقاطها يربطونها فوق النار فيمرض صاحبها وهي تذوي. ولايقوم هذا السحر لمجرد الضغينة ضد الضحية بل أصبح تجارة مَحْضَة. لا يهم الساحر روح من التُقطت فهو على استعداد دائم لإعادتها لصاحبها إذا ما دفع صاحبها مقابل ذلك. كما يحتفظ بعض السحرة بحرمٍ مقدس للأرواح الشاردة وهنا يمكن لأي شخص أضاع أو ضلَّ روحه أن يأخذ روحه من الحرم بعد أن يدفع الرسوم المعتادة. ولا يُلام من يحتفظ بمثل هذا الحرم أو ينصب الفخاخ للأرواح لأن هذا هو عملهم، ولا يُبادَرون بأيِّ شعور

كريه. وهناك حاقدون ينصبون الأفخاخ لقاء دريهمات بهدف التقاط روح شخص ويضعون في أسفل الإناء الذي يحوي الطُعم عدداً من السكاكين والصنانير الحادة كي تمزق روح الضحية المسكين فإما تقتلها أو تعطبها فتخرب صحة صاحبها إذا نجحت في الهروب والعودة إليه. وقد عرفت آنسة كنفسلي شخصاً من كرومان وكان قلقاً على روحه لأنه شمَّ في حلمه ولعدة ليال رائحة شهية لجراد البحر المدخَّن والمرشوش عليه الفلفل. من الواضح أن راغباً بالشر قد نصب له فخاً بهذه الرائحة اللذيذة في نومه بنية إنزال الضرر الروحي و الجسدي، لذلك عانى كثيراً في منع روحه من الشرود في أثناء النوم. فاضطر إلى استخدام بطانية سميكة على الرغم من حرارة الطقس المداري ورطوبته وراح يشخر ويتعرق تحتها وقد سدَّ أنفه وفمه بمنديل ليمنع روحه النفيسة من الهروب. وفي هاواي كان هناك سحرة يلتقطون أرواح الأحياء ويحبسونها في يقطين ويعطونها للناس كي يأكلوها. ومن خلال عصر الروح المأسورة في أفواههم اكتشفوا المكان السري الذي دُفِن فيه أولئك الأشخاص.

لم يَرْقَ اختطاف الأرواح في أي مكان كما ارتقى في شبه الجزيرة الماليزية حيث تعددت الوسائل التي ينفذ فيها الساحر إرادته كما تعددت دوافعُه لتحقيقها. كان يرغب أحياناً بتدمير عدو وأحياناً يكسب حب امرأة حسناء فاترة وحيية. ولكي نأخذ مثالاً على هذا النوع من السحر إليك التوجيهات التي تأمن بها على روح من تريد أن تخفف من اهتياجه. عندما يطلع القمر يبدو أحمر في الأفق، اخرج، وَقِف في ضوء القمر واضعاً إبهام قدمك الأيمن فوق إبهام قدمك الأيسر، ثم اتلُ في يدك اليمنى، جاعلاً إياها كالبوق، الكلمات التالية:

أحرر رمحي، أرخيه والقمر من فوقي كالغيمة،

أحرره، والشمس تنطفئ،

أحرره ويبهت احتراق النجوم.

لكن ما أرمي إليه ليس الشمس أو القمر ولا النجوم

إنه طواف قلب طفل الجماعة كذا وكذا.

بق! بق! روح فلان الفلاني، تعالي وامشي معي،

تعالي واجلسي معي،

تعالي وشاركيني النوم على الوسادة نفسها.

بق! بق! أيتها الروح.

كرر هذا ثلاث مرات ثم انفخ في قبضتك الجوفاء. يمكنك أيضاً أن تلتقط الروح في عمامتك: اذهب في ليلة البدر التام والليلتين التاليتين؛ اجلس على كثيب نمل موجهاً وجهك إلى القمر البدر، احرق البخور واتل الرقية التالية:

إني اعطيك ورقة تنبول كي تمضغها،

بلِّلها بالكلس، يا أمير الضراوة،

لأجل (فلان الفلاني)، ابنة أمير الحيرة، كي تمضغها.

شخص ما سيهتاج من أجل حبي عند شروق الشمس

شخص ما سيهتاج من أجلي عند غروب الشمس

كما تتذكر أبويك، اذكرني؛

كما تتذكر بيتك، وسلَّم بيتك اذكرني؛

عندما يهدر الرعد، اذكرني؛

عندما تصفر الريح، اذكرني

عندما تمطر السماء، اذكرني؛

عندما تصيح الدِّيكةُ، اذكرني؛

عندما يروي طائر الدايال قصته، اذكرني؛

عندما تنظر إلى الشمس، اذكرني؛

فأنا في ذلك القمر بالذات.

أنا لا أقصد أن أسمح لك أن تأخذ روحي،

بل دع روحك تأتي إلى روحي.

والآن لوِّح بطرف عمامتك باتجاه القمرسبع مرات. ثم اذهب إلى بيتك وضعها تحت وسادتك، وإذا أردت أن ترتديها في النهار، أحرق البخور وقل: " ليس عمامتي هي التي أرتديها، بل هي روح فلان الفلاني."

وقد تأثر هنود نهر ناس في كولومبيا البريطانية باعتقاد مفاده أنه يمكن للطبيب أن يبتلع روح مريضه عن طريق الخطأ. لذلك كان الطبيب الذي يُعتقد أن يفعل ذلك يقف فوق المريض بينما يقف بعض من زملائه فيدخل أحدهم إصبعه في حلقه، بينما يدلِّك الآخرُ بطنه ببراجم أصابعه، ويلطم ثالث على ظهره. فإذا قام زملاؤه بعملهم بنجاح، ولم تكن الروح فيه، يستنتجون أنها في صندوق كبير الأطباء. عندها ينتظر مجموعةٌ من الأطباء عند منزله ويطالبونه بأن يحضر صندوقه. وبعد أن يفعل ذلك وينشر محتويات الصندوق على بساط، يأخذون شخصاً منذوراً من الـ **اسكولابيوس** ويعلقونه من أرجله ورأسه في حفرة في الأرض. ويغسلون رأسه وهو على هذه الحال، وتؤخذ المياه المتبقية من غسله ثم تُصبُّ على رأس المريض. لاشك أن الروح الضائعة هي في ذلك الماء.

3ـ الروح كظل أو انعكاس

إن الأخطار الروحية التي سردْتُها توّاً ليست الوحيدة التي أثارت قلق الإنسان البدائي. وغالباً ما كان يعتقد أن ظله أو انعكاس صورته هو روحه، أو أنها جزؤه الحيوي، وبالتالي هي حتماً مصدر خطر عليه. فإذا ما داس أحدهم عليها أو ضربها بسيف أو طعنها برمح فلابد أنه سيشعر بإصابة مباشرة له. وإذا انفصلت عنه كلياً، ويمكنه الشعور بذلك أيضاً، فيموت بعدها حتماً. في جزيرة ويتار هناك سحرة قادرون على إنزال المرض بالإنسان خلال طعن ظله برمح أو ضربه بسيف. وبعد أن قضى سانكارا على البوذيين في الهند، يُقال إنه هاجر إلى نيبال حيث تختلف الآراء قليلاً حول اللاما الأكبر. ولإثبات قواه الخارقة للطبيعة، كان يحلق سانكارا في الجو. ولكن أدرك اللاما الأكبر ظله يلوح ويتموج على الأرض فطعنه بسكين فسقط على الأرض وكسر رقبته.

وفي جزر البانكس، هناك حجارة متطاولة يسمونها الأشباح الملتهمة لأنها مسكن لأشباح جبارة خطيرة. وإذا وقع ظل إنسان على أحد هذه الحجارة تسحب الأشباح روحه و يموت. لذلك كان الناس يعمدون إلى وضع مثل هذه الحجارة في المنازل كي تحرسها؛ وإذا أُرسِل رسول إلى المنزل فإنه ينادي باسم مرسِلِه لئلا يظن الشبح أنه جاء بنية خبيثة فيؤذيه. كذلك في الجنازة في الصين وقُبَيل وضع الغطاء على القبر، ينسحب إلى الوراء بضع خطوات معظمُ الحضور باستثناء الأقارب المقربين أو ربما ينسحبون إلى غرفة أخرى لأن صحة الشخص تُعرَّض للخطر إذا ما انحبست روحه في التابوت. وكذلك عندما يُنزَل التابوت في القبر يتراجع المشاهدون إلى الخلف كيلا يقع ظلُّهم في القبر فيصيبهم الأذى. وإلى جانب القبر المُبْعَد عن الشمس يقف ضارب الرمل ومساعدوه وحفار القبور وحاملو التابوت ويربطون ظلهم إلى أجسادهم بإحكام وذلك بشد شريط قماشي إلى خُصُورِهم. ولا يقتصر الخطر على البشر بل يتعداه إلى الحيوانات. ففي هضاب بيراك الكلسية كان يتردد حلزون صغير يُعتَقد أنه امتص دم الأبقار عن طريق ظلالها فأصبح لحمهما هبراً، لهذا تموت الماشية أحياناً من نقص الدم. كما اعتقد القدامى في الجزيرة العربية أنه لو وطئ ضبع على ظل رجل لسلبه القدرة على الكلام والحركة. وإن داس ضبع على ظل كلب وهو على سطح منزل في ليلة مقمرة لرأيت الكلب يهبط إلى الأرض وكأنه يُشد بحبل. من الواضح أن الظل في مثل هذه الحالات إن لم يكن معادلاً للروح فهو على الأقل جزء حيوي من الإنسان أو الحيوان وأية أذية تصيبه يشعر بها الشخص أو الحيوان وكأنها إصابة مباشرة في جسمه.

وعلى العكس، إذا كان الظل هو جزء حيوي من الإنسان أو الحيوان من الخطر أيضاً أن تتصل معه لأنه هو أيضاً يصبح على اتصال معك. لذلك ترى الإنسان البدائي يتجنب ظلال أناس معينين لأسباب يعتبرها مصدر تأثير خطير. ومن بين هؤلاء النائحون والنساء بشكل عام، وعلى الأخص حماته أم زوجته. يعتقد هنود الشاسواب أن ظل النائح أو النائحة يسقط عليهم فيصيبهم بالمرض. لذلك يُحذِّر المترهبنون في كورناي فيكتوريا عندما يبدأون عملهم من أن يسمحوا للنساء بالتعرض لهم لأن هذا سيسبب لهم النحف ويجعلهم كسولين وحمقى. ويروى أن أحد سكان أستراليا الأصليين كاد يموت خوفاً لأن ظل حماته وقع على رجليه وهو نائم

تحت شجرة. أما تصور الإنسان البدائي المُطلِق العنان لعواطفه عن الرهبة والذعر المرافقين لحماته فهما حقيقة ثابتة في الأنثروبولوجيا علم أصل الإنسان وتطوره. وقد جرت العادة عند قبائل يوين في ويلز الجنوبية الجديدة أن يُمنَع الرجال منعاً من التواصل مع أمهات زوجاتهم، وربما وصل الأمر إلى عدم النظر إليهن أو باتجاههن. وإذا ما وقع ظل أحدهم عليها إنما يشكل هذا أرضية خصبة للطلاق. وعندما يحصل هذا يتوجب عليه أن يهجر زوجته ويعود إلى أهله. في بريطانيا الجديدة لايمكن للقاطن الأصلي أن يتصور مدى الكارثة التي تحيق به نتيجة التكلم مع أم زوجته؛ وربما كان انتحار أحدهم أو كليهما هو ما ينتظرهم بعد مثل هذا الحديث. وليس هناك قَسَمٌ أوثق عند البريطاني من أن يقول أحدهم: " سيدي، إن لم أكن أقول الحقيقة، فلأصافح حماتي."

في حين يُعتبر الظل وثيق الصلة بحياة الإنسان لدرجة أن فقدانه يسبب الوهن أو الموت، من الطبيعي أن يكون نقصانه مصدر قلق وخوف ينذر بنقصان مماثل في حيوية صاحبه. ففي أمبويانا ويولياس وهما جزيرتان قرب خط الاستواء حيث يكاد الظل ينعدم عند الهجير، يلتزم الناس بقاعدة عدم الخروج من المنزل في ذلك الوقت لأنهم يتصورون أن الإنسان يفقد ظلَّ روحه. ويروي قوم مانغايان عن محارب صنديد، يسمى توكايتاوا، تتعاظم قوته وتضعف مع طول ظله. ففي الصباح تكون قوته في أوجها وكلما قصر ظله تنحط قوته حتى تصل إلى الحضيض عند الظهيرة ثم تعود ثانية عندما يطول ظلُّه من جديد بعد الظهر. وعندما اكتشف أحد الأبطال سر قوته ذبحه عند الظهيرة. ويخشى بدائيو بيسيس في شبه الجزيرة الماليزية أن يدفنوا موتاهم عند الظهيرة لأنهم يتصورون أن قِصَر ظلهم في تلك الساعة يقصِّر من أعمارهم بفعل التعاطف.

ربما لا يظهر بوضوح هذا الترادف بين الظل والحياة أو الروح في أي مكان في العالم أكثر منه في العادات التي مازالت تُمارَس حتى يومنا هذا في جنوب شرق أوروبا. ففي اليونان اليوم عندما يوضع أساس بناء جديد، جرت العادة أن يُقتَل كبش أو ديك أو خروف وأن يُسال دمه على حجر الأساس الذي تحته سيدفن. وتهدف هذه الأضحية إلى تقوية وتثبيت البناء. لكن أحياناً وبدلاً من قتل أحد الحيوانات يقوم البنَّاء باستدراج رجل ما إلى حجر الأساس ويقيس حجمه أو حجم

جزءٍ من جسمه أو ظله دون دراية ذلك الرجل ويدفن المقياس تحت حجر الأساس؛ أو أنه يضع حجر الأساس فوق ظل ذلك الرجل الذي يُعتقد أنه سيموت خلال سنة. ويعتقد اهالي رومانيا في ترانسلفانيا أن من يدفن ظلُّه في جدار سيموت خلال أربعين يوماً لذلك يَسمع المارة بجانب بناء قيد الإنشاء صرخات مثل:"احذر أن يأخذوا ظلك!" وليس من وقت بعيد كان بعضهم يكسب رزقه من تجارة الظلال إذ يزودون المهندسين المعماريين بالظلال الضرورية لتأمين سلامة الجدران. في هذه الحالات يُعتبر قياس الظل مرادفاً للظل نفسه، وأن دفنه يعني دفن حياة صاحب القياس أو روحه التي سيموت بدونها. وبهذا تكون هذه العادة بديلاً عن ممارسة قديمة كانوا يسحقون فيها شخصاً حياً ويدفنونه تحت حجر الأساس ليعطي البناء الاستمرارية والمِنعة أو ـ لنكن أدق ـ لتقوم الروح الغاضبة بحراسة المكان وتمنع دخول الأعداء.

مثلما اعتقد بعض الشعوب أن روح الإنسان في ظله، كذلك اعتقدوا أنها في انعكاس صورته على صفحة الماء أو المرآة. لذلك اعتبر قوم أماندا انعكاس صورتهم على المرآة هي روحهم وليس ظلهم. وعندما رأى قوم موتوموتو صورتهم على المرآة أول مرة في غينيا الجديدة اعتقدوا أن صورهم هي أرواحهم وفي كالدونيا الجديدة رأى الكبار منهم أن صورة المرء في المرآة أو انعكاسه على صفحة الماء هي روحه أما من تلقى من الشباب تعليماً على أيدي الكهنة الكاثوليك الشباب فرأوا أنه مجرد انعكاس فقط ولا يزيد عن انعكاس شجرة النخيل على الماء بشيء. ومثل الروح الظل، يتعرَّض انعكاس الروح لأخطار كثيرة لأنه خارج نطاق الجسم. يمتنع قوم الزولو عن النظر إلى البركة الداكنة لأنهم يؤمنون بوجود وحش فيها سيأخذ روحهم فيموتون. ويقول الـ باسوتوس أن للتماسيح القدرة على قتل الإنسان خلال جر انعكاسه تحت الماء. وعندما يموت أحدهم فجأة ودون سبب واضح يزعم أقاربه أن تمساحاً أخذ ظله عندما كان يعبر الجدول. وفي جزيرة سادل في ميلانيزيا هناك بركة "يموت كل من ينظر فيها لأن الروح الحاقدة تتمكن من حياة الشخص بواسطة انعكاسه على سطح الماء."

نستطيع الآن أن نفهم لماذا جرت العادة في الهند القديمة ولدى الإغريق القدامى أن لا ينظر أحدُهم إلى انعكاسه على صفحة الماء ولماذا اعتبرالإغريق الأمر فَألاً للموت إذا حَلُم برؤية انعكاس صورته. إنهم يخافون أن تجر أرواحُ المياه انعكاسَهم

أو روحَهم تحت الماء وتتركهم للموت. ربما كان هذا سبب القصة الكلاسيكية عن نرجس الجميل الذي تلاشى في الماء ومات من رؤية انعكاسه في الماء.

ويمكننا الآن أن نفسر انتشار عادة تغطية المرايا أو إدارة وجهها نحو الحائط بعد حصول وفاة في المنزل. إذ يُخشى أن الروح الخارجة من الشخص على شكل انعكاس في المرآة، أن تُحمَل مع الروح المغادرة والتي يعتقد أنها تبقى حول المنزل حتى تتم عملية الدفن. إذن تماثل هذه العادة تماماً عادة عند الـ آرو وهي عدم النوم في المنزل بعد الوفاة خشية أن تصادف روحُ الميت روحَ الحالم وتحملها معها. والسبب في امتناع المرضى عن النظر إلى أنفسهم في المرآة ووجوب تغطية المرآة في غرفتهم أصبح واضحاً الآن؛ عندما تطير الروح بسهولة يصبح من السهل سحبها عن طريق انعكاسها في المرآة. كما نرى أنها قاعدة مماثلة للقاعدة المتبعة من قبل بعض الشعوب وهي عدم السماح للمريض بالنوم لأنه في النوم تُسحَب الروح من الجسم ويشكل عدم عودتها خطراً دائماً.

كما في الظل والإنعكاسات كذلك يُعتقد أن الصورة تحتوي على روح الشخص المرسوم فيها. ومن الطبيعي أن يكره من يؤمن بهذا أن تؤخذ صورته لأنه إذا كانت الصورة هي الروح أو على الأقل الجزء الحيوي من الشخص المرسوم، فيستطيع كلُّ من يملك الصورة أن يمارس على صاحبها تأثيراً مميتاً. لذلك يعتقد شعب الأسكيمو في بيرينغ سترايت أن من يمارس عمل السحر لديه القدرة على سرقة ظل الشخص الذي يذوي بدونه ويموت. وذات مرة، في قرية على نهر يوكون الأدنى وضع أحد المكتشفين آلة تصوير ليأخذ صوراً للناس وهم يتجولون بين بيوتهم. وبينما كان يسلط آلته أصرَّ رئيس القرية على أن ينظر تحت قماش الكاميرا. وبعد أن حدق بتمحص ولمدة دقيقة رأى الأشخاص يجولون على الصفحة الزجاجية المصقولة، فسحب رأسه وصرخ بأعلى صوته للناس، " لديه جميع ظلالكم في هذا الصندوق." فدب فيهم الرعب وقامت الفوضى العارمة واختفوا في بيوتهم. أما قوم تيبيهاون في المكسيك فوقفوا في خوف مميت وهم ينظرون إلى الكاميرا، واستغرق الأمر خمسة أيام لإقناعهم بالوقوف أمامها. وبعد أن قبلوا بهذا كانوا يقفون أمامها وكأنهم مجرمون على وشك أن يُنفذ فيهم حكم الإعدام. يعتقدون أن الفنان عندما يأخذ صورة لهم إنما يحمل أرواحهم ليلتهمها عندما يحلو

له. قالوا إنه عندما تصل الصور إلى بلده سيموتون أو ينزل بهم مكروه كبير. وعندما كان الدكتور كاتات وبعض زملائه يستطلعون بلاد بارا على الساحل الغربي لمدغشقر، ساد الناس شعور كُرْهٍ نحوهم بشكل مفاجئ. وبعد أن أخذ المسافرون وبصعوبة صورةً للعائلة المالكة صاروا متهمين بأخذ أرواحهم بغرض بيعها عند العودة إلى فرنسا. لم يجدِ النكران نفعاً مما اضطر الدكتور كاتات وتمشياً مع العادة المتبعة أن يلتقط الأرواح ثانية ويجمعها في صندوق ثم يعيد كلاً منها إلى صاحبها.

أبدى بعض القرويين في سيكيم رعباً كبيراً واختبأوا عندما اتجهت نحوهم عدسة الكاميرا أو كما يسمونها "عين الصندوق الشريرة". اعتقدوا أنها تأخذ أرواحهم مع صورهم فتقع تحت رحمة مالك الصورة يمارس عليها سلطته عن طريق السحر، كما زعموا أن الصورة المأخوذة للمكان قد أصابته بآفة. لم تكن توضع صورة للملك على العملة النقدية لسيام أبداً حتى أتى الملك السابق وفعلها لأول مرة. " كان هذا بسبب ما يرونه من شر في استخدام الصور على أي أداة. وإذا أراد المسافرون في الغابات وحتى يومنا هذا أن يتسببوا للكاميرا أن تتكسر، ما عليهم إلا أن يوجهوا عدستها نحو حشد من البدائيين. عندما تأخذ نسخة عن وجه الشخص كأنما أخذت منه جزءاً من حياته. ولولا مباركة الملك بسنوات من مثيوصالح أحد أجداد نوح لما سمح لحياته أن تُوزَّع قطعاً صغيرة مع نقود المملكة. "

ومازالت مثل هذه المعتقدات مستمرة في أنحاء كثيرة من أوروبا. فمنذ بضع سنوات أظهرت بعض النسوة في جزيرة كارباثوس في اليونان غضبهن لأنه تم رسمهن واعتقدن أنهن سيذوين ويمتْن نتيجة لذلك. وهناك أشخاص في غرب أسكتلندة يرفضون أن تُؤخذ لهم صور لأنهم يعتبرون هذا نحساً وقدموا الكثير من الأمثلة عن أصدقاء لهم لم يتمتعوا يوماً بصحة جيدة منذ أُخِذت لهم الصور.

الفصل التاسع عشر
الأفعال المحرمة

1ـ تحريم التعامل مع الغرباء

لا تقتصر المفاهيم البدائية على بلد أو شعب معين فيما يتعلق بمخاطر الروح لكنها تختلف في التفاصيل. ومازالت باقية كما رأينا حتى يومنا هذا في أوروبا المعاصرة. ولابد من وجود معتقدات راسخة واسعة الانتشار أسهمت في إعطاء قالب المَلكية البدائية. فإذا كان كل منهم يعاني في الحفاظ على روحه من الأخطار التي تهددها من كل جانب، فكم من الحرص يُطلب منه في الحفاظ على الروح التي يتعلق بها وجود ورفاهية شعب بأكمله؟ وكم هي كبيرة العناية الشعبية التي يعيرها الناس لها؟ لذلك من الطبيعي أن نجد الملك محاطاً بنظام حماية وحراسة أكثر من تلك التي يبذلها البدائي في حماية روحه الشخصية. في الحقيقة كانت حياة الملك منضبطة ـ كما رأينا وسنرى الآن – ضمن مجموعة من قواعد دقيقة. أليس لنا أن نتوقع أن تكون هذه القواعد غاية في الدقة لتحمي حياة الملك؟ وعند تفحص تلك القواعد يتبين لنا صحة توقعنا. ويظهر لنا جلياً أن هذه القواعد مطابقة لتلك التي يتبعها الإنسان البدائي في حماية روحه الشخصية؛ وحتى تلك التي تبدو خاصة بالملك نراها تُفسَّر بناءً على فرضية أنها ليست إلا لحماية الملكوحراسته. وسأدرج الآن بعض هذه القواعد الملكية والمحرمات وأعطي على كل منها تعليقاً أو تفسيراً يسلط الضوء على الغرض من تلك القاعدة.

إذا كان هدفهم من المحرمات الملكية هو إبعاد الملك عن مصادر الخطر فإن وسيلتهم هي إجباره على العيش في حالة من العزلة شبه كاملة بحسب عدد وصرامة القواعد التي عليه أن يتبعها. وبما أن السحر هو أكبر هاجس لدى الإنسان البدائي، فهو يلقي الشك على جميع الغرباء خوفاً من أن يمارسوا الفن الأسود. واتقاءً لتأثير

الغرباء المهلك، قاصدين كانوا أم غير قاصدين، اتخذ البدائي احتراساً إستباقياً. وقبل أن يسمح للغرباء بالدخول إلى المنطقة أو على الأقل قبل اختلاطهم الحر بالسكان، لابد من إجراء طقوس معينة من قبل أهل البلد بهدف نزع السلاح السحري من الغرباء وإبطال التأثير المنبعث منه وكأنه يطهِّر الجو الفاسد الذي يحيط بهم. عندما أرسل جستين الثاني أمبراطور الشرق السفراءَ لاختتام عملية السلام مع الأتراك، تم استقبالهم من قبل الـ **شامان** الذين أخضعوهم لطقوس التطهير بهدف التخلص من التأثيرات المؤذية. في بادئ الأمر وضعوا أمتعة السفراء في مكان مفتوح وراح السحرة يحرقون أغصاناً من البخور حولها في حين كان يقرع آخرون الجرس ويضربون على الدف وهم يشنخرون مع نوبات سُعْر جنونية ليبددوا قوى الشر. وبعد ذلك راحوا يطهرون السفراء بتمريرهم في النار. وفي جزيرة نانوميا (في جنوب أفريقيا) مُنِعَ الغرباء الآتون مع سفن من جزر أخرى من الاتصال بالأهالي قبل أخذهم جميعاً أو بعضهم كممثلين عنهم إلى معابد الجزيرة حيث كانوا يقدمون الصلوات للإله كي يحوِّل عنهم غدر هؤلاء الغرباء. وكانت عطايا الطعام تُقدَّم على المذابح مع الأغاني والرقصات على شرف الإله. وبينما كانت هذه الطقوس تجري كان جميع الناس محجوبين عن الرؤية باستثناء الكهنة وخادميهم. وكذلك جرت العادة عند أوتدانوم في بورنيو أن يدفع الغرباء الداخلين إلى المنطقة للأهالي الأصليين مبلغاً معيناً من المال ثمن الأضاحي من الجواميس والخنازير لأرواح البر و البحر لاسترضائهم على وجود الغرباء، ولإغرائهم ألا تتصرف محبتهم عن أهل البلاد بل يباركون موسم الأرز وغيره. وخوفاً من أن يسبب لهم المسافر الأوربي المرضَ كان الرجال من أهالي مقاطعة بورنيو يحذرون زوجاتهم وأطفالهم من الاقتراب منه. أما من لم يستطع كبح فضوله فكان يذبح طيراً ليهدِّئ الأرواح الشريرة بالدم. وقال أحد المسافرين في بورنيو الوسطى:" كان الخوف من الأرواح الشريرة القادمة مع المسافرين أكثر من الأرواح الشريرة المقيمة في الجوار. وعندما زارني صديق من نهر ماهاكام الأوسط وهو من قوم بلويوكايان عام 1897، لم تظهر امرأة نفسها قط خارج منزلها دون حرق حزمة من لحاء شجرة الـ بليهيدنخ والتي تطلق رائحة لاذعة لإبعاد الأرواح الشريرة."

وعندما كان كريفو مسافراً في جنوب أفريقيا دخل إحدى القرى التي يسكنها هنود أبالاي. وبعد بضع لحظات من وصوله أتى بعض الهنود بعدد من نملات سود كبيرة من ذوات اللسعة المؤلمة وهي مربوطة على أوراق نخيل. ثم عُرِض عليه جميع أهالي القرية من جميع الأعمار، نساءً ورجالاً. وتوجَّب عليه أن يجعل النملات تلسع وجوههم وأفخاذهم وأجزاء أخرى من أجسادهم. وعندما كان يستخدم النملات بلطف كان يسمع صراخهم يقولون " أكثر، أكثر!" ولم يكتفوا حتى تنتشر على أجسامهم آثار لسعات متورمة وكأنها ضُرِبَت بنبات القرَّاص. من الواضح أن الهدف من هذه الطقوس كهدف العادة المتبعة عند أمبوينا و يولياس وهي رش المرضى بتوابل لاذعة كالزنجبيل والثوم المطحون بهدف استفزاز الحواس لطرد شيطان المرض المتمسك بأجسادهم. وفي جافا هناك علاج شائع لمرض نقرس المفاصل أو الروماتزم وهو فرك الفلفل الإسباني تحت أظافر أيدي وأرجل المريض كي يسرع شيطان الروماتزم أو النقرس هارباً من قسوة الفلفل. وفي ساحل العبيد تعتقد أم المريض أن روحاً شريرة تملّكت من جسم ولدها الصغير. ولكي تجبره على الخروج كانت تُحدِث جروحاً صغيرة في جسم ولدها وتقحم الفلفل الأخضر أو الفلفل أو التوابل في تلك الجروح معتقدة أنها تؤذي بذلك الروح الشريرة وتجبرها على الفرار. من الطبيعي أن يصرخ الولد المسكين ألماً لكن الأم تقسِّي قلبها لأن هذه الروح الشريرة تعاني كما يعاني الطفل.

من الممكن أن يكون الخوف من الغرباء أكثر من رغبة التشرف بهم هو الدافع وراء طقوس معينة تُقام لأجل استقبالهم لكنها بنيِّة غير معلنة مباشرةً. في جزر أونغتونغ التي يقطنها الـ بولينيسيا، يبدو أن للسحرة والكهنة تأثيراً كبيراً. إن عملهم الرئيسي هو إبعاد الأرواح للحؤول دون المرض وإحداث رياح محببة، ووفرة الصيد من الأسماك وما إلى هنالك. وعندما يحط الغرباء على الجزيرة يقوم السحرة باستقبالهم، ورشهم بالماء، ودهنهم بالزيت، وتجفيفهم بأوراق الـ باندانوس الجافة. وفي الوقت نفسه، تُلقى الرمال والمياه بشكل عشوائي في جميع الاتجاهات، كما يتم تجفيف القادم الجديد وقاربه بأوراق خضراء. وبعد هذه الطقوس يُقدِّمُ السحرةُ الغرباءَ للرئيس. وفي أفغانستان وبعض أنحاء بلاد فارس يُستَقبل الغريب قبل أن يدخل القرية بحيوان يذبح، أو بطعامٍ، أو بنار البخور. وعندما كانت تدخل البعثة في

الحدود الأفغانية، كانت تُستقبل بالنار والبخور. وأحياناً بصينية عليها جمر متقد تلقى تحت حوافر حصان المسافر ويقولون: "أهلاً وسهلاً". ولدى دخوله قرية في أفريقيا الوسطى استُقبل أمين باشا بذبح عنزتين؛ ورش دمائها على الممر كي يطأ عليها الرئيس وذلك تحية له. أحياناً يبلغ الخوف من الغرباء ومن سحرهم مبلغاً يمنع من استقبالهم أصلاً. لذلك وعندما يصل واحد من الـ سبيك إلى أي قرية يغلق الأهالي الأبواب في وجهه، " لأنهم لم يروا من قبل رجلاً أبيض كما لم يروا تلك الصناديق المعدنية التي يحملها رجالُه ويقولون: من يدري؟! ربما كانت هذه الصناديق الغنائم قد تحولت عن الـ واتوتا وأنت لتقتلنا؟ أنت مرفوض. ولايمكن إقناعهم بغير ذلك بأية طريقة، وما على الفريق الضيف إلا أن يرحل إلى قرية مجاورة."

إن الخوف المُضمَر من الزوار الغرباء غالباً ما يكون متبادلاً. فعندما يدخل الغريب قريةً ما، يشعر وكأنه يدوس على أرض مسحورة فيحترس من الشياطين والفنون السحرية التي يمارسها الأهالي. لذلك عندما يذهب الـ ماوري إلى أرض غريبة يؤدون طقوساً يحولون الأرض من مقدسة إلى عادية. وعندما يدخل بارون ميكلوكو ماكلاي قرية على ساحل ماكلاي في غينيا الجديدة، يصاحبه في ذلك واحد من الأهالي الأصليين الذي يكسر غصناً من شجرة ويذهب به جانباً ويوشوشه بعض الوقت ثم يخطو نحو كل من الضيوف ويبصق على ظهره ثم يضربه عدة ضربات بذلك الغصن. وأخيراً يدفن الغصن في أكثر أنحاء الغابة كثافة تحت الأوراق المنثورة الذابلة. يعتقدون أن هذا الطقس يحمي الفريق الضيف من الأذى والخطر المحدق. ربما كانت الفكرة أن الآثار الضارة قد سُحِبَت من الأشخاص إلى الغصن ثم دُفِنت في أقاصي الغابة. وعندما تُدعَى قبيلة غريبة إلى المنطقة، وعندما تصل إلى مضارب القبيلة صاحبة الأرض، يحمل الغرباء اللحاء المشتعل أو العصيان المحترقة في أيديهم، ويقولون أن هذا يطهِّر و ينظِّف الهواء." وكذلك عندما يذهب الـ تورادجا في حملة صيد الرؤوس وبعد أن يدخلوا بلد العدو، لا يأكلون ثماراً زرعها العدو ولا حيواناً من تربيته حتى يرتكبوا عملاً عدوانياً ضده مثل حرق حصانٍ أو قتل رجلٍ. وإذا كسروا تلك القاعدة يعتقدون أنهم يتلقون شيئاً من الجوهر الروحي للعدو والذي بدوره يخرِّب الفضيلة الخفية في طلاسمهم.

ويُعتقد أيضاً أن الرجل الذي يذهب في رحلة قد يتلقى سحراً شريراً من غرباء صادفهم. لذلك لابد أن يخضع لطقوس تطهيرية قبل أن يندمج في مجتمعه من جديد. يقوم الـ بيغوانا بتنظيف وتطهيرها أنفسهم عن طريق حلق شعر رؤوسهم، .. إلخ. وفي بعض أنحاء أفريقيا الغربية، عندما يعود الرجل إلى بيته بعد غياب طويل، وقبل أن يزور زوجته، يجب أن يغتسل بسائل معين ويتلقى علامة معينة على رأسه من الساحر كي يبطل السحرَ الذي قد تكون امرأة غريبة قد وضعته فيه أثناء غيابه، والذي ينتقل عن طريقه إلى نساء القرية. وذات يوم عندما أُرسِل سفيران هنديان إلى إنكلترا من قبل أمير هندي وعادوا إلى هناك ثانية، اعتبرهم أهلهم ملوثين بالتَّماس مع الغرباء ولا يمكن أن يعودوا إلى طهارتهم إلّا بالولادة من جديد. ولإعادة الولادة يجري صنع مجسم على شكل امرأة أو بقرة من ذهب تشخيصاً للقوة الأنثوية للطبيعة. يوضع الشخص ضمن هذا التمثال ويُسحَب من مكان الولادة المعتاد. وربما كان تمثالاً من الذهب الخالص وبالأبعاد الطبيعية باهظ التكلفة، وهنا يكتفون بصنع صورة للمقدس يوني الذي يمر خلالها الشخص المُعادة ولادته. تجري صناعة هذا المجسَّم بأمرٍ من الأمير ويولد سفراؤه من جديد عندما يُجَرُّون خلالها.

إذا كانت تُتَّخَذ هذه الحيطة بالنيابة عن الناس أجمعين ضد التأثير الشرير المُفتَرض ممارسته من قبل الغرباء، فلاعجب أن تُقام إجراءات خاصة لحماية الملك من الخطر الغادر نفسه. في العصور الوسطى عندما زار غرباءٌ تارتارخان، أُجبروا على المرور مع الهدايا التي كانوا يحملونها بين نارين قبل أن يَمْثلوا أمامه. وتهدف العادة إلى استخدام النار في تطهير الغرباء من الآثار السحرية التي قد يمارسونها على الخان. وعندما يأتي رؤساء الرعية مع حاشيتهم لزيارة كالامبا (وهو أقوى ملوك باشيلانغو في حوض الكونغو) لأول مرة أو بعد تمرد، عليهم أن يستحموا، رجالاً ونساءً سوية، في غَديرَين وفي يومين متتاليين يقضون الليلة في العراء وسط السوق. وبعد الحمام الثاني يتابعون المسير وهم عراة إلى بيت كالامبا الذي يضع علامة بيضاء على صدر و جبين كل منهم. وبعدها يعودون إلى السوق ليرتدوا ثيابهم قبل أن يخضعوا لمحكمة تعذيب بالفلفل. يوضع الفلفل في عيني كل منهم ليعترف بجميع ذنوبه ويجيب على جميع الأسئلة المطروحة ويقسم القَسُم المشددة. بهذا الإجراء ينتهي الطقس ويأخذ الغرباء مكانهم في المدينة الفترةَ التي يرغبون بها.

2ـ تحريم الطعام والشراب

يرى البدائيون أن عملية الأكل والشرب محفوفة بالمخاطر لأن الروح قد تخرج من الفم أو تُستَخرَج بفن السحر بحضور أحد الأعداء. وعند أهالي ساحل العبيد الذين يتكلمون لغة إيوي، يسود اعتقاد أن الروح المقيمة في الداخل تغادر الجسد وتعود إليه عن طريق الفم. لذلك على النائم أن يبقي فمه مفتوحاً ليفسح المجال لروحه في العودة إلى جسمه بدلاً من أن تشرد. وقد يحصل الشيء ذاته في أثناء الأكل. ويجب اتخاذ الحيطة من هذه الأخطار. ويُقال أن قوم الـ باتاك" منطلقين من إمكانية مغادرة الروح للجسم، يحرصون دائماً علىألا تضل السبيل وهم في حاجة ماسة لها. من الممكن جداً أن تُمنَع الروح من الشرود عندما يكون المرء في منزله. لذلك تجد منازلهم مقفلةً تماماً في أثناء الولائم كي تبقى الروح في المنزل وتتمتع بما لذ وطاب. يقفل زامفيمانيلو في مدغشقر جميع الأبواب، ولا يراهم أحدٌ وهم يأكلون إلا نادراً. أما الـ واروا فلا يسمحون على الإطلاق لأحد أن يراهم وهم يأكلون أو يشربون وعلى الأخص أي شخص من الجنس الآخر. اضطررت أن أدفع بعض المال لرجل كي يريني نفسه وهو يشرب؛ لكني لم أستطع أن أجعل رجلاً يسمح لامرأة أن تراه وهو يشرب. وعندما تقدم لهم شراباً يطلبون قطعة قماش ليختبئوا وراءها وهم يشربون.

إذا كانت هذه هي إجراءات الحيطة المتخذة من قبل عامة الناس، إذن فالإجراءات المتخذة من قبل الملوك استثنائية. لايمكن لأي شخص أو دابَّة أن ترى ملك لوانغا وهو يأكل أو يشرب ولو هُدِّد بالموت. وعندما دخل كلب محبب على الملك وهو يأكل، أمر الملك أن يُقتَل فوراً وفي مكانه. وذات مرة رأى ابنُ الملكِ — وهو في الثانية عشرة من عمره ـ الملكَ وهو يشرب مصادفةً. فأمر الملك أن يكسى بأجمل اللباس و أن يُقام له حفل، ثم صدرت أوامره أن يُقطَّع إلى أربع قطع وتُحمَل كل قطعة إلى طرف من أطراف المدينة ومعها بلاغ يبين سبب قتله وهو أنه رأى الملك يشرب. عندما يرغب الملك بالشرب، يُؤتى بكأس من الخمر من قبل شخصٍ يحمل جرساً في يده. وما أن يعطي الكأس للملك حتى يقرع الجرس فيخر الحضور ووجوههم إلى الأرض ويبقون على هذه الحال حتى يفرغ الملك من شربه. أما أكله فيتم بالطريقة نفسها، إلا أنه يذهب إلى بيتٍ مخصصٍ لهذا الغرض حيث توضع

مؤونته على منضدة يذهب إليها ويغلق الباب خلفه. وبعد أن يفرغ من الأكل يقرع الباب ويخرج. كل هذا كيلا يرى أحدٌ قط الملك وهو يأكل أو يشرب. فهم يعتقدون أنه لو فعل أحد ذلك لمات الملك على الفور. أما بقايا الطعام فتُدفَن على الفور خوفاً من أن تقع في أيدي السحرة الذين قد يُنزِلون بالملك سحراً مميتاً. أما القواعد المتبعة لدى الملك المجاور كاكونغو فهي مشابهة إلى حد كبير لأنهم يعتقدون أن الملك يموت إذا ما رآه أحد رعاياه وهو يأكل أو يشرب. ومن أخطر الأعمال العدائية أن ترى ملك داهومي وهو يتناول وجباته. عندما يشرب أمام العامة وهو يفعل ذلك في مناسبات معينة، يخفي نفسه وراء حجاب أو منديل يُلف حول رأسه بينما يطأطئ الناس رؤوسهم نحو الأرض. وعندما يشرب ملك بونيورو في أفريقيا الوسطى الحليب في الملبن، على الرجال مغادرة الحجرة وعلى النساء أن يغطين رؤوسهن حتى يعود الملك. لا يمكن لأحد أن يراه وهو يشرب. تصحبه إحدى زوجاته إلى الملبن لتحمل إليه كوب الحليب لكنها تشيح بوجهها وهو يجترعه.

3ـ تحريم إظهار الوجه

في بعض الحالات التي ذكرناها سابقاً ربما كان الهدف من جعل الأكل والشرب في مكان مغلق هو إعاقة دخول الآثار الضارة إلى الجسم أكثر من خروج الروح منه. وهذا هو بالتأكيد الدافع وراء عادة الشرب والأكل التي يتبعها البدائيون في إقليم الكونغو. وكما بلغنا من هؤلاء أنه نادراً ما ترى أحد الأهالي الأصليين يجرؤ على اجتراع الشراب دون استحضار الأرواح، حتى أن بعضهم يقرع الجرس طوال الفترة التي يشرب فيها؛ وبعضهم الآخر يربض على الأرض ويضع يده اليسرى عليها؛ وآخرون يخمِّرون رؤوسهم أو يضعون ورقة عشب أو ورقة شجر في شعرهم، أو يَسِمون جبينهم بالطين؛ أي تأخذ هذه العادة الفتشية أشكالاً عديدة. ولتفسير هذه الأشكال يقول بعضهم إنها الطريقة الفعالة لاستحضار الأرواح. في هذه المنطقة يقرع الرئيس الجرس كلما يجترع البيرة، وفي الوقت نفسه يقف فتىً أمامه ويطعن بالرمح ليمنع الأرواح من دخولها إلى جسم الرئيس العجوز سالكة الطريق الذي تسلكه البيرة." كما يفسر الدافع ذاتُه العادة التي يتبعها سلاطين أفريقيا وهي تغطية وجوههم إذ يقوم سلطان دارفور بتغليف وجهه بقطعة من الـ

موصلين وهو نسيج قطني رقيق يلفه حول رأسه عدة مرات مغطياً فمه وأنفه أولاً ومن ثم جبهته بحيث لا يُرى من وجهه إلا عيناه. وهناك عادة مماثلة وهي استخدام خِمار الوجه كعلامة للسيادة في بعض أنحاء أفريقيا الوسطى. أما سلطان واداي فيتكلم دائماً من خلف حجاب، لا يرى وجهه سوى حَميميه وقليل من الأشخاص المفضلين لديه.

4ـ تحريم الخروج من المنزل

استرسالاً في الحيطة يُمنع الملوك أحياناً من مغادرة قصورهم، وفي حال حصل هذا يُمنع رعاياهم من رؤيتهم وهم خارجاً. على سبيل المثال يمنع من مغادرة قصره ملك بينين الفتش الذي عبده رعاياه كإله. وبعد تتويجه يُحبس ملك لوانغا في قصره ولا يغادره. أما ملك أونيتشا فلايخطو خارج بيته إلى المدينة إلا بأضحية بشرية لاستعطاف الآلهة، وحتى مع الأضحية لايذهب أبعد من تخوم الأراضي التابعة له. وقد بلغنا فعلاً أنه لايغادر ولو كلّفه ذلك حياته أو يفتدي على مرأىً من عينيه بواحد أو اثنين من عبيده. وبما أن معيار ثروة البلاد هو عدد العبيد، يحرص الملك كل الحرص على ألا يخرق القانون. مع ذلك يُسمح للملك بالخروج مرة واحدة في احتفال الـ يامز وحتى أنه يُطلب منه حسب العادة أن يرقص أمام الناس خارج أسوار القصر اللِّبْنِيَّة. يحمل في أثناء رقصه ثقلاً كبيراً مثل كيس من التراب على ظهره ليثبت أنه مازال قادراً على تحمُّل أعباء الدولة وهمومها. وإذا عجز عن أداء هذه المهمة يُخْلَع فوراً وربما يُرجَم بالحجارة. أما ملوك إثيوبيا فكانوا يُعبَدون كآلهة لكنهم يُحبسون في قصورهم. وفي ساحل بونتوس الجبلي كان يعيش في قديم الزمان أناس بدائيون محاربون يدعون موسيني أو موسينيتشي في بلادهم الوعرة ثاوزاند وقد اشتهروا برحلتهم من آسيا إلى أوروبا. يبقى ملك هؤلاء البرابرة في رعايتهم على أعلى قمة برج عالٍ لاينزل عنه أبداً بعد انتخابه. من برجه هذا يقيم العدل بين الرعية لكنه لو أذنب معهم يعاقبونه بأن يقطعوا عنه الطعام ليوم كامل أو ربما يتركوه يموت جوعاً. أما ملوك السبايا أو شيبا بلد التوابل في الجزيرة العربية، فكانوا ممنوعين من الخروج من قصورهم أيضاً، وإن فعلوا، يرجمهم الرعاع بالحجارة حتى الموت. يتواصلون مع الرعايا من خلال نافذة في أعلى القصر

مثبت إليها جنزير، إذا شعر أي شخص بمظلمة، يشد الجنزير، ويتعرف الملك على مظلمته و يدرسها ثم يستدعيه ويبت بالأمر.

5ـ تحريم ترك بقايا الطعام

أيضاً يمكن القيام بالسحر باستخدام بقايا الطعام التي يشارك فيها المرء أو خلال الأطباق التي يأكل منها. وبناءً على مبدأ السحر التجانسي التعاطفي، تستمر الصلة بين الطعام الموجود في معدته وما تبقى من الطعام الذي كان يأكل منه حتى لو لم يلمسه، ومن هنا يمكنك إلحاق الأذى بالآكل خلال إلحاق الأذى ببقايا الطعام. عند قوم نارينيري في أستراليا الجنوبية، يظل الكبار في بحث دائم عن عظام الوحوش، أو الطيور، أو الأسماك التي أُكِل لحمها من قبل شخص ما، ليستخدموها في صنع سحر مميت. لهذا يحرص الجميع على حرق عظام الحيوانات التي أكلوا منها لئلا تسقط في أيدي أحد السحرة. وغالباً ما ينجح الساحر في الحصول على عظام كهذه. عندما يفعل ذلك يعتقد أنه امتلك القدرة على في حياة من أكل من لحم الحيوان امرأة كانت، رجلاً أم طفلاً. ولتفعيل السحر يقوم الساحر بصنع معجون من المَغْرَة وزيت السمك، ثم يقحم المعجون في عين سمكة القُدّ وقطعة صغيرة من لحم جثة ثم يعجن الخليط على شكل كرة ويثبتها على رأس العظمة. وبعد تركها فترةً ما في صدر جسد ميت كي تستخلص الضعف المميت عن طريق التفسخ، توضع الأداة السحرية على الأرض بقرب النار. وعندما تذوب الكرة يدخل المرء الذي أُقيم السحر ضده في متاهة مَرضيّة. وعندما تتلاشى الكرة تموت الضحية. ما إن يعرف الرجل المسحور عن السحر المنصوب له، حتى يلجأ لشراء العظمة من الساحر، وبعد الحصول عليها يرمي الأداة السحرية في نهر أو بحيرة. وفي تانا أحد هيبرايدز الجديدة، يدفن الناس العظام أو يرمونها في البحيرة أو النهر كيلا تقع في أيدي ناصبي السحر. لأنه عندما يجد صانع المرض بقايا وجبة ما، مثل قشرة موز، يأخذها ويحرقها ببطء. في أثناء احتراقها يمرض آكل الموزة ويرسل بطلب صانع المرض ويعرض عليه الهدايا إذا ما أوقف احتراق قشرة الموز. وفي غينيا الجديدة يحرص السكان الأصليون كل الحرص على أن يخفوا أو يسحقوا

القشور أو بقايا الطعام كيلا يحصل عليها أعداؤهم و يستخدموها في إيذاء أو تدمير الآكلين. لذا يحرقون البقايا أو يرمونها في البحر أو يبعدونها عن طريق الأذية.

وبدافع الخوف نفسه، أي الخوف من السحر طبعاً، لايمكن لأحد أن يلمس الطعام الذي يتركه الملك في صحنه، بل يُدفَن في حفرة في الأرض. ولايجوز أن يشرب أحدٌ من آنية الملك. أعتاد الرومان القدامى أن يكسروا قشور البيض التي يأكلونها منعاً من أن يستخدمها الأعداء في صنع السحر. ومازالت هذه الممارسة شائعة بيننا وهي تعود إلى هذه الخرافة.

إن الخوف الخرافي من بقايا الطعام جعل البدائي يدمر بقايا الطعام كيلا تتفسخ، فهذا أثبت لهم أنه مصدر حقيقي للمرض والموت وليس مجرد تخيل. ولم تكن هذه مجرد شروط صحية للقبيلة استفادت فيها القبيلة من الخرافة، بل كانت خوفاً له أساسه وفكرة سببية حقيقية عززت الروابط الأخلاقية للضيافة والشرف والإيمان العميق بين الناس الذين يحملون هذه الفكرة. من الواضح أن من ينوي إنزال الإيذاء بشخص ما عن طريق السحرلايشاركه الطعام لأنه لو فعل وحسب مبادئ السحر التعاطفي، سيعاني مثل عدوه من الإيذاء النازل على بقايا الطعام. من هنا يكسب الاشتراك في الطعام قدسيته كرابط بين الناس في المجتمع البدائي. ومن هنا تظهر فكرة الاشتراك بالطعام نفسه بين شخصين وكأنها سلوك لبق في الضيافة يضمن خلاله الشخصان أن أحداً منهما لن يسيء استخدامه ضد الآخر لأنهما اشتركا فيزيائياً بالطعام نفسه في معدتيهما، وأي أذى يحيكه أحدهما سيأخذ المفعول نفسه فيه مثلما يأخذه في الضحية. وحسب المنطق العلمي تدوم الرابطة التعاطفية طوال وجود الطعام في معدتي الفريقين. لهذا السبب يعتبر العهد المُتَّخذ عن طريق الاشتراك في تناول الطعام هو أقل قدسية واستمرارية من العهد المُتَّخَذ عن طريق تبادل الدم الجاري في عروق الفريقين المتعاهدين لأن هذا الدم المنقول يشبكهما طوال الحياة.

الفصل العشرون
الأشخاص المحرمون

1ـ تحريم القادة والملوك

رأينا كيف كان يُطبخ طعام الميكادو يومياً في أوانٍ جديدةٍ ويُقدَّم في أوانٍ جديدةٍ؛ وكيف كانت القدور والأطباق من الفخار العادي كي يتسنى لهم كسرها أو وضعها جانباً بعد استعمالها مرة واحدة. وعلى العموم كانت تُكسر، لأنه لو أكل أحدٌ من تلك الأواني المقدسة، لتورَّم فمه وبلعومه والتهبا. واعتقدوا أن ورماً وآلاماً مماثلة تصيب من يلبس من ملابس الـ ميكادو دون إذنه. وفي فوجي هناك اسم خاص لمرض وهو كانا لاما، يُفتَرض أن سببه الأكل من أطباق القائد أو ارتداء ملابسه. يتورم الجسم والبلعوم، ويموت الشخص العاق عندما يصاب بهذا المرض. وقد أعطاني أحدهم بساطاً جميلاً لأنه لايجرؤ على استخدامه لأن الابن الأكبر لـ ثاكومباو جلس عليه يوماً ما. وكانت هناك عائلة أو طائفة من العوام مستثناة من هذا الخطر. وقد تكلمتُ مع الـ ثاكومباو حول هذا الأمر فقال: "نعم، خذ مثلاً فلاناً الفلاني! تعال واخدش ظهري. فقام الرجل بالخدش لأنه كان من أولئك المحصنين من العقوبة" وكان الناس المتميزين بذلك يسمون نياندوكاني، أي وسخ القائد.

منطلقين من الآثار الضارة لاستخدام أواني وملابس الميكادو وقائد الفيجا نستطيع أن نرى الجانب الآخر من شخصية الإنسان الإله الذي استرعى الاهتمام سابقاً. إنه مصدر خطر مثلما هو مصدر بركة. لذلك علينا أن نحترس منه مثلما علينا أن نحرسه. إن بنيته العضوية الدقيقة تجعله يتشوش جراء لمسة واحدة وكأنه مشحون كهربائياً بقوة سحرية وروحية تتفرغ لتترك آثاراً مميتة على كل ما يلامسه. وبالتالي يصبح عزل الشخص الإلهي ضرورة ماسة لسلامة الآخرين مثلما هو

ضرورة لسلامته. إن فضيلته السحرية بالمعنى الدقيق للكلمة هي قابلة للانتشار: أي ألوهيته نار تعطينا بركة لاحصر لها مادامت مقيدة بالشكل الصحيح، لكنها إن لُمِسَت هذه القيود بشكل متهور تكسر القيود وتحرق وتدمر من يلمسها. من هنا نرى الآثار الكارثية التي تنتج عن خرق المُحرَّم؛ وكأن الخارق قد أقحم يده في النار الإلهية التي تضعفه وتلتهمه في مكانه.

يعتقد أهالي النوبة الذين يقطنون جبال النوبة الخصبة في إفريقيا الشرقية أنهم يموتون إذا ما دخلوا بيت ملكهم الكاهن، لكنهم يستطيعون تفادي عقوبة هذه الخطية بأن يضع الملك يده على كتف الجاني الأيسر بعد تعريته. وإذا جلس رجل على حجر خصصه الملك لاستخدامه الخاص، سيموت ذلك الرجل الآثم. أما أهالي كاويمبي في أنغولا فيعتبرون ملكهم مقدساً لا يلمسه أحد إلا وقُتِل بقواه السحرية التي تنتشر في جسمه المقدس. لكن بما أنه لا مناص من التواصل معه، استنبطوا وسيلة ينجو عبرها المذنب بحياته؛ وهي أن يركع أمام الملك ويلمس قفا يده مع قفا يد الملك ثم يباعد بين أصابعه؛ ثم يضع راحة يده على راحة يد الملك ثم يباعد بين أصابعه ثانيةً. يتم تكرار هذ الطقس أربع أو خمس مرات ليبعد عنه خطر الموت المحدق. وساد اعتقاد في تونغا أن أي شخص يأكل بيده بعد لمس يد رئيس أعلى مقدس أو أي شيء ينتمي إليه سيصيبه الورم ويموت. وهنا تقوم قداسة الرئيس - وكأنها سم قاتل - بتلويث أيدي الأدنى منه ثم ينتقل التلوث عبر الطعام إلى أن يموت الآكل. أما من يجلب لنفسه هذا الخطر من العوام فيمكن أن يطهر نفسه بأداء طقس معين وهو لمس قدم الرئيس بقفا وراحة يده ثم يشطف يده بالماء. وإذا لم يتوفر الماء يفرك يده بساق شجرة الموز الرطبة. وبعد ذلك يصبح قادراً على استخدام يديه دون خطر المرض جراء الأكل بأيدٍ محرَّمة. ولكن ريثما تُقام طقوس التطهير أو التكفير، يمكنه أن يأكل بمساعدة شخص ما أو أن يركع على ركبتيه ويلتقط الطعام عن الأرض بفمه مثل البهائم. كما أنه لايستطيع أن يستخدم نكاشة أسنان بنفسه بل يمكن أن يستعين بشخص آخر ليمسك له نكاشة الأسنان. ويتعرض قوم التونغا لخطر تليف الكبد أو الغُدَب أي داء الملك والذي يعزونه إلى التقصير بأداء التكفير الإلزامي بعد لمس الرئيس أو أحد ممتلكاته. وغالباً ما يدخلون هنا بطقس الحيطة من أن يكونوا قد أخطأوا في هذا دون علم أو دراية.

لايستطيع ملك تونغا أن يرفض القيام بدوره في هذا الطقس وهو تقديم قدمه لكل من يرغب في لمسها حتى لوأتاه الناس في موعد غير مناسب. لذلك وعندما يدرك الملك البدين أن رعاياه يقتربون منه لذلك الغرض وهو يتمشى خارج مسكنه، يتهادى بأسرع ما يمكن ليخرج عن طريقهم ليتهرب من تعبيرهم المُلحِف عن التبعية والذي لا يخلو من اللامبالاة. وإذا ما تصور أحدهم أنه أكل يوماً ما وعن غير قصد بأيدٍ محرَّمة، يجلس أمام الرئيس ويأخذ بقدمه ويضغط بها على معدته كي لا يصيبه الأذى من الطعام في أحشائه، كأن ينتفخ ويموت. ولأن الـ تونغا يعتبرون الغدب نتيجة تناول الطعام بأيدٍ محرمة، من المتوقع أن يلجأ المُصاب إلى لمسة من قدم الملك أو الضغط بها كعلاج لهذا الداء. وهناك مثيل لهذا العلاج في العادات الإنكليزية وهو إحضار المصابين بالغدب ليحظوا بلمسة من الملك. ويوحي هذا كما ألمحت سابقاً بالسبب الذي جعل أجدادنا يطلقوا عليه اسم داء الملك لاعتقادهم ـ كما يعتقد الـ تونغا ـ أن شفاءه يحصل بلمسة من جلالة الملك الإلهي.

وصل الخوف من حرمة الرؤساء في نيوزيلندة إلى ما وصلوا إليه في تونغا. يرون أن طاقتهم الروحية المستمدة من أجدادهم تنتقل بالعدوى إلى كل ما يلمسونه، ويمكن أن يموت على الفور كلُّ من يعترضهم بقصد أو غير قصد. فمثلاً صادف أن أحد رؤساء نيوزيلندة الكبار من ذوي الحرمة العظيمة، ترك وراءه بقايا طعام بجانب الطريق. ومرَّ بعدها عبدٌ جائع قوي البنية، ورأى طعاماً لم ينفد فأكله دونما استفسار. وما إن فرغ من أكله حتى أخبره مذعوراً شخصٌ شهد الحدث أن ما أكله هو طعام الرئيس. "أعرف تماماً الشخص الجانح. لقد كان مشهوراً بشجاعته متميزاً في أدائه في حروب القبيلة، وما أن علِم بما اقترفته يداه حتى انتابه تشنج ومغص غير عادي في معدته، واستمرت هذه الأعراض حتى مات قبل غروب شمس ذلك اليوم. كان رجلاً قوياً في ريعان شبابه. وكل أوربي حر الفكر يشك بأن العبد قد قُتِل على يد الرئيس المحرم أي عن طريق ملامسة الطعام، يُنظَر إليه باحتقار لجهله وعدم قدرته على فهم الدليل المباشر." ولم تكن هذه حالة فريدة. وهناك امرأة من قوم ماوري أكلت من فاكهة أُخبرَت بعدها أنها من مكان محرم، وراحت تصرخ أن روح الرئيس الذي كانت حرمته كبيرة ستقتلها. كان هذا بعد الظهر فماتت قبل حلول ظهيرة اليوم التالي. كما تسببت علبة القدح لرئيس ماوري بقتل عدة أشخاص.

علبة ضاعت من الرئيس وعثر عليها بعض رجال استخدموها في إشعال غليونهم. وبعد إخبارهم من كان صاحب العلبة ماتوا ذعراً. وكذلك تسبب رداء رئيس نيوزيلندي بقتل من لبسه. وقد رأى أحد أعضاء البعثة رئيساً يلقي من فوق شفا جُرفٍ بطانيةً ثقيلة يصعب حملها. وعندما سأله لماذا لم يتركها على شجرةٍ مثلاً، فيستفيد منها مسافرٌ عابر، أجاب الرئيس: " كل الخوف من أن يستخدمها أحد فتقتله بالعدوى لأنها محرمة." وللسبب نفسه لا ينفخ الرئيس الماوري النارَ، لأن نَفَسَه المقدس الخارج من فمه ينتقل إلى النار ومنها إلى القِدْرِالذي عليها، ومنه إلى اللحم الذي في القدر ومنه إلى الإنسان الذي يأكل اللحم الذي كان في القدر الذي وُضِع على النار التي نفخ عليها الرئيس؛ فيموت الرجل من نَفَس الرئيس المنقول بهذه الطريقة.

في العرق البولينيسي الذي ينتمي إليه الماوري، أقامت الخرافات حول الرؤساء المقدسين عوائق حقيقية وليست خيالية، ويموت من يتجاوزها عندما يدرك فعلته. إن هذه القوة المميتة للخيال الذي يفعل فعله من خلال الرعب الخرافي، لا تقتصرعلى هذا العرق بل شاعت عند جميع البدائيين. لنأخذ مثالاً من أصلاء أستراليا: يموت أحدهم بعد التهاب جرح مهما كان طفيفاً إذا ما آمن الجريح أن الأداة المسببة للجرح قد أُنشِد عليها تعويذة فاكتسبت قوة سحرية. وبمجرد معرفته هذه يستلقي على الأرض ويرفض الطعام ويذوي حتى يموت. وعند بعض قبائل هنود البرازيل، إذا ما تنبَّأ الطبيب بموت من كان على عِداء معه يلتزم البائس أرجوحته الشبكية وينتظر الموت، فلم يعد هناك داعٍ للأكل والشرب، وكأن التنبؤ بالموت هو بمثابة صدور حكم الإعدام الذي ينفذه الإيمان بشكل فعال.

2ـ تحريم النادبين

وعلى اعتبار أن الرؤساء والملوك المقدسين مشحونون بطاقة روحية غامضة تنفجر بالتماس، من الطبيعي أن يصنفهم البدائي من بين الطبقات الخطيرة في المجتمع، ويفرض عليهم قيوداً كالتي يفرضها على القتلة والحائضات أو أشخاص آخرين ينظر إليهم بخوف معين. مثال على ذلك هو منع ملوك بولينيسيا أن يلمسوا الطعام بأيديهم، بل يُطعَمون من قبل آخرين، كما رأينا كيف أن أوانيهم ولباسهم وممتلكاتهم الأخرى تسبب الموت إذا ما استُعملت من قبل آخرين. هناك تحريم

مماثل عند بعض البدائيين من الفتيات في أول طمث لهن ومن الواضعات والقتلة والنادبين وكل الأشخاص الذين لهم صلة بالموتى. لنبدأ بذلك الصنف الذي ذُكِرَ أخيراً: عند الماوري، كل من يتعامل مع الجثة، أو يساعد في نقلها إلى المقبرة أو يلمس عظام ميت كان ينقطع عن الناس، فلا يدخل بيتاً أو يتصل بأي شخص أو أي شيء إلاّ وأفسده بالسحر. كما لا يمكنه لمس الطعام بيديه لأنه يفقد فائدته علاوة عن أنه غير نظيف ومحرم إلى درجة الرعب. لذلك يوضع له الطعام على الأرض ثم ينحني على ركبتيه ويداه خلف ظهره، يقضم منه قدر المستطاع. وفي بعض الحالات يمكن إطعامه من قبل شخص آخر إذ يمد هذا الآخر يده بحيث يبقى بعيداً تماماً عن ملامسة الرجل المحرم إذ يخضع المُطعِم لقيود قاسية ليست أسهل من المفروضة على الشخص المحرم إلا بقليل. وفي كل قرية مأهولة هناك شخص بائس وضيع المقام يكسب رزقه من الأجر الزهيد الذي يتلقاه مقابل خدمة المدنسين. يرتدي هذا البائس ثياباً رثة ومغموس من رأسه لأخمص قدمه بالمغرة الحمراء وزيت القرش اللاذع، ويبقى منعزلاً صامتاً، وهو مسن مهزول ذاوٍ نصف مجزوع، تراه جالساً بلا حَراك طوال النهار بعيداً عن طريق عامة الناس أو الطريق الرئيسة للقرية، يحدق بعيون باهتة فاقدة البريق في الناس المشغولين بأشياء لا يمكن أن يشارك فيها. يُرمى أمامه كصدقة وجبتان يومياً يمضغهما بصوت طاحن دون استخدام يديه؛ وفي الليل يربض على أسمال بالية دهنية، يزحف نحو سرير بائس من أوراق الشجر والنفايات حيث يهجع ليلة بائسة وهو متسخ، بردان، تمهيداً لنهار بائس آخر. إنه الشخص الوحيد المناسب للقيام بخدمة الذراع الممدودة لشخص فقد آخر أشكال الاحترام بتعامله مع أصدقائه الموتى. وما أن تنتهي عزلته القابضة للصدر حتى يأتيه نادب آخر؛ وهنا يجب تحطيم جميع الأواني التي أكل منها والتخلص من الملابس التي استخدمها كي لا تنقل الدنس بالعدوى أو تنشره بشكل ما. تماماً كما تم تحطيم أواني الملوك المقدسة والقادة والتخلص من ملابسهم للسبب نفسه. القياس هنا يصل إلى درجة التمام والكمال بين إشارات المؤثرات الروحية التي تنبعث من الآلهة وتلك المنبعثة من الموتى، وبين رائحة التحريم ونتانة التفسخ.

إن القاعدة التي تمنع الشخص من التواصل مع كل من لمس بيديه شخصاً ميتاً هي قاعدة عامة في بولينيسيا. فمن يحضر دفن ميت في ساموا يحرص كل الحرص

على ألا يلمس الطعام فيقوم آخرون بإطعامهم ومدة أيام إذا كانوا أطفالاً لا حيلة لهم. كما يفترضون أن الصلع وفقدان الأسنان هما عقابان من الإله المنزلي أنزله بهم لخرقهم هذه القاعدة. وفي تونغا، كل من يلمس القائد الميت يصبح محرماً مدة عشرة شهور قمرية، أما القادة فيحرَّمون ثلاثة، أربعة أو خمسة أشهر حسب سمو القائد الميت إلا إذا كانت الجثة لـ توينتونغا وهو الرئيس الإلهي العظيم، عندها يحرم أكبر القادة مدة عشرة شهور لا يأكل بيديه بل يُطعَم من قبل آخرين، ويمنع عليه حتى استخدام نكاشة الأسنان بل يوجه شخصاً آخر يمسكها له. وإذا جاع وليس هناك من يطعمه، عليه أن ينزل على يديه وركبتيه ويلتقط الطعام بفمه وإذا ما خرق هذه القاعدة فلابد أنه سيتورم ويموت.

وانتشر بين قوم شاسواب في كولومبيا البريطانية عزل الأرامل والأرملات في فترة الحِداد ومنعهم من لمس رؤوسهم وأجسادهم والأكواب أو أواني الطبخ التي يمكن أن تستخدم من قبل أناس آخرين. وعليهم أن يبنوا بيت التعرق بجانب جدول ماء، يتعرقون به كل الليل ويستحمون بانتظام وبعدها يفركون أجسامهم بأغصان الصنوبر. لايجوز استعمال الأغصان أكثر من مرة، بل تُغرس حول الكوخ بعد الانتهاء من استعمالها مرة واحدة. لايقترب الصيادون من هؤلاء النادبين لأن وجودهم يأتي بالنحس. وإذا وقع ظلُّهم على أحد يعتبرونه مصاباً بالمرض على الفور. كما يستخدمون أغصاناً شائكة على أسرتهم كي يبعدوا الشبح الخفي، كما يضعون الأغصان الشائكة حول الأسرة. ويُظهِر هذا الإجراء الأخير مدى الخطورة الروحية التي تؤدي إلى حَجْرِ هؤلاء عن المجتمع: إنه الشبح المفترض أنه يحوم حولهم. وفي ميكوكو وهي مقاطعة في غينيا الجديدية البريطانية يفقد من ماتت عنه زوجته كل حقوقه المدنية ويصبح منبوذاً يتجنبه الجميع لأنه مصدر خوف ورعب. لايمكنه أن يزرع بستاناً أو يظهر أمام العامة أو يعبر القرية أو يمشي على الطرقات. عليه أن يتوارى عن الأنظار مثل الوحوش؛ وإذا ما سمع شخصاً قادماً وخصوصاً أنثى فعليه الاختباء خلف شجرة أو أجمة. وعندما يريد أن يصطاد أو يلتقط السمك، عليه أن يقوم بذلك وحيداً في الليل. وإذا أراد استشارة شخص ما عليه أن يقوم بذلك خلسةً في الليل؛ وعليه أن يتكلم وشوشة وكأنه فقدَ صوته. وإذا ما انضم إلى مجموعة من الصيادين يعتبرونه مصيبة عليهم لأن شبح زوجته يخيف الأسماك ويبعد الطريدة. وعليه أن يتسلح بفأسه الهندي (تمهوك) ليدافع عن نفسه أينما ذهب ليس احتراساً

من الوحوش في الغابة فحسب بل من أرواح زوجته المفارقة المخيفة التي تؤذيه عندما تسنح لها الفرصة، فجميع الأرواح الميتة مؤذية ولا تكتمل سعادتها إلا بإيقاع الأذى بالأحياء.

3ـ تحريم النساء في أثناء الطمث أو عند الوضع

على وجه العموم، يمكننا القول إن منع استخدام الأواني وما شابه لأشخاص معينين والعواقب الناجمة عن خرق هذه القاعدة هي نفسها سواءً كان هؤلاء الأشخاص أو الأشياء من الفئة المقدسة أو من فئة ما يمكن أن نصفها بالتلوث أو بالوساخة. فبما أن اللباس الذي يلمسه رئيس مقدس يقتل من يتناوله، كذلك تفعل الأشياء التي تلمسها امرأة حائض. ومثال على ذلك أحد الأستراليين السود عندما اكتشف أن زوجته قد جلست على بطانيته وهي حائض، قتلها ومات خوفاً خلال أسبوعين من الحادثة. إذن فالنساء الأستراليات محرمات في هذه الأوقات تحت طائلة الموت إذا لمسن أي من أشياء الرجل أو مشين على طريق يتردد عليه الرجل. وهن محجورات أثناء الوضع أيضاً، وكل الأواني التي يستخدمنها في أثناء الحجر تُحرَق. في أوغندا، يجب تحطيم القدور التي تستخدمها المرأة الحائض أو الواضعة أما الرماح أو الدروع التي تلمسها مصادفة فلا تحطم بل تطهر. وعند جميع الديدي أو أية قبيلة أمريكية أخرى، نادراً ما ترى شخصاً مخيفاً أكثر من الحائض. وحالما تظهر علامات الحالة على الصبية تمنع من أي لقاء إلا مع النساء ويجب عليها أن تعيش وحدها في كوخ صغير بعيدةً عن مرأى أهالي القرية أو الذكور المتجولين. وعليها أن تمتنع عن لمس الأشياء العائدة للرجال أو بقايا لحم الطرائد أو الحيوانات الأخرى لئلا تلوث الصيادين فيخفقون في عملهم بسبب غضب الطريدة من الاستخفاف بها. طعام الحائض هو السمك المجفف وشربها فقط الماء البارد فتشربه عبر أنبوب الشرب. وبما أن منظرها خطير على المجتمع تختفي خلف قبعة من جلد خاص ذات حواشي تتدلى حتى صدرها وتبقى كذلك حتى فترة بعد انتهائها من الحيض. وعند هنود الـ باريبري في كوستاركا، تُعتبر المرأة الحائض غير نظيفة، ولا تستخدم سوى أوانٍ من ورق الموز ترميها في مكان منعزل بعد أن تفرغ منها وذلك خوفاً من أن تأكلها بقرةٌ ما فتموت. كما تشرب من آنية خاصة للأسباب نفسها، لأنه لو شرب أحد من الآنية نفسها فبعدها مصيره الموت.

تنتشر هذه القيود على المرأة في سرير وضعها بين الكثير من الشعوب لأسباب مماثلة. من المفترض أن تكون المرأة في حالة خطيرة تنقلها لأي شخص يلمسها، لذلك يُحجر عليها مدة أربعين يوماً حتى تستعيد عافيتها وقوتها ويكون الخطر الوهمي قد انقضى. في تاهيتي تُعزل المرأة الواضعة مدة أسبوعين أو ثلاثة في كوخ مؤقت يُقام على أرض مقدسة. كما تُمنع من لمس مؤونتها بل يجب أن تُطعم من قبل آخرين. وكل من يلمس الوليد في هذه الفترة يُفرض عليه نفس القيود ريثما يخضع لطقس تطهيري. وفي جزيرة كادياك بقرب آلاسكا تنتقل المرأة قبيل الوضع إلى خيمة وضيعة بائسة مبنية من القصب حيث يُفرض عليها أن تبقى عشرين يوماً بعد الولادة شتاءً كان الفصل أم صيفاً لأنها تُعتبر غير نظيفة ولايلمسها أحد، بل تُعطى الطعام معلقاً على عصا. أما هنود الـ بريبري فيعتبرون تلوث الوضع أخطر من تلوث الحيض فتقوم المرأة بإعلام زوجها عندما تشعر أن ميعاد وضعها قد اقترب فيسرع لبناء كوخ في صعيد منعزل. وعليها أن تعيش هناك وحدها لاتكلم أحداً باستثناء أمها بالإضافة لامرأة أخرى واحدة. وبعد وضعها يقوم الطبيب بتطهيرها بأن يتنفس عليها ويضع عليها حيواناً ما. لكن هذا الطقس لايطهرها تماماً بل ينقلها من حالة الوضع إلى حالة الحيض تعيش بعده شهراً قمرياً كاملاً بعيدة عن أبناء عائلتها متبعة القواعد نفسها في ما يتعلق بالأكل والشرب في حيضها الشهري. ويسوء الوضع أكثر ويكون التلوث أكثر ضرراً عندما تجهض أو تلد طفلاً ميتاً عندها تُمنع من الاقتراب من أي مخلوق. ومجرد لمسها للأشياء أمر بغاية الخطورة. تُعطى طعامها على رأس عصا. وغالباً ما يدوم هذا ثلاثة أسابيع يمكنها أن تذهب بعدها إلى بيتها لتلتزم بقيود الحدود العادية.

لدى بعض قبائل الـ بانتو أفكار أكثر تهويلاً حول التلوث الخبيث الناجم عن المرأة المجهض التي تخفي إجهاضها. أبلغنا شخص خبير في هذ القبائل أن دم الوضع يراه أهالي أفريقيا الجنوبية على أنه فاسد وأخطر من سائل الحيض فيُستبعد الزوج من الكوخ مدة ثمانية أيام خوفاً من التلوث بما تفرزه المرأة. ولا يجرؤ أن يأخذ ابنه بيديه مدة ثلاثة أشهر من الولادة. أما إفراز الوضع فهو أخطر عندما يكون نتيجة إجهاض وعلى الأخص الإجهاض المخفي. هنا الخطر لا يهدد الزوج فحسب بل يهدد البلد بأكملها أرضها وسماءها. ما أطرف هذا الربط بين الأفكار: وهو تسبب الأمور الفيزيولوجية بكوارث عالمية. وكمثال على الآثار الكارثية التي يأتي بها الإجهاض على البلد بأكملها سأقتطف قول أحد الأطباء وصانعي المطر في قبيلة

بابيدي: "عندما تجهض المرأة ويسيل دمها وتخبئ طفلها، هذا يكفي للتسبب بحرق البلد بقيظ شديد، فيُحبَس المطر وتضطرب البلاد. وكلما اقترب المطر من المكان الذي نزل فيه هذا الدم، فإنه لا يجرؤ على السقوط بل يخاف ويبتعد. لقد ارتكبت المرأة أمراً خطيراً. لقد أفسدت بلد القائد لأنها أخفت دماً لم يتخثر بالشكل الصحيح ليتكيف مع رجل ما. الدم محرم. على الدم ألا يقطر على الطريق! يجمع الرئيس رجاله ويقول لهم: هل الأمور على مايرام في قراكم؟ فيجيب أحدهم: كانت المرأة الفلانية حاملاً ولم نر طفلها الذي أنجبته. فيسرعون لاعتقال المرأة ويقولون لها: أرينا ما أخفيت. ثم يذهبون ويحفرون في المكان ويرشون الحفرة بمستخلص نوعين من الجذور المحضَّرة بإناء خاص. ثم يأخذون قليلاً من تراب القبر ويرمونه في النهر، ويعيدون ماءً من النهر ليرشوه حيث أراقت المرأة الدم. كما يتوجب عليها نفسها أن تغتسل كل يوم بالدواء نفسه. عندها يصيب البلد الرطوبة ثانيةً أي تنزل الأمطار. نقوم نحن الأطباء باستدعاء نساء البلد ونخبرهن أن يحضرن كرة من التراب المحتوي على الدم. فيأتين به إلينا في الصباح. وإذا أردنا أن نحضِّر دواءً نرش به البلد كله، نسحق التراب ونرسل بطلب صبية وبنات لم يعرفن بعد أمور النساء وليس لهن علاقات مع رجال. نضع لهم التراب في قرن ثور ويذهبون إلى جميع المخاضات ومداخل البلد. تقوم الفتاة بحفر التراب بالمعول بينما يقوم الآخرون بغمس غصن في القرن ويرشون في الحفرة قائلين: المطر، المطر. وبهذا نزيل الكارثة التي جلبتها النساء على الطرقات؛ فيصبح المطر على استعداد للهطول، وتصبح البلاد مطهرة.

4ـ تحريم المحاربين

أيضاً يرى البدائيون أن المحاربين يتحركون في جو من الخطورة الروحية تفرض عليهم الإلتزام بعدة خرافات تختلف في طبيعتها عن الحيطة المنطقية التي يتخذونها ضد أعداء العرق أو الدم. من آثار هذه الالتزامات العامة وضع المحاربين قبل وبعد النصر في حالة العزلة الروحية نفسها أربعين يوماً كما يتصرف البدائيون تجاه الآلهة البشر وشخصيات خطيرة أخرى توخياً لسلامتهم. لذلك عندما يذهب الماوري في رحلة حرب يصبحون محرمين لأعلى درجة، الأمر الذي يتطلب منهم ومن أصدقائهم في بيوتهم أن يتبعوا عادات طريفة بمنتهى الدقة ويطبقونها على عدة محرمات في

حياتهم العادية. فيصبحون على حد التعبير الأوربي غير الموقر والمستخدم في أيام الحرب قديماً: "مكسوين بمحرمات بسماكة إنش"؛ أما قائد الحملة فلا يجوز الاقتراب منه على الإطلاق. كذلك عندما كان يتقيد الإسرائيليون عندما يسيرون إلى الحرب بطقوس تطهيرية مطابقة لتلك التي يتبعها الماوري والأستراليون السود في حالة الحرب. تصبح الأواني التي يستخدمونها مقدسة كما يتوجب عليهم الصوم الجنسي واتباع عادة النظافة الشخصية والتي دافعها الأصلي ـ كما يمكننا أن نحكم عليها خلال الدافع البدائي المتساوق مع العادة نفسها – هو الخوف من حصول العدو على فضلات أولئك الأشخاص الأمر الذي يمكِّنهم من ممارسة السحر المدمِّر. وعند بعض القبائل الهندية في أمريكا الشمالية على المحارب الصغير في أول حملة صيدٍ له أن يتبع عادات معينة مثل تلك المفروضة على الفتيات الهنديات في أول طمث لهن، إذ يمنع على الآخرين لمس الأواني التي يلمسونها كما يمنع عليهم أن يحكّوا رؤوسهم أو أي جزء من جسمهم بأصابعهم. وإذا اضطرهم الأمر عليهم أن يستخدموا عصا لذلك. يبدو إن هذه القاعدة ـ مثل قاعدة تحريم الأكل باليد والأصابع – تعتمد على التحريم أو التلوث المفترض والذي أطلقنا عليه تسمية الأيدي المحرمة. وعلاوة على ذلك على الرجال من هذه القبائل وهم في طريقهم إلى الحرب أن يناموا دائماً ووجوههم نحو بلدهم مهما كانت الوضعية غير مريحة. كما لا يمكنهم الوقوف على أرض جرداء، ولا يبللون أقدامهم أو يمشون على طرق مسلوكة سابقاً إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وفي حال اضطروا لسلوك مثل هذه الطرقات عليهم أن يعالجوا أقدامهم بأدوية معينة درءاً للآثار الضارة التي تصيبهم من جراء السحر الموجه لهذا الهدف. كما يمنع على أي عضو من الفريق أن يمر فوق أرجل أو أقدام أو أيدٍ أو جسد عضو آخر كان يجلس أو يستلقي مصادفة على الأرض. و يمنع عليهم بالقدر نفسه أن يطأوا فوق البطانية أو السلاح أو الفأس أو أي شيء ينتمي له. وإذا تم خرق هذه القاعدة عن غير قصد صار من الواجب على العضو صاحب الشيء المُداس أن يصرع خارقَ القاعدة أرضاً كما يتوجب على الخارق أن يخضع لهذا الصرْع باستسلام ودون مقاومة. ويأكل المحاربون من زبادٍ خشبية أو من خشب البتولا أو اللحاء ذا الوجهين؛ يشرب المحارب وهو في رحلة الذهاب من وجهٍ وفي رحلة العودة من الوجه الآخر. وعندما يصبحون على مسافة مشي يوم واحد من القرية

يعلقون جميع أوعيتهم على الأشجار أو يرمونها على المروج، ولا شك في أنهم يقصدون بذلك منع انتقال الحرمة أو التلوث إلى أصدقائهم، تماماً كما فعل الميكادو المقدس والنساء في أثناء الوضع والطمث وأولئك الملوثون بالتلامس مع الموتى الذين يُعزَلون لأسباب مماثلة. على المحارب الهندي الأباتشي في الرحلات الحربية الأربعة الأولى ألا يحك رأسه بأصابعه أو أن يدع الماء يلمس شفاهه. فيقوم بحك رأسه بعصا ويشرب من قصبة مجوفة. يَشْكُلُ المحارب على حزامه القصبة مربوطة بالعصا بِسَيْرٍ جلدي. كذلك يتبع قاعدة استخدام العصا قوم أوجيبواي وهم في طريقهم إلى الحرب.

أما بالنسبة لهنود كريك والقبائل العشائرية، فبلغنا أنهم لا يساكنون النساء عندما يخرجون إلى الحرب، ويحجمون عن أي نوع من المعاشرة حتى مع زوجاتهم مدة ثلاثة أيام بلياليها قبل الذهاب إلى الحرب وكذلك بعد العودة إلى البيت لأن عليهم أن يطهروا أنفسهم. أما لدى قبائل بابيدي وباثونغا في جنوب إفريقيا لا يكتفي المحاربون بالتمنع عن النساء بل على الباقين خلفهم في القرية أن يصوموا صوماً جنسياً أيضاً. فهم يعتقدون أن ممارسة الجنس من جانبهم يعني نمو الشوك في طريق المحاربين ولن يكون النجاح حليف الحملة.

لايمكننا الجزم بشأن المنشأ الجوهري لقاعدة الامتناع عن النساء في أيام الحرب، لكن يمكننا أن نحدس حول الدافع خلف الرهبة الخرافية وهي - حسب مبادئ السحر التعاطفي — خشية العدوى بالخوف والجبن الأنثويين. وكذلك يتخيل البدائيون كيف أن التلامس مع المرأة الواضعة يوهن المحاربين ويضعف أسلحتهم. وبالفعل يذهب الكايان في بورنيو الوسطى أبعد من ذلك فيرون أن مجرد لمس نول أو ملابس النساء يضعف الرجل ويجعله يخفق في الصيد والحرب. إذن الأمر ليس مجرد لقاء جنسي يتجنبه البدائي، بل هو حريص على اجتناب الجنس برمته. لذلك ترى عند قبائل هضبة آسام لا يُمنَع الرجال من مساكنة زوجاتهم في أثناء الإغارة فحسب، بل يمتنعون عن طعامٍ طبخَته امرأة بل ويذهبون أبعد من ذلك ويمتنعون عن مخاطبة النساء كلهن بمن فيهن زوجاتهم. وذات مرة خرقت إحدى النساء هذه القاعدة وتكلمت مع زوجها أثناء فترة تحريم الحرب، فمرضت بعدها وقضت عندما علمت بأنها ارتكبت بذلك جريمة شنيعة.

5- تحريم قاتلي البشر

إذا كان لدى القارئ بعض الشك حول ما إذا كانت القواعد التي بحثناها تواً تعتمد على مخاوف خرافية أو أنها مجرد إملاءات احتراس عقلاني، فإن شكه سيتبدد عندما يعلم أن هذه القواعد نفسها مفروضة وبشدة أكبرعلى المحاربين بعد إحرازهم النصر وبعد غياب العدو الجسدي بالكامل. في مثل هذه الحالات يبقى الدافع الوحيد وراء هذه القيود المربكة للمنتصرين ساعة نصرهم هو ربما الخوف من غضب أرواح المذبوحين فتؤثر هذه الأرواح الناقمة حتماً في سلوك الذابح. إن النتيجة العامة لهذه المحرمات والموضوعة على القادة والنادبين والواضعات والرجال في الحرب هي في عزل الأشخاص المحرمين عن المجتمع العادي عبر مجموعة قواعد تفرض على النساء والرجال العيش في أكواخ منفصلة أو في العراء، وتجنب الاتصال الجنسي وتحاشي استخدام أواني الآخرين وهكذا دواليك. وتُفرَض القواعد نفسها على المحاربين المنتصرين وخاصة الذين أراقوا دماء الأعداء. ففي جزيرة تيمور عندما تعود الحملة الحربية منتصرة جالبة معها رؤوس العدو المهزوم، يمنع على قائد الحملة بقوة الدِّين والعرف أن يعود فوراً إلى بيته الخاص، بل يُقام لأجله كوخ خاص يسكنه مدة شهرين بغية التطهير الروحي والجسدي. أثناء هذه الفترة، لايمكنه الذهاب إلى زوجته أو أن يأكله بيده بل يوضع الطعام في فمه من قبل شخص آخر. ومن المؤكد أن الدافع وراء هذه الطقوس هو الخوف من أرواح المذبوحين وقد عرفنا هذا من تقرير يبين أداء طقوس تقديم الأضاحي أثناء العودة الظافرة من رحلة صيد الرؤوس إذ يتم تقديم العطايا للروح المقتولة وأي تقصير في هذا الطقس يؤدي إلى إنزال المصيبة على المنتصر. والدليل على هذا هو أداء رقصة معينة كجزء من الطقس على وقع أغنية تنوح على القتيل وتتوسل السماح ويقولون فيها مستعطفين: " لا تغضب، لأن رأسك هنا معنا؛ ولو لم يحالفنا الحظ لكانت رؤوسنا معروضة في قريتكم. لقد قدمنا الأضاحي استرضاءً لك، ويمكن لروحك أن ترتاح وتغادر بسلام. لماذا كنت عدواً لنا؟ ألم يكن من الأفضل لو بقينا أصدقاء؟ لو بقينا كذلك لما أرقنا دمك ولما قطعنا رأسك." أما أهالي بالو في سيليبيس الوسطى فيأخذون رؤوس أعدائهم في الحرب ويسترضون أرواح الموتى في المعبد في وقت لاحق.

أما عند القبائل المقيمة عند مصب نهر وانيجيلا في غينيا الوسطى، فيفقد من يسلب حياة شخص ما طهارته حتى يخضع لطقوس معينة، يصبح بعدها هو وسلاحه طاهرين. وبعد عملية التطهير بالشكل الصحيح، يعود إلى قريته ويجلس على جذع سقالة الأضاحي. لايقترب منه أحد أو يأبه به أحد. يُقام له منزل خاص يقوم على خدمته ثلاثة صبية صغار. لايمكنه تناول أي طعام سوى لب الموز المشوي ويجب رمي نهاية الموزة. وفي اليوم الثالث من عزلته هذه يقيم أصدقاؤه احتفالاً على شرفه. وفي اليوم الرابع يرتدي الرجل أفضل حليِّه وزينته وأوسمته ويمشي بكامل سلاحه ويستعرض في القرية. وفي اليوم الخامس يخرجون في صيد ويختارون كنغراً من صيدهم، يفتحونه ويفركون بطحاله وكبده ظهر الرجل. ثم يذهب بقدسية إلى أقرب جدول ماء ويقف فاتحاً رجليه ويغسل نفسه. يسبح بين رجليه المفتوحتين كل المحاربين الأغرار. ليكتسبوا شجاعة وقوة. وفي اليوم السادس وعند الفجر يندفع خارجاً من منزله بكامل سلاحه وينادي بأعلى صوته اسم الضحية. وبعد اقتناعه التام بأنه أخاف روح الرجل الميت يعود إلى بيته. كما يساعد الضرب على الأرض وإشعال النار في إخافة الشبح. وفي اليوم السابع ينتهي التطهير ويصبح بإمكانه الدخول على زوجته.

وفي ويندیسي، في غينيا الجديدة الهولندية، عندما تقترب مجموعة صيادي الرؤوس المنتصرة من ديارها تنفخ في صدف التريتون معلنة وصولها منتصرة. وتفرش زوارقها بالأغصان. ويلون كل من حصل على رأس من الأعداء وجهه بالفحم. وإذا ما اشترك اثنان في قتل الشخص نفسه يقومان بتقسيمه بينهما. ويؤقتون وصولها إلى الديار في الصباح الباكر. وتجذف المجموعة نحو قراها وهي تصدر أصواتاً مرتفعة بينما تنتظر النساء مستعدات للرقص على شرفات المنازل. تعبر الجناديل البيوت التي يسكنها الصغار بينما يلقي القاتلون بأكبر عدد من العصي المدببة أو القصب على الجدران والأسقف وكأن هناك أعداء مقتولون. يقضون النهار بهدوء تام. ومن حين إلى آخر ينفخون في المحار أو يضربون على الطبول؛ وأحياناً يضربون جدران البيوت وهم يصرخون لتهجيج أرواح القتلى. لذلك يعتقد الـ يابين في غينيا الجديدة أن أرواح القتلى تطارد قاتلها لتنزل به الأذى، لذلك يبعدون الأرواح بالصراخ وضرب الطبول. وعندما يدفن الفيجي رجلاً حياً، وهذا مايفعلونه عادةً، يطلقون عند حلول الظلام

هديراً قوياً بالقصب وأبواق الصدف بهدف إخافة شبحه كيلا يعود إلى بيته القديم. ولكي يجعلوا بيته كئيباً يجردونه من الأثاث ويغطونه بكل ما هو بغيض. وكذلك في مساء اليوم الذي يعذَّب به سجين حتى الموت، اعتاد هنود أمريكا أن يركضوا في القرية ويطلقوا الزعقات الشنيعة ويضربوا بالعصي على الأثاث والجدران والأسقف والأكواخ ليمنعوا الشبح الضحية الغاضب من الإقامة هناك لئلا يثأر للعذاب الذي نزل به على أيديهم. قال أحد المسافرين: "ذات مرة، وعند حلول الظلام في قرية أوتاواز لاحظت أن السكان في فوضى منشغلين بإصدار الأصوات العالية التي تخلو من أي تناغم. وبعد التحقيق في الأمر عرفت أنهم فرغوا لتوِّهم من قتال دَارَ بين أهالي أوتاواز وأهالي كيكابوز، وأن الغرض من هذه الأصوات كلها هو منع أرواح الأعداء الذين قضوا من دخول القرية."

وساد الوضوء لدى قوم الـ باستو عند العودة من المعركة. وهو وضوء ضروري للغاية لوجوب تخليص المحاربين بأسرع وقت من الدماء التي أراقوها أو من ظلال الضحايا التي تطاردهم باستمرار وتقض مضجعهم. في الوقت الحالي يغتسلون بماء مزود بمواد مطهِّرة، كما يغسلون الفؤوس التي استخدمت في المعركة. أما عند قوم باغيشو في أفريقيا الشرقية فيقوم من قتل رجل بالعودة إلى بيته في اليوم نفسه ويمكنه دخول القرية وقضاء الليلة في بيت أحد أصدقائه. ثم يقتل شاة ويدهن صدره ورأسه بيده اليمنى بما تحتويه معدة الشاة. ثم يأتون بأطفاله ويفعل بهم ما فعل بنفسه. وبعدها يدهن جانبي مدخل البيت بالكرش والأمعاء ثم يرمي ما تبقى منها على سقف بيته. لايمكنه لمس الطعام بيديه طوال يوم كامل بل يلتقطه بعصاة وينقله إلى فمه. لا تخضع زوجته لأيٍ من هذه القيود، بل يمكنها الذهاب والندب على الرجل الذي قتله زوجُها إن أرادت ذلك. وعند قوم الـ أنغوي إلى الشمال من زامبيسي، يقوم المحاربون الذين قتلوا أعداءً في حملتهم بدهن أجسادهم ووجوههم بالرماد، ويضعون ملابس الضحايا على أجسادهم ويربطون الحبال المدبوغة حول أعناقهم ويدلُّون أطرافها على أكتافهم وصدورهم. يرتدون هذا اللباس مدة ثلاثة أيام بعد عودتهم وينهضون مع بزوغ النهار ويركضون في القرية مطلقين زعقات مخيفة ليهجوا أرواح القتلى التي لو سكنت بيوتهم لجلبت المرض والمصائب على ساكنيها.

لم يُذكر في أي من هذه التقارير شيئ عن العزلة المشددة بعد طقوس التطهير، لكن بعض قبائل جنوب أفريقيا تطلب من قاتل عدو نبيل في الحرب أن يبقى معتزلاً زوجته وعائلته عشرة أيام بعد غسل جسمه بماء جارٍ. كما يتلقى من طبيب القبيلة دواءً يمضغه مع طعامه. وعندما يقتل أحد الـ ناندي في أفريقيا الشرقية عضواً من قبيلة أخرى، يلون أحد نصفي جسمه وأحد نصفي سيفه ورمحه بينما يلون الأنصاف الأخرى بالأبيض. ولأربعة أيام بعد القتل، يعتبرونه نجساً ولا يمكنه الذهاب إلى بيته. عليه أن يبني مأوىً بجانب أحد الأنهار ولا يمكنه الالتقاء بزوجته أو عشيقته ولا يأكل شيئاً سوى الشوفان ولحم الماعز. وفي نهاية اليوم الرابع يجب عليه أن يطهر نفسه باستخدام لحاء شجرة سيجيتيت ويشرب حليب الماعز الممزوج بالدم. وعند قبائل الـ بانتو في كافيروندو عندما يقتل أحدهم عدواً في الحرب يحلق القاتل شعر رأسه في أثناء عودته إلى الديار ويفرك أصدقاؤه جسمَه بدواء مؤلف من روث الماعز لمنع روح القتيل من أن تسبب له المشكلات. كما تُمارَس العادة نفسها وللسبب نفسه عند الـ واجيا في أفريقيا الشرقية. أما عند الـ جالولو في كافيروندو فالعادة تختلف نوعاً ما. يحلق المحارب شعر رأسه بعد ثلاثة أيام من عودته من القتال. ويجب عليه أن يعلق طائراً حياً من رقبته ورأسه إلى الأعلى قبل دخوله القرية، ثم يقطع رأس الطير بينما يظل الرأس والرقبة معلقتين. كما يقام احتفال لأجل القتيل كي لايسكن شبحُ القتيلِ القاتلَ. وفي جزر بيليو عندما يعود الرجال من حرب وقع ضحيتها قتلى في صفوف العدو، يقوم الشباب الذين خرجوا للحرب أول مرة وكل من اشترك في القتل بحجز أنفسهم في منزل كبير ويصبحون محرمين. لايمكنهم أن يغادروا البيت أو يستحموا أو يلمسوا امرأة أو يأكلوا سمكاً، بل يقتصر طعامهم على جوز الهند والشراب. ويفركون أجسامهم بورق شجر سحري ويمضغون نبات التنبول المسحور. وبعد ثلاثة أيام يذهبون سويةً ليستحموا بأقرب ما يمكن من المكان الذي قُتِل فيه الرجل.

وعند هنود الـ ناتشي في أمريكا الشمالية يُجبَر الشباب الشجعان الذين أتوا بجلدات رؤوسٍ أول مرة على الالتزام بقواعد تقشف وامتناع معينة مدة ستة أشهر. لايمكنهم خلالها النوم مع زوجاتهم أو أكل اللحم؛ بل يكتفون بالسمك وحلويات صُنِعَت على عَجَل. وإذا ما خرقوا هذه القواعد يعتقدون أن روح الرجل القتيل ستقوم

بنصب سحر مميت لهم، فلاتقوم لهم قائمة مع الأعداء بعد ذلك، كما ينزل بهم الموت جراء أي جرح مهما كان طفيفاً. وعندما يقوم واحد من قوم تشوكتاو بقتل عدوٍ والحصول على جلدة رأسه، يدخل في فترة حِدادٍ مدتها شهرٌ كامل لا يمشط خلاله شعره ولا يحك رأسه مهما استحكه إلا بعصا مربوطة على خصره لذلك الغرض. كما انتشر طقس حداد كهذا لدى هنود أمريكا الشمالية.

وكذلك نرى أن كل محارب قتل عدواً في حرب، يُعزَل عن مجتمعه وخاصة عن زوجاته كما يتوجب عليه القيام بطقوس تطهير قبل الاندماج في مجتمعه ثانيةً. فإذا كان الغرض من العزلة أو شعائر التكفير هو إخافة أو استرضاء روح القتيل الناقمة، لنا أن نتوقع إجراء تطهير مماثل على المجرمين الذين تخضبت أيديهم بدماء أحد أبناء القبيلة، وللغرض نفسه، وأن فكرة التنقية الأخلاقية للروح المتمثلة بالصيام والاغتسال وغيرها هي مجرد تفسير لاحق لعادات قديمة حكمت الحياة البدائية وهي أصل العادات الحالية. ويصبح هذا التوقع قوياً إذا ما عثرنا على بدائيين يفرضون قيوداً فعلية على قاتل ابن القبيلة خوفاً من أن تسكن روحُ القتيلِ القاتلَ. وهذا ما وجدناه فعلاً عند قوم الـ أوماها في أمريكا الشمالية. ويتمتع ذوو القتيل في هذه القبائل بحق قتل القاتل أو يتنازلون عنه مقابل هدايا يرضَونها. وفي حال أبقوا عليه، على القاتل أن يلتزم بقواعد صارمة مدة تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات، يمشي خلالها حافياً، لايأكل الطعام الساخن، ولا يرفع صوته ولا يجيل النظر حوله. كما يُجبر على أن يلف نفسه برداء مربوط إلى عنقه حتى في الطقس الحار، لايفكه أو يتركه مفتوحاً. ويجب عليه ألا يحرك يديه بحرية بل عليه أن يبقيهما قريبتين من جسمه. لا يمشط شعره ولا يجوز أن يسمح لشعره أن يطير مع الريح. وعندما تخرج القبيلة إلى الصيد، عليه أن ينصب خيمته على بعد ربع ميل من خيام سائر أبناء القبيلة لئلا تثير روح القتيل رياحاً قوية وتلحق بهم الضرر. ولايجوز أن يبقى معه في الخيمة سوى واحد من أقاربه. كما يرغب الجميع عن تناول الطعام بصحبته ويبررون ذلك قائلين: "إذا أكلنا مع من يكرهه واكاندا فإن واكاندا سيكرهنا." وأحياناً يجول في الليل نادباً فعلته العدوانية. وبعد انقضاء عزلته الطويلة يسمعه ذوو القتيل يبكي فيقولون: " كفاك، لقد انقضى الأمر، امشِ بين الناس وارتدِ حذاءً ورداءً جديداً." إن السبب المزعوم لبقاء القاتل بعيداً عن الصيادين يعطينا الدليل على

القيود الأخرى الموضوعة عليه: إنه خطير لأنه مسكون. يعتقد الإغريق القدامى أن روح الإنسان الذي مات قتيلاً لتوِّه، لها الحق في إيقاع الأذى بالقاتل. ومن هنا تظهر الحاجة لمغادرة القاتل لبلاده ـ حتى عندما يكون قتله غير مقصود ـ مدة سنة ريثما يهدأ غضب القتيل. كما لا تجوز عودة القاتل إلا بعد تقديم أضحية وأداء طقوس التطهير. وإذا كانت الضحية من الغرباء، على المجرم أن يهجر موطن القتيل بالإضافة إلى موطنه الأصلي. وهذا ماتنقله لنا بصدق ملحمة أوريستيس قاتل أمه— الذي جال من مكان إلى مكان تطارده أمه القتيلة الحانقة، لايجالسه أحد أو يقاسمه أكل اللحم أو يستقبله في بيته حتى يتطهر — صورة عن خوف الإغريق الحقيقي من أن تكون الروح الغاضبة قد سكنته.

6ـ تحريم الصيادين

في المجتمع البدائي غالباً ما يتوجب على الصيادين الخضوع لقواعد تقشف وامتناع والقيام بطقوس تطهير مثل تلك المفروضة على المحاربين والقتلة. ورغم أننا لا نستطيع دائماً التوصل إلى إدراك كامل للهدف من تلك القواعد والطقوس المفروضة، لكن لنا أن نتوقع الدافع الرئيسي وراء عزلة وتطهير المحاربين ـ الذين أخذوا أرواحاً أو يأملون بأخذها ـ وهو الخوف من أرواح الأعداء. كذلك يلتزم الصيادون بعادات تنبع من خوفهم من أرواح الوحوش والطيور والأسماك التي قتلوها أو ينوون قتلها. فالبدائيون يعتقدون أن للحيوانات أرواحاً وذكاء لا يقل عن ذكائهم، ومن الطبيعي أن يعاملوهم باحترام مماثل؛ فيسترضون أرواح الحيوانات المقتولة تماماً كما يفعلون استرضاءً لمن قتلوا من البشر. وسوف نشرح لاحقاً طقوس الاسترضاء هذه، أما الآن فنتناول أمرين: الأول، المحرمات على الصياد قبل وأثناء الصيد ومواسمه والثاني، طقوس التطهير المتبعة عند العودة بالغنيمة من مطاردة ظافرة.

بما أن البدائي يحترم جميع أرواح الحيوانات تقريباً، فإنه يعاملها وكأن فائدتها تتناسب مع حجمها وهولها وقوتها أو ضراوتها. بالتالي يخضع قتل وصيد هذه الوحوش القيمة لطقوس وقواعد دقيقة أكثر مما يخضع له صيد الحيوانات التافهة.

لذلك يقوم هنود الـ نوتاك بالصيام مدة أسبوع قبل صيد الحيتان. لا يأكلون خلال هذه الفترة إلا القليل ويستحمون بالماء عدة مرات يومياً، يغنون ويفركون أجسامهم وأعضاؤهم ووجوههم بالصدف والأغصان حتى يبدون وكأن جلدهم تهيج من الخليج ذلك الورد البري. كما يحجمون عن أية ممارسة للجنس مع زوجاتهم في أثناء هذه الفترة، الشيء الذي يُعتَبَر الشرط الرئيس للنجاح. أما الرئيس الذي يخفق في التقاط حوت ما، فيعزو إخفاقه إلى تدنيس رجاله للعفة. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه التحضيرات مطابقة لتلك التي تقوم بها القبيلة نفسها عندما يذهبون إلى الحرب. إنها قواعد يتبعها أو كان يتبعها صيادو الحيتان الـ مالاغاسي. إذ يصوم فريق صيد الحيتان عن المسكرات والنساء مدة ثمانية أيام، ويعترفون لبعضهم بعضاً بمعظم خطاياهم السرية؛ وعندما يكون الرجل قد غالى في ذنوبه، يُحرَم من المشاركة في تلك الحملة. أما في جزيرة مابوياك فيُفرَض على الناس الصيام قبل الذهاب إلى صيد الأطوم وفي أثناء موسم تزاوج السلاحف الذي يشمل أواخر تشرين الأول وتشرين الثاني؛ وإذا قام العازبون بممارسة الجنس مع بعضهم بعضاً، فيعتقدون أن هذا يسبب انفصال ذكورالسلاحف العائمة عن إناثها ثم يغوصون في اتجاهات مختلفة عندما تقترب الجناديل منها. لذلك وفي نووات في غينيا الجديدة يحجم الرجال عن مضاجعة النساء عندما تتزاوج السلاحف، بينما ينتشر بينهم تراخٍ في الحدود الأخلاقية في أوقات أخرى. وفي جزيرة أواب، وهي إحدى جزر كارولين، يقع صياد السمك الذي يعدُّ العُدة للصيد تحت أقسى قواعد التحريم طوال موسم الصيد الذي يدوم ستة أو ثمانية أسابيع. وكلما كان على الشاطئ عليه أن يقضي وقته في مجلس الرجال ولا يزور بيته تحت أية ذريعة أو ينظر إلى وجه زوجته أو أيٍ واحدة من جنس النساء. فإذا اختلس نظرة إلى إحداهن، من المؤكد أن سمكة طائرة ستقتلع عينيه في الليل. وإذا أرادت أمه أو زوجته أو ابنته أن تعطيه حاجة ما عليها الوقوف على الشاطئ وظهرها نحو مجلس الرجال، هنا يمكنه الخروج والتحدث معها و يأخذ الشيء الذي جلبته له وظهره نحوها، ثم يعود على وجه السرعة إلى حبسه الصارم. كما لا يمكنه الرقص والغناء مساءً مع الرجال في المجلس بل عليه أن يبقى صامتاً. و في ميرزابور، عندما يؤتى ببيوض دود القز إلى البيوت توضع في مكان ملصق عليه بعناية خِثيُ بقرٍ مقدس ليجلب الحظ الحسن. ومنذ ذلك الحين

يتجنب صاحبها الدنس الطقسي، إذ يمتنع عن مساكنة زوجته، والنوم في السرير، وحلاقة شعره، وقص أظافره ودهن نفسه بالزيت، وتناول الطعام المطبوخ بالزبدة، والكذب، وفعل كل ما يعتبره خطأً. كما يُقْسِمُ لـ **سينغرماتي ديفاي** أنه في حال تم توالد الديدان بالشكل الصحيح أن يعطيها الهدايا. وعندما تفتح الشرنقة وتظهر الديدان، يجتمع بنساء المنزل ويغنون محتفلين وكأنما رُزِقوا بولد، كما يلصق شريط أحمر على مفرق شعر جميع النساء المتزوجات في الجوار. وعندما تتزاوج الديدان يفرحون ويبتهجون و كأنه عرس بشري. إذن، تُعامل دودة القز وكأنها كائنات بشرية. ومن هنا تأتي عادة منع الجماع بين الجنسين في أثناء تفقيس الديدان وكأنها امتداد للقاعدة المتبعة لدى الكثير من الأعراق والتي تمنع الزوج من مساكنة زوجته في أثناء الحمل أو الرضاعة.

وفي جزيرة نياس يحفر الصيادون حفراً ويغطونها بأغصان خفيفة وأعشاب وأوراق شجر ثم يستجرون الطريدة إليها. وعليهم أن يحرِّموا على أنفسهم بعض الأشياء وهم يحفرون تلك الأفخاخ. من هذه المحرمات ألا يبصقوا لئلا تتراجع الطريدة متقززة من الحفرة. ولا يجوز أن يضحكوا لئلا تنهار جدران الحفرة. كما يُمنع عليهم أكل الملح أو إعداد العلف للخنازير، وفي الحفرة يُمنع عليهم أن يهرشوا جلدهم خشية ارتخاء التربة وانهيارها في الحفرة. كما يتوجب عليهم ألا يضاجعوا زوجاتهم في الليلة التي تلي حفر الحفرة لئلا يذهب تعبُهم سدىً.

إن موضوع العفة أو الطهارة الدقيقة هو شرط نجاح الصيد لدى الكثير من الأعراق البدائية؛ والأمثلة التي أدرجناها ترجح ارتكاز هذه الممارسة على خرافة أكثر من ارتكازها على اعتبارات ضعف عابر لدى الصيادين يؤدي بهم إلى خرق العادة. ويبدو أن آثار خرق العفة السيئة لا تساهم في إضعاف الصياد نفسه أكثر من إسهامها في خلق عدائية ـ لسبب أو لآخر ـ لدى الحيوانات مما يجعلها تجاهد بنفسها كيلا تسمح للصياد بأن يلتقطها. فمثلاً، كان ينفصل هندي كارير في كولومبيا البريطانية عن زوجته مدة شهر كامل قبل نصب الأفخاخ للدببة، لا يشرب خلاله من إناء زوجته نفسه بل يستخدم كوباً خاصاً مصنوعاً من لحاء شجر البتولا. وأي إهمال لهذا الامتناع يجعل الطريدة قادرة على الفرار بعد وقوعها في الفخ. أما عندما يقوم ذلك الصياد بنصب فخ لحيوان الدلق فإنه يختصر فترة التعفف إلى عشرة أيام.

البحث في الحالات التي يكبح فيها البدائي عواطفه ليبقى عفيفاً بدوافع خرافية موضوع في غير وقته الآن، لذلك لن أتناوله في هذا المقام بل سأضيف بضع أمثلة متنوعة عن هذه العادة قبل الانتقال إلى طقوس التطهير المتبعة من قبل الصيادين بعد صيد الأسماك أو مطاردة الحيوانات. على من يعمل في استخراج الملح قرب سيفوم في لاوس أن يحجموا عن العلاقات الجنسية في مكان عملهم، كما لا يمكنهم تغطية رؤوسهم أو إيواء أنفسهم تحت أية مظلةٍ هروباً من أشعة الشمس الحارقة. ولدى الـ كاتشين في بورما تقوم امرأتان بتحضير الخميرة المستعملة في صنع البيرة، ويتم اختيارهما بالقرعة. لا يأكلان شيئاً حامضاً ولا يقيمان علاقة زوجية مع أزواجهن طوال الأيام الثلاثة التي يحتاجانها للقيام بالعملية، لئلا تصبح البيرة حامضة. وعند الـ ماساي يقوم رجل وامرأة بتخمير خمرة العسل فيعيشان في كوخ يُقام بعيداً حتى يصبح الخمر جاهزاً للشرب. لكنهما يمنعان بقوة من ممارسة الجنس مع بعضهما بعضاً في أثناء هذه الفترة. وتعتبر العفة ضرورية مدة يومين قبل التخمر وستة أيام أثناء حصول التخمر. يعتقد الـ ماساي أن أي خرق للعفة يجعل الخمر غير قابل للشرب لا بل يجعل النحل الذي صنع العسل يرحل بعيداً. وكذلك يطلبون من الشخص الذي يصنع السم أن ينام وحده ويبتعد عن محرمات أخرى، الأمر الذي يجعله شبه منبوذ. أما الـ واندوروبو وهي قبيلة في المنطقة نفسها من ماساي، فيعتقدون بأن مجرد وجود المرأة في جوار الرجل الذي يعد السم سيفقد السم سمِّيَّته، كما يحصل الشيء نفسه عندما تزني زوجة صانع السم في أثناء إعداده للسم. في هذه الحالة الأخيرة، من الواضح أنه لا يمكننا تقديم تفسير منطقي للمحرمات. أي الجواب على السؤال: كيف يفضي فيزيائياً فقدان الفضيلة عند زوجة صانع السم إلى فقدان الفضيلة في السم؟ من الواضح أن الزنا عند الزوجة ينتقل للسم عن طريق السحر التعاطفي: بمعنى أن سلوكها يؤثر تعاطفياً في زوجها وفي عمله عن بعد. بناءً على ذلك، لنا أن نفترض وبقوة أن قاعدة العفة المفروضة على صانع السم هي أيضاً شكل بسيط من السحر التعاطفي، وليس كما يعتقد القارئ المتحضر أنها اتخاذ الحيطة من انتقال السم إلى زوجته عن طريق المصادفة.

ولدى قبائل الـ بابيدي وبا ثونغا في أفريقيا الجنوبية، وعند اختيار موقع جديد للقرية وفي أثناء إقامة الأبنية، يُمنع جميع المتزوجون من ممارسة الجنس. ولدى

اكتشاف أي خرق لهذه القاعدة تتوقف عملية البناء فوراً ويتم اختيار موقع جديد. وذلك لأنهم يعتقدون أن خرق العفة يفسد القرية قيد البناء كما يُضعِف الرئيس وربما يسبب له الموت، كما أن المرأة المذنبة لن تحبل ثانيةً. ولدى قوم الـ تشام في صين الكوتشن، وعندما يُصلح سدٌّ أو يبنى آخر عبر النهر بهدف الري، على الرئيس الذي يقدم الأضاحي ويلتمس الحماية من الآلهة، ويتوجب عليه أن يقيم طوال الوقت في خيمة من القش، لا يشترك في العمل بل يخضع لأقسى شروط الصيام الجنسي لأنهم يعتقدون بإن خرق العفة يؤدي إلى خرق السد. ليس هناك فكرة تربط بين الحفاظ على القوة الجسدية للرئيس وإنجاز عمل لا تمتد إليه يده على الإطلاق.

إذا كان احترام المحرمات وابتعاد الصيادين عن الممنوعات قبل وأثناء المطاردة هو ـ كما وجدنا مبرراً لاعتقادنا – قائم على دوافع خرافية والخوف من أعتداء أرواح الكائنات المعرَّضة للقتل، لنا أن نفترض أن القيود المفروضة بعد ارتكاب القتل ليست أقل صرامة، وهنا يصبح القاتل وأصدقاؤه مصدر خوف يضاف إلى الخوف من الأرواح الساخطة على ضحيته أمام عينيه. وما الامتناع عن الطعام والشراب أو النوم إلا حيطة ناجعة الغرض منها الحفاظ على صحة الرجال وقوتهم ليقوموا بأعمالهم، ويتضح لنا أن متابعة الامتناع بعد إنجاز العمل أي وقوع الطريدة أو التقاط السمك هو عمل إضافي لا ضرورة له وعبث غير مبرر. لكني سأبين الآن أن هذه الممنوعات تزداد حدةً وقوةً بعد موت الحيوانات أي بعد إنجاز الصياد لهدفه مثل جمع للغنائم والتقاط للأسماك. هنا تسقط كل النظريات المنطقية وتبقى الفرضيات الخرافية مفتوحة على مصراعيها.

و لدى قوم الإنويت أو الأسكيمو في مضيق بيرينغ "على الصياد أن يعامل الحيوانات التي اصطادها بعناية تامة كي لا تأتي أرواحها بالنحس والموت عليه وعلى شعبه. لهذا السبب لا يسمح لأي صياد أو كل من ساعد في صيد الحوت الأبيض أو حتى شارك في حمل حوت من الشبكة، بالقيام بأي عمل أربعة أيام، وهي الفترة المفترضة لاصطحاب الروح للحوت. و في الوقت ذاته لا يستخدم أهل القرية أية أداة حادة خوفاً من إيذاء روح الحوت التي يعتقدون أنها تحوم بجواره غير مرئية؛ ولا يصدرون صوتاً عالياً كي لا يخيفوا أو يلحقوا الأذى بالروح. كل من

يقطع جسم الحوت بفأس حديدية سيموت. وبالفعل يمنع استخدام الأدوات الحديدية في القرية طوال فترة الأيام الأربعة.

يقيم هؤلاء الأسكيمو احتفالاً سنوياً عظيماً يأخذون فيه إلى دار الاجتماعات في القرية كلّ مثانات الحيوانات التي تم اصطيادها مثل الفقمة والحوت والفظ والدب الأبيض ويبقون هذه المثانات هناك عدة أيام يتجنب خلالها الصيادون الجماع مع زوجاتهم. وقالوا في تبرير ذلك أنهم لو أخفقوا في الصوم الجنسي ستُثار عدوانية أرواح الحيوانات الميتة. وكذلك الأمر لدى قوم أليوت في آلاسكا حيث يحجم الصياد الذي يضرب حوتاً بواسطة رمح مسحورعن الرمي ثانيةً، بل يعود إلى بيته ويعزل نفسه عن قومه، فيقيم في كوخ يُنصَب خصيصاً لهذا الغرض. تدوم إقامته ثلاثة أيام دون طعام أو شراب ودون أن يلمس أو حتى ينظر إلى امرأة. في أثناء عزلته هذه، يقوم بالجعير من حين إلى آخر مقلدأ الحوت وهو يموت كي يمنع الحوت الذي ضربه من مغادرة الساحل. ثم يكسر عزلته في اليوم الرابع ويستحم في البحر زاعقاً بصوت أجش وضارباً الماء بيديه. وبعدها يأخذ رفيقاً له ويذهبان إلى الشاطئ حيث يتوقع وجود الحوت مرمياً. إذا كان الوحش ميتاً يقوم الصياد على الفور بقطع الجزء من الجرح الذي تسبب بالإصابة. وإن لم يكن ميتاً يعود إلى بيته ويستمر بالاستحمام حتى يقضي الحوت. ربما يُقصد هنا من محاكاة الصياد للحوت الجريح هو جعل الحوت يموت فعلاً عن طريق السحر التعاطفي التجانسي. وأيضاً تتم إثارة العدوانية عند الدب القطبي الضار إذا ما أُهمِلَت بعض المحرمات. تبقى روحه ثلاثة أيام في المكان الذي قُتِلَ فيه، الفترة التي يلتزم فيها الأسكيمو أشد الالتزام بقوانين المحرمات لأنهم يعتقدون أن العقاب سيحل على كل من يخرق القوانين ويخطئ بحق روح الدب، كما تحل عقوبة أسرع على من يخطئ بحق أرواح حيوانات البحر.

عندما يصطاد قوم الـ كايان نمراً برونياً مخيفاً تراهم شديدي القلق على سلامة أرواحهم لأنهم يعتقدون أن روح النمر أقوى من أرواحهم. لذلك يقومون بالمشي من فوق الجثة مرددين السحر القائل " أيها النمر، روحك تحت روحي." ولدى عودتهم إلى الديار يقومون بدهن أنفسهم و كلابهم وأسلحتهم بدم الطيور ليهدئوا أرواحهم و يمنعوها من الهروب، وذلك لأنهم يعزون إلى أرواحهم محبتها للطيور كما يحبونها هم. وبعدها يواظبون على الاستحمام نهاراً قبل عودتهم إلى المطاردة ثانيةً. ولدى قوم

الـ هوتينتوت عندما يقتل رجلٌ منهم أسداً أو نمراً أو وحيد قرن، يُعتبَر بطلاً لكن عليه أن يبقى ملتزماً في منزله مدة ثلاثة أيام، لا تقترب منه زوجته على الاطلاق، بل عليها أيضاً أن تقتصر في طعامها على نزر قليل يكفيها للبقاء على صحتها فقط. وكذلك عند قوم الـ لاب الذين يعتبرون قتل دبٍ مجداً كبيراً لأنهم يعتبرون الدب ملك الوحوش. وكذلك يُعتبَر كل من شارك في قتل الدب مدنساً وعليهم أن يعيشوا ثلاثة أيام في كوخ أو خيمة صُنعت خصيصاً لهم يقطعون جثة الدب ويطبخونها. أما الرنة التي جرَّت ذبيحة على مزلجة فلايمكن أن تسوقها امرأة مدة عام كامل، وتقول بعض التقارير أنها لايمكن أن يستخدمها أي شخص وليس فقط امرأة طوال هذه الفترة. وقبل أن يذهب الرجال إلى معتزلهم يخلعون عنهم الثوب الذي ارتدوه أثناء عملية قتل الدب وتقوم زوجاتهم برش العصير من لحاء شجرة (جار الماء) على وجوههم. لايدخلون الخيمة من بابها المعتاد بل من فتحة خلفية. وعندما يتم طبخ لحم الدب يتم إرسال جزء منه على يد رجلين لامرأتين لا تقتربان من الخيمة أثناء الطبخ. يتظاهر الرجلان اللذان ينقلان اللحم بأنهما غريبان من بلاد بعيدة؛ وتبادل المرأتان هذا التظاهر مع الرجلين و تَعِدان أن تربطا خيطاً أحمر على أرجل الغريبين. ولا يُنقل اللحم إلى المرأتين عبر باب الخيمة بل يجب إقحامه عبر فتحة خاصة من تحت طرف الخيمة. وعندما تنتهي عزلة الرجال و يصبحون أحراراً في العودة إلى زوجاتهم، يركضون واحداً تلو الآخر حول نار ماسكين سلسلة يتدلى منها بعض القدور و يُعتبَر هذا شكلاً من أشكال التطهير. يمكنهم الآن أن يخرجوا من باب الخيمة المعتاد و يعاشروا نساءهم باستثناء قائد المجموعة الذي يمتنع عن مساكنة زوجته يومين إضافيين.

يخاف قوم الـ كافريز من أفعى البواء أو أي أفعى ضخمة تشبهها؛ وبتأثرهم ببعض الأفكار الخرافية يخافون من قتلها أيضاً. وإذا صادف أن قتلها أحدهم في حالة دفاع عن النفس، أو لسبب آخر مثلا عليه أن يستلقي في جدول ماء طوال النهار عدة أسابيع، ويُمنَع قتل الوحوش في القرية التي ينتمي إليها ذلك الفاعل حتى تتم المهمة بشكل كامل. بعد ذلك يقومون بأخذ جثة الأفعى و دفنها في حفرة قريبة من حظيرة المواشي حيث لا يعكر أحدٌ صفو بقاياها. لقد تقلصت فترة التحريم هذه، وهي أشبه بحالة العزاء على الميت، إلى بضعة أيام. وفي مادراس يعتبر قتل الكوبرا

ذنباً كبيراً. وعندما يحصل القتل، يقوم الناس بحرق الأفعى كما يحرقون جثث الموتى البشر. يعتبر المجرم نفسه ملوثاً ثلاثة أيام. ويقومون بسكب الحليب على بقايا الكوبرا في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث يتحرر المجرم البائس من تلوثه.

في هذه الحالات التي ذكرناها سابقاً يتم التكفير عن قتل الحيوان لأنه مقدس، أي أن حياته محفوظة ببواعث خرافية. ويتشابه فيها التكفير بتلك المتبعة مع الصيادين الذين يقتلون الحيوانات والأسماك بهدف الطعام أو التجارة. والدوافع وراء النوعين من التكفير هي نفسها من حيث الجوهر. إنها أفكار تعتمد على الاحترام الذي يكنه الإنسان البدائي لأرواح الوحوش وخصوصاً تلك الحيوانات المرعبة و الثمينة، كما تعتمد من ناحية أخرى على الخوف الذي يسكنه من أرواحها المنتقمة. ويمكن لنا التأكد من ذلك عند النظر إلى الطقوس التي يتبعها صيادو الأسماك في آنام عندما يغسلون الحوت على الشاطئ. وينبع هذا التقليد في العبادة من الفوائد التي يجنونها من الحوت. لذلك لا تخلو قرية على شاطئ البحر من معبد الباغودا الذي يحتوي على عظام معظمها من الحيتان. وعندما تقذف الأمواج حوتاً ميتاً على الشاطئ يقومون بدفنه دفناً مقدساً. يؤدي من يراه على الشاطئ دور المنكوب الرئيسي من وفاته مؤدياً جميع الطقوس التي يقوم بها وريث الميت من أبناء البشر. يرتدي زي العزاء وقبعة من القش والرداء الأبيض ذا الأكمام الطويلة المقلوبة وأدوات العزاء الأخرى. وكأقرب المقربين للميت يترأس مراسيم الجنازة. ويقومون بحرق العطور و إشعال البخور وتنثر أوراق الشجر الذهبية و الفضية. وبعد تقطيع اللحم واستخراج زيت منه يقومون بدفن بقايا الجثة في الرمال ثم يُقام كوخ وتُقدَّم فيه العطايا. وعادة تتملك روح الحوت المدفون شخصاً ما بعد الدفن بفترة وجيزة وتعلن عن نفسها بلسان ذلك الشخص إن كان ذكراً أم أنثى.

الفصل الواحد والعشرون
الأشياء المحرمة

1ـ معنى التحريم

إذن في المجتمع البدائي تتفق شعائر التطهير المتبعة لدى الملوك والرؤساء بكثير من جوانبها مع تلك القواعد المتبعة لدى القتلة والنادبين والنساء الواضعات والبنات عند البلوغ وصيادي البر والبحر وما إلى هنالك. يبدو أن هذه الفئات من الناس مختلفة كلياً في سماتها ومواقعها، فنعتبر بعضهم مقدساً بينما ندين الآخرين بالتلوث، لكن البدائي لا يميز بين هذين النوعين من الناحية الأخلاقية، فالفرق بين القدسية والتلوث لم يكن قد تمايز في ذهنه بعد. وهو يرى أن هذه السمات خطيرة وواقعة في نطاق الخطر في آن معاً؛ والخطر الذي يقعون فيه والذي يعرضون الآخرين له هو من النوع الذي نَسِمُه الآن بالروحاني أو الشبحي وبالتالي هو خيالي. لكن وهمية الخطر لا تخفف فالوهم يفعل فعله في الإنسان تماماً مثل الجاذبية وربما قتلته كما تقتله جرعة حمض البروسيك. وتهدف المحرمات إلى عزل أولئك الأشخاص عن مجتمعهم كيلا يصل إليهم الخطر الروحي المخيف من ناحية، وكيلا ينبثق عنهم من ناحية أخرى. وكأن هذه المحرمات تقوم بدور العازل للكهرباء بقصد الحفاظ على الطاقة الروحية المشحونة ضمن هؤلاء الأشخاص جراء المعاناة أو الضرر الناجم عن اتصالهم بالعالم الخارجي.

شرحاً للمبادئ التي ذكرناها آنفاً، سأدرج أمثلة من الأشياء المحرمة والكلمات المحرمة، لأن البدائي يعتقد أن الأشياء يمكن أن تُشحَن بالفضيلة الخفية للتحريم مثل الأشخاص بشكل مؤقت أو دائم وربما هناك حاجة لتفريغها آجلاً أم عاجلاً مع الاستخدام اليومي في الحياة العامة. ويمكن اختيار هذه الأمثلة بالإشارة إلى أولئك الرؤساء المقدسين والملوك والكهنة الذين يعيشون حياة محصنة بسور من المحرمات. سيتم شرح الأشياء المحرمة في هذا الفصل بينما نشرح الكلمات المحرمة في الفصل القادم.

2ـ تحريم الحديد

في المقام الأول علينا أن ندرك أن الحُرمة الكبيرة للملوك تقود بشكل طبيعي إلى تحريم لمس أشخاصهم المقدسة. لذلك كان من غير الشرعي أن يضع أحدهم يده على ملك إسبارطة، كما لا يمكن لأحدهم أن يلمس جسم الملك أو الملكة في تاهيتي: ومن المحظر لمس ملك سيام ويُعرِّض كل من يخرق هذا الحظر للموت، كما لا يمكن لمس ملك كولومبيا لأي سبب كان إلا بأمر صريح منه. في تموز 1874 وقع الملك عن عربته واستلقى على الأرض فاقداً الوعي ولم يجرؤ أحد من حاشيته أن يلمسه، حتى أتى أحد الأوربيين إلى المكان وحمل جلالته إلى قصره. وفي السابق لم يكن بالإمكان لمس ملك كوريا، وإذا تفضل ولمس أحد الرعايا يصبح المكان الذي لمسه مقدساً ويُفرض على الشخص أن يلبس علامة مرئية (غالباً ما تكون وشاحاً من الحرير الأحمر) تلازمه مدى الحياة. والأكثر من ذلك أنه يحظر على جسم الملك أن يلامس الحديد. وفي عام 1800 م. مات الملك تينغ تسونغ إيوانغ بسبب ورمٍ أصابه في ظهره دون أن يفكر أحد باستخدام المبضع، الأمر الذي كان من الممكن أن ينقذ حياته. ويقال أن ملكاً عانى الكثير من خراج في شفته فأمر طبيبُه باستدعاء مهرج جعل الملك يضحك من أعماق قلبه حتى انفجر الخراج. كما لا يمكن للكهنة الرومان والسابيين أن يحلقوا شعورهم بأمواس حديدية بل يفعلون بمقصات أو أمواس برونزية. وعندما كانوا يُحضِرون أداة حديدية إلى الأيك المقدس للأخوة آرفال في روما بهدف الحفر على الحجارة، كان لابد من تقديم كفارة بذبح خروف أو خنزير، وتتكرر هذه العملية كلما أُعيدت الأداة إلى الأيك. وكقاعدة عامة لا يمكن إدخال الحديد إلى المقدسات الإغريقية. ففي كريت كانت الأضاحي تُقدَّم لـ مينديموس دون استخدام الحديد لأن الأسطورة تروي عن مقتل مينديموس بسلاح حديدي في حرب طروادة. أما قائد بلاتايا فلا يمكنه أن يلمس الحديد إلا مرة في السنة وهي الذكرى السنوية للرجال الذين سقطوا في معركة بلاتايا، عندها يستخدم سيف في ذبح ثور. وحتى يومنا هذا لايستخدم كاهن هوتنتوت سكيناً حديدية بل شظية من المرو عندما يضحي بحيوان أو يطهر فتىً. وتقضي العادة لدى الأوفامبو في جنوب غرب أفريقيا أن يتم تطهير الفتيان بصوان حاد، ويمكن أن يُستَخدم الحديد لأداء المهمة لكن بشرط أن يُدفن الحديد بعد

ذلك. ولدى الموكوي في أريزونا لم يعد أحد يستخدم المدية أو البلطة استخداماً عاماً بل يقتصر استخدامهما على الطقوس الدينية. وبعد كفّ الباوني عن استخدام السهام حجرية الرؤوس لأغراض عادية، مازالوا يستخدمونها لذبح الأضاحي سواء كانت من الأسرى البشر أو الجواميس أو الأيائل. أما اليهود فلم يستخدموا أداة حديدية في بناء الهيكل في القدس أو إنشاء المذبح. كذلك الجسر الخشبي القديم في روما والذي يعتبر مقدساً تم إنشاؤه وصيانته دون استخدام الحديد أو البرونز. وقد نص القانون صراحةً بمنع إصلاح معبد جوبيتر ليبر في فورفو باستخدام أدوات حديدية. وكانت غرفة مجلس سايزيكو قد أُنشئت من الخشب دون استخدام مسمار واحد بل تم ترتيب العوارض بحيث يتم استبدالها.

ربما يعود هذا التعارض الخرافي مع الحديد إلى أوقات سحيقة في تاريخ المجتمع عندما كان الحديد جديداً ويُنظَر إليه بعين الريبة والكره، لأن كل جديد يثير في داخل البدائي الخوف والرهبة. وقال الكشاف برونيو: " هناك خرافة طريفة عند الدوسون تعزو كل شيْ يحدث لهم جيداً كان أم سيئا، محظوظاً كان أم منحوساً إلى أشياء جديدة أتت إلى بلادهم. فمثلاً، سبب وصولي إلى كيندرام الطقس الحار الذي شهدناه مؤخراً." أما الأمطار غريبة الغزارة التي صادفت بعد البحث الإنكليزي في جزر نيكوبار في شتاء 1886ـ1887 فقد نَسَبَها الأهالي المذعورون إلى غضب الأرواح على أداة المزواة والمسوِّي القصير وأدوات أخرى تم نصبها في العديد من مساكنهم. واقترح بعضهم أن يخففوا من غضب الأرواح عن طريق تقديم خنزير كأضحية. وفي القرن السابع عشر حرضت المواسم السيئة المتتابعة الفلاحين الأثيوبيين على التمرد وقد تقفوا أثر الشر فوجدوه في مطحنة تزعج الجدول بتشويش مساره. وبما أن تقديم المحراث المعدني إلى بولندة قد تبعه غلالات سيئة متعاقبة، فقد عزا المزارعون سوء المحاصيل إلى تلك المحاريث فتم تبديلها بالمحاريث الخشبية القديمة. ومازال بودوي جاوا الذين يعيشون على الزراعة يحجمون عن استخدام الأدوات الحديدية في حراثة حقولهم حتى يومنا هذا.

إن الكره العام للجديد والذي يظهر بقوة في أجواء دينية هو كاف بحد ذاته لأن يبرر كراهية الملوك والكهنة للحديد وإرجاعهم ذلك للآلهة. وربما ازدادت حدة هذه الكراهية بتصادف بعض الحوادث العارضة مثل سلسلة المواسم السيئة التي

أسقطت أسهم المحاريث الحديدية في بولندة. وهنا جانب آخر للكراهية التي تكنها الآلهة ووزراؤهم للحديد. فتعارضهم الفطري مع المعدن يزود الناس بسلاح يمكن أن يوجَّه ضد الأرواح عندما تسنح الفرصة. وبما أنهم يكرهون الحديد فمن المفترض أنهم لايقتربون من كل من هو محمي بذلك المعدن البغيض. وهنا صار الحديد يُستخدم كسحر لمنع الأشباح والأرواح الأخرى الخطيرة. لذلك كان الحامي من الجان في مرتفعات أسكتلندة هو الحديد، والأفضل منه الفولاذ. ويأخذ هذا المعدن مفعوله سواءً كان سيفاً، سكيناً أم سبطانة مدفع أو غير ذلك. وكلما دخلت مسكناً للجان لابد لك من أن تدق قطعة من الفولاذ على الباب مثل سكين أو إبرة أو صنارة صيد سمك كيلا يستطيع الجني القزم أن يغلق الباب حتى تخرج من ذلك المسكن. وكذلك عندما تقوم بصيد أيل وتأتي به إلى الديار ليلاً، تأكد من أن تغرز سكيناً في جسمه لأن هذا يمنع الجان من وضع أوزارهم عليه. ومجرد وضع سكين أو إبرة في جيبك يمنع الجان من أن يختطفوك ليلاً. وتقوم الدبابيس الموضوعة في مقدمة سرير المرأة ورضيعها بإبعاد الجان الأقزام عنهما لكن لابد من وضع حديد أملس تحت السرير ومنجل على النافذة. وإذا تردَّى ثور عن الصخور ومات فيمكن منع الجان عنه بمجرد غرز مسمار في جسده. أما الموسيقا المعزوفة على قيثارة اليهودي فكفيلة بإبعاد الجنيَّة عن الصياد لأن لسان الأداة الموسيقية من الفولاذ. وفي المغرب العربي يُعتبر الحديد حماية كبيرة من العفاريت لذلك اعتادوا وضع سكين أو خنجر تحت وسادة المريض. أما السنغاليون فيعتقدون أنهم محاطون بالأرواح الشريرة وهي جاهزة دائماً لإيقاع الأذى بهم. لايجرؤ الفلاح على حمل طعام جيد كالكعك أو اللحم المشوي دون وضع مسمار عليه لمنع العفاريت من الدخول إلى المؤن والتسبب بالمرض لمن يأكله. ولا يغامر رجل أو امرأة بالخروج من المنزل دون اصطحاب حزمة من المفاتيح أو سكين في يده لأن هذا يعتبر تعويذة تمنع العفريت من انتهاز الفرصة والتسلل إلى أجسادهم. وإذا كان يعاني شخص ما من ألم في جسمه فيضع قطعة حديد على القسم المؤلم حماية من العفاريت. وفي ساحل العبيد عندما ترى الأم ابنها يهزل تستنتج أن عفريتاً قد تسلل إليه وتأخذ الإجراءات اللازمة بناءً على هذا الأساس. لكي تستدرج العفريت في الخروج من ولدها تقوم أولاً بتقديم أضحية من الطعام، وبينما يزدرد العفريت الطعام تقوم بتعليق حلقات من الحديد

وأجراس صغيرة على كاحله وتعلق سلسلة من الحديد حول رقبته. وهنا يمنع رنين الأجراس وجلجلة الحديد العفريت من العودة إلى ولدها بعد أن ينهي وقعته. لهذا نرى الكثير من الأطفال في هذه الأنحاء من أفريقيا مثقلين بالزينة الحديدية.

3ـ تحريم الأسلحة الحادة

هناك ملك كهني إلى الشمال من زينغوي في بورما يعتبره قوم سوتيه أعلى سلطة روحية ودنيوية ولا يمكن أن يدخل بيته سلاح أو أداة جارحة. ربما يعود تفسير هذه القاعدة إلى العادة المتبعة لدى العديد من الشعوب بعد موت أحدهم حيث يحجمون عن استخدام الأدوات الحادة مادام أن شبح الميت قريب منهم ذلك خوفاً من أن ينزلوا به الأذى. وهذا هو سبب العادة المتشرة عند الأسكيمو في مضيق بيرنغ "أن لايسمح لأحدهم أن يعمل في اليوم الذي يموت فيه أحد أبناء القرية، أما الأقارب فعليهم ألا يعملوا خلال الأيام الثلاثة التي تلي الموت. كما يمنع بشكل خاص أن يقطعوا أي شئ بأداة حادة مثل السكين أو الفأس؛ كما يمنع أيضاً استخدام الأدوات المدببة مثل المخرز أو الإبرة. ويُقال إنهم يقومون بذلك لتفادي إيقاع الأذى بالظل الذي يمكن أن يكون حاضراً في أي وقت من هذه الفترة فيغضب كثيراً ويجلب المرض والموت لهم. كما يتوجب على الأقارب أن يحرصوا كل الحرص على أن لا يصدروا صوتاً عالياً أجش كيلا يجفلوا أو يغضبوا الظل. ورأينا كيف يحجم قوم الأسكيمو بالطريقة ذاتها عن استخدام أدوات قاطعة أو مدببة بعد قتلهم الحوت مدة أربعة أيام كيلا يطعنوا أو يجرحوا شبح الحوت. كما يتم اتباع نفس المحرَّم هذا عندما يمرض أحدهم في القرية ربما كيلا يؤذوا ظله الذي يحوم خارج جسده. كما يحرص رومان ترانسلفانيا بعد وفاة أحدهم أن لا يتركوا سكيناً حادة ونصلها إلى الأعلى مادامت أن الجثة في المنزل، " وإلا تُجبَر الروح على الركوب على النصل." ولمدة سبعة أيام بعد الوفاة، وبما أن الجثة مازالت في المنزل، يحجم الصينيون عن استخدام السكاكين أو الإبر أو حتى عُوْدًا لأكل الطعام بل يقضون أكل طعامهم بأصابعهم. وفي الأيام الثالث والسادس والتاسع ثم الأربعين بعد الجنازة يحضِّر البروسيون والليتوانيون وجبة ويقفون عند الباب ويدعون روح الميت إليها. وفي أثناء هذه الوجبات يقف الناس بصمت حول السفرة لايستخدمون السكاكين بل تُقدِّم

النساء الطعام لهم دون استخدام السكاكين. وإذا ما وقع منهم كسرات أو لقيمات على الأرض فإنها تُترَك هناك كي تتناولها الأرواح المحرومة الوحيدة التي ليس لها أصدقاء أو أقارب أحياء يطعمونها. وبعد انتهاء الوجبة يأخذ الكاهن مقشة ويكنس الأرواح خارج المنزل قائلاً: " أيتها الأرواح العزيزة، ها قد أكلتم وشربتم فارحلوا، ارحلوا." ومن هنا نعرف سبب عدم إدخال الأدوات القاطعة إلى بيت الحَبر البورمي. ومثل جميع الملوك الكهنة، ربما يُعتبر إلهياً، لذلك على روحه المقدسة ألا تتعرض لخطر الجرح كلما خرجت من جسده لتحوم غير مرئيةً في الهواء أو تطير على مقربة لتقوم بمهمة ما.

4ـ تحريم الدم

ورأينا كيف يُمنَع على قوم فيامين دياليس لمس اللحم النيء أو حتى ذكره على ألسنتهم. وفي أوقات معينة يُمنَع عليهم النظر إلى اللحم النيء أو الدم أو إلى شخصٍ بُترت يداه. كما يبقى والد التوأمين في حالة تحريم مدةً معينة بعد الولادة و يُمنع عليه القتل بكل أنواعه أو رؤية الدم. وفي جزر بيليو وبعد حصول إغارة على القرية فُقِد فيها رأس أحدهم، يصبح أقارب القتيل محرَّمِين وعليهم أن يخضعوا لطقوس معينة كي ينجوا من سخط الشبح. يتوجب عليهم أن يعتكفوا في المنزل ولا يلمسوا لحماً نيئاً وأن يمضغوا تنبولاً عليه تعويذة قرأها الراقي. وبهذا ترحل روح القتيل إلى بلد العدو بحثاً عن القاتل. وربما اعتمد هذا المُحرَّم على الاعتقاد السائد وهو أن روح الحيوان في دمه. ويعتقد أن الأشخاص المحرمين في حالة خطر، أي أن أقارب القتيل معرضون إلى هجوم الشبح الساخط. من هنا تأتي ضرورة عزلهم عن الأرواح وذلك بمنعهم من لمس اللحم النيء. لكن كما هو معتاد، ليس التحريم سوى تكريس للمبدأ الأخلاقي، أي أن الشعائر تُفرَض في ظروف تبدو مُلِحَّة التطبيق، لكن بعيداً عن هذه الظروف، يبقى التحريم قائماً ـ لكن بحدة أقل كقاعدة عامة ـ في الحياة. لهذا نرى أن بعض الإثونيين لا يتذوقون الدم لأنهم يعتقدون أن فيه روح الحيوان التي تدخل جسد من يتذوقه. أما بعض القبائل الهندية في أمريكا الشمالية، "وضمن مبدأ ديني صارم يحجمون وبقوة عن أكل دم أي حيوان لأنه يحتوي على حياة الوحش وروحه." وهكذا يقوم الصياد اليهودي بصب دم الطريدة التي قتلها على الأرض

ويغطيها بالتراب. ولا يذوق الدم لإيمانه أن روح الحيوان وحياته هما في دمه بل هما دمه.

هناك قاعدة عامة تمنع إراقة الدم الملكي على الأرض. لذلك تتبع طريقة خاصة تمنع إراقة ذلك الدم على الأرض عند إعدام الملك أو أحد أفراد أسرته. وفي عام 1688 تمرد القائد العام للجيش على ملك سيام وأعدمه متبعاً طريقة المجرمين الملكيين أو كما يُعامَل أمراء الدم عند إدانتهم بالجرائم الكبرى، وهي وضعهم في مرجل كبير وتقطيعهم إلى قطع مستخدمين مدقة خشبية، لأن دينهم يمنعهم من أن يقطر الدم الملكي على الأرض وتعتبر إراقته على الأرض وتدنيسه بمزجه بالتراب عقوقاً كبيراً. وعندما انتصر كوبلاي خان وأسر عمه نايان قتله عن طريق وضعه في سجادة وهزِّه جيئة و ذهاباً حتى مات، " لأنه لم يرض أن يراق دم من نسله على الأرض أو يُعرَّض إلى السماء أو الشمس. ويذكر فراير ريكولد عادة تتارية وهي عندما يقتل الخانُ خاناً آخر كي يستولي على العرش فإنه يحرص شديد الحرص ألا يريق الدماء. يقولون إنه من غير المناسب أن يراق دم الخان العظيم على الأرض لذلك يلجؤون إلى خنق الضحية بطريقة أو بأخرى. كذلك يسود شعور مشابه في بورما حيث يتبعون طريقة معينة في إعدام الأمراء دون إراقة دمائهم.

إن كراهية إراقة الدماء الملكية هي حالة خاصة من رغبة عامة في عدم إراقة الدماء أو على الأقل عدم سقوطه على الأرض. وهذا ماركو بولو يروي لنا أنه في أيامه كان يتم اعتقال أشخاص يتجولون في الشوارع في كامبالوك (بكين) في غير أوانهم وإذا ما ثبتت عليهم الجنحة، يُضربَون بالعصي وكان بعضهم يموت تحت الضرب كل هذا تحاشياً لإراقة الدماء؛ ويبرر سيدهم قائلاً إنه من الشر أن يراق دم إنسان على الأرض. وفي ساسيكس الغربية يعتقد الناس أن الأرض التي ينزل عليها دم بشري تحل عليها اللعنة وتظل جدباء إلى الأبد. وعند بعض الشعوب البدائية عندما يُراق دم أحد أبناء القبيلة لا يتركون الدم ينزل إلى الأرض بل يجعلونه يقطر على أجساد أبناء القبيلة. ولنفس السبب يقوم أبناء القبائل الأسترالية عند ختان الصِّبية بوضعهم على منصة يشكلونها من الأجساد الحية لأبناء القبيلة وكذلك عندما يسقط سن صبي يضعون الصبي على كتفي رجل ويسيل على صدره الدم ولا يُمسَح عنه. وكذلك جرت العادة عند أهالي بلاد الغال أن يشربوا دم أعدائهم ويلوِّنوا

أجسادهم به. وكُتِب عن الأيرلنديين القدامى وكذلك رأيت بعضهم بأم عيني وهم يفعلون الشيء ذاته مع دماء أصدقائهم وتحديداً عند إعدام خائن كبير في لايميريك يسمى ماروغ أوبرين، حيث أتت أمُّه بالرضاعة وأخذت رأسه وهو يُقطع ورضعت جميع دمائه قائلة إنه ليس من حق الأرض أن تشربه ثم انحنت برأسها وصدرها وراحت تنتف شعرها وتزعق بشكل مرعب. وعند قوم اللاتوكا في أفريقيا الوسطى يتم جرف التراب الذي وقع عليه دم من امرأة واضعة بمجرفة معدنية، ثم يوضع التراب مع ماءٍ يُستَخدم في غسل الأم ويُدفَن بعناية عميقاً خارج المنزل على جهة اليسار. وفي أفريقيا الغربية إذا وقعت قطرة من دمك على الأرض عليك أن تغطيها بعناية وذلك بفركها ودوسها عميقاً في التربة وإذا ما وقعت على جانب جندول أو جانب شجرة يتم قطع الجزء الذي نزل عليه الدم ثم يُحطَّم ذلك الجزء. وقالوا صراحةً أن أحد الدوافع وراء هذه العادة هو رغبة هؤلاء الأفارقة بأن لا يقع هذا الدم في أيدي سحرةٍ يستخدمونه لأغراض شريرة. وللخوف نفسه من السحر، يقوم الأصلاء في غينيا الجديدة بحرق العصي والأوراق والملابس الملطخة بدمائهم وإذا قطر دمهم على الأرض يقومون بقلب التربة أو يضرمون النار في المكان إن أمكن ذلك. وبهذا الخوف نفسه تفسِّر المهام الطريفة التي يقوم بها رجال معينون يدعون رامانغا أو **الدم الأزرق** عند بيتسيليو في مدغشقر. مهمة هؤلاء أن يأكلوا قلامات الأظافر ويلعقوا دم النبلاء المسفوح. يتم جمع قلامات النبلاء عن آخرها ثم يبتلعها أولئك الرامانغا. وإذا كانت القلامات كبيرة يفرمونها قطعاً صغيرة قبل أن يزدردوها. وكذلك عندما يجرح النبيل نفسه مثلاً أثناء تقليم أظافره أو يدوس على شئ حاد، يلعق الرامانغا الدم بأسرع مايمكن. ونادراً ما يذهب النبلاء من الطبقة العليا دون هؤلاء الخدَّام المتواضعين. لكن إذا صادف عدم وجود أحدهم فيتم جمع الأظافر أو القلامات كي يلعقوها في ما بعد. نادراً ما يوجد نبيل لا يطبق هذه العادة تحت أي ذريعة وهي تهدف إلى منع وقوع هذه الأشياء في أيدي السحرة الذين ينزلون بهم الأذى حسب مبدأ سحر العدوى.

يفسرون كرههم لهدر الدم على الأرض بناءً على المبدأ العام وهو وجود الروح في الدم، والأرض التي ينزل عليها الدم تصبح محرمة أو مقدسة. في نيوزيلندة، سقوط قطرة واحدة من دم القادة يجعل المكان محرماً أو مقدساً بالنسبة

للنيوزيلنديين. إليكم هذه القصة مثالاً على هذا التحريم. بينما كانت مجموعة منهم يزورون أحد القادة وهم يبحرون في جندول، دخلت كسرة خشب في قدم أحدهم وهو يعتلي الجندول فنزفت قليلاً ونزلت بعض القطرات على الجندول، في تلك اللحظة صار الجندول مقدساً بنظر صاحبه، فما كان منه إلا أن قفز منه وسحبه ثم تركه مقابل منزل القائد. كذلك بينما كان قائدٌ داخلاً منزل أحد أعضاء البعثة اصطدم رأسه بأحد الأعمدة فسال منه الدم. قال الأهالي إنه في السابق كان لا بد لهذا المنزل من أن يصبح ملكاً للقائد. وكما هو الحال مع المحرمات العالمية، ينطبق التحريم على سفك دماء أبناء القبيلة على الأرض تماماً كما ينطبق على القادة والملوك، لكنها عادة ظلت تُمارَس على الملوك وقتاً طويلاً بعد الكف عن ممارستها في حالات أخرى.

5ـ تحريم الرأس

يخصُّ الكثير من الشعوب الرأس بقدسية متميزة. ويُعزى تفسير هذه القدسية إلى اعتقادهم أنه موطن الروح شديدة الحساسية للأذى أو الاحتقار. لهذا يعتقد قوم يوروباس أنه يسكن الإنسان ثلاثة أرواح. الأولى، وتدعى أولوري، تسكن الرأس وهي مرشد الإنسان وحاميه. وتُقدَّم العطايا لهذه الروح وخاصة عطايا الطيور كما تُفرك الجبهة بمزيج من القليل من الدم وزيت النخيل. ويفترض الكارين أن ما يُسمى تسو تسكن الجزء العلوي من الرأس وعندما تلتزم موقعها لا يصيب الشخص أي أذى يصدر عن الكيلاه السبعة وهي العواطف المشخَّصة. " لكن عندما تضعف التسو أو تطيش ينزل الشر بذلك الشخص. لهذا يَلقى الرأس عناية خاصة ويحرصون على إلباس الرأس لباساً يريح تسو ويليق بها. ويعتقد السيامي أن روحاً تُدعى خوان تسكن الرأس البشري وهي الروح الحامية. ويجب حماية هذه الروح من أي أذى؛ لهذا ترافق عملية الحلاقة أو قص الشعر طقوس عديدة. تتمتع الخوان بحساسية شديدة لأمور الشرف والكرامة وتشعر بالذل إذا ما لمس غريبٌ الرأسَ بيده. يعتبر الكمبوديون لمس الرأس إهانة كبيرة ويمتنع بعضهم عن الدخول لمكان يتدلى منه أي شئ فوق رؤوسهم؛ كما يرفض الكمبودي مهما بلغ فيه البخل أن يسكن غرفة يسكن أحد في غرفة فوقها. لذلك ترى البيوت مبنية كلها من طابق واحد، وتحترم

الحكومة هذا الجانب فترفع البيوت عالياً عن الأرض ولا تسجن أحداً في الأقبية. وتسود نفس الخرافة عند المالاي لذا أخبرنا أحد المسافرين القدامى أن أهالي جاوا لا يرتدون شيئاً على رؤوسهم وإذا ما وضع شخص يده على رأس أحدهم فإنه يقتله، ولايبنون بيوتاً طابقية كيلا يمشوا على رؤوس بعضهم بعضاً.

وتنتشر خرافة الرأس بقوة في جميع أنحاء بولينيسيا. ففي غاتينوا يَعتبر القائد لمس رأسه أو كل ما يوضع على رأسه تدنيساً كبيراً له. أما المرور من فوق رأسه فهي إهانة لا تُنسى أبداً. وشوهد ابن كبير الكهنة الماركيزي يدحرج نفسه على الأرض من الغيظ واليأس طالباً الموت لأن أحدهم قام بتدنيس رأسه وحرمه الألوهية عندما رش على شعره بضع قطرات من الماء. لكن هذه القدسية لم تقتصر على القادة الماركيز فقط بل يُعتبر رأس كل ماركيزي محرماً لا يمكن لأي شخص أن يلمسه أو يمر فوقه حتى لو كان هذا الشخص أباً يمر فوق رأس ولده النائم، كما يُمنع على النساء أن يلمسن أو يحملن شيئاً لمس رأس زوجها أو أبيها أو كان معلقاً فوقه. ولا يسمح لأي شخص أن يعلو رأس الملك. ففي تاهيتي يُحكم بالموت على كل من وقف فوق رأس الملك أو الملكة أو مرر يده فوقه. ويظل الطفل التاهيتي محرماً حتى يمر بطقوس معينة. ويعتبر كل ما يلمسه قبل هذه الطقوس مقدساً ويوضع في مكان ضمن حاجز من القضبان في منزل الطفل. فمثلاً إذا لمس رأس الطفل غصن شجر، تُقصُّ الشجرة وإذا خرقت وهي تسقط لحاء شجرة مجاورة تُقص الشجرة الأخرى لأنها مدنسة وغير قابلة للاستخدام. ويتوقف الطفل عن كونه محرماً بعد أداء الطقوس، أما الرأس فيظل محرماً طول العمر، لايضع عليه شيئاً ويُعتبر لمسه اعتداءً صريحاً. كذلك يُعتبر رأس القائد الماوري مقدساً لدرجة أنه إذا لمس رأسه بأصابعه فعليه فوراً أن ينشقها في أنفه ليأخذ منها القدسية التي اكتسبتها من رأسه وبهذا يعيدها إلى المكان الذي أتت منه. وبناءً على تلك القدسية لا يمكن للقائد الماوري أن ينفخ النار لأن نَفَسَه مقدس ينقل القدسية إلى النار فيأخذ أحد العبيد منها وسماً أو يأخذها رجل من قبيلة أخرى أو تُستخدم النار في الطبخ فتسبب له الموت.

6ـ تحريم الشَعر

إذا كان الرأس محرَّماً إلى درجة أن لمسه يجلب الخطر المميت، فيصبح بدهياً أن قص الشعر عملية صعبة. في المنظور البدائي تجعل الصعوبةُ والخطرُ العمليةَ ذات نوعين: الأول، خطر إزعاج روح الرأس التي تتأذى من العملية ويمكن أن تنتقم من الشخص الذي يزعجها. والثاني، صعوبة التخلص من الشعر المقصوص. يؤمن البدائي بوجود علاقة تعاطفية بينه وبين أي جزء من جسده وتستمر هذه العلاقة حتى بعد انفصال هذا الجزء عنه فيزيائياً، وأنه يمكن أن يعاني من أي أذى ينزل في تلك الأجزاء مثل قصاصات الشعر أو قلامات الأظافر. لذلك يحرص ألا تُترك هذه الأجزاء في مكان تتعرض فيه للأذى العَرَضي أو أن تقع في أيدي أشخاص شريرين يخضعونها لسحر يؤدي إلى ايذائه أو موته. تشمل هذه الأخطار جميع الناس لكن الخوف يزداد على أولئك المقدسين. ويتناسب هذا الخوف طرداً مع درجة قداسته. ومن أبسط الطرق لتفادي هذا الخطر هي ألا يُقصُّ الشعر بتاتاً وهي طريقة تُتَّبع عندما يصل الخوف إلى درجة أكثر من عادية. لذلك لم يُسمَح لملوك فرانك أن يقصوا شعورهم على الإطلاق منذ طفولتهم. ويعتبر قص جدائلهم المدلاة على أكتافهم تخفيفاً من حقهم في العرش. وعندما رغب الأخوان الشريران كلوتير وتشايلدبرت بأخذ المملكة من أخيهم الميت كلودومير قاموا بإغراء ابْنَيّ أخيهم كلودومير بالإتيان إلى مكان تحت سيطرتهم وأرسلوا من يحمل مقصاً وسيفاً لتهديد جدَّة الولدين الملكة كلوتيلد في باريس ليخيرها بين أن يُقصَّ شعر الولدين وبين أن يُقتلا بشعرهما الكامل. أجابت الجدة بكبرياء إنها تفضل أن يموتا على أن يأتيا إلى العرش مقصوصَيّ الشعر. وهكذا قُتلا بيدي عمهما كلوتير قاسي القلب. كما يتوجب على ملك بوناب وهي إحدى جزر كارولين ونبلائه أن يبقوا شعورهم طويلة. ومن بين قبائل الزنوج في أفريقيا الغربية، هناك كهنة لم يمر على رؤسهم موسى الحلاقة طوال حياتهم لأن الإله الذي يعيش بداخله يمنع قص الشعر ولو كلف هذا حياتهم. وإذا أصبح الشعر طويلاً بما لا يُطاق على صاحبه أن يصلي لإلهه للسماح له بقص القليل القليل من رأس الشعر. في الحقيقة يُعتبر الشعر مسكن إلهه، وعندما يُقص الشعر يفقد الإله مُقامه في الكاهن. أما أعضاء عشيرة الماساي الذين يُعتقد أنهم يملكون القدرة على صنع المطر فلايمكن أن يقصوا لحاهم لأن

هذا يفقدهم قدرتهم على صنع المطر. ويخضع القائد العام والسحرة في ماساي إلى القاعدة نفسها لأسباب مماثلة: فهم يعتقدون أنهم إذا ما قصوا لحاهم تهجرهم قواهم الخارقة.

كذلك بعض الذين قطعوا عهوداً على أنفسهم بالأخذ بالثأر يطلقون شعورهم حتى يبروّوا بقسمهم. وقد بلغنا أن الماركيزيين يحلقون شعر رأسهم تماماً إلا خصلة على الناصية تترك منسدلة أو تربط على شكل عقدة. لكنهم يعقدون الخصلة فقط في حالة قطع عهد للأخذ بثأر قريب لهم وما إلى هنالك. في هذه الحالة لا تُقص الخصلة حتى يتم الإيفاء بالعهد المقدس. وهناك عادة يتبعها أحياناً الألمان القدامى؛ ففي قوم تشاتي لا يحلق المحارب الصغير شعره أو لحيته حتى يقتل عدواً. أما عند توراتجا، عندما يحلق أحدهم شعره ليتخلص من الطفيليات، تُترك بعض الخُصَل على ناصية رأسه ملاذاً لروح الطفل، وإلا لما وجدت الروح مكاناً تستقر فيه وهذا ما يسبب المرض للطفل. أما قوم كاروباتاك فيخشون إخافة روح الطفل لذلك يتركون قسماً من الشعر غير محلوق لتلجأ إليه الروح ريثما يطول شعره مرة أخرى وغالباً ما تبقى هذه الخصلة مدى الحياة أو على الأقل حتى سن الرجولة.

7ـ طقوس قص الشعر

عندما يصبح قص الشعر ضرورياً تؤخذ الإجراءات اللازمة للتخفيف من الخطر المفترض الذي يرافق العملية. كان قائد ناموسي في فوجي يأكل رجلاً بعد قص شعره. وكان على عشيرة معينة أن تقدم الضحية ويجلسوا في مجلس مقدس فيما بينهم ليختاروا ذلك الرجل. كان هذا احتفالاً أُضحوياً لإبعاد الشر عن القائد. أما لدى الماوري فهناك تعاويذ كثيرة تُتلى عند قص الشعر، إحداها مثلاً تُقال لتقديس الموسى السبجي (حجر بركاني)الذي يُستَخدم لقص الشعر؛ وأخرى تُقال لدرء الرعد والبرق اللذين يُعتقد أن سببهما قص الشعر. وكل من يُقص شعره هو المسؤول عن آتوا (الروح)؛ فيقطع اتصاله مع عائلته وقبيلته، ولايجرؤ أن يلمس طعامه بيده؛ بل يوضع في فمه من قبل شخص آخر؛ ولا يمكنه أن يعود لعمله المعتاد أو أن يلتقي بأقرانه إلا بعد بضعة أيام. كما يقع في دائرة التحريم كل من يقص

شعره؛ لأن يديه قد لمستا الرأس المقدس، فلا يجوز له أن يلمس الطعام بهما أو أن يقوم بأي عمل، فيُطعَم بيدي شخص آخر ومن طعام طُبخ على نار مقدسة. ولايمكنه أن يخرج من التحريم إلا بعد يوم كامل عندما يفرك رأسه بالبطاطا أو جذر السرخس المطبوخ على نار مقدسة؛ ويؤخذ هذا الطعام إلى رئيسة العائلة لتأكله، عندها تتحرر يداه من التحريم. وفي بعض أنحاء نيوزيلاندة يحتل يوم قص الشعر المكانة الأعلى قداسة بين أيام السنة حين يتجمع الناس بأعداد كبيرة من كل الديرة.

8ـ التخلص من الشعر المقصوص وقلامات الأظافر

وبعد أن يتم قص الشعر وتقليم الأظافر تظهر صعوبة التخلص منهما لأن صاحبهما يرى نفسه معرضاً للمعاناة لدى أي أذي ينزل بهما. إن فكرة تطبيق السحر على قصاصات الشعر وقلامات الأظافر أو أي شئ منفصل عن الجسم منتشرة في جميع أنحاء العالم، ومدعومة بأدلة وافرة ومألوفة ومملة إذا ما ناقشناها بالتفصيل هنا لأنها متطابقة. تعتمد الخرافة على الفكرة العامة وهي العلاقة التعاطفية المفترضة بين الشخص وكل شيء كان يوماً جزءاً من جسمه أو كان متعلقاً به بشكل كبير. ونكتفي هنا ببعض الأمثلة التي تنتمي إلى فرع العدوى من السحر التعاطفي. فالخوف من السحر كان الصفة الأبرز في حياة أهالي الجزر المركيزية. كان الساحر يأخذ بضع شعرات والقليل من البصاق أو أي مُطرَحات من جسم الشخص الذي يريد إيذاءه ثم يغلفها في ورقة شجر ويضعها في حقيبة صغيرة مُحَاكَة من خيوط أو ألياف معْقودَة بطريقة مُعَقَّدة. ويدفن الجميع ضمن طقس معين وبناءً على ذلك يدخل الضحيةَ مرضٌ موهِن مدة عشرين يوماً. ويمكن إنقاذ حياتها عن طريق البحث وإخراج الشعر المدفون أو البصاق وغيره، وحالما يخرج السحر من مدفنه ينتهي مفعوله. أراد ساحر ماوري أن يسحر شخصاً ما فجمع غديرة من شعره وقلامات من أظافره وقليلاً من بصاقه ومزقة من ثوبه. وقرأ عليها سحره ولعناته بصوت عالي الطبقة ودفنها في التراب. وعندما تذوي هذه الأشياء من المفترض أن يذوي معها الشخص الذي تنتمي إليه. وعندما أراد زنجي أسترالي أن يتخلص من زوجته قصَّ ضفيرة من شعرها وربطها على مقبض رمح وذهب به إلى قبيلة مجاورة وأعطاه لأحد أصدقائه. كان الصديق يغرز الرمح أمام نار المعسكر كل ليلة

وكانوا يرون في سقوط الشعر من الرمح دلالة على موت الزوجة. وقام رجل من الويراجوري بشرح كيفية عمل السحر للدكتور هاويت قائلاً: " عندما يحصل الطبيب الأسود على شيء ينتمي إلى شخص ما ويحمّصه على النار ويغني عليه تلتقط النار رائحة الرجل وتقضي على ذلك المسكين."

ويتخيل الهازول من كارباسيا أنه إذا ماحصل فأر على شعر شخص ما وصنع منه عشه، فإن الشخص سيعاني من الصداع وربما وصل به الأمر إلى الهبل. وهناك فكرة عامة في ألمانيا أنه إذا حصلت الطيور على شعر شخص ما وصنعت منه عشها يع فإن صاحب الشعر يعاني من الصداع وأحياناً يصيب رأسه طفح جلدي. وتنتشر هذه الخرافة أيضاً في ساسكس الغربية.

ويُعتقَد أن الشعر المتساقط مع التمشيط يمكن أن يشوش الطقس ويسبب المطر والبرد، الرعد والبرق. لذلك نراهم يقرأون رقية معينة في أثناء التمشيط لدرء الرعد أو البرق. وفي تايرول يستخدم السحرة الشعر الساقط مع المشط لصنع زخات المطر والعاصفة. أما هنود ثلنكييت فيعتبرون الطقس العاصف نتيجة لتصرف متهور من فتاة مشطت شعرها خارج المنزل. ويبدو أن الرومان كانت لديهم النظرة نفسها إذ جرت العادة أن يمنعوا أي شخص من قص شعره أو تقليم أظافره على سطح السفينة إلا في أثناء العاصفة، أي عندما تكون المصيبة واقعة سلفاً. وفي مرتفعات اسكتلندة يُقال أنه يُمنَع على الأخوات أن يمشطن شعورهن ليلاً إذا كان لهن أخ مسافر في البحر. وفي أفريقيا الغربية عندما يموت واحد من الماني في تشيتومب أو يموت واحد من الـ جومبا، يركض الناس جماعات إلى الجثة وينتفون شعرها ويقتلعون أسنانها وأظافرها ليحتفظوا بها كسحر لجلب المطر معتقدين أن المطر لن يسقط إلا بهذه الطريقة. أما الماكوكو في أنزيكوس فكانوا يتوسلون لأعضاء البعثة التبشيرية أن يعطوهم نصف لحاهم كسحر للمطر.

إذا بقي الشعر المقصوص في علاقة تعاطفية مع صاحب الشعر، من الواضح أنه يمكن أن يُستَخدم ضمانةً لسلوكه الحسن. لذلك عندما يأخذ الـ نانديي سجيناً يقومون بحلق شعر رأسه ويحتفظون به ضماناً كيلا يهرب السجين. لكن عندما تُقدَّم الفدية للأسير يعيدون الشعر المحلوق إلى أهله.

ولحماية الشعر المقصوص أو الأظافر المقلمة من الأذى أو الاستخدام الخطير، لابد من وضعها في مكان آمن. يقوم الماوري بجمع شعر القائد المقصوص بعناية فائقة ويدفنونه في مقبرة مجاورة. ويقوم التاهينان بدفن شعرهم المقصوص في المعبد. وفي شوارع سوكو لاحظ مسافر ركامات كبيرة من الحجارة الملفوف عليها خصل الشعر. وعندما سأل عن معنى هذا أخبروه أنه عندما يجم أحد الأهالي شعره يقوم بجمع ما قصه بعناية ويقحمه في إحدى هذه الركامات التي تمثل فتش مقدس لا يمكن أن ينتهكه أحد. وعرف أيضاً أن اللجوء إلى هذه الركامات المقدسة هو إجراء احتياطي ضد السحر كيلا يقع في يد عدو يسحره ويدبر له المكائد. ويترافق قصُّ العقدة الرأسية للطفل في سيامي بطقوس عظيمة وتُجمع الشعرات الصغيرة وتوضع في وعاء صُنع من موز الجنة ويُلقى كي يطفو في أقرب نهر أو ساقية. وعندما يبتعد الوعاء يُعتقد أن كل مزاج سيء ونزعة مؤذية تبتعد عن الطفل. أما الشعرات الطويلة فيُحتَفظ فيها حتى يقوم الطفل بمهمة الحج إلى مداس قدم بوذا على هضبة برابات المقدسة. وبعدها تُقدَّم للكهنة كي يصنعوا منها مكنسة لتكنس طبعة قدم بوذا؛ لكن في الحقيقة هناك الكثير من الشعر المعروض سنوياً إلى درجة أنه ليس بإمكان الكهنة استخدامها كلها فيحرقون الفائض بصمت حالما يدير الحجيج ظهورهم. أما الفلامين ديالي فيدفنون الشعر المقصوص وقلامات الأظافر تحت شجرة محظوظة. أما ضفائر عذراوات فيستا فتُعلّق على شجرة لوتس قديمة.

وغالباً ما تُخفى قلامات الأظافر في مكان سري، وليس بالضرورة في معبد أو مقبرة أو عند شجرة كما ذكرنا في الحالات السابقة. في سوابيا يُنصح أن يضع المرء قصاصات شعره في مكان لا تشع عليه شمس ولا يسطع عليه ضوء قمر في التراب أو تحت حجر. وفي دانزينغ يوضع الشعر في حقيبة ويُدفن تحت تخم المنزل. وفي أوغي وهي إحدى جزر سولومون يدفن الرجال شعرهم خوفاً من أن يقع في أيدي عدو يصنع لهم السحر بواسطته ويجلب لهم المرض والمصيبة. ويبدو أن الخوف نفسه منتشر في ميلانيسيا مما أدى إلى ممارسة منتظمة لإخفاء قصاصات الشعر أو قلامات الأظافر. وتنتشر الممارسة نفسها عند الكثير من القبائل في جنوب أفريقيا بدافع الخوف نفسه. ويذهب الـ كافري في هذا الخوف مذهباً بعيداً، فلا يدفنون الشعر والأظافر في مكان سري فحسب بل يحتفظون بالطفيليات الخارجة عن الشخص عند

تغسيله، يسلمونها لصاحبها مفترضين حسب نظريتهم أن فيها دم الشخص وعندما تُقتل من قِبل جاره إنما يحوز على الدم فيمتلك القدرة على التأثير الخارق للقدرة البشرية.

أحياناً يتم الاحتفاظ بالشعر والأظافر المقصوصة ليس لمنع وقوعها في أيدي السحرة بل ليستخدمها الشخص في بعث الجسد، الأمر الذي تطمح إليه بعض الأعراق. لهذا اعتنى قوم البيرو عناية فائقة بالحفاظ على الأظافر والشعر المقصوصين أو الشعر المتساقط مع المشط إذ وضعوه في فتحات أو كوَّات في الجدران. وإذا لاحظ الهنود أنها سقطت يسارعون إلى إعادتها إلى مكانها. وقد سألت أنا شخصياً العديد من الهنود وفي أوقات شتى عن سبب قيامهم بهذا كي أرى ما يقولونه في ذلك فكان جوابهم جميعاً الكلمات التالية: "اعلَمْ أن كل مخلوق سيعود إلى الحياة مرة أخرى(ليس عندهم كلمة خاصة للتعبير عن البعث)، وأن الأرواح ستقوم من مقابرها مع كل ماينتمي إليها من الأجساد. لذلك وكيلا نبحث عن شعرنا وأظافرنا في وقت نكون في عجلة من أمرنا ضمن فوضى عارمة نضعها في مكان واحد كي نأتي بها بسرعة أكبر." كذلك لا يلقي الأتراك بأظافرهم في النفاية بل يضعونها في شقوق في الجدران أو الخزانات معتقدين أنهم سيحتاجون إليها عند البعث. أما الأرمينيون فلا يرمون بشعرهم المقصوص وأظافرهم المقلمة وأسنانهم الساقطة بل يخبئونها في أمكنة مقدسة مثل شقوق جدران الكنيسة أو في عمود منزل أو في شجرة مجوَّفة. ويعتقدون أنهم سيحتاجونها في يوم البعث وبهذا يوفِّرون على أنفسهم تصيُّدها في ذلك اليوم الكبير. وفي قرية درومكونراث في أيرلندة هناك نساء مسنَّات أكدن لنا أنه ورد في الكتاب المقدس أن شعرهن ورؤوسهن معدودة من قبل الله القدير وأنهن سيُسألن عنها يوم الحساب. ولكي يحافظن عليها يضعن شعورهن المقصوصة في سقف كوخهن القشي.

ويقوم بعض الناس بحرق شعرهم خوفاً من وقوعه في أيدي السحرة. هذا مايقوم به الـ باتاغونيا وبعض القبائل الفكتورية. وفي فوزغ العليا يقولون أنه يجب ألا تترك قلامات الأظافر وقصاصات الشعر هنا وهناك بل يجب أن تحرقها لتمنع السحرة من استخدامها ضدك. وللسبب نفسه تقوم النساء الإيطاليات إما برمي شعرهن في مكان لا يبحث عنه أحد أو يحرقنه. إذن فالخوف من السحر يجعل الزنوج في

أفريقيا الغربية والتاهيتيين والماكولولو في أفريقيا الجنوبية يجعلهم يحرقون الشعر المقصوص. وفي تايلور يحرق الناس شعرهم كيلا يستخدمه السحرة في إثارة العواصف؛ ويحرقه آخرون أو يدفنوه لمينعوا الطيور من استخدامه في صنع أعشاشهم، الأمر الذي يسبب لرؤوسهم الصداع لأنه المكان الذي أتى منه الشعر.

تنضوي طرق التخلص من الشعر والأظافر على تناقض فكري واضح. إذا كان الهدف من التخلص من هذه المادة هو منع السحرة من استخدامه فكيف لهم أن يحرقوها دون إنزال الأذى بصاحبها الشعر بناءً على العلاقة التعاطفية بين الشخص وجزئه المحترق.

9ـ تحريم البصاق

إن الخوف من السحر الذي جعل الناس يدمرون شعرهم وأظافرهم المقصوصة هو نفسه جعلهم يتعاملون مع البصاق بالأسلوب نفسه. وبناءً على السحر التعاطفي يُعتبر البصاق جزءاً من الإنسان وما يحصل له يؤثر في الإنسان نفسه. يقوم الهندي من تشيلوت بجمع بصاق من العدو ويضعه في حبة بطاطا ثم يعلقها فوق الدخان ويقرأ عليها سحراً معتقِداً أن عدوه سينتهي عندما تجف حبة البطاطا فوق الدخان. أو يضع البصاق في ضفدع ثم يلقيها في نهر هائج لا يمكن الملاحة فيه، الأمر الذي يجعل الضحية تهتز وترتجف من القشعريرة والملاريا. لذلك يخفي الناس بصاقهم كيلا يزوِّدوا السحرة بمواد تمكِّنهم من إيذائهم. وللسبب نفسه لا يبصق أهالي قبائل جنوب أفريقيا وهناك عدو بالقرب منهم. كيلا يأخذه إلى ساحر ويمزجه بمواد سحرية ليؤذيه. وحتى في المنزل يقومون بمسح لعاب الشخص وإزالته بعناية.

إذا كان عامة الناس حريصين بهذا الشكل، من الطبيعي أن يكون حرص الملوك والقادة مضاعفاً. لذلك يصحب الملوك والقادة في جزر ساندويتش خادمون موثوقون ومعهم مَبْصَقات محمولة ويقومون بدفن محتوياتها بحرص كل صباح كي يبعدوها عن متناول السحرة. وفي ساحل العاج عندما يبصق الملك أو القائد يتم جمع اللعاب بوسوسة ويُخَبَّأ أو يُدفَن. كما يأخذ قائد تابالي في نيجيريا الجنوبية الحيطة نفسها في بصاقه للأسباب نفسها.

يبين أهمية البصاق السحرية استخدامه كالدم وقلامات الأظافر كوسيلة مادية لتعزيز المواثيق لأن تبادل اللعاب يعطي الطرفين المتعاهدين ضمانةً على النية الصادقة. وإذا خان أحدهم الأمانة يقوم الآخر بإجراء السحر عليه ومعاقبته على غدره باستخدام البصاق الذي في عهدته. لذلك عندما يريد الواجاغا في إفريقيا الشرقية أن يقيموا عهداً يجلس الفريقان وبينهما وعاء من الحليب أو البيرة، ثم يتلفظون برقيَّة معينة على الشراب ويقوم كل منهما بأخذ بقٍّ منه ويبصقه في فم الآخر. وفي حالات طارئة حيث لايتوفر الوقت لإجراء هذه المراسيم يبصق كل منهما في فم الآخر كتصديق لا يقل أهمية عن السابقة.

10ـ تحريم الطعام

تكثر خرافات البدائيين وتتشابك حول قضية الطعام وامتناعهم عن أكل لحم بعض الحيوانات والنباتات ليأمنوا الخطر المميت الذي يتوقعه الآكل من هذه الأطعمة. كثيرة هي الأمثلة على هذا الامتناع. وإذا كان رادع الإنسان العادي لتعاطي هذه الأطعمة هو الخوف الخرافي فيتوجب على القيود الخاصة بالأشخاص المقدسين أو الأشخاص المحرمين مثل الملوك والكهنة أن تكون أكثر قسوة. لقد رأينا سابقاً كيف يُمنع الفلامين دياليس من تناول نباتات ولحم حيوانات عديدة وكيف كان طعام ملوك مصر من بين اللحوم هو لحم العجل والإوز فقط. ويمتنع الكثير من الكهنة والملوك عند الشعوب البربرية القديمة عن أكل اللحم. ويُمنع الغانغا أو كهنة الفتش في ساحل لوانغا من تناول لحم عدد من الحيوانات والسمك ويقتصرون على عدد قليل من أنواع اللحم فيعيشون على الأعشاب والجذور رغم قدرتهم على شرب الدم الطازج. ويُمنع وريث العرش في لوانغا من تناول لحم الخنزير منذ طفولته. ومنذ طفولته المبكرة يُمنع من مصاحبة من يأخذ ثمرة الكولا، وعند البلوغ يعلِّمه أحد الكهنة ألا يتناول من الطيور إلا ما اصطاد وطبخ بنفسه، وبهذا يرتفع عدد الممنوعات كلما تقدم به السن. وفي فرناندوبو يُمنع على الملوك بعد تنصيبهم تناول الكوكو والأيِّل والنيص بينما هي أطعمة عادية لدى عامة الناس. أما كبير القادة في ماساي فلا يمكنه تناول شيء سوى الحليب والعسل وكبد المعيز المشوي لأنه إن تعاطى طعاماً آخر يفقد قدرته على التكهن وتركيب السحر.

11ـ تحريم العُقَد والخواتم

رأينا كيف كان على فلامين دياليس في روما احترام الكثير من المحرمات، منها وجود أي عقدة في ردائه، أو ارتداء الخاتم إلا إذا كان مكسوراً. وبطريقة مشابهة يمتنع الحجاج المسلمون إلى مكة من ارتداء العقد والخواتم لأنهم في حالة من الطهارة والقداسة. ربما تعود هذه الأصول إلى منشأ واحد ويمكن أن نبحثها مجتمعةً. لنبدأ بالعقد أولاً. يعارض الكثير من الشعوب في أنحاء مختلفة من العالم معارضة كبيرة لوجود عقد في أرديتهم في مناسبات محددة على الأخص ولادة الطفل والزواج والموت. عندما تكون المرأة في المخاض لدى الساكسون في ترانسلفانيا يتم فك جميع العقد في ملابسها لأنهم يعتقدون أن هذا من شأنه تسهيل الولادة. وللهدف نفسه يتم فتح جميع أقفال المنزل من أبواب وصناديق. ويعتقد اللاب أنه في أثناء نفاس المرأة يجب ألا يوجد في ردائها عقدٌ لأن هذا يجعل الولادة مؤلمة وصعبة. وفي جبال الإنديز الشرقية تمتد هذه الخرافة لتشمل فترة الحمل كلها لأنهم يعتقدون أن العقد أو الجدائل أو حتى ربط أي شئ يعقِّد الأمور ويجعل الوضع متعسراً. لا بل يذهب بعضهم أعمق في تطبيق القاعدة على الأب بالإضافة إلى أم الولد الذي لم يلد بعد. لايربط الوالدان من داياك البحر أي خيط ولا يشدون الرباط على أي شئ في أثناء فترة الحمل. ولدى قبيلة ثومبولو في سيليبس الشمالية من الأشياء الكثيرة التي يمنع على الزوج فعلها، أن يربط العقد أو يجلس واضعاً رجلاً على رجل.

في كل هذه الحالات يقولون في أنديز الشرقية أن العقدة تعيق الولادة وربما تمنعها أو أنها تؤجل شفاء الواضع بعد الولادة. وبناءً على مبادئ السحر التعاطفي التجانسي أو سحر المحاكاة تقوم العقدة في الحبل بالتحريض على الإعاقة في جسم المرأة. وهذا يفسر فعلاً العادة المتبعة عند قوم هو في أفريقيا الغربية عندما تتعسر ولادة المرأة. وهي: إذا كانت المرأة في ولادة صعبة، يستدعون ساحراً كي يعينها. ينظر إليها ويقول: " الطفل مربوط في الرحم لهذا لا تستطيع الولادة." وبعد استعطاف قريباتها يَعِدُ أن يحل لها الرباط ويطلب إحضار نبات متعرش قوي من الغابة ويربط فيه قدمي ويدي المرأة التي تعاني وهي مستلقية على ظهرها. وبعدها يمسك سكيناً وينادي اسم المرأة وعندما تجيبه يقول:" إني أقص اليوم عقدك وعقد إبنك." ثم يقطِّع النبات المتعرش ويضعه في إناء من الماء ويغسل المرأة بالماء. يمثل قطع النبات الذي

يربط يدي وقدمي المرأة نوعاً من السحر التعاطفي التجانسي أو المحاكاة فخلال تحرير الأطراف من قيودها يتخيل الساحر أنه يحرر الطفل في الوقت ذاته من القيود التي تقيده في الرحم وتعيق ولادته. من الفكرة نفسها تأتي ممارسات بعض الشعوب في فتح الأقفال والأبواب وما إلى هنالك في أثناء عملية الولادة في المنزل. وقد رأينا كيف يفتح ألمان ترانسلفانيا الأقفال في المناسبة نفسها وكذلك يفعلون في فويغتلاند و مكلينبرغ. وفي شمال غرب آرغيلشاير اعتاد الناس الخرافيون على فتح كل قفل في المنزل في أثناء الولادة. وفي جزيرة يالسيت قرب بومباي عندما تواجه المرأة صعوبة في الولادة يقومون بفتح الأقفال والأبواب والأدراج الجرَّارة لتسهيل الولادة. أما قوم ماندلنغ في سومطرة فيفتحون كل الصناديق والأوعية. وإذا لم يفِ ذلك بالغرض، على الأب أن يضرب الأعمدة البارزة من المنزل كي يحلحل تثبيتها لأنهم يعتقدون أن كل شئ يجب أن يُفتَح كي يتم تسهيل الولادة. وفي تشيتاغونغ تصدر القابلة أوامرها بفتح الأبواب والنوافذ على مصاريعها وفتح القوارير، وفتح أبواب الزرائب كي تتحرر الأبقار والأحصنة وينطلق كلب الحراسة من وِجاره وتنطلق الأغنام والطيور والبط. إن التحرير العالمي للحيوانات وحتى للأشياء غير الحية هو بالنسبة لهم وسيلة ناجعة حتماً للسماح للطفل بالولادة. وفي جزيرة ساغاليين يقوم الزوج بفك كل ما يمكن فكّه، إذ يفك ضفائر شعره ورباطات حذائه. ثم يفك كل ما في البيت أو في الجوار، وفي باحة المنزل يخرج الفأس الغارق في الخشب ويفك القارب المربوط إلى شجرة ويسحب الطلقات من بندقيته والسهام من نشابيته.

ويُحجمِ الرجل عند قوم التومبولو لا عن ربط العقد فقط بل عن الجلوس ورجله على رجله الأخرى طوال فترة حمل زوجته أيضاً. ويشتمل هذان التصرفان على فكرة واحدة وهي وضع شيء متصالب مع الآخر وهو حسب مبادئ السحر التعاطفي ـ التجانسي معارضة المنهج الحر للأشياء. وبالطبع كان الرومان مدركين لهذه الحقيقة تماماً، فهم يعتبرون جلوسك بجانب حامل أو مريض يتلقى العلاج وأنت مشبك الأصابع أو واضعاً رجلاً على رجل إنما ـ وحسب قول بليني — هو ممارسة السحر الخبيث ضد ذلك الشخص. ويعتقد الرومان القدامى أن هذه الوضعية إنما هي إعاقة للعمل من أي نوع. لذلك ما من أحد يشبك أصابعه أو يصالب رجليه في أثناء اجتماعات الحروب والصلوات والأضاحي. ومثال آخر على النتائج المريعة

الناجمة عن هاتين الوضعيتين هو آلكمينا التي عانت في وضع هرقل مدة سبعة أيام وسبع ليال لأن الإلهة لوسينا جلست أمام بيتها مشابكة الأيدي ومصالبة الأرجل، وماكان لهرقل أن يولَد لولا أن خُدعت الإلهة كي تغير وضعيتها. وهناك خرافة بلغارية تقول إنه إذا اعتادت الحامل على الجلوس وهي متصالبة الأرجل فسوف تعاني الكثير عند الوضع. وفي بعض أجزاء بافاريا عندما تصل المحادثات إلى طريق مسدود ويعم الصمت، يقولون: " لابد أن أحداً قد صالب رجليه."

يُعتقد أن التأثير السحري للعُقد في إعاقة وتعسير النشاط البشري يتجسد في الزواج كما هو عند الولادة. ففي العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر شاع في أوروبا أنه يمكن إعاقة الزواج بأن يقوم أي شخص بإقفال قفلٍ أو بربط عقدة في حبل ثم رمي القفل أو الحبل في الماء فيبقى الزواج مُعسَّراً حتى يوجد الحبل ويُفَك القفل أو يُفتح. من هنا اعتبروا إجراء هذا السحر عِداءً، أما العِداء الأكبر فهو سرقة ذلك السحر ـ عقدة كان أم قفلاً ـ وإخفاؤه. وفي عام 1718 قام برلمان بوردو بالحكم بالإعدام حرقاً على شخص تسبب بخراب عائلة كاملة من خلال الحبال المعقودة. وفي عام 1705 تم الحكم بالإعدام على شخصين في أسكتلندة لأنهما سرقا عقداً مسحورة صنعتها إحدى النساء كي يمنعا السعادة الزوجية لسبالدنغ وأشنتلي. استمر الإيمان بهذا السحر في مرتفعات بيرتشاير حتى نهاية القرن الثامن عشر لأنه شاع في أبرشية لوغريت الجميلة بين نهري تامل وتاي أن يفكوا بعناية فائقة كل العقد في ثياب العريس والعروس قبل الاحتفال بمراسيم الزواج. ونشاهد الخرافة نفسها والعادة نفسها في الوقت الحاضر في سوريا، إذ يحرص صانعو رداء العريس ألا يجعلوا عقداً فيه ولا أزراراً تُزَرَّر لأن هذه العقد أو الأزرار تقوّي عليه أعداءه فيحرموه من حقوقه الزوجية بوسائل سحرية. وتنتشر المخاوف من هذا السحر في جنوب إفريقيا في وقتنا الحاضر، فمجرد أن يقوم أحدهم بربط عقدة في منديل ويضعه بهدوء على جسم العريس عندما يعتلي الحصان في رحلته ليأتي بالعروس، يُفقِدُ العريس قدرته الجنسية مادامت العقدة قائمة وبالتالي تخرب حياته الزوجية.

كما تتجسد قدرة العقد الشريرة في إنزال المرض ومصائب شتّى. من هنا يقوم الساحر عند قوم هو في إفريقيا الغربية بإحلال اللعنة على عدوه عن طريق ربط عقدة في ورقة عشب قائلا: " لقد ربطت فلان الفلاني في هذه العقدة. فلتنزل عليه الشرور

كلها! فلتلدغه أفعى عندما يذهب إلى الحقول، وليهاجمه وحش ضار عندما يذهب إلى الصيد! ولتجرفه المياه عندما ينزل النهر! ولتضربه الصاعقة عندما تمطر!" يُعتقد أن الساحر قد قيَّد حياة عدوه في هذه العقدة. وهناك في القرآن تعوذاً "من شر النفاثات في العقد" ويفسر أحد المفسرين العرب هذه الكلمات إنها تشير إلى تلك النساء اللواتي يمارسن السحر في ربط العقد في الحبال والنفخ والبصق عليها. ويشير بهذا إلى مناسبة الآية وهي أن يهودياً شريراً سحر النبي محمداً بربطه تسع عقد في خيط وخبأه في بئر كي يقع فيه النبي دون أن يشعر به أحد، لولا أن أخبر الملكُ جبريل الرجلَ المقدس في الوقت المناسب عن مكان وجود الخيط المعقود. ثم أسرع عليٌّ الموثوق بإحضار ذلك الشيء الشرير من البئر وقرأ عليه النبي سحراً معيناً أُلهِمَ به لذلك الغرض. وفي كل عبارة من السحر كانت تُفك عقدةٌ، ويشعر النبي براحة معينة.

إذا كانت العقد قادرة على القتل فإنها قادرة أيضاً على الشفاء؛ فك العقد المسببة للمرض تؤدي إلى ارتياح المريض. لكن بعيداً عن هذه الفضيلة العكسية للعقد الشريرة، هناك عقد مفيدة تُعزى إليها القدرة على الشفاء. يخبرنا بليني أن بعض العوام يشفون الأربية(أصل الفخذ) بسحب خيط من شبكة وعقد سبع أو تسع عقد فيه ثم ربطه إلى أربية المريض، لكن لتفعيل الدواء كان من الضروري تسمية أرملة معينة كلما رُبطت عقدة. ويصف أودونوفان علاجاً من الحمى استخدمه قوم توركوما وهو أن يقوم الساحر بأخذ شعر من جمل ويغزله في خيط قوي ويدندن سحراً في أثناء ذلك. ثم يربط سبع عقد في الخيط نافخاً على كل عقدة قبل أن يشدها. ويرتدي المريض هذا الخيط على شكل سوار. ويفك في كل يوم واحدة من العقد ويُنفَخ عليها وبعد فك العقدة السابعة يُلفُّ الخيط على شكل كرة ويُرمى في النهر – كما يتخيلون ـ حاملاً الحمى معه.

ويمكن أن تُستخدم العقد من قبل ساحرات لكسب عاشقٍ وجعله متعلقاً بها كلياً. لذلك تستطيع التائقة إلى العشيق في فيرجيل أن ترسم لنفسها العشيق الريفي دافنيس من المدينة بربطها ثلاث عقد في كل من ثلاثة خيوط متعددة الألوان. وكذلك تحاول العربية التي فقدت قلبها مع رجل ما كسب حبه بأن تربطه إلى نفسها بربيط عقدٍ في سوطه؛ وتقوم ندَّتها الغيور بفك تلك العقد. وبناءً على نفس

المبدأ السحري يمكنها منع فك العقد. في سويسرا كثيراً ما تصادف عشباً معقوداً بجانب الممرات الراجلة. وتروي هذه العقد إحدى المآسي المحلية وهي أن زوجة هربت من زوجها فتبعها زوجها مع أصدقائه مطاردين – كما يقولون ـ عاقدين الممرات بهذه الطريقة ليمنعوها من الفرار. كما تعتبر شبكة العقد فعالة جداً ضد عمل السحرة فنراهم يلقون على العروس وهي في لباس عرسها شبكة لصيد السمك لإبعاد الضرر عنها. وللغرض نفسه يُطوّق العريس وأصدقاؤه بشبكات أو على الأقل بزنار محكم الربط وقبل أن يحاول ساحر إيذاءهم، عليه أن يفك كل العقد أو الزنانير. ولكن هناك تميمة (تعويذة) روسية قوامها خيط معقود. ويُعتقد أن شلة خيطان حمراء ملفوفة حول الذراعين أو الأرجل تمنع القشعريرة والحمى، وتسع شلل خيطان تُربَط حول عنق الطفل تحميه من الحمى القرمزية. ولدى حكومة تفير تُربط حقيبة من نوع خاص إلى رقبة البقرة السارحة لتحميها من الذئاب وتبلغ قوة تلك الحقيبة أن تلجم فم الحيوان المفترس. وبناءً على المبدأ نفسه يُحمل قفلٌ ثلاث مرات حول قطيع الأحصنة قبل ذهابه إلى الحقل في الربيع ويقوم من يحمل الأقفال بفتحها وإقفالها وهو يمشي قائلاً: " أقفل عن قطيعي أفواه الذئاب الرمادية بالقفل الفولاذي."

قد تستخدم العقد والأقفال لا ضد السحرة والذئاب فقط بل في إبعاد الموت نفسه. فعندما جلبوا امرأة إلى الوتد في سينت أندروز عام 1572 ليحرقوها حيةً لقيامها بالسحر، وجدوا على رقبتها قماشاً أبيض كالياقة وعليه خيطان معقودة. أخذوه منها عنوة بعد ممانعة فهي تعتقد أنها لن تموت بالنار إذا كان عليها ذلك القماش. وبعدها قالت: " الآن لم يبق لدي أمل." وفي الكثير من أنحاء انكلترا يعتقد أن الشخص لايموت مادامت أن عقدةً معقودة أو مزلاج مقفل في المنزل. وهنا نرى الممارسة الشائعة وهي فتح الأقفال والمزالج عندما يقارب أحدهم نهايته ليخففوا من معاناته. وهناك مثال آخر يعود إلى عام 1863 في تاونتون، إذ كان هناك طفل يعاني من الحمى القرمزية وموته حتمي، فقامت هيئة العقيلات وتخفيفاً لآلام الموت بفتح كل أبواب المنزل والأدراج والصناديق والخزانات وأُخرجت المفاتيح من الأقفال ووُضع الطفل تحت عمود لتأمين الممر السهل نحو الأبدية. من الغريب أن نقول أن يميل الطفل إلى الاستفادة من تسهيلات الموت والاحتضار الهيِّن ويضع نفسه تحت تصرف

العقيلات البريطانيات بحصافتهن وخبرتهن؛ فربما فضّل الحياة على أن يسلِّم روحه بأمان.

تقضي القاعدة في الطقوس الدينية والسحرية أن يتدلى الشعر حراً وأن تكون الأقدام عارية وتعتمد على الخوف من إعاقة العمل المطلوب أداؤه مع وجود العقدة أو الإعاقة على رأس أو أقدام مؤديها. وتعزى إلى الخواتم قوة مشابهة في الإعاقة والربط. ففي جزيرة كارباثوس لا يُزرِّرُ الناس الملابس التي يضعونها على الجثة الميتة وهم حريصون على نزع جميع الخواتم منها؛ ويقولون أن الروح قد تُعاق في الأصبع الصغيرة ولا تستطيع أن ترتاح. من الواضح هنا أن الروح لا تخرج حتماً من رؤوس الأصابع عند الموت مع ذلك يرون في الخاتم إعاقة تحبس أو تؤخر خروج الروح الزائلة رغم محاولتها الهروب من مثواها الطيني. وباختصار، يقوم الخاتم مثل العقدة بدور الغُلِّ الروحي. وربما هذا هو السبب وراء العادة الإغريقية القديمة التي تُرَد إلى البايثاغورا والتي تمنع الناس أن يرتدوا خواتم. ويمنع الجميع من دخول حرم الأركادي القديم للسيدة في لايكوسورا وهم يضعون خاتماً على أصابعهم. وعلى الأشخاص الذين يستشيرون وحي فاونوس أن يكونوا طاهرين وألا يأكلوا اللحم أو يلبسوا الخواتم.

ومن الناحية الأخرى يمكن ان تشكل إعاقة الخروج إعاقة في دخول الروح الشريرة فنرى استخدام الخواتم كحجاب ضد العفاريت والسحرة والأشباح. ويقال إنه في تايلور يجب ألا تخلع المرأة الواضع خاتم الزواج كيلا يتمكن منها السحرة والأرواح الشريرة. أما عند قوم اللاب فيأخذ الشخص الذي يواري الجثة في القبر حلقة نحاسية من زوج أو زوجة الميت ويرتديها مشدودةً على ذراعه الأيمن حتى يودع الجثة بأمان في القبر. يُعتقد أن هذه الحلقة حجاب من أي ضرر تنزله به الروح. السؤال الذي يستحق البحث هو: منذ متى تلعب عادة ارتداء الخواتم دور الحُجُب لإبقاء الروح في الجسد أو منع الأرواح الشريرة من الدخول إليه؟ مايهمنا من هذا المعتقد أنه يلقي الضوء على المبدأ الذي يمنع الفلامين ديالي من ارتداء الخاتم إلا إذا كان مكسوراً. وتوافقاً مع المبدأ القاضي بمنعه من وجود عقدة في ثوبه، هناك خوف من روح قوية متجسدة فيه تعيقها من الخروج والدخول بغَلٍّ مُقيِّد مثل الخواتم والعقد.

الفصل الثاني والعشرون
الكلمات المحرمة

1ـ تحريم الاسماء الشخصية

غير قادر على التمييز بين الأشياء والكلمات يتصور البدائي أن العلاقة بين الاسم وصاحبه ليست مجرد علاقة عشوائية تصورية، بل ارتباط مادي وحقيقي يوحِّدهما بطريقة تمكـِّنه من إجراء السحر على الشخص خلال اسمه تماماً كإجرائه خلال شَعره. يرى البدائي في اسمه جزءاً حيوياً منه يستحق كل العناية. والمثال على ذلك هو الهندي في أمريكا الشمالية الذي يعتبر اسمه ليس مجرد علامة تميزه بل جزءاً من شخصيته كعينيه وأسنانه، وأن أذىً يصيبه جراء إيذاء الاسم كما يؤذي الجرح وجوده العضوي الجسدي. انتشر هذا الاعتقاد بين العديد من القبائل من الأطلسي إلى الهادي وفرض مجموعة من الضوابط تقضي بإخفاء وتغيير الأسماء." ويقوم بعض الأسكيمو بأخذ أسماء جديدة عندما يكبرون على أمل الحصول على فرصة جديدة في الحياة." ويعتقد قوم التولامبو في سيبليس أنه إذا ما كتبت اسم شخص تستطيع أن تقتل روحه من خلال الورقة. كما يعتبر الكثير من البدائيين في يومنا هذا أسماءهم أجزاء حيوية منهم فيحرصون كل الحرص على إخفائها كيلا يفسحوا المجال أمام من تملَّكهم الشر من إنزال الأذى بهم.

لنبدأ بالبدائيين في أسفل السلم الاجتماعي. بلغنا أن أصلاء استراليا يُخْفون أسماءهم عن المعرفة العامة معتقدين أن معرفة العدو بأسمائهم تمكنه من إيذائهم عن طريق السحر. وقال كاتب آخر أن الأسترالي الأسود يكره التعبير عن اسمه الحقيقي ولاشك أن كرهه هذا نابع من خوفه أن اسمه موضوع أذىً من قبل السحرة. أما لدى قبائل أستراليا الوسطى، فكل طفل وامرأة ورجل إسم آخر للتداول غير الاسم السري المقدس الذي يمنحه إياه كبار القبيلة عند الولادة والذي

لا يعرفه إلا الأقارب المقرَّبون. لايُذكر هذا الاسم إلا في مناسبات غاية في القداسة ويعتبر لفظه على مسامع أفراد من جماعة أخرى خيانة خطيرة لأعراف القبيلة لا تقل عن الحالات الخطيرة التي تدنِّسنا في يومنا هذا. وعندما يُذكر الاسم يُذكَر همساً وبعد الحيطة الكاملة كيلا يسمعه أحد من جماعات أخرى. يعتقد هؤلاء الأصلاء أن معرفة الغريب للاسم السري يعطيه قدرة خاصة على ممارسة السحر الشرير.

ويبدو أن هذا الخوف سبب العادة نفسها عند المصريين القدامى الذين لُوِّنت حضارتهم الراقية نسبياً ببقايا غريبة تعود إلى البدائية السحيقة. إذ يحمل كل مصري اسمين هما على التتالي الاسم الحقيقي والاسم الجيد، أو الاسم الكبير والاسم الصغير. ينتشر الاسم الجيد أو الصغير بين الناس أما الاسم الحقيقي أو الكبير فيُخفى عنهم تماماً. ويسمَّى الطفل البراهمي اسمين أحدهما للاستخدام العام والآخر سري يعرفه أبوه و أمه فقط. يُستخدَم الأخير في طقوسٍ كالزواج. وتهدف هذه العادة إلى حماية الشخص من السحر لأن السحر لا يأخذ مفعوله إلا إذا اقترن بالاسم الحقيقي. وكذلك يعتقد أصلاء نياس أن الأذى يصيب الشخص لدى سماع العفاريت اسمه. من هنا لا يتلفظون بأسماء أطفالهم المعرضين لانقضاض الجان الشريرين، كما لايذكرونها في الأماكن المسكونة في أعماق الغابة وضفاف الأنهار أو بجانب الينابيع الخرارة.

ويبقي هنود تشيلو أسماءهم سرية ولا يستحبون لفظها بصوت عالٍ لأن هناك جاناً وعفاريت أقزاماً في الهند والجزر المجاورة يقومون بإيذاء الناس إذا ما عرفوا أسماءهم ويبقون عاجزين عن ذلك ماداموا جاهلين تلك الأسماء. ويحجم قوم أروكانيا إحجاماً كاملاً عن ذكر أسمائهم أمام الغرباء خوفاً من تسليط قوى خارقة عليهم. وإذا ما سأل غريب جاهل لهذه الخرافة أحدَهم عن اسمه تراه يجيب:" ليس لدي اسم." وعندما تسأل واحداً من قوم أوجيبوي عن اسمه ينظر إلى من يقف بجواره ويطلب منه الإجابة. ينشأ هذا الإحجام مع نشأته منذ الصغر حين يعلمونه أن التلفظ الكثير باسمه سوف يمنع نموه ويصبح قزماً. وبناءً على هذه الرغبة في الحفاظ على سرية الأسماء يظن الغرباء إما أنهم بلا أسماء أو أنهم غابت عن ذاكرتهم.

في الحالة الأخيرة يبدو واضحاً الخوف من نتائج نقل الأسماء إلى الغرباء على ألسنة أصحابها. كيف ظهر هذا الاعتقاد؟ ولماذا يتوقف نمو الشخص عندما يلفظ اسمه؟ يمكننا هنا أن نتوقع أن الأسماء هي جزء من شخص الإنسان البدائي، وعندما يلفظ الآخرون اسمه لا يشكل هذا ارتباطاً معه وبالتالي لا يوقع أذىً عليه، لكن الأذى يأتي عندما يلفظه بنَفَسِهِ؟ وربما يبرهن هؤلاء الفلاسفة البدائيون على اعتقادهم على الشكل التالي: عندما يعبر الاسم شفاه صاحبه إنما يفارقه جزءٌ حيٌّ منه. وإذا ظل يقوم بهذا التصرف الطائش طويلاً فلابد أنه يشتت طاقته ويبعثر تماسكه. وعندما ينهار الفَسَقَةُ من المرض إنما يعود هذا – كما يقول الأخلاقيون – إلى أنهم وقعوا في قدَرٍ يحل عاجلاً أم آجلاً بكل خليع مستهتر ينغمس في اتّباع عادة لفظ اسمه المغوية.

يبدو لنا أن الأمر يعتمد على لاعلاقية طريفة لكنه ليس كذلك لدى البدائي الذي يبدي كرهاً واضحاً للفظ اسمه بينما لا يمانع في أن يلفظه الآخرون، لا بل ويدعوهم لذلك كي يبلِغوا الغرباء الذين يسألون عنه. لذلك نرى في بعض أنحاء مدغشقر أن لفظ الاسم من قبل صاحبه محرم فيقوم أحد العبيد بإبلاغ اسمه بالنيابة عنه.. قالوا عن بعض قبائل الهنود الأمريكية: " يُعتَبَر اسم الهندي الأمريكي جزءاً مقدساً منه ولا ينبغي أن يفشيه صاحبُه دون ضرورة قصوى. وإذا ما سألتَ أحد محاربيهم عن اسمه فإنه يجيبك بالرفض من خلال إشارة تعني (لا شيء) أويتظاهر أنه لم يفهم سؤالك. وعندما يتقدم أحد الأصدقاء يقوم المحارب بهمس السؤال لصاحبه فيبلغك الصديق به على شكل تعارف لبق مع الآخرين." وتنتشر هذه الحالة لدى القبائل الهندية في كولومبيا البريطانية التي قيل عنها: " من أسوأ الأشياء التي تنتشر عند جميع القبائل هو أنه لا يمكنك الحصول على الاسم الصحيح لأحدهم منه بالذات في حين يخبرون عن أسماء بعضهم بعضاً دون تردد." وتنتشر هذه العادة الشكلية عند جميع الهنود الشرقيين في أرشيبيلاغو. أما السؤال " ما اسمك؟" فهو سؤال غير لبق البتة فيما بينهم. وفي الأوساط القضائية والتجارية عندما يُسأل الشخص عن اسمه ينظر إلى صديقه طالباً منه الإجابة، أو يقول بصراحة: "اسأله!" وتوجد هذه العادة أيضاً عند قبائل الموتو والموتوموتو، والبابوان في فينش في شمال غينيا الجديدة، وعند آلنفور في غينيا الهولندية الجديدة، والميلانيسيا في بسمارك

أرشيبيلاغو. ولا يذكر الناس عند قبائل جنوب أفريقيا أسماءهم إذا توفر الشخص الذي يقوم بالمهمة بدلاً منهم لكنهم لا يرفضون تماماً عندما يُحرَجون في ذلك.

ليس الحصار القاسي المفروض على الأسماء دائماً بل مشروطاً بظروف معينة. لذلك عندما يكون رجال النانجي في غزوة لا يلفظ أحد في الديار أسماء المحاربين الغائبين بل يُشار إليهم بأسماء الطيور. وإذا نسي أحد الأطفال وذكر اسم أحدهم تقوم الأم بتوبيخه قائلة: " لا تتحدث عن العصافير وهي في السماء." ولدى البانغالا في الكونغو الأعلى، عندما يعود الصياد من رحلته بصيده من السمك يبقى اسمه معلقاً لا يذكره أحد. ومهما كان اسمه الحقيقي يُنادَى باسم مويلي دون تمييز بين صياد وآخر. لأن النهر ممتلئ بالأرواح التي تعرقل عمله لو سمعت باسمه الحقيقي فيكون حظه من الصيد ضئيلاً أو معدوماً. حتى بعد أن يتم الصيد وينزل بسمكه إلى البر لا ينبغي على مُبتاع السمك أن يناديه باسمه بل يسميه مويلي كيلا تسمع الأرواح اسمه وتبيِّت له مكيدة إلى يوم آخر أو تفسد سمكه فلا يجني منه إلا القليل. إذن يصيب الصيادين ضرر كبير جرَّاء ذكر أسمائهم. وكل من يسهو فيذكر اسم صياد يُفرض عليه تعويضه بمبلغ لا بأس به. وعندما يقترب السالكا في بريطانيا الجديدة من منطقة أعدائهم الغاكتي، لاينادونهم بأسمائهم خوفاً من أن يغضبوا فيهاجمونهم ويقتلونهم. ينادون الغاكتي: " يا ، لبسيك" أي (يا جذوع الشجر المتفسخة). يعتقدون أن هذه الأسماء تجعل أطرافهم خرقى تعوزها الرشاقة مثل جذوع الشجر. يشرح هذا المثال نظرة البدائي المادية البحتة لطبيعة الكلمات؛ فيرون أن مجرد ذكر العبارة التي تدل على الجلافة إنما تؤثر تعاطفياً على رشاقة أطراف أعدائهم عن بعد. وهناك تفسير آخر لهذا المفهوم الخاطئ الطريف في خرافة عند قوم (كافرْ) وهي إمكانية تغيير طبع سارق صغير السن خلال ذكر اسمه فوق إناء فيه مياه تغلي وتحتوي مواد معينة. ثم يوضع الغطاء على الإناء ويُترك الاسم هناك عدة أيام. ليس من الضروري على الإطلاق أن يعرف السارق بما يجري لاسمه؛ أي أن الإصلاح الأخلاقي يأخذ مفعوله دون معرفته على الإطلاق.

دفعت ضرورة الحفاظ على سرية الاسم الحقيقي إلى عادة إطلاق الألقاب؛ فاللقب لا يشكل جزءاً منهم ويمكنهم تداوله بحرية دون إلحاق الأذى بأصحابها. وتجنباً لذكر اسم الشخص الحقيقي يُطلق عليه اسم (أبو فلان) ولهذا السبب

يعترض السود في جبسلاند بقوة على استخدام شخص من خارج القبيلة لأسمائهم الحقيقية كيلا يقوم الأعداء بتطبيق السحر عليها والتسبب بالموت لهم. وعلى اعتبار أن الأطفال ليس لهم أعداء اعتادوا تسمية الرجال بـ (أبو فلان أو عم فلان أو ابن عم فلان) ويذكرون اسم الطفل فقط وليس الكبير سناً. أما آلفو بوسو في سيليبيس فلا يذكرون أسماءهم، وإذا أردت التأكد من صحة اسم أحدهم عليك ألا تسأل صاحب الاسم بل سل عنه آخرين. وإذا استحال الأمر لعدم وجود شخص قريب سله عن اسم ابنه ثم ناده بـ (أبو فلان) ويذهب الآلفو أبعد من ذلك فيخجلون من ذكر أسماء أولادهم، فيُسمون بـ (عم فلان) أو (عمة أو خالة فلان). وفي المجتمع المااليزي الأصيل لا يُسأل الشخص عن اسمه بل تجري عادة تسمية الناس بأبنائها تجنباً لذكر أسماء الأهل. أمَّا من ليس لديه أولاد فيُسمى باسم أخيه الأصغر. وعند لاند دياك يُنادَى الأطفال عندما يكبرون – بحسب جنسهم ذكوراً كانوا أم إناثاً – بـ (أبو أو أم عمهم الأصغر أو عمتهم الصغرى) أي (أبو أو أم ابن عمهم الأول). أما قوم الكافِرْ فيرون من غير اللائق أن ينادوا العروس باسمها الخاص بل ينادونها (أم فلان) حتى عند الخطبة قبل أن تصبح زوجةً أو أماً. ولدى الكوكي الزيمي والكاشاناغاس في آسام تبطل أسماء الوالدين لدى إنجابهم الطفل الأول. أما الوالدان اللذان لم يُرزقا بطفل فيُسمَّيا (أبو اللاولد وأم اللاولد). يُعتَقد أن تسمية الأب باسم ابنه هي رغبة الأب بتأكيد أبوته للحصول على حقه بأولاده بعد أن كان ذلك الحق حِكراً على الأم في عصر كان النسب فيه للأم. لكن هذا التفسير لا يبين سبب تسمية الأم باسم ابنها وهو اسم يتواجد جنباً إلى جنب مع تسمية الأب باسم ابنه. وكيف لنا أن نفسر سبب تسمية الوالدين الأبترين بأبي أو أم أولاد غير موجودين أو تسمية الناس بأسماء إخوانهم الأصغرين أو الإشارة إلى بعضهم بعم فلان أو عمة فلانة أو أبي أو أم إبن الأخ الأول. يمكن تفسير جميع هذه الممارسات بطريقة بسيطة وطبيعية إذا ما افترضنا أنها تعود إلى كره لفظ الأسماء الحقيقية للناس الذين نخاطبهم أو نتكلم عنهم. وربما يرتكز هذا الكره في جزء منه على الخوف من لفت انتباه الأرواح الشريرة، وفي الجزء الآخر على الخوف من الكشف عن الأسماء للسحرة الراغبين بالحصول على وسيلة يؤذون بها صاحب الاسم.

2ـ تحريم أسماء الأقارب

من الطبيعي أن نتوقع إعفاء الأقارب والأصدقاء من الالتزام بهذه القاعدة، لكننا نجد الواقع عكس ذلك. أي يلتزم الأقارب المقربون بالدم أو بالزواج بقوةٍ بهذه القاعدة. ويُمنَعون ليس فقط من لفظ أسماء بعضهم بعضاً بل من لفظ الكلمات العادية التي تشبهها أو تحتوي على مقطع مماثل في هذه الأسماء. أما الأشخاص المحظر عليهم رسمياً ذكر أسماء بعضهم بعضاً فهم الزوج والزوجة، الرجل وحموه، والمرأة وحموها. والمثال على ذلك هو المرأة من قوم **الكافْر** التي لايمكن لها ذكر اسم زوجها الأصلي أو أي من أسماء إخوانه أمام العامة. كما لايمكنها ذكر كلمة محرمة بمعناها العادي. فإذا كان اسم زوجها **مباكا** من كلمة **إمباكا** وهو حيوان سنوري صغير، عليها أن تسمي ذلك الحيوان باسم آخر. كما يمنع عليها أن تلفظ ولو في ذهنها اسم أبي زوجها أو أقاربها الذكور من طرفه. وكلما صادف مقطع مشدد من أسمائهم في كلمة أخرى، عليها أن تتجنبه إما باستخدام كلمة أخرى أو مقطع آخر على الأقل في مكان المقطع المماثل. وقد سببت هذه العادة ظهور لغة مميزة بين النساء يسمونها **لغة النساء**. من الصعب تفسير هذه اللغة لأن استبدال الكلمات فيها لا يخضع لقاعدة معينة، كما لا يمكن وضع قاموس يحتوي هذه الكلمات لكثرة عددها ولأن بعض النساء لا يتمتعن بحرية استخدام بدائل استُخدِمت من قبل نساء أخريات بل من الأسهل أن يستخدمن الكلمات الأصلية على أن يستعرن بدائل غيرهن. أما الرجل من قوم **كافْرْ** فلا يمكنه أن يلفظ اسم حماته كما لا يمكنها لفظ اسمه، لكن له مطلق الحرية أن يلفظ كلمات فيها مقاطع مشددة لاسم حماته. كما لا تتجرأ المرأة في قوم كيرجز على أن تلفظ أسماء أقارب زوجها الأكبرين ولا تستخدم كلمات تشبهها في الصوت. لنفترض أن اسم أحد الأقارب راعي، فعليها ألا تتحدث عن الغنم بل تسميها **الثاغية**. وإذا كان اسمه **حَمَل** عليها أن تشير إليهم بـ **الثاغيات الصغار**. وفي جنوب الهند تعتقد الزوجة أن الإخبار عن اسم زوجها أو لفظه في الحُلُم يسبب له الموت قبل أوانه. كما لايمكن للرجل في قوم داياك البحر أن يلفظ اسم حميه أو حماته دون إثارة غضب الأرواح الشريرة. ولا يقتصر مفهوم الحمي هنا على أبي الزوجة وأم الزوجة بل يتعداه إلى آباء وأمهات وإخوان زوجة أخيه وأزواج أخواته، وكذلك آباء وأمهات جميع أبناء وبنات أعمامه.

وهنا يصبح عدد الأسماء المُحرَّمة كبيراً وبالتالي تكثر فرص الخطأ في ذكرهم. وما يجعل الأمر أكثر إرباكاً هو أن أسماء الأشخاص مطابقة لأشياء عامة مثل القمر والجسر والشعير وحية الكوبرا والنمر، ولا يمكنه أن يعبر أي منهم شفتيه إذا كان مماثلاً لاسمَي حميه أو حماته. ولدى قومَي آلفور وميناهاسا في سيليبيس، يذهبون بهذه العادة أبعد من ذلك ويمنعون استخدام حتى الكلمات التي تشبهها في الصوت. ويحمل اسم الحمي خصوصية عالية في هذا التحريم. فإذا كان اسمه **كالالا**، فعلى صهره ألا ينادي الحصان باسمه المعتاد وهو **كاوالا** بل يسميه ساكاجان أي **دابة الركوب**. ولدى الآلفور في جزيرة بورو يُحرَّم ذكر أسماء الأبوين وأبوي الزوج أو الزوجة حتى عندما يتحدثون عن الأشياء العامة بكلمات تشبه أسماءهم في الصوت. فإذا كانت حماتك تدعى **دالو** وتعني تنبول، فيجب ألا تسمي التنبول باسمه المعتاد. بل عليك أن تسميه **الفم الأحمر**. وإذا ما أردت ورقة تنبول، عليك أن تقول **كارون فينا**. وفي الجزيرة نفسها يُحرَّم ذكر اسم الأخ الأكبر في حضوره. وكل من يخرق هذه القاعدة يخضع لغرامات. وفي سوندا يُعتَقد أن محصولاً معيناً يمكن أن يفسد إذا ذكر الرجل اسم أبيه وأمه.

ولدى الآلفور في غينيا الهولندية الجديدة يمنع على الرجال الأنسباء بالزواج أن يذكروا أسماء بعضهم بعضاً. ومن بين الأقارب المحرمة أسماؤهم الزوجة وأم الزوجة أو الزوج وأبي الزوجة أو الزوج وعم الزوجة وعمتها وعم أو خال الأب أو الأم وعمة و خالة الأب أو الأم وكل عائلة الزوج أو الزوجة ممن هم في الجيل نفسه بينما يُسمح للرجل ذكر اسم ابن حميه في حين لا تستطيع المرأة ذكر أسماء أولاد حميها. يصبح هذا التحريم سارياً حال حصول الخطبة قبل الاحتفال بالزواج. أما العائلات المرتبطات باثنين من أعضائهما فلا يُمنَع عليهما ذكر أسماء بعضهما بعضاً فقط بل يُمنع عليهما النظر إلى بعضهما بعضاً ويصبح الموقف مضحكاً جداً عندما يتقابلا على نحو غير متوقع. كما يبالغون ليس بعدم ذكر الأسماء بل يتجنبونها تماماً ويلجؤون لاستخدام البدائل. وإذا حصل أن ذكر أحدهم اسماً سهواً عليه أن يلقي بنفسه فوراً على الأرض ويقول: " لقد ذكرت الاسم الخاطئ. وها أنا ألقيه في شقوق الأرض كي أتمكن من تناول الطعام جيداً.

وفي الجزر الغربية من مضائق توري لا يذكر الرجل اسمَي حميه أو حماته أو ابن حميه أو ابنة حميه كما تخضع المرأة للقيود نفسها. ويمكن التكلم عن ابن الحمي على أنه زوج أو أخ شخص يمكن ذكر اسمه. كذلك ينوّه لابنة حميه بزوجة فلان الفلاني. وإذا سها أحدهم وذكر اسم ابن حميه تراه يخجل ويطأطئ رأسه. ويمكن أن يتخلص من خجله فقط عندما يقدم له هدية تعويضاً على الإسم الذي عبث في استخدامه. كما يُقدَّم التعويض نفسه لابنة حميه. ولدى الأصلاء الذين يقطنون الساحل في شبه جزيرة غازال في بريطانيا الجديدة، يعتبر ذكر اسم ابن الحمي أكبر إهانة له وهي جريمة يمكن ان تصل عقوبتها إلى الموت. وفي جزر البانكس، ميلانيسيا تُفرَض قيود شديدة على أسماء الأنسباء، فلا يذكر الرجل اسم حميه ولا حماته ولا اسم ابن حميه بل يمكنه ذكر اسم ابنة حميه فهي لا تعني شيئاً بالنسبة له. ولا تذكر المرأة اسم حميها ولا اسم ابن حميها على الإطلاق. كما يُحرَّم على الشخصين الذين تقايض أولادهما بالزواج أن يذكرا اسمَي بعضهما بعضاً. كما لا يمكنهما ذكر الكلمات العادية التي تطابق هذه الأسماء لفظاً أو في بعض مقاطعها. فمثلاً ترى أحد الأصلاء في هذه الجزر لا يستخدم الاسم الشائع للـ خنزير و يموت لأن بها مقاطع من اسم صهره، وبلغنا أن واحداً منهم لا يستطيع لفظ الكلمتين الشائعتين يد و ساخن بسبب اسم ابن حميه وحتى أنه ممنوع من استخدام كلمة واحد لأن فيها جزء من اسم ابن عم زوجته.

لا يمكن فصل كره ذكر أسماء أو حتى مقاطع من أسماء أشخاص لهم صلة بالمتكلم عبر المصاهرة عن كره الناس للفظ أسمائهم الخاصة والكثير من أسماء الموتى بشكل عام أو الملوك والقواد الموتى. يعتمد تكتمهم هذا على خرافة ليس لها تبرير أعمق من تبرير التكتم الذي تناولناه سابقاً. ورأينا أن عدم رغبة البدائي في ذكر اسمه تعتمد جزئياً على مخاوف خرافية من إساءة استخدام الاسم من قبل أعدائه من البشر أو من الآدميين. وبقي علينا أن نبحث في الاستخدام المماثل لأسماء الموتى والشخصيات الملكية.

3ـ تحريم أسماء الموتى

أحجم الألبان القدامى في كانكاسوس عن ذكر أسماء الموتى ومازالت هذه العادة سارية تماماً في يومنا هذا لدى الكثير من القبائل البدائية. وبلغنا أن إحدى أقوى العادات المتبعة عند قبائل أصلاء استراليا هي ألا تذكر اسم شخص مات ذكراً كان أم أنثى، أو أن ترفع صوتك باسم شخص غادر الحياة لأن هذا يعتبر خرقاً صارخاً وإجحافاً كبيراً بحق قدسيته، لذلك يحرصون أشد الحرص على ألا يفعلوا ذلك. إن الدافع الرئيس وراء هذا الإحجام هو الخوف من إيقاظ الأرواح، بالإضافة إلى الرغبة في إسدال الستار على أحزان الماضي ونسيان المآسي السابقة. وذات مرة دب السيد أولفيلد الرعب في أحد الأصلاء لأنه قال بصوت عالٍ اسم شخص ميت لدرجة أنه هرب ولم نره ثانيةً لعدة أيام. وبعد أن عاد ألقى اللوم على ذلك الرجل الأبيض المستهتر ووبخه على تهوره. وأضاف السيد أولفيلد أنه اتبع كل الوسائل لإقناعه أن يلفظ اسم شخص ميت لكن عبثاً لأنه يؤمن أنه بهذا يضع نفسه تحت سيطرة تلك الأرواح المُهلِكة. كما يندر أن يذكر أصلاء فكتوريا الموتى بأسمائهم وكانوا يشيرون إلى الميت بعبارة **الشخص الضائع** أو **المسكين الذي لم يعد موجوداً** لأنهم يفترضون أن ذكرهم له يجلب أرواح الموتى المُهلِكة التي تحوم فوق الأرض مدة معينة قبل أن تصعد إلى الشمس الغاربة. وبلغنا أن قبائل نهر موري الأدنى تتجنب ذكر الشخص الميت وعندما يضطرون لذلك، يذكرونه بصوت خافت لا يكاد يُسمَع. كما لا يذكر أهالي قبائل أستراليا الوسطى اسم الميت طوال فترة الحداد إلا إذا اضطروا لذلك، وإذا ذكروه إنما يذكرونه بصوت خافت كيلا يزعجوا روحه المتجولة فيما بينهم على شكلها الشبحي. وعندما يسمع الميت اسمه من قبل ذويه يعرف أنهم لا يقيمون عليه الحداد بالشكل الصحيح؛ فلو كانوا يحزنون عليه فعلاً لما أطاقوا إذاعة اسمه بهذا الشكل. ورداً على قسوة قلوبهم هذه تأتيهم الروح في الحلم لتسبب لهم المشكلات.

كذلك تنتشر هذه العادة عند قبائل هنود أمريكا بدءاً من خليج هادسون إلى باتاغونيا. وتعتبر قبائل كوجيرو أن ذكر اسم الميت أمام ذويه اعتداء كبير عقوبته الموت. ولو صادف هذا في منطقة رانشو وذكر أحدُهم اسم الميت أمام ابن أخيه أو

عمه، فإنهم يقتلونه في نفس المكان إن استطاعوا. وفي حال تمكّن من الهروب تتحول العقوبة إلى غرامة كبيرة تصل إلى ثورين أو أكثر.

كما تنتشر هذه العادة بين شعوب منفصلة جغرافياً مثل ساموید في سيبيريا وتودا في جنوب الهند، المنغول والطوارق في الصحراء الكبرى، أينو في اليابان وأكامبا وناندي في أفريقيا الشرقية، مدغشقر وتزمانيا. في كل هذه الحالات، وحتى لو لم يعبروا بصراحة عن هذا الإحجام، يبقى تجنبهم ذكر الاسماء نابع من خوفهم من الأرواح. وقد تبين أن هذا هو الدافع الحقيقي عند الطوارق. فهم يخافون عودة روح الشخص الميت ويفعلون كل ما بوسعهم تجنب ذكره عن طريق تغيير مقرهم بعد موته، ويمتنعون إلى الأبد عن ذكر اسمه ويتحاشون كل ما يُمكن أن يستعيد روحه. وهم مثل العرب يعمدون إلى تسمية الشخص بإضافة أسماء آبائهم، فلا يسمون فلان الفلاني ابن فلان الفلاني بل يعطونه اسماً يعيش معه ويموت معه. وكذلك لدى القبائل الفكتورية في أستراليا، لا تدوم أسماء الأشخاص وقتاً طويلاً لأنهم يعتقدون أن كل من يأخذ اسم ميت لن يعيش طويلاً، فلربما أتى صاحب الاسم الميت وأخذه إلى أرض الأرواح.

يقود الخوف من الأشباح جميع من يحمل من يحمل اسماً مشابهاً لها إلى تغيير اسمه كيلا يلفت انتباه الشبح الذي لا يُتَوقّع منه منطقياً التمييز بين الاستخدامات المتعددة للاسم نفسه. والمثال على ذلك عند قبائل خليج أديلايد وإنكاونتر في جنوب أستراليا الذين يمقتون ذكر اسم الذي قضى حديثاً لدرجة أن كل من يحمل الاسم نفسه يتخلى عنه فوراً ثم يتبنى اسماً مؤقتاً أو يستخدم لقباً إن كان لديه لقب. وتسود عادة مشابهة لدى قبائل كوينزلاند، لكن لا يدوم تحريم ذكر أسماء الموتى لديهم بشكل دائم بل يستمر بضع سنوات. ولدى بعض القبائل الأسترالية يبقى الاسم الجديد ملازماً لصاحبه — حتى يُجبَر على تغييره ـ ويُستَبعد الاسم القديم إلى الأبد. ولدى هنود أمريكا الشمالية يتخلى كل الناس ذكورهم وإناثهم عن أسمائهم إذا طابقت اسم ميت حديث العهد ويبدأ هذا مع مراسيم الحداد على الميت. ولدى بعض القبائل إلى الشرق من جبال روكي يدوم تغيير الاسم فقط فترة الحداد بينما يبقى هذا التغيير بشكل دائم لدى قبائل أخرى من ساحل الهادي في أمريكا الشمالية.

وتوسعاً في العادة وللأسباب نفسها يغير جميع الأقارب أسماءهم أيّاً كانت، ويعود هذا بلا شك إلى الخوف من استدراج الروح المتشردة إلى موطنها القديم. لذلك نرى جميع أبناء قبائل فكتوريا من أقارب الدرجة الثانية يبطلون استخدام أسمائهم طوال مدة الحداد، كما جرت العادة أن يستبدلوا عبارات عامة. كما يعتبرون ذكر اسم كل من يحضر الجنازة احتقاراً للميت، وغالباً ما يؤدي هذا إلى شجار وأحياناً إراقةً للدماء. ولدى القبائل الهندية في شمال غرب أمريكا يغير أقارب الميت المقربون أسماءهم لأنهم "يتوهمون أن الأرواح تنجذب إلى الأرض عندما تسمع أسماءً مألوفة لديها. أما قوم كيوا الهندي فلا يذكرون أبداً اسم الميت بحضور أقاربه وعند موت أحدهم يأخذ أفراد الأسرة جميعاً أسماءً جديدة. ولاحظ ذلك المستوطنون المرافقون لرالي في جزيرة راونوك منذ أكثر من ثلاثة قرون. أما قوم اللنغوا فلا يكتفون بعدم ذكر اسم الميت بل يغير جميع الأحياء أسماءهم. ويقولون أن الموت مقيم عندهم وقد استوفى عدداً منهم وسرعان ما يستوي في المزيد، فيفوِّتون عليه الفرصة عندما يغيرون أسماءهم معتقدين أنه يتوه فيما بينهم فلا يميز من هم في القائمة الموجودة لديه لأنهم أخذوا أسماءً جديدة، عندها يغادر ليبحث عن ضالته في مكان آخر. أما الذين يقيمون الحداد عند قوم نيكوباريز فيأخذون أسماءً جديدة تخفياً من الأشباح، كما يلجؤون إلى حلق رؤوسهم كيلا يتمكن الشبح من تمييزهم.

وإذا كان اسم الميت مطابقاً لشئ شائع مثل حيوان أو نبات أو نار أو ماء فيصبح ضرورياً الإقلاع عن استخدام الكلمة في الأحاديث العادية واستبدالها بأخرى. وهنا تشكل هذه العادة عاملاً فعالاً في تغيير اللغة وحيثما تُتبع هذه العادة نرى الكثير من الكلمات المهجورة وانبثاق كلمات جديدة. وقد لاحظ بعض المراقبين أن لهجة أصلاء أستراليا تتغير بين قبيلة وأخرى. ويقوم بعض القبائل بتسمية أطفالهم بأسماء أشياء من الطبيعة، وعندما يموت صاحب الاسم يكفُّون عن استخدامه ويلجؤون إلى ابتكار اسم جديد لذلك الشيء. وقد أدرج الكاتب مثالاً على ذلك اسم شخص يدعى كارلا و تعني نار. عندما مات كارلا كان عليهم ان يبتكروا اسماً جديداً للنار ويقول الكاتب أن اللغة تتغير دائماً بهذه الطريقة. وكذلك عند قبيلة خليج إنكاونتر في أستراليا الجنوبية، إذا كان اسم الشخص نغنكي و تعني ماء، يقلع جميع أفراد القبيلة عن استخدام اسمه بعد موته ويلجؤون إلى استخدام كلمة أخرى

للتعبير عن الماء وقتاً طويلاً بعد موته. ويرى الكاتب أن هذا هو السبب وراء وجود عدد من المرادفات في اللغة المحكية بدلاً من استخدام أفراد القبيلة لكلمات عامة أثناء مدة الحداد. فمثلاً إذا مات شخص اسمه **وا** و تعني **غراب**، لا يذكر أحدٌ كلمة **وا** طوال مدة الحداد بل يسمونه **نارابارت**. وإذا فارق شخص يدعى **أبوسوم** الحياة على جميع أقاربه الحزينين على موته أن يشيروا إلى أبوسوم باسم مانونغكورت. وإذا كان المجتمع في حزن شديد على فقدان امرأة محترمة تحمل الاسم المشرف **حباري**، يتوقفون عن استخدام **باريم** و يستخدمون **تيليت_تيليتش**.

وهناك عادة مشابهة تجعل اللغة تتغير باستمرار عند قوم أبيبون في الأرغواي وهي عدم استعادة الكلمة المُلغاة ثانية. ويقول التبشيري دوبرزاوفر أن الكلمات الجديدة تنبت في الليل مثل الفِطر لأن جميع الكلمات التي تشبه أسماء الموتى يصدر تصريح بإلغائها وتُصكُّ كلمات جديدة لتحل محلها. وتقوم المسنَّات في القبيلة بهذه المهمة وكل ما يصدر عنهن من كلمات تُعمَّم بموافقتهن ويتداولها الكبير والصغير على الفور فتنتشر مثل النار في الهشيم في جميع مضارب القبيلة. ويقول دوبرزاوفر نفسه أن خضوع الأمة كلها لقرارات العرَّافات المسنات مثير للدهشة لأن الكلمات القديمة تندثر تماماً باستثناء حالات اللغو والنسيان. المثال على ذلك هو تغير اسم الجاغوار ثلاث مرات في أثناء مدة سبع السنوات التي أقامها دوبرزاوفر عند أولئك الهنود ، ومرة أو مرتين تغيير الكلمات: تمساح وشوك وذبح الماشية. ونتيجة لتلك العادة كثر إلغاء الكلمات عند أعضاء البعثة التبشيرية واستبدالها بجديد. ولدى الكثير من قبائل غينيا البريطانية الجديدة يحمل الأبناء أسماء أشياء عامة. فهم يعتقدون أن ذكر اسم الميت يعيده إليهم وهذا ما يكرهونه لذلك يبتكرون كلمة جديدة كلما كانت العبارة تدل على شيْ عام. فيكثر فقدان كلمات كثيرة واستعادة أخرى بمعانٍ جديدة. وفي جزيرة نيكوبار يتبع الأهالي عادة تؤثر في كلامهم. ويقول في هذا دي رويبستروف:" تنتشر بينهم عادة فريدة تجعل كتابة التاريخ أو نقل الحكايات التاريخية صعباً. وهناك قاعدة صارمة لها جميع حرمات الخرافة المنتشرة عند قوم نيكوبار وهي ألا يذكروا مطلقاً اسم الشخص بعد موته بل ويذهبون أبعد من ذلك؛ فإذا كان اسم الشخص الميت **طير** أو **قبعة** أو **نار** أو **طريق** يتحاشون ذكر هذه الاسماء ليس للدلالة على الميت فحسب بل أيضاً عندما تشير إلى

مدلولاتها. وهنا تموت الكلمات تماماً من اللغة ويلجؤون لصك كلمات جديدة أو استخدام بدائل من كلمات غير مستخدمة في اللهجة النيكابورية أو استعارة كلمات من لغة أجنبية. إن هذا التقليد لا يضيف عنصر عدم الثبات على اللغة فحسب بل يدمر استمرارية الحياة السياسية ويجعل سجل الأحداث الماضية مخلخلاً وغامضاً وربما يجعله مستحيل الوجود.

لقد أشار كتّاب آخرون إلى حقيقة أن الخرافة التي تكبح استخدام أسماء الموتى إنما تقطع عملية نقل التاريخ من جذورها. وفي هذا يقول الكاتب أ. س. غاتشيت:" لايملك قوم كلاماث تاريخاً يعود إلى أكثر من قرن واحد بسبب وجود قانون صارم يمنع ذكر الشخص الميت أو التحدث عن أفعاله مع نسبها إليه بالاسم. ويلتزم أهالي كاليفورنيا مثل أهالي أوريغون بهذا القانون إلى درجة فرض عقوبة الموت على كل من ينتهكه. ويكفي هذا القانون لجعل جميع المعارف التاريخية مكتومة. فكيف لنا أن ندوِّن التاريخ بلا أسماء؟" وعند بعض قبائل فكتوريا اقتصر تحريم ذكر أسماء الموتى على فترة الحداد ، أما عند قبيلة بورت لنكولن في أستراليا الجنوبية فقد استمر التحريم عدة سنوات. وعند هنود تشينوك في أمريكا الشمالية لا يذكرون اسم الميت إلا بعد مرور عدة سنوات على التيتم أو التثكل. أما عند هنود بيالوب فيبقى احترام هذا المحرم عدة سنوات حتى ينقضي الحزن. وإذا كان الميت محارباً مشهوراً تتم تسمية أحد أحفاده على اسمه. في هذه القبيلة لا يحترم هذا المحرَّم إلا من قبل أقارب الميت. كما لا حظ المبشِّرالروماني لافيتاو أن اسم الراحل وأسماء الأحياء المشابهة لاسمه تُدفَن مع جثته وتظل هكذا حتى تخمد حدة الحزن، وبعدها يسرُّ الأقارب أن يربوا شجرة ويحيوا ذكر ميتهم. بهذا يقصدون استرداد اسم الميت بإطلاقه على شخص آخر يصبح تجسيداً للميت لأنه حسب مبادئ الفلسفة البدائية: الاسم هو جزء حيوي من الشخص وربما كان روحه. وقد مالت الكثير من هذه القبائل إلى التخلص من خرافة محو ذاكرة الماضي بدافع الرغبة الطبيعية للعقل البشري. وبقدرته على محو أعمق الآثار، استطاع الزمن أن يلقي بعتمته أو ربما أن يطمس الانطباع الباقي في عقل البدائيين وهو الخوف الرهيب من لغز الموت. وآجلاً أم عاجلاً بعد أن ضعف حب البدائي لأولئك الذين أحبهم قبل

موتهم زادت رغبته في الكلام عنهم؛ وهنا تم إنقاذ أسمائهم الجلفة على يد الباحثين الفلاسفة قبل أن تختفي وتندثر مثل أوراق الخريف أو ثلوج الشتاء.

وعند قوم لاب عند اقتراب وضع المرأة الحامل يأتيها أحد الأقارب الموتى في الحلم ويعلمها أنه سيلد من جديد في ابنها وعليها أن تسميه على اسمه. وإذا لم يأت الأم حلمٌ كهذا يقع على عاتق الأب أو الأقارب تسمية المولود بالكهانة أو باستشارة ساحر. وعند قوم خوند يتم الاحتفال بالولادة بعد اليوم السابع خلال وجبة تُقدَّم للكاهن وجميع أهالي القرية. ولتحديد اسم المولود يلقي الكاهن بحبات من الأرز في كوب ماء وينطق اسم أحد الموتى مع كل حبة. وخلال حركة الحبة في الماء وملاحظة الانطباع على شخص المولود يقرر إسماً من أسماء أجداده الذي ظهر عليه. لهذا غالباً ما يأخذ الطفل اسم أحد أجداده على الأقل عند القبائل الشمالية. أما لدى قوم يوروبا وبعد ولادة الطفل ماماً يظهر الكاهن إفا، إله الكهانة، ليؤكد أي من أرواح الأسلاف يلد في هذا الطفل. وحالما يتم تقرير الاسم يُبلَغ الوالدان أن حياته يجب أن تتطابق مع حياة ذلك السلف الذي يظهر في المولود أو المولودة. وفي حال جهل الوالدين طبيعة حياة ذلك السلف يقوم الكاهن بإعطائهم المعلومات اللازمة.

4ـ تحريم أسماء الملوك والمقدسين

عندما نرى أن أسماء العامة في المجتمع البدائي أحياءً كانوا أم أمواتاً تلقى عناية قلقة، فإنها لاتعود تدهشنا الحيطة الكبيرة التي يتخذونها عنايةً بأسماء الكهنة والملوك المقدسين. لهذا السبب نرى أن اسم ملك داهومي يبقى سراً كيلا يستفيد ذوو النفوس الشريرة منه لإيقاع الأذى فيه. وليست الأسماء التي يُعرَف بها ملوك داهومي في أوروبا أسماءً حقيقية بل هي ألقاب يسميها السكان الأصليون أسماءً قوية. لأنهم لايرون ضرراً في الألقاب التي تفقد الاتصال الحيوي بأصحابها، ذلك الإتصال المقتصر على الأسماء التي أطلقت عند الولادة. وفي مملكة غالا في جيرا لايمكن لأي من الرعايا أن يلفظ اسم الملك الوِلادي الأول تحت طائلة عقوبة الموت. بل ويتم تغيير الأسماء التي تشبهها بأسماء أخرى. ولدى باهيما في إفريقيا الوسطى، عندما يموت الملك يتم إلغاء اسمه من لغتهم وإذا كان اسم حيوان يسمون

ذلك الحيوان أسماء جديدة على الفور. فمثلاً، كثيراً ما يُطلق على الملك اسم **أسد**، عندها يعطى الأسد اسماً جديداً. ولدى قوم سيام من الصعب معرفة اسم الملك الحقيقي لأنه يبقى سراً خوفاً من السحر، وكل من يذكره على لسانه يُزج في السحن. ويشار إلى الملك بألقاب فخمة مثل آب أو **الكامل** أو **الفائق** أو **الأمبراطور العظيم** أو **حفيد الملائكة** و ما إلى هنالك. وفي بورما يعتبرون ذكر اسم الملك الحالي عقوقاً مبيناً. ولايمكنك أن تجعل أحد البورميين يتلفظ باسم ملكه حتى عندما يكون بعيداً عن بلاده، فالملك لا ينادى بعد اعتلائه العرش إلا بألقابه الملكية.

لا يذكر أي فرد من قوم الزولو اسم قائد القبيلة أو أسماء أجداده بحدود ذاكرته كما لا يمكنه التلفظ بكلمات تشبه تلك الكلمات المحرمة. ولا ينطق بكلمات عامة تشبه الأسماء المحرمة من حيث الصوت. ولدى قبيلة دواندوي كان هناك رئيس يدعى **لانفا** و تعني **الشمس** فقاموا بتغيير كلمة لانفا إلى **غالا**. وظلت التسمية الجديدة قائمة حتى يومنا هذا رغم أن لانفا مات منذ أكثر من مائة سنة. وكذلك عند قبيلة إكسومايو تغيرت الكلمة التي تعني **يرعى الماشية** وهي **ألوسا** أو **أيوسا** إلى **كاغسيا** لأن **أومايوس** كان اسم القائد. بالإضافة لهذه المحرمات التي تُتَّقى عند هذه القبائل كل على حدة، كانت جميع قبائل الزولو تجتمع على تحريم اسم الملك الذي كان يحكم بلاد الزولو أجمعين. فمثلاً لأن ملك الزولو يسمى **باندا** تغيرت كلمة **جذر الشجر** و هي **إمباندو** إلى **نكسابو** و كذلك **كذب** أو **افتراء** إلى **أماسيبو** لأنها تحتوي مقطعاً من اسم الملك الشهير **سيتاشوايو**. وقام الرجال والنساء باستخدام هذه البدائل بغية حذف الأصوات التي تشبه ولو من بعيد الاسم المحرم. وهكذا يصبح من الصعب فهم كلام النساء الملكيات في قرى جنوب أفريقيا اللواتي يتعاملن بهذه الطريقة لا مع أسماء الملك فحسب بل أسماء أجداده وإخوانهم لأجيال عديدة غابرة. وعندما نضيف المحرمات العائلية إلى تلك المحرمات القومية والقبلية بالإضافة إلى الأسماء المحرمة عبر الزواج يتبين لنا بوضوح سبب امتلاك كل قبيلة من بلاد الزولو كلمات خاصة بها وكيف أن للنساء مخزوناً كبيراً من المفردات. ويمكن أيضاً تحريم بعض المفردات على بعض الأفراد دون غيرهم من العائلة نفسها. فمثلاً نساء الكرال يمكن أن تسمي الضبع باسمه المعتاد ونساء أخريات يسمينه ببديله المعتاد كما لا يجوز لأخريات أن تستخدمن ذلك البديل

فتؤمِّن لنفسها لفظة أخرى. لهذا نرى أن لغة الزولو اليوم مزدوجة والكثير من الأشياء لها ثلاث أو أربع مرادفات معروفة لدى جميع الزولو بسب اندماج هذه القبائل ببعضها بعضاً.

وفي مدغشقر هناك عادة مماثلة تنتشر في كل مكان أدت كما لدى الزولو إلى فوارق في لهجات القبائل وكلماتها المستخدمة. لايستخدمون في مدغشقر اسم العائلة بل يأخذون معظم الأسماء من اللغة اليومية التي تعني أشياء عامة أو نشاطات منتشرة أو صفات طيور أو وحوش أو أشجار أو نباتات أو ألوان وغيرها. فإذا كان أحد الأسماء يشكل اسماً أو جزءاً من اسم قائد القبيلة يصبح هذا الاسم محرماً لا يُستخدم بمعناه العادي ليدل على شجرة، حشرة وغيرها. وهنا لابد من اختراع اسم جديد ليحل مكان الاسم المُنَسَّق. وهنا يسهل علينا إدراك الارتباك والريبة المتمخضة عن لغة تستخدمها قبائل صغيرة تُحكَم من قبل قائد يحمل اسمه المقدس الخاص. ومازال هناك حتى يومنا هذا قبائل تذعن لهذا الاستبداد في استخدام الكلمات فتخضع لآباء رحلوا منذ زمن لا يذكره أحد. وتظهر نتائج هذه العادة السيئة على الساحل الغربي للجزيرة حيث. وحسب تقارير الكثير من شيوخ القبائل كل على حدة – مرت أسماء الأشياء والأمكنة والأنهار من الكثيرين بتغيرات كثيرة أدت إلى التشويش والخلط لأنه عندما تُحرَّم الكلمات العامة من قبل قادة القبائل لا يمكن للعامة أن يستخدموها بمعناها القديم على الإطلاق.

في مدغشقر، لم تُحرَّم الكلمات الدالة على الملوك والقادة الأحياء فحسب بل تعدى الأمر إلى أصحاب الجلالة الأموات على الأقل في بعض أنحاء الجزيرة. ففي قبيلة ساكالافاس، عندما يموت الملك يجتمع الناس والنبلاء في مجلس حول الجثة ويختارون كلمة جديدة للتعريف على الملك الميت فيما بعد. وبعد اعتماد الاسم الجديد يصبح الاسم القديم محرماً تحت طائلة عقوبة الموت. ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيحرمون الكلمات المشابهة ويستبدلونها بأخرى. ولا يُنظر للأشخاص الذين يتلفظون بهذه الكلمات على أنهم أفظاظ بل مجرمون مرتكبون للكبائر. وتقتصر تغيرات هذه المفردات على المنطقة التي كان يحكمها الملك بينما تبقى الكلمات نفسها مستخدمة في المناطق المجاورة وبمعناها القديم.

ويتعدى تحريم القادة في بولينيسيا إلى أسمائهم لأنه بمفهوم البدائي من الصعب التفريق بين الاسماء و مالكيها. ولهذا نرى في بولينيسيا تحريماً نظامياً لكل الكلمات العامة المشابهة كالتي رأيناها عند الزولو ومدغشقر. وكذلك يبقى اسم القائد مقدساً في نيوزيلاندا عندما يكون كلمة عامة ولا يستخدم في لغتهم بل يستعاض عنه بأخرى. ومثال على ذلك هو اسم قائد جنوب الرأس الشرقي ماريبي الذي يعني سكين مما حداهم إلى استخدام كلمة نيكرا للدلالة على السكين وغدت الكلمة القديمة محرمة. وفي مكان آخر كان لابد من تغيير كلمة ماء لأنها صادفت على اسم القائد فكان مدنّساً أن يستخدمها الرعاع بالإضافة إلى شخصه المقدس. من الطبيعي أن يولّد هذا المحرم الكثير من المرادفات في لغة الماوري مما أدى إلى ارتباك المسافرين الجدد إلى تلك البلد حيث حاروا بين أسماء عديدة للشئ نفسه وأسماء أخرى عند القبائل المجاورة. وعندما يعتلي الملك العرش في تاهيتي يتم تبديل كل الكلمات التي تشبه اسمه وعندما يستخف أحدهم بهذه العادة ويتجرأ على ذكر الكلمات المحرمة، يُحكم عليه وعلى جميع أقاربه بالإعدام على الفور. ويستمر هذا التغيير حتى موت الملك، وبعدها يعودون إلى استخدام الكلمات القديمة. وفي بلاد الإغريق القديمة لايجوز التلفظ بأسماء الكهنة والشخصيات التي لها علاقة بالطقوس الدينية السرية ويعتبر هذا التلفظ اعتداءً شرعاً. وتُظهِر القلادات في لوسيان كيف تَقود شخصياتٌ مهيبة إنساناً بذيئاً إلى قاعة المحكمة لأنه تجرأ على قدسية أسمائهم واستخف باستخدام ألقابهم الجديدة التي اكتسبوها عند تقليدهم مناصبهم. وتبين منقوشتان عُثر عليهما في إلوسيس كيف تُنقش الأسماء على البرونز والرصاص وتُلقى في أعماق خليج سالاميس. ولاشك في أن المقصود من هذا هو الحفاظ على سرية الأسماء، وأي مكان أفضل من أعماق البحار لحفظ الأسرار؟ وكيف يراها الناس وهي تتألق بشكل خافت في أعماق المياه الخضراء الداكنة؟ وتجسد هذه الممارسة لدى هؤلاء الإغريق المتحضرين إدراكهم الاسم وتجسيده المادي أي المحسوس والمجرد.

5ـ تحريم أسماء الآلهة

ابتكر الإنسان البدائي آلهته وفقاً لتصوره الخاص. تصور قوم اكسينوفانيس أن بشرة الآلهة سوداء وأنوفهم فطساء عريضة. أما آلهة ثراس فكانت متوردة وعيونها زرقاء. ولو كانت الخيل والأسود والثيران تؤمن بالله لرسمت آلهتها على شكلها. وبما أن البدائي يخفي اسمه الحقيقي عن السحرة مخافة شر يقع به كذلك يتوقع من آلهته أن تحفظ اسمها الحقيقي سراً كيلا يتعرف عليها البشر فيحيكون لها المكائد. ولم تزدهر هذه الأفكار السحرية الشريرة في مكان أكثر من ازدهارها في مصر القديمة حيث تحنطت هذه الخرافات في قلوب الناس منذ زمن بعيد وفعلت فعلها أكثر من القطط والتماسيح المنقوشة على قبورهم. والدليل على ذلك قصة تروي كيف اختلست إيزيس (إلهة الأمومة والخصب) الحذقة الإسم السري لرع إله الشمس العظيم عند المصريين. تُصوِّر القصة كيف سئمت إيزيس من عالم الرجال وتاقت لعالم الآلهة فقالت في سريرتها: " ألا أستطيع أن أفيد من فضيلة اسم رع العظيم وأحكم السماء والأرض كما يفعل؟" يملك رع عدة أسماء لكن لا أحد سواه يعرف الاسم الذي جعله يسيطر على جميع الآلهة. في هذه الآونة كان رع قد شاخ وسال لعابه على الأرض. أخذت إيزيس اللعاب مع التربة الممتزجة فيه واستخدمته في دَلْكِ إحدى الأفاعى ثم وضعتها في الطريق اليومي للإله العظيم وهو ذاهب إلى مملكته المزدوجة. وعندما أتى كعادته يمشي على هواه محفوفاً بالآلهة، لسعته الأفعى ففتح الإله فمه وصرخ فارتفعت صرخته إلى السماء. فصرخت الآلهة "ماذا أصابك؟ على رسلك!" لكنه لم يجب. ارتجف فكه وخارت أرجله وجرى السم في عروقه كما يجري النيل فوق الأرض. وعندما هدأ روعه صرخ في أتباعه قائلاً: " إليَّ يا أبنائي، يا ذريتي من جسمي، أنا أمير ابن أمير بذرة من إله. صنعني أبي وأعطتني أمي اسماً، وظل هذا الاسم سراً في جسمي منذ الولادة فلم يستطع ساحر تسخيره علي. وكبرت لِما أنا فيه ومشيت في الأرضَين اللتين خلقتهما وها أنا الآن ملسوع. لا أدري ما الذي لسعني، هل كانت النار أم الماء؟ قلبي يحترق وجسمي يرتعش وأطرافي ترتجف. أحضروا إلي أبناء الآلهة بكلماتها الشافية وشفاهها المتفهمة التي تبلغ قوَّتها السماء." وعندما أتى أبناء الآلهة حزينين وحضرت إيزيس بحرفيتها وفمها الممتلئ بالحياة وسحرها الذي يلفظ الألم بعيداً وتحيي كلماتها

الموتى. قالت:" مالأمر ياأبانا الإله؟" فتح الإله المقدس فمه وقال:" لقد مشيت مشواري وسرت على هواي في الأرضين اللتين خلقتهما، وهاهي الأفعى تلسعني دون أن أراها. اهي من الماء؟ إني أبرد من الماء، وأحر من النار. كل أطرافي ترتجف ولا أستطيع أن أركّز نظري. العَرَق يغطي وجهي وكأني في صيف حار." فقالت إيزيس:" قل لي ما اسمك يا أبانا الإله، فالإنسان يحيا إذا ما نودي باسمه" فأجابها رع:"لقد خلقتُ السموات والأرض، وسيطرت على الجبال وصنعت البحر الواسع العظيم، ومددت الأفقين كالستارة. أنا الذي فتح عينيه فكان النور وأغمضهما فكان الظلام، أنا من بأمرته يفيض النيل لكن الآلهة جاهلة لاسمي. أنا من يُدعى خبيرة في الصباح ورع عند الهجير، وتوم في المساء." لكن السم لم يذهب عنه بل تعمق أكثر وأكثر حتى أصبح عاجزاً عن المشي. ثم قالت له إيزيس:" ليس هذا ما قلته لي هو اسمك. قل ما اسمك فيذهب عنك السم؛ إنه لا يبرح إلا صاحب الاسم المذكور. فقال الإله:" لقد ادركت أن إيزيس تطاردني وأن اسمي سيخرج من صدري إلى صدرها." وبعدها اختبأ الإله عن بقية الآلهة فصار مكانه شاغراً في قارب الأبدية. هكذا أنتُزِع اسم الإله العظيم وقالت الساحرة إيزيس:" ابتعد يا سم عن رع. إنه أنا التي وضعت السم على التراب حتى أتمكن من أخذ اسم الإله العظيم. فليعش رع وليمت السم." هكذا قالت إيزيس ملكة الآلهة فهي من عرف رع واسمه الحقيقي.

تبين هذه القصة أن قدرة الإله العظيم كانت مرتبطة باسمه ارتباطاً شبه فيزيائي وبعملية جراحية انتزعته إيزيس من مكان ما في صدره ونقلته مع قواه الخارقة إلى صدرها. بالنسبة للمصريين لم تكن محاولة الحصول على قدرة إله كبير من خلال اسمه قصة خرافية تُحكى عن كائنات أسطورية من الماضي السحيق؛ بل كان كل ساحر يطمح إلى الحصول على وسيلة مماثلة، لأنهم يؤمنون أن من يملك الاسم الحقيقي يملك كينونة الإنسان أو الإله وبالتالي يجبر الإله على طاعته طاعةَ العبد لسيده. لذلك كان جوهر فن السحر هو الكشف عن أسماء الآلهة المقدسة ولم يوفر السحرة جهداً للوصول إلى غايتهم هذه. وعندما يمر الإله في لحظة ضعف أو نسيان فإنما يفسح المجال أمام معارف الساحر العجيبة فيُجبَر على الاستسلام للإنسان بتواضع أو أن يدفع صاغراً ثمن ذلك الضعف.

وبالطريقـة نفـسها الـسابقة آمـن الرومـان بالفـضيلة الـسحرية للأسمـاء الإلهيـة. فعندما كانوا يجلسون أمام مدينة ما كان الكاهن يخاطب الإله الحارس للمكان بمجموعة من الصلوات والتعاويذ داعياً إياه أن يزيل الحجاب عن تلك المدينة وينحاز إلى طرف الرومان الذين سيعاملونه بأحسن ما عومل في موطنه القديم. لهذا كان اسم الإله الحارس لروما سراً مكتوماً خشية تمكُّن الأعداء من أستدراجه إلى جانبهم، كما فعل الرومان أنفسهم عندما أقنعوا الكثير من الآلهة بأن يهجروا المدن المتداعية والتي آوَتهم في أيامها السعيدة. وقد اكتنف اسم المدينة أيضاً بالسرية حتى أنهم أحجموا عن ذكره في طقوسهم الدينية. ويروى أن فاليروس سورانوس تجرأ على إفشاء ذلك الاسم الذي لا يقدر بثمن، فكان عقابه الموت في آخر المطاف. وبالطريقة نفسها يبدو أنه كان محظوراً على الآشوريين أن يذكروا الأسماء السرية لمدنهم، وحتى يومنا هذا ظل تشسريميس وكوكاسوس يحفظون أسماء قراهم سرية لأسباب خرافية. وإذا كان القارئ صبوراً في متابعة البحث في الخرافات المتعلقة بالأسماء الشخصية فسوف يدرك أن ظاهرة حجب أسماء الملوك لم تكن تعبيراً عن التذلل والخضوع والتزلف بل كانت تطبيقاً خاصاً بقانون عام من إنتاج الفكر البدائي والذي شمل عامة الناس والآلهة بالإضافة إلى الملوك والكهنة.

الفصل الثالث والعشرون
ما ندين به للبدائيين

ربما كان من اليسير أن نسترسل أكثر في المحرمات المفروضة على الملوك والكهنة، لكن الأمثلة التي سقناها في الصفحات السابقة كانت عينات كافية وافية. وختاماً لموضوعنا بقي علينا أن نلخص النتائج العامة التي توصلنا إليها خلال التساؤلات التي طرحناها وهي أنه في المجتمع البربري أو البدائي أناس عَزَت إليهم الخرافةُ قدرةً قويةً تؤثر في مسار الطبيعة العام فعاملوهم وبجّلوهم كآلهة. سواء كان هؤلاء الآلهة البشر قد سيطروا على حياة المؤمنين بهم وعلى ثرواتهم كملوك، أم اقتصر دورهم كآلهة في مجال الروحانيات والخوارق، أمرٌ لا يهمنا الآن كثيراً؛ فألوهيتهم المفترضة هي الحقيقة الجوهرية التي علينا أن نتعامل معها. وبفضل هذه الألوهية أصبحوا ضمانةً لعابديهم في تأمين استمرار الظواهر الطبيعية الفيزيائية التي يعتمد عليها البشر في وجودهم. من الطبيعي هنا أن تصبح حياة ذلك الإنسان الإله أو عافيته أو موته هاجس الناس الذين ارتبط وجودهم بوجوده ورفاهيتهم برفاهيته. ومن الطبيعي أيضاً أن تُفْرَض عليه القيود وهي قواعد استنبطها الإنسان البدائي كي تَحُوْل دون شتى أنواع ضعف الطبيعة البشرية الموروث بما فيها الضعف الأكبر وهو الموت. وبعد النظر عميقاً في هذه القيود أو القواعد نجد أنها ليست سوى مبادئ سلوكية على كل إنسان يتمتع بدرجة من الحصافة أن يتّبعها ليعيش مدة أطول على وجه الأرض. وكان التزام عامة الناس بها خياراً فردياً، في حين فُرِضَت على الإنسان الإله فرضاً تحت طائلة العزل أو القتل، ولأن حياة عابديه تعتمد على حياته اعتماداً كبيراً، فليس له أن يلهو أو يعبث بها. ومن هنا نرى أن جميع الخرافات الطريفة وأعراف العالم القديم والأقوال المأثورة الموقرة التي حبكها الفلاسفة البدائيون ببراعتهم منذ زمن بعيد والتي مازال الكهلات ينقلنها وكأنها

كنز نفيس إلى أحفادهن الذين يلتفُون حول موقد البيت الريفي في سهرات الشتاء، كل هذه الخيالات الأثرية تجمعت كالعنقود، وكلُّ شِباك العنكبوت في العقل البشري انغزلت حول ممر الملك القديم، الإله البشري، الذي وقع بها وكأنه ذبابة التفَّ حولها شَرَكُ العنكبوت حتى فقدت القدرة على تحرير أيٍ من أطرافها لأنها موثَقَة بأعراف واهية كالهواء وقوية كحلقات حديدية تتضافر وتتشابك لتشكل متاهة لانهاية لها تُحكِم تكبيله في شبكة من الشعائر لايمكن الخلاص منها إلا بالعزل أو الموت.

يلاحظ دارسو الماضي أن حياة الملوك القدامى تعج بالتعاليم والوصايا لأنها تلخِّص كل ما تُوصِّل إليه من حِكمٍ عندما كان العالم في طفولته. كانت تلك التعاليم نسقاً متكاملاً كافح كل إنسان كي يصوغ حياته خلالها، وليجعلها نموذجاً لا خطل فيه مبنياً على دقة كبيرة وفق خطوط وضعتها الفلسفة البربرية التي تبدو لنا جلفة وزائفة. لكن من الإجحاف أن ننكر عليها خاصية الترابط المنطقي. وانطلاقاً من مفهوم العامل الحيوي أو الروح، ذلك الكائن الصغير الموجود بداخلنا، والمتميز عن الكائن الحي ومفصول عنه، يتتبع البدائي خطاً عملياً للحياة يشكل منه مجموعة قواعد تشكل وحدة مترابطة وكُلاً متكاملاً منسجماً. لا يكمن عيب هذا النظام في التسلسل المنطقي أو لاعلاقية النتائج لكن العيب هو في مقدماته المفترضة وفي مفهومه عن طبيعة الحياة. وإذا وصمنا هذه المقدمات بالتفاهة لأننا نكشف زيفها بسهولة لكان موقفنا جاحداً وغير فلسفي. إننا نقف على أساس وضعته الأجيال الغابرة وقليلاً ما نلحظ جهودهم المضنية الطويلة التي كلفتهم الكثير الكثير حتى أوصلونا إلى ما نحن عليه الآن. علينا أن نعترف بجميل أولئك المكافحين المجهولين المنسيين الذين جعلونا كما نحن الآن، بفضل فكرهم الصبور ودأبهم النشيط، سيما وأن كمية المعرفة الجديدة التي يضيفها إنسان واحد في عصر واحد هي غاية في الصغر، ومن الحماقة والجحود بل والتضليل بمكان أن نتجاهل الكومة الكبيرة بينما نتبجح ببضع حبات استطعنا أن نضيفها لتلك الكومة. ليس التبخيس بإسهامات العصر الحالي وحتى إسهامات التاريخ القديم ممكناً وليس حقُّهم في الإسهام في مسيرة التقدم العام للبشرية عُرضَة لخطر الضياع. لكن عندما نتعدى هذا الحد نحو الماضي يصبح الأمر مختلفاً تماماً. لذلك

ترانا نتعطف على الطرق البدائية بنظرة مقت وازدراء بدلاً من القيام بواجبنا وهو ذكر الإحسان الذي امتن علينا به البدائيون. ومع كل ماحصل وما قيل عنهم مازال تشابهنا معهم أكثر من اختلافنا عنهم، ومازلنا نشترك معهم في أشياء نحتفظ بها عنهم ونعتبرها صحيحة ومفيدة. إذن علينا هنا أن نمتن لأجدادنا البدائيين الذين دأبوا في تحقيق خبرة ورثناها عنهم وهي مجموعة الأفكار التي نعتبرها جوهرية وبدهية. لقد ورثنا عبر عصور بعيدة ثروةً نسينا جانيها واعتبرنا أنفسنا مالكين أصليين لها منذ بدء الحياة على وجه الأرض. وعندما نتأمل ونحقق في الأمر نجد أنفسنا مدينين لأجدادنا بأشياء كثيرة نعتبرها ملكنا نحن، كما نجد أن أخطاءهم لم تكن تهوراً مقصوداً أو نوبات جنونية بل كانت ببساطة فرضيات مبررة قياساً للزمن الذي اقتُرِحت فيه، ثم تبين بعد ذلك وعبر التجربة أنها فرضيات غير صحيحة. وكيف لنا أن نستنبط الحقيقة إلاّ عبر الاختبار المتعاقب للفرضيات. أوليس ما نسميه حقيقة هي فرضية أثبتت أفضليتها بشكل عملي؟ علينا إذن عند إعطاء الرأي بممارسات العصور البربرية والأعراق البدائية أن نتناول أخطاءهم برفقٍ ونعتبرها زلاّت لا بد منها في طريق البحث عن الحقيقة. وعلينا أخيراً أن نمنحهم امتياز الغفران الذي قد نحتاجه لأنفسنا يوماً ما.

الفصل الرابع والعشرون
قتل الملك الإله

1ـ فـنائية الآلهة

لقد خلق الإنسانُ اللهَ على شكلٍ يشبهه، وكونه فانياً كان من الطبيعي أن يظن أن الله أيضاً يعاني من مشكلة الفَناء. لهذا يرى أهالي غرينلندة أنه بإمكان الريح أن تقتل كبير الآلهة وأنه سيموت حتماً إذا ما لمس كلباً. وعندما سمعوا بالإله المسيحي، استفسروا مراراً وتكراراً إن كان لا يموت، واندهشوا كثيراً عندما علموا بأنه لايموت وقالوا :"لابد أنه إله عظيم". وجواباً على أسئلة الكولونيل دودج أجاب أحد هنود أمريكا الشمالية أن العالم من خلق الروح العظيمة. وعندما سألوه: أي روح يقصد، الطيبة أم الخبيثة، أجاب:"لا هذه ولا تلك. فالروح العظيمة التي خلقت العالم قد ماتت منذ زمن بعيد ولايمكنها العيش طوال هذا الردح من الزمن." وكانت أجوبة قبيلة في جزر الفلبين للمحتلين الإسبان أن ضريح الخالق كان على قمة كابونيان. أما الإله هيتسي إبيب وهو بطل إلهي عند قوم هوتنتوت فقد مات وعاد إلى الحياة عدة مرات. ويمكنك إيجاد ضريحه في الشِّعاب الضيقة بين الجبال. وعندما يمر أحدهم على أحد هذه الأضرحة يرمي حجراً ليظفر بالحظ الجيد ويتمتمون أحياناً " أعطنا الماشية الوفيرة " أما ضريح الإله زيوس في اليونان فظل يؤمه الزوار في كريت حتى بداية حقبتنا هذه. أما جثة دايونيسوي فقد دُفنت في دلفي بجوار تمثال أبولو ونُقِش على قبره، " هنا يرقد دايونيسوس الميت، ابن سميلي." وبحسب أحد التقارير كان أبولو نفسه قد دُفن في دلفي وقيل إنه نـُقِش على قبر بايثاغوراس قصة يُروى فيها كيف قُتِل الإله على يد أصلة ضخمة ودُفن تحت ذلك المنصب الثلاثي.

ولم تنج آلهة المصريين من هذا القدر الذي شمل الجميع، فهم أيضاً شاخوا وماتوا. لكن عندما اكتشفوا فيما بعد فن التحنيط أعطوا الأرواح الميتة فرصة أخرى للعيش من خلال الحفاظ على أجسادهم من التفسخ مدة مفتوحة، وبهذا الاختراع أخذت الآلهة كما أخذ البشر فرصة إضافية لأملٍ إضافي في الخلود. وصارت كل منطقة تخصص قبراً ومومياءً لإلهها الميت. وهكذا كانت مومياء أوسيريس عند ألمندي؛ كما فخر تيني بمومياء أنهوري؛ وتغنى هيليبولي بمومياء تومو. أما كبار الآلهة عند البابليين فكانوا يظهرون لعبدتهم في الأحلام والرؤى على شكل أجساد بشرية بكل ما فيها من عواطف وفَنائية؛ فهم يولدون إلى هذا العالم مثل سائر البشر.

2ـ قتل الملوك عند الضعف

إذا كانت الآلهة العليا لا تعاني من الشيخوخة والمرض المرافقين للحياة الدنيا على الأرض لكنها تموت في النهاية، فالحري بالإله الذي يسكن ذلك الجسد الضعيف ألا يواجه القدر نفسه، مع ذلك سمعنا عن آلهة إفريقية تخيلت نفسها خالدة بفضل السحر. ورأينا أن البدائيين يرون سلامتهم وسلامة العالم من حولهم مرهونة بحياة هؤلاء الآلهة البشر أو المجسدة في البشر. ويصبح من الطبيعي أن تتلقى حياتهم الرعاية القصوى التي مهما بَلَغَتْ من الحرص لن تحميهم من الشيخوخة والوهن ومن ثم الموت، وعلى عابديه أن يضعوا بحسبانهم هذه النهاية المحتومة. الخطر هائل لأن مسيرة الطبيعة تعتمد على حياة الإله البشري وكم من كارثة تنجم عن ضعفه التدريجي قبل الموت! هناك طريقة واحدة يمكن الاستعانة بها لدرء هذه الأخطار وهي أن يُقتَل الإله حال ظهور أعراض الضعف بغية نقل روحه إلى خَلَفٍ قوي قبل أن تتأذى وتهدد بالانحطاط. من مزايا قتل الإله قبل أن يموت بعد شيخوخة أو مرض مزيّةٌ هي في منتهى الوضوح بالنسبة للبدائي: إذا مات الإله البشري عن طريق مانسميه الميتة الطبيعية، هذا يعني أن روحه إما ستغادر طوعاً ذلك الجسد وترفض العودة إليه ثانيةً أو أنها تُنتَزع منه أو على الأقل يتم إعاقتها عن التنقل من قبل عفريت أو ساحر. في كلتا هاتين الحالتين تضيع روح الإله البشري من عابديها ويضيع معها الخير ويتهدد الوجود ذاته. وإذا نجحوا في التقاط روح الإله الميت وهي

تخرج من منخره أو فمه ومن نقلها إلى خَلَفِهِ فلن تفي بالغرض لأنها ستنتقل وهي على آخر حالة لها من المرض وبالتالي يستمر الضعف والوهن في الجسد الجديد المنقولة إليه. أما عندما يتمكن عابدوه من قتله فإنهم يضمنون من الناحية الأولى التقاط الروح وهي تخرج وينقلونها إلى الخَلَفِ المناسب. ومن الناحية الثانية يضمنون أن العالم لن يذوي مع هبوطه لأنهم يتأكدون من أنه يُقتَل قبل خمود قواه. ويحققون بهذا القتل أغراضهم مجتمعة ويدرؤون جميع الأخطار عندما ينقلون روحه وهي في أوج قوتها إلى خلف قوي.

وفي كمبوديا لا يُسمَح لآلهة النار والماء الباطنيين أن يموتا ميتة طبيعية. إذ يقر الكبار قتله بالطعن عندما يمرض الإله مرضاً رديئاً يرون أنه لن يشفى بعده. ويعتقد شعب الكونغو أنه عندما يوشك الإله على الموت الطبيعي يهلك العالم وتُمحق الأرض التي تستمد قوتها منه. وبالتالي عندما يبدو على الحَبر أنه ميت جراء مرضه يقوم الذي قُدِّرَ له أن يكون خَلَفَه بالدخول إليه ومعه إما حبل يخنقه به أو هراوة يضربه بها حتى يموت. أما ملوك إثيوبيا فكانوا يُعبَدون كآلهة لكن عندما يرتئي الكهنة، يرسلون له رسولاً يأمرونه بالموت بناءً على وحي من الآلهة يأمرهم بالإشراف على تطبيق الحكم. ظل هذا الحكم مُطاعاً لدى الملوك حتى عهد إرغامينيز الذي عاصر بطليموس الثاني ملك مصر. وكونه تلقى الثقافة اليونانية التي حررته من خرافات أبناء بلده، غامر إرغامينيز في رفضه حكم الكهنة ودخل المعبد الذهبي وهو مدجج بسلاحه الحربي وطلب من الكهنة الاحتكام إلى السيف.

سادت عادات مماثلة في هذا الجزء من إفريقيا حتى عصرنا الراهن إذ يُفرَض على الملك لدى بعض قبائل فازوقل أن يقيم العدل يومياً تحت شجرة معينة. وإذا عجز عن القيام بمهمته بسبب مرض يمنعه من عمله ثلاثة أيام متتالية يقومون بشنقه على الشجرة نفسها بحبل مزود بمديتين موضوعتين بشكل تقطعا بلعوم الملك عندما ينزل ثِقَلُه على الحبل.

وسادت عادة قتل الملوك فور ظهور أعراض الضعف والشيخوخة حتى وقت قريب وربما هجعت هذه العادة ولم تنقرض بعد عند قوم شيلوك على النيل الأبيض. وقد أجرى الدكتور سي دجي سيليغمان تحقيقاً دقيقاً حول هذه العادة وتبين له أن الإجلال الذي يحيطون به ملوكهم مرتكز على عقيدتهم في تقمص روح نياكانغ

وهو بطل نصف إله أسس السلالة، ووطّنها في أرضها الحالية. ومن الأركان الأساسية لعقيدة الشيلوك أن الروح الإلهية أو نصف الإلهية متجسدة بالملك الحالي أي أن الآلهة معبأة ببعض السمات الإلهية. وفي حين يجل الشيلوك ملكهم إجلالاً دينياً عالياً يحرصون كل الحرص على ألا يموت موتاً فجائياً ولا يغيب عن ذهنهم منعه من الوصول إلى مرحلة الخرف أو المرض كيلا تمرض الماشية وتعقر وكيلاتفسد المحاصيل في الحقول أويصيب الوباءُ الناسَ و يموتون بأعداد متزايدة. وحرصاً على النجاة من هذه الكوارث ساد عرف لدى الشيلوك وهو قتل الملك فور ظهور إشارات المرض والضعف. من أحد الأعراض المميتة التي تظهر على الملك هو انخفاض قدرته على إشباع رغبة زوجاته الجنسية وهن كثر موزعات على عدد كبير من البيوت في فاشودا. عندما يظهر عليه هذا الضعف المشؤوم تبلغ زوجاته القادة الذين يلمحون للمك إلى اقتراب حتفه بوضعهم قماشاً أبيض على وجهه وركبتيه وهو هاجع في قيلولة عصر يوم قائظ. وسرعان ما يتم تنفيذ الحكم ويُنصَب كوخ خاص لهذا الغرض. يُساق الملك إلى الكوخ ويستلقي واضعاً رأسه في حضن عذراء في سن الزواج ثم يُغلق باب الكوخ ويُتركا بلا قوت أو ماء حتى يموتا جوعاً وخنقاً. لم تبطل هذه العادة إلا منذ خمسة أجيال نتيجة معاناة أحد الملوك الذي قضى بهذه الطريقة. ويقال أن القادة أبلغوا الملك عن عذابه فاستمروا في نصب الكوخ، وغيروا طريقة القتل إلى الشنق.

واعتماداً على تحقيقات الدكتور سيلغمان تبين أن ملك الشيلوك لم يكن معرضاً للموت عند أولى ظواهر الضعف بل يمكن أن يُهاجَم من قبل أي شخص وهو في كامل قوته وصحته وعليه أن يدافع عن ملكه بنزال حتى الموت. كما يحق لأي من أبناء الملك أن ينازل الملك الحاكم ويحل محله في حال الإنتصار عليه. وبما أن للملك زوجات وأولاداً كثيرين يكبر عدد المرشحين للاستيلاء على العرش وتصبح حياة الملك على كفه. ولا يمكن أن ينجح الهجوم على الملك إلا في الليل لأنه مُحاط بالأصدقاء والحرس الخاص نهاراً فيصعب على الطامع بالعرش أن يشق طريقه بين هؤلاء كلهم ليصل إلى الملك. في الليل يُصرَف الحرس ويبقى الملك وحيداً في مخدعه مع زوجاته المفضلات دون رجل قريب منه يدافع عنه. الظلام إذاً هو وقت الخطر ويُقال إن الملك يقضي تلك الفترة وهو متحفز مترقب يطوف خلسة ويجوس كوخه

وهو في كامل السلاح محدقاً في ظلال الظلام أو واقفاً وحده متيقظاً مثل خفير يؤدي نوبته في زاوية مظلمة. وعندما يظهر نده تدور المعركة في صمت متجهم لايكسره سوى ضرب القنا على الدروع. ويحاول الملك أن يتغلب على نده دون طلب المساعدة من الرعاة الذين يسكنون خيام على مقربة منه لأن مساعدتهم انتقاص لشرفه.

وكما حصل لناياكانغ مؤسس قوم الشيلوك يقومون بعبادة ملكهم بعد موته على عرش يُنصَب فوق ضريحه ويُقام ضريحه دائماً في مسقط رأسه. يشبه المقام الضريح مقام ناياكانغ والمؤلف من عدة أكواخ محاطة بسياج. يرتفع أحدُ الأكواخ فوق ضريح الملك بينما يشغل حرس المقام بقية الأكواخ. يصعب تمييز ضريح ناياكانغ عن بقية أضرحة الملوك ولاتختلف الطقوس الخاصة بهم إلا ببعض التفاصيل المميزة لضريح ناياكانغ ببعض القدسية. يقوم على رعاية أضرحة الملوك مسنون ومسنات أقرباء لحراس أضرحة ناياكانغ. وغالباً هم أرامل أو خادمون مسنون للملك الميت وعندما يموتون يخلفهم أبناؤهم وبناتهم في ذلك المنصب. كما توقَف للأضرحة بعض الماشية وتُقدَّم الأضاحي تماماً كما يفعلون عند ضريح ناياكانغ.

يبدو أن المبدأ العام لديانة الشيلوك هو عبادة ملوكهم الإلهيين المقدسين أمواتاً كانوا أم أحياء. ويعتقدون أن جميع هؤلاء الملوك يعيشون على روح إلهية فريدة تُنقَل بشكل شبه أسطوري، لكنه محسوس من الناحية التاريخية، متسلسل من ناياكانغ وحتى يومنا هذا. وعلى اعتبار أن ملوكهم تجسيد للآلهة التي يعتمد عليها ضمناً محصولهم وماشيتهم وخيرهم، يقوم الشيلوك بتقديم كل الاحترام والرعاية لهم. يبدو لنا غريباً أن إجلالهم للملك فور ضعفه وانهيار قوته يتجسد في قتلهم له قلقاً عليه أو على الروح الإلهية التي تسكنه ويمكننا الذهاب أبعد من ذلك لنقول أن ممارسة قتل الملك هو الدليل القاطع على احترامهم لملوكهم. لأنهم يؤمنون أن حياة الملك أو روحه في تعاطف مع ازدهار البلد كله وأن مرضه يعني مرض الماشية وتوقفها عن التكاثر وفساد المحصول في الحقول وموت الناس بوباء قاتل. في رأيهم أن الوسيلة الوحيدة لدرء هذه المصائب هي قتل الملك وهو سليم معافى كي يورث الروح الإلهية التي تسكنه إلى خلفه وهي بحالة نشيطة دون ضعف أو مرض أو

شيخوخة. وهنا تبرز أهمية العَرَض الذي يشكل رخصة مسوغة لقتل الملك وهو عدم قدرته على إشباع رغبة زوجاته العديدات أو بالأحرى عندما يصبح عاجزاً عن إنجاب نوعه يحين عند ذلك قتله ليفسح المجال لخلفه النشيط. ويعتبر ضعفه هذا بالإضافة إلى بقية المبررات إضعافاً لخصوبة الرجال والماشية والمحاصيل لأنها جميعاً تتعاطف في وتوالدها مع قوى الملك التي إن وصلت إلى الانهيار الكامل إنما تعني انهياراً كاملاً لدى الناس والحيوانات والنباتات التي سرعان ما تسبب الفناء الكامل للحياة البشرية والنباتية والحيوانية. واضعين في حسبانهم هذه النظرة، يحرص الشيلوك ألا يدعوا الملك يموت ميتة طبيعية بعد شيخوخة أو مرض. ويتميزون في موقفهم من هذا الموت بأنهم يمتنعون عن تسميته موتاً بل يقولون أنه رحل كما رحل جدّاه باياكانغ و داغ وهما أول ملكين في السلالة اللذين لم يموتا بل اختفيا. وهناك أساطير مشابهة لهذا الاختفاء الغامض في مناطق أخرى مثل روما وأوغندا حيث سادت عادة قتل الملك لأجل الحفاظ على حياته.

في المجمل تشبه نظرية وجود الملوك الآلهة عند الشيلوك نظرية وجود كهنة ملوك الغابة في نيمي. ففي كليهما نرى سلسلة ملوك إلهيين يُعتَقد أن عليهم يعتمد خصب الناس والماشية والنبات. ويموتون إما بنزال فردي أو غير ذلك حفاظاً على نقل الروح الإلهية للخلف وهي في نشاطها الكامل غير مشوبة بالضعف أو المرض أو الشيخوخة لأن عابديهم يعتقدون أن أي نقص في الملك الإله يؤدي إلى نقص في الملك البشري والماشية والمحاصيل. وسوف نناقش بشكل أوسع انتقال هذه الأرواح مع إدراج أمثلة أخرى على الممارسة العامة.

الدنيكا هم قبائل مستقلة في وادي النيل الأبيض. وهم رعويون بشكل رئيس يكرسون أنفسهم لرعاية الكثير من قطعان الثيران مع أنهم يربون الأغنام والماعز بينما تزرع النسوة كميات قليلة من الدخن والسمسم. ويعتمدون في رعيهم وزراعتهم على انتظام المطر. لذلك يحتل صانع المطر مكانة هامة في حياتهم. أما أصحاب السلطة الذين نسميهم شيوخاً أو زعماء فهم في الحقيقة صانعو مطر للقبيلة والمجتمع. ويسكن كل شيخ منهم روح صانع مطر عظيم تُنقَل إليه بالوراثة وبفضل هذه الروح يتمتعون بنفوذ واسع لأن الجميع يستشيرهم في القضايا الهامة. ورغم فضلهم أو نتيجة لفضلهم هذا يُمنعون من الموت عن طريق المرض أو الشيخوخة لأنهم

يؤمنون أن حدثاً مشؤوماً كهذا يسبب المجاعة والمرض للقبيلة وعقم القطعان. لذلك عندما يشعر صانع المطر أنه وصل سن العجز يُبلغ أولاده أنه يرغب الموت. ويقوم دنيكا أغار بحفر قبر له فيستلقي فيه محاطاً بالأصدقاء والأقارب. يتحدث مع الناس من وقت إلى آخر عن ماضي القبيلة وينصحهم بما يجب فعله في المستقبل. وعندما يفرغ من نصحه يأمرهم أن يغطوه فيردُّون عليه التراب وهو في القبر حتى يموت خنقاً. وكذلك تفعل سائر قبائل الدنيكا مع اختلاف طفيف في التفاصيل. وقد بلغ الدكتور سيليغمان عن لسان قوم خورأدار دنيكا أنهم يشنقون صانع المطر في بيته بينما يحفر أخرون قبره. وكان أبو أحد الرواة وعمه صانعين للمطر وأبلغنا أنهما قُتِلا بهذه الطريقة التقليدية. وحالما يُقتَل صانع المطر يفترضون أن روحه قد انتقلت إلى الخلف المناسب مثل ابنه أو قريب مقرب له في الدم.

في مملكة بونيورو في أفريقيا الوسطى، حالما يصيب الملك مرض خطير أو يطعن في السن عليه أن يقتل نفسه بنفسه حسب النبوءة القديمة التي تقول إن العرش سينهار حالما تنقطع السلالة خلال موت الملك ميتة طبيعية. يقتل نفسه بتجرع كأس من السم. وإذا تلعثم وضعف عن طلب ذلك الكأس على زوجته أن تتولّه السم. وعندما يشرف ملك كيبانغا في الكونغو العليا على نهايته يضع السحرة حبلاً حول عنقه ويشدونه رويداً رويداً حتى يموت. وإذا صادف أن جُرِح ملك جنجيرو في الحرب وأخفق في قتل نفسه يقوم رفاقه بقتله أو يُقتل على يد نسيبه مهما حاول التوسل طالباً الرأفة. ويبررون فعلهم بأنه لا يجوز أن يقتل على يد عدوه. أما الجوكو وهم قبيلة وثنية على نهر بينو وهو رافد كبير لنهر الكونغو فيحكم مدينتهم غاتري ملك منتخب من قبل كبارهم على الشكل التالي. عندما يرى الكبار أن حكمه قد طال يشيعون بين الناس أن مرضاً أصابه، الأمر الذي يُفهم من قبل الجميع أنهم سيقدمون على قتله على الرغم من أن النية غير معلنة بشكل صريح. بعدها يقرُّون من هو الملك التالي كما يحدد أصحاب النفوذ فترة حكمه في اجتماع يقوم كل منهم فيه بإلقاء أعواد على الأرض تمثل بعددها عدد السنين التي يرى كل منهم فترة حكمه المفترضة. بعدها يُبلَغ الملك ويُقام احتفال كبير يسكر فيه الملك ببيرة الذرة الفينية. بعد ذلك يُضرب بالرمح ويخلفه الملك المختار. لهذا يعرف كل ملك في قوم جوكو أنه لن يعيش سنوات طويلة وأنه سيواجه مصير سلفه. لكن هذا لا يخيف

المرشحين لذلك المنصب. ويُقال أن العادة نفسها تسود في كوند ووكاري كما في غاتري. في كل من هذه الممالك الهاوسية، غوبير وكاتسينا وداورا في نيجيريا الشمالية تقوم شخصية رسمية يسمونها **قاتل الفيل** بخنق الملك حالما تظهر عليه علامات ضعف العزيمة.

أما ماتيامفو هو ملك عظيم أو أمبراطور في أواسط أنغولا. وقد أعطى عنه أحد الملوك الفرعيين في البلاد واسمه تشالا تقريراً للبعثة البرتغالية يبين فيه نهاية ماتيامفو. يقول:"جرت العادة أن يموت ماتيامفو إما في الحرب أو ينتهي نهاية عنيفة. ولابد أن يواجه ماتيامفو الحالي مصيره المحتوم فقد طال عمره كثيراً. وعندما نتوصل إلى تفهم عام يقضي بأنه يجب أن يُقتل ندعوه إلى القيام بحرب على الأعداء ونصطحبه وعائلته إلى تلك الحرب التي نخسر فيها بعضاً من رجالنا. وإذا نجا بدون جراح نعود إلى الحرب ثانية ونقاتل مدة ثلاثة أو أربعة أيام. ثم فجأة نتركه وعائلته ليواجه حتفه على يد الأعداء. عندما يرى نفسه في هذه الحال يجلس ويدعو عائلته للاجتماع حوله. ثم يطلب من أمه أن تقترب وتجثو عند قدميه ويقطع رأسها ثم رأس ولده ثم رؤوس زوجاته وأقاربه وأخيراً رأس زوجته المحببة التي تدعى أناكولو. وبعد إنجاز هذه المذبحة ينتظر ماتيامفو الموت وهو في كامل أبهته وسرعان ما يُرسل فارس قوي لأداء المهمة من قبل زعيمين مجاورين وهما كانيكوينا وكانيكا. يقوم هذا الفارس في البداية بقطع رجليه وذراعيه من المفاصل ثم يقطع رأسه أخيراً وبعدها يتم قطع رأس ذلك الفارس. يتوارى العاهلون عن المكان كيلا يشهدوا موته. من واجبي أن أبقى هناك لأشهد موته وأن أضع علامة على المكان الذي أودعت فيه الأذرع والأرجل ورأس الفرسان أعداء ماتيامفو. كما يرثون جميع ممتلكات الملك الراحل وعائلته ويأخذونها إلى مكان إقامتهم. وبعدها علي أن أحضِّر جنازة البقايا المبتورة ثم أذهب إلى عاصمته لأعلن الحكومة الجديدة. وبعد ذلك أعود إلى حيث الرأس والأرجل والأذرع وأقايضهم بفدية أربعين عبدٍ بالإضافة إلى البضائع والممتلكات الأخرى العائدة للراحل التي أقدمها للماتيامفو الجديد الذي أُعلن تقليده المنصب بالنيابة عنه. هذا ما حصل للكثير من الماتيامفوات وهذا ما سيحصل حتماً للماتيامفو الحالي."

ساد قتل الملك عند الزولو حالما تظهر على وجهه التجاعيد ويبدأ الشيب في رأسه. وسأعرض إليكم نصاً كتبه شخص سكن لفترة من الزمن في بلاط مستبد رديئ السمعة من الزولو في بدايات القرن التاسع عشر: " كان الملك يبدي لي أشد العنف أثناء محاولته الموسوسة في البحث عن علاج لكل الأمراض وخصوصاً إزالة جميع علائم التقدم في السن مثل استخدام زيت الشعر. ومن اللحظة التي يسمع بها عن إمكانية تحضير هذه العلاجات يفرّغ نفسه للحصول عليها ولا يفوِّت فرصة إلا ويذكرنا بالعمل للحصول عليها. وعندما نخرج في مهمة، تتركز توصياته بالتركيز على هذا الهدف. وسنرى كيف أن الزولو يشترطون خلو ملكهم المنتخب من التجاعيد والشعر الأشيب لأن ملكاً كهذا لا يصلح أن يُمَلَّك على شعب محارب. لهذا لا يجد الملوك مناصاً من إخفاء كل ما يجعلهم غير لائقين للحكم ويبذلون قصارى جهدهم لبلوغ هذا الهدف. لقد شعر تشاكا برهبة كبيرة عندما اقترب من الشيب لأن هذا يعني أن يستعدَّ لمغادرة هذه الحياة. الأمر الذي يُتبع دائماً بموت الملك." وندين لهذا الكاتب بالكثير لأنه أعلمنا عن حكاية لجوء قائد الزولو لاستخدام زيت الشعر وشبهه **بالخروج من هذه الحياة** كناية عن قتله.

سادت عادة قتل الملوك حال ظهور عيوب شخصية عليهم منذ قرنين في مملكة كافر في صوفالا. كان هؤلاء الملوك يُعتبرون آلهة تجلب المطر أو أشعة الشمس حسب الحاجة. مع ذلك كان عيب بسيط كسقوط سن مثلاً سبباً كافياً لقتل أولئك الملوك وهذا ما يبينه الكاتب التاريخي الهولندي القديم في نصه التالي: " كانت عادة انتحار الملوك عن طريق تجرع السم عادة سائدة في هذه البلاد عند حلول كارثة معينة أو عند ظهور عيب جسدي معين عليهم مثل العُنَّة أو مرض معدٍ أو فقدانهم أحد الأسنان الأمامية أو أي مرض أو كل مايعيب شخصهم. ولكي يضعوا نهاية لهذه العيوب كانوا يقتلون أنفسهم قائلين إنه على الملك أن يخلو من أي شائبة، أو ليذهب حفاظاً على شرفه إلى حياة يبقى فيها متكاملاً فهناك جميع الأشياء كاملة. لكن الملك الذي كان حاكماً عندما كنت هناك لم يحذ حذو أسلافه نتيجة حذره وتعقله. فعندما فقد سناً أمامياً عمد إلى الإعلان عن ذلك ونبَّه الرعية أنه فقد أحد أسنانه وعليهم أن يميزوه دونه، وإذا كان أسلافه قد قتلوا أنفسهم لسبب مماثل إنما فعلوا ذلك حماقةً منهم، وأنه لن يفعل ذلك بل على العكس يأسف

كثيراً لأنه سيموت ميتة طبيعية لأن حياته ضرورية للحفاظ على المملكة وحمايتها من الأعداء، كما نصح أتباعه بأن يحذوا حذوه."

بهذا كان ملك صوفالا الذي تعايش مع فقدانه أحد أسنانه مصلِحاً جريئاً مثل إرغامينيز ملك أثيوبيا. ويمكننا أن نتوقع أن ملوك أثيوبيا كانوا أيضاً يقتلون ـ مثل ملوك الزولو وصوفالا – حال ظهور عيوب جسدية أو علائم الضعف وأن النبوءة التي يزعمها الكهنة، والتي تخولهم تنفيذ حكم الإعدام في الملك، كانت تنبثق من أن كارثة كبيرة ستحصل جراء حكم الملك الحالي تماماً مثل النبوءة التي أنذرت إسبارطة من **الزمن الأعرج** كناية عن فترة حكم الملك الأعرج. وما يؤكد توقعنا هذا هو اختيار الأثيوبيين لملوكهم على أساس الحجم والقوة والجمال قبل إلغاء عادة قتل الملك بزمن بعيد. وحتى يومنا هذا يجب ألا يكون في سلطان واداي أي عيب جسدي ظاهر، وكذلك ملك أغنوي الذي لايمكن أن يتوج وبه عيب واحد ولا حتى سن مكسور أو ندبة أو أثر جرح قديم. وبحسب كتاب أكايل ومصادر كثيرة أخرى لايمكن لملك ذي عيب أن يحكم أيرلندة في تارا. ولهذا السبب تنازل الملك العظيم كورماك ماكارت عن العرش فور فقدانه إحدى عينيه في حادث.

إلى الشمال الشرقي من أبومي، في العاصمة القديمة داهومي، تقع مملكة أييو. يحكم أهل الأييو ملك كامل الخلقة لكنه يخضع لأنظمة الدولة الغريبة والمهينة. عندما يدرك الناس سوء حكمه الذي غالباً ما يُدس غدراً بينهم من قبل وزراء ناقمين يرسلون له وفداً معهم بيوض الببغاء كهدية ليبينوا له أن هيئة الحكومة قد سئمت منه وأنه حان وقت تسليم مهامه وعليه أن يغرق في النوم. يشكر الملك حرصهم على راحته وينصرف إلى مخدعه لينام وهناك يعطي إشارته لنسائه كي يشنقوه. يتم تنفيذ كل هذا على الفور ويصعد ابنه العرش بهدوء بعد أن ينال استحسان الشعب. في العام 1774 حاول الوزراء تنحية ملك إييو بالطريقة المعتادة فرفض الملك هديتهم من بيوض الببغاء وأخبرهم أنه لايفكر بالنوم بل يريد رعاية مصالح رعاياه. سخط الوزراء على حَرَنه هذا وأثاروا تمرداً، لكنهم قُمعوا بمذبحة كبيرة وبهذا حرر الملكُ نفسَه من تسلط أعضاء المجلس وأسس سابقة يقتدي بها أخلافه. لكن العادة استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر حسبما كتب أحد أعضاء البعثة التبشيرية الكاثوليكية عام 1884 مبيناً أنها عادة ما تزال متبعة.

وكتب أحد المبشرين أيضاً عام 1881 يصف سلوك قوم إغبا ويوروبا في أفريقيا الغربية: " من بين العادات الطريفة في البلاد هي مقاضاة الملك والحكم عليه إذا ما كرهه الناس جراء المغالاة في حقوقه. ويكون ذلك بأن يطلب منه أحد مستشاريه الذين وُضعَت على كاهله الأعباء الكبيرة أن **يذهب إلى النوم**، عبارة تعني ببساطة **تجرع السم كي تموت** وإذا خانته الجرأة في اللحظة الحاسمة يقوم أحد أصدقائه بإسداء هذه الخدمة له ودون إفشاء السر يعلنون على الناس نبأ موت الملك. وفي يوروبا تجري الأمور بشكل مختلف. عندما يُرزق الملك بولد ذكر يقومون بصنع مجسم لقدمه اليمنى من الصلصال ويحتفظون بهذا المجسم في منزل الكبار (أوغبوني). وإذا لم يحترم الملك عادات بلده يُرُونَه ذلك المجسم دون النطق بكلمة. عندها يعرف الملك المقصود فيأخذ السم ويذهب للنوم." كذلك يقر البروسيون أن حاكمهم الأعلى يحكم باسم الآلهة وهو يُعرف بـ (فم الله). عندما يشعر أنه مريض وضعيف ويريد أن يترك اسماً عظيماً من بعده يقوم بتجميع كومة كبيرة من أغصان الشوك والقش ثم يعلوها ويلقي خطبة طويلة على الناس يحض فيها على خدمة الآلهة ويَعِدُهم أنه سيذهب إلى أولئك الآلهة ويتكلم معهم بالنيابة عن الشعب. ثم يأخذ القليل من النار الدائمة التي تُغذّى من خشب السنديان المقدس ويولع النار بالكومة ليحرق نفسه حتى الموت.

3ـ قتل الملوك عند نهاية فترة محددة

يستمر الملك أو الكاهن في منصبه حتى تظهر عليه بوادر الضعف أو التقدم بالسن لأنها تدل على عجزه عن القيام بمهامه الإلهية. لكن لا تنتظر بعض الشعوب ظهور هذه العلامات بل يقتلونه وهو بكامل نشاطه وحيويته خوفاً من خطر موته قبل ظهورها. بناءً على ذلك يحددون مسبقاً مدة حكم الملك التي يجب أن يموت في نهايتها، ويجب أن تكون أقصر من أن يضعف خلالها الملك جسدياً. ففي بعض أنحاء الهند الجنوبية تتحدد الفترة باثنتي عشرة سنة. لذلك وحسب أحد الرحالة القدامى في منطقة كويلاكير:" هناك معبد يحتوي على وثنٍ يجلُّونه إجلالاً كبيراً ويقيمون له وليمة كبيرة كل اثنتي عشرة سنة يأتيها المصلون من جميع المعابد وكأنهم ذاهبون إلى حفل يوبيل. وتمتد أراضي هذا المعبد لتضم مساحات شاسعة وتعود إليه عائدات

كبيرة. في هذه المنطقة ملك لايحكم أكثر من اثنتي عشرة سنه. ويعيش حياته على الشكل التالي. عندما تنقضي فترة الاثنتي عشرة سنة وفي يوم الاحتفال يتجمع الكثير من الناس وينفقون الكثير من المال على هبات غذائية للبراهما. وتُعدُّ سقالة خشبية مزودة بشناقات حريرية، يذهب الملك ليستحم ضمن مراسيم مهيبة مع الموسيقا، وبعدها يأتي إلى الوثن ويصلي له ثم يصعد السقالة وأمام الناس يأخذ الملك سكاكين حادة ويجدع أنفه ثم يقطع أذنيه وبعدها شفتيه وسائر أعضائه محاولاً قص ما يستطيع من لحمه ويرميها بعيداً حتى ينزف ويُراق دمه ويقطع حنجرته بيده قبل أن يُغمى عليه. كل هذه التضحية مقدمة للوثن، أما الذي يرغب في أن يحكم الفترة القادمة فيعلم بهذا العمل الاستشهادي حباً للوثن ويجب أن يشهد تضحية سلفه قبل أن ينصبّوه ملكاً."

ويتظاهر ملك كاليكوتا على ساحل مالابار والملقب ساموري أنه أعلى مقاماً من البراهما وأقل بدرجة واحدة من الآلهة غير المرئية. يبجل فيه الرعية هذه النظرة بينما يكرهه البراهما عليها ويعاملونه على أنه من السودرا وهي أوضع طبقة دينية. سابقاً كان على الساموري أن يقطع حنجرته أمام العامة عند نهاية فترة حكمه. لكن في أواخر القرن السابع عشر طرأ تعديل على هذه الممارسة ويبين النص التالي ذلك: " الكثير من العادات كانت متبعة سابقاً ومازال الكثير منها متبعاً اليوم. كان الساموري يحكم اثنتي عشرة سنة ليس إلا إذا مات قبل انقضائها ينجو من معاناة قطع حنجرته على سقالة تنصب لهذا الغرض. يقوم الملك في البداية بإقامة احتفال كبير يبين فيها خصائله النبيلة. وبعد الاحتفال يحيي ضيوفه ويعتلي السقالة ثم يقطع حنجرته بكل شموخ على مرأىً من الجميع ثم يُحرَق جسده بطقوس تزهو بالأبهة والفخامة. وبعدها ينتخب الكبار الساموري الجديد. لا أدري إن كانت هذه الطقوس مدنية أم دينية لكن مايهمني أنها قد وُضِعت جانباً الآن. يتبع الساموري الجديد عادة جديدة وهي إعلان الاحتفال الاثني عشري وتنصب خيمة له في سهل واسع ويقوم الاحتفال لمدة عشرة إلى اثني عشر يوماً يعمها الفرح والابتهاج وإطلاق النار ليلاً نهاراً. في نهاية الاحتفال يقوم أي أربعة من الضيوف الذين يرغبون بالوصول إلى العرش بقتال يائس ضد ثلاثين ألف أو أربعين ألف حارس ليقتلوا الساموري في خيمته. ويحكم بعده من يقتله من أولئك الرجال الأربعة. وفي عام 1695 كانت

إحدى هذه الاحتفالات في خيمة قرب بيناني وهو ميناء بحري على بعد 50 فرسخاً إلى الجنوب من كاليكوتا. لم يغامر في ذلك الاحتفال سوى أربعة رجال ماتوا جميعاً على أيدي الحراس بعد أن قتلوا الكثير منهم. كان ابن أخ أحد هؤلاء المغامرين البالغ من العمر السادسة عشرة حاضراً وتابع القتال بعد أن رأى عمه يسقط قتيلاً وشق طريقه إلى الخيمة وكاد يقتل جلالة الملك لولا أن مصباحاً نحاسياً كبيراً فوق رأسه جعل الشاب يتوه في ضربته الأخيرة وقبل أن يحاول ضربة أخرى، قتله الحراس. أعتقد أن الساموراي نفسه يحكم الآن. وقد صادف أني كنت في ذلك الحين على مقربة من الساحل وسمعت إطلاق النار مدة يومين أو ثلاثة أيام بلياليها على التتالي."

وصف أحد الرحالة الإنكليز احتفالاً لم يره بنفسه بل سمع صوت إطلاق النيران فيه. لكن الأوثق من هذا الوصف هو أسماء الكثير ممن قضوا في هذه الاحتفالات التي مازالت محفوظة في سجلات الأسرة الملكية في كاليكتا. في أواخر القرن التاسع عشر تم التحقق من هذه الأسماء من قبل السيد لوغان بمساعدة الملك الحاكم. ومن خلال هذه الأرقام الدقيقة يمكن إدراك المأساة التي كانت تحصل بشكل دوري حتى 1743 حين أقيمت هذه الطقوس للمرة الأخيرة.

يدعى الإحتفال الذي كان يفتدي فيه الملك عرشه وحياته **الفداء الأكبر**. وكان يُقام كل اثنتي عشرة سنة عندما يكون كوكب المشتري في تراجع أمام السرطان ويدوم الاحتفال ثمانية وعشرون يوماً إلى أن يصل إلى أوج الشهر القمري الثامن ـ محرم. يعتمدون في تحديد توقيت الاحتفال من خلال موقع المشتري في السماء أما الفترة التي تفصل الاحتفالين ـ 12 سنة ـ تساوي تقريباً دورة المشتري حول الشمس. ومن هنا يتبين لنا أن المشتري المتألق كان بمعناه العميق هو نجم الملك وهو من يحكم مصيره لأن فترة دورانه في المجرة تساوي فترة حكم الملك على الأرض. ولهذا أيضاً كان للاحتفال أبهة عظيمة في معبد تيرونافايا على الضفة الشمالية لنهر بوناني وهي منطقة قريبة من الخط الحديدي الحالي، لذلك من القطار يمكنك أن تلمح المعبد وراء أجمة الأشجار على ضفة النهر. ينطلق من مدخل المعبد طريق مستقيم تظلله الأشجار من الطرفين ولا يرتفع كثيراً فوق مستوى حقول الأرز المحيطة، ويمتد نصف ميل نحو حافة الضفة المنحدرة التي يمكنك أن تتقفى عليها

أثار ثلاث أو أربع مصاطب. في ذروة هذا المشهد كان الملك يأخذ مكانه في ذلك اليوم الحافل. يطل الموقع على مشهد بديع حيث تمتد حقول الأرز المنبسطة مع النهر الواسع المتمعج. ومن الجهة الشرقية ترى النجود العالية التي تظللها الغابات والتي تلوح على مقربة منها سلاسل عظيمة من جبال غاوت الغربية ومن بعيد نيلغيريز أو الجبال الزرقاء التي تكاد لا تُميَّز عن السماء القرمزية فوقها.

لكن ما كان الملك ليكترث بهذه المناظر بل كان اهتمامه منصباً على قَدَرِه البائس، وما يشد انتباهه في هذه اللحظات هو شيء واحد في متناول يده. يعج السهل الممتد أمامه بالجحافل وبالرماح المتألقة في أشعة الشمس والخيام المنصوبة على تخوم حقول الأرزّ الخضراء والذهبية. إنهم أربعة آلاف مقاتل اجتمعوا للدفاع عن الملك. وعندما يكتظ السهل بالجنود يصبح الطريق الذي يمتد من المعبد إلى منصة الملك واضحاً للجميع لا يتجاوزه أحد سيما وأنه محفوف بالحسائك وزنود صلبة تحمل الرماح المتجهة نحو وسط الطريق الفارغ لتشكل رواقاً من الفولاذ المتلألئ. كل الأشياء جاهزة. يلوِّح الملك بسيفه. وفي اللحظة نفسها يقف على جانبه فيل عليه سلسلة ضخمة من الذهب الخالص المزود بحلقات الزينة. إنها الإشارة. في هذه اللحظة تظهر حركة على مسافة نصف ميل عند بوابة المعبد. جماعة من السيافة مزينة بالورود وملطخة بالرماد تخرج من الحشود. لقد خرجوا لتوِّهم بعد أن تناولوا آخر وجباتهم في هذه الدنيا وهم الآن يتلقون التباريك والوداع من أصدقائهم. بعد لحظات ينزلون إلى ممر الرماح يضربون ويطعنون يميناً ويساراً كارِّين فارِّين يتمعجون بين النصول وكأنهم أجساد بلا عظام. لكن كل هذا يذهب عبثاً. يسقطون الواحد تلو الآخر بعضهم بعيداً عن الملك وبعضهم يقترب منه. يموتون قانعين ليس لأجل التاج لكن لمجرد إثبات بسالة لا تهاب أحداً ونزال يتحدون فيه العالم بأسره. في أيام الاحتفال الأخيرة تتكرر مشاهد البسالة نفسها كما تُعاد التضحية بالأرواح التي لاطائل منها مرة ثانية. لكن علينا التنبُّه إلى حقيقة أنه ما من تضحية تذهب سدىً فهي على الأقل تثبت أنهم رجال يؤثرون الشرف على الحياة.

ويقول مؤرخ هندي قديم: " إنها العادة الفريدة في البنغال التي تبين أن الملوك المتعاقبين هم من أقوى الناس... فمن يقتل الملك يعقبه في العرش ويُنَصَّب ملكاً على الفور، ويطيعه كل الأمراء والوزراء والعسكريون والفلاحون ويذعنون له منفذين

أوامره دون تردد. ويقول البنغاليون (نحن مخلصون للعرش كائناً من كان الذي يشغله ونطيعه كل الطاعة.)" وساد نوع من العادات نفسها في المملكة الصغيرة باسير على الساحل الشمالي لسومطرة. ويشير المؤرخ البرتغالي القديم دي باروس متعجباً أنه ما من رجل عاقل يرغب بملكية باسير لأنها لا تسمح لصاحبها بالعيش المديد. فمن وقت إلى آخر نرى الغضب يتملك جماعة من الناس فيمشون في شوارع المدينة بأصوات عالية مطلقين كلماتهم القاتلة، (فليمت الملك) وعندما يسمع الملك نداء الموت يعلم أن ساعته قد أتت. والرجل الذي يضرب الضربة المميتة هو من النسل الملكي ويجلس على العرش حالما يقوم بعمله الدموي ليصبح الملك الشرعي إذا استطاع أن يحافظ على جلسته تلك مدة يوم واحد. لكن قتل الملك لايحالفه النجاح بشكل دائم. فعندما كان فرناو بيريس داندراد في رحلة إلى الصين أقام في باسير بهدف شراء التوابل. وأثناء إقامته هناك تم ذبح ملكين بالطريقة السلمية المنتظمة دون أدنى إشارة للشغب أو الفتنة في المدينة حيث كان كل فرد يقوم بعمله بالشكل المعتاد وكأن قتل الملك أو إعدامه أمراً يومياً معتاداً. في الحقيقة تم تنصيب ثلاثة ملوك على العرش الخطير خَلَفوا بعضهم بعضاً على طريق الموت في يوم واحد. يدافع الناس عن ذلك العُرف ويثنون عليه ويبررونه دينياً قائلين أن الله لايسمح ببقاء كائن قوي وقادر مثل الملك الذي يحكم كوكيل على الأرض ولم يكن ليميته بعنفٍ كهذا لو لم يستحق ذلك فعلاً نتيجة لذنوبه. وبعيداً عن المناطق الاستوائية في سومطرة يبدو أن السلافيين القدامى اتبعوا طريقة الحكم نفسها. وعندما استطاع الأسيران غان وجارميريك أن يقتلا الملك والملكة السلافيين ويهربا، قام البرابرة بملاحقتهما وراحوا يصيحون قائلين إنهما لو عادا لاحتلا العرش بدلاً من الملك المقتول. لكنهما تابعا الهرب وأعطَيا أذناً صماء لوعودهم حتى تلاشت صيحات البرابرة الصاخبة مع ابتعادهما أكثر فأكثر. يخوِّل الدستور العام قاتلَ الملك أن يحتل العرش ويُعتبر هذا طُعْماً يستدرج به القاتل إلى حتفه.

عندما حُتِّم على الملك أن يعاني من القتل على يد الآخرين أو بيده مع نهاية عدد محدد من السنوات، كان من الطبيعي أن يُوكل هذا الواجب الصعب بالإضافة إلى الصلاحيات الأخرى لبديل يقوم بالقيام بها بالنيابة عنه. ويبدو أن بعض أمراء مالابار لجؤوا إلى بعض هذه الوسائل. وقد بلغنا من مصدر مسؤول في ذلك البلد أنه في بعض

المناطق يوكِل الملك السلطتين التشريعية والتنفيذية ولفترة محددة لبعض الأهالي الأصليين. ويعتمد هذا الدستورعلى قطع الرأس. أي أنه منصب يعطي صاحبه قوىً استبدادية لاحدود لها خلال فترته الدستورية. وفي نهاية تلك الفترة يُقطع رأس الرجل ويُرمى في الهواء على مرأىً من حشد كبير من أهالي القرية. ويحاول كل من المتفرجين أن يلتقط ذلك الرأس قبل نزوله إلى الأرض، ومن يلتقطه يوكَل إليه المنصب خمس سنوات قادمة."

عندما كان على الملوك أن يموتوا ميتة عنيفة في نهاية حكمهم، أدركوا روعة الفكرة القائلة بأن يموت أحدٌ عنهم بالوكالة ولابد أنهم طبقوا هذه الفكرة. ولاعجب أن تنتشر هذه الطريقة الذكية في الكثير من البلدان. هناك بعض آثار في التقاليد الإسكندنافية تدل على هذه العادة وهي أن الملك السويدي كان يحكم فترة تسع سنوات، إمَّا يُقتَل بعدها أو يجد بديلاً عنه. لذلك يُقال أن ملك السويد آون قام بتقديم أضحية لـ **أودين** لزيادة عدد أيامه فأجابه الإله أنه يمكن أن يعيش مادام أنه يضحي بأحد أولاده كل تسع سنوات. قام بالتضحية بتسعة من أولاده وهمَّ بالعاشر فرفض السويديون ذلك. مات بعدها ودُفِن في رابية في أبسالا. وهناك دلالة أخرى في ولاية ملكية مشابهة مرت بإحدى الأساطير الطريفة التي تحكي عن خلع وقتل **أودين**. ولسوء أفعاله قامت الآلهة الأخرى بخرق القانون ونفته ووضعت بديلاً مكانه وهو تحديداً **أولار** الساحر الماكر الذي يعزى إليه رمزا الملكية و رأس الإله. كان هذا البديل يحمل اسم أودين وحكم حوالي عشر سنوات إلى أن خُلِع عن العرش عندما عاد أودين الحقيقي إلى مملكته. ذهب الخصم المدحور إلى السويد حيث مات ذبحاً في محاولة لتخليصه من مصيره البائس. بما أن الملوك في غالب الأحيان رجال يلوحون من وراء سديم التقاليد يمكننا أن نتوقع أن هذه الأسطورة الاسكندنافية هي بقايا ذكريات مشوشة لملوك السويد القدامى الذين حكموا مدة تسع أو عشر سنوات قبل تنازلهم عن العرش وتقديم آخرين ليموتوا بدلاً عنهم لمصلحة البلاد. وربما كان الإحتفال الذي يُقام في أبسالا ، والذي قِوامه تقديم أضاحٍ بشرية، هو مناسبة لقتل الملك أو بديله.

هناك ما يبرر أعتقادنا أن حكم ملوك الإغريق القدامى قد تحدد بسنوات ثمان، أو على الأقل تأتي الرحمة الإلهية برسامة كاهن جديد ليتمكن من تنفيذ

الواجبات الدينية والدنيوية. أن يأتي الوحي ويعيده إلى منصبه. هذه العادة التي تعود إلى زمن سحيق في القِدَم لم تختف تماماً بل ظهرت في الفترة الأخيرة من الملكية الإسبارطية، والمثال على ذلك هو ملك في القرن الثالث قبل الميلاد استسلم تماماً للجماعة الإصلاحية التي عزلته لعدة تهم ملفقة من بينها زعمهم وجود إشارة سلبية في السماء كدليل بارز على خطاياه.

إذا كان تولي منصب الملك محدداً لدى الإسبارطيين بثماني سنوات لنا أن نسأل لماذا تتحدد هذه الفترة بهذه الدقة؟ ربما كان الأمر خاضعاً لاعتبارات فلكية يعتمد عليها التقويم الإغريقي. ويبقى هنا اللغز الكبير وهو الانتقال من التقويم القمري إلى التقويم الشمسي الذي وضع ذكاء البرابرة على المحك. إن الدورة الثُمانية هي أقصر فترة يمكن أن تلتقي فيها الشمس مع القمر. فمثلاً يصادف البدر مع أطول أو أقصر نهار كل ثمان سنوات، وبما أنه يمكن ملاحظة هذا من خلال التعداد البسيط، يشكل هذا العدّ أساس التقويم الذي يجعل اقتران التقويم القمري والشمسي ممكناً رغم أنه لا يصل إلى التوافق الكامل. لكن في قديم الزمان كان تصحيح التقويم قضية دينية بحتة لأنها تعتمد على معرفة الأسباب الصحيحة لاسترضاء الآلهة الذين يسعون حتماً لخير المجتمع. ولاعجب أيضاً أن يكون الملك ـ وهو الكاهن الأعلى للدولة أو هو الإله بذاته ـ عرضة للعزل أو الموت مع نهاية الفترة الفلكية. عندما تصل الأجرام إلى الذروة وتبدأ بتجديد سباقها في دورة جديدة، يتحتم على الملك أن يجدد طاقاته الإلهية أو يثبت أنها دائمة مع فسح المجال أمام خَلَفٍ أكثر نشاطاً. وقد رأينا كيف تنتهي حياة الملك وفترة حكمه مع دوران المشتري حول الشمس. أما عند اليونانين فيرتبط مصير الملك بثمانية أعوام تقريباً تاركةً المجال أمامه للهرب من مصيره قبل أن تميل الكفة ضده من خلال رؤية شهاب نازل.

مهما كان الأساس الذي اعتمدت عليه هذه العادة، انتشرت دورة السنوات الثُمانيَّة لحكم الملك في الممالك الأخرى إلى جانب إسبارطة. وفي السنوات الأخيرة كشف التعرف على قصر مينوس العظيم ملك كنوسوس في كريت أنه كان يحكم ثماني سنوات ثم يتنحى إلى كهف الوحي في قمة إيدا ليتصل بأبي الآلهة زيوس مبيناً له حقيقة ملكه في السنوات السابقة ويتلقى الأوامر والإرشادات بشأن

الفترة القادمة. ينضوي هذا التقليد على حاجة الملك لتجديد قواه المقدسة خلال التواصل مع كبير الآلهة ويفقد حقه في العرش دون هذا التجديد.

بناءً على ذلك يبدو أن الولاء الذي كان يرسله أهل أثينا لمينوس وهو عبارة عن سبعة شبان وسبع صبايا كل ثمان سنوات له علاقة بتجديد سلطة الملك لدورة ثُمانيّة أخرى. تختلف التقاليد بشأن مصير العذراوات والفتيان الذين يصلون إلى كريت لكن بشكل عام يوضعون في متاهة حتى يلتهمهم المينوطور وهو حيوان خرافي نصفه رجل ونصفه ثور، أو على الأقل يُسجنون مدى الحياة. وربما يقدَّمون كأضحية عن طريق شيِّهم أحياءً ضمن مجسم ثور برونزي أو رجل برأس ثور بغية تجديد قوة الملك وقوة الشمس التي يمثلها. ويتضح كل هذا في أسطورة طالوس: رجل برونزي يضم الناس إلى صدره ويقفز بهم في النار كي يُشوَون أحياء. ويقال أن زيوس أو هيفايستوس هو الذي أرسله إلى أوروبا كي يحمي جزيرة كريت التي كان يجوبها ثلاث مرات يومياً. ويقول أحد التقارير إنه ثور بينما تقول أخرى إنه الشمس. ربما كان مطابقاً للمينوطور، وإذا ما جردناه من قواه الأسطورية هو ليس سوى مجسم برونزي للشمس مُمَثَّل على شكل إنسان برأس ثور. ولأجل تجديد نيران الشمس ربما قُدِّمت الضحايا البشرية للوثن عن طريق شيِّها في جسم أجوف أو مكتَّفة تدور فوق حفرة أضرمت فيها النار. وقد اتبع هذه الطريقة الكارثاجينين في تقديم صغارهم لمولوش. فكانوا يضعون الأطفال في أيدي مجسم برونزي برأس عجل ليرميهم في نار متقدة بينما يرقص الناس على موسيقا الناي والدف كي يُغْرِقوا صرخات الضحايا المحترقة. يبين التشابه بين ممارسة أهالي كريت والكارثاجينين أنهما يقدمان عبادتهما باسم مينوس والمينوطور متأثرين بشكل كبير بالإله بعل السامي. وما التقليد الفالاري عن المستبد أغرجنتم إلا صدى هذه التقاليد في صقلية حيث تضرب السيطرة الكثاجيانية جذوراً عميقة.

وفي منطقة لاغوس هناك قبيلة من السلالة الأفريقية تدعى إجيبو وتنقسم إلى بُدَّين **أود** و **ريمون**. أما الأود فيحكمهم قائد يحمل اللقب **أوجال**، ومحاط بالكثير من الغموض. وحتى عهد قريب لم يتمكن حتى رعاياه من رؤيته وعندما تقتضي الضرورة ان يكلِّم أحداً منهم كان يكلِّمه من وراء حجاب. أما الريمون فيحكمهم قائد أقل شأناً من أوجال. وقد بلغ السيد جون باركينسون أنه في

الماضي كان هناك قائد فرعي يحكم ثلاث سنوات يُعدَم بعدها ضمن طقوس رسمية. وبما أن البلد تحت الحماية البريطانية، تم إلغاء هذه العادة منذ وقت طويل ولم يتمكن السيد باركينسون من التحقق من أية تفاصيل حول الموضوع.

وفي بابل وضمن المرحلة التأريخية كانت ولاية الملك تستمر مدى الحياة رغم أنها من الناحية النظرية هي ولاية سنوية. وفي احتفال زاكموك السنوي يقوم الملك بتجديد قواه عن طريق الإمساك بيدَي مجسم ماردوك في معبده العظيم أيشغيل في بابل. وحتى عندما صارت بابل إلى حكم الآشوريين كان يُنتَظر من ملوك البلد أن يشَرِّعوا مُلْكَهم بأداء طقس قديم في احتفال السنة الجديدة حتى أصبح هذا الالتزام عبئاً على بعضهم فرأوا أن يتخلوا عن لقب ملك ويكتفوا بلقب حاكم. ويبدو أنه في غابر الأزمان قبل المرحلة التأريخية كان يفقد ملوك بابل أو أسلافهم البرابرة حقهم في العرش عند نهاية ولايتهم. وهذا المؤرخ بيروسوس وهو كاهن بابلي يخبرنا عن درايةٍ واسعة في هذا المجال أنه كان هناك احتفال، يدعى ساكايا، يبدأ في السادس عشر من شهر لواس ويدوم خمسة أيام يتبادل فيها العبيد الأدوار مع أسيادهم، يأمرون فيُطاعون. وكان السجين المحكوم عليه بالموت يرتدي لباس الملك ويجلس على عرشه ويُعطى كامل الحرية بأن يأمر ما يريد مثل الشراب والطعام والمتعة وأن يضاجع محظيات الملك. وبعد مضي الأيام الخمسة يُجرَّد من لباسه الملكي ويُجلد ثم يُشنق أو يخوزق. أثناء فترة حكمه القصيرة يحمل لقب زوغانيس. ويعود تفسير هذه العادة إلى السخرية اللاذعة في زمان أُقيم فيه الابتهاج على حساب مجرم بائس. لكن السماح للملك المزيف بأن يمارس المتعة مع خليلات الملك يشكل دحضاً لهذا التفسير. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار العزلة الغيور لدى حريم الطاغية الشرقي نصبح متأكدين أن السماح بغزوه لم تكن من صلاحيات الحاكم إلا في الحالات القصوى، بينما كانت تُمنح للمجرم المُدان. لكن التفسير المرجح هو قتل المُدان كبديل عن الملك ولكي يبدو البديل مطابقاً للأصل عليه أن يتمتع بكامل الحقوق الملكية أثناء فترة حكمه القصير. ليس هناك ما يدعو للاستغراب في هذا الاستبدال. فالقاعدة القائلة بإعدام الملك حال انتهاء فترته أو ظهور بوادر الضعف، لابد أنها ستُلغى أو تُعدَّل من قبل الملوك. ورأينا كيف أنه في أثيوبيا وصوفالا وأييو وضع الملك المتنوِّر هذه القاعدة جانباً، وفي كاليكوتا تم

استبدال قتل الملك في نهاية فترة الاثنتي عشرة سنة بأن يُهاجَم الملك ويقوم قاتله بالحكم مكانه. أما حرص الملك أن يُحاط بالحرس فليس مجرد شكليات. ورأينا كيف عدّل البابليون هذه العادة كما شرحنا توّاً. فعندما يقترب موعد قتل الملك السنوي في بابل يقوم بالتنازل عن الحكم عدة أيام يوكل بها الحكم لملك مؤقت. في البداية كان هذا الملك المؤقت شخصاً أميناً موثوقاً من عائلة الملك لكن مع النمو الحضاري صار قتل شخص بريء يثير استياء الضمير الشعبي ولهذا عمد الملك المؤقت إلى استخدام مجرم لهذا الغرض. وسوف نرى لاحقاً أمثلة عن موت المجرم كتمثيل لموت الإله. وعلينا ألا ننسى هنا كيف تم قتل ملك الشيلوك بشخصه الإلهي أو نصف الإلهي لأن موته وبعثه هما الوسيلة الوحيدة لإبقاء الحياة الإلهية غير منقوصة على اعتبارها ضرورية لأجل خلاص الناس والعالم أجمع.

ما تبقى من العادة هو بعض آثار ممارسة قتل الملك مع نهاية حكمه السنوي في الاحتفال المسمى ماكاهيتي في هاواي في الشهر الأخير من كل عام. فمنذ حوالي مائة سنة وصفها أحد المسافرين الروس على الشكل التالي: "ليس ماكاهيتي المقدس مختلفاً عن احتفالنا بعيد ميلاد المسيح. يستمر شهراً كاملاً يتمتع فيه الناس بالرقص واللعب والقتال الصوري من شتى الأنواع. على الملك أن يفتتح الاحتفال أينما كان. في هذه المناسبة على جلالته أن يرتدي خوذته وأفضل عباءة لديه. ثم يُبْحَر به على طول الشاطئ ويتبعه أحياناً الكثير من أتباعه. عليه أن يشرُع برحلته في الصباح الباكر ليفرغ منها عند بزوغ الشمس. يستقبله أقوى محارب وأكثرهم خبرة عند ترجله. يقوم ذلك المحارب بمراقبة الجندول على طول الشاطئ وحالما يترجل الملك يخلع عنه العباءة ويقذف المحارب برمحه على بعد ثلاثين خطوة نحو الملك وعلى الملك أن يلتقط الرمح قبل أن يصيبه، فالأمر لايحتمل المزاح. عندما يلتقطه يتأبطه ورأسه المدبب نحو الأسفل إلى المعبد هيفو. وعند المدخل يبدأ القتال الصوري بين الجموع المحتشدة وسرعان ما يمتلئ المكان بسحابات من الرماح غير الحادة المُعدَّة لهذه المناسبة. وكثيراً ما نُصِح الملك هاماميا أن يلغي هذا الطقس المذري الذي يعرِّض حياته للخطر كل سنة لكنه لم يلقِ لهم سمعاً. كان جوابه دائماً إنه قادر على التقاط الرمح أكثر مما يستطيع أن يقذفه أي شخص في الجزيرة. في أثناء

المكاهيتي يصدر عفو عام عن جميع الجرائم في البلاد ولا يستطيع أي شخص أن يغادر المكان الذي بدأ فيه الاحتفال إلا لأمر في غاية الأهمية."

كون إعدام الملك في نهاية فترة حكمه الممتدة سنة واحدة تصبح قريبة جداً للعقل عندما نعلم أنه حتى يومنا هذا هناك مملكة يدوم فيها حكم الملك وحياته يوماً واحداً لا غير. ففي نغويو وهي منطقة في مملكة الكونغو القديمة تفرض القاعدة أن يُقتَل الملك ليلاً في نفس اليوم الذي يُتُوِّج فيه. ويحق لقائد موسورونغو أن يعقبه في الحكم، وعلينا ألا نعجب أيضاً من أنه لايمارس الحكم فعلاً وأن العرش يبقى شاغراً. " لا أحد يريد أن يخسر حياته مقابل سويعات من المجد على عرش نغويو."

الفصل الخامس والعشرون
الملوك المؤقتون

في بعض البلدان تم تلطيف عادة قتل الملك المعدَّلة التي كانت سائدة في بابل. وظل الملك يتنازل سنوياً فترة قصيرة ليشغل مكانه ما يمكن أن يسمى ملك مُرشَّح لكن هذا الأخير لايُقتَل عند نهاية فترته القصيرة فصار تقليداً يذكرنا بأيام كان فيها القتل فعلي. لنأخذ بعض الأمثلة. في شهر مياك (شباط) كان ملك كمبوديا يتنازل سنوياً مدة ثلاثة أيام لا يمارس فيها السلطة ولا يلمس الأختام أو يتلقى التشريفات الواجبة. ويحل محله ملك مؤقت يدعى سداك مياك أي (ملك شباط). وكان منصب الملك المؤقت يورَّث ضمن عائلة ذات صلة بالبيت الملكي، يخلف فيه الأبناء أباءهم والأخوة الصغار إخوانهم الكبار وكأنه إرث ملكية حقيقية. في يوم يحدده الفلكيون، يتنقَّل الملك المؤقت في موكب نصر مهيب يحضره كبار الشخصيات الحكومية، يركب أحد الفيَلة الملكية ويجلس على الهودج الملكي محاطاً بالجنود بلباسهم الرسمي، فهم يمثلون الشعوب المجاورة مثل سيام وأنام ولاوس. وبدلاً من التاج الذهبي كان يرتدي قبعة بيضاء مدببة، ويلبس زينة خشبية بدلاً من زينة الملك الذهبية المرصعة بالماس. وبعد أن يبايع الملك الحقيقي الذي تلقى منه الملكية مدة ثلاثة أيام بما فيها من مراسم موروثة أثناء تلك الفترة (رغم أن هذه العادة أُلغيت بعض الوقت) يجول في القصر ضمن الموكب ثم في شوارع المدينة. وفي اليوم الثالث وبعد الموكب المعتاد يصدر الملك المؤقت أوامره بأن تدوس الفيَلة على كومة الأرزّ وهي عبارة عن سقالة من البامبو محاطةً بحزَم الأرزّ. يتجمع الناس حول الأرزّ ويأخذ كل منهم قليلاً منه ليضمن محصولاً جيداً. كما يُؤخَذ بعضه للملك الذي يأمر بطبخه وتقديمه للرهبان..

في سيام وعندما يكون القمر في يومه السادس من الشهر السادس (عند نهاية نيسان) يتم تعيين ملك مؤقت يتمتع بكامل الامتيازات الملكية بينما يُقفَل على الملك الحقيقي في قصره. ويرسِل الملك المؤقت العديد من أتباعه في جميع الاتجاهات ليصادر كل ما يستطيع من السوق والمحلات المفتوحة وحتى السفن والمستوردات التي تصل إلى الميناء خلال الأيام الثلاثة، كلها تُرهَن له ولابد من فك الرهن. يذهب إلى وسط المدينة ليحضر المحراث المطلي بالذهب والذي تجره الثيران المزينة. وبعد أن يُلمَّع المحراث وتبخَّر الثيران وتُفرك بالعود، يقوم الملك بتقليد حراثة تسعة ثلوم بالمحراث تتبعه سيدة كهلة من القصر تنثر أول بذور الموسم. وحالما ينتهي الملك من ثلومه التسعة يندفع الحاضرون إلى البذور المبذورة معتقدين أن مزجها ببدار الأرزّ يؤمن المحصول الوفير. ثم تُنزع الأنيرة عن الثيران ويوضع أمامهم الأرز والذرة والسمسم ونخل الساغو والموز وقصب السكر والبطيخ. يعتقدون أن ماتأكله الثيران أولاً سيكون وفيراً في العام القادم على الرغم من أن بعض الناس يفهمون هذا الفأل بشكل عكسي. في أثناء هذا كله يقف الملك المؤقت متكئاً على شجرة واضعاً قدمه اليمنى على ركبته اليسرى. من وقفته على قدم واحدة يُعرف أنه الملك **هوب**، لكن لقبه الرسمي هو **فايافولاثيب أي سيد مضيفي السماء**. شأنه شأن وزير الزراعة في وقتنا الحاضر، تُحال إليه جميع النزاعات بشأن الحقول والأرزّ. وهناك أيضاً طقس آخر يشخَّص فيه الملك ويُقام في الشهر الثاني الذي يصادف في الفصل البارد ويدوم أيضاً ثلاثة أيام. يُنقل الملك في موكب إلى مكان مفتوح قبالة معبد البراهمات حيث تُقام عدة ساريات مكسوة مثل أعمدة أيار يؤرجحها البراهمات. خلال الفترة التي يرقصون فيها ويؤرجحون الأعمدة، يقف سيد مضيفي السماء على قدم واحدة على مقعد مبني من الآجر، مُجَصَّص ومكسو بالقماش الأبيض معلق بنسيج مطرز. يدعم هذا الشكل هيكل من الخشب مع ظُلَّة العرش. يقف على جانبيه اثنان من البراهما. يحمل البراهمانات الراقصون قرونَ جواميس يسحبون بواسطتها الماء من قِدرٍ نحاسي ويرشونه على المتفرجين، فهذا يجلب الحظ الحسن ويأتي بالعيش الآمن الهانئ والصحة الجيدة والرخاء. يقف سيد مضيفي السماء على قدم واحدة ثلاثة أيام. ويعتقد أن هذا التصرف يثبت التخلص من الديفاتا والأرواح. فإذا ما ترك قدمه تنزل على الأرض يعرِّض نفسه للتنازل عن ممتلكاته ويعرِّض عائلته للاستعباد من

قبل الملك، ويُعتقد أن هذا شؤم ينذر بخراب الدولة وزعزعة العرش. لكنه إن وقف بقوة يكون قد انتصر على الأرواح الشريرة ويكسب صلاحية الاستيلاء على أية سفينة تدخل الميناء في أثناء هذه الأيام الثلاثة ويأخذ حمولتها، كما يمكن أن يدخل أي متجر مفتوح في المدينة ويحمل منه ما يحلو له.

ظلت صلاحيات ملك هوب السيامي سارية حتى أواسط القرن التاسع عشر. وفي عهد الملك المتنور تجرد هذا المنصب الطريف من مجده وتخلص من عبء منصبه. لكن مازالت هذه الشخصية تشاهد البراهمانات يندفعون في الجو في أرجوحة معلقة بين صاريتين طويلتين طول كل منها حوالي سبعة عشر متراً لكنه يستطيع الجلوس بدلاً من الوقوف. وما زالت العامة تطالبه أن يضع رجله اليمنى فوق ركبته اليسرى في أثناء الطقس لكنه لا يخضع لجزاء قانوني إن لم يفعل على الرغم من أن اعتبارهم إنزال قدمه على الأرض سبباً في جلب الغم للشعب. وهناك آثار أخرى تحكي عن غزو أفكار حضارة الغرب للشرق ومنها إقفال الطريق الرئيسي المؤدية لمكان إجراء الطقس بالعربات وأعمدة الأنوار التي يتعربش عليها المشاهدون كالقردة ومن تحتهم حشد غفير، في حين تأتي مجموعة أخرى بلباسها الرث على الطريقة القديمة بزي مبهرج أصفر وقرمزي يضربون الطبول وينفخون الأبواق على النمط القديم. إنه موكب من جنود حفاة بلباسهم المتألق يتقدمون برشاقة نحو مجموعة الجيش النظامي الحديث التي تعزف معزوفة (سائرون في جورجيا).

في اليوم الأول من الشهر السادس الذي كان يُعتبر بداية السنة، اعتاد ملك سمرقند وشعبها أن يرتدوا الملابس الجديدة ويقصوا شعرهم ولحاهم. ثم يذهبون إلى غابة قريبة من العاصمة حيث يطلقون السهام من فوق ظهور الخيل مدة سبعة أيام. في اليوم الأخير يرمون على هدف محدد وهو قطعة نقد ذهبية وكل من يحقق الهدف يصبح ملكاً مدة يوم واحد. وفي مصر العليا وفي اليوم الأول من السنة الشمسية حسب التقويم القبطي أي في العاشر من أيلول عندما يكون النيل قد وصل أعلى مستوىً له، تُعلّق الحكومة الرسمية مدة سبعة أيام وتَختار كل مدينة حاكمها. يرتدي هذا الحاكم نوعاً من القبعات الطويلة المضحكة ولحية بيضاء طويلة ويغطيه رداء غريب وبيده عصا المنصب، يحرسه رجال متنكرون وكأنهم كَتَبَةٌ ومنفّذون، ويتقدم نحو بيت الحاكم. يُعزَل الحاكم ويصعد الملك المزيف العرش

ويحتل كرسي القضاء ليتخذ قرارات على الجميع أن يطيعها بما فيهم الحاكم الأصلي ورجاله. وبعد ثلاثة أيام يُحكم على الملك المزيف بالموت ويتم إحراق كل ما كان يلبسه. ربما تدل هذه العادة على ممارسة قديمة وهي حرق الملك بكل ما فيها من مأساة. وفي أوغندا جرت العادة أن يُحرق إخوان الملك لأنه من غير القانوني أن يُراق الدم الملكي.

ويسمح للطلاب المحمديين في فاس، المغرب أن يعينوا منهم سلطاناً يحكم عدة أسابيع ويسمى **سلطان الطلبة**. توضع هذه السلطة القصيرة الأمد في مزاد علني وترسو على أعلى طالب. إنها سلطة تمنح صلاحيات جوهرية مثل إعفاء صاحبها من الضرائب والحق بالتِماس الطلبات من السلطان الحقيقي. نادراً ما تُرفض هذه الطلبات التي غالباً ما تكون تحرير سجين. ويمكن لوكلاء سلطان الطلبة أن يفرضوا غرامات فكاهية على الباعة وأرباب المنازل. يُحاط السلطان المؤقت بأبهة البلاط الحقيقي ويجول في الشوارع مع الموسيقا وصرخات التحية بينما ترفع فوق رأسه المظلة الملكية. ومع ما يسمى الغرامات والعطايا الطوعية يضيف السلطان الحقيقي مؤونة يتمكن بها الطلبة من إقامة وليمة فاخرة يتمتعون بها وينغمسون باللعب واللهو. في الأيام السبعة الأولى يبقى السلطان المزيف في سجنه ثم يذهب على بعد ميل من المدينة ويعسكر على ضفة النهر، يرعاه الطلبة وعدد لا بأس به من المواطنين. في اليوم السابع من بقائه خارج المدينة يزوره السلطان الحقيقي ويمنحه سبعة أيام أخرى من الحكم حتى يصبح حكمه ثلاثة أسابيع. لكن بعد مرور ستة أيام من الأسبوع الأخير يهرع السلطان المزيف ليلاً إلى المدينة. تصادف هذه السلطنة المؤقتة في الربيع في أوائل نيسان. ويعود أصل العادة إلى زمن المولّى رشيد الثاني عندما كان يقاتل في العام 1664 أو 1665 واغتصب أحد اليهود الملكية الحقيقية في تازا. لكن سرعان ما قُمع التمرد بمساعدة الطلاب الموالين. قام أربعون منهم بوضع أنفسم في صناديق ونقلوا إلى مُغْتَصب العرش على أنهم هدايا. وفي الليل وبينما كان اليهودي يجول بين الصناديق ارتفعت أغطيتها وقام الأربعون الشجعان بذبح مغتصب العرش وامتلكوا المدينة باسم السلطان الحقيقي. وعرفاناً بموقفهم المُعِيْن وقت المحنة منح السلطانُ الطلابَ الحق في تعيين سلطان بأنفسهم كل سنة. هذه الرواية فيها جو من الخيال لتبرير العادة القديمة التي نُسِي أصلها الحقيقي.

وظلت عادة تعيين ملك مزيف مدة يوم واحد سائدة في لوستويثيل في كورنول حتى القرن السادس عشر. ففي عيد الفصح الشرقي الصغير يجتمع ملاكو الأراضي والأقاليم إما شخصياً أو عبر مندوبين عنهم وتقع القرعة على أحدهم دورياً ليلبس اللباس الزاهي وعلى رأسه التاج والصولجان في يده والسيف محمول أمامه ويركب الفرس في الشارع الرئيسي نحو الكنيسة ومن واجب البقية أن يحرسوه وهم على ظهور الخيل من حوله. يستقبله رجل دين بأفضل ملابسه عند بوابة الكنيسة ويصطحبه للاستماع للصلاة المقدسة. ولدى مغادرته الكنيسة يُصحَب بالأبهة نفسها إلى منزل أُعِدَّ لاستقباله لتناول الوليمة هو وحاشيته. وبما أنه يجلس على رأس الطاولة فإنهم يخدمونه متزلفين وكأنه الأمير. وبهذا ينتهي الطقس وينصرف كلٌ إلى بيته.

وأحياناً يحتل الملك المؤقت العرش ليس سنوياً بل مرةً عند بداية كل عهد. ففي مملكة جامبي في سومطرة جرت العادة أن يحتل أحد العامة العرش عند بداية كل عهد ويمارس الامتيازات الملكية مدة يوم واحد. ويُفَسَّر أصل هذه العادة بأنه كان ذات يوم خمسة أخوة ملكيين رفض أربعة منهم العرش لعيوب في أجسادهم، فتركوه لأخيهم الصغير. احتل الأخ الأكبر العرش مدة يوم واحد، واحتفظ بهذا الحق لأولاده فيحكمون بالصلاحية نفسها عند بداية كل عهد. إذن فالملك المؤقت موروث في نسب البيت الملكي. وفي بيلاسبور جرت العادة نفسها بأن يأكل البراهمان من يد الراجا الميت ويحتل العرش مدة سنة. وعند نهاية كل عام يتلقى البراهمان الهدايا ويُطرَد من المنطقة حتى يبدو أنه لن يعود. "ويبدو أن الفكرة أتت من أن روح الراجا قد دخلت البراهمان الذي يأكل الـ (خير) أي (الأرز والحليب) من يده عندما يموت ولهذا يُراقَب البراهمان مدة سنة كاملة لايبتعد فيها. كما تسود العادة نفسها أو مايشبهها في دول الهضاب حول كانغرا. وهنا يجب إخفاء البراهمان الذي يمثل الملك وربما كان هذا الإخفاء بمثابة قتله. وعند تنصيب أمير كارينثيا يصعد الفلاح، الذي يُورَّث هذا المنصب ضمن عائلته، حجراً رخامياً وسط سهوب نفيسة وعلى يمينه تقف بقرة سوداء واضعة وعلى يساره مهرة كريهة هزيلة. يحتشد حوله أهالي الريف البسطاء. ثم يأتي أمير المستقبل وهو يرتدي لباس فلاح، يقترب وهو يحمل عصا الراعي يصحبه أحد أفراد الحاشية والجلالة. ولدى استقباله يصيح

الفلاح:" من ذا الذي أراه قادماً بفخر؟" فيجيب الناس:" أمير البلاد." عندها ينزل الفلاح عن مقعده الرخامي ويتنازل عنه للأمير لقاء ستين فلساً وتُعفى البقرة والمهرة من الضرائب. لكن قبل التخلي عن مكانه يعطي الفلاحُ الأميرَ صفعة خفيفة على خده.

علينا ملاحظة بعض الجوانب في الملوك المؤقتين قبل النتقال إلى القسم الآخر من هذا البحث. في الأمثلة الكمبودية والسيامية يتضح وجود الوظيفة السحرية للملك والتي تنتقل إلى بديله المؤقت. ويظهر هذا بارتباط النصر على الأرواح الشريرة بقدم الملك المؤقت المرفوعة، ويعرض خفضها الدولة للخطر. كذلك تشكل طقوس الكمبوديين في دوس كومة الأرز وفتح السياميين موسم الحراثة والبدار تشكل سحراً يهدف إلى المحصول الوفير جراء حمل بعضه إلى بيوتهم أو بعضاً من بدارِه لتأمين محصول جيد. وعندما يقوم ممثل الملك السيامي بالحراثة يراقبه الناس بقلق ليس ليروا إن كان يمشي في ثلوم مستقيمة لكن ليضعوا علامة دقيقة على قدمه ليروا إن كانت حاشية ثوبه الحريري تصل تلك العلامة لأن حالة الطقس والمحصول في الموسم القادم مرتبطة بهذه الناحية. فإذا رفع سيد مضيفي السماء ثوبه إلى ما فوق ركبته سيكون الطقس رطباً يفسد فيه المطرُ الغزير المحصولَ. وإذا ما تركه ينزل عن كاحله سيحل عليهم الجفاف. ويأتي الطقس المعتدل والمحصول الوفير إذا ما جعل ثوبه عند منتصف ربلته (بطة الرجل). بهذه الدقة تمشي الطبيعة ويأتي السراء والضراء من أدق تصرفات وملامح ممثل الملك. لكن مهمة إنماء المحصول الموْكَله إلى الملك المؤقت هي واحدة من الوظائف التي يُفترَض أنها من مهام الملوك في المجتمع البدائي. أما القاعدة التي تقضي بوجوب وقوف الملك المزيف على قدم واحدة وعلى موقع عالٍ في حقول الأرز فربما تعود أصلاً إلى السحر الذي يجعل المحصول ينمو عالياً، أوعلى الأقل ذلك هو الهدف وراء طقس مماثل متبع عند البروسيين القدامى. فالفتاة الطويلة الواقفة على قدم واحدة وحجرها ممتلئ بالكعك، وبيدها اليمنى كأس من الخمر وقطعة من لحاء الدردار بيدها اليسرى، وتصلي للإله وايزغانثوس، كل هذا يمكن أن يجعل خيوط الكتان تنمو بقدر ما هي مرتفعة. وبعد تفريغ الكأس تُعاد تعبئته، وتَصُب الخمرَ على الأرض تقدمة للإله وايزغانثوس ومن ثم ترمي الكعك بغية إشباع عابديه. وإذا بقيت ثابتة على قدم يتفاءلون

بمحصول كتان جيد وإذا ما أنزلت قدمها يتشاءمون بإخفاق المحصول. وربما نرى المغزى نفسه في تأرجح البراهمانات الذين يراقبهم سيد مضيفي السماء وهو يقف على قدم واحدة. وبناءً على مبدأ السحر التعاطفي ـ التجانسي ربما يعتقدون أنه كلما تأرجح الكهنة أعلى كلما نما الأرز أكثر. ويُسَمَّى ذلك الطقس احتفال المحصول، ويقوم بفعل التأرجح أهالي لاتيفيا في روسيا بقصد التأثير في نمو المحاصيل. ففي الربيع وأوائل الصيف، بين عيد الفصح وعيد القديس يحيى (الانقلاب الصيفي)، يُقال أن كل فلاح لاتيفي يكرس وقت فراغه للأرجحة بقوة وإتقان لأنه كلما تأرجح عالياً كلما نما الكتان أعلى في ذلك الموسم.

في هذه الحالات التي نبحثها، تُتَّبع هذه العادات الخاصة بالملك المؤقت سنوياً، لكن يمكن ممارسة هذه العادة في حالة الطوارئ، مثل تخليص الملك الحقيقي من شر محدق به عن طريق تحويل ذلك الشر نحو بديله الذي يأخذ مكانه فترة قصيرة. وتاريخ الفُرس حافل بأمثلة من هذه البدائل عن الشاه. وخير مثال على ذلك هو الشاه عباس العظيم الذي حذَّره المنجمون من خطر محدق به عام 1591، فحاول إبعاد ذلك الشؤم بالتنازل عن العرش وتعيين أحد الكافرين، ربما كان مسيحياً يدعى يوسفي، ليحكم مكانه. وجرت مراسم تتويج البديل على مايرام ولمدة ثلاثة أيام. وإذا صدَّقنا المؤرخين الفرس، لم يتمتع البديل فقط بالاسم فقط بل بصلاحيات الملك أيضاً. وفي نهاية حكمه المؤقت تم إعدامه، وبهذا تم تنفيذ مشيئة النجوم في تلك الضحية؛ وعاد عباس إلى عرشه بساعة مباركة ووعده المنجمون بعهد طويل مجيد.

الفصل السادس والعشرون
التضحية بابن الملك

نلاحظ من الفصل السابق انحدار الملوك في كامبوديا وجامبي من الأسرة الملكية نفسها. وإذا كانت النظرة المأخوذة عن أصل هؤلاء الملوك المؤقتين صحيحة، يتبين لنا بوضوح سبب وجوب أن يكون البديل من سلالة الملك نفسها. وعندما نجح الملك أولاً بجعل الضحية مقبولة بدلاً عنه، كان عليه أن يبين للناس أن موت الآخر بدلاً عنه شخصياً يؤدي الغرض نفسه. وبما أنه على الملك أن يموت كونه إلهاً أو نصف إله، فعلى البديل أن يملك صفات الملك نفسها حتى يؤدي دوره في هذه المناسبة. وهذا مارأيناه تواً عند الملوك المؤقتين في سيام وكمبوديا وكيف أنهم استُخدِموا لأداء وظائف خارقة للطبيعة كانت سابقاً من صفات الملك وحده. ولا أحد يستطيع أن يقوم بهذا الدور لأجل الملك والشعب سوى ابنه لأنه يشاركه في الوحي الإلهي.

ورأينا التقليد الذي سمح لآون ملك السويد أن يذبح تسعة من أبنائه للإله أودين في أبسولا لكي ينجو بحياته. وبعد أن ضحَّى بابنه الثاني تلقّى من الإله رسالة تقضي بوجوب ذبح أحد أبنائه كل تسعِ سنوات كي يبقى حياً. وبعد أن ذبح ابنه السابع، استمر بالحياة لكنه كان يُنقَل على كرسي من شدة الضعف والوهن. وقدَّم ابنه الثامن واستمر بالحياة لكن على الفراش. وبعدها ضحَّى بابنه التاسع وعاش تسع سنوات أخرى لكنه صار يشرب من قرن وكأنه ولد مفطوم. وتمنى أن يضحي بابنه الوحيد المتبقي لأودين لكن السويديين رفضوا ذلك، فمات ودُفِن في تلةٍ في أوبسالا.

وفي اليونان القديمة كان هناك على الأقل بيت ملكي واحد يعود إلى التاريخ السحيق حيث كان الولد الأكبر عرضة للموت كأضحية بدلاً من أبيه. وعندما

كان كسرى يسير في ثيسالي على رأس جيش جرار لمهاجمة إسبارطة في ثيرموبيلاي، مر بمدينة في آلوس. وهناك أرَوه مقام زيوس اللافيستي حيث روى له مرشدوه رواية غريبة عنه. مفاد القصة هو التالي: في قديم الزمان تزوج ملك البلاد أثاماس امرأة تُدعى نيفيل وخلّفا ولداً سموه فركسوس وابنةً اسمها هيل. وبعد فترة اتخذ لنفسه زوجة ثانية تدعى إينو أنجب منها وَلدين، ليركوس وميليسيرتيس. دبت الغيرة بالزوجة الثانية من وَلَدَيّ ضرَّتها ودبرت لهما مكيدة تودي بهما إلى الموت. وقد استخدمت لهذا الهدف طرق ماكرة خبيثة. في بادئ الأمر أقنعت نساء البلاد بأن يشوين بذور الذرة سراً قبل إيداعها في التربة فانعدم محصول السنة التالية مما جعل الناس يعانون من الجوع. عندها أرسل الملك رسولاً للوحي في ديلفي يسأله عن سبب القِلّة. لكن إينو الشريرة رَشَت الرسول كي يبلغ جواباً على لسان الإله يبين أنه ما من طريقة لإنهاء المجاعة إلا بالتضحية بولَدَي الزوجة الأولى للإله زيوس. وعندما سمع أثاماس النبأ أرسل في طلبهما إذ كانا مع الغنم. لكن كبشاً بصوف ذهبي نطق وكأنه إنسان محذِّراً الولدين من الخطر، فركبا الكبش وطار بهما هارباً قاطعاً البراري والبحار. وبينما كانوا فوق البحر انزلقت الفتاة عن ظهر الكبش وغرقت في الماء. لكن أخاها فاركسوس وصل آمناً إلى بلاد كولكيس حيث حكم على أنه ابن الشمس. تزوج فاريكسوس من ابنة الملك وأنجبا ابناً سمياه سايتيسوراس. وهناك ضحَّى بكبش الصوف الذهبي لزيوس إله الطيران لكن بعضهم اعتبره قد ضحى لزيوس اللافيستي. وهب الكبش الذهبي لأبي زوجته الذي سَمَّره على شجرة سنديان وصار يحرسه تنين لاينام في أيك آريس. وفي الوقت نفسه أتى الوحي للملك أثاماس وأمره أن يضحي بنفسه كفارةً عن البلاد كلها. لذا زيّنه الناس بالأكاليل وكأنه ضحية يُقاد إلى المذبح حيث كانوا على وشك ذبحه لكنه أُنقِذ من قبل حفيده سايتيسوراس الذي وصل في الوقت المناسب من كولكيس بمساعدة هيركيوليس الذي أتى بنبأ بقاء ابن الملك فاريكسوس على قيد الحياة. وبهذا تم إنقاذ أثاماس. لكنه جُنَّ فيما بعد لأنه أخطأ وحشاً برياً في أثناء الصيد وقتل ابنه ليركوس. وبعدها حاول بالفداء بحياة ابنه ميليسيرتيس لكنه أُنقِذ على يد أمه أينو التي ركضت به ورمت بنفسها من فوق صخرة عالية إلى البحر. تحولت الأم وابنها إلى إلهين بحريين وتلقّى الابن ولاءً مميزاً في جزيرة تينيدوس حيث كان

الناس يقدمون أبناءهم أضاحي له. وبعد أن حُرِم الملك أثاماس من زوجته وأولاده ترك البلاد وطلب من الوحي أن ينصحه عن المكان الذي يجب أن يعيش فيه فأجابه أن يتخذ موطناً في القفار يسعد به مع الوحوش البرية. وصادف أن رآه قطيع من الذئاب وهم يلتهمون الغنم فهربوا تاركين بقايا الفرائس النازفة. بهذا تم تحقيق النبوءة. لكن لأن الملك أثاماس لم يضحِّ به لأجل البلاد ككفارة عن ذنب، أصدرت الآلهة قراراً يقضي بأن يُقَدَّم أكبر سليل من كل جيل أضحية لزيوس اللافيستي في دار أثاماس عندما تطأ قدمه مجلس المدينة. كما أبلغوا كسرى أيضاً أن الكثير من هذه العائلة قد رحلوا إلى بلاد بعيدة هرباً من هذا القَدَر، وعاد بعضهم بعد سنين طويلة وقبض عليهم الخَفَر متلبسين يدخلون المدينة فكللوهم كضحايا وساقوهم في موكب إلى الذبح. تبدو هذه الأمثلة تشهيرية - إن لم تكن متكررة – لأن كاتب الحوار المعزو إلى أفلاطون وبعد أن تكلم عن القرابين البشرية عند الكارثاجينين، يضيف أن هذه الممارسات لم تكن معروفة لدى الإغريق وتكلم برعب عن الضحايا التي قُدِّمَت على قمة لايكايوس على يد أحفاد أثاماس.

ما يعزز اعتقادنا بأن هذه العادة البربرية قد توقفت في زمن قريب هو قضية الأضحية البشرية في عهد بلوتارك في أوكومينوس وهي مدينة قديمة في بويوتيا تبعد بضعة أميال عن مسقط رأس المؤرخ في السهل. هناك كانت تعيش عائلة الأب بسولويس أو سخامي والأم أولياي أو مدمِّرة. كل سنة في احتفال أغريونا كان كاهن دايونيسيس يلاحق هؤلاء النسوة بالسيف ويحق له أن يذبح من يَبْلُغها. ففي حياة بلوتارك كان هذا الحق يُمارَس فعلاً من قبل الكاهن زويلوس. وبهذا يُطلَب من العائلة أن تقدِّم سنوياً أضحية بشرية واحدة على الأقل من السلالة الملكية، فهم يرجعون بأصلهم إلى ميناس ملك أوكومينوس المشهور، ذي الثروة العظيمة التي مازالت آثارها ظاهرة حيث تلال أوكومينوس تذوب مع الامتداد الواسع لسهل كوبايك. وجرت العادة أن تزدري بنات الملك الثلاثة النساءَ الأخريات في البلاد لأنهن يخضعن لنوبات باكيك الجنونية ويجلسن في بيت الملك صاغرات يجدلن فلك المغزل والنول بينما تتكلل الأخريات بالورود وتطير ضفائر شعرهن الأشعث مع النسيم ويَجُبْن نشوانات الجبالَ البور التي ترتفع عالياً فوق اوركومينوس. لكن في وقت معين لحق الغضب الإلهي الفتيات الملكيات في مخدعهن الهادئ والتُقِطن بالقوة

إرضاءً لرغبة تتاول لحوم البشر، وتوزعن القرعة فيما بينهن لتقديم أبنائهن لوليمة لحوم البشر. وقعت القرعة على ليوسيب فقدمت ابنها هيباسوس فقسموه عضواً تلو العضو على الثلاثة. من تلك النسوة الضالات تحدرت أوليا وبسولويس اللتان أطلقتا أسميهما على الرجال لأنهن كن يلبسن ملابس كئيبة الألوان دلالة على الأسى والحزن.

إن ممارسة أخذ الضحية البشرية من سلائل أسرة مالكة في أوركومينوس لها دلالة كبيرة لأن أثاماس يُقال إنه حكم في بلاد أوركومينوس قبل عهد مينياس، ولأنه تعلو فوق المدينة قمة لافيستيوس التي عليها - كما في آلوس في ثيسالي - مقام لزيوس اللافيستي حيث تروي الحكاية المتعارف عليها عن اعتزام أثاماس ذبح ولديه فريكسوس وهيل. ما نخلص إليه خلال مقارنة العادات الخاصة بأثاماس مع العادات التي ظلت محترمة حتى المرحلة التأريخية، هو أنه في تيسالي وبويوتيا حكمت سلالة من الملوك كانت عُرضَة للتضحية لمصلحة البلاد لإله يدعى زيوس اللافيستي لكنهم لجؤوا لرفع هذه المسؤولية عن أبنائهم الذين كان قَدَر أكبرهم أن يُساق إلى المذبح. ومع مرور الزمن تخففت شراسة العادة وصار الكبش مقبولاً كبديل عن الأضحية الملكية شريطة أن يمتنع الأمير عن وضع قدمه على الأرض في محفل المدينة حيث تُقدَّم الأضاحي لزيوس اللافيستي من قبل أحد أبناء جلدته. لكن إن كان متسرعاً في الدخول إلى حتفه وإقحام نفسه - حسب أوامرالإله الذي تغاضى بدافعٍ من طبيعته الخيرة عن الالتزام القديم الذي كان يقضي بالموت المحتم والقبول بالكبش البديل — لا مفر من قتله. إن التقليد الذي يربط التضحية بالملك أو أبنائه بالقلّة والمجاعة يدل بوضوح إلى المعتقد السائد لدى البدائيين أن الملك هو المسؤول عن الطقس والمحاصيل ويدفع حياته لندرة محصول أو إخفاق آخر. يبدو أن أثاماس وسلالته قد جمعا بين الوظائف الملكية والسحرية والإلهية، وما يدعم هذا الرأي هو ادِّعاء الألوهية من قبل سالمونيوس أخي أثاماس. ورأينا كيف يدعي المتجرئ الفاني أنه الإله زيوس نفسه وأنه هو صانع البرق والرعد الذي قلَّدهما بأشياء بسيطة مثل الأواني والمشاعل الوهاجة. ويمكننا قياساً أن نعتقد أن تقليد البرق والرعد ليسا مجرد عَرْض تصويري للتأثير على المشاهدين بل كان سحراً يمارسه الساحر الملكي بهدف إثارة الظاهرة السماوية العُلْويَّة عن طريق تقليدها بشكل بسيط.

ومن بين الساميين في غرب آسيا يقوم الملك في أثناء الأخطار الوطنية بتقديم ابنه كأضحية لأجل الشعب. في هذا يقول فيليو بايبلوس في عمله الذي يبحث في عادات اليهود: "كانت هناك عادة قديمة تتبع في أثناء الأزمات والأخطار الكبيرة وهي أن يفدي حاكم المدينة أو الأمة الشعبَ بأكمله بتقديمه أحب ابنائه أضحية لهم ورهينة للعفاريت الشريرة، وكان هؤلاء الأطفال يُذبحون في طقوس غامضة. لهذا يقوم كوينوس – والذي يسميه الفينيقيون إسرائيل – ملك البلاد وقد أنجب ولداً وحيداً يدعى جود – وهي التسمية الفينيقية للولد الوحيد ـ بإلباس ابنه اللباس الملكي ثم يذبحه على المذبح في أوقات الحرب عندما تكون البلاد في خطر محدق من الأعداء." عندما حوصر ملك مؤاب من قبل الإسرائيلين وهوجم من جميع الجهات، قدَّم ابنه الأكبر ولي العهد أضحيةً تُحرَق على الجدار.

الفصل السابع والعشرون
توريث الروح

عند الأخذ بالرأي القائل إنه في قديم الأزمان، كانت الملوك عند الأعراق البربرية تُقتَل عند نهاية حقبة قصيرة من الحكم، يتساءل بعضهم لماذا لم تنقرض العائلة المالكة. ويمكن الرد على هذا السؤال بالقول: أولاً إن الأسرة المالكة لم تكن مقتصرة على العائلة نفسها بل تشترك فيها عدة عائلات بشكل دوري، وثانياً لم يكن المنصب وراثياً بل مفتوحاً على الرجال من كل العائلات بما فيهم الغرباء الذين يستوفون شروطاً معينة مثل الزواج من أميرات أو التخلص من الملك في معركة. ويجب ألا ننسى أن البدائيين لم يكن لديهم بُعد نظر نحو المسقبل أو الحكمة الكافية ليكترثوا بحياة البشر كما نفعل نحن، وما أكثر الأعراق والأفراد الذين انخرطوا بممارسات أدت إلى دمارهم، والمثال على ذلك هو قتل البولينيسين المنظم لثلثي أطفالهم. ويقال إن النسبة نفسها تُقتَل في بعض مناطق إفريقيا الغربية فلا يتركوا الأطفال يستمرون في الحياة إلا بتوفر شروط معينة فيهم. أما الجاغا، وهم قبيلة محاربة في أنغولا، فكانوا يقتلون جميع أطفالهم بلا استثناء كي لا تُعاق المرأة في مشيها، وكانوا يستعيضون عنهم بصبية وفتيات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر بعد أن يقتلوا آباءهم ويأكلوهم. ومن بين هنود المايا في أمريكا الجنوبية اعتادت النسوة على قتل جميع أطفالهن إلا الأخير أو من يعتقدن أنه الأخير، ويقتلن كل من يأتي بعده. ولا عجب أن تدمر هذه الممارسة فرعاً كاملاً من أمة المايا الذين كانوا ولسنين عديدة أرهب أعداء الإسبانيين. ومن بين هنود لنغوا في غران تشاكو، اكتشفت البعثات التبشيرية ما يمكن أن يوصف بأنه نظام الانتحار العرقي المنظم عن طريق ممارسة قتل الأطفال بالإجهاض أو بطرق أخرى. ليس قتل الأطفال هو الطريقة الوحيدة التي لجأت إليها القبائل البدائية في الانتحار، إذ كان

قوم اللافيش يستخدمون امتحان السم كطريقة لا تقل فعالية. فمنذ زمن ليس بالبعيد أتت قبيلة من الجبال تدعى أويت واستقرت على ضفاف الفرع اليساري من نهر كالابار في أفريقيا الغربية، وعندما وصلت البعثة التبشيرية المكان وجدت الناس موزعين على ثلاث قرى. ومنذ ذلك الحين قضى امتحان السم على معظم القبيلة. وفي إحدى المناسبات قام كل الناس بتناول السم ليثبتوا براءتهم حتى قضت نصف القبيلة في المكان وبلغنا أنهم مستمرون في ممارستهم السحرية وهم على وشك الإنقراض الكامل. لا نشك، بعد التعرف على جميع هذه الأمثلة، في أن العديد من القبائل لم تشعر بأدنى حرج في ممارسة أي عادة تقضي على عائلة واحدة. وعندما نعزو إليهم الرِّقَّة إنما نرتكب خطأً يتكرر دائماً وهو الحكم على البدائيين حسب مقاييس الحضارة الأوربية المعاصرة. وإذا وضع القراء في أذهانهم فكرة أن جميع الأعراق يفكرون ويتصرفون على شاكلة المثقف المعاصر، فإن كل هذه العادات والمعتقدات التي أدرجناها في هذا الكتاب تأتي لتحرره من هذه الفكرة التي تسيطر على عقله.

يقتضي التفسير الذي قدمناه عن عادة قتل الشخصيات الملكية أو على الأقل يقترن بفكرة انتقال روح الملك المذبوح إلى خَلَفِه. ليس لدي برهان مباشر على هذا الانتقال عند الشيلوك الذين انتشرت عندهم ممارسة قتل الملوك كنمط نموذجي لأنهم يؤمنون بالمبدأ الجوهري الدَّال على حلول روح مؤسس السلالة في كل من خلفائه المذبوحين. لكن إن كان هذا هو المثال الفعلي الوحيد الذي أُورِدُهُ كدليل على معتقدهم، يمكن أن نرجح عبر القياس توريث روح الإله في الأمثلة الأخرى، على الرغم من عدم وجود دليل مباشر على هذا. وقد بيَّنا سابقاً كيف تنتقل روح الإله المتجسدة في البشر عند الموت إلى إنسان آخر؛ وإذا كان هذا يحصل عند الموت الطبيعي فليس هناك مايمنع حدوثه عند الموت الناجم عن العنف. من المؤكد أن فكرة انتقال روح الميت إلى خلفه شيء مألوف تماماً عند الشعوب البدائية. ففي ناياس يخلف الولد الأكبر أباه في الشيخة. لكن إن كان يعاني من أي عيب جسدي أو عقلي يمنعه من الحكم، يقرر الأب في حياته أيّاً من أبنائه الآخرين سيخلفه. ولكي يثبت حقه في هذا الإرث، من الضروري أن يأخذ الابن ـ الذي وقع عليه خيار الأب ـ يأخذ في فمه آخرَ نَفَسٍ يلفظه الأب عند الموت. وكل من يلتقط النفس الأخير

يصبح مؤهَّلاً للخلافة تماماً مثل الوريث الشرعي. لهذا يحتشد الأولاد الآخرين وأحياناً الغرباء حول الرجل المحتضر لالتقاط روحه وهي تخرج، كما تُرفَع البيوت في نياس على أعمدة، وإذا صادف أن كان وجه الرجل على الأرض يقوم أحد المرشحين للشيخة بحفر حفرة في الأرض لامتصاص نفس الشيخ الأخير عبر أنبوب من القصب. وإذا كان الشيخ أبتر يلتقطون روحه في كيس يُربَط إلى صورة تمثل الميت معتقدين أن الروح تنتقل إلى الصورة.

أحياناً تُقام الصلة الروحية بين الملك وأرواح خلفائه عبر امتلاك أحد أجزاء أولئك الناس. ففي سيليبيس الجنوبية تعتمد امتيازات الملك على مقدار امتلاك الخلف لأجزاء من جسد السلف الميت، وهي بقايا مقدسة تشرِّع الحق في العرش. لدى السكالافا في مدغشقر الجنوبية أيضاً، توضع فقرة رقبة أو خصلة من شعر الملك الراحل مع سن تمساح وبقايا أخرى من السلف في منزل منعزل يقام لهذا الغرض. ويشكل امتلاك هذه البقايا الحق في العرش. فعندما يفقد الوريث الشرعي تلك البقايا يفقد كل سلطة له على الناس، ويغدو مغتصب العرش هو الملك المعترف به بلا جدال إذا ما امتلك تلك البقايا. عندما يموت الألياكي ـ أي ملك ابيوكوتا في أفريقيا الغربية ـ يقوم كبار القوم بقطع رأسه ويضعونه في وعاء من الطين ثم يقدمونه للملك الجديد كي يجعله فتشاً يقدم له التشريفات. ولكي يرث الملك الجديد الفضائل السحرية وغيرها من فضائل السلالة الملكية، عليه أن يأكل قطعة من السلف الميت. لذلك لا يقدم الأبيوكوتا رأس الملك السابق لخلفه فحسب، بل يقطعون لسانه ليأكله. لذلك يدل الأصلاء منهم على امتلاك العرش بقولهم: " لقد أكل الملك." ما تزال العادة نفسها متبعة في إبادان وهي مدينة كبيرة في وسط لاغوس في أفريقيا الغربية، فعندما يموت الملك يُقطع رأسه ويُرسَل إلى السلطان الأعلى وهو ألافين أويو ملك يوروبا؛ أما قلبه فيأكله خَلَفُه. لم يتوقف هذا الطقس إلا منذ عدة سنوات حسب قول ملك إبادان الجديد. ويتبين لنا من ممارسة قوم شيلوك على النيل الأبيض الذين يقتلون ملكهم الإلهي بشكل منتظم، وعلى الملك أن يقوم وبمحض إرادته بأداء طقس نقل روحه المقدسة المعبودة التي أحيت جميع أسلافه الواحد تلو الآخر على العرش. إذن كانوا يؤمنون بأنّ روح الكاهن أو الملك المقتول تنتقل إلى سلفه.

الفصل الثامن والعشرون
قتل روح الشجرة

1ـ إيمائيو أسبوع العنصرة

بقي علينا أن نعرف ما هو الضوء الذي يسلطه قتل الملك الإلهي والكاهن على موضوع بحثنا هذا. لقد رأينا في فصول سابقة من هذا العمل مبرراً يجعلنا نؤمن بأن ملك الغابة نيمي كان يُعتبر تجسيداً لروح الشجرة أو روح النبات، ويرى فيه عابدوه القدرة السحرية على جعل المحاصيل تنمو والأشجار تحمل ثماراً. لذلك يدركون حياته النفيسة فيحيطونها بنظام حماية ملؤه الحيطة والمحرمات مثل النظام الذي يحرس الإنسان الإله من تأثيرات العفاريت والسحرة الشريرة. لكننا رأينا أيضاً أن القيمة المرتبطة بحياة الإنسان الإله تتطلب بالضرورة موته العنيف كوسيلة وحيدة لحمايته من ضعف الشيخوخة الحتمي. وينطبق الشيء ذاته على ملك الغابة الذي لابد أن يُقتل حتى تنتقل الروح الإلهية المتجسدة فيه سليمة إلى خَلَفِه. أما القاعدة التي تسمح بأن يشغل منصبه حتى يأتي من هو أقوى منه ليذبحه هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على حياته الإلهية بكامل نشاطها ونقلها إلى خلف مناسب حالما تبدأ قواه بالضعف. ومادام أنه يحافظ على موقعه بساعديه القويتين فإن قوته الطبيعية تبدأ بالتخامد، في حين يدل موته على يد آخر على شروعه بالضعف وهو الوقت المناسب لنقل حياته الإلهية إلى مثوىً أسلم؛ إنه مبدأ في غاية الوضوح. كما يؤيد هذا الرأي ممارسة ونظرية الشيلوك في قتلهم الملك الإلهي عند أول علامات انحداره الصحي كيلا يسبب عجزه انهياراً في طاقته وبالتالي ينعكس ذلك على الذرة والماشية والناس. وقياساً على ذلك هي حياة الشيتومي التي يعتمد عليها وجود العالم بأسره، والذي يُذبح من قبل خلفه فور ظهور علامات التراجع في قواه الجسدية. كذلك تتطابق شروط احتلال منصب ملك كاليكوتا مع شروط منصب ملك الغابة

باستثناء أن ملك الغابة يمكن أن يُهاجَم ويُقتَل في أي وقت بينما يُهاجم ملكُ كاليكوتا كل إثنتي عشرة سنة. وما القاعدة التي تسمح له بالحكم طوال قدرته على الدفاع عن نفسه إلا تلطيف لعادة حصر الفترة ضمن اثنتي عشرة سنة، ومن هنا نتوقع أن تكون عادة قتل ملك الغابة عندما تبدأ قواه بالخوران هي تلطيفاً لعادة أقدم تقضي بقتله عند نهاية فترة محددة. كل هذا يدل على أن الإنسان الإله قد أُعطي فرصة إضافية لكسب حياته التي كان محروماً منها سابقاً ولم يعد هناك خشية من قبل الناس على انحدار قدرته المميت مادام أنه قادر على حماية نفسه بالقوة.

ما يدل على وجود عادة قتل الملك عند نهاية فترة محددة هو الدليل الذي نورده عن عادة قتل أمثاله وهم ممثلو روح الشجرة في أوروبا الشمالية. في الحقيقة تركت هذه العادة آثاراً جلية على احتفالات الفلاحين الريفية. لنأخذ أمثلة على ذلك في ندربورنغ عند بافاريا الدنيا حيث يسمون ممثل أسبوع العنصرة **بفينغفستل** ويكسونه بالأوراق والورود من رأسه إلى أخمص قدمه، ويرتدي على رأسه قبعة مدببة عالية يصل أسفلها إلى أكتافه مع ترك فتحتين لعينيه، وتُغطى القبعة بورود مائية تعلوها باقة من الفاوانيا، وتُصنع أكمام معطفه من النباتات المائية أيضاً أما باقي جسمه فيُغطّى بنبتة جار الماء وأوراق البندق. يمشي على جانبيه اثنان من الفتية يحمل كل منهما زراع بفينغفستل كما يحمل كل منهما سيفاً مستلاً وكذلك يفعل معظم من ينضم لهذا الموكب. يقفون عند كل منزل على أمل الحصول على هدية بينما يقوم الناس خفيةً بتبليل الأوراق بالماء حتى يُشبع بالماء، فيفرح الجميع بذلك. ثم يغوص في الجدول حتى خصره بينما يتظاهر أحد الصبية بقطع رأسه. وفي ورملنجين في سوابيا وفي اثنين العنصرة، يقوم عشرون من الشبان بارتداء قمصان وسراويل بيضاء، بينما تتدلى السيوف من لفاعات حمراء يلفونها حول خصورهم، ويركبون الخيل إلى الغابة خلف نافخي الأبواق. وفي الغابة يقطعون أغصان بلوط مورقة يكسون بها آخر فارس يخرج من القرية. ويكسون كل رِجل من رجليه على حدة حتى يتمكن من اعتلاء الحصان ثانيةً. وبعدها يعطونه رقبة اصطناعية طويلة يعلوها رأس ووجه اصطناعي. ثم يقطعون شجرة أيار وتكون عادةً من الحور الرجراج أو من الزان بطول ثلاثة أمتار تقريباً، وبما أنها ملونة بالمناديل والأشرطة يُعهَد بها لحامل شجرة

أيار. وبعدها يعود الموكب بالغناء والموسيقا إلى القرية. ومن بين الحضور ملك موري بوجهه المسخم والتاج على رأسه ويسمونه الدكتور "لحية الحديد" فيلعب دور العريف والجلاد. يتوقفون عند مزارع القرية حيث يقوم كل من الشخصيات بإلقاء كلمة موزونة. ثم يعلن الجلاد أن الفتى المكسو بالأوراق محكوم عليه بالموت ويقطع رأسه المزيف. ثم يتسابق الفرسان إلى شجرة أيار المنصوبة على مقربة منهم، ويفوز بها وبزينتها أولُ من ينتزعها من الأرض. والجدير بالذكر أن هذا الطقس يُقام كل سنتين أو ثلاث سنوات.

وفي ساكسوني وتورنجن هناك طقس عنصرة يدعى "مطاردة الإنسان البري من الغابة" أو "إحضار البرّيّ من الغابة". يُكسى شخص بالأوراق والطحالب ويدعى الرجل البري، ثم يختبئ في الغابة ويخرج الفتية للبحث عنه. وعندما يجدونه يقودونه أسيراً خارج الغابة ويطلقون عليه النار من بندقية فارغة فيسقط وكأنه ميت على الأرض لكن فتى يلبس لباس طبيب يعالجه فيعود إلى الحياة ثانيةً. تنتشي الجموع لهذا الإنجاز ويحملونه على عربة إلى القرية حيث يبلغون الناس كيف التقطوا الرجل البري، ويتلقون هدية من كل بيت. وفي إرزنجنبرغ كانت تُتبع عادة سنوية في أيام المرافع في بداية القرن السابع عشر. يقوم رجلان بالتنكر، أحدهم بأغصان وأشنيات والآخر بالقش ويقودونهما في الشوارع وأخيراً إلى السوق العامة حيث تتم مطاردتهما جيئة وذهاباً، بإطلاق النار والطعن. وقبل سقوطهما يترنحان وعلى وجهيهما تعابير غريبة ويثجان الدم على الناس من قربة يحملانها. وعندما يسقطان يضعهم الصيادون في عربة وينقلونهما إلى حانة الجعة ويسير إلى جانبهم عمال المناجم يطرقون على أدوات التنقيب وكأنهم حصلوا على رأس طريدة عظيمة. وما تزال هناك مرافع مماثلة في شلوكيناو، يرتدي فيه رجلٌ لباساً برياً ويُطارد في الشوارع حتى يدخل في زقاق ضيق يمتد على عرضه حبل يتعثر به ويسقط على الأرض فيمسك به مطاردوه. يسرع الجلاد ويطعن بسيفه قربة مملوءة بالدم يرتديها الرجل البري على جسمه، فيموت الرجل ويخضب الدم المتدفق الأرض. وفي اليوم التالي يظهر الرجل القشي على نفس الشكل ويؤخذ على نقّالة مصحوباً بحشد من الناس إلى بركة يلقيه بها الجلاد. ويسمى هذا الطقس " دفن المرفوع "

وفي بوهيميا تتبع عادة قطع رأس الملك في اثنين العنصرة إذ يتنكر مجموعة من الشبان ويطوق كل منهم نفسه بحزام من لحاء الشجر ويحمل سيفاً وبوقاً من لحاء الصفصاف. يلبس الملك ثوباً من لحاء الشجر مزيناً بالورود وعلى رأسه تاج من لحاء مزين بالورود والأغصان وتلتف السراخس حول قدميه ويغطي وجهه قناع ويحمل قضيباً من الزعرور على أنه صولجان. يقوده فتىً في أرجاء القرية بحبل مربوط على قدمه بينما يرقص البقية وهم ينفخون بأبواقهم ويصفّرون. وفي كل بيت في المزارع يُطارد الملك في أرجاء الغرفة ويقوم أحد الفتيان مع الصراخ والضجيج بالضرب بسيفه على ثوب اللحاء ليدور ثانيةً، ثم يطلبون العطايا. يقام طقس قطع الرأس ـ وهو مخفف هنا نوعاً ما – بتمثيلٍ أكبر في أنحاء أخرى من بوهيميا. ففي بعض القرى في مقاطعة كونيغراتز تجتمع الفتيات في إثنين العنصرة تحت شجرة دِبْق ويتجمع شبان تحت أخرى وكلهم يلبسون أفضل ملابسهم مزينةً بالأشرطة. يجدل الشبان إكليلاً للملكة وتجدل الفتيات إكليلاً للملك. وعندما يختارون الملك والملكة يذهبون جميعاً في موكب برتل ثنائي إلى الحانة ويعلن منادٍ من الشرفة اسمَي الملك والملكة. عندها يقومون بتقليدهما شارة المنصب ويُلبَسون الأكاليل والتيجان على وقع الموسيقا. يقوم أحدُهم بإنشاء محكمة ويتهم الملك بعدة جرائم مثل سوء معاملة الماشية ويطالب الملك بالشهود وتعقد المحاكمة التي يعلن فيها القاضي الذي يحمل عصاً بيضاء شارة منصبه يعلن الحكم بالإدانة أو عدم الإدانة.عندما يُدان المتهم يكسر القاضي عصاه ويضع جندي ثلاث أو أربع قبعات الواحدة فوق الأخرى على رأس جلالته. عندها يلفظ القاضي عبارة " مذنب " ثلاث مرات بصوت عالٍ ويأمرُ المناديَ بقطع رأسه. يطيع المنادي أوامر القاضي ويضرب القبعات بسيفه الخشبي.

وإليكم التمثيلية الإيمائية البوهيمية التالية التي نتعلم منها الكثير في مجال بحثنا هذا. في بعض أنحاء بيلسن في بوهيميا، وفي اثنين العنصرة، يُلبَّس الملك باللحاء ويزين بالورود والأشرطة وعلى رأسه تاج من الورق المذهب، يعتلي حصاناً مزيناً بالورود. برعاية القاضي ومنفذي الإعدام وشخصيات أخرى يتبعهم رعيل من الجنود كلهم على الأحصنة، يركب الملك إلى ساحة القرية حيث يُقام كوخ من أغصان خضراء تحت أشجار أيار المصنوعة من التنوب المقطوعة حديثاً ومقشرة من الأعلى ومكسوة بالورود والأشرطة. وبعد أنتقاد السيدات والعذراوات في القرية

وقطع رأس ضفدع، يركب فرسان إلى مكان محدد سابقاً في شارع عريض مستقيم، يقفون في رتلين. يحاول الملك الفرار، ويفسحون له المجال قليلاً في البداية فينطلق بسرعة فائقة ثم يلاحقونه جميعاً. وإذا أخفقوا في التقاطه يبقى ملكاً لسنة إضافية ويدفع زملاؤه الحساب في الحانة مساءً. وإذا أمسكوا به يُجلد بقضبان من بندق وبسيوف خشبية ويُجبَر على الترجل عن حصانه. ثم يسأل الجلاد: "هل أقطع رأس هذا الملك؟" فيأتي الجواب " اقطعه." ويلوح بفأسه وبسيفه قائلاً: " واحد، اثنان، ثلاثة، ليكن الملك بلا رأس!" ويبتر تاج الملك. وسط صيحات المشاهدين العالية يسقط الملك على الأرض ثم يوضع في تابوت ويُحمل إلى أقرب بيت في مزرعة.

من الواضح أن ما تمثله الشخصيات المذبوحة في هذه المسرحية الإيمائية هو روح الشجرة وروح الخضرة وما يلبسه الممثلون من أوراق و لحاء وزهور والفصل الذي يظهرون فيه يبين أنهم ينتمون إلى فئة ملك العشب وملك أيار وجاك في الخضرة وروح الخضرة النضرة التي بحثناها سابقاً في هذا العمل. ومما لاشك فيه أن لهؤلاء الرجال المذبوحين علاقة مباشرة مع أشجار أيار المتجسدة في ملك أيار وملك العشب كتمثيل شخصي لروح الشجرة. وما تبليل بفينغستل بالماء وغوصه لخصره في الغدير إلا سِحْرَي مطر مثل الذي شرحناه سابقاً. لكن إن كانت هذه الشخصيات تمثل — وهي فعلاً تفعل ذلك — روح الخضرة في الربيع، يطرح السؤال التالي نفسه: لماذا نقتلهم؟ وما الهدف من ذبح روح الخضرة أصلاً وخصوصاً في الربيع عندما نكون بأمسّ الحاجة لها؟ الجواب الوحيد هو ما أسلفنا شرحه عن عادة قتل الملك الإله أو الكاهن. تتجسد الحياة الإلهية في الجسد المادي الفاني والمعرض للتفسخ والذي يكتسب قدسيةً خلال فترة محددة، وإذا كان من الضروري إنقاذه من الضعف المتزايد الواقع على مثواه البشري مع تقدم السنين، لابد من فصله عنه حالما تظهر علامات الإنحدار ويُنقل إلى خَلَفه النشيط فيُقتل ممثل الإله السابق وتُنقل الروح الإلهية إلى جسد جديد. إن قتل الروح أو تجسيدها البشري هو خطوة ضرورية لانتعاشه وبعثه على شكل أفضل. وبعيداً عن كونه انقراض لروح إلهية، إنها عملية بداية ظهور أنقى وأقوى. إذا كان هذا التفسير يصيب الحقيقة في عادة قتل الملوك الإلهيين والكهنة بشكل عام، الحري به أن ينطبق بوضوح أكبر على عادة قتل ممثل روح الشجرة سنوياً أو قتل روح الخضرة في الربيع. ويفهم البدائي من انحدار

الخضرة في النبات شتاءً أنه ضعفٌ في روح الخضرة ويعتقد أن الروح قد شاخت وضعفت ولابد من تجديدها عن طريق الذبح وإعطائها شكلاً أنضر وأصغر سناً. إذن يُعتبر قتل روح الشجر في الربيع وسيلة لتحسين ورفع سوية نمو الخضرة. وذلك لأن قتل روح الشجر مرتبط ضمناً وأحياناً ظاهراً بإعادة نشوئه أو انبعاثه على شكل أكثر شباباً ونشاطاً. ولهذا نرى أنه في ساكسون وثورنجن وبعد رمي الرجل البري وإعادته إلى الحياة ثانيةً من قبل طبيب؛ وحسب طقس ورملنجن، يبدو جلياً كيف يعيد الدكتور لحية الحديد حياة الرجل الميت. وسنقول المزيد عن بعث الآلهة لاحقاً.

إن أوجه التشابه بين شخصيات شمال أوروبا وموضوع بحثنا – ملك الغابة وكاهن نيمي ـ لافتة للغاية. ففي الشمال رأينا الملوك المقنعين الذين يرتدون اللحاء والأوراق ورأينا كوخ أغصان التنوب الخضراء التي يعقدون تحتها محكمتهم، وهم تماماً مثل أمثالهم الإيطاليين ملوك الغابة. ومثلهم يموتون ميتة عنيفة ومثلهم يمكنهم الهرب وقتاً معيناً إذا ساعدتهم في ذلك قوتهم الجسدية ويقظتهم؛ ففي العديد من هذه العادات الشمالية يشكل هرب الملك وملاحقته الجزء الأساس في الطقس وفي حال كان الملك أقدر من ملاحقيه على الجري، فله أن يستعيد منصبه سنة إضافية ويحتفظ الملك بمنصبة شريطة أن يركض فينقذ حياته مرة كل سنة تماماً كما فعل ملك كاليكوتا عندما دافع عن حياته ضد جميع القادمين إليه كل اثنتي عشرة سنة وكذلك كما احتفظ كاهن نيمي بمنصبه شريطة أن ينجح في صد أي هجوم في أي وقت. تشترك كل هذه الحالات بإطالة حياة الإنسان الإله إذا أبدى نجاحاً في القتال أو الهروب مما يدل على قدرته الجسدية غير المنحدرة وبهذا يؤجل موته العنيف المحتوم إلى وقت لاحق. ونلاحظ وضوح عملية الهروب في أسطورة ملك الغابة وممارسته. ظل في ذهن أوريستيس، مؤسس العبادة، عبداً فاراً ولهذا وُصِف ملوك الغابة بأنهم أقوياء بسواعدهم وخفيفون في جريهم. ربما لو عرفنا طقوس أيك أريسيا تماماً لعرفنا أن الملك يمكن أن ينجو بحياته عن طريق الهروب مثل أخيه البوهيمي. وتوقعت سابقاً أن هروب ملك روما السنوي كان هروباً من النوع نفسه وكان واحداً من الملوك الذين إما يقتلون عند نهاية فترة محددة أو يثبتون بسواعدهم القوية أو جريهم السريع أن أُلوهيتهم نشيطة غير منقوصة. وهناك تشابه آخر بين ملك الغابة الإيطالي وأمثاله الشماليين. ففي ساكسوني أثورنجن يُبعث ممثل روح

الشجر على يد أحد الأطباء بعد أن يقتل. وهذا ماتروي الأسطورة حدوثه مع أول ملك غابة في نيمي وهو هيبوليتوس أو فيربيوس الذي بعد أن قُتل تحت حوافر الخيل أعيد للحياة ثانيةً على يد الطبيب أسكولابيوس. وهكذا تنسجم هذه الأسطورة تماماً مع نظرية ذبح ملك الغابة كمرحلة تسبق انبعاثه في خَلَفِه.

2ـ دفن المرفوع

شرحنا سابقاً القاعدة التي تقضي قتل كاهن نيمي من قبل خلفه وكان شرحاً في حدود المحتمل بناءً على معرفتنا الضئيلة بتاريخ تلك العادة. وتزيد هذه الإحتمالية رجحاناً إذا ما وُضِع القتل ضمن حدود دوافع وطريقة تفكير المجتمع البدائي. إذن فالإله الذي نبحث في موته وبعثه هو إله الشجرة. وترتفع هذه الإحتمالية أكثر عندما نثبت أن عادة قتل الإله والإيمان ببعثه يعود أصلها إلى ـ أو على الأقل موجود في ـ مجتمع الصيد والرعي عندما كان الإله المذبوح حيواناً، واستمر في المجتمع الزراعي عندما أصبح الإله المذبوح حنطةً أو كائناً بشرياً يمثل الحنطة. وهذا ما سأحاول إثباته لاحقاً على أمل إزالة الغموض المتبقي وإجابةً على بعض الاعتراضات التي تطرح نفسها على أذهان القراء.

لنبدأ من النقطة التي انتهينا منها وهي العادات التي يتبعها فلاحو أوروبا في الربيع. هناك مجموعتان من العادات يتجلى فيهما القتل الزائف للإله أو القوة الخارقة. في المجموعة الأولى يُمَثَّل تشخيص المرفوع درامياً، وفي المجموعة الثانية يظهر على أنه الموت نفسه. ويقام طقس المرفوع بشكل طبيعي عند نهاية فترة المرافع، إما في اليوم الأخير من هذا الفصل المبهج وتحديداً ثلاثاء المرافع، أو في اليوم الأول من الصوم الكبير، وتحديداً أربعاء الرماد. ليس هناك تاريخ ثابت لطقس طرد الموت، لكنه بشكل عام يصادف الأحد الرابع من الصوم الكبير ويأخذ تسمية أحد الموتى؛ لكن يحتفل به قبل أسبوع في بعض المناطق، أو بعد أسبوع كما عند التشيك، بينما يُقام في الأحد الأول بعد الفصح في بعض القرى الألمانية. ربما يعود تعدد مواعيده إلى ظهور أول سنونو أو بشائر الربيع الأخرى. كما يرى بعض الكتاب أن الطقس يعود إلى أصول سلافونية. فهذا الكاتب غريم يرى أنه إحتفال

السنة الجديدة عند السلافيين القدامى الذين يبدؤون سنَتَهم في آذار. لنأخذ بعض الأمثلة على موت المرفوع الإيمائي الذي يُقام قبل الطقوس الأخرى على التقويم.

في فروسينون في لاتيوم وهي على منتصف الطريق بين روما ونابليس، ما يكسر رتابة الحياة في المدينة الإيطالية الريفية في اليوم الأخير للمرافع، هو الاحتفال القديم المعروف بـ راديكا. عند الرابعة مساءً تبدأ فرقة المدينة بالعزف ويتبعها حشد كبير يتقدمون نحو بيازاديل بليبيسيتو حيث الولاية الفرعية وبقية المباني الحكومية. وفي منتصف الساحة تبتهج أعين المشاهدين بمنظر عربة هائلة تجرها أحصنة، مزينة بحبال الزهور الملونة، وعلى العربة عرش ملكي ضخم يجلس عليه شخص المرافع، رجل من الجص يبلغ طوله حوالي مئتين وسبعين سنتيمتراً، مهيب ذو وجه مائل إلى الحمرة، ابتسامته رصينة، حذاؤه ضخم، خوذته من القصدير كتلك التي تشرِّف رؤوس ضباط البحرية الإيطالية، معطفه ملون مرصع بأدوات غريبة، يضع يده اليسرى على ذراع الكرسي اليساري، ويحيي الجمهور بيده اليمنى التي يحركها رجل مخفي عن أنظار الناس بواسطة خيط مربوط إليها. يطمو الناس حول العربة ويطلقون العنان بالتعبير عن عواطفهم بصيحات الفرح العفوية البسيطة وهم يرقصون رقصة سالتاريلو. وما يميز الاحتفال وجوب الإشتراك فيه، وعلى كل منهم أن يحمل جذراً، والمقصود به ورقة ألوة أو صبَّار. وكل من يغامر في الدخول في الحشد دون هذه الورقة يطردونه بقوة إلا إذا حمل بديلاً عنها مثل ورقة ملفوف على رأس عصا طويلة أو ضفيرة عشب مضفورة بشكل طريف. يتوقف الجمهور بعد أن يرافق الاحتفال إلى بوابة الولاية الفرعية العربةَ البطيئة التي تتنخع على الأرض غير المستوية وتدمدم في الساحة. تسقط الشجرة على الحشد فيطلقون أصواتاً مكبوتة وكأنها بحر هادر. تتجه الأنظار بقلق نحو الباب الذي سيظهر منه الوالي وممثلو الجلالة ليقدموا البيعة لبطل الساعة. بضع لحظات من الريبة تأتي بعدها عاصفة من الهتافات والتصفيق تحيةً لظهور أصحاب المقامات الرفيعة وهم يخرجون أرتالاً، ينزلون الدرج ويأخذون أماكنهم في الموكب. ثم يهدر نشيد المرفوع، ووسط الهدير المُصِمّ ترتفع عالياً أوراق الملفوف والألوة وتنزل جذافاً على رؤوس الصالح والطالح الذين يتمتعون باشتراكهم بقتال حر. بعد أن يكتفوا من هذه الألعاب يبدأ الموكب. تأتي عربة ببراميل الخمر ويقوم رجال الأمن تمشياً مع

طبيعة عملهم بتوزيع الخمر على من يرغب بينما يقوم صراع مرير، يتخلله الصراخ العالي وتجديف على الله، بين الحشود المتسارعة لكسب فرصة تناول المسكر على الحساب العام. وبعد أن يجول الموكب في الشوارع الرئيسة بالطريقة المهيبة تُؤخذ صورة المرفوع إلى الساحة الرئيسة، ويُعرّى من لباسة المبهرج ويوضع على كومة من خشب ويحرق وسط صيحات الجمهور الذين يطلقون ثانيةً أغنية المرفوع ويلقون ما يسمى "الجذر" على المحرقة ويطلقون العنان لمرحهم ورقصهم.

أما في أبروزي فتُحمل صورة المرفوع ملصقة على لوح من قبل أربعة من حفاري القبور وفي أفواههم أنابيب من قوارير الخمر المربوطة إلى أحزمة أكتافهم. تمشي زوجة المرفوع في المقدمة، ترتدي لباس الحداد وتغرق في دموعها. يتوقف الموكب من فينة إلى أخرى وبينما تخاطب الزوجة عموم الناس المتعاطفين ينشّط حفارو القبور الإنسان في الداخل برشفة من القارورة. في الساحة المفتوحة تُلقى الجثة المزيفة على المحرقة وتتعالى صيحات النساء الحادة مع قرع الطبول وصرخات الرجال بصوتهم الأجش ويلقي الناس الكستناء على الصورة المحترقة. وأحيانا يُمثل المرفوع بمجسم قشي لرجل على رأس عمود يحمله مجموعة من المتنكرين إلى المدينة بعد الظهر. وعندما يأتي المساء يمسك أربعة من المتنكرين بشرشف من زواياه الأربعة ويُرفع المرفوع عليه ويُستأنف الموكب ويذرف المشاركون دموع التماسيح ويظهرون مرارة الحزن باستخدام الجرس والمقلاة. وأحياناً يمثلون المرفوع برجل حي يستلقي في التابوت بينما يقوم شخص آخر بلعب دور الكاهن الذي يرشه بالماء المقدس.

وفي ليريدا في كاتالونيا شاهد مسافرٌ إنكليزي جنازة المرافع في عام 1877 فوصفه على الشكل التالي: في الأحد الأخير من المرافع يرافق سيارةً كبيرةً موكبٌ كبيرٌ من الجنود المشاة والفرسان والمقنعين من شتى الأنواع، بعضهم على ظهور الأحصنة وبعضهم على العربات. تجري السيارة وعليها صورة باوبي في الشوارع الرئيسية وتقوم العربدة لثلاثة أيام، وفي منتصف ليلة اليوم الأخير من المرافع يعاود الموكب الكرَّة في الشوارع لكن بمظهر آخر ولهدف آخر، إذ يحل نعش مكان عربة النصر نعش فيه صورة باوبي لكن في وضعية مختلفة، ويلبس من لعب دور المقنعين المرحين لباس الكهنة ويمشون بتؤدة يحملون شموعاً عالية وينشدون ترنيمة جنائزية. يضع جميع المتنكرين عُصابات الحِداد فيأخذ الموكب طابعاً حزيناً،

ويحمل الفرسان مشاعل تحترق يجوبون الشوارع التي تطل عليها حشود المتفرجين من الشرفات وهم يلبسون أجمل الأقنعة والملابس. يتخلل المشهدَ الظلالُ المتحركة التي تصنعها المشاعل المتنقلة فترى أضواء حمراء وزرقاء تظهر وتختفي بينما ترفع الحشود أصواتها مرددة قداس الميت الذي ينشده الكهنة. تدخل الجماعة العسكرية بطبولها المكتومة. يتوقف الموكب عند الساحة الرئيسية وتقام خطبة جنائزية على الميت باوبي وتنطفئ الأنوار. وفجأة يثب الشيطان وأعوانه من الحشد ويمسكون بالجثة ويهربون بها فيلاحقهم الجمهور يزعقون ويصرخون ويهتفون. تتشتت الشياطين وتُستعاد الجثة من أيديهم وتوضع في النعش ليصار إلى دفنها. بهذا يكون مرفوع 1877 قد مات في ليردا وتم دفنه.

ويُقام طقس من النوع نفسه في بروفينس في أربعاء الرماد، فيقومون بتزيين صورة كارامانتران زينة نزواتية وتُساق عربة أحصنة أو تُحمل على نقالة ويرافقها الناس بملابسهم المزخرفة وهم يحملون القرع المملوء بالخمر ويشربونه ويثملون فعلاً أو تمثيلاً. وعلى رأس الموكب يتنكر بعض الرجال على أنهم قضاة ومحامون ويقوم رجل طويل هزيل ليمثّل الصوم الكبير، ويمشي وراءهم شبان يعتلون أحصنة بائسة يلبسون الحداد ويتظاهرون بالنواح على القَدَر الذي ينتظر كارامانتان. في الساحة الرئيسة يقف الموكب وتُقام المحكمة ويوضع كارامانتان في القفص، ثم يُحكم عليه بالإعدام بعد محكمة شكلية وسط أنين الجموع. يقوم محامي الدفاع بعناق موكله للمرة الأخيرة، ويقوم رجال القانون بواجبهم ويقف المدان ورأسه إلى الحائط ويدخل في الأبدية تحت وابل الحجارة ثم تذهب بقاياه المشوهة إلى البحر أو النهر. وفي جميع أنحاء آردينيس كانت ومازالت عادة حرق صورة في أربعاء الرماد ساريةً. من المفترض أن الصورة تمثل المرفوع وتُغنّى عليها الأناشيد وهي تحترق. في غالب الأحيان يحاولون تشبيه الصورة بزوج معروف بخيانته لزوجته في القرية. ويُميَّز من اختير كصاحب للصورة أنهم يحرقونها أمام منزله وتطلق الجوقة الصرير والمواء فتكون شهادة لما يتمتع به من مناقب. وفي بعض قرى أردينيس يلبسون شاباً حياً بالقش والتبن ويقوم بدور ثلاثاء المرافع. ويمثّل أمام المحكمة ويُحكم عليه بالموت، يقف ووجهه إلى الحائط كأنه جندي يُعدم، ويُطلق عليه النار بطلقات خلبية. وفي قرية فرينوبوا قُتل أحد هؤلاء المهرجين الأبرياء بطلقة حية تُرِكت في مخزن البندقية. عندما وقع

مرفوع الثلاثاء المسكين على الأرض بفعل النار الحي تعالت صيحات الاستحسان طويلاً كونه قام بدوره على أكمل وجه لكن عندما لم ينهض ثانيةً أسرعوا إليه فوجدوه جثة هامدة. منذ ذلك الحين مُنع الإعدام التمثيلي في آردينيس.

في نورماندي، جرت العادة عشية أربعاء الرماد أن يقيموا احتفالاً يدعى دفن ثلاثاء المرافع، يلبسون فيه مجسماً حقيراً لباساً شحيحاً مهترئاً: قبعة قديمة معطوبة تنزل على وجهه المتسخ، ويحشى كرشه الكبير بالقش، كل هذا ليمثل فاسقاً عجوزاً سيء السمعة منغمساً بالملذات منذ زمن بعيد وهو الآن على وشك أن يدفع ثمن ذنوبه. يتم رفعه على أكتاف رجل قوي يتظاهر بأنه ينوء بحمله، ثم يقيمون جولة في شوارع المدينة. يسبقهم الطبَّالون ويصحبهم الغوغاء الساخرون من الأولاد الأشقياء كما يتجمع رعاع المدينة ويصدرلَمُها أصواتاً غير متناغمة من الهسيس، ويضربون بالملاقط على الأواني، ينعبون ويئنون. يتوقف الموكب من حين إلى آخر، يدين البطلُ الأخلاقي فيه ذلك المذنبَ العجوز بكل التجاوزات التي اقترفها ليستحق الحرق حياً. ثم يلقى المجرم الذي لاحيلة له ولاقوة على كومة من القش وتولع النار فتشيط لهباً. يبتهج الأطفال ويدورون حولها يغنون عالياً شعراً شعبياً عن قتل المرفوع. وأحياناً يدحرجون هذا المجسم على سفح جبل قبل حرقه. وفي سنتلو تتبعُ مجسمَ ثلاثاء المرافع أرملتُه وهي امرأة ضخمة جلفة تلبس غطاء الحِداد تتفجع وترثي بصوت جهير. وبعد أن يحمل على نقالة في الشوارع محاطاً بالمقنعين، يُرمى في نهر فاير. وتصف لنا المدام أوكتاف فوليت التي شاهدته عندما كانت طفلة منذ ستين سنة: "دعى أبَوَاي الأصدقاءَ للفرجة على الجنازة من أعلى برج جيان كوالارد. كنا يومها نعب عصير الليمون فقط لأنه كان الشراب الوحيد المسموح به لأننا صائمون. لم أنس حتى الآن تفاصيل دقيقة عن تلك الليلة. كنا نقف على الجسر الحجري القديم ويمر نهر فاير من تحتنا. وعلى وسط الجسر وضعوا مجسم ثلاثاء المرافع على حمالة من أوراق الشجر وحوله عشرات من المقنعين يرقصون ويغنون وهم يرفعون المشاعل. وبعضهم يلبس ملابس متنافرة الألوان ويقفزون على حواجز الجسر كالعفاريت. أما باقي الناس فيأخذون سِنَةً قصيرة بعد أن يتعبوا من العربدة. فجأة يتوقف الرقص ويضرم بعض الجنود النار بمشاعلهم في المجسم ثم يلقونه في النهر بجلَبَة كبيرة. أما الرجل القشي المشبع بالراتنج فيطفو على سطح نهر فاير يضئ

بنار جنازته الغابات المحاذية للضفة وشرفات الحصون المفرجة في القلعة القديمة التي نام عليها لويس الحادي عشر وفرانسيس الأول. وعندما انطفأ آخر لهب من ذلك البعبع المتلاشي انصرفت الجموع والمقنعون وتركنا وضيوفنا المتاريس وعدنا إلى بيوتنا."

في منطقة توبنجن يصنعون رجلاً قشياً في ثلاثاء المرافع ويسمونه "دب مرافع العنصرة"، يلبسونه سروالاً قديماً ويضعون في رقبته ثجاجتين مملوءتين بالدم. وبعد إقامة الإدانة الشكلية يقطعون رأسه ويضعونه في نعش ثم يُدفَن في أربعاء الرماد في مقبرة الكنيسة. يسمون هذا الطقس دفن المرفوع. أما بعض الساكسون في ترانسلفانيا فيعدمون المرفوع شنقاً. وفي بالر يَجرُّ حصانان أبيضان واثنان كستنائيان في يوم أربعاء الرماد عربةً تحمل رجلاً من القش بملابس بيضاء؛ وبجانبه عجلة عربة تدور طوال الوقت. ويمثل اثنان من الفتيان دور مسنين يندبان بينما يعتلي بقية الفتية الأحصنة المزينة بالأشرطة ويصطحبون الموكب الذي تقف على رأسه فتاتان متوجتان بالأخضر وتجرهما عربة أو زلاجة. تُقام المحكمة تحت شجرة يُصدِر فيها حكمَ الموت فتيةٌ يتنكرون على أنهم جنود. يحاول الرجلان المسنان إنقاذ الرجل القشي ويهربان به بلا هدف محدد لكن تقبض الفتاتان عليه وتسلمانه للجلاد الذي يشنقه على شجرة. عبثاً يحاول المسنان تسلق الشجرة وإنزاله؛ لكنهما يتعثران ويلقيان بنفسيهما على الأرض يائسين يبكيان ويولولان على المشنوق. تقوم إحدى الشخصيات الرسمية بإلقاء خطاب يعلن فيه أن المرفوع محكوم عليه بالموت لأنه أنزل بهم الضرر والعذاب. وفي ليتشرين يُلبس رجل في طقس دفن المرفوع على أنه امرأة بملابس سوداء يُحمل على نقالة أو تابوت من قبل أربعة من الرجال. يندبه رجالٌ يتنكرون على أنهم نساء ثم يُرمى أمام كومة روث القرية يشبع بالماء ثم يدفن في الكومة ويغطى بالقش. وفي مساء ثلاثاء الرماد يصنع الإثونيون مجسم رجل من القش يسمونه مستك، أي روح الغابة، وفي سنة أخرى يلبسونه معطف رجل وقبعة، وفي أخرى يلبسونه معطف صغير بقبعة. يثبِّتون هذا المجسم على عمود طويل وينقلونه إلى تخوم القرية وهم يطلقون صيحات الفرح، ثم يربطونه إلى قمة شجرة في الغابة. ويقومون بهذا الطقس لأنه يحميهم من شتى أنواع النحس.

وفي طقوس أسبوع المرافع يمثلون دور رجل انبعث من الموت. ففي بعض أنحاء سوابيا يقوم الدكتور **لحية الحديد** بالتسبب بالنزيف لرجل مريض ملقى على الأرض لكنه يعيده إلى الحياة في النهاية عن طريق نفخ الهواء فيه عبر أنبوب. وفي جبال هارز وبعد نهاية المرافع يوضع رجل على وعاء الخبز ويُحمَل على وقع الترانيم الجنائزية إلى المقبرة، ثم يدفنون كأساً من الخمر بدلاً منه. وبعد إلقاء خطاب تأبين يعود الناس إلى مزارع القرية أو مكان الاجتماع ويدخنون من غلايين فخارية يوزعونها أثناء الجنازات. وفي صباح ثلاثاء المرافع في السنة التالية يستخرجون كأس الخمر من القبر ويبدأ الإحتفال عندما يتذوق كل منهم القليل من هذا الخمر، ويقولون أنه عاد إلى الحياة.

3ـ تنفيذ حكم الإعدام

في طقس **تنفيذ الإعدام** نرى الكثير من صفات **دفن المرفوع** باستثناء أن السابق يُتبع بطقس أو إعلان جلب الصيف أو الربيع أو الحياة. ففي وسط فرانكن، مقاطعة بافاريا، وفي الأحد الرابع من الصوم الكبير يصنع أولاد القرية الزعران صورة لـ **الموت** ويجوبون بها الشوارع بأبهة فخمة ثم يدفنونها مع صيحات عالية. ويصف أحد كتاب القرن السادس عشر هذه العادة الفرانكية على الشكل التالي: "في منتصف موسم الصوم عندما تطلب الكنيسة منا أن نمرح، يصنع شبان بلدي مجسماً قشياً للموت، ويربطونه إلى عمود يحملونه وسط الصياح إلى القرى المجاورة. في بعض هذه القرى يستقبلونهم بالترحاب ويضيفونهم الحليب والبازلاء أو الإجاص المجفف وما إلى ذلك من المتوفر في ذلك الفصل ثم يعودون إلى بيوتهم. وفي بعض القرى الأخرى ينظرون إليهم على أنهم نذير شؤم فيذدرونهم ويطردونهم خارج حدود القرية بالسلاح " وفي القرى القريبة من إرلانجن وعند حلول الأحد الرابع من الصيام تقوم بنات الفلاحين بارتداء الملابس المبهرجة ويزينون شعورهن بالورود ثم يذهبن إلى المدينة المجاورة يحملن دمىً مزينة بأوراق الشجر ومغطاة بالقماش الأبيض. ثم يمشين ثنائيات، يقفن عند كل باب يتوقعن من الناس أن يعطوهن ما تيسر، يغنين بعض أبيات يعلنَّ فيها أنهن في الصوم الأوسط وأنهن على وشك أن يلقين بـ **الموت** في الماء. وعندما يجمعن بعض الأعطيات التافهة يذهبن إلى نهر ريغننتز ويلقين فيه بالدمى التي

تمثل الموت. يقمن بهذا كله ليضمن سنة خيرة مثمرة ويرددن الوباء والموت الفجاءة. وفي نرومبورغ تقوم الفتيات من سن السابعة وحتى الثامنة عشرة بالمشي في شوارع المدينة يحملن توابيت صغيرة مفتوحة يخبئن فيها دمىً تحت الأكفان. وبعض منهن يحملن عصاً من الزان مع تفاحة مربوطة إلى رأسها في صندوق مفتوح. ثم يغنين:"نحمل الموت إلى الماء، وهو خير ما نفعل." أو يقلن " نحمل الموت إلى الماء، نحمله إليه ومنه ثانيةً." وفي بعض أنحاء بافاريا وحتى 1780 ظلوا يعتقدون أن الوباء المميت يأتي عقب إهمال عادة تنفيذ الإعدام.

في بعض قرى تورنجن، اعتاد الأطفال على حمل دمية من أغصان البتولا ويجولون في القرية في الأحد الرابع من الصوم الكبير، ثم يلقونها في البركة وهم يغنون " لقد حملنا الموت المسن خلف منزل الراعي المسن؛ هاهو الصيف يأتي وتندثر قوة كرودن." وفي دبشوتز قرب جيرا ، يقام طقس طرد الموت أو كان يقام سنوياً في الأول من آذار. يقوم الشبان بصنع مجسم من القش أو ماشابه من الأعشاب ويلبسونه ملابس قديمة تم جمعها عن طريق التسول في القرية، ويحملونه ويلقونه في النهر. ولدى عودتهم إلى القرية يبلغون الناس عما فعلوه فيعطونهم البيض والمأكولات كمكافأة. يقوم هذا الطقس بتطهير القرية وحماية سكانها من المرض والوباء. وفي القرى الأخرى من تورنجن التي سكانها الأصليون سلافيون، يؤدون حمل الدمية مع أغنية مطلعها: " الآن حملنا الموت خارج القرية وأتينا بالربيع إلى القرية." وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر كانوا يقيمون هذا الطقس في تورنجن على الشكل التالي. يصنع الصبية والفتيات مجسماً من القش وما شابه لكن على نحو مختلف سنة بعد سنة. ففي عام يمثل رجلاً مسناً ، وفي أخرى امرأة مسنة وفي ثالثة شاباً وفي رابعة سيدة ويلبسونه ما يناسب شخصيته. وكان يقوم صراع حاد لأجل المكان الذي يصنع فيه المجسم لأن المنزل الذي يخرج منه المجسم لايدخله الموت مدة عام كامل. يقومون بربط الدمية إلى سارية وتحمله فتاة إذا كان يمثل رجلاً مسناً وفتى إذا كان يمثل امرأة مسنة. يحملونه ضمن موكب تحمل فيه الشبيبة عِصياً ويغنون ما معناه أنهم يأخذون الموت إلى أن يصلوا المياه فيرمونه ويسرعون إلى المنازل خوفاً من أن يقفز من فوق أكتافهم ويقصف رقابهم. ويحرصون على ألا يلمسوه كيلا يمحقهم. ولدى عودتهم يضربون الماشية بالعصي معتقدين أن

هذا يجعلها سمينة ومثمرة أكثر. وبعدها يزورون المنزل الذي خرجت منه الدمية ويتلقون بازلاء نصف مسلوقة كصدقة. كما اعتادوا لإقامة هذا الطقس في ساكسوني. ففي ليبسيك كان أبناء الزنا والنساء العموميات يصنعون مجسماً من القش كل سنة عند الصوم الأوسط. ويحملونه في الشوارع ويغنون ويرونه للمتزوجات الصبايا، ثم يرمونه في نهر بارث. بهذا الطقس يستبشرون بجعل الزوجات الصبايا أكثر خصوبة ويطهرون المدينة ويحمون سكانها من المرض والأوبئة طوال تلك السنة.

وتقام طقوس مماثلة في سيليسيا عند الصوم الأوسط، إذ تقوم فتيات بالغات في مناطق متعددة بمساعدة الشبان ليُلبِسوا مجسماً من القش ملابس امرأة ويخرجونه من القرية قبيل الغروب. وعند تخوم القرية يعرُّونه من ملابسه ويمزقونه إرباً ويبعثرون أجزاءه في الحقول، ويسمون هذا الطقس **دفن الموت**. وفي أثناء إخراج المجسم يغنون أغنية تبين أنهم على وشك أن يدفنوا الموت تحت شجرة البلوط وأنه سيبتعد عن الناس. وأحياناً تقول الأغنية أنهم سيحملون الموت خلف جبل وواد كيلا يرجع ثانيةً. وفي منطقة قريبة من بولندة، غروس ـ ستريهليتز، يسمون الدمية غويك ويحملونها على ظهر حصان ويرمونها في أقرب بركة أو نهر. يعتقد الناس أن هذا الطقس يحميهم من كافة الأمراض طوال العام القادم. وفي مقاطعة وهلاو وغوهراو يرمون مثل ذلك المجسم خلف حدود القرية، لكن أهالي القرية المجاورة يخافون من تلقي نذير الشؤم هذا فيردونه فوراً وغالباً ما يقوم عراك شديد بين الفريقين. وفي بعض أنحاء بولندة في سيليسيا العليا يمثل المجسم امرأة مسنة ويسمونها مارزانا، إلهة الموت. يصنع هذا المجسم في المنزل الذي حدثت فيه آخر وفاة في القرية ويحمل على سارية خارج حدود القرية حيث يُرمى في بركة ويُحرق. وفي بولكويتز أهمل الناس هذا الطقس في أحد الأعوام فأصابهم مرض مميت في العام التالي مما جعل الناس يستأنفونه ثانيةً.

في بوهيميا يخرج الأطفال ومعهم الرجل القشي الذي يمثل الموت إلى حدود القرية حيث يلقونه وهم يغنون ـ

" الآن حملنا الموت خارج القرية،

والصيف الجديد إلى داخل القرية،

فأهلاً بك أيها الصيف العزيز،

أهلاً بالحنطة الصغيرة الخضراء."

وفي تابور، بوهيميا، يحملون مجسم الموت خارج المدينة ويرمونه من فوق صخرة عالية في الماء ويغنون:

الموت يسبح في الماء،

وسيحل الصيف قريباً،

لقد حملنا الموت بعيداً عنكم،

وجلبنا لكم الصيف.

آتنا أيها الماركيتا المقدس،

آتنا عام خير

ملؤه قمح وشعير.

وفي مناطق أخرى من بوهيميا يحملون الموت خارج القرية وهم يغنون:

لقد حملنا الموت خارج القرية

وجلبنا السنة الجديدة إليها.

نرحب بك أيها الربيع،

ونرحب بالعشب الأخضر.

وخارج القرية ينصبون محرقة يحرقون فيها المجسم القشي وهم يشتُمون ويسخرون ثم يعودون إلى القرية وهم يغنون:

لقد أخذنا الموت بعيداً،

وأعدنا الحياة.

وها هي تأخذ مكانها في القرية

فغنوا الأغاني الفرحة.

وفي بعض القرى الألمانية في مورافيا، يجتمع الشبان في الأحد الثالث من الصوم الكبير ويصنعون رجلاً من قش يلبسونه قبعة من الفرو وبنطالاً جلدياً قديماً وقصيراً ثم يربطون المجسم على سارية ويحمله الفتية والفتيات إلى الحقول المفتوحة وهم

يغنون أغاني بالمعاني نفسها التي ذكرناها للتو. ولدى وصولهم إلى المكان المحدد يرقصون حول المجسم على شكل حلقة ويطلقون الصيحات والصرخات، ثم ينقضون عليه فجأة ويمزقونه قطعاً بأيديهم. وفي النهاية يجمعون قطعه في كومة ويكسر العمود وتضرم فيه النار. وأثناء احتراقه يرقص الناس بمرح حول النار مبتهجين بالنصر الذي حققه الربيع. وعندما تخمد النار يذهبون إلى البيوت ويطلبون هدية من بيضٍ يصنعون منه وليمة ويحرصون كل الحرص أن يبرروا طلبهم بأنه مكافأة على إبعادهم الموت.

كل هذا يبين تعاملهم مع مجسم الموت بشئ من الخوف وهم يكرهونه بل يمقتونه. لهذا يحرص أهل القرية على رمي الموت في أرض جيرانهم، كما يتشاءم أهل القرية المجاورة من ذلك الضيف الكريه وهذا ما يثبت الرهبة التي يبثها الموت في صفوفهم. وفي لوساتيا وسيليسيا، عندما يطل المجسم القشي خلال إحدى النوافذ، هذا يعني أن أحداً من ذلك البيت سيموت ذلك العام ما لم يتم فكه بدفع المال. وبعد رمي المجسم بعيداً يركض حاملوه إلى بيوتهم ركضاً كيلا يلحق بهم الموت، وعندما يتعثر أحدهم وهو يجري يعتقد أنه سيموت قبل مضي سنة. وفي شراديم، بوهيميا يصنع مجسم الموت على شكل صليب رأسه مقنع ويكسو جسمه قميص. وفي الأحد الخامس من الصوم الكبير يأخذ الصبية المجسم إلى أقرب غدير أو بركة ويقفون على صف واحد ويرمونه في الماء. ثم يندفعون إلى الماء لالتقاطه؛ لكن حالما يلتقطونه، لايجوز لأحد أن يدخل الماء. أما الصبية الذين لم يدخلوا الماء أو آخر من دخل الماء فيموت في أثناء العام القادم ويجبر على حمل الموت في رحلة العودة إلى القرية. ومن الناحية الأخرى لا يموت أحد في البيت الذي أُخرج منه المجسم طوال العام القادم. أما القرية التي خرج منها الموت فيعتقد أنها محصنة من المرض والطاعون. وفي بعض قرى سيليسيا النمسوية يصنعون مجسماً من الملابس العتيقة والتبن والقش في يوم السبت الذي يسبق أحد الموت بهدف إخراجه من المدينة. وفي يوم الأحد يخرج الناس مسلحين بالعصي والأحزمة ويتجمعون أمام المنزل الذي يوجد فيه المجسم، ثم يسحبه الفتية بالحبال ويجولون في القرية وهم يتهللون بينما يضربه آخرون بالعصي والأحزمة. ولدى وصولهم إلى أول حقل من حقول القرية المجاورة

يرمون المجسم ويضربونه حتى يتقطع وينثرون أجزاءه في الحقل. يعتقد الناس أن القرية التي أُخرج منها الموت ستكون في مأمن من الأمراض السارية مدة عام كامل.

4ـ جلب الصيف

في الطقوس التي ذكرناها سابقاً يبدو موضوع طرد الموت وقدوم الصيف أو الربيع أو الحياة أمراً ضمنياً، لكنه أحياناً يأتي معلناً صريحاً. ففي بعض أنحاء بوهيميا يتم إغراق مجسم الموت في الماء عند الغروب ثم تخرج الفتيات إلى الغابة ويقطعن شجيرةً خضراء ويعلقن عليها دمية امرأة مزينة بالخضرة والحمرة والأشرطة البيضاء ويمشين ضمن موكب الصيف في القرية يجمعن الهدايا ويغنين:

يسبح الموت في الماء،

يأتي الربيع لزيارتنا،

ومعه البيوض الحمراء

والفطائر الصفراء المحلاة.

لقد أخرجنا الموت من القرية

وها نحن نأتي بالصيف إليها.

وفي الكثير من القرى السيليسية، بعد أن يُعامل باحترام يُعرَّى مجسم الموت من ملابسه ويرمى مع اللعنات أو يمزق إرباً في الحقول. ثم يذهب الصغار إلى الغابة ويقطعون شجرة تنوب صغيرة، يقشرون جذعها ويزينونها بحبال من نباتات دائمة الخضرة. يزينون تلك الشجرة ويسمونها الصيف أو أيار. يحملها الصبية من منزل إلى آخر ويغنون الأغاني التي تحث الناس على إعطائهم الهدايا. ومن بين هذه الأغاني الأغنية التالية:

لقد أخرجنا الموت

ونعيد الصيف

الصيف وأيار

وكل الورود تبتهج.

وأحياناً يأتون من الغابة بمجسم مزين جميل ويسمونه الصيف أو أيار أو العروس، ويسمونه في بولندة دزيوانا، إلهة الربيع.

وفي إيزيناك، اعتاد الناس في الأحد الرابع من الصوم الكبير على ربط رجل من القش يمثل الموت إلى عجلة ويدحرجونها من أعلى تلة والنار تشتعل فيها. وفي اليوم التالي يقطعون شجرة تنوب ويزينونها بالأشرطة وينصبونها في السهل. يصعد الرجال عليها ليجلبوا الأشرطة. وفي لوستيانا العليا يصنعون مجسماً للموت من القش ويلبسونه الثياب المهترئة وعليه خمارُ آخرِ عروسٍ في القرية وقميصٌ من المنزل الذي حصلت فيه آخر حادثة وفاة. ثم يثبتون هذا المجسم إلى أعلى سارية وتركض به أطول الفتيات وأقواهن بأقصى سرعة، بينما يرجم البقيةُ المجسم بالعصيان والحجارة. من يحقق إصابة فيه يضمن أنه لن يموت تلك السنة. وبهذه الطريقة يخرجون الموت من القرية ويلقون به في الماء أو على الأقل خارج تخوم القرية. وفي طريق العودة يقطع كل منهم غصناً أخضر ويحمله فرحانَ حتى يلقيه في القرية. وأحياناً يتبعهم أهالي القرية المجاورة التي ألقي المجسم في أراضيهم يشتمون ويعيدونه إليهم خوفاً من أن يحل الموت بينهم. وكثيراً ما ينشب شجار بين الفريقين.

في هذه الحالة يتمثل الموت بدمية يلقونها، ويتمثل الصيف أو الحياة بأغصان الأشجار أو أشجار يعيدونها إلى القرية. وأحياناً توجد كُمُونية جديدة للحياة في صورة الموت نفسه، وبنوع من البعث تصبح الصورة أداة إحياء. لهذا تتفرد النساء في بعض أنحاء لوساتيا بحمل الموت ولا يسمحن لأي ذكر أن يتدخل بهذا العمل. تلبس النسوة لباس الحداد طوال اليوم ويصنعن دميةً من القش ويلبسنها قميصاً أبيض ويحمِلْنها مقشة بيد ومنجلاً في الأخرى، يغنين الأغاني ويتبعهن الأولاد غالباً الزعران منهم يرمون الحجارة. وبعد أن يأخذن الدمية خارج تخوم القرية يمزقنها إرباً ثم يقطعن شجرة جميلة ويضعن عليها القميص ويحملنها إلى القرية وهن يغنين. أما الساكسونيون في بالر وتحديداً في قرية ترانسلفانيا القريبة من هرمنسدات يقيم الناس في أثناء احتفال الصعود طقساً على الشكل التالي: بعد أداء الواجبات الصباحية تذهب فتيات المدارس إلى منزل إحداهن ويُلبِسْن الموت بحُزَمٍ من أوراق الذرة ويقلدن بشكل تقريبي الرأس والجسم، ويدخلن عصاة مقشة بشكل أفقي كذراعين. ثم يلبسن المجسم لباس الأعياد على أنه فلاحة صبية على رأسها غطاء

أحمر، ودبوس زينة فضي والكثير من الأشرطة على الذراعين والصدر. تسرع الفتيات في عملهن هذا لأن الموت يجب أن يكون جاهزاً قبل إعلان الأجراس صلاة الغروب، لكي يوضع في نافذة مفتوحة بحيث يراه الناس وهم في طريقهم إلى الكنيسة. وبعد الصلاة يبدأ الموكب مع الموت الذي يقتصر على فتيات المدارس. تمسك اثنتان من كبيرات الفتيات المجسم من ذراعيه بينما تتبعهما بقية الفتيات برتل ثنائي. لايجوز للصبية أن يشاركوا في هذا الموكب بل يتجمعون خلفهم فاغري الأفواه من شدة إعجابهم بـ **الموت الجميل**. يمشي الموكب في طرقات القرية على وقع غناء الفتيات لأنشودة قديمة لكن على نغمة أنشودة دارجة. وعندما يجوب الموكب كل الطرقات تذهب الفتيات إلى منزل آخر، ويغلقن الأبواب منعاً لدخول الصبية المحتشدون خلفهم. تجرد الفتيات المجسم من كل زينة ويلقينه عارياً من النافذة للصبية المتلهفين فينقضّون عليه ويركضون به خارج القرية دون أي غناء ويلقونه مشوهاً في الغدير المجاور. ثم يبدأ المشهد الثاني من المسرحية: بينما يحمل الصبية الموت خارج القرية تبقى الفتيات في المنزل وتلبس إحداهن الملابس الجميلة التي كانت على المجسم. ثم يخرجنها في موكب في القرية وهن يغنين الأنشودة السابقة نفسها. وبعد انتهاء الموكب يذهبن إلى منزل من لعبت الدور الرئيسي وينتظرن وليمةً يُستَثنى منها الصبية أيضاً. ساد اعتقاد عام أنه يمكن للأطفال أن يأكلوا الكشمش(عنب الثعالب) والفواكه الأخرى بعد استبعاد الموت الذي يبقى مُنْدَسَّاً خاصةً في الكشمش إلى أن يتم تدميره في ذلك اليوم، كما يصبح بالإمكان أن يستحم الأطفال خارج بيوتهم دون ضرر ينتظرهم. وهناك طقس شبيه ظل متبعاً حتى السنوات القليلة الماضية في قرى مورافيا الألمانية. يلتقي الفتيان والفتيات في مساء الأحد الأول من عيد الفصح ويجهزون دمية من القش تمثل الموت ويزينونها بالأشرطة الملونة الزاهية ويربطونها إلى رأس عمود طويل يُحْمَل مع الجلبة والغناء إلى أقرب مرتفع حيث تعرى من لباسها الجميل وتلقى لتتدحرج على المنحدر. وبعدها تلبس إحدى الفتيات لباس مجسم الموت الجميل وزينته ثم يعود الموكب وهي على رأسه إلى القرية. في بعض القرى يدفنون المجسم في مكان ذي سمعة سيئة، أو يرمونه في المياه الجارية.

في الطقوس اللوستيانية التي وصفناها لتوّنا، ترادف الشجرة التي يرجعونها إلى القرية بعد تدمير مجسم الموت تلك الأغصان أو الشجرة في العادات التي شرحناها سابقاً والتي تمثل الصيف أو الحياة بعد تدمير الموت وإلقائه بعيداً. لكن انتقال القميص من مجسم الموت إلى الشجرة يدل على شيء من التنشيط أو الانبعاث على شكل جديد يأتي من المجسم المُدَمَّر. ويظهر هذا في العادات الترانسلفانية والمورافية على شكل إلباس الفتاة الملابس التي كان يرتديها الموت. أما إعادتها على وقع الأغنية نفسها التي صاحبت إخراج الموت يبين نيتهم في إحياء المجسم الذي تم تدميره قبل قليل. يتبين لنا من هذه الأمثلة أن دمار الموت لم يكن دماراً محضاً كما نفهم الموت اليوم. إذا كانت الشجرة المُعادة تجسيداً لإعادة الخضرة في الربيع وتُلبَس القميص الذي لبسه الموت قبل قليل، إذن لايمكن أن يكون الهدف هو إبطال إعادة الخضرة بل تنشئتها وتحسينها. لهذا ليس الكائن المُدمَّر ـ الموت ـ إلا تنشيطاً وتسريعاً للفعالية التي تنتقل إلى الخضرة في الطبيعة والحياة الحيوانية. إن رد فضيلة إعطاء الحياة للموت واضحة كل الوضوح في ممارسة هذه العادة وهي نثر أشلاء المجسم الممزق في أنحاء عديدة من الحقول لجعل المحصول ينمو، أو توضع في المعلف لتجعل الماشية تترعرع. في بياكندورف، وهي قرية في سيليسيا النمسوية، يصنعون شخصية الموت من القش والأغصان والملابس المهترئة وتحمل إلى مكان مفتوح مع الأغاني الوحشية خارج القرية ثم تُحرَق. وبينما يحترق هذا المجسم يتصارع الجميع للحصول على أشلائه التي تُسحَب من وسط اللهب بأيدٍ عارية. وكل من يحصل على قطعة من المجسم يربطها إلى غصن على أكبر شجرة في حقله أو يدفنها فيه معتقداً أنها تحسِّن من نمو المحصول. وفي مقاطعة ترويباو في سيسيليا النمسوية يصنع الفتيان مجسماً قشياً في الأحد الرابع للصوم وتلبسه الفتيات لباس امرأة ويزيننّه بالأشرطة وربطة عنق وأكاليل. ثم يربط إلى عمود طويل ويُحمَل خارج القرية يتبعه جماعة من الشبان من الجنسين اللذين يتناوبان على المرح والنَّوح والغناء. ولدى وصولهم إلى الحقل الذي يقصدونه خارج القرية، يُعرَّى المجسم من ملابسه وزينته ثم يندفع الجميع إلى تمزيقه وتخاطف أجزائه. كل منهم يحاول الحصول على حزمة من قش المجسم لأن مثل هذه القشات إذا ما وضعت في المعلف، تجعل الماشية تترعرع أو توضع في بيت الدجاج فتجعلها أكثر خصباً وتمنعها من التفقيس بعيداً. كما يردُّون الطاقة

التخصيبية إلى حاملي الموت لأنهم يعتقدون أن دوابهم تلد أكثر إذا ما ضربها حاملو الموت بعصيِّهم بعد عودتهم من إخراج الموت، ربما لأن العِصي قد استعملت سابقاً لضرب الموت فكسبت تلك الطاقة التخصيبية المعزوة إلى المجسم. ورأينا سابقاً أنهم يُرُون النساءَ مجسمَ الموت ليجعلوهن أكثر ولادة.

من الصعب الفصل بين شجرة أيار وتلك الأغصان التي يجلبونها إلى القرية بعد تدمير الموت، إذ يدَّعي حاملو تلك الأغصان أنهم يجلبون الصيف وبالتالي تمثل الأشجارُ الصيفَ؛ وهم يسمونها في سيسيليا أيار أو الصيف. وما الدمية المربوطة إلى شجرة الصيف إلا تمثيل إضافي للصيف تماماً كما يُمَثَّل أيار في الفترة نفسها من شجرة أيار وسيدة أيار. كما تُزين أشجار الصيف كما تُزين أشجار أيار بالأشرطة وما شابه تماماً كما تُنصَب أشجار أيار الكبيرة ويتسلقونها أو كما يجولون بأشجار أيار الصغيرة من باب إلى باب ويغني الفتيان والفتيات ويجمعون المال. وكأنهم يصرحون عن هوية هاتين المجموعتين من العادات، يصرح حاملو شجرة الصيف أنهم يجلبون الصيف وأيار. إذن جلب أيار أو جلب الصيف شيء واحد وليست شجرة الصيف إلا شكلاً آخر من شجرة أيار لا يختلفان إلا بالاسم وبتوقيت جلبهما، فشجرة أيار تُجلب في الأول من أيار أو في أسبوع العنصرة وشجرة الصيف تُجلب في الأحد الرابع من الصوم الكبير. إذن إذا كانت شجرة أيار تجسيداً لروح الشجرة أو الخضرة فلابد أن تكون شجرة الصيف تجسيداً للروح نفسها. لكن رأينا أن شجرة الصيف هي في بعض الحالات تنشيط لمجسم الموت، إذن الموت هو تجسيد لروح الشجرة والخضرة. وما يعزز هذا الاستنتاج شيئان أولهما تنشيط القدرة التخصيبية الذي تفعله أجزاء مجسم الموت بالنبات والحيوان، ورأينا سابقاً كيف تُعزى هذه القوة إلى روح الشجرة. وثانيهما هو تزيين مجسم الموت بالأوراق والأغصان والقنب أو حُزَمِ الذرة المدروسة، وأنها أحياناً تعلق على شجرة صغيرة أو يحملها الفتيات وهن يجمعن المال تماماً كما يفعل الناس بشجرة أيار أو السيدة أيار وشجرة الصيف والدمية المثبتة عليها. بالمختصر نحن مضطرون إلى الاعتقاد أن جلب الصيف هو في بعض الحالات شكل آخر لجلب الموت أو بعث روح الخضرة التي تتمثل بقتل وبعث الإنسان البدائي. وربما كان دفن المرفوع وبعثه تعبيراً آخر عن الفكرة نفسها. إن دفن ممثل المرفوع تحت كومة من الروث شيء طبيعي لأنه يمتلك قوة التسريع

والتخصيب كما كان لدى مجسم الموت. وبالفعل لايسمي الإيثونيون الذين يحملون مجسم القش خارج القرية بطريقة ثلاثاء المرافع نفسها، لايسمونه المرفوع، بل يسمونه روح الغابة (ميتسيك) ـ ويصنعونه من حزم الذرة ـ ويشيرون بوضوح إلى هوية المجسم عن طريق تثبيته إلى أعلى شجرة في الغابة حيث يبقى سنة كاملة يقصدها الناس يومياً تقريباً للصلاة ولتقديم العطايا لحماية قطعانهم فهو ليس روح الغابة فحسب بل راعي الماشية أيضاً.

إذن، **المرفوع**، **الموت والصيف** هي تسميات حديثة نسبياً، وتعابير لا تمثل بدقة الكائنات التي تجسدها. وما ينم عن أصلها الحديث هو تجريدية الأسماء لأن تشخيص الزمان والفصول مثل المرفوع والصيف، أو الموت المجرد ليس فكرة بدائية على الإطلاق. لكن الطقوس نفسها تحمل طابع القدم الغابر؛ من هنا نعرف أنها أصلاً تجسد شيئاً أكثر محسوسية وبساطة؛ مثل فكرة الشجرة، أو ربما نوع معين من الأشجار، لأن البدائيين لايملكون تسمية للشجرة بشكل عام، أو حتى لشجرة معينة تكفي لتعطي أساساً انبثقت منه عملية التعميم بمعناها الأوسع كروح للخضرة. لكن سرعان ما اختلطت فكرة الخضرة العامة بالفصول التي تجسدها ليظهر لدينا الصيف والربيع كبديلين أو أيار كبديل عن روح الشجرة أو روح الخضرة كوسيلة طبيعية أسهل. ثم أن الفكرة المحسوسة للشجرة الميتة أو الخضرة الميتة هي شبيهة بعملية التعميم التي انتقلت بسهولة إلى فكرة الموت بشكل عام؛ فتوسعت يوماً ما فكرة ممارسة إخراج الخضرة الميتة في الربيع كتمهيد للتنشيط، توسعت لتصبح محاولة إخراج الموت من القرية أو المنطقة. والفكرة التي تقول إن هذه الطقوس في الربيع تعني أصلاً موت الخضرة في الشتاء تؤكد استخدام اسم الموت بدلاً من الذرة الناضجة. على العموم لا يُفهَم من روح الذرة الناضجة أنها ميتة بل مُسِنَّة، لهذا تأخذ اسم الرجل العجوز أو المرأة العجوز. لكن في بعض المناطق تسمى آخر حزمة من الموسم، والتي يعتقد أنها مسكن روح الذرة، باسم **روح الذرة الميتة**، ويحذر الأطفال من دخول حقول الذرة لأن الموت قابع فيها، وهناك لعبة يلعبها الأطفال السكسونيون في ترانسلفانيا في موسم الذرة، يمثلون فيها الموت بطفل يُغمَر تماماً بأوراق الذرة.

5ـ معركة الصيف والشتاء

في الأعراف العامة عند الفلاحين يأخذ التباين بين قوى الخضرة النائمة في الشتاء ونشاطها الناهض في الربيع يأخذ شكل الصراع الدرامي بين ممثِّلَين يلعبان دور الشتاء والصيف على التتابع. لذا نرى في مدن السويد، في الأول من أيار يلتقي شابان على ظهري فرسين وكأنهما في مبارزة حية. أحدهما يمثل الشتاء ويلبس الفرو ويرمي كرات الثلج والجليد ليطيل الطقس البارد، والآخر يمثل الصيف ويكسو نفسه بأوراق وزهور نضرة. وبعد القتال الزائف ينتصر الصيف وينتهي الطقس بوليمة. وأيضاً في منطقة الراين الوسطى تجري معركة بين ممثل الصيف المكسو بأوراق اللبلاب وممثل الشتاء المكسو بالقش والأشنيات ويكسب الصيف المعركة، يرمى فيها المهزوم على الأرض ويعرَّى من كسوته القشية التي تمزق وتبعثر أجزاؤها في أرجاء المنطقة في حين يغني رفاقهما الشبان أغنية تحيي ذكرى هزيمة الشتاء على يد الصيف. وبعدها يتجولون ومعهم إكليل الصيف أو غصنه ليجمعوا الهدايا من البيض ولحم الخنزير المقدد من بيت إلى آخر. وأحياناً يلبسون البطل الذي يلعب دور الصيف أوراقاً وزهوراً وعلى رأسه إكليل من الورود. وفي البلاطينية تحصل مشاهد الصراع الإيمائية هذه في الأحد الرابع من الصوم الكبير. وفي كل أنحاء بافاريا كانت تمثل هذه الدراما في اليوم نفسه وظلت في بعض المناطق حتى أواسط القرن التاسع عشر أو ربما بعد ذلك. وفي حين كان الصيف مكسواً بالخضرة ومزيناً بالأشرطة البراقة، ويحمل غصناً مبرعماً أو شجيرة صغيرة يتدلى منها التفاح والإجاص، كان الشتاء مكتوماً تحت غطاء من الفرو ويحمل مجرفة ثلج أو مِدْرَسَة. وبصحبة حاشيته المُبَجَّلة التي ترتدي لباساً لائقاً بمقامها، يجولون في شوارع القرية يقفون عند كل منزل يغنون مقاطع من أغانٍ قديمة يتلقون عليها هدايا من الخبز والبيض والفواكه. وأخيراً وبعد صراع قصير يُهزَم الشتاء ويجول مطأطئ الرأس في القرية أو يُطرَد إلى الغابة مع الصيحات والضحك.

وفي جويبفرتز في النمسا الدنيا، يجول رجلان يمثلان الصيف والشتاء من منزل إلى آخر في ثلاثاء المرافع ويرحب بهما الأطفال بفرحة كبيرة في كل مكان. يكسو ممثل الصيف البياض ويحمل منجلاً؛ بينما يضع رفيقُه الشتاء قبعة من الفرو على رأسه ويغطي رجليه وذراعيه بالقش ويحمل مِدْرَسَة. وعند كل منزل يغنون

أشعاراً على التناوب. وفي دروملنغ في برونسويك، وحتى يومنا هذا، يمثل فتىً وفتاة الصراع بين الصيف والشتاء كل عام في أسبوع العنصرة. يندفع الفتيان يغنون ويصرخون ويقرعون الأجراس من منزل إلى آخر كي يطردوا الشتاء؛ وبعدهم تأتي الفتيات بقيادة عروس أيار يغنين بنعومة ويلبسن الورود والأكاليل ليمثلوا حلول الربيع اللطيف. وسابقاً كان دور الشتاء يمثل من قبل رجل من القش يحمله الفتيان؛ أما الآن فيمثله رجل حقيقيى متنكر.

كذلك يقوم الصراع بين ممثّلَي الصيف والشتاء عند الأكسيمو الوسطى في أمريكا الشمالية، الأمر الذي تحول في أوروبا إلى أداء مسرحي، ومازال قائماً كطقس سحري هدفه المُعلَن صراحةً هو التأثير في الطقس. في الخريف، عندما تنذر العواصف بقدوم شتاء القطب المغمّ، يقسم أهل الأسكيمو أنفسهم إلى فريقين هما طائر الترمجان والبطة، يمثّل الترمجان كلُّ من وُلِدَ في الشتاء، أما الصيف فيمثَّل بكل من ولد في الصيف. ثم يمدون حبلاً طويلاً من جلد الفقمة ويمسك كل فريق من طرف ويشدُّون بكل ما أوتوا من قوة ليجروا الفريق الآخر إلى جانبهم. عندما يفوز الترمجانيون يتوقعون طقساً سيئاً وعندما يفوز البط يتوقعون طقساً جميلاً ذلك العام.

6ـ موت وبعث كوستربونكو

في روسيا تقام طقوس جنازة تشبه دفن المرفوع وإخراج الموت تحت أسماء شخصيات أسطورية مثل كوستروبونكو، كوستروما، لادا، و ياريلو. وتقام هذه الطقوس في الربيع ومنتصف الصيف فيحتفلون في أسبوع العنصرة بجنازة يسمونها كوستروبونكو إله الربيع. يشكلون حلقة من المغنين يدورون ببطء حول فتاة تستلقي على الأرض وكأنها ميتة ويغنون:

ميت، ميت إلهنا كوستروبونكو!

ميت، ميت إلهنا العزيز!

وفجأة تنهض الفتاة فتغني الجوقة بفرح:

لقد عاد إلهنا كوستروبونكو إلى الحياة!

لقد عاد إلى الحياة إلهنا العزيز!

وفي عيد القديس يوحنا (عيد وسط الصيف) يصنعون شخصية كوبالو من القش ويلبسونه ملابس امرأة ويزينونها بالأشرطة وربطة عنق وتاج من الورود. ثم يقطعون شجرة ويزينونها بالأشرطة ثم ينصبونها في مكان مناسب ويعطونها اسم مارينا (الشتاء أو الموت). ثم يوضع المجسم القشي إلى جانب الشجرة كما توضع طاولة تقف عليها الأرواح والأطعمة. وبعد ذلك يشعلون ناراً ويقفز فوقها الفتية والفتيات أزواجاً أزواجا وهم يحملون المجسم معهم. في اليوم التالي يعرُّون المجسم من لباسه وحلِيِّه ويلقونه في النهر. وفي عيد القديس بطرس الذي يصادف في التاسع والعشرين من حزيران أو الأحد الذي يتلو ذلك التاريخ، يحتفل الروسيون بجنازة كويتروما أو لادا أو ياريلو. وفي مقاطعة بينزا وسيمبريسك يمثلون الجنازة على الشكل التالي. يشعلون النار في الثاني والعشرين من حزيران وفي اليوم التالي تختار السيدات إحداهن لتقوم بدور كوستروما. تحييها زميلاتها بإجلال عميق ويضعنها على منصة ويحملنها إلى ضفة نهر. وهناك يحممنها بالماء بينما تقوم أكبرهن بإعداد سلة من لحاء شجر الدبق وتضرب عليها كأنها طبل. ثم يعود الجميع إلى القرية وينهين اليوم بالمواكب والألعاب والرقصات. وفي مقاطعة موروم يمثَّل كوستروما بشخصية من القش ويلبس لباس امرأة ويزين بالزهور ثم يوضع في معلف ويحمل على وقع الأغاني إلى ضفة نهر أو بحيرة. وينقسم الحضور هنا إلى قسمين أحدهما يدافع عن المجسم والآخر يهاجمه. وفي النهاية ينتصر المهاجمون ويعرون المجسم من لباسه وزينته ويمزقونه قطعاً ويدوسون عليها تحت أقدامهم ويرمونها في الجدول بينما يضع المدافعون وجوههم على أكفهم ويتظاهرون بالنحيب على موت كوستروما. في مقاطعة كوستروما يحتفل بدفن ياريلو في التاسع عشر أو في الثلاثين من حزيران. ويختار الناس رجلاً مسناً ويعطونه كفناً يحتوي شخصاً يشبه بريابوس – إله الخصب عند اليونان – ليمثل ياريلو. يحمل خارج المدينة وتتبعه النساء وهن ينشدن ترانيم جنائزية ويبدين ملامح الحزن والأسى. وفي العراء عند الحقول، يُحفَر قبر وتنزل فيه تلك الشخصية مع البكاء والولولة. بعد ذلك تبدأ الألعاب والرقصات، ويذكرنا هذا بألعاب الجنازة التي كان يقيمها الوثنيون السلافيون. وفي روسيا الصغرى يضعون شخص ياريلو في تابوت ويجوبون به الشوارع بعد الغروب ويحيطه

الثملات النادبات: " لقد مات! لقد مات!. يرفعه الرجال ويهزونه وكأنهم يناشدونه العودة إلى الحياة. ثم يخاطون النساء قائلين: " أيتها النساء، كفَّنّ عن البكاء، فنحن نعرف ما هو أحلى من العسل." لكن النساء يتابعن النواح والشدو كما فعلن عند الجنازة قائلات: "ما ذنبه؟ لقد كان طيباً، لن يعود ثانيةً. آه، كيف نتركك؟ ماهي الحياة بدونك؟ قم، ولو لساعة واحدة. لكنه لايجيب ولن يقوم." بعدها يُدفن باريلو في القبر وينتهي الأمر.

7ـ موت وانبعاث الخضرة

هذه العادات الروسية لها طبيعة العادات النمسوية أو الألمانية نفسها والمعروفة بـ (إخراج الموت). فإذا كانت العادات الروسية مأخوذة عن الألمانية والنمسوية، فلابد أنها تجسد روح الخضرة، ولابد أنهم يعتبرون موتها خطوة لازمة لانبعاثها. إذ يمثل الانبعاث الذي يتلو الموت بوضوح في أولى الطقوس التي شرحناها وهي موت وانبعاث كوستروبونكو. والسبب الذي يجعل الروس يحتفلون بموت الخضرة في منتصف الصيف هو ربما انحدار الخضرة الذي يبدأ من منتصف الصيف، التاريخ الذي تبدأ الأيام بعده بالقصر وتبدأ دورة الشمس بالإنحدار:

" إلى الفراغ المظلم

حيث يأتي صقيع الشتاء."

ربما اختار البدائيون نقطة التحول هذه من السنة، لأنهم اعتقدوا أنه في ذلك التاريخ يبدأ الصيف انحداره غير المُدرَك، وبهذا تكون اللحظة المناسبة للجوء إلى تلك الطقوس السحرية التي يأملون بها توقيف انحدار الحياة النباتية أو على الأقل يضمنون عودتها. في هذه الطقوس الربيعية أو منتصف صيفية والتي يظهر في جميعها موت الخضرة وانبعاثها في بعضها، يصعب تفسير بعض تفاصيلها على هذه الفرضية فقط. إن الجنازة المقدسة ولباس الحداد والنوح تتناسب مع الروح الخيرة للخضرة، لكن بماذا نفسر المرح الذي يرافق إخراج المجسم وضربه بالحجارة والعصي أو الشتائم واللعنات التي يُقذف بها؟ وبماذا نفسر الخوف من المجسم الواضح بهروب حامليه إلى بيوتهم بعد إلقائه واعتقادهم أنه سيموت قريباً أحدُ أفراد المنزل الذي

يمعن أهلُه النظرَ فيه؟ ربما كان تفسير هذا الخوف هو عدوى من نوع خاص في روح الخضرة الميتة تجعل الاقتراب منها خطيراً. ولا يكفي هذا التفسير ـ بالإضافة إلى كونه متكلف نوعاً ما ـ ليشمل البهجة التي تصحب إخراج الموت. علينا هنا أن ندرك وجود سمتين مميّزتين ـ وتبدوان متناقضتين ـ لهذه الطقوس: الأولى هي الحزن والموت، الحب والاحترام للميت، والثانية الخوف من الميت وكرهه والفرح لموته. حاولت تفسير السمة الأولى، وسأحاول لاحقاً تفسير ارتباط الثانية بالأولى.

8ـ الطقوس المُناظِرة في الهند

في مقاطعة كاناغرا في الهند جرت العادة عند الفتيات الصغيرات أن يشبهن أنفسهن بتقاليد الربيع الأوربية التي ذكرناها تواً. ويسمونها (عرض رالي) أي صورة جميلة ملونة من الطين تمثل سيفا أو بافارتي. وتقتصر احتفالات هذه العادة على الفتيات حصراً وتبدأ في الثلث الثاني من شهر تشيت ـ آذار – وحتى سانكرانت بايساخ – نيسان. في الصباح تأخذ فتيات القرية سللاً من أعشاب (داب) وورودها إلى مكان محدد حيث يفرغن محتوياتها ليصنعن كومة يقفن حولها على شكل حلقة ويغنين. يكررن هذا العمل يومياً حتى تصبح كومة الورود عالية. ثم يقطعن غصنين من الغابة كل واحد منهما بثلاثة فروع ويضعونا على الكومة وفروعها متجهة نحو الأسفل على شكل هرم. ويأتين بمن يصنع لهن صورتين تمثلان سيفا وبارفاتي ويضعانها على رأس الغصن. ثم تنقسم الفتيات إلى مجموعتين إحداهما لسيفا والأخرى لبارفاتي وتزوجن الصورتين بالطريقة المعتادة دون أن يتركن أي جزء من مراحل الزواج. بعد ذلك يقمن وليمة من إسهامات تُلتَمَس من أهاليهن. وفي نيسان التالي يذهبن معاً إلى ضفة النهر ويلقين بالصورتين في مكان عميق ويبكين عليهما وكأنهن يؤدين مراسم جنازة. يحاول الفتيان أن يضايقوهن بأن يغوصوا خلف الصورتين ويرفعوهما والفتيات تبكين عليهما. يقال أن الهدف من العرض هو المحافظة على الزوج الصالح.

كون سيفا و بارفاتي إلهَي الخضرة أمر واضح خلال وضعهما على غصنين على كومة من العشب والورود. كما في العادات الأوربية، إلهة الخضرة تمثل بشكل

ثنائي – النبات والدمى. ويماثل زواج هذين الإلهين الهنديين في الربيع زواج أرواح الخضرة النضرة عند ملك أو ملكة أيار، عروس أيار، عريس أيار وهكذا. أما إلقاء الصورتين في الماء والنوح عليهما فيماثل إلقاء روح الخضرة الميتة تحت اسم الموت، ياريلو، كوستروما والنوح عليهما. كما يحصل غالباً في أوروبا، وحصراً في الهند يقوم بأداء الطقس فتيات فقط. أما فكرة تدبير الأزواج للفتيات فيمكن أن يفسَّر على أنه تسريع عملية التخصيب التي تمارسها روح الخضرة على الحياة النباتية والإنسانية.

9ـ الربيع السحري

إن التفسير العام الذي قادتنا الأدلة إلى اعتماده هو أن الطقوس كانت بالأصل طقوساً سحرية قُصِد منها تنشيط الطبيعة في الربيع. والوسائل التي كان المفترض أن توصلهم إلى هذا الهدف كانت التقليد والتعاطف. جاهلاً بالأسباب الحقيقية، اعتقد الإنسان البدائي أن تطويع الظاهرة الطبيعية التي اعتمدت عليها حياتُه كان ممكناً فقط عبر تقليدها، وأنه عبر تعاطف سري وتأثير مبهم يمكن للدراما البسيطة التي تمثل في فسحات الغابة ووهاد الجبال وسهوب الصحراء أو شواطئ كنستها الرياح، يمكن لها أن تفعل فعلها عن طريق تكرارها على يد ممثلين أقوياء على خشبة أوسع. وتخيل أيضاً أن التنكر بأوراق الشجر والورود يساعد الأرض الجرداء على كسب غطاء أخضر وأنه بلعب دور الموت ودفن الشتاء إنما يقود الفصل الكئيب بعيداً ويمهد الطريق أمام عودة الربيع. إذا كنا نجد صعوبة حتى في تصور أنفسنا في ظروف فكرية تكون فيها هذه الأشياء ممكنة، نستطيع أن نرسم صورة أقرب لأذهاننا عن القلق الذي شعر به البدائي عندما بدأ لأول مرة يرفع مستوى تفكيره أعلى من حاجياته الحيوانية وتأمل بأسباب الأشياء التي تقف وراء العمليات المستمرة التي نسميها الآن قوانين الطبيعة. بما أننا أَلِفنا مفهوم الوحدة والانتظامية التي تتعاقب وفقها الظواهر الطبيعية لا نجد مبرراً كبيراً لخوفنا من تعطل الأسباب التي تجعل هذه الظواهر تفعل فعلها على الأقل في المستقبل القريب. ولم تأتنا هذه الثقة بثبات الطبيعة إلا عبر التجربة التي أتت من الملاحظة الواسعة وتناقل خبرات طويلة الأمد، أما البدائي وضمن مجال ملاحظته الضيق وموروثه

القصير الأمد فيفقد عناصر الخبرة التي وحدها تستطيع أن تريح العقل في مواجهة ظواهر الطبيعة المتغيرة والمهددة بالخطر. لا عجب أن يدب فيه الذعر عند الكسوف أو الخسوف لأنه يعتقد أن الشمس أو القمر سيذهبان بلا عودة إن لم يثر الصخب أو يطلق سهامه الضعيفة التافهة في الهواء ليحمي الجرْمَين من وحش يهدد بالتهامهما. ولاعجب أن يرتعد عندما يومض في ظلمة الليل شريطٌ ضوئي من شهب، أو عندما يحيط السماءَ حزامٌ من ضوء متقطع وهاج من الأشفاق الشمالية. حتى الظواهر المتكررة بانتظام نظر إليها برهبة قبل أن يميز نظام ورودها وتكرارها. واعتمدت سرعة أو بطء إدراكه لهذه التغيرات الدورية بشكل كبير على طول دورة كل منها. فمثلاً الليل والنهار يتكرران يومياً في كل مكان باستثناء المنطقتين القطبيتين، هي دورة قصيرة متكررة لم يعد يقلق الناس من توقفها عن التكرار، رغم ما رأيناه عند المصريين القدامى من سحر يومي لإعادة ذلك الجِرْم السماوي في كل صباح من الشرق بعد أن غطس في المساء في الغرب القرمزي. لكن الأمر مختلف تماماً مع الدورات السنوية للفصول. بالنسبة إلى أي شخص، السنة فترة طويلة قياساً لعدد السنين التي نعيشها وقليل منا يعيشونها بالشكل المثالي. بالنسبة للبدائي بما لديه من ذاكرة قصيرة ووسائل عاجزة عن وضع علامات تميز مرور الوقت، ربما كانت السنة أطول من أن يميزها على أنها دورة أصلاً، وراح يراقب الأرض والسماء بدهشة مستمرة يتناوب فيها الرعب والفرح، تارة يتأوج بنفسه وتارة يُثبَط بحسب تعاقب الضوء والحرارة وحياة الإنسان والنبات وما يقدم هذا لخدمة راحته أو لتهديد وجوده. في الخريف عندما تتطاير الأوراق الذابلة في الغابة مع الهبات المصوِّحة، وينظر إلى الأغصان العارية، كيف له أن يجزم أنها ستخضر ثانيةً؟ وكلما انخفض مدار الشمس في السماء يوماً بعد يوم، من أين له أن يطمئن أن ذلك الجرم سيعود إلى مساره في السماء؟ وحتى القمر المتشاحب الذي يبهت منجلُه وينحف كل ليلة على الأفق الشرقي، ربما أثار في ذهنه الخوف من اندثاره وأنه سيعيش بعد ذلك بلا قمر.

هذه وآلاف الهواجس الأخرى ملأت خيال الإنسان وأربكت هدوء باله فراح يتأمل ألغاز العالم الذي يعيش فيه، وراح يفكر أبعد من يوم الغد في المستقبل. كان من الطبيعي إذاً أن يفعل ما بوسعه ليعيد ما ذبل من براعم على أغصانها وأن يدفع

بمسار الشمس المتدني في الشتاء لتعود إلى مسارها الصيفي القديم، وأن يعيد ذلك المصباح الفضي إلى كماله بعد شحوب القمر. ربما نبتسم على مساعيه غير المجدية، لكن بسمتنا الساخرة هذه ما كانت لولا معرفة اكتسبناها عبر سلسلة طويلة من التجارب التي كان مصير الكثير منها هو الإخفاق وهي التي جعلت الإنسان يدرك عبر الخبرة عبثية بعض هذه المناهج وجدوى أخرى. على كل حال لم تكن الطقوس السحرية سوى تجارب أخفقت واستمروا في تكرارها فقط لأن أصحابها لم يدركوا إخفاقها. ومع تطور معارفنا، إما توقفت هذه الطقوس تماماً أو ظلت بحكم العادة مدة أطول بعد نسيان الإنسان الهدف الذي لأجله أُنشأت تلك العادات. ومع فقدان منزلتها الرفيعة لم تعد تعتبر إقامة هذه الطقوس المقدسة تقام في موعدها الدقيق كركيزة أساسية لرفاهية المجتمع أو أساس الحياة برمتها فراحت تهبط تدريجياً إلى مستوى الأبهة الفارغة والشعائر المرائية، أو تسليات ألغاها القدامى بعد وصولها لمرحلة الانحلال الأخيرة، فانتقلت من كونها أكثر الأعمال حكمة إلى ألعاب تافهة للأطفال. وما استمر به أجدادنا في أوروبا حتى يومنا هذا هي الشعائر السحرية القديمة في حالتها المنحطة، وبعد انسحابها الأخير انحسرت بعيداً مع المد الكبير للعديد من القوى منها الأخلاقي والذهني والاجتماعي التي تحمل الإنسانية إلى هدف مجهول. قد نشعر بالأسف الطبيعي على عادات طريفة اندثرت وطقوس جميلة صينت في عصر يغلب عليه الملل والابتذال اللذان يطبعان العصور القديمة، ونَفَسٍ آتٍ من ربيع العالم؛ لكن أسفنا يتضاءل عندما نتذكر أن هذه الأبهة الفارغة الجميلة ـ وهي الآن محض لهو ـ لها أصولها في الجهل والخرافة، وأنها إن كانت سجلاً للمساعي البشرية، فهي أيضاً نصب تذكاري للإبداع غير المثمر، والعمل الضائع والآمال الخائبة؛ وأنها بما فيها من فرص الفرح، وورود، وأشرطة وموسيقا تتسم بالتراجيديا أكثر منها بالهزل.

إن التفسير الذي حاولت أن أقدمه لتحليل هذه الطقوس — وهو يتبع بخطاه تفسيرو. وانهاردت — يُعزّز كثيراً بما اكتشفناه عن الأصلاء في استراليا الوسطى وما يمارسونه من طقوس سحرية لإيقاظ قوى الطبيعة الهاجعة قُبَيل حلول الربيع في أستراليا. تتسم التقلبات الفصلية في صحاري أستراليا الوسطى بفجائيةٍ وحِدَّةٍ غير متوفرة في أي مكان في العالم. تنتهي فترة جفاف طويل في البرية الرملية والحجرية

والتي يسودها الصمت وعزلة الموت التي تفقس فجأةً عدة أيام من الأمطار الجارفة التي تجعل المشهد يبتسم بالخضرة وتكاثر وفير للحشرات والسحالي والضفادع والطيور. إن هذه التغيرات العجيبة التي تقلب وجه الطبيعة في هذه الأوقات هي أشبه بالسحر على حد قول حتى المشاهدين الأوربيين، ولا عجب إذن أن يعتبرها البدائي على هذا النحو. يقوم أصلاء أستراليا الوسطى بالطقوس السحرية فقط عندما يقترب وصول فصل الخير بهدف معلن وهو إكثار النباتات والحيوانات التي اعتادوا أن يأكلوها. تتناظر هذه الطقوس مع عادات الربيع عند فلاحي أوروبا في توقيتها وهدفها ولا نشك أبداً في أنها خُلِقت لتساعد في تنشيط الحياة النباتية في الربيع برغبة وجدانية عند أجدادنا البدائيين ليشموا أول طلوع للبنفسج ويقطفوا تباشير زهور الربيع أو يتأملوا النرجس الأصفر يتراقص مع النسمات، لكن لأهداف عملية ـ وحتماً لم تكن مصاغة بعبارات مجردة – لأن حياة الإنسان مرتبطة حتماً بحياة النبات ولأنه لا يستطيع العيش دون تلك النباتات. وكان إيمان البدائي الأسترالي بفعالية طقوسه السحرية يتعزز بنتائج آجلة أم عاجلة في ازدياد الخضرة والحيوان، لذلك لنا أن نفترض أن البدائيين الأوربيين سلكوا السلوك نفسه في غابر الزمان. استقبل البدائي منظر الخضرة النضرة في الأجمات والأدغال ومشهد الزهور الغضة المنورة على الضفاف المطحلبة، وبالسنونو القادمة من الجنوب وبالشمس التي يرتقي مسارها يوماً بعد يوم في السماء، استقبلها جميعاً كإشارات مرئية على نجاح سحره ويضفي عليها ثقة مغتبطة بأنه قادر على أن يوجه العالم ليتجاوب مع رغباته. لكن عندما يأتي الخريف بعد أن يذوي الصيف رويداً تبدأ الريبة تتسلل إلى ثقته والشك بمظاهر الهبوط الذي بين له كم كانت جهوده عبثية في إبعاد الشتاء وإقصاء الموت.

الفصل التاسع والعشرون
أسطورة أدونيس

لقد أثر مشهد تغير وجه الأرض سنوياً على الإنسان في جميع العصور، الأمر الذي جعله يفكر بأسباب هذا التغير الواسع والعجيب. لم يكن فضوله بعيداً عن مصالحه، إذ أدرك البدائي أرتباط حياته بحياة الطبيعة وشعر بالخوف من الانقراض بسبب تعريتها من الخضرة وتجمد جداولها. وفي مرحلة معينة من تطوره تصور الإنسان وسائل تمكّنه من درء تلك المصائب المحدقة وتخيل أن تلك الوسائل هي بمتناول يده، فراح يمارسها ليستعجل الفصول أو يبطئها عن طريق فن السحر، وأدى طقوساً ليستهطل المطر وقرأ تعاويذ ليجعل الشمس تشع والحيوانات تتكاثر والثمار تنمو. ومع الزمن ومع تقدم معارفه تبددت الأوهام من ذهنه وأقنع المفكرين من أنداده بأن تناوب الصيف والشتاء والربيع والخريف لم يكن نتيجة طقوسهم السحرية بل لها أسباب أعمق، وقوى أكبر تعمل وراء مشهد الطبيعة المتبدل. في هذه المرحلة صور لنفسه أن نمو وذبول الخضرة، ولادة وموت الكائنات الحية هي نتيجة تعاظم أو تدهور قوى كائنات إلهية إناثاً وذكوراً، تموت وتحيا، تتزوج وتنجب على نمط الحياة البشرية.

بهذا قام الإنسان بتبديل النظرية السحرية أو بالأحرى دعمها بالنظرية الدينية. ورغم اعتباره أن دورة التغيير السنوية هي انعكاس لتغيرات في الآلهة، ظل يسهم بطقوس سحرية ليدعم الإله الذي يشكل مصدر الحياة في صراعه مع القوة المضادة وهي الموت، وتخيل أنه يستطيع تعزيز قواه المنحدرة وحتى إنه يعيدها إلى الحياة بعد الموت. لم يكن جوهر الطقوس التي أقاموها بهذا الهدف إلا تمثيلاً درامياً للعمليات الطبيعية التي رغبوا في تسهيل حصولها؛ لأن مبدأ السحر المعروف هو أنك تستطيع أن تجعل الشيء يحدث بمجرد تقليده. ومثلما فسروا تقلب النمو والذبول، التكاثر

والانحلال، الزواج، الموت وإعادة الولادة أو بعث الآلهة راحوا يركزون الدراما الدينية أو السحرية على الفرض نفسه، فصاروا يزوِّجون قوى الخصب المثمرة، ويتسببون بموت قوى أخرى أو على الأقل بموت شريك إلهي أو بعثه من جديد. وهكذا انصهرت النظرية الدينية بالممارسة السحرية. هذا الاقتران واضح جلي التاريخ. في الحقيقة، قليلة هي الأديان التي استطاعت التخلص تماماً من قيود السحر القديمة. وما يزعج الفيلسوف هو ذلك التناقض في المبادئ ونادراً مايزعج هذا التناقض الإنسان العادي، هذا إن شعر به. فمهمة الإنسان العادي هي التطبيق وليس تحليل الدوافع وراء ممارسته. ولو كان البشر منطقيين وعاقلين على الدوام لما امتلأ التاريخ بسلسلة طويلة من الحماقات والجرائم.

من أبرز التغيرات التي أتت بها الفصول في الإقليم المعتدل هي تلك التي تؤثر في الخضرة. ورغم أن تأثير الفصول كبير على الحيوانات لكنه لم يكن جلياً تماماً. ومن الطبيعي أن تركز الدراما، التي تهدف إلى طرد الشتاء واستقدام الربيع، على الخضرة وإثمار الأشجار والنباتات أكثر من التركيز على الدواب والطيور. مع ذلك لم تفصل العقول التي أقامت تلك الطقوس بين الحياة النباتية والحيوانية بل ظنوا أن العلاقة بين عالم الحيوان وعالم النبات أقرب مما هي عليه فعلاً. من هنا ربطوا بين التمثيل الدرامي لتنشيط النبات بالتزاوج الحقيقي أو الدرامي بين الجنسين للوصول إلى تزايد الثمار وتكاثر الحيوانات والبشر. بالنسبة إليهم، مبدأ الحياة والخصب واحد لايتجزأ، لا يفرقون بين حياة الحيوانات وحياة النباتات. لكي يحيا ويتسبب بالحياة، لكي يأكل وينجب، كانت هذه هي الحاجات الأساسية عند الناس في الماضي وستبقى الأساسية في المستقبل مادام أن هناك حياة في هذا العالم. هناك أشياء أخرى نضيفها لنغني أو نُجَمِّل الحياة البشرية لكن ليس قبل تأمين حاجات نتوقف عن الحياة دونها: الغذاء والأطفال هما ما سعى إليهما الإنسان عبر أداء طقوس سحرية بهدف تنظيم الفصول.

لم تنتشر تلك الطقوس أكثر مما انتشرت على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وتحت الأسماء أوسيريس وأدونيس وأتيس، مثلت شعوب مصر وآسيا الغربية انحدار الحياة وانبعاثها سنوياً، وخصوصاً تلك التي شخصوها على أنها إله يموت سنوياً ثم يحيا. اختلفت تلك الطقوس من حيث التسمية والتفاصيل من مكان

إلى آخر، لكنها لم تختلف من حيث الجوهر. والآن سنبحث في موت الإله الشرقي وبعثه والذي أخذ عدة أسماء لكنه حافظ على الطبيعة ذاتها. لنبدأ بتموز أو أدونيس.

مارست الشعوب السامية في بابل وسوريا عبادة أدونيس، وأخذ عنهم الإغريق هذه العبادة منذ القرن السابع قبل الميلاد. كان اسم الإله الحقيقي هو تموز: وهي لقب لأدونيس من اللغة السامية (أدون) أي (السيد) وهو لقب الشرف الذي كنّاه به عابدوه. لكن الإغريق فهموا اللقب فهماً خاطئاً واستخدموه كاسم علم. وفي الأدبيات الدينية في بابل يظهر تموز على أنه زوج عشتار أو عشيقها، وهي إلهة الأمومة العظيمة، أي تجسيد الطاقة التكاثرية للطبيعة. وكانت الإشارة إلى علاقتهما في الأسطورة أو في الطقوس إشارة جزئية ومبهمة لكننا عرفنا أن تموز يموت سنوياً ويرحل عن هذه الأرض السعيدة إلى العالم السفلي الكئيب وأن خليلته الإلهية تسافر بحثاً عنه إلى عالم لا رجعة منه، دار الظلام حيث يغطي الغبار الأبواب والمزالج. تتوقف عاطفة الحب عن عملها في أثناء غيابها، وينسى الناس والوحوش أن تتكاثر، وتتهدد الحياة برمتها بالانقراض. ترتبط الوظائف الجنسية في مملكة الحيوان مباشرة بتلك الإلهة فلا تستطيع الحيوانات أن تنجز شيئاً إلا بوجودها. لذلك كان يُرسَل رسول الإله إيا لينقذ الإلهة التي تعتمد عليها كثير من الأشياء. وكانت ملكة جهنم القاسية ألاتو وتحديداً إريشكيفال تسمح كارهة أن تُرَشَّ عشتار بماء الحياة كي تتمكن من المغادرة وربما بصحبة عشيقها تموز ليصعدا معاً إلى العالم العلوي وبهذا تدب الحياة في الطبيعة ثانيةً.

هناك الكثير من التاويح على رحيل تموز في الترانيم البابلية والتي تشبِّهه بذبول النبات السريع. تصفه التناويح بالتالي:

إنه طرفاء في بستان لم يشرب الماء،

والذي تاجه لم يزهر في الحقول.

حورة لم تعد تسعد بمجرى الماء،

حورة تمزقت جذورها.

عشب في حديقة لم تشرب الماء.

يبدو أن موته يُرثى سنوياً على وقع موسيقا الناي الحادة، تندبه النساء والرجال في منتصف الصيف في الشهر الذي أخذ اسمه **تموز**. وكانت الترانيم على مايبدو تغنى على صورة الإله الميت الذي كان يُغسل بالمياه النظيفة ويدهن بالزيت ويكسى برداء أحمر بينما تتصاعد روائح البخور وكانها توقظ الحواس الهاجعة برائحتها اللاذعة وتوقظه من نوم الموت. وفيما يلي منقوشة **تنويح الناي على تموز**. ويبدو أننا مازلنا نسمع أصوات المغنين يكررون اللازمة الحزينة كي يستعيدوا أنفاس موسيقا الناي البعيدة:

على رحيله تطلق تنويحة،

أوِ يابني، على رحيله تطلق تنويحة؛

يا داموا على رحيله تطلق تنويحة،

أيها الساحر والكاهن، على رحيله تطلق تنويحة،

عند الأرزة المتألقة، التي تضرب جذورها في المكان الفسيح،

لـ **إيانا**، في الأعلى وفي الأسفل، تطلق تنويحة.

كتلك التنويحة التي يطلقها أهل المنزل على رحيل سيدهم، تطلق تنويحة،

ومثل التنويحة التي تطلقها المدينة على غياب ملكها، تطلق تنويحة.

وما تنويحها إلا على الأعشاب التي لم تعد تنمو في الحقول،

وما تنويحها إلا كالتنويح على الذرة التي لم تعد تنمو في الكوز.

والحجرة التي تملكها لم تعد تملكها،

امرأة منهكة، طفل منهك، على وشك الموت.

وما تنويحها إلا كالتنويح على النهر العظيم الذي لم يعد ينمو على ضفافه الحور،

تنويحها على الحقل الذي لم يعد تنمو فيه الذرة أو الأعشاب.

تنويحها على البحرة التي لم تعد يكبر فيها السمك.

تنويحها على القصب الثخين الذي لم يعد ينمو.

تنويحها على الغابات التي لم تعد تنمو فيها الطرفاء.

تنويحها على الغابة البرية التي لم يعد ينمو (؟) فيها السرو.

تتويجها على أعماق بستان الشجر حيث لم يعد يُجنى العسل أو الخمر.

تتويجها على السهوب حيث توقفت النباتات عن النمو.

تتويجها على القصر الذي توقفت فيه الحياة.

تعرفنا على قصة أدونيس الحزينة وطقوسه الكئيبة من التفاصيل البابلية أكثر مما وصفها الكتاب الإغريق أو من ذِكْرِ النبي إزيكيل المقتضب الذي رأى امرأة في القدس تبكي على تموز عند المدخل الشمالي للمعبد. انعكست صورة الإله الشرقي على مرآة الميثولوجيا الإغريقية على أنه شاب جميل أحبته أفروديت فخبأته في صندوق وعهدت به إلى بيرسيفون، ملكة العالم السفلي. لكن عندما فتحت بيرسيفون الصندوق ورأت جمال الفتى، رفضت أن تعيده إلى أفروديت رغم ذهاب إلهة الحب بنفسها إلى جهنم كفدية لتخليص حبيبها من سيطرة القبر. نشب خلاف بين الإلهتين مما استدعى تدخل زيوس ليقضي بأن يقيم أدونيس مع بيرسيفون في العالم السفلي فترة محددة من السنة، ومع أفروديت في العالم العلوي الجزء الآخر من السنة. في النهاية قُتِل الشاب الجميل على يد خنزير بري، أو على يد أريس الغيور الذي أتى على شكل خنزير كي يدبر الموت لندِّه. وبالحزن المرير ندبت أفروديت حبيبها الضائع أدونيس. حسب هذا الشكل من الأسطورة، ينعكس صراع أفروديت وبيرسيفون على ملكية أدونيس عن الصراع القائم بين عشتار وألاتو في عالم الموت، بينما يأتي قرار زيوس أن يقضي أدونيس جزءاً من السنة تحت الأرض بينما يقضي الجزء الآخر فوقها هو مجرد نسخة إغريقية عن اختفاء تموز وظهوره.

الفصل الثلاثون
أدونيس في سوريا

تمركز أدونيس واحتُفِل بطقوسه بقدسية كبيرة في موقعين في آسيا الغربية. أولهما هو بيبلوس على الساحل السوري والثاني هو قبرص. كانا مركزين عظيمين لعبادة أفروديت، أو مثيلها السامي أستارتي، أو كليهما إذا ما قبلنا أن سينيراس الأسطوري كان ملكاً. بيبلوس هي الأقدم وهي بالفعل أقدم مدن الفينيقين التي أسسها الإله العظيم أيل الذي عرفه الإغريق والرومان باسم كرونوس وساترن (زحل) على التتالي. وربما صُنفت في المرحلة التاريخية على أنها العاصمة الدينية للبلاد أي مكة أو قدس الفينيقين. تقع المدينة على مرتفع قرب البحر وفيها مقام كبير على شكل مسلة أو برج لأستارت وسط مكان فسيح محاط برواق، يأتونه عبر درج من الأسفل، إنه صورة الإلهة. كانت طقوس أدونيس تقام في هذا الحَرَم، وفي الحقيقة كانت المدينة برمتها مقدسة. أما نهر إبراهيم الذي يصب في البحر إلى الشمال من المدينة فكان يحمل اسم أدونيس. تلك كانت مملكة سينيراس التي حكمها ملك بمساعدة مجلس ربما كان مجلس الكبار.

حمل آخر ملوك بيبلوس اسم سينيراس الذي أُعدم على يد بومبي الكبير لتماديه في استبداده. ويقال إنه اكتسب اسمه الأسطوري من تأسيسه لحرم أفروديت، أي أستارت على جبل لبنان على مسافة يوم واحد مشياً على الأقدام من العاصمة اليوم. ربما كانت أفاكا وهي منبع نهر أدونيس في منتصف الطريق بين بيبلوس وبعلبك لأنه في أفاكا كانت هناك غابة وحرم لأستارت الذي دمره قسطنطين لأنه شكل عبادة آثمة. اكتشف موقع المعبد مسافرون معاصرون قرب قرية بائسة مازالت تحمل اسم أفقا على رأس غابة أدونيس البرية الرومانسية. تقع الضيعة بين أدغال الجوز النبيلة على شفير الوادي السحيق. وعلى مقربة من الضيعة

يندفع النهر من كهف كبير على سفح مدرج تتعالى فيه مصاطب حجرية ليندمج مع سلسلة شلالات صغيرة ترتمي في أعماق الوادي. كلما كانت المسافة التي تسقطها تلك الشلالات أطول كلما ازدادت الخضرة التي تشطأ من صدوع وشقوق الصخور وتتشر وشاحاً أخضر على مجرى النهر الهادر في هوة سحيقة. هناك شئ لذيذ ـ بل مسكر منشٍ ـ في عذوبة المياه التي تتقلب، وهناك حلاوة الجو الجبلي ونقاؤه، وهناك الخضرة العميقة التي تنبض بالحياة. هناك آثار مازالت فيها القطع المنحوتة وأعمدة الغرانيت الأسواني الناعمة المنقوشة تحكي عن قصة المعبد الذي احتل موقعاً مقابلاً للنهر ليكسب إطلالة رائعة. من وراء الشلالات بإمكانك رؤية الكهف عند قمة الجرف. شرخ صخري شاهق يتعرش الماعز على حوافه ويرعى من الأشجار وكأنه نمل بالنسبة للناظر على بعد مئات الأمتار في الأسفل. أما باتجاه البحر فيصبح المنظر أخاذاً حيث تفيض الشمس بأشعتها الذهبية على الوادي كاشفة روعة الأكتاف وأبراج مدورة من المتاريس الجبلية، وتعانق بنعومةٍ الغابات الخضراء المتنوعة التي تكسو قاع الوادي. هنا التقى أدونيس بأفروديايت أول مرة أو آخر مرة، وهنا دُفن جثمانه المُمَثَّل به. لا يمكن لك أن تتصور منظراً أجمل من هذا ليكون مسرحاً لأحداث قصة حب وموت مأساويين. وعلى الرغم من عزلته، فإن الوادي ليس مهجوراً تماماً إذ يمكنك رؤية دير أو قرية تقف عالية على صخور ناتئة فترى السماء من خلفها، مُعَلَّقة على منحدر صخري فوق صوت النهر ورذاذه. وفي المساء تدل الأضواء المتألقة خلف الظلام على وجود بشري يقطن السفوح التي تبدو مستعصية الوصول على الإنسان. في قديم الزمان كان الوادي الجميل كله وقفاً لأدونيس ومازالت ذكراه تعيش فيه حتى الآن؛ لأن المرتفعات التي تعزله مازال فيها بعض مثابات محطمة للعبادة بعضها مدلاة تكاد تسقط في الهوة التي تدوِّخ رأس الناظر الذي يرى النسور تدور حول أعشاشها على مسافة بعيدة في الأسفل. مازالت بعض هذه الذكريات موجودة على وجه صخرة جونية التي نُحتَ عليها بالنقش الغائر صورتان لأفروديايت وأدونيس. صُوِّر أدونيس ومعه رمحه في حالة الراحة منتظراً هجوم أحد الدببة، بينما تجلس أفروديايت في وضع حزين. ربما كانت شخصيتها المنكوبة تمثل أفروديايت لبنان النائحة كما وصفها ماكروبيوس وربما كان التجويف على الصخرة يمثل قبر حبيبها. وحسب معتقد عابديه يُجْرَح أدونيس حتى

الموت كل سنة في الجبال، وكل سنة يصطبغ وجه الطبيعة بالدم المقدس. وسنة بعد سنة تندب صبايا سورية موته المبكر بينما تتفتح الشقائق الحمراء ـ وهي وروده — بين أرزات لبنان ويتدفق النهر أحمر نحو البحريهدِّب شطآن البحر الأبيض المتوسط الزرقاء والملتوية بحزم قرمزية متموجة كلما ضربت رياحُ البحرِ الشاطئَ.

الفصل الواحد والثلاثون
أدونيس في قبرص

تقع جزيرة قبرص على بعد إبحار يوم عن الساحل السوري إذ تتراءى جبالها من بعيد عند نيران الغروب الحمراء في مساء الصيف. من الطبيعي أن ينجذب إليها البحارة مثل الفينيقين لـمَا فيها من مناجم غنية بالنحاس وغابات ممتلئة بأشجار التوب والأرز المهيب، وما جعلها أرض الميعاد هو وفرة الحنطة والخمر والزيت مقارنة مع الطبيعة الشحيحة الوعرة والمحصورة بين الجبل والبحر عند الساحل. وبالتأكيد استقروا فيها قبل الإغريق بكثير وبقوا هناك بعد أن سكن الإغريق على شواطئها؛ ودليلنا على هذا هو النقوش والنقود التي تبين أن ملوك الفينيقيين حكموا في سيتيوم، والكلمة العبرية لها هي شيتيم، حتى قدوم الإسكندر الأكبر. ومن الطبيعي أن يجلب الساميون معهم آلهتهم من وطنهم. ففي لبنان كانوا يعبدون بعل الذي ربما كان أدونيس، خصوصاً أنهم أقاموا طقوس أدونيس وأفروديت في القسم الجنوبي من الساحل السوري، ومن المرجح أنه حمل هناك اسم أستارت. وفي بيبلوس شابهت طقوسهم عبادة المصريين لأوسيريس بشكل جعل الناس تطابق بين أدونيس أماثوس مع أوسيريس.

لكن المقر العظيم لعبادة أفروديت وأدونيس في قبرص كان في بافوس جنوب غرب الجزيرة. ومن بين الممالك الصغيرة التي انقسمت إليها قبرص قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلادي بكثير كانت بافوس، أفضل الممالك. إنها أرض جبلية بمدرجات متداخلة، تتشابك بها الأنهار وتتنوع فيها البساتين وعرائش العنب. أما الأنهار فقد رسمت لنفسها مع مرور الزمن مسارات عميقة تجعل السفر إلى الداخل صعباً ومملاً. أما سلسلة جبال أولومبوس العالية (وهي جبال ترودوس اليوم) فتبقى الثلوج على رؤوسها معظم أوقات السنة فتحجب الرياح الشمالية الشرقية عن بافوس وتعزلها عن

بقية مناطق الجزيرة. وعلى سفوح هذه الجبال مازالت باقية آخر غابات الصنوبر تؤوي هنا وهناك أديرة في مواقع لا تقل جمالاً عن جبال أبينايين في أيطاليا. كما احتلت مدينة بافوس القديمة قمة جبل يبعد ميلاً واحداً عن البحر، أما المدينة المعاصرة فكانت على بعد عشرة أميال عن المدينة القديمة. كان حرم أفروديات في بافوس القديمة (كوكليا اليوم) أكثر المقامات احتفالاً في العالم القديم. وعلى حد قول هيرودوتوس أن المستعمرين الفينيقيين القادمين من عسقلان هم الذين أسسوها. وربما عبدوا إلهة خصب محلية في ذلك الموقع قبل وصول الفينيقيين، وما فعله القادمون الجدد هو توليفها مع عبادتهم لبعل وأستارت المشابهَين لها. وإذا انصهر إلهان في إله واحد لنا أن نقول إنهما شكلان لإلهة الأمومة والخصب التي ظهرت عبادتها وانتشرت في أسيا الغربية منذ زمن أبعد بكثير. وما يؤكد هذا الافتراض الشكل القديم لتصويرها خلال طقوسها على أنها شخصية فاسقة ولأنها تشترك مع غيرها من الآلهة الأسيوية بالشكل والطقوس. كانت صورتها مجرد مخروط أبيض أو هرم، وكذلك كان رمز أستارت في بيبلوس، وكذلك الإلهة المحلية التي سماها الإغريقيون أرتيميس في بيرغا في بامفيليا، وكذلك إله الشمس هليوغابالوس في إميسا في سوريا. وكذلك وُجِدت الحجارة المخروطية التي قامت بدور الأوثان في غولجي في قبرص وفي المعابد الفينيقية في مالطا؛ ظهرت المخاريط من الحجارة الرملية في مقام (السيدة تركواز) بين التلال القاحلة في جروف سيناء المكفهرة.

يبدو أنه فرضت العادة على النساء قبل زواجهن أن يسلمن أنفسهن للغرباء في حرم الإلهة أفروديات أو أستارت أو تحت أي اسم آخر. كما سادت العادة نفسها في أنحاء عديدة من آسيا الغربية. ومهما كان الدافع وراء هذه العادة لم تُعتبر تلك الممارسة عربدة شهوانية بل واجب ديني مقدس يؤدَّى خدمة لإلهة الأمومة العظيمة في آسيا الغربية والتي اختلفت فقط بالاسم من مكان إلى آخر وبقي جوهرها هو ذاته. وفي بابل كان على كل امرأة غنية كانت أم فقيرة أن تسلِّم نفسها لرغبة غريب مرة في حياتها في معبد مايليتا أي عشتار أو أستارت وتعطي ريع دعارتها المقدسة للإلهة. وكان فِناء المعبد المقدس يكتظ بالنساء منتظرات الفرصة لأداء هذا الواجب، وقد ينتظر بعضهن سنوات لتحقيق ذلك الهدف. وفي هليوبوليس أو بعلبك في سوريا، المشهورة بآثار معابدها العظيمة، كان يُطلب من كل امرأة أن تمارس

الجنس مع غريب في معبد أستارت، أما العقيلات والسيدات فكن يخضعن لاختبار إخلاصهن للإلهة بهذه الطريقة. ثم أتى الإمبراطور قسطنطين ليلغي تلك العادة ويدمر المعبد ويبني مكانه كنيسة. وفي المعابد الفينيقية كانت النساء تسلمن أنفسهن بالأجرة خدمةً للدين مُعتَقِدات أن هذه الممارسة ترضي الإلهة وتُكْسِب فضلها. وقضى القانون العموري على كل من كانت على وشك الزواج أن تعرِض نفسها سبعة أيام للزنا على بوابة المعبد. وفي بيبلوس كان الناس يحلقون شعر رؤوسهم بالمناسبة السنوية حِداداً على أدونيس. أما النساء اللواتي يرفضن حلق شعورهن فيمارسن الجنس مع الغرباء في يوم محدد لذلك الإحتفال ويهبن المال الذي يجنينه للإلهة. وتثبت منقوشة وُجدت في تراليس في ليديا أن ممارسة الزنا الديني بقيت ساريةً في البلاد حتى القرن الثاني الميلادي. وتحكي هذه المنقوشة قصة امرأة تدعى أورليليا إيميليا تمارس الزنا بكامل قوتها كمومس لأجل الإله وكذلك فعلت أمها وأسلافها من النساء من قبلها. وإعلان هذه المنقوشة المحفورة على عمود من الرخام والذي يعتبر نذراً، يبين أن هذا السلوك لم يلحق أي عيب بها أو بنَسَبِها. وفي أرمينيا وهبت كبيرات العوائل بناتها لخدمة الإلهة أنايتيس في معبدها في أسيليسينا لتعمل الصبايا كمومسات ولفترة طويلة قبل زواجهن. لم يتردد أي رجل في الزواج من أي من هذه الفتيات عند انقضاء فترة خدمتها. كذلك كان الكثير من المومسات المقدسات يخدمن الإلهة (ما) في كومانا في بونتوس، وكان يؤم حرمها أفواج من الرجال من المدن المجاورة ليحضروا الاحتفالات السنوية ويفوا بعهودهم للإلهة.

ومهما وضعنا من الأدلة على هذا الموضوع يبقى هناك الكثير أمام القارئ، فنستنتج أن إلهة الأمومة العظيمة المجسِّدة لطاقة التكاثر الطبيعية، كانت تُعبد تحت مسميات عديدة لكن بتشابه جوهري بالأسطورة والطقوس لدى جميع شعوب آسيا الغربية؛ وهي مرتبطة بعشيق أو سلسلة من العشاق، آلهةً كانوا أم بشراً أو آلهةً فانين تقترن بهم سنة بعد سنة، وتُعتبر ممارستهم شرطاً أساسياً لتكاثر الحيوانات والنباتات؛ والأكثر من ذلك أن الاتحاد الخرافي بين الزوجين الإلهيين يكون بتحريض ـ أو كأنه يتضاعف على الأرض بشكل ملموس ـ كلما تضاعف ولو بشكل مؤقت اتحاد الجنسين البشريين في حرم الإلهة بهدف تأمين إثمارية الأرض وزيادة البشر والدواب.

في بافوس يقال إن عادة الدعارة الدينية قد أُنشئت على يد الملك سينيراس وأنها مورست من قبل بناته، أخوات أدونيس، اللواتي مارسن الجنس مع الغرباء وأنهين حياتهن في مصر مثيرات سخط أفروديايت. وربما كان سخط أفروديايت زيادةً أضافها لاحقاً ملكٌ اعتبر هذا السلوك الذي هز إحساسه الأخلاقي عقوبةً أنزلتها الإلهة بدلاً من الأضحية التي تفرضها دورياً على جميع أنصارها. وبكل الأحوال تدل القصة أنه كان على أميرات بافوس، أو نسائها المتواضعات، أن يلتزمن بهذه العادة.

ومن بين القصص التي وصلتنا عن سينيراس، وهو سلف ملوك كهنة بافوس وأبو أدونيس، ما يستحق اهتمامنا. أولاً يُقال أنه أنجب ابنه أدونيس في سفاح مع ابنته ميرها في احتفال إلهة الحنطة، والذي فيه ترتدي النسوة لباساً أبيض لتقدم أكاليل الحنطة كتباشير المحصول وأن يلتزمن بطهارة تدوم تسعة أيام. وبلغنا الكثير من الحالات المشابهة لسفاح ذي القربى من قبل الملوك القدامى. ومن غير المرجح أن تكون هذه الأخبار مصادفة دون أساس ومن غير المحتمل أن تدل على نزوة جنسية غير عادية. بل نظن أنها تعتمد على ممارسة ترتكز على ظروف معينة. ففي البلدان التي يورَّث الدم الملكي عبر النساء فقط أي يحصل الملك على منصبه عبر زواجه من أميرة وارثة للملك، يصبح الأرجح أن يتزوج الأمير من أخته الأميرة كيلا يذهب التاج إلى رجل آخر وربما كان ذلك الرجل غريباً. الا يمكن أن تدفع القاعدة نفسها الملكَ لممارسة سفاح ذي القربى مع ابنته؟ خصوصاً أن هذه القاعدة تفرض على الملك التخلي عن المُلك بمجرد موت زوجته الملكة لأنه أصلاً حصل على التاج عن طريق زواجه منها. وعندما ينتهي زواجه ينتقل العرش فوراً إلى زوج ابنته. من هنا، إن رغب الملك بالحكم بعد وفاة زوجته، تصبح الطريقة الشرعية الوحيدة للاستمرار هي الزواج من ابنته، وبهذا يطيل أمد اللقب الذي حصل عليه من زواجه من أمها.

ويقال أن سينيراس اشتهر بجماله الأخاذ مما جعل أفروديايت تسعى وراءه. وهذا ما حدا بالدارسين إلى اعتبار سينيراس نسخة عن أدونيس الوسيم الذي فقدت به الإلهة اللهوب قلبَها. والأكثر من ذلك لا تنفصل قصة الحب التي تجمع أفروديايت باثنين من الأسرة المالكة في بافوس عن الأسطورة التي حكى عنها بغماليون ـ ملك قبرص الفينيقي – الذي وقع في حب أفروديايت وأخذها إلى سريره. وإذا كان بغماليون حما سينيراس، وأدونيس ابن سينيراس، وكلهم تعاقبوا على علاقة غرامية

غير شرعية مع أفروديت، لنا أن نفترض أن ملوك بافوس الفينيقيين ادعوا أنهم أمراء الإلهة وعشاقها أي أنهم جسدوا أدونيس بنفوذهم الرسمي. على كل الأحوال يقال إن أدونيس قد حكم في قبرص وأن أبناءه من ملوك قبرص الفينيقيين حملوا لقب أدونيس. صحيح أن اللقب لم يدل حرفياً إلا على كلمة (سيد)؛ لكن الأساطير التي تربط بين أمراء قبرص مع إلهة الحب تجعلهم يدعون الطبيعة الإلهية بالإضافة إلى شموخ أدونيس البشري. تشير قصة بغماليون إلى طقس الزواج المقدس الذي يتزوج فيه الملك مجسم أفروديت أو أستارت. إذا كانت الأمور هكذا تصبح القصة صحيحة ولا تنطبق على رجل فريد فقط بل على سلسلة من الرجال، ويصبح بغماليون هو راوي القصة المرجح، إذا كانت تلك التسمية شائعة عند ملوك الساميين بشكل عام وعند ملوك قبرص بشكل خاص. على كل الأحوال من المعروف أن بغماليون يحمل لقب ملك تايار الذي هربت منه أخته ديدو؛ وهناك ملك يُدعى أيضاً بغماليون وهو سيتيوم وداليوم في قبرص والذي حكم في زمن الإسكندر الكبير. ومن الملاحظ أن الاسمين بغماليون وأستارت وردا سوية في منقوشة بونية على ميداليات ذهبية وُجدت في قبر في قرطاج؛ أما الحروف التي استخدمت في المنقوشة فهي من أقدم الأنماط. بما أن عادة الدعارة الدينية في بافوس قد أسسها سينيراس والتزمت بناتُه بها، نستنتج أن ملوك بافوس قد لعبوا دور العريس الإلهي بطقس أقل أمانة من شكل الزواج من التمثال؛ إلى درجة أنه في احتفالات معينة كان على كلٍ منهم أن يقابل واحدة أو اثنتين من أولئك المومسات المقدسات في المعبد ليلعبوا دور أستارت مع أدونيس. هنا تصبح صحيحة تهمة الدعارة العمومية، التي وبخ بها البابوات المسيحيون أفروديت معبودة سينيراس. أما ما ينجبونه من لقاءاتهم الجنسية فهم بنات وبنون إلهيون وسوف يصبحون يوماً آباءً لآلهة وإلهات مثل آبائهم وأمهاتهم من قبلهم. بهذه الطريق تصبح بافوس وجميع المعابد الحُرُم الخاصة بالإلهة الآسيوية العظيمة مكاناً لممارسة الدعارة المقدسة وأنها تعج بالآلهة البشريين وذرية الملك الإلهي من زوجاته ومحظياته ومومسات المعبد. وأي من هؤلاء يمكن أن يخلف أباه في العرش أو يُضحَّى به كبديل عن أبيه في الأوقات العصيبة مثل الحرب أو عندما تستدعي الحاجة التي تقضي بتقديم ضحية ملكية. لا تبيد هذه الضريبة المفروضة على ذرية الملك الكثيرين لمصلحة البلاد العائلةَ الملكيةَ ولا تفطر قلوبَ

آبائهم الذين نشروا حبهم الأبوي على عدد كبير من الأولاد. ويبدو أن هناك ما يبرر اعتقادنا أن الملوك الساميين كانوا بالإضافة إلى منصبهم كملوك هم آلهة بالوراثة، وهنا يسهل علينا فهم تكرار الأسماء الشخصية السامية التي تفيد أن حامليها هم بنات وأبناء، إخوان وأخوات، آباء وأمهات إله ما، ولا داعي للعودة إلى التحاليل التي يلجأ إليها الدارسون للمراوغة على معنى الكلمة الظاهر. مايؤكد هذا التفسير هو استخدام المصريين للأسماء نفسها. على اعتبار أن الملوك تُعبَد كآلهة، سمى المصريون الملكة (زوجة الإله) أو (أم الإله) ولم يدل لقب (أبو الإله) على الأب الفعلي للملك بل يمكن أن يكتسبه حمو الملك. وكذلك عند الساميين، كل من يرسل ابنته لتزيد من أعداد النساء في الحريم الملكي يمكن أن يسمي نفسه (أبو الإله).

ويمكن ان نستدل من الاسم أن الملك السامي الذي يحمل اسم سينيراس هو عازف قيثار مثل الملك ديفيد؛ لأن الاسم مرتبط بالعبارة الإغريقية **سينيرا** وتعني **قيثار** وهي أيضاً مرتبطة بالكلمة السامية **كينور** وتعني أيضاً قيثار وهي الآلة التي عزف عليها ديفيد أمام ساول (أول ملوك إسرائيل). ولا نخطئ عندما نعتبر أنه في بافوس كما في القدس لم تكن موسيقا القيثار مجرد تسلية لتمضية ساعة فراغ بل هي قيام بخدمة دينية، لأن أنغامها تنشط مباشرةً الإلهام الإلهي تماماً كما يفعل الخمر. ومن المؤكد أن يكون رجل الدين في القدس قد لجأ إلى موسيقا القيثار والسنطير والصنج كي يأتي يتنبوءاته. ويبدو أيضاً أن الكاهن الهاوي اعتمد على نبوءاته على هذه المحرضات للوصول إلى حالة النشوانية عبر الحديث المباشر مع الإله. وكذلك نقرأ عن طائفة من الأنبياء يجولون في المدن يتنبؤون ومعهم السنطير والدف الصغير والقيثارة. كذلك لو لم تتضافر قوى جودا وإفرايم وكانوا يسعون جيئة وذهاباً وراء العدو، ما استطاعوا العثور على الماء مدة ثلاثة أيام وكانوا على شفير الموت عطشاً شأنهم شأن وحوش البرية. في هذا الظرف العصيب استدعى النبي إليشا، الذي كان يصحب الجيش، المغني وطلب منه أن يعزف. وتحت أثر الموسيقا، اختار مكاناً ليحفر فيه الجند خنادق وهو في وادي رملي قاحل كانوا يعبرونه. وفعلوا ذلك، وفي الصباح التالي وجدوا الخنادق قد امتلأت ماءً تسرب من الجبال المقفرة الموحشة على الطرفين. يشبه نجاح النبي في إيجاد الماء ذلك النجاح الذي يحققه المستنبئ بالعصا في وقتنا الحاضر مع اختلاف أسلوبه في العمل. وبالمصادفة قام أيضاً بإسداء خدمة

أخرى لأبناء بلده. إذ رأى أهل مؤاب المتسللين من وِجارهم بين الصخور رأوا شمس الصحراء تنعكس على الماء، واعتبروها دماً، أو ربما نذير دم أعدائهم فاستجمعوا شجاعتهم وهاجموا المعسكر وهُزِموا بمذبحة كبيرة.

تماماً كما يخيم جوٌ من الكآبة على عقل **ساول** من وقت إلى آخر فيعتبرها روح إلهة شريرة تثير غضبه، كذلك كان أصحاب القيثار المقدسين تهدئ موسيقاهم نفسه وتنظم أفكاره المضطربة، ويمكن أن تكون صوت الله أو الملائكة الخيرة التي تبث في أذنه الطمأنينة. وحتى في يومنا هذا يقول أحد الكتاب الدينيين العظماء المدركين لسحر الموسيقا، لايمكن أن تكون النوتة الموسيقية بما فيها من قوة تغلي الدم وتذيب القلب مجرد أصوات فارغة بل هاربة من الجو العلوي لتسكب في انسجام أبدي وهو صوت الملائكة وترانيم القديسين. وبهذا يرتد صدى تخيلات الإنسان البدائي ولثغاته الضعيفة في موسيقا الإنسان المعاصر. في الحقيقة، تشكل الموسيقا بما فيها من تأثير على تطور الدين موضوعاً يستوجب الدراسة. وأظن أن أكثر الفنون تأثيراً، الموسيقا، قد قام بدور كبير للتعبير عن العواطف الدينية، وأسهم في رسم البنية العقائدية ولم يكن مجرد عامل مساعد كما نظن من الوهلة الأولى. أي أن الموسيقي أسهم جنباً إلى جنب مع النبي والمفكر في صناعة الدين. لكل مُعْتَقَد موسيقاه المنسجمة معه، ويمكن التعبير عن الاختلافات بين المعتقدات عن طريق النوتة الموسيقية. فمثلاً الفاصل الذي يفصل بين العربدة الوحشية في سيبيل عن الطقوس المهيبة للكنيسة الكاثوليكية يمكن أن يُقاس بالخليج الذي يفصل القيثارة وضربات الصنجات المتنافرة التي تميزها عن أنغام الموت في باليسترينا وهاندل. كل من الروحين يتنفس بموسيقاه المتميزة.

الفصل الثاني والثلاثون
طقوس أدونيس

تُقام في آسيا الغربية وعند الإغريق احتفالات أدونيس التي يندبون فيها موت الإله سنوياً بالولولة المريرة خصوصاً من قبل النساء، وفيها يُلبسون مجسماً على شكل جثة يحملونها وكأنها في جنازة ثم يلقونها في البحر أو الينابيع، وفي بعض الأماكن يحتفلون بعودته في اليوم التالي. وفي بعض الأماكن الأخرى تختلف الطقوس من حيث الشكل والتوقيت. ففي الإسكندرية تُعرَض صورتا أدونيس وأفروديت على مقعدين وبجانب كل منهما مجموعة من الفواكه الناضجة من شتى الأصناف والكعك والنباتات التي تنمو في الأواني وتعاريش مجدولة مع اليانسون. يحتفلون بزواج الحبيبين في اليوم الأول وتلبس النساء لباس الحداد في اليوم التالي وتسدلن شعورهن وتفتحن عن صدورهن وتحملن صورة أدونيس الميت إلى شاطئ البحر وتلقين بها في الأمواج. ومع أن حزنهن قانت، يدل غناؤهن أن الراحل سيعود ثانيةً. لم يتحدد التاريخ الذي كانت تحصل فيه هذه الطقوس بشكل صريح لكن يمكن استنتاج ذلك من الفواكه الناضجة التي تدل على أن الاحتفال يحصل في أواخر الصيف. وفي حرم أستارت الفينيقي العظيم يقومون بالحداد على موت أدونيس سنوياً على وقع أنغام النواح على الشبَّابة المصحوبة بالبكاء والرثاء وضرب الصدور لكنهم يعتقدون أنه يعود إلى الحياة في اليوم التالي ويصعد إلى السماء بحضور عابديه. أما العابدون المتفطرون الباقون على الأرض فيحلقون رؤوسهم كما يفعل المصريون عند موت الثور الإلهي أبيس حيث تُقْدِمُ النساء اللواتي لايستطعن التضحية بأنفسهن على قص جدائلهن وإعطائها إلى الغرباء في يوم محدد من الاحتفال ويهبن لأستارت بدل العار.

اعتماداً على مشاهدة الرحالة، يُقام الاحتفال الفينيقي في الربيع عندما يتغير لون نهر أدونيس. في ذلك الفصل تغسل الأرض ترابها الأحمر في الجبال وتلون الأمطار مياه النهر وجزءاً من البحر، وما هذا إلا لون الدم الأحمر وما البقع القرمزية إلا دم أدونيس الذي يُجرح سنوياً حتى الموت على يد عِفرٍ في جبل لبنان. وأيضاً يقولون أن الشقائق الحمراء تتفتح في سوريا في عيد الفصح وهذا مايجعلنا نعتقد أن احتفال أدونيس أو على الأقل أحد احتفالاته تُقام في الربيع. ويأتي اسم الوردة من نعمان أي (الحبيب) وكأنه أحد ألقاب أدونيس. وما زال العرب يسمون هذه الوردة (جروح نعمان). ويُقال أن لون الوردة الأحمر يعود إلى المناسبة الحزينة نفسها لأن أفروديت هرعت إلى عشيقها الجريح وداست على غصن وردة بيضاء فجرحت أشواكُها الحادة لحمها الطري ولونت دماؤها المقدسة الورود البيضاء باللون الأحمر إلى الأبد. ربما كان ضعفاً أن نبني دليلنا كله على توقيت الورود، خاصةً إذا ركّزنا على الحجة الهشة وهي تفتح الورود. أما قصة ربط الوردة الدمشقية بموت أدونيس فتدلنا على أن الاحتفال بآلام أدونيس حصل في الصيف أكثر منه في الربيع. في أتيكا من المؤكد أن الاحتفال حصل في أواخر الصيف. ولأن الأسطول الذي أعدته أثينا لمحاربة سيراكوس والذي شلَّ دمارُه قوتَها إلى الأبد، أبحر في وسط الصيف ولسوء المصادفة كان الاحتفال الكئيب بأدونيس قائماً. وبينما كان الجنود ينزلون إلى الميناء ليصعدوا السفن كانت الأكفان ومجسمات الجثث تنتشر في الشوارع التي عبروها، وتفلّع الجو بأصوات النساء المُوَلْوِلات على موت أدونيس. انتشر جو من الكآبة في أوساط أعظم القوات العسكرية التي أرسلتها أثينا إلى البحر. وبعد عصور طويلة، عندما دخل الأمبراطور جوليان لأول مرة في أنتيوك وجد أن الفرح قد تحول إلى حزن ورأى عاصمة الشرق غارقة في حزن عميق تعاطفاً مع موت أدونيس؛ وإذا كان لديه أي إحساس مسبق بشَرٍّ قادم، فإن النواح الذي وقع على سامعَيه هو إنذار بنهايته.

هناك تشابه واضح بين هذه الطقوس والطقوس الهندية والأوربية. ولو وضعنا جانباً توقيت الاحتفال المشكوك به، يبقى هناك التطابق بين طقوس الإسكندرية والطقوس الهندية. ففي كليهما يقوم زواج كائنين إلهيين مرتبطين روحياً بالخضرة بدليل النباتات النضرة التي تحيط بهما. ثم يحزنون على الصورتين ويرمونهما في الماء.

من خلال التشابه بين هاتين العادتين من ناحية، وعادات الربيع ومنتصف الصيف في أوروبا المعاصرة من ناحية أخرى، من الطبيعي أن نتوقع أنهما تعتمدان على التفسير ذاته. وإذا كان هذا التفسير صحيحاً لابد أن تكون طقوس موت أدونيس وبعثه هي تمثيل درامي لانحدار الحياة النباتية وتنشيطها. وما يؤكد الاستدلال الذي يعتمد على التشابه بين العادات هو خواص أسطورة أدونيس وطقوسه. ويتضح تواصله مع الخضرة من القصة الشائعة عن ولادته. يُقال أنه وُلِد من شجرة المر التي تفتق لحاؤها بعد حَبَلٍ دام عشرة شهور ليخرج ذلك الطفل الجميل. ويقول بعضهم إن خنزيراً مزق اللحاء بنابه ليفتح الطريق أمام الوليد. وقد منحوا الأسطورة طيفاً منطقياً ضعيفاً بقولهم أن أمه كانت امرأة تدعى المر وتحولت إلى شجرة المر بعد أن حبلت به. وما يثير هذه الحكاية هو استخدام المر كبخور في احتفالات أدونيس. ورأينا كيف كان يُحرق البخور في طقوس مماثلة عند البابليين تماماً كما كان يحرقها اليهود الوثنيون على شرف ملكة السماء، وماهي إلا أستارت. أما القصة التي تقول إن أدونيس قضى نصف أو ثلث السنة في العالم السفلي والباقي في العالم العلوي إنما تؤكد افتراضنا الطبيعي أنه يمثل الخضرة خاصة الحنطة التي تبقى مدفونة تحت الأرض نصف السنة وتظهر في النصف الآخر. ومن الظواهر الطبيعية السنوية الأكثر إيحاءً بفكرة الموت والبعث ظهور الخضرة في الربيع واختفاؤها في الخريف. اعتقد بعضهم أن ادونيس هو الشمس، لكن ليس هناك في المنطقة المعتدلة أو المدارية ما يوحي باختفاء الشمس نصف السنة أو ثلثها والعودة إلى الحياة النصف الآخر أو الثلثين الباقيين. يمكن أن يعتبروه قد ضَعُف في الشتاء لكنه لم يمت لأن ظهوره اليومي يدحض هذا الافتراض. وفي الدائرة القطبية الشمالية حيث تختفي الشمس سنوياً لفترة متواصلة تتراوح بين الأربع وعشرين ساعة وحتى الستة شهور حسب مَيَلان الأرض، يصبح موته وبعثه السنويان فكرة مقبولة تماماً لكن ما من أحد سوى الفلكي غير الموفق بيلي اعتقد أن عبادة أودونيس أتت من المناطق القطبية. ومن الناحية الأخرى، تقفز فكرة موت الخضرة وإحيائها السنويين إلى ذهن الإنسان البربري أو المتحضر، ويأتي اتساع مدى ذبول الخضرة وتوالدها من جديد بالإضافة إلى اعتماد الإنسان المباشر عليها في وجوده، ليجعلها أكثر حوادث الطبيعة تأثيراً على الأقل في الأقاليم المعتدلة. ولاعجب أن تكون هذه الظاهرة هي الأكثر أهمية

والأكثر شمولية والأكثر إدهاشاً بالمقارنة مع الأفكار المشابهة التي أثارت طقوساً مماثلة في الكثير من بقاع الأرض. من هنا علينا أن نقبل تفسير عبادة أدونيس المتساوقة مع حقائق الطبيعة قياساً بالطقوس المشابهة في بلدان أخرى. وما يؤيد هذا التفسير الكمُّ الهائل من آراء القدامى أنفسهم الذين يفسرون موت الإله وبعثه بحصاد الحبوب وشطئها.

تظهر شخصيتا تموز وأدونيس كروح الحنطة في تقارير كاتب عربي من القرن العاشر الميلادي والذي وصف الطقوس والأضاحي التي يقدمها الوثنيون السوريون في فصول مختلفة من السنة قائلاً: "في منتصف تموز(يوليو) يُقام احتفال الباعقات أي النساء الباكيات وهو احتفال تا ـ أوز الذي يُقام على شرف الإله تا ـ أوز. وفيه تندبه النساء لأن سيده قد ذبحه بشراسة وطحن عظامه في الرحى ونثر المسحوق ليطير مع الرياح. لاتأكل النساء في أثناء الاحتفال أي طعام من مطحون الرحى بل يقتصرن على منقوع القمح والبيقية الحلوة والتمر والزبيب وما شابه." تا ـ أوز ـ وما هو إلا تموز ـ يشبه ما وصفه برنز هنا:

لقد ضيعوا فوق اللهيب السافع

نقي عظامه

وأساء له الطحان شر إساءة

وطحنه بين حجرين.

عندما يركز عابدو أدونيس على محصول الحبوب إنما يدلون على طبيعة مستواهم الثقافي التي توصلوا إليه في تلك المرحلة التاريخية عندما تركوا حياة البدو من رعي وصيد وترحال واستقروا عصوراً طويلة في مكان واحد ليعتمدوا في حياتهم بشكل رئيس على ماينتجونه من الحراثة. أما التوت والجذور البرية وأعشاب الرعي فلم تعد ذات أهمية كما كانت عند أجدادهم لأنهم انشغلوا باستقرار حياتهم وبالحنطة فانهمكوا باستعطاف آلهة الخصب بشكل عام وروح الحنطة بشكل خاص فأصبح هذا الاسترضاء جوهر ديانتهم. وكان هدفهم من طقوسهم هدفاً عملياً بحتاً أي لم يكن تهليلهم لولادة الخضرة وحزنهم على ذبولها بدافع وجدان

شعري غامض بل كان الشعور بالجوع أو الخوف منه هو الدافع الرئيس وراء عبادة أدونيس.

يرى الأب لاغرانغ أن النوح على أدونيس كان طقس حصاد أرادوا منه استرضاء إله الحنطة الذي اندثر تحت مناجل الحصادين أو دِيْسَ حتى الموت تحت حوافر الثيران في أرض البيدر. وبينما كان الرجال يقتلونه كانت النساء تذرف دموع التماسيح في بيوتهن لتخففن من سخطه الطبيعي بإظهارهن الحزن على موته. تأتي هذه النظرية مواتية لموعد الاحتفال الواقع بين الربيع والصيف وليس الخريف لأنهما فصلا الشعير والقمح في المناطق التي يُعبد فيها أدونيس. وما يؤكد هذه الفرضية هو ممارسة الحصادين في مصر الذين كانوا يندبونه تحت اسم إيسيس عندما يقطعون أول سنابل الحنطة؛ كما يقوم بمثل هذا الطقس الكثير من قبائل الصيد الذين يكنُّون له احتراماً كبيراً لأجل الحيوانات التي يقتلونها ليقتاتوا عليها.

حسب هذا الفهم لم يكن موت أدونيس هو الذبول الطبيعي للخضرة في حر الصيف أو برد الشتاء بل كان تدميراً عنيفاً للحنطة خلال قطع سنابلها في الحقل ودوسها لاستخراج حبيباتها الصغيرة على أرض البيدر ثم سحقها في الرحى. من المؤكد أن هذا هو المظهر الأساسي الذي قُدِّم به أدونيس في عهود لاحقة إلى الشعوب الزراعية في الشرق، لكننا نشك في أن يكون منذ البداية هو روح الحنطة ولاشيء سوى الحنطة، أي في فترة سابقة ربما كان بالنسبة للرعاة هو تلك الأعشاب الرقيقة التي تنمو بعد هطول المطر لما تهبه من مرعىً غنيّ للماشية النحيفة الجائعة. وربما في وقت أبكر كان تجسيداً لروح الجوز والتوت اللذين تقدمهما غابات الخريف للصياد البدائي ولزوجته. وتماماً كما كان يسترضي المزارعُ روح الحنطة التي يستهلكها، كذلك يستعطف الراعي روح العشب والأوراق التي تمضغها ماشيته ولابد أن الصياد فعل الشيء نفسه مع روح الجذور التي ينقب عنها والفاكهة التي يجمعها عن الأغصان. في جميع هذه الحالات يأتي الاسترضاء بالاعتذار وطلب المغفرة من ذلك الشبح الغاضب الذي أصابه الأذى والنوح على موته بعد حادث مؤسف أو الاضطرار لقتله أو لنهبه. علينا دائماً أن نضع في بالنا أن الصياد والراعي البدائيين لم يدركا الفكرة المجردة للخضرة في تلك العصور البعيدة؛ وبالتالي كان بالنسبة لهم وقبل ظهور أدونيس، (أدون) أي (سيد) لكل شجرة على حدة بل وكل نبتة، أكثر منه

تشخيصاً للحياة ككل. هذا يعني وجود أدونيسيين كثيرين بعدد الأشجار وكل منها يتوقع الاسترضاء على كل أذىً يصيبه. وسنة بعد سنة مثل الأشجار النفضية ينزف كل أدونيس حتى الموت عندما تحمرُّ أوراقه ويرجع إلى الحياة مع الخضرة النضرة في الربيع.

وهناك ما يبرر أنه في قديم الزمان كان أدونيس يُشَخَّص برجل حي مات ميتة عنيفة. ولدينا دليل يبين أنه لدى الشعوب الزراعية في شرقي البحر الأبيض المتوسط كانت روح الحنطة، أو مهما كان الاسم الذي عُرِفَت به، تُمَثّل في كل عام بضحية بشرية تُذبح في حقل الحصاد. وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن استرضاء روح الحنطة قد التحم إلى حد ما بعبادة الموتى لأن أرواح هذه الضحايا ربما تعود إلى الحياة في السنابل التي كبرت أكثر بدعم من دمائها، وأن تموت موتاً آخر عند حصاد الحنطة. ولابد لهذه الأرواح التي قُتِلت بعنف أن تشفي غليلها من القاتلين عندما تحين الفرصة. وهنا تختلط محاولة استرضاء أرواح الموتى مع محاولة تهدئة روح الحنطة المذبوحة. وعندما يعود الموتى في الحنطة الشاطئة يُعتقد أن أجواء الربيع الرقيقة هي التي أيقظت الورود بعد استراحة طويلة تحت وجة التربة. من الطبيعي جداً تَخَيُّل انبثاق البنفسج والياقوتية وشقائق النعمان والورود من حالة موتها وقد احمرَّت بدماء تلك الضحايا وفيها جزء من أرواحها؟

أتساءل أحياناً كيف لهذه الورود

أن تتفجر بحمرتها من مكان لم يُدفن فيه قيصر نازف؛

وكيف لكل ياقوتية تكسو الحديقة

لم ترتمِ في أحضانها من رأس كان يوماً أخاذ الجمال.

وهذه الأعشاب المنبعثة بخضرتها النضرة

تكسو كالريش شفاه النهر التي نتكئ عليها

لنتكئ عليها الهوينى، فمن يدري

ربما كانت من شفاه جميلة.

في الصيف كانت معركة لاندن وهي أدمى المعارك في أوروبا القرن السابع عشر، وأُشبِعَت الأرض بدماء عشرين ألف قتيل في أرض انبثق فيها الملايين من نبتة

الخشخاش. ويتخيل المسافر الذي يعبر هذا الشرشف الواسع من اللون القرمزي أن الأرض قد أخرجت موتاها. وفي أثينا يصادف ذكرى الموتى في منتصف آذار عند تفتح أولى الأزهار. يحيون هذه الذكرى اعتقاداً منهم أن الموتى قد قاموا من قبورهم وراحوا يجوبون الشوارع محاولين عبثاً دخول المساكن والمعابد المحصنة بالحبال ونبات النبق والقار ضد هذه الأرواح المضطربة. يأخذ الاحتفال ـ حسب التفسير البيِّن والطبيعي – اسم **احتفال الورود** ويناسب هذا الاسم جوهر الطقوس واعتقادهم أن الأرواح المسكينة تخرج في ذلك الفصل فعلاً من البيوت الضيقة على شكل ورود متفتحة. لذلك يبدو أن هناك شيء من الحقيقة في نظرية رينان الذي رأى في عبادة أدونيس عبادةً حسية للموت ليس كملك رعب بل كساحر مغوٍ يستدرج الضحايا إليه ويهدهدهم حتى يغيبوا في نوم أبدي. ويعتقد رينان أن طبيعة لبنان الساحرة تجسدت في عاطفة دينية حسية من النوع المرئي التي تحلق بغموض بين الآلام والمتعة وبين الهجوع والدموع. ومن الخطأ أن نعزو للفلاحين السوريين عبادة المفهوم المجرد للموت بشكله العام، لكن يبقى صحيحاً أن تندمج بعقولهم البسيطة فكرة روح الخضرة المنبعثة بالفكرة المحسوسة لأرواح الموتى الذين يعودون إلى الحياة في الربيع مع ظهور أولى الورود وخضرة الحنطة الرقيقة وزهور الأشجار متعددة الألوان. لهذا نرى أن نظرتهم إلى موت الطبيعة وبعثها تنسحب على نظرتهم إلى موت الإنسان وبعثه خلال أحزانهم وآمالهم ومخاوفهم. وبالطريقة نفسها لانشك أبداً في أن نظرية رينان عن أدونيس ممشحة بعمق بذكريات أليمة، ذكريات هجوع مرتبط بموت ختم على عينيه في وديان لبنان، ذكريات الأخت التي لم تعد تنام مطلقاً في موطن أدونيس لتصحو مع شقائق النعمان وسائر الورود.

الفصل الثالث والثلاثون
حدائق أدونيس

إن حدائق أدونيس هي من أقوى البراهين على أن أدونيس كان إله الخضرة وخاصة الحنطة، وهي عبارة عن مجموعة من السلل والأواني المملوءة بالتراب يُزرع فيها القمح والشعير والخس والشمار وأنواع عديدة من الزهور وتعتني بها النساء حصراً أو النساء بشكل رئيس. تـُعرَّض هذه الأواني لأشعة الشمس فتنبت البذور بسرعة، وعلى اعتبار أن جذورها ضعيفة تذبل بسرعة أيضاً. وفي نهاية اليوم الثامن تُحمل هذه الأواني مع صورة لأدونيس الميت وتُرمى كلها في البحر أو الينابيع.

من الطبيعي أن تمثل هذه الحدائقُ أدونيسَ وتظهرُ قدرتَه بشكل يتناسب مع طبيعته. أما الصورة التي تُحمل وتلقى بالماء فهي رسم لشكل بشري لاحق. كل هذه الطقوس أُقيمت أساساً كسحر لتطوير نمو الخضرة وبعثها؛ والمبدأ الذي تعمل وفقه هو التأثير التعاطفي ـ التجانسي أو سحر المحاكاة. يعتقد الجاهلون أن تقليد العمل الذي يرغبون فيه يساعد فعلاً على توليده؛ فيبخون الماء ليصنعوا المطر ويشعلون النار ليصنعوا أشعة الشمس، وبالطريقة نفسها يأملون محصولاً جيداً عن طريق تقليد نمو المزروعات. كان المقصود من النمو السريع للقمح أو الشعير في حدائق أدونيس هو تحريض الحنطة على الإنبات، ورمي حدائق أدونيس مع صورته بالماء هي سحر يؤدي لتأمين المورد اللازم للمطر المخصب. وما رمي صور الموت وصور المرفوع في الماء إلا الشكل المعاصر لهذه الطقوس في أوروبا المعاصرة. وما تبليل الشخص المكسو بالأوراق إلا طريقة مازالوا يلجؤون إليها في أوروبا بهدف صريح وهو المطر. وكذلك رش آخر سنابل الموسم بالماء أو الشخص الذي يأتي بها إلى المنزل(وهي عادة متبعة في ألمانيا وفرنسا ولوقت ليس بعيد في إنكلترا وإسكتلندة) يمارس بهدف معلن وهو الاستمطار لأجل موسم السنة القادمة. في والاتشيا، ترانسلفانيا رومانيا، عندما

تَجلب الفتاة إلى المنزل تاجاً من آخر سنابل الحنطة في ذلك الموسم، يسرع كل من يصادفها ويرشها بالماء كما يقف اثنان من العمال الفلاحين على الباب ليقوما بتلك المهمة؛ لأنهم يعتقدون أن التقصير في هذا يمحق محصول السنة القادمة من الجفاف. وعند حراثة الربيع في بروسيا عندما يعود حارثو الأرض وبادرو البدار في المساء من عملهم في الحقول، اعتادت زوجة المزارع وخادموه أن يرشوهم بالماء. ويرد عليهم الحارثون والبادرون بأن يحملوا كلاً منهم ويلقونه في الماء بل وينزلونه تحت سطح الماء. ويمكن لزوجة المزارع أن تُعفى من هذا بدفعها غرامة، ولا أحد سواها يمكن أن يستفيد من هذا الإعفاء. ويلتزمون بهذه العادة آملين تأمين المطر الكافي لنمو البذور.

الرأي القائل بأن حدائق أدونيس تهدف حصراً إلى تحسين نمو الخضرة، وخصوصاً المحصول، وأنها تنتمي إلى فئة العادات نفسها التي تنتمي إليها عادات الربيع ومنتصف الصيف والعادات الشعبية التي تُمارس في أوروبا المعاصرة والتي شرحناها سابقاً، ليس رأياً خاضعاً للاحتمال، لأن حدائق أدونيس مازالت تُزرع حتى الآن من قبل الأعراق البدائية في مواسم البدار وما زال الأوربيون يمارسون العادة نفسها في منتصف الصيف. وعند قوم أوراون في البنغال، وعندما يأتي موسم زرع الأرز يقوم فريقان من الشبان الذكور والإناث بقطع شجرة كرمة صغيرة أو غصن منها ثم يحملونها بشعور المنتصر ويعودوا إلى الرقص والغناء وضرب الطبول ويزرعونها في وسط ساحة الرقص في القرية وتُقدم الأضحية للشجرة. في صبيحة اليوم التالي يعود الشبان ذكراً وأنثى مشبوكي الأيدي ويرقصون في حلقة كبيرة حول شجرة الكرمة التي يزينونها بالأشرطة والأقمشة الملونة والأساور الزائفة وقلادات من القش المضفور. في أثناء الإعداد لهذا الاحتفال تغرس بنات زعيم القرية الشعير بطريقة معينة إذ يضعن بذوراً في تربة رملية رطبة مخلوطة بالكركم لتشطأ السنابل وتترعرع بلونها الأصفر الشاحب أو الأبيض. في يوم الاحتفال تأخذ الفتيات تلك السنابل في سلة إلى ساحة الرقص حيث يسجدن تبجيلاً ويضعن بعض تلك النبتات أمام شجرة الكرمة. وفي النهاية يأخذن الشجرة ويرمينها في جدول الماء أو البركة. تُرى ماذا يعنون بتقديم أوراق الشعير لشجرة الكرمة؟ الجواب هو أن الأشجار تمارس مفعولاً مسرِّعاً لنمو المحصول. ويعتقد القوم نفسهم أن آلهة الغابة

هي المسؤولة عن المحصول لذلك يقوم المونداس بجلب شجرة ويعاملونها باحترام كبير بهدف تسريع نمو الأرز الذي سيزرعونه قريباً. أما عادة التسبب بإسراع نمو أوراق الشعير وتقديمها للشجرة فهي عملية تسهل الطريق للوصول إلى الهدف نفسه، وربما ليذكِّروا روح الشجرة بواجبها تجاه المحصول عن طريق استثارتها بمثال مرئي عن نمو الخضرة السريع. أما إلقاء شجرة الكرمة في الماء فإنما هو سحر لأجل المطر. ولم يبلغنا إن كانوا يلقون بأوراق الشعير مع شجرة الكرمة، لكن على الأرجح يفعلون ذلك بناءً على التفسير الذي نقدمه الآن. والفرق بين العادة البنغالية والطقوس الإغريقية الخاصة بأدونيس هو أنه في الحالة السابقة تظهر روح الشجرة على أنها شكل أصلي للشجرة، أما في الحالة اللاحقة وهي عبادة أدونيس فيظهر أدونيس بشكله البشري ويُمثَّل بالرجل الميت، ورغم أنه يُشار إلى طبيعة الخضرة بحدائق أدونيس وهي شكل ثانوي لقدرته الأساسية كروح للشجرة.

ويقوم الهندوس بزراعة حدائق أدونيس أيضاً بنيَّة تأمين الخصب للأرض وللبشر. ففي أوديبور، راجبوتانا، يُقام احتفال على شرف أوري أو إسانا، إلهة الوفور. تبدأ الطقوس عندما تدخل الشمس أول بوادر (رام) وهو فاتحة السنة الهندية. يصنعون مجسماً طينياً للإلهة غوري، ومجسماً آخر بحجم أصغر لزوجها إسوارا، ويوضعان معاً في مكان معين. ثم يحفرون خندقاً صغيراً ينثرون فيه الشعير ويسقون أرضه ويدفئونها بشكل اصطناعي حتى تشطأ الحبات، فترقص النسوة حولها متشابكات الأيدي وهن يتضرعن للحصول على بركة غوري وزوجها. وبعد ذلك تأخذ النساء الحنطة الفَتِيَّة ويوزعنها على الرجال الذين يضعونها في عمائمهم. من الواضح أن توزيع براعم الشعير على الرجال وتضرع النساء للحصول على البركة لأجل رجالهم تدل على الرغبة بالذرية وهي الدافع وراء القيام بهذه العادة. وربما كان الدافع نفسه وراء استخدام حدائق أدونيس عند زواج البراهمات في رئاسة مادراس. وفيها يعدُّون أواني مصنوعة من الطين ويعبئونها تراباً ثم يبدرون فيها خمسة إلى تسعة أنواع من البذور. تقوم العروس والعريس بسقي البذور صباحاً مساءً ولمدة أربعة أيام وفي اليوم الخامس تُرمى النباتات مثل حدائق أدونيس في بركة أو نهر.

مازالت حدائق أدونيس تُزرع في سردينيا باحتفال له علاقة بمنتصف الصيف ويحمل اسم القديس يوحنا. في نهاية آذار أو الأول من نيسان يقدِّم شاب نفسه لفتاة

في القرية ويطلب منها أن تكون حبيبته وأن يكون حبيبها، تقبل الفتاة هذه الدعوة بكل سرور لأنها تعتبر ذلك شرفاً لعائلتها. وفي نهاية أيار تعد الفتاة إناءً من لحاء شجرة الفلين وتملؤه بالتراب وتضع فيه حفنة من القمح والشعير. يوضع الإناء في الشمس ويسقى فتشطأ الحنطة فيه بسرعة حتى تعقد سنابله في عيد منتصف الصيف (23 حزيران وهو عيد القديس يوحنا). عندها يسمون الإناء نوناً أو نينيري. في ذلك اليوم يلبس الشاب والفتاة أفضل الملابس ويذهبان في موكب يصحبهما عدد كبير من حاشيتهما ويتقدمهما الأطفال يثبون فرحاً نحو كنيسة خارج القرية حيث يكسران الإناء بإلقائه على باب الكنيسة. ثم يجلسون على الأعشاب في حلقة ويأكلون البيض والنباتات على وقع موسيقا الشبَّابة. وفي أثناء هذه الوليمة يُخلط الخمر في كوب ويُمَرَّر عليهم جميعاً ليأخذ كل واحد منهم رشفةً. ثم يشابكون الأيدي ويغنون" يا أحباب القديس يوحنا" مراراً وتكراراً على وقع موسيقا الشبابة. وعندما يتعبون من الغناء يقفون ويرقصون بمرح على شكل حلقة حتى المساء. إنها العادة العامة في سردينيا، أما في أوزيري فتأخذ العادة مزايا خاصة. في أيار يصنعون أواني من لحاء شجرة الفلين ويزرعون فيها الحنطة على الشكل الذي وُصِف سابقاً. ثم يزينون عتبات النوافذ بالأقمشة الفنية في عيد القديس يوحنا، ويضعون عليها الأواني المزينة بالحرير القرمزي والأزرق والأشرطة من ألوان مختلفة. وفي كل إناء كانوا يضعون تمثالاً أو دمية من قماش على شكل امرأة، أو مجسماً للإله بريابوس (إله القوة التناسلية) مصنوعاً من المعجون، لكن هذه العادة اختفت تماماً نتيجة منع الكنيسة لها منعاً باتاً. يذهب عشاق القرية جماعةً ليروا الأواني وزينتها وينتظرون الفتيات اللواتي يتجمعن في ساحة القرية العامة ليحتفلن بذلك العيد. في هذه الساحة يعدون ناراً عظيمة يرقصون ويلهون حولها. أما الذين يرغبون منهم في أن يكونوا أحباب القديس يوحنا فيتصرفون على الشكل التالي. يقف الفتى على طرف من النار وتقف الفتاة على الطرف الآخر، يمسكان بعصا كلاً من طرف ويمررانها ثلاث مرات فوق اللهب جيئة وذهاباً لتوطيد أواصل العلاقة بينهما. يستمر الرقص والموسيقا حتى منتصف الليل. يبدو التشابه كاملاً بين هذه الأواني السردينية وحدائق أدونيس، أما المجسمات التي توضع في تلك الأواني فهي مثل الصور المرافقة لحدائقه.

يمارس أهالي صقلية عادة مشابهة في الموسم نفسه إذ يصبح الصبية والفتيات أحبة القديس يوحنا في عيد القديس يوحنا وذلك باقتلاع شعرة من رأس كل منهم ويمارسون عليها بعض الطقوس. يربطون الشعرات بعضها ببعض ويلقونها عالياً في الهواء أو يتبادلونها فوق كسرة إناء قديمة فتتقطع ويحتفظ كل من الزوجين بما بقي لديه من قطع الشعر بعناية خاشعة. ويؤمنون بوجوب الحفاظ على عقدة الشعر التي صنعت بهذه الطريقة مدى الحياة. وفي بعض أنحاء صقلية يقوم هؤلاء الأحباب بتبادل أواني الحنطة الشاطئة والعدس وحبوب الطير التي يزرعونها قبل الاحتفال بأربعين يوماً. وكل من يتلقى إناءً يقتلع سنبلة منه ويلف عليها شريطاً ويحفظها بين أشيائه أو أشيائها الثمينة إحياءً لذكرى مانح الإناء. وفي كاتانيا يتبادل الأحباب أواني الحبق أو الريحان والخيار؛ وتعتني الفتيات بهذه النباتات لأنها تتلقى مكافأةً على قدر ما تنمو نباتاتها.

في هذه الطقوس المنتصف صيفية يبدي السيد آر. وانس رأياً معقولاً يقول فيه إن القديس يوحنا حل محل أدونيس. ورأينا كيف كانت طقوس تموز وأدونيس تقام في منتصف الصيف، أي في حزيران على حد قول جيروم.

مازالت حدائق أدونيس تُزرع في صقلية في الربيع والصيف وهذا يعني أن السوريين القدامى وأهالي صقلية كانوا يقيمون احتفال الخضرة الخاص بالموتى والإله الناهض. وعند اقتراب عيد الفصح تزرع نساء صقلية القمح والعدس وحبوب الطير في أوانٍ يحفظنها في الظلمة ويسقينها كل يومين وسرعان ما تشطأ النباتات فيربطن السنابل بشريط أحمر ويضعن الأواني على القبور مع صور للمسيح الميت وهذا ماتقوم به الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الإغريقية في عيد الجمعة الطيبة تماماً كما كانت توضع حدائق أدونيس على قبر أدونيس الميت. لم تقتصر هذه العادة على صقلية بل كانت تُتبع أيضاً في كوسينزا، كالابريا، وربما في أماكن أخرى. وربما كانت هذه العادة، بما فيها من أواني مزروعة وحبوب شاطئة وقبور، استمراراً لعبادة أدونيس تحت اسم مختلف.

ليست هذه العادات هي الوحيدة التي تشبه طقوس أدونيس؛ ففي عيد الجمعة الطيبة يُعرَض مجسم المسيح الميت المصنوع من الشمع على مرأىً من الجميع وسط الكنائس الإغريقية وتنهال عليه الحشود بالقبلات المتقدة بينما تقرع الكنيسة

ترانيم جنائزية محزنة. وبعد حلول الظلام بالكامل يحمل الكهنة هذه المجسمات على نعش مزين بالليمون والورود والياسمين وغيرها من الورود ويبدؤون الموكب الكبير الحاشد الذي يضم جموعاً محتشدة من الناس يمشون بخطوات خاشعة في جميع أنحاء المدينة. يحمل كلٌ منهم شمعة وينفجر بنواح مرير محزن، وعند كل بيت يعرج الموكب عليه، تجلس نساء عند البوابة وفي أيديهن المباخر لتبخير الضيوف المارين. ويقوم المجتمع بالكامل بدفن المسيح كما لو أنه مات للتو. في النهاية يعيدون المجسم الشمعي للكنيسة، ثم يكررون الترانيم الحزينة ثانيةً. تستمر هذه التناويح مع صيام صارم حتى منتصف ليلة الأحد. وعندما تدق الساعة الثانية عشرة ليلاً يظهر البطرك ليعلن نبأ نهوض المسيح فتجيبه الحشود: **لقد نهض بالفعل**. وتتفجر المدينة كلها بهدير فرح يجد في الصيحات والصراخ متنفساً لفرحتهم المصحوبة بطلقات المدافع والبنادق الغزيرة وانفجار الألعاب النارية من كل نوع. وفي الساعة نفسها ينقلب الناس من حالة الصوم المتطرف إلى الاستمتاع بلحم الضأن والخمر الصِّرْف.

وبالطريقة نفسها أعتادت الكنيسة الكاثوليكية أن تُري أتباعها تمثيلية مرئية عن موت المخلِّص وبعثه، فتقوم هذه الدراما بإلهاب الخيال واستثارة المشاعر الحارة المعرضة لتأثير أهل الجنوب الذين ارتبطت بهم أبهة المهرجانات الكاثوليكية قياساً للمزاج السلتي البارد عند الشعوب التيوتونية.

عند التفكير بالأشياء الكثيرة التي أتت بها الكنيسة من العقيدة الوثنية القديمة لتبثها في بذور الإيمان الجديد نستنتج أن الاحتفال بموت وظهور المسيح هو تطعيم لاحتفال مشابه عن موت أدونيس وبعثه المقام في سوريا في الفصل نفسه. وما الشكل الذي ابتكره الفنانون الإغريق عن الإلهة الحزينة على موت عشيقها على ذراعيها إلا تشبيهاً لنمط بييتا في التصوير الفني للمسيح والعذراء المحتضنة لجثة المسيح ابن الله ومن أبرز هذه الأعمال لوحة مايكل أنجلو في كنيسة القديس بطرس. تلك المجموعة الفنية الراقية التي يتباين فيها حزن الأم الشديد مع ضنى ابنها الميت تتمثل بأعظم الأعمال على الرخام. أما الفن الإغريقي القديم فقد أورثنا أعمالاً غاية في الجمال لكنها تخلو من حزن كهذا.

في هذا المجال نرى مغزىً كبيراً في أفكار جيروم المشهورة. يقول جيروم أن بيت لحم وهي مسقط رأس سيدنا المسيح مازالت تحمل لون غابة الإله السوري الأقدم، أدونيس وحيثما بكى المسيح الطفل ينوحون على عاشق فينوس. ومع أن جيروم لم يعبِّر عن هذا صراحةً لكنه يعتقد أن غابة أدونيس قد زرِعت بعد وفاة المسيح بهدف تدنيس الأرض المقدسة. وربما أخطأ في ذلك. فإذا كان أدونيس روح الحنطة فليس هناك من مكان أفضل من بيت لحم(بيت الخبز) لتكون موطناً له، وربما عبدوه في بيت الخبز منذ زمن أبعد بكثير من ولادة المسيح الذي قال: "أنا خبز الحياة." ولو اعتمدنا على الفرضية القائلة بأن أدونيس أتى بعد المسيح في بيت لحم بشخصيته الحزينة ليردَّ ولاء المسيحيين إليه، لفوجئنا بالتشابه الكامل بين الطقوس التي تحيي موت وبعث كليهما. كانت أنطاكية من أقدم مواقع عبادة موت الإله الجديد، وفي أنطاكيا كانوا يقيمون احتفالاً مقدساً بموت الإله القديم كل سنة. والظرف الذي رافق دخول جوليان إلى المدينة في موعد مهرجان أدونيس يلقي الضوء على تاريخ الاحتفال. إذ استقبله أهالي المدينة بالصلوات وكأنه إله، وكان يُدهش بأصوات الحشود وهي تصرخ: " لقد لاح علينا نجم المخلِّص من الشرق." ويمكن أن تكون مجرد إطراءات تقدمها حشود الشرق المتذللة للأمبراطور الروماني، لكن من الممكن أن يكون الظهور المنتظم للنجم اللامع علامة على قدوم موعد الإحتفال، وقد خدمت المصادفة الأمبراطور لأنه أتى في وقت مواتٍ لظهور ذلك النجم في الأفق الشرقي. ولابد أن تثير هذه المصادفة خيال الحشود الخرافية المبتهجة التي تهلل للرجل العظيم وتعتبر قدومه إشارة أرسلتها السموات. أو ربما أخطأ الأمبراطور معتبراً الصيحات الموجهة إلى النجم قد وجهت إليه. ارتبطت أستارت عشيقة أدونيس بكوكب الزهرة وقد لاحظ الفلكيون البابليون تحولها من نجم صباحي إلى نجم مسائي واستبشروا الخير أو الشر من ظهورها أو اختفائها. من هنا نستنتج أن احتفال أدونيس كان يصادف دائماً ظهور الزهرة في الصباح أو المساء. لكن النجم الذي حيَّاه أهالي أنطاكيا ظهر في الشرق؛ وفي حال كان فعلاً نجم الزهرة لابد أن يكون قد ظهر في الصباح. وحيث أن هناك معبداً مشهوراً لأستارت في أفاقا في سوريا كانت العلامة التي تبين بداية طقوس الاحتفال هي شهاب لامع يسقط في يوم معين وكأنه نجم أتٍ من قمة جبل لبنان إلى نهر أدونيس. وكانوا يعتقدون أن

الشهاب هو أستارت نفسها، واعتبروا حركتها في الهواء هبوط الإلهة العاشقة إلى ذراعي عشيقها. كما اعتبر أهالي أنطاكيا وغيرها من المواقع ظهور نجمة الصبح في يوم الاحتفال جديراً بالتهليل وكأنه قدوم إلهة الحب لتوقظ معشوقها من سباته الأرضي. إذا كان الأمر كذلك فلنا أن نستنتج أن نجمة الصبح هي التي دلّت حكماء الشرق إلى بيت لحم تلك البقعة المقدسة التي شهدت على حد قول جيروم بكاء المسيح الطفل والنواح على أدونيس.

الفصل الرابع والثلاثون
أسطورة آتيس وطقوسها

هناك إله آخر ضرب موته المفترض وبعثه جذوراً عميقة في عقيدة شعوب غربي آسيا وطقوسها وهو الإله آتيس. كان آتيس بالنسبة لفريجيا (قديماً، غرب تركيا) ما كان أدونيس لسوريا. إنه إله الخضرة ويندب الناس موته ويفرحون ببعثه سنوياً في مهرجان في الربيع. التشابه بين أسطورتي الإلهين وطقوسهما كبير إلى درجة أن القدامى أنفسهم يعتبرونهما متطابقين. يقال أن آتيس كان راعياً شاباً أحبته سيبيل وهي أم الآلهة، إلهة الخصب الآسيوية وموطنها الأساسي هو فريجيا. يقول بعضهم أن آتيس هو ابنها الذي يشبه مولدُه الكثيرَ من ولادات الأبطال الإعجازية. كانت أمه نانا عذراءَ حبلت عندما وضعت لوزة أو بندقة ناضجة أو رمانة في صدرها. وتعتبر اللوزة حسب نظرية نشوء الكون هي أصل الأشياء كلها ربما لبراعمها الليلكية الرقيقة التي تبشر بالربيع عندما تظهر على الأغصان قبل ظهور الأوراق. ظلت هذه الروايات عن الأمهات العذارى بقايا من عهد الجهل الطفولي العائد إلى زمن لم يلحظ فيه الإنسان أن اللقاء بين الجنسين هو السبب الحقيقي للإنجاب. أما موت آتيس فله روايتان شائعتان. تقول الرواية الأولى أن خنزيراً قتله، وتقول الثانية أنه تعمد فقدان رجولته تحت شجرة صنوبر ونزف حتى الموت وتحول إلى شجرة صنوبر. يقال أن الرواية الثانية هي القصة المحلية التي يرويها أهالي بيسينوس وهو أحد مواقع عبادة سيبيل الكبيرة، وتتسم هذه الرواية بأنها بدائية بربرية تغور عميقاً في التاريخ. تدعم الروايتان العادات المتبعة أو لنقل أنها ابتُكرت لتفسر عادات معينة يتبعها العابدون. أما قصة التشنيع الذاتي لآتيس فهي محاولة واضحة لتبرير التشنيع الذاتي عند الكهنة الذين يَخْصُون أنفسهم عندما يدخلون في خدمة الإلهة. أما قصة موته على يد خنزير أو عفر فربما أتت لتفسر سبب إحجام عابديه وخاصة أهالي

بيسينوس عن أكل لحم الخنزير، تماماً كما يحجم عابدو أدونيس عن أكل لحم الخنزير لأن عفراً قتل إلههم.

اعتنق الرومان عبادة أم الآلهة الفريجية في عام 204 قبل الميلاد، أي قبيل أنتهاء صراعهم مع هانيبعل لأن أرواحهم القانطة تشجعت بنبوءة - أتت من ترهات في كتب سيبيلاين – تقول أن غازياً أجنبياً سيُطـرَد من إيطاليا إذا ما عبد أهل روما إلهةً شرقية. وبناءً على هذه النبوءة أُوفِد السفراء إلى مدينتها المقدسة بيسينوس في فيرجيا. وأحضروا إلى روما ذلك الحجر الأسود الصغير الذي يجسد عبادة الإلهة القديرة واستُقبِل هناك بإجلال كبير ونُصِب في معبد النصر على قمة بالاتين. وصلت الإلهة إلى روما في منتصف نيسان فبدأ مفعولها على الفور. من نتائج وصولها أن جنى الرومان محصولاً لم ينعموا به منذ سنين طويلة، وفي العام التالي اتجه هانيبعل ومحاربوه إلى أفريقيا دون أن يدري وهو يتأمل ساحل إيطاليا وهو يشحب ويبتعد في الأفق أمام ناظريه أن أوروبا التي صدت جيوشه قد استسلمت لآلهة الشرق واستقرت طليعة المحتلين في قلب إيطاليا قبل انهزام مؤخرتهم على شطآنها.

ونستنتج - ولم يخبرنا أحد - أن أم الآلهة قد جلبت معها ابنها أو عشيقها الشاب إلى موطنها الجديد في الغرب. لاشك أن الرومان قد ألِفوا الغالي، كهنة آتيس المخصيين قبل انتهاء الجمهورية إذ ظهرت هذه الكائنات الحيادية جنسياً بلباسها الشرقي وعلى صدورهم صور صغيرة يجوبون شوارع روما في مواكب وهم يحملون صورة الإلهة وينشدون ترانيمهم على وقع موسيقا الدف والقيثارة، والشبابة والبوق يؤثرون في الناس بهذا العرض الجميل وبالجَرْس الأصيل، فيتلقون الصدقة بسخاء ويغمر الناس صورة الإلهة وحامليها بوابل من الورود. بادر الأمبراطور كلوديوس بخطوة إضافية بأن أدخَل العبادة الفريجية للشجرة المقدسة وربما أدخل معها طقوس آتيس العربيدية كدين مُعْتَمَد في روما. وقد تعرفنا على احتفال آتيس وسيبيل الربيعي في روما، لكن بلغنا أن هذه الطقوس الرومانية هي فريجية أصلاً ولاتختلف أبداً عن أصلها الآسيوي.

يجري هذا الاحتفال على الشكل التالي. في الثاني والعشرين من آذار يقطعون شجرة صنوبر من الغابة ويجلبونها إلى حَرَم سيبيل ويتعاملون معها على أنها كائن إلهي عظيم. وتُعْهَد مهمة حمل الشجرة المقدسة إلى طائفة يدعونها حَمَلَة الشجرة.

كانوا يعصبون الجذع بالأحزمة الصوفية كأنه جثمان ويزينونه بأكاليل البنفسج لأن البنفسج أتى من دم آتيس كما أتت الورود وشقائق النعمان من دم أدونيس؛ ثم يربطون مجسم الشاب ـ وهو جثمان آتيس بلا شك – من وسطه إلى الجذع. وفي اليوم الثاني للاحتفال أي الثاني والعشرين من آذار، يصبح المهرجان مجرد نفخ بالأبواق. وفي اليوم الثالث، أي الرابع والعشرون من آذار، هو(يوم الدم): يسحب أرشيغالوس الكاهن الأعلى الدمَ من ذراعه ويقدمه كعطية. ليس هو الوحيد الذي يقدم أضحية الدم هذه، فالكهنة من الدرجة الثانية يتهيجون من موسيقا الصنجات البربرية وضرب الطبول ودندنة المزامير وصرير الشبّابات فيدورون بسرعة في رقصهم ويهزون رؤوسهم وشعورهم المنسدلة حتى يدخلوا في نوبة هياج يفقدون فيها الإحساس، فيدخلون في أجسادهم كسرات الأواني ويجرحونها بالسكاكين كي يلطخوا المذبح والشجرة المقدسة بالدم المتدفق. ربما شكل هذا الطقس المروِّع جزءاً من النواح على آتيس بقصد تقويته على الإنبعاث. كذلك يقوم الأصلاء الأستراليون بجرح أنفسهم بالطريقة نفسها على قبور أصدقائهم بغية تقويتهم على الولادة من جديد. وربما نستنتج من ذلك على الرغم من أنهم لم يقولوا ذلك صراحةً، أن المترهبنين يضحون برجولتهم في هذا اليوم. وعندما يصلون إلى ذروة الهياج الديني يلقون بما قطعوه من أجسادهم على مجسم الإلهة العنيفة. وبعد ذلك تُدفَن هذه الأعضاء الإخصابية بوقار أو توضع في حجرة مقدسة بالنسبة لسيبيل تحت الأرض لأنها، مثل عطايا الدم، وسائل لاستعادة آتيس إلى الحياة وتسريع البعث العام للطبيعة التي تتفجر بأوراقها وزهورها في أشعة الشمس. وما يدعم توقعنا هذا هي القصة العنيفة عن أم آتيس التي حبلت لأنها وضعت على صدرها رمانة نمت على الأعضاء التناسلية لكاهن ذكر يدعى أغديستيس وهو صورة طبق الأصل عن آتيس.

إذا كان توقعنا صحيحاً حول تفسير أسباب هذه العادة فنستطيع أن نفهم بسهولة لماذا يخصي الكهنة أنفسهم خدمة لإلهة الخصب الآسيوية. يقدِّم الكهنة الذكورالذين يمثلون عشاق الآلهة الإناث وسائل تحتاجها لآداء وظائفها الرحيمة؛ فهي بحاجة إلى أن تُخصَب بطاقة الحياة قبل بثها في العالم. ومن هذه الإلهات التي مُدَّت بكهنة مخصية هي أرتيميس في إفيسوس والإلهة السورية العظيمة أستارت في

هيرابوليس اللتان يؤم مقامهما أفواجُ الحجيج ويُغرَقان بعطايا آشور وبابل والجزيرة العربية وفينيقيا. لقد حقق مقامهما مجداً لم يحققه مكان آخر في الشرق في تلك الأيام. تشبه هذه الكهنةُ المخصية كهنةَ سيبيل كثيراً إلى درجة أن بعضهم اعتبرهما الكهنة نفسها. كما يتشابهان بالطريقة التي يكرسان نفسيهما للحياة الدينية. يصادف أكبر احتفال سنوي في هيرابوليس إلى بداية الربيع حين تقصد الجموعُ الحرمَ من سوريا والمناطق المجاورة لها. تُنفَخ الشبَّابات وتُدَق الطبول ويجرح الكهنة أنفسهم بالسكاكين فينتشر الهياج الديني تدريجياً بين الحشود ليصل إلى المتفرجين وكثيراً ما يتورط المسافرون السائحون بذلك النشاط دون نية مسبقة بالمشاركة. تنبض عروق الرجال الواحد تلو الآخر، وتُسحَر عيونهم بمنظر الدم المتدفق، فيرمي كل من تهيج منهم رداءه ويقفز إلى الساحة، يصرخ ويمسك بالسيف مستعداً للتضحية، يخصي نفسه على الفور. ثم يركض نحو المدينة ماسكاً بقطعته الدامية ويرميها في أحد البيوت التي يعبرها وهو يقوم بعمله الجنوني. أما البيت الذي تشرَّف بهذه القطعة فيقدم له رداءً نسائياً مع زينة نسائية يرتديهما بقية عمره. وبعدما تهدأ نشوته العاطفية، يعود إلى نفسه ثانيةً، فيعقب تضحيتَه الأسى الأليم، تضحية لايمكن استردادها ويرافقه الندم بقية حياته. يصور كاتولوس في قصيدة شهيرة هذا التحول بالمشاعر الإنسانية بعد هدوء نوبات التعصب الديني.

يؤكد مثيل هؤلاء المؤمنين في سوريا أنه قامت عبادة مماثلة لسيبيل عن طريق التضحية بالذكورية في يوم الدم ضمن طقوس الإلهة الربيعية عندما يتفتح البنفسج بفعل قطرات العاشق الجريح الحمراء بين أشجار الصنوبر. وهنا استُخدمت قصة إخصاء آتيس تحت شجرة الصنوبر لبيان سبب قيام كهنته بالتصرف نفسه بجانب الشجرة المحاطة بالبنفسج أثناء الاحتفال. في كل الأحوال، لا أشك لحظة في أن يوم الدم قد شهد النواح حزناً على آتيس الممثل بصورته التي تدفن بعد ذلك. وربما كانت الصورة التي تدفن في القبر هي نفسها التي كانت تُعلَّق على الشجرة. ويصوم العابدون عن الخبز طوال فترة الحداد، من حيث الظاهر لأن سيبيل فعلت ذلك حزناً على موت آتيس، لكن ربما كان السبب الفعلي هو ذلك الذي جعل نساء حران يحجمن عن أكل أي شيء مطحون في الرحى وهن يبكين تموز. وربما يُعتبر كل

من يأكل الخبز أو الطحين في هذه الفترة شهواني مجدِّف بحق جثة الإله المكدَّم المكسَّر. أو ربما كان الصيام تحضيراً لوليمة سرية مقدسة.

عندما يحل الظلام يتحول حزن العابدين إلى فرح، ويبزغ النور من قلب الظلمة، يُفتَح القبر وينهض الإله من الموت عندما يلمس الكاهن شفاه النادبين بشيء من البلسم ويهمس في مسامعهم بنعومة أنباء الخلاص المفرحة. يهلل أتباع الإله لبعثه لأنه وعدٌ لهم بخلاصهم الظافر من فساد القبر. وفي اليوم التالي وهو الخامس والعشرون من آذار قياساً للاعتدال الربيعي، يحتفلون بالانبعاث الإلهي بصخب عارم. في روما وربما في مكان آخر، يأخذ الاحتفال شكل المهرجان ويسمونه مهرجان المتعة وفيه يعم الفسوق العام، يخرج الناس إلى الشوارع متنكرين ويستطيع كل شخص أن يقول ويفعل ما يحلو له. في هذه المناسبة ليس هناك شخص أقدس من أن يَنال منه أحقر المواطنين دون أية عواقب. في عهد كومودوس حاولت عصبة من المتآمرين أن تستفيد من هذه الحفلة التنكرية فلبسوا لباس الحرس الأمبراطوري ودسوا بأنفسهم بين اللاهين ليصلوا إلى مقربة من الأمبراطور بحيث يتمكنون من طعنه، لكن الخطة أخفقت. حتى الإسكندر سيفيروسكان كان يسترخي في ذلك اليوم الممتع إلى درجة أنه يمكن لأي شخص الاقتراب منه. في اليوم التالي، السادس والعشرون من آذار، تعود الأمور إلى ما كانت عليه وتنتهي بهجة الأيام السابقة. وأخيراً ينتهي الاحتفال الروماني في السابع والعشرين من آذار في موكب إلى غدير ألمو. يوضع مجسم الإلهة الفضي بوجهه المصنوع من الحجر الأسود الخشن في عربة يسوقها الثيران. يمشي أمامها النبلاء حفاة على وقع موسيقا القيثارة والشبابات البطيئة إلى بورتاكابينو ثم إلى ضفاف ألمو الذي ينساب إلى تيبر قرب جدران روما. هناك يغسل الكاهن الأعلى وهو بلباسه البنفسجي العربة والمجسم والأشياء المقدسة الأخرى في مياه الجدول. ولدى العودة من حمامهم تُغمَر العربة والثيران بورود الربيع النضرة. كل ما في هذا الاحتفال ممتع لايفكر أحد فيه بالدم الذي انسفك مؤخراً، وحتى الكهنة المخصيون ينسون جروحهم.

يعد ذلك يظهر تقديس موت أتيس وبعثه في الربيع. لكن بالإضافة إلى هذه الطقوس تُعرَف عبادته بأسرارٍ أو طقوسٍ غامضة ربما تهدف إلى تقريب العابدين وخاصة المترهبنين منهم إلى جماعة الإله. إن معلوماتنا عن طبيعة الغموض وتاريخ

الاحتفال بها هي لسوء الحظ ضئيلة جداً، لكن يبدو أنها تحتوي وليمة مقدسة وتعميداً للدم. ويشترك المترهبن في أثناء القربان المقدس بالغموض فيأكل من الطبل ويشرب من الصنج وهما الأداتان الموسيقيتان المثيرتان للرعشة في جوقة آتيس. أما الصوم المرافق للنواح على الإله الميت فربما أتى ليروض جسم المشترك بحيث يتلقي البركة المقدسة بتطهيره من كل دنس جراء احتكاكه بالعناصر المقدسة. وفي أثناء التعميد يتوَّج المناصرون بالذهب ويكلَّلون بالعصابات وينزلون في حفرة مغطاة بحجاب خشبي. ثم يأتون بثور مزين بأكاليل الورود وعلى جبهته ورقة مذهبة براقة وعندما يصل إلى الحاجز يطعنونه برمح مقدس حتى الموت. يتدفق دمه كالسيل خلال ثقبٍ ويتلقاه الخاشع بشغف شديد ليضعه على كل جزء من جسمه وردائه حتى يخرج من الحفرة مبللاً بالدم من رأسه إلى أخمص قدمه وبهذا يتلقى التقدير لا بل الهيام من قبل أتباعه لأنه وُلِد من جديد إلى الحياة الأبدية وغسل ذنوبه بدم الثور. ولفترة معينة بعد ذلك يتخيل وكأنه مولود جديد يقتات على الحليب كرضيع. ويعتبرون تجديد العابد تجديداً للإله، خصوصاً عند الاعتدال الربيعي. في روما يمارسون الولادة الجديدة والصفح عن الذنوب بإراقة دماء ثور على قمة فاتيكان في حرم الإلهة الفريجية، قرب كاتدرائية القديس بطرس الآن، وقد وُجدت المنقوشات الكثيرة المتعلقة بهذه الطقوس عندما قاموا بتوسيع الكنيسة بين عامي 1608 و 1609. انطلق هذا النظام البربري الخرافي من مركز الفاتيكان لينتشر في سائر الأمبراطورية الرومانية. وفي غاول في ألمانيا عثروا على منقوشات تبين أن أماكن مقدسة محلية عدلت طقوسها كي تتطابق من الفاتيكان. ومن المصدر نفسه علمنا أن الخصيتين ودم الثور هما ركن مهم في هذه الطقوس. وربما كانوا يعتبرونهما سحراً قوياً لتحسين الخصوبة ولتعجيل الولادة الجديدة.

الفصل الخامس والثلاثون
آتيس ـ إله الخضرة

تظهر شخصية آتيس كروح للشجرة جليةً خلال الدور الذي تلعبه شجرة الصنوبر في الملحمة وطقوسها وما يشهد على تلك من بقايا. وما رواية تحوله من بشر إلى شجرة صنوبر إلا تخريجاً منطقياً للعقيدة القديمة التي كثيراً ما نصادفها في الأساطير. إن جلب شجرة الصنوبر من الغابة وتزيينها بالبنفسج والأوشحة الصوفية تماثل جلب شجرة أيار أو شجرة الصيف في العادات الشعبية المتبعة في وقتنا الحالي، وما الصورة المثبتة على شجرة الصنوبر إلا تمثيلاً مشابهاً لروح الشجرة، آتيس. وبعد ربطها بالشجرة يحتفظون بها مدة عام كامل ثم يحرقونها. ويبدو أن الشيء نفسه يحصل مع عمود أيار وصورة روح الحنطة في وقت الحصاد والتي يحتفظون بها حتى يتم تبديلها في حصاد العام التالي. لا شك في أن الهدف الأصلي لهذه العادات هو الحفاظ على روح الخضرة طوال السنة. أما عن اختيار أهالي فريجيا عبادة الصنوبر دون الأشجار كلها، أمر خاضع للتخمين. ربما كان منظرها غير المتبدل، ورغم كآبتها تتوج تخوم التلال العالية بعد ذبول الغابات الخريفية البهية في الوديان، كما توحي للناظر أنها موطن الحياة الإلهية أو شيء لايبلغه التغيير المحزن الذي يحصل على مدار الفصول لتبقى أبدية ثابتة في سماءٍ انحنت لتلتقيها. وللسبب نفسه كانت شجرة اللبلاب مقدسة بالنسبة لآتيس، وقد قرأنا في هذا الشأن أن كهنة آتيس يوشمون أنفسهم بأشكال أوراق اللبلاب. وربما كان السبب الآخر لتقديس الصنوبر هو فائدته. فحباته تحتوي على بذور تؤكل واستخدمت كغذاء منذ غابر الزمان ومازالت طعام الطبقات الأفقر في روما اليوم. وكذلك يُصنع من بذور الصنوبر الخمرَ الذي يمنح طبيعةً عربيديةً لطقوس سيبيل الذي رأى فيه القدامى شخص دايونيسوس. وكذلك يُعتبر كوز الصنوبر رمز الخصوبة أو على الأرجح أداتَها. ولهذا

السبب كانوا في احتفال ثيسموفوريا يرمون قُبَّةَ ديميتر بالتين وأشياء مشابهة ترمز إلى الخصب بهدف تنشيط الأرض أو رحم النساء.

شأنه شأن أرواح الأشجار بشكل عام كان آتيس يمنح الأرض قوةَ الإثمار أو حتى إنه كان الذرة بحد ذاتها، ويُلقَّب بالمُثْمِر، إذ كان يُلبَس أوراق ذرة خضراء أو صفراء، وكانوا يفسرون معاناته وموته وبعثه على أنها حبة ناضجة انجرحت على يد حاصد، وخُزِّنت ثم عادت إلى الحياة عندما بُذرت ثانيةً. ويدل أحد تماثيله في متحف لاتيران في روما بوضوح إلى علاقته بالأرض والثمار خصوصاً الذرة وذلك لترميزه بحزمة الذرة في يده وإكليل صنوبر ورمان وثمار أخرى على رأسه، بينما تشطأ أغصان الذرة من قبعته الفريجية. ويُعبَّر عن نفس الفكرة بطريقة مختلفة قليلاً خلال جرن حجري يحتوي رماد آركيغالوس أو كبير كهنة آتيس، ويزينون أعلى الجرن بأوراق الذرة المنقوشة بالبارز ويعلوها شكل ديك ذيله من أوراق الذرة. وكانوا يؤمنون أن سيبيل إلهة خصب تستطيع إفساد ثمار الأرض، لذلك اعتاد أهالي أوغوستودومنوم في غاول نقل صورتها في عربة بين الكروم وهم يرقصون ويغنون أمامها، ورأينا كيف يقيمون في إيطاليا احتفالاً كبيراً مع وصول آخر حزمة تمثل الأم العظيمة. وكان غسيل صورة الإلهة في النهر سحراً مطرياً لتأمين وفور الماء والمحاصيل.

الفصل السادس والثلاثون
تمثيل آتيس بالبشر

تبين النقوش أنه في بيسينوس وروما يحمل كبير كهنة سيبيل اسم آتيس. ومن الطبيعي أن يلعب دور تسميته، آتيس الأسطوري، في الاحتفال السنوي. ورأينا أنه في يوم الدم يَسحب الدم من ذراعيه وبهذا يحاكي قتل الذات الذي مارسه آتيس تحت شجرة الصنوبر. وهذا يؤكد افتراض تمثيل آتيس بمجسمه في الطقوس؛ أي أن الكائن الإلهي كان يمثل في بادئ الأمر بشخص حي ثم تحول هذا التمثيل إلى مجسم يُحرَق أو يُدمَّر. وربما نذهب أبعد من ذلك عندما نعتبر أن محاكاة قتل الكاهن تُصحب بإراقة حقيقية لدمه في فريجيا كما في أماكن أخرى، كبديل للضحية البشرية التي كانت تُقدَّم فعلاً في عصور أقدم من ذلك.

ومن الآثار الباقية عن الحالة التي يتم فيها قتل ممثل الإله هي قصة مارسياس الشهيرة. ويقال إن ساطير (إله الغابة المعربد) سيلينوس هو الذي يجوب البلاد مع الإلهة المتفطرة القلب حزناً على موت آتيس. ولخلق جو من الأمومة يعزفون نغماً على الناي على شرف إلهة الأمومة العظيمة في فريجيا، سيلايناي. وقد تحدى أبولو بمنافسة موسيقية يائسة يعزف فيها هو على الناي وأبولو على القيثارة. وبما أنه انهزم في هذه المنافسة، رُبط مارسياس إلى شجرة صنوبر وسُلخ جلده وقُطعت أطرافه على يد أبولو المنتصر أو عبدٍ سيثي. وكان جلده يُعرض في سيلايناي في عصور تاريخية. ويُعلَّق في أسفل القلعة في كهف يتدفق فيه نهر مارسياس بهديره وزبده حيث يرفد مايانـدر. وكذلك يولد أدونيس بخلقته الكاملة عند جروف لبنان، وكذلك ينزل شلال نهر إبريز الأزرق البلوري من على الصخور الحمراء لطاوروس؛ وكذلك يهدر الجدول عميقاً تحت الأرض ليومض للحظة وهو يعبر من الظلمة إلى نور كهف كوريسيا الخافت. وفي كل هذه الينابيع الغزيرة التي تَعِدُ بالحياة

والخصب الوفير، رأى الرجال آيات الله وعبدوه بجانب النهر على وقع موسيقا مياهه المتدفقة. وفي سيلايناي، إذا صدَّقنا التقاليد، يتمتع نافخ بوق مارساياس المعلق في كهفه بروح الانسجام حتى في موته لأن أنغام فريجيا الأصيلة تطرب الساطير المسلوخ، ويبقى أصم ساكناً إذا ما استُهِلّت الموسيقا بجو من إطراء أبولو.

في هذا الساطير الفريجي، يكمن ذلك الراعي الذي ينعم بصداقة سيبيل، ويعزف موسيقا تحمل مزايا طقوسها، ويموت موتاً عنيفاً على شجرة الصنوبر المقدسة. أليس في هذا كله تشابه كبير مع آتيس الراعي المحبب للإلهة الذي يوصف بنافخ البوق ويقضي تحت شجرة الصنوبر ويُمثّل سنوياً بمجسم يتدلى منها مثل مارساياس؟ ويمكن أن نتوقع أن الكاهن الذي يحمل ذلك الاسم كان يلعب في قديم الزمان دور آتيس في احتفالات سيبيل الربيعية ويُشنق بانتظام أو يُقتَل بشكل ما على الشجرة المقدسة، وفيما بعد تلطّفت تلك العادة البربرية إلى أن أصبحت بالشكل الذي عرفناه فيما بعد، وصار الكاهن يسحب من جسمه الدم تحت الشجرة التي ثُبِّت على جذعها المجسمُ بدلاً من الكاهن نفسه. وفي الغابة المقدسة في أبسالا كان الرجال بالإضافة إلى لحيوانات تُقدَّم كأضاحٍ عن طريق شنقها على الشجرة المقدسة. وكانت الأضحية البشرية تُخصَّص لأودين عن طريق القتل بالشنق والطعن بالوقت نفسه، ويُربَط الرجل إلى الشجرة أو المشنقة وتُرمى عليه الرماح. من هنا سُمِّي أودين بسيد **المشانق** أو رب **المشنوقين** ويُمثّل وهو يجلس تحت شجرة الشنق. بالواقع، يُقال أنه ضحى بنفسه بالطريقة المعتادة، وهذا ما علمناه من النّظْم السحري **لهافامال** الذي يصف فيه كيف حصل على قدرته الإلهية بتعلُّمه القصائد السحرية:

أعلم أنني شنقت على الشجرة التي تعصف فيها بالرياح

تسع ليال كاملة،

جريح بالرماح، فداءً لأودين،

ضحيت بنفسي لنفسي.

واعتاد الناس في إحدى جزر الفلبين، باغوبوس ميندناو، تقديم الأضاحي البشرية سنوياً لأجل المحاصيل بالطريقة نفسها. ففي أوائل كانون الثاني عندما

تظهر مجموعة كواكب أوريون في السابعة مساءً، يعرف الناس أنه حان وقت تحضير الحقول للبدار والتضحية بأحد العبيد، أضحية تُقدم لأرواح قديرة كثمن عن تلك السنة وإرضاءً للأرواح لأجل الموسم القادم. كانت الأضحية تُساق إلى شجرة كبيرة في الغابة وتُربَط وظهرها إلى الشجرة وذراعاها عالياً فوق رأسها على الطريقة التي رسم فيها الفنانون مارسياس معلقاً على الشجرة القاتلة. وعندما يُعلَّق من ذراعيه، يُرمى بالرماح فتخرق صدره. ثم يُقطَع الجسم من الخصر ويبقى الجزء العلوي متدلياً من الشجرة، بينما يغرق الجزء السفلي بالدماء على الأرض. وأخيراً يوضع الجسم بقسميه في خندق يُحفر بجانب الشجرة. لكن قبل إنجاز ذلك يمكن لأي شخص أن يقطع جزءاً من لحمه أو خصلة من شعره ويأخذها إلى قبرٍ قريبٍ له أكل الغول لحمه فتجذب هذه القطعة من اللحم الغولَ فيترك الجثة المتفسخة بسلام. والجدير بالذكر أن الكثير ممن قدموا هذه الأضاحي مازالوا على قيد الحياة الآن.

في اليونان، يبدو أن الإلهة أرتيميس تشنق على شكل مجسم سنوياً في غابتها المقدسة في كونديليا في جبال أركاديا، وبهذا كسبت اسم **المشنوقة**. ويمكن تقفّي أثر طقس مشابه في إفيسوس أشهر أماكنها المقدسة في أسطورة امرأة شنقت نفسها فألبستها الإلهة المحبّة اللباس الإلهي وأسمتها **هيكيت**. وكذلك في ميلايت في فثيا، تروى قصة فتاة تدعى أسباليس شنقت نفسها وهي نسخة عن أرتيميس. لأن جثتها اختفت لكن عُثِر على صورة لها بجانب صورة أرتيميس فمنحها الناس لقب **بعيدة الشوط** وهو أحد الأسماء الرسمية لتلك الإلهة. وفي كل سنة تضحي العذارى بجَدْي لتلك الصورة المعلقة لأن أسباليس علقت نفسها بتلك الطريقة. وربما كانت هذه الأضحية بديلاً عن تعليق مجسَّم أو ممثل بشري لآرتيميس. وفي رودز كانت تُعبَد هيلين الحسناء تحت اسم **هيلين الشجرة** وخصصت لها ملكة الجزيرة وصيفات يبدين القسوة ليعلقنها على الشجرة. وما يثبت أن اليونانيين الآسيويين قد ضحوا بالحيوانات بهذه الطريقة هو عملة نقدية يظهر عليها ثور أو بقرة على شجرة طعنها بالسكين رجلٌ يجلس بين الأغصان على ظهرها. وكذلك في هيرابوليس كانت تُعلَّق الأضاحي على الأشجار قبل حرقها. الآن وقد عرضنا هذه الأمثلة اليونانية والإسكندنافية لايمكننا أبداً استبعاد فكرة أنه في فريجيا تم شنق الإله البشري سنة بعد سنة على الشجرة المميتة.

الفصل السابع والثلاثون
أديان شرقية في الغرب

انتشرت عبادة الإلهة الكبرى وعاشقها أو ابنها في الأمبراطورية الرومانية. وتبين النقوش أن كليهما تمتعا بالشرف الإلهي منفصلين أو متصلين ليس في إيطاليا فقط بل في مناطق أخرى مثل إسبانيا والبرتغال وفرنسا وألمانيا وبلغاريا وخصوصاً في أفريقيا. وظلت عبادتهما بعد اعتماد المسيحية من قبل قسطنطين لأن القديس سيماكوس كتب عن عودة احتفال **الأم الكبرى** وفي عهد أوغسطين ظل كهنتها المتخنثين يستعرضون في شوارع قرطاجة بوجوههم وساحاتها البيضاء وشعورهم المعطّرة ومشيتهم المتبخترة، يطلبون الصدقة من المارَّة مثل رهبان العصور الوسطى المتسولين. بينما لاقت طقوس الإلهة الأسيوية العربيدية وعشيقها استحساناً فاتراً. فالعبادة العنيفة والبربرية بما فيها من مبالغة مسعورة أثارت تقزز الإغريق لأنها تتناقض مع إنسانيتهم وذوقهم الرفيع ففضلوا طقوس شقيقهم أدونيس اللطيفة. بينما انجذب إليها الرومان الأقل تحضراً وشعوب الغرب البربرية. إن للهياج النشواني الذي اختلط عليهم مع الإلهام الإلهي، وتشويه الجسم، ونظرية الولادة الجديدة بعد التخلص من الذنوب عبر أراقة الدماء، كل هذا له أصله في الحياة البدائية ومن الطبيعي أن تتناسب مع الأقوام التي مازالت عندهم الغرائز البدائية قوية. إذ يُخفُون شخصيتهم الحقيقية تحت غطاء مهذب من التفسير البلاغي والفلسفي لفرض تلك العبادة على المنتشين والمتحمسين وليصالحوا الأشخاص الأكثر تحضراً بأشياء كانت مرعبة ومقيتة لولا هذا التفسير.

ليس دين الأم الكبرى بما فيه من خليط من الوحشية البدائية والسمو الروحاني إلا واحداً من الأديان الشرقية الكثيرة التي انتشرت في الأمبراطورية الرومانية في آواخر أيام الوثنية، انتشاراً طمس نسيج الحضارة القديمة عن طريق إشباع شعوبها

الأوربية بقيَمٍ مستوردة. فالمجتمع الإغريقي والروماني يعتمد على فكرة ذوبان الفرد في الجماعة، أو المواطن في الدولة؛ ويعتبر المجتمعَ المحرك السلوك الرئيس، يفوق سلامة الفرد في هذا العالم أو في العالم القادم. لذلك كانوا يربُّون أطفالهم منذ نعومة أظفارهم على القيم الإيثارية وعلى تقديم حياة المواطنين رخيصة في خدمة المصلحة العامة، ولا يتقاعس أحدهم عن أداء هذه التضحية الكبرى، إلا من أجل شيء واحد وهو مصلحة البلد. تبدلت كل هذه القيم مع انتشار الأديان الشرقية التي غرست في أذهان الناس التواصل مع الله، المخلِّص الأبدي الذي شكل هدف الحياة الوحيد فانعدمت أمامه قيمة ازدهار الدولة ووجودها. من الطبيعي أن ينجم عن هذه التعاليمِ الأنانيةِ الخالدةِ انسحابُ الأفراد من الخدمة العامة ليركِّزوا على أفكارهم وعواطفهم الروحية ويخلق عندهم احتقار الحياة الدنيا التي يعتبرونها امتحاناً للوصول إلى حياة سرمدية أفضل. أما الكاهن والناسك، قانطاً بهذه الأرض وجَذِلاً في التأمل في السماء، فأصبح في نظر الناس مثلاً أعلى للبشرية لأنه استغنى عن القيم الوطنية القديمة وعن مفهوم البطل الذي ينكر ذاته ويهب حياته للبلاد. وصارت المدينة الدنيوية جديرة بازدراء من كان ينظر إلى مدينة الله الآتية مع غيوم السماء. وهكذا تحوَّل مركز الجاذبية من الحاضر إلى المستقبل مُنْزِلاً خسارة في الحاضر مهما كان ربح المستقبل ضئيلاً. بدأ التفكك في صفوف أبناء الوطن، وانحلَّت أواصل الدولة والقبيلة: وانحل المجتمع في عناصر فردية وارتد إلى البربرية لأن الحضارة غير ممكنة إلا في ظل تعاون المواطنين الحثيث وإرادتهم في تقديم الصالح العام على المصلحة الشخصية الشخصي. وصار الرجال يرفضون الدفاع عن بلادهم أو حتى حفاظهم على النوع. وبدلاً من قلقهم على إنقاذ أرواحهم وأرواح الآخرين اكتفوا بالزهد بالحياة المادية التي اعتبروها مجال الشر. شغل هذا الهاجس أذهان الناس مدة ألف عام. وكانت استعادة القانون الروماني وفلسفة أرسطو والأدب والفن القديمين عند نهاية العصور الوسطى علامةً على عودة أوروبا إلى قيم الحياة الأصلية وسلوكها وإلى النظرة الأعقل والأشجع لهذا العالم. وبهذا انقضت فترة الركود في مسيرة الحضارة. وانحسر المد الشرقي أخيراً وظل ينحسر حتى الآن.

مع انحدار العالم القديم تنافس الإله ذو الأصل الشرقي مع آلهة أخرى في كسب ولاء الغرب. إنه الإله الفارسي القديم ميثرا، الذي دلَّت آثاره المنتشرة في

جميع أنحاء الأمبراطورية الرومانية، أن عبادته حققت انتشاراً واسعاً. وعند التأمل في تعاليمه وطقوسه نرى تشابهاً واضحاً ليس بينها وبين ديانة أم الآلهة فحسب بل مع المسيحية أيضاً، إلى درجة أن علماء اللاهوت المسيحيين اعتبروه عملاً من أعمال الشيطان الذي يريد أن يغوي أرواح الناس باتباعهم ديناً زائفاً وإبعادهم عن الإيمان الحقيقي. ورأى محتلو المكسيك والبيرو الإسبان أن الطقوس الأصلية الوثنية تقليدٌ شيطاني لأسرار المسيحية المقدسة. واعتبر الباحثون في الديانات المقارَنة أن هذا التشابه ناتج عن نشاطات عقلية منفصلة في محاولة الإنسان للكشف عن أسرار الكون وتوليف حياته القصيرة مع تلك الغوامض المريعة. ومهما كانت درجة التشابه بين الديانتين، أثبتت الميثرية أنها ندٌّ المسيحية بإقرانها الطقس المقدس مع أمل الوصول إلى النقاء الأخلاقي والخلود. في الحقيقة وصل الصراع بينهما مرحلة التوازن بين المعتقدين. ومازال أثر هذا الصراع موجوداً في احتفال عيد ميلاد السيد المسيح الذي أخذته الكنيسة مباشرة عن خصمها الوثني. فحسب التقويم اليوليوسي يصادف الانقلاب الشتوي في الخامس والعشرين من كانون الأول، ويعتبر هذا التاريخ يوم ميلاد الشمس لأن اليوم يبدأ في الاستطالة وتبدأ الشمس باكتساب طاقة أكبر. وكانت طقوس هذا الميلاد عظيمة مثلما هي الآن في سوريا ومصر، يذهب فيها المحتفلون إلى مقامات داخلية معينة ويصرخون في منتصف الليل: "العذراء تلد والنور يخفت!". كما مثَّل المصريون الشمس الوليدة بصورة طفل يأتون به إلى عابديه في يوم ميلاده وهو الانقلاب الشتوي. ولاشك في أن العذراء التي حبلت وأنجبت ولداً في الخامس والعشرين من كانون الأول هي الإلهة الشرقية العظيمة التي يدعوها الساميون العذراء السماوية أو الإلهة السماوية؛ وكانت في بلاد الساميين شكلاً من أشكال أستارت. كذلك كان عابدو ميثرا يعرِّفون إلههم على أنه الشمس ويلقبونه **الشمس التي لا تُقهَر** وأيضاً كانت ولادتها في الخامس والعشرين من كانون الأول. لم يذكر الإنجيل شيئاً عن يوم ولادة المسيح وبالتالي لم تحتفل الكنيسة في تلك المناسبة في بادئ الأمر. وصار مسيحيو مصر يعتبرون السادس من كانون الثاني هو يوم ميلاده وانتشرت عادة إحياء ذكرى ميلاد المخلِّص حتى القرن الرابع في الشرق كله. لكن في نهاية القرن الثالث أو بداية القرن الرابع قامت الكنيسة الغربية التي لم تعتمد السادس من كانون الثاني بالاستقرار على الخامس والعشرين من كانون

الأول كتاريخ حقيقي لتلك المناسبة، وبعد فترة اعتمدت الكنيسة الشرقية التاريخ نفسه. وفي أنتيوك لم يحصل هذا التغيير إلا في العام 375 ميلادي.

ما الاعتبارات التي قادت السلطات الكنسية لاعتماد الاحتفال بعيد ميلاد المسيح؟ كتب الكاتب المسيحي السوري شارحاً بصراحة سبب هذا الابتداع: "السبب الذي جعل أجدادنا ينقلون الاحتفال من السادس من كانون الثاني إلى الخامس والعشرين من كانون الأول هو التالي. سيطرت عادة وثنية تقضي بالاحتفال بالخامس والعشرين من كانون الأول كعيد لميلاد الشمس وقوامه إشعال الأضواء. وقد شارك المسيحيون في هذه الاحتفالات. وعندما أدرك كهنة الكنيسة محبة المسيحيين لهذا الاحتفال تشاوروا واتخذوا قراراً يقضي بالاحتفال بالميلاد الحقيقي في ذلك التاريخ وبنقل عيد الغطاس إلى السادس من كانون الثاني. وبناءً على هذا ظل الناس يشعلون النار من الخامس والعشرين من كانون الأول إلى الساس من كانون الثاني." كما أشار أوغسطين إلى الأصل الوثني لعيد ميلاد المسيح لا بل أقر منشأه عندما حض الأخوة المسيحيين على الاحتفال بذلك اليوم المقدس كما يفعل الوثنيون اعتماداً على الشمس لكنه جعل نيَّة الاحتفال لأجل خالق الشمس. وكذلك رفض ليو الكبير المعتقد المُهلِك الذي يقدِّس المسيح بناءً على ميلاد الشمس الجديدة - أو هكذا كانوا يسمونها - وليس بناءً على ميلاد المسيح نفسه.

أصبح واضحاً الآن أن الكنيسة اختارت الاحتفال بمولد مؤسسها في الخامس والعشرين من كانون الأول كي تحوِّل إخلاص الوثنيين للشمس إلى من يسمى شمس الصَّلاح. إذا كان الأمر كذلك ليس هناك ما يمنع اعتقادنا أن الدافع نفسه يقف وراء مماثلة احتفال موت الأب وبعثه في عيد الفصح مع موت إله أسيوي آخر وبعثه والذي يصادف في الموسم نفسه. مازالت طقوس الفصح هذه متبعة الآن في اليونان وصقلية وجنوب إيطاليا بتشابه يكاد يكون مطابقاً لطقوس أدونيس. وكما أشرت سابقاً تعمدت الكنيسة مهايأة الاحتفال الجديد مع سابقه الوثني لكسب قلوب الناس في محبة المسيح. لكن ربما حصلت هذه المهايأة في المناطق التي تتكلم الإغريقية أكثر من المناطق التي تتكلم اللاتينية في العالم القديم لأن عبادة أدونيس ازدهرت عند الإغريق ولم يبلغ تأثيرها في روما والغرب إلا بشكل ضئيل. من المؤكد أنها عبادة لم تشكل ديناً رومانياً رسمياً. واحتلت مكانتها في قلوب الدهماء الذين

أحبوا عبادة أتيس البربرية والأم العظيمة. أما موت آتيس وبعثه فهو احتفال رسمي في روما ويصادف في الرابع والعشرين والخامس والعشرين من آذار، والجدير بالذكر أن الخامس والعشرين من آذار كان يُعتبر الاعتدال الربيعي، وبالتالي هو التاريخ الأنسب لانبعاث إله الخضرة الذي ظل ميتاً بل نائماً طوال الشتاء. لكن جرت العادة القديمة أن تحيى معاناة المسيح في الخامس والعشرين من آذار وبناءً عليه احتفل المسيحيون بانتظام بصلبه في ذلك اليوم دون النظر إلى موقع ذلك التاريخ من السنة. من المؤكد أنهم اتبعوا هذه العادة في فريجيا وكابادوسيا وغاول وهناك ما يؤيد أنهم اتبعوا تلك العادة في روما أيضاً. إذن، العادة التي جعلت موت المسيح في الخامس العشرين من آذار قديمة جداً ولها جذورها العميقة، وهي الأكثر أهمية لأنها لاتعتمد على اعتبارات فلكية وبالتالي ليس لها أساس تاريخي. فتأتي النتيجة الحتمية وهي نَسْبُ معاناة المسيح عفوياً إلى ذلك التاريخ لتحقيق الانسجام مع احتفال قديم بالاعتدال الربيعي. هذا هو رأي المؤرخ الكنسي المثقف داتشيسن الذي قال إنهم جعلوا موت المخلِّص في اليوم الذي يعتقد كثيرون أنه يوم خلق العالم نفسه. لكن بعث آتيس الذي يشمل في نفسه شخصيتي الإله الأب والإله الابن كان احتفالاً رسمياً في اليوم نفسه في روما. عندما نتذكر أن احتفال القديس جورج في نيسان حل محل احتفال باريليا الوثني القديم؛ وأن احتفال القديس يوحنا المعمدان خَلَفَ الاحتفال الوثني بالماء في منتصف الصيف؛ وأن الاحتفال برفع مريم في آب حل محل احتفال ديانا؛ وأن الاحتفال بكل الأرواح في تشرين الثاني هو استمرار للاحتفال القديم بالموتى؛ وأن ولادة المسيح نفسه يصادف عند الانقلاب الشتوي في كانون الأول لأنه يعتبر يوم ولادة الشمس، عندما نتذكر هذا كله لانُعتَبَر على الإطلاق متهورين عندما نقول إن احتفالات الفصح الأخرى هي، بالطريقة نفسها، مهايأة تهذيبية لاحتفال الإله آتيس الفريجي في الاعتدال الربيعي.

في أضعف الاحتمالات، يمكن اعتبار حصول هذه الاحتفالات الوثنية والمسيحية لموت الإله وبعثه في الفصل نفسه والمكان نفسه مصادفةً كبيرة، لكن من الصعب اعتبار المصادفة أمراً عرضياً غير مقصود. فالأمكنة التي احتفلت بموت المسيح في الاعتدال الربيعي هي فريجيا وغاول وروما أي المناطق التي انبثقت منها عبادة آتيس أو ضربت فيها جذوراً عميقة. إذا نُظِرَ للاعتدال الربيعي ـ الوقت الذي يتغير فيه وجه

الطبيعة فيشهد انفجاراً حيوياً في الأقاليم المعتدلة – منذ زمن بعيد على أنه موعد الانبعاث السنوي لإله ما، من الطبيعي أن يعتمدوا التاريخ نفسه كنقطة انبعاث الإله الجديد. والجدير بالملاحظة أنه إذا كان موت المسيح في الخامس والعشرين من آذار، فلابد ان يكون بعثه ـ حسب التقليد المسيحي ـ في السابع والعشرين من الشهر نفسه، أي بعد الاعتدال الربيعي ـ وهو يوم بعث آتيس ـ بيومين حسب التقويم اليوليوسي. كما حصل هذا الفارق بيومين في تعديل الاحتفال المسيحي مع الاحتفال الوثني في عيدَي القديس جورج ورفع العذراء. وهناك تقليد مسيحي يتبعه لاكتانتيوس وربما تمارسه الكنيسة في غاول، وهو اعتماد الثالث والعشرين يوم موت المسيح، وبعثه في الخامس والعشرين من آذار. وبهذا يصبح بعثه تماماً في يوم بعث آتيس نفسه.

في الحقيقة ظهر في كتابة أحد المسيحين المجهولين أنه في القرن الرابع الميلادي حصل تصادف بين موت وبعث آلهة الوثنيين والمسيح على التعاقب فأثارت هذه المصادفة جدلاً حاداً مع متبعي تلك الأديان، أكد فيها الوثنيون أن بعث المسيح تقليد زائف لبعث آتيس، وردَّ المسيحيون بالحماس نفسه أن بعث آتيس هو تزييف شيطاني لبعث المسيح. وقال الوثنيون في هذه المشاحنات أن أي مُشاهِد مهما كان سطحي التفكير يرى بوضوح أن إلههم أقدم من المسيح وبالتالي هو الأصل وليس المُقلِّد، فالقاعدة العامة تقول أن الأصل هو أقدم من النسخة المقلِّدة. ثم دحض المسيحيون هذه الحجة الضعيفة بعد أن أقروا أسبقية آتيس التاريخية، لكنهم أرجعوا هذا إلى دهاء الشيطان الذي يبذل أقصى جهوده الشريرة في إيهام الناس بقلب التسلسل الطبيعي في مناسبة مهمة كهذه.

تبين القضية بمجملها مصادفات بين الاحتفالات المسيحية والاحتفالات الوثنية بأعداد أكثر من إمكانية اعتبارها عَرَضية. وإنهاءً لهذا الجدال يقيمون تسوية تُجْبَر فيها الكنيسة، رغم انتصارها، على معاداة أندادها المهزومين والخطيرين في الوقت نفسه. اضطرت البروتستانتية الجامدة في بعثاتها الأولى بما فيها من استنكار عنيف للوثنية، أن تُليِّن سياستها بالتسامح والتلطف بمبادئ الكنيسة المتطرفة لأنها أدركت أنه ما من سبيل لنشر المسيحية في العالم إلا بالتساهل بمبادئ مؤسِّسها الصارمة، وبتوسيع بوابتها الضيقة التي تؤدي إلى الخلاص. في هذا المجال يتوازى

تاريخ المسيحية مع تاريخ البوذية. فكلا النظامين كانا في الأساس إصلاحاً أخلاقياً أتى مع حماس ومحبة مؤسِّسَيها النبيلين وطموحهما السامي. إنهما روحان جميلان ظهرا على الأرض في فترتين منفصلتين نادرتين وكأنهما كائنان أتيا من عالم أفضل لدعم وتوجيه طبيعتنا الضعيفة الخطّاءة. كلاهما وعظا بالفضائل الأخلاقية كوسيلة لتحقيق ما اعتبراه هدف الحياة الأسمى، والخلاص الأبدي لروح الفرد، لكنهما متناقضان في نقطة طريفة وهي أن أحدهما ينشُدُ الخلاص في الأبدية السعيدة، أما الآخر فيراها في التخلص النهائي من العذاب، في الإبادة. لكنهما يزرعان قيماً تقشفية للطهارة تتعارض بقوة ليس مع نقاط ضعف الإنسان فقط بل مع غرائز بشرية هو بحاجة إلى تفريغها أكثر من تلك المبادئ التي تقتضي منه رفض الروابط مع العائلة والدولة والعمل بمفرده لتحقيق الخلاص في عزلته الدائمة في الدير. وإذا ما قُبِلَت هذه المبادئ صورياً من قِبَل أمم عديدة أو لنقل العالم كله، من الجوهري أن تتأقلم أو تتغير كي تتناسب مع عاطفة الدهماء ورذيلتهم وخرافاتهم. لقد قام بعملية التكيُّف هذه على مر العصور أتباعُ المسيحية الذين تنازلوا عن روحانيات معلميهم ليتقربوا أكثر من عامة الناس. ومع مرور الزمن قام الدينان بكسب الشعبية المتنامية بشكل متساوٍ، وامتصا عدداً أكبر من أُسُسِهما لتحقيق هدف مشترك وهو القمع. إنه تدهور روحاني محتوم، فالعالم لايستطيع العيش بمستوى عظمائه. لكن من الظلم أن نحمِّل ضعف عامة الناس الأخلاقي والذهني وِزرَ انحراف المسيحية والبوذية عن شكلهما الأولي. ويجب أن لا ننسى أن الدينين بتمجيدهما للفقر والتَّبَتُّل ضَرَبَا مباشرة لا جذور المجتمع المدني فحسب بل الوجود الإنساني أيضاً. وقد تم تفادي تلك الضربة بحكمة أو حماقة الأغلبية العظمى الذين رفضوا اغتنام فرصة إنقاذ أرواحهم مقابل فَناء نوعهم الحتمي.

الفصل الثامن والثلاثون
أسطورة أوسيريس

في مصر القديمة كان هناك إله يحتفلون سنوياً بموته وبعثه بحزن وفرح متعاقبين، إنه الإله أوسيريس أكثر الآلهة المصرية شعبيةً. وهناك مايرر تصنيفه مع أدونيس وآتيس كتمثيل لتقلُّب الطبيعة السنوي وخاصة الحنطة. لكن الرواج الذي تمتع به على مر عصور كثيرة جعل عابديه يحمِّلونه قوى آلهة أخرى حتى صَعُب علينا تجريده من هذه القوى وإعادتها إلى أصحابها. بلوتارك هو الوحيد الذي يروي قصة أوسيريس بطريقة تفيدنا في بحثنا، وقد تأكدت روايته إلى حد كبير في العصر الحالي ببراهين محسوسة خلال آثاره.

وُلِد أوسيريس جراء علاقة جنسية غير شرعية بين إله الأرض سيب (ويكتب في ترجمته للغات أخرى: كيب أو جيب) وإلهة السماء نات. ماثلَه الإغريق بإلهَيهما **كرونوس وريا**. وعندما أدرك الإله رع أن زوجته نات تخونه، لعنها بقوله أنها ستلد طفلاً خارج الأشهر وخارج السنين. لكن للإلهة عاشق آخر، الإله **ثوث**، أو كما يسميه الإغريق **هرمز**، لعب الداما مع القمر فكسب منه الجزء الثاني والسبعين من كل يوم، وبعد أن جمع خمسة أيام كاملة من تلك الأجزاء أضافها إلى السنة المصرية المؤلفة من ثلاثمائة وستين يوماً. هذا هو الأصل الأسطوري لإضافة المصريين خمسة أيام في آخر كل سنة ليحققوا توافق التوقيتين الشمسي والقمري. واعتُبِر أحد هذه الأيام الخمسة خارج السنة المؤلفة من اثني عشر شهراً، وبهذا تتحقق لعنة إله الشمس. وُلِد أوسيريس في أُولى هذه الأيام. وعند ولادته هدر صوتٌ يقول أن من أتى إلى العالم هو سيد الآلهة. ويقول بعضهم أن أحد كهنة معبد طيبة سمع صوتاً يأمره بإعلان ولادة الملك العظيم أوسيريس الخيِّر. لكن أوسيريس لم يكن الولد الوحيد لأمه ففي اليوم الإضافي الثاني أنجبت **هوروس** وفي اليوم الثالث الإله سيت

الذي يسميه الإغريق **تايفون**، وفي اليوم الرابع الإلهة **أيسيس**، وفي اليوم الخامس الإلهة **نيفثيس**. تزوج سيت من اخته نيفثيس وأوسيريس من اخته أيسيس. وفي أثناء حكمه على الأرض خلَّص أوسيريس مصر من الوحشية ومنحها القوانين وعلَّم أهلها عبادة الآلهة. كان المصريون قبل ذلك أَكَلَة لحوم البشر. لكن أيسيس أخت أوسيريس وزوجته اكتشفت القمح والشعير في البرية، ونشر أوسيريس زراعة هاتين الحبتين بين أفراد شعبه فتخلوا عن أكل لحوم البشر وتعلموا أكل الحنطة. ويُقال أيضاً أن أوسيريس هو أول من جمع الثمار من الأشجار وروض عرائش العنب لتمشي على الأعمدة وأول من عصر حباته بالوطء. تشوق لنشر هذه الاكتشافات المفيدة بين البشر فعهد بالحكومة إلى زوجته أيسيس وشد الرحال في كل اتجاه ينشر هذه النعم الحضارية والزراعية أينما ذهب. وفي الأقاليم التي يصعب فيها زراعة العنب بسبب مناخها وتربتها الفقيرة، علَّم الناس صناعة البيرة من الشعير. كسب الإله ثروة طائلة من الأمم التي أغدقت عليه امتناناً لصنيعه ثم عاد إلى مصر غانماً وبما أنه منح البشرية الكثير من النعم عبدوه وأَجَلُّوه كإله. لكن أخاه **سيت** واثنين وسبعين من الرجال تآمروا عليه بأخذهم قياس جسمه خِلسةً وقام **تايفون** بصناعة وتزيين صندوق بالحجم نفسه. وذات يوم وهم يشربون ويلهون جلب الصندوق وقال مازحاً أنه سيعطيه لمن يناسبه من الحاضرين. فراحوا يجربونه واحداً تلو الآخر لكنه لم يناسب أحداً منهم. أخيراً نزل أوسيريس فيه واستلقى. هرع المتآمرون وخبطوا عليه غطاء الصندوق وسمَّروه بقوة وسكبوا عليه الرصاص المنصهر ورموه في النيل. حصل هذا في السابع عشر من شهر أثاير عندما تصدر الشمس إشارة العقرب، في السنة الثامنة والعشرين من عهد أوسيريس. عندما سمعت أيسيس بذلك قصت ضفيرة من شعرها ولبست ثياب الحِداد ومشطت البلاد جيئة وذهاباً باحثةً عن الجثة.

اتبعت أيسيس نصيحة إله الحكمة فلجأت إلى مستنقع البردي في الدلتا. رافقها في رحلتها سبعة عقارب. وعندما كانت متعبة في إحدى الأمسيات وصلت إلى امرأة ارتعشت خوفاً من منظر العقارب فأغلقت الباب في وجهها. زحف أحد العقارب من تحت الباب ولسع أحد أطفال المرأة فمات. لكن عندما سمعت أيسيس نحيب الأم، رق قلبها فوضعت يدها على الطفل وتلفظت بسحرها القوي فخرج السم من الطفل

وعاد إلى الحياة. فيما بعد أنجبت أيسيس ابناً في المستنقعات بينما كانت تحوم على شكل طائر الباز فوق جثة زوجها الميت فكان الطفل **هوروس الأصفر** الذي حمل في شبابه اسم **هاربوكراتيس** أي ابن هوروس. اختبأت **هيم باتو** إلهة الشمال من غضب العم **سيت** الشرير. عندها لم تكن لتحميه من حظه العاثر لأن أيسيس أتت يوماً إلى مخبأ ابنها الصغير فوجدته ممدد على الأرض جاسئاً لا حياة فيه لأن عقرباً لسعه. عندها توسلت أيسيس للإله رع طلباً للمساعدة. لبى رع طلبها بأن أرسل **ثوث** ليعلمها السحر الذي يمكن أن تعيد به ابنها إلى الحياة. وعندما تلفظت بالكلمات ذات القوة خرج السم من جسم هوروس ودخل إليه الهواء فعاد إلى الحياة. ثم صعد ثوث إلى السماء وأخذ مكانه في بَرْك الشمس وأحاطت به أبهة الانتصار البهية.

في الوقت ذاته انجرف الصندوق الى أسفل النهر وخرج إلى البحر ونقلته الأمواج إلى بيبلوس على الساحل السوري. هنا انبثقت شجرة خَلَنْج وأحاطت الصندوق بجذعها. تعجب ملك البلاد من نمو الشجرة السريع فقطعها وجعلها عموداً لمنزله لكنه لم يدرِ أن الصندوق وأوسيريس الميت موجودان فيها. وصل هذا الخبر إلى أيسيس فرحلت إلى بيبلوس وجلست بقرب بئر بزَيٍّ متواضع ووجهها مغرورق بالدموع. رفضت التكلم مع أحد حتى تأتي وصيفات الملك. وعندما أتين حيَّتهن بحرارة وجدلت شعرهن ونفخت في أجسامهن عطراً عجيباً من نفسها الإلهي. لكن عندما رأت الملكة جدائل الوصيفات وشمَّت الرائحة العطرة المنبعثة منهن، أرسلت بطلب تلك المرأة الغريبة وأخذتها إلى بيتها وجعلتها مرضعة لأطفالها. لكن أيسيس أعطت إصبعها للطفل بدلاً من صدرها وفي الليل همت بحرق أشيائه الفانية، وراحت تطير على شكل سنونو حول العمود الذي يحتوي أخاها الميت وتسقسق بحزن. لكن الملكة تجسست عليها ورأت ما هي فاعلة فصرخت عندما رأت ولدها في النار فمنعته من الخلود. بعدها كشفت الإلهة عن نفسها وطلبت منهم عمود السقف فأعطوها إياه وأخرجت منه الصندوق وخرَّت عليه تنحب بصوت عالٍ أما ابن الملك فمات خوفاً على الفور. غلَّفت جذع الشجرة بكتان ناعم وصبت عليه الزيت وأعطته للملك والملكة وما زال الخشب موجوداً في معبد أيسيس يعبده الناس حتى يومنا هذا. وضعت أيسيس الصندوق في قارب واصطحبت معها أكبر أبناء الملك وأبحرت. وعندما كانا وحيدين فتحت الصندوق ووضعت وجهها على وجه أخيها، قبَّلته

وبكت. تسلل ابن الملك ورأى ماتفعله فنظرت إليه بغضب؛ لم يتحمل الولد نظرتها فسقط ميتاً، ويقول بعضهم إنه وقع في البحر ومات غرقاً. إنه الشخص الذي يغني له المصريون في ولائمهم تحت اسم مانيروس.

وضعت أيسيس الصندوق جانباً وذهبت تتفقد ابنها هوروس في مدينة باتو؛ وجد تايفون الصندوق بينما كان يصطاد عِفْراً في إحدى الليالي مستضيئاً بنور البدر. تعرَّف على الجثة ومزقها إلى أربع عشرة قطعة وبعثرها في أماكن متباعدة. أبحرت أيسيس في المستنقع على شلوب مصنوع من البردي باحثة عن الأشلاء، لذلك لاتؤذي الحيتانُ من يبحر في شلاليب مصنوعة من البردي احتراماً للإلهة أو خوفاً منها. ولهذا السبب أيضاً هناك عدة قبور لأوسيريس في مصر، لأنها دفنت كل عضو من أعضائه في المكان الذي وجدته فيه. ويعتبر آخرون أنها دفنت مجسماً كاملاً له في كل مدينة كي يُعبَد أوسيريس في عدة أماكن، وكيلا يستطيع تايفون العثور عليه إذا حاول البحث عنه. أما عضوه التناسلي فقد ألتهمته الأسماك لذلك صنعت أيسيس مجسماً له ويستخدم هذا المجسم في الاحتفالات المصرية حتى يومنا هذا. كتب المؤرخ ديودوراس سيكولوس مايلي: " استعادت أيسيس جميع أشلاء الجثة إلا الأعضاء التناسلية ولأنها ترغب في جعل قبر زوجها غير محدد ويجلُّه كل من سكن مصر لجأت إلى صنع قالب من الشمع والتوابل يتناسب مع منزلة أوسيريس حول كلٍ من أجزاء جسمه. ثم استدعت الكهنة كلاً حسب عائلاتهم وأخذت منهم عهداً ألا يفشوا سر الأمانة التي ستحمِّلهم إياها. وراحت تقول لكل منهم على حدة أنها ستعهد إليه بدفن الجثة مذكِّرةً إياه بالفوائد التي سيجنيها من دفن الجثة في بلده والشرف الذي سيحظى به بلده من الإله أوسيريس. ثم خصصت في كل بلد من بلدانهم حيواناً يختارونه كي يبجلونه مثلما بجلوا أوسيريس وأن يقيموا له جنازة عندما يموت مثل جنازة أوسيريس. وتشجيعاً لهم حققت مصلحتهم في إعطائهم قطعة ثالثة من الأرض كي يستخدموها في خدمة الآلهة وعبادتها. ويُقال أن الكهنة، مدركين لفوائد أوسيريس، أرادوا إرضاء الملكة بالإضافة لرغبتهم في الحصول على المكاسب، نفذوا جميع وصايا أيسيس فظل كل منهم حتى الآن يتخيل أنه دفن أوسيريس في بلده ويبجلون الوحوش التي أوقفوها له في البداية، وعندما تموت الحيوانات تدفن كأنها أوسيريس ويقيمون الحداد عليها. لكن الثورين المقدسين،

آبيس ومنيفيس، موقوفان لأوسيريس وقد صدر قرار يقضي بعبادتهما كإلهين لدى جميع المصريين لأنهما، علاوة على جميع الحيوانات الأخرى، ساعدا مكتشفي الحنطة في بذر البذور وجلبا فوائد الزراعة بشكل عام."

هذه هي أسطورة أوسيريس كما رواها الكاتب الإغريقي بتفاصيل أكثر مما وردت في الأدب المصري المحلي. هناك نقش طويل في معبد ديندراه يحتوي على قائمة بقبور الإله، وتحدد نصوص أخرى أجزاءه التي تُعتَبَر كنزاً أثرياً لهذه الأماكن المقدسة. كان قلبه في أثريبيس وعموده الفقاري في بوسيريس ورقبته في ليتوبوليس ورأسه في ممفيس. وكما يحصل عادة في مثل هذه الحالات، تتضاعف بعض أعضائه الإلهية بشكل عجيب؛ فمثلاً رأسه موجود في أبيدوس وممفيس في الوقت ذاته، وكثرت أرجله حتى تكفي الكثير من البشر العاديين. وبالمقارنة مع القديس ديناس لا يشكل أوسيريس شيئاً في هذا المجال، فالسابق له على الأقل سبعة رؤوس لها القيمة ذاتها حتى يومنا هذا.

وتدعم تقارير مصرية محلية رواية بلوتارك عن عثور أيسيس على جثة زوجها أوسيريس. تفيد هذه التقارير أن أوسيريس وأختها بيفثيس جلستا بجانب جثته وناحتا تنويحاً أصبح نوعاً من الرثاء المصري على الموتى. تقول التنويحة: " تعال إلى بيتك. أيها الإله أون! تعال إلى بيتك، فليس لك أعداء. أيها الشاب الجميل، تعال إلى بيتك، حيث يمكنك أن تراني. أنا أختك التي أحببتها، فلا تبتعد عني. أيها الفتى الجميل، تعال إلى بيتك.....لم أعد أراك، فقلبي يرثي لك وتتوق عيني لرؤيتك. تعال إلى من أحبتك، أنيفير، أيها المبارك! تعال إلى أختك تعال إلى زوجتك التي مازال قلبها ينتظرك. تعال إلى ربة منزلك. أنا أختك من الأم ذاتها، فلا تبتعد عني. الآلهة والبشر توجهوا إليك وبكوك..... وأنا أناديك وأبكي حتى تصل صرختي إلى السماء، لكنك لا تسمع صوتي؛ أما زلت أختك التي أحببتها على الأرض؛ ولم تحب سواي يا أخي! يا أخي!" هذه التنويحة على الشاب الجميل تذكرنا بالتناويح على أدونيس. أما لقب أنيفير، أو (الكائن الخيِّر) منحته بركات تُعزى إلى أوسيريس فكان أكثر ألقابه شيوعاً وأحد أسمائه الملكية.

لم يذهب رثاء الأختين سدىً. فالإله رع أرسل من السماء إلهاً برأس جقل، وبمساعدة أيسيس وبيفثيس، وثوث وهوراس، قام بجمع أجزاء جثة الإله المقتول

ولفَّه بضماد كتاني ثم أدى جميع الطقوس التي يقيمها المصريون على الموتى. ثم رفرفت أيسيس بجناحيها على الصلصال البارد، فانتعش أوسيريس وأصبح ملك الموتى في العالم الآخر. وهناك حاز على الألقاب: سيد العالم السفلي، سيد الأبدية، حاكم الموتى. وهناك في القاعة العظيمة للحقيقتين أَعَانَه اثنان وأربعون مساعداً، كل منهم أتى من مقاطعة من مصر، وصار يرأس محاكمة أرواح الراحلين الذين يعترفون الاعتراف المقدس أمامه وتوضع قلوبهم في ميزان العدالة ويكافأون على فضائلهم في حياة أبدية أو يُنزَل بهم مايناسبهم من العقاب على ذنوبهم.

وعند انبعاث أوسيريس أدرك المصريون قيمة الحياة الدائمة بعد القبر. واعتقدوا أن كل من يلفه أصدقاؤه الأحياء بالطريقة التي فعلتها الآلهة لأوسيريس سيعيش حياة أبدية في العالم الآخر. وما الطقوس التي يطبقها المصريون على موتاهم إلا تقليداً كاملاً لتلك التي أداها أنوبيس وهووروس وآلهة آخرون لأجل الإله الميت." عند كل عملية دفن كان يمارس تمثيل سر إلهي مُورِس على أوسيريس عندما تجمع ابنه وأختاه وأصدقاؤه حول بقاياه المشوهة ونجحوا بسحرهم أن يحنطوا الجثة لأول مرة، ويزودوها بالوسائل التي تمكنها من الدخول في الحياة الانفرادية بعد النزول في القبر. فكان مومياء أوسيريس وكانتا النادبتان المحترفتان أيسيس ونيمفثيس؛ وكان تجمع أنوبيس وهوروس وجميع الآلهة من حوله." وهكذا صار كل من يموت من المصريين يحمل اسم أوسيريس بعد أن يتعرف عليه. ومنذ المملكة الوسطى صار يدعى الميت **أوسيريس فلان الفلاني**، وكأنه هو الإله نفسه، وإضافة اللقب **قول الحق** لأن القول الحق من صفات أوسيريس. وتبين الآثار في كل القبور التي فُتِحَت في وادي النيل أن طقوس البعث الغامضة كانت تُطبَّق على كل من مات من المصريين، على أمل أن يقوم من الموت ويعيش كما قام أوسيريس من الموت وعاش حياة أبدية.

كان أوسيريس ملك مصر الصالح والمحبوب الذي عانى من موت عنيف ثم نهض من موته فعبدوه كإله. لذلك يقضي العُرْفُ المصري العام أن يُمَثَّل بتماثيل ورسوم على هيئة بشر، وبملك بهيّ ميت ملفوف بقماش المومياء، وعلى رأسه التاج الملكي وبيده التي تُترَك خارج الضماد، يمسك الصولجان الملكي. ارتبطت بأسطورته مدينتان أكثر من غيرهما من المدن، وهما بوسيريس في مصر الدنيا

والتي تدَّعِي امتلاكها لعموده الفقاري، والثانية هي أبيدوس في مصر العليا والتي تمجد نفسها بامتلاكها لرأسه. وتحيط شخصياتٌ مهمةٌ الإلهَ الميت الحي، أبيدوس - الذي كان يوماً في مكان مجهول - فأصبحت منذ نهاية المملكة القديمة أقدس بقاع مصر. ولقبره بالنسبة للمصريين مكانة تماثل مكانة كنيسة الضريح المقدسة في القدس بالنسبة للمسيحيين. وكان أمل كل إنسان تقي أن يُدفَن جثمانه في الأرض المقدسة قرب أوسيريس المعظم. قلة قليلة هم الأغنياء الذين استطاعوا أن يحصلوا على هذا الإمتياز الذي لا يقدر بثمن. فعلاوة على تكلفة القبر في المدينة المقدسة هناك تكاليف باهظة وصعوبة بالغة في نقل المومياء مسافة طويلة. كم تاق الكثير للحصول بعد موتهم على البركة التي تشع من الضريح المقدس فأوصوا أصدقاءهم من بعدهم أن ينقلوا رفاتهم إلى أبيدوس ويقيموا هناك فترة قصيرة قبل أن يعودوا إلى نهر النيل ويُدفَنوا في القبر الذي أُعِدَّ لهم في بلدهم. ولجأ آخرون إلى بناء قبر أجوف أو نصب ألواح بأسمائهم قرب قبر الإله الميت والمبعوث حتى يشاركوه بركة الانبعاث السعيد.

الفصل التاسع والثلاثون
شعائر أوسيريس

1ـ الطقوس الشعبية

يمكن التعرف على طبيعة الإله خلال الفصل الذي يُحتَفَل به. فإذا كان الاحتفال عند بداية القمر أو البدر نفترض سلفاً أن الإله المعبود هو القمر نفسه أو له علاقة بالقمر. وإذا كان الاحتفال عند الانقلاب الصيفي أو الشتوي فإن الإله هو الشمس أو له علاقةٌ ما بذلك الجرم. وإذا كان يصادف الاحتفال مع البدار أو الحصاد نميل إلى الاعتقاد أن الإله هو الأرض أو الحنطة. ليست هذه التخمينات نهائية بحد ذاتها لكنها تصبح قوية إذا ما اقترنت بمؤشرات أخرى. لكن من سوء حظنا أننا لانستطيع الأخذ بهذه الأدلة عندما نتناول الآلهة المصرية، ليس لجهلنا بتاريخ الاحتفالات بل لأنها تتبدل من سنة إلى أخرى، حتى أنها تنتقل على جميع فترات السنة بعد حقبة من الزمن. يعود هذا الدوران التدريجي في الدورة الاحتفالية المصرية إلى استخدامهم تقويماً سنوياً لايتوافق مع السنة الشمسية ولا يصححونه عبر الكبس.

وبما أن التقويم الكهنوتي الرسمي لا يقدم دليلاً واضحاً، اضطر المزارع المصري القديم لملاحظة تلك المؤشرات بنفسه ووضع نقاطاً تأريخية لممارسة النشاطات الزراعية المختلفة. ففي كل العصور المصرية التي نملك لها أدلة تاريخية، لم يكن المصريون سوى مزارعين يعتمدون في عيشهم على نمو الحنطة. ويزرعون القمح والشعير والسرغوم والذرة. وكانت كل البلد، باستثناء المتاخم منها للبحر الأبيض المتوسط، معدومة المطر تقريباً تعتمد في خصبها على غمر النيل السنوي، الذي تم تنظيمه بشبكة دقيقة من السدود والقنوات التي توزع المياه على الحقول لتدعم التربة بالطمي القادم من البحيرات الاستوائية وجبال أبيسينيا سنة بعد سنة.

من هنا كان يراقب الناس ارتفاع منسوب المياه بقلق شديد؛ لأنه إذا هبط المنسوب عن المعتاد أو تعدى ارتفاعاً معيناً، يضرب الجفاف البلاد وينجم عن ذلك مجاعة حتمية. يبدأ منسوب النهر بالارتفاع في أوائل حزيران ولايصل حد الفيضان إلا في أواسط حزيران، ثم يبلغ أعلى مستوىً له في نهاية أيلول. هنا تُغمَر البلاد وتتدفق المياه العكرة على البحر فتغدو القرى والمدن المبنية على مناطق مرتفعة وكأنها جزر. يبقى الفيضان ثابتاً على هذا الشكل مدة شهر كامل ثم ينخفض بسرعة متزايدة حتى يعود إلى سريره المعتاد مع حلول شهر كانون الأول أو كانون الثاني. يتابع منسوب المياه انخفاضه كلما اقتربنا من الصيف. وفي أوائل حزيران يصغر عرض النهر إلى نصف عرضه المعتاد وتتحمّص الأرض بنار الشمس، ثم تضربها الرياح الآتية من الصحراء الكبرى التي تهب لأيام عديدة فتصبح مصر جزءاً من تلك الصحراء. تتغلف الأشجار بغطاء من الغبار الرمادي. ولايبقى سوى بقع ضئيلة من الخضار التي تجاهد للحصول على المياه وتناضل بقوة للبقاء حية على تخوم القرى. تستمر بعض مظاهر الخضرة على أطراف القنوات أو البرك التي لم تتبخر منها الرطوبة تماماً. و تلهث السهول تحت أشعة الشمس التي لا ترحم، مغبرة شاحبة بلون الرماد مغطاة بشبكة من الشقوق على مد النظر. ومن أواسط نيسان حتى أواسط حزيران تقف مصر على شفير الموت منتظرة النيل الجديد.

ما زالت هذه السلسلة من الأحداث الطبيعية تحدد مهام المزارعين المصريين منذ عصور لاتحصى. أولى هذه المهام كانت بناء السدود لمنع الفيضان على القنوات والحقول. وفي النصف الأول من آب تأتي مهمة تحرير المياه الحبيسة على نحو مفيد. وفي تشرين الثاني عندما ينحسر الإنغمار يقومون ببدار القمح والشعير والسرغوم. أما موعد الحصاد فيختلف من منطقة إلى أخرى إذ يتأخر في الجنوب شهراً عن الشمال. ففي مصر العليا أو الجنوبية يبدأ حصاد الشعير في أوائل آذار، والقمح في أوائل نيسان، والسرغوم في نهاية نيسان.

من الطبيعي أن يحتفل المزارع المصري بهذه الأحداث مع بعض الطقوس الدينية البسيطة التي تهدف إلى الحصول على مباركة الآلهة للأعمال التي يقومون بها. واستمر المزارع بالقيام بهذه الطقوس كل سنة وفي الموسم نفسه بينما كانت احتفالات الكهنة المقدسة تُقام في مواعيدها المتبدلة مع تنقُّل تقويمهم على مدار

السنة إلى أن تكتمل الدورة ثم تبدأ دورة جديدة. بقيت طقوس المزارعين تعتمد على الملاحظة المباشرة للطبيعة، بينما كانت طقوس الكهنة غير ثابتة لأنها اعتمدت على حسابات خاطئة مما جعلها احتفالات مخفية وراء أبهة الكهنوتية المنفصلة عن جذورها في الدورة الطبيعية للفصول.

ما يؤكد هذا الافتراض معرفتنا القليلة عن الدين الشعبي والرسمي. كان المصريون يحتفلون بأيسيس عند بداية ارتفاع النيل. واعتقدوا أن الإلهة كانت تنعي فقدان أوسيريس وأن الدموع التي تُذرف من عينيها هي التي رفعت منسوب النهر العنيف. فإذا كان اوسيريس في أحد مظاهره إلهاً للحنطة، من الطبيعي أن يُنعَى في منتصف الصيف، لأن الحصاد يكون قد انتهى وأصبحت الحقول جرداء والنهر منخفضاً والحياة مُعَلَّقة وإله الحنطة قد مات. الآن وقد رأى الناس ما فعلته الآلهة في الطبيعة، صاروا يردُّون ارتفاع النهر المقدس إلى دموع الإلهة التي تبكي موت زوجها إله الحنطة الخيِّر.

تترافق مؤشرات ارتفاع المياه على الأرض مع مؤشرات أخرى في السماء. ففي حوالي القرن الثالث أو الرابع قبل الميلاد كانوا يرون ألمع النجوم الثابتة سيريوس في الشرق قبيل بزوغ الشمس في الإنقلاب الصيفي أي عندما يبدأ النيل بالارتفاع. كان يسميه المصريون سوثيس ويعتبرونه نجم أيسيس، تماماً كما اعتبر البابليون فينوس كوكب أستارت. بالنسبة لكلا الشعبين بدا هذا الجرم في سماء الصباح وكأنه إلهة الحياة والحب التي أتت لتنعي العاشق أو الزوج وتوقظه من الموت. من هنا يعتبر نهوض سيريوس مؤشراً لبداية السنة المصرية المقدسة فأقاموا له مهرجاناً لا يتغير تاريخه مع انتقال السنة الرسمية.

يعتبر فتح السدود وإرسال المياه إلى الحقول عبر القنوات حدثاً عظيماً في السنة المصرية. وتُقام هذه العملية في القاهرة بين السادس والسادس عشر من آب مع طقوس كبيرة استمرت إلى وقت ليس بالبعيد. كان هناك قناة قديمة تعبر القاهرة القديمة وتُعرف باسم الخليج. بالقرب من مدخل المدينة كانوا يعبرون القناة على سد ترابي، عريض من الأسفل ويضيق في الأعلى. وكان يُقام هذا السد قبيل ارتفاع النهر. ويقيمون بجانب هذا السد مخروطاً ترابياً مبتور الرأس يسمونه العروس، يزرعون على قمته القليل من الذرة أو الدخن. ثم يأتي فيضان النهر ويجرف هذه

العروس خلال أسبوع أو أسبوعين. تعود هذه العادة إلى أصلها في التقليد القديم عندما كانوا يزينون صبية عذراء ويلقونها في النهر كأضحية ليحصلوا على غمر وفير. على أي حال كان المقصود من هذا هو تزويج النهر ـ كقوة ذكرية — من عروسة بساتين الحنطة التي يخصبها بمياهه. ويقصدون من هذا الطقس ممارسة السحر ليضمنوا نمو الحنطة. وفي العصر الحالي اعتاد المصريون إلقاء المال في القناة في هذه المناسبة لينعُم بعدها الناس بالماء الوفير. ويبلغنا سينيكا عن هذه الممارسة القديمة أنه في مكان يُدعى شرايين النيل، وهو ليس بعيداً عن فيلاي، حيث اعتاد الكهنة إلقاء المال والذهب في النهر في احتفال يُقام مع ارتفاع منسوبه.

تأتي العملية الكبيرة الثانية من السنة المصرية مع بدار الحبوب في تشرين الثاني عندما يتراجع الغمر عن الحقول. ارتبطت عملية إيداع الحبوب في الأرض — شأنهم شأن الكثير من القدامى — بطقوس مقدسة حزينة. فيما يخص هذا الموضوع سأدع بلوتارك يتكلم عن نفسه:" ماذا عسانا أن نفعل بهذه الأضاحي المسكينة الحزينة، إذا كان من الخطأ أن ننسف طقوساً متجذرة أو نشوش أفكارنا حول آلهتنا بشكوك لا طائل منها؟ يمارس الإغريق الكثير من الطقوس المشابهة لطقوس المصريين في الوقت نفسه. فمثلا تجلس النساء على الأرض في مهرجان ثيسموفوريا في أثينا، ويصمن. ويفتح البوشيان قبور أناس كانوا محببين لهم ويسمون المناسبة عيد الحزانى لأن ديميتر حزين على سقوط السيدة. ويصادف هذا في شهر البذار حوالي استقرار بنات أطلس السبعة **بلياد**. يسمي المصريون هذا الاحتفال **أثير** ويسميه أهل أثينا **بايانبجن**، ويسميه بويتيون **شهر ديميتر**....عندما يرون الثمار تتلاشى وتنفصل عن الأشجار فيضطرون إلى حفر الأرض بأيديهم وبذر البذور ثم تغطيتها بأيديهم ويتركونها عساها تنمو وتبلغ. وبهذا يشبهون من يدفن ميته وينعيه.

يصادف الحصاد المصري في الربيع وليس في الخريف أي في آذار ونيسان وأيار. ويشكل هذا الفصل موسم فرح بالنسبة للفلاح المصري خصوصاً في السنوات الخيرة. وعندما يأخذ محصوله إلى بيته يتخلص من التعب والقلق الطويلين. ورغم أنه يشعر بفرح ضمني عندما يجمع ويخزن الحبوب، عليه أن يخفي هذا الشعور الطبيعي وراء اغتمام عميق لأنه يؤذي إله الحنطة بمنجله وتحت حوافر ماشيته على أرض البيدر. لهذا اعتاد المصريون القدامى لطم صدورهم والندب باسم أيسيس على أول

غُمر يقطعونه. ويأخذ هذا التوسل شكل أنشودة حزينة يسميها الإغريق مانيروس. كذلك كان ينشد الحصادون الفينيقيون وآخرون في آسيا الغربية الأناشيد المحزنة نفسها. ربما كانت هذه الأغاني القصيرة الحزينة مُعَدَّة لندب إله الحنطة المقتول على نصول المناجل. في مصر كان الإله المقتول هو أوسيريس، ويأخذ اسم مانيروس ليتناسب مع اللحن الجنائزي وهو مشتق من كلمات تعني (تعال إلى بيتك) وهي كلمات تُقال عند التنويح على الإله الميت.

ويمكن ملاحظة نوع الطقوس نفسه وللهدف ذاته عند شعوب أخرى. لذلك تأخذ الحنطة – والمقصود بها الذرة ـ المرتبة الأولى بين النباتات كعنصر أساسي في الاقتصاد المنزلي ولإقامة الطقوس عند هنود شيروكي تضرعاً لما يسمونه المرأة العجوز إشارةً إلى الأسطورة التي تحكي قصة دماء عجوز قُتلَت على يد أبنائها العاقين. وبعد انتهاء آخر نشاط في الحصاد يذهب الكاهن مع معاونه إلى الحقل ويغني توسلاً لروح الحنطة فتُسمع بعدها خشخشة يُعتقد أنها صادرة عن العجوز وهي تجلب الحنطة إلى الحقل. وكانوا دائماً يبقون ممراً نظيفاً من الحقل إلى المنزل لتشجيع الحنطة على البقاء في المنزل بدلاً من الشرود إلى مكان آخر. وكان هناك طقس طريف أصبح منسياً الآن، ويقام بعد العمل في الحنطة وهو أن يقف صاحب الحقل مع الكاهن في زوايا الحقل الواحدة تلو الأخرى ويبكون وينحبون بصوت عالٍ. لم يستطع الكهنة الآن أن يقدموا مبرراً لهذا التصرف الذي ربما كان تنويحاً على الموت الدموي لـ سيلو، وهي عجوز الحنطة. في تلك الممارسات لدى قوم شيروكي يشبه التضرعُ لعجوز الحنطة والتوسل إليها العادةَ المصرية القديمة للنواح على أول حنطة تُقطع والتي تُسمى أيسيس وربما كانت هي نفسها أحد أشكال عجوز الحنطة. كما يحرص الشيروكي على ترك ممر واضح بين الحقل والمنزل ويشبه تصرفهم هذا دعوة المصريين لأوسيريس عندما يقولون:" تعال إلى المنزل". وفي إنديز الشرقية يمارس الناس حتى يومنا هذا طقوساً يهدفون منها إرجاع روح الأرز من الحقول إلى المخزن. ويقيم قوم النااندي في أفريقيا طقساً في أيلول مع نضوج حبوب الإليوسي، وتقوم فيه كل امرأة تملك مزرعة بالخروج مع بناتها إلى حقول الحنطة ليضرمن ناراً من أغصان وأوراق شجرة معينة. ثم يقطفن بعض الإليوسين وتضع كل منهن حبة في قلادة على رقبتها، وتمضغ حبةً أخرى ثم تفرك بها جبينها

وحنجرتها وصدرها. ثم يقطفن ملء سلة من الحنطة ويأخذنها إلى البيت ويضعنها في عِلِّيَّةٍ كي تجف. والجدير بالذكر أنهن لايبدين أي فرح عند القيام بهذا الطقس.

تتجسد فكرة روح الحنطة الشائخة والميتة في العادة التي يتبعها عرب مؤاب. عندما يقترب الحصادون من نهاية مهام الحصاد، أي عندما لا يبق سوى زاوية صغيرة من الحنطة التي لم تُقطع بعد، يأخذ مالك الحقل حزمة لا تتجاوز قبضة اليد من سنابل القمح. ثم يحفر حفرة على شكل قبر وينصب على طرفيها حجرين على شكل شاهدتي قبر عادي. بعدها توضع حزمة السنابل في القبر ويلقي الشيخ عليها الكلمات التالية: "لقد مات العجوز." ثم يردُّون عليها التراب قائلين: "اللهم عوِّضنا عن القمح الميت."

2ـ الطقوس الرسمية

إذن هكذا كانت الأحداث الرئيسة حسب تقويم المزارعين في مصر القديمة، وهكذا كانت الشعائر الدينية البسيطة التي أحيوها. والآن سنبحث في الاحتفالات الأوسيرية الرسمية كما وصفها الكتَّاب الإغريق أو كما وردت مكتوبة على الآثار التاريخية. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا عندما نبحث في هذه الآثار أن الاحتفالات الرسمية كانت تتنقل مع اختلاف التقويم المصري إلى أن ثبتت الأعياد عند تبني التقويم الإسكندري عام 30 ق.م. وفي أواخر القرن الأول الميلادي ذكر بلوتارك تواريخ احتفالات محددة دون الإشارة إلى أنه يستخدم التقويم الإسكندري. كما يعتمد جدول إسني التاريخي – وهي وثيقة مهمة عن العصر الأمبراطوري - على السنة الإسكندرية الثابتة وفيه تَحدّد عيد رأس السنة الإسكندري في التاسع والعشرين من آب، كما يبين الجدول مواقع الشمس والأنشطة الزراعية بشكل ثابت ثبوت الاحتفالات المصرية حسب السنة الشمسية الثابتة.

وأخبرنا هورودوتس عن وجود ضريح أوسيريس في سايس في مصر الدنيا، وأن هناك بحيرة يُعرض فيها معاناة الإله الغامضة في دجى الليل. وكانت تُقام ذكرى معاناة الإله مرة كل سنة ينوح الناس فيها ويلطمون على صدورهم لإبراز حزنهم على فقدان الإله، ويحملون في هذه المناسبة صورة بقرة مصنوعة من الخشب المذهَّب وبين

قرونها الشمس الذهبية، إلى قاعة تبقى فيها طوال السنة. لا شك في أن البقرة ترمز إلى أيسيس التي كانت تُرسَم وقرنَي البقرة على رأسها، أو تُصوَّر على شكل امرأة برأس بقرة. وربما يرمز نقل الصورة إلى بحث الإلهة عن جثة أوسيريس الميت؛ لأن هذا يتساوق مع تفسير المصريين لطقس مماثل كان يُقام في أيام بلوتارك حوالي الانقلاب الشتوي عندما كانت تُحمَل البقرة الذهبية ويُطاف بها سبع مرات حول المعبد. ومن أعظم شعائر هذا الاحتفال هي الإنارة ليلاً إذ كان الناس يعلِّقون أنساق القناديل الزيتية على جدران بيوتهم الخارجية ويشعلونها طوال الليلِ. لم تقتصر هذه العادة على سايس فقط بل كانت منتشرة في جميع أنحاء مصر.

توحي إنارة جميع المنازل ليلاً بأن الاحتفال لم يكن إحياءً لذكرى موت أوسيريس فقط بل لذكرى الموتى بشكل عام، أي أنها كانت ليلة جميع الأرواح، إذ ساد اعتقاد يقول إن أرواح الموتى تزور بيوتها القديمة في ليلة واحدة كل سنة، وكان الناس يحضِّرون أنفسهم لاستقبال الأشباح بوضع الطعام لهم وإنارة القناديل ليرشدوهم من وإلى قبورهم. وأتى بلوتارك على وصف وجيز لهذا الاحتفال لكنه لم يذكر تاريخها، ويمكننا التعرف عليه من مصادر أخرى. يخبرنا بلوتارك أن مقتل أوسيريس كان في السابع والعشرين من شهر أثاير وهو اليوم الذي يبدأ المصريون إقامة طقوس حزينة تدوم أربعة أيام. وحسب التقويم الإسكندري الذي استخدمه بلوتارك تصادف هذه الأيام 13ـ14ـ15ـ16 من تشرين الثاني ويتوافق هذا التاريخ تماماً مع ما ذكره بلوتارك عن تصادف الاحتفال مع هبوط النيل، وتلاشي الرياح الشمالية، وازدياد طول الليل وهبوط أوراق الأشجار. يصف هيرودوتس الاحتفال على الشكل التالي. في هذه الأيام الأربعة كانوا يضعون بقرة مذهَّبة ويعصبونها في نعش أسود ويعرضونها على أنها صورة أيسيس. وفي اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه ينزل الناس إلى البحر، ويحمل الكهنة ضريحاً يحتوي صندوقاً ذهبياً. ويصبون فيه مياهاً عذبةً ويصرخ الحضور معلنين العثور على أيسيس. وبعدها يأخذون خضاراً قديمة ويرشونها بالماء ويخلطونها بالتوابل والعطور النفيسة ويصنعون من العجينة الناتجة شكل قمر صغير يُلبَس ويُزيَّن. ويقول بلوتارك أن الهدف من هذا الطقس هو تمثيل البحث عن جثة أوسيريس ثم العثور البهيج عليها وانبعاث إله الموتى ليحيا ثانيةً على شكل قالب من الخضار والتوابل. ويخبرنا لاكتانتيوس كيف يضرب الكهنةُ

حليقو الجسم صدورهم وينوحون مقلدين البحث المأساوي الذي تقوم به أيسيس عن ابنها المفقود أوسيريس، ثم يتحول حزنهم إلى فرح عندما يمثل ممثل إيمائي إنجاب الإله أنوبيس، الذي يُصوَّر برأس جقل، ولداً صغيراً كرمزٍ للإله الذي ضاع ثم تم العثور عليه. واعتبر لاكتانتيوس أوسيريس ابنَ أيسيس وليس زوجها، ولم يأت على ذكر قالب العجينة الخضارية. من المحتمل أن يكون الفتى قد لعب دور ابنهِ هوراس وليس دور أوسيريس في هذه الدراما المقدسة؛ لكن بما أن الاحتفال بموت الإله وبعثه أُقيم في جميع المدن المصرية، فمن الممكن أيضاً أن يلعب ممثلٌ حيٌّ دورَ الإله العائد إلى الحياة بدلاً من المجسم أو الصورة. ويصف كاتب مسيحي كيف ينوح المصريون ذوو الرؤوس الحليقة على قبر الوثن أوسيريس، ويضربون صدورهم ويجلدون أكتافهم ويفتحون جروحهم القديمة أياماً عديدة يعلنون بعدها أنهم عثروا على بقايا الإله التي يفرحون بها كثيراً، ويصف الكثير من الكتاب القدامى صيحات الفرح التي يطلقونها تحية للجثة. ويمكن أن تختلف الطقوس من مكان لآخر لكن يبقى تمثيل العثور على الجثة وعودتها إلى الحياة حدثاً عظيماً في الاحتفالات السنوية لدى المصريين.

لقد جاء وصف طقوس جنازة أوسيريس في احتفال كبير أُقيم في المقاطعات الستة عشر المصرية، ونُقش هذا الوصف في العصر البطلمي على جدران معبد ذلك الإله في دنديرا، ووردت تحت اسم تنتيرا في اليونانية، وهي مدينة في مصر العليا على بعد أربعين كيلومتراً شمال طيبة على الضفة الغربية للنيل. ومع أن تفاصيل الوصف كانت دقيقة لكنها لسوء الحظ اعتمدت ترتيباً مشوَّشاً وتعابير غامضة إلى درجة أنه يصعب علينا استخلاص تقرير متماسك عن تلك الطقوس. لكن ماعرفناه من هذه الوثيقة أن الطقوس اختلفت في بعض المدن، على سبيل المثال، شعيرة أبيدوس اختلفت عن شعيرة بوسيريس. سنضع جانباً الخصوصيات المحلية ونشير باختصار إلى مزايا الاحتفال العامة والمؤكدة.

كانت الطقوس تدوم ثمانية عشر يوماً من الثاني عشر وحتى الثلاثين من شهر خوياك. وتُعرَض في هذه الطقوس طبيعة أوسيريس بجوانبه الثلاثة: كميت ويسمى **خنتي أمنتي**، ومقطّع الأعضاء ويسمى **أوسيريس سيب**، وأخيراً متحد الأعضاء ويسمى **سيكير**. وكانوا يعدُّون مجسمات صغيرة للإله مصنوعة من الرمل والخضار

والتراب والحنطة وأحياناً يضيفون إليها العطور، ويلونون وجهه بالأصفر ووجنتيه بالأخضر، ثم تُدهَن هذه المجسمات بالذهب الخالص لتمثل الإله على شكل مومياء يرتدي تاج مصر الأبيض. يبدأ الاحتفال في الثاني عشر من خوياك بالفعالية الأولى وهي الحراثة والبذار. يربطون فيها بقرتين سوداوين إلى المحراث المصنوع من خشب شجر الطرفاء وشفرتين من النحاس الأسود. ينثر صبي بذور الشعير في طرف الحقل والعلس في الطرف الآخر والكتان في الوسط. يقوم نجم الاحتفال الأول بإلقاء نص الشعيرة بعنوان "بذار الحقول". وفي بوسيريس في العشرين من خوياك يوضع الرمل والشعير في حديقة الإله وهو وعاء ورود ضخم. ويتم هذا بحضور مجسم البقرة، شنتي، وهي بقرة مذهبة مصنوعة من خشب القيقب وبداخلها مجسم آدمي مقطوع الرأس. ثم تُغرق الإلهة والحديقة بماء عذب يُسكب من إبريق ذهبي حتى ينمو الشعير رمزاً لبعث الإله بعد دفنه في الأرض، لأن نمو الحديقة من نمو المادة الإلهية. وفي الثاني والعشرين من خوياك وفي الساعة الثامنة يقوم مجسم أوسيريس، محاطاً برعاية أربعة وثلاثين مجسماً للآلهة، برحلة مائية على أربع وثلاثين قارباً من البردي مُضاءة بثلاثمائة وخمسة وستين ضوءاً. وفي الرابع والعشرين من خوياك بعد غروب الشمس يوضع مجسم أوسيريس في كفن من خشب التوت ثم في الضريح. وفي الساعة التاسعة ليلاً يؤخذ مجسم السنة الماضية ويوضع على أغصان القيقب. وأخيراً في الثلاثين من خوياك يذهبون إلى القبر المقدس في حجرة تحت الأرض نما فوقها عدد من أشجار البيرسيا. يدخلون السرداب من الجهة الغربية، يضعون المجسم المكفَّن للإله الميت بإجلال كبير على سرير من الرمل في الحجرة ويتركونه لراحته ثم يغادرون القبر من الباب الشرقي. وبهذا تنتهي طقوس شهر خوياك.

يظهر دفن أوسيريس بوضوح في الوصف المرسوم على نقوش دانديرا العظيمة، بينما يبقى بعثه ضمني. لكن الألواح المرفقة بهذا النقش تبين في سلسلة من المشاهد الإله الميت ملفوفاً في مومياءه في القبر وتبين كيف ينهض تدريجياً حتى يغادر القبر ويظهر بين جناحي أيسيس الحامية والمخلصة وهي تقف خلفه بينما ينتصب أمام عينيه شخص يمسك بين عينيه **كروس أنستا** وهو رمز الحياة عند المصريين. بهذا يظهر بعث الإله بشكل مرسوم واضح، ويأتي تمثيله بشكل أوضح عندما تُخصص لأوسيريس غرفة في معبد أيسيس الكبير في فيلاي حيث نرى جثة أوسيريس تنبت

منها سنابل الحنطة بينما يسقيها أحد الكهنة من إبريق يمسكه بيده. وتبينه الألواح المرفقة بالنقش على أنه أوسيريس ذي القوى الخفية الذي ينبثق من المياه العائدة. وعندما نقرن الكلمات المنقوشة مع المشاهد المرفقة لا يبقى لدينا أي شك في أن أوسيريس تجسيد وتمثيل للحنطة النابتة في الحقول بعد تخصيبها بالغمر. كما يبين النقش أن هويته هذه هي جوهر القوى الغامضة والسر الخفي الذي لايراه إلا الخبير المطلع. لهذا نرى في طقوس ديميتر في إليوسيس وضع سنبلة قمح ناضجة أمام العابدين على أنها جوهر القوة الغامضة في دينهم. وهنا ندرك تماماً سبب دفن الكهنة لمجسمات أوسيس المصنوعة من التراب والحنطة في عيد البدار في شهر خوياك. وعند نبش هذه المجسمات بعد فترة معينة أو في نهاية السنة يجدون الحنطة وقد شطأت من جسم أوسيريس ويعتبرون هذا سبباً لنمو المحصول أو تبشيراً به. إذن فإله الحنطة يعطي الحنطة من جسده كي يطعم الناس: أي أنه يموت كي يحيوا.

وهكذا استمد المصريون من موت وبعث آلهتهم قوة لم تمكنهم من العيش فحسب بل بعثت فيهم الأمل في حياة أبدية بعد الموت. وما يدل على هذا الأمل هو مجسمات أوسيريس التي اكتُشفت في المقابر المصرية. ففي طيبة في وادي الملوك عثروا على قبر لحامل مذراة ملكي عاش في العام 1500 ق.م. ومن بين الموجودات الثمينة في القبر كان نعش مفروش فيه بساط من القصب مُغطىً بثلاث طبقات من الكتان، رُسِم على الغطاء العلوي منها صورةً لأوسيريس بالحجم الطبيعي وتحته طبقة عازلة للماء مصنوعة من الخضار والشعير وسائل لزج. نبت فيها الشعير بسنابل وصل طولها حوالى تسعين سنتيمتراً. وكذلك في مقبرة في سينوبوليس عُثر على العديد من المدفونات لمجسم أوسيريس. كلها كانت مصنوعة من حبوب مغلفة بقماش على شكل تقريبي لأوسيريس وموضوعة داخل مختلىً من الآجر في طرف المقبرة. وكثيراً ما عُثر فيها على توابيت فخارية وأخرى خشبية على شكل صقر محنط وأخرى بلا توابيت على الإطلاق. كانت تلك المجسمات المحشوة بالحبوب ملفوفة وكأنها مومياء عليها بقع من الذهب هنا وهناك، تقليداً للقوالب الذهبية لمجسمات أوسيريس التي تُعرَض في عيد البدار. وكذلك هناك مجسمات لأوسيريس بوجوه من الشمع الأخضر ومحشوة بالحبوب، عُثر عليها مدفونةً قرب مدينة الموتى في طيبة. ويروي لنا البروفسور إرمان أنه يوجد بين أرجل المومياءات مجسمات طينية

لأوسيريس مملوءة بحبوب الحنطة التي تمثل بإنباتها بعث الإله. ولا نشك في أنه كما يُقصد من دفن مجسم أوسيريس المحشو بالحنطة في عيد البدار يُقصد منه تسريع البذور كذلك كان المقصود من المجسمات المماثلة في القبر تنشيط الموتى أي تأمين الخلود الروحي.

الفصل الأربعون
طبيعة أوسيريس

1ـ أوسيريس إله الحنطة

قد يكفي البحث الحالي في أسطورة وطقوس أوسيريس لتوضيح مظاهر هذا الإله كمجسِّد للحنطة والذي يموت كل سنة ويعود للحياة ثانيةً. ثم يأتي الجلال والبهاء الذي رافق عبادته ليوضح ماهيته كإله للحنطة في احتفال الموت والبعث المُقام في شهر خوياك، ولاحقاً في شهر أثاير. يبدو الإحتفال وكأنه خُصِّص للبذار بشكل رئيسي والذي يصادف في فترة معينة عند إيداع المزارعين للبذور في التربة. في تلك المناسبة كان يُدفَن في التراب مجسم إله الحنطة المصنوع في قالب من الحنطة الممزوجة بالتراب، بعد إقامة جنازة، لأنه بهذه الطريقة سيعود للحياة ثانيةً في المحصول القادم. لم تكن تلك الطقوس سوى سحر لأجل إنماء الحنطة عبر السحر التعاطفي ويمكننا أن نتوقع أن سحراً كهذا قد مورِس بشكل أبسط من قبل كل فلاح مصري في حقله قبل انتقاله إلى الكهنة ليقيموه في طقس مهيب في المعبد. في العادة العربية المعاصرة، ولاشك القديمة أيضاً، يقومون بدفن **الرجل المسن** وهو عبارة عن حزمة من سنابل الحنطة، في احتفال الحقل، والصلاة عليه كي ينهض من الموت. لابد أن هذه العادة تعود إلى جذورها وهي عبادة أوسيريس إله الحنطة.

تدل تفاصيل أسطورته بوضوح على هذا الفهم للإله. فهو نتاج تواصل السماء مع الأرض. أوليست السماء والأرض هما أفضل أبوين للحنطة التي تنبثق من التربة بعد تخصيبها بمياه السماء؟ من المؤكد أيضاً أن أرض مصر تدين بخصبها مباشرة للنيل وليس للأمطار لكن سكان مصر يعرفون تماماً أو أنهم توقعوا أن هذا النهر العظيم نتيجة أمطار سقطت في مكان بعيد داخل البلاد. وتخبرنا أسطورته أن أوسيريس هو أول من علَّم الإنسان استخدام الحنطة، ومن الطبيعي أن يأتي هذا الكلام على

لسان إله الحنطة نفسه. ونذهب أبعد من ذلك لنقول أن بقاياه المشوهة والمبعثرة في أمكنة مختلفة ربما كانت طريقة أسطورية للتعبير عن بذار الحبوب وتذريها.

وما يؤكد التفسير الأخير هو الرواية التي تقول أن أيسيس وضعت أعضاء أوسيريس المقطّعة في غربال حنطة. أوربما كانت الأسطورة هي بقايا عادة ذبح أضحية بشرية لتمثيل روح الحنطة وتوزيع أجزائها أو بعثرة رمادها في الحقول بغية تخصيبها. في أوروبا المعاصرة يقومون أحياناً بتمزيق مجسم الموت ويدفنون أجزاءه في الأرض ليجعلوا الحنطة تنمو بشكل جيد، كما تُعامل الأضاحي البشرية في أنحاء أخرى من العالم بالطريقة ذاتها. ويروي تاريخ ملوك الفراعنة أنهم كانوا يحرقون رجلاً ذا شعر أحمر ويبعثرون رماده بالمذراة. ولهذا دلالة كبيرة على أن الملوك هم الذين كانوا يضحُّون بهذه الأضحية البربرية على قبر أوسيريس. ويمكننا أن نتوقع أن الأضحية تمثل أوسيريس نفسه الذي يُذبَح سنوياً وتُقطّع أوصاله ثم يُدفَن في شخوصهم كي يسرِّع إنبات البذور في الأرض.

ربما كان الملوك أنفسهم في فترة ما قبل التاريخ يلعبون دور الإله وكانوا يُذبحون ويُقطّعون في شخصيتهم تلك. وقيل أن أوسيريس قد قُطّع أرباً بعد أن حكم ثمانية عشر يوماً وكانت ذكراه السنوية تُقام على مدى ثمانية عشر يوماً. وتقول إحدى الروايات أن رومولوس وهو ملك روما الأول قد قُطّع أرباً على يد الشيوخ ودُفِنت أجزاؤه في الأرض، وكان يُقام احتفال تقليدي بمناسبة موته ضمن طقوس غريبة ارتبطت بإخصاب التين اصطناعياً. وكذلك تحكي الأسطورة الإغريقية كيف عارض بينثيوس ملك طيبة ولاكوراغوس ملك ثراثيان إيثوريان، عارضا دايونيسوس إله العنب وكيف مُزِّقَ الملكان الفاسقان إلى قطع، أحدهما على يد باكانالز الساخط والآخر تحت حوافر الخيل. وربما كانت العادة الإغريقية بقايا مشوهة عن عادة ذبح الكائنات البشرية خصوصاً الملوك الإلهيين في شخصية دايونيسوس وهو الإله الذي يشبه أوسيريس في أوجه عديدة، إذ قيل أنه قُطّع عضواً عضواً. كما بلغنا أنه في تشايوس كانت الرجال تُقطع أرباً كأضحية لدايونيسوس، وبما أنهم ماتوا بالطريقة نفسها التي مات فيها الإله من المنطقي أن نفترض أنهم يشخصونه. ويبدو أن القصة التي تروي أن ثريسيان أورفيوس قد مات بالطريقة نفسها على يد باكانالز تدل على أنه ذاب في شخص الإله الذي مات على

طريقته. وكذلك مات ثراسيان ليكورغوس ملك إثيوبيا ليخصب الأرض التي أجدبت.

وقرأنا عن ملك نرويجي اسمه هالفدان الأسود الذي قطعوا جسده ودفنوه في أمكنة متعددة من مملكته لرفع إثمارية الأرض. ويقال أنه أُغرِق في عمر الأربعين عن طريق كسر الجليد في الربيع. كما يتابع رواية موته المؤرخ النرويجي سنور ستورلوسن: " كان أكثر الملوك رخاءً، أي أنه مبارك بالوُفورِ. وقد أجلَّه الناس كثيراً إلى درجة أنهم عندما سمعوا بموته نقلوه إلى هارنغاريكي ليدفنوه هناك، وأتى كبار القوم من روماريكي ووستفولد وهيثمورك وطالبوا بدفنه في مناطقهم المتعددة معتقدين أنه يجلب الوفور لمن يحصل عليه. وطبعاً سُوِّي الخلاف بأن يُوزَّع جسده على المناطق الأربعة. فكان الرأس من حصة الرابية في ستاين في هارنغاريكي، وأخذ كلٌّ من الأطراف الباقية حصته ودفنه في منطقته. والآن تسمى كل من هذه الروابي برابية هالفدان."ولايغيب عن أذهاننا أن هالفدان هذا ينتمي إلى عائلة ينغلنغ الذين يعود أصلهم إلى فري، إله الخصب الإسكندنافي العظيم.

ويحكي أصلاء كيوي وهي جزيرة تقع على مقربة من مصب نهر فلاي في غينيا البريطانية الجديدة، يحكون عن ساحر اسمه سيجيرا، زرع نخيل الساغو على طوطمه. وعندما شاخ ومرض أبلغ الناس أنه موشك على الموت لكنه سيعمل على إحياء بساتينهم لهذا أمرهم أن يقطِّعوا جثته بعد موته ويضع كل منهم قطعة من لحمه في بستانه وأن يُدفن رأسه في حديقته الخاصة. ويُقال إنه عمَّر كثيراً إلى درجة أن أحداً لا يعرف أباه وأجاد زراعة الساغو، الأمرالذي كفى الناس الجوع. وأكد المسنون منذ عدة سنوات أنهم عرفوا سيجيرا في شبابهم وقال معظم الناس أن سيجيرا لم يمت إلا منذ عدة أجيال مضت. كل هذه الأساطير تدل على انتشار ممارسة تقطيع جثة الملك أو الساحر ودفن أجزائه في أنحاء متعددة من البلاد كي يضمنوا خصوبة الأرض وربما قدرة الرجال والوحوش التخصيبية.

لنعد الآن إلى الأضاحي البشرية التي كان ينثر المصريون رمادها ونرى دلالة الضحايا سيئي الحظ ذوي الشعر الأحمر. ففي مصر وجب أن تكون الثيران المُضحَّى بها حمراء، وأي شعرة سوداء أو بيضاء تجعل الأضحية غير صالحة. فإذا كان المقصود من نثر رماد الأضاحي البشرية تحسين نمو الحنطة، فربما اختيرت

الأضاحي ذوات الشعر الأحمر كي تشخِّص روح الحبوب المتورِّدة. فعندما يُمَثَّل الإله بشخص حي، من الطبيعي أن يتم اختيار ممثله شبيهاً بالأصل الإلهي. من هنا أدرك المكسيكيون القدامى أن الذرة كائن شخصي يمر بكل مراحل الحياة منذ حالته كبذرة وحتى يشطأ، وتأتي التضحية بالصغار عندما تُبذَر البذور، ثم بأطفال أكبر بعد إنباتها وهكذا حتى تصبح ناضجة تماماً عندما يُقدَّم رجل مسن كأضحية. من أحد أسماء أوسيريس هو **المحصول** أو **الحصاد**؛ ويصفه القدامى أنه تشخيص للحنطة.

2ـ أوسيريس روح الشجرة

قبل أن يكون أوسيريس روح الحنطة كان روح الشجرة وربما كانت تلك شخصيته البدائية لأن عبادة الشجرة أقدم في تاريخ الدين من عبادة الحبوب. يصف لنا فيرميكوس ماتيرنوس الطقس الذي يصور شخصية أوسيريس كروح للشجرة: بعد قطع شجرة الصنوبر كانوا يجوِّفونها ويصنعون من الخشب الخارج منها مجسماً لأوسيريس يُدفَن وكأنه جثة في تجويف الشجرة. من الصعب تخيل طريقة أصرح من هذه للتعبير عن إسكان كائن شخصي في رحم الشجرة. يبقى مجسم أوسيريس هكذا مدة سنة ثم يُحرَق تماماً كما يحصل لمجسم آتيس المرتبط بشجرة الصنوبر. ويصف فيرميكوس ماتيرنوس طقوس قطع الشجرة التي ألمح إليها بلوتارك. وربما كانت شعيرة رافقت اكتشاف جثة أوسيريس الأسطورية عندما كانت حبيسة في جنيبة الخلنج. وفي جناح أوسيريس في تنديرا هناك نعشٌ يحتوي على مومياء للإله برأس صقر وهو ضمن شجرة صنوبرية، لأننا نرى الجذع والأغصان فوق وتحت النعش. وهذا مايؤكد وصف فيرميكوس ماتيرنوس لتلك الأسطورة وطقوسها.

ومايؤكد أن أوسيريس كان روح الشجرة هو منع عابديه جرح الأشجار المثمرة، وكونه إله الخضرة يـُمنع عابدوه من سد الآبار لأنها مهمة جداً للري في الأراضي الجنوبية. وتقول إحدى الأساطير أنه علَّم الناس كيف يوجهون العرائش لتنمو مع الأعمدة وكيف يقلمونها بقطع أغصانها الزائدة وكيف يستخرجون عصير العنب. وقد صُوِّرَ أوسيريس على أوراق البردي في بيبسيني علم 1550 ق.م وهو جالس

على عرشه الذي تتدلى من سقفه عناقيد العنب. ونراه على بردي نيخت الملكية معتلياً عرشه أمام بركة ماء نبتت على جوانبها عرائش باسقة تتدلى منها عناقيد كثيرة من العنب تتجه نحو وجه الإله الأخضر.

3ـ أوسيريس إله الخصب

كإله للخضرة، من الطبيعي أن يروا في أوسيريس قدرة عامة على الخَلق لأن الإنسان في مرحلة معينة من تطوره لم يميز بين القوة التكاثرية عند الحيوان ومثيلتها عند النبات. من هنا تأتي عبادته غير المصقولة لترمز إلى مظاهر الطبيعة كما يراها بعين الدهماء لا بعين الخبير. تذهب النسوة في عيده من قرية إلى أخرى يغنين أغاني يمدحنه فيها ويحملن صوراً فاحشة يحرِّكنها بخيوط. ربما كانت هذه العادة سحراً يجلب نمو المحاصيل. وهناك صورة له وهو مزين بكافة أنواع الثمار الموضوعة أمامه في معبد أيسيس، وفي غرف مخصصة له في فيلاي، يُصوَّر فيها الإله الميت وهو مستلقٍ في قبره بطريقة تدل صراحةً أن قدرته التكاثرية تُعلَّق مؤقتاً في حالة موته، ولديه القدرة الكاملة ليكون مصدر الحياة والخصب للعالم كله عندما تسنح له الفرصة. كما تلمِّح الترانيم الموجهة لأوسيريس هذا الجانب الهام من طبيعته. ففي إحداها يُقال أن العالم يتكلل بالنصر الأخضر عبره؛ ويقول ترنيم آخر: " أنت أبو البشر وأمهم، يستنشقون من نَفَسِك، ويقتاتون على لحمك." ونتوقع أنه في هذا الجانب الأبوي من شخصيته، شأنه شأن آلهة الخصب الأخرى، يمنح الرجال والنساء بركة الذرية والمقصود بالمواكب في احتفاله هو تنشيط هذا الجانب وتسريع نمو البذور في الأرض. من الظلم أن نحكم على الأديان القديمة أنها متهتكة في شعاراتها وطقوسها كالتي أقامها المصريون بهدف تفعيل القدرة التكاثرية عند الآلهة. فالهدف الذي يصبون إليه هو طبيعي بل جدير بالثناء، والخطأ ليس فيهم لكن بالطريقة التي نحكم عليهم بها. وخطأ كهذا جر الإغريق إلى اعتماد رمزية مشابهة في احتفالاتهم الدينوسية. وربما قادت هذه التشابهات السطحية بين الدينين قادت الباحثين القدامى قبل المعاصرين إلى تحديد هوية العبادتين المتقاربتين في طبيعتهما والمستقلتين تماماً في أصلهما.

4ـ أوسيريس إله الموتى

رأينا كيف كان أوسيريس في أحد جوانبه حاكم الموتى وقاضيهم. فبالنسبة للمصريين الذين لم يؤمنوا بحياة بعد الموت فحسب بل قضوا الكثير من وقتهم وبذلوا الكثير من جهدهم وأنفقوا الكثير من مالهم للتحضير لتلك الحياة. وبالتالي لم يَقِلّ عمل ذلك الإله بعد الموت أهمية عن عمله في جلب الثمار في الفصل المناسب. ولنا أن نفترض أن عابديه يؤمنون بعلاقة قوية بين مُهِمَّتَيّ الإله. فهم عندما يدفنون ميتهم إنما يتركونه لرعاية أوسيريس، فهو القادر على رفعهم من التراب إلى الحياة الأبدية كما يفعل عندما يجعل البذور تنبت من الأرض. أما مجسمات أوسيريس المحشوة بالحنطة والتي وُجدت في القبور فإنما هي شاهد صريح ودليل قاطع على هذا. فهي ليست إلا رمزاً وأداة لبلوغ البعث. من انبثاق الحبوب، استمد المصريون القدامى نبوءتهم عن الخلود البشري. ولم يكونوا هم الشعب الوحيد الذي بنى آمالاً عالية بناءً على هذا الأساس الهزيل.

الإله الذي يطعم الناس من جثته المتقطعة وهو في الدنيا، والذي وعدهم بأبدية سعيدة في الحياة الآخرة، لابد أن يكون قد ملك قلوبهم. ولاعجب في أن تكون عبادة الآلهة الأخرى قد غُمرت في ظل أوسيريس. فبينما كان كل من تلك الآلهة يحظى بالإجلال في منطقته فقط، كان أوسيريس وشريكته أيسيس يحظيان بهيام الجميع في كل المناطق.

الفصل الواحد والأربعون
أيسيس

يصعب علينا تحديد المعنى الأصلي لكلمة أيسيس أكثر من تحديد معنى اسم أخيها أو زوجها أوسيريس. ولكثرة ألقابها صارت تُدعى في الهيروغليفية (ذات الأسماء المتعددة) (ذات الألف اسم) وفي النقوش الإغريقية أتى اسمها(ذات الأسماء التي لا تحصى). ورغم طبيعتها المعقدة يمكننا أن نتحرى النواة الأولى التي تنامت حولها العناصر الأخرى. فإذا كان زوجها أو ابنها أوسيريس في أحد جوانبه إلهاً للحنطة، فلابد أنها كانت إلهة الحنطة أيضاً. وهناك أرضية معينة يمكننا أن نعتمد عليها في اعتقادنا هذا. على حد قول بديودوراس سيكولوس المؤرخ المصري العظيم، يعود اكتشاف القمح والشعير لأيسيس، وكانت سنابل هذين النوعين من سيريس. وكان المصريون يلطمون على صدورهم بعد أن يقطعوا أولى السنابل ويضعونها أرضاً وينادون باسم أيسيس. وقد شرحنا سابقاً أن هذه العادة هي تنويح على روح الحنطة المذبوحة على نصول المناجل. ومن بين الألقاب المطلقة على أيسيس والمبينة في النقوش: (خالقة الأشياء الخضراء) (إلهة الخضرة التي خضرتها من خضرة الأرض) (ربة الخبز) (ربة البيرة) و (ربة الوفور). ويقول براغشي أنها ليست خالقة الخضرة النضرة التي تغطي الأرض فقط بل هي فعلاً حقول الحنطة الخضراء متجسدة على شكل إلهة. وهذا مايؤكده لقبها سوشت أو سوكيت الذي يعني حقل الحنطة وهي العبارة التي مازال فحواها حتى الآن في اللغة القبطية. أدرك الإغريق أن أيسيس هي إلهة الحنطة لأنهم ماثلوها مع ديميتر. وتصفها القصيدة الإغريقية: " هي التي أولدت ثمار الأرض،" و" أم سنابل الحنطة". وفي ترنيمة أُلِّفت لأجلها تصف نفسها بـ " ملكة حقل القمح" وتوصف على أنها "المسؤولة عن رعاية ثلم القمح المعطاء" ويمثلها الفنانون الإغريق والرومان وهي تحمل بيدها أو تضع على رأسها سنابل الحنطة.

ويمكننا أن نفترض أن أيسيس كانت في قديم الزمان أم الحنطة التي أجلّها المصريون خلال طقوس خرقاء. لكن لايمكننا تتبع أثر تلك الإلهة الجلفة خلال

الشكل الكهني المصقول الذي، وبعد أن أضفت عليه عصور الارتقاء الديني شيئاً من الروحانية، قدَّمته لعابديها في عصور لاحقة على أنها الزوجة الحقيقية والأم الحنون وملكة الطبيعة الخيرة المحاطة بهالة من الطهارة الأخلاقية والقداسة الغامضة المعنة في القِدَم. وبعد أن صارت إلى تلك الصورة الطاهرة سلبت ألباب الكثيرين وتعدت حدود موطنها الأصلي. ومع خليط الأديان المشوش الذي رافق انحدار الحياة الوطنية، أنتشرت عبادتها في روما وسائر أنحاء الأمبراطورية. وحتى أن بعض الأباطرة الرومان أدمنوا عليها صراحةً، لكن دين أيسيس شأنه شأن الأديان الأخرى كان عباءةً يرتديها بعض النساء والرجال لإخفاء حياتهم المنحلة. وتتميز طقوسها بالرصانة والشموخ والقداسة واللياقة بشكل تهدئ العقول المضطربة وتريح القلوب المثقلة. كما أثرت في الأرواح اللطيفة وخصوصاً النساء اللواتي رفضن طقوس بقية الإلهات الشرقية الفاسقة والدموية. ولاعجب أنه في عصر الانحلال والتدهور عندما اهتز الإيمان التقليدي، وعندما تضاربت الأنظمة، وعندما اضطربت عقول الرجال مع تصدع الأمبراطورية التي بدت وكأنها أبدية، ظهرت شخصية أيسيس الصافية بروحانيتها النقية وأبديتها الواعدة، وتراءت لأعين الكثير وكأنها نجم في سماء عاصفة فملأت صدورهم بجَذَل تفانٍ يختلف عن ذلك التفاني الذي كرسوه لمريم العذراء في العصور الوسطى. في طقسها المهيب وكهنتها الحليقين وصلاة الضحى والعشية ووقع الموسيقا والتعميد ورش المياه المقدسة وموكبها الوقور وصور أم الإله المرصعة بالجواهر، في هذا كله تشابه غير عرضي مع طقوس وأبهة الكاثوليكية. لقد أسهمت مصر القديمة برمزية الكنيسة الكاثوليكية البهية كما أسهمت بمجردات اللاهوت الباهتة. في مجال الفن تظهر شخصية أيسيس التي ترضع أبنها هوروس متشابهة تماماً مع مادونا وابنها اللذين هام بهما المسيحيون الجهلة. كما تدين مريم العذراء لأوسيس راعية البحَّارة بلقبها **ستيلا ماريس** أي نجم البحر والتي أجلها البحارة الذين تتقاذفهم العواصف. وربما أضاف بحارة الإسكندرية هذه الصفة على أيسيس. فهي صفة غريبة على شخصيتها الأصلية وعلى عادات المصريين الذين لم يحبوا البحر. بناءً على هذه الفرضية تأتي سيريس نجم أيسيس اللامع الذي يظهر من الأمواج البلورية شرق البحر الأبيض المتوسط، يظهر بشير طقس هادئ للبحارة. إنه ستيلا ماريس الحقيقي. إنه نجم البحر.

الفصل الثاني والأربعون
أوسيريس والشمس

اعتُبر أوسيريس إله الشمس وتبنى هذه الفكرة كتاب بارزون في العصر الحالي، الأمر الذي يجعله جدير بالبحث المختصر. وإذا سألنا عن الأشياء التي تربطه بالشمس أو بإله الشمس، نرى بالتحليل أنها أشياء قليلة من حيث الكمية وليست عديمة الأهمية من حيث النوعية. يقول جابلونسكي، البارع المجتهد وأول باحث معاصر يفند الكتابات الكلاسيكية عن الديانة المصرية، أن أدلة كثيرة تشير إلى أوسيريس هو إله الشمس وبإمكانه الفيض علينا بشهادات وفيرة تثبت ذلك، ولا داعي لذكرها لأنه ما من رجل متعلم يجهل ذلك. من الكتاب القدامى الذين اقتبس تصريحاً واضحاً عنهم بأن أوسيريس هو إله الشمس هما الكاتبان ديودوراس وماكروبيوس. لكننا لايمكننا التعويل كثيراً على هذا لأن عبارة ديودوراس غامضة وبلاغية، ويشير ماكروبيوس، وهو أحد جهابذة الميثولوجيا الشمسية، أن هذه الملاحظة ضعيفة للغاية.

عندما يربط الكتاب المعاصرون أوسيريس بالشمس إنما يعتمدون على أساس علاقة قصة موته بالشمس أكثر من علاقته مع أية ظاهرة طبيعية أخرى. فظهور الشمس واختفاوءه اليومي يدخل بشكل طبيعي في أسطورة موته وبعثه. ويحرص الكتاب الذين يربطون أسطورة أوسيريس بالشمس على الإشارة إلى مسيرة الشمس اليومية وليس السنوية. كما اعترف رينوف الذي ربط أوسيريس بالشمس، بأن الشمس المصرية لا يبدو أنها ماتت في الشتاء على الإطلاق. لكن إذا كان موتها اليومي هو موضوع الأسطورة، لماذا يتم الاحتفال بها بطقوس سنوية؟ إن هذه الحجة داحضة لكون الأسطورة تعتمد على شروق الشمس وغروبها. ويبقى السؤال الآخر: إذا كانت الشمس تموت يومياً، كيف لها أن تتمزق إرباً؟

من الواضح إذن أن هناك ظاهرة طبيعية أخرى تفسر الموت والبعث أكثر من شروق الشمس وغروبها. إنها ظاهرة نمو الخضرة وموتها السنوي. وهناك سبب قوي يجعلنا نرى موت أوسيريس في انحدار الخضرة أكثر من أن نراه في غروب الشمس - وهذا رأي لم يتم الإجماع عليه - إنه صوت القِدَم الذي يضع جنباً إلى جنب عبادة وأساطير أوسيريس وأدونيس وآتيس ودايونيوس وديميتر، كأديان من النوع نفسه. ويبدو أن الإجماع على الرأي القديم هو أكبر من أن يُرفَض على أنه مجرد تصورات. كما تكاد طقوس أوسيريس تتطابق مع طقوس أدونيس في بيبلوس لدرجة أن أهالي بيبلوس اعتبروا أنفسهم ينعون موت أوسيريس وليس أدونيس. وما كان لهم أن يتخذوا هذا الموقف لولا أن طقوس الإلهين تتشابه إلى درجة لم يستطيعوا التمييز بينهما. وهذا هيرودوتوس يجد تشابهاً كبيراً بين طقوس أوسيريس وطقوس أدونيس حتى اعتقد بأنه لايمكن لطقوس الأخير أن تكون قد ظهرت بمعزل عن الأول، ويعتقد أن الإغريق استعاروها من المصريين مع إجراء تعديل طفيف. وهذا بلوتارك، وهو باحث ضالع في الأديان المقارنة، يؤكد على تشابه طقوس أوسيريس ودايونيسوس. ولا يمكننا أن نرفض حجج هؤلاء الشهود الأذكياء الموثوقين في قضايا تقع ضمن مجال اختصاصهم. من الممكن رفض تفسيرهم للعبادة لأن الجماعات الدينية عرضة للشك؛ بينما تبقى التشابهات ضمن مجال الملاحظة المرئية. فأولئك الذين قالوا أن أوسيريس هو إله الشمس إنما انقادوا إلى بديلٍ إما رفض شهادة القدامى لتشابه طقوس أوسيريس وأدونيس وآتيس ودايونيسوس وديميترن، أو اعتبار طقوس كل تلك الطقوس عبادةً للشمس. لم يتحيز أي باحث معاصر لأيٍ من الطرفين. قبول الرأي الأول إنما هو تأكيد على أننا نعرف طقوس هؤلاء الآلهة بشكل أفضل ممن مارسوا تلك الطقوس، أو أننا نحن من شاهد تلك الطقوس. ويعتبر قبولنا للرأي الأخير تحريفاً واختصاراً وتشويهاً وإفساداً للأسطورة والطقوس التي نفر منها ماكروبيوس. ومن الناحية الأخرى، إن الرأي القائل بأن جوهر هذه الطقوس هو محاكاة موت الخضرة ونشوئها يقدم تفسيراً جزئياً وكلياً بطريقة سهلة وطبيعية وهو منسجم مع الشهادة التي حملها إلينا القدامى والتي تبرز التشابه الجوهري.

الفصل الثالث والأربعون
دايونيسوس

رأينا حتى الآن كيف لاحظت الشعوب المتحضرة القديمة تعاقب الفصول كما لاحظت نمو الخضرة وموتها السنوي واعتبرتها فصولاً في حياة الآلهة التي رثوا موتها واحتفلوا ببعثها ضمن طقوس سادها النحيب أو الفرحة. لكن عندما أخذت الطقوس شكلاً درامياً كانت سحرية في جوهرها أي أنها اعتمدت على مبادئ السحر التعاطفي بقصد تأمين تنامي الخضرة والنباتات مثل تكاثر الحيوانات التي ظنوا أنها مهددة بالموت في فصل الشتاء. في العالم القديم، لم تكن مثل هذه الأفكار والطقوس مقتصرة على الشعوب الشرقية في بابل وسوريا أو في فريجيا ومصر؛ ولم تكن نتاجاً خاصاً بالغموض الديني في الشرق الحالم بل امتدت إلى الشعوب التي تمتعت بخيال أخصب ومزاج زئبقي، وهي الشعوب التي سكنت شواطئ الجزر في بحر إيجة. لسنا هنا في حاجة كما فعل بعض الباحثين في العصور القديمة والحديثة إلى أن نفترض أن الشعوب الغربية استعارت من الحضارات الشرقية القديمة فكرة موت الله وبعثه من خلال الطقوس المقدسة التي كانت عرضت تلك الفكرة أمام أنظار العابدين، بل على الأرجح، يعود تفسير التشابه بين أديان الشرق والغرب إلى التصادف العَرَضي، فالظروف المتشابهة تخلق في العقل البشري إنتاجاً متشابهاً في مناطق مختلفة وتحت سماءات مختلفة. فالإغريق لم يكونوا في حاجة للابتعاد كثيراً كي يتعرفوا على تعاقب الفصول أو أن يلاحظوا الجمال العابر لزهرة دمشق، أو فخامة الحنطة الذهبية، أو جمال العنب البنفسجي الزائل. بل لاحظوا سنة بعد سنة وبأسىً عفوي كيف تتلاشى أبهة الصيف تحت كآبة ركود الشتاء، وسنة بعد سنة هللوا بفرحة عفوية لانفجار الحياة في الربيع. واعتادوا أن يشخصوا قوى الطبيعة ليزيِّنوا مجرداتها الجامدة بدفءِ ألوانِ خيالهم

ويلبسوا واقعها العاري بجوخ جميل من خيالهم الأسطوري، ففصّلوا لأنفسهم مجموعة آلهة وإلهات من الأرواح والجان الأقزام استمدوها من بانوراما الفصول، تقودهم في ذلك تبدلات أرزاقهم السنوية بينما تتنابهم عواطف متقلبة بين الرفض والفرح وبين السرور والأسى اللذين وجدوا فيهما تعبيراً طبيعياً عن تقلب الطقوس بين الغبطة والحزن، وبين العريدة والنواح. وعند النظر إلى بعض الآلهة الإغريق الذين ماتوا ونهضوا ثانيةً، نلحظ سلسلة من الصور المرافقة جنباً إلى جنب مع شخصيات أدونيس الحزينة وآتيس وأوسيريس. ولنبدأ بدايونيسوس.

الإله دايونيسوس أو باخوس معروف لدينا على أنه الانجذاب الصوفي نحو العنب والبهجة التي يضفيها عصير العنب. فعبادته الصوفية التي تتميز بالرقص الوحشي، والموسيقى المثيرة والترنح كلها تعود بأصلها إلى قبائل ثريس البدائية المشهورة بإدمانها على السُكر. أما تعاليمها الغامضة وطقوسها المغالية فلا تتفق والذكاء الواضح أو الاعتدال المتزن الموجود لدى العرق الإغريقي. وبما أنها تميل إلى الغموض والنزوع نحو الوحشية التي تبدو مزروعة في معظم الرجال، انتشر دينها في اليونان كالنار في الهشيم حتى أصبح الإله الذي حكى عنه هوميروس هو الشخصية الشعبية في هيكل جميع الآلهة. أما التشابه مع طقوس أوسيريس الذي كان موضوع بحث الباحثين قدامى وحديثين فأثبت أن دايونيسوس هو أوسيريس الذي انتقل متنكراً من مصر إلى اليونان. أما رُجحان البرهان الذي يشير إلى أصله الثريسي، وتشابه عبادتهما فإنما هو مجرد تشابه الأفكار والعادات التي ارتكزت عليها تلك العبادات.

إن علامة دايونيسوس المميزة هي العنب، لكنه إله الأشجار بشكل عام. لهذا قدم الإغريق الأضاحي لدايونيسوس على أنه إله الشجرة. ومن ألقابه في بويوشيا هو **دايونيسوس في الشجرة**. وكانوا يصورونه على شكل عمود قائم دون ذراعين وتكسوه عباءة، وقناع ملتحٍ تمثيلاً للرأس، وأغصان مورقة تخرج من الرأس والجسم لتبين طبيعته. وفي آنية الزهور كان يصور على شكل شجرة قصيرة أو غصن. وفي ماغنيسيا، مايائدر عُثِر على صورة له على جذع مرمي لشجرة قصفتها الرياح. كان دايونيسوس راعي الأشجار المزروعة، فأجَلَّه المزارعون سيما مزارعو الأشجار المثمرة ونصبوا له في بساتينهم مجسماً على شكل أرومة طبيعية وقدموا له الصلوات

تضرعاً ليجعل الأشجار تنمو. ويُقال أنه هو مكتشف جميع الأشجار المثمرة وخصُّوا بالذكر التفاح والتين، وكانوا يشيرون إليه بلقب **المُثْمِر** و **ذو الثمار الخضراء** و **منمي الأشجار**. ومن ألقابه **الولاّد** و **المُفَجِّر** أي مفجر النسغ والبراعم؛ كما كان هناك دايونيسوس المزهر في أيكا وباتراي في أكايا. وقدم له أهالي أثينا لأجل ازدهار ثمار الأرض. ومن بين أشجاره المقدسة شجرة الصنوبر. وأمر الوحي الدلفي أهالي كورينثيا أن يعبدوا شجرة صنوبر معينة على أنها تساوي الإله فاستخلصوا منها مجسمين لدايونيسوس وجعلوا وجهه أحمراً ورصعوا جسمه بالذهب. وفي المجال الفني صنعوا عصاً على رأسها كوز صنوبر يحملها الإله أو عابدوه. كما ارتبطت به شجرة اللبلاب وشجرة التين. ففي ناحية أكارناي في منطقة أتيك كان هناك لبلابة دايونيسوس؛ وفي لاسيدايمون كان هناك تينة دايونيسوس؛ وفي ماكسوس، حيث كانوا يسمون التين ميليتشا، كان هناك ميليتشيا دايونيسوس الذي صنعوا له وجهاً من خشب شجرة التين.

وهناك بعض الدلالات التي تبين أنهم رأوا في دايونيسوس إله الزراعة والحنطة. وقالوا عنه إنه يقوم بالأعمال الزراعية بنفسه وهو أول من استخدم الثور لجر النير الذي كان يُجر سابقاً بالأيدي، ووجد بعض الناس في هذا المعتقد مبرراً لظهوره أمام عابديه على شكل بقرة. ويقال أن دايونيسوس سهَّل العمل على المزارعين عندما قاد المحراث ونثر البذور. كما بلغنا أنه في بلاد البيسالتاي كان عند قبيلةٍ ثراسية مقام مقدس عظيم لدايونيسوس يشعلون فيه ضوءاً وهاجاً في الليل كعلامة على المحصول الوفير الذي يمنحهم إياه ذلك الإله، أما عند إخفاق موسمٍ ما فيبقى المقام مظلماً كئيباً. وهناك رمز آخر لدايونيسوس وهو المذراة أي سلة كبيرة على شكل رفش ومازال يستعملها المزارعون حتى يومنا هذا لفصل العصافة عن الحبوب عن طريق نثرها في الهواء. واستُخدمت هذه الأداة الزراعية البسيطة في طقوس دايونيسوس الغامضة؛ كما ساد اعتقاد أنه وُلِدَ في هذا الغربال وكأنه مهد له. وفي المجال الفني يُمثَّل على شكل طفل في مهده، ومن هنا اكتسب لقب ليكنايتس أي **ذو الغربال**.

شأنه شأن آلهة الخضرة، يبدو أنه مات ميتة عنيفة لكنه عاد إلى الحياة ثانية. وقد مُثِّلَت معاناة موته وبعثه في طقوسه المقدسة. ويروي لنا الشاعر نوناس قصته المأساوية التي مفادها أن زيوس زار بيرسيفون على شكل أفعى وحملت منه

بزاغريوس أي دايونيسوس، وهو طفل ذو قرنين صعد عرش أبيه زيوس بعد ولادته بوقت قصير وراح يقلد الإله الأكبر ويلوح بيديه الصغيرتين اللتين يشع منهما النور. لكنه لم يحتل العرش طويلاً لأن تيتان المخادع هاجمه بعد أن لون وجهه بالحوار الأبيض وانقض عليه بسكين بينما كان الإله الصغير ينظر إلى نفسه في المرآة. حاول ولفترة معينة أن يتهرب من الهجوم خلال تحويل نفسه إلى أشكال عديدة، تارةً على شكل زيوس وأخرى كروناس، وتارة على شكل شاب، أسد، حصان وأخرى أفعى. وكان على شكل ثور عندما قطَّعه أعداؤه إرباً بسكاكينهم الإجرامية. وتقول أسطورته الكريتية كما يرويها فيميكوس ماتيرنوس إنه كان ابناً غير شرعي لجوبيتر، أحد الملوك الكريتيين. وعندما سافر خارج المملكة منح جوبيتر العرش والصولجان لدايونيسوس، وبما أنه يعرف عن غيرة جونو، زَوْجَته الكارهة لذلك الطفل، عهد به إلى حراس يرى فيهم الثقة والإخلاص. لكن جونو رشت الحراس وأغرت الطفل بطنين الزجاج واستدرجته نحو كمين يحيط به أتباعها التيتان الذين انقضُّوا عليه وقطعوا أوصاله وفصلوا أعضاءه ثم سلقوا أجزاءه مع بعض الخضار وأكلوها. لكن أخته مينيرفا التي شاركت في تلك الفعلة احتفظت بقلبه وأعطته لجوبيتر الذي بدوره وبعد أن عرف بالجريمة أعدم التيتان بعد أن أذاقهم شر العذاب. ولكي يخفف من مأساة فقدانه لابنه صنع له مجسماً وضع فيه قلب الطفل وبنى معبداً على شرفه. في هذه الرواية نظرة أوهيمرية للأسطورة وذلك بتمثيل جوبيتر وجونو (زيوس وهيرا) كملك كريت وملكتها. وما الحراس الذين تشير إليهم الرواية إلا أسطوريين يرقصون حول دايونيسوس كما رقصوا حول الطفل زيوس. ويجدر بنا هنا أن نذكر الأسطورة التي كتب عنها نوناس وفيميكوس التي تحكي كيف احتل دايونيسوس في طفولته عرش أبيه زيوس لفترة قصيرة. وكذلك يخبرنا بروكلوس أن دايونيسوس كان آخر ملك إلهي نصَّبه زيوس وذلك بأن وضعه على العرش وحمَّله الصولجان وجعله ملك الآلهة جميعاً. يجسد هذا المعتقد توظيف ابن الملك بما فيه من كبرياء ملكي تمهيداً للتضحية به بدل أبيه. واعتقدوا أن الرمان قد نبت من دم دايونيسوس مثلما نبتت شقائق النعمان من دم أدونيس والبنفسج من دم آتيس؛ وهذا ماجعل النساء يمتنعن عن أكل بذور الرمان في احتفال ثيسموفوريا. ويعتقد بعضهم أن أعضاء دايونيسوس المقطَّعة تجمعت من جديد بأمر

من زيوس على يد أبولو الذي دفنها في بارناسوس. ويظهر ضريح دايونيسوس في معبد دلفيا بجانب تمثال أبولو الذهبي. لكن تقول رواية أخرى إن ضريح دايونيسوس كان في ثيبيس حيث قُطّع إرباً. حتى ذلك الحين لم يُذكر بعث الإله المذبوح، لكن ظهر البعث في روايات مختلفة في طبعات أخرى. في إحدى هذه الطبعات يتمثل فيها دايونيسوس كابن زيوس وديميتر والذي أعادت أمه تركيب قطعه ليعود إلى الشباب ثانيةً. وفي طبعات أخرى يخرج بوقت قصير بعد موته ويصعد الى السماء، أو يرفعه زيوس وعليه جروح دنيوية، أو يبتلع زيوس قلب دايونيسوس وينجبه ثانيةً من سيميلي التي تظهر في الأسطورة على أنها أم دايونيسوس، وهنا يُسحَن القلب ويعطى قسم منه لسيميلي فحبلت به.

لنعد من الأسطورة إلى الشعائر. يقيم الكريتيين احتفالاً كل سنتين يصورون فيه معاناة دايونيسوس بكل التفاصيل. ويمثلون كل ما عاناه في اللحظات الأخيرة أمام أنظار عابديه الذين يمزقون ثوراً بأسنانهم ويجوبون الغابات وهم يطلقون صيحات الذعر والهلع. ويوضع أمامهم صندوق من المفترض أنه يحتوي قلب دايونيسوس المقدس، وعلى وقع موسيقا الشبابة والصنجات يقلّدون استدراج الطفل الإلهي إلى حتفه بجلجلة الزجاج. ويمثلون البعث لأنه جزء من الأسطورة وهذا ما يثبت انغراس معتقد البعث العام أو على الأقل معتقد الخلود في أذهانهم. وهذا بلوتارك يكتب مواسياً زوجته عندما ماتت طفلتهما شارحاً لها عن خلود الروح على الشكل الذي كانوا يعظون به وكما كُشِف عنه في مبادئ داوينيسوس الغامضة. وهناك شكل آخر لأسطورة بعث دايونيسوس وهو أنه نزل إلى هيديز ليرفع أمه سيميلي من عالم الموتى. وهناك اعتقاد إغريقي محلي قديم يقول إنه نزل إلى بحيرة ألسيونا وكانوا يحتفلون بعودته من العالم السفلي أو بالأحرى انبعاثه في المكان نفسه فيخرجونه من الماء على وقع صفير الأبواق ويلقون بحَمَلٍ في البحيرة كأعطية يسترضون بها حارس الموتى. لا ندري إن كان هذا الاحتفال قد أُقيم في الربيع لكن قوم الليديان بكل تأكيد احتفلوا بدايونيسوس مع حلول الربيع فمن المفترض أنه مع مجيء الإله يأتي الربيع. ومن الطبيعي أن تقضي آلهة الخضرة جزءاً من السنة تحت الأرض، ومن الطبيعي أن يعتبروهم آلهة العالم السفلي أو عالم الموتى. بهذه الطريقة فهموا دايونيسوس كما فهموا أوسيريس.

هناك ما يبدو في الوهلة الأولى غير منسجم مع طبيعة دايونيسوس كإله للخضرة، وهو تصويره على شكل حيوان أو على الأقل بقرني ثور، وتسميته بـ **وليد بقرة** و **ثوريّ الشكل** و **ذو وجه الثور** و **ذو جبين الثور** و **ذو قرون الثور** و **حامل القرنين** و **ذو القرنين**. هذا لأنهم يعتقدون أنه يظهر على شكل ثور، على الأقل أحياناً. وقد عُثر على أشكال مقرَّنة له في الآثار القديمة، وفي أحد هذه التماثيل يظهر مقنعاً بغطاء ثور، الرأس والقرنان والحوافر تتدلى خلفه. كما يصور على شكل طفل مكسو بعناقيد العنب التي ترصع جبين ورأس عجل يخرج منه قرنان من الجهة الخلفية. وفي مزهرية حمراء يُصوَّر الإله على شكل طفل برأس عجل يجلس في حضن امرأة. وكان أهالي ساينايثا يقيمون احتفالاً لداينيسوس في الشتاء يزيت الرجال فيه أجسادهم لينتشلوا ثوراً من القطيع ويحملوه إلى حَرَم الإله. كان دايونيسوس هو الذي يلهمهم لاختيار ثور معين يمثل فيه الإلهُ نفسَه، فهم يعتقدون أن الإله يظهر في هذه المناسبة على شكل ثور. أما نساء إيليس فيهتفن باسمه **الثور** ويتضرعن له أن يأتي بحافريه. وكن يغنين:" تعال هنا يادايونيسوس إلى معبدك المقدس عبر البحر؛ تعال معزَّزاً إلى معبدك، هيا انطلق على حافريك، أيها الثور الإلهي!" أما أهالي ياشانال في ثريس فكانوا يرتدون لباساً يخرج منه قرنا ثور تقليداً للإله. وتقول الأسطورة إنه كان على شكل ثور عندما قطّعه التيتان إرباً إربا؛ لذلك كان الكريتيون يقطعون ثوراً بأسنانهم عندما يمثلون معاناة داوينيسوس. في الحقيقة كان تمزيق والتهام ثور حي شيئاً أساساً في طقوس دايونيسوس. وعند ممارسة تمثيل الإله على شكل ثور، لانشك أبداً في أن عابديه يؤمنون أنهم يقتلون الإله ويأكلون لحمه ويشربون دمه.

أتخذ دايونيسوس شكلاً آخر وهو الجدي وكان **الجدي** أحد أسمائه. ففي أثينا وهرميون كان يُعبد باسم (ذو المعيز الأسود). وتقول الأسطورة أنه في مناسبة معينة يبدو مكسواً بالجلد الذي يكسبه الاسم. وفي منطقة فليوس حيث يزرع العنب ويُغطى السهل في الربيع بغطاء كثيف من العرائش الذهبية، كان يوضع مجسم جدي برونزي مكسو بأوراق الذهب وذلك لحماية عنبهم من الكوارث. ربما مثلت هذه الصورة إله العنب ذاته. ولحفظه في مأمن من غضب هيرا، عمد زيوس إلى تغيير دايونيسوس الصغير إلى جدي، وعندما هربت الآلهة إلى مصر خوفاً من غضب

تايفون، حُوِّلَ داوينيسوس إلى جدي. لهذا عندما يمزق عابدوه جدياً ويأكلون لحمه إنما يأكلون جسم الإله ويشربون دمه. وقد مورست عادة تمزيق الحيوانات والبشر وأكل لحمها نيئة كشعائر دينية عند المجتمعات البدائية في العصر الحالي. من هنا علينا ألاّ نستبعد حكايات من شاهدوا طقوساً مشابهة عند عبدة باخوس المهتاجين.

تعود عادة قتل الإله على شكل حيوان إلى ثقافة بشرية موغلة في القدم، وصارت عرضة لسوء الفهم في مراحل متقدمة. إذ تحولت فيما بعد إلى سلخ آلهة الحيوان أو النبات من قشورها الحيوانية أو النباتية والإبقاء على رموزها البشرية ـ التي كانت تشكل دائماً نواة تلك الفكرة. أي أن آلهة الحيوانات أو النباتات تصبح في النهاية مجسمة على شكل بشر. وفي هذه المرحلة تبقى الحيوانات التي كانت يوماً ما هي الآلهة، تبقى تحتل مكانة غامضة ولها علاقة مبهمة مع الآلهة الأنثريومورفية(أي المتجسدة على شكل حيوان) التي تطورت منها. ثم نسوا أصل العلاقة بين الإله والحيوان أو النبات فراح الناس يبتكرون القصص ليبرروا هذه العلاقة. وقد ينحصر هذا التفسير أو التبرير في بضع سطور لأنه مرتكز على المعاملة التقليدية أو الاستثنائية لذلك الحيوان المقدس أو النبات المقدس. حمى الناس بشكل تقليدي الحيوان المقدس وامتنعوا عن ذبحه إلا في الحالات الاستثنائية، وهنا تأتي الأسطورة لتبرر حمايته أو قتله. أما عندما تبرر حمايته فهي تلجأ لسرد ما قدمه ذلك الحيوان للإله؛ وعندما تبرر ذبحه تشرح الأسطورة عن الأذية التي سببها ذلك الحيوان للإله. أما سبب ذبح الجدي لأجل دايونيسوس إنما تحكي عن الأذى الذي يلحقه المعيز بالعنب الذي يجسد الإله نفسه. أما عندما يتجرد الإله من شخصية حيوانه ويصبح مجرد مُجسد فيه، يذبح العابدون الحيوان ليس على أنه ذبح الإله نفسه بل أضحية مقدمة له. وبما أنهم مضطرون لتقديم سبب يبررون فيه التضحية بالمعيز خاصة، يزعمون أن الذبح هو عقوبة على ما اقترفته من أذية بحق العنب المحمي من الإله. لهذا تصبح نظرتنا تجاه الإله المذبوح لأجل ذاته، إذ يصبح هو عدو نفسه. وعندما يشارك الإله في تناول الأضحية المقدَّمة له، وعندما تكون الأضحية هي أصل الإله، هذا يعني أنه يأكل من لحمه. من هنا يُمَثَّل إله المعيز دايونيسوس وهو يأكل لحم المعيز النيء ويشرب من دمه؛ وهكذا يسمى إله الثور **آكل الثيران**. وقياساً على هذه الأمثلة لنا أن نستنتج أنه عندما يدعى الإله بآكل حيوان معين

يكون الحيوان هو الإله نفسه. وسنرى فيما بعد أن البدائيين يسترضون الدببة والحيتان بتقديم جزء من أجسامها.

كل هذا لايبرر سبب ظهور إله الخضرة على شكل حيوان. وهنا سنؤجل شرح هذه النقطة إلى ما بعد مناقشة رموز ديميتر. وفي الوقت نفسه علينا أن نشير أنه في بعض المناطق كان يُمزَّق إنسان بدلاً من الحيوان في طقوس دايونيسوس. ففي بوتتيا في بويوشا جرت العادة أن يُضحى بطفل لأجل دايونيسوس ضارب المعيز، ثم استُبدل الطفل بجدي فيما بعد. وفي اوكومينوس كانت تؤخذ الأضحية البشرية من نساء أسرة ذات أصل ملكي. وهكذا يمثل الثور أو التيس المذبوح الإلهَ المذبوح كما يمثله الإنسان المذبوح.

إن أسطورة موت بينثيوس وليكورغاس وهما ملكان يُقال أنهما مُزقا، أحدهما على يد الباتشانال والآخر تحت حوافر الخيل وذلك لمعارضتهما لطقوس دايونيسوس، وهذا كما قلت سابقاً من بقايا عادة التضحية بالملوك الإلهيين لأجل دايونيسوس وتوزيع أجزائهم على الحقول بهدف إخصابها. وليس مجرد مصادفة أن يقال عن دايونيسوس أنه مُزِّق إرباً في ثيبيس وهو المكان الذي واجه فيه الملك بينثيوس حتفه على يد المنذورين الغاضبين لإله العنب.

على أي حال يمكن أن يُخلَط بين الأضحية البشرية وطقوس الأضاحي التي تُعامَل فيها الأضحية الحيوانية معاملة البشر. فمثلا، في ثيبيس، تينيدوس، كان العجل المقدم كأضحية لدايونيسوس يُلبَس حذاءً، وكانت أم العجل تُعامَل على أنها واضعة في السرير. وفي روما كان المعيز يُقدَّم لفيديجزفيس وكأنه أضحية بشرية. لكن من الممكن أيضاً وربما الأكثر احتمالية، أن تكون هذه الطقوس الطريفة تلطيفاً لمعاملة الضحايا المضحى بها وكأنها كائنات بشرية كاحتيال على التقوى والرحمة التي خدعوا بها الإله بأضاحٍ أقل ثمناً من البشر الأحياء. ويدعم هذا التفسير حالات جلية لاشك فيها، تم فيها استبدال الأضاحي البشرية بأضاحٍ حيوانية.

الفصل الرابع والأربعون
ديميتر وبيرسيفون

لم يكن دايونيسوس هو الإله الوحيد الذي عكست قصته وطقسه المأساويين ذبول الخضرة ونشوئها، بل ظهرت قصته في أسطورة ديميتر وبيرسيفون. وهي من حيث الجوهر متطابقة تماماً مع القصة السورية عن أفروديت(أستارت) وأدونيس، والقصة الفريجية عن سيبيل وآتيس، والقصة المصرية عن أيسيس وأوسيريس. ففي الحكاية الإغريقية تنعي الإلهة فقدان حبيبها الذي يجسد الخضرة، وعلى وجهٍ أخص، الحنطة التي تموت في الشتاء وتنشط في الربيع حيث صور الخيال الشرقي عن الحبيب والحبيب المفقود أو الزوج الميت الذي تنوح عليه زوجته، لكن أضاف الخيال الإغريقي فكرة أكثر لطفاً وحناناً ونقاءً وهي الابنة الميتة التي تنعيها أمها الحزينة.

أقدم وثيقة أدبية تروي أسطورة ديميتر وبيرسيفون هي شعر هوميروس الجميل الذي حمل عنوان (ترنيمة إلى ديميتر) والتي أرجعها النقاد إلى القرن السابع قبل الميلاد. تناولت القصيدة أصل الغوامض الإليوسينية ولم يذكر شيئاً البتة عن أثينا وأهالي أثينا الذين أخذوا دوراً بارزاً في المهرجان، الأمر الذي رجح احتمال أن تكون الترنيمة قد أُلِّفَت في وقت بعيد تماماً عندما كانت إليوسيس دويلة صغيرة مستقلة وقبل مرور الموكب المهيب في شعاب السلاسل الجبلية الصخرية المنخفضة التي تفصل حقول الحنطة في إليوسيس عن سهوب أثينا الواسعة والمغطاة بأشجار الزيتون. من هنا تكشف لنا الترنيمة عن فهم الكاتب لشخصيتَي ووظيفتَي الإلهتين، وعن شكلهما الطبيعيين المغطيين بوشاح رقيق من الصور الشعرية. وتستمر القصة واصفة بيرسيفون الصغيرة وهي تجمع الزهور والزنبق والزعفران والبنفسج والياقوتيات والنرجس في سهب أخضر خصيب عندما انشقت الأرض وظهر بلوتو ملك الموتى من

باطن الأرض يحملها على عربة من ذهب كي تكون عروسه وملكته في العالم السفلي الكئيب. أما أمها الحزينة ديميتر بجدائلها الصفراء المحجوبة خلف عباءة الحزن القاتمة فبحثت عنها في البر والبحر وعرفت من الشمس عن مصير ابنتها فانسحبت حانقة غاضبة من بين الآلهة وأخذت مستقراً لها في إليوسيس حيث أظهرت نفسها لبنات الملك على شكل امرأة عجوز تجلس بحزن تستظل تحت شجرة زيتون بجانب بئر السيدة الذي كان يرده عذراوات ليأخذن الماء منه بأوانٍ برونزية إلى بيت أبيهن. فعمدت الأم الثكلى ألا تسمح للبذور بالنمو بل تبقى مدفونة في الأرض وأقسمت ألا تطأ أوليمبوس وألا تسمح بنمو الحنطة حتى تعود ابنتها إليها. فصارت الثيران تحرث الأرض عبثاً، ويبدر الفلاحون بذور الشعير عبثاً في الثلوم ولم يعد ينبت شيء في التربة الظمآى المتفتتة. وحتى سهل راريان قرب أليوسيس الذي كانت تتماوج فيه الحنطة الصفراء، يغدو أجرد مراحاً. البشرية معرضة للجوع والآلهة معرضة أن تُسلَب ضحاياها المستحقة لها، إذا لم يأمر زيوس بلوتو أن يرفض ضحاياه كارهاً ويعيد عروسه بيرسيفون إلى أمها ديميتر. يذعن إله الموتى المتجهم، لكن قبل أن يعيد الملكة إلى السماء العلوية على العربة الذهبية، كان يعطيها بذور الرمان كي تأكلها وبهذا يضمن عودتها إليه. لكن زيوس يتعهد بأن تقضي بيرسيفون ثلث السنة مع زوجها في العالم السفلي ثم تظهر كل سنة كلما زهت الأرض وابتهجت بزهور الربيع. وتعود الإبنة فرحةً إلى أشعة الشمس، وكذلك تفرح أمها باستقبالها وتتعانقان رقبة على رقبة، ومن فرحتها تجعل ديميتر الأرض تشطأ بالحنطة من ثلوم الحقول المحروثة وتُثقل الأرض الواسعة بالأوراق والبراعم. وتسرع مباشرة إلى أميرات إليوسيس:تريبتوليموس ويومولبوس وديوكلز وحتى إلى ملك سيليوس نفسه لتريهم طقوسها المقدسة وخفاياها. وهنا يقول الشاعر، مبارك ذلك الإنسان الفاني الذي يرى هذه الأشياء وكل من لم ينله نصيب منها في الدنيا لن يسعد بعد موته عندما ينزل عالم الظلمة في القبر. وهكذا تغادر الإلهتان لتعيشا في نعمة مع الآلهة على أولومبوس. وينهي الشاعر الملحمي ترنيمته بصلاة تقية إلى ديميتر وبيرسيفون كي يُسَرَّا منه ويمنحانه الحيوية ثواباً على أغنيته.

لقد أدرك الجميع خلف أي شك أن الغرض الرئيس الذي يرمي إليه الشاعر من هذه الترنيمة هو شرح أسس ديانة ديميتر الإليوسيزية. وتأتي القصيدة تمهيداً لتحويل

مشهد سهل إليوسيس الأجرد إلى صفيحة متوردة من الحنطة بإرادة الإلهة؛ ثم تأخذ الإلهة المعطاء أمراء إليوسيس لتريهم ما أنعمت به عليهم وتعلّمُهم طقوسها الغامضة بلغة مبهمة، وتأتي بتفسيرات أسطورية تبرر فيها طقوس الاحتفال الرئيسة. ومن بين الشعائرالتي يعيرها أهتماماً خاصاً هي التمهيد للداخلين الجدد في الديانة وموكب المشاعل وقيام الليل وجلوس الداخلين في الدين وهم صامتين محجبين على مقاعد مغطاة بجلود الأغنام واستخدام اللغة البذيئة وإطلاق النكات البذيئة والتوحد المقدس مع الإله عن طريق المشاركة بشرب مياه الشعير من الكأس المقدس.

ويفشي الشاعر سراً عميقاً عن الغوامض في معرض حكايته. وهو أن الإلهة تتمتع بتحول السهل أمام أعين تيربتوليموس وأمراء إليوسيس عندما تعرض عليهم الحنطة المتنامية في سهل أصبح مغطىً بوشاح ذهبي. وعندما نقارن هذا الجزء من الأسطورة مع هايبوليتوس - كاتب مسيحي من القرن الثاني الميلادي - الذي يقول أن جوهر أسرار الدين أن تري المنتسب الجديد سنبلة حنطة ناضجة، لا نشك أبداً في أن الشاعر كان يعلم بهذه الطقوس المقدسة، وأنه كان يقصد تماماً توضيح أصلها بالطريقة التي وضح فيها سائر طقوسها الغامضة، وتحديداً تمثيل ديميتر كونه أدرج مثال أدائها لطقوسها بذاتها. وهكذا نرى كيف أن الأسطورة تتضافر مع طقسها ليؤكدا بعضهما بعضاً. وهذا الشاعر يخبرنا منذ القرن السابع قبل الميلاد أنه عندما يَكشِف عن الطقوس إنما ينتهك الحرمات ويدنس المقدسات: لكن الأب المسيحي يكشف عن الشعائر، ويتساوق كشفه هذا مع إشارة شاعرنا الخفية إلى هذا الموضوع. ويمكننا بالنهاية كما يمكن للكثير من الباحثين المعاصرين القبول بمقولة المسيحي المثقف الأب كليمينت في الإسكندرية إن أسطورة ديميتر وبيرسيفون كانت تمثيلاً دراميا مقدساً لأسرار إليوسيس.

لكن إذا كانت الأسطورة تُمَثّل كأحد أجزاء الطقوس الدينية المقدسة أو كجزء رئيس فيها، لنا أن نتساءل - بعد أن نعري الموضوع من كل الإضافات السابقة - عن نواة الأسطورة الأصلية التي أُحيطت في العصور اللاحقة بهالة من الرعب والغموض، وأُضيأت بأكثر الأنوار تألقاً في الأدب والفن الإغريقيين. وإذا اتبعنا بذلك مؤشرات أقدم الأعمال الأدبية التي تناولت هذا الموضوع، وهو ترنيمة هوميروس التي وهبها لديميتر، يسهل علينا حل اللغز وهو شخصيتي الإلهتين الأم

والابنة المتجسدتين في الحنطة. ويكون الحل مؤكداً فيما يتعلق بالإبنة بيرسيفون. فالإلهة التي تقضي ثلاثة أو ستة شهور من السنة مع الأموات تحت الأرض وباقي السنة حية على وجه الأرض؛ والتي بغيابها تختبئ بذور الشعير في الأرض وتبقى الحقول مراحاً أجرد؛ وبعودتها تشطأ الحنطة من التربة وتنوء الأرض بالأوراق والبراعم - لايمكن أن تكون هذه الإلهة سوى تجسيداً أسطورياً للخضرة وعلى وجه الخصوص الحنطة التي تُدفَن في التربة خلال شهور الشتاء وتعود للحياة ثانيةً وكأنها خروج من القبور لتطلق سنابلها وتتفتح زهورها وتورق كل ربيع. ليس هناك تفسير أكثر منطقية من هذا التفسير. وإذا كانت الإلهة الابنة تجسيداً للحنطة هذه السنة الفتية، ألا يمكن أن تكون الأم هي تجسيداً لحنطة السنة الفائتة؟ هناك بديل وحيد للنظرة إلى ديميتر وهي أنها تجسيد للأرض التي تخرج الحنطة من صدرها مثل سائر النباتات في الربيع، والتي يمكن أن نعتبرها من بنات الأرض. اعتمد كتّاب معاصرون وقدامى هذه النظرة لطبيعة ديميتر الأصلية، وهي النظرة الأكثر منطقية. لكن يبدو أن كاتب ترنيمة ديميتر الهومرية رفض لأنه لم يميز بين ديميتر كممثل للأرض بل وضعهما في موقعين متضادين تماماً. يخبرنا أن الأرض هي التي تمتع بلوتو بمشيئة زيوس وهي التي أنبتت النرجس في مكان بعيد في السهل الخصيب كي تغوي الإلهة الصبية وتستدرجها إلى مكان بعيد عن إمكانية طلب المساعدة. بهذا تكون ديميتر حسب الترنيمة بعيدة كل البعد عن أن تكون إلهة الأرض بل هي عدوها اللدود لأنها احتالت عليها وأفقدتها ابنتها. وإذا استبعدنا أن تكون تجسيداً للأرض، يبقى الاحتمال الوحيد وهي أن تكون تجسيداً للحنطة.

تدعم النصب والتماثيل النتيجة التي توصلنا إليها، ففي القديم يصور ديميتر وبيرسيفون على شكل إلهتين للحنطة من خلال تتويجهما بتيجان السنابل. وكانت ديميتر هي أول من أظهر لأهالي أثينا سر الحنطة وهي أول من نشرت هذا الاكتشاف في بلاد كثيرة عن طريق وكيلها تريبتوليموس عندما أرسلته ببعثات لنشر نعمتها على البشرية جمعاء. وفي الآثار الفنية خصوصاً المزهريات منها، يُمَثَّل باستمرار بصحبة ديميتر، يمسك سنابل الحنطة بيده وهو جالس في عربته المجنحة أحياناً أو يسوقها التنين أحياناً أخرى، ويبدر منها البذور على العالم كله وهو يطير مسرعاً في الجو. وعرفاناً بهذه النعمة التي لا تقدر بثمن ظلت المدن الإغريقية ترسل

أولى ثمارها من الشعير والقمح كعطايا الامتنان للإلهتين ديميتر وبيرسيفون في إليوسيس حيث أُعِدَّت مستودعات تحت الأرض لتخزين الفائض من هذه المساهمات. وهذا ثيكرايتوس ينبئنا أنه في جزيرة كوس، ومع أريج الصيف، يأتي المزارعون بأولى ثمارهم من المحصول إلى ديميتر التي غمرت أرض بيادرهم بالشعير والتي تظهر في صورها البدائية وهي تحمل باقة من الشعير والخشخاش بيديها. والكثير من أسمائها التي أطلقها عليها القدامى تدل بوضوح على علاقتها الحميمة بالحنطة.

يمكننا أن نحدد مدى تجذر الإيمان بديميتر إلهة الحنطة في عقول الإغريق القدامى خلال احترام الأحفاد المسيحيين لمقامها في إليوسيس حتى بداية القرن التاسع عشر. لأنه عندما زار الرحالة الإنكليزي دودويل إليوسيس للمرة الثانية، شكا الأهالي له بحرقة فقدان تمثال ديميتر الذي ابعده كلارك عام 1802 ليعرضه في جامعة كامبردج وهو مازال هناك حتى الآن. يقول دودويل: " في زيارتي الأولى لليونان، كانت هذه الإلهة تتمتع بقمة المجد، وهي تجثم في منتصف البيدر بين ما تبقى من آثار من معبدها. وأيقن أهالي القرية أن محصولهم الغني ليس إلا من كرمها، وما فقدت محاصيلهم الخير والوفور إلا بعد أن نقل مجسمها." إذن كانت ديميتر تجثم في البيدر وتوزع الحنطة على عابديها في القرن التاسع عشر الميلادي، إي في أيام ثيوكرايتوس. وكما عزا الناس في إليوسيس نقص محاصيلهم إلى فقدان تمثال ديميتر، كذلك كرس أهالي صقلية أنفسهم للإلهتين وشكوا من شح المحصول في مدينتيهما وعزوا ذلك إلى الحاكم الروماني فيريس المجرد من الأخلاق والضمير لأنه نقل تمثالها من معبدها في هينا. هل علينا أن نبحث عن دليل أوضح لنبرهن أن ديميتر هي بالفعل إلهة الحنطة التي آمن بها الإغريق حتى عصرنا هذا، وأن وفور محاصيل الحنطة من كرمها، وشحها ناتج عن نقل تمثالها؟

إذا ما تجاهلنا النظريات وتمسكنا بالأدلة التي اعتبرها القدامى من طقوس إليوسيس، نميل إلى رأي أكبر دارسي الآثار القديمة، فارو الروماني، الذي يقتبس داعماً رأيه بقول أوغستين، "إن جميع الطقوس الغامضة الإليوسية تتعلق بالحنطة التي اكتشفتها سيريس، أي ديميتر، وبروسيربابن، أي بيرسيفون، التي أبعدها بلوتو عنها. ويقول أن برسيربابن تدل على إخصاب البذور، التي يدفع إخفاقها الأرض إلى التفجع على الجدب الذي أصابها، وبهذا ترجح الرأي القائل أن ابنة سيريس أي

الإخصاب التي فتنها أو اغتصبها بلوتو في العالم السفلي؛ تعود ثانيةً، وتعم الفرحة بسبب عودة بروسيربابن وإحياء طقوسها المقدسة." ويتابع أوغستين نقلاً عن فارو، " هناك الكثير من العِبَر التي نتعلمها من طقوسها الغامضة التي لا تدل إلا على اكتشاف الحنطة."

بهذا نكون قد افترضنا أن ديميتر وبيرسيفون من طبيعة واحدة. إلهةٌ أمّ وإلهةٌ ابنة تجسدان الحنطة بشكليها، كبذور السنة المنصرمة وسنابل هذه السنة الناضجة ويظهر هذا التوحد في الطبيعة في رسوم الفن الإغريقي إلى درجة أنه يصعب علينا التمييز بينهما. وهذا ما يناقض النظرة القائلة أن الإلهتين هما تجسيد أسطوري لشيئين مختلفين واضحين أي الأرض من ناحية والخضرة التي تنبثق منها من ناحية أخرى. وقد أدرك الفنانون الإغريق الفرق بين الإلهتين وجسدوا ذلك في فنهم. فإذا كانت ديميتر لا تجسد الأرض، هل من شك في أنها تجسد، مثل ابنتها، الحنطة التي ارتبطت باسمها منذ زمن هوميروس؟ وبهذا تتشابه هويتا الإلهتين ليس من حيث النموذج الفني فحسب بل بتسميتهما الرسمية المستخدمتين في حرمهما في إليوسيس دون التمييز بينهما، وكأنهما فردان مندمجان في كينونة إلهية واحدة.

بهذا نصل إلى النتيجة الصائبة وهي أن الإلهتين مرتبطتان بالحنطة في أذهان الشعب الإغريقي، ويبدأ كل تفسير لديانتهما من هذه النواة. لكن الحفاظ على هذا المبدأ لا يمنع أنه مع التطور الديني تطعَّمَ الجذع الأصلي البسيط بمبادئ أخلاقية وروحية راقية وانبثق منه براعم لزهور أجمل من زهر الشعير والقمح. وسرعان ما اقترنت فكرة دفن البذور في الأرض كي تنبثق لحياة أرقى وأحدث بفكرة المصير البشري، ووطدت الأمل بأن يلقى الإنسان في قبره بداية أفضل ووجوداً أسعد وعالماً مجهولاً أبهى. ويبدو أن هذا الانعكاس الطبيعي كافٍ تماماً كي يبرر ارتباط إلهة الحنطة في إليوسيس بلغز الموت والأمل بخلود سعيد. لهذا اعتبر القدامى، بما فيهم الكتاب المثقفون الدخول في هذا الدين والولوج في الألغاز الإليوسية مفتاحاً لبوابة الجنة وطريقاً يؤدي إلى السعادة المنتظرة. ولاشك في أنه من السهل علينا أن نميز الأساس المنطقي الواهي الذي تُبنَى عليه تلك الآمال. وبما أن الغريق يتعلق بقشة، لاعجب أن نرى الإغريق كما نرى أنفسنا، والموت أمامهم وحبهم العميق للحياة، أن يتناولوا بدقة كبيرة الحجج المؤيدة والمعارضة لإمكانية

الخلود البشري. إن المنطق الذي أرضى القديس بول والذي جلب الراحة لآلاف المسيحيين الحزانى على من وقفوا بجانب سرير موتهم أو أمام قبورهم المفتوحة، كان كافياً ليقبلوا بمبادئ الوثنيين القدامى الذين حنوا رؤوسهم أيضاً تحت وطأة الحزن ليروا فتيل الحياة يرسل بصيصاً خفيفاً من المحاجر وهم يتأملون في عتمة المجهول. لذلك نحن لانستخف بأسطورة ديميتر وبيرسيفون - كإحدى الأساطير القليلة التي فيها توشحت شمس عبقرية الإغريق ووضوحهم بظل لغز الموت – عندما نتتبعها من أصلها وحتى جوانبها المألوفة لدينا، والتي أثرت في مظاهر الطبيعة، من كآبة الخريف وذبوله إلى نضرة الربيع وخضرته البراقة.

الفصل الخامس والأربعون
أم الحنطة وسيدة الحنطة في شمالي أوروبا

يقول ويليام مانهاردت أن القسم الأول من اسم ديميتر مشتق من الكلمة الكريتية (ديا) وتعني الشعير، وعليه فإن ديميتر ليست سوى (أم الحنطة) أو (أم الشعير) وتدل الكلمة على أنواع مختلفة من الحبوب لدى فروع الإريانيين المتعددة. وبما أن كريت هي أقدم مكان لعبادة ديميتر فليس غريباً أن تكون التسمية من أصل كريتي. لكن الإتومولوجيا(علم أصل اللفظة وتاريخها) تبقى عرضة للانتقاد؛ ومن الأفضل ألا نعوِّل عليها كثيراً. لهذا بحثنا عن أدلة أخرى لإثبات أن ديميتر هي أم الحنطة وعن نوعي الحنطة المرتبطين بها في الديانة الإغريقية وهما القمح والشعير، والمرجح أن يكون الشعير هو العنصر الأصلي ليس لأنه الطعام الأساسي الثابت عند الإغريق في عصر هوميروس فحسب بل هناك مبررات أخرى تدعو للاعتقاد أنه أحد أقدم الأطعمة، الذي زرعه العرق الإرياني إن لم يكن أقدمها. ومن المؤكد أن استخدام الشعير في الطقوس الدينية عند الهندوس القدامى كما هو عند الإغريق القدامى يشكل دليلاً قوياً على تاريخ هذه الزراعة السحيق التي مارسها سكان شواطئ البحيرات في العصر الحجري في أوروبا. وقد جمع مانهاردت الكثير من الأدلة من خلال تسميات أم الحنطة أو الشعير من فولكلور أوروبا المعاصرة، وسندرج الأمثلة التالية كعينات منها.

في ألمانيا كثيراً ما تُشخَّص الحنطة تحت اسم أم الحنطة. وفي الربيع، عندما تتماوج السنابل مع النسيم، يقول الفلاحون، "هاهي أم الحنطة قد أتت." أو يقولون " تجري أم الحنطة في الحقل" أو " تخترق أم الحنطة حقل الحنطة". وعندما يرغب الأولاد بالدخول إلى الحقول ليقطفوا بعض الأزهار الزرقاء أو أزهار الخشخاش الحمراء، يزجرونهم كي لا تلتقطهم أم الحنطة القابعة في الحقل. وكذلك تدعى

وحسب المحصول باسم أم الجاودار أو أم الفاصولياء، ويُحذِّر الأطفال من الدخول بين نباتات الفاصولياء أو الجاودار مهدَّدين بأم الفاصولياء أو الجاودار. وبما أنهم يؤمنون أن أم الحنطة هي التي تنمي المحصول، يقولون في المناطق المحيطة بماغديبرغ أن محصول الكتان سيكون بخير إذا ما شوهدت أم الكتان. ويقال في قرية ستيريا إن أم الحنطة – التي يصنعونها من آخر حزمة من السنابل على شكل دمية أنثى برداء أبيض – يمكن أن تُشاهد في منتصف الليل في حقول الحنطة التي تخصبها بمجرد مرورها فيها. وإذا غضبت من مُزارعٍ معين تتسبب بذبول حنطته بالكامل.

تلعب أم الحنطة دوراً كبيراً في عادات الحصاد لاعتقادهم أنها موجودة في آخرحفنة حنطة في الحقل، وعندما يقطعون هذه السنابل الأخيرة إما يلتقطونها أو يهربُونها أو يقتلونها. فإذا التقطوها يحملونها إلى منازلهم بفرح غامر ويعاملونها بقدسية ثم يضعونها في مخزن الحبوب وتظهر روح الحنطة ثانية عند دراسة الحنطة. وفي مقاطعة هادلين الهانوفيرية يقف الحصادون حول آخر السنابل ويضربونها بعصيهم كي يخرجوا منها أم الحنطة. ويقولون لبعضهم بعضاً: "هاهي! اضربها! احذر منها أن تلتقطك!" ويظلون على هذا الحال حتى تُدرَس الحنطة تماماً، عندها يقتنعون أن أم الحنطة قد أُبعِدت. وفي منطقة دانزينغ يقوم من يحصد آخر حزمة من الحنطة بصنع دمية منها يسميها أم الحنطة أو العجوز ويحملها إلى منزله مع آخر عربة. وفي بعض أنحاء هولستين يلبسون الحزمة لباس امرأة ويسمونها أم الحنطة، ثم يحملونها إلى منازلهم مع العربة الأخيرة ويبللونها بالمياه. لاشك في أن ترطيبها بالمياه هو سحر مطري. وفي ستيريا في مقاطعة بروك، يقومون بصنع أم الحنطة من الحزمة الأخيرة على شكل زوجة في القرية في الخمسينات من عمرها. يأخذون أرق سنابلها ويصنعون منها إكليلاً يزينونه بالورود، وتلبسه أجمل فتاة بالقرية وتذهب إلى المزارع أو مالك الأرض بينما توضع أم الحنطة في مخزن الحبوب لدرء الفئران. وفي قرىً أخرى من المنطقة نفسها تُحمَل أم الحنطة في نهاية موسم الحصاد على أيدي فتيان ويضعونها على رأس عمودٍ. ويمشون خلف الفتاة التي ترتدي الإكليل إلى منزل مالك الأرض ليستلم الإكليل ويعلقه في المجلس، وفي الوقت نفسه توضع أم الحنطة على كومة من الحطب ليرقصوا حولها ويتناولوا العشاء. وبعدها يعلقونها في المخزن وتظل هناك حتى يفرغوا من دراسة الحنطة. كما يُدعى الرجل الذي يقطع آخر السنابل

بـ ابن أم الحنطة ويربطونه إلى أم الحنطة ويساق في أرجاء القرية تحت الضرب. ثم يُوهب الإكليل للكنيسة في الأحد التالي؛ وفي عيد حواء الشرقي تستخرج منه الحبوب على يد طفلة في السابعة من عمرها وتُنثر بين سنابل الحنطة الفتية. وفي عيد ميلاد المسيح يوضع التبن المتبقي من الإكليل في المعلف ليُغْني الماشية. وهنا تظهر قوة أم الحنطة المخصبة للحنطة خلال نثر بذور جسمها المتمثل بالإكليل على الحنطة الجديدة والمخصبة للحيوانات عن طريق وضع القش في المعلف. كذلك يسمي السلافيون آخر حزمة من محصولهم بأم الجاودار، أم القمح، أم الشوفان، أم الشعير بحسب ما يزرعون. وفي مقاطعة تارنو، غايسيا، يسمون الإكليل الذي يُصنع من آخر السنابل بأم القمح، أم الجاودار أو أم الفاصولياء. ويوضع على رأس إحدى الفتيات ويحتفظون به حتى الربيع القادم ليوزعوا بعضاً من حبوبه على بدار الحنطة كقوة تخصيبية. وفي فرنسا، قرب أوكسير يسمون آخر حزمة سنابل بـأُم القمح، أم الشعير، أم الجاودار أو أم الشوفان. يُبْقون عليها واقفة في الحقل حتى آخر عربة متجهة نحو المنزل. ثم يصنعون منها دمية يلبسونها ملابس المزارع، ويزينونها بتاج ووشاح أزرق أو أبيض. ويُغرس غصن شجرة في صدر الدمية التي تُدعى الآن سيريس، إلهة الزراعة عند اليونان. وعندما يُقام الرقص في المساء تُوضع سيريس في الوسط ويرقص حاصدها أسرع الرقصات بصحبة أجمل فتاة. وتقوم الفتيات اللواتي يرتدين الأكاليل بتعرية الدمية وتمزيقها قطعاً ويضعنها وزينتها على الجاودار. ثم تأتي أسرع فتاة حصادة لتضرم النار في الكومة بينما يصلي الجميع كي تمنحهم سيريس سنة خيرة. وهنا كما يلاحظ مانهاردت أن هذه العادة القديمة ظلت كما هي دون تغيير. وفي بريتاني العليا يقومون بصنع شكل بشري من آخر حزمة، يسمونها حزمة الأم. وإذا كان المزارع متزوجاً يصنعون منها شكلين أحدهما صغير يوضع بجانب الآخر الكبير. ويسلمونها لزوجة المزارع فتفكها وتعطيهم ثمن شرابٍ بالمقابل.

وأحياناً تُدعى الحزمة الأخيرة أم الحصاد أو الأم الكبرى وليس أم الحنطة. ففي منطقة أوسنابورغ تدعى أم الحصاد وتصور على شكل أنثى يرقص الحصادون وهم يحملونها. وفي بعض أنحاء منطقة وستفاليا في موسم حصاد الجاودار، يثقِلون آخر حزمة بالحجارة، ويأتون بها إلى المنزل مع آخر عربة ويسمونها الأم الكبرى، دون إعطائها شكلاً معيناً. وفي منطقة إيرفورت يسمون الحزمة الثقيلة ـ وليس بالضرورة

أن تكون الأخيرة ـ الأم الكبرى، ويحملونها مع آخر عربة إلى مخزن الحبوب حيث تضعها الأيدي مع سيل من النكات.

كما يطلقون أحياناً على الحزمة الأخيرة اسم الجدة، ويزينونها بالورود والأشرطة وإزار نسائي. وفي بروسيا الشرقية عند حصاد الجاودار أو القمح يهتفون لمن تربط الحزمة الأخيرة قائلين " أنت الجدة المسنة." وفي منطقة قريبة من ماغديبورغ يجاهد الرجال والنساء ليحصلوا على الحزمة الأخيرة التي يسمونها الجدة، ويعتقدون أن من يحصل عليها سيتزوج في السنة القادمة من زوج مسن أو زوجة مسنة، أي أن الأنثى ستتزوج أرملاً، والذكر سيتزوج عجوزاً شمطاء. أما في سيليسيا فكانت الجدة عبارة عن رزمة كبيرة مصنوعة من ثلاث أو أربع حزم يربطها الشخص الذي يقطع القبضة الأخيرة على شكل بشري تقريبي. وفي منطقة بلفاست يسمون الحزمة الأخيرة الجدة. وهي لاتُقطع بالطريقة المعتادة بل يرمي عليها الحصادون مناجلهم ليقطعونها من بعيد. ثم يضفرونها ويحتفظون بها إلى الخريف القادم. والذي يحصل عليها سيتزوج في غضون سنة.

وغالباً ما يسمون الحزمة الأخيرة **العجوز**. وفي ألمانيا يعطونه أو يعطونها شكل امرأة ويقولون لمن يقطعها أنه حصل على العجوز. وفي ألتيشيم في سوابيا، وبعد أن يُحصَد الحقل إلّا مساحة صغيرة، يقف الحصادون كلهم على نسق ويحصد كل منهم حصته بسرعة، أما الذي يحصد القبضة الأخيرة فيسمونه **العجوز**. ثم يضعون الحُزم كلها في كومة، والذي يمسك العجوز، وهي أكبر حزمة، يصيح به البقية ساخرين:" لقد وقعت عليه العجوز". وأحياناً تسمى المرأة التي تربط الحزمة الأخيرة **العجوز** ويقال إنها ستتزوج خلال السنة التالية. وفي نيوساس، بروسيا الغربية، يطلقون اسم العجوز على المرأة التي تربط الحزمة الأخيرة وعلى الحزمة التي يلبسونها سترة وأشرطة وقبعة. ثم يأتون بهما إلى المنزل مع العربة الأخيرة ويبللونهما بالماء. وفي أنحاء كثيرة من ألمانيا الشمالية يعطون الحزمة الأخيرة شكل إنسان ويسمونه **الرجل المسن**؛ ويسمون المرأة التي ربطتها **العجوز**.

وفي بروسيا الغربية وبعد جمع الجاودار، تسرع النساء والفتيات في عملهمن لأن إحداهن لا تريد أن تكون الأخيرة التي يقع عليها **الرجل العجوز** وهو تلك الدمية المصنوعة من الحزمة الأخيرة والتي على الحصَّاد الأخير أن يحملها أمام الجميع. وفي

سيليسيا تسمى الحزمة الأخيرة المسن أو المسنة اللذين تُحاك حولهما النكات الكثيرة ويجعلون تلك الحزمة كبيرة يثقلونها بحجر. وفي وندز يقال عن الرجل أو المرأة التي تحزم آخر حزمة من القمح إنه العجوز. وتُصنع دمية من سنابل القمح على شكل رجل مزين بالورود. وعلى الرجل الذي يربط الحزمة الأخيرة أن يحملها إلى المنزل وسط سخرية الآخرين. وتُعلق الدمية في منزل المزرعة إلى أن تظهر دمية الموسم القادم.

ويقول مانهاردت إنه أحياناً يُدعى الشخص باسم آخر حزمة ويجلس بجانبها في العربة الأخيرة ويمثل روح الحنطة الباقية في تلك الحزمة أو أن روح الحنطة متمثلة في الحزمة والكائن البشري. وتظهر هوية الشخص المتطابقة مع الحزمة خلال لف الشخص الذي يربط الحزمة الأخيرة مع الحزمة. ففي هلمسدورف في سيليسيا جرت العادة أن تُربَط المرأة التي ربطت الحزمة الأخيرة مع الحزمة. وفي ويدين في رافاريا، يُربَط إلى الحزمة الأخيرة الشخصُ الذي يقطعها وليس الذي يربطها. ويمثل الشخص الذي يُربَط مع الحنطة روحَ الحنطة تماماً كما يمثل الشخص الذي يُلف بالأوراق والأغصان روحَ الشجرة.

وتتميز الحزمة الأخيرة بشكلها ووزنها. ففي بعض قرى بروسيا يضاعفون طول وسماكة **العجوز** عن بقية الحزم ويربطون حجراً إلى وسطها. وأحياناً يصل وزنها حداً يكاد الرجل يعجز عن رفعها. وفي ألتبلاو في ساملاند، تُربط ثماني أو تسع حزم مع بعضها بعضاً لتشكل **العجوز** حتى يعجز الرجل الذي صنعها عن حملها. وفي إتزغراند في ساكسكوبورغ، يجعلون العجوز كبيرة لضمان المحصول القادم. وما هذا إلا سحر تعاطفي لمحصول وفير.

وفي أسكتلندا، عند قطع الحنطة الأخيرة بعد عيد جيمع القديسين، يصنعون منها مجسم امرأة يسمونها كارلين أو كارلاين وتعني العجوز. وإذا ما قُطعت قبل ذلك العيد يسمونها السيدة؛ وإذا قُطعت بعد الغروب يسمونها الساحرة الشريرة لأنهم يفترضون أنها تجلب النحس. وفي أعالي أسكتلندا يسمون آخر الحنطة الزوجة القديمة أو السيدة، ويسود اسم الزوجة القديمة في المقاطعات الغربية أما اسم السيدة فيسود في المقاطعات الشرقية والوسطى.

لنتناول اسم الزوجة القديمة أو الزوجة المسنة من تقرير قدمه الباحث المثقف كامبيل وزير جزيرة هايبرديين في تيري: "كان كل من الحصادين يجاهد كي لايكون آخر من يسنبل وعند حراثة الأرض كان يترك قسماً منها على الجوانب لايقترب منه أحد أو يدعي ملكيته لأنهم يخافون لو فعلوا أن تصيبهم المجاعة التي تأتي على شكل عجوز خيالية وتظل تقتات من الحقول حتى الموسم القادم. كما ظهر الكثير من المحاكاة واللهو من فكرة الخوف من تلك العجوز......أولها دمية تُصنع من سنابل الحنطة وتدعى الزوجة القديمة، وترسل إلى أقرب جار. وهذا بدوره يرسلها إلى جار أكسل وهكذا حتى ترسو على من يحمِّلونه لقب العجوز طيلة ذلك العام."

وفي جزيرة إسلي يسمون أخر قبضة من الحنطة **الزوجة القديمة**، وبعد أن تقوم بمهمتها في الحصاد تُعلَّق على الجدار لتبقى هناك حتى موسم الحراثة في السنة القادمة حيث تقسمها سيدة المنزل وتوزعها على الفلاحين الذاهبين إلى الحراثة، يضع كلٌّ حصته في جيبه ليطعم حصانه منها لدى وصولهم الحقل كي يحصلوا على موسم موفق وهكذا تنتهي الزوجة القديمة النهاية اللائقة.

وأتانا أخبار عن ممارسات مماثلة في ويلز. ففي بومبرغشاير الشمالية يقومون بقطع آخر قبضة من الحنطة بطول 15 إلى 20 سم يضفرونها ويسمونها **العفريتة**. ويذكر الكثير ممن هم على قيد الحياة الآن ممارسات طريفة على تلك العفريتة. كم كانت فرحة الحصادين عارمة عندما يصلون إلى البقعة الأخيرة من أرض الحقل المحصود. إذ يقوم كل منهم برمي منجله عليها. ويتلقى من ينجح في قطعها إبريقاً من المِزر المخمَّر. ثم تُؤخذ العفريتة بسرعة إلى المزرعة المجاورة حيث يزاول الحصادون عملهم. ويقوم بمهمة نقلها حارث يحرص كل الحرص على ألا يُكشَف من قبل الجيران لأنهم لو رأوه قادماً أو ارتابوا بأنه يقوم بهذه المهمة يعيدونه أدراجه على الفور. لذلك تراه يتسلل خلف حاجز ويختبئ حتى يصبح مقابلهم تماماً ويصبحون تحت مرماه فيرمي العفريت بسرعة من فوق السياج والأفضل أن تقع على مناجلهم. ثم يهرب بأسرع مايمكن ويكون محظوظاً إذا ما نجا من قبضتهم أو هرب دون أن تصيبه مناجلهم الراشقة بجروح. وهناك احتمال آخر وهو أن يحضر أحد الحصادين العفريتة إلى بيت المزرعة. ويحرص كل الحرص على أن يأتي بها إلى

المنزل جافة ودون أن يلحظه أحد لأنه معرض للمعاملة القاسية من قبل أصحاب المنزل إذا ما شكُّوا في مأربه. وقد يبلغ بهم الأمر أحياناً أن يعرّوه من ملابسه ويغرقوه في مياه دلاءٍ مخزنة خصيصاً لهذا الغرض. وإذا ما نجح في إحضار العفريتة جافةً ودون أن يلحظه أحد، على صاحب المنزل أن يدفع له غرامة بسيطة يفرضها حامل العفريتة قد تصل إلى إبريق من البيرة من أفضل الأنواع. وبعدها تُثبَّت العفريتة بمسمار على الجدار طيلة العام.

وفي مقاطعة أنتريم وحتى بضع سنوات ماضية وبعد أن يرمي الحصادون مناجلهم تبقى السنابل القليلة المتبقية ليضفروها ويرمي عليها الحصادون مناجلهم وهم معصوبي العينين ومن ينجح في قطعها يأخذها إلى بيته ويعلقها فوق الباب. وتُسمى هذه القبضة **كارلي** وربما أتت التسمية من **كارلين** وتعني المرأة العجوز.

كما تمارس الشعوب السلافية عادات مماثلة. ففي بولندة يسمون الحزمة الأخيرة **البابا** أي المرأة العجوز، ويُقال أن البابا تسكن فيها وأحيانا يقسمونها إلى اثنتي عشرة حزمة مربوطة ببعضها بعضاً. وفي بعض أنحاء بوهيميا يصنعون البابا من آخر حزمة ويعطونها شكل قبعة نسائية قشية كبيرة. وتُحمل مع آخر عربة حصاد إلى المنزل وتُسلَّم مع إكليلٍ للمزارع على يد فتاتين.

وعند ربط االحُزَم تجاهد كل امرأة ألا تكون هي الأخيرة لأن من تربط تلك الحزمة الأخيرة ستلد طفلاً السنة القادمة. وأحياناً يلقبون من تربط تلك الحزمة الأخيرة بـ **البابا**. وفي موسكو يقولون عن الحزمة الأخيرة أنها تحتوي روح الجد، وتُربَط المرأة بداخلها، لايظهر منها سوى رأسها، وتُنقَل مع آخر عربة إلى المنزل حيث يقوم كل أفراد الأسرة بالمشاركة في رشها بالماء. وتبقى المرأة ضمنها حتى يفرغ الجميع من الرقص وتحتفظ بلقب البابا طوال ذلك العام.

وفي ليتوانيا يطلقون على الحزمة الأخيرة اسم **بوبا** أي المرأة العجوز وهويتساوق مع الاسم البولندي **بابا**. ويقولون ان البوبا تبقى في السنابل الأخيرة التي لم تُقطَع في آخر الحصاد. أما الشخص الذي يربط الحزمة الأخيرة أو يقتلع حبة البطاطا الأخيرة فهو عرضة لمزاح كثير ويُلقَّب ولفترة طويلة بامرأة الجاودار العجوز أو امرأة البطاطا العجوز. ويعطون الحزمة الأخيرة أو البوبا شكل امرأة تُحمَل بوقار في أرجاء

القريةعلى عربة الحصاد الأخيرة وتُبلل بالماء في منزل المزارع ثم يرقص كل من الحضور وهو يحملها.

وفي روسيا تُعطى الحزمة الأخيرة شكل امرأة وتُلبَس لباس امرأة وتُحمَل مع الرقص والغناء إلى بيت المزرعة. ويصنع البلغاريون من الحزمة الأخيرة دمية يسمونها ملكة الحنطة أو أم الحنطة؛ وتُلبَس قميص امرأة ويجوبون بها القرية ثم تُرمى في النهر كي تجلب لهم المطر الوفير للموسم القادم، أو تُحرَق وينثر رمادها في الحقول. ولاشك في أن هذا يهدف إلى تخصيب تلك الحقول. وكذلك يطلقون اسم الملكة في وسط وشمال أوروبا. ففي سالزبورغ في النمسا، وعند نهاية موسم الحصاد يقيمون موكباً كبيراً يسيرون فيه بالملكة المصنوعة من سنابل الحنطة في عربة صغيرة يجرها فتية صغار. كما تسود عادة ملكة الحصاد في انكلترا. ولاشك في أنها كانت منظراً مألوفاً في زمن مِلتون لأنه يقول في الفردوس المفقود:

بينما ينتظر آدم عودتها بشغف،

يحوك من أجمل الورود أكليلاً كي

يزين ضفائرها وتاجها الريفي

مثلما يصنع الحصادون إكليل ملكة الحصاد.

وغالباً ما تُتَّبع هذه العادة ليس في حقل الحصاد بل في أرض البيدر، وتهرب روح الحنطة أمام الحصادين وهم يقطعون الحبوب الناضجة ثم تخرج من السنابل المقطوعة لتلجأ إلى مخزن الحبوب مع الحزمة الأخيرة، أو ربما تتلاشى تحت المِدْرَس أو تنتقل إلى سنابل الحنطة في المزرعة المجاورة. وهكذا تسمى الحنطة التي تُدرَس آخراً **أم الحنطة** وأحياناً يسمى الشخص الذي يقوم بالحركة الأخيرة في المِدْرَس **المرأة العجوز** ويُلف بقش الحزمة الأخيرة أو تُربط الحزمة الأخيرة إلى ظهره ويُنقَل في أرجاء القرية وسط ضحكات الناس. وفي بعض مناطق بافاريا مثل ثورينغجن ومناطق أخرى يُقال إن الرجل الذي يدرس الحزمة الأخيرة "حلت عليك المرأة العجوز أو عجوز الحنطة" ويربط إليه القش ويُحمل أو ينقل بالعربة في القرية ثم يُلقى على كومة من الروث أو يُؤخذ إلى أرض البيدر لمزرعة مجاورة انتهت من الدراسة. ويسمى هذا الشخص في بولندة بابا أي المرأة العجوز. أما في ليتوانيا فلا يقومون أحياناً بدرس

آخر حزمة من الحنطة بل يعطونها شكل أنثى وتُحمَل إلى بائكة أحد الجيران الذي انتهى من الدِّراسة.

وفي بعض أنحاء السويد، عندما تظهر امرأة غريبة على أرض البيدر، يُوضع المدرس حول جسمها وتُربط سنابل الحنطة حول عنقها ويوضع تاج من السنابل على رأسها وينادي الدارسون: "أمسكوا بامرأة الحنطة". وهنا تظهر الغريبة فجأة وتؤخذ على أنها روح الحنطة التي طُردت لتوها من سنابل الحنطة. وفي حالات أخرى تمثل زوجة المزارع روح الحنطة. لهذا نرى في كومونة ساليغني كيف تُربَط الحزمة الأخيرة بشرشف وتوضع في نقالة وتُحمل إلى آلة الدراسة وتُدفَع تحتها. ثم يسحبون المرأة وتترك الحزمة لتدرس وترمى المرأة على الشرشف كأنها تُذرى.

في هذه العادات تُعتبر الحنطة الناضجة عجوزاً أو على الأقل في سن النضج ويمكن أن نرى ذلك خلال تسميتها. وفي حالات أخرى تُعتبر روح الحنطة شابّة. ففي اسلديرن قرب ولفينبوتل، وبعد أن يحصدوا الجاودار يقومون بربط ثلاث حزم بحبل ليصنعوا دمية رأسها من سنابل الحنطة. ويسمون هذه الدمية السيدة. وأحيانا يفهمون روح الحنطة على أنها طفلة انفصلت عن أمها بضربة منجل. ويظهر هذا المشهد الأخير واضحاً في العادة البولندية عندما يقولون لمن يقطع القبضة الأخيرة: "لقد قطعت الحبل السري". وفي بعض أنحاء بروسيا الغربية يسمون الشكل الذي يصنعونه من الحزمة الأخيرة ابن الزنا ويلفون صبياً فيه. أما المرأة التي تربط الحزمة الأخيرة وتمثل أم الحنطة يُقال لها أنها على وشك أن توضع في الفراش؛ فتبكي مثل امرأة في المخاض، بينما تقوم امرأة مسنة بدور القابلة. وأخيراً تُطلق صرخة عالية ويُقال أنها أنجبت طفلاً؛ في حين ينشج الصبي الذي وُضع في حزمة القش ويبكي كأنه وليد. وتقوم القابلة بلف كيس يمثل القماط حول مجسم الوليد كي لايبرد ويُحمل بفرحة إلى البائكة في الهواء الطلق. وفي أنحاء أخرى من ألمانيا يطلقون على تلك الحزمة أو الطفل اسم الوليد أو وليد الموسم، ومن تربط الحزمة الأخيرة يقولون أنها تمتلك ذلك الطفل.

وفي بعض أنحاء أسكتلندة وشمال إنكلترا، تسمى تلك القبضة الأخيرة كيرن ويقال عن الشخص الذي حملها أنه فاز بالكيرن. ثم يلبسونها ملابس طفل ويسمونها الطفل كيرن، أو دمية كيرن أو السيدة. وفي بيرويكشاير وحتى أواسط القرن

التاسع عشر كانت تجري منافسة ساخنة بين الحصادين لقطع القبضة الأخيرة من السنابل الواقفة. وكانوا يلتفون بدائرة على مقربة منها ليرموا عليها مناجلهم تباعاً، والرجل الذي ينجح في قطعها يقدمها إلى من يرغب من الفتيات. وتقوم الفتاة بإكساء دمية كيرن وتؤخذ إلى منزل المزرعة وتُعلَّق هناك حتى موسم الحصاد القادم حين يستبدلونها بالدمية الجديدة. وفي سبوتيسود في بيرويكشاير يقولون عن الحصاد الأخير أنه **قطع الملكة**. أما قطعها فلايكون برمي المناجل، بل يُعصب الحصادون ويعطى كل منهم المنجل ثم يديره زملاؤه مرتين أو ثلاث مرات ثم يوعزون له بأن يرمي كيرن. فيتلمس طريقه ويرمي منجله جزافاً ضمن مرح صاخب. وبعد أن يخفق في مهمته تُعاد الكرة مع غيره من الحصادين، وهكذا حتى يتم قطع قبضة السنابل، ويُرفع الحصاد الفائز على أيدي زملائه الحصادين بفرح كبير. ثم يزينون القاعة التي يُقام فيها الاحتفال والرقص بهذه المناسبة ويرفعون مجسمين لدمية كيرن والملكة اللتين تمثلان روح الحنطة.

وفي بعض مرتفعات أسكتلندة، يسمون آخر قبضة يقطعها الحصادون في كل مزرعة **السيدة**، أو **السيدة المقطوعة**. ويحاك حولها الكثير من الأساطير. يعتقدون أن قطعها على يد فتىً أو فتاة إنما هو فأل يبشر أنه أو أنها ستتزوج ذلك العام. لهذا السبب أو لآخر يُثار نضال بين الحصادين للحصول على السيدة، ويلجؤون إلى حيل شتى للحصول عليها. فمثلاً يترك أحدهم قبضة غير مقطوعة ويغطيها بالتراب ليخفيها عن أنظار الحصادين الآخرين حتى ينتهي الجميع من حصاد الحقل بالكامل. وقد يحاول بعضهم اتباع حيل مماثلة يفوز بها أكثرهم صبراً وصموداً. وعندما تُقطع السيدة تُكسى بالأشرطة وكأنها دمية وتُثبت على الحائط في بيت المزرعة. وفي شمال أسكتلندة يحتفظون بالسيدة بعناية فائقة حتى صباح يال عندما توزع على القطيع لتجعل الماشية تحيا طوال السنة القادمة. وفي منطقة بالكهيدر، بيرثشاير المجاورة تقوم أصغر فتاة في الحقل بقطع القبضة الأخيرة ويُصنع منها شكل دمية تقريبي ويكسونها برداء ورقي ويزينونها بالأشرطة. وتسمى السيدة وتُحفظ في بيت المزرعة على الأغلب فوق الموقد حتى السنة القادمة. وقد شاهد كاتب هذا الكتاب هذا الطقس االذي يقطعون فيه السيدة في عام 1888. وقد أخبرتني إحدى الصديقات أنه في منطقة بيرث المجاورة طلب الحصادون عدة مرات

من فتاة صغيرة أن تُقطع السيدة وهم يمسكون بالسنابل من الأعلى. ثم يضفرونها ويزينونها بالأشرطة ويعلقونها في مكان بارز على الحائط في المطبخ حتى تأتي سيدة السنة القادمة. ويرقص الحصادون في عشاء الحصاد ويسمونه السيدة.

وفي بعض المزارع في غيرلوتش في دمبارتونشاير، وحوالي العام 1830، يسمون آخر قبضة حنطة واقفة السيدة. وكانت تُقسم إلى قسمين يضفرونها وتقطعها بالمنجل فتاةٌ يُعتقد أنها محظوظة لأنها ستتزوج بسرعة. وعندما تُقطع يجتمع الحصادون ويرمون مناجلهم عليها. وكانت السيدة تُلبَس بالأشرطة وتُعلق في المطبخ قريبة من السقف حيث تُحفظ هناك عدة سنوات وعليها تاريخها. ويسمى عشاء الحصاد كيرن، وفي مزارع أخرى في غيرلوتش كانوا يسمون آخر قبضة رأس السيدة. وكانت تُضفر بعناية وتُزين بالأشرطة وتُعلق في المطبخ مدة سنة ثم توزع حبوبها على الدواجن بعد ذلك.

وفي أبرديشاير تحمل القبضة الأخيرة إلى المنزل في موكب بهيج من الحصادين. ثم تُقدَّم إلى سيدة المنزل التي تلبسها كي تحتفظ بها حتى تلد المهرة فلواً. ثم تُنزل السيدة وتقدم للمهرة كوجبة أولى. وأي إهمال لهذا الطقس سيتسبب بأن يكون الفلو الجديد صعب المراس شَكِساً، ويعم البلاء سائر الأعمال الزراعية في ذلك الموسم. وفي شمال شرق أبردينشاير تسمى القبضة الأخيرة كلاياك. وتقطعها فتاة صغيرة موجودة هناك وتُلبَس على أنها امرأة. وتؤخذ إلى البيت وسط شعور بالنصر ويُحتفظ بها هناك حتى يوم ميلاد المسيح ثم تُعطى بعدها لمهرة حامل، وإذا لم توجد تعطى لبقرة أنجبت عجلاً. وفي أمكنة أخرى كانت المهرة توزع على القطيع في المزرعة. ففي فيفيشاير تسمى القبضة الأخيرة السيدة وتقطعها فتاة ويُصاغ منها دمية تربط بالأشرطة تعلق بواسطتها على الحائط في مطبخ المزرعة حتى الربيع القادم. كذلك يتبع هذه العادة سكان إفرنيسشاير وساذرلاندشاير.

وفي وقت أكثر نضجاً لكن ضمن عمر الشباب، تأخذ روح الحنطة تسمية العروس، عروس الشوفان أو عروس القمح، تسميات يمكن منحها للمرأة التي تربطها. ففي موسم حصاد القمح في ماغليتز، مورافيا، يُترك قسط قليل من القمح واقفاً بعد حصاد القمح كله. ثم تقطع هذه القبضة المتبقية وسط فرح الحصادين على يد فتاة صغيرة ترتدي على رأسها إكليلاً من سنابل القمح وتأخذ اسم عروس

القمح. ويعتقدون أنها ستكون عروساً حقيقية في تلك السنة. وبالقرب من روزلن وستونهافن في أسكتلندة، تأخذ القبضة الأخيرة اسم العروس وتوضع فوق الموقد وتربط في شريط على السنابل من الأسفل وشريط آخر على الخصر.

ويطلقون أحياناً اسم العروس ببُعده الأعمق كرمز للطاقة الإنتاجية للخضرة ويتعدى هذا الاسم ليشمل العروس والعريس. ففي فوهارز يُلفُّ رجل الشوفان وامرأة الشوفان ويرقص الحصادون في احتفالهما. وفي ساكسونيا الجنوبية يجتمع عريس الشوفان مع عروس الشوفان في احتفال الحصاد. أما عريس الشوفان فهو رجل ملفوف بالكامل بسنابل الشوفان، أما عروس الشوفان فهو رجل بلباس امرأة لكنه غير ملفوف بالقش. ويجرونهما في عربة إلى دار المِزر حيث يرقصون. وعند بداية الرقص يسحب الراقصون سنابل الشوفان الواحدة تلو الأخرى من العريس بينما يناضل هو كي يظل مستوراً لكن لابد له من أن يقف عارياً في النهاية ليتعرض إلى الكثير من ضحك أصحابه ومزاجهم. وفي سيليسيا النمسوية يحتفل الشباب بطقس عروس القمح في نهاية موسم الحصاد. تقوم فيه المرأة التي قطعت القبضة الأخيرة بدور عروس القمح وتُلبَس تاجاً من سنابل القمح والورود. ثم تقف بزينتها هذه بجانب العريس وبرعاية الوصيفات في عربة يجرها زوج من الثيران، وكأنهما في موكب زواج فعلي، إلى الخان حيث يستمر الرقص حتى الصباح. وفي وقت متأخر من ذلك الفصل يُحتفل بزفاف عروس الشوفان بالطريقة البدائية نفسها. وحوالي نيسي في سيليسيا، يلبسون ملك الشوفان وملكة الشوفان على أنهما عريسان ويجلسان في مسحاة يجرها ثور إلى القرية.

في هذه الأمثلة التي أدرجناها هنا يتم تشخيص روح الحنطة بشكليها الذكري والأنثوي. لكنها تظهر أحياناً بشكلين أنثويين أحدهما عجوز والآخر شاب تساوقاً مع ديميتر وبيرسيفون الإلهين الإغريقين. ورأينا كيف أنه في أسكتلندة وعلى الأخص وسط متكلمي اللغة الغيليَّة، يدعون القبضة الأخيرة **الزوجة** وأحياناً **السيدة**. ومازالوا في بعض أنحاء أسكتلندة يقطعون الزوجة والسيدة في الوقت نفسه. ليس هناك تقرير واضح لهذه العادة لكن يبدو أنها هي القاعدة العامة؛ فهم أحياناً يقطعون الزوجة القديمة من السنابل الأولى وتُمرَّر على المزارع التي فيها العمل بطيء لتقاعس أصحابها. وفي حين يحتفظ المزارع بسيدته الخاصة كتجسيد لروح الثمر

والحنطة، يمرر **الزوجة العجوز** بأسرع مايمكن على جيرانه، وقد تمر السيدة العجوز على مزارع المقاطعة كلها قبل أن تجد مكاناً تريح فيه رأسها المبجل. وتتخذ منزل آخر من حصد حقله مقاماً لها وبالتالي تعتبر ضيافتها إساءة مؤذية لأنهم يعتقدون أن الفقر سيحل على مضيفها كما يصيب الشحُ بدارَ الموسم القادم. وفي بيمبروكشاير لا يسمون القبضة الأخيرة **السيدة** بل **الساحرة القبيحة**، ويمررونها بسرعة إلى المزرعة المجاورة التي مازال الحصاد جارياً فيها فيضطر أصحابها ان يستلموها على مضض. فإذا كانت السيدة العجوز رمزاً لروح الحنطة من السنة المنصرمة مقارنة مع تسمية السيدة، فمن الطبيعي أن تجلب على الفلاحين سحراً سيئاً مقارنة مع ابنتها الممتلئة الجسم الجذابة والمتوقع منها أن تكون بدورها أم الحبوب الذهبية عندما تدور إلى الخريف القادم. وتبدو رغبة الفلاحين في التخلص من أم الحنطة العقيمة العاجزة واضحة في العادات المتبعة في أواخر الدراسة وعلى الأخص عند نقل الدمية القشية إلى المُزارع المجاور الذي ما زال يحصد حنطته.

هناك أوجه تشابه لافتة بين العادات التي وصفناها للتو والعادات الربيعية التي شرحناها في فصل سابق من هذا الكتاب. وجه التشابه الأول هو أنه في عادات الربيع تُمثَّل روح الشجرة بشجرة أو بشخص، كذلك تُمثّل روح الحنطة بالحزمة الأخيرة أو بالشخص الذي يقطعها أو يربطها أو يدرسها. يتضح هذا التساوي بين الشخص وبين القبضة خلال التساوي في تسميتهما بالحزمة ولفها أو لفه بالقش، وتقضي العادات المتبعة في أماكن عديدة أن تقوم أكبر امرأة متزوجة بإعطاء الحزمة الأخيرة هيئة بشرية ويسمونها **الأم**، لكن عند تسميتها **بالسيدة** يجب أن تقطعها أصغر فتاة. هنا يتم اختيار الشخص الذي يمثل الروح بشكل يتناسب مع روح الحنطة ذاتها من حيث العمر المفترض لروح الحنطة تماماً كالأضاحي البشرية التي كان يقدمها المكسيكيون لرفع سوية نمو الذرة بشكل يتساوق مع عمر الذرة. ففي العادات المكسيكية كما في الأوربية كانت الكائنات البشرية تمثل روح الحنطة أكثر مما تمثل الأضاحي المقدمة لها. أما وجه التشابه الثاني فهو أثر روح الشجرة التخصيبي على الخضرة والماشية وحتى على النساء. ويظهر ذلك الأثر المفترض واضحاً خلال أخذ حبات الحزمة الأخيرة ونثرها على الحنطة الفتية في الربيع أو مزجها مع بِدار الحنطة. أما أثرهاعلى الحيوانات فهو واضح من خلال

تقديم الحزمة الأخيرة للمهرة أو الفلو، أو لبقرة أنجبت عجلاً، أو لأحصنة تمارس الحراثة لأول مرة. وأخيراً نستدل على أثرها في النساء خلال تقديم حزمة الأم - التي يعطونها شكل امرأة حامل - إلى زوجة المزارع. معتقدين أن المرأة التي تحزم القبضة الأخيرة تلد طفلاً في ذلك العام؛ وربما أيضاً تسبب هذه القبضة الزواج لمن يحصل عليها.

من الواضح أن عادات الربيع والحصاد تعتمد على المبادئ القديمة ذاتها، وتشكل جزءاً من الوثنية البدائية التي بلا شك مارسها أجدادنا قبل فجر التاريخ بوقت طويل. ومن بين آثار الطقوس البدائية يمكن ملاحظة مايلي:

1- ليس هناك فئة معينة من الأشخاص تتفرد في ممارسة تلك الشعائر، أو بالأحرى ليس هناك كهنة؛ إذ يمكن لأي شخص أن يمارس تلك الشعائر.

2- لا تُؤدى تلك الشعائر في أماكن معينة، أي ليس هناك معابد. ويمكن أداؤها في أي مكان حسب ما تقتضيه الشعيرة.

3- لم يميزوا الآلهة بل كل ما أدركوه هو الأرواح. (أ) فالأرواح تتميز عن الآلهة بأنها تقتصر في تأثيرها على عمليات معينة في أجزاء معينة من الطبيعة. وتأخذ تسميات عامة وليس أسماء عَلَم. كما تتسم بالعمومية وليس الإفرادية، أي أن هناك عدد غير محدود من أرواح الصنف الواحد وهي كلها متشابهة لا تتميز بالفردية فيما بينها وليس هناك تقاليد تدل على أصلها أو حياتها أو مغامراتها أو شخصيتها. (ب) ومن الناحية الأخرى تتميز الآلهة عن الأرواح بأنها تختص بمجالات طبيعية غير محدودة، صحيح أنها محدودة بمكان معين تسكنه بشكل عام؛ لكنها لاتقتصر عليه؛ لأنها تطلق قواها خيرةً كانت أم شريرة في مجالات الطبيعة أو الحياة الأخرى. كما تحمل الآلهة أسماء عَلَم مثل ديميتر وبيرسيفون ودايونيسوس وتتفرد بشخصياتها ولها تاريخ يظهر واضحاً في الأساطير السائدة والأعمال الفنية التي تمثلهم.

تميل الطقوس إلى كونها سحرية أكثر منها استرضائية. أي أنه يمكن خلالها بلوغ الأهداف المرجوة ليس باسترضاء الكائنات الإلهية بالأضاحي والصلاة أو المديح بل خلال طقوس من شأنها التأثير في مسار الطبيعة مباشرةً بفعل التعاطف المحسوس

أو التشابه بين الشعيرة والأثر الناتج المرجو منها. بناءً على هذه المعايير تستحق عادات الربيع والحصاد السائدة في المجتمع الفلاحي الأوربي أن تُصنَّف على أنها بدائية لأنه ما من فئة من الناس يمكن استبعادهم من ممارستها بل يمكن أن يقوم بها عامة الناس كباراً وصغاراً، سادة وعبيداً، نساءً ورجالاً ليس في المعابد أو الكنائس بل في الغابات والوديان قرب الغدران أو مخازن الحبوب في المنازل أو حقول الحصاد. أما الكائنات الخارقة التي افترضوا وجودها فيها فهي أرواح أكثر منها آلهة، وتقتصر وظائفها على أجزاء معينة من الطبيعة، وتحمل أسماء عامة مثل أم الشعير أو المرأة العجوز أو السيدة، وليس أسماء عَلَم مثل ديميتر وبيرسيفون أو دايونيسوس. كما تحمل صفات معروفة لدى العامة لكن تاريخها الشخصي ليس مجالاً أسطورياً، لأنها موجودة ضمن فئات وليس في أفراد، ولايمكن تمييز أفراد الفئة الواحدة عن بعضها بعضاً. والدليل على ذلك هو أن كل حقل يملك أم حنطة خاصة به، أو امرأة عجوزاً أو سيدة؛ لكن أم الحنطة هي كمثيلاتها وكذلك الأمر مع المرأة العجوز أو السيدة. وأخيراً نرى في عادات الحصاد كما في عادات الربيع تأخذ الشعيرة شكلاً سحرياً وليس استرضائياً. ويبدو هذا واضحاً في رمي أم الحنطة في النهر بغية ضمان المطر والرطوبة للموسم؛ وفي جعل المرأة العجوز ثقيلة بغية تثقيل موسم السنة القادمة؛ وفي نثر الحبوب من الحزمة الأخيرة بين نبتات الموسم الجديد؛ وفي إعطاء الحزمة الأخيرة للماشية لتدعم استمرارها.

الفصل السادس والأربعون
أم الحنطة في شتى بقاع الأرض

1ـ أم الحنطة في أمريكا

ليست الشعوب الأوربية قديمةً كانت أم حديثة هي الوحيدة التي شخصت الحنطة على أنها إلهة أم، بل خطرت ذات الفكرة البسيطة للأعراق الزراعية الأخرى في مناطق بعيدة واستُخدمت مع حبوب محلية أخرى غير القمح والشعير. كان لأوروبا أم القمح وأم الشعير أما أمريكا فكان لها أم الذرة ولأنديز الشرقية أم الأرز. وهنا سأشرح بالأمثلة أشكال التشخيص في أصقاع الأرض بادئاً بالتشخيص الأمريكي للذرة.

رأينا كيف سادت عادة الاحتفاظ بالحزمة الأخيرة مضفورة عند الشعوب الأوربية، وكيف يحتفظون بالدمية في بيت المزرعة من حصاد إلى آخر. لاشك في أنهم يقصدون – أو على الأقل كانوا يقصدون أصلاً – بالاحتفاظ بممثل روح الحنطة بغية الحفاظ على الروح نفسها حيةً ناشطة على مدار السنة كي تنمو الحنطة وتترعرع. تتوافق هذه العادة كل التوافق مع العادة التي اتبعها أهالي البيرو القدامى كما وصفها المؤرخ الإسباني القديم أكوستا." فهم يأخذون قسطاً معيناً من أكثر الحنطة إثماراً – يسمونها بيروا ـ ويحتفظون بها في مخزن معين مع إجراء طقوس معينة، وبعد انتظار ثلاث ليالٍ يضعون الذرة في أثمن عباءة لديهم ويعبدونها ويبجلونها قائلين أنها أم الذرة الموروثة وبهذه الطريقة يحافظون على الذرة ويزيدونها أضعافاً. في هذا الشهر السادس ـ الذي يوافق أيار ـ يقدمون أضحية معينة ويطلب السحرة من البيروا أن تمنحهم القوة الكافية للاستمرار حتى السنة القادمة؛ فإذا أجابت برفض الطلب يأخذونها إلى المزرعة التي أتت منها ويحرقونها، ثم يأتون ببيروا أخرى ويكررون الطقوس نفسها قائلين إنهم يجدِّدونها بهدف الحفاظ على الذرة،

وإذا أجابت بالموافقة اعتبروها كافية القوة ويتركونها حتى السنة القادمة. مازال هذا الهراء مستمراً حتى الآن، وما زال الهنود يحتفظون بتلك البيروا."

يبدو أن هناك غلطاً ما في هذا التفسير. ربما ما عبده أهالي البيرو واعتبروه أم الذرة هي قبضة الذرة المكسوة وليس البيروا. ويؤكد هذا الرأي ما سمعناه عن أهالي البيرو من مصدر أخر، إذ بلغنا أنهم يعتقدون أن النباتات المفيدة تسكنها كائنات إلهية هي المسؤولة عن نموها. ومن بين هذه الكائنات الإلهية كان هناك ما يسمى أم الذرة (زارا ماما)، كينو ماما وبطاطا ماما. وكانوا يصنعون هذه الأمهات الإلهية من نبات الذرة وأوراق الكينو والكاكاو، ثم يلبسونها ملابس نسائية ويعبدونها. كما اعتقد الهنود أن أم الذرة المكسوة بكامل حليها، تتمتع بقدرتها على زيادة إنتاج الذرة وخلق ذرة جديدة. وربما أخطأ المؤرخ الإسباني أكوستا في فهم رواية أم الذرة التي وصفها فهي لم تكن بيروا الحبوب، بل كانت قبضة الذرة المكسوة برداء فاخر مثل سيدة الحصاد في بالكوهيدر، إذ كانت تُحفَظ سنة كاملة حفاظاً على الذرة وتكاثرها. لكن قوتها قد تضعف قبل الموسم القادم، لذلك كانوا يسألونها عن حالها وإذا أجابت أنها ضعفت، يحرقونها ويصنعون أم ذرة جديدة خوفاً من نفاذ البذور التي تعتمد عليها بذور الذرة الأخرى. وهذا مايؤكد تفسيرنا لعادة قتل الإله دورياً أو في حالات معينة.

2ـ أم الأرز في الإنديز الشرقية

إذا كان لدى القارئ أي شك في ما يتعلق بمعنى عادات الحصاد التي مازال الفلاحون الأوربيون يمارسونها، ربما تلاشت هذه الشكوك عند مقارنة عادات حصاد الأرز التي مارسها الماليين والداياك مع ما يمارسه الهنود في إنديز الشرقية لأن أولئك الشرقيين لم يتقدموا مثل فلاحينا عن المرحلة الذهنية التي تتأصل فيها تلك العادات بل مازالت النظرية والممارسة في انسجام. ومازالت طقوسهم الطريفة قائمة بجدية بينما صارت في أوروبا بقايا متضائلة وتسالي مهرجين تريك المتعلمين إذا ما أرادوا إعطاءها تفسيراً واضحاً. لذلك يمكن أن يسلط البحث في ممارستها أو الإيمان بها الضوء على المعنى الحقيقي لطقوس الحنطة لدى اليونان القدامى وأوروبا المعاصرة.

تعتمد شعائر الأرز التي يتبعها المالاي والداياك على مبدأ بسيط وهو: للأرز روح مثل روح الإنسان. ويفسرون ظاهرة التكاثر والنمو والذبول وموت الأرز بناءً على المبادئ التي تحكم الكائنات البشرية نفسها. ويتخيلون أن أنسجة النبات كما أنسجة الإنسان تحتوي عنصراً حيوياً مستقلاً عن النبات، ويمكن أن ينفصل عنه تماماً دون آثار مميتة، لكن غيابه الطويل يمكن أن يسبب ذبول النبات وموته. ويمكن أن نسمي هذا العنصر القابل للانفصال روح النبات، تماماً مثل العنصر الحيوي الذي يفترض وجوده وهو روح الإنسان. ويعبدون الحبوب بناءً على هذه النظرية أو أسطورة روح النبات مثلما عبدوا الأموات بناءً على أسطورة الروح البشرية. وبهذا يبنون برجاً شاهقاً على أساس هش هزيل.

وبما أنهم يؤمنون أن للأرز روحاً مثل روح الإنسان، يعامله الأندونيسيون بإجلال واحترام كالاحترام الذي يبدونه لأبناء جنسهم. فيولون للأرز المبرعم عناية رقيقة كالتي يولونها للنساء الحبالى؛ فيحجمون عن إطلاق النار بجواره أو إصدار ضجيج في الحقول لئلا يخيفوا روح الأرز فتضعف قدرته على حمل الحبوب؛ كما أنهم وللسبب نفسه لا يتكلمون عن الجثث أو العفاريت في حقول الأرز. ويذهبون أبعد من ذلك عندما يطعمون الأرز المبرعم طعاماً متنوعاً كالذي يقدمونه للنساء الحوامل دعماً لأجنتهم. وعندما تتشكل الحبوب يرون فيها أطفالاً وليدين فتدخل النساء في الحقول وتطعم الأرز طعاماً ليناً كالذي يقدمنه لأطفالهن في السن المماثل. وفي هذا التشبيه بين النساء الولادات والنبات المتنامي وبين الحبوب الفتية وصغار الأطفال يكمن أصل مفهوم اليونانيين عن أم الحنطة وابنة الحنطة، ديميتر وبيرسيفون. لكن إذا كانت روح الأرز الأنثوية سهلة الإخافة فعلينا أن نتخيل كم يعاني الحصادون من حزن عندما يضطرون تحت وطأة الضرورة إلى قص الأرز بسكاكينهم.

في هذا الموسم الحرج عليهم أن يأخذوا كل حيطة ممكنة لإجراء العمل الجراحي أي الحصاد دون إنزال الألم في الأرز. ولهذا السبب يقومون بحصد بذور الأرز بسكاكين من نوع معين بحيث تكون النصول مخفية كي لا تُرهِب روح الأرز قبل اللحظة الأخيرة عندما يقصون رأسها قبل أن تعي السنبلة ذلك. وبناء على الدافع نفسه يستخدم الحصادون لغة خاصة لا تفهمها روح الأرز بحيث لاينذرون أو يلمحون لما ينتظر رؤوسها قبل أن تودع بأمان في السلة.

يمكن أن نتناول من بين الشعوب الأسترالية التي تجسد الأرز قوم الكايان الذين يسكنون بورنيو الوسطى فهم خير مثال على ذلك. لكي يحافظوا على روح الأرز سهلة التطاير يلجؤون إلى طرق عديدة من بينها صنع سلم منمنم وسلة تحتوي على صنانير وأشواك وحبال. تنزل الكاهنة روح الأرز عبر السلم إلى السلة فتعلق هناك بين الأشواك والصنانير والحبال ثم تأخذها إلى مخزن الأرز. أو يستخدمون صندوقاً من البامبو مع شبكة للغرض نفسه. ولكي يضمنوا موسماً وفيراً في السنة القادمة عليهم أن يحافظوا على روح الأرز آمنة في المخازن. كما يتوجب عليهم استعادة الأرواح التي أكلتها الدواب أو وقعت على الأرض وهذا ما ابتكر له الكهنة أدوات عديدة منها وعاء مصنوع من البامبو وفيه أربع صنانير مصنوعة من خشب شجرة مثمرة لتعلق عليها روح الأرز المفقودة ثم تُعلَّق في المنزل. وفي أحيان أخرى ينحتون اثنتين من الأيدي من خشب شجرة مثمرة للغرض نفسه. وفي كل مرة تجلب الزوجة أرزاً من المخزن تسترضي أرواح الأرز كي لا تغضب من سرقة المرأة لها.

شعر قوم الكارين في بورما بالحاجة نفسها للحفاظ على روح الأرز كي ينجو موسمهم. وإذا كان نمو الأرز ضعيفاً في حقلٍ ما، يعتقدون أن روح الأرز (كيلاه) قد حُبِسَت عن الأرز. وإذا استعصى إعادة الروح إلى الأرز لابد له من الإخفاق. ولكي يعيدوا تلك الروح يقولون: " هيا عودي ياروح الأرز عودي! عودي إلى الحقل. عودي إلى الأرز. ببذور من الجنسين عودي. عودي من نهر خو، عودي من نهر كاو، من ملتقى النهرين عودي. عودي من الغرب. عودي من الشرق. من حناجر الطيور، من أفواه القردة ومن بلاعم الفيلة. عودي من منابع الأنهار ومصباتها. عودي من بلاد **شان** **وبورما**. من الممالك البعيدة عودي. من كل المخازن عودي. أيا روح الأرز عودي إلى الأرز."

في سومطرة عند قوم مينانغابور هناك مثيل لأم الحنطة الأوربية وهي أم الأرز. ويؤمنون تماماً أن للأرز روحاً، ويؤكدون أن الأرز المسحون بالطريقة العادية أطيب مذاقاً من الأرز المطحون في المطحنة لأن المطحنة تجرح الأرز وتؤذيه بشكل يهرِّب روحه. كما يعتقد أهالي جافا أن هناك روحاً حارسة مؤنثة تدعى **سانينغ ساري** متضافرة بوجودها مع الأرز حتى إنه يأخذ اسمها، تماماً كما يسمي الرومان الأرز

سيريس. وتتمثل سانينغ ساري بشكل خاص بسنابل وحبات معينة تدعى إندويا بادي وتعني حرفياً (أم الأرز) وهو الإسم الذي يُطلق أحياناً على الحارسة ذاتها. وأم الأرز هذه موضوع الكثير من الطقوس المُقامة عند زراعة الأرز وحصاده بالإضافة إلى حفظه في المخازن. وعندما يقترب وقت بدار البذور في المشاتل أو المساكب حيث يرطبونها بشكل دوري قبل نقلها إلى الحقول، يعمدون إلى أخذ أفضل الحبوب ويعتبرونها أم الأرز ويزرعونها في وسط المسكبة بينما تُزرع بقية الحبوب حولها. ويفترضون أن حالة أم الأرز تنسحب على بقية الأرز فإذا ذوت وذبلت يذوي الأرز ويذبل. أما المرأة التي تبدر البذور في المشاتل فتترك شعرها منسدلاً متدلياً وتبلله بالمياه للحصول على حصاد وفير. وعندما يأتي موعد نقل الأرز من المشتل إلى الحقول يبوؤون أم الأرز موقعاً مميزاً وسط الحقل أو في جانبه ويقولون هذا السحر: "اجعلي من الأرز أضعافاً ومن الجذور سلالاً ولا تجزعي من البرق أو عابري السبيل! لتسعدي في أشعة الشمس؛ ولتأمني في العاصفة؛ وليغسل المطر وجهك!" ومع نمو السنابل تفقد أم الأرز تميزها للناظر لكنهم يصنعون أم أرز جديدة قبل أن تخرج ساحرة أو أكبر امرأة عندما ينضج الأرز ويحين موعد قطعه للبحث عنها، فتراها في أولى السنابل المتموجة مع النسيم. تُربط تلك السنابل مع بعضها بعضاً لكنها لا تُقطع حتى تُحمل أولى السنابل إلى المنزل ليُصنع منها وليمة احتفالية للعائلة والأصدقاء لا بل أيضاً للحيوانات المنزلية لأن سانينغ ساري تفرح إذا ما أكلت الحيوانات من عطاياها الخيرة. وبعد تلك الوليمة تؤخذ أم الأرز إلى المنزل على يد أشخاص مزينين يحملونها تحت مظلة صُنعت بعناية وأناقة إلى المخزن ثم يضعونها في مكان مخصص لها في الوسط. يعتقدون جميعاً أنها تعتني بالأرز في المخزن بل وتزيد من كميته.

وعندما يقترب موسم زراعة الأرز في سيريبس الوسطى يدفن قوم التوموري في الحقول بعضاً من نبات التنبول كهدية للأرواح التي تسبب نمو الأرز. ويتركون الأرز الذي يُزرع حول هذه البقعة لا يحصدونه حتى نهاية موسم الحصاد. وعندما يبدأ الأرز بالنمو تُربط سنابل هذه البقعة إلى بعضها بعضاً لتشكل حزمة يسمونها أم الأرز (إينينو باي) ويضعون أمامها العطايا على شكل أرز وكبد طائر وبيوض وأشياء أخرى. وعندما ينضج الأرز في الحقل تُقص أم الأرز وتُحمل بالاحترام اللائق بها إلى المخزن حيث توضع على الأرض وتُكوَّم فوقها الحُزم الأخرى. وبلغنا أن أبناء

التوموري يعتبرون أم الأرز هبة خاصة لروح الأرز أومونغا التي تعيش على القمر. وإذا لم تُعامل هذه الروح بالطريقة المناسبة، كأن يخرج الأرز من المخزن أناسٌ لايرتدون اللباس اللائق، تغضب وتعاقب المستخف بها بأن تأكل من الأرز ضعف الكمية التي يأخذوها أولئك المستهترون من المخزن؛ وأكد بعضهم أنه سمع تلمظ شفاه في المخزن دلالة على التهام الروح للأرز. أما قوم توراد جاس - وهم يمارسون عادة أم الأرز في الحصاد - فيعتبرونها الأم الفعلية للحصاد كله، لذلك يحفظونها بمنتهى العناية كي لا يتلاشى الأرز المجموع في المخازن.

كذلك في أسكتلاندة تتمثل روح الحنطة العجوز والشابّة على شكل زوجة عجوز(كالياخ) وصبية على التتالي ويمثلون في شبه جزيرة مالاي أم الأرز وابنتها بحُزم مختلفة أو باقات من السنابل في حقل الحصاد. وقد شاهد السير وو سكيت طقس قطع الأرز ونقله إلى المنزل في كودوي في سيلانغور في يوم الثامن والعشرين من كانون الثاني من العام 1897. وقد بحثوا عن السنابل التي مثّلت أم روح الأرز بتقفّي علامات تميز سنابلها. من هذه الحزمة تقطع ساحرة عجوز وبإجلال كبير سبع سنابل وتدهنها بالزيت ثم تربطها بخيط ملون وتعرِّضُها لدخان البخور ثم تضعها في سلة بيضوية صغيرة بعد أن تلفّها بقماش أبيض. هذه السنابل السبع هي بنات روح الأرز والسلة مهدهن. تقوم امرأة أخرى بنقلها إلى منزل المزرعة تحت مظلة تحمي البنات الغضة من حر الشمس. ولدى وصولهن إلى المنزل ترحب نساء المنزل بصغار الأرز ويضعن السلة والسنابل على فراش نوم ووسادة تحت رؤوسهن. وبعد ذلك تقوم زوجة المزارع برعاية صغار الأرز وكأنها مواليد حقيقية، كما تتلقى حزمة الأرز الرعاية التي تولى لأبوَي المولود الحقيقي نفسها. ويُعامَل ما تبقى من الحزمة بعد أخذ روح الأرز منها وكانها براعم شجرة جديدة ثم تُسحق وتُبَعثر كل مساء مدة ثلاثة أيام متتالية. لذلك بعد ولادة طفل حقيقي يأخذون براعم ثمار معينة ولب الزهرة وأنواعاً من الموز وجوزة هند صغيرة ويمزجونها بالسمك المجفف والملح والحمض وتوابل القريدس وكل ما لذ وطاب ليصنعوا منه نوعاً من السَلَطة تُقدَّم إلى الأم والطفل ثلاثة أيام متتالية. تحصد زوجة المزارع الحزمة الأخيرة من الحقل وتحملها إلى المنزل وهناك تسحقها وتمزجها مع روح الأرز. ثم يأخذ المُزارع روح الأرز والمزيج الذي صنعته زوجته من القبضة الأخيرة ويضعها في برميل دائري يستخدمونه لذلك

الغرض. كما يمزجون بعضاً من روح الأرز بالبذور التي سيبدرونها السنة القادمة. وهنا نرى في أم الأرز وطفلة الأرز في شبه جزيرة مالاي مثيلاً لديميتر وبيرسيفون من اليونان القديمة.

وجرت العادة في أوروبا أن تُمثَّل روح الأرز بالعروس والعريس في طقس مشابه يتبعونه في أيام الحصاد في جافا. وقبل أن يبدأ الحصادون بقص الأرز يأخذ الكاهن أو الساحر عدداً من سنابل الأرز ويدهنها بمرهم ويزينها بالورود. وهنا يسمونها (عريس الأرز وعروسه) ويحتفلون بوليمة زفافهما ثم يبدأ قص الأرز بعدها مباشرةً. وعندما يأتون بالأرز يقومون بأخذ جزء من المخزن ويخصصونه كغرفة للعروسين يفرشونها ببساط جديد ومصباح وكل ما يحتاجه العروسان في الحمام. كما يمثلون المدعوين للزفاف بحزم الأرز التي توضع بجانب عريس الأرز وعروسه. ولايكملون حلقة المدعوين قبل إنهاء الحصاد لأنهم يحجمون عن الدخول إلى المخزن مدة أربعين يوماً كي لا يزعجوا العروسين الجديدين.

وفي جزيرتي بالي ولومبوك، يبدأ صاحب الحقل بقص **الأرز الأولي** بنفسه وبيديه ويربطه في حزمتين تتألف كل منها من مئة وثماني سنابل بورقها. تمثل إحدى الحزمتين الرجل والأخرى المرأة ويسمونهما الزوج والزوجة. تُربط الحزمة الذكرية بخيط بحيث لا تظهر أوراقها أبداً، بينما تظهر أوراق الحزمة الأنثوية لتمثل الشعر المنسدل. وزيادةً في تمييزها كأنثى تُربط حول الحزمة قلادة مصنوعة من قش الأرز. وعندما يؤتى بالأرز إلى المنزل تُحمَل الحزمتان وهما آخر ما يُنقل إلى المخزن على رأس امرأة ويوضعان منتصبتين نوعاً ما على وسادة من الأرز. وقد بلغنا أن هذه الإجراءات كلها تهدف إلى زيادة المخزون بحيث يحصل صاحبها على أرز يفوق كمية الأرز التي وضعها. وللسبب نفسه يقول أهالي **بالي** عندما يأتون بالحزمتين الزوج والزوجة إلى المخزن: " فلتزيدي وتتضاعفي بلا توقف." وعندما يُستهلك الأرز كله في المخزن تبقى الحزمتان وحيدتين في المبنى الخاوي حتى تتلاشى أو تأكلها الفئران. وأحياناً تقود قسوة الجوع لدى بعض الأفراد إلى أن يأكلوا هاتين الحزمتين فيُنظر لهؤلاء البؤساء نظرة احتقار ويصفونهم بأنهم كلاب وخنازير. ولايقدم أحد على بيع هاتين الحزمتين المقدستين مع سائر الأرز.

وتنتشر فكرة تكاثر الأرز بفعل الذكر والأنثى عند قوم سيز في بورما العليا. يجففون الأرز كامل الحبة ويُكوَّم بغية الدراسة ويُدعى كل الأصدقاء إلى أرض البيدر ويقدمون لهم الطعام. ويقسمون الأرز إلى قسمين ينشرون أحدهما للدراسة ويتركون القسم الآخر على شكل كومة يوضع عليها الطعام والأرواح ويخاطبها أحد المسنين ويصلي لأم وأبي الأرز أن يزيدا من الموسم القادم وأن تحمل البذور أضعافاً. ثم يتقدم الجميع يأكلون ويشربون ويمرحون. هذا هو الطقس وهو المناسبة الوحيدة التي يوحون خلالها لأم الأرز وأبيه.

3ـ روح الحنطة مجسدة في كائنات بشرية

إذن فالنظرية التي تحكي عن أم الحنطة وسيدة الحنطة وغيرهما في أوروبا والمتجسدة في شكل نباتي إحياءً لروح المحصول لها الكثير من الأدلة لدى شعوب العالم الأخرى؛ فهذه العادات تضاءلت لدى الشعوب الأوروبية بفعل التطور الذهني وبقيت شاهداً على الدوافع الأصلية لكنها صارت شعائر بالية هبطت إلى مستوى التفاهة. وقد يتذكر القارئ هنا أن نظرية مانهاردت القائلة بأن روح الحنطة تظهر ليس في الخضرة فحسب بل بشكل بشري إذ يُعتبر الشخص الذي يقص القبضة الأخيرة أو يضرب الضربة الأخيرة تجسيداً لروح الحنطة وكأنه هو قبضة الحنطة التي يحصدها أو يدرسها. وتأخذ تلك الروح الشكل النباتي فقط فيما يوازي هذه العادات عند الأعراق غير الأوروبية. وبقي لنا أن نبرهن أن المجتمعات الفلاحية غير الأوروبية قد أدركت روح المحصول متجسدةً في نساءٍ ورجالٍ أحياء. وعلي هنا ان أذكِّر القارئ بأن برهاناً من هذا النوع إنما هو وثيق الصلة بموضوع هذا الكتاب لأنه كلما اكتشفنا أمثلة عن تمثيل حياة أو روح النبات في كائنات بشرية، كلما سهل علينا تحديد موقع ملك الغابة في نيمي من هذه الأرواح.

جرت العادة عند قومي ماندانس ومينيتاريس في أمريكا الشمالية أن يقيموا احتفالاً في الربيع يسمونه احتفال طب الحنطة للنساء. وكانوا يعتقدون أن امرأة عجوزاً لاتموت هي المسؤولة عن نمو الحنطة وأنها تسكن في مكان ما في الشمال وهي التي ترسل طائر الماء المهاجر مندوباً عنها. وكل نوع من هذه الطيور يمثل

محصولاً معيناً يزرعه الهنود. الإوزة تمثل الذرة، والتم البري (الإوز العراقي) يمثل القرع، والبط البري يمثّل الفول. لذلك وعندما يظهر رسل المرأة العجوز ذوو الريش في الربيع يقيم الهنود احتفال طب الحنطة للنساء. وينصبون سقالات يعلق عليها الناس لحوماً مجففة وأشياء أخرى كعطايا للمرأة العجوز وفي يوم معين تتجمع نساء القبيلة المسنات اللواتي يمثلن العجوز التي لاتموت حول السقالات تحمل كل منهن كوز ذرة مربوطاً إلى عصا. يغرسن تلك العصيات في الأرض ويرقصن حول السقالات ثم يسحبن العصيات من الأرض. وفي الوقت نفسه يقوم الرجال المسنون بالضرب على الطبول ويهزون الخشاخيش مصدرين موسيقا تصحب أداء النساء العجوزات. ثم تأتي الصبايا ويضعن اللحم المجفف في أفواه العجوزات ليتلقين مقابل ذلك ذرة مقدسة تأكلها الصبايا. ثم يضعن ثلاث أو أربع حبات من الحنطة المقدسة في أطباق الصبايا كي يمزجنها لاحقاً ببذور الحنطة لما فيها من قدرة إخصابية. أما اللحم المجفف المعلق على السقالات فهو للعجوزات لأنه يمثل العجوز التي لاتموت. وهناك احتفال طب حنطة مشابه يُقام في الخريف لجذب قطعان الجواميس بغية تأمين مؤونة اللحم. في هذا الاحتفال تحمل كل امرأة على ذراعها نبتة ذرة مقتلعة. ويسمون تلك النبتة بالإضافة إلى الطيور التي ترمز إليها **العجوز التي لاتموت** ويصلون لها بالخريف قائلين: " ارحمينا ياأمنا! ولا تبكري في إرسال البرد القارس حتى نحصل على ما يكفينا من اللحوم! ولاتدعي الطرائد تهرب كي يبقى لنا ما نأكله في الشتاء!" وعندما تطير الطيور جنوباً في الخريف يعتقد الهنود أنها راحلة إلى المرأة العجوز آخذة معها العطايا التي عُلِّقت على السقالات وخاصة اللحم المجفف الذي أكلته. هنا نرى كيف يدرك الهنود روح الحنطة أو إلهة الحنطة كوجود مادي في النساء العجوزات اللواتي بقدرتهن على تمثيلها يحصلن على جزء من العطايا المقدمة لها.

وفي بعض أنحاء الهند تُمثَّل إلهة الحصاد غاوري بفتاة عازبة ويصنعون حزمة من نبات البلسم البري يعطونها شكل امرأة ويلبسونها قناعاً ورداءً وزينةً. ويعبدون الخضرة والبشر اللذين يمثلان الإلهة وكل ما يقصدونه من الطقس هو الحصول على موسم أرز جيد.

4ـ التشخيص المزدوج للحنطة كأم وابنة

مقارنة مع أم الحنطة في ألمانيا وسيدة الحصاد في أسكتلندة تأتي ديميتر وبيرسيفون في اليونان نتاج تطور ديني. ولابد أن بعض أفراد العائلة الإريانية في اليونان قد اتبعوا يوماً ما عادات حصاد كالتي اتبعها السلتيون واليتونيون والسلافيون والتي مورست خارج نطاق العالم الإرياني من قبل هنود البيرو وأهالي الأنديز الشرقية وهذا مايبرهن أن الأفكار التي تعتمد عليها هذه العادات غير مقتصرة على عرق دون آخر بل تخطر بشكل طبيعي لجميع المجتمعات الزراعية الفطرية. من المحتمل إذن أن تكون ديميتر وبيرسيفون، الشخصيتان الإغريقيتان المهيبتان في الميثولوجيا اليونانية قد تطورتا عن المعتقدات البسيطة نفسها والتي مازالت سائدة بين الفلاحين المعاصرين وأنها تمثلتا في الدمى البسيطة المصنوعة من الحزمات الصفراء في الكثير من حقول الحصاد ولوقت طويل قبل تحولهما إلى تماثيل برونزية ورخامية نابضة على أيدي فيدياس وبراكسيتيليز المحترفة. إنها آثار باقية عن أزمان غابرة – أو لنقل رائحة حقول الحصاد – استمرت لتأخذ لقباً أُطلِق على بيرسيفون وهو السيدة كور. فإذا كانت نسخة ديميتر الأولى هي أم الحنطة في ألمانيا، تكون نسخة بيرسيفون الأولى هي سيدة الحصاد التي صارت تُصنع خريفاً بعد خريف من الحزمة الأخيرة في سهول باركوهيدر في أسكتلندة. ولو اطلعنا أكثر على ممارسات فلاحي اليونان القدامى لاكتشفنا أنهم استمروا في صنع أمهات الحنطة (ديميترات) والسيدات (بيرسيفونات) من الحنطة الناضجة في حقول الحصاد في العصر الكلاسيكي. لكن للأسف ما نعرفه عن ديميتر وبيرسيفون أنهما من أهالي المدن ومقيمان في المعابد الفخمة وكانا محط اهتمام كبارالكتاب القدامى الذين أهملوا البدائيين وشعائرهم الطريفة. وإن اهتموا بهم لم يفكروا يوماً بالعلاقة التي تربط بين دُمى سنابل الحنطة في جذامة الحقول المشمسة والآلهة الرخامية في ظلال المعابد الظليلة. وحتى تلك الكتابات عنهما كأبناء مدينة مثقفين لا تخلو من إشارات لديميتر البدائي كما تظهره أنأى قرى ألمانيا. لذلك فالقصة التي تحكي عن إنجاب أياشن للطفل بلوتوس (الثروة والوفور) من ديميتر في حقل حُرِث ثلاث مرات ربما شبيهة بعادة بروسية الغربية التي تمثل ولادة طفل في حقل الحصاد. في هذه العادة تتظاهر الأم أنها أم الحنطة (زيتنياماتكا)، بينما يمثل الطفل مولود

الحنطة، والطقس كله عبارة عن سحر لضمان محصول السنة القادمة. تشير العادة والأسطورة إلى ممارسة ـ حقيقيةً كانت أم تقليدية ـ سادت سابقاً في حقول الربيع الشاطئة أو جذامة الخريف. وقصد منها الإنسان البدائي بث حياته النشيطة في طاقة الطبيعة المتضائلة. وسأقدم لاحقاً لمحة عن البدائية خلف ديميتر المتحضر عندما نأتي إلى نقاش وجهٍ آخر من وجوه تلك الآلهة الزراعية.

ربما لاحظ القارئ أنه في العادات الشعبية المعاصرة تتمثل روح الحنطة إما بأم الحنطة (العجوز وما إلى هنالك) أو بالسيدة (طفل الحصاد وما إلى هنالك)، وليس بأم الحنطة والسيدة مجتمعتين. لماذا إذن يمثل الإغريق الأم والإبنة معاً؟

جرت العادة البريتونية أن تُصنع الأم وهي مجسم كبير من الحزمة الأخيرة وبداخلها دمية الحنطة، والواضح هنا أنهما يمثلان أم الحنطة وابنتها التي لم تولد بعد، وكذلك العادة البروسية عن المرأة التي تلعب دور أم الحنطة لتمثل الحبوب الناضجة، بينما تمثل الطفلة حنطة السنة القادمة والتي هي طبعاً ابنة لحنطة هذه السنة لأنها تنبثق من بذورها. وكذلك رأينا كيف يقوم المالاي في شبه الجزيرة وأحياناً سكان أعالي أسكتلندة بتمثيل روح الحنطة بأنثى مضاعفة ـ إحداها مسنة والأخرى شابة ـ باستخدام سنابل مأخوذة من المحصول الناضج. وتأخذ روح الحنطة المسنة في أسكتلندة اسم كارلين والروح الشابة اسم السيدة، أما في شبه جزيرة المالاي فيرون في روحَي الأرز أماً وابنتها. قياساً على ذلك تغدو ديميتر محصول هذا العام الناضج وبيرسيفون البذور المأخوذة منها لتستخدم بداراً في الخريف القادم كي تُبعَث ثانية في الربيع. إن نزول بيرسيفون إلى العالم السفلي هو تعبير أسطوري عن بدارِ البذور وظهورها في الربيع يعني انبثاق الحنطة الجديدة. وبهذه الطريقة تصبح بيرسيفون هذه السنة ديميتر السنة القادمة وهنا يكمن أصل الأسطورة. لكن ومع تطور الفكر الديني لم تعد الحنطة تُمثَّل بكائن يمر بكامل دورة الولادة والنمو والتكاثر والموت ضمن سنة واحدة بل كإلهة فانية اقتضى الإتساق التضحية بأحد التمثيلين، الأم أو الابنة. لكن بما أن ازدواجية مفهوم الحنطة كأم وابنة متأصل عميقاً في ذهن العامة صَعُب على المنطق اجتثاثه وكان لابد من إيجاد مساحة في الأسطورة الجديدة لوجود الأم وابنتها. وهذا ما حصل خلال إعطاء بيرسيفون شخصية الحنطة المبدورة في الخريف والشاطئة في الربيع بينما ظلت ديميتر تلعب دور

أم الحنطة المنكوبة التي تنعي اختفاءها السنوي تحت الأرض وتغتبط لظهورها في الربيع. فبدلاً من التعاقب المنتظم للكائنات الإلهية كي تحيا إحداها سنة ثم تلد خَلَفَها، أتت الأسطورة الجديدة لتخلد كائنتين إلهيتين، تختفي إحداهما في الأرض ثم تنبثق سنوياً، بينما تتفرغ الأخرى لتبكي في الربيع وتفرح في الخريف.

تفترض نظرية تمثيل الحنطة المزدوج في الأسطورة الإغريقية أن كلا التشخيصين (ديميتر وبيرسيفون) أصليان. لكن إذا ما افترضنا أن الأسطورة الإغريقية قد بدأت بتمثيل أحادي فيمكن تفسير ظهور التمثيل الآخر على النحو التالي. عند النظر إلى عادات الحصاد التي تحدثنا عنها يمكننا ملاحظة اشتراك مفهومين منفصلين لروح الحنطة. واعتُبرت روح الحنطة في بعض العادات متأصلة باطنية، بينما اعتُبرت في بعضها الآخر خارجة عنها. فعندما تُسمى حزمة معينة بروح الحنطة وتُكسى بالملابس وتُعامل بإجلال تُعتبر باطنية في الحنطة. لكن عندما يُقال إنها تنمي المحصول خلال تمريرها في الحقل أو تؤذي حقول من تُكِنُّ لهم الضغينة إنما تعتبر منفصلة عن الحنطة رغم ما لها من تأثير فيها. وهذه النظرة الأخيرة إنما تجعلها مؤهلة لأن تصبح إلهة الحنطة هذا إن لم تكن قد أصبحت. ولا نشك في أن النظرة الأولى التي تعتبرها باطنية في الحنطة هي أسبق من النظرة الأخرى لأن النظر إلى الطبيعة على أنها مسكونة بالأرواح هي أسبق من النظرة القائلة بأنها محكومة بآلهة خارجية. ويمكن أن نخرج بالمبدأ التالي: " الأرواحية تسبق الربوبية". ويبدو أن العادات الأوربية الفلاحية تعتبر روح الحنطة باطنة في الحنطة تارةً وخارجة عنها تارةً أخرى. بينما يُنظر لديميتر في الميثولوجيا الإغريقية على أنها إلهة الحنطة أكثر منها روح باطنة فيها. أما العملية الفكرية التي تقود إلى الانتقال من فكرة إلى أخرى فهي الأنثروبومورفية (خلع الصفات البشرية على الإله)، أو التوظيف التدريجي للأرواح الباطنة لتحمل مزايا بشرية أكثر. ومع تخلص الإنسان من بدائيته قَوِيَ ميله إلى أنسنة آلهته؛ وكلما ازدادت إنسانيتهم كلما اتسعت الفجوة التي تفصلهم عن الأشياء الطبيعية التي كانوا يسكنونها كأرواح. لكن مع عملية التخلص من البدائية لم يمش الناس في الجيل نفسه جنباً إلى جنب؛ وعلى الرغم من تلبية الآلهة الأنثروبومورفية للحاجات الدينية وللذكاء الأكثر تطوراً يتمسك أفراد المجتمع الرجعيون بالأفكار الأرواحية. وعندما يتم فصل روح الشيء

عن جسمه الطبيعي مثل الحنطة ويضفي عليه صفات بشرية ويتحول إلى إله يحكمه، يفقد الشيء حيويته مع انسحاب الروح منه ويدخل في فراغ روحاني. لكن الخيال العام يضيق ذرعاً بهذا الفراغ لعدم قدرته على إدراك الأشياء خالية من الحيوية فيسارع إلى خلق كائن أسطوري جديد يزود الأشياء الفارغة بسكانها. لهذا نرى الشيء نفسه متمثلاً في الميثولوجيا بكائنين منفصلين: الأول يتمثل بالروح القديمة المنفصلة عنه والراقية إلى مستوى الإله؛ والثانية بالروح الجديدة التي خلقها خيال العامة لتملأ الفراغ الذي تركته الروح القديمة بعد ارتقائها إلى أجواء أسمى. وهنا تظهر حيرة الميثولوجيا بالتدبر بتشخيصين منفصلين للشيء الواحد، وكيف لها أن تؤلف بينهما وتعطيهما المكان المناسب في المنظومة الأسطورية. فعندما يتم إدراك الروح القديمة أو الإله الجديد الذي يخلق ذلك الشيء يسهل حل المعضلة. بما أن الشيء هو من نتاج الروح القديمة ومتجسد في الجديدة، على الأخير ـ كروح للشيء ـ أن يدين بوجوده للسابق وتحتل الروح القديمة موقع المنتِج من المُنتَج، وحسب الميثولوجيا موقع الوالد من الولد وبما أن الروحين أنثويتان تكون علاقتهما علاقة الأم بابنتها. وبهذه الطريقة ربما بدأ التشخيص الفردي للحنطة على أنها أنثى ثم حولها الخيال الأسطوري إلى تشخيص مزدوج كأم وابنة. وربما نكون متسرعين عندما نجزم أن تشكل شخصيتي ديميتر وبيرسيفون جرى بهذه الطريقة لكنه يبدو حدساً منطقياً. فمثلاً رأينا كيف تم التعامل مع الإلهين الزوجين أيسيس وأوسيريس كتجسيدين للحنطة. وحسب الفرضية التي وضعناها للتو تكون أيسيس هي روح الحنطة القديمة ويرونها أحياناً على أنها أخ وزوج وابن. وطبعاً للميثولوجيا الحرية في الجمع بين الإلهين بأكثر من طريقة. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذا التفسير لوجود الآلهة المزدوجة مثل ديميتر وبيرسيفون وإيسيس وأوسيريس هو مجرد حدس ولم نسقه هنا إلا لأنه يستحق الذكر.

الفصل السابع والأربعون
ليتيرسيس

1ـ أغاني حصادي الحنطة

في الصفحات السابقة حاولنا إثبات أن أم الحنطة وسيدة الحصاد في شمالي أوروبا هما نسخة ديميتر وبيرسيفون الأولى. وبإضافة ميزة واحدة تصبح المقارنة بينهما كاملة. أما الحدث الأساس في الميثولوجيا الإغريقية ـ موت بيرسيفون وبعثه ـ فهو الذي يجعلهما مقترنين بطبيعة الآلهة النباتية ويربطهما بطقوس أدونيس وآتيس وأوسيريس ودايونيسوس. وبفضل هذا الحدث وجدت الأسطورة مكانها في نقاشنا هذا عن الإله الميت. ولهذا بقي علينا أن نرى إن كان مفهوم الموت السنوي للإله وبعثه والذي يسود العبادات الشرقية والإغريقية له أصله أو مايماثله في الشعائر البسيطة التي أحياها الحصادون وقاطفو العنب في الحقول والبساتين.

لقد اعترفنا سابقاً بجهلنا بالخرافات الشائعة والعادات السائدة لدى القدامى. لكن هذا الغموض الذي يكتنف بدايات الدين القديم هو لحسن الحظ في طريقه إلى التبدد في هذه القضية. وعند التأمل بالمكانة المرموقة التي تبوأتها عبادات أوسيريس وأدونيس وآتيس في مصر وسوريا وفيرجيا والشَّبَه الكبير بين شعائر الحصاد وقطاف العنب وبين عادات الفلاحين المعاصرين والبرابرة، يتبين أمامنا أصل الطقوس التي نبحثها الآن.

وقد ذكرنا سابقاً وحسب ديودوراس كيف يحيي الحصادون في مصر القديمة عادة رثاء الحزمة الأولى تضرعاً إلى التي يعزون إليها اكتشاف الحنطة. وأطلق الإغريق على نواح الحصادين المصريين أو أغنيتهم الحزينة اسم مانيروس وفسروها على أنها نواح الشعب على الموت المبكر لمانيروس وهو الابن الوحيد للملك المصري

الأول مبتكر الزراعة. ويبدو أن الاسم مانيروس هو فهم خاطئ للعبارة (ما – ني – هرا) وتعني (عد إلى البيت) وهي عبارة ظهرت في الكثير من الكتابات المصرية مثل ترنيمة في كتاب الموتى. من هنا لنا أن نفترض أن صرخة (عد إلى البيت) كان يطلقها الحصادون على الحنطة المقطوعة لموت روح الحنطة أيسيس أو أوسيريس وهي توسل لعودتها. ومع تعالي صرخات السنابل المقصوصة، يبدو أن المصريين يؤمنون بأن روح الحنطة موجودة في أول ما يُقطع منها وتموت تحت نصل المنجل. وكذلك رأينا كيف يأخذون السنابل الأولى في شبه جزيرة المالاي وجافا لما تمثله من روح الأرز أو عروس الأرز وعريسه. وفي بعض أنحاء روسيا يتعاملون مع الحزمة الأولى بالطريقة التي يتعامل بها أقوام آخرون مع الحزمة الأخيرة نفسها. فمن يقوم بقصها السيدة نفسها وتؤخذ إلى المنزل وتوضع جنباً إلى جنب مع الصور المقدسة ثم يقومون بدراستها على حدة ويخلطون بعض حبوبها ببدار السنة القادمة. وفي أبردينشاير عند قطع آخر الحنطة يصنعون منها حزمة كلاياك، وفي حالات نادرة يصنعونها من الحنطة الأولى ويلبسونها لباس امرأة ويحملونها إلى المنزل ضمن طقوس معينة.

في فينيقيا وغرب آسيا هناك أغنية حزينة مثل التي أنشدها الحصادون المصريون وكانت تُغنى – إذا ما حكمنا عليها بالقياس – في موسم القطاف والحصاد. سمى الإغريقيون تلك الأغنية الفينيقية إيلينوس أو لينوس وفسروها كما فسروا مانيروس على أنها تنويحة على موت شاب يدعى أيلينوس. وحسب إحدى الروايات أتى أحد الرعاة بإيلينوس فمزقته كلابه إرباً. ومثل مانيروس، يبدو أن اسم لينوس أتى من فهم شفاهي خاطئ للعبارة (آي لانو) وتعني (وأسفاه على لانو) العبارة التي كان يطلقها الفينيقيون في نحيبهم على أدونيس؛ أو على الأقل حسب الشاعر الآغريقي سابهو الذي اعتبر أدونيس وأيلانوس مترادفتين.

وفي بيثانيا هناك تنويحة تدعى بورموس أو بوريموس وكان يغنيها الحصادون في ماريانديان. ويُقال إن بورموس كان شاباً وسيماً وهو ابن الملك الثري المتميز أوبياس. وفي أحد أيام الصيف وهو يراقب العمل في الحقول ذهب ليحضر ماءً للشرب ولم يُسمع عنه شيء بعد ذلك. بحث عنه الحصادون في كل مكان ينادونه منوحين وظل ذلك النواح باقياً بعده عند كل حصاد.

2ـ قتل روح الحنطة

في فريجيا يغني الحصادون أغنية مماثلة مرة عند نضج الحبوب ومرة أخرى عند الحصاد ويسمونها ليتيرسيس. ويقال أن ليتيرسيس هو إبن غير شرعي لمياس ملك فريجيا وكان يعيش في سيلاينا. كان يحصد الحنطة وله شهية هائلة. عندما كان يدخل غريب حقل الحنطة أو يمر بقربه كان ليتيريس يعطيه الكثير مما يأكل ويشرب ثم يأخذه إلى حقل الحنطة على ضفاف مايانـدر ويجبره على مساعدته في الحصاد. وكان من عادته أن يغلف الغريب بسنابل الحنطة. استمر في عادته تلك حتى أجبر هيركيوليس على الحصاد فقطع رأسه بالمنجل ورمى جثته في النهر. وشاع خبر قتل هيركيوليس لليتيريس بالطريقة نفسها. دلتنا هذه العبارة عن الطريقة التي مارسها ليتيريس مع الأخرين. وتقول رواية أخرى أن ابن ميداس كان يتحدى الناس إلى مباراة في الحصاد حتى إذا غلبهم جَلَدَهم. وظل هكذا حتى صادف حصَّاداً يفوقه قوة فقتله.

هناك مبررات تجعلنا نفترض أن هذه القصص عن ليريتيس في فيرجيا تنضوي على مرور أحد الغرباء في حقل الحنطة وكان هذا المرور المنتظم دلالة على روح الحنطة التي يقبض عليها الحصادون ويلفُّونها بحزم الحنطة ثم يقطعون رؤوسها ومن ثم يربطونها بالسنابل ويرمونها في النهر كنوع من السحر. مايبرر هذا الافتراض هوالتشابه بين قصة ليتيريس وبين عادات الحصاد لدى الفلاحين الأوربيين. ومن ناحية أخرى يدل هذا على الأضاحي البشرية التي كانت تقدمها الأعراق البدائية للرفع من خصوبة الحقول. وسوف نناقش هذين المبررين على التتالي.

عند مقارنة القصة مع عادات الحصاد في أوروبا علينا الانتباه إلى ثلاث نقاط تستحق النظر ملياً وهي، أولاً، مباراة الحصاد وربط الشخص في حزمة، وثانياً، قتل روح الحنطة أو مايمثلها، وثالثاً، معاملة الزائرين أو عابري السبيل في موسم الحصاد.

أولاًـ لدى النظر إلى النقطة الأولى نلاحظ كيف يُربط الشخص الذي يقطع أو يَربط أويَدرس القبضة الأخيرة في أوروبا المعاصرة ويُعرَّض لمعاملة قاسية على يد زملائه من الحصادين. فمثلاً يُربط مع الحزمة الأخيرة ويُحمل على عربة ويُضرب ويبلل بالماء ويُرمى بالحليب أو القهوة. أما إذا ما عفوه من هذه المعاملة القاسية،

يصبح على الأقل موضوع سخرية ويعتقدون أنه سيعاني من النحس في أثناء تلك السنة. من هنا يكره الحصادون أن يكونوا آخر من يقطع السنابل أو آخر من يضربها في الدراسة أو من يربط الحزمة الآخيرة. وعندما يشرف العمل على نهايته يُكره العاملون على المنافسة ويكافح كل منهم كي ينهي ما عليه من مهام بأسرع مايمكن لينجو من كونه الأخير، ذلك التميز البغيض. وعلى سبيل المثال هناك في مقاطعة ميتلمارك في بروسيا، بعد أن يقطعوا الجاودار ويوشكوا على ربط الحُزَم الأخيرة، تقف النسوة على نسقين متقابلين وكل امرأة أمامها الجاودار المقصوص وحبل لتربط فيه. وعند إطلاق إشارة معينة يُسارِعْن إلى ربط حزمهن، أما التي تكون الأخيرة في إنهاء مهمتها فعليها أن تتحمل السخرية من الأخريات. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل عليها أن تحمل حزمتها إلى باحة المنزل ثم يرقص الحصادون في حلقة حولها وحول حزمتها. ثم يأخذون (الرجل المسن) إلى المزرعة ويسلمونه الحزمة قائلين:" لقد جلبنا الرجل المسن إلى السيد. فليحفظه حتى يأتيه الرجل القادم." وبعد ذلك يوضع الرجل المسن على شجرة ويبقى هناك فترة طويلة موضع سخرية ونكات كثيرة. وفي أشباش في بارافيا، عندما تقترب مهمتهم من نهايتها يقول الحصادون:" سنخرج الرجل المسن الآن." ويخصص لكل منهم بقعة ليحصدها بأسرع ما يمكن. أما من يحصد القبضة الأخيرة فيبادره الجميع بصرخة ابتهاجية قائلين:"لك الرجل المسن" وأحياناً يضعون على وجهه قناعاً أسود ويلبسونه ملابس امرأة؛ أو إذا كانت امرأة يلبسونها لباس رجل ثم يرقصون حولها. وعند العشاء يُعطى الرجل المسن حصة أكبر من الطعام. ويقومون بالإجراءات التي قاموا بها عند الدراسة فيسمون الذي يضرب الضربة الأخيرة (الرجل المسن). وعند العشاء الذي يُقدَّم للدارسين، عليه أن يأكل من مغرفة القشدة ويشرب كمية كبيرة. ويزيدون على ذلك بأن يزعجوه بالمزاح ويحوكون له المقالب من شتى الأنواع حتى يفك نفسه من موضع السخرية بأن يقدم لهم النبيذ أو البيرة.

توضح سباقات الحصاد والدراسة والربط مقدار كره الحصاد لكونه الأخير وذلك لما يتلقاه من سخرية وإزعاج. وعلينا أن نتذكر أن من يكون الأخير في القيام بهذه المهام يمثل روح الحنطة والدليل على ذلك أنهم يربطونه مع سنابل الحنطة. ويمكن إضافة المزيد من الأمثلة إلى ما شرحناه سابقاً. ففي كلوكسين قرب

ستاتين، يصيح الرجال بالتي تربط الحزمة الأخيرة: "لَكِ الرجل المسن وعليك الاحتفاظ به." وحتى أواسط القرن التاسع عشر استمرت عادة ربط تلك المرأة مع قش الشوفان واصطحابها على وقع الموسيقا إلى بيت المزرعة حيث يرقص الحصادون معها حتى يسقط عنها آخرالقش. وفي قرية أخرى قرب ستاتين وعند تحميل آخر الحُزَم على العربة يُقام سباق بين النسوة تكافح فيه كل واحدة كي لا تكون الأخيرة. لأن آخر امرأة تضع الحزمة على العربة تُدعى (الرجل المسن) وتُغلَّف بسنابل الحنطة بالكامل ثم تُزين بالورود وخوذة من القش على رأسها. وفي موكب مهيب نحمل تاج الحنطة إلى عمدة البلد وتضعه على رأسه وتقول سلسلة من الأمنيات الطيبة. وفي الرقصة التي تتبَع ذلك يحق للمسن رجلاً كان أم امرأة أن يختار من يرقص معه، ويا فوز من يحوز على ذلك الشرف. وفي كومين قرب ماغديبوغ يُغلَّف من يقطع آخر السنابل بالسنابل حتى لا يمكنك أن تميز أن هناك رجلاً في الداخل. ثم يحمله حصاد موفور العضلات على ظهره ويدور به في الحقل وسط هتافات الحصادين الفرحة. في نيوهاوسن يُغلَّف الشخص الذي يربط آخر الحزم بنبات الجاودار ويحيّونه على أنه رجل الجاودار ثم يرقصون حوله. وفي براي، أيل دوفرانس، يُربط المزارع نفسه مع الحزمة الأولى. وفي تينجلزتيدت في مقاطعة إيرفورت وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر جرت العادة أن يربطوا الرجل مع الحزمة الأخيرة. ولدى الوصول إلى ساحة المزرعة يُدحرج في أرجاء المزرعة ويبلل بالماءوفي نورد لنجن في بارافيا يُدحرج من يضرب ضربة الدراسة الأخيرة على أرض البيدر بعد أن يُغلَّف بالقش. وفي بعض أنحاء أوبريفاز في بارافيا يقولون إنه "قد أخذ الرجل المسن" ويُحمل إلى الجار الذي لم ينه دراسته بعد. وفي سيليسيا على المرأة التي تربط الحزمة الأخيرة أن تخضع للكثير من المزاح الثقيل. فمثلاً يدفعونها ويوقعونها أرضاً ويربطونها بالحزمة ثم يسمونها " دمية الحنطة".

في جميع هذه الحالات تُخرَج روح الحنطة — الرجل المسن في النبات ـ من القَطع الأخير أو آخر الحنطة المدروسة وتعيش في المخزن طوال الشتاء. وفي موسم البدار يخرج المسن ثانية إلى الحقول ويستأنف نشاطه كقوة إحيائية للحنطة الشاطئة.

ثانياً ـ وإذا بحثنا في النقطة الثانية من المقارنة بين ليتيريس وعادات الحصاد في أوروبا نرى أن روح الحنطة تُقتَل عند الحصاد أو الدراسة. ففي رومسدال وأنحاء

أخرى من النرويج وبعد انتهاء عملية التتبين يقول الناس "لقد قُتل رجل التبن". وفي بعض أنحاء بافاريا يقولون عن الرجل الذي يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة أنه قتل رجل الحنطة أو رجل الشوفان أو رجل القمح حسب نوع المحصول. وفي كانتون تيلوت في لورين وعند دراسة آخر الحنطة يقضي الرجال وقتاً مع مِدراساتهم ويقولون " إننا نقتل المرأة المسنة! إننا نقتل الرجل المسن!" وإذا كان هناك مسنَّة في المنزل يُطلب منها أن تحتاط كي لا تُقتَل. وفي منطقة قريبة من راغنيت في ليتوانيا يتركون آخر قبضة من السنابل واقفة ويقولون:" المرأة المسنة بوبا واقفة هناك." ثم يقوم حصَّاد أصغر سناً بشحذ منجله ثم يقطع تلك القبضة بضربة واحدة. ويقولون أنه " قطع رأس بوبا." فيمنحه المزارع نَفَحة وتصب زوجة المزارع إبريقاً من الماء على رأسه. وفي رواية أخرى يسارع كل حصاد إلى إنهاء مهمته لأن امرأة الجاودار المسنة تعيش في السنابل الأخيرة ومن يقطع السنابل الأخيرة إنما يقتل تلك المرأة، وبقتلها يجلب لنفسه المشاكل. وفي ويلكيشكين، في مقاطعة تيلسيت، يسمون من تقطع الحنطة الأخيرة " قاتلة امرأة الجاودار". وفي ليتوانيا يعتقدون أن روح الحنطة تُقتل عند الدراسة بالإضافة إلى قتلها عند القطع. وعندما تبقى كومة واحدة تنتظر الدراسة يتراجع الدارسون فجأة لبضع خطوات وكأنهم ينفذون أمراً. ثم يعودون إلى العمل بكد بأقصى سرعة واتقاد حتى يأتوا إلى الحزمة الأخيرة. بعد ذلك ينطلقون بانفعال شديد موظفين كل عصب من أعصابهم لينهالوا بالضرب على الحنطة حتى يسمعوا كلمة "قف" من القائد. أما من يضرب بمدراسه ضربة واحدة بعد سماع إيعاز التوقف فيحيطه الدارسون ويصيحون " لقد قتل امرأة الجاودار المسنة" وعليه أن يكفِّر عن فعلته بتقديم النبيذ لهم، ومثل الرجل الذي قطع الحنطة الأخيرة، يصفونه بـ "قاتل امرأة الجاودار المسنة". وأحياناً في ليتوانيا يمثلون روح الحنطة بدمية فيصنعون مجسماً من سنابل الحنطة ويلبسونها ثم يضعونها على أرض البيدر تحت آخر كومة دُرست. وكل من يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة يكون قد قتل المرأة المسنة. بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً عن حرق مجسم يمثل روح الحنطة، في إيسترايدنغ في يوركشاير هناك عادة تُتبَّع في اليوم الأخير من الحصاد وتُسمى "حرق الساحرة المسنة". يحرقون حزمة صغيرة من الحنطة في جذامة من الحقل. ويحمصون البازلاء أمام النار ويأكلونها مع كميات كبيرة من المِزر بينما يمرح الفتية والفتيات بجوار

اللهب ويسوِّدون وجوه بعضهم بعضاً مازحين. وأحيانا يمثلون روح الحنطة برجل يستلقي تحت الحنطة الأخيرة ثم تُدرس على جسمه ويقول الناس أن "الرجل المسن يُضرب حتى الموت". وأحياناً تُدفع زوجة المزارع مع الحزمة الأخيرة تحت آلة الدراسة ويمثلون دراستها ثم يقومون بتقليد عملية الذَّري. وفي فولدر في نيرول، يقومون بإلصاق قشور الحنطة على قفا رقبة رجل يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة ثم يلفُّون حبلاً من القش حول عنقه. فإذا كان الرجل طويلاً فهذا يعني أن الحنطة ستكون طويلة السنة القادمة. وبعد ذلك يربطونه مع حزمةٍ ويلقونه في النهر. وفي كارينثيا، الرجل الذي يضرب الضربة الأخيرة والشخص الذي يفك الحزمة الأخيرة على أرض البيدر تُربَط يَدا كل منهما مع أقدامه برباط من القش ثم يُوضع تاجان من القش على رأسيهما. ويُربَطان وجهاً إلى وجه على مزلجة ويُجرَّان في أرجاء القرية ثم يُلقيان في الغدير. وما إلقاء ما يمثل روح الحنطة في الجدول أو تبليله بالماء إلا سحر مطري.

ثالثاً ـ ظلت روح الحنطة عبارة عن رجل أو امرأة تَقطع أو تَربط أو تَدرس آخِرَ الحنطة حتى صادفناها في بعض الحالات تتمثل بغريب عابر لحقل الحصاد (كما هو الحال في قصة ليتيريس) أو بزائر يدخل الحقل للمرة الأولى. وفي بعض الحالات في ألمانيا جرت العادة أن يقبض الحصادون أو الدارسون على الغرباء العابرين ويربطونهم بحبل مصنوع من سنابل الحنطة، لايطلقونهم حتى يدفعوا غرامة. وبلغ بهم الأمر أن يعاملوا المزارع ذاته أو أحد ضيوفه المعاملة نفسها عندما يدخلون الحقل للمرة الأولى. وأحيانا يُربط الحبل فقط حول ذراعيه أو قدميه أو رقبته. لكنه أحياناً يُلفّ بالحنطة تماماً ففي سولور في النروج يُربط من يدخل الحقل كائناً من كان، سيداً كان أم غريباً، يُربط بحزمة حتى يدفع فدية. وفي مناطق قريبة من يوويست عندما يزور المُزارِع مقتلعي الكتان للمرة الأولى يُغلَّف تماماً بالكتان. وكذلك يُحاط عابرو السبيل بالنساء ويُربطون بالكتان ويُجبرون على تقديم النبيذ. وفي نوردلنجن يُقبض على الغرباء بحبال القش ويُربطون بحزمة حتى يدفعوا فدية. أما ألمان هاسلبورغ في بوهيميا الغربية، وحالما يُعطى المزارع آخر الحنطة كي يدرسها على أرض البيدر يُلف بالحنطة وعليه أن يفك نفسه بتقديم هدية من الكعك. وفي إقليم بوتانجز في نورماندي، ما زالوا يمثلون ربط صاحب الأرض بحزمة القمح الأخيرة، أو على الأقل

كانت تُمارس هذه العادة منذ حوالى ربع قرن. ويقع تنفيذ هذه المهمة على النساء خاصةً. يقمن بإلقاء أنفسهن على المالك ويمسكن بذراعيه ورجليه وسائر جسمه. ثم يرمينه أرضاً ويمددنه على الحزمة الأخيرة. ثم يرى الجميع عملية ربطه والشروط المفروضة عليه عند عشاء الحصاد. وعندما يقبل بتلك الشروط يُسمح له بالنهوض ويُطلق سراحه. وفي بري وهي في جزيرة ديفرانس عندما يمر شخص لاينتمي لحقل الحصاد يطارده الحصادون. فإذا مسكوه ربطوه ووثقوه ثم صاحوا على جبهته واحداً تلو الآخر قائلين: " أنت من سيحمل مفتاح الحقل." وكون مفتاح الحقل عليه هي عبارة تحمل معنى أن عليه أن يربط أو يقطع أو يدرس الحزمة الأخيرة. وهي مرادفة لعبارة " وقع عليك الرجل المسن"، أو " لك الرجل المسن،" وهي عبارات توجّه لقاطع الحزمة الأخيرة أو دارسها أو رابطها. إذن فعبارة **تحمل مفتاح الحقل** تساوي الرجل المسن وهي تجسيد لروح الحنطة. وعند قطاف الجُنجُل، عندما يمر غريب حسن اللباس بحقل الجنجل يقبض عليه النسوة ويدفعنه داخل صندوق مغطى بأوراق الأشجار ولايطلِقْنه حتى يدفع غرامة.

إذن مثل ليتيريس القديم اعتاد الحصادون في أوروبا المعاصرة القبض على أحد الغرباء وربطه بحزمة. ولا نتوقع منهم إكمال ما فعله ليتيريس أي قطع رأسه. لكنهم حتى لو لم يفعلوا ذلك فإن لغتهم توحي بما يدل على تلك الرغبة. فمثلاً في ميكلنبورغ وفي اليوم الأول للحصاد، إذا ما دخل الحقل سيد أو سيدة أو غريب أو مجرد أن عبر بقربه يتوجه الحصادون نحوه ويشحذون مناجلهم ويمررونها على حجر المِسَن وكأنهم يستعدون للجز. ثم تتقدم النسوة اللواتي يقدن الجز نحوه ويربطنه برباط حول ذراعه اليسرى ثم يتوجب عليه بعد ذلك ان يفتدي نفسه بدفع غرامة. وفي القرب من راتزيبورعندما يدخل أو يمر رجل مميز أو سيد بقرب الحقل يتوقف جميع الحصادين عن العمل ويمشون نحوه مشية رجل واحد يتقدمهم حَمَلَةُ المناجل. وما أن يصلوا نحوه حتى يشكلوا رتلاً من النساء والرجال. يغرس الرجال مقابض مناجلهم في الأرض رغبةً في القتال ثم يضعون قبعاتهم على مناجلهم في حين يقف قائدهم ليلقي خطاباً. وبعد أن ينتهي من خطابه يرفع الحصادون مناجلهم في وقت واحد ويضعون قبعاتهم على رؤوسهم. ثم تتقدم اثنتان من رابطات الحُزَم وتربطان ذلك الغريب بسنابل الحنطة أو بشريط حريري بينما تقوم الأخريات بخطابات إيقاعية

وسندرج عيّنات من بعض ما يُقال في هذه المناسبات. وفي بعض أنحاء بوميرانيا يعترضون كل عابر سبيل بوضع حبل حنطة في طريقه. ويقف الحصادون حوله في حلقة يشحذون مناجلهم بينما يقول قائدهم:

الرجال مستعدون

الحنطة قوية وصغيرة،

وعلى السيد أن يُحجَز.

ثم يعاودون عملية شحذ المناجل. وفي رامين، في مقاطعة ستيتين. يقف الغريب محاطاً بحلقة من الحصادين ويقولون له:

سنضرب السيد

بسيوفنا المسلولة

وكما نجرد السهوب والحقول.

نجرد الأمراء والنبلاء.

فالعمال متعطشون؛

فإذا قدم السيد البيرة والنبيذ

سرعان ما تنقضي اللعبة العصيبة

لكنه إن لم يستمع لندائنا

فلسيوفنا الحق بأن تضرب.

وفي أرض البيدر يُعامَل الغرباء المعاملة نفسها على أنهم تجسيد لروح الحنطة. ففي ويدنغارد في شليزويغ عندما يأتي غريب إلى المِدرَس يقولون له: "هل نعلمك رقصة المِدرَس؟" فإذا قال نعم يضعون ذراعي المدرس حول عنقه وكأنه حزمة حنطة ثم يضغطونهما حتى يكاد يختنق. وفي بعض أبرشيات ويرملاند في السويد وعندما يدخل غريب أرض البيدر حيث يعمل الدارسون يقولون له أنهم سيعلمونه أغنية الدراسة. ثم يضعون المِدرس حول عنقه ويلفون جسمه بحبل من القش. كذلك إذا دخلت امرأة غريبة أرض البيدر، يضع الدارسون المدرس حول جسمها وإكليلاً من سنابل الحنطة حول عنقها، وينادون: "انظروا امرأة الحنطة! انظروا كيف تبدو سيدة الحنطة!"

في عادات الحصاد الأوربية المعاصرة يُعامَل الشخص الذي يقطع أو يحزم أو يدرس الحنطة كتجسيد لروح الحنطة فيغلفونه بالحزم ويهايئون قتله بالأدوات الزراعية ثم يرمونه بالماء. هذا التماثل بينها وبين قصة ليتيريس يثبت أنها وصف حقيقي لعادة الحصاد الفريجية القديمة. لكن بما أنه من الضروري حذف الجزء الخاص بقتل من يمثل روح الحنطة أو جعله جزءاً تمثيلياً فقط، من المرجح تماماً أنهم كانوا يقتلون أشخاصاً حقيقيين في المجتمعات البدائية كطقس زراعي يقصدون منه رفع سوية الخصوبة في الحقول. والأمثلة التالية ستجعل الأمر أكثر وضوحاً.

3ـ الأضاحي البشرية لأجل المحصول

اعتاد هنود كوايكويل في إغوانا أن يضحُّوا بالدم البشري وبقلوب البشر عندما يبدرون الحب في حقولهم. واعتاد أهالي كانار(وهي كوينكا في إكوادور) على التضحية بمئة طفل سنوياً لأجل المحصول. وقد عانى ملوك كويتو ـ آلهة البيرو ـ والإسبان ولوقت طويل من قمع هذه الشعائر الدموية. وفي مهرجان حصاد مكسيكي عندما تُقدَّم الثمار الأولى للشمس كانوا يضعون مجرماً بين حجرين كبيرين متوازنين متقابلين ثم يُترَكان على بعضهما بعضاً فيحطمانه. ثم يدفنون بقاياه في احتفال يتبعه الرقص. وتُعرف هذه الأضحية باسم "التقاء الحجرين." ورأينا كيف ضحى المكسيكيون القدامى بكائنات بشرية في جميع مراحل نمو الذرة بشكل توافقت فيه أعمار الأضاحي مع درجة نمو الحنطة؛ أي التضحية بالطفل الرضيع عند البدار وبأطفال أكبر بعد انشطاء الحب وهكذا حتى تصبح كاملة النمو عندما يضحون برجال مسنين. ولاشك في أن توافق عمر الأضحية مع درجة نمو الحنطة يزيد من فعالية الأضحية.

كما اعتاد الباوني على تقديم الضحايا البشرية سنوياً عندما يبدرون الحقول. كانوا يعتقدون أنها فريضة من نجمة الصبح، أو من طير أرسلته نجمة الصبح كرسول لها. كان ذلك الطير يُحشى ويُحتفظ به كطلسم قوي. واعتقدوا أن التواني في هذه الفريضة يؤدي إلى إخفاق كامل لمحصول الذرة والفول واليقطين. وكانت الضحية من الجنسين الذكر والأنثى. أما الذكر فكان يُكسى بأفضل

الملابس ويُسمَّن بأفضل الطعام ويحرصون أن يبقوه جاهلاً بمصيره. وعندما يبلغ البدانة المطلوبة يصلبونه على صليب بحضور الجموع ويرقصون حوله رقصة مهيبة ثم يفلعون رأسه بفأس ويقذفونه بالسهام. وحسب رؤية أحد التجار تقوم النسوة بقطع بعض من لحمه ويزيِّنَّ بها مجارفهن. لكن تاجراً آخر كان يحضر هذا الطقس أنكر ذلك الجزء. وبعد تقديم الضحية كان الناس يتابعون مسيرة غرسهم لحقولهم. وهناك تقرير لباونيس في نيسان عام 1837 أو 1838 يحكي عن ضحية فتاة سيوكس. كانت الفتاة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها وكانت تعامل معاملة متميزة مدة ستة أشهر. وقبل يومين من التضحية بها تُقاد من وغم إلى وغم مصحوبة بكامل مجلس الرؤساء والمحاربين. وعند كل مسكن تتلقى قطعة زينة خشبية أو القليل من الصبغة تعطيها بدورها للمحارب الذي بجوارها. وبهذه الطريقة تمر على جميع الأوغام وفي الثاني والعشرين من نيسان. تُساق إلى حتفها محروسة من قبل المحاربين الذين يحمل كل منهم شيئين مما أخذه منها. وتُعلَّق وجسمها ملون نصفه بالأسود ونصفه بالأحمر على مشنقة من نوع معين وتُحمص على نار هادئة لبعض الوقت ثم تُقتل رميًا بالسهام. وبعدها يمزق كبيرهم قلبها ويلتهمه. ثم يُقطَّع لحمها ساخناً بعد فصله عن العظم قطعاً صغيرة ويوضع في سلال صغيرة ويؤخذ إلى حقول الحنطة المجاورة. هناك يأخذ الرئيس الأكبر قطعة من لحمها ويعصر من دمها فوق حبوب الحنطة التي خُزنت حديثاً. ثم يحذو الجميع حذوه حتى تُقطَّر جميع الحبوب بالدم قبل أن تُغطَّى بالتراب. وهناك تقرير يقول إنهم يصنعون من جسمها مرهماً يُدهن به الحب والبطاطا والفول والحبوب الأخرى كي يخصبها. وبهذه الأضحية يأملون الحصول على موسم وفير.

كما اعتادت ملكة في أفريقيا الغربية أن تضحي برجل وامرأة في شهر آذار بضربهما بالفؤوس والرماح. ويُدفن جسماهما في وسط حقل فُلِح لتوه. وفي لاغوس في غينيا جرت العادة أن تُخوزق فتاة وهي حية تماماً بعد الاعتدال الربيعي وذلك لضمان المحاصيل الجيدة. وكان يُدفن معها الأغنام والمعيز وتُعلق عرانيس الذرة وموز الجنة والبطاطا على عصيات إلى جنبيها. وكانت تُربى الضحايا لهذا الهدف في سراي الملك. وكانت الأضاحي تُجهَّز فكرياً بحيث تمشي إلى مصيرها وهي راضية. كما اعتادوا على تقديم أضحية مماثلة سنوياً في بينين في غينيا. أما الماريمو وهم قبيلة

بيشوانية فيقدمون أضحية بشرية لأجل المحاصيل. ويختارون الضحية بحيث تكون رجلاً قصيراً وقوياً يقبضون عليه بالقوة أو يسممونه ويأخذونه إلى الحقول حيث يُقتل بين القمح ليُستخدم كـ "بذرة" على حد قولهم. وبعد أن يتخثر دمه في الشمس يحرقونه مع عظمه الجبهي ثم ينثرون رماده على الأرض ليخصبوها. ثم يأكلون ما تبقى من جسمه.

أما قوم باغوبوس في ميناناو وهي إحدى الجزر الفلبينية، فيقدِّمون أضحية بشرية عند بدار الأرز. وتكون الأضحية من العبيد الذي يقطِّعونه في الغابة. أما سكان بونتوف في لوزون الداخلية، وهي إحدى الجزر الفلبينية فهم من الصيادين العنيفين. ويوافق موسم صيد الرؤوس عندهم زراعةَ الأرز وحصاده. ولكي يَسْلَم الموسم، على كل مزرعة أن تحظى برأس بشري على الأقل في موسم الزراعة وآخر في موسم البدار. يخرج صيادو الرؤوس مثنىً أو ثلاثاً وينتظرون الضحية رجلاً كانت أم امرأة ثم يقطعون رأسها ويديها وأقدامها ويجلبونها بسرعة إلى القرية حيث يُستقبلون بفرح كبير في البداية تُعلَّق الجماجم على اثنتين أو ثلاث من الأشجار الميتة في مكان مفتوح في القرية مُحاطةً بحجارة كبيرة تُستخدم كمقاعد. ثم يرقص الناس حولهم يغنون ويأكلون ويشربون. وعندما ينزل اللحم عن الرأس يأخذه الرجل الذي يقطعه إلى المنزل ويحتفظ به كأثر باقٍ. بينما يفعل أصحابه الشيء نفسه مع الأقدام والأيدي. وتتبع قبيلة ابوياو في لوزون الداخلية العادة ذاتها.

أما بعض أهالي لوتا ناغا - واحدة من أكثر القبائل البدائية همجية، تسكن وديان متاهية منعزلة تلتف بين جبال براهمابوترا - جرت العادة عندهم أن يحطموا رؤوس وأيدي وأقدام الناس الذين يصادفونهم ويعلقون ما قطعوه منهم في حقولهم بغية الحصول على محصول حبوب جيد. وهم عندما يقومون بهذا العمل لا يحملون أية ضغينة تجاه ذلك الشخص الذي يمارسون معه هذا العمل بطريقة عادية. وذات مرة سلخوا صبياً وهو حي وقطعوه إرباً ووزعوا لحمه على أهالي القرية ليضعوها في مخازن حنطتهم كي يبعدوا النحس ويضمنوا محصولاً وفيراً من الحبوب. أما قوم الغوند في الهند وهم من العرق الدرافيدي فكانوا يختطفون صبية من البراهما ويحتفظون بهم كي يقدموهم كأضاحٍ في مناسبات عديدة. وعند البدار والحصاد وبعد موكب نصر، كانوا يقدمون على قتل أحد أولئك الصبية برميه بسهم

مسموم. ثم يرشون دمه على الحقول المفلوحة أو على المحصول الناضج ويلتهمون لحمه. أما قوم أوراون من غوتا ناغبور فكانوا يعبدون إلهة تدعى آناكواري فهي قادرة أن تهب المحصول الجيد والثروة لكل من يسترضيها بتقديم أضاحٍ بشرية. وعلى الرغم من تيقظ الحكومة البريطانية ظلت هذه العادة تُمارَس سراً. وكانوا يختارون الضحايا من أناس غرباء ضالين كيلا يلاحظ اختفاءَهم أحد. وكان الجواسون يجولون في نيسان وأيار، الفترة التي يمتنع فيها الغرباء عن الخروج للأرياف بمفردهم ولايُسمَح للأطفال برعي الماشية في الغابة أو الدخول إليها. أما الجوَّاس الذي يجد ضحيةً، فيقطع حنجرتها ويحمل منها رأس البنصر والأنف. أما الإلهة فتتخذ مسكناً لها في منزل الرجل الذي قدم لها أضحيةً؛ فتدرُّ على حقله محصولاً مضاعفاً. وتأخذ الإلهة شكل طفل صغير في المنزل. وعندما تجلب ربة المنزل الأرز غير المدروس يدحرجون الطفل الذي تتجسد فيه الإلهة على كومة الأرز لكي تتضاعف. لكن ما أسهل ما تستاء تلك الإلهة ولا تهدأ إلا بدماء ضحايا بشرية جديدة.

أشهر الأضاحي البشرية التي كانت تُقدَّم لضمان المحصول الجيد، هي التي قدمها الخوند والكاند وهم من سلالة درافيدية أخرى من البنغال. وقد أتينا بالمعلومات عنهم مما كتبه ضباط بريطانيون اشتركوا في حملة القمع التي شُنَّت عليهم في أواسط القرن التاسع عشر. كانت الأضاحي تُقدم لإلهة الأرض تاري بينو أو بيرا بينو التي كانوا يعتقدون أنها تضمن لهم المحصول الجيد وتأمنهم من المرض والحوادث. وكانت هاتان الإلهتان ضروريتين بشكل مُلِحّ عند زراعة الكركم. ويبررون فعلهم بأن الكركم لا يكتسب حُمرته دون إراقة الدماء. وكانت الضحية أو كما تُسمى المارياه، لا تقبل من الإلهة إلا إذا كانت ابتيعت أو كانت قد ولِدت ضحية ـ أي أنها ابن لأب ضحية أو أن تكون قد وهِبت من قبل الأب أو الوصي. كان الخوند يبيعون أولادهم كأضاحٍ في الأوقات العصيبة، لاعتقادهم أنها تطهر أرواحهم وأن موتهم لمصلحة البشرية جمعاء وتشريفاً لها. وقد شوهد واحد من قبائل البانوا يكيل الشتائم لواحد من الخوند وانتهى به الأمر بأن بصق في وجهه لأن ذلك الخوندي باع ابنته كأضحية وكان ذلك الباونوي يرغب في الزواج منها. وتقدّم جماعةٌ من الرجال الذين شاهدوا ذلك الموقف نحوه وطيبوا خاطره بقولهم: " لقد ماتت

ابنتك لكي يعيش العالم أجمع وأن إلهة الأرض بنفسها ستمسح بصاق ذلك الرجل عن وجهك." كانت تُحفظ الأضاحي لسنوات قبل التضحية بها لأنها تعتبر كائنات مقدسة تعامل بمحبة كبيرة ممزوجة بالاحترام والخضوع كما تلقى الترحيب أينما ذهبت. وعندما يبلغ الميرياه سن البلوغ يُمنح زوجة وغالباً ما تكون ميرياه أيضاً. وعندما يتزوجها يُمنح قطعة من الأرض أو عقاراً زراعياً. وكانت ذريتهم أيضاً من الأضاحي. وكان من يقدم الأضاحي البشرية لإلهة الأرض هم القبائل والأفخاذ أو القرى وضمن احتفالات دورية بالإضافة إلى مناسبات غير عادية. وكان على كل رئيس عائلة أو رئيس فخذ أن يتدبر أمره في تأمين الأضحية الدورية السنوية عن حقوله عند تخزين الموسم الرئيس.

وكان القيام بهذه الأضاحي القبلية يجري على الشكل التالي. قبل التضحية بعشرة إلى اثني عشرة يوماً يُقص شعر الضحية الذي لم يمسه مقص قبل ذلك الحين. يتجمع حشد من النساء والرجال لمشاهدة الأضحية ولايغيب أحد عن تلك المناسبة لأن الأضحية مقدمة للبشرية جمعاء. يسبق التنفيذ عدة أيام من العربدة الهمجية والانفتاح الفاضح. وقبل يوم من التضحية تُلبس الضحية رداءً جديداً وتُقاد بعيداً عن القرية في موكب قدسي على وقع الموسيقا والرقص إلى أيك الميرياه حيث يوجد أجمة من أشجار عالية ما مسها فأس قط. وهناك يربطون الأضحية بعمود أحياناً يكون بين شجرتين من السانكيسار. ثم يُدهن بالزيت والسمنة والكركم ويزين بالورود ويتلقى نوعاً من الاحترام لايمكن تمييزه عن الهيام طوال ذلك النهار. وهنا يكافح الجميع للحصول على أي شيء من ذلك الشخص مثل مسحة من المرهم أو الكركم الذي دهن عليه، أما قطرة من بصاقه فهي غنيمة جليلة خاصة إذا كانت من ميرياه أنثى. يرقص الحشد حول العمود على وقع الموسيقا مخاطبين الأرض: " يا أيتها الأرض إنَّا نقدم لك هذه الأضحية؛ فاعطنا المحصول الجيد والمواسم الجيدة والصحة الجيدة.". ثم يتوجهون إلى الضحية قائلين:"لقد اشتريناك بثمن ولم نبخل بك وها نحن نضحي بك حسب العرف ولا إثم علينا."

وفي الصباح الأخير يستأنفون الطقوس العربيدية التي نادراً ما تتوقف في أثناء الليل ثم تستمر حتى الظهيرة عندما يذهب الحشد لإكمال التضحية. ثم تدهن الأضحية ثانيةً بالزيت ويمسحون بالزيت على رأسه. وفي بعض المناطق تُؤخذ الضحية

ضمن موكب يجوبون فيه القرية ويتوقفون عند كل باب ليقتلع أهل المنزل شعرة من رأسها ويتوسل بعضهم قسماً من بصاقها يمسحون به رؤوسهم. أما الضحية فلا تبدي أي نوع من الإمتناع حتى عندما يأخذون عظم يديها أو إن اقتضت الضرورة يكسرون أرجلها لكن غالباً ما يقومون بذلك بعد تخديرها بالأفيون. إذن تختلف طريقة القتل من مكان لآخر. وأكثر الطرق شيوعاً هي الخنق أو عصر الحنجرة حتى الموت. وإحدى الطرق هي فلع فرع شجرة خضراء حتى إرتفاع عدة أقدام ثم يقحمون رأس الضحية ـ وفي أماكن أخرى صدرها ـ في ذلك الفلع ويساعدهم في ذلك الكاهن ومعاونيه ثم يجرح الضحية بفأسه. وهنا يندفع الحشد إلى البائس كي يحظوا بجزء من دمه أو لحمه أو عظمه تاركين الرأس والأمعاء لا يلمسونها أبداً. وأحياناً يقطِّعون الضحية وهي على قيد الحياة.

وفي كيمدي كانت تُجرُّ الضحية في الحقول محاطةً بالناس الذين يقطعون لحمها بسكاكينهم حتى تموت دون الاقتراب من الرأس أو الأمعاء. وسادت طريقة أخرى للتضحية في المنطقة نفسها بأن تُربط الضحية إلى خرطوم فيل خشبي يدور حول عمود قوي وبينما تدور الضحية يقتطع الناس من لحمها وهي حية. وفي بعض القرى وجد القائد العسكري أربعة عشر فيلاً خشبياً كانوا قد استُخدموا لتقديم الأضاحي. وفي إحدى المناطق قُتلت الضحية بالحرق البطيء. وكانوا لتنفيذ ذلك يصنعون منصة واطئة تنحدر من الجانبين مثل سطح البيت القرميدي ويضعون عليها الضحية مربوطة الرجلين بحبال تحدد مجال مقاومتها. ثم تُضرم النار باستخدام الجمر فتضطر الضحية أن تتدحرج جيئة وذهاباً قدر ما تستطيع؛ فكلما ذرفت من الدموع، كلما ازدادت كمية الأمطار. ثم يقطعون الجسد إلى قطع في اليوم التالي.

يُؤخذ اللحم المقطوع من الضحية فوراً إلى المنزل على يد أناس منتدبين من كل قرية لهذا الغرض. ولكي يضمنوا الوصول السريع يتناوبون على نقله خمسين أو ستين ميلاً. أما الناس المنتظرون في القرى فيطبقون صياماً قاسياً إلى أن يصل اللحم الذي يضعه ناقله في مكان تجمع عام حيث يستلمه الكاهن ورؤساء القبائل. يقسمه الكاهن إلى حصتين حصة يقدمها إلى إلهة الأرض ويدفنها في حفرة وهو يدير لها ظهره دون النظر إليها، ثم يتقدم كل رجل ليسهم بدفنها عن طريق إلقاء القليل من التراب فوقها. ثم يصب الكاهن الماء عليها من قَرْعَة جبلية. وبعدها يقسِّم

الحصة الأخرى على عدد رؤساء المنازل الحاضرين. ويقوم كل رئيس بلفٍّ حصته بأوراق شجر ويدفنها في حقله المفضل واضعاً إياها خلف ظهره دون النظر إليها. وفي بعض المناطق يحمل كل رجل حصته من اللحم إلى جدول ماء يروي الحقول ويعلقها على عمود هناك. ويحرص الناس مدة ثلاثة أيام ألا يكنسوا بيوتهم، وفي إحدى المناطق يصومون عن الكلام تماماً ولايضرمون النار أو يقطعون الخشب أو يستقبلون الغرباء. ويقومون بحراسة بقايا الضحية البشرية (وتحديداً الرأس والأحشاء والعظام) حراسة قوية طوال الليلة التالية وتُحرق في الصباح مع غنمة كاملة على محرقة جنائزية. ويبعثرون الرماد على الحقول كما يضعونه على البيوت ومخازن الحبوب أو يخلطونه مع الحنطة الجديدة لتحميها من الحشرات. وأحياناً يدفنون الرأس والعظام بدلاً من حرقها. وفي بعض المناطق كانوا يستبدلون الأضاحي البشرية بأضاحٍ صغيرة. فمثلاً في عاصمة تشينا كيميدي يضحون بعنزة بدلاً من الأضحية البشرية. وفي مناطق أخرى يضحون بجاموس. يربطونه إلى عمود خشبي في أيكة مقدسة ويرقصون حوله بهمجية مستلين سكاكينهم ثم يخرون على الحيوان وهو حي ويقطعونه مزقاً في بضعة دقائق ويتصارعون فيما بينهم على كل قطعة لحم. وحالما يحصل أحدهم على تلك القطعة يهرع مسرعاً ليدفنها في حقله وحسب بعض العادات قبل غروب الشمس. وبما أن أمام أحدهم مسافة طويلة ليقطعها عليه أن يركض بسرعة. وترمي جميع النساء قطعاً من التراب على أولئك الرجال المسرعين، وبعضهن يحققن أهدافاً جيدة جداً. وسرعان ما تغرق الأيكة التي كانت تعج بفوضى عارمة في هدوء عميق وتخلو من الناس باستثناء بعض الرجال الذين يحرسون بقايا الجاموس، وتحديداً، الرأس والعظام والكرش حتى تُحرق ضمن طقس عند أسفل الوتد.

في هذه الأضاحي الخوندية تمثل الميرياه أضحية تُقدم لاسترضاء إلهة الأرض. لكن خلال التعامل مع الأضاحي قبل وبعد موتها لايمكن تفسير هذه العادة على أنها مجرد أضحية استرضائية؛ فجزء منها يقدم لإلهة الأرض أما البقية فتدفن في حقول العائلات ويُذرى الرماد المتبقي منها في الحقول ويوضع بعضها كمرهم على المخازن أو يُخلط بالحنطة الجديدة. تدل هذه العادات على اعتبارهم أن جسم الميرياه يتمتع بقوة مباشرة تنمي المحصول بشكل مستقل تماماً عن فعاليته التي يمكن أن

تأتي من كونها تقدمة لضمان إرادة الإلهة الطيبة. وبكلمات أخرى يُعتقد أن لحم الأضحية ورمادها تمنح قوة سحرية أو فيزيائية لتخصيب الأرض. كذلك كانت تُعزى نفس القوة لدموع ودماء الميرياه سيما وأن دمه يضفي على الكركم حمرته، وتعطي دموعُه مطراً. ولايمكننا أن نشك فيأن الدموع هي المانحة للمطر وليس مجرد تبشير به. ولا شك في أن سكب المياه على لحم الميرياه المدفون هو سحر مطري. ويعتقدون أن القوة السحرية تأتي من فضيلته السامية المفترض أنها تقطن في أي شيء يأتي من شخصه مثل شعره وبصاقه. ويدل إسناد هذه القوة للميرياه أنه ليس مجرد رجل يُضحى به لاسترضاء إله. ونقول مرة أخرى أن الإجلال الكبير الذي يتلقاه يؤدي إلى النتيجة نفسها. ويقول الرائد كامبيل: " يتلقى إجلالاً سامياً لايمكن تمييزه عن العبادة." إذن يعتبرونه إلهياً. بهذا يكون أصلاً تمثيلاً لإلهة الأرض أو ربما إلهة الخضرة رغم أنه كان يعتبر في وقت لاحق أضحية تُقدم لإله بدلاً من كونه هو نفسه إلهاً متجسداً. وربما لم يركز الكتاب الأوربيون الذين وصفوا ديانة الخوند على هذه النظرة الأخيرة بل اعتبروا الميرياه أضحية أكثر منها إلهاً. وتعودوا على النظر للأضحية على أنها تقدمة لنيل رضا إله، فصار الأروبيون يميلون إلى تفسير جميع الذبائح الدينية من هذا المنطلق ويفترضون وجود إله يسترضونه بأشلاء هذه الذبائح. وهكذا تفرض هذه الفكرة المسبقة نفسها لاشعورياً على رؤيتهم للشعائر البدائية.

ويمكن تحري عادة قتل ممثل الإله - والتي لها آثار قوية في الأضاحي الخوندية - في بعض الأضاحي البشرية الأخرى التي شرحناها أعلاه. فها هو رماد ماريمو المذبوح يُنثر على المحصول أو الحقل كذلك يُخزن لحم نيفا المذبوح في مخزن الحنطة ويُقطّر دم فتاة سيوكس على البذور. ومرة أخرى نقول إن ارتباط الضحية بالحنطة، أي النظرة القائلة بأنها تجسيد للحنطة لا بل روحها، يظهر جلياً في الآلام التي تكابدها الضحية للتوصُّل إلى التواصل مع الشيء الطبيعي الذي تمثله. لذلك يقتل المكسيكيون ضحايا صغيرة السن لأجل الحنطة الصغيرة وكبيرة السن لأجل الحنطة الناضجة. أما الماريمو فيضحون لأجل البذور برجل قصير القامة قوي البنية لأن قِصَر قامته تتناسب والحنطة الشابة، ويرغبون بإكساب الحنطة بنيته القوية. وربما يسمن البوني ضحاياهم للغرض نفسه. كذلك يأتي هذا التوافق بين الضحايا

والحنطة في العادة الإفريقية التي تقضي قتل الضحية بالفؤوس والمجارف، أما المكسيكيون فيطحنونه طحناً بين حجرين كبيرين.

هناك نقطة أخرى يجدر بنا ملاحظتها في هذه العادات البدائية وهي التهام رئيس القبيلة لقلب فتاة سيوكسن والتهام الماريمو والغوند للحم الضحية. فإذا افترضنا أن الضحية كائن إلهي إذن يأكل عابدوه من جسمه.

4ـ قتل روح الحنطة في ممثليها البشريين

إن العادة البربرية التي شرحناها لتوِّنا لها مثيلاتها في العادات الأوربية. فالبدائيون يخلطون دم الضحية أو رمادها ببذور الحنطة لِما لها من فضيلة إخصابية، أما في أوروبا فيخلطون حبوب الحزمة الأخيرة مع الحبوب الصغيرة في الربيع. كذلك فإن تحديد هوية الشخص يبدو مماثلاً في العادة البدائية إذ يرتبط عمر الضحية وحالتها مع عمر الحنطة وحالتها الفعلية أو المتوقعة. فالأسكتلنديون والإستيريون يعتقدون أنه إذا قطعت صبية الحزمة الأخيرة تكون الحنطة سيدة، وعندما تقطعها امرأة مسنة يعتقدون أنها أم الحنطة. ولذلك يوجهون تحذيراً إلى النساء المسنات في اللورين بأن يحفظن أنفسهن عندما تُقتل أم الحنطة، أو تُدرس الحزمة الأخيرة. كما يتوقع أهالي تيرولي أن تكون حنطة السنة القادمة طويلة إذا كان الرجل الذي قطع الحزمة الأخيرة طويلاً. وأيضاً في العادة البدائية تتحدد هوية ممثل روح الحنطة المقتول خلال طريقة قتله وهي الضرب بالفؤوس والمجارف أو عن طريق سحقه بين حجرين أما في العادة الأوربية فيمثلون قتله بالمناجل والمدارس. وكذلك تتوازى عادة سكب المياه على لحم الضحية المدفون لدى الخونديين مع عادة سكب المياه على ممثل روح الحنطة أو رميه في الجدول لدى الأوربيين.

لنعد إلى قصة ليترسيس ثانيةً. بيَّنا أن الغرض من قتل الكائنات البشرية في المجتمعات البدائية هو تحسين مستوى نمو المحاصيل. إذن ليس هناك مايمنع احتمال أنها كانت تُقتَل يوماً ما للغرض نفسه في فريجيا وأوروبا. وبما أن هناك تشابهاً كبيراً بين العادات الأوربية والفريجية علينا أن نقبل النتيجة ولو مؤقتاً أن الرجال كانوا يُذبحون بالطريقة نفسها. كذلك تتوافق قصة ليترسيس وعادات الحصاد

الأوربية في كون الضحية تُقتل على أنها ممثل لروح الحنطة وهذا مايمكن الإستدلال عليه من أخذ البدائيين لقسم من الضحية المذبوحة واستخدامها لجعل المحصول يزدهر. إذن في فريجيا كما في أوروبا كانوا يقتلون ممثل الحنطة سنوياً في حقل الحصاد. وقدمنا سابقاً أدلة على أن ممثل روح الشجرة كان أيضاً يُقتل سنوياً في أوروبا. أما الأدلة التي اعتمدنا عليها في هاتين العادتين المتماثلتين فهي أدلة مستقلة تماماً عن بعضها بعضاً. وما تصادُفُهما إلا افتراض جديد يدعمهما معاً.

أما كيفية اختيار ممثل الحنطة فهو سؤال أجبنا عنه سابقاً. تبين كلا قصة ليترسيس والعادة الشعبية الأوربية أن مرور الغرباء يعتبر هروب روح الحنطة من الحنطة المدروسة وبناءً عليه كان يُقبض عليهم ويُقتلون. لكن هذا ليس هو الجواب الوحيد الذي تقودنا إليه الأدلة. حسب الأسطورة الفريجية لم تكن ضحايا ليترسيس من الغرباء فقط بل كانوا من أولئك الذين يغلبهم في سباق الحصاد ثم يغلفهم بحزم الحنطة ويقطع رأسهم. هذا يبين أنه يتم اختيار ممثل روح الحنطة في حقل الحصاد عن طريق المباراة التي يُجبر فيها المغلوب على قبول الشرف المُهلِك. وما يدعم هذا الافتراض هو عادات الحصاد الأوربية التي يتهرب كل حصاد فيها من أن يكون الأخير ويُعامل الخاسر فيها معاملة قاسية. وصحيح أننا لم نعثر على تمثيل قتله لكننا عثرنا على مهايأة قتل من يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة أي الخاسر في السباق. وبما أن مهايأة القتل تُطبّق على شخص ممثل روح الحنطة أو الحنطة الأخيرة، وبما أن التمثيل نفسه يُمارَس على آخر قاطع أو حازم حنطة، وبما أن الصيادين يشمئزون من كونهم آخرالعاملين، لنا أن نتوقع أن هذه المهايأة كانت تتم فعلاً ويُقتل آخر الحصادين أو الدارسين أو الحازمين. وما يعزز هذا التوقع هو الخرافة القائلة إن آخر القاطعين سيموت قريباً. وأحياناً يُعتقد أن من يحزم القبضة الأخيرة سيموت في مضمار السنة القادمة. وربما يعود التركيز على آخر القاطعين أو الدارسين أو الحازمين إلى هذا السبب. ويعتقد أن روح الحنطة تندس خفية قدر ما تستطيع هروباً من القاطعين أوالدارسين أو الحازمين. لكن عندما تُجبر على الخروج من مخبئها في القطع الأخير أو الضربة الأخيرة أو الحزمة الأخيرة، لابد أنها تأخذ شكلاً آخر غير سنابل الحنطة. وما الشكل الذي يمكن أن تأخذ روح الحنطة أكثر من انتقالها إلى شخص يقف أمام مسكنها الذي طُردت منه لتوها؟ لكن

السؤال الآن يتعلق بالحصَّاد الأخير أو الدارس الأخير أو الحازم الأخير، أنثىً كانت أم ذكراً، الذي يُقبض عليه ويُعامل على أنه روح الحنطة.

إذن فالشخص الذي يُقتل على أنه روح الحنطة هو إما عابر سبيل أو من يقوم بالقطع الأخير أو الدراسة الأخيرة أو الحزم الأخير. وهناك إمكانية ثالثة تدل عليها الخرافة القديمة بالإضافة إلى العادة الشعبية المعاصرة وهي عدم انتهاء قصة ليترسيس عند قتله للغرباء بل استمرت حتى قُتل هو أيضاً عن طريق ذبحه وتغليفه بالحنطة ورميه في النهر، وهذا يعني أن ماحصل لليترسيس قد حصل له وهو في وطنه. وعلى نحو مشابه تبدو مهايأة القتل في العادات المعاصرة سارية على السيد أو الفلاح كما هي على الغرباء. وعندما نتذكر أن ليترسيس كان ابناً لملك فريجيا وأنه هو نفسه يُدعى الملك، وعندما نقرن هذا مع قصة قتله كممثل لروح الحنطة، يقودنا هذا إلى الأثر الباقي لعادة القتل السنوي لأحد الملوك الكهنوتيين أو الإلهيين والذين لهم وجود روحاني في الكثير من أنحاء آسيا وخصوصاً في فريجيا. ويبدو أن العادة ظهرت في مناطق كان يُقتل فيها ابن الملك بدلاً من أبيه. وما قصة ليترسيس إلا إحدى بقايا هذه العادة.

لنعد الآن إلى علاقة ليترسيس الفريجي بآتيس الفريجي. وربما نذكر أنه في بيسوس من يحتل منصب الملك الكاهن ويُقتل سنوياً في شخص آتيس، إله الخضرة والذي كانوا يصفونه بسنبلة الحنطة المقطوعة. إذن كان آتيس كتجسيد لروح الحنطة يُذبح سنوياً في شخص ممثله وربما كان هذا التمثيل مطابقاً لليترسيس إلا أن ليترسيس كان نسخة بدائية بسيطة تطورت عنها آتيس كديانة رسمية للدولة. قد يكون الأمر كذلك لولا تنبهنا أنه في العادة الأوربية وفي المجتمع نفسه إلاهَا خضرة مستقلَّان وربما لهما ممثلان منفصلَان وكلاهما يُقتلان في موعدين مختلفين من السنة. ورأينا في أوروبا أن شخصاً يُذبح في الربيع على أنه روح الشجرة وآخر يُذبح على أنه روح الحنطة في الخريف. وربما كان الأمركذلك في فريجيا. كان آتيس إله الشجرة بشكل خاص وما علاقته بالحنطة سوى امتداد لطاقة روح الشجرة المُشار إليها في عادات حصاد أيار. ويبدو أنهم كانوا يقتلون ممثل آتيس في الربيع بينما كان يُقتل ليترسيس في الصيف أو الخريف بحيث يتناسب مع موعد الحصاد في فريجيا. والحقيقة بما أنه لامبرر لنا في اعتبار ليترسيس نسخة أولية لآتيس يمكن

اعتبارهما انتاجين متساويين للفكرة الدينية نفسها وهما بالنسبة لأوروبا تماماً مثل (الرجل المسن) أو (رجل أوراق الشجر) بالنسبة للإنسان البدائي في الربيع. كلاهما كانا روحَيّ الخضرة أو إلهيها ويُقتل ممثلاهما سنوياً. لكن بينما ارتقت عبادة آتيس لتصبح ديانة الدولة وامتدت إلى أيطاليا، لم تتجاوز شعائر ليترسيس حدود فيريجيا الإقليمية وحافظ الفلاحون على طقوسها البسيطة في حقل الحصاد. أو ربما في أفضل الحالات قد تضافرت بضع قرى كما حصل لدى الخوند ليتدبروا ضحية بشرية يذبحونها كروح للحنطة تاميناً لمصالحها. وربما جاؤوا بالضحايا من عائلات ملكية كهنية أو ملكية صغيرة تبرر شخصية ليترسيس كابن للملك الفريجي أو كونه هو نفسه ملك. وفي حال لم يحصل هذا التعاون بين القرى كان على كل قرية أن تتدبر ممثلها الخاص كروح الحنطة بأن تحكم على أحد عابري السبيل أو المغلوبين في مسابقات الحصاد والدراسة والحزم. وربما سادت ممارسة صيد الرؤوس في غابر الزمان كوسيلة لتحسين نمو الحنطة بين بدائيي أوروبا وآسيا الغربية كما هو سائد الآن لدى القبائل الزراعية البدائية في آسام وبورما وجزر الفلبين وأرشيبيلاغو الهندية. ولسنا بحاجة أن نضيف أنه في فريجيا كما هو الأمر في أوروبا مرت عادة قتل الرجل البربرية في حقل الحصاد أو على أرض البيدر في مرحلة مهايأة قبل العصر الكلاسيكي بوقت طويل وكان يُعتبر مزاحاً قاسياً بين الحصادين أو الدارسين يُسمح بممارسته على الغرباء العابرين أو الأصدقاء أو حتى على أسيادهم.

لقد تأملت أغنية ليترسيس طويلاً لما فيها من نقاط التقاء مع العادات الشعبية البدائية الأوربية. ولفت انتباهي أغاني الحصاد في آسيا الغربية وغربي مصر وسنتكلم عنها هنا باختصار. ويساعدنا التشابه بين بورموس البيثي وليترسيس الفريجي في استبعاد التفسير الذي قدمناه عن هذا الأخير. أما موت أو اختفاء نورموس الذي كان ينعيه الحصادون سنوياً في أغنية حزينة كان - مثل ليترسيس - ابن ملك أو على الأقل ابن رجل ثري بارز. أما الحصادون الذين كان يراقبهم فكانوا في حقوله الخاصة واختفى عندما كان ذاهباً ليحضر لهم الماء. وفي رواية أخرى أن حوريات حملته ولا شك في أنها حوريات الربيع أو حوريات البُركة أو النهر حيث كان يحاول جلب الماء. وإذا مانظرنا إلى قصة ليترسيس والعادات الأوربية من هذه الزاوية فربما كان اختفاء بورموس بقايا عادة حزم المُزارع نفسه وإلقائه في

الماء. أما الأغنية الحزينة التي يغنيها الحصادون ربما كانت نواحاً على روح الحنطة التي ماتت إما بالقطع أو بقتل ممثلها البشري والنداء الذي يوجهونه له ربما كان تضرعاً لأجل عودة الروح نضرةً في العام القادم.

كانت تُغنَّى أغنية لينوس الفينيقية عند غلة الكروم على الأقل في غربي آسيا الصغرى كما علمنا من هوميروس وهذا يوحي بعد تأكيده من أسطورة سيليوس أنه في غابر الزمان كان قاطفو العنب وزارعوه يعاملون الغرباء بالطريقة نفسها التي اتبعها الحصاد ليترسيس. أما سيليوس الليديّ كما تقول الأسطورة فكان يُجبِر عابري السبيل على الحراثة في بساتين العنب حتى أتى هرقل وقتله واقتلع جميع أشجار عنبه من الجذور. يبدو أن الحبكة العامة لهذه القصة شبيهة بأسطورة ليترسيس لكن لم نستطع الحصول على التفاصيل لا من الأسطورة ولا من العادات الشعبية. لكن يبدو أن الأغنية اللينية قد غناها الحصادون الفينيقيون أيضاً لأن هيرودوتوس يقارنها بأغنية مانيروس التي كانت عبارة عن نواح يطلقه الحصادون المصريون على الحنطة المقطوعة. كذلك كان لينوس يشبه أدونيس وكان أدونيس يُعتبَر إله الحنطة على وجه الخصوص. أضف إلى ذلك أن نواح لينوس في الحصاد شبيه بنواح أدونيس من حيث أنهما على روح الحنطة الميتة. لكن في حين صار أدونيس — مثل آتيس ـ شخصية مهيبة في الميثولوجيا تُنعى وتُعبد في مدن فينيقيا الكبيرة، اقتصر وجود لينوس على ذكره في قصيدة غنائية بسيطة يغنيها قاطفو العنب بين أغمار الحنطة والعنب. ويدلنا تماثل ليترسيس والعادة الشعبية الأوربية والبدائية على أن الفينيقيين قتلوا روح الحنطة ـ أي أدونيس الميت ـ على شكل ضحية بشرية تمثل تلك الروح. وما يعزز هذا الاعتقاد هي الأسطورة الحرانية القائلة أن تموز(أدونيس) قد ذُبح على يد سيده القاسي الذي طحن عظامه في مطحنة ونثرها مع الريح. لكن يمكن أن تكون الطريقة الحرانية مجرد أسلوب أسطوري للتعبير عن سحق الحنطة في المطحنة ونثر البذور. ويبدو أن الملك الزائف الذي يُقتل سنوياً في المهرجان البابلي في اليوم السادس عشر من شهر لوس يمكن أن يمثل تموز نفسه. وقد توصلنا إلى هذا من المؤرخ بيروسوس الذي يكتب عن المهرجان وعن تاريخه وربما استخدم التقويم المقدوني لأنه أهدى كتابه لأنتيوخوس سوتير وفي أيامه كان

شهر لوس المقدوني موافقاً لشهر تموز البابلي. فإذا كان هذا التوقع صحيحاً يَثبُت لدينا ذبح الملك المزيف في ساكايا كشخص إلهي.

وهناك أدلة كثيرة تبين أنه في مصر كانت روح الحنطة المقتولة (أوسيريس الميت) تُمثَّل بضحية بشرية يذبحها الحصادون في حقل الحصاد وينعون موتها بترنيمة جنائزية أخذها عنهم الإغريق لكنهم أخطأوا في لفظها عندما سموها مانيروس. لهذا تحتفظ أسطورة بوسيروس ببقايا هذه الأضاحي البشرية التي قدمها المصريون يوماً كعبادة لأوسيريس. يُقال أن بوسيريس كان ملكاً مصرياً يذبح كل الغرباء على مذبح زيوس. وقد تقفينا أصل هذه العادة إلى بدايتها عندما أصاب مصر مجاعة دامت تسع سنوات. فأبلغ عراف سيبيري بوسيريس عن سبيل إنهاء هذه المجاعة وهو أن يُذبَح رجل سنوياً لأجل زيوس. وبناءً عليه سنَّ بوسيريس هذه الأضحية. لكن عندما أتى هيركيوليز إلى مصر وسِيق إلى المذبح قطع وثاقه وقتل بوسيريس وابنه. نتبين من هذه الأسطورة أن الضحية البشرية كانت تُقدَّم سنوياً لأجل سلامة المحاصيل أي أنهم كانوا يعتقدون ضمناً أن إهمال هذه الأضحية يؤدي إلى جدب التربة. لذلك اعتقد الباوني أن التقصير في أداء الأضحية البشرية في موسم الزراعة يؤدي إلى إخفاق المحصول إخفاقاً تاماً. أما اسم بوسيريس هو في الحقيقة اسم مدينة تعني (بيت أوسيريس) وقد سُميت هكذا لاحتوائها على ضريح أوسيريس. وبالفعل يعتقد خبراء معاصرون موثوقون أن موطن أوسيريس الأصلي هو بوسيريس التي انطلقت منها عبادته إلى سائر المناطق المصرية. ويُقال أن الأضاحي البشرية كانت تُقدم على ضريحه. وكانت تلك الأضاحي ذات شعر أحمر ينثرون رمادها بمذاري التبن. أما الصروح الباقية فهي الدليل على تقديم أضاحي بشرية على قبر أوسيريس.

وهكذا يصبح تفسيرنا لعادة بوسيريس المصرية معقولاً جداً. كان يمثل أوسيريس في الحصاد سنوياً أحدُ الغرباء الذي يجعله شعره الأحمر أضحية مناسبة لأجل الحنطة الناضجة. وكان هذا الشخص يُذبح في حقل الحصاد وينعيه الحصادون الذين يصلُّون كي تعود روح الحنطة بنشاط جديد في السنة القادمة. وفي النهاية كانوا يحرقون جزءاً من الأضحية وينثرون رمادها في الحقول كي يخصبها. ويختارون الضحية بحيث تشبه الحنطة وهذا مارأيناه أيضاً في العادات المكسيكية أو الأفريقية. وللسبب نفسه كانوا يلوِّنون وجه المرأة التي تموت على أنها أم الحنطة

في أضحية منتصف الصيف، يُلوِّنونه بالأحمر والأصفر بحيث يشبه ألوان الحنطة، ويلبسونها تاجاً مزيناً بالريش المتماوج تَشَبُّهاً بشرَّاب الذرة. ومن الناحية الأخرى، في احتفال إلهة الذرة البيضاء كان المكسيكيون يذبحون مصابين بالجُذام. أما الرومان فكانوا يذبحون جِراءً حُمْراً في الربيع ليدرؤوا الكارثة التي قد يسببها نجم الكلب، ولاعتقادهم أن هذا يجعل المحصول متورداً وناضجاً. وكان يقدم وثنيو حران ضحايا بشرية للشمس والقمر والكواكب ويختارونها على أساس الشّبه المفترض بينها وبين هذه الأجرام السماوية. على سبيل المثال، كان الكهنة يلبسون الأحمر ويصبغون أنفسهم بالدم عندما يقدمون رجلاً أحمر الشعر ومتورد الوجنتين للنجم الأحمر- المريخ في معبد مدهون بالأحمر وعليه ستائر حمراء متجعدة. إن هذه الحالات أو ما يشابهها من تماثل الضحية مع الإله أو مع الظاهرة الطبيعية التي تمثله تعتمد في النهاية على مبدأ السحر التعاطفي أو التجانسي بحيث يمكن بلوغ المقصود بسهولة أكبر إذا ما شابهت الضحية الهدف المرجو منها.

أما قصة أشلاء جثة أوسيريس المبعثرة في أعلى الأرض وأدناها والتي دُفنت في مواقعها هي على الأرجح بقايا لعادة اتبعها الخوند وهي تقسيم الأضحية البشرية ودفن أجزائها على مسافات من بعضها بعضاً في الحقول.

وإذا كنت محقاً في ذلك، فهناك ما يؤكد غوامض قصة أوسيريس وهي صرخة الحصادين المصريين التي ظلت حتى العهد الروماني تتكرر على ألسنتهم سنة بعد سنة في الحقول معلنين فيها موت روح الحنطة وهي النسخة الأصلية لأوسيريس. كما سمعنا صيحات مشابهة في حقول الحصاد في آسيا الغربية قال عنها القدامى أنها أغاني. لكن عندما نحلل أسماءها - لينوس ومانيروس — إنما هي من بضع كلمات يطيلون نغمتها الموسيقية إلى درجة أنها تُسمَع من بعيد. ولابد أنه كان لهذه الصرخات الجهورية الطويلة التي أطلقتها حناجر قوية في المناسبات تأثير قوي على الراحلين ولابد أنها لفتت إنتباههم لطالما كانوا على نطاق السمع. وكانت بالتأكيد أصواتاً سهلة التمييز لأنها تكررت كثيراً، لكن مسافراً إغريقياً في آسيا أو مصر ربما لم تعن له شيئاً فأخذهاعلى أنها (مانيروس أو لينوس أو ليتيرسيس أو بورموس) تلك الأسماء التي كان ينادي بها الحصادون. وإن قادته رحلته إلى دول أخرى مثل بيثينيا أو فريجيا أو فينيقيا أو مصر في أوقات الحصاد

تسنح له الفرصة أن يقارن صيحات عديدة من شعوب مختلفة. من هنا نفهم سبب مقارنة الإغريق لهذه الصيحات بعضها ببعض. فعندما كانت أغاني منتظمة لم يكن بالإمكان سماعها من مسافة بعيدة ولم تكن لتلفت انتباه الكثير من المسافرين. وعندما كان المسافرون على مقربة ليسمعوها بوضوح صَعُبَ عليهم حفظ كلماتها.

وحتى زمن ليس ببعيد ظل حصادو ديفونشاير يطلقون كهذه الصيحات ويؤدون طقوساً مماثلة، إن لم أخطئ يعود أصلها إلى أوسيريس. وهذا وصف أحد كتّاب النصف الأول من القرن التاسع عشر لتلك الصرخة وذلك الطقس: " بعد أن يتم قطع القمح كله في معظم المزارع في شمال ديفون، اتبع الحصادون عادة (الصراخ على الرقبة). وأعتقد أنه نادراً ما يهملون ممارسة هذه العادة في أي مزرعة كبيرة في أي من أنحاء البلاد. وجرت العادة أن يقوم بالطقس رجل مسن عارف بهذه المناسبة في أثناء حصاد الرجال لحقل القمح الأخير. يجول على الحُزم والأغمار وينتقي منها قبضة صغيرة من أفضل السنابل ثم يربطها بعناية ويزينها ويضفرها ويرتب قشها بذوق رفيع ويسمونها (رقبة) القمح أو سنابل القمح. وبعد الانتهاء من حصاد الحقل وانتشار الرماة ثانية يقف الحصادون والحازمون في الوسط، ويقف الرجل الذي يحمل الرقبة ماسكاً إياها بكلتا يديه. ثم ينحني بها إلى الأرض فيخلع جميع الرجال من حوله قبعاتهم وينحنون إلى الأرض. ثم يبدؤون في وقت واحد بصرخة مطولة منغمة قائلين (الرقبة) وينهضون ببطء ويرفعون أيديهم وقبعاتهم إلى رؤوسهم. أما الرجل الذي يحمل قبضة الرقبة فينهض رافعاً إياها عالياً. يقومون بهذه الحركة ثلاث مرات. ثم يغيرون صرختهم لتصبح (وي – ون)، (واي ـ يان) يقولونها ثلاث مرات ببطء وبنغمة مطولة ومتناغمة ومؤثرة كالتي غنوها من قبل. ومع هذه النغمة يقومون بالحركات التي قاموا بها عند الرقبة نفسها، وبعد أدائها ثلاث مرات ينفجرون بقهقهة فرحة ويرمون قبعاتهم في السماء ثم يقفزون بفرح وربما يقبلون الفتيات. ثم يقفز أحدهم ويختطف الرقبة ويركض بأسرع مايمكن في دار المزرعة حيث تقف سيدة الملبن أو إحدى إناث الديرة عند البوابة وبيدها دلو من الماء. إذا استطاع حامل الرقبة أن يدخل المنزل خلسة أو علناً لكن من غير الباب الذي تقف عنده الفتاة يصبح بمقدوره أن يقبلها شرعاً أو أنه يُغمر بماء الدلو. وفي سهرة الخريف الجميلة، لصرخة الرقبة تأثير كبير، وربما أكثر بكثير من المؤذن التركي الذي

يمدحه لورد بايرون قائلاً أنه أفضل من أجراس العالم النصراني. وقد سمعت مرة أو اثنتين صرخات عشرين من أولئك الرجال يصحبهم أصوات عشرين من النساء. ومنذ حوالي ثلاث سنوات سمعت في موسم الحصاد ست أو سبع صيحات رقبة في ليلة واحدة وعرفت أن بعضها كان على مسافة عدة أميال لكنها كانت مسموعة في هدوء الليل." وكذلك تخبرنا السيدة براي التي كانت تسافر في ديفوشاير:" شاهدت مجموعة حصادين واقفين في دائرة على مزة من الأرض رافعين مناجلهم. وقف أحدهم في الوسط يحمل بعض سنابل من القمح مربوطة مع زهرة وصرخت المجموعة ثلاث مرات (آرناك، آرناك، آرناك، هي عندنا، هي عندنا، هي عندنا.) ثم ذهبوا إلى القرية مصحوبين بالنساء والأطفال حاملين أغصاناً ووروداً وهم يصيحون ويغنون. وقال الخادم الذي كان يصحب السيدة براي أنهم أناس يلعبون لعبتهم كالمعتاد وهي لأجل روح الحصاد." وتقول الآنسة بورن:" (آرناك، هي عندنا) هي بلهجة أهل ديفون (الرقبة نمتلكها).

وهناك تقرير آخر عن هذه العادة يكتبه ترورو في عام 1839 يقول فيه:" عندما تُقطع الحنطة كلها في هيليغان يَحضر الفلاحون والفلاحات أمام المنزل ويُحضرون حزمة صغيرة من الحنطة، وهي آخر ما قُطِع من الحنطة مزينة بالورود والأشرطة ومربوطة بقوة من مكان يجعلها تبدو وكأنها رقبة. ثم يصرخون (إلى جانبي، إلى جانبي) بأعلى صوت. تتقدم بعدها سيدة الملبن وتعطي الرقبة لرب الأسرة. وعندما يستلمها يقول ثلاث مرات: (إنها عندي، إنها عندي، إنها عندي). ويصرخ فلاح آخر قائلاً: (ماعندك؟ ماعندك؟ ماعندك؟) ويقول الأول (الرقبة، الرقبة، الرقبة) عندها يصرخ الجميع صرخة عالية. يفعلون ذلك ثلاث مرات وبعد صيحة متميزة يذهبون جميعاً إلى العشاء وهم يغنون ويرقصون." وفي تقرير آخر:" يذهب الجميع إلى الحقل عندما تُقطع آخر الحنطة وتُربَط الرقبة بالأشرطة وتُضفر ويرقصون حولها ثم يحملونها إلى المطبخ الكبير حيث سيُقام العشاء. أما الكلمات التي يقولونها فهي (هيب، هيب، هاك، هيك، أمتلكك، أمتلكلك، أمتلكك) وهي معلقة في القاعة. ويقول تقرير آخر أن أحد الرجال يندفع من الحقل الذي قُطِعت فيه القبضة الأخيرة بينما يلاحقه البقية بدلاء الماء ويحاولون سكبها على القبضة قبل جلبها إلى المخزن.

في هذه العادات نفهم من القبضة الأخيرة وهي غالباً من الحنطة الأخيرة أنها رقبة روح الحنطة التي تُقتَل عند قطع القبضة الأخيرة. كذلك في شروبشاير (الرقبة) أو (رقبة ذكر الإوز) إسم يطلقونه على القبضة الأخيرة من السنابل الباقية في وسط الحقل بعد أن تُقطع بقية الحنطة من الحقل كله. يضفرونها ويقف الحصادون على بعد عشرين خطوة ويلقون بمناجلهم عليها. ويقولون لمن يقطعها أنه قطع رقبة ذكر الإوز.. تؤخذ الرقبة إلى زوجة المزارع التي تحتفظ بها في المنزل لتجلب لهم الحظ السعيد حتى حلول الحصاد القادم. وبالقرب من تريفيس يقولون لمن يقطع القبضة الأخيرة أنه قطع رقبة العنزة. وفي فاسلين في غاريلوش يسمون القبضة الأخيرة الباقية في الحقل (الرأس). وفي أوريخ شرقي فريسلاند، يقولون لمن يقطع الحنطة الأخيرة أنه قطع ذيل الأرنب. وعندما يفرغ الحصادون الفرنسيون من قطع الحنطة الأخيرة يقولون (لقد أتينا بالقطة من ذيلها). وفي بريس ترمز القبضة الأخيرة إلى الثعلب. ويتركون بعض السنابل بقربها ليمثلوا الذيل ويرجع كل حصاد بضعة خطوات ويرمي عليها بمنجله ليقطع الذيل. ويقولون لمن يقطعه أنه قطع ذيل الثعلب ويصرخون على شرفه قائلين (أنت كاوكاو). لا تترك هذه الأمثلة مجالاً للشك بأن عبارة الرقبة في ديفونشاير وفي اللغة الكورنية إنما تطلق على القبضة الأخيرة. وأنهم يدركون روح الحنطة على شكل بشري أو حيواني وأن الحنطة الأخيرة الواقفة هي جزء من جسمها – رقبتها أو رأسها أو ذيلها. وأحياناً تُعتبر الحنطة الخيط السري. وأخيراً، إن العادة المتبعة في ديفوشاير وهي سكب الماء على الشخص الذي يجلب الرقبة ما هي إلا سحر مطري كالذي رأيناه في الكثير من الأمثلة السابقة. ومايماثله في طقوس أوسيريس هي عادة سكب الماء على مجسم أوسيريس أو على الشخص الذي يمثله.

الفصل الثامن والأربعون
روح الحنطة على شكل حيوان

1ـ التجسُدات الحيوانية لروح الحنطة

في بعض الأمثلة التي شرحناها لتحديد معنى عبارة (رقبة) وإطلاقها على الحزمة الأخيرة، ظهرت روح الحنطة على شكل حيوانات مثل ذكر الإوز والعنزة والأرنب البري والقطة والثعلب. وهنا نجد أنفسنا أمام روح الحنطة بمظهر جديد نتناوله بأمثلة حية عن قتل الإله كما سنوضح خلال هذه الأمثلة بعضَ النقاط الغامضة في الأساطير وعبادة أدونيس وآتيس وأوسيريس ودايونيسوس وديميتر وفيربيوس.

ومن بين الأشكال التي اتخذتها روح الحنطة أيضاً حيوانات كثيرة مثل الذئب والكلب والثعلب والإوز والبقرة أو الثور والخنزير والكلب. وفي بعض هذه الأشكال يُعتقد أن روح الحنطة موجودة في الحنطة ويتم التقاطها أو قتلها في الحزمة الأخيرة. فعندما تُقطع الحنطة يهرب الحيوان أمام الحصادين. وإذا ضَعُف الحصاد في الحقل يُفترض أنه تَعَثَّر بلا قصد بروح الحنطة فأتى تعثره عقاباً على فعلته الآثمة، فيقولون أن (ذئب الجاودار قد تمكَّن منه) أو (معيز الحصاد قد دفعه). كما يسمون الشخص الذي يقطع الحزمة الأخيرة أو يحزمها باسم ذلك الحيوان أي ذئب الجاودار أو خنزيرة الجاودار أو عنزة الشوفان. وقد يلتصق به هذا الاسم سنة كاملة. كما تُمثّل الحيوانات غالباً بدمية يصنعونها من الحزمة الأخيرة أو من الخشب أو الزهور وتُحمل إلى المنزل وسط مرح صاخب مع العربة الأخيرة. وحتى عندما لا تأخذ الحزمة الأخيرة شكل الحيوان يبقى اسمها ذئب الجاودار أو الأرنب البري أو العنزة وغيرها. وعلى العموم لكل محصول حيوانه الخاص ويُلتَقَط مع القبضة الأخيرة. هناك ذئب الجاودار وذئب الشعير وذئب الشوفان وذئب البطاطا، ولكن يمكن

صنع مجسم الحيوان في نهاية حصاد المواسم كله. وأحياناً يُعتقد أن الحيوان يُقتل مع آخر ضربة لآخر سنابل تُدرَس. من هنا يقولون لمن يضرب ضربة المِدرَس الأخيرة أنه أخذ خنزيرة الحنطة أو كلب الدراسة وما شابه. وعند الإنتهاء من الدراسة يصنعون الدمية على شكل حيوان يحمله الدارس مع الحزمة الأخيرة إلى المزرعة المجاورة حيث تكون الدراسة قائمة. وهذا يدل على أن روح الحنطة باقية مادامت هناك حنطة تُدرس. وأحياناً يمثل دارس الحزمة الأخيرة الحيوانَ وإذا استطاع الدارسون في الحقل المجاور التقاطه يعاملونه معاملة الحيوان الذي يمثله كأن يحبسوه في زريبة الخنازير وينادونه بصيحات توجّه إلى ذلك الحيوان. وسنأتي إلى شرح هذه الحالات بالأمثلة.

2ـ روح الحنطة على شكل ذئب أو كلب

ينتشر مفهوم روح الحنطة ككلب أو كذئب في فرنسا وألمانيا والبلدان السلافية. لذلك عندما تتماوج الحنطة مع النسيم يقول الفلاحون (الذئب يمشي على الحنطة أو فيها) أو (يندفع الذئب فوق الحقول) أو (الذئب في الحنطة) أو (الكلب المجنون في الحنطة) أو (الكلب الكبير هناك). وعندما يرغب الأطفال في الدخول إلى حقل الحنطة ليقطفوا بعض السنابل أو يجمعوا بعض الورود يُحذَّرون بعبارات (الكلب قابع في الحنطة) أو (الذئب قابع في الحنطة وسوف يمزقكم) أو (سيأكلكم الذئب). إن الذئب الذي يحذرون منه ليس الذئب العادي لأنهم يقولون إنه ذئب الحنطة أو ذئب الجاودار إذ يقولون (سيلتهمكم ذئب الجاودار يا أطفال) أو (سيأخذكم ذئب الجاودار يا أطفال). لكن ذلك الذئب له مظهر الذئب العادي نفسه. بالقرب من فيلندهوف شرقي بروسيا ، عندما يرون ذئباً يجري في الحقول يراقبه الناس ليروا ما إذا كان يرفع ذيله في الهواء أو يجره على الأرض. فإذا جره على الأرض يلحقون به ويشكرونه لما أتى به من بركة ويضعون أمامه طعاماً شهياً. أما إذا كان يرفع ذيله عالياً فيلعنونه ويحاولون قتله. إذن تكمن قوة ذئب الحنطة الاخصابية في ذيله.

تظهر عادات الحصاد تجسد روح الحنطة في الكلب والذئب. ففي بعض أنحاء سيليسيا يسمون الشخص الذي يقطع أو يحزم القبضة الأخيرة (كلب القمح) أو (كليب البازلاء). لكن الفكرة تأتي أوضح في عادات الحصاد في شمال شرق فرنسا. فعندما يضعف الحصّاد في أداء مهمته بسبب المرض أو الإنهاك أو الكسل يقولون (مرَّ به الكلب الأبيض) أو (الكلبة البيضاء) أو (عضته الكلبة البيضاء). ويقولون عن أيار الحصاد في فوزج (كلب الحصاد) ويقولون عن الشخص الذي يقطع القبضة الأخيرة من القمح أو التبن أنه (قتل الكلب). وفي القرب من لونسليسولنيير في جورا، تسمى الحزمة الأخيرة (الكلبة). وفي جوار فيردون ينهون الحصاد بعبارة متعارف عليها وهي (سيقتلون الكلب) ويقولون في إبينال وحسب المحصول: (سنقتل كلب القمح أو كلب الجاودار أو كلب البطاطا). ويقولون في لورين عن الشخص الذي يقطع الحنطة الأخيرة: (إنه يقتل كلب الحصاد). وفي دوكس في تيرول يُقال عن الشخص الذي يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة:(ضرب الكلب) وفي انيبيرجن بالقرب من ستاد يُسمى وحسب المحصول (كليب الحنطة و كليب الجاودار وكليب القمح).

وينطبق الشئ نفسه على الذئب. عندما يجمع الحصادون البقعة الأخيرة من حقل الحنطة يُقال إنهم على وشك أن يلتقطوا الذئب. وفي أنحاء متعددة من ميكلنبورغ حيث يسود معتقد ذئب الحنطة يخاف الجميع من قطع الحنطة الأخيرة لأن الذئب قابع هناك لهذا يبذل كل حصاد قصارى جهده كي لا يكون آخر الحاصدين. وكذلك تخاف كل امرأة من ربط الحزمة الأخيرة لاحتوائها على الذئب. ويبدو أن القول الشائع في ألمانيا:(يقبع الذئب في الحزمة الأخيرة.) وفي بعض المناطق يقولون للحصاد: (احذر الذئب) أو يقولون:(إنه يطرد الذئب خارج الحنطة.) وفي ميكلينبورغ يسمون بقعة الحنطة الأخيرة التي لم تُقطَع بعد (الذئب) ويسمونها بحسب المحصول (ذئب الجاودار) أو غيره. وفي أنحاء عديدة من ميكلينبورغ على الحصاد الذئب أن يعزز تلك الشخصية بأن يتظاهر أنه يعض الحصادين الآخرين ويعوي مثل الذئب. أما حزمة الحنطة الأخيرة فتسمى بذئب الحنطة وغيرها حسب المحصول. ويقولون عن المرأة التي تربط الحزمة الأخيرة (إن الذئب يعضها) أو (عندها الذئب) أو (عليها أن تأتي بالذئب) من الحنطة. والأكثر من ذلك هي نفسها تُسمى (الذئب) ويقولون لها (إنك الذئبة) وعليها أن تحمل هذا الاسم لعام كامل. وفي

جزيرة روجن لا يكتفون بتسميتها بالذئب بل يتوجب عليها أن تعض سيدة المنزل عند عودتها إلى البيت وتتلقى مقابل ذلك قطعة كبيرة من اللحم. مع ذلك لاتقبل أية حصادة أن تكون الذئبة. كما يتغير اسمها حسب المحصول كأن تكون ذئبة القمح أو غيره. وفي بوير في منطقة كلولون كانت العادة السائدة أن يعطوا للحزمة الأخيرة شكل ذئب ويحتفظوا به حتى دراسة الموسم القادم عندما يتوجب على المزارع أن يرشها بالبيرة أو النبيذ. وفي برونساوبتون في ميكلينبورغ اعتادت الصبية التي تحزم القبضة الأخيرة من القمح أن تختار منها سنابل تصنع منها ذئب القمح وهو مجسم طوله حوالى خمسة وسبعين سنتيمتراً وتجعل قوائمه من القش القاسي وذيله وعُرْفه من سنابل القمح. ثم تأخذ تلك الصبية الذئب القمحي إلى رئيس الحصادين في القرية ليضعه في مكان عالٍ في قاعة المزرعة ويبقى هناك لوقت طويل. وفي أماكن أخرى يجعلون مايسمى بالذئب على شكل إنسان يلبسونه الملابس. وهذا مايدل على اختلاط أفكارهم بين شكلَي روح الحنطة البشري والحيواني. والجدير بالذكر أنهم يحملونه مع العربة الأخيرة وسط صيحات الابتهاج كما يسمون العربة الأخيرة التي تحمله (الذئب).

ومن المفترض أن يختبئ الذئب بين الحنطة المقطوعة في المخزن ولايخرج إلا من الحزمة الأخيرة ومع ضربة المِدْرَس الأخيرة. لذلك بعد الدراسة في وانزلبين بالقرب من ماغديبورغ، يذهب الفلاحون في موكب يقودون بسلسلة رجلاً مغلفاً بالقش ويسمونه الذئب. يمثل هذا الرجل روح الحنطة التي قبضوا عليها وهي تهرب من الحنطة المدروسة. وفي مقاطعة تريفيس يُعتقد أن ذئب الحنطة يموت في الدراسة. لذلك ترى الناس يدرسون الحزمة الأخيرة حتى يتكسر القش إلى أصغر قطع ممكنة وحتى يتأكدوا من قتل ذئب الحنطة المندس في القش.

وفي فرانكو يظهر ذئب الحنطة عند الحصاد. لذلك يقولون للحصاد :(ستلتقط الذئب). وبالقرب من تشامبيري يقفون في حلقة حول آخر الحنطة الواقفة ويصرخون:(الذئب هنا). وفي فينيستير وعندما يقترب الحصادون من نهاية عملهم يصرخون:(هناك ذئب سنلتقطه). ويتعهد كل منهم رقعة يحصدها. وحالما ينتهي أحدهم من عمله يصرخ:(لقد التقطت الذئب). وفي غويان وعند الانتهاء من حصاد آخر الحنطة يسوقون كبشاً مخصياً إلى الحقل يسمونه ذئب الحقل. يزينون قرنيه

بإكليل من الورود وسنابل القمح ويلفون رقبته وجسمه بالزهور والأشرطة. ويمشي وراءه الحصادون جميعاً وهم يغنون. ثم يقتلونه في الحقل. وفي هذه المنطقة من فرنسا يسمون الحزمة الأخيرة بلهجتهم المحلية ما معناه الكبش المخصي. لذلك يُعتبر قتل الكبش المخصي موت روح الحنطة المفترض وجودها في الحزمة الأخيرة. لكن هناك اختلاط بين مفهومَي الذئب والكبش المخصي كروح الحنطة. وأحياناً يُعتقد أن الذئب المقبوض عليه في الحنطة الأخيرة يعيش في بيت المزرعة طوال الشتاء وهو على استعداد أن يجدد نشاطه كروح للحنطة في الربيع. لذلك يظهر الذئب ثانيةً في منتصف الشتاء عندما يطول النهار مبشراً بقدوم الربيع. وفي بولندة يقودون رجلاً وضعوا على رأسه جلد ذئب إلى عيد ميلاد المسيح، أو يحمل الرجال الذين يجمعون المال ذئباً محشواً. وهناك حقائق تدل على العادة القديمة وهي تغليف رجل بأوراق الشجر ويسمونه الذئب ويجمع مرشدوه المال.

3ـ روح الحنطة على شكل ديك

تأتي روح الحنطة أيضاً على شكل ديك. ففي النمسا يحذرون الأطفال من التجوال في حقول الحنطة كي لا ينقر أعينَهم الديكُ القابع هناك. وفي ألمانيا الشمالية يقولون:(يقبع الديك في الحزمة الأخيرة) ويصرخ الحصادون الذين يقطعون تلك الحزمة:(الآن سنطرد الديك) وعندما يقطعونها يقولون:(لقد التقطنا الديك). وفي براليرفي ترانسلفانيا عندما يقترب الحصادون من البقعة الأخيرة يصرخون:(هنا سنلتقط الديك). وفي فيرستتوالد عند ربط الحزمة الأخيرة يأتي قائدهم بديك في سلة ويطلقه في الحقل فيطارده الحصادون حتى يلتقطوه. وفي أماكن أخرى يحاول الحصادون أن يمسكوا بآخر الحنطة المقصوصة ومن ينجح في ذلك يسمونه الديك ويتوجب عليه أن يصيح كالديك. وعند قوم الويند كانت ومازالت عادة أن يخبئ المزارع ديكاً حياً تحت الحزمة الأخيرة في الحقل؛ وعند جمع الحنطة يحق للحصاد الذي يرفع تلك الحزمة ويأخذ الديك شريطة أن يلتقطه. يشكل هذا المشهد آخر الحصاد ويسمى التقاط الديك كما يسمون البيرة التي يشربها الحصادون في ذلك الوقت بيرة الديك. ويسمون الحزمة الأخيرة الديك أو حزمة الديك أو ديك الحصاد أو دجاجة الحصاد. كما يميزون بين ديك القمح وديك الفول أو ديك المحصول أياً كان

المحصول. وفي وينشينسول في تورنجن يشكلون من الحزمة الأخيرة مجسم ديك يسمونه ديك الحصاد. كما يصنعون مجسم ديك من الخشب والورق المقوى وسنابل القمح ويحملونه أمام عربة الحصاد خصوصاً في ويستفاليا حيث يحمل الديك في منقاره جميع أصناف الثمار. كما يربطون أحياناً مجسم الديك إلى أعلى شجرة أيار على آخر عربة حصاد. وفي مناطق أخرى يلصقون مجسم ديك أو ديك حي إلى تاج الحصاد المحمول على عمود. وفي غاليتسيا وأماكن أخرى يربطون ديكاً حياً إلى إكليل من سنابل القمح أو الورود وتحمله قائدة الحصادات على رأسها وتمشي به أمام موكب الحصاد. كما يقدمون في سيليسيا ديكاً على طبق للرئيس. كما يسمونه ديك الحصاد أو عشاء الحصاد أو ديك الجذامة، والطبق الرئيسي فيه هو الديك على الأقل في بعض المناطق. وعندما يقلب السائق عربة الحصاد يقولون:(لقد أوقع الديك) وبهذا يخسر الديك أي يُحرَم من عشاء الحصاد. يسوقون عربة الحصاد وعليها الديك في أرجاء بيت المزرعة قبل أخذها إلى المخزن. ثم يسمّرون الديك فوق أو على جانب باب الدار أو على الجملون ليبقى هناك حتى الحصاد التالي. وفي شرقي فريسلاند يسمون من يضرب ضربة الدراسة الأخيرة الدجاجة القارقة وينثرون أمامه الحب وكأنه دجاجة.

ويُقتل الديك كروح للحنطة. ففي بعض أنحاء من ألمانيا وهنغاريا وبولندة وبيكاردي يضع الحصاد ديكاً حياً في الحنطة التي يقطعونها آخراً ويطاردونه في الحقل أو يدفنونه حتى رقبته في الأرض ثم يقطعون رأسه بمنجل أو بمحَش. وفي مناطق كثيرة من وستفاليا عندما يحضر الحصادون الديك الخشبي إلى المَزارع يقدم لهم ديكاً حياً يقتلونه بالسياط والعصيان أو يقطعون رأسه بسيف قديم أو يرمونه في المخزن للفتيات أو يعطونه لسيدة المنزل كي تطبخه. وإذا لم يُوقَع ديك الحصاد أي إذا لم تتقلب العربة للحصادين الحق أن يقتلوا ديك البستان برميه بالحجارة أو بقطع رأسه. وعندما صارت هذه العادة مُهمَلة ظلت ربة المنزل تطبخ طبق كوكي ليكي للحصادين وتريهم رأس الديك الذي صنعت منه المرقة. وفي جوار كلاوسنبورغ في ترانسلفانيا، يُدفَن ديك في حقل الحصاد لا يظهر منه إلا رأسه. ثم يأخذ أحد الشبان مِحَشاً ويضرب عنقه بضربة واحدة. وإذا أخفق في ذلك يلتصق فيه لقب الديك الأحمر طوال ذلك العام، كما يخشى الناس أن يأتي المحصول سيئاً. وفي القرب من

أودفارهيلي في ترانسلفانيا يربطون ديكاً حياً إلى الحزمة الأخيرة ويقتلونه بالماء المغلي. ثم يسلخون جلده ويرمون لحمه ويحتفظون بالجلد والريش حتى السنة القادمة. وفي الربيع يخلطون حبوب الحزمة الأخيرة بريش الديك وبنثرون الخليط في الحقل قبل فلاحته. مامن مشهد أوضح من هذا المشهد ليربط روح الحنطة بالديك. فعملية قتله وربطه بالحزمة الأخيرة يجعله مرتبطاً تماماً بالحنطة هذا علاوة على قتله مع قطع الحنطة وخلط ريشه ببذور البدار المأخوذة من الحزمة الأخيرة ونثرها على الحقل. كل هذا يعزز ارتباطه بالحنطة ويسرِّع من القوة الإخصابية كتجسيد لروح الحنطة بشكل واضح صريح. أما دفن الطائر في الأرض وقطع رأسه كما تُقطع السنابل فإنما هو تمثيل واضح لقطع السنابل بالمِحَش. ولم يبق إلا عودته لينعش الحياة مجدداً كما تنتعش الحنطة.

4ـ روح الحنطة على شكل أرنب بري

وهناك تجسيد شائع لروح الحنطة في أرنب بري. في غالواي يسمون حصاد آخر الحنطة الواقفة قطع الأرنب ويحصدونه على الشكل التالي. يتركون قبضة من الحنطة غير مقطوعة بحيث تشبه الأرنب. ويقسمونها إلى ثلاثة أجزاء يضفرونها ويربطونها من موقع الرأس. ثم يقف الحصادون على بعد عدة ياردات يرمي كل منهم منجله بالدور بغية قطع الأرنب من موقع تحت العقدة ويستمر الحصادون واحداً تلو الآخر حتى ينجح أحدهم في قطع السنابل. ثم يحملون الأرنب إلى البيت ويعطونه لربة المنزل في المطبخ لتضعه فوق الباب من الجهة الداخلية حيث يبقى أحياناً حتى الحصاد القادم. وفي أبرشية مينيغاف عند قطع الأرنب تركض الحاصدات اللواتي لم يتزوجن بأقصى سرعة إلى البيت لأن من تصل إلى المنزل أولاً ستتزوج أولاً. وفي ألمانيا يسمون الحزمة الأخيرة الأرنب الوحشية. ففي بعض أنحاء أنهالت عندما تُحصد الحنطة وقبل قطع السنابل القليلة الأخيرة يقولون:(سيأتي الأرنب قريباً) أو يصرخ الحصادون لبعضهم بعضاً:(انظروا كيف يقفز الأرنب خارجاً) وفي بروسيا الشرقية يقولون إن الأرنب يقبع في البقعة الأخيرة من الحنطة الواقفة ولابد أن يطرده الحصاد الأخير. يسرع الحصادون في عملهم لِمَا يتلقاه الحصاد الأخير من سخرية بالغة، وفي أوريخ رأينا كيف يقولون لمن يقطع الحنطة الأخيرة في ألمانيا والسويد وهولندا

وفرنسا وإيطاليا :(لنقطع ذيل الأرنب)أو(إنه يقتل الأرنب). وفي النروج يفرضون على من يقتل الأرنب أن يسيل دم أرنب على شكل نبيذ يقدمه لزملائه. وفي ليسبوس عندما يقوم الحصادون بالعمل في الحقول المجاورة يحاول كل فريق منهم إخراج الأرنب إلى حقل جاره، وكلٌ من ينجح في ذلك يُعتقد أن محصوله سيكون أفضل. أما القبضة الأخيرة التي يختارونها من الحنطة فيضعونها بجانب الصورة المقدسة حتى الحصاد القادم.

5ـ روح الحنطة على شكل قِط

تأخذ روح الحنطة أحياناً شكل قِط. ويحذَّر الأطفال في منطقة قريبة من كيل ألا يدخلوا إلى حقل الحنطة حيث تقبع القطة. وفي إيزنباخ يقولون (أن قط الحنطة يأخذهم) أو(إن قط الحنطة يمشي في الحنطة). وفي بعض أنحاء سيليسيا عند عملية تتبين آخر الحنطة يقولون:(لقد تم التقاط القط) وفي الدراسة يسمى من يضرب الضربة الأخيرة القط. وفي جوار لايونز يسمون الحزمة الأخيرة وعشاء الحصاد (القط). وبالقرب من فيسول عندما يقطعون الحنطة الأخيرة يقولون:(لقد أخذنا القط من ذَيله). وفي بريانسون في دوفيني عند بداية الحصاد يزينون قطاً بالأشرطة والورود وسنابل الحنطة ويسمونه (جِلدُ الكُرَة). وإذا جُرِح حصادٌ أثناء عمله يجعلون قطاً يلحس جرحَه. وعند الانتهاء من الحصاد يزينون قطاً بالأشرطة وسنابل القمح ويرقصون ويمرحون. وبعد أن يفرغوا من الرقص تنتزع الفتيات عن القط الملابس المبهرجة. وفي غرانيبورغ في سيليسيا يسمى الشخص الذي يقطع الحنطة الأخيرة (القط توماس) ويغلفونه بسنابل الجاودار والأماليد الخضراء ويعلقون له ذيلاً مضفوراً طويلاً. وأحياناً يصنعون له رفيقةً على شكل قطة ويلبسونها لباساً مشابهاً. ومهمة هذين القطين أن يركضا خلف الناس ويضربونهما بعصاة طويلة. وبالقرب من أميانس يطلقون عند انتهاء الحصاد تعبير:(سيقتلون القط) وعندما يبلغون الحنطة الأخيرة يقتلون قطاً في فِناء المزرعة. وعند الدراسة في بعض أنحاء فرنسا يضعون قطاً حياً تحت حزمة الحنطة الأخيرة المُعدَّة للدراسة ويضربونها حتى الموت بالمدارس. ثم يشوونه ويأكلونه كطبق في يوم عطلة. وفي جبال فوزجز يسمون الانتهاء من التبين أو الحصاد :(التقاط القط) أو (قتل القط) أو نادراً (التقاط الأرنب). ويقولون عن

القط أو الكلب إنه سمين أو نحيف حسب المحصول الجيد أو السيء. أما الرجل الذي يقطع الحزمة الأخيرة من التبن أو القمح فيقولون إنه التقط القط أو الأرنب أو قتل الكلب.

6ـ روح الحنطة على شكل ماعز

وغالباً ما تظهر روح الحنطة على شكل ماعز. في بعض أنحاء بروسيا عندما تنحني الحنطة مع النسيم يقولون:(العنوز يطاردون بعضهم بعضاً) أو (الريح تسوق العنوز ضمن الحنطة)أو(العنوز ترعى هناك) وعندها يتوقعون موسماً ممتازاً. كما يقولون:(عنز الشوفان تقبع في حقل الشوفان) أو (عنز الحنطة قابعة في حقل الجاودار). ويحذرون الأطفال من الدخول في الحقول أو القطف من أزهار ورود الحنطة الزرقاء أو الدخول بين الفول لقطف القرون لأن عنز الجاودار أو عنز الحنطة أو عنز الشوفان أو عنز الفول قابعة أو مستلقية هناك وتختطف الأطفال كي تقتلهم. وعندما يضعف الحصّاد أو يتلكأ خلف زملائه في العمل يصرخون:(لقد دفعه عنز الحصاد). وفي جوار برانسبورغ ـ شرقي بروسيا ـ وعند حزم الشوفان، يسرع كل حصاد في عمله مخافة أن يدفعه عنز الحنطة وفي أويفوتون في النروج يُخصّص لكل حصّاد بقعة كي يحصدها. وعندما يكون أحدهم في منتصف العمل في حين انتهى زملاؤه، يقولون:(مازال في الجزيرة). وإذا كان هذا المتقاعس رجلاً يقلدون صوت العنز، وإذا كان المتقاعس امرأة يقلدون صوت العنزة. وبالقرب من ستراوبينغ في بافاريا الدنيا، يُقال عن الرجل قاطع الحنطة الأخيرة، عليه عنز الحنطة أو عنز القمح أو عنز الشوفان بحسب المحصول. ويزيدون على ذلك بأن يضعوا قرنين على كومة الحنطة الأخيرة ويسمونها العنز المُقرَّن. وفي كرونتزبورغ ـ شرقي بروسيا ـ يقولون لمن تحزم القبضة الأخيرة:(العنز يقبع في الحزمة). وفي غابلينجن في سوابيا، وفي أثناء حصاد الحقل الأخير يصنعون عنزاً من الخشب، ويدخلون سنابل من الشوفان في منخريه وفمه ويزينونه بأكاليل الورود. ثم يضعونه في الحقل ويسمونه عنز الشوفان. وعندما يوشك الحصاد على نهايته يسارع كل حصّاد لإنهاء بقعته أولاً؛ ومن ينهي عمله آخراً يرسو عليه العنز. كما يسمون الحزمة الأخيرة العنز. ففي واديويسينت في بافاريا يسمون الحزمة الأخيرة العنز وعندهم المثل الشعبي:(لابد

للحقل من أن يحمل عنز). وفي ساغبورغن في هيس، يسمون آخر حزمة تُقطع العنز، وعلى الرجل الذي يقطعها أن يتحمل الكثير من السخرية. وفي دورينبوخيغ، وبالقرب من موسباك في بادين، يسمون الحزمة الأخيرة العنز. وأحياناً يعطون الحزمة الأخيرة شكل عنز ويقولون:(العنز يقبع فيها). وكذلك يسمون الشخص الذي يقطع الحزمة الأخيرة العنز. وفي ميكلينبورغ يقولون للمرأة التي تحزم القبضة الأخيرة:(أنت عنزة الحصاد). وبالقرب من هانوفر يبدأ الحصاد بإحضار عنزة الحصاد أي المرأة التي حزمت القبضة الأخيرة وهي مغلفة بالقش ومتوَّجة بإكليل الحصاد على عربة يد إلى القرية حيث يقومون برقصة دائرية. وبالقرب من لونبورغ يزينون المرأة التي تقطع الحزمة الأخيرة بتاج من سنابل الحنطة ويسمونها عنزة الحنطة. وفي مونزيشيم في بادين، يسمى من يقطع قبضة الحنطة أو الشوفان الأخيرة عنز الحنطة أو عنز الشوفان. وفي كانتون سينت غال في سويسرا يسمى من يقطع القبضة الأخيرة في حقل الحنطة أو يسوق عربة الحصاد الأخيرة إلى المخزن عنز الحنطة أو عنز الشوفان أو ببساطة العنز، وفي كانتون ثورغاو يسمى عنز الحنطة ويُعلق على رقبته جرس مثل العنز ويسوقونه بشعور النصر ثم يبللونه بشراب مسكر. وفي بعض أنحاء ستايريا يسمون من يقطع الحزمة الأخيرة عنز الحنطة أو عنز الشوفان. وما يشمل كل هؤلاء هو أن يحمل عنز الحنطة ذلك اللقب طوال العام حتى قدوم الحصاد التالي.

وهناك نظرة تقول إن روح الحنطة التي يلتقطونها على شكل عنز أو ماشابه تعيش في منزل المزرعة أو المخزن طوال الشتاء. ولكل مزرعة تجسيدها الخاص لروح الحنطة. ولكن تقول نظرة أخرى إن روح الحنطة هي عبارة عن روح حارسة أو إله ليس من حنطة حقل واحد فقط بل من جميع الحنطة. من هنا نرى كيف تهرب روح الحنطة إلى حنطة أخرى مادامت هناك حنطة واقفة. وقد أتت هذه الفكرة من عادة الحصاد التي بيناها سابقاً في سكاي. وهي أن المزارع الذي ينهي الحصاد أولاً يرسل رجلاً ومعه حزمة إلى المُزارِع المجاور الذي لم ينه عمله بعد. أما المُزارِع المجاور فيقوم بدوره بإرسال الحزمة إلى جارٍ مازال يحصد وهكذا حتى يتم قطاف جميع الحنطة. كما يسمون الحزمة **القبضة العرجاء**. يبدو أن هذه العادة لم تنقرض حتى يومنا هذا إذ بلغنا عن وجودها في سكاي حتى عدة سنوات منصرمة. وكانت روح الحنطة

تُمثل بالعرجاء لأنها عرجت عند قطع الحنطة. وأحياناً يُطلب من المرأة أن تعرج على قدم واحدة عندما تُحضِر الحزمة الأخيرة إلى المنزل.

وأحياناً يُذبح العنز روح الحنطة في حقل الحصاد بمنجل أو بمِحَشّ. ففي جوار بيرنكاسيل، الموسيل يختار الحصادون طريقة ملاحقتهم لبعضهم بعضاً عن طريق القُرعة. ويسمون الأول (الحصاد الأول) والأخير (حامل الذيل). فإذا تجاوز الرجل رجلاً سبقه يحق له أن يحصد أمامه تاركاً الحصاد الأبطأ وحيداً في رقعته. وتسمى هذه الرقعة العنز ويسخرون ممن يُقطع عنده العنز سخرية كبيرة طوال ذلك اليوم. وعندما يقطع حامل الذيل آخر سنبلة حنطة يقولون:(إنه يبتر رقبة العنز). وفي جوار غرينوبل وقبل نهاية الحصاد يزينون عنزاً حياً بالورود والأشرطة ويتركونه يجري في أرجاء الحقل بينما يحاول الحصادون التقاطه. وعندما يلتقطونه تمسك به زوجة المُزارع بإحكام بينما يقطع زوجُها رأسَه. ويصنعون من لحمه وليمة تسمى عشاء الحصاد يأكل منها كل الحصادين. ويُبقون على قطعة من اللحم يحفظونها في الخل حتى الحصاد التالي موعد ذبح عنز العام القادم. وفي اليوم نفسه يصنع المزارع من جلد العنز عباءةً بمساعدة رجاله، يلبسها في أيام الحصاد وفي الطقس السيء. وإذا ماعانى أحد الحصادين من ألمٍ في ظهره أعطاه المزارع العباءة يلبسها. ويبدو أن روح الحنطة التي تُنزِل به ألم الظهر يمكن أن تكون هي ذاتها طريقة لعلاجه. كذلك نرى في مناطق أخرى، عندما يُجرَح الحصاد في أثناء عمله يجعلون قطة كممثل لروح الحنطة تلعق جرحه. ويعتقد الحصادون الإيثونيون في جزيرة مون أن مَن يقطع سنابل الحنطة الأولى في الحصاد سيعاني من ألم في ظهره ربما لأن روح الحنطة ردَّت إليه نفس الآلام خصوصاً آلام الجرح الأول، ولكي يتخلصو من هذه الآلام يلجأ السكسونيون في ترانسلفانيا إلى تطويق خصورهم بأول قبضة يقطعونها من الحنطة. بهذا يرجون من روح الحنطة الشفاء والحماية لكن بشكلها النباتي الأصلي وليس بشكلها الحيواني كقط أو عنز.

كما تندس روح الحنطة بشكلها العنزي بين الحنطة المقصوصة في المخزن حتى يطردها المِدرَس. لذلك يسمي أهالي بادين الحزمة الأخيرة عنز الحنطة أو عنز العلس أو عنز الشوفان، حسب نوع الحَب. وبالقرب من ماركتل في برافيا العليا يسمون الأغمار قش العنز أو العنز. ويضعونها في أكوام كبيرة في حقل مفتوح

ويدرسها صفان من الرجال يقفون مقابل بعضهم بعضاً وهم يغنون بما معناه أنهم يرون قش العنز في سنابل الحنطة. وتُزيَّن الحزمة الأخيرة أي العنز الأخير بإكليل من البنفسج والزهور الأخرى والكعك المربوط ببعضه بعضاً ثم يضعونها على منتصف الكومة. ويندفع بعض الدارسين إليها ويمزقونها بينما يستلقي آخرون ومدارسهم مهملة إلى درجة أنها مكسورة الرؤوس. وفي أوبرينتال في تيرول يسمى الدارس الأخير العنز. وكذلك في هاسلبورغ في بوهيميا الغربية، يسمون من يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة عنز الشوفان. وفي تستانغ في وورتيمبورغ، الدارس الذي يضرب الضربة الأخيرة لآخر حزمة حنطة قبل قلبها يسمونه تيس الحنطة ويُقال:(لقد طرد التيس). أما من يضربها الضربة الأخيرة بعد قلبها فيسمى العنزة. وهذه العادة تدل على أنه يسكن الحنطة روحان إحداهما ذكر والآخرى أنثى.

أما روح الحنطة التي يقبض عليها على شكل عنز في الدراسة، فتُنقل إلى جار لم ينته من الدراسة بعد. وفي فرانش كومتي، وحالما ينتهون من الدراسة ينصب الشباب مجسماً قشياً على شكل عنز في ساحة حقل جارٍ مازال يدرس. وعليه أن يعطيهم بدوره خمراً أو مالاً. وفي إلواجن في وورتمبورغ، يصنعون مجسم العنز من آخر حزمة حنطة في الدراسة وهي عبارة عن أربع عصي كأرجل واثنتين لقرنيه. وعلى من يضرب ضربة المِدرَس الأخيرة أن يحمل العنز إلى مخزن جار مازال يدرس ويرميه على الأرض. وإذا التقطوه وهو يفعل ذلك يربطون العنز على ظهره. وهناك عادة مماثلة يتبعها أهالي إندرزدورف في بافاريا العليا، إذ يقلد من يرمي العنز القشي صوت المعيز، وإذا التقطوه يلونون وجهه بالأسود ويربطون العنز على ظهره. وفي سافرين في الألزاس، عندما يضعف أحد المزارعين في عمله ويقصِّر عن الآخرين، يضعون أمام بيته عنزاً حقيقياً محنطاً أو ثعلباً محنطاً.

وأحياناً يعتقدون أنه يجب قتل روح الحنطة بشكلها العنزي في أثناء الدراسة. ففي مقاطعة ترونستاين في بافاريا العليا يعتقدون أن عنز الشوفان موجود في حزمة الشوفان الأخيرة. ويمثلونه بمذراة قديمة منتصبة وعليها قِدْر قديم يمثل الرأس. ثم يطلبون من الأطفال أن يقتلوا عنز الشوفان.

7ـ روح الحنطة على شكل ثور أو بقرة

تأخذ روح الحنطة شكل ثور أو بقرة. فعندما تكنس الرياح الحنطة يقولون في كونتيز في بروسيا الغربية:(هاهو الثور الصغير يركض فوق الحنطة.) وعندما تغلظ الحنطة وتقوى في بعض البقع يقولون في بروسيا الشرقية:(هاهو الثور قابع في الحنطة.) وعندما يُرهَق الحصّاد ويظهر بعض العرج في مشيته يقولون في مقاطعة غروندينز في بروسيا الغربية:(لقد دفعه الثور) وفي لورين يقولون:(الثور معه.) ويعنون في العبارتين قد صادف روح الحنطة الإلهية بشكل عفوي وهي تعاقبه على تطفله عليها بأن تسببت له بالعَرَج. وفي القرب من شامبري عندما يجرح الحصاد نفسه بمنجله، يُقال أنه أُصيب بجُرح الثور. وفي منطقة بنزلاو (سيليسيا) يجعلون من الحزمة الأخيرة شكل ثور بقرنين ويحشونه بنسالة الكتان ويغلفونه بسنابل الحنطة ويسمونه الرجل المُسن. وفي بعض أنحاء بوهيميا يعطون الحزمة الأخيرة شكل إنسان ويسمونه ثور الجاموس. هذه الحالات كلها تبين خلطاً بين شكلَي روح الحنطة البشري والحيواني. ويشبه هذا الخلط قتل الكبش المخصي تحت اسم ذئب. وفي جميع أنحاء سوابيا تسمى قبضة الحنطة الأخيرة البقرة. ويقولون عن الرجل الذي يقطع السنابل الأخيرة أن عليه البقرة ويسمونه البقرة أو بقرة الشوفان أو بقرة الجاودار حسب المحصول. وعند عشاء الحصاد يأخذ باقة من الزهور وسنابل الحنطة ويحظى بقدر سخي من الشراب أكثر من بقية الحاضرين. لكنه مع ذلك يتلقى الإزعاج والسخرية، لذلك لا يرغب أحد في أن يكون البقرة. وأحياناً يمثلون البقرة على شكل امرأة من سنابل وزهورالحنطة. وتُحمَل البقرة إلى بيت المزرعة من قِبل الرجل الذي قطع قبضة الحنطة الأخيرة. ثم يركض خلفه الأطفال ويسخر منه الجيران، ويستمرون هكذا حتى تخرج منه البقرة. وهنا نلاحظ بوضوح الخلط بين الشكل الحيواني والشكل البشري لروح الحنطة. ففي كثير من أنحاء سويسرا يسمى من يقطع قبضة الحنطة الأخيرة بقرة الحنطة أو بقرة الشوفان أو ثور الحنطة الصغير ويجعلون منه أضحوكة تُحاك حوله النكات. ومن ناحية أخرى في منطقة روزنهايم في بافاريا العليا، عندما يتخلف المزارع عن جيرانه في الحصاد يضعون بين يديه ثوراً قشياً مصنوعاً على هيكل كبير من الخشب ومزين بالورود وأوراق

الشجر. ثم يضعون عليه خربشات من شعر هزلي ساخرين من الرجل الذي يتأخر في الحصاد عن أقرانه والذي يقبع في حقله ثور القش.

كذلك تُقتل روح الحنطة على شكل ثور في الحقل عند نهاية الحصاد. بالقرب من ديجون في بويلي عندما يقتربون من قطع آخر سنابل القمح يزينون ثوراً بالأشرطة والزهور وسنابل القمح ويقودونه في أرجاء الحقل ويجري حوله حشد من الحصادين وهم يرقصون. ثم يمثل رجلٌ دورَ الشيطان ويقطع آخر سنابل الحنطة ثم يذبح ثوراً على الفور. يأكلون بعضاً من لحمه على عشاء الحصاد ويخللون بعضه حتى اليوم الأول من البِدار في الربيع. وفي بونت موسون ومناطق أخرى وفي مساء آخر يوم للحصاد يزينون ثوراً بسنابل الحنطة ويقودونه ثلاث مرات حول المزرعة إما بإغرائه بطُعم أو يقوده الرجال بالعصي أو تقوده زوجة المزارع بالحبل. ويختارون هذا العجل بحيث يكون أول عجل وُلِد في المزرعة في ربيع ذلك العام. ثم يتركونه يجري بحرية ليطارده الحصادون بأدواتهم، ومن يلتقطه أولاً يسمى ملك العجل. وأخيراً يقتلونه قِتلَةً مقدسة، أما الرجل الذي يقوم بذلك في لونيفبل فهو تاجر يهودي في القرية.

وأحياناً تختبئ روح الحنطة بين الحنطة المقطوعة في المخزن لتظهر على شكل ثور أو بقرة عند الحصاد. ففي وورملينجن في تورينجن، يسمى الرجل الذي يضرب الضربة الأخيرة في الحصاد البقرة أو بقرة الشعير أو بقرة الشوفان أو بقرة البازلاء وماشابه من المحاصيل. يقومون بتغليفه تماماً بالقش ويضعون على رأسه قضيبين كقرنين ويقوده اثنان من الفتية بالحبل إلى البئر كي يشرب. وفي طريقه إلى هناك عليه أن يخور مثل البقرة ويلتصق به اسم البقرة لوقت طويل بعد ذلك. وفي أوبيرميدلنجن في سوابيا، عندما يقترب الحصاد من النهاية يحرص كل من الحصادين على ألا يكون صاحب الضربة الأخيرة لأنه إذا كان الأخير سيأخذ البقرة وهي شكل من القش يلبسونه ثوباً نسائياً رثاً وقبعة وجوربين نسائيين، ويربطونه على ظهره بحبل من القش ويسوِّدون وجهه ويضعونه في عربة يد ويجوبون به القرية. وهنا أيضاً نرى الخلط بين شكل روح الحنطة الحيواني وشكلها البشري. وفي كانتونة شافهاوسن يسمى الرجل الذي يقطع الحنطة الأخيرة البقرة، وفي كانتونة ثورغاو ثور الحنطة، وفي كانتونة زيوريخ بقرة الحصاد. وفي هذه الأخيرة يُغلّف بالقش ويُربط إلى شجرة في البستان. وفي آراد في هنغاريا، يغلّف بالقش

ويوضع عليه قرنان. وفي بيسينتز في مقاطعة دريسدين يسمى آخر ضارب في الدراسة الثور. وعليه أن يصنع رجلاً من القش ويضعه على نافذة الجيران. من الواضح هنا مثل حالات كثيرة أخرى انتقال روح الحنطة إلى جارٍ لم ينه حصاده بعد. وفي هيربريشنغن و ثورينجن، يصنعون مجسم لامرأة عجوز في ثياب رثة ثم تُرمى في مخزن المزارع الذي أنجز الدراسة آخراً. أما الرجل الذي يرميها هناك فيصرخ قائلاً:(هاهي البقرة لأجلك.) وإذا التقطه الحصادون يحتجزونه طوال تلك الليلة ويحرمونه من عشاء الحصاد. ونلاحظ هنا الخلط بين شكلي روح الحنطة الحيواني والبشري.

كذلك يؤمنون بوجوب قتل روح الحنطة بشكلها البقري عند الحصاد. ففي أوكسير وعند ربط آخر قبضة للحنطة يصرخون أربع عشرة مرة قائلين:(إننا نقتل الثور). وبالقرب من بوردو حيث يقتل القصاب ثوراً في حقل الحنطة فور الانتهاء من الحصاد ، يُقال للرجل الذي يقوم بآخر ضربة في الدراسة:(لقد قتل الثور). وفي شامبيري تسمى القبضة الأخيرة الثور الصغير ويجري سباق نحوه يشترك فيه جميع الحصادين. في هذه العادات وعند آخر ضربة يقولون:(لقد قُتِل الثور) ويَذبح قاطع القبضة الأخيرة على الفور ثوراً حقيقياً يأكل لحمه الحصادون على عشاء الحصاد.

رأينا كيف يُعتقد في بعض الأحيان أن روح الحنطة الشابة التي مهمتها تسريع حنطة السنة القادمة، وُلِدت كطفل حنطة في حقل الحصاد. كذلك في بيري يفترضون أن روح الحنطة قد ولدت في الحقل على شكل عجل؛ لأنه عندما يحتاج الرابط إلى المزيد من الحب ليربط الحُزم يضع جانباً القمح ويقلد خوار البقر. والمعنى هنا أن الحزمة الأخيرة قد أنجبت عجلاً. وفي بويديدوم عندما يخفق الحصّاد أو الحصّادة في الاستمرار مع أنداده يقولون عنه أنه يولِّد العجل. وفي بعض أنحاء بروسيا وفي ظروف مماثلة ينادون المرأة قائلين:(الثور آتٍ) ويقلدون جُؤار الثور. وفي هذه الحالات يدركون المرأة على أنها بقرة الحنطة أو روح الحنطة العجوز، بينما من المفترض أن يكون العجل هو عجل الحنطة أو روح الحنطة الشابة. وفي بعض أنحاء النمسا يؤمنون بعجل خرافي يسكن الحنطة الشاطئة في الربيع ولكي يخيفوا الأطفال عندما تموج السنابل مع الريح يقولون:(هاهو الثور يتجول). من الواضح كما لاحظ مانهاردت، أن عجل الربيع هذا هو الحيوان نفسه الذي سيقتل فيما بعد في الحصاد.

8ـ روح الحنطة على شكل فرس أو مُهرة

وتظهر روح الحنطة أحياناً على شكل حصان أو فرس. فبين كالو وستاتغارت، وعندما تنحني الحنطة مع الريح، يقولون:(هاهو الحصان يجري). وفي بوهلينجن بالقرب من رزودلفزل في بادين، تسمى حزمة الشوفان الأخيرة فحل الشوفان. وفي هردفورشاير، وعند نهاية الحصاد، كانوا وربما مازالوا يحيون طقساً يسمونه صراخ الفرس. إذ يتركون آخر سنابل الحنطة واقفةً ثم يربطونها ببعضها بعضاً ويسمونها الفرس. يرمي الحصادون عليها مناجلهم، ومن يقطعها يحصل على الجائزة مع التشجيع وصيحات الابتهاج. وعندما تُقطع، يصيح الحصادون بصوت عالٍ:(لقد امتلكتُها). ويجيب آخرون ثلاث مرات:(ماذا امتلكتَ؟) — ويردون:(فرس! فرس! فرس!) — (ولمن الفرس؟) سؤال يكررونه ثلاثاً. — (لفلان الفلاني) ويكررون اسمه ثلاثاً. (وأين سترسلها؟) — (إلى فلان الفلاني) وهنا يسمُّون الجار الذي لم ينجز الحصاد بعد. في هذه العادة تنتقل روح الحنطة بشكلها الفرَسي من حقل انتهى فيه الحصاد إلى حقل مازالت فيه السنابل واقفة أو إلى مكان يفترضون أن روح الحنطة قد لجأت إليه. وفي شتروبشاير هناك عادة مشابهة وهي أن يُجبَر المزارع الذي لم يجد مزرعة مازالت فيه الحنطة واقفة على الاحتفاظ بالفرس طوال الشتاء. وأحياناً يقابَل تمثيل تقديمها إلى الجار المتقاعس بتمثيل قبول ضيافتها من قبل المتقاعس نفسه. لهذا ترى عجوزاً يخبر السائل قائلاً: (عندما نأتي إلى العشاء قل لأحدهم أن يأتي بالرسن ليأخذها.) وفي مكان ما يرسلون فرساً حقيقية لكن يتلقى الرجل الذي يسوقها معاملة قاسية من قبل أهل المزرعة التي يقصدها ويلقى ترحاباً فاتراً على زيارته غير المرغوب بها.

وبالقرب من ليبل مازالوا يحتفظون بفكرة روح الحنطة على شكل فرس. فعندما يتعب الحصاد من عمله يُقال:(لقد أصابه إرهاق الحصان) وتسمى الحزمة الأولى هجين الحصان ويُصنع صليب من خشب البقس، ويجعلون أصغر حصان في المزرعة يدوس عليه. يرقص الحصادون حول آخر سنابل الحنطة ويصرخون:(شاهدوا بقايا الحصان) أما آخر السنابل فتُقدم طعاماً لأصغر حصان في المنطقة. ويقول مانهاردت أن أصغر حصان يمثل روح الحنطة القادمة في السنة التالية. يمتص مهر الحنطة روح الحنطة من حصان السنة المنصرمة الهَرِم، وذلك عن طريق أكله لآخر

حنطة تُقطع لأن روح الحنطة القديمة تأوي إلى الحزمة الأخيرة. ويُقال عن دارس الحنطة الأخيرة أنه ضرب الحصان.

9ـ روح الحنطة على شكل خنزير أو خنزيرة

ونأتي الآن إلى آخر شكل لروح الحنطة في دراستنا هذه وهو الخنزير أو الخنزيرة. ففي تورنجن، عندما تحرِّك الرياح السنابل الصغيرة يقولون أحياناً:(العِفر يندفع بين الحنطة). وبعض أهالي جزيرة أويسيل الإثوانية يسمون الحزمة الأخيرة خنزير الجاودار، ويحيون الرجل الذي يقطعها منادين:(لقد امتكلت خنزير الجاودار وهو على ظهرك.) ورداً عليهم يغني متمنياً المزيد. وفي كهليروينكل بالقرب من أوغسبورغ، وعند نهاية الحصاد يقطعون آخر قبضة واقفة سنبلةً سنبلة ويشترك في هذا جميع الحصادين على التوالي. ويتلقى الذي يقطع آخر سنبلة سخرية من بقية الحصادين لأنه أخذ الخنزيرة. وفي قرى أخرى من سوابيا يقولون أن الرجل الذي يقطع الحنطة الأخيرة له الخنزيرة أو خنزيرة الجاودار. وفي بوهلينجن بالقرب من رادولفزيل في بادين يسمون القبضة الأخيرة خنزيرة الجاودار أو خنزيرة القمح بحسب المحصول. وفي روهرينباخ في بادين يسمى الرجل الذي يأتي بالغمر الأخيرخنزيرة الحنطة أو خنزيرة الشوفان. وفي فريدلنجن في سوابيا، يسمى الرجل الذي يضرب الضربة الأخيرة الخنزيرة أو خنزيرة الشعير أو خنزيرة الحنطة وما إلى هنالك من المحاصيل. وفي أوسمتنجن ترسو الخنزيرة على ضارب الضربة الأخيرة في الدراسة فيربطون عليه الحزمة ويجرونه بالحبل على الأرض. في سوابيا بشكل عام يسمى من يضرب الضربة الأخيرة الخنزيرة. ويمكنه أن يتخلص من هذا اللقب البغيض إذا ما مرر إلى جاره الحبل القشي الذي يُعتبَر وصمة الخنزيرة. لذا يذهب إلى أحد المنازل ويرمي بالحبل القشي ويقول:(هاقد جلبت لكم الخنزيرة). وهنا يطارده كل من في المنزل ويضربونه ويحبسونه عدة ساعات في زريبة الخنازير ويجبرونه على أخذ الخنزيرة ثانيةً. وفي الكثير من أنحاء بافاريا العليا يجب على من يحمل من يضرب الضربة الأخيرة في الدراسة أن يحمل الخنزير، وهو عبارة عن حزمة من حبال القش تمثل الخنزير يحملها إلى مخزن الجيران. وإذا ما التقطه الدارسون يعاملونه معاملة قاسية كأن يلونون وجهه بالأسود أو يلوثون وجهه أو يرمونه في القاذورات، ويقصون

شعرها إذا كانت امرأة. وفي عشاء الحصاد على حامل الخنزير أن يأكل قطعة إضافية من زلابية صُنعت على شكل خنزير. ويصرخ الجميع عندما تقدّم سيدة المنزل الزلابية: (سوز، سوز، سوز) وهو الصوت الذي ينادون به الخنزير. وأحياناً بعد العشاء يسوِّدون وجه من حمل الخنزير ويضعونه في عربة ويجوب به أصدقاؤه القرية يتبعهم حشد ينادي (سوز، سوز، سوز) وكأنهم ينادون خنزيرة. وأحياناً يرمونه على كومة روث في نهاية تلك الجولة.

تلعب روح الحنطة بشكلها الخنزيري دورها في البدار كما تلعبه في الحصاد. ففي نيواوتز في كورلاند عندما يبدرون الشعير أول مرة في السنة، تسلُق زوجة المزارع من لحم الخنزيرعموده الفقاري مع ذيله وتأتي به إلى بادر الحَبّ في الحقل، يأكل منه ثم يقطع الذيل ويغرزه في الحقل معتقدين أن السنابل ستنمو بطول الذيل. الخنزير هو روح الحنطة ويتمتع بقدرة إخصابية تكمن على وجه الخصوص في ذيله. توضع في الأرض كخنزير عند البدار وكخنزير تظهر ثانيةً بين الحنطة الناضجة في الحصاد. لذلك بالقرب من إيثونيا يسمون الحزمة الأخيرة عِفر الجاودار. وهناك عادات مشابهة يتبعونها في ألمانيا. ففي مقاطعة سالزا بالقرب من مينينجن، يسمون عظمة معينة في الخنزير (يهوديٌ على المذراة). ويسلقون هذه العظمة في (ثلاثاء الاعتراف) ويضعونها بين الرماد الذي يتبادله الجيران كهدايا في عيد القديس بطرس في الثاني والعشرين من شباط، فيمزجونه ببذور الحنطة. وفي جميع أنحاء هيس ومينينجن ومقاطعات أخرى يأكل الناس حساء البازلاء مع ضلوع الخنزير المجففة في أربعاء الرماد أو عيد تطهير مريم العذراء. ثم يجمعون الأضلاع ويعلقونها في الغرفة حتى موعد البدار حيث يدسُّونها في كيس البدار بين بذور الكتان. ويعتقدون أن هذه هي الطريقة الناجعة في الحماية من برغوث الماء والخُلد بالإضافة إلى أنها تساعد في نمو الكتان وتزيد من طول خيوطه.

لم تظهر فكرة روح الحنطة على شكل خنزير واضحة وضوحها في العادة الإسكندنافية المسماة (عِفر الميلاد). ففي السويد والدانمارك في عيد ميلاد السيد المسيح جرت العادة أن يخبزوا رغيفاً على شكل خنزيرِ عِفر. ويسمونه عِفر الميلاد. وغالباً ما يستخدمون حنطة الحزمة الأخيرة لصناعة هذا الرغيف. ويبقون هذا الرغيف على الطاولة طوال فترة العيد. وغالباً ما يُحتفَظ به حتى موعد البدار في

الربيع حيث يخلطون قسماً منه ببذور الحنطة ويأكل الفلاح قسماً، ويقدّم القسم الأخير للحصان أو الثور الذي يحرث عليه وذلك لأجل محصول جيد. في هذه العادة تظهر روح الحنطة التي تسكن الحزمة الأخيرة في منتصف الشتاء لتقوم بدورها التسريعي خلال تأثيرها على البدار. كما رأينا ظهور ذئب الحنطة في منتصف الشتاء عند ميل السنة نحو الربيع. كانوا يضحون بخنزير حقيقي في عيد ميلاد المسيح، والواضح أنهم كانوا يفعلون ذلك برجل يشبه عفر الميلاد. وهذا ما أخذناه على الأقل من عادة متبعة في عيد ميلاد المسيح في السويد وهي إكساء رجل بجلد، ويحمل قبضة صغيرة من القش في فمه بحيث يبدو ما ظهر من القش على شكل هُلْب عفر. ثم يأتون بسكين وتأتي امرأة عجوز ملونٌ وجهها بالأسود لتقوم بمهاياة ذبحه.

في بعض أنحاء جزيرة أويسيل الإيتوانية، يخبزون في عيد الميلاد كعكةً طويلةً مرفوعة الطرفين، يسمونها عفر الميلاد ويضعونها على الطاولة حتى صباح عيد رأس السنة الجديدة ثم يوزعونها على الماشية. وفي بعض المناطق الأخرى من الجزيرة يستخدمون بدلاً من الكعكة خنزيراً صغيراً وُلِد في آذار، تسمِّنه ربة المنزل سراً دون معرفة باقي أفراد الأسرة. وفي عشية الميلاد يقتلونه سراً ويشوونه في الفرن ويوضع على الطاولة منتصباً على أربع ويبقى على وقفته هذه عدة أيام. وفي أنحاء أخرى من الجزيرة وعلى الرغم من أن كعكة عيد الميلاد ليس لها شكل العفر ولا اسمه إلا أنهم يقسمون نصفها على أفراد الأسرة وعلى دواب العائلة التي تدب على أربع. ويحتفظون بنصف الكعكة المتبقي حتى موعد البدار ويوزعونه بالطريقة نفسها على أعضاء الأسرة والدواب. وفي بعض أنحاء أخرى من إيتوانيا يخبزون من أول الجاودار المقطوعة كعكة يسمونها عفر الميلاد ويعطونها شكلاً مخروطياً ويضعون عليها صليباً ومعه عظمة خنزير أو مفتاح كما يعجونها من ثلاثة مواقع يضعون على كل منها عقدة أو قطعة نشاء. كما يضعون بجانبها مصباحاً على الطاولة طوال فترة العيد. وفي اليوم الأول من عيد السنة الجديدة وفي عيد الغطاس قبل شروق الشمس يفتتون القليل من الكعكة ويضيفون إليها الملح ثم يقدمونها للماشية. ويبقون على بقية الكعكة حتى يوم إخراج الماشية إلى المراعي لأول مرة في الربيع إذ يضعها الراعي في حقيبته لتحمي الماشية من السحر والضُّر. وفي بعض المناطق عند بدار الشعير، يشارك في عفر الميلاد بعض الخادمين والماشية بهدف إنتاج محصول أوفر.

10ـ في التجسُدات الحيوانية لروح الحنطة

تدل العادات الفولكلورية في شمالي أوروبا على الكثير من التجسدات الحيوانية لروح الحنطة. كما تبين هذه العادات بوضوح قدسية عشاء الحصاد. ويؤمنون بروح الحنطة متجسدةً في حيوان إلهي يذبحونه ويشترك الحصادون في أكل لحمه، ورأينا كيف يأكلون الديك أو الأرنب أو القطة أو العنز أو الثور على أنه لحم مقدس، أما الخنزير فيأكل الفلاحون لحمه المقدس في الربيع. ثم استخدموا بدلاً من لحم الكائن الإلهي المقدس الخبزَ أو الزلابية على شكل ذلك الحيوان وأكلوه بقدسية؛ فمثلاً يأكل الحصادون زلابية على شكل خنزير، كما يأكل الفلاحون وماشيتهم أرغفة على شكل عفر (عفر الميلاد) في الربيع.

ربما يلاحظ القارئ التناظر بين مفهومَي روح الحنطة بشكليها البشري والحيواني. ويمكننا هنا أن نأتي إلى هذا التناظر باختصار. عندما تموج الحنطة مع الرياح يقولون إما أم الحنطة أو ذئب الحنطة يعبر بين الحنطة. ويُحذَّر الأطفال من الشرود في حقول الحنطة لوجود أم الحنطة أو ذئب الحنطة هناك. ويفترضون وجود أحدهما في آخر حنطة تُقطَع. ويسمون الحزمة الأخيرة أم الحنطة أو ذئب الحنطة ويعطونها شكل امراة أو ذئب. أما الشخص الذي يقطع الحزمة الأخيرة فيسمى المرأة العجوز أو الذئب. كما يسمون الحزمة بشكلها البشري السيدة أو أم الذرة ويحتفظون بها من حصاد إلى آخر كي يضمنوا استمرار بركة روح الحنطة؛ لذلك احتفظوا في بعض المناطق بديك الحصاد وفي مناطق أخرى بلحم العنز حتى الحصاد القادم للغرض نفسه. وفي بعض المناطق يخلطون الحب المأخوذ من أم الحنطة ببذور الحنطة في الربيع لتدب البركة في المحصول. لذلك في بعض المناطق يحتفظون بريش الديك أو في السويد بعفر الميلاد حتى الربيع ليخلطوه مع بذور الحنطة للغرض ذاته. كما يقدمون جزءاً من أم الحنطة أو السيدة للماشية والخيل في عيد الميلاد عند أول حراثة، وكذلك جزءاً من عفر الميلاد لخيل أو ثيران الحراثة في الربيع. وأخيراً، يمثلون موت روح الحنطة من خلال مهايأة قتل ممثلها البشري أو الحيواني، كما يشترك العابدون بتناول دم أو لحم الجسم الفعلي لهذا الممثل الإلهي، أو يشتركون بالخبز المصنوع على شكله.

اتخذت روح الحنطة أشكالاً في حيوانات أخرى مثل الثعلب والأيل والظبية والغنم والدب والجحش والفأرة والسمان واللقلق والإوز والحدأة. وإذا ماسألنا لماذا تظهر روح الحنطة على شكل حيوان وبأشكال متعددة من الحيوانات، يمكننا أن نجيب أن ظهور الحيوان أو الطائر بين الحنطة أمام الإنسان البدائي ربما أوحى له بعلاقة غامضة بين الكائن والحنطة ولا يغيب عن بالنا أنه في قديم الزمان لم تكن الحقول مسوَّرة مما يسمح للحيوانات بالتجوال بين الحقول بحرية، وهنا لاعجب أن ترتبط روح الحنطة حتى بحيوانات كبيرة مثل الحصان أو البقرة والتي لاتظهر في يومنا هذا إلا بالمصادفة شاردة في حقول الحنطة البريطانية. يشمل هذا التفسير حالة شائعة جداً وهي اعتقادهم أن روح الحنطة تندس في آخر الحنطة الواقفة، لأنه من الطبيعي في الحصاد أن تُطرَد حيوانات مثل الأرنب والحجل من خلال عملية قطع الحنطة حتى السنابل الأخيرة المنتصبة هاربةً من افتضاحها جراء تعرية الحقول. ومن الطبيعي أن يقف الحصادون حول البقعة الأخيرة قبل قصها ومعهم العصيان والبنادق والتي يقتلون بها الحيوانات وهي تثب من آخر ملاذ لها بين السنابل. الآن بالنسبة للإنسان البدائي الذي تبدو له التغيرات السحرية معقولة جداً، يجد من الطبيعي تماماً أن تخرج روح الحنطة من مسكنها في الحب الناضج ثم تهرب على شكل حيوان يراه يندفع هاربًا من آخر بقعة حنطة ويسقط تحت منجل الحصاد. من هنا نرى تشابهًا بين ارتباط روح الحنطة بالحيوان وبين ارتباطها بغريب عابر؛ فظهور الغريب فجأة بالقرب من حقل الحصاد أو حقل الدراسة يبدو للعقل البدائي هروباً لروح الحنطة المقطوعة أو المدروسة، مثل هروب روح الحنطة من مسكنها المُدمَّر. كما لايمكن التفريق بين تماثل الأمرين ولو حاولنا التمييز بينهما. وكل من يبحث عن نظرية أخرى لتفسير هذا التماثل عليه أيضاً أن يأخذ في اعتباره هذا الارتباط.

الفصل التاسع والأربعون
آلهة النباتات القديمة على شكل حيوانات

1ـ دايونيسوس، العنز والثور

أياً كان التفسير الذي نتبناه، تبقى هناك حقيقة ثابتة وهي أنه في العادات الفلاحية تأخذ روح الحنطة أشكال حيوانات متعددة. ألا تفسر هذه الحقيقة حلول حيوانات معينة مقام آلهة النباتات القديمة مثل دايونيسوس وديميتر وأدونيس وآتيس وأوسيريس؟

لنبدأ بدايونيسوس. رأينا كيف كان يُمثَّل دايونيسوس أحياناً بعنز وأحياناً بثور. كعنز لا يمكن تمييزه عن الآلهة الثانوية، بانات وساطيرات آلهة الطبيعة وسيلينوس إله الغابات الإغريقي المرتبطين جميعاً به والمتمثلين تقريباً بالكامل بشكل العنز. كان بان يُصوَّر في تمثال أو رسم بوجه وأرجل عنز. أما الساطيرات فكانت تمثل بأذني عنز مدببتي الرأس وأحياناً بقرنين وذيل قصير. كلها كانت معيز، والرجل الذي يقوم بدورها في الدراما يلبس جلد عنز. أما سيلينوس فكان يُلبَس جلد عنز. وهناك فاونات أيطالية توازي البانات والساطيرات وكانت تُصوَّر على شكل نصف عنز من حيث أقدامه وقرناه. ترتبط كل هذه الأشكال العنزية للآلهة بشكل أو بآخر بآلهة الغابة. إذ كان الأركاديون يسمون بان سيد الغابة. أما سيلينوس فكان بصحبة حوريات الشجرة بشكل دائم. والفاوانات آلهة غابة تظهر شخصيتها بهذا الإطار وترتبط هويتها بسيلفانوس وسيلفانوسيس التي تدل إسماؤها على أرواح الغابات. إن ارتباط سيلفانوسيس وأساطير وسيلينوسيس ببعضهم بعضاً إنما يدل على أن الساطيرات هي آلهة الغابات. هناك ما يماثل آلهة الغابات بشكلها العنزي في الفولكلور الشعبي في شمالي أوروبا ويسمونها في روسية أرواح الغابات. تظهر هذه الأرواح على شكل بشر باستثناء قرون العنز وأرجله. كما تستطيع أن

تغير وقفتها كيفما تشاء؛ فعندما تمشي في الغابة تكون طويلة كالشجرة، وعندما تمشي في السهب لا يتعدى طولها الأعشاب التي تمشي بينها. وبعضها تكون أرواحاً للحنطة يصبح طولها بطول السنابل وتقصر بعد الحصاد حتى تصبح بطول الجذامة. وهذا ما يثبت ما قلناه سابقاً عن العلاقة بين أرواح الأشجار وأرواح الحنطة وكيف يمكن أن تذوب روح الشجرة بروح الحنطة. كذلك الفاونات، أرواح الغابات، يُعتقد أنها ترعى نمو المحاصيل. ورأينا كيف كانت روح الحنطة تمثل بالعادات الشعبية بالعنز. ويقول مانهاردت أن البانات والفاونات والساطيرات بشكلها العنزي ربما تنتمي إلى طبقة أرواح الغابات. ويأتي ولوع العنز بالتجوال في الغابة وقضمه للحاء الشجر – وهو سلوك مدمر للشجرة – مبرراً كافياً لإيمانهم بحلول روح الغابة في العنز. لم يشكل سلوك إله النبات المتناقض ـ كونه يعيش على النبات الذي يمثله ـ أي صدمة للعقل البدائي. لكن التناقض يظهر عندما يخرج الإله من مسكنه وهو النبات ليصبح مالكاً وسيداً عليه؛ وهنا تقودنا فكرة امتلاك النبات إلى العيش على النبات ذاته. لهذا خرجت روح الحنطة من الحنطة كمسكن لها لتصبح مالكة لها، وتعاني من البؤس إذا ما حُرمت منها. من هنا كانت تُعرَف روح الحنطة بالرجل المسكين أو المرأة المسكينة وأحياناً يسمون آخر حزمة واقفة المرأة المسنة المسكينة أو امرأة الجاودار المسنة.

إذن فتمثيل أرواح الغابات على شكل عنز أمرٌ واسع الانتشار، وهو طبيعي بالنسبة للعقل البدائي. لذلك عندما نرى دايونيسوس ـ إله الشجرة ـ متمثلاً بعنز، لا يمكننا إلا القول أن هذا التمثيل مناسب تماماً له كإله للشجرة ولا يمكن أن نرى فيه خلطاً بين عبادتين يظهر في إحداها إلهاً للغابة وعنزاً في الأخرى.

كان دايونيسوس أيضاً يُمثّل بالثور. وهنا صرنا نتوقع بشكل طبيعي أن يكون الثور تعبيراً عن شخصيته كإله للنبات خاصة وأن الثور هو مجرد تعبير آخر عن شخصية إله النبات بالإضافة إلى أنه تجسيد لروح الحنطة في شمالي أوروبا، وما ارتباطه الوثيق بدايونيسوس وديميتر وبيرسيفون في أسرار إليوسيس إلا دلالة على صلته الروحية بالزراعة.

ستزداد احتمالية هذه النظرة قوةً إذا ما رأينا ما يعززها في شعائر دايونيسوس الأخرى مثل ذبح الثور كممثل لإله النبات. وهذا ما حصل فعلاً في التضحية التي

كان يقدمها أهالي أثينا والمعروفة باسم (قتل الثور) في أواخر حزيران وبداية تموز، أي عندما يقارب موسم الدراسة من الانتهاء في أتيكا. ويقول العُرف أنها تضحية تهدف إلى إيقاف ما حل بالأرض من جفاف وقحط. ولاختيار الثور الذي يقدمونه كضحية كانوا يضعون شعيراً مخلوطاً بالقمح أو كعكاً صُنع منهما على مذبح زيوس بوليوس في قلعة أكروبوليس، ويقودون الثيران حول المذبح، والثور الذي يصعد ليأكل ما على المذبح من عطايا يكون نصيبه الذبح. وكانوا يبللون فأساً ومدية بمياه تأتي بها سيدات يسمونهن حاملات الماء، ثم يشحذون أسلحة الذبح ويقدمونها للجزارين فيضرب أحدهما الثور بالفأس ويقطع الآخر حنجرته بالمدية. وحالما يسقط الثور يرمي الرجل الفأس عليه ويهرب ثم يلحق به من قطع حنجرته. وبعد ذلك يسلخون الثور ويوزعون لحمه على كل من حضر الأضحية. بعدها يحشون جلده بالقش ويخيطونه ثم ينصبونه ويركّبون عليه النير وكأنه يحرث. بعدها تُعقَد محكمة في قاعة قديمة يرأسها شخص يسمونه الملك ليقرر من ذبح الثور. في المحكمة تقوم السيدات اللواتي أتين بالماء باتهام من شحذ الفأس والسكين، ويضع من شحذ الأدوات اللوم على من أعطاها للجزارين، ويلوم من أعطى الأدوات الجزارين، ثم يضع الجزارون اللوم على الفأس والسكين فيتم إدانتهما ومن ثم تُرميان في البحر.

إن تسمية الأضحية بقتل الثور ومعاناة كل من شارك في الذبح من لومهم لبعضهم بعضاً، بالإضافة إلى المحكمة وإدانة الفأس والسكين كل هذه الأشياء تبين أن الثور لم يكن مجرد أضحية تُقدَّم للإله بل هو كائن مقدس وقتله جريمة أو عمل مدنِّس. من هنا ندرك صحة كلمات فارو الذي قال أن قتل الثور كانت جريمة كبرى في آتيكا. كما تبين طريقة اختيار الثور الذي يذوق الحنطة أنهم يرون فيه إله حنطة يملك نفسه. وإليكم العادة التي تدعم هذا التفسير. ففي بيوس في مقاطعة أورليانز وفي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من نيسان يصنعون رجلاً من قش يسمونه موندارد الكبير. يصنعونه لأنه مات ويجب صنع واحد جديد. يحملون الرجل القشي بموكب مقدس إلى القرية ويضعونه على أقدم شجرة تفاح ليبقى هناك حتى قطاف التفاح، بعدها يأخذونه ويرمونه في الماء. ويحوز الشخص الذي يقطف التفاحة الأولى على لقب موندارد الكبير ويضعونه على أقدم شجرة

تفاح في الربيع لأنه يمثل روح الشجرة التي تموت في الشتاء وتبعث مع تفتح أزهار التفاح. إذن يمثل الشخصُ الذي يقطف التفاحة الأولى روحَ الشجرة. كان البدائيون يكرهون تذوق الثمرة الأولى من كل موسم إلا بعد إقامة طقوس معينة تجعل أكلها آمناً خالياً من الفسوق. ويبدو أن كرههم هذا ينبثق من اعتقادهم أن الثمرة الأولى هي من ممتلكات الإله، إن لم تكن هي إلهية بالفعل. لذلك عندما يُرى حيوان أو إنسان يتجرأ على التهام هذه الثمار المقدسة، يُعتبر الحيوان أو الإنسان إلهياً وله أن يتصرف بممتلكاته. ويوحي موعد التضحية في أثينا عند نهاية الدراسة بأن القمح والشعير المقدمين على المذبح إنما هما عطية المحصول؛ والسمة المقدسة التي تحيط بالوقعة التالية، أي اشتراك الناس بلحم الحيوان المقدس، يجعله موازياً لعشاءات الحصاد في أوروبا المعاصرة والتي يأكل فيها الحصادون لحم حيوان يقوم مقام روح الحنطة. أما اعتبار التضحية وضعَ نهايةٍ للجفاف والمجاعة فإنما هو احتفال خاص بالحصاد. أما انبعاث روح الحنطة المتمثل بنصب الثور المحشي وتركيب نير الحراثة عليه فيمكن مقارنته بانبعاث روح الشجرة في ممثلها وهو الإنسان الوحشي.

يبدو أن الثور ممثل روح الحنطة في مناطق أخرى من العالم. ففي باسام العظمى في غينيا يذبحون سنوياً ثورين لضمان حصاد جيد. ولكي تكون التضحية فعّالة، من الضروري أن يبكي الثور. لذلك تجلس نسوة القرية أمام البهائم وينشدن: "سيبكي الثور؛ بلى، سيبكي الثور!" من وقت إلى آخر تمشي النسوة حول البهائم وترمي وجبة المنيهوت أو خمر النخيل عليها وخاصة في عينيها. وعندما تتدحرج الدموع من عيون الثيران يغنين، : "الثور يبكي، الثور يبكي!" ثم يمسك رجلان بأذيال البهائم ويقطعانها بضربة واحدة. ويُعتقد أن نحساً كبيراً يحل في السنة القادمة إن لم تُقطع بضربة واحدة. وبعد ذلك يقتلون الثيران ويأكل الرؤساء لحمها. هنا ربما كانت دموع الثيران سحراً مطرياً مثل الضحايا البشرية لدى الخوند والأزتيك. وقد رأينا سابقاً كيف تكمن فضيلة روح الحنطة المتجسدة بشكل حيواني في الذيل وأن القبضة الأخيرة هي ذيل روح الحنطة. وفي الديانة الميثرية توضع هذه المفاهيم على شكل تماثيل عديدة تمثل آلهة ميثرا وهي راكعة على ظهر ثور وتغرس سكيناً في خاصرته، وفي بعض هذه التماثيل ينتهي ذيل الثور بثلاث من سنابل الحنطة. وفي أحد التماثيل تخرج سنابل القمح من الجرح الناجم عن طعنة

السكين، بدلاً من نزيف الدم. يوحي هذا التمثيل بأن الثور، الذي ذبحه هو السمة الأساس لطقوس الميثرية، وأنه على الأقل أحد مظاهرها كتجسيد لروح الحنطة.

ويظهر الثور كتشخيص لروح الحنطة في طقس يتّبع في بعض المناطق الصينية ترحيباً بالربيع. ففي اليوم الأول من الربيع، الثالث أو الرابع من شباط وهو التاريخ الذي تبدأ فيه السنة الصينية، يتقدم حاكم المدينة على رأس موكب إلى البوابة الشرقية للمدينة ويقوم بالتضحية بمُزارعٍ إلهي ممثل برأس ثور وجسم إنسان. ويحضِّرون لهذه المناسبة مجسماً لثور أو بقرة أو جاموس كبير ويضعونه خارج البوابة الشرقية وبجانبه الأدوات الزراعية. ويتألف المجسم من قطع ورقية متعددة الألوان يلصقها على هيكل إنسان أعمى أو شخص آخر يرتأيه مستحضر الأرواح. أما ألوان الورق فهي تكهن بوضع السنة الجديدة؛ فإذا غلب عليها اللون الأحمر تنذر بعدة حرائق، وإذا غلب عليها اللون الأبيض تنذر بالفيضان والمطر وهكذا مع بقية الألوان. ويمشي المندريون ببطء حول مجسم الثور ويضربونه عدة ضربات مع كل خطوة بعصي متعددة الألوان، حتى يتكسر وينسكب منه خمسة أنواع من الحبوب كان قد حُشي بها. ثم يضعون قطع الورق على النار بينما يتدافع الناس للحصول على قطعة محترقة لاعتقادهم أن من يحصل على واحدة سيكون محظوظاً في السنة القادمة. ثم يقتلون الجاموس الحي ويوزعون لحمه على أهالي الماندرين. ويقول أحد التقارير إن المجسم مصنوع من الصلصال وبعد أن يضربه الحاكم يقوم الناس برجمه حتى يتكسر إلى قطع وهذا ما يبشرهم بسنة وفيرة. من الواضح هنا أن روح الحنطة تُمثل بالثور المحشو بالحنطة والذي أجزاؤه تنذر بخصوبة سينعمون بها.

بالمجمل نستطيع الوصول إلى النتيجة القائلة بأن دايونيسوس عنزاً كان أم ثوراً هو بالأساس إله نبات. وهذا واضح من العادات الأوربية والصينية التي يقدمون فيها ثوراً حياً أو عنزاً حياً في طقوس دايونيسوس. وكانت تلك الحيوانات تُمزق إلى قطع مثل أضاحي الخوند ليضمن العابدون حصة تمنحهم الحياة والأثر الإخصابي من قبل الإله. وكانوا يأكلون اللحم نيئاً لكونه مقدساً ويمكننا أن نتوقع أنهم كانوا يأخذون جزءاً منه ليدفنوه في حقولهم أو ليستخدموه بفضل إله النبات في تسريع نمو الثمار. أما انبعاث دايونيسوس المعزو إلى أسطورته فربما يتمثل بطقوس حشو الثور المذبوح تماماً كما كان يحصل مع بوفونيا أثينا.

2ـ ديميتر الخنزير والحصان

لننتقل الآن إلى إلهة الحنطة ديميتر. إذا كان الخنزير في الفولكلور الأوربي هو التجسيد الشائع لروح الحنطة، لنا أن نسأل الآن عن ارتباطه الوثيق بديميتر، وأن نسأل عن إمكانية أنها كانت بالأصل على شكل حيوان خصوصاً وأن الخنزير مقدس بالنسبة إليها؛ ففي الفن كانت تُصور بصحبة خنزير أو محمولة عليه؛ وكان الخنزير يُذبح في شعائرها الغامضة، بذريعة أن الخنزير يتسبب بالأذية للحنطة وبالتالي هو عدو للإلهة. لكن وبعد أن يدركوا أن الحيوان هو إله، أو الإله حيوان، ينبذ الإله شكله الحيواني ويصبح مجرداً بالكامل، ثم يُنظَر إلى الحيوان، الذي ذُبح أصلاً في شخصية الإله، على أنه ضحية تُقدم للإله على أرضية عدائه للإله؛ أي يُذبح الإله ويقدَّم لنفسه لكونه عدو نفسه. وهذا ما يحصل لدايونيسوس وربما حصل مع ديميتر. وفي الواقع، في أحد طقوسها الذي يدعى ثيسموفوريا، نستدل على أن الخنزير كان بالأصل تجسيداً لإلهة الحنطة ذاتها، ديميتر أو ابنتها أو نسختها الأخرى بيرسيفون. وكان طقس ثيسموفوريا في آتيك عبارة عن احتفال خريفي تحييه النسوة فقط في تشرين الأول وهو عبارة عن طقوس الحزن على هبوط بيرسيفون — أو ديميتر — إلى العالم السفلي والفرحة لعودتها من الموت. ويطلقون اسم الهبوط أو الصعود على اليومين الأولين، أما اليوم الثالث من الاحتفال فيسمونه الولادة الجميلة أو الشرعية. وكان من العادي في طقوس ثيسموفوريا أن يلقوا الخنازير والكعك المحلى وأغصان الصنوبر في هوة ديميتر وبيرسيفون وهي عبارة عن كهوف أو سراديب مقدسة. ويقال أن هذه الكهوف والسراديب محمية بأفاعٍ تلتهم معظم لحوم الخنازير والكعك المحلى الذي يرمى فيها.

في الحصاد السنوي القادم تأتي نساءٌ ـ يسمونهن (الساحبات) ـ بما تبقى من جثث الخنازير البالية والكعك وأغصان الصنوبر، وبعد أن يخضعن لطقوس تطهير مدة ثلاثة أيام ينزلن إلى الكهوف ويهرِّبن الأفاعي بالتصفيق ثم يأتين بالبقايا ويضعنها على المذبح. وكل من يحظى بقطعة من تلك البقايا ويخلطها مع بذور السنة القادمة يكون على يقين من أنه سينعم بمحصول وفير.

ولكي نفسر الطقوس القديمة الغِرَّة لديانة ثيسموفوريا نسرد لكم الأسطورة التالية. في اللحظة التي حمل فيها بلوتو بيرسيفون صادف أن كان راعي خنازير

اسمه يوبوليوس يرعى قطيعه في المنطقة نفسها وقد ابتُلِع قطيعه في الهوة التي غاب فيها بلوتو وبيرسيفون نفسها. لذلك تقضي ديانة ثيسموفوريا إلقاء الخنازير في الوجور سنوياً إحياءً لاختفاء خنزير يوبوليوس، الأمر الذي يُعتبر جزءاً من التمثيل الدرامي لهبوط بيرسيفون إلى العالم السفلي. وبما أنه ليس هناك مجسم لبيرسيفون كي يُلقى هناك، يأتي إلقاء الخنازير مرافقاً لهبوطها، وهذا يعني أن الخنازير هي بيرسيفون. وبعد ذلك عندما أخذت بيرسيفون أو مثيلتها ديميتر الشكل البشري كان لابد من إيجاد سببٍ لعادة إلقاء الخنازير في الكهوف في احتفال بيرسيفون؛ فجاء تواجد خنازير في الموقع الذي حمل فيه بلوتو بيرسيفون ليبرر اعتقادهم أن تلك الخنازير قد ابتُلِعت معها. من الواضح أن هذه القصة هي محاولة خرقاء مقحمة لأجل سد الفجوة بين مفهوم روح الحنطة القديم ومفهومها الجديد كإلهة تجسيمية. وقد ظل أثر المفهوم القديم في الأسطورة التي تحكي عن الأم الحزينة التي كانت تبحث عن ما يدلها على بيرسيفون فوجدت أثر أقدامه مصحوبة بأثر حوافر خنزير، التي يمكن أن نتوقع أنها كانت أصلاً أثر أقدام بيرسيفون وأقدام ديميتر نفسها. وهناك علاقة بين الخنزير واندساس الحنطة في الأسطورة حتى أن راعي الخنازير يوبوليوس كان أخاً لتريبتوليموس الذي منحته ديميتر سر الحنطة لأول مرة. وفي الحقيقة وحسب إحدى روايات القصة، يتلقى يوبوليوس بالاشتراك مع أخيه تريبتوليموس بركة الحنطة الممنوحة من ديميتر كمكافأةٍ لأنهما كشفا لها عن مصير بيرسيفون. ويجب أن نلاحظ أيضاً أنه في ديانة ثيسموفوريا يبدو أن النساء قد أكلن لحم خنزير. وهذه الوجبة، إن كنت مُحِقاً، كانت وقعةً مقدسة أو عشاءً ربانياً اشترك فيه العابدون في أكل جسم الإله.

على هذا الأساس يصبح لثيسموفوريا مثيلها في العادات الشمالي أوروبية. فمثلاً هناك احتفال خريفي على شرف إلهة الحنطة يأكلون فيه جزءاً من لحم خنزير ويحتفظون بالجزء الآخر في كهف حتى السنة القادمة ويخلطونه ببذور الحنطة بهدف ضمان محصول جيد. بالقرب من غرينوبل يقتلون عنزاً في حقل الحصاد ويأكلون جزءاً من لحمه على عشاء الحصاد ويخللون الجزء الآخر ويحتفظون به حتى الحصاد القادم، وفي بويلي يقتلون ثوراً في حقل الحصاد ويأكل الحصادون جزءاً منه ويخللون الجزء الآخر ويحتفظون به حتى أول البدار في الربيع وربما

يخلطونه مع البذور أو يأكله الحارثون أو ربما الاحتمالان معاً؛ لهذا في أدفارهلي يحتفظون بريش الديك الذي يقتل في آخر الحصاد حتى الربيع ويخلطونه مع البدار؛ وكذلك في مينينجن يأكلون لحم الخنزير في أربعاء الرماد أو في عيد دخول عيسى الهيكل ويحتفظون بالعظام حتى البدار ليضعوها في الحقل أو يخلطوها مع البذور في حقيبة، وحتى وقت قريب كانوا يحتفظون بحنطة القبضة الأخيرة حتى عيد ميلاد المسيح ويصنعون منه خنزير الميلاد ثم يكسرونها ويخلطونها مع بذور حنطة البدار في الربيع. على العموم، تُقتَل روح الحنطة على شكل حيوان في الخريف ويأكل العابدون جزءاً من لحمه المقدس، ويحتفظون بالجزء الآخر كخلطة تضمن استمرار تجدد طاقة روح الحنطة.

وإذا ما احتج بعض دقيقي الذوق على أن الإغريق لم يدركوا ديميتر أو بيرسيفون متجسدَين على شكل خنازير، فيمكن أن نجيبهم إنه في كهف فيغاليا في أركاديا يرسمون ديميتر السوداء برأس وغرة حصان وجسم امرأة. ولا أظن أنه هناك بربرية في رسم الإلهة كخنزير أو امرأة برأس حصان. وتدل الأسطورة التي تحكي عن ديميتر الفيغالية على أن الحصان كان أحد الأشكال الحيوانية لروح الحنطة في اليونان القديمة كما هو الحال في أوروبا المعاصرة. وقيل إنها في بحثها عن ابنتها اتخذت ديميتر شكل مهرة لتهرب من مكان وجود بوسيدون إله البحر، وتحت إلحافه انسحبت بسخط إلى كهف بقرب فيغاليا في مرتفعات أركاديا الغربية. وهناك لبست الأسود ومكثت طويلاً حتى نفدت ثمار الأرض وكاد أهلها يموتون جوعاً لو لم يهدئ بان من غضب الإلهة ويقنعها بمغادرة الكهف. وإحياءً لذكرى هذا الحدث، ينصب الفيغاليون مجسم ديميتر السوداء في الكهف وهو على شكل امرأة تلبس ثوباً أسود طويلاً برأس حصان وغرته. وما ديميتر السوداء التي بغيابها تتلاشى ثمار الأرض إلا تعبير أسطوري واضح عن أرض الشتاء الجرداء عارية من غطاء الصيف الأخضر.

3ـ آتيس، أدونيس، والخنزير

وعند دراسة آتيس وأدونيس يمكن أن نلاحظ عدة حقائق تبين أن لآلهة النباتات هذه تجسيداتها مثل الآلهة الأخرى من الصنف نفسه. يحجم عابدو آتيس عن أكل لحم الخنزير؛ الأمر الذي يبين أنهم كانوا يعتبرونه تجسيداً لآتيس. وأسطورة موت آتيس على يد خنزير يشير إلى الشيء ذاته. وبعد مثالَي دايونيسوس العنز وديميتر الخنزير يمكن أن نتوصل إلى المبدأ القائل إن الحيوان الذي يؤذي إلهاً كان أصلاً هو الإله نفسه. وربما كانت صيحة عابدي آتيس:(هايس آتيس! هايس آتيس) ليست أكثر من كونها (الخنزير آتيس! الخنزير آتيس!) لأن كلمة هايس آتية من اللغة الفريجية هاي وتعني خنزير.

لم يُفسَّر ارتباط آدونيس بالخنزير بشكل دائم على أرضية موته على يد ذلك الحيوان، بل هناك قصة أخرى تعيد السبب إلى انتزاع الخنزير بأنيابه لحاء الشجرة التي وُلد فيها أدونيس الطفل. وهناك قصة أخرى تحكي أنه مات على يد هيفايستوس إله النار في جبل لبنان بينما كان يصطاد خنزيراً برياً. ويدل هذا التنوع في الأسطورة على ثبوت علاقة أدونيس بالخنزير دون فهم سبب تلك العلاقة، الأمر الذي أدى إلى ابتكار عدة قصص محاولةً لتبريرها. لكن الثابت هو أن السوريين يصنفون الخنزير على أنه مقدس. وفي الحاضرة الدينية على الفرات كانوا لايأكلون الخنزير أو يضحون به، وإذا لمس أحدهم خنزيراً يصبح مدنساً طوال ذلك اليوم. يبرر بعضهم ذلك بكون الخنزير حيواناً قذراً؛ بينما يعيد آخرون ذلك لكونه مقدساً. وما هذا الاختلاف في الرأي إلا دلالة على غموض الفكر الديني العاجز عن التمييز الدقيق بين القدسية والنجاسة اللتين تمتزجان بشكل غامض لتصبح ما نسميه المُحرَّم. من المناسب تماماً اعتبار الخنزير تجسيداً لأدونيس الإلهي، وأن تماثل دايونيسوس وديميتر يرجح احتمالية أن يكون كره الحيوان للإله يعود إلى عجزنا في فهم النظرة القديمة للإله المتجسد في خنزير. وأن موضوع عدم أكل الخنزير وعدم قتله من قبل عابدي آتيس وربما من قبل عابدي أدونيس أيضاً، لا يستبعد احتمالية ذبح الخنزير في شعائر مقدسة على أنه ممثل للإله ويأكله عابدوه بقدسية. في الحقيقة، ما قَتْلُ الحيوان وأكله القدسيان، إلا دلالة على قدسيته مما يؤدي حسب القاعدة العامة إلى تجنبه.

أن موقف اليهود من الخنزير مطابق لموقف السوريين الوثنيين من الحيوان نفسه. لم يستطع الإغريق تحديد ما إذا عبده اليهود أم مقتوه. فمن ناحية يرفضون أكل لحمه رفضاً قاطعاً لكن من ناحية أخرى لايمكن أن يقتلوه البتة. فإذا كان عدم أكله يدل على قذارته فإن عدم قتله يدل بقوة على قدسيته أو حرمته. في حين يمكن للمبدأين، وأحدُهُما يفرض، فرضية أن يكون الخنزير مقدساً؛ لا يفرض أيٌّ منهما، بل يمنع أحدُهُما، فرضية أن يكون الخنزير قذراً. وإذا ما أخذنا بالفرضية الأولى، نستدل أن بني إسرائيل كانوا يبجلون الخنزير ولايكرهونه. ونؤكد على هذا المبدأ عندما نلاحظ أنهم حتى زمن أشعيا اعتاد بعض اليهود على الاجتماع سراً في البساتين وأكل الخنزير والفئران كشعيرة دينية. لاشك في أن هذا الطقس قديم جداً ويعود إلى وقت كان فيه الخنزير والفأر مبجلين على أنهما إلهيَّان، ويؤكل لحمهما بقدسية في مناسبات مقدسة نادرة لكونهما جسم الآلهة ودمها. ويمكن القول إن كل الحيوانات التي ننعتها بالقذارة كانت أصلاً مقدسة ويعود عدم تناولها إلى ألوهيتها.

4ـ أوسيريس، الخنزير والثور

في مصر القديمة وضمن الحقبة التاريخية، احتل الخنزير الموقع المريب الذي احتله في سوريا وفلسطين نفسه، رغم أنه في الوهلة الأولى تغلُب قذارته على قدسيته. يقول الكتاب الإغريق إن المصريين مقتوا الخنزير واعتبروه حيواناً كريهاً وشنيعاً. فإذا لمس رجل عابر خنزيراً، ينزل في النهر بجميع ملابسه محاولاً الاغتسال من التلوث الذي حل به. كما اعتقدوا أن شرب حليب الخنزير سبب من أسباب مرض الجذام. ورغم أنهم من أصل مصري، مُنع رعاة الخنازير من دخول المعابد. كما رفض الجميع تزويج بناته منهم، مما حداهم إلى التزاوج من بعضهم بعضاً. مع هذا كله، ظل المصريون يضحون بالخنازير للقمر وأوسيريس سنوياً، بل ويأكلون من لحمها في تلك المناسبة، ويمتنعون في الأيام الأخرى امتناعاً باتاً عن ذبحها أو تذوقها. أما الفقراء منهم والعاجزون عن تقديم خنزير في ذلك اليوم فكانوا يكتفون بتقديم الكعك المحلى. ولايمكن تفسير هذا إلا على أساس كون الخنزير حيوان مقدس يأكله عابدوه بقدسية مرةً واحدة كل سنة.

أنتقلت نظرة المصريين التي تقدس الخنزير إلى العالم المعاصر بشكل معاكس تماماً، حتى صاروا يعتبرون حليبه سبب الجذام، وهو الموقف ذاته الذي أخذه البدائيون من نباتات وحيوانات اعتبروها مقدسة. ففي جزيرة ويتار ـ بين غينيا وسيليبيس ـ يعتقد الناس أنهم متحدرون من خنازير وأفاعٍ وتماسيح وسلاحف وكلاب برية وثعابين مائية أيضاً. لذلك لايمكن لأحدهم أن يأكل لحم حيوانات تحدر منها. وإذا فعل ذلك يصبح مجذوماً أو مجنوناً. كذلك يفعل هنود أوماها في أمريكا الشمالية، والذين طوطمهم ظبي الإلكة، عندما يعتقدون أن أكل لحمه يسبب بثوراً وبقعاً بيضاء في الجلد في مناطق عديدة من جسم آكِلِه. أما من كان طوطمهم الذرة الحمراء، من القبيلة نفسها، فيعتقدون أن الذرة الحمراء سبب في آلام الفم. أما هنود السورينام، وهم قوم يمارسون الطوطمية، فيعتقدون أن أكل لحم الكابياي وهو حيوان شبيه بالخنزير يسبب الجذام، لأن الكابياي أحد طواطمهم. أما السوريون القدامى الذين اعتبروا السمك مقدساً، فكانوا يؤمنون بأن أكل السمك يسبب لهم التقرحات، وتورمات في أقدامهم ومعدتهم. ويعتقد قوم تشاسا من أوريسا أنهم إذا ما آذوا طوطمهم سيصيبهم الجذام وأن سلالتهم ستنقرض. تدل هذه الأمثلة على أن أكل حيوان مقدس غالباً ما يعتقد أنه يسبب الجذام أو أمراض جلدية أخرى؛ وهذا ما يدعم فكرة أن الخنزير كان مقدساً في مصر لأن حليبه أدى إلى الجذام، على حد اعتقادهم.

وتؤكد القاعدة التي توجب اغتسال من لمس الخنزير وغسل ملابسه، النظرةَ المقدَّسة للخنزير. فالاعتقاد الشائع هو وجوب إزالة أثر ملامسة الجسم المقدس عن طريق الغسل أو غير ذلك قبل السماح للإنسان اللّامس أن يختلط بالآخرين، لهذا يغسل اليهود أيديهم بعد القراءة في صحفهم المقدسة. وقبل الخروج من الهيكل بعد تقديم كفارة عن الذنوب، على الكاهن أن يغتسل ويخلع اللباس الذي ارتداه في ذلك المكان المقدس. وجرت العادة في شعائر الإغريق الخاصة أن يقدّموا أضحية الكفارة دون ملامسة المضحِّي للأضحية، وبعد تقديمها، يجب أن يغتسل ويغسل ملابسه في نهر أو ينبوع قبل دخول بيته أو دخوله المدينة. وكان يشعر البولينيسيين بضرورة التخلص من عدوى المُقدَّس، إذا صح التعبير، الذي أصابهم عن طريق ملامسة الأشياء، واتبعوا عدة شعائر في إزالتها. رأينا مثلاً في نوتغا أن كل من يلمس

ولو مصادفة الرئيس المقدس أو أحد مقتنياته، عليه أن يتبع طقساً معيناً قبل أن يلمس نفسه بيديه، وإلا سيتورم ومن ثم يموت، أو على الأقل يصاب بالسل أو بأمراض أخرى. كما رأينا أيضاً الآثار المميتة التي تعقب ملامسة الشيء المقدس في نيوزيلاندة. بالمختصر، آمن الإنسان البدائي بخطورة المقدس التي تنتشر حرمته بنوع من الكهربائية التي تصل صدمتها لكل من يلمسها ولو لم تقتله. لذلك لم يرغب البدائي بملامسة ولا حتى رؤية ما يعتبره خصوصي القدسية. يعتقد البيكوانا وهم من عشيرة التماسيح، أنه من الكريه والنحس أن تقابل أو ترى تمساحاً، فمجرد رؤيته تسبب التهاب العينين. مع ذلك، التمساح هو أقدس مقدساتهم ويطلقون عليه اسم الأب ويحلفون به ويحتفلون به في مهرجاناتهم. والعنز حيوان المقدس عند ماديناسانا بوشمن، مع ذلك يتدنس كل من ينظر إليه مدة معينة بالإضافة لما يسببه من إزعاجات غير محددة. أما عشيرة الإلك، وتعني الظباء، وهم من هنود إماها، فيعتقدون أن كل من يلمس ذكر الظبي سيصيبه طفح من البثور والبقع على جلده. وبعض أفراد ريبتايل، وتعني الزواحف، في العشيرة نفسها يعتقدون أن من يلمس أو يشم أفعى ستجعله أشيب الشعر. وفي ساموا اعتقد من كان إلههم فراشة أن من يلتقطها يسقط ميتاً. وفي ساموا أيضاً، استُخدمت أوراق شجرة الموز الذابلة الحمراء كصحون يأكلون منها الطعام، لكن إذا استخدمها أفراد من عائلة الحمامات البرية للسبب نفسه، سيعاني من الأورام الروماتزمية وطفحاً من جدري الدجاج في جسمه. أما عشيرة موري وبهيل في الهند الوسطى، فيعبدون الطاووس ويقدمون له الحبوب، مع ذلك يعتقدون أن من يطأ أثر مخالبه سيعاني من بعض الأمراض، وإذا ما رأت امرأة طاووساً فعليها أن تغشي وجهها وتشيح بنظرها عنه. إذن أدرك العقل البدائي قدسية الفيروس الخطير الذي يبتعد عنه الإنسان العاقل قدر المستطاع، وإذا ما تلوث به على نحو اضطراري فلابد له من أداء الطقوس التطهيرية.

في ضوء كل هذه الأمثلة نتوصل إلى أن معتقدات المصريين وعاداتهم بشأن لمس الخنزير ربما يعود تفسيرها على أساس القدسية أكثر منها على أساس القذارة، أو بالأحرى، كانوا ينظرون للخنزير ليس على أساس المقت والقرف بل على أساس تمتعه بقوىً خارقة إلى درجة أنها امتزجت في عقلية البدائي الدينية مشاعر المقت والإجلال في آن معاً. وكان القدامى يدركون أيضاً أن هناك وجهاً آخر للخوف الذي

غمر المصريين. وهذا الفلكي والرياضي الإغريقي، يودوكوس، الذي أقام مدة أربعة عشر شهراً في مصر مع الكهنة، كان مع الرأي القائل أن المصريين لم يتجنبوا الخنزير من قبيل المقت لكن لمنافع زراعية. ويبررون موقفهم بأنه عندما يهبط مستوى النيل تنتشر قطعان الخنازير في الحقول فتطأ البذور وتقحمها في التربة الرطبة. لكن عندما يحار الشعور بين الضمنية والتناقض، يأخذ موقفاً غير متوازن. ومع مرور الزمن يغلب شعور التناقض على الشعور الآخر، فيسيطر أحد الشعورين، الإجلال أو المقت، فيرتفع موضوع ذلك الشعور إلى مصاف الآلهة أو يهبط إلى مستوى الشياطين. وكان نصيب الخنزير في مصر أن يهبط إلى مستوى الشيطان. وفي الحقبة التاريخية رجحت كفة الخوف من الخنزير على إجلاله وعبادته دون فقدان آثار ذلك الإجلال حتى وهو في أحط مواقعه؛ فصاروا ينظرون إليه على أنه تجسيد **لسيت أو تايفون**، وهو الشيطان المصري، عدو أوسيريس. فكان على شكل خنزير أسود جَرَحَ عين الإله **هوراس** فحرقه وسنَّ التضحية به، على إثر إعلان إله الشمس رع أنه حيوان بغيض. تحكي القصة عن اصطياد تايفون لخنزيرٍ عندما اكتشف أنه مثَّل بجثة أوسيريس ولذلك جاءت التضحية بالخنازير مرةً بالسنة، كنسخة معصرنة عن قصة ذبح أوسيريس والتمثيل به وهو على شكل خنزير، شأنها شأن قصة أدونيس وآتيس. لذلك قد تكون التضحية السنوية بخنزيرٍ لأوسيريس ثأراً طبيعياً يؤخذ من ذلك الحيوان البغيض الذي ذبح ومثَّل بالإله. لكن هذا يعني أولاً، أن التضحية بالحيوان تحصل بشكل قدسي مرة بالسنة، مما يدل على أن ذلك الحيوان إلهي يتجنبونه ويحترمونه طوال أيام السنة كإلهٍ وذبيح، لأنه عندما يُذبَح إنما يُذبَح كإله. وثانياً، تَعَلَّمنا من قصتي دايونيسوس وديميتر بالإضافة إلى آتيس وأدونيس، أن الحيوان الذي يُقدَّم كأضحية للإله على أساس أنه عدو لذلك الإله، ربما كان أصلاً الإله نفسه. لذلك تأتي التضحية السنوية بخنزير لأوسيريس مصحوبة بزعم كراهية الإله لذلك الحيوان مما يدل أولاً على أن الخنزير كان إلهاً بالأصل، وثانياً، أنه كان أوسيريس. وبعد مرور فترة طويلة صار في أثنائها أوسيريس مجسماً، تم نسيان علاقته بالخنزير، وصاروا يفرقون بينه وبين الحيوان حتى اعتبره الميثولوجيون عدواً له لأنهم لم يجدوا سبباً لقتل تلك البهيمة كشكل من أشكال عبادة الإله سوى أنه عدوه، أو كما قالها بلوتارك: (ليس عزيزاً على الإله، بل

عكس ذلك، لدرجةٍ جعله يستحق التضحية به. وفي هذه المرحلة المتأخرة، وما يُنْزِله الخنزير من خراب في الحنطة، يجعله مبرراً لكونه عدو روح الحنطة رغم أنه كان أصلاً – إذا كنت مصيباً في ذلك – وللحركة الحرة التي يقوم بها الخنزير في الحنطة جعل الناس يعتقدون أنه هو روح الحنطة، التي صار عدوها فيما بعد.

يتعزز ارتباط الخنزير بأوسيريس عندما نلاحظ أن التضحية بالخنازير تصادف في اليوم الذي قُتِل به أوسيريس، لأن قتل الخنزير تمثيل لقتل أوسيريس، تماماً مثل عادة رمي الخنازير السنوية في الكهوف في الديانة الثيسموفورية، تمثيل لهبوط بيرسيفون إلى العالم السفلي؛ ولكلا العادتين ما يوازيهما في الممارسة الأوربية لقتل العنز والديك وغيرهم في الحصاد كممثلين لروح الحنطة.

وما يؤكد نظرية أن الخنزير كان أوسيريس نفسه ـ والذي صار فيما بعد يعتبر تجسيداً لعدوه تايفون ـ العلاقة التي تربط الرجل ذا الشعر الأحمر والثور الأحمر بتايفون. كان يُحرق رجل الشعر الأحمر وينثر رماده بالمذاري، كذلك تُقتَل دُمَى الشعر الأحمر في الربيع في روما، تمثيلاً لروح الحنطة نفسها، أي أوسيريس، وكانا يُذبحان لهدف واضح وهو جعل الحنطة حمراء ذهبية. مع ذلك صار يُنظَر إلى أولئك الرجال ليس كممثلين للإله أوسيريس بل لعدوه تايفون، وصار قتلهم ثأراً يُنزَل بعدو الإله. كذلك كان يُضحِّي المصريون بالثيران الحمر لأنهم يشبهون تايفون؛ على الرغم من أنهم على الأرجح كانوا يُذبحون لأنهم يشبهون روح الحنطة أوسيريس. ورأينا أيضاً أن الثور هو الممثل العام لروح الحنطة ويُذبح في حقل الحصاد.

ارتبط أوسيريس دائماً بالثور آبيس ممفيس والثور منيفيس هيليوبوليس. لكن من الصعب تحديد ما إذا كانت هذه الثيران تجسيداً له كروح الحنطة، مثلما كان الثور الأحمر، أو تحديد ما إذا كانت آلهة مستقلة ذابت في أوسيريس فيما بعد. وتأتي كونية عبادة هذين الثورين لتجعلهما في مقام مختلف عن أولئك الحيوانات المقدسة التي انحصرت عبادتها في نطاق محلي محدود. لكن مهما كانت علاقة آبيس بأوسيريس أصلاً، هناك حقيقة يجب ألا تنسحب على عادة قتل الإله. فعلى الرغم من أن الثور آبيس كان يُعبَد بهالة كبيرة وإجلال عظيم، لا يجوز لحياته أن تتجاوز الحد المبين في الكتب المقدسة، حدٌّ أن يُغرَق عنده في النبع المقدس. يقول بلوتارك أن الحد الأقصى هو خمس وعشرون سنة، لكن لا يمكن

أخذ ذلك على وجه اليقين لأن قبور ثيران آبيس لم تُكتَشف إلا في وقت حديث، وتبين النقوش على تلك القبور ـ في السلالة الثانية عشرة ـ أن ثورين مقدسين قد عاشا أكثر من ست وعشرين سنة.

5ـ فيربيوس والحصان

هنا نحن في موقف نضطر فيه للتوقع بشأن فيربيوس، أول الملوك الإلهيين في غابة أريسيا، وكيفية قتله بشخصية هيبولايتوس تحت حوافر الأحصنة. بما أن روح الحنطة لم تُمثل كثيراً بالأحصنة من ناحية، ومن ناحية أخرى، أن الحيوان، الذي يصبح لاحقاً موضوع أسطورة والذي يُقال إنه آذى الإله، أحياناً كان الإله نفسه، لنا أن نتوقع أن تكون الأحصنة التي قتلت فيربيوس أوهيبولايتوس كانت في الواقع تجسيداً له كإله نبات. وربما أتت أسطورة قُتله تحت حوافر الأحصنة لتبرر بعضاً من عباداته مثل استبعاد الأحصنة من أيكاته المقدسة. فالأسطورة تتغير وتبقى العادة ثابتة، ويبقى الناس يفعلون ما فعله آباؤهم من قبلهم، رغم نسيان الأسباب التي دفعت آباءهم للقيام بها. وما تاريخ الدين إلا محاولة طويلة للتسوية مع العادات القديمة من خلال إيجاد نظرية لتبرير الممارسة العابثة. عندما ننظر إلى الحالة التي نبحثها الآن، نصبح واثقين أن الأسطورة أحدث من العادة التي كانت تمثل السبب الحقيقي لاستبعاد الأحصنة من الأيك. ونستدل من استبعادهم على أن الأحصنة ربما لم تكن تجسيدات لإله الأيك، ولو فعلنا ربما كان هذا الاستدلال تعجلاً طائشاً. كان العنز يوماً ما حيواناً مقدساً أو تجسيداً لأثينا، وعرفنا ذلك من تمثيل الإلهة بكساء جلد العنز. مع ذلك لم يُضحَّ لها بالعنز ولم يُسمح للعنز بدخول حرمها العظيم وهو قلعة أكروبوليس. وكان الزعم الذي يبرر ذلك هو أن العنز قد آذت الزيتون، وهي شجرة أثينا المقدسة. إذن العلاقة بين العنز وأثينا هي العلاقة نفسها بين الحصان وفيربيوس، فكلاهما مستبعد من الحَرَم لكونهما ألحقا الأذية بالإله. وبلغنا من فارو أن هناك استثناء لمبدأ استبعاد العنز من الأكروبوليس إذ قال إنهم، مرة كل سنة، يقودون العنز إلى الأكروبوليس للقيام بفريضة التضحية. وكما قلنا سابقاً، عندما تكون التضحية بالحيوان مرة واحدة فقط سنوياً، فربما لم تُقدم كأضحية للإله بل تمثيلاً للإله نفسه. ويمكن القول إن العنز كان يُذبح على أنه

الإلهة نفسها؛ وربما كانوا يضعون جلد الحيوان المضحى به على تمثال الإلهة لتصبح عنزة، ويجددون ذلك الكساء سنوياً. وكذلك كان الأمر في طيبة المصرية إذ كان الكبش مقدساً لايضحى به، لكنهم يقتلونه مرة كل سنة ويضعون جلده على تمثال الإله آمون. الآن إذا ما تعرفنا أكثر على شعائر أريسيا، ربما وجدنا أن مبدأ استبعاد الأحصنه منه – مثل استبعاد العنز من الأكروبوليس في أثينا – له استثناؤه السنوي، وكان يُقاد الحصان مرة في السنة إلى الأيك ويضحى به كتجسيد للإله فيربيوس. وكالعادة، أساؤوا فهم الحصان المقتول في وقت اعتبروه عدواً يُقدَّم تضحية للإله الذي لحق به الأذى، مثل التضحية بالخنزير لديميتر وأوسيريس أو العنز لدايونيسوس وربما لأثينا. من السهل جداً على الكاتب أن يسجل مبدأً دون ملاحظة الاستثناء، وليس غريباً أن نجد قاعدة أيك أريسيا مسجلة دون ذكر الاستثناء الذي أفترضُه هنا. وإذا كان لدينا حالتا أثينا وبليني فقط، لابد أننا تعرفنا فقط على التضحية بالعنز لأجل أثينا واستبعاده من الأكروبوليس دون إدراك الاستثناء الذي، لحسن الحظ كشفه لنا فارو. وهناك ما يدعم توقعنا عن التضحية بحصانٍ سنوياً في أيك أريسيان كممثل للإله، وهو التضحية بحصان في روما سنوياً. في الخامس عشر من تشرين الأول كان يجري سباق عربات الخيل على حقل مارس(إله الحرب). ويُطعن الحصان الأيمن من العربة الفائزة ويُقدم أضحية لمارس بهدف ضمان المحاصيل الجيدة، أما رأسه فكان يُقطع ويزين بحبل من الأرغفة. وكان يتراضى أهالي حَيّين، حي الطريق المقدس وحي الضاحية، في أخذ الرأس. فإذا أخذه أهالي حي الطريق المقدس ثبّتوه على حائط في منزل الملك؛ وإذا أخذه أهالي الضاحية ثبّتوه على برج ماميليا. وكان ذيل الحصان يُقطع ويؤخذ إلى منزل الملك بسرعة كي يقطر الدم في المنزل. وكانوا يحتفظون بالدم حتى الحادي والعشرين من نيسان كي تمزجه عذراوات فيستا بدم العجول التي قُدِّمت كأضاحٍ قبل ستة أيام، ثم يوزَّع المزيج على الرعاة ليبَخِّروا قطعانهم.

يبدو أن طقس تزيين رأس الحصان بحبل من الأرغفة وهدفه المزعوم، جلب المحصول الجيد، دلالة على أن الحصان هو أحد ممثلي روح الحنطة الكُثُر. أما عادة قطع ذيل الحصان فشبيهة بالعادة الإفريقية التي يقطعون فيها ذيول الثيران ويضحون بها لأجل محصول جيد. في كلتا العادتين االرومانية والإفريقية يحل

الحيوان محل روح الحنطة، ويُفترض أن قوتها الإثمارية تكمن بشكل خاص في ذيله، وهي فكرة موجودة أيضاً في الفولكلور الأوربي. ثم أن ممارسة تبخير الماشية بدماء الحصان في الربيع ربما تماثل ممارسة تقديم الزوجة المسنة، السيدة، أو قبضة كلايك كعلف للأحصنة في الربيع أو للماشية في عيد ميلاد المسيح، وتقديم خنزير عيد الميلاد لثيران الحراثة يأكلونها في الربيع. تهدف كل هذه الاستخدامات إلى إحلال بركة روح الحنطة في المنزل وسكانه وتخزينها لسنة أخرى. إن التضحية الرومانية بما يسمى حصان تشرين الأول، يرجعنا إلى غابر الزمان عندما كان حي الضاحية ـ الذي صار لاحقاً الجزء القذر المدنس من ميتروبوليس الكبير ـ قرية مستقلة أَلِفَ سكانُها القيام باحتجاج ودي في حقل الحصاد مع جيرانهم أهالي روما قبل أن تصبح مدينة. ظل الطقس يُقام في حقل مارس إله الحرب بجانب تايبر، حقل ظل من ممتلكات الملك حتى انتهاء الملكية. وظلت هذه العادة سارية حتى أُخرج آخر ملك من روما، وظلت الحنطة الناضجة تنتظر المنجل في أراضي الملك بجانب النهر، لكن لم يأكل أحد تلك الحبوب الملعونة بل كانت ترمى في النهر إلى درجة أنها تشكل نواةً لجزيرة صغيرة لم يجرفها النهر لأنه كان ضحلاً في الصيف. أما التضحية بالحصان فكانت عادة خريفية قديمة اتُّبعت في حقول حنطة الملك عند نهاية الحصاد. كان الذيل والدم، كجزأين أساسين في تمثيل روح الحنطة، يؤخذان إلى منزل الملك ويُحفظان هناك، تماماً كما يُثبت ديك الحصاد الألماني على جملون بوابة منزل المزرعة وكالقبضة الأخيرة، على شكل سيدة، التي تُحمَل إلى المنزل لتبقى فوق الموقد في أعالي أُسكتلندة. إذن كانت بركة روح الحنطة تُجلب إلى منزل الملك وموقده وخلالهما تنتقل إلى المجتمع كله كون الملك على رأس ذلك المجتمع. كذلك جرت العادة في الربيع والخريف في أوروبا الشمالية أن يُنصَب عمود أيار أحياناً أمام منزل العمدة، وتؤخذ القبضة الأخيرة من الحصاد إلى رئيس القرية. لكن في حين كان يُقدَّم الذيل والدم للملك، كانت تحظى قرية الضاحية المجاورة – والتي لا شك في أنها كانت تقيم طقساً مستقلاً بها– بشرف رأس الحصان. وكان أهالي حي الضاحية يثبتون رأس الحصان عند الفوز به على برج ماميليان – وهو برج دفاعي لعائلة ماميليان ومركزللقرية. إذن كان الطقس يُقام في حقول الملك ومنزله لأجل المجتمع كله والقرية المجاورة ولنا أن نفترض أنه في وقت ما كانت

كلُّ مدينةٍ تقيم طقساً مشابهاً على حقولها. وربما استمرت العادة في المناطق النائية من لاتيوم، كل قرية على أرضها قبل أن تَدمج الضِّياعُ الرومانية احتفالات آخِرِ الحصاد في احتفال عام على كامل أراضي الملك. ليس هناك ما يمنع افتراضنا أن أيك أريسيا المقدس، شأنه شأن حقل مارس في روما، كان مسرحاً لاحتفال حصاد شامل يُضحى فيه بحصان مع الطقوس الغِرَّة نفسها لأجل القرى المجاورة. وكان الحصان عندها يمثل الروح الإثمارية لكِلا الشجرة والحنطة، قبل اندماج الفكرتين ببعضهما بعضاً، كما رأينا في عادات حصاد أيار.

الفصل الخمسون
أكل الإله

1ـ قدسية أولى الثمار

ما وصلنا إليه حتى الآن هو أن روح الحنطة تتمثل بشكل بشري أحياناً، وأحياناً بشكل حيواني، وفي كلتا الحالتين تُقتَل في ممثلها وتؤكَل بقدسية. ولكي نجد أمثلة عن القتل الفعلي لممثل روح الحنطة البشري كان علينا أن نعود إلى الأعراق البدائية؛ لكن عشاءات الحصاد لدى الفلاحين الأوربيين قدمت لنا أمثلة لاخطل فيها عن أكل الحيوانات القدسية كممثل لروح الحنطة. ويمكن التنبؤ سلفاً بأن الحنطة نفسها يمكن أن تؤكل بقدسية على أنها جسد لروح الحنطة. ففي ورملاند في السويد تخبز زوجة المزارع من حبوب القبضة الأخيرة رغيفاً على شكل فتاة صغيرة؛ ويُقسَّم الرغيف على أهل المنزل ليأكلهم. هنا يمثل الرغيف روح الحنطة ويُدرَك كسيدة، تماماً كما تمثلت في أسكتلندة روح الحنطة في القبضة الأخيرة التي يعطونها شكل امرأة تحمل اسم السيدة. كالمعتاد يعتقد أن روح الحنطة تسكن في القبضة الأخيرة، وأن تناول رغيف مصنوع من تلك القبضة هو تناول روح الحنطة ذاتها. كذلك في لاباليس في فرنسا، يصنعون رجلاً من الخبز المحلَّى ويعلقونه على شجرة التنوب التي تُحمَل على عربة الحصاد الأخيرة. تؤخذ الشجرة مع رجل الخبز المحلَّى إلى منزل العمدة وتظل هناك حتى نهاية قطاف العنب. ثم يحتفلون بنهاية الحصاد بوليمة يقطع فيها العمدة الرجل المحلى ويوزعه قطعاً على الناس يأكلونها.

في هذه الأمثلة تؤكل روح الحنطة المتمثلة بشكل بشري، على الرغم من أن الحنطة الجديدة لا تُخبَز في أرغفة على شكل بشري، لكن الطقوس المقدسة التي تصحب الأكل تكفي لتدل على الاشتراك القدسي بها كجسد لروح الحنطة. فمثلاً اعتاد الفلاحون الليتوانيون اتباع طقوس أكل الحنطة الجديدة. ولدى اقتراب

البدار في الخريف وعند جمع الحنطة كاملةً والبدء بالدراسة، يقيم كل مزارع احتفالاً يسمى ساباريوس أي (الخلط أو الرمي سويةً). يأخذ المزارع تسع حفنات ممتلئات من كل محصول – قمح، شوفان، كتان، فول عدس، وغيرها ـ ويقسِّم كل حفنة إلى ثلاثة أقسام. ويرمون سبعة وعشرين قسماً على كومة ويخلطونها ببعضها بعضاً. وعلى الحبوب أن تكون قد ذُريت ودُرست من أولى الحبوب واحتُفظ بها لهذا الغرض. وكانوا يستخدمون جزءاً من الحبوب في صنع أرغفة صغيرة يأخذ كل بيت واحداً منها؛ بينما يخلطون الجزء المتبقي بشعير وشوفان آخر ويصنعون منه البيرة. يشرب المزارع وزوجته وأولاده أول بيرة تُصنع من هذا المزيج؛ ويشرب الخادمون الجزء الثاني. وبعد تحضير البيرة يختار المزارع مساءً لا يتوقع فيه غرباء زائرين. ثم يركع أمام برميل البيرة ويأخذ منه ملء إبريق من الشراب المسكر ويصبه على سدادة البرميل وهو يقول:(يا أيتها الأرض المثمرة، أثمري الجاودار والشعير والحنطة). ثم يأخذ الإبريق إلى الصالة حيث تنتظر زوجته وأولاده. على أرض الصالة يربطون ديكاً أبيض أو أسود أو مرقطاً لكن ليس أحمر ودجاجة من اللون نفسه ومن فقسة ذلك العام بالذات. ثم يركع المزارع والإبريق في يده، ويشكر الله على محصول ذلك العام ويصلي لمحصول جديد في العام القادم. ثم يرفع الجميع أيديهم ويقولون:(يا الله، يا أيتها الأرض إنَّا نعطيك هذا الديك والدجاجة عطية بملء رغبتنا.) ثم يقتل المزارع الطيرين بضربات من ملعقة خشبية؛ لايجوز أن يقطع رأسيهما. بعد الصلاة الأولى وبعد قتل كل من الطيرين، يصب ثلث البيرة. ثم تسلق زوجته الطيرين في قدر جديد لم يُستخدم من قبل. بعدها يضعون مكيال الحبوب مقلوباً على الأرض وعليه الأرغفة الصغيرة التي ذكرناها سابقاً بالإضافة إلى الطيور المسلوقة. ثم يجلبون البيرة الجديدة، والمغرفة والكؤوس الثلاثة التي لم تُستخدم إلا في تلك المناسبة. وعندما يغرف المزارع البيرة إلى الكؤوس، تركع الأسرة حول المكيال. ثم يتلفظ الأب بصلاةٍ ويشرب كؤوس البيرة الثلاثة. ويحذو البقية حذوه. بعد ذلك يأكلون الأرغفة ولحم الطيرين وبعدها يعيدون الكرَّة مع البيرة حتى يفرِّغ كل منهم الكؤوس الثلاثة تسع مرات. لايجوز أن يُبقوا من الطعام شيئاً، لكن إن حصل وبقي قسم منه فلابد من تناوله في الصباح التالي مع اتباع الطقوس نفسها. أما العظام فتُرمى للكلب، وإذا لم يستهلكها كلها، يجب دفن ماتبقى منها تحت

الروث في مربط الماشية. كانوا يقيمون هذه الطقوس عند بداية كانون الأول. وفي ذلك اليوم يحظر التلفظ بأية كلمات نابية.

تلك كانت العادة المتبعة منذ حوالي مئتي سنة. أما الآن في ليتوانيا، عندما يأكلون البطاطا الجديدة أو الأرغفة المصنوعة من الحنطة الجديدة، يقوم الناس الواقفون أمام الطاولة بشد شعر بعضهم بعضاً. يكتنف الغموض هذه العادة الأخيرة، لكنها عادة كان يقيمها الليتوانيون البدائيون عند تقديم أضاحيهم المقدسة. والكثير من الإستونيين في جزيرة أويسيل لا يأكلون الخبز المصنوع من الحنطة الجديدة حتى يعضوا قطعة من معدن. من الواضح هنا أن الحديد هو عبارة عن سحر يُقصد منه عدم إيذاء الروح الموجودة في الحنطة. وفي ثازرلاندشاير في يومنا هذا، عندما يستخرجون البطاطا الجديدة، على جميع أفراد الأسرة أن يذوقوها، وإلا تأخذ الروح فيها موقفاً عدائياً، وتحجم عن البقاء بحالة جيدة. وفي إحدى مناطق يوركشاير مازال يقطع رجل الدين أول الحنطة، وقال من أبلغني ذلك إنهم يستخدمون تلك الحنطة في صنع خبز العشاء الرباني. فإذا كان ما قاله عن الجزء الأخير من تلك العادة صحيحاً، نلاحظ كيف امتص العشاء الرباني سراً مقدساً لاشك في أنه أقدم بكثير من المسيحية.

ويُقال أن قوم الآينو في اليابان يميزون بين عدة أنواع من الدُّخن، الذكر أولاً والأنثى ثانياً، وعندما يأخذون النوعين معاً يسمونهما **الزوج الإلهي والزوجة الحبوب**. لذلك وقبل سحق الدخن لصنع الكعك كطعام يومي، يصنع الرجال المسنون القليل منه لأنفسهم بهدف العبادة. وعندما يكون الكعك جاهزاً يصلون له بمنتهى الجدية قائلين:(يا إله الحبوب، إنا نعبدك. فقد أثمرت جيداً هذا العام، وطعمك سيكون حلواً. إنك خيِّر. كم ستُسر إلهة النار، وكذلك سنغتبط نحن. يا الله، يا إله الحبوب، غذِّ الناس. ها أنا آكل من خيرك. أعبدك وأحمدك.) وبعد تلاوة هذه الصلاة يتناولون الكعك ثم يأكل الجميع من الدخن الجديد. وبمشاعر الإجلال والصلاة الخاشعة يكرسون هذا النوع من الطعام للإله الخير آينو. لاشك في أنهم يقدمون هذه الحبوب جزية للإله، الذي هو الحَب نفسه؛ الإله الأوحد المفيد للجسم البشري.

وعند نهاية حصاد الأرز، وفي جزيرة بورو في الهند الشرقية، تجتمع كل عشيرة على وجبة مقدسة عامة يقدم فيها كل فرد من العشيرة القليل من الأرز الجديد يسمونها **أكل روح الأرز**، اسم يدل على قدسية الوقعة. يعربون جزءًا من الأرز يقدمونه للأرواح. أما عند قوم ألفور في ميناهاسا، في سيليبيس، يبدر الكاهن أولى البذور ويقطف أول الأرز الناضج من كل حقل. ثم يحمصه ويطحنه ويعطيه لكل منزل. وقُبيل الحصاد في بولاند مونغودو، وهي مقاطعة أخرى في سيليبيس، يقدمون خنزيراً صغيراً أو طيراً. ثم يقطف الكاهن القليل من الأرز الأول من حقله الخاص وبعدها من حقول جيرانه. يجفف كل ما قطفه ويعطيه لكلٍ من المالكين ليسحقوه ويسلقوه. بعد سلقه تأخذه النسوة إلى الكاهن مع بيضة يقدمنها كأضحية ويعيد لهن الأرز. عندها على كل فرد من أفراد الأسرة حتى أصغر أطفالها أن يأكل من ذلك الأرز. وبعد هذا الطقس يتصرف الجميع بأرزهم بحرية تامة.

وعند قوم برغر أو باداغا، هناك قبيلة في جبال نيلغيري في الهند الجنوبية، يبدرُ أولَ حفنة من البذور وأول قبضة ناضجة شخصٌ يسمونه كورومبار من قبيلة برغر التي يعتبر أفرادها سَحَرَة. ويصنعون من تلك الحبوب وجبة من كعك، وبما أنها تُقدم كقربان ثمري يأكل منها البرغر والعائلة مع ما تبقى من الحيوان الأضحية كتقدمة جماعية. أما الهندوس في الهند الجنوبية فيجعلون من أكل الأرز الأول مناسبة لاحتفال عائلي يسمونه بونغول. يسلقون الأرز في إناء جديدعلى نار تُضرم عند الظهيرة في نهار يعتبره الفلكيون الهندوس تاريخ دخول الشمس إلى برج الجدي. وتراقب العائلة سلق القِدْر بقلق شديد، لأن السنة الجديدة ستأتي حسبما يغلي الحليب. إذا غلى الحليب بسرعة تكون السنة خيِّرة، وعكس ذلك إذا غلى ببطء. يقدمون بعضاً من الأرز المسلوق لمجسم غانيسا ويأكل الجميع مما تبقى من الأرز. وفي بعض أنحاء الهند الشمالية، يسمون احتفال المحصول الجديد نافان وتعني الحَب الجديد. عندما ينضج المحصول يأخذ صاحبه بعض البشائر وهي خمس أو ست سنابل شعير يقطفها من محصول الربيع وسنبلة من الدخن في حصاد الخريف. يأتي بها إلى المنزل ويحمصها ويخلطها مع السكر الخشن والزبدة وخثارة اللبن. يرمي بعضها في النار باسم آلهة القرية والأسلاف الراحلين؛ وتأكل العائلة الباقي.

أما طقس أكل بطاطا اليام الجديدة في أونيتشا على نهر النيجر فيجري على الشكل التالي. يأتي كل رئيس منهم بست يامات ويقطع عنها الأغصان الفتية ويضعها أمام بوابته، يسلق ثلاثاً منها ويحصل على بذور الكولا والسمك. بعد أن يحمص اليامات يأخذ طبيب القرية واحدة منها، ثم يبشُرُها كنوع من الطعام ويقسّمها إلى نصفين؛ ثم يأخذ قطعة منها ويضعها على شفاه شخص سيأكل اليام الجديد. ينفخ آكل اليام البخار عنها ويلتهمها كاملة ويقول:(أشكر الله الذي أذن لي أن آكل اليام الجديد.)؛ ثم يبدأ بمضغها بنهم ومعها السمك.

وعند قوم الناندي في أفريقيا الشرقية البريطانية، عندما ينضج حب إليوسين في الخريف، تذهب كل امرأة تملك حقل حنطة ومعها بناتها ويقطفن جميعاً الحب الناضج. ثم تضع كل امرأة منهن حبةً في قلادتها وتمضغ حبة أخرى ثم تفركها على جبينها ورقبتها وصدرها وعليهن كل علامات الفرح، ثم يقطفن بحزن ملء سلة من الحنطة الجديدة ويحملنها إلى المنزل ويضعنه في العلية كي يجف. وبما أن سقف العلية مصنوع من الأملود يسقط قسط كبير من الحبوب من الشقوق إلى النار مصدرة صوت طقطقة قوي. لايحاول الناس منع هذا الهدر لأنهم يعتبرون طقطقته على النار إشارة إلى اشتراك الأموات في أكله. وبعد بضعة أيام يصنعون من الحب الجديد عصيدة ويقدمونها مع الحليب على العشاء. يتناول كل أفراد العائلة قليلاً منها ويملسون بها جدران الأكواخ وسقوفها؛ ثم يضعون القليل منها في فمهم ويبصقونها خارج الكوخ باتجاه الشرق. ويمسك رب الأسرة القليل من الحب في يده ويصلي لله طالباً الصحة والعافية، ودر الحليب، وتردد الأسرة صلواته بعده.

وعند قوم كافير ناتال في بلاد الزولو، لايأكل أحدهم الثمار الجديدة إلا بعد الاحتفال عند بداية العام الكافيري ويصادف مع نهاية كانون الأول أو بداية كانون الثاني. يتجمع الناس في حوش الملك يحتفلون ويرقصون. وقبل ان يتفرقوا يقومون بطقس هبات الناس. ثمار عديدة مثل الحنطة والدقيق واليقطين ممزوجة بلحم الحيوان الأضحية بالإضافة إلى الدواء، كلها تُسلَق في قدور كبيرة، ويضع الملك شخصياً القليل منها في فم كل رجل من الحضور. وبعد الأكل من هذه الثمار الطاهرة، يصبح الرجل نفسه طاهراً من الخطيئة طوال العام ويمكنه التصرف بمحصوله. ويُعتقد أنه إذا أكل أحدهم من الثمار قبل الاحتفال، فإنه سيموت؛ وإذا

ما تحريت عنه تجده إما يُقتل أو على الأقل تؤخذ ماشيته منه. إن مايدل على قدسية الثمار الجديدة هو طبخها بقدور خاصة تُستخدم فقط لهذا الغرض وعلى نار يضرمها ساحر خلال حكّ عصوين يسموهما الزوج والزوجة.

وجرت العادة عند قوم البوخوانا أن يطهروا أنفسهم قبل الأكل من المحصول الجديد. ويقيمون هذا التطهير عند أول العام الجديد في كانون الثاني في يوم يحدده زعيمهم. ويبدأ في حوش القبيلة الكبير حيث يتجمع الرجال وبيد كل منهم أوراق من القرع. وبعد سحن الورق يفركون من عصارته إبهام أرجلهم، وبعضهم يستخدم ذلك العصير لجميع مفاصل أجسامهم، لكن العارفين يقولون أنه تصرف مبتذل باقٍ من عادة قديمة. وبعد هذا الطقس في الحوش الكبير يذهب كل رجل إلى حوشه ويجمع كل أفراد الأسرة رجالاً ونساءً وأطفالاً ويفركهم جميعاً بعصير أوراق القرع. ويسحقون بعضاً من هذه الأوراق ويخلطونه مع الحليب في طبق خشبي كبير ويعطونه للكلب كي يلعقه. ثم يفرك كل فرد من أفراد الأسرة صحن ثريد بتلك الأوراق. وعند الانتهاء تماماً من عملية التطهير هذه، وليس قبل، يصبح الناس مطلَقي الحرية في أكل المحاصيل الجديدة.

ويعتقد هنود البورورو في البرازيل أن من يأكل من الذرة الجديدة قبل أن يباركها الطبيب يلقى الموت الأكيد. أما طقوس المباركة فهي كالتالي. بعد أن تُغسل، توضع قشور الذرة نصف الناضجة أمام الطبيب الذي يرقص ويغني ساعات ويجهد نفسه حتى يدخل في حالة من الانجذاب الصوفي، ثم يأكل من القشور، ويرتجف كل عضو من أعضائه ويطلق صرخات من حين إلى آخر. كما يقيمون الطقس نفسه عندما يقتلون حيواناً أو سمكة. وهم على يقين أن من يلمس الذرة أو اللحم غير المطهَّرين، إي قبل إجراء طقس المباركة، سيهلك هو وقبيلته.

إحتفال أولى الثمار هو الطقس السنوي الرئيس عند هنود الكريك في أمركيا الشمالية. ويصادف في تموز أو آب عندما تنضج الحنطة وفيه تنتهي السنة الماضية وتبدأ سنة جديدة. لايُقْدِم أي من الهنود على التعامل مع المحصول الجديد أو أكله حتى يقيموا ذلك الطقس الذي يقام أحياناً في كل مدينة على حدة، وأحياناً يشتركون في احتفال عام واحد. يرتدي الناس لباساً جديداً قبل الاحتفال بأولى الثمار ويستخدمون أثاثاً جديداً وأواني مطبخية جديدة، ويجمعون ملابسهم القديمة

وقمامتهم وما تبقى من حنطة ومؤونة قديمة من العام الماضي كل هذا يجمعونه في كومة واحدة ويتلفونه في النار. أما التحضيرات التي تسبق الطقس فهي إطفاء كل النيران في القرية، وتنظيف المواقد من الرماد، وخاصة موقد أو مذبح المعبد. ثم يأتي الكاهن الأكبر ويضع بعضاً من جذور نبتة **براعم الأفعى** مع بعض أوراق التبغ الأخضر والقليل من الفواكه الجديدة في قعر الموقد الذي سيطلُب لاحقاً تغطيته بالصلصال وترطيبه بالماء النظيف. ثم يضعون فوق المذبح أغصاناً قوية من شجرة خضراء فتية. أما النساء فتنظفن ديارهن وتجدِّدن مصلّاهن ويلمِّعن أواني الطبخ تحضيراً لاستخدامها مع النار الجديدة والفواكه الجديدة. كما يكنسون بعناية الساحة العامة أو الساحة المقدسة حتى من أصغر فتاتٍ باقٍ من الاحتفالات السابقة، خوفاً من تلويث عطايا الفاكهة الأولى. كما يبعدون من المعبد وقبل الغروب كل الأواني التي استخدمت في الطعام أثناء العام المنصرم. وعند إتمام كل هذا، ينادي منادٍ يطلب من كل الناس الذين خرقوا قوانين الزواج وعطايا الفاكهة الجديدة يطلب منهم الدخول إلى الساحة المقدسة كي يتبعوا صياماً مقدساً. لكن تُمنع النساء(ماعدا من كن في السادسة من عمرهن)والأطفال وكل من لم يبلغ سن المحارب أن يدخل الساحة. يقف الحراس على جميع أطراف الساحة ليمنعوا كل الحيوانات ومن يعتبرونهم غير طاهرين من الدخول إلى الساحة. ثم يُتَّبَع صيام شديد لمدة ليلتين ونهار، يشرب فيها الصائمون من مغلي جذور براعم الأفعى المُرّ كي يتقيؤوا ويسهلوا فتخرج الآثام من أجسامهم. ولكي يتطهر الناس خارج الساحة يقوم رجل مسن بوضع كمية من التبغ الأخضر في ركن الساحة؛ ثم تحملها امرأة مسنة وتوزعها على الناس في الساحة ليمضغوها تعذيباً لأرواحهم. في أثناء هذا الصيام العام يستطيع الأطفال والنساء ضعيفو البنية أن يأكلوا بعد منتصف النهار، وليس قبل. وفي الصباح عند نهاية الصيام تجلب النسوة كمية من طعام السنة المنصرمة خارج الساحة المقدسة. ثم يدخلون تلك المؤونة ويضعونها أمام الحشد المتضور، لكن عليهم أن يزيلوا أي أثر لها قبل الظهيرة. وعندما تبدأ الشمس بالميلان بعد الهجير، يأمر منادٍ الناس أن يبقوا في بيوتهم، وألا يأثموا، وأن يتأكدوا أنهم تخلَّصوا من كل شرارة من نار قديمة. هنا يعم صمت عام. ثم يضرم الكاهن الأكبر النار الجديدة عن طريق حك قطعتين من الخشب ويضعها على المذبح تحت الأغصان

الخضراء. يقال أن هذه النار تُكفِّر عن كل ماتقدم من الذنوب. ثم يجلبون سلة من الفاكهة الجديدة، ويخرج الكاهن قليلاً من كل نوع من الفاكهة ويفركها بزيت الدب ويقدمها مع بعض اللحم لروح النار المقدسة المعطاء، كعطايا الثمار الأولى وتكفير سنوي عن الذنوب. كما يأتي بدواء مقدس مثير للتقيؤ(جذور براعم الأفعى وشراب أسود) ويصبه عليهم وعلى النار. هنا يقترب الأشخاص الذين بقوا خارجاً لكن لايدخلون الساحة المقدسة، ويلقي الكاهن على الناس خطبةً يحضهم فيها على التمسك بشعائرهم وعاداتهم القديمة معلناً أن نار الإله الجديدة قد طهرت خطايا السنة الماضية، ويحذر النسوة بشدة من أن تكون إحداهن قد نسيت إطفاء النار القديمة أو ارتكبت أي نجاسة، ويأمر كل من فعلت ذلك أن تغادر على الفور كي لا تؤذيهن النار الإلهية وتعم الأذية على الناس جميعاً. ويوضع بعضٌ من النار خارج الساحة المقدسة كي تأخذها النسوة إلى بيوتهن وهن سعيدات لأنهن سيضعنها في مواقدهن الطاهرة من كل دنس. وعندما تتشارك عدة مدن للاحتفال بالمهرجان، يمكن أن تُحمل النار عدة أميال. ثم تؤكل الثمار الجديدة بعد إعدادها على النار الجديدة مع زيت الدببة الذي يُعتبر شرطاً لازماً. وفي وقت معين من الاحتفال يفرك الرجال الذرة بين أيديهم وعلى وجوههم وصدورهم. وفي الطقس اللاحق يرقص المحاربون، وهم في زيِّهم العسكري وعلى رؤوسهم غطاء أبيض وفي أيديهم الريش الأبيض، يرقصون حول الشجرة المقدسة التي تُضرم النار الجديدة تحتها. تستمر الطقوس ثمانية أيام يمارسون في أثنائها زهداً شديداً. وقبيل نهاية الاحتفال يمثِّل المحاربون معركة زائفة؛ ثم ترقص النساء والرجال في دوائر ثلاث حول النار المقدسة. وأخيراً يدهن الناس أنفسهم بالصلصال الأبيض ويستحمون بالمياه الجارية. ويخرجون من الماء معتقدين أنه لن يصيبهم أذىً على ما تقدم من خطايا ويغادرون فرحين آمنين.

حتى يومنا هذا، ما زالت البقية الباقية من هنود سيمينول في فلوريدا، وهم شعب من سلالة الكريك نفسها، تقيم احتفال التطهير السنوي ويسمونه رقصة الحنطة الخضراء وفيه يأكلون الحنطة الجديدة. في مساء اليوم الأول من الاحتفال يعبُّون شراباً مقرفاً، يسمونه الشراب الأسود، كمقيء وكمسهل؛ يعتقدون أن من يأكل الحنطة الخضراء دون أن يشرب من هذا الشراب إنما هو معرَّض لخطر

سيصيبه في غضون السنة القادمة مثل المرض. وفي أثناء تناول الشراب يبدأ الرقص الذي يشارك فيه الأطباء. وفي اليوم الثاني يأكلون من الحنطة الخضراء، ويصومون اليوم الثالث ربما كيلا يدنسوا الطعام المقدس في بطونهم باختلاطه مع الطعام العادي؛ لكنهم يقيمون وليمة كبيرة في اليوم التالي للصيام. حتى القبائل التي لا تفلح الأرض تقيم أحياناً طقوساً مماثلة مثل هنود الساليش والتينيه في أمريكا الشمالية الذين يجتمعون لتناول الفاكهة الأولى أو يستخرجون جذور الموسم الأولى قبل أن يأكل الصغار ثمار التوت الأولى أو جذور الموسم الأولى. في البداية يخاطبون النبات أو الثمار متوسلين رضاها وعونها. وعند بعض القبائل تُقام طقوس الثمار الأولى سنوياً في موعد قطاف الثمار البرية وجمع الجذور. وكذلك تفعل القبائل التي تأكل سمك السلمون عندما تبدأ هجرة السلمون الأحمر. لكن طقوسهم لا تُقام تقديماً للشكر بل لأجل محصول وفير أو تأميناً لمادة تموينية معينة، ولو لم تُقم بخشوع وبالشكل الصحيح لشكّلت خطراً في استثارتها لعدائية أرواح المواد المرغوبة، وبالتالي يُحرَمون منها. مثلاً، هؤلاء الهنود مغرمون ببراعم توت الفريز وجُذيراته الجديدة: يجتمع الناس ويقفون في حلقة كبيرة وعيونهم مغمضة بينما يستحضر قائد الاحتفال أو الطبيب روح النبات، متوسلاً لها أن تمنحهم جذيرات وفيرة. بعد هذا الطقس تُعطى الجذيرات مطبوخةً للقائد في طبق محفور حديثاً والقليل منها لكل من الحضور الذين يأكلونها بخشوع واحتشام.

يطبخ هنود الثومبسون من كولومبيا البريطانية ويأكلون جذور دوّار الشمس، لكنهم كانوا يعتبرونها كائناً خفياً ويمتنعون عن عدد من المحرمات بشأنها؛ فمثلاً على المرأة التي تنقب أو تطبخ تلك الجذور أن تمارس الزهد، وألا يقترب رجلٌ من الموقد الذي تطبخ النساء فيه الجذور. وعندما يأكل الصغار التوت الأول أو الجذور الأولى أو أي منتجات لموسم معين، يتقدمون بالصلاة لجذور دوار الشمس فيقولون الكلمات التالية :(ها أنا أبلغك أني أنوي أكلك. هلا تساعدينني دائماً في أن أكون لائقاً قادراً على صعود الجبال، إني أطلب هذا منك يا جذور دوار الشمس، فأنت أعظم الأسرار.) أما من يأكل الجذور دون أداء تلك الصلاة فسوف يُصاب بالخمول والنوم المتأخر عند الصباح.

عادات قوم ثومبسون وقبائل الهنود الآخرين في أمريكا الشمالية هي عادات تثقيفية لأنها تدلنا على الدوافع أو على الأقل على أحد الدوافع وراء طقوس أكل الثمار الأولى من كل فصل. الدافع هو إيمانهم بأن الجذر واعٍ ويتمتع بروح قوية كجزء من جسمه، ولابد من استرضاءالجذور والثمار قبل أن يتناولها الناس بأمان. إذا كانت هذه هي الحالة بالنسبة للثمار والجذور البرية، لنا أن نتوقع الحالة نفسها بالنسبة للجذور والثمار المزروعة مثل الياما وخصوصاً التي تحمل حبوباً كالقمح والشعير والشوفان والأرز والذرة. في جميع الحالات انتاب البدائي وسواس عندما أكل أولى ثمار المحصول، وأراد من تلك الطقوس أن يتغلب على تلك الوساوس الناشئة من إيمانه بفكرة وجود روح بالشجرة أو حتى إله، ولابد من الحصول على إذنه، أومحاولة إرضائه قبل تناول المحصول الجديد بأمان. ومايؤكد هذا بوضوح هو قوم الآينو الذين يسمون الدخن إله الحبوب ويصلون له ويعبدونه قبل أكل الكعك المصنوع من الدخن الجديد. وحتى عندما لا يصرحون بوجود روح الثمار، نرى إيمانهم هذا في تحضيراتهم لأكلها وخوفهم من الخطر المحدق بالشخص الذي يغامر في أكلها قبل أداء الطقوس الواجبة. في حالات كهذه لا نخطئ عندما نقول إن تناول الثمار الجديدة هو عشاء رباني مقدس يشتركون فيه مع ذلك الإله أو تلك الروح القوية.

من بين الممارسات التي تدل على هذه النتيجة التي توصلنا إليها هي عادة استخدام الأواني الجديدة أو المدخرة خصيصاً لأجل الثمار الجديدة، وعملية تطهير الأشخاص الذين يأكلونها قبل شرعنتها خلال العشاء المقدس بصحبة الإله. من أوضح أشكال التطهير المتبعة في هذه المناسبات هي تناول الكريك والسيمينول للمسهلات قبل ابتلاع الحنطة الجديدة بهدف منع تدنيس الطعام المقدس جراء اختلاطه بالطعام العادي في معدة الآكل. وللسبب نفسه يتبع الكاثوليكيون صيام القربان المقدس؛ وعند الماساي الرعويين في إفريقيا الشرقية يُجبَر المحاربون الشباب، الذين يعيشون على اللحم والحليب فقط، على تناول الحليب وحده لأيام كثيرة وبعدها اللحم وحده لأيام عديدة، وقبل انتقالهم من طعام إلى آخر يجب أن يتأكدوا من خلو معدتهم من الطعام القديم؛ ولكي يضمنوا ذلك يبتلعون شراب مقيئات ومسهلات.

وفي بعض المهرجانات التي بحثناها تقترن قدسية الثمار الأولى مع ضحايا تُقدَّم للآلهة أو الأرواح، ومع مرور الزمن دفعت التضحيةُ بالثمار الجديدة القدسيةَ إلى الظل، أو حتى نسختها حتى صارت الآن حقيقة تقديم العطايا للآلهة أو الأرواح مجرد تحضيرات مرافقة لأكل الحنطة الجديدة؛ أي بما أن القوى العليا قد أخذت حصتها فللإنسان الحرية بالتصرف بالبقية. تنطوي هذه النظرة إلى الثمار الجديدة على أنها فقدت الحياة الإلهية التي كانت مفعمة بها وصارت مجرد هبة منَّت بها الآلهة على الإنسان المُلزَم بتقديم عرفانه وتقديره لأولياء نعمته خلال رد الجميل بقسط من عطاياهم.

2ـ أكل الإله عند الآزتيك

اتُّبعت عادة أكل الخبز المقدس على أنه جسم الإله عند قوم الآزتيك قبل اكتشاف الإسبان واحتلالهم للمكسيك. مرتين في السنة، في أيار وكانون الأول، كانوا يصنعون مجسماً للإله المكسيكي الكبير هواتزيلوبوتشيتلي أو فيتزيليبوزتلي من العجين المحلى، ويقسمونه إلى قطع ويأكله عابدوه بقدسية. وهذا وصف المؤرخ أكوستا لطقس أيار: (يقيم المكسيكيون في شهر أيار احتفالهم الرئيس على شرف إلههم فيتزيليبوزتلية وقبل ذلك بيومين تخلط العذراوات اللواتي يعتكفن في المعبد نفسه على أنهن نساء دينيات يخلطن كمية من البذور والشمندر والذرة المحمصة ويمزجنها بالعسل ويصنعن صنماً بحجم الصنم الخشبي ويضعن مكان العينين كرات زجاجية خضراء، بيضاء أو زرقاء، ومكان الأسنان حبات من الذرة مع الزينة التي تحدثت عنها. ثم يأتي النبلاء برداء ثمين متقن الصنع يلبسونه الصنم. وبعد كسائه وتزيينه يضعونه في كرسي لازوردي على نقَّالة ويحملونه على أكتافهم. عندما يأتي صباح الاحتفال تجتمع كل السيدات قبل ساعة مكسوات بالأبيض ومتزينات زينة جديدة ويسمونهن في ذلك اليوم **أخوات الإله فيتزيليبوزتلي**، وعلى رؤوسهن أكاليل الذرة المجففة والمحمصة مثل أزهار البرتقال؛ وعلى رقباتهن حبال كبيرة من النوع نفسه وتلتف على أذرعهن وكأنهن يحملن دلواً. ويصبغن وجناتهن باللون اللازوردي ويغطين أذرعتهن من الكوع حتى المعصم بريش ببغاء أحمر.) أما الشباب فيلبسون أردية حمراء ويتوَّجون مثل العذارى بالذرة، ويحملون

الصنم بنقالة إلى معبد على شكل هرم، ثم إلى أعلى الدرجات الضيقة وشديدة الانحدار ويسحبونه على وقع موسيقا الناي، والبوق والصور والطبل. وعندما يصل الصنم إلى الأعلى يقف الناس في القاعة بإجلال وخوف. ويضعونه في الأعلى على سرير من الورود، عندها يأتي الشباب بأنواع شتى من الورود وينثرونها في جميع أنحاء المعبد، داخله وخارجه. هنا تخرج العذراوات من ديرهن ومعهن لقيمات من المعجون الممزوج بالشمندر والذرة المحمصة من عجينة الصنم نفسها وهي على شكل عظام. يسلِّمْنَها للشبان الذين يرفعونها ليضعوها على أقدام الصنم بحيث يعج بها المكان فلا يتسع للمزيد. يسمون العظام المعجونية هذه **عظام فيتزيليبوزتلي**. بعد ذلك يأتي كبار المعبد: الكهنة وشيوخ قبيلة ليفاي وسائر الوزراء حسب أعمارهم ومكاناتهم فهم يتسلسلون بنظام دقيق واحداً تلو الآخر وعليهم خمارات من ألوان وأشكال متعددة، أيضاً بما يتناسب مع رتبهم ومناصبهم والأكاليل على رؤوسهم وحبال الزهور على رقابهم. بعد ذلك تأتي آلهتهم وإلاهاتهم التي يعبدونها وهي من أشكال شتى ومزينة باللباس نفسه ويضعونهم بنظام حول تلك اللقيمات والقطع العجينية، ويمارسون طقوساً معينة من الرقص والغناء ويتباركون ويتقدسون بلحم وعظام الصنم. وبعد الانتهاء من طقس التبارُك، يجلُّون اللقيمات بالطريقة التي يجلون فيها آلهتهم نفسها.... يزحف كل من في المدينة لحضور هذا الطقس، وهناك تعليمات شديدة تحذر أهالي البلاد من أكل أي لحم سوى تلك العجينة الممزوجة بالعسل التي يصنعون منها الصنم. ويجب تناول هذه العجينة في موعد معين من النهار وعليهم ألا يشربوا مياهاً أوأي شئ آخر حتى العصر. وبعد انتهاء الطقس يصبح أكلهم لأي شيء يرغبون فيه أمراً مشروعاً. في أثناء القيام بهذا الطقس، يخبئون الماء عن صغارهم محذرين من شرب الماء خوفاً من غضب الله الذي سيحل عليهم وأنهم سيهلكون، الأمر الذي يجعلهم يحترمون الصيام بدقة. ينتهي طقس الرقص والأضحية وينصرفون ليخلعوا ملابسهم، ويأخذ الكهنة وأصحاب المقام العالي الصنم فيخلعون عنه كل زينة ويقسِّمونه قطعاً على شكل الصولجان الذي يقدسونه ويقدمونها للناس على أنها عشاء رباني بادئين بالكبار ومن ثم بقية الناس من الرجال والنساء والأطفال الذين يأخذون القطع بالدموع يذرفونها مع مشاعر الخوف والإجلال وهم يقولون أنهم يأكلون لحم وعظام الله الأمر الذي يثير فيهم الحزن. كذلك يفعل المرضى وهم يحملونها بإجلال ووقار كبيرين.

من هذا الوصف الممتع يتبين لنا أن المكسيكيين القدامى وقبل وصول البعثات التبشيرية كانوا عارفين تماماً بتعاليم تحول الخبز والخمر إلى دم المسيح، ومارسوا هذا المبدأ بشعائر تقديسية في ديانتهم. ويعتقدون أنه بتقديس الخبز يستطيع الكهنة تحويله إلى جسم إلههم، فكل من يأكل من ذلك الخبز المقدس يدخل في مشاركة غامضة مع الإله خلال إدخاله قسماً من المادة الإلهية إلى جوفه. إن تعاليم انتقال الشكل أو التحول السحري من الخبز إلى اللحم أيضاً كان معروفاً لدى الإريان في الهند القديمة قبل انتشار أو حتى ظهور المسيحية بوقت طويل. كان البراهما يعلمون تلاميذهم أن كعكة الأرز التي يقدمونها كأضحية إنما هي بديل عن الكائنات البشرية، وأن ذلك الكعك يتحول إلى أجسام رجال حقيقيين على يد الكاهن. وقرأنا أنه عندما يكون الأرز وجبة عادية فهو عبارة عن شَعر. وعندما يصبون عليه الماء يصبح جِلداً. وعندما يخلطونه يصبح لحماً لأنه يصبح متماسكاً كما اللحم المتماسك. وعندما يُخبَز يصبح عظاماً لأنه يأخذ شكلاً صلباً نوعاً ما؛ وكذلك هي العظام. وعندما يوشك على إخراجه من النار ودهنه بالزبدة فإنما يتحول إلى نقي العظام. بهذا يبلغ الكمال الذي يسمونه الأضحية البشرية الخماسية.

الآن صرنا نعرف سبب رفض المكسيكيين في يوم العشاء الرباني تناول أي طعام سوى الخبز المقدس الذي يجلونه على أنه لحم الله وعظامه، ولماذا يُمنع عليهم أي شراب ولا حتى الماء حتى الظهيرة. إنهم يخافون تنجيس ما في معداتهم من جسم الله باختلاطه مع الطعام العادي. وهناك خوف ديني مشابه عند الهنود الكريك والسيمينول يدفعهم إلى الغسل الكلي لمعداتهم باستخدام مسهل قوي قبل الإقدام على تناول الثمار المقدسة الأولى.

وفي احتفال الإنقلاب الشتوي في كانون الأول يقتل الآزتيك إلههم هواتزيلوبوتشيتلي على شكل صنم ويأكلونه. وتحضيراً لهذا الطقس المقدس يصنعون صنماً على شكل إنسان من عدة بذور يعجنونها بدماء الأطفال. ويمثلون عظام الإله بقطع من خشب الأقاقيا. يوضع هذا الصنم على المذبح الرئيس للمعبد وفي يوم الاحتفال يقدم له الملك البخور. وفي صباح اليوم التالي ينزلونه ويوقفونه على أقدامه في قاعة كبيرة. ثم يقطع أحد الكهنة قلب المجسم ويعطيه للملك ليأكله ويُقسَّم ماتبقى من المجسم إلى قطع صغيرة توزع على الناس الكبير والصغير وحتى

الطفل الذي في المهد ليأكلوها. لكن يحظر على النساء تناول أي منها، وكانوا يسمون هذا الطقس (الإله المأكول).

وفي احتفال آخر يصنع المكسكيون مجسمات صغيرة كالبشر ويعجنونها بالبذور ويلبسونها بالأوراق الملونة. بعضهم يصنع خمسة منها وآخرون يصنعون عشراً وربما خمسة عشر مجسماً. وبعد تجهيزها يضعونها في مصلى كل منزل ليعبدوها. يقدمون لها خمس وجبات في الليلة في صحون صغيرة؛ ويعزف الناس على الناي ويغنون لها طوال الليل. وعند بزوغ الفجر يطعن الكهنة المجسمات بأدوات الحياكة ويقطعون رؤوسها ويمزقون قلوبها ويقدمونها لرب المنزل على طبق أخضر. ثم يأكل أجسام المجسمات جميع أفراد الأسرة وخصوصاً الخادمين، فأكلها يحميهم من مرض سل الكلاب لأنهم معرضون لتلك الأمراض لأنهم مهملون في العبادة.

3ـ ما أكثر الأرغفة في أريسيا

الآن صرنا مهيئين لشرح المثل الشائع(ما أكثر الأرغفة في أريسيا) يسمي الرومان الأرغفة المصنوعة على شكل بشر مانيا، وكانت تصنع هذه الأرغفة في أريسيا على وجه الخصوص. ويطلقون اسم مانيا أيضاً على أم جدة الأشباح التي يقدمون لها مجسمات الرجال والنساء الصوفية في احتفال كومبيتاليا. وكانت تُعلق هذه المجسمات عند بوابات المنازل في روما؛ ويطابق عددها عدد أفراد الأسرة الأحرار. يعتقدون أنه في ذلك اليوم تتجول أرواح الموتى، وإما بطبعها الشرير أو بقصد اللهو أو السهو يأخذون المجسمات بدلاً من أفرد الأسرة. وحسب التقاليد تأتي هذه المجسمات بديلة عن أضاحي الكائنات البشرية. وهنا يمكننا أن نظن مجرد ظن أن الأرغفة التي تاخذ أشكال بشر كانت تُخبَز في أريسيا، وكانت تُصنع على شكل ملك الغابة الذي كان يُذبح في غابر الزمان، تماماً مثل مجسمات آلهة المكسيك العجينية التي كان يأكلها العابدون بقدسية. كذلك كانت الأسرار المقدسة الخاصة بالإله هواتزيلوبوتشيتلي أيضاً يرافقها تقديم الضحايا البشرية. أما تسمية مؤسس أيك أريسيا المقدس بمانيوس الذي انحدر منه الكثير من المانيوسات هي إذن من الأسطورة الاشتقاقية التي ابتكروها لتفسير كلمة مانياي المستخدمة

للتعبير عن هذه الأرغفة المقدسة. ويمكن هنا أن نعود بذاكرتنا إلى العلاقة بين الأرغفة وبين الضحايا البشرية التي يعود أصلها إلى قصة التماثيل المُقدَّمة لمانيا في كومبيتاليا كبدائل عن الضحايا البشرية. وربما كانت القصة نفسها ليس لها أصل، لانتشار عادة وضع الدمى لتضليل الأرواح أو الشياطين الباحثين عن البشر الأحياء.

لنأخذ مثالاً آخر، يخاف أهالي التيبت من الشياطين الدنيوية التي لا تعد ولا تحصى والتي تعمل بأمرة الأم العجوز خونما. يمكن أن نشبه هذه الإلهة بمانيا الرومانية، أم الأشباح أو جدة الأشباح، وهي ترتدي اللباس الذهبي الأصفر، وتحمل بيدها أنشوطة ذهبية وتركب كبشاً. ولكي تقفل مسكنها ضد الشياطين الأشرار التي تقودهم خونما، هناك فوق بوابتها من الخارج هيكل دقيق يشبه الشمعدان. يحتوي الهيكل على جمجمة كبش وأشياء ثمينة كثيرة مثل رقائق ذهبية وفضة وفيروزات بالإضافة إلى بعض الطعام الجاف مثل الأرز والحبوب، وأخيراً هناك صور لرجل وامرأة ومنزل. تهدف مجسمات الرجل والزوجة والمنزل إلى خداع الشياطين الذين على الرغم من ما يأخذونه من عطايا يصرون على المحاولة، فيضلّلون بهذه المجسمات على أنها سكان المنزل فينزلون غضبهم على تلك القطع الخشبية ويظل السكان الحقيقيون في مأمن. عند إتمام كل هذه التحضيرات يأتي كاهن ويصلي للأم العجوز خونما ويقول لها أنها ستكون راضية إذا ما قبلت هذه العطايا اللذيذة ويرجوها أن تقفل أبواب الأرض أمام الشياطين القادمين لابتلاء وأذية أهل الدار.

كذلك تُستخدم الصور كوسائل لعلاج المرض أو الوقاية منه عن طريق إيقاع شياطين المرض بالخطأ بين الأحياء وصورهم أو أنهم يقتنعون أو ربما يُجبَرون على الدخول إليها تاركين الرجال النساء الحقيقيين سالمين. لهذا السبب يعمد قوم ألفور ميناهاسا في سيليبيس أحياناً إلى نقل المريض إلى مكان آخر ويتركون سريره ووسادته وملابسه. من المفترض أن تخطئ الشياطين بينه وبين هذه الأشياء الزائفة فيشفى المريض بعد ذلك. يبدو أن الوقاية أو العلاج من هذا النوع قد لقي استحساناً خاصاً لدى أصلاء بورنيو. لذلك عندما يتفشى الوباء بينهم يقوم الداياك المقيمون

على نهر كاتوينغو بنصب مجسمات خشبية على أبوابهم على أمل أن تُخدع الشياطين وتأخذ المجسمات بدل البشر. أما قوم أولوهناغادو في بورنيو فعندما يرون أن مريضاً يعاني من هجوم شبح، يصنعون دمىً من عجين محلى أو وجبة أرز ويرمونها تحت المنزل كبديل عن المريض. وفي مناطق غرب بورنيو إذا ما سقط أحدهم فجأة في مرض خطير تأتي الطبيبة وهي امرأة عجوز، وتصنع مجسماً خشبياً وتلامسه مع رأس المريض سبع مرات وهي تقول:(سيحل هذا المجسم مكان المريض؛ فاخرج إلى المجسم، يامرض.) ثم يأخذون بعض الأرز والملح والتبغ مع المجسم البديل في سلة إلى المكان الذي يُفتَرض أن فيه دخلت الروح الشريرة إلى جسم المريض. وهنا ينصبونه على الأرض بعد أن تستحضر الطبيبة الروح قائلة:(يا أيها الشيطان محل هذا المجسم يحل المريض. حرر روح المريض وأنزل المرض في المجسم لأنه أفضل وأجمل منه.) ويستطيع السحرة عند قوم الباتاك استخراج شيطان المرض من الجسم وإدخاله في مجسم مصنوع من شجرة الموز التي يصنعون لها وجهاً بشرياً ويكسونه بأعشاب سحرية ويرمونه بعيداً أو يدفنونه خارج حدود القرية. وأحياناً يلبسون المجسم لباس رجل ويضعونه على مفترق طرق أو طريق عام؛ على أمل أن يمر به عابر سبيل فيجفل ويبكي ويقول:(أواه! لقد مات فلان الفلاني) فيخدع القول شيطان المرض ويجعله يعتقد أنه وصل إلى مبتغاه فيرحل، ويتحسن المريض. أما أهالي ماي دارات وهم قبيلة من قوم ساكي من شبه الجزيرة الماليزية، فيعزون كل أنواع المرض إلى أرواح يسمونها نايناني؛ ولحسن الحظ يستطيع الساحر أن يغري أو يقنع هذه الكائنات الشريرة بالخروج من جسم المريض لتأخذ مسكناً لها في مجسمات بسيطة من أعشاب تُعلَّق خارج البيوت في وعاء له قدسيته على شكل جرس ومُزيَّن بعصي مقشرة. وأثناء تفشي جدري الماء يقوم زنوج الإوي بتعرية مساحة خارج المدينة ينصبون فيها عدداً من المجسمات وكأنهم أناس يحتلون المكان. كما يضعون أوعية فيها طعام وماء تلبية لرغبة روح جدري الماء آملين منها أن تحل في هذه المجسمات الصلصالية وتترك الناس الأحياء؛ ومن قبيل الاحتياط الإضافي يضعون على طريق المدينة حاجزاً أمام عودة الروح إليها.

من هذه الأمثلة نظن أن الأشكال الصوفية التي يضعها كل أهالي روما على أبواب دُورِهم في احتفال كومبيتاليا هي عبارة عن بدائل لضحايا الموسم البشرية،

بل هي على الأرجح عطايا تُقدَّم لأم الأشباح أو جدتها التي تجول في المدينة وقد تقبل بهذه المجسمات كبدائل أو تخطئ بها فتظنها سكان المنزل فتترك الأحياء لعام آخر. وربما كانت الدمى التي يلقيها الأحبار وعذارى فيستيل والمصنوعة من نبات السمَّار في نهر تايبر في شهر أيار من فوق جسر سَبليسيا القديم في روما، ربما كان لها المغزى نفسه، أي أنها صُمِّمت لتطهير المدينة من أثر تَلبُّس الشيطان خلال صرف نظره عن الأحياء إلى الدمى التي يُطيحون بها مجتمعة في النهر الذي يأخذها كلها إلى البحر. وبالطريقة نفسها يتخلص أهالي كالابار القديمة بشكل دوري من الشياطين التي تكتسح المدينة عن طريق الشياطين الهائمة خلال فزاعات مُحزِنة يلقونها في النهر. وعندما يسمي بلوتارك هذا الطقس **التطهير الأكبر** فإنما يدعم هذا التفسير.

الفصل الواحد والخمسون
السحر التجانسي في أكل اللحم

لاحظنا قتل الإله في المجتمعات التي وصلت إلى المستوى الزراعي. ورأينا كيف كانت روح الحنطة أو النباتات المزروعة الأخرى تُمثَّل إما على شكل بشري أو حيواني وأنه في بعض المناطق سادت عادة قتل ممثل الإله البشري أو الحيواني. وكان السبب الضمني لهذا القتل الذي ذكرناه سابقاً في هذا العمل هو حماية روح الحنطة من ضعف الشيخوخة ونقلها وهي في حالة قوية سليمة إلى خلف شاب عتيد. بعيداً عن الرغبة في تجديد الطاقات الإلهية، ربما اعتبروا موت روح الحنطة محتوماً على نصول المناجل والمِحشَّات، فكان لزاماً على عابديها أن يذعنوا لهذه الضرورة المحزنة. ورأينا انتشار عادة أكل الإله بقدسية إما على شكله الحيواني أو في إنسان يمثله، أو على شكل خبز يأخذ هيئة بشرية. ويعود سبب تناول جسم الإله من وجهة نظر بدائية إلى مبدأ غاية في البساطة: يؤمن البدائي أنه عندما يأكل لحم الحيوان أو الإنسان إنما هو يكتسب ليس ميزاته الجسمانية فقط بل الصفات التي يتميز بها ذلك الحيوان أو الإنسان. إذن عندما يُعتَبر الكائن إلهياً، نتوقع من البدائي البسيط أن يتلقف جزءاً من الإله مع تناوله مادته المحسوسة. ومن المناسب هنا استعراض أمثلة على اكتساب فضائل ورذائل عديدة عن طريق الطعام الحيواني حتى عندما لايوجد في ظاهر الطعام، ما يدل على جسم أو دم الإله. يشكل هذه المبدأ جزءاً من منظومة السحر التعاطفي أو التجانسي المتشعبة.

المثال الأول من الكريك الشيروكي وهم قبائل هندية في أمريكا الشمالية. يعتقدون أن الطبيعة محكومة بخاصية انتقال الصفات البشرية أو الحيوانية عن طريق الطعام أو الأشياء المعروضة على حواسهم؛ فكل من يقتات من لحمها، وحسب نظامها الجسماني، هو أفطن وأسرع من الإنسان الذي يعيش على لحم الدب

الأخرق أو طيور الدمنة أو الماشية الأليفة البطيئة أو الخنزير المتمرغ بالشهوات. لهذا السبب ينصح كبارُهم قائلين أن أسلافهم اتبعوا قاعدة دقيقة في طعامهم، ونادراً ما كانوا يأكلون الحيوانات ذات الصفات البذيئة، أو بطيئة الحركة، متخيلين أنها تنقل غباءها إلى النظام بأكمله وتعطل نشاطهم في الحركة وأداءهم لواجباتهم المدنية والدينية. أما هنود الزابارو في الإكوادور فلايأكلون اللحم الثقيل مثل حيوان التابير والبَقَري وهي حيوانات شبيهة بالخنزير لا يأكلونها إلا في حالات الضرورة، بل يقتصر طعامهم على الطيور والقردة والأيائل والسمك... إلخ، ومبررهم في ذلك هو أن اللحوم الثقيلة تجعلهم ثقيلي الحركة أغبياء مثل الحيوانات صاحبة تلك اللحوم وبهذا يفقدون رشاقتهم ولياقتهم في المطاردة. كذلك بعض الهنود البرازيليين الذين لا يأكلون الوحوش أو الطيور أو السمك التي تركض أو تطير أو تسبح ببطء كيلا يفقدوا قدرتهم على الفرار من أعدائهم. أما قوم الكاريب فيمتنعون عن لحم الخنازير كيلا تسبب لهم صِغر العينين مثل الخنازير؛ ويرفضون أكل السلاحف خوفاً من أن يصبحوا ثقيلي الحركة أغبياء مثل تلك الحيوانات. وعند بعض قوم الفان في أفريقيا الغربية لا يأكل الرجال وهم في ربيع شبابهم السلاحف للأسباب نفسها؛ فهم يتخيلون أنهم لو فعلوا ذلك لذهب نشاطهم وفقدوا سرعة الجري. لكن يمكن لكبارهم أن يأكلوا لحم السلاحف لأنهم قد فقدوا قدرتهم على الركض أصلاً ولن يصيبهم بطء من تلك الكائنات.

في حين يخاف الكثير من البدائيين أكلَ لحم الحيوانات بطيئة الحركة كيلا يفقدوا سرعتهم، يعمد البوشمن في جنوب أفريقيا إلى أكل لحوم تلك الكائنات ويبررون ذلك بأسباب تظهر دقة الفلسفة البدائية. فهم يتخيلون أن الطريدة التي يلاحقونها ستتأثر بالتعاطف مع الأكل الذي يتناوله الصياد، لذا عندما يأكل لحم حيوانات سريعة تصبح الطريدة سريعة أيضاً وبالتالي تهرب منه؛ بينما عندما يأكل لحوم حيوانات بطيئة ستتباطأ الطرائد فيصبح قادراً على اللحاق بها وقتلها. لذلك يتجنب صيادو حيوان الجمسبوك أكل لحم سبرينغبوك وهو حيوان كالغزال لأنه سريع الحركة متيقظ. وحتى إنهم لايلمسونه بأيديهم لأنهم يعتقدون أن ذلك الغزال كائن حيوي لاينام ليلاً وأنهم لو أكلوا لحمه لصار الجمسبوك يقظاً لا ينام ولا حتى في الليل. كيف لهم إذن أن يلتقطوه؟

يمتنع قوم ناماكواس عن أكل لحم الأرانب البرية لأنهم يؤمنون بأنها تجعلهم ضعيفي القلب مثل الأرنب. ويأكلون لحم الأسد ويشربون دم الأسد أو النمر ليكتسبوا منهما القوة. ولا يطعم قوم البوشمن أولادهم قلب الجقل لئلا يصبحوا رعديدين كالجقل؛ بل يطعمونهم قلب النمر كي يصبحوا شجعان كالنمور. وعندما يقتل أحد رجال الواغوغو وهم قوم من جنوب أفريقيا، عندما يقتل الأسد يأكل قلبه ليكتسب الشجاعة لكن قلب الدجاجة يجعله رعديداً. وعندما يصاب أحد أفراد الكرال وهم من الزولو بمرض خطير يأخذ الطبيب عظمةً من كلب عجوز جداً أو عظمة من بقرة عجوز أو ثور عجوز أو أي حيوان مسن ويقدمه كدواء للمريض كي يعيش قدر ما عاش ذلك الحيوان الذي أخذ منه العظمة. لذلك ولكي يعيدوا أحد أفراد قوم الآيسون إلى سن الشباب، تزرق الساحرة ميديا في شرايينه مغلي كبدِ أيل ممزوجاً مع مغلي رأس غراب عاش تسعة أجيال من الناس.

وعند الداياك في شمال غرب بورنيو، لايمكن للشباب والمحاربين أن يأكلوا لحم الغزال لأنه يجعلهم رعديدين كالغزال؛ لكن للنساء والشيوخ الحرية في تناوله. أما الكايان وهم من الإقليم نفسه، والذين يأخذون بنفس نظرة الأثر السيء لأكل لحم الغزال، فيتناول الرجال من هذا الطعام الخطير شريطة أن يُطبَخ على نار مفتوحة لأنهم يعتقدون أن روح الغزال الرعديدة تهرب عائدةً إلى الغابة في أثناء الطبخ فلا تدخل جوف آكل اللحم. ويؤمن الآينو أن طائر أوسيل المائي هو غاية في الحكمة وهو أكثر الطيور طلاقةً عندما يغرد. لذلك عندما يُقتَل الطائر عليهم أن يفتحوه وينتزعوا قلبه على الفور ويلتهموه قبل أن يبرد أو يصيبه ضرر من أي نوع. كل من يبتلعه على هذا الشكل يصبح حكيماً طليق اللسان وقادراً على إفحام خصومه في أي جدال. ويتخيل الناس في الهند الشمالية أنه إذا ما أكلتَ مقلة عين البومة تصبح قادراً على الرؤية في العتمة مثل البومة.

اعتاد هنود الكانسا وقبل ذهابهم إلى الحرب أن يقيموا وليمة في خيمة القائد، ويكون الطبق الرئيسي فيها هو لحم الكلب، لأنه على حد قول الهنود، يتمتع بشجاعة كبيرة إلى درجة أنه يصمد في الدفاع عن صاحبه حتى لو قُطِّع إرباً، ولابد أن لحمه يضفي على آكله البسالة. ويأكل رجال جزيرَتي بورو وأرو في الأنديز الشرقية لحم الكلب كي يكتسبوا الجرأة والفطنة في الحرب. وفي ميناء مورسبي

ومقاطعة موتوموتو في غينيا الجديدة، يأكل فتيان قوم بابوانا لحم الخنزير القوي والكنغر الصغير والسمكة الكبيرة ليكتسبوا قوة تلك الحيوانات أو الأسماك. ويتخيل بعض أصلاء أستراليا أنه عندما يأكل الإنسان لحم الكنغر أو طائر الأمو، يصبح لديه القدرة على القفز أو الجري بسرعة أكبر. ويعتبر الميريس من أسام لحمَ النمر غنيمةً كطعامٍ للرجال؛ فهو يعطيهم القوة والشجاعة. لكنه لا يناسب النساء لأنه يرفع من رجاحة عقولهن أكثر من اللازم. وفي كوريا، تباع عظام الفهود بثمن أعلى من عظام النمور كوسيلة لرفع الشجاعة. وهناك رجل من قوم التشينامان اشترى فهداً وأكله كاملاً ليجعل من نفسه شجاعاً صنديداً. وتقول الأسطورة النرويجية أن إنغيالد، ابن الملك أونوند كان رعديداً في صغره لكنه بعد أن أكل قلب ذئب أصبح جريئاً؛ كذلك اكتسب هيالتو القوة والشجاعة لأنه أكل قلبَ دبٍ وشرب دمَه.

وفي مراكش، يُعطَى المصابون بالكسل نملاً ليبتلعوه، وأكل لحم أسد يجعل الجبان شجاعاً؛ لكن يمتنع الناس عن أكل قلوب الطيور لئلا يجبنوا. وعندما يتأخر الطفل في الكلام، يعطيه أتراك آسيا الوسطى ألسنة طيور معينة ليأكلها. ويعتقد الهندي في أمريكا الشمالية أنه على البراندي أن يكون من مغلي القلوب والألسنة، لأنه - كما يقول - لا يخشى شيئاً بعد تناولها، وترتفع قدرته على التكلم بشكل عجيب. وفي جافا هناك دودة أرض صغيرة تطلق من حين لآخر صيحة ثاقبة مثل منبه الساعة. لذلك عندما يصبح صوت الراقصة العمومية أجشَّ، يطعمها قائد الفرقة من تلك الديدان معتقداً أنها بذلك ستسترد صوتها الحاد. ويعتقد أهالي دارفور في أفريقيا الوسطى أن الكبد هو معقل الروح، ويمكن للإنسان أن يوسِّع روحه بأكله كبد الحيوان. وعندما يُقتَل الحيوان ينتزعون كبده ويأكلونه دون لمسه بأيديهم لأنه يُعتَبر مقدساً؛ لذلك يُقطَّع قطعاً ويؤكل نيئاً، ويحملونه إلى أفواههم برأس السكين أو رأس العيدان. ويُمنَع كل من يلمس الكبد بشكل غير مقصود من أكل ذلك الكبد، وهذا نحس عليه. ولا يُسمح للنساء بأن يأكلن الكبد لأنهن لا يملكن روح.

كذلك يؤكل ويشرب لحم ودم الأموات من الرجال لكسب الشجاعة والحكمة والمزايا التي ينفرد بها أجزاء معينة من جسم الرجال. لذلك تقيم القبائل

الجبلية في جنوب شرق أفريقيا طقوساً ينظمون فيها الشباب في مجموعات أو محافل ويُقصَد منها منح الشجاعة والذكاء للمبتدئ منهم. وعندما يُقتَل عدو أبْدى شجاعة بارزة يقطعون منه أجزاءً ويخبزونها حتى الترميد: يقطعون الكبد لأنه موطن البسالة، والأذنين للذكاء، وجلدة الجبين للدأب والمثابرة، وخصيتيه للقوة، وأعضاء يُعتقد أنها مكان فضائل أخرى. ويحتفظون بالرماد في قرن ثور، ليخلطونه مع مواد أخرى وفي أثناء طقوس الختان يجعلون منها مرهماً يدهن به كاهنُ القبيلة الشبابَ. تنقل كل هذه الوسائل البسالة والذكاء والفضائل الأخرى للآكلين. وعندما يقتل قوم الباسوتو الجبليين عدواً شجاعاً، ينتزعون منه قلبه على الفور ويأكلونه، لأن هذا من المفترض أن يعطيهم الشجاعة والقوة في المعركة. وعندما قُتِل السير تشارلز ماكارثي على يد الأشاني في عام 1824، يُقال أن قوادهم التهموا قلبه ليتشربوا شجاعته. كما جففوا لحمه ووزعوه في أكياس على الضباط الأقل رتبةً للغرض نفسه، وبقيت عظامه وقتاً طويلاً في كوماسي كفَتشٍ قومي. ويأكل هنود الناوراس في غرناطة الجديدة قلوب الإسبان عندما تُتاح لهم الفرصة على أمل أن يجعلوا من أنفسهم شجعاناً لايهابون شيئاً مثل فرسان كاستيليا، وهي مضرب المثل في الشجاعة. أما هنود السوز فيجعلون من قلب العدو مسحوقاً يبتلعونه على أمل أن يستأثروا ببسالة الميت.

لكن عندما يؤكل لحم البشر بهدف إعطاء الأكل صبغة صاحبه، ليس القلب هو الوحيد في هذا المجال. فهؤلاء قبائل نغاركو في جنوب شرق أستراليا يأكلون أيدي وأرجل الأعداء المقتولين معتقدين أنهم بهذه الطريقة يكتسبون خصال وشجاعة الموتى. وفي ساوثويلز الجديدة، يأكل الكاميروي كبدَ وقلبَ الشجاعِ لكسب شجاعتِه. وهناك خرافة شائعة في تونكوين وهي أن كبد الرجل الشجاع يجعل آكلَه شجاعاً. ولهدف مشابه يبتلع الصينيون صفراء كبد اللص المعدوم سيئ السمعة. ويأكل داياك الساراواك راحة يد وركبة المقتول ليثبتوا أيديهم ويقوُّوا ركبهم. ويشرب تولالاكي المشهورون بصيد الرؤوس في سيليبيس الوسطى دم ضحاياهم ويأكلون دماغهم ليصبحوا شجعانا. ويشرب الإيتالون في جزر الفلبين دم الأعداء المقتولين ويأكلون جزءاً من قفا الرأس وجزءاً من الأمعاء نيئةً ليكتسبوا الشجاعة. وللسبب نفسه يمص الإفوغاو وهي قبيلة أخرى من الفلبين، دماغ أعدائهم.

وبالطريقة نفسها يأكل قوم الكاي من غينيا الجديدة الألمانية دماغ من يقتلوه من الأعداء ليكتسبوا قوتهم. أما الكيمبونا في أفريقيا الغربية، وعندما يرث ملك جديد العرش يقتلون أسير حرب شجاع ليأكل لحمَه الملكُ والنبلاء كي يكتسبوا القوة والشجاعة. وقد شرب القائد الشهير ماتوانا من الزولو صفراء ثلاثين من قواد قضى على شعوبهم معتقداً أن هذا يقويه. ويتصور الزولو أنه بأكلهم جلدة وسط جبهة العدو وحاجبيه يكتسبون قدرة النظر إلى العدو بثبات. وقبل أي حملة حربية كان يأخذ الميناهاسا في سيليبيس خصلاً من شعرعدو قتلوه ويغمسونها في الماء المغلي لاستخلاص الشجاعة، ثم يشرب المحاربون هذا المغلي. وفي نيوزيلندة، كان يحاول القائد، في وقت كان القائد إلهاً وكان هناك آلهة قوية وأخرى لا حيلة لها، يحاول أن يجعل من نفسه قوياً بكسب أرواح الآخرين، لذلك عندما يقتل محاربٌ رئيساً ينتزع عينيه فوراً ويبتلعهما معتقداً أن الإله يكمن في تلك الأعضاء؛ إذن فهو لم يقتل الجسم فقط بل يهيمن على روح عدوه، وبالتالي يذبح المزيد من القادة ليصبح أكثر إلهية.

أصبح من السهل علينا الآن أن نفهم لماذا رغب البدائي في تناول لحم الحيوان أوالإنسان الذي اعتبره إلهياً. عند أكل جسم الإله نكتسب قواه. وعندما يكون ذلك الإله هو إله الحنطة، تكون الحنطة هي جسمه، وإله العنب، عصير العنب دمه؛ وعندما يأكل الخبز ويشرب الخمر إنما يتناول العابد جسم الإله ودمه الحقيقيين. لذلك فإن شرب الخمر في شعائر إله العنب دايونيسوس ليس قصفاً أو عربدة بل هو عمل مقدس. لكن أتى وقت صَعُب على الإنسان العاقل أن يفهم كيف له وبأي منطق أن يفترض أنه بأكل الخبز وبشرب الخمر إنما هو يستهلك جسم الإله ودمه. ويقول سيسيرو:(عندما نسمي الحنطة سيريس والخمر باخوس، إنما نستخدم تشبيهاً بلاغياً؛ لكن هل تتخيل أن شخصاً عاقلاً يصدق أنه يقتات على الإله؟)

الفصل الثاني والخمسون
قتل الحيوان الإلهي

1ـ قتل الصقر الجراح

في الفصول السابقة رأينا كيف اعتادت الكثير من المجتمعات التي تطورت وصارت تعيش على الزراعة اعتادت على قتل وأكل الآلهة النشويين إما على شكل حنطة أو أرز أوغير ذلك، واستعارت لها أشكال حيوانات أو بشر. وبقي علينا أن نبين عادة قتل الكائنات التي تعبدها القبائل الرعوية والصيادة والزراعية. من بين الكائنات المعبودة ـ أو الآلهة، إذا ما أردنا أن نرفع من شأنها بهذا الإسم ـ التي هام بها الرعاة وقتلوها هي حيوانات بسيطة وطاهرة، ولم تكن حيوانات تجسد كائنات خارقة. لنأخذ مثالنا الأول من هنود كاليفورنيا، المصنفين في أسفل السلم البدائي. لقد هامت قبيلة أكاغتشمين بالصقر الحوام، وأقام أهلها مهرجاناً سنوياً يدعى البانيس إي **احتفال الطائر** على شرف ذلك الصقر. كان تاريخ الاحتفال معروفاً لدى عامة الناس، وفي المساء الذي يسبق الاحتفال ينصبون معبداً خاصاً يبدو على شكل دائري أو إهليلجي محاطاً بأوتاد وينصب على السياج جلد الذئب القيوط المحشو ليمثل الإله تشينغتشينيتش. ثم يحملون الطير إلى داخله في موكب قدسي ويضعونه على المذبح. تبدأ الشابات، متزوجات وغير متزوجات، بالجري جيئة وذهاباً باتجاهات فوضوية وكأنهن مذهولات، بينما يتابع الكبار من الجنسين ومعهم قائدهم مزينين بالرسوم والريش، يتابعون الرقص حول الطير هياماً به. وبعد إتمام هذه الطقوس يأخذون الطير إلى المعبد الرئيسي حيث يجتمع الجميع لمشاهدة العرض وهو موكب يرقص قواد القبيلة على رأسه. ولدى وصولهم إلى المعبد يقتلون الطير دون إراقة قطرة دم واحدة. ينزعون جلده بالكامل ويحتفظون به مع الريش كأثر مقدس لصنع رداء مهرجاني. ثم يدفنون جثة الطير في حفرة في المعبد وتجتمع النسوة

حول الضريح يَنُحْنَ بمرارة وهن يلقين عليه أنواع البذور وقطع الطعام ويزعقن نادبات:(لماذا رحلت؟ ألم يكن من الأفضل أن تبقى معنا؟ لقد صنعت العصيد مثلنا، ولو لم ترحل لما صرت بانيس.) وبعد النحيب يستأنفون الرقص ويستمرون باحتفالهم ثلاثة أيام بلياليها. ويقولون أن البانيس هي امرأة هربت إلى الجبال فحوَّلها الإله تشينغتشينيتش إلى طائر. ويعتقدون أنه على الرغم من التضحية السنوية بالطائر تعود إلى الحياة ثانيةً وترجع إلى بيتها في الجبال. كما يؤمنون أنه كلما قُتِل من هذه الطيور كلما تضاعفت أعدادها لأنهم يحتفلون كل سنة بالعديد من الكابيتان بالمهرجان نفسه، ويزداد اعتقادهم رسوخاً وهو أن كل الطيور المضحى بها هي الطير ذاته، أي الأنثى نفسها.

تساعدنا وحدة التكاثر التي يسلِّم بها أولئك الناس في كاليفورنيا على فهم الدافع وراء قتل الطائر الإلهي. إن انفصال حياة نوع حيواني عن حياة الفرد من ذلك النوع أمر بديهي بالنسبة إلينا، لكنه كان صعب الفهم بالنسبة إلى ذلك البدائي في كاليفورنيا، ولم يستطع الفصل بين حياة النوع وحياة الفرد، فكان يتصور أنه لو ترك النوع حراً لهرم ومات مثل الفرد، لهذا عليه أن يتخذ إجراءً معيناً لينقذ انقراض النوع الذي يعتبره مقدساً. وأن الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها أن يدرأ المصيبة هي قتل فرد يمشي في عروقه الدم بقوة ولم يركد في مستنقعات الشيخوخة. ويتصور أنه بتغيير مسار الحياة يجعلها أكثر حريةً ونشاطاً؛ وبالأحرى، ينشط الطائر المذبوح ويدخل دورة حياة جديدة بما فيها من حيوية الشباب ونشاطه. بالنسبة إلينا هذا التفكير وتلك العادة هما غاية في العبثية. وحصل الإلتباس نفسه بين حياة الفرد وحياة النوع عند أهالي ساموا، إذ كان لكل عائلة إلهها من نوع حيواني معين؛ مع ذلك لم يكن موت أحد هذه الحيوانات – مثلاً البومة – موتاً للإله. فهو مازال حياً ومتجسداً في جميع البومات الموجودة في هذا العالم.

2ـ قتل الكبش المقدس

تشبه تلك الشعيرة الكاليفورنية الغِرة الديانةَ في مصر القديمة، إذ يعتبر جميع أهالي طيبة وسائر سكان مصر القديمة الذين يعبدون الإله آمون يعتبرون الكبش مقدساً ولا يقدمون على التضحية به إلا مرةً واحدةً كل سنة، في مهرجان آمون حيث يقتلون كبشاً ويسلخونه ويضعون جلده على مجسم الإله. ثم ينعون الكبش

ويدفنونه في قبر مقدس. ويرجعون تفسير هذه العادة إلى أن زيوس ظهر مرةً أمام هيركيوليز مكسواً بصوف الخراف وعليه رأس كبش. لكننا لا نرى في هذا الكبش سوى إله طيبة الحيواني، كما كان الذئب بالنسبة إلى قوم ليكومبول، والعنز لقوم ميندي. بمعنى أن الكبش هو آمون نفسه. ويظهر في تماثيله بجسم بشر ورأس كبش، الأمر الذي يدل على أنه مازال في طور الخادرة الذي تمر به الآلهة قبل أن يكتمل نموها. إذن لم يُقتَل الكبش كأضحية لآمون بل كإله بحد ذاته وما يدلنا على صلته الواضحة بالكبش هو وضع جلد الكبش المذبوح على مجسمه. وربما يعود قتل الكبش إلى السبب نفسه الذي وضَّحناه عندما تحدثنا عن عادة قتل الإله بشكل عام وعادة قتل هنود كاليفورنيا للصقر الإلهي بشكل خاص. وبهذا نكتشف سبب قتل الإله الثور آبيس قبل أن يبلغ سناً معينة. كذلك لم يكن وضع حد لحياة الإله البشري إلا لحمايته من الضعف وهشاشة العمر.

هناك نقطة أخرى تستحق البحث في شعائر طيبة وهي استخدام الجلد كصورة للإله. إذا كان الإله في البداية كبشاً حياً، لابد أن تمثيله على صورةٍ، أتى لاحقاً. لكن كيف نشأت الفكرة؟ ربما كان أحد الأجوبة هو الاحتفاظ بجلد الحيوان المذبوح على أنه مقدس. ورأينا كيف يحتفظ أهالي كاليفورنيا بجلد الصقر، وجلد العنز المقتول في حقل الحصاد كممثل لروح الحنطة لأهداف خرافية عديدة. في الحقيقة كانوا يحتفظون بالجلد كرمز أو ذكرى للإله، أو ربما وهو الأرجح، لاحتوائه على جزء من الحياة الإلهية، وكل ما يجب فعله هو حشوه أو شده على إطار عادي كي يصبح صورة له. في البداية كان يتم تجديد هذه الصورة من جلد الحيوان المذبوح سنوياً. أما عملية الانتقال من الصورة السنوية إلى الصورة الدائمة فهي في غاية البساطة. رأينا قديماً كيف كانوا يقطعون شجرة أيار الجديدة سنوياً، ثم عقبها عادة الإحتفاظ بعمود أيار مع الاكتفاء بتجديد زينته سنوياً بالأوراق النضرة والزهور ووضع شجيرة نضرة على رأسه. وفي حالة الكبش، جرت الأمور بالطريقة نفسها. عند إحلال صورة الإله الدائمة بشكلها الخشبي أو المعدني مكان الجلد المحشوّ كممثل للإله، صاروا يكسون تلك الصورة بجلد الحيوان المذبوح سنوياً. وبعد أن بلغت العادة هذا المبلغ، صاروا يفسرون قتل الكبش على أنه

أضحية مقدمة لمجسم الإله، ثم أتوا بقصة مثل قصة آمون وهيركيوليس ليبرروا التضحية.

3ـ قتل الأفعى المقدسة

سنسوق مثالاً آخراً من غرب أفريقيا على القتل السنوي للحيوان المقدس والاحتفاظ بجلده. يعتبر زنوج إيسابو في جزيرة فيرناندوبو حيَّة كوبرا الكابيلا الإله الحارس القادر على نفعهم وضرهم، منحهم الغنى أو إنزال المرض والموت بهم. ويعلقون على أعلى شجرة في الساحة الرئيسة، حيةً تتدلى ورأسها إلى الأعلى، ويضعونها هناك ضمن طقس سنوي، ثم يأتون بالأطفال المولودين في تلك السنة ويجعلونهم يلمسون ذيل الأفعى. من الواضح أنهم يقصدون من هذه الملامسة وضع الأطفال في حماية إله القبيلة. وفي سينيغامبيا يتوقعون من الأصلة أن تزور كل طفل في القبيلة خلال ثمانية أيام من ولادته. أما عشيرة بسيلي وهي عشيرة من عشائر الأفاعي في أفريقيا القديمة، فكانوا يعرِّضون أطفالهم للأفاعي معتقدين أنها لا تلحق بهم الأذى ماداموا من أطفال العشيرة الحقيقيين.

4ـ قتل السلاحف المقدسة

حسب العادات في كاليفورنية ومصر وفرناندوبو، يبدو أن عبادة الحيوان ليس لها علاقة بالزراعة بل تعود إلى مجتمع الصيد والرعي. وينطبق هذا على عادة هنود الزوني في المكسيك الجديدة، الذين يعيشون الآن في قرىً مسوَّرة ويمارسون فيها الزراعة وفن الحياكة وصنع الأواني. لكن عاداتهم تختلف عن العادات السابقة. وإليكم شرحاً مفصلاً لها على لسان شاهد عيان.

" يصبح الحر قيظاً في منتصف الصيف، واعتدت الجلوس في الغرف السفلى الباردة مع أخي – أي الهندي الذي آخيته – في منزلنا الذي يعج بالأدوات البسيطة كالكير الطريف، والعملة النقدية على الخلخال والحزام والقرط والأزرار وغيرها من الزينة البدائية. ورغم بساطة الأدوات، اكتسب مهارة عالية في العمل عليها. ذات يوم وأنا أراقبه وهويعمل، مر موكب مؤلف من خمسين شخصاً بسرعة نازلاً الجبل

ثم مبتعداً نحو الغرب عبر السهل. وكان يقودهم كاهن ملوّناً جسمه ومكسواً بالصدف، ويتبعهم إله النار شولوويتسي. وبعد أن غابوا عن النظر، سألت أخي الأكبر عن معنى هذا الموكب، فقال:(إنهم ذاهبون إلى مدينة كاكا حيث يقطن الآخرون منا.) وبعد أربعة أيام، وقبيل غروب الشمس، عادوا من حيث ذهبوا يرتدون أدوات جميلة للرقص ويحمل كل منهم في ذراعه سلة ممتلئة بالسلاحف الحية ويعاملها بعناية كما تحمل الأم طفلها. وكانت بعض السلاحف البائسة ملفوفة بغطاء ناعم يبرز منها رأسها وأطرافها، وتعتلي ظهور الحجاج المزينين بالريش. كان المنظر مضحكاً فهي أشبه بالأطفال على ظهور أهليهم. وأنا أتناول العشاء في الطابق العلوي، أتى صهر الحاكم فاستُقبل بالترحاب وكأنه رسول من السماء. وكان يحمل على أصابعه المرتجفة أكثر السلاحف حركةً. مازالت الألوان على يديه وأقدامه الأمر الذي جعلني أخمن أنه كان في سفارة مقدسة. سألته:(إذن ذهبت إلى كاثلوإيلون، أليس كذلك؟) فأجابني ذلك الرجل المتعب بصوت أجش وبنغمة طويلة وهو يسقط من الإرهاق على جلود وُضِعت لأجله، ثم وضع السلحفاة بحنان على الأرض. وسرعان ما انطلقت السلحفاة بأسرع ما تعطيها أرجلها العرجاء قدرة على الفرار بحريتها. وكضيافة طوعية، قدمت العائلة طبقاً وملعقة وكوباً للشرب وراحوا يغرفون من الطبق حفنات ممتلئة من الوجبة المقدسة ويلاحقون السلحفاة في أرجاء الغرفة، في الزوايا المظلمة وخلف الرحى وحول جرة الماء وهم يصلون ويلقون على ظهرها الطعام.

وقال الرجل الذي كان يعاني من ألم في أقدامه عندما جلبها، قال بعطف:(انظروا كيف تعود إليّ؛ ياله من فضل كبير يمنحني إياه الآباء اليوم. ومرر يده بلطف فوق السلحفاة واستنشق بعمق من راحة يده التي لمستها وهو يبتهل للآلهة على النِعَم. ثم اتكأ بذقنه على يده ونظر إلى أسيرته بعينين كبيرتين حزينتين وهي تجول حوله مرفرفةً بعينيها وهي تتشبث بمخالبها على الأرض الناعمة إحياءً لذكرى مكوّنها الأصلي. وهنا تجرأت بالسؤال:(لماذا لا تتركونها تذهب أو تطعمونها أو تعطونها بعض الماء؟) فالتفت إلي الرجل ببطء وعلى وجهه مزيج من الألم مع المهانة والشفقة في حين نظرت إلي العائلة المتعبدة برعب مقدس. وقال لي الرجل أخيراً:(كم أنت مسكين يا أخي الصغير! ألا تعلم كم هي ثمينة؟ أتموت؟ لن

تموت، أؤكد لك أنها لا يمكن أن تموت.) فقلت:(بل ستموت إن لم تعطها الطعام والماء.) فقال:(لن تموت؛ بل ستغير مسكنها غداً، وتعود إلى بيت أخواتها ،) وأردف ساخراً(وكيف لك أن تعلم؟) ثم عاد إلى السلحفاة المغطاة ثانيةً وقال:(آه! يا ابنتي أو والدتي، أختي أو أخي! من يعلم أيهم أنت؟ربما كنت جدي أو جدتي!) ومع هذه الكلمات راح يبكي بعمق ويجهش مرتجفاً وكذلك فعل الأولاد والنساء، وغطى وجهه بيديه. وتعاطفاً معه على خزنه، وتراجعاً عن خطئي، رفعتُ السلحفاة إلى شفتي وقبلت صدفتها الباردة؛ ثم وضعتها على الأرض، وأسرعت في مغادرة العائلة المنكوبة الحزينة. وفي اليوم التالي، ومع الصلوات والتضرع، والريش والعطايا تم قتل السلحفاة وانتزاع لحمها وعظمها، ثم وضعوها في النهر الصغير عساها تعود ثانيةً إلى الحياة الأبدية مع رفاقها في المياه الداكنة عند بحيرة الأموات. ثم يسلخون الصَّدَفة بعناية ويجففونها ويصنعون منها خشاخيش للرقص ويغطونها بجلد ذكر الوعل. وهي مازالت مدلاة من عوارض السقف المدخَّنة في بيت أخي. وذات مرة حاول نافاجو شراءها ليستخدمها كمغرفة؛ فانهالوا عليه بتوبيخ ساخط وكادوا يطردونه من المنزل. ولو تجرأ شخصٌ وقال إن السلحفاة لن تعيش ثانيةً، لأثار كلامه سيلاً من الدموع، ولذكَّروه أنها تغير منزلها لتتابع العيش في منزل من رحلوا من أهلنا.

في هذه العادة نرى تقمص الأرواح البشرية صريحة في أجسام السلاحف. ويعتنق هنود موكوي، الذين ينتمون إلى عرق الزوني نفسه، نظرية التقمص. ينقسم هنود الموكوي إلى عشائر الطوطم كعشيرة الدب، وعشيرة الأيل، وعشيرة الأرنب البري وغيره؛ فهم يؤمنون أن أسلافهم من العشيرة نفسها كانوا دببة، أيائل وما إلى هنالك؛ وأن أفراد القبيلة تتحول بعد الموت إلى دببة أو أيائل أو ذئاب أو أرانب برية أوغيرها، حسب طوطم كل عشيرة. وكذلك ينقسم الزوني إلى عشائر تنسجم طواطمها مع طواطم الموكوي، وأحد هذه الطواطم هو السلحفاة. لذا ربما يعتبر إيمانهم بالتقمص في السلحفاة أحد أركان الإيمان بطوطمهم. ماذا إذن يعني قتل السلحفاة التي يؤمنون بوجود روح أحد الأقارب فيها؟ من الواضح أنهم يفعلون ذلك ليبقوا على اتصال مع العالم الآخر الذي فيه تجتمع أرواح الراحلين في السلاحف. وساد معتقد عام وهو عودة أرواح الموتى من حين إلى آخر إلى بيوتهم القديمة؛ وبالتالي يقوم الأحياء بالترحيب بالزائرين غير المرئيين وتقديم الولائم لهم ثم يعودون أدراجهم. في

الطقس الزوني يعود الأموات إلى مساكنهم على شكل سلاحف، وقتل السلاحف هو إحدى طرق إعادة تلك الأرواح إلى عالم الأرواح. وبهذا لا ينطبق التفسير العام الذي قدمناه لتبرير قتل الإله على عادة الزوني والذي يظل معناه الحقيقي غامضاً نوعاً ما. وليس لدينا ما يزيل هذا الغموض لاحقاً. وعلمنا أن أشكال الطقس هي جزء من شعيرة دقيقةٍ مفصلةٍ يقيمها أولئك الهنود في منتصف الصيف بهدف تأمين المطر الوفير لأجل المحاصيل. يبعثون الرسل كي يجلبوا أنفسهم الآخرين وهم السلاحف من بحيرة كوثلوولاوا التي لجأت إليها الأرواح. وعند جلب هذه الكائنات إلى الزوني، توضع في وعاء ماء ويقيم الرجال بجانبه الرقصات وهم يلبسون الزي الذي يشخص الآلهة والإلهات. وبعد الطقس تؤخذ السلاحف إلى منزلها حيث تُلتَقَط وتُعلَّق برقابها على عوارض السقف المائل حتى الصباح ثم يلقونها في أوعية تحوي الماء المغلي. أما بيوضها فتعتبر طعاماً شهياً للغاية. ونادراً ما يلمسون لحمها إلا كعلاج لأمراض جلدية. ثم يودِعون جزءاً من اللحم في النهر كوهاكوا مع خرز الصدف الأبيض والخرز الفيروزي كعطايا لمجلس الآلهة. مايؤكده هذا الوصف هو اعتبار السلاحف متجسدات للبشر الموتى لأنهم قالوا عنهم **أنفسهم الآخرون**؛ وبالفعل، ماذا يمكن أن يكونوا سوى السلاحف على اعتبارها ـ أي السلاحف ـ من البحيرة المسكونة بالأرواح. وكما يقولون في صلاتهم أثناء الرقص المُقام في طقوس منتصف الصيف أنها لأجل استجلاب المطر لمحاصيلهم، وربما كان جلب السلاحف إلى الزوني والرقص أمامها هو التشفع مع أرواح الأجداد المتجسدة في الحيوانات لاستخدام سلطتهم على ماء السماء لمنفعة ذريتهم الحية.

5ـ قتل الدب المقدس

دارت كل الأسئلة في بادئ الأمر على معنى التضحية بالدب الذي قدمه الآينو البدائيون في جزيرة يازو اليابانية وفي ساغاليان والجزء الجنوبي من جزر كوريل، لأنه من الصعب تحديد موقف الآينو من الدب. من ناحية، يسمونه كاموي وتعني الإله؛ كما يستخدمون الاسم نفسه للغرباء، إذن يدل الإسم على كائن موهوب ذي قوى إنسانية خارقة أو غير عادية. ويُقال إن (الدب هو إلههم الرئيس، فهو يلعب الدور الرئيس في ديانتهم.) (وهو الحيوان الوحيد الذي يتلقى إجلالاً لا حدود له، لكنهم

يعبدونه بشكل غير متقن.) (ما مِن شك في أن هذا الحيوان البري يثير المشاعر المؤدية إلى العبادة أكثر من قوى الطبيعة الجامدة الأخرى.) ومن الناحية الأخرى يقتلون الدببة كلما استطاعوا؛ ففي السنوات الماضية، اعتبر الآينو صيد الدببة عملاً رجولياً وطريقة ناجعة لقضاء وقت الفراغ. ويقضي الرجال الخريف والشتاء والربيع في صيد الأيائل والدببة. كما يدفعون جزءاً من ضرائبهم وإسهاماتهم على شكل جلود ويعيشون على اللحم المجفف. ويعتبر لحم الدببة أحد مأكولاتهم الثابتة التي يأكلونها طازجة أو مملحة؛ ويلبسون من جلود الدببة. وما قصده الكتاب الذين كتبوا عن عبادتهم للدببة هي بشكل رئيس عبادتهم للدببة الميتة. فعلى الرغم من أنهم لا يوفرون فرصة يقتلون فيها الدببة، إلا أنهم في أثناء عملية تشريح الذبيحة يحاولون استرضاء الإله الذي ذبحوا ممثله، وذلك عبر التبجيل الدقيق وتحيات الملاطفة. وعندما يُقتَل الدب يجلس الآينو حوله يعبرون عن إعجابهم به ويلقون عليه السلام، ويعبدونه ويقدمون هدايا إيانو. وعندما يقع الدب في الفخ أو يُجرَح بسهم يسرع الصيادون لإقامة طقس الاعتذار والاسترضاء. ويبوئون جماجم الدببة مكاناً مرموقاً في أكواخهم أو يضعونها على أعمدة مقدسة خارج الخيام ويعاملونها باحترام: كأن يريقوا البيرة المقدسة على شرفها ويقدموا السائل المسكر كرمى لها، ويخاطبونها بأسماء **كالحافظ الإلهي** أو **الآلهة النفيسة**. كذلك توضع جماجم الثعالب على أعمدة مقدسة خارج الأكواخ فهي سحر يحمي من الأرواح الشريرة ويستشيرونها على أنها وسيطة مع الآلهة. مع أنهم يقولون بشكل صريح إن الثعالب الحية لا تبجل شأنها شأن الدببة، إلا أنهم يتجنبونها قدر الإمكان لأنها حيوانات مخادعة. إذن بالكاد يصف الآينو الدب بالمقدس، وهو ليس طوطماً لأنهم لا يسمون أنفسهم دببة من ناحية، ومن ناحية أخرى يقتلونه ويأكلونه دون أي حرج. لكن لديهم أسطورة تحكي عن امرأة أنجبت طفلاً من دب، وكثير ممن يعيش منهم في الجبال يفتخرون بأنهم متحدرون من دب، ويسمَون **أبناء الدب**، ويقول أحدهم متفاخراً:(أما بالنسبة لي، أنا ابن إله الجبال، أنا أتحدر من إله مهيمن في الجبال.) والمقصود بإله الجبال هو الدب. من الممكن إذن كما يعتقد مرجعنا الأساس، المحترم ج. باتشيلور، أن يكون الدب طوطم عشيرة الآينو. لكن حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإنه لا يبرر الاحترام الذي يلقاه الحيوان من قوم الآينو.

ما يعنينا هنا هو احتفال الدب عند الآينو والذي تبدأ قصته عندما يلتقطون جروَ دبٍ قبيل نهاية الشتاء، ويأتون به إلى القرية. وإذا كان الدب صغيراً جداً ترضعه إحدى نساء الآينو، وإذا لم تتوفر تلك المرأة القادرة على إرضاعه، يطعمونه من أيديهم. في النهار يلهو الدب مع الأطفال في الكوخ ويعاملونه بمحبة صادقة. لكن عندما يكبر ويبدأ بإيلام الناس بعناقه الدبيي وخمشه، يحبسونه في قفص خشبي حيث يقيم سنتين أو ثلاث سنوات، يطعمونه فيها السمك وعصيدة مقدسة حتى يحين وقت قتله وأكله. من المستبعد ان يربوه صغيراً لمجرد استخدامه كوجبة؛ بل على الأرجح يعتبرونه فتشاً مقدساً أو كائناً سامياً. وفي يزو يقيمون هذا الاحتفال في أيلول أو تشرين الأول. وقبل إقامته يعتذر الآينو للآلهة مدعين أنهم عاملوا الدب بأفضل ما يمكنهم. وأنهم لم يعودوا قادرين على إطعامه، مما اضطرهم إلى قتله. أما الرجل الذي يقيم وليمة الدب فيدعو أقاربه وأصدقاءه في قرية صغيرة ويشارك في هذه الوليمة كل المجتمع تقريباً، حتى إنه يدعو ضيوفاً من قرىً بعيدة، ويلبي المدعوون الدعوة تحت إغراء السكر المجاني. وتكون صيغة الدعوة على الشكل التالي:(أنا، فلان الفلاني، أنوي القيام بالتضحية بشئ إلهي عزيز على قلبي وهو يعيش في الجبال. أصدقائي وسادتي، لبوا الدعوة إلى الوليمة لنتشارك معاً في متعة إرسال الإله. تعالوا.) وغندما يجتمع كل الناس أمام القفص يختارون أحدهم كواعظ يخاطب الدب ويخبره أنهم على وشك إرساله، ويأملون ألا يكون غاضباً من ذلك، ومن ثم يواسيه بطمأنته أنهم سيرسلون معه الكثير من الأغصان والخمر والكعك في رحلته الطويلة. وسمع السيد باتشيلور أحد هذه الخطابات وهو:(يا أيها الإلهي، لقد أُرسِلت إلى هذا العالم كي نصطادك. إنا نعبدك أيها الإلهي الصغير الغالي؛ نصلي فاسمع صلاتنا. لقد عانينا في تربيتك وتحملنا منك العناء لكثرة ما نحبك. الآن وقد كبرت، نحن على وشك إرسالك إلى أبيك وأمك. فعندما تصل إليهما، نرجو أن تقول فينا كلاماً طيباً، أبلغهما عن معاملتنا الجيدة لك؛ ونرجو أن تعود لنا كي نضحي من أجلك ثانيةً.) بما أنه مربوط بالحبال، يسمحون له بالخروج من القفص ويقتلونه بوابل من السهام المثلمة كي يثيروا فيه الغضب. وعندما يُنهَك في صراع لا طائل منه يربطونه إلى وتد ثم يكعمونه (يسدون فمه) ويخنقونه بوضع رقبته بين عمودين يضغطان إلى بعضهما بمساعدة كل الناس الذين يساهمون في

عصر الحيوان حتى الموت. كما يودِعُ رامٍ ماهر سهماً في قلبه بحيث لا يريق الدماء لأنهم يعتقدون أن تَقَطُّرَ الدماء على الأرض مجلبة للنحس. وخلافاً لذلك، يشرب الرجال أحياناً دمه كي يكتسبوا شجاعتة وفضائله الأخرى. وأحياناً يلطخون ملابسهم وأجسامهم بدمائه كي يضمنوا نجاحاً في الصيد. وبعد خنق الدب يسلخون جلده ويقطعون رأسه ويضعونه في نافذة المنزل الشرقية ويضعون قطعة من لحمه تحت أنفه مع كأس من مرق لحمه المسلوق، وبعض الزلابية المقدسة والسمك المجفف. ثم يصلون للدب الميت؛ ويدعونه في صلاتهم للعودة إلى هذا العالم كي يربوه ويضحوا به ثانيةً. وعندما يفترضون انتهاء الدب من أكل لحمه، يأخذ رئيس الإحتفال كأس المرق ويوزعها على الحاضرين، شخصاً تلو الآخر، صغاراً وكباراً، على كل منهم أن يذوق من المرق. يسمون ذلك الكأس **كأس الهدية** لأنه قُدِّم للدب الميت. كما يتقاسم الناس جميعاً بقية لحمه بعد طبخه بحيث يأخذ كل منهم على الأقل لقمة واحدة؛ وكل من يتهيب المشاركة يحكم على نفسه بالعزلة والطرد من عضوية الآينو. في السابق، كانوا يأكلون كل جزء من الدب باستثناء عظامه، لكن العادة الآن أصبحت أقل صرامة، إذ صاروا يسلخون الجلد عن الرأس ويضعونه على عمود مقدس طويل كصولجان خارج الكوخ ويبقى هناك لوقت غير محدود حتى تصبح الجمجمة بيضاء عارية. وهم لايعبدون الجماجم الموضوعة هناك في وقت الاحتفال فحسب، لكنهم يعبدونها مادامت هي باقية. وقد قال الآينو للسيد باتشيلور أنهم موقنون بوجود الأرواح في جماجم الحيوانات المعبودة؛ لهذا يطلقون عليها تسمية(**الحافظون الإلهيون** أو **الآلهة النفيسة**).

وقد شاهد الدكتور ب. شوبي طقس قتل الدب في العاشر من آب في كونوي وهي قرية خليج البركان في جزيرة يزو. وقد جاء في وصفه تفاصيل ممتعة لم تُذكر في الوصف السابق ويمكن اختصاره بالتالي.

لدى دخوله الكوخ وجد ثلاثين شخصاً من الأينو، نساءً ورجالاً وأطفالاً، كلهم في أفضل ملابسهم. في البداية قدم صاحب المنزل إراقةً على الموقد تقدمةً لإله النار وفعل الضيوف مثله. ثم قدموا إراقة لإله المنزل في الزاوية المقدسة للكوخ. وفي الوقت نفسه، كانت ربة المنزل، التي اعتنت بالدب، جالسة منعزلةً صامتة وحزينة، تغلبها دموعها من حين إلى آخر. من الواضح أن حزنها لم يكن متكلفاً بل ازداد عمقاً مع

تقدم الاحتفال. ثم خرج رب المنزل والضيوف من الكوخ وقدموا إراقة أمام قفص الدب. وقدموا للدب القليل من القطرات على طبق فَقَلَبَه على الفور. ثم رقصت النساء والفتيات حول القفص ووجوههن نحوه، ورُكَبهن منحنية قليلاً ثم ينهضن وينطنَّ على أصابع أرجلهن. وفي أثناء الرقص كن يصفقن ويغنين أغنية رتيبة النغم. أما ربة المنزل وأخريات ممن ربين الدببة كن يرقصن باكيات مادّات أيديهن إلى الدب ومخاطبات إياه بتحبب. أما الصغار فكانوا أقل تأثراً، إذ كانوا يضحكون وهم يرقصون. منزعجاً من الضوضاء، بدأ الدب بالهياج ضمن القفص والعواء بكرب. أما الإراقة التالية فكانت عند الصولجانات المنتصبة خارج أكواخ الآينو، وهي على ارتفاع عدة أقدام مقشَّرة الرؤوس بشكل لولبي. وأضافوا إليها خمسة صولجانات من أوراق البامبو التي تعني أن الحيوان سيعود للحياة ثانيةً. يكررون الطقوس نفسها كلما قتلوا دباً. يطلقون الدب من القفص ويلقون حبلاً حول عنقه ويقودونه إلى كوخ مجاور. يطلق الرجال وعلى رأسهم قائدهم سهاماً مزودة برؤوس خشبية. وكان على الدكتور شوبي أن يفعل الشيء ذاته. ثم يقودون الدب إلى الصولجانات ويضعون عصا في فمه، ركع تسعة من الرجال أمامه وضغطوا برقبته على عمود. وخلال خمس دقائق قضى الحيوان دون أن يصدر صوتاً واحداً. وهنا يأتي دور النساء اللواتي يرقصن متفجعات ويضربن الرجال قاتلي الدب. ثم يضعون الذبيحة على بساط أمام الصولجانات المقدسة ويضعون سيفاً وكنانة أُخِذَتا من الصولجات حول عنق البهيمة. وبما أنها كانت أنثى زيَّنَّها بقلادة وقرطين. ثم قدّمن لها طعاماً وشراباً على شكل ثريد مقدس وكعك مقدس وقدر من الشراب المسكر ساكي. الآن يجلس الرجال على بساط أمام الدب الميت ويقدمون له الإراقة ويكثرون من الشراب. أما النساء فقد وضعن الحزن جانباً وصرن يرقصن بفرح وخصوصاً المسنات منهن. وعندما تكون المتعة في ذروتها يصعد شابان وهما اللذان أخرجا الدب من قفصه، يصعدان سقف الكوخ ويرميان الكعك المقدس على أصحابهم المتدافعين وهم من الجنسين وكل الأعمار. ثم يسلخون الدب وينزعون أحشاءه ويفصلون الرأس عن الجذع الذي مازال معلقاً به الجلد. أما الدم فيأخذونه بكؤوس ويرشفه الرجال بنَهَم. أما النساء والأطفال فلا يشربونه أبداً على الرغم من أن العادة لا تمنعهم من ذلك. ويقطعون الكبد ويأكلونه نيئاً بالملح وهنا يأخذ

الأطفال والنساء حصتهم. وتؤخذ بقية اللحم إلى المنزل ويحتفظون به حتى اليوم التالي ويقسّمونه على الحضور كوليمة، كذلك قدموا الكبد والدم للسيد شيوب. ترقص الفتيات في أثناء سلخ الدب الرقصة التي رقصنها في البداية أمام الصولجانات المقدسة. في هذه الرقصة تذرف النسوة المسنات – واللواتي كن مرحات منذ هنيهة – دموعهن ويبكين بكل معنى الكلمة. وبعد استخراج النخاع من رأس الدب وبعد أكله مع الملح يعلقون الجمجمة بعد سلخ الجلد عنها بجانب الصولجانات المقدسة. ويربطون على العمود العصا التي وضعوها على الدب مع السيف والكنانة. وينزعون الكنانة بعد ساعة ويتركون العصا والسيف مكانهما. ثم يرقص النساء والرجال حول العمود ويشرب الرجال والنساء ثانيةً وبهذا ينتهي الاحتفال.

ربما كان الوصف المنشور أولاً عن احتفال الدب لدى الآينو هو الذي قدمه للعالَم الكاتب الياباني عام 1952. وهو الذي تُرجِم للفرنسية وكان على الشكل التالي: "عندما يجدون دباً صغيراً يجلبونه إلى المنزل وترضعه الزوجة. وعندما يكبر يطعمونه السمك والطيور ويقتلونه في الشتاء لأجل كبده الذي يعتقدون أنه مضاد للسم والديدان والمغص واضطرابات المعدة. إن طعمه لذيذ وهو لا ينفع أبداً إذا ما قُتل الدب صيفاً. يبدأ هذا الذبح في الشهر الياباني الأول. ولهذا الغرض يضعون رأس الحيوان بين عمودين طويلين ويعصره خمسون أو ستون شخصاً من الرجال والنساء. وعندما يموت الدب يأكلون لحمه ويحتفظون بالكبد كدواء، ويبيعون الجلد وهو عادةً أسود اللون وطوله ستة إلى إثني عشر قدماً. وحالما يُسلَخ يبدأ الناس الذين أطعموا الحيوان بالعويل عليه؛ وبعد ذلك يصنعون كعكاً صغيراً لإمتاع الأشخاص الذين ساعدوهم."

يربي آينو الساغاليان جراء الدببة ويقتلونهم ضمن طقوس مشابهة. وقد علمنا أنهم لا يعتبرون الدب إلهاً بل رسولاً يحمّلونه رسائل عديدة ليبلغها إلى إله الغابة. يحفظون الحيوان حوالي سنتين في قفص ويقتلونه ضمن احتفال يقيمونه فقط ليلاً في الشتاء. ويخصصون اليوم السابق للذبح بالنواح وتتناوب النسوة المسنات على البكاء أمامه والأنين أمام قفص الدب. ثم في منتصف الليل أو في الصباح الباكر يدلي الخطيب بخطبة طويلة أمام الدب مذكّراً إياه بالعناية التي أولوه إياها وبالطعام الجيد الذي أطعموه إياه وكيف حمموه في النهر وأمّنوا له الراحة والدفء. ويتقدم

الخطيب في الكلام قائلاً:(الآن، نحن نقيم احتفالاً عظيماً على شرفك. لاتخف! سنقتلك ونرسلك إلى إله الغابة الذي يحبك. ونحن على وشك أن نقدم لك عشاءً كبيراً، من أفضل ما أكلتَ عندنا، وسنبكي عليك جميعاً. أما الآينو الذي سيقتلك فهو أفضل رامٍ بيننا. هاهو يبكي ويطلب السماح؛ لن تشعر بشيء لأنه سيقوم بالمهمة بلمح البصر. لم نعد نقوى على إطعامك على الدوام، وأنت تدرك هذا جيداً. لقد فعلنا كل مايلزم لك، وأتى دورك كي تقتل نفسك من أجلنا. وستطلب من الإله أن يرسل لنا الكثير من ثعالب الماء والسمور في الشتاء، وفي الصيف سيرسل لنا الفقمات والسمك الكثير. لا تنس رسالتنا هذه، فنحن نحبك كثيراً ولن تغيب عن ذاكرة أطفالنا أبداً.) وبعد أن يتناول الدب وجبته الأخيرة وسط حماس المشاهدين، تبكي النسوة من جديد ويطلق الرجال صرخات مكتومة، إنه مربوط، ولن ينجو من العناء والخطر. ثم يخرجونه من القفص ويقودونه بالرسن ويجرُّونه بالاتجاه الذي يريد ثلاث مرات حول القفص ثم حول منزل الرئيس وأخيراً حول منزل الخطيب. وهنا يربطونه إلى شجرة ويعاود الخطيب تقديم الوعظ مرة أخرى وقد تطول هذه المواعظ حتى طلوع الفجر. يصرخ الخطيب:(تذكر! ها أنا أذكرك بحياتك كلها وبالخدما ت التي قدمناها لك. من واجبك ألا تنسى ما طلبناه منك. ستخبر الآلهة أن يُغْنُونا، وأن يعود صيادونا من الغابة محمَّلين بالفراء النادرة وحيوانات طيبة نأكلها؛ وأن يجد صيادونا أعداداً كبيرة من الفقمات على الشاطئ وفي البحر وأن تتشقق شباكنا تحت أوزان الأسماك. ما لنا ملاذ سواك. هاهي الأرواح الشريرة تسخر منا وغالباً ما تكون مؤذية ضارة لنا. لقد متعناك وأطعمناك؛ وها نحن نقتلك كي ترسل لأطفالنا الثروات.) يسمع الدب هذا الحديث وهو كالح وغاضب دون أي قناعة بما يقولون؛ بل يدور ويدور حول الشجرة ويعوي بامتعاض حتى تظهر أول خيوط الشمس لتضئ المشهد ويسرع رامي القوس ويطلق السهم على قلبه. لا يقدم على هذا قبل أن يرمي الهداف قوسه ويلقي بنفسه على الأرض ويفعل النساء والرجال الشيء نفسه يجهشون بالبكاء. ثم يقدمون للدب وقعة أرز وبطاطا برية ويخاطبونه بلهجة الشفقة والشكر على ما عاناه، ثم يقطعون رأسه ومخالبه ويحتفظون بها كأشياء مقدسة. أما وليمة لحم الدب ودمه فتجري على النحو التالي. كانت النسوة يُستَثْنَين من هذا الطقس لكن صرن يشاركن الرجال فيه الآن.

يشرب كل الحاضرين الدم دافئاً؛ ويسلقون اللحم، فمن الأصول ألا يشووه. وبما أن بقايا الدب ممنوعة من الدخول عبر الباب، وبيوت الآينو في ساغاليان ليس لها نوافذ، يصعد رجلٌ السقفَ وينزل اللحم والرأس والجلد من فتحة المدخنة. وهنا يقدمون الأرز والبطاطا للرأس وبجانب الطعام يضعون الغليون والتبغ وأعواد الثقاب. ويقضي العرف أن يأكل الضيوف كل الحيوان قبل أن يغادروا؛ وألا يستخدموا الملح والفلفل في هذه الوجبة، كما لا يجوز تقديم أي لقمة من اللحم للكلاب. وبعد انقضاء الوجبة يحملون الرأس إلى أعماق الغابة ويودعونه على كومة من جماجم الدببة، وبقايا احتفالات سابقة، وقد ابيضت من تعرضها للشمس.

يقيم قوم الجيلايك، وهم شعب تنغوزي من سيبيريا الشرقية، احتفالاً للدب من النوع نفسه، مرةً كل سنة في كانون الثاني. الدب هو موضوع اهتمام كل القرية ويلعب الدور الرئيس في شعائرهم الدينية. يصيدون دُبَةً ويربون صغيرها في القرية لكنهم لا يرضعونه. وعندما يصبح الدب كبيراً بما فيه الكفاية، يؤخذ من القفص ويُجَرّ في أنحاء القرية. ويقودونه أول ما يقودونه إلى ضفة النهر لأنهم حسب اعتقادهم، يأتيهم هذا السلوك بسمك وفير يكفي كل العائلات. ثم يؤخذ إلى كل بيت من بيوت القرية حيث يقدمون له السمك والبراندي وغير ذلك. و يسجد بعضهم أمام تلك البهيمة. مجرد دخوله المنزل يعني البركة؛ ويضيف بركة أخرى إذا ما عطس على الطعام المقدم له. مع ذلك يوخزونه ويزعجونه ويداعبونه باستمرار حتى يجعلوه نزقاً عضوضا. وبعد مروره على كل منزل، يُربَط إلى وتد وتطلق عليه السهام حتى يموت. ثم يقطعون رأسه ويزينونه ويضعونه على طاولة الوليمة. وهنا يطلبون السماح من البهيمة ويعبدونها. ثم يشوون لحمه ويأكلونه في أوانٍ خشبية خاصة محفورة بشكل متقن. لا يأكلون اللحم نيئاً أو يشربون دمه كما يفعل الآينو. وأخيراً يأكلون النخاع والأحشاء والجمجمة. ثم يرقص الناس رجالاً ونساءً على أنساق مثل الدببة.

وقد شاهد أحدَ هذه الإاحتفالات الرحالةُ الروسي ل. فون شرينك ورفاقه في قرية جيلايك في تيباش في شهر كانون الثاني عام 1856. من تقريره المفصل عن الطقس يمكن أن نجمع بعض الأشياء الدقيقة التي لم يلاحظها المختصرون في وصفهم. ويمكن تلخيصها على الشكل التالي. يقول أن الدب يلعب دوراً في حياة

كل الناس القاطنين في مناطق آمور وسيبيريا وكامشاتكا، لكنه يشغل الدور الأكبر عند الجيلايك. إن ما يتمتع به الدب من حجم كبير في قرية آمور، وضراوته التي يدفعها الجوع، وظهوره المستمر، كل هذا يجعله فريسة رهيبة في هذه البلاد. ولاعجب أن يشغل خَيَالَ الجيلايك ويهيمن عليهم في حياته ومِوته مع هالة من الخوف الخرافي. فمثلاً يعتقدون أنه إذا ما دخل أحدهم في عراك مع الدب، فإن روحه ترحل إلى جسم تلك البهيمة. ويرون في لحم الدب مذاقاً لا يقاوم خصوصاً عندما يكون الوحش أسيراً ويسمَّن على السمك الذي يعطي اللحم - حسب رأي الجيلايك - نكهة لذيذة. لكن للحصول على هذا الطعام اللذيذ دون التعرض للعقوبة، لابد من إقامة سلسلة طويلة من الطقوس بهدف خداع الدب الحي عن طريق التظاهر بالاحترام، واسترضاء الحيوان الميت بتقديم أتاوة بإجلال يظهرونه لروحه الراحلة. وتبدأ مؤشرات الاحترام حالما يقع الحيوان بالأسر. يأخذونه إلى القرية محفوفاً بمشاعر النصر ويضعونه بقفص ويتناوب أهالي القرية فيما بينهم على إطعامه. فرغم أن من يأسره أو يشتريه هو رجل واحد، يبقى بشكل ما من ممتلكات القرية كلها. يكفي لحمه لوليمة عامة، ومن هنا يأتي واجب الجميع في الإسهام في تربيته وهو على قيد الحياة. ويحددون الفترة التي يبقى فيها الحيوان بالأسر بالاعتماد على عمره، فيأسرون الدببة المسنة بضعة شهور، أما الجراء فتبقى مأسورة حتى يكتمل نموها. أما طبقات الشحوم على جسم الدب المأسور هي مؤشر للاحتفال الذي يقيمونه دوماً في الشتاء وعموماً في كانون الأول، وأحياناً في كانون الثاني أو شباط. وفي احتفال شهده عدة رحالة روس استمر عدة أيام ذبحوا فيه ثلاثة دببة وأكلوها. وأجبروا الدببة أكثر من مرة وضمن موكب أن تدخل كل منزل في القرية حيث يُستقبلون بالطعام والترحاب لأن إكرامهم دليل على شرف المنزل. لكن قبل البدء بجولة الدببة على القرية يلعب الجيلايك على شرفهم لعبة حبل الوثب. وقبل ليلة واحدة من قتلها يقودونها إلى نهر متجمد في رحلة طويلة في ضوء القمر. في تلك الليلة لا ينام أحد في القرية. وفي اليوم التالي بعد أن تُساق البهائم إلى ضفة نهر منحدرة، وتدور ثلاث مرات حول فتحة في الجليد يسحب منها أهل القرية مياههم، ثم يأخذونها إلى مكان معين على مقربة من القرية ويقتلونها رمياً بالسهام. وتمييزاً

لمكان القتل المقدس يحيطونها بعصي مقشرة لولبياً في رؤوسها. ويعتبر هذا الشكل من العصي رمزاً لقدسية المكان عند الآينو والجيلايك في كل الطقوس الدينية.

وعند تحضير المنزل وتزيينه لاستقبال الضيوف، يعلقون في المنزل جلود الدببة مع رؤوسها لكن لا يُدخِلونها من الباب بل عبر النافذة. وتُعلق على نوع من السقالة مقابل الموقد الذي سيشوى عليه اللحم. وعند الجيلايك يقوم بسلق لحم الدببة أكبر الرجال سناً والذين يتميزون بنساء كثيرات وذرية كبيرة، ولا يبقى للشباب والصبية دور في هذا المجال. يقومون بالمهمة ببطء ودقة وبقدسية من نوع معين. وفي الاحتفال الذي وصفه الرحالة الروس كان القِدر محاطاً بإكليل سميك من الأغصان ثم يملؤونه ثلجاً لأن استخدام الماء لطبخ لحم الدب شئ ممنوع. وبالوقت نفسه يعلّقون أمام أنف الدب معلفاً خشبياً مزيناً بأجمل الزخرفة ومحفوراً بأشكال كثيرة؛ وعلى طرف المعلف هناك حفر نافر لدب، وعلى الطرف الآخر لعلجوم. وفي أثناء تقطيع الذبيحة يضعون كل رِجل من أرجل الدب أمام الدببة، وكأنهم يطلبون إذنهم قبل وضعها في القِدر، ويُخرِجون اللحم المسلوق من القِدر بخُطّاف حديدي ويوضع في المعلف أمام الدببة كي يكونوا أول من يذوق لحمهم. كذلك يقطعون شرائح الشحم ويعلقونها أمام الدببة ثم توضع لاحقاً بمعلف خشبي صغير على الأرض أمامهم. وأخيراً يقطعون الأجزاء الداخلية من البهيمة ويضعونها في أوعية صغيرة. وفي الوقت نفسه تصنع النسوة عُصابات من خِرَقٍ مزركشة يربطونها حول أنوف الدببة تحت العينين بحيث تجفف دموع الدببة.

وحالما ينقضي طقس مسح دموع الدب يجتمع الجيلايك لالتهام لحمه كعمل جاد. كما يشرب الجميع من مرقه. الزبادي الخشبية والمناسف والملاعق التي يأكل منها الجيلايك لحم الدب ومرقه في هذه المناسبات كلها مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض وفي ذلك الحين؛ وهي مزينة بأشكال الدببة المحفورة والأدوات الأخرى الدالة على ذلك الحيوان أو ذلك الاحتفال، وعند الناس وسواس خرافي من التخلي عن تلك الأدوات. وبعد كشط كل اللحم عن العظام يعيدونها إلى القدر الذي سُلقت فيه. وبعد انقضاء الوجبة الاحتفالية، يقف رجل مسن عند باب المنزل وفي يده غصن من التنوب يضرب به ضربة خفيفة كلَّ من يخرج وقد أكل من لحم الدب أو شحمه، ربما كان هذا التصرف عقوبة على معاملتهم الحيوان المعبود. وبعد الظهر ترقص

النسوة رقصة إفرادية غريبة، الواحدة تلو الأخرى، تلقي فيها الراقصة بالجزء العلوي من جسمها، لتصبح وضعيتها غاية في الغرابة، وهي تمسك في يدها غصن تنوب أو صنجات خشبية. بينما تقوم بقية النساء بالضرب بهراوات على عمود المنزل. ويعتقد فون شرينك أنه بعد أكل لحم الدب، يحمل كبار القوم عظام الدب وجمجمته إلى مكان قريب من القرية في الغابة حيث يدفنون كل العظام ما عدا الجمجمة. وبعد ذلك تُقطع شجرة صغيرة على ارتفاع عدة إنشات عن سطح الأرض يفلعون جزعها ويقحمون الجمجمة في الفلع. وعندما ينمو العشب حولها، تغيب الجمجمة عن الأنظار وبهذا ينتهي احتفال الدب.

ويقدم لنا السيد ليو ستيرنبورغ وصفاً متوافقاً مع التقارير السابقة عن احتفالات الدببة عند الجيلايك لكنه يضيف بعض التفاصيل الدقيقة. من هذه التفاصيل أن الاحتفال يقام على شرف الأقارب الراحلين الذين يشتري ذووهم دباً أو يلتقطون جرو دب ويعلفونه سنتين أو ثلاث سنوات حتى يصبح مناسباً للذبح. ويدعى إلى تناول لحمه فقط ضيوف متميزون مؤهلون لذلك. أما المضيف وسائر أفراد القبيلة فيأكلون مرق لحمه فقط؛ لذلك يصنعون كميات كبيرة من المرق وتستهلك كلها في تلك المناسبة. أما ضيوف الشرف فهم حصراً من أنسباء المضيف أي ممن تزوج بناته ونساء أخريات من العشيرة؛ وغالباً ما يكون أحد هؤلاء الضيوف صهر المضيف، ويوكَل إليه مهمة رمي السهم على رأس الدب. ثم يُدخِل جلد الدب المقتول ولحمه ورأسه إلى المنزل من المدخنة وليس من الباب؛ ويوضع تحت رأسه كنانة مليئة بالسهام، وبجانبه التبغ والسكر وأطعمة أخرى. ومن المفترض أن روح الدب تحمل معها أرواح هذه الأشياء في رحلتها البعيدة. ويستخدمون وعاءً خاصاً لطهي لحم الدب، ويجب أن تُشعَل النار بأدوات مقدسة من حجر الصوان والفولاذ وهي من ممتلكات العشيرة، ترثها جيل بعد جيل، ولا يجوز استخدامها لإشعال أي نار سوى نار هذه المناسبة. ويضعون قسماً من كل طعام أُعِدَّ لاستهلاك الناس في هذه المناسبة في وعاء خاص، يضعونه أمام رأس الدب، ويسمون هذه الحصة **طعام الرأس**. وبعد قتل الدب يذبحون أزواجاً من الكلاب ـ كلب وكلبة في كل زوج. وقبل قطع حناجرها، يُطعِمونها ويدعونها للذهاب إلى ربها عند أعلى الجبل، كي يغيروا جلدهم ويعودوا السنة التالية على شكل دببة. وتغادر روح الدب الميت إلى الرب نفسه وهو رب الغابة الأول؛

ترحل محملة بالعطايا المُعَدَّة لها ولرعاية أرواح الكلاب وأرواح العِصيّ المقدسة المقشرة التي تعتبر شكلاً مميزاً بارزاً لمثل هذه الاحتفالات.

ويعامل الغولدي، جيران الجيلايك، الدب بالطريقة نفسها. يصطادونه أو يقتلونه وأحياناً يأسرونه حياً ويحتفظون به في قفص ويحسنون إطعامه ويسمونه أخاهم أو ابنهم. ثم يأخذونه من قفصه ضمن احتفال كبير ويستعرضونه باحترام بالغ ثم يقتلونه ويأكلونه. ويعلقون الجمجمة وعظام الفك والأذنين على شجرة لتحميهم من الأرواح الشريرة؛ ويأكلون لحمه ويتلذذون به لأنهم يعتقدون أن كل من يأكل منه يكتسب قدرة سحرية على المطاردة ويصبح شجاعاً.

أما قوم الأورتشي، وهم شعب تتغازي من منطقة آمور، فيقيمون احتفالات الدب بالمزايا العامة نفسها. عندما يلتقط أحدُهم جرو دب يصبح لزاماً عليه أن يربيه في قفص مدة ثلاث سنوات كي يقتله أمام العامة ويأكل لحمه مع اصدقائه. وعلى اعتبار أن الوليمة عامة – رغم أن من ينظمها هم أفراد – يحاول الأورتشي أن ينظموا دوراً فيما بين القرى الأورتشية لإقامة مثل هذه الولائم مرة كل سنة. عندما يُخرَج الدب من القفص، يقودونه بالحبال إلى جميع الأكواخ بمرافقة مسلحين بالرماح والأقواس والسهام. ويقدم أصحاب كل كوخ طعاماً وشراباً للدب ولمن يقوده. قد يدوم هذا عدة أيام لأنهم لا يكتفون بتلك القرية بل يذهبون إلى لقرية المجاورة. يمارسون الرياضات طوال النهار ويتفرغون للمرح الصاخب. ثم يربطون الدب إلى شجرة أو عمود خشبي ويرمي عليه الحشدُ السهام حتى يموت، ثم يشوون لحمه ويأكلونه. تشترك نساء الأورتشي على ضفاف نهر تاندجا في ولائم الدببة، أما نساء الأورتشي على نهر فاي فلايمسسن لحم الدببة على الإطلاق.

تكاد معاملة هؤلاء القبائل للدببة الأسيرة لا تختلف بشيء عن العبادة. فمثلاً يصلون له وهو حي وهو ميت؛ أمَّا ما يقدمونه من طعام ـ بما فيه لحمه بالذات – ووضعه أمام الجمجمة وقيادته عند الجيلايك إلى النهر حياً كي يضمنوا وفرة الأسماك، ونقله من منزل إلى منزل لتتبارك به كل العائلات، تماماً مثل ما يفعلونه في أوروبا من أخذ لشجرة أيار أو لممثل روح الشجرة من باب إلى باب في الربيع، كل هذا يهدف إلى تنشيط طاقة الطبيعة فيما بينهم جميعاً بلا استثناء. وما يدل على القدسية هو مشاركة الجميع باللحم والدم المقدس، خصوصاً عادة الآينو التي

تقضي أن يشارك الجميع بما يحويه الكأس الذي يوضع أمام الدب الميت، ويأتي احتفاظ الجيلايك بأوعية اللحم وطهيها على نار تُضرَم بأدوات لا تستخدم إلا في هذه المناسبات الدينية، يأتي مؤكداً لصحة هذه النظرية. ويقول المحترم جون باتشيلور بصراحة أنه لدينا من مستندات تدل على أن احترامهم الشعائري للدب هو عبادة صريحة، وهذا يعني أن الدب هو أحد آلهتهم. والواضح أن الآينو يستخدمون عبارة كاموي (وتعني الإله) كبديل عادي لكلمة دب، لكن السيد باتشيلور يقول أن الكلمة تستخدم أيضاً بمعانٍ عديدة لتدل على عدد كبير من الأشياء، لذلك لا يمكن اعتبار استخدامها مع الدب دليلاً قاطعاً على أنه إله. وقد بلغنا صراحةً أن آينو الساغاليان لايعتبرون الدب إلهاً بل رسولاً إلى الآلهة، والرسالة التي يحملونه إياها عند موته تؤكد ذلك. وينظر الجيلايك إلى الدب على أساس أنه مندوب مُحمَّل بالهدايا إلى رب الجبل الذي يعتمد عليه رخاء الناس. وفي الوقت نفسه يعتبرونه كائناً أرقى من الإنسان وأقل من الإله، ووجوده في القرية وإطعامه يدبّان البركةً خصوصاً عندما يحميانهم من الأعداد الهائلة من الأرواح الشريرة المترصدة للناس كي تسرق أشياءهم وتؤذي أجسامهم بالمرض. أما مشاركة الجيلايك والآينو والغولدي بلحم الدب ودمه ومرقه فترجح اكتسابهم لقسط من قوى الحيوان الجبارة خصوصاً الشجاعة والقوة. فلا عجب إذن من اعتباره وهَّاباً ومن معاملته باحترام ومحبة عظيمة.

ويمكن إلقاء الضوء على موقف الآينو الغامض من الدب عن طريق مقارنة بين معاملتهم للدب ومعاملتهم لحيوانات أخرى. فمثلاً يعتبرون البوم الجارح إلهاً يدافع عن الناس وينذرهم بنعيبه من الشر المحدق؛ لذلك يحبونه ويثقون به ويعبدونه بوقار كوسيط إلهي بين البشر والخالق. أما الأسماء العديدة التي ينعتونه بها فإنما تدل على ألوهيته ووساطته. وعندما تسنح لهم الفرصة، يلتقطون هذا الطير ويحبسونه في قفص ويخاطبونه بألقاب عزيزة مثل **الإله** المحبوب والعزيز **الإله** الصغير. مع ذلك يخنقونه عندما يحين الأوان ويرسلونه لأداء وظيفته كوسيط يبلغ رسالة للإله الأكبر أو للخالق نفسه. وهذا هو نص الصلاة الموجهة للبوم الجارح قبيل قتله:(يا أيها الإله المحبوب، لقد ربيناك لأننا نحبك، والآن نحن على وشك إرسالك إلى أبيك. لقد قدمنا لك الطعام والخمر والإناو والكعك؛ فخذهم إلى أبيك وسيُسر لذلك كثيراً. وعندما تصل إليه قل له:" لقد عشت فترةً طويلة بين الآينو حيث ربتني أم

أينوية وأب أينوي. وها أنا قادم إليك. وقد جلبت الكثير من الأشياء الجيدة. ورأيت أثناء حياتي في بلاد آينو الكثير من الكرب. رأيت كيف تسيطر الشياطين على بعض الناس، وكيف جرحت الحيوانات الضارية بعضهم، وبعضُهم تأذى من الانهيارات وآخرون عانوا من تحطم السفن، وهاجم المرض الكثير منهم. الناس في ضائقة كبيرة. اسمعني يا أبي، واسرع في مساعدة الآينو." إذا فعلت ذلك سيساعدنا أبوك.)

كذلك يحتفظ الآينو بالنسور في الأقفاص، ويعبدونهم على أنهم آلهة، ويسألونهم حماية الناس من الشر. مع ذلك يقدمون الطائر على أنه أضحية، وعندما يوشكون على فعل ذلك يقولون:(يا أيها الإله النفيس، أرجوك اسمع كلماتي. إنك لاتنتمي إلى هذا العالم، فموطنك هو مع الخالق وصقوره الذهبية. وبما أنك كذلك أقدمك مع الإناو والكعك وأشياء نفيسة أخرى. فاركب الإناو واصعد إلى موطنك في السماوات المجيدة. وعندما تصل، اجتمع بأندادك الآلهة، أبلغهم شكرنا لأنهم يحكمون العالم. وارجع إلينا ثانية أتوسل إليك أن تعود وتحكمنا، أيها الغالي، اذهب بهدوء.) وكذلك يبجل الآينو الصقر ويحفظونه في أقفاص ثم يضحون به. وعند قتله يصلون له قائلين:" يا أيها الإله الصقر، إنك صياد خبير، الرجاء اجعل هذا الذكاء يحل علينا." وإذا عومل الصقر معاملة جيدة في أثناء أسره وقُدِّمت له الصلوات المناسبة عند قتله، فلا بد أنه سيرسل العون للصياد.

إذن ما يسعى إليه الآينو من وراء قتل هذه الكائنات وبشتى الوسائل هو المنفعة على الرغم من أنه يعاملها على أنها إلهية. وينتظر منها حمل رسائل منه لأقاربه أو للآلهة في العالم العلوي؛ ويرجو أن يحظى بفضائلها عندما يأكل أجزاءً من أجسامها أو بأي طرق أخرى؛ ومن الواضح أنه يتطلع إلى انبعاثها جسدياً إلى هذا العالم كي يتمكن من صيدها ثانيةً ليحصل على المنافع التي حصل عليها سابقاً من قتلها. في هذه الصلاة الموجهة للدب المعبود والنسر المعبود يضعون في أذهانهم أن تلك الكائنات قد تلقت دعوة للعودة وهذا يدل على إيمانهم الواضح بالبعث المستقبلي. وإذا ساورنا الشك في ذلك يأتي السيد باتشيلور بالدليل عندما يقول:"الآينو راسخو القناعة أن أرواح الطيور والحيوانات التي تُقتَل في الصيد أو تُقدَّم كأضاحٍ ستعيش ثانيةً على الأرض في جسد محسوس كما يؤمنون أنها لم تظهر على الأرض إلا لمنفعة

تنفع بها الناس، ويتميز بهذه العقيدة صيادو الآينو الذين يقولون صراحةً أنهم يذبحون ويأكلون البهيمة كي تحل محلها بهيمة أخرى ويعاملونها بالطريقة نفسها. وفي وقت التضحية يُلقّن المصلون الصيغة التي يطلبون فيها من الحيوانات العودة كي توفّر الطعام لولائم أخرى، وكأنه شرف لها أن تُقتل وتُؤكل بهذه الطريقة، لا بل ومتعة لها أيضاً. في الحقيقة كانت تلك أفكار الناس." وهذه الملاحظات الأخيرة تشير إلى الدبية على وجه الخصوص.

ومن بين المنافع التي يتوقع الآينو الحصول عليها من قتل الحيوانات المعبودة منافع غير جوهرية على الإطلاق وهي التهام لحمها ودمها بنهم وبكميات كبيرة في الحاضر وفي مناسبات مماثلة مستقبلاً؛ ويأتي هذا التصور الممتع من إيمانه الراسخ بالخلود الروحي والبعث الجسدي للحيوانات الميتة. اعتنق الكثير من البدائيين هذا الإيمان في أنحاء كثيرة من العالم فكان سبباً في ظهور عادات طريفة. هناك أمر هام يجدر بنا أن نلحظه في الاحتفالات المقدسة عند الآينو والجيلايك والقبائل الأخرى وهو وجوب إظهار الاحترام والحزن عند قتل الدب المروض في القفص وربما كان هذا امتداداً لتمجيد شعائر مماثلة يؤديها الصياد عندما يقتل أي دب بري في الغابة. وهذا ما بلغنا صراحةً عند الجيلايك. ويقول السيد ستيرنبورغ:" إذا أردنا فهم معنى الطقس عند الجيلايك يجب أن نتذكر أولاً أن احتفالات الدببة لا تُقام، كما يُعتقَد غالباً، عند قتل الدب المنزلي بل في كل مناسبة ينجح الجيلايك في قتل دب في أثناء المطاردة. في هذه الحالات، يأخذ الإحتفال أبعاداً أضيق لكنه يحافظ على جوهره. عندما يجلبون جلدَ ورأسَ الدب المقتول يستقبلهم أهل القرية في موكب انتصار على وقع الموسيقا الطقوسية المقدسة، ويحضر الطقس ضيوف الشرف. ويوضع الدب على سقالة مقدسة ويقدم له الطعام والهدايا تماماً كما يفعلون عند قتل الدب المنزلي. وكذلك يضحُّون بالكلاب، وتحفظ عظام الدب في المكان نفسه مع علائم الاحترام نفسها التي يبدونها لعظام الدب المنزلي. إذن فالاحتفال الشتوي الكبير هو مجرد امتداد لشعيرة كانوا يؤدونها عند قتل أي دب.

هناك تناقض ظاهري ـ لم يبدُ لنا صارخاً في الوهلة الأولى ـ في ممارسة هذه القبائل التي تبجل وتكاد تؤلّه الحيوانات التي يصطادونها ويقتلونها ويأكلونها. لهذه الشعوب مبرراتها العملية لفعل ما تفعل؛ فالبدائي ليس سلبياً أو غير منطقي،

كما يبدو للمراقب من بعيد ، بل هو فكر بعمق في ما يخصُّه من القضايا ، ووضع لها بنية منطقية ، مع أن نتائجه كانت تنحرف بل وتشط أحياناً عن مقدماته ، لكن علينا ألا ننكرعليه قدرته على التأمل الطويل والصبور في بعض مسائل الوجود البشري. في الحالة التي نبحثها الآن، يُعَامِل البدائي الدببة على أنها مُسَخَّرة للإنسان، وفي الوقت نفسه يولي بعض أفرادها ولاءً يرقى إلى مستوى التأليه. وهنا علينا ألا نتسرع ونحكم عليه باللامنطقية أو التناقض بل علينا أن نجاهد لوضع أنفسنا مكانه وأن نرى الأشياء كما رآها مجرِّدين أنفسنا من الأفكار اللاحيادية التي تصبغ آراءنا حول العالم. وعندما نفعل ذلك ندرك ـ مع أن سلوكه يبدو لنا عبثياً ـ أن للبدائي تسلسلاً منطقياً منسجماً مع معطيات تجربته المحدودة. وهذا ما أنوي شرحه في الفصل القادم حيث سأحاول إظهار أن الشعائر المقدسة في احتفال الدب عند الآينو والقبائل الأخرى في شمال شرق آسيا هي أمثلة لافتة يدفع فيها البدائي، حسب مبادئه الفلسفية الغِرَّة، ثمناً للحيوانات التي يقتلها ويأكلها.

الفصل الثالث والخمسون
استرضاء الصيادين للحيوانات البرية

لم تقتصر نظرية إقامة الأرواح وخلودها عملياً على الكائنات البشرية فحسب بل تعدَّتها إلى سائر المخلوقات الحية. وبهذا يكون البدائي أكثر ليبرالية ومنطقية من الإنسان المتحضر الذي ينكر على الحيوانات صفة الخلود ويدَّعيها لنفسه. ليس البدائي متكبراً لأنه يؤمن أن للحيوانات مشاعر وذكاء كالإنسان، وتملك أرواحاً تحوم حول المكان بعد موتها أو تتجسد أو تولد ثانيةً في شكل حيواني.

يأخذ قتل الحيوان وأكله عند الإنسان البدائي، الذي ينظر إلى جميع المخلوقات الحية من منطلق تساويها مع الإنسان، طابعاً مختلفاً عن الذي يأخذه لدينا نحن لأننا نعتبر ذكاء الحيوانات أدنى بكثير من ذكائنا وننكر عليها امتلاكها للأرواح الخالدة. لذا، وحسب مبادئ فلسفته الغِرة، يعتقد البدائي الذي يقتل حيواناً أنه مُعرَّض لانتقام ينزله به الحيوان، إما كروح مُجسَّدة أو كحيوانات أخرى من النوع نفسه هي ما يعتبرها لُحْمَةً مترابطة، شأنها شأن الناس الذين تربطهم ببعضهم قرابةٌ أو بينهم عِداءُ دم، بالتالي فهي مُلزَمة بِرَدِّ الأذية التي يتعرض لها أحدها. لهذا يَتَّبع البدائي مبدأ تجنب قتل تلك الحيوانات التي ليس له دافع قوي لقتلها خوفاً من انتقامها الشرس الخطير لأحد أفرادها. التماسيح هي أحد هذه الأنواع. وبما أنها موجودة في الأقاليم الحارة التي يتوفر فيها الغذاء فقط فلا يجد البدائي سبباً قوياً لقتلها لأجل لحمها القاسي وغير سائغ الطعم. من هنا تسود بين البدائيين عادة الحفاظ على حياة التماسيح إلا إذا اضطروا لقتلها انتقاماً لحياة أحد الآدميين. فمثلاً لا يقتل الداياك في بورنيو تمساحاً إلا إذا قتل التمساحُ الإنسانَ أولاً. فيقولون متسائلين:" لماذا ارتكبت التماسيح هذا العمل العدائي في حين يمكن مجازاتها على فعلتها بسهولة؟" لكن إن حصل وأخذ تمساحٌ روحَ إنسان، يصبح لزاماً على أقاربه

الأخذ بالثأر كواجب مقدس، فيحبسون آكل الرجل في روح مسؤول عدلي يلاحق المجرم. بينما يتراجع آخرون كارهين التورط في خصومة لا تعنيهم. ومن المفترض أن يوضع التمساحُ آكل الرجل في ذمة آلهة **الإنتقام** المُنْصِفة، وعندما يقبضون على أحد التماسيح، يوجهون له التهمة ويُدان على أنه المجرم أو شريك في الجريمة.

كذلك أصلاء مدغشقر، لايقتلون تمساحاً أبداً إلا انتقاماً لأحد أصدقائهم الذين ماتوا على يد تمساح. وهم يعتقدون أن سلب حياة أحد هؤلاء الزواحف المتعمد سيتبعه فقدان لحياة بشرية حسب شريعة الأخذ بالثأر. ويصدر السكان الذين يقطنون بجانب بحيرة إيتاسي في مدغشقر بلاغاً سنوياً يصرحون فيه أنهم سيثأرون لبعض أصدقائهم بقتلهم للتماسيح، وينذرون التماسيح حسنة النية بالغياب عن الأنظار لأنها غير معنية بهذا العداء بل هدفهم هو أقاربها التي تحمل عقلية شريرة والتي قتلت آدمياً. وتعتقد الكثير من القبائل أنها تتحدر من تماسيح وبالتالي ينظرون إلى تلك الزواحف الحرشفية على أنها في مقام إخوة للإنسان. وإذا نسي أحد هذه الحيوانات نفسه وأكل أحد إخوانه البشر، يقوم قائد القبيلة، أو من ينوب عنه من كبار السن العارفين بالأصول، يقوم بدعوة عائلة المتهم إلى تسليمه ليد العدالة. ويضعون طعماً على صنارة ويلقونها في النهر أو البحيرة. وفي اليوم التالي يأتي الأخ المذنب أو أحد أفراد أسرته مجروراً نحو الشاطئ، وبعد إثبات جريمته باستنطاق دقيق يُحكَم عليه بالموت. وعلى اعتبار أن العدالة قد أخذت مجراها وتمت صيانة القانون صيانة كاملة، يقومون بالنواح على التمساح الميت ويدفنونه وكأنه أحد أقاربهم؛ كأن يبنوا له كومة تدل على قبره وينصبون حجراً كعلامة على مكان وجود رأسه.

والفهد أحد هذه الحيوانات الخطيرة التي يفضل البدائي إن يتركها وشأنها لأنه بقتله أحد أفرادها يثير عِداءَ سائر أفراد النوع. ولايمكنك أن تستجر أياً من السومطريين لالتقاط فهد أو إيذائه إلا دفاعاً عن النفس أو مباشرة بعد أن يهلك صديق أو قريب له على يد فهد. وعندما ينصب أحد الأوربيين فخاخاً للنمور يذهب أهل الديرة ليلاً إلى النمور ويبلغونها عن مكان الفخاخ ويقرُّون أنها لم توضع من قبلهم أو بموافقتهم. أما سكان الجبال بالقرب من راجامحل في بنغلادش فيكرهون كل الكره قتل النمر إلا إذا خطف نمرٌ أحد أقاربهم. يخرجون عندئذ بهدف صيد نمر

وقتله وعندما ينجحون يلقون بسهامهم وأقواسهم على الجثة ويناشدون الله معلنين أنهم لم يقتلوا النمر إلا انتقاماً لفقدان قريبهم. ويقسمون أنهم لن يهاجموا نمراً بعد أن أخذوا بثأرهم إلا إذا قامت النمور بالفعل التحرشي نفسه.

أما هنود كارولينا فلا يزعجون الأفاعي عندما يقابلونها في الطريق بل يمرون من الجانب الآخر منطلقين من إيمانهم أنهم لو قتلوا أفعى فسيقتل أقارب تلك الأفعى بالمقابل من إخوانهم وأصدقائهم وأقاربهم. لذلك يتجنب هنود السيمينول الأفعى ذات الأجراس خوفاً من تحريض روح الأفعى المجلجلة الميتة لأقاربها على الثأر. ويعتبر التشيروكي الأفعى المجلجلة ملكة قبيلة الأفاعي ويحترمونها على هذا الأساس. ونادراً ما يجاذف أحد التشيروكي في قتل أفعى مجلجلة إلا إذا اضطر إلى ذلك، وعندما يفعل، عليه أن يكفر عن جريمته بالتِماس السماح من روح الأفعى إما مباشرة أو بوساطة كاهن يؤدي مجموعة وصفات للحصول على الغفران. وإذا ما أهمل أحدهم هذه الإجراءات الاحترازية يرسل أقارب الأفعى عدداً منها للأخذ بثأر الدم وتتبع المجرم وتلسعه حتى الموت. كما لا يجرؤ أي فرد من التشيروكي على قتل ذئب مادام أنه يستطيع تجنب ذلك، لأن أقارب الذئب المقتول ستنتقم لموته وأن السلاح الذي قُتِل فيه الذئب يفقد فعاليته كسلاح منذ ذلك الحين، إلا إذا نُظِّف وأجرى عليه الطبيب بعض الرُّقى. أما من يعرف تماماً إجراءات التكفير عن الجريمة، فيُقْدِمُ على قتل الذئاب وهو مطمئن من إفلاته من العقوبة، ويمكن استئجارُه لفعل ذلك من قبل أناس يعانون من هجمات الذئاب على الماشية أو مصائد السمك. وفي جبل النوبة في شرقي السودان يمنع عليهم لمس أو إزالة أعشاش الطيور السوداء وهي شبيهة بالشحارير لأنهم يعتقدون أن الطَّيْرين الأبوين سينتقمان لهذه الفعلة الشنيعة بالتسبب بثوران رياح عاصفة تدمر المحاصيل.

لكن البدائي غير قادر على استثناء جميع الحيوانات من قائمة الصيد لديه. بل عليه أن يأكل بعضها أو يموت جوعاً، أي أنه أمام حلَّين: إما أن يهلك أو يتغلب على أوهامه الخرافية المتعلقة بقتل تلك البهيمة، فيجد نفسه مجبراً على الأخذ بالحل الأخير. وفي الوقت نفسه يفعل كل ما بوسعه لاسترضاء الضحايا وأقاربها. وحتى عندما يقتل أحدها يبدي لها احتراماً ويسعى جهده للحصول على عذرٍ لجريمته أو حتى إلى إخفاء دوره في تلك الجريمة ويَعِدُ بقايا الحيوان الميت بالمعاملة الكريمة.

وبعد تفريغ الموت من رعبه، يأمل في إقناع ضحاياه بقدَرِها واستدراج أفراد أخرى إلى المصير نفسه. فمثلاً ساد بين قوم كاتشاتكانا مبدأ عدم قتل أي حيوان بري أو بحري دون تقديم الأعذار كي لا يأخذ الحيوان الأمور على محمل السوء. ويقدمون له جوزة الأرْز وغيرها كي تظن أنها لم تكن ضحية بل ضيف في الغابة. ويعتقدون أيضاً أن هذا يمنع خجل الحيوانات الأخرى من النوع نفسه. فمثلاً بعد أن يقتلوا دباً ويقيمون وليمة على لحمه، يأتي المضيف برأس الدب أمام الجميع، ويلفه بالأعشاب ويقدمه مع شتى أنواع الكعك. ثم يضع اللوم في مقتل الدب على الروس، ويطلب من الدب أن يصب غضبه عليهم. كما يطلب من الدب أن يُعْلِم الدببة الأخرى عن المعاملة الطيبة التي تلقاها وأنهم يمكن أن يحضروا بلا خوف. وتُعامَل الفقمات وأسود البحر والحيوانات الأخرى بطقوس الاحترام عند الكامتشاتكا نفسها. كما يضعون في فم الحيوان الذي يقتلونه عساليج من العشب ويشجعون الجمجمة المكشرة ألا تخاف بل تذهب وتخبر أندادها أنه يمكنهم الإتيان وأن يُلتَقطوا ويتمتعوا بالضيافة الرائعة. وعندما يصطاد الهوتساك دباً أو يقتلونه، يقطعون رأسه ويعلقونه على شجرة. ثم يجتمعون حوله في دائرة ويظهرون له التشريفات الإلهية. ثم يهرعون إلى الذبيحة نادبين قائلين:" من قتلك؟ إنهم الروس. من قطع رأسك؟ إنه الفأس الروسي. من سلخك؟ إنه سكين صنعها الروس" ويشرحون أن الريش الذي سرَّع السهام هو ريش طائر غريب، وأنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم تركوا السهام تنطلق. وقد فعلوا ذلك لأنهم يعتقدون أن روح الدب المقتول التي تحوم حول المكان ستهاجمهم في أول فرصة وبهذه الإجراءات يهدئون من غضبها. أو أنهم يحشون جلد الدب بالتبن؛ وبعد الاحتفال بالنصر بأغاني السخرية والنصر، وبعد البصاق عليه وركله، ينصبونه على طرفيه الخلفيين ثم يقدمون له ولوقت طويل كل التبجيل الذي يليق بإله حارس. وعندما تقتل جماعة من الكورياك دباً أو ذئباً يسلخون جلده ويلبسه أحدُهم. ثم يرقصون حول الرجل المكسو بالجلد قائلين أنهم لم يقتلوه بل كان الفاعل شخصاً آخر، على الأغلب من الروس. وعندما يقتلون ثعلباً، يغلفون الجثة بالأعشاب ويطلبون منه أن يخبر أنداده عن حسن الضيافة التي تلقاها وكيف أُهدي حُلَّةَ جديدة بدلاً من حلته القديمة. وقد وافانا كاتب أحدث بتقرير أكثر تفصيلاً يخبرنا فيه أنه يؤتى بالدب الميت إلى المنزل، فتخرج النسوة لاستقباله

يرقصن ومعهن جمرات باهتياج ويفصلن رأس الدب وجلده وتلبس إحدى النسوة الجلد وترقص فيه وتستعطف الدب كي لا يغضب وأن يعامل الناس بالحسنى. وفي الوقت نفسه، يقدمون اللحم على أوانٍ خشبية للدب الميت قائلين:"كل أيها الصديق." ثم يؤدون طقساً بهدف إرسال الدب الميت، أو بالأحرى روحه، إلى منزله. ويزودونه بمؤونة الرحلة على شكل حلويات مع لحم الرنة موضوعة في كيس من الأعشاب. ثم يحشون جلده بالأعشاب ويجولون فيه المنزل الذي من المفترض أن يغادره باتجاه الشمس المشرقة. ويهدفون من هذه الطقوس حماية الناس من سخط الدب المقتول وغضب أقاربه بالإضافة إلى ضمان النجاح في رحلات صيد الدببة المستقبلية. كما اعتاد الفنلنديون محاولة إقناع الدب المقتول أنه لم يمت على أيديهم بل سقط عن شجرة أو مات بطريقةٍ أخرى، ويقيمون على شرفه جنازة يسهب في نهايتها شاعرٌ ملحمي في تقديم الولاء له ويحثه على إخبار الدببة الأخرى عن الاحترام الكبير الذي لقيه عندهم كي يحذوا حذوه ويأتوا ثم يُقتَلوا. وعندما ينجح قوم اللاب في قتل دب ويفلتون من عقوبة فعلتهم، يشكرونه لعدم إيذائه لهم ولأنه لم يكسر الهراوات والرماح التي تسببت بجروحه المميتة؛ كما يصلون له كيلا يرسل لهم الموت على شكل ريح أو أي شكل آخر. وبعد ذلك يقيمون وليمة على لحمه.

إن إجلال الصيادين للدب الذي يقتلونه منتشر في شمال العالم القديم بالكامل من مضائق بيرينغ إلى بلاد اللاب شمالي اسكندنافيا. كما يظهر إجلال مشابه في أمريكا الشمالية. كان اصطياد الدب عند هنود أمريكا حدثاً هاماً مسبوقاً بصيام وتطهير طويلين. وقبل الشروع بعملية الصيد يقدِّمون أضاحي تكفيرية لأرواح الدببة المقتولة سابقاً ويناشدونها أن تكون إيجابية مع الصيادين. وعندما يُقتَل الدب يشعل الصياد غليونه ويضعه بين شفتي الدب وينفخ في فم الدب حتى يمتلئ بالدخان. ثم يرجو الدبَ ألا يغضب من كونه قد قُتِل وألا يخذله في المطاردة لاحقاً. ثم يشوون الذبيحة كاملةً ويأكلونها بالكامل لا يتركون منها لقمة واحدة. ويلونون الرأس بالأحمر والأزرق ويعلقونه على عمود ويغالي الخطباء في مديح البهيمة الميتة. وعندما يقتل الرجل من طائفة الدببة في قبيلة أوتاوا دباً، يقدمون له وليمة من لحمه بالذات ويقولون له:(لا تحمل علينا ضغينة لأننا قتلناك. إن فيك عقلاً يميز؛ فأنت ترى أطفالنا جائعين. وهم يحبونك ويرغبون في إدخالك إلى أجوافهم. أليس مجيداً أن يأكلك

الأطفال أو القائد؟) ويُدْخِل بعض هنود نوتكا في كولومبيا البريطانية، الدب المقتول المنزلَ ويضعونه في وضعية الواقف وعلى رأسه قبعة القائد مزينةً بالأشكال ويضعون المسحوق الأبيض على فرائه. ويقدمون له صينية من المأكولات ويدْعونه إلى الطعام بالكلمات والإيماءات، ثم يسلخونه ويسلقونه ويأكلونه.

ويُظهِر الصيادون احتراماً مشابهاً لتلك الكائنات الخطيرة التي يوقعونها في الفخاخ ويقتلونها. فعندما يلقي صيادو الكافير الرماح على الفيل، يصرخون:(لا تقتلنا أيها الزعيم، لا تضربنا أو تطأ علينا أيها القائد الجبار.) وبعد موته يقدمون له الأعذار ويتظاهرون أن موته كان محض مصادفة. وإجلالاً له يدفنون خرطومه بطقس مقدس ويقولون:(الفيل هو الرب العظيم؛ وفي خرطومه تكمن قوته.) وقبل مهاجمة الفيل من قبل الماكسوسا الكافير، يصرخون بالحيوان ويطلبون منه العفو على القتل الذي سيرتكبونه ويبدون له إذعاناً كبيراً شارحين له حاجتهم لأنيابه كي يصنعوا منها الخرز. وبعد قتله يدفنون في الأرض نهاية خرطومه وبعضاً من الأشياء التي صنعوها من العاج ليبعدوا عن أنفسهم الحظ العاثر الذي يمكن أن يسبِّبه لهم. وعند بعض قبائل أفريقيا الشرقية، وعندما يقتلون أسداً، يجلبون الجثة إلى الملك الذي يقدم له الولاء ساجداً على الأرض ومارغاً وجهه على فم البهيمة. وفي بعض أنحاء أفريقيا الغربية يوثَق الزنجي الذي يقتل نمراً ويُحضر إلى القادة بتهمة قتله أحد أمرائهم. ويقدم الرجل دفاعه بأن النمر هو قائد الغابة بالتالي هو غريب. عندها، يطلقون سراحه ويكافئونه. أما النمر الميت فيُزيَّن بقبعة الملك ويُنصَب في القرية ويقيمون على شرفه رقصات ليلية. ويخاف الباغاندا خوفاً شديداً من الأرواح والجواميس المقتولة ويسترضون أرواحها الخطيرة دائماً. ولايمكن بأي شكل من الأشكال أن يُحضِروا رأس الجاموس القتيل إلى القرية أو إلى بساتين موز الجنة، بل يأكلون لحم الرأس في العراء. ثم يضعون الجمجمة في كوخ صغير يبنونه لهذا الغرض ويصبون عليه البيرة كعطايا ويصلون للروح طالبين منها البقاء في مكانها وعدم إلحاق الضرر بهم.

هناك حيوان مرعب آخر يتناول البدائيُ حياتَه بمتعة ممزوجة بالخوف والرعشة: إنه الحوت. بعد قتل الحوت يقيم البحارة الكورياك في شمال شرق سيبيريا احتفالاً جماعياً يعتمد بشكل أساسي على فكرة أن الحوت المقتول قد أتى بزيارة إلى

القرية؛ وأنه سيقيم فترة يعاملونه في أثناءها باحترام كبير، وأنه سيعود إلى البحر ليكرر زيارته في العام المقبل؛ وسيقنع أقرباءه كي يسرعوا في الزيارة وأنه سيحكي لهم عن حسن الضيافة التي لقيها هناك. على حد تفكير الكورياك، يعيش الحوت كسائر الحيوانات ضمن قبيلة أو ربما ضمن عائلة تربط أفرادَها صلةُ قرابة ويعيشون ضمن قرىً شأنهم شأن الكورياك. ويأخذون بالثأر لقتل أحدهم ويمتنون لمعروف يُسدَى إليهم. وعندما يذهب سكان جزيرة القديسة مريم إلى شمالي مدغشقر لاصطياد الحيتان، يهاجمون الحيتان الصغيرة ويطلبون العفو من الأم ويوضحون الدافع الذي دفعهم للقيام بفعلتهم وهو حاجتهم الماسة لقتل صغيرها ويطلبون منها الغوص عميقاً كيلا ترى عملية القتل وتُثار عاطفة الأمومة لديها جراء مشاهدتها لما لايروق لها. أما الصياد من قوم أجومبا وعندما يقتل أنثى فرس النهر على بحيرة أزينغو في أفريقيا الغربية، يقطع رأس الحيوان وينتزع أحشاءه وقطعة كبيرة من لحم فخذه. ويدخل بعض التجاويف عرياناً ويركع في البركة المدماة ويغسل جسمه بالكامل بدم الحيوان وبرازه وهو يصلي لروح الحيوانة كيلا تحمل ضغينة لمن قتلها ويأمل لها أمومة في المستقبل؛ ويتوسل لروحها ألا تشحن أفراس النهر الأخرى للأخذ بالثأر أو تنطح الجندول و تقلبه.

ويخشى هنود البرازيل السطو على النمر الثلجي. وعندما يوقعون أحد هذه الحيوانات في الشرك، يقتلونه ويأخذون جثته إلى المنزل في القرية. وهناك تزين النسوة الذبيحة بريش من شتى الألوان، ويضعن أساور على أطرافه ويقلن:(إنا نصلي لك ألا تثأر من صغارنا لأنهم التقطوك وقتلوك في غفلة منك. لسنا نحن من خدعك، بل خدعت نفسك. لقد نصب أزواجنا فخاً ليلتقطوا حيوانات طيبة المذاق ولم يقصدوا أبداً أن يوقعوك فيه. لذلك لاتدع روحك تشير على أقرانك بالثأر لموتك من صغارنا!) وعندما يلتقط أحد الهنود **سود الأقدام** النسر في فخ ويقتله، يأخذه إلى المنزل ويعطيه مقاماً مميزاً يعدُّونه للنسر خارج المخيم ويسمونه **مجلس النسر**. وهنا يضع الطيور على نسق على الأرض ويرفع رؤوسها على عِصيّ ويضع قطعة من اللحم الجاف في فم كل منها كي تذهب أرواح النسور الميتة إلى أقرانها وتخبرهم عن المعاملة الطيبة التي يلقونها عند الهنود. وعندما يقتل صيادو هنود أورينيكو حيواناً، يفتحون فمه ويصبون فيه بضع قطرات من شراب يحملونه عادة معهم كي تُعلِم روح البهيمة الميتة

أقرانها عن الترحاب الذي قوبلت به وتشجعهم للحصول على مثل هذا الاستقبال الحار، فتسرع للقدوم. وعندما يكون الهندي التيتوني في رحلة، ويقابل عنكبوتاً رمادياً بأرجل صفراء، يقتله لأن شراً ما سيحل عليه إن لم يفعل. لكنه شديد الحرص على ألا يسمح للعنكبوت أن يعرف أنه قتله لأن روحه ستذهب وتخبر بقية العناكب فتأتي إحداهن لتثأر لموت قريبها. لذلك عندما يسحق الحشرة يقول الهندي:(يا جدي العنكبوت، لقد قتلتك مخلوقات العاصفة.) ويصدق العنكبوت ماقيل وهو يُسحَق. وربما تذهب روحه وتخبر بقية العناكب عن خبر قتله على يد كائنات العاصفة؛ لكن لايؤدي هذا إلى أية أذية، لأنه ماذا بوسع العناكب الرمادية ذات الأرجل الصفراء أن تفعل مع كائنات العاصفة؟

لم يرغب البدائي بالبقاء على علاقة جيدة مع الكائنات الخطيرة فقط، لكن احترامه لها تناسب طرداً مع قوتها وشراستها. اعتقد آلستين البدائيون في كمبوديا أن أرواح الحيوانات الميتة تحوم حول المكان بعد موتها لذلك كانوا يطلبون منها السماح إذا ما ماتت على أيديهم، خوفاً من أن تسبب لهم الآلام ويقدمون لها أضاحي تتناسب مع حجمها وقوتها. فالطقوس التي تُقام للفيل تدوم سبعة أيام وتزدهي بأبهة كبيرة. كذلك يميز هنود أمريكا الشمالية بين كبير الحيوان وصغيره، فالدب والجاموس والقندس هي حيوانات إلهية تزودهم بالغذاء. الدب جسيم مناسب للأكل ويقيمون طقوساً يتوسلون منه أن يسمح لهم بأكله على الرغم من أنهم يعلمون بعدم رغبته بذلك. ويقولون له سنقتلك لكنك لن تهلك. أما رأسه ومخالبه فهي موضوع تقدير وإجلال. ويعاملون حيوانات أخرى باحتقار لكونها غير خطيرة مثل سلحفاة المياه العذبة، وابن عرس، وفأر الخيل... إلخ. هناك جانب تثقيفي في هذا التمييز. فالحيوانات التي يخافونها أو يأكلونها أو كلاهما تلقى طقوس الاحترام. أما الحيوانات التي لا تصلح للأكل ولا تثير بهم خوفاً لا تلقى منهم سوى الاحتقار. لقد تناولنا أمثلة عن تبجيل الحيوانات المخيفة والمأكولة. وبقي علينا أن نثبت أن تبجيلاً مشابهاً تلقاه الحيوانات غير المخيفة لكنها تكتسب قيمتها من كونها تؤكل أو لجلودها الثمينة.

عندما يلتقط صيادو سيبيريا سموراً لايسمحون لأحد برؤيته لأنه لو سمع السمور ما يُقال عنه خيراً أو شراً فلن يتمكنوا من التقاطه ثانيةً. ومعروف أن صيادي السمور

يقولون صراحة أن السمور يسمع ما يقال عنه ولو كان في موسكو. ويقول إن السبب الرئيسي لعدم جدوى صيد السمور هذه الأيام هو إرسال سمامير حية إلى موسكو حيث يُنظَر إليها بدهشة كحيوانات غريبة، الأمر الذي لا يستطيع السمور تحمله. وهناك سبب ثانوي لتضاؤل ريع السمور وهو سوء نفوس الناس إذ صار الصياد يخبئ السمور ويحتكره دون السماح لأحد أن يستفيد منه، وهذا ما لا يطيقه السمور. ويحتفظ صيادو ألاسكا بعظام السمامير والقنادس كي لا تصل إليها الكلاب مدة عام كامل ثم يدفنونها بعناية كي لا تراها الأرواح الراعية للقنادس والسمامير فترى احتقاراً في التعامل معها فلا تسمح لأحد باصطيادها أو التقاطها بعد ذلك. أما هنود كندا فلايسمحون للكلاب بقضم العظام، أو على الأقل عظام معينة من القندس. ويتحملون عناء جمعها وحفظها، وعندما يقع قندسٌ في الشبكة يرمونها في النهر. ورداً على الجيسوت، الذين يقولون بعدم معرفة القنادس بما يحل بعظامها، يرد الهنود أنهم جاهلون بالتقاط القنادس وما يقولونه مجرد ثرثرة. قبل أن يبلغ القندس مرحلة الموت الكامل تجول روحه في كوخ الرجل القاتل ويرى ما حصل لعظامه. فإذا ما أُعطيَت للكلاب تأخذ بقية القنادس خبراً بذلك ولا تسمح لأي منها أن يقع في الشرك ثانية. وإن لاحظت أن عظامها أُلقيَت في النار أو النهر، يروق لها ذلك؛ وتمتنّ للشبكة التي التقطتها. وقبل اصطياد القندس يصلُّون للقندس الأكبر ويقدمون له التبغ. وعند نهاية المطاردة يلقي الخطيب كلمة الجنازة على القنادس الميتة مادحاً فيهم روحهم وحكمتهم. ويقول:(لن تسمعوا بعد اليوم الرؤساء الذين اخترتموهم من بين القنادس المحاربة وهم يسنون عليكم القوانين. فاللغة التي يحسن الأطباء فهمها لن تُسمع ثانية في قعر البحيرة. لن تدخلوا ثانيةً في معارك مع ثعالب الماء، أعدائكم اللدودين. لن تفعلوا، أيها القنادس! لكن جلودكم ستستخدم في شراء الأسلحة، وسنأخذ لحم فخذك المُدخَّن لأطفالنا؛ وكي لا يحز الأمر في نفسك، سنحفظ عظامك من الكلاب.

أما الإلكة والأيائل فيعاملها الهنود الأمريكيون بشكليات الاحترام نفسها وللسبب نفسه. ولايمكن أن يعطوا عظامها للكلاب أو يلقوها في النار كما لا يمكن إلقاء شحمها في النار لأن أرواح الموتى ترى ما يحصل لأجسامها وتخبر البهائم الأخرى حيةً كانت أم ميتة. وإذا ما أُسيءَ استخدام أجسامها فلن تسمح لأقرانها من

النوع نفسه بأن تقع ضحية الصيد لا في هذا العالم ولا في العالم القادم. وعند التشيكويتي في الباراغوي يسأل الطبيب المريض إن كان قد رمى بعض لحم الأيائل أو السلاحف، وإن أجاب بلا، يقول له الطبيب:(هذا الذي يقتلك. لقد دَخَلَتْ روح الأيل أو السلحفاة إلى جسمك لتثأر من عمل مشين فعلته تجاهها.) ويرفض هنود كندا أكل جنين الإلك إلا إذا كان هذا عند نهاية موسم الصيد؛ وإلا رفضت الأم أن تُصطاد بسبب خجلها.

وفي جزر تيمورلاوت التي يقطنها هنود أرشيبيلاغو، يعلق الصياد جماجم جميع السلاحف التي التقطها تحت منزله. وقبل التقاط سلحفاة أخرى يقدم نفسه لآخر سلحفاة التقطها ويضع بين فكيها نبات التنوب ويصلي للحيوان الميت كي تقنع أقرانها في البحر أن يأتوا ويضعوا أنفسهم في مجال الالتقاط. وفي مقاطعة بوسو في سيليبيس الوسطى يحتفظ الصيادون بعظام جماجم الأيائل والخنازير التي التقطوها ويعلقونها بجانب الموقد في بيوتهم. ويقولون لتلك العظام:(أنتم تبكون لرفاقكم كيلا يذهب أجدادكم وأبناء إخوانكم وأولادكم.) فهم يعتقدون أن أرواح الأيائل الميتة والخنازير تمكث بقرب عظام الجماجم جاذبةً أرواح الأيائل والخنازير الحية إلى شرك الصياد. إذن يستخدم الصياد البدائي الماكر الحيوانات الميتة كطُعْمٍ يستدرج به الحيوانات الحية لمصيرها.

يحب هنود الليغوا في غرانوتشاكو صيد النعامات لكنهم عندما يقتلون إحداها ويأخذونها إلى المنزل في القرية، يتبعون إجراءات لخداع روحها الناقمة. ويعتقدون أنه عندما تنقضي صدمة الموت الأولى تستجمع الروح نفسها وتلحق بالجسم. بناءً على هذه الحسابات الحكيمة ينتف الهنود الريش عن صدر الطائر وينثرونه على خط متقطع في مسارهم إلى القرية. تقف الروح عند كل مجموعة من الريش لتتعرفه قائلة:(هل هذا كل جسمي أم جزء منه؟) مما يجعلها تتوقف مرتابة قبل أن تصل إلى قرارها في آخر المسار، فتخسر الوقت الثمين في مسيرها المتقطع بين مجموعة وأخرى، وبينما تجول روح النعامة المتشامخة والمخدوعة عبثاً حول القرية لأنها أجبن من أن تدخلها، يكون الصيادون في مأمن منها.

ويعتقد سكان الأسكيمو حول مضيق بيرينغ أن روح حيوانات البحر الميتة كالفقمة والفظ والحوت تبقى في المرارة، وأنهم عندما يعيدون المرارة إلى البحر إنما

يفسحون المجال أمام الأرواح أن تعيد تجسدها في أجسام جديدة وتتضاعف أعدادها ليصطادها الصيادون. وبناء على هذا المعتقد ينزع الصياد مرارة الحيوانات البحرية التي يقتلها ويحتفظ بها حتى المهرجان الذي يُقام مرة كل سنة شتاءً على شرف جميع الأرواح التي قُتِلَت حيواناتها ذلك العام، ويرقصون حولها ويجمعون لها عطايا من الأطعمة في قاعة الاجتماع قبل أخذها وإقحامها من ثغرة إلى الماء؛ لأن الأسكيمو البسيط يتخيل أن هذه الأرواح، عندما تكون في مزاج سعيد جراء المعاملة الطيبة التي لقيتها، تولد ثانيةً على شكل فقمات وأفظاظ وحيتان وتأتي في جماعات راغبةً بالموت على يد الصيادين.

وللأسباب السابقة الذكر تحرص القبيلة التي تعتمد في عيشها جزئياً أو كلياً على صيد السمك على معاملة السمك باحترام. يهيم هنود البيرو بالسمك الوفير الذي يلتقطونه؛ لأنهم يعتقدون أن السمكة الأولى التي صُنعَت في العالم العلوي(الذي يسمونه السماء) هي التي ولَّدت كل الأسماك من النوع نفسه، كما تحرص تلك السمكة على إرسال الكثير من ذريتها لمؤازرة قبيلتها. لذلك كانوا يعبدون السردين في منطقة يصيدون فيها السردين أكثر من أي نوع آخر؛ وفي مناطق أخرى سمك السَّفَن، وأخرى كلب البحر، والسمك الذهبي لجماله، والربيان، وفي مناطق أخرى ولحاجتهم لآلهة أكبر، يعبدون السرطان إذ ليس لديهم غيره، ويعبدون السمك الذي لا يعرفون كيف يلتقطونه أو يقتلونه. بالمختصر، يعتبرون السمك الأكثر فائدةً لهم آلهتهم. ويعتقد هنود كواكيوتل في كولومبيا البريطانية أنه عندما يُقتَل السلمون تعود روحه إلى بلاد السلمون. لذلك يحرصون على رمي بقايا الذبيحة في البحر كي تعيد الروح تجسدها في انبعاث السلمون. أما إذا حرقوا العظام فإن الروح تضيع وفيستحيل على تلك السمكة أن تنبعث من الموت ثانيةً. ويؤمن هنود أوتاوا في كندا بانتقال روح السمك إلى سمك آخر، فلا يحرقونه خوفاً من إزعاج أرواحها فتحجم عن العودة إلى أعشاشها. كما يحجم الهورون عن إلقاء عظام السمك في النار كي لا تذهب روحها وتحذّر السمك الآخر من الوقوع في الشرك إذا ما حرق الهورون عظامها. كذلك يعظ بعض الرجال الأسماكَ ويقنعونها بالوقوع في الشرك. وكثيراً ما يقصدون الواعظ الجيد لما له من أثر كبير في استدراج السمك إلى الشباك. وفي قرية من قراهم، حيث أقام المبعوث الفرنسي

ساغارد، يتفاخر واعظ السمك بفصاحته المنسقة كالورود. وكل مساء بعد العشاء حين يكون الناس في مواقعهم ويعم الصمت بينهم، يقوم بوعظ السمك. وفحوى وعظه ألا يحرق الهورون عظام السمك. وتوسعاً في الموضوع نفسه يحض ويناشد ويدعو ويتوسل للأسماك أن تأتي إلى الشرك وأن تمتلك الشجاعة وألا تخاف شيئاً على الإطلاق لأن هذا كله خدمةً لصديقاتها السمكات التي لقيت تشريفاً بعدم حرقها. ويزين السكان الأصليون في دوقية جزيرة يورك سنوياً جندولاً بالورود والسراخس ويحملونه، أو من المفترض أن يحملوه، ويضعوه على منجرف ليعوضوا الأسماك عن أقرانه التي التُقطت وأُكِلت. ومن الضروري جداً معاملة السمكة الأولى باحترام لتوصي بقية الأسماك كي تؤثر في سلوكها عندما تخبرها عن الاستقبال الجيد لأقرانها من النوع نفسه. ويعيد الماوري للبحر أول سمكة يلتقطونها ويتلون عليها صلاة تغري سائر الأسماك بالعودة والوقوع بالشرك.

وهناك حيطة أكثر شدة عند التقاط أولى سمكات الموسم. فعندما يبدأ السلمون النهري بالسباحة عكس التيار في الربيع تستقبلهم قبائل هنود المحيط الهادي في أمريكا الشمالية باحترام كبير وهي قبائل تعيش بشكل رئيسي على الأسماك. في كولومبيا البريطانية اعتاد الهنود على الخروج لاستقبال أولى الأسماك، ويخيمون في أعلى النهر ويقدمون لهم الإطراء قائلين:(أنتم السمك، أنتم السمك؛ أنتم كلكم قادة، نعم أنتم كلكم قادة.) أما قوم التلينجيت في الاسكا فيستقبلون أولى أسماك الموسم من الهليبوت بمهرجان تشريفي يتابعون بعده الصيد. في الربيع، عندما تهب النسمات اللطيفة من الجنوب ويبدأ السلمون بالسباحة إلى أعلى نهر كلامات، يرقص قوم كاروك في كاليفورنيا للسلمون ليضمنوا قدوم كمية كبيرة من الأسماك إلى شراكهم. ويذهب أحدهم ويدعو الرجل الطيب إلى الجبال ويصوم مدة عشرة أيام. ولدى عودته يهرب الناس عندما يتقدم نحو النهر ويأخذ أولى ما التُقِط من الأسماك، فيأكل بعضها ويضرم ببقية الأسماك النار المقدسة. لايمكن لأي من الهنود أخذ أي سمكة قبل أداء الرقصة ولاقبل مضي عشرة أيام حتى لو كانت عائلته تتضور جوعاً. كما يعتقد الكاروك أنه لايمكن للصياد أن يحصل على أي سلمون إذا رأى السلمون السواري التي صنع منها رمحه على جانب النهر، ما يحدو به أن يجلب السواري من أعالي الجبال. وسيكون عمل

الصياد عديم الفائدة إذا ما استخدم نفس السواري في السنة القادمة لأن سلمون السنة الماضية يكون قد أخبر عنها السلمون الصغير. وهناك سمكة يفضلها الآينو وتظهر في أنهارهم في أيار أو حزيران. ويحضِّرون للصيد باتباعهم قواعد طقوسية تطهيرية. وعندما يخرجون للصيد يلتزم الأطفال وأمهم صمتاً مطبقاً كيلا يسمع السمك أصواتهم فيهرب. وعندما تُلتَقط أول سمكة يمررونها من فتحة صغيرة في الكوخ وليس من بابه لأن السمكات الأخرى تراه عندما يمر من الباب فتهرب. هذا مايفسر جزئياً العادة التي يتبعها البدائيون وهي إدخال الذبيحة في حالات معينة عبر المدخنة أو النافذة أو فتحة صغيرة مخصصة في طرف الكوخ وليس عبر الباب.

إن السبب وراء احترام بعض البدائيين لعظام الطريدة أو للحيوانات التي يأكلونها هو اعتقادهم أن العظام ستُكسى لحماً مع مرور الزمن وبالتالي يعود الحيوان إلى الحياة ثانيةً. إذن من الواضح أن مصلحة الصياد هي في الحفاظ على العظام سليمة لأن دمارها يعني هلاك مخزون الطرائد المستقبلية. فالكثير من الهنود المنتاري يعتقدون أن عظام الثور الأمريكي الذي يذبحونه ويسلخون لحمه سيُكسى مرة أخرى بلحم جديد ويعود إلى الحياة ويسمن ويصبح جاهزاً للذبح في حزيران القادم. لذلك في سهوب أمريكا الغربية يمكن رؤية جماجم الجواميس مصفوفة في دوائر متماثلة منتظرة البعث. وبعد إقامة وليمة على كلب، يقوم الداكوتا بجمع العظام والفتات والرواسب ويدفنونها لسببين أولهما هو احترام نوع الكلاب، وثانيهما هو إيمانهم بانبعاث العظام وإنتاج حيوانات أخرى. فعندما يُقتل حيوان يضع اللاب عظامه وعينيه وقلبه ورئتيه وأذنية جانباً، وعضوه التناسلي إذا كان ذكراً، ولقمة من اللحم من كل طرف من أطرافه. وبعد أكل ما تبقى يضعون العظام وبقية الأشياء حسب ترتيبها العضوي في كفن ويدفنونها ضمن الشعائر المعتادة معتقدين أن الإله الذي ذُبح من أجله الحيوان سيكسو عظامه باللحم ويعيده إلى الحياة في عالم الأموات السفلي. وأحياناً بعد إقامة وليمة على دب يكتفون بدفن عظامه. إذن يتوقع اللاب بعث الحيوانات المقتولة في عالم آخر، فيشبهون في هذا المجال الكامتشاتكان الذين يعتقدون أن كل مخلوق حتى أصغر ذبابة سيقوم من الموت ويعيش تحت الأرض. ومن ناحية أخرى، ينتظر هنود أمريكا الشمالية بعث الحيوانات في العالم الحالي. وما يشير إلى هذا هو العادة التي يتبعونها، وخاصة

المنغوليين، وهي حشو جلد الحيوان المقتول أو نشره على إطار. أما معارضة البدائيين لتكسير عظام الحيوان الذي يأكلونه فربما تعتمد على اعتقادهم ببعث الحيوانات، أو على خوفهم من إثارة غضب الكائنات الأخرى من النوع نفسه لانزعاجها على أرواح الحيوانات المقتولة. وربما كان كره هنود أمريكا الشمالية والأسكيمو لقضم الكلاب عظم الحيوانات هو خوفهم من تكسير تلك العظام.

وبعد أن أصبح بعث كل الطرائد غير ملائم أو يشكل عائقاً، أقدم بعض الصيادين على ضرب الحيوان حتى جعله أو جعل روحه عاجزةً عن القيام والهرب. هذا هو الدافع المزعوم لممارسة صيادي الكووي في لاوس؛ لأنهم يعتقدون أن السحر الذي يتلفظون به في أثناء المطاردة يفقد مفعوله السحري وبالتالي تعود الحياة للحيوان المقتول فيهرب ثانيةً. ومنعاً لهذا يضربون البهيمة حتى العجز حالما يقتلونها. وعندما يقتل أحد الأسكيمو في ألاسكا ثعلباً يقطع أوتار كل أطرافه ليمنع روحه من تنشيط الجسد والقدرة على المشي. وليس جعل روح الذبيحة عاجزة هو الإجراء الوحيد الذي يقوم به البدائي العاقل. في الأيام الغابرة عندما كان يخرج أحد الآينو للصيد ويقتل ثعلباً في بداية رحلته، يربطه بإحكام ليمنع روحه من الانطلاق ومن تحذير أقرانه من اقتراب الصياد. أما الجيلايك على نهر آمور فيقتلعون أعين الفقمات التي يصطادونها كيلا تتعرف أرواحُ الحيوانات المقتولة على قاتليها وتثأر لموتها بتعطيل عملية الصيد.

بالإضافة إلى الحيوانات التي خاف منها البدائي لقوَّتها وشراستها، وتلك التي بَجـَّلها لفائدة يجنيها منها، هناك نوع آخر من الكائنات يرى من الضروري أن يرضيها بالعبادة أو الأضاحي. إنها الحشرات الطفيلية التي اكتسحت محاصيله ومواشيه. ولكي يتخلص منها لجأ لوسائل خرافية عديدة، ورغم أن بعضها مقصود منها تدمير أو إزعاج تلك الحشرات، أراد من بعضها الآخر استرضاءها وإقناعها بوسائل حسنة كي تترك ثماره وقطعانه. لذلك يقف فلاحو إيثونيا في جزيرة أويسيل موقف المذعور من السوسة، وهي حشرة تدمر الحبوب تدميراً. يعطونها اسماً جميلاً وإذا ما قتل طفل سوسة قالوا له:(لا تفعل ذلك؛ بقدر ما نؤذيها تؤذينا.) وعندما يجدون واحدة من تلك الحشرات يدفنونها في الأرض ولا يقتلونها. وبعضهم يضع السوس تحت حجر في الحقل ويقدم لها القمح. يعتقدون أنها بهذا ترضى وتقلل من

أذاها. ولكي يبعد أهالي ترانسلفانيا العصفور الدوري عن الحنطة، يبدأ البادر بنثر أول حفنة من البذور من فوق رأسه وإلى الوراء قائلاً:(هذا لك أيها العصفور الدوري.) ولحماية الحنطة من مهاجمة ذبابة الورق يغلق عينيه وينثر ثلاث حفنات من الشوفان وفي عدة اتجاهات. وبعد تقديم عطاياه لذبابة الورق، يصبح متأكداً من أنها لن تقترب من حنطته. وهناك طريقة ترانسلفانية لحماية المحاصيل من الطيور والبهائم والحشرات وهي أنه بعد الانتهاء من البدار، يذهب البادر من أول الحقل إلى آخره ويومئ وكأنه يبدر لكن من يد فارغة، ويقول:(إني أبدر هذا للحيوانات؛ أبدر هذا لكل طائرٍ وزاحفٍ ودابٍ وواقفٍ، لكل من يغني في الربيع، باسم الله الأب، ... إلخ.) وهناك طريقة ألمانية لتخليص البساتين من اليساريع. بعد غروب الشمس أو في منتصف الليل تجول سيدة المنزل أو أي انثى أخرى من العائلة، تجول في البستان جارَّةً مكنسة وراءها. لايمكنها الالتفات إلى الوراء، وعليها أن تظل تتمتم:(مساء الخير، يا أم اليسروع. ستأتين مع زوجك إلى الكنيسة.) ويتركون بوابة البستان مفتوحة حتى الصياح التالي.

وأحياناً عند التعامل مع الحشرات الطفيلية يهدف المزارع إلى تحقيق اعتدال وسطي بين الصرامة الزائدة والتسامح الضعيف، بين اللطف والخشونة، موازناً بين القسوة والرحمة. وهناك دراسة إغريقية قديمة تنصح المزارع أن يخلص أرضه من الفئران بالطريقة التالية. يأخذ المزارع صفحة من الورق ويكتب عليها مايلي:(أناشدكم أيها الفئران الموجودة في الحقل ألا تؤذوني أو تجعلوا فئراناً أخرى تفعل ذلك. أعطيكم ذلك الحقل ـ ويشير بعيداً مسمياً الحقل ـ؛ وإذا التقطتكم ثانية في حقلي، وحق أم الآلهة، لأقطعنكم إلى سبع قطع.) ثم يثبت المزارع الورقة على حجر عادي في الحقل قبل شروق الشمس مع الحرص على إبقاء الجانب المكتوب إلى الأعلى. وفي الأرديني يقولون أنه للتخلص من الجرذان عليك أن تكرر الكلمات التالية: أيها الجرذان ذكوراً وإناثاً، أناشدكم بالله أن تخرجوا من منزلي، وبعيداً عن مقامي، وأن ترحلوا إلى المكان الفلاني حتى نهاية أيامكم. ثم تكتب هذه الكلمات على قطع من الورق وتطويها وتضع واحدة تحت الباب الذي تدخل منه الجرذان والأخرى على الطريق الذي تسلكه. ويجب القيام بهذه التعويذة عند شروق الشمس. ومنذ عدة سنين خلت بلغنا أن مزارعاً أمريكياً كتب رسالة

مهذبة للجرذان يخبرها أن محصوله ضعيف ولا يكفيه لذلك الشتاء وأنه كان لطيفاً معهم وقال لهم إنه من الأفضل لهم أن يغادروا إلى بستان جار يملك الكثير من الحبوب. ثم ثبّت هذه الوثيقة على عمود في الحظيرة كي تقرأها الجرذان.

وأحياناً يمكن بلوغ الهدف المرجو عن طريق معاملة فرد أو فردين من الحيوانات البغيضة معاملة راقية بينما تُعامَل بقية الأفراد معاملة لا تعرف الشفقة. في بالي، الجزيرة الهندية الشرقية يلتقطون الفئران التي تخرب الحقول بأعداد كبيرة ويحرقونها بنفس الطريقة التي احترق فيها الموسم. لكنهم يتركون على قيد الحياة اثنتين ويضعونهما في كيس صغير من الكتان. ثم ينحني الناس أمامهما وكأنهما إلهان ثم يحررونهما بعد ذلك. وعندما ترهق الطيور والحشرات مزارع داياك البحرية أو إلبان في ساراواك، يلتقطون عينة من كل نوع من الطفيليات (مثلاً سوسة واحدة، جندب واحد وهكذا) ويضعونها في قارب صغير من اللحاء مزود بالمؤونة ويتركون القارب الصغير يرحل بمسافريه البغيضين إلى أسفل النهر. وإذا لم تجد هذه الطريقة نفعاً يلجأ الداياك إلى ما يعتبرونه الطريقة الفعالة. يصنعون تمساحاً من الصلصال بالحجم الطبيعي ويضعونه في الحقل ويقدمون له الطعام، روح الأرز، واللباس ويذبحون له طيراً وخنزيراً ويضعونهما أمامه. وبعد هذه العناية يلتهم الحيوان الضاري كل الكائنات التي تأكل المحصول. وفي ألبانيا، إذا هاجم الجراد أو الخنافس الحقول أو كروم العنب تتجمع النسوة بشعورهن الشعثة وتلتقطن بعض الحشرات وتمشين بها في جنازة إلى النبع أو الجدول ثم يرمينها في الماء. ثم تغني إحدى النسوة:(أيها الجراد والسوس لقد تركتمونا وأنتم أيتام.) ثم تكرر بقية النسوة الترنيمة على شكل كورس. وبعد قيام مأتم بعض الخنافس والجراد، يأملون بجلب الموت لها جميعاً. وعندما يغزو اليسروع الكروم أو البساتين في سوريا، تجتمع العذارى وتأخذ إحداهن يسروعاً وتجعل أخرى نفسها أماً له. ثم يولولن ويدفنه. ثم يأخذن الأم إلى مكان اليساريع ويعزينها كي تغادر اليساريع الحقل.

الفصل الرابع والخمسون
أنواع الأسرار المقدسة للحيوانات

1ـ مقدسات المصريين والآينو

صرنا الآن في موقع نفهم فيه السلوك الغريب تجاه الدببة عند الجيلايك والآينو. وقد بينا أن الخيط الدقيق الذي يفصل بين الإنسان والحيوان لم يكن مرئياً لدى البدائيين. فكان يبدو له أن الكثير من الحيوانات متساوية معه، إن لم تكن متفوقة عليه، ليس بالقوة الغاشمة فقط بل بالذكاء؛ وإذا كان الخيار أو الضرورة قد قادته إلى قتلها، فكان يشعر لزاماً عليه واحتراماً لسلامته، أن يبدي لها كل ما بوسعه من ودّ، ليس للأحياء منهم فقط بل لأرواح الميتين أيضاً وكل الحيوانات من النوع نفسه التي تستاء من الإساءة الموجهة لنوعها تماماً كما تثأر القبيلة البدائية للأذية أو الاحتقار الموجَّه لأيٍ من أفرادها. ورأينا كيف يلجأ البدائي إلى عدة أدوات للتكفير عن خطيئته تجاه الحيوان الضحية وذلك بإظهار الإجلال لأفراد معينين من ذلك النوع من الحيوانات، لأنه يعتبر أن هذا التصرف من شأنه أن يسوي الموضوع دون عقاب يلقاه ممن يقابلهم من النوع نفسه. ربما يفسر هذا المبدأ موقف الآينو من الدببة، موقفاً كان للوهلة الأولى محيراً ومتناقضاً. تؤمِّن الدببة بلحمها وجلدها المأكل والملبس، لكن بما أنها ذكية وقوية، فمن الضروري أن يقدم البدائي لها حتى ترضى تكفيراً عما خسره نوعها من أرواح. ويكون هذا التكفير عن طريق تربية صغارها ومعاملتها معاملة احترام وهي حية، وإظهار علائم الأسى والإخلاص عند قتلها. وبهذا ترضي الدببة الأخرى فلا تثأر لنوعها بمهاجمة القاتلين أو بهجران البلد، الأمر الذي يحرم الآينو من وسائل العيش.

يمكن تصنيف العبادة البدائية للحيوانات إلى نوعين، وهما بشكل ما على طرفي نقيض. من ناحية تُعبد الحيوانات فلا يأكلونها ولا يقتلونها. ومن الناحية

الأخرى، تُعبد الحيوانات لأنها تُقتل وتؤكل. في كلا الصنفين يُعبد الحيوان ويبجل لما يقدمه للبدائي من فوائد، إيجابية كانت أم سلبية. في الحالة الأولى ـ أي عدم قتله ـ تأتي الفائدة إما على شكل حماية أو نصيحة أو مساعدة يقدمها الحيوان للإنسان، أو على شكل امتناع عن أذية يكون الحيوان قادراً على القيام بها. أما في النوع الآخر فتأخذ المنفعة شكل الاستفادة من لحم الحيوان وجلده. هناك طباق من نوع معين بين نوعي العبادة، في أحدهما يبجل الحيوان فلا يؤكل، وفي الآخر يبجل لأنه يؤكل. لكن يمكن أن يمارس المبدأين الشعبُ نفسه كما هو حال هنود أمريكا الشمالية الذين يبجلون ظاهرياً طوطمهم ولايقتلونه، ويبجلون الحيوانات والأسماك التي يعيشون عليها. أما أصلاء أستراليا فيمارسون الطوطمية بأكثر الأشكال بدائيةً؛ لكن ليس هناك مايدل ـ كما هو الحال عند هنود أمريكا الشمالية – على محاولتهم استرضاء الحيوانات التي يقتلونها ويأكلونها. ولتأمين موارد وفيرة من الطرائد، يتبنى الأستراليون، ليس الاسترضاء بل السحر التعاطفي، وهو مبدأ يلجأ إليه هنود أمريكا الشمالية لبلوغ الهدف نفسه. يمثل الأستراليون مرحلة أقدم من هنود أمريكا في التقدم البشري، وبهذا قبل أن يفكر الصيادون بعبادة الطريدة بهدف توفير أعداد كبيرة منها، لجؤوا إلى لسحر التعاطفي لبلوغ الهدف نفسه. وهذا ما يدل على أن السحر التعاطفي هو أقدم الوسائل التي اعتمدها الإنسان في تطويع قوى الطبيعة لحاجاته.

وتمشياً مع نوعي عبادة الحيوانات هناك نوعان من العادات التي يقتل البدائيون فيها الإله الحيوان. في النوع الأول يبجلون الحيوان ولا يقتلونه ويأكلونه إلا نادراً في مناسبات مقدسة. وقد عرضنا أمثلة تدل على مثل هذه العادات. أما النوع الثاني، الذي يُقتل فيه الحيوان، فيمثل قتلُ فرد من النوع قتلاً للإله فيُكَفَّر عن القتل بالذبائح والاستغفار خاصة إذا كان الحيوان قوياً وخطيراً. وبالإضافة إلى هذا الاستغفار العادي اليومي هناك استغفار سنوي يختارون فيه أحد أفراد النوع يقتلونه ضمن مظاهر الاحترام والإخلاص. الواضح أن نوعَي القتل المقدس اللذين يمكن تسميتهما من قبيل التمييز، مصريٍ وآينوي، يحيران المشاهد. وقبل أن نحدد إلى أي فئة ينتمي القتل المقدس، علينا أولاً أن نحدد إن كان الحيوان من النوع الذي يُقتَل أم لا. فإن كان يُقتل إذن هو من نوع التقديس المصري، وإن كان محرم قتله هو من النوع الآينوي.

هناك أمثلة عن نوعي التقديس في ممارسة القبائل الرعوية. يقول أدولف باستيان:(بما أن القبائل الرعوية مضطرة أحياناً لبيع قطعانها للغرباء الذين يعاملون العظام باستهتار، تحوّل تلك القبائل العبادةَ من عبادة القطيع إلى عبادة خروفٍ منه يركزون عليه القدسية. يأكلونه بقدسية ضمن العائلة في مائدة مستديرة مع الحرص على إغلاق الباب، ثم يعاملون العظام معاملة احترام طقوسية مع قول كلام محدد دقيق لرأس كل قطيع كممثل للقطيع كله. تنتشر هذه الولائم عند العديد من الشعوب، خاصة شعوب الكاوكاسوس. فمثلاً يأكل رعاة أبتشاسي في الربيع وليمة من لحم الخاصرة، والهراوات في أيديهم، ويعتبر هذا قدسية بالإضافة إلى تعاهد بتبادل المساعدة. لأن أقوى العهود هو الذي يكون مصحوباً بأكل مادة مقدسة، فقول الكذب لن ينجو من انتقام الآلهة لأن الطعام يدخل الجسم ويمتصه.) هذا النوع من التقديس هو آينوي تكفيري لأنه يعوض النوع عن سوء استخدام بعض أفراده. وهناك تكفير يعتمد على المبدأ نفسه لكنه يختلف في التفاصيل. إنه كفارة قوم الكالموك للأغنام سيما وأن لحمها هو أحد أغذيتها الدائمة. اعتاد أغنياء الكالماك على التضحية بكبش أبيض يسمونه كبش السماء أو كبش الروح. لايبيعونه ولايجزونه حتى يكبر. ويأمل صاحبه بتقديس كبش جديد من بعد أن يُقتل القديم ويدعو على لحمه الجيران. وفي يوم محظوظ وغالباً ما يكون في الخريف حين تكون الأغنام سمينة، يقتل الساحر كبشاً كبيراً بعد رشه بالحليب. يأكلون لحمه ويحرقون عظمه مع جزء من شحمه على فحم المذبح، ويعلقون جلده مع الرأس.

إليكم مثال على التقديس من النمط المصري. التودا، شعب رعوي في جنوب الهند، يعيشون بشكل رئيس على حليب الجاموس. ويعتبرونه إلى حدٍ معين مقدساً ويعاملونه بلطف يرقى إلى الهيام. لايأكلون لحم أنثى الجاموس على الإطلاق، وعدم أكل لحم ذكر الجاموس قاعدة عامة لها استثناء وحيد. يجتمع رجال القرية على قتل وأكل عجل لم يتجاوز الشهر من العمر. يسحبونه إلى معتزل مظلم في الغابة ويقتلونه بالضرب بهراوة مأخوذة من شجرة مقدسة. ثم يوقدون ناراً أضرموها عن طريق فرك العِصيّ، ويشوون العجل على جمر شجرة معينة، ويأكله الرجال فقط مع استبعاد النساء من ذلك التجمع. هذه هي المناسبة الوحيدة التي يؤكل فيها لحم الجاموس. أما قبيلة المادي أو المورو من أفريقيا الوسطى، فتشكل الماشية ثروتهم

الأساسية رغم ممارستهم الزراعة. يقتلون خروفاً بقدسية في مناسبات مقدسة. وهذا الدكتور فيلكين يصف لنا هذه العادة:(يتبعون عادة مميزة في موعد معين مرةً كل سنة. ولست واثقاً من المعنى المقصود منه بالضبط. لكن على ما أعتقد إنه يحرر عقول الناس لأنهم يظهرون قبله حزناً عميقاً ويظهرون فرحة كبيرة في أثناء أداء الطقس، وهو على الشكل التالي: يحتشد الناس من جميع الأعمار بأعداد كبيرة ويجلسون حول حلقة من الحجارة ترتفع بجانب الطريق وهو ممر ضيق جداً. ثم يجلب فتى خروفاً مختاراً بعناية ويسحبه أربع مرات حول الناس المجتمعين. وفي أثناء مروره يقتلعون بعضاً من صوفه ويضعونه في شعرهم أو في مكان آخر من جسمهم. ثم يقاد الخروف إلى الحجارة ويقتله رجل ينتمي إلى الكهنة والذي يأخذ بعضاً من دمه ويرشه على الناس. ثم يرش نفسه. ويقوم بوضع حلقة صغيرة من الدم على أسفل عظم الصدر عند الأطفال وعلى أعلى صدر النساء والفتيات، ويلمس الرجالَ على كتفيهم. ثم يتابع تفاصيل الطقس حاضاً الناس على عمل المعروف... وفي أثناء خطبته أو محاضرته، وهي طويلة جداً، ينهض الناس ويضع كل منهم ورقة شجر على الدائرة الحجرية أو بجانبها ويغادرون ومؤشرات الغبطة على وجوههم. وتُعلق جمجمة الخروف على شجرة بالقرب من الحجارة ويعطى لحمه للفقراء يأكلونه. يُقام هذا الطقس على نطاق أضيق في أوقات أخرى. وإذا كانت العائلة في مشكلة كبيرة مثل المرض أو ضيق الحال، يأتيهم الأصدقاء والأقارب ويُقتل خروف عندهم؛ لأن هذا على حد اعتقادهم يمنع تزايد الشر. وتسود العادة نفسها عند رحيل صديق أو في مناسبات فرحة مثل عودة ابنٍ إلى وطنه بعد غياب طويل.) يبدو من الحزن الذي يظهرونه عند القتل السنوي للحَمَل أن هذا الحيوان مقدس أو إلهي، يتفجع على موته العابدون، تماماً مثل موت الصقر الجراح عند أهالي كاليفورنيا، وموت كبش طيبة عند المصريين. أما تلطيخ العابدين بدم الحَمَل فهو نوع من التشارك بالإله؛ أي أن الدم أداة انتقال الحياة الإلهية بشكل خارجي، بدلاً من الانتقال الباطني عندما يأكلون اللحم أو يشربون الدم.

2ـ مواكب الحيوانات المقدسة

لقد ضربنا مثالاً على شكل التشارك الذي يأخذون به حيواناً مقدساً من منزل إلى منزل كي ينعم الجميع بالتأثير الإلهي. وكان المثال عن عادة الجيلايك الذين يأخذون دباً في نزهة في القرية قبل ذبحه. والمثال الآخر هو الأفعى المقدسة عند قبيلة الأفاعي، بنجاوب. مرة كل سنة، في شهر أيلول تعبد جميع الأديان والطوائف الدينية المنغلقة تعبد الأفعى مدة تسعة أيام. وفي نهاية آب يصنع الميراسان، وخاصة قبيلة الأفاعي، حنشاً من خيز محلى ويلونونه بالأسود والأحمر ويضعونه على غربال ويجولون به القرية. يقولون عندما يدخلون أي منزل:(الله معكم! ويبعد عنكم المرض! ويرفع كلمة نصيرنا!) ثم يقدمون الغربال والحنش قائلين:(كعكة صغيرة من الطحين؛ قطعة صغيرة من الزبدة؛ إن أطعت الحنش، تعِش أنت وأهلُك!) والمفروض تقديم الكعك والزبدة في أثناء التلفظ بهذه العبارات الحصرية، لكن نادراً ما يحصل هذا. ويعطي كلٌ منهم شيئاً مثل قطعة من عجين محلى أوحفنة من قمح. وفي المنزل الذي أتت إليه أو غادرت منه عروس جديدة، أو وُلِد فيه صبي، يعطي أصحاب المنزل روبية وربع، أو بعض الملابس. وأحياناً يقول حاملو الحنش:

أعطوا الحنش قطعة ملابس، يرسل لكم عروساً نشيطة.

وبعد زيارة المنازل كلها يدفنون الحنش العجيني وينصبون فوقه قبراً صغيراً. وفي أثناء التسعة أيام التالية تذهب النسوة إلى هناك ليتعبدن. يأتين بحوض من خثارة اللبن، ويقدمن كمية قليلة منها لقبر الأفعى، راكعات على الأرض، لامسات الأرض بجباههن. ثم يذهبن إلى منازلهن ويقسِّمن بقية الخثارة على أطفالهن. ليس حنش العجين سوى بديل عن الحنش الحقيقي؛ ففي المناطق التي تكثر فيها الأفاعي كالأدغال يعبدون الأفاعي وليس الحنش العجيني. وبالإضافة إلى هذه العبادة السنوية، وبالطريقة نفسها يتعبد كلُّ الناس في قبيلة الأفاعي - وهي واسعة الانتشار في البنجاوب ـ في صباح اليوم الأول من الشهر القمري. لايُقدِم أيٌّ منهم على قتل الأفعى، ويقولون أن لدغتها لا تلحق بهم أي ضرر. وإذا ما وجدوا أفعىً ميتة غطوها بالقماش وشيعوها في جنازة متكاملة الطقوس.

وقد انتشرت في أوروبا ولوقت ليس بالبعيد طقوس مشابهة لطقوس عبادة الأفاعي عند الهنود. ولاشك في إنها تعود إلى الوثنية البدائية. ومن أشهر الأمثلة على

ذلك هو صيد النمنمة، طائر صغير جداً. وقد اعتبر الكثير من الشعوب الأوربية مثل الإغريق القدامى، الرومان، الإيطاليين المعاصرين، الإسبان، الفرنسيين، الألمان، الهولنديين الدانمركيين، السويديين، وأهالي ويلز، أعتبروا النمنمة ملكاً، الملك الصغير، أو ملك السياج وغيره، واعتبروه واحداً من الطيور التي يسبب قتلها حظاً تعساً. ويعتقد الإنكليز أنه لابد لقاتل النمنمة أن يُكسر له عظم أو تأتيه مصيبة في غضون السنة القادمة، أو تحلب الأبقار حليباً مخلوطاً بالدم. وفي أسكتلندة يسمون أنثى النمنمة **سيدة دجاج السماء** ويقول الأطفال:

اللعنة، اللعنة، عشر لعنات لعناء

تلعن سيدة دجاج السماء!

وفي سنت دونان في بريتاني، يعتقد الناس أنه إذا ما لمسوا نمنمة صغيرة في عشها ستصيبهم نيران القديس لورانس فتسبب بثوراً في الوجه والأرجل وغيرها. وفي مناطق أخرى من فرنسا يُعتقد أنه إذا ما قتل شخص نمنمة أو خرب عشها يصيب منزله البرق، أو تذوي أصابعه التي استخدمها في فعلته وتسقط، أو على الأقل تشوه، أو تعاني ماشيته من أقدامها.

برغم هذه المعتقدات، سادت عادة قتل النمنمة السنوية في بريطانيا وفرنسا. وفي جزيرة مان وحتى القرن الثامن عشر سادت هذه العادة في أعياد الميلاد، أو بالأحرى في الرابع والعشرين من كانون الأول. قبيل المساء يبدأ الخادمون عطلتهم، لا ينامون تلك الليلة بل يتمشون ويتحدثون حتى تقرع الأجراس في جميع الكنائس معلنة بداية العام الجديد. وعندما ينتهون من الصلاة يذهبون للبحث عن نمنمة، وعندما يحظون بواحدة يربطونها إلى قمة عمود طويل منشورة الجناحين. ويحملونها ضمن موكب لكل منزل وهم ينشدون ما يلي:

لقد اصطدنا النمنمة لأبي الحناء الكرار

لقد اصطدنا النمنمة لجان السهيان

لقد اصطدنا النمنمة لأبي الحناء الكرار

لقد اصطدنا النمنمة لكل الناس.

وعندما ينتقلون من بيت إلى بيت ويجمعون ما يتيسر من المال، يضعون النمنمة على تابوت ويحملونها في موكب إلى ساحة كنيسة الأبرشية حيث يحفرون قبراً ويدفنونها بكل قدسية وهم ينشدون في اللغة المانكية ترانيم يسمونها ناقوس النعي. وهنا تبدأ احتفالات عيد الميلاد. تنتهي مراسم الدفن ويتجمع الناس خارج الكنيسة على شكل حلقة ويبدؤون بالرقص على وقع الموسيقا.

ويحكي كاتب من القرن الثامن عشر عن استمرار الإيرلنديين باصطياد النمنمة في عيد الميلاد وفي اليوم التالي أي يوم ستيفين ويجولون بها ويعلقونها من رجلها بين طوقين متصالبين في زاوية قائمة ويقيمون موكباً في كل قرية رجالاً ونساءً وأطفالاً يغنون أغنية صيد إيرلندية يدل فحواها على أن النمنمة ملك الطيور. وحتى يومنا هذا مازال صيد النمنمة جارياً في بعض أنحاء مينستر وكوناوت. إذ يصطاد الصبية نمنمة ويقتلونها في يوم الميلاد أو يوم ستيفين ويربطونها إلى كتلة من البهشية أو اللبلاب في أعلى عصا مقشة، وفي يوم ستيفين يتجولون من بيت إلى بيت وهم يغنون:

النمنمة، النمنمة ملك كل الطيور

التُقط ستيفين في نبتة الوزال؛

ورغم صغره هو كبير العائلة

أصلي لك، يا سيدة المنزل، أعطنا ما تيسر.

فيعطونهم خبزاً أو زبدة أو بيضاً.. إلخ ليأكلونه في المساء.

وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت هذه العادة جارية في أنحاء عديدة من فرنسا. إذ كان الكاركاسون وفي الأحد الأول من كانون الأول يخرج صغار الحي إلى المدينة مسلحين بالعصي يضربون بها الأغصان باحثين عن النمنمة. ويسمون أول من يصطاد النمنمة ملكاً. ثم يعودون إلى المدينة في موكب يرأسه الملك وهو يحمل النمنمة على عصا. وفي مساء اليوم الأخير من السنة يمشي الملك وكل من اصطاد نمانم في شوارع المدينة على ضوء المشاعل ووقع دق الطبول وعزف الناي أمامهم. وعند بوابة كل منزل يقفون ويكتب أحدهم بالطباشير على البوابة: عاشت السنة... ويكتبون رقم العام القادم. وفي صباح اليوم الثاني عشر يمشي الملك ثانيةً في موكب

ضمن أبهة كبيرة وهو يلبس تاجاً وعباءةً زرقاء ومعه صولجان محفور، ويحملون أمامه النمنمة مربوطة على سارية مزينة بإكليل من ورق الزيتون الأخضر وورق البلوط وأحياناً ورق الدبق النامي على شجر البلوط. وبعد سماع القداس الأعلى في أبرشية كنيسة القديس فانسانت، وهو محاط برجاله وحراسه، يزور الملك الأبرشية والحاكم وسمو الأمراء، والوجهاء ويجمعون المال لتغطية نفقات الوليمة الملكية التي ستُقام في المساء والتي يختمونها برقصة.

إن التشابه بين عادة اصطياد النمنمة وبعض الاصطيادات التي تكلمنا عنها، وخاصة موكب الجيلايك مع الدب، وموكب الأفعى الهندي يدفعنا إلى الشك دفعاً لاعتبارها ممارسات تنتمي للدائرة الفكرية نفسها. يُقتل الحيوان المعبود بقدسية خاصة مرةً كل سنة؛ وقبل أو فوراً بعد موته ينقلونه من بوابة إلى أخرى كي يتلقى كل من عابديه قسطاً من فضائله الإلهية التي تنبثق من الموتى أو الإله الذي يموت. من المؤكد أنه كان للمواكب الدينية مقام كبير في شعائر الشعوب الأوربية في مرحلة ما قبل التاريخ وهذا ما عرفناه من الآثار الكثيرة الباقية عنها والتي بقيت حية في العادات الشعبية. فمثلاً في اليوم الأخير من السنة أو كما يسمونه الهوغماني، اعتاد رجال أعالي أسكتلندة أن يلبسوا جلد بقرة ويزينوا أنفسهم وينتقلوا من بوابة إلى أخرى يحيطهم الشبان مسلحين بالعصي مربوط إلى كل منها جلد طبيعي. ويركض الرجل المكسو بالجلد ثلاث مرات حول المنزل باتجاه دورة الشمس بحيث يكون المنزل على يمينه، في حين يتبعه الآخرون ويضربون كساءه الجلدي بعصيهم ويصدرون صوتاً عالياً مثل قرع الطبول. كما يضربون في هذا الموكب غير المنظم جدران المنازل. وبعد دخولهم يقف بعضهم عند العتبة ويبارك العائلة بالكلمات التالية: (بارك الله بيتكم وبارك ما فيه من ماشية وحجارة وأخشاب! وبارك في اللحم الكثير وفي الأَسِرَّة وفي لبس البدن وفي صحة وعافية كل أهله!) ثم يضرم كل فريق النار في القطعة الجلدية الصغيرة المربوطة إلى العصا؛ ويقترب بالقطعة المحترقة من أنف كل شخص وكل حيوان منزلي في البيت. يتخيلون أن هذا يحفظهم من الأمراض والمصائب الأخرى، خاصةً السحر طوال السنة القادمة. ويسمون الطقس **الجَلَبة** لِما فيه من ضجيج وضرب على الجلود. كان يقام هذا الطقس في هوبرايد بما فيها سنت كيلدا وذلك على الأقل حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ويبدو أنه استمر بشكل جيد إلى القرن التاسع عشر.

الفصل الخامس والخمسون
إنتقال الشر

1ـ إنتقال الشر إلى الأشياء غير الحية

لقد تتبعت ممارسة قتل الإله عند الشعوب عندما كانت المجتمعات في مرحلة الصيد والرعي والزراعة. وحاولت تفسير الدوافع التي قادت الناس لتبنِّي عادات غاية في الطرافة. لكن هناك جانب منها جدير بالبحث. إنها فكرة إرجاع الشعب مصائبه وذنوبه إلى موت الإله، الذي يُفتَرَض أن يغسلها إلى الأبد جاعلاً الناس سعداء ينعمون بالسلام والسعادة. أما فكرة نقل الذنوب والمعاناة إلى كائنات أخرى تتحملها بدلاً منهم فهي فكرة راسخة في عقل الإنسان البدائي. وقد بدأت الفكرة من تشوش واضح بين الجسدية والذهنية، بين المادية وغير المادية. لأنه من الممكن نقل حِمْلٍ من الخشب أو الحجارة من ظهورنا إلى ظهور الآخرين، ما حدا بالبدائي إلى أن يتخيل أنه من الممكن أيضاً نقل حمل الآلام والأسى إلى شخص آخر ينوب عنه في المعاناة. واعتماداً على هذه الفكرة توصل الإنسان إلى عدد لانهاية له من الأدوات القاسية لنقل مشكلة ينوء بحملها إلى شخص آخر. وفهم الإنسان في مراحل اجتماعية وفكرية وضيعة بل ومارس فكرة استتابة المعاناة. وفي الصفحات التالية سأشرحها بالأمثلة النظرية والعملية كما وجدناها ببساطتها العارية وغير المقنعة دون تهذيب الميتافيزيقا ودقائق علم الدين.

لجأ البدائي إلى وسائل متعددة الأوجه، ماكرة، وأنانية لإراحة نفسه على حساب جيرانه. أمثلة أدرج منها غيضاً من فيض. بدايةً، علينا أن نلاحظ أن الإنسان لا ينقل الشر الذي يريد التخلص منه إلى الإنسان الآخر فقط بل يمكن نقله إلى حيوان أو إلى شيء جامد، رغم أنه في الحالة الأخيرة إنما يكون الشئ مجرد أداة ينقل عن طريقها المشكلة إلى أول شخص يلمسها. في بعض جزر الهند الشرقية

يعتقدون أنه يمكن الشفاء من الصرع بضرب المريض على وجهه بأوراق أشجار معينة ومن ثم رميها بعيداً لأن المرض ينتقل إلى الأوراق ويذهب معها. وللشفاء من ألم الأسنان يستخدمون رامي رماح ماهراً يشطب الوجنتين فيذهب الرمح بالألم وينزل على شكل حجر أسود يدعى كاريتش. ويمكن العثور على مثل هذه الحجارة في الروابي والمرتفعات الرملية. يجمعونها بعناية ويرمون بها باتجاه الأعداء ليصابوا بألم الأسنان. وفي باهيما يعاني الشعب الرعوي في أوغندة من الدمامل والخراجات. ويمكن الخلاص من هذا المرض بنقله إلى شخص آخر عن طريق الأعشاب التي يفركها الطبيب على مكان الورم ويدفنها على طريق يسلكه الكثير من الناس؛ وأول شخص يطأ فوق هذه الأعشاب المدفونة يلتقط المرض ويشفى المريض الأصلي منه.

وأحياناً في حالات المرض الشديد ينقلون العلة إلى صورة ليصار إلى نقلها لاحقاً إلى كائن بشري. يقوم الطبيب عند قوم الباغاندا بصنع مجسم من الصلصال لمريضة ثم يفرك أحد أقربائه التمثال على جسمه ثم يدفنه أو يضعه بين الأعشاب على جانب الطريق. وأول شخص يدوس عليه أو يمر بجانبه سيلتقط المرض. وأحياناً يصنعون التمثال من زهرة لسان الحَمَل ويربطونه بحيث يبدو وكأنه شخص ثم يستخدمونه بالطريقة نفسها التي استخدم فيها تمثال الصلصال. لكن استخدام الصور لهذا الهدف المؤذي يعتبر جريمة كبرى؛ يعاقَب صاحبها في الساحة العامة حتى الموت.

وفي المنطقة الغربية من جزيرة تيمور، عندما يذهب الرجال أو النساء في رحلة طويلة متعبة يهوّون أنفسهم بأغصان مورقة يرمونها فيما بعد في مكان معين، فعل أجدادهم فيه الشيء نفسه. من المفترض أن ينتقل التعب الذي يشعرون به إلى الأوراق التي يتخلصون منها. كذلك في بابارأرشيبيلاغة يضرب المتعبون أنفسهم بالحجارة معتقدين أنهم بذلك ينقلون إلى الحجارة الإرهاق الذي يشعرون به في أجسامهم. ثم يرمون الحجارة في أماكن منعزلة خاصة لهذا الغرض. وهناك معتقد مشابه يمارَس في أماكن معزولة لهذه الأكوام أو الركام من العصي والأوراق التي يراها المسافرون على جانبي الطريق والتي يزيد عليها السكان المحليون حجارة وعصياً وأوراقاً. ففي سولومون وجزر البانك اعتاد السكان الأصليون على رمي العصي

والحجارة والأوراق على كومة في منحدر شديد أو عند بداية ممر صعب السلوك قائلين:(اذهب يا تعبي إلى هناك). ليس هذا التصرف دينياً لأن ما يرمونه ليس عطية لقوىً روحية، والكلمات التي تصحب هذا السلوك ليست صلاةً. إذاً ما هو إلا طقس سحري للتخلص من التعب الذي يتخيل البدائي أنه يجسده في عصا أو ورقة أو حجر ويرميه بعيداً عنه.

2ـ انتقال الشر إلى الحيوانات

تستخدم الحيوانات كأدوات تبعد الشر أو تنقله. عندما يُصاب أحد أفراد المور بصداع، يضرب خروفاً أو عنزاً حتى يسقط أرضاً، معتقداً أن الصداع ينتقل إلى الحيوان. وفي مراكش يربي أكثر الإغنياء خنزيراً في حظيرتهم كي يبعد الجان والأرواح الشريرة عن الخيل وتدخل في الخنزير. أما عند الكافير في جنوب إفريقيا، عندما تعجز وسائلهم العلاجية، يلجأ السكان الأصليون إلى عادة إحضار عنز إلى المريض ليعترف له بذنوبه الخاصة بالزريبة. أحياناً يقطرون عدة قطرات من دم المريض على رأس العنز ويؤخذ إلى بقعة عشبية غير مأهولة. من المفترض أن ينتقل المرض إلى الحيوان، وأن يضيع في الصحراء. وفي الجزيرة العربية عندما يتفشى الطاعون يقود الناس أحياناً جملاً في أرجاء المدينة كي يأخذ الجمل الوباء. ثم يخنقونه في مكان مقدس ويتخيلون أنهم تخلصوا من الجمل والطاعون في آن معاً. ويقال إنه عندما يتفشى جدري الماء في فورموزا، يسوق البدائيون هناك شيطان المرض إلى داخل خنزيرة، ثم يقطعون إذنيها ويحرقونهما معتقدين أنهم بهذه الطريقة قد تخلصوا من الوباء.

ويسمى المالاغاسي الأداة التي تبعد الشر فاديترا. وهو أي شئ يختارونه على أنه إلهي بهدف حمل الشر والأمراض وكل ماضر في سلامة الإنسان وطمأنينته وسعادته. ويمكن أن يكون الفاديترا رماداً أو نقوداً مقطوعة أو خروفاً أو يقطينة. وعند تحديد أحد هذه الأشكال، يسوق الكاهن إليه كل الشرور التي تؤذي الشخص الذي أُعِدّت من أجله، ثم يطلب من الفاديترا أن تأخذها إلى الأبد. إذا كانت الفاديترا رماداً ينفخونها فتطير مع الرياح. وإذا كانت قطعة نقد مقطوعة،

تُرمى إلى قعر مياه عميقة أو في مكان لايستطيع أحد أن يعثر عليها. وإذا كانت خروفاً، يحمله رجل على كتفيه إلى مكان بعيد ويركض بكل ما أوتي من قوة ويمضغ وهو يجري من غيظه من الفاديترا ولأجل الشرور التي يبعدها. وإذا كانت الفاديترا يقطينة يحملها على كتفه إلى مكان ليس بالبعيد ويرميها بقوة على الأرض بغضب واحتقار. وقال أحد الإلهيين لأحد المالاغاسي إنه سيموت ميتة دموية لكنه قادر على إبعاد ذلك القدر عنه بأداء طقس معين. يحمل على رأسه وعاءً صغيراً ممتلئاً بالدم، ويصعد على ظهر ثور مخصي؛ ويسفح الدم على رأس العجل وهو يصعد على العجل، ثم يبعد الحيوان إلى البرية بحيث لايعود أبداً.

يقيم الباتاك في سومطرة طقساً يسمونه **تطيير اللعنة**. عندما تكون المرأة عاقراً، يقدمون أضحية لآلهة ثلاثة من الجنادب التي تمثل رأس بقرة وجاموس وحصان. ثم يطلق سراح سنونو ويصلون صلاة يرجون فيها أن تنزل اللعنة على الطائر فتذهب معه. وإذا كان مدخل الحيوانات غير مشترك مع مدخل أصحاب المنزل، يعتبره الماليزيون مؤشر شؤم. وإذا طار طائر إلى داخل المنزل، على السكان أن يلتقطوه بعناية ويدهنوه بالزيت ثم يطلقوه، ويقولون عبارات محددة تطلب منه أن يأخذ معه كل نحس حل على سكان المنزل. وفي قديم الزمان يبدو أن النساء الإغريقيات قد مارسن الشيء نفسه مع السنونو الذي يلتقطنه في المنزل: يصببن عليه الزيت ثم يطلقنه. ويتخيل قوم الهوزول في كارباثيا أن بإمكانهم نقل النمش إلى أول سنونو يرونه في الربيع عن طريق غسل وجوههم في مياه جارية قائلين:(ياأيتها السنونو، خذي نمشي واعطني وجنات متوردة.)

وعند الباداغا في مرتفعات نيلغيري في الهند الجنوبية، عندما تحصل لديهم حالة وفاة توضع ذنوب المتوفَّى على عِجْلِ جاموس. يتجمع الناس حول الجثة ثم يحملونها خارج القرية. وهناك يقف أحد كبار القبيلة على رأس الجثة ويتلو قائمة من ذنوب يرتكبونها عادة أو يقولها على شكل ترنيمة، ويكرر الناس من بعده آخر كلمة قالها من كل سطر. ويتم الاعتراف بالذنوب ثلاث مرات. ويبلغ مجموع الذنوب المعترف بها ألف وثلاثمائة ذنب. وبعد الاعتراف بأن الميت قد ارتكبها جميعاً يصرخ المؤدي بصوت عالٍ:(لا تتحمل الفرار منها إلى أقدام الله الطاهرة) وهو ينهي العبارة ينشد المجتمعون بصوت عالٍ (لا تتحمل الفرار). ويدخل المؤدي في التفاصيل صارخاً:(

لقد قتل أفعىً زاحفة. إنه ذنب.) فيصرخ الناس بعد أن ينتهي من آخر كلمة:(إنه ذنب.) وهم يصرخون يضع المؤدي يده على العجل، فينتقل الذنب إلى العجل. ويفعلون الشيء ذاته بهذه الطريقة المؤثرة مع كامل قائمة الذنوب. لكن هذا لايكفي. عندما ينتهون من آخر صرخة وهي:(لتكن جميعها على مايرام.) يشرع مؤدٍ آخر بالاعتراف. ويصرخ الناس:(إنه ذنب.) ويكررون الشيء ذاته مرة ثالثة. وفي صمت قدسي يحررون العجل. ومثل كبش الفداء عند اليهود أو المحرق، لايستخدمونه لأغراض دنيوية أبداً بعد ذلك. وفي جنازة الباداغا التي شاهدها المحترم آي سي كليتون يقودون العجل ثلاث مرات حول النعش ويضعون يد الميت على رأسه، أي رأس العجل. بهذا يفترضون أن العجل قد أخذ كل ذنوب الميت. ثم يقودونه إلى مسافة بعيدة بحيث لايلوث أحداً، ويقال أنه لايباع أبداً بعد ذلك، لكنهم يرونه على أنه وقْف مقدس. الفكرة التي نستخلصها من هذا الطقس أن ذنوب الميت تَدْخُلُ العجلَ أو توكَل إليه مهمة الغفران. ويقولون أن العجل يختفي بعد وقت قصير جداً ولا يسمعون عنه شيئاً بعد ذلك.

3ـ انتقال الشر إلى الناس

يلعب الناس أحياناً دور كبش الفداء بتحويل الشرور التي تهدد الآخرين إلى أنفسهم. فعندما يمرض السنغالي مرضاً خطيراً ويصل الأطباء إلى مرحلة يعجزون فيها عن مساعدته، يستدعون راقص الشيطان الذي يقدم الأضاحي للشياطين وهو يرقص بأقنعة تتناسب معهم، ويتوسل لكل منهم واحداً تلو الآخر أن يَخرجوا من جسد المريض إلى جسده. ولأنه استخرج سبب المرض يستلقي الراقص الماكر البارع على النعش متظاهراً بالموت ويحملونه إلى مكان مفتوح خارج القرية ويتركونه وحيداً. وبعد قليل تدب فيه الحياة ثانيةً ويعود بسرعة لأخذ مكافأة. وقد أُدينَت في عام 1590 أسكتلنديةٌ اسمها أغنيز سامبسون بتهمة إشفاء شخص يدعى روبرت كيرز من مرضٍ وضعته فيه إحدى المشعوذات عندما كان في دمفريز. وفي موسم القواقع الكبيرة، كانوا يسمعون ضوضاء كبيرة في المنزل. وقد وضعت المشعوذة هذه الضوضاء محاوِلَةً نقل المرض باستخدام ملابسها على قطة أو كلب. ولسوء الحظ حصل خطأ، فانتقل إلى ألكسندر دوغلاس من دالكيث بدلاً من أن ينتقل

إلى الحيوان، فضعف وهزل ثم هزل حتى مات في حين تماثل إلى الشفاء الكامل المريضُ الأساسي دوغلاس كيرس.

وفي أحد أجزاء نيوزيلاندة، كانوا يشعرون بضرورة التكفير عن الذنوب، وكانوا يمارسون نقل ذنوب كل القبيلة إلى فرد واحد. يربطون عروق السرخس على ذلك الشخص ثم يقفز إلى النهر ويفكها هناك حتى تطفو على الماء وتذهب إلى البحر حاملة معها الذنوب. وفي حالات طارئة واستثنائية ينقل قوم راجا من مانيبور الشر إلى شخص آخر ـ على الأغلب مجرم ـ يكتسب المغفرة بتحمله المعاناة بالنيابة. وكي يأخذ الانتقال مفعوله يكتسي الراجا وزوجته بثياب جميلة ويستحمون على سقالة منتصبة في السوق في حين يجثم المجرم تحتها. ويغتسل كبش الفداء البشري من المياه النازلة مع الذنوب. ولإكمال الانتقال، يعطون ملابسهم الجميلة لبديلهم ويلبسون ملابس جديدة ويختلطون بالناس حتى المساء. وفي ترافانكور عندما يقترب الراجا إلى نهايته يقصدون براهما مقدساً لأخذ ذنوب المحتضر مقابل مبلغ عشرة آلاف روبية. وعندما يوافق البراهما يحضر نفسه للتضحية على مذبح الواجب، ويدخل القديس إلى غرفة الموت، ويضم الراجا المحتضر بقوة قائلاً له:(أيها الملك، لقد تعهدت أن آخذ كل ذنوبك وأمراضك. فهل لجلالتك أن تعيش طويلاً وتحكم بسعادة.) وبعد أن يأخذ ذنوبه يرحل بعيداً ولا يُسمح له بالعودة إلى تلك البلاد. رأى السيد تشولار في أوتش، تركستان رجلاً مسناً يكسب عيشه من أخذه لذنوب الموتى وقد كرس حياته للصلاة على أرواحهم.

وفي أوغندة عندما كان يرجع الجيش من الحرب، وتحذر الآلهةُ الملكَ عن طريق الوحي أن شراً ما لحق بالجنود، اعتادوا أن يأخذوا أَمَةً أسيرة وبقرة وعنزاً وطائراً وكلباً من غنائم الحرب ويعيدوها تحت حراسة شديدة إلى حدود البلد التي أتوا منها. وهناك يكسرون أطرافها ـ بحيث يمنعها كساحها من العودة إلى أوغندة ـ ويتركونهم للموت. ولكي يتأكدوا من انتقال الشر إلى هذه البدائل كانوا يفركون حُزَماً من الأعشاب بأجسام الناس ثم يربطونها إلى الضحايا. وبعد ذلك يعلنون نظافة الجيش ويسمحون للجيش بالعودة إلى العاصمة. لذلك عندما يعتلي العرشَ اعتاد ملكُ أوغندة أن يجرح رجلاً ويرحِّله ككبش فداء إلى بونيرو للتخلص من أية دناسة لحقت به أو بالملكة.

4ـ انتقال الشر في أوروبا

سقنا أمثلة عن انتقال الشر من عادات الشعوب البربرية البدائية، لكن محاولات نقل أعباء المرض والمصيبة والذنب إلى شخص أو إلى حيوان أو لشيء آخر مازالت شائعة عند الأمم الأوربية المتحضرة في العصور القديمة والمعاصرة. هناك علاج روماني للتخلص من الحمى وهو أن تكشط أظافر المريض وتضع الكشاطة مع الشمع على باب أحد الجيران قبل شروق الشمس؛ فينتقل المرض من المريض إلى الجار. ولابد أن الإغريق قد لجؤوا إلى مثل هذه الوسائل لأن أفلاطون عندما أراد تحسين القوانين لأجل مدينته الفاضلة، اعتبر رجاله مفرطين عندما لايهلعون من العثور على أشكال من الشمع على أبوابهم أو على ناصيات قبور والِديهم أو موضوعة لهم على معبر طرق. وفي القرن الرابع الميلادي وصف مارسيلوس من بوردو للثآليل علاجاً مازال دارجاً عند الخرافيين في أنحاء كثيرة من أوروبا. وهو أن تلمس الثآليل بحجارة صغيرة على عددها، وتغلفها بورق اللبلاب ثم ترميها في شارع عام. وكل من يأخذها سيصاب بالثآليل وتشفى أنت منها. أما أهالي جزيرة أوركني فيغسِّلون المريض ويرمون الغُسالة عند البوابة معتقدين أن المرض سينتقل من المريض إلى أول شخص يدخل من تلك البوابة. وهناك علاج بافاري للحمى وهو أن تكتب على قطعة من ورق(ابتعدي ياحمى، فأنا لست في المنزل) ثم تضع الورقة في جيب شخص ما فيصاب بالحمى وتتخلص أنت منها. وهناك علاج بوهيمي للمرض نفسه وهو أن تأخذ وعاءً فارغاً وتمشي به إلى معبر طرق ثم تلقيه وتهرب. وأول شخص يركله سيصاب بالحمى وتشفى أنت منها.

شأنهم شأن البدائيين، غالباً ما يحاول الأوربيون نقل المرض والألم من إنسان إلى حيوان. ونصح الكتاب القدامى أن يجلس الشخص الذي لدغه عقرب على جحش بالمقلوب، أي وجهه باتجاه الذيل أو يهمس في أذن الحيوان قائلاً:(لقد لدغني عقرب.) وفي كلتا الحالتين ينتقل الألم إلى الجحش. وقد سجل مارسيلوس الكثير من هذه العلاجات، على سبيل المثال، يخبرنا أن علاج ألم الأسنان هو أن تقف مرتدياً حذاءك بالعراء وتمسك ضفدعاً من رأسها وتبصق في فمها وتطلب منها أخذ الألم، ثم تطلقها. لكن يفضل أن يقام هذا الطقس في يوم محظوظ وساعة محظوظة. وفي تشيشاير هناك مرض شائع يعالجونه بالطريقة نفسها وهو القُلاع

الذي يصيب فم وحنجرة الأطفال. يمسكون ضفدعاً صغيراً عدة لحظات ورأسها في فم المصاب فيشفى من المرض ويعطيه للضفدع. وقالت امرأة مسنة كانت تشرف على هذا العلاج:(أؤكد لكم أننا كنا نسمع الضفدع ينق ويسعل لأيام بعد ذلك. ياله من أمر مميت؛ تتفطر قلوبنا على ذلك الكائن المسكين وهو يسعل في البستان.) وفي نورثامبتونشاير في ديفونشاير يعالج أهالي ويلز السعال بوضع شعرة من رأس المريض بين شريحتين من خبز مدهونتين بالزبدة ويعطونها لكلب. وهنا يلتقط الكلب السعال ويتحرر منه المريض. وأحياناً تنتقل العلة إلى الحيوان عن طريق الاشتراك في الطعام. ففي أولدنبورغ إذا أُصيب أحدهم بالحمى يمكنه أن يضع زبدية من الحليب المحلى أمام كلب ويقول:(حظاً سعيداً أيها الكلب! لتمرض أنت وأتعافَ أنا). ثم يلعق الكلب بعض الحليب ويأخذه المصاب ثانية ويعب من الزبدية ثم يدع الكلب يلعق ثانيةً وبعدها يعب مرة أخرى ويترك الكلب يلعق، وبعد المرات الثلاثة تخرج منه الحمى وتدخل في الكلب.

هناك علاج بوهيمي للحمى وهو أن تخرج إلى الغابة قبل شروق الشمس وتبحث عن عش لطائر الشنقب. وعندما تجده، تأخذ صغاره وتحتفظ بها بجانبك مدة ثلاثة أيام ثم تعود إلى الغابة وتطلقها؛ فتهجرك الحمى على الفور وتصيب الشنقب. لذلك كان الهندوس القدامى في العصر الفيديكي يرسلون مرض السل مع طائر أبو زريق. ويقولون:(طِر يا سل، طر بعيداً مع أبي زريق! مع الدوامات وهبوب العاصفة، هيا انمحق!) وفي قرية لانديغلا في ويلز هناك كنيسة موقوفة لوجه العذراء الشهيدة القديسة تيكلا، حيث تُعالج الأمراض من جراء نقلها إلى الطيور. يغسل المريض أطرافه في بئر مقدس قريب جداً، ويلقي فيه أربعة بنسات كعطية، ثم يمشي ثلاثاً حول البئر وثلاثاً وهو يتلو صلاة الرب. ثم يضع دجاجة في سلة، أو ديكاً إذا كان المريض ذكراً، ويحمله حول البئر أولاً ثم حول الكنيسة. ثم يدخل المريض الكنيسة ويستلقي تحت طاولة العشاء الرباني حتى بزوغ الفجر. بعد ذلك يقدم ستة بنسات ويغادر تاركاً الطير في الكنيسة. إذا مات الطير، من المفترض أن يكون المرض قد نُقل إليه ويتخلص الرجل او المرأة منه. وحتى 1855 كان يتذكر الموظف المسن في أبرشية القرية تماماً كيف كانت الطيور تترنح من تأثير نوبات المرض التي نُقلت إليها.

وغالباً ما ينقل المريض نوبة المرض أو النحس إلى شيء جامد. ففي أثينا هناك كنيسة صغيرة اسمها كنيسة يوحنا المعمدان مبنية على أعمدة، يلجأ المصابون بالحمى إليها ويضعون خيطاً مغمساً بالشمع على الجانب الداخلي من العمود وبهذا ينقلون الحمى منهم إلى العمود. وفي مارك براندنبورغ يقولون إنك إن عانيت من الدوخة عليك أن تتعرى تماماً وتركض ثلاثاً حول حقل كتان بعد غروب الشمس؛ وبهذه الطريقة يأخذ الكتان الدوخة وتتخلص منها أنت.

لكن ربما كانت الشجرة أو الغصن كوعاء يفرِغون فيه المرض والمصائب هو أكثر الأشياء المنتشرة في أوروبا. هناك علاج بلغاري للحمى وهو أن تركض ثلاث مرات حول شجرة حور عند شروق الشمس وتصرخ:(ستهزك الحمى، وستدفئك الشمس.) وفي جزيرة كارباثوس الإغريقية يربط الكاهن خيطاً أحمر حول رقبة المريض. وفي الصباح التالي ينزع أصدقاء المريض الخيط ويأخذونه إلى سفح جبل ويربطونه إلى شجرة معتقدين أنهم نقلوا المرض إلى الشجرة. ويحاول الطليان علاج الحمى بأن يربط المريضُ خيطاً حول معصمه في الليل ويعلقه على شجرة في الصباح التالي، فتُعلق الحمى على الشجرة ويشفى منها المريض. لكن على المريض أن يحرص ألا يمر بقرب تلك الشجرة ثانيةً وإلا تفلت الحمى من رباطها على الشجرة ويهاجمه المرض ثانيةً. وهناك علاج يسود في منطقة **فلم** في هولندا لمرض الملاريا وهو أن يذهب المصاب في الصباح الباكر إلى صفصافة قديمة ويربط على أحد أغصانها ثلاث عُقد ويقول:(دوري واهربي دون النظر إلى الخلف.) وفي سنونينبورغ إذا ما أردت التخلص من داء النقرس ماعليك إلا أن تذهب إلى شجرة تنوب وتربط على أحد أغصانها عقدة خيط وتقول:(حياك الله، يا شجرة التنوب النبيلة. لقد جئتك بنقرسي وهنا سأربط عقدةً كي ألصق المرض بك.)

وهناك طريقة أخرى لنقل النقرس من إنسان إلى شجرة عن طريق قُشارة الأظافر وقصاصة عدة شعرات من رجْلَي المريض. يحفر المريض حفرة في شجرة البلوط ويحشو فيها الشعر والأظافر ثم يسد الفتحة ثم يدهنها بروث البقرة. إذا مضت ثلاثة شهور وتخلص المريض من علته، فاعلم أنها قد أخذت عنه المرض. وفي تشيشاير إذا ما أردت التخلص من الثآليل عليك أن تفركها بقطعة لحم خنزير مملحة ثم تحدث شقاً صغيراً في شجرة الدردار وتقحم قطعة اللحم تحت اللحاء.

وسرعان ما تختفي الثآليل من يديك. لكنها يمكن أن تظهر على شكل ناميات أو عقد على لحاء الشجرة. وفي بيرخامستيد، هيردفوردشاير، كان هناك شجرة بلوط معينة يحتفلون بها كعلاج للتخلص من الملاريا. لكن عملية انتقال الملاريا إلى الشجرة كانت بسيطة لكنها مؤلمة لأنه يجب على المريض أن يثبت خصلة من شعره في الشجرة وينتر بسرعة فيترك خصلة الشعر مع الملاريا فيها.

الفصل السادس والخمسون
طرد الشر العام

1ـ كلية تواجد الشياطين

في الفصل السابق درسنا بالأمثلة نقل الأمراض إلى شخص آخر أو إلى حيوان آخر أو إلى شيء آخر. وهناك وسائل مشابهة استخدمت لتحرير المجتمع بأكمله من شرور عديدة أصابته. ولم تكن محاولات طرد هذه المآسي المتراكمة على الناس نادرة أو استثنائية؛ بل استخدمت في بلاد عديدة وتحولت من كونها تحصل في مناسبات معينة إلى أن صارت تُقام على فترات منتظمة أو سنوية.

هناك حاجة إلى بعض الجهد من طرفنا لإدراك الإطار العقلي الذي يدفع الإنسان لممارسة هذه المحاولات. بعد أن جردت الفلسفةُ الطبيعةَ من شخصيتها وأخضعتها إلى عامل مجهول في سلسلة مرتبة من كثرة الانطباعات المدموغة على حواسنا، صار صعباً علينا أن نضع أنفسنا في مكان الإنسان البدائي، الذي تبدو له الانطباعات نفسها على هيئة أرواح أو ما تصنعه الأرواح. طوال عصور، كان آخرها قريباً جداً، ظلت جحافل الأرواح تتراجع أمامنا شيئاً فشيئاً حتى تلاشت بعصا العلم السحرية من المصلى والبيت، من الصومعة المُدمَّرة إلى البرج اللبلابي، من ممرات الغابة المسكونة بالجان إلى البحيرات المنعزلة، من السحابة الداكنة المزقة التي تنفث البرق، ومن السحابات الجميلة التي توسد القمر أو تموج العشية الذهبية برقائق حمراء نارية. لقد رحلت الأرواح حتى من آخر معاقلها في السماء التي لم تعد تعتبر قبتها الزرقاء – إلا للأطفال – حجاباً يخبئ عن نظر البشر أمجاد العالم العلوي. فقط في أحلام الشعراء أو شطحات الخطابة المشبوبة بالعاطفة نلمح رايات جماهيرها المتقهقرة ترفرف، أو نسمع ضربات أجنحتها غير المرئية، أو صوت ضحكاتها الهازئة، أو موجة موسيقا ملائكية تتلاشى من بعيد. لكنها ليست

كذلك أبداً عند البدائي. بالنسبة إلى خياله مازال العالم يعج بهذه الكائنات المتعددة التي نبذتها فلسفةُ أكثر اتزاناً. مازالت الجنيات والعفاريت، الأشباح والشياطين تحوم فوقه تصحو تارة وتنام تارة أخرى. تتعقب خطواته تبهر حواسه، تدخل فيه، تنهكه وتخدعه وتعذبه بطرق نزواتية مؤذية. أما الحوادث المؤسفة التي تصيبه، والخسائر التي يتحملها، والآلام التي يصبر عليها، فيرجعها كلها، إما لسحر الأعداء، أو غيظ الأرواح وغضبها أو نزواتها. يرهقه حضورها الدائم، ويسخطه خبثها الذي لا ينام؛ ويتمنى أن يتخلص منها جميعاً، لكنه لايصرح بهذه الأمنية. ومن وقت إلى آخر تسوقه إلى شجرة الكستناء لتحميه من الصاعقة، ويكاد صبره ينفد بالكامل فيرتد على مضطهديه ويقوم بمحاولة يائسة لطردها جميعاً من البلاد كي ينظف الهواء من جموعها المحتشدة ليتنفس بحرية أكبر ويمشي في طريقه دون أن تتحرش به على الأقل لفترة محدودة. وما حصل أن مسعى البدائيين للتخلص من كامل مشاكلهم أخذ شكل طرد الأرواح والشياطين. وظنوا أنهم لو استطاعوا فقط أن ينفضوا عنهم معذبيهم الملاعين، فسيبدؤون الحياة من جديد سعداء آمنين؛ وتتحقق قصص جنة عدن ويعود العصر الذهبي الشاعري من جديد.

2ـ طرد الشرور المتفرق

الآن قد عرفنا لماذا يأخذ تنظيف الشرور العام، الذي يلجأ إليه البدائي من فينة إلى أخرى، شكل الطرد العنيف للشياطين. في هذه الأرواح الشريرة يرى الإنسان سبب الكثير من مشاكله إن لم يكن كلها ويتصور أنه لو استطاع أن يحرر نفسه منها ستتحسن أوضاعه كاملةً. يمكن تقسيم المحاولات العامة لتخليص المجتمع برمته من الشرور المتراكمة إلى قسمين بناء على معيارين الأول أن تكون الشياطين المطرودة مادية وغير مرئية والثاني أن تكون متجسدة في أداة مادية أو كبش فداء. ويسمى الشكل السابق الطرد الفوري والمباشر للشياطين؛ أما اللاحق فيسمى طرداً غير مباشر أو عبر كبش الفداء. لنبدأ بأمثلة عن الطرد المباشر.

في جزيرة روك بين غينيا الجديدة وغينيا القديمة وعندما تصيبهم مصيبة يركض الناس جميعاً ويصرخون ويلعنون ويولولون ويضربون الهواء بعصيهم لطرد الشيطان الذي يفترضون أنه هو من أوجد هذه المصيبة. ومن المكان الذي حصلت فيه المصيبة يقودونه خطوة خطوة باتجاه البحر وعند وصولهم إلى الشاطئ يضاعفون من صرخاتهم وضرباتهم لطرده من الجزيرة. يتراجع الشيطان عادة إلى البحر أو إلى جزيرة لوتين. ويعزو أصلاء بريطانيا الجديدة المرض والقحط وإخفاق المحاصيل وكل المصائب إلى تأثير الأرواح الشريرة. لذلك عندما يمرض الناس ويموتون في مواسم معينة مثل الفصل الماطر، يتسلح أبناء المنطقة كلهم بالأغصان والهراوات ويخرجون في ضوء القمر إلى الحقول حيث يضربون ويدوسون الأرض بتهويل وحشي حتى الصباح معتقدين أن هذا يطرد الشياطين وللسبب نفسه يندفعون في القرية بالمشاعل. ويقال أن أصلاء كاليدونيا يؤمنون أن سبب كل الشرور هو روح خبيثة، ليتخلصوا منها، عليهم أن يحفروا من فينة إلى أخرى حفرة كبيرة يجتمع حولها كامل أفراد القبيلة. وبعد لعن الشيطان يملؤون الحفرة بالتراب ويدوسون فوقها مع صرخات عالية. يسمون هذه العملية **دفن روح الشيطان**. أما عند قبيلة الدايري في أستراليا الوسطى، عندما يتفشى مرض خطير، يطرد الأطباء ما يسمونه الكوتشي - أي الشيطان - بضربهم على الأرض داخل المخيم وخارجه بذيل الكنغر كي يطردوا الشيطان إلى مكان بعيد عن المخيم.

وعندما يصيب القرية سلسلة من المصائب أو وباء خطير يضع سكان ميناهاسا من سيليبيس اللوم على الشياطين الذين يجتاحون القرية ولا مناص من طردهم منها. لذلك يخرج في الصباح الباكر كل الناس رجالاً ونساءً واطفالاً وهم يحملون أدوات منزلية ويقيمون في خيام مؤقتة ينصبونها خارج القرية. يمضون في مقامهم هذا عدة أيام يقدمون الأضاحي ويحضِّرون لطقسهم النهائي. وفي النهاية ينسل الرجال، بعضهم يرتدي أقنعة وبعضهم يسوِّدون وجوههم لكنهم جميعاً مسلحون بالسيوف والبنادق والمناخس أو المقشات، ينسلون بحذر وبصمت إلى قريتهم المهجورة. وعندما يعطيهم الكاهن إشارة، يندفعون بغضب إلى الشوارع وإلى البيوت أو تحت البيوت المرفوعة على أعمدة، يزعقون ويضربون على الجدران والأبواب والنوافذ ليطردوا الشياطين. ثم يأتي الناس والكهنة بالنار المقدسة ويمشون تسع مرات حول البيت أو

ثلاث مرات حول السلم الذي يؤدي إلى الأعلى ومعهم النار. ثم يدخلون النار إلى المطبخ حيث تبقى تشتعل مدة ثلاثة أيام دون انقطاع. بهذا تكون الشياطين قد طردت وتغمرالناس فرحة عارمة.

ويعول قوم الألفور في ألماهيرا على الشياطين في إخراج الوباء الذي أتت به من قرى أخرى. لذلك لكي يخلصون القرية من المرض يقود الساحر الشيطان بعيداً. يتلقى من أهالي القرية رداءً مُكَلِفاً يضعه على أربعة أوعية يأخذها إلى مكان في الغابة يفترضون وجود الشيطان فيه. ثم يستخدم كلمات زائفة يأمر بها العفريت بأن يترك المكان. وفي جزر كاي وحتى جنوب غرب غينيا الجديدة تشكل الأرواح الشريرة، وهي تختلف عن أرواح الموتى، جمهرة كبيرة. فكل شجرة وكل كهف هو مسكن لهذه العفاريت الغضوبة لأتفه الأسباب. ويجسدون أنفسهم عن طريق إرسال المرض أو المصائب. لذلك عند حلول مصيبة جماعية، مثل تفشي الوباء، وعندما تخفق جميع العلاجات، يخرج السكان جميعاً وعلى رأسهم الكاهن إلى مكان على مقربة من القرية. وعند غروب الشمس ينصبون عمودين موصولين بعارضة خشبية يعلقون عليها أكياساً من الأرز وأشكالاً خشبية لبنادق دوارة وأجراس قرصية وأساور وغيرها. وعندما يأخذ كل منهم مكانه عند العمودين ويعم صمت مطبق، يرفع الكاهن صوته مخاطباً الأرواح بلغتها الخاصة فيقول:(هوا هوا هوا أنت أيتها الأرواح الشريرة الساكنة في الأشجار، أنت أيتها الأرواح الشريرة الساكنة في الكهوف، أنت أيتها الأرواح الشريرة السكانة في الأرض، نعطيكم هذه البنادق الدوارة، وهذه الأجراس، ... إلخ. أوقفوا المرض ولا تدعوا المزيد من الناس يموتون منه.) ثم يركض الجميع إلى بيوتهم بأسرع ما تسمح لهم أرجلهم.

وفي جزر نياس عندما يمرض أحدهم مرضاً شديداً وتخفق معه جميع العلاجات، يأتي الساحر لطرد الشيطان الذي يسبب المرض. ينصبون عموداً أمام المنزل، ومن أعلى العمود يمتد حبل مصنوع من خوص النخيل حتى سقف المنزل. يصعد الساحر السقف ومعه خنزير يقتله ويتركه يتدحرج من السقف إلى الأرض. ولشغف الشيطان في أخذ الخنزير ينزل بسرعة خلفه على حبل الخوص، ثم يستحضر الساحر روحاً خيرة تمنعه من الصعود ثانيةً. وإذا ما أخفق هذا العلاج يكتشفون أن هناك شياطين أخرى مازالت تسكن المنزل. فيطاردونهم مطاردة

شاملة. تغلق جميع أبواب ونوافذ المنزل إلا الروشن وهي نافذة ناتئة من سقف مائل. أما الرجال المحبوسون في المنزل فيضربون بسيوفهم يمنة ويسرة فتصيب الأجراس وتقرع الطبول. وخوفاً من هذا الهجوم الضاري تهرب الشياطين من الروشن وتنزلق على حبل الخوص ثم تبتعد. وبما أن جميع الأبواب والنوافذ، إلا النافذة في السقف، مغلقة لاتستطيع الشياطين العودة إلى المنزل ثانيةً. وفي حالة الوباء يقومون بالإجراءات نفسها. يغلقون جميع بوابات القرية إلا واحدة. ويطلقون كل ما عندهم من أصوات، يدقون على كل الطبول ويطلقون من كل البنادق ويلوحون بكل سيف. فتطرد الشياطين من آخر بوابة يغلقونها خلفهم. وتبقى القرية بعدئذ في حالة حصار مدة ثمانية أيام لايسمحون لأحد أن يدخلها.

عندما تفشت الكوليرا في القرية البورمية تدافع الرجال البدينون على أسطحة المنازل ونثروا عليها البامبو وقطع خشبية بينما وقف جميع السكان صغاراً وكباراً في الأسفل، يدقون الطبول وينفخون في الأبواق ويزعقون ويصرخون ويضربون على الأرض والجدران ويدقون على الأواني محدثين كل ضجيج. يكررون هذه الجلبة على ثلاث ليال متتالية معتقدين أن هذه طريقة فعالة في تهريب شياطين الكوليرا. وعندما ظهر مرض جدري الماء أول مرة عند قوم الكومي في جنوب شرق الهند، اعتقدوا أن شيطاناً أتاهم من أراكان. وُضعت القرية في حالة حصار، لايسمحون لأحد بدخولها أو الخروج منها. يقتلون قرداً بضربه على الأرض ثم يعلقون جثته على بوابة القرية. ويخلطون دمه بحصىً نهرية صغيرة وينثرونها على المنازل ويكنسون عتبة كل منزل بذيل القرد ويفترضون بعد ذلك أن الشيطان قد غادر.

وعندما يجتاح وباء ساحل الذهب في أفريقيا الغربية، يخرج الناس أحياناً مسلحين بالهراوات والمشاعل ليطردوا الأرواح الشريرة. وعند يتلقون إشارة معينة يبدأ الناس بالزعيق المخيف ويضربون في كل زاوية من زوايا المنازل ويندفعون بجنون إلى الشوارع ملوحين بالمشاعل وضاربين بعنف في الهواء. يستمر هذا الصخب حتى يعلمهم شخصٌ ما أن الشيطان المروَّع المذعور قد غادر من بوابة المدينة أو القرية؛ ويندفع الناس وراءهم يطاردونهم إلى داخل الغابة ويحذرونهم من العودة. ويتبع طردَ الشياطين مذبحةٌ كبيرة لجميع ديكة القرية أو المدينة كي لا تستدل الشياطين من صياحها على القرية وتعود ثانيةً إلى مسكنها السابق. وعندما تفشى المرض في قرية هورون

وأخفقت جميع محاولات العلاج لجأ الهنود إلى طقس يدعى لونويارا وهو الاختراع الكبير والوسيلة المناسبة - على حد قولهم - لطرد الشياطين والأرواح الشريرة التي جلبت الأمراض الجسدية والعقلية. وبناءً على هذا يندفع الناس كالمجانين في القرية يكسرون ويخربون كلَّ ما يصادفونه في الأوغام. يرمونِ النار ويحرقون الجمر على جانبي الطرقات ويركضون طوال الليل لا يكفُّون عن الغناء. ثم يحلمون جيمعاً بشيء ما مثل كلب أو سكين أو جلد أو أي شيء وعندما يأتي الصباح يذهبون من وغم إلى وغم يطلبون الهدايا. يستلمونها بصمت ويستمرون في هذه العملية حتى يأخذ أحدهم ما ضَمَرَه ليلة البارحة. وعندما يأخذ أحدُهم ما حلم به يصرخ بفرح ويركض من كوخ إلى كوخ يتلقى التهاني بالهدية. وكل من يحصل على الهدية المطلوبة يضمن صحته، أما من لم يحظ بما ضمره فيهيئ نفسه لقدر يعتبرونه مكتوبا.

وأحياناً بدلاً من مطاردة عفريت المرض من البيوت يفضل البدائيون أن يتركوه آمناً فيها ويهربون بحيث لايتركون أثراً يتقفاهم به. لذلك عندما هاجم جدري الماء الباتاغون الذين اعتبروا المرض مكيدة الروح الشريرة، كانوا يتركون مرضاهم ويهربون، يضربون الهواء بأسلحتهم، ويرشون الماء هنا وهناك ليبعدوا الروح الفظيعة التي تطاردهم. وبعد مسير عدة أيام يصلون مكاناً يأملون منه أن يكون بعيداً عن مبلغ تلك الروح. واعتادوا كنوع من الحيطة أن يغرزوا كل أسلحتهم المدببة الرأس وأطرافها الحادة باتجاه المكان الذي أتوا منه وكأنهم يصدون هجوم الفرسان. كذلك عندما يُهاجِم المرضُ هنود اللول والتونوكوت في غرانتشاكو يتملصون منه بالهروب، لكنهم يهربون دائماً في طرق متعرجة ولا يسلكون مساراً مستقيماً بل يلفون ويدورون بحيث لايمكنه تتبعهم. وعندما يشرف هنود المكسيك على الهلاك من جدري الماء أو أي مرض معدٍ، اعتادوا تغيير مسكنهم كل يوم، يتراجعون إلى أمكنة معزولة في الجبال ويختارون منها أصعب الأجمات الشوكية آملين أن يخاف جدري الماء من أن يخمش نفسه في الشوك عندما يتبعهم. وعندما قام بعض التشين بزيارة إلى رانغون أصابهم مرض الكوليرا فراحوا يجولون مستلين سيوفهم لإخافة العفريت وأمضوا النهار مختبئين تحت الأغصان كي لا يعثر عليهم.

3ـ طرد الشياطين الدوري

تحوَّل طرد الشياطين المتفرق إلى طردٍ دوري عندما شعروا بضرورة التخلص العام من الأرواح الشريرة في أوقات ثابتة، أي مرة كل سنة، ليبدأ الناس حياتهم من جديد بعد أن يتخلصوا من الآثار المهلكة المتراكمة عليهم. يطرد بعض الأستراليين سنوياً أشباح الموتى من المنطقة. وقد شاهد طقوسهم المحترم و. ريدلي على ضفاف نهر باروان وهو على الشكل التالي. يجتمع عشرون شخصاً منهم الكبار والصغار ويغنون بشكل جماعي يقضون وقتهم بالبمرنغ.... فجأة من تحت ملاءة يثب رجل لوَّن جسمه بالطين الأبيض ورأسه ووجهه بخطوط حمراء وصفراء وثبَّت على التاج فوق رأسه خصلة من الريش على عصا طولها قدمان. يقف بشكل ساكن تماماً عشرين دقيقة يحدق نحو الأعلى. قال لي أحد السكان الأصليين الذي كان يقف بجانبي إنه يبحث عن أرواح البشر الموتى. بدأ بعد ذلك يتحرك ببطء ثم اندفع بسرعة جيئة وذهاباً يلوح بغصن وكأنه يبعد عنا أعداءً غير مرئيين. وعندما ظننت أنه آن لهذه الحركات الإيمائية أن تنتهي، ظهر من وراء الأشجار فجأة عشرة منهم مزينين بالطريقة نفسها وبدؤوا صراعاً حاداً بحركات رشيقة مع مغيرين خفيين.... وبعد مناورات سريعة وضعوا كل قوتهم فيها وعمل مضن دام طوال الليل وبعض ساعات من الصباح، بدؤوا بالاسترخاء بعد أن اقتنعوا أن الأرواح قد رحلت ولن تعود قبل مرور اثني عشر شهراً. كانوا يحيون الطقس نفسه على كل المواقع المنتشرة على طول النهر، وقالوا لي إنها عادة سنوية.

تتميز فصول معينة بطبيعتها لتكون ملائمة لطرد الشياطين العام، مثل لحظات قبيل انتهاء الشتاء في المنطقة القطبية، عندما تظهر الشمس ثانيةً في الأفق بعد غياب أسابيع أو شهور. لذلك في رأس بارو، وهي منطقة في أقصى شمال آلاسكا وتقريباً شمال أمريكا أيضاً، يختار الأسكيمو لحظة عودة الشمس ليتصيدوا الروح الشريرة تونا في كل بيت. وقد شاهد هذا الطقس بعض أعضاء بعثة الولايات المتحدة القطبية الذين قضوا الشتاء في رأس بارو. يضرم الأسكيمو النار أمام دار البلدية، وينقلون امرأة مسنة على مداخل البيوت كلها. يتجمع الرجال حول دار البلدية بينما تطرد الصبايا والنساء الروح من كل بيت مستخدمات السكاكين يطعن بها بوحشية تحت الأسرة وجلود الأيائل وهن يطالبن التونا بالمغادرة. وعندما

يعتقدن أنها قد طُردت من كل ركن أو مخبأ، يقحمنها بقوة في فتحة في الأرض ويطاردنها في الهواء المفتوح بصيحات مرتفعة وملامح مسعورة. وبالوقت نفسه تمر المسنة من المداخل رافعة سيفاً طويلاً في الهواء لتمنع الروح من العودة. تقود كل مجموعة من الصبايا الروح باتجاه النار طالبة منها الدخول فيها. في النهاية تتجمع كل المجموعات في نصف دائرة حول النار. ويقدم العديد من كبار الرجال اتهامات معينة ضد تلك الروح، ثم ينفض كل منهم ملابسه بعنف بعد خطابه مطالباً الروح أن تغادره وتذهب إلى النار. وهنا يتقدم رجلان ومعهما بندقيتان محشوتان بطلقات خلبية، ويجلب ثالثٌ وعاءً من البَول ويرميه على اللهب. وفي الوقت نفسه يطلق الرجلان النار في الهواء، وعندما تصعد غيمة من البخار يتبعانها بطلقة أخرى معتقدين أنها تقضي على الروح تونا لفترة مؤقتة.

وفي أواخر الخريف عندما تعصف الرياح على البر وتكسر القيود الجليدية التي ترسم حدود البحر وتسوق الكتل الجليدية الطافية فتتضارب وتصدر صوتاً قوياً وتتراكم فوق بعضها بعضاً بشكل عشوائي، يتخيل أسكيمو البافين أنهم يسمعون أصوات الأرواح التي تسكن الهواء المشبع بالأذى. وعندما تضرب أرواح الموتى الأكواخ بعنف ولاتستطيع الدخول إليها، الويل لتَعِس الحظ الذي تتمكن من التقاطه لأنه سيمرض على الفور ويموت. ثم يطارد كلب ضخم لا شعر عليه الكلاب العادية التي تهرب وهي ترتجف وتتشنج من رؤيته. كل أرواح الشر التي لا تحصى تأتي من الخارج ساعية لجلب المرض والموت والطقس السيء وإلى إفشال محاولات الصيد. أفظع هؤلاء الزوار الأشباح هي سِيْدْنَا سيدة العالم السفلي، وأبوها الذي ينهار أمامه أموات الأسكيمو. في حين تخرج الأرواح الأخرى من تحت الأرض لتملأ الهواء والماء. إنه الفصل الذي يعج بالسحرة. ففي كل بيت يمكنك سماع الإنشاد والصلوات التي يتوسلون فيها للأرواح القابعة في ظلام باطني في آخر الكوخ الذي ينيره مصباح خافت. أصعب المهام هي طرد سِيْدنا؛ مهمة لا تُسند إلا إلى أقوى العرافين. يلفون حبلاً على أرض كوخ كبير بحيث يتركون في الأعلى فتحة صغيرة تمثل فتحة تنفس الفقمة. ويقف ساحران بجانب الحبل يمسك أحدهما رمحاً وكأنه يترصد فتحة الفقمة في الشتاء، ويمسك الآخر خيط حربون الصيد. ويقف ساحر ثالث خلف الكوخ وهو ينشد أغنية سحرية يستدرج بها سيدنا إلى المكان. هنا

يسمعون صوتها يدب على أرض الكوخ، تتنفس بصعوبة، وتخرج من الثقب، يضربونها بالحربون فتهرب بسرعة وتتخبط وهي تجر الحربون خلفها بينما يمسك الرجلان الخيط بكل قوتهم. يقوم صراع عنيف تقطع بعده الخيط بجذبة يائسة وتعود إلى مسكنها في الديفون. يسحبون الحربون من الثقب فيجدونه ملطخاً بالدم فيرفعه السحرة بفخر كدليل على براعتهم. وهكذا تُطرد سيدنا وباقي الأرواح الشريرة، وفي اليوم الثاني يُقام احتفال يشترك فيه الكبار والصغار على شرف هذه المناسبة. لكن من الضروري أن يأخذوا الحيطة لأنها قد تكون خارج الكوخ، فيلبسون لذلك تعاويذ على رؤوسهم ليحموا أنفسهم منها. وتتألف هذه التعاويذ من قطع من الثوب الذي يلبسونه بعد الولادة.

ويفتتح الإرغوا السنة الجديدة في كانون الثاني أو في شباط أو في آذار (يختلف التوقيت باختلاف احتفال الأحلام) بمهرجان شبيه بالذي يقيمه الهورون في مناسبات خاصة. تستمر الطقوس عدة أيام أو حتى عدة أسابيع وهو احتفال فوضوي يتنكر فيه الرجال والنساء بشكل متنوع ويذهبون من وغم إلى وغم يحطمون ويرمون كل ما يصادفونه. إنه وقت الرخصة العامة حين يفترض أن يخرج الناس من عقولهم ولا يعتمدون أي منطق في تصرفاتهم. لذلك يعتبر الكثير من الناس هذه المناسبة فرصة ليجعلوا البغيضين يدفعون ثمن ما فعلوه سابقاً فيرمون الناس في الماء البارد ويغمرونهم بالقاذورات أو الرماد الساخن. بينما يمسك آخرون جمرات تحترق أو قطع من الفحم ويرمونها على رؤوس أول من يصادفونهم. والطريقة الوحيدة للتخلص من هذه المضايقات هي أن يحزروا ما يضمرونه. في أحد أيام هذا الاحتفال يصادف طقس طرد الأرواح الشريرة من القرية. يلبس الرجال جلود الحيوانات البرية ويغطون وجوههم بأقنعة تخفيهم، وأيديهم بصدفة سلحفاة ويذهبون من بيت إلى بيت مصدرين أصواتاً مخيفة؛ ومن كل منزل يأخذون وقوداً من النار ويبعثرن الجمر والرماد على الأرض بأيديهم كوسيلة من وسائل التخلص من الأعباء الأخلاقية. وقبل يوم الطرد يحصل اعتراف عام بالذنوب تحضيراً للتخلص من الآثار الشريرة.

كان إنكا البيرو يحتفلون بمهرجان يسمونه سيتوا، وكان الهدف منه تخليص العاصمة وما حولها من الأمراض والمتاعب. يصادف الاحتفال في أيلول لأن الأمطار تبدأ في ذلك الموسم وغالباً ما تتوافق تلك الأمراض مع بداية الأمطار. تحضيراً

للاحتفال يصومون اليوم الأول من الشهر القمري بعد الاعتدال الخريفي. وبعد أن يصوموا في النهار يعجنون عجينة الذرة الخشنة من نوعين، يعجنون إحداها بدم الأطفال الذين تبلغ أعمارهم بين الخامسة والعاشرة ويحرصون أن يكون الدم من نزيف بين حاجبي الأطفال. يخبزون هذين النوعين كلاً على حدة لأن استخداماتهما مختلفة. تجتمع كل عائلة في منزل الأخ الأكبر ليحتفلوا بالوليمة أما أولئك الذين ليس لديهم أخ أكبر فيذهبون إلى منزلِ قريبٍ أكبر منهم عمراً. وفي الليلة نفسها يغتسل كل من صام ويتناول القليل من الخبز المعجون بالدم ثم يفركون وجوههم وأكتافهم وصدورهم وأذرعتهم وأرجلهم. ويفعلون هذا كي تسحب العجينة كل عيوبهم. وبعد ذلك يدهن رب الأسرة عتبة الباب بالعجينة ذاتها ويتركها هناك علامةً تدل على أن أهل المنزل قد توضأوا ونظفوا أجسامهم. وفي الوقت نفسه، يقوم الكاهن الأكبر بالطقوس ذاتها في معبد الشمس. وحالما تُشرق الشمس يتعبد الناس ويطلبون من الكهنة أن تطرد الشياطين من مدينتهم، ثم يكسرون صيامهم بالخبز المعجون بالماء. وبعد أن يقوموا بصلاتهم ويكسروا صيامهم، كلهم في ساعة معينة كي يعبدوا الشمس عبادة رجل واحد، يأتي إنكا الدم الملكي من الحصن كرسول من الشمس وهو يرتدي عباءة فخمة تلف جسمه ويمسك رمحاً بيده. يزدان الرمح بالريش الملون وخواتم الذهب من رأسه إلى مقبضه. يركض من حصنه إلى أسفل الجبل وهو يلوح بالرمح حتى يصل إلى الساحة الكبرى حيث توضع الجرة الذهبية التي كانت تستخدم للأضاحي وفيها عصير الذرة المخمر. هنا يكون في انتظاره أربعة من رجال الدم الملكي كل منهم يحمل بيده رمحاً وتلفه عباءة مرفوعة استعداداً للجري. يلمس الرسول الرماح الأربعة برمحه ويخبر أصحابها أن الشمس قد أمرتهم كرسل أن يطردوا الشياطين من المدينة. يتفرق رجال الإنكا الأربعة ويذهبون خارج المدينة عبر أربعة طرق ملكية تؤدي كل منها إلى قسم من هذا العالم. وهم يركضون، يخرج الناس كباراً وصغاراً إلى بوابات بيوتهم ويطلقون صيحات الفرح، والغبطة تهز ثيابهم وكأنهم ينفضون عنها الغبار وهم يصرخون:(ليذهب الشيطان. كم نحن مسرورون في مثل هذا الاحتفال. يا خالق كل الأشياء، أعطنا العمر كي نرى احتفال السنة القادمة.) وبعد أن ينفضوا ملابسهم يمرروا أيديهم على رؤوسهم وأذرعتهم وأرجلهم وكأنهم يغسلونها. كل هذا ليطردوا

الشياطين من بيوتهم، أما رجال الإنكا فهم الذين يُخرِجون الشياطين من شوارع المدينة التي يَجْرُون فيها. يرقص الجميع والإنكا نفسه بينهم ويتحممون في الأنهار والينابيع ويقولون إنهم تخلصوا من الأمراض. ثم يأخذون مشاعل كبيرة ويمررونها أمام بعضهم بعضاً ويلامسونها ويقولون:(ليذهب الضر بعيداً) أما العداؤون فيركضون ومعهم الرماح إلى مسافة ربع فرسخ خارج المدينة حيث ينتظرهم أربعة آخرون يستلمون منهم الرماح ويركضون بها. وهكذا تُحمل الرماح على التناوب إلى مسافة خمسة أو ستة فراسخ. عند نهاية هذه المسافة يغتسل العداؤون ويغسلون أسلحتهم بالنهر ويرفعون الرماح مشكلين حدوداً لايمكن ان تعود إليها الشياطين المطرودة.

أما زنوج غينيا فيطردون الشيطان سنوياً من المدن بمواعيد منفصلة عن هدف طقوسها. في أكسيم عند ساحل الذهب يسبق هذا الطرد السنوي احتفال يدوم ثمانية أيام يعمها الفرح والوثب والرقص والغناء كما يتخللها حرية الهجاء المطلق للكبير والصغير وتُثار فيها الفضائح الكبيرة ويغنون بحرية تامة عن عيوب ومساوئ الآخرين مهما علا أو انخفض مقامهم الاجتماعي دون إنزال أية عقوبة أو إظهار أدنى إزعاج لهم. في اليوم الثامن يطردون الشيطان بصرخة مخيفة ويركضون خلفه بالعصي والحجارة أو بأي شيء في متناول أيديهم. وبعد أن يطردوا الشيطان بعيداً يعودون جميعاً إلى المدينة. بهذه الطريقة يُطرد الشيطان من أكثر من مئة مدينة في آن معاً. ولكي يضمنوا أنه لن يعود إلى بيوتهم ثانيةً تغسل النساء وتفرك الأواني الفخارية والخشبية ليخلصنها من النجاسة والشيطان.

وفي كيب كوست كاسل في ساحل الذهب شاهد إنكليزي الطقس في تشرين الأول من عام 1844 ووصفه على الشكل التالي. لقد أحيا السكان العادة السنوية لطرد الروح الشريرة أبونسام هذه الليلة. في الساعة الثامنة تماماً أطلِقَت النار من الحصن وبدأ الناس بإطلاق النار من بنادقهم القديمة من بيوتهم. وقد أخرجوا أثاثهم من البيوت وراحوا يضربون في كل زاوية من زوايا الغرف بالعصي وغيرها وهم يصرخون بأعلى صوت ممكن لكي يخيفوا الشيطان. وبعد أن تخيلوا أنه طُرد خارجاً، طاردوه في الشوارع وهم يرمون عليه المشاعل ويصرخون ويزعقون ويضربون العصي ببعضها بعضاً ويقرقعون على مقاليهم القديمة ويصدرون ضجيجاً

رهيباً ليهرب الشيطان من المدينة إلى البحر. يسبق هذا الطقس أربعة أيام من الصمت المطبق؛ فإطلاق النار ممنوع، ودق الطبول ممنوع، كما يمنع الجدال والثرثرة بين الناس. وإذا تخاصم رجلان منهم وأصدرا جلبة في المدينة يُؤخذان فوراً إلى الملك الذي يفرض عليهما غرامة باهظة. وإذا ما عُثِر على كلب أو شاة أو عنز شارد في الطريق، يمكن أن يُقتل أو يأخذه أحد ولا يحق لصاحبه الأصلي أن يطالب بتعويض على الإطلاق. والمقصود من هذا الصمت هو خداع أبونسام كي يبتعد عن حراسه فيأخذوه على حين غرة فيهرب مذعوراً من المكان. وإذا ما مات أحد أثناء فترة الصمت هذه، لا يسمح لذويه بالبكاء عليه إلا بعد مضي الأسابيع الأربعة.

وأحياناً يكون تاريخ طرد الشياطين السنوي ثابتاً بناءً على المواسم الزراعية. فمثلاً يؤدي قوم هوس توغولاند في أفريقيا الغربية طقوس الطرد سنوياً قبل أن يقتلع الناس بطاطا اليام الجديدة. يستدعي القادةُ الكهنةَ والسحرةَ ويطلبون منهم تنظيف المدينة وإبعاد الشياطين لأن الناس بحاجة إلى أكل اليام وإلى الانفراج والفرح. يناشدون الأرواح الشريرة والساحرات المؤذيات والأمراض وكل الشرور التي تبتلي الناس يناشدونها أن تأتي جميعاً إلى صرر يملؤونها بأوراق الأشجار والنباتات المتعرشة ويربطونها إلى عواميد يحملونها وينصبونها في عدة طرقات خارج المدينة. في أثناء الليلة التالية يمنع إضرام النار أو أكل الطعام. وفي الصباح التالي تكنس النسوة مصلاهن وبيوتهن وتودع الكُناسة في أطباق خشبية مكسورة. ثم يصلي الناس قائلين:(يا كل الأمراض التي هاجمتنا وابتلت أجسادنا ، لقد أتينا اليوم لنرميكِ بعيداً.) وهنا يركضون بكل ما أوتوا من قوة باتجاه جبل أداكلو وهم يصرخون: (اخرجوا اليوم! اخرجوا اليوم! يامن تقتلون كل الناس، اخرجوا اليوم! أنتم أيها الأرواح الشريرة، اخرجوا اليوم! يا كل ما يسبب لنا ألم الرأس، اخرجوا اليوم! آنلو وأداكلو هما المكانان المناسبان لكل الشرور! وعندما يَصِلون إلى شجرة معينة على جبل أداكلو يلقون بكل شيء ويعودون إلى بيوتهم.

وفي كيريوينا في جنوب شرق غينيا الجديدة، يحتفل الناس بعد جمع اليام ويرقصون لأيام عديدة، كما يعرضون الكثير من الممتلكات مثل أساور أعلى الذراع وأموال من العملة المحلية وغيرها على منصة تُنصَب لهذا الغرض. وعند انتهاء الاحتفالات يلتم الناس جميعاً ويطردون الأرواح الشريرة من القرية بالصراخ والضرب

على عواميد المنزل وقلب كل الأشياء التي يمكن أن تندس تحتها روح شريرة مخادعة. أما التفسير الذي قدمه الأهالي للبعثة فهو أنهم يكرمون الأرواح بتقديم كل شيء ثمين ثم يرحّلونها. ألم يروا الرقص ويسمعوا الغناء ويلتهموا اليام، وتُرصد لهم روح المال وكل الأشياء الثمينة على المنصة. ماذا تريد الأرواح أكثر من ذلك؟! إذن عليهم أن يخرجوا.

وعند الهوس في شمال شرق الهند، أكبر احتفالات السنة هو بيت الحصاد، ويقيمونه في كانون الثاني عندما تمتلئ المخازن بالحبوب ويعج الناس ـ على حد قولهم ـ بالخنائس. وعندهم فكرة غريبة وهي أنه في هذه الفترة تسيطر على الناس نزعة الشر وأنه من الضروري جداً لسلامة الشخص تنفيس الشحنة بفتح منفذ للعواطف لفترة محددة. تبدأ الطقوس بالتضحية لإله القرية بثلاثة طيور وديك ودجاجتين يجب أن تكون إحداها سوداء. ويقدمون مع الأضاحي أزهار شجرة البالاس وخبزاً مصنوعاً من طحين الأرز، وبذور السمسم. يقدم هذه العطايا كاهن القرية الذي يصلي لأجل حفظ الأولاد من كل مرض ومكروه طوال العام القادم، وينعمون بأمطار وفيرة ومحصول جيد. وفي بعض المناطق تُقام الصلوات على أرواح الموتى. في هذه الآونة يفترضون أن شيطاناً قد حل على المكان، وللتخلص منه يخرج الرجال والنساء والأطفال في موكب حول القرية وفي جميع أرجائها، والعصي في أيديهم، وكأنهم يبحثون عن طرائد وهم يغنون أغاني طائشة جامحة ويصرخون بصخب حتى يتأكدوا أن الروح الشريرة قد هربت. ثم ينصرفون إلى الاحتفال وتناول بيرة الأرز حتى يسكروا وينغمسوا بالملذات التي تتبع ذلك. هنا يصبح الاحتفال عيداً زُحَلياً للمتعة الفوضوية. أثناء هذا العيد يترك الخادمون واجباتهم لأسيادهم، ولايحترم الأطفال أهليهم ولايقدر الرجال نساءهم وتنسى النساء جميع مبادئ الاحتشام والكياسة واللطف فيصبحن ماجنات هائجات. من طباع الهوس أنهم هادئون، متحفظون، محتشمون مع النساء. لكنه في هذا المهرجان تنقلب طبيعتهم انقلاباً مؤقتاً. يشتُم الأبناء والبنات أبويهم بلغة بذيئة، وكذلك يفعل الأبوان مع أولادهم؛ ويصبح النساء والرجال مثل الحيوانات في ميولهم الغزلية. أما قوم المنداري وهم جيران وأقارب الهوس فيقيمون المهرجان تقريباً بالطريقة نفسها، وبدرجة الفوضوية ذاتها. يكرم سادة المزارع عمالهم ويسمحون لهم بمخاطبتهم بلغة حرة. إنه

احتفال بيت الحصاد؛ وهو نهاية عناء سنة كاملة، واستراحة قصيرة قبل الشروع بالعمل ثانيةً.

وعند قبائل كوش الهندوسية، مثل الهوس والمنداري، يحصل طرد الشياطين بعد الحصاد. وعندما يأتون بآخر المحصول، يعتقدون أنه من الضروري أن يطردوا الأرواح الشريرة من المخازن. يأكلون نوعاً معيناً من العصيد ويسحب رب الأسرة فتيل بندقيته ويطلق النار على الأرض. ثم يخرج فيلقم البندقية ويطلق حتى تسخن السبطانة، ويقوم جيرانه بالتصرف عينه. ثم يقضون النهار التالي بالمرح. ويسمون هذا الاحتفال في تشيترال **طرد الشيطان**. ومن الناحية الأخرى يطرد الخوند في الهند الشياطين في موسم البدار بدلاً من الحصاد. يعبدون في هذه الفترة بيتيري بينو، إله الوفور والمكاسب بكل أشكالها. في اليوم الأول من الاحتفال يصنعون سيارة بسيطة من سلة موضوعة على بعض العصي، ويضعون دوائر من قصب البامبو مكان العجلات. يأخذ الكاهن السيارة أولاً إلى بيت قائد القبيلة الذي يتمتع بالأسبقية في كل الطقوس المتعلقة بالزراعة. هنا يتلقى القليل من كل نوع من البذور وبعض الريش. ثم يأخذ السيارة إلى جميع بيوت القرية التي يسهم كل منها ببعض البذور. أخيراً ينقلون السيارة إلى خارج القرية بحماية الشبان الذين يتضاربون ويضربون الهواء بعنف بعصي طويلة. هنا يسمون السلة حصة **الأرواح الشريرة، مفسدي البذور**. ويعتبرون أن تلك الأرواح قد طُردت مع السلة، ومادام أنهم تخلوا عنها وعن محتوياتها، فإنهم لايجدون مبرراً للتدخل في بقية البذور.

يمارس أهالي بالي، جزيرة في شمال شرق جافا، الطرد الدوري للشياطين على مدى واسع. وغالباً ما يختارون موعد الطرد في يوم غياب القمر في الشهر التاسع عندما تخرج الشياطين من البلاد لأنها دفئت. يصدر الكاهن الأوامر بطردها بالقوة وإلا تصبح الجزيرة غير صالحة للسكن. في اليوم المحدد يتجمع أهالي القرية أو المقاطعة في المعبد الرئيسي. وهنا عند مفترق الطرق يخرجون العطايا للشياطين. وبعد تلاوة الصلوات من قبل الكهنة يدعون الشياطين لتناول الوجبة التي أُعدت لأجلهم وتكون الدعوة على شكل نفخ قوي بالبوق. وفي الوقت نفسه يتقدم عدد من الرجال ويضرمون مشاعلهم من المصباح المقدس المشتعل أمام الكاهن الأكبر. وبعدها على الفور ينتشرون في كل اتجاه، ويتبعهم المنتظرون ويمشون في الشوارع والأزقة

ينادون:(اخرج! اذهب بعيداً!) أينما يمرون يسرع الناس من بيوتهم بقعقعة مصمِّة على الأبواب والأعمدة وصناديق الأرز وغيرها، ليشاركوا في طرد الشياطين. وبعد أن تُطرَد من البيوت تهرب العفاريت إلى الوليمة التي تنتظرهم في العراء؛ لكن الكاهن يستقبلهم باللعنات التي ستطردهم نهائياً من المنطقة. وعندما يغادر آخر الشياطين يتبع الصخبَ الهائل صمتٌ مطبق يدوم ليوم آخر. ويعتقدون أن الشياطين متلهفة للعودة إلى مسكنها القديم، ولكي يجعلوها تعتقد أن بالي ليست بالي بل جزيرة صحراوية، لا يتحرك أحد من مسكنه مدة أربعة وعشرين ساعة. وحتى إنهم يوقفون كل عمل منزلي بما فيه الطبخ. ولايسمح لأحد أن يَظْهَرَ في الطرقات سوى الحراس. ويعلقون أكاليل الشوك عند المداخل لينبهوا الغرباء ألا يدخلوا. لايرفعون هذا الحصار إلا بعد اليوم الثالث، لكن العمل يبقى ممنوعاً في حقول الأرز وفي البيع والشراء في الأسواق. يبقى معظم الناس في بيوتهم يمضون الوقت بورق اللعب أو النرد.

في تنكوين يقيمون ما يسمونه **تشيكيوداو**، الطرد العام للأرواح المؤذية، مرة كل سنة خصوصاً عندما يتفشى الموت بينهم أو بين الفيلة أو في حظيرة القائد أو مواشي البلاد. ويعزون هذا الموت إلى أرواح الموتى الشريرة مثل الذين قُتلوا لخيانتهم أو لتمردهم أو لتآمرهم على قتل الملك أو القادة أو الأمراء، وأنهم انتقاماً لعقوبتهم يرغبون في تدمير شامل والقيام بعنف مريع. ولمنع ما تقوله خرافتهم، يطبقون قانون تشيكيوداو كوسيلة مناسبة لطرد الشيطان وتطهير البلاد من الأرواح الشريرة. غالباً ما يحددون موعد الطقس في الخامس والعشرين من شباط أي بشهر واحد بعد بداية العام الذي يبدأ في الخامس والعشرين من كانون الثاني. يشكل هذا الشهر موسم الاحتفالات والمرح بشتى أشكاله كما تنتشر بينهم الرخصة العامة. يضعون طوال هذا الشهر الخاتم العام في صندوق، ويحرصون أن يكون الخاتم في وضعية النائم. ويغلقون جميع المحاكم القانونية؛ ولايقبضون على المَدينين؛ أما الجرائم الصغيرة مثل السرقات الصغيرة والشجارات والسطو كلها فلايعاقب عليها؛ أما الخيانة والقتل فيسجلون تقريراً عنها ويوقفون فاعلها حتى انتهاء فترة الفوضى وطرد الأرواح الشريرة. تخرج أعداد الجنود الكبيرة والمدفعية بألوانها الزاهية وأبهة الحرب، ثم يبدأ القائد بتقديم عطايا اللحم لأرواح المجرمين والأرواح المؤذية – جرت

العادة عندهم أن يقدموا وليمة للمجرم قبل تنفيذ الحكم – ويقدم لهم الشراب والطعام وهو يدينهم بلغة غريبة محدِّداً شخصياتهم وجرائمهم المرتكبة بالأرقام، وأنهم أثاروا الفوضى في البلاد وقتلوا الفيلة والخيل وغيرها ، لهذا لابد من تأديبهم وترحيلهم من البلاد. تطلق النار من ثلاثة بنادق كإشارة أخيرة وتطلق المدفعية والبنادق بعدها النار لتُهرِّب بأزيزها الشياطين. والغريب أنهم يصبحون على يقين أنها هربت بالفعل.

وفي كمبوديا يطردون الأرواح الشريرة في آذار. يجمعون قطعاً من التماثيل والحجارة المتكسرة ويعتبرونها مَسكناً للعفاريت ويأخذونها إلى العاصمة. وهنا يجمعون أكبر عدد ممكن من الفيلة. وفي مساء ليلة منتصف الشهر القمري يطلقون وابلاً من الرصاص ويسوقون الفيلة بعنف ليجبروها على طرد الشياطين. يستمر هذا الطقس ثلاثة أيام متتالية. وفي سيام يتم طرد العفاريت الفعلي في اليوم الأخير من السنة الماضية. يطلقون إشارة من البندقية من القصر وتجيبهم بندقية أخرى من المحطة التالية ، وهكذا يستمر الإطلاق من محطة إلى محطة حتى يصل البوابة الخارجية للمدينة. بهذا الشكل تُطرد العفاريت مرحلةً مرحلة. وحالما تصبح العفاريت خارج البوابة ، يطوقون جدران المدينة بحبل مقدس ليمنع العفاريت المطرودة من العودة. يصنعون هذا الحبل من أعشاب النجيل ويلونونه بخطوط متناوبة بين الأحمر والأصفر والأزرق.

ويبدو أن الطرد السنوي للعفاريت والساحرات وكل من له تأثيرات شريرة كان منتشر بين الوثنيين في أوروبا ؛ والدليل على ذلك هو ماتبقى من عادات حتى يومنا هذا. الوتياك هم قوم من فنلدندا يقطنون روسيا الشرقية ، وجرت العادة عندهم أن تتجمع صبايا القرية في اليوم الأخير من السنة أي عيد رأس السنة ، مسلحان بعصي مفلوقة من رأسها تسعة فلوق. يضربن بهذه العصي كل زوايا المنزل وحديقته قائلات:(إنا نطرد الشيطان من القرية.) ثم يرمين العصي في النهر لتطفو ومعها الشيطان إلى القرية المجاورة التي يقوم أهلها بدورهم في الطرد. وفي بعض القرى يتم الطرد بطريقة مختلفة إذ يأخذ شباب القرية العازبون من كل بيتٍ البرغلَ واللحمَ والخمرَ ويذهبون إلى الحقول، يضرمون ناراً تحت شجرة تنوب ، ويسلقون البرغل ويأكلون ما أتوا به من طعام بعد التلفظ بالكلمات التالية :(اذهب إلى البرية ، لا

تدخل البيوت.) ثم يعودون إلى القرية ويدخلون كل بيت فيه صبايا. ينقضون على الصبايا ويلقونهن على الثلج قائلين:(لتغرب عنكِ أرواح المرض.) ثم يقسّمون ما تبقى من برغل وأطعمة على البيوت بشكل يتناسب مع الكيمة التي أسهم فيها كل بيت. أما بالنسبة لووتياك في مقاطعة ماليز، فيلقي الشبان على الثلج أي شخص يصادفونه في المنزل، ويسمون هذا التصرف طرد الشيطان، وينثرون بعضاً من البرغل المسلوق في النار وهم يقولون:(يا الله، لا تبتلِنا بالمرض والوباء، ولا تجعلنا فرائس لحيوانات البرية.) لكن أقدم شكل لهذا الطقس هو الذي يقيمه الووتياك في كاسان. في البداية، تقدم أضحية للشيطان عند الظهيرة. ثم يمتطي كل الرجال خيولهم ويتجمعون في مركز القرية ليقرروا بأي البيوت سيبدؤون. وعندما يتنازعون في تحديد المنزل الأول يلجؤون إلى تقييد عنان الخيل إلى وتد ويتسلحون بالسوط والهراوات وحُزَمٍ من الأغصان المشتعلة. يعتقدون أن هذه الأغصان المشتعلة لها أعظم الأثر في إخافة الشيطان. ثم يتابعون وهم يطلقون الصرخات المفزعة ويضربون في كل زاوية من زوايا الحديقة ويغلقون الباب ويبصقون على العفريت المطرود. ثم يكررون هذه العملية في كل منزل. ثم يمتطون خيولهم ويخرجون من القرية وهم يطلقون الزعقات الوحشية ويلوحون بالهراوات في جميع الاتجاهات. وخارج القرية يلقون بالهراوات ويبصقون ثانيةً على الشيطان. أما التشيريميس وهم فنلنديون آخر في شرقي روسيا، ويطردون الشيطان من مساكنهم عن طريق ضرب الجدران بهراوات من خشب النبوت. كما يطلقون النار للغرض نفسه ويطعنون الأرض بالسكاكين، ويقحمون قطعاً خشبية مشتعلة في الشقوق. كما يقفزون فوق النار وهم ينفضون ثيابهم، وفي بعض المناطق ينفخون بأبواق طويلة من لحاء شجرة الدبق لإخافة الشيطان. وعندما يهرب إلى الغابة يضربون الأشجار بكعك الجبنة والبيض الذي أعدوه ليأكلوا منه في تلك المناسبة.

وفي أوروبا المسيحية استمرت العادة الوثنية القديمة لطرد القوى الشريرة حتى العصر الحديث. ففي قرى كالابريا يستهلون شهر آذار بطرد الساحرات. تبدأ عملية الطرد في الليل مع قرع أجراس الكنيسة، عندما يركض الناس في الشوارع وهم يصرخون:(أتى آذار.) يقولون أن الساحرات تتجولن في آذار لذا يكررون هذا الطقس كل مساء يوم جمعة من هذا الشهر. وكما هو متوقع، أُلحقت العادة الوثنية

باحتفالات الكنيسة. وفي ألبانيا، عشية بعث المسيح، يحمل الشبان مشاعل مضرمة من خشب الراتنج ويؤرجحونها وهم يمشون في موكب في القرية. وفي النهاية يلقون المشاعل في النهر وهم يصرخون:(هاه، يا كور! إنا نلقيك في النهر، مثل هذه المشاعل كي لا تعود أبداً.) ويعتقد فلاحو سيليسيا أنه في يوم الجمعة الطيبة، تقوم الساحرات بجولاتهن ويمارسن سلطتهن القوية في الأذى. في أويلس بالقرب من سترهلينز، يتسلح الناس في ذلك اليوم بالمقشات القديمة ويسوقون الساحرات من منزل إلى منزل ومن مرابط الماشية ويطلقون العجعجة والقعقعة.

في أوروبا الوسطى أفضل الأوقات، أو بالأحرى كان أفضل الأوقات، لطرد الساحرات هو ليلة والربورغيس، أي عشية الأول من أيار عندما يفترضون أن القوى المشؤومة المؤذية في ذروة إساءتها. في تايرول مثلاً، كما هو في أماكن أخرى، يأخذ طرد قوى الشر في هذا الموسم اسم حرق الساحرات. ويحصل في الأول من أيار، وينشغل الناس أياماً قبل تلك المناسبة. في يوم الخميس يحضِّرون حُزماً من قطع الراتنج، وشوكراناً منقطاً بالأحمر والأسود، وإكليل الجبل، وأغصان برقوق السياج. يحتفظون بهذا كله ليحرقه، في الأول من أيار، الرجالُ الذين حصلوا من الكنيسة على إعفاءٍ كاملٍ من الواجبات، أي غفران مطلق. وفي الأيام و الثلاثة الأخيرة من نيسان تُنظَّف البيوت وتُدخَّن بتوت العرعر والسذاب. وفي الأول من أيار، عندما تقرع الأجراس عند الشفق، يبدأ طقس حرق الساحرات. يصنع الرجال والصِّبية جلبةً جراء الضرب بالسوط والأجراس والأواني والمقالي؛ وتحمل النساء المباخر المعلقة بالسلاسل؛ ويطلقون الكلاب من مقاودها ويتركونها سائبة في الطرقات تنبح. حالما تبدأ أجراس الكنائس بالقرع يشعلون حزم الأوراق المربوطة إلى الأعمدة كما يشعلوا البخور. ثم تقرع الأجراس في جميع البيوت وتقرع أجراس العشاء، وتصطك الأواني وتنبح الكلاب ووسط هذا الهرج والمرج يصرخ كل منهم حسب طبقة صوته:

اهربي أيتها الساحرة، اهربي من هنا، أو ستذهب الحراقف معك.

ثم يركضون سبع مرات حول المنازل وباحة الديار والقرية كي تخرج الساحرات من أماكن إقامتها وتهرب. كانت تُمارَس عادة طرد الساحرات في ليلة ولبرجس حتى سنوات قليلة ماضية وربما مازالت سارية بين ألمان بوهيميا. ففي جبال

بوهمروالد يتجمع شبان القرية وشاباتها بعد غروب الشمس، خصوصاً عند معبر الطرق، ويضربون بالسوط وبإيقاع معين بكل ما أوتوا من قوة. تطرد السوط الساحرات على بعد ما يُسمع أصواتها، وتُمنع هذه الكائنات المؤذية من إنزال الضرر بالناس. وفي بعض الأماكن، وبينما يقوم الناس بضرب السوط ينفخ الرعاة في شباباتهم ويسحبون سحبات طويلة بكلام مسموع من بعيد في صمت الليل لأن هذا شديد الفعالية في منع الساحرات.

وهناك فترة سحر أخرى بين عيد ميلاد المسيح وعيد الغطاس، يحرق فيها الناس في بعض أنحاء سيليسيا صمغ الصنوبر طوال الليل بين عيد الميلاد وعيد رأس السنة ليطرد دخانه اللاذع الساحرات والأرواح الشريرة بعيداً عن المنازل وما حولها؛ وفي عشية الميلاد وعيد رأس السنة يطلقون النار فوق الحقول والسهول وفي الجنبات والأشجار، ويلفون الأشجار المثمرة بالقش ليمنعوا الأرواح من إنزال الضرر فيها. وفي عشية عيد رأس السنة، إي عيد القديس سيلفيستر يقوم فتيان بوهيما بطقس يسمونه **الإطلاق على الساحرات**، إذ يجتمعون على شكل حلقات ويطلقون من بنادقهم ثلاث طلقات في الجو لإخافة الساحرات وتهريبهن. ويأتي عيد الغطاس في آخر يوم من الفترة الغامضة التي تدوم اثني عشر يوماً، لذا اختاروه يوماً مناسباً لطرد قوى الشر في أنحاء عديدة من أوروبا. في بورنين عند بحيرة لوسيرن يذهب الصبية في موكب في الليلة الثانية عشر وهم يحملون المشاعل وينفخون بالمزامير ويقرعون الأجراس ويضربون بالسوط لإخافة روحَي الغابة المؤنثتين، ستروديلي وستراتيلي. ويعتقد الناس أنهم إذا لم يصدروا أصواتاً كافية تتناقص ثمارهم لذلك العام. كذلك في لابروغيري، وهي إقليم في فرنسا الجنوبية، يركض الناس عشية الليلة الثانية عشرة في الشوارع ويقرعون أجراسهم على نحو مزعج وغير متناسق، ويقرقعون في أوانيهم، ويفعلون كل شيء كي يصدروا أصواتاً ناشزة. ثم، وفي ضوء المشاعل والحُزَم المشتعلة يطلقون الصراخ، وصيحات المطاردة، وجعيراً ممزق للآذان على أمل أنهم يطردون جميع الأشباح الجوالة والشياطين من المدينة.

الفصل السابع والخمسون
كبش الفداء العام

1ـ طرد الشياطين المتجسدة

لقد تناولنا حتى الآن طرد الشياطين العام كنوع أطلقنا عليه تسمية الطرد المباشر أو الفوري. لم تكن الشياطين مرئية في ذلك النوع من الطرد، أو على الأقل غير مرئية للعين المجردة، فكان الطرد في معظمه عبارة عن ضرب في الهواء وإثارة الصخب لإخافة الأرواح المؤذية وتهريبها. بقي علينا أن نتناول النوع الثاني من الطرد الذي تتجسد فيه الشياطين في شكل مرئي، أو على الأقل محمّلة على وسط مادي يقوم مقام الأداة التي تسحب تلك الأرواح من الناس، أو من القرية أو المدينة.

يحتفل البومو في كاليفورنيا كل سبع سنوات بطرد الشياطين التي يمثلونها على هيئة بشر متنكرين. يجتمع عشرون أو ثلاثون رجلاً يلبسون لباساً مضحكاً ويطلون أنفسهم بألوان همهجية ويضعون على رؤوسهم أوعية من القار ويذهبون خلسةً إلى الجبال المجاورة. إنهم يمثلون الشياطين. ثم يصعد منادٍ إلى أعلى دار التجمع، ويلقي خطبة على الجموع. وعند إصدار إشارة متفق عليها في المساء يأتي المتنكرون من الجبال، وعلى رؤوسهم أوعية القار الملتهبة مع صخب وحركات وبأزياء اخترعها العقل البدائي لتمثل العفاريت. تهرب النساء والأطفال الخائفون على حياتهم، ويحتشد الرجال ضمن دائرة، وبناءً على مبدأ محاربة الشيطان بالنار يلقون الجمر في الهواء ويزعقون ويولولون ويقومون بحركات اندفاعية تقوم بها الشياطين المهاجمة المتعطشة للدم، مشكلين مشهداً مريعاً، وبمشهدهم المريع هذا يدبون الرعب في قلوب مئات النساء المحتشدات اللواتي يصرخن ويَدُخنَ متمسكات بالمشاهدين الأشاوس. تنجح أخيراً الشياطين بدخول دار التجمع، ويدخل أشجع الرجال ليجري مفاوضات معهم. وفي نهاية هذه المهزلة يستجمع الرجال شجاعتهم

ويطردون الشياطين من دار التجمع، وبعد شجار هائل ولغط صوري تُطرد الشياطين إلى الجبال. وفي الربيع، حالما يكتمل نمو أوراق الحور على ضفاف النهر يقوم هنود الماندا باحتفال سنوي كبير يشكل طردُ الشياطين أحدَ أجزائه. يلونون رجلاً بالأسود ليمثل الشيطان، ويدخل القرية قادماً من الجرد، ويطارد النساء ويخيفهن، ويلعب دور ذكر الجاموس في رقصة الجواميس بهدف تأمين مورد وفير من الجواميس في العام التالي. أخيراً يُطرد من القرية وتلحقه النساء بالهسهسة والتهكم، وتضربه بالعصي، وترشقه بالأوساخ.

يؤمن بعض أصلاء كوينزلاند الوسطى بالكائنات المؤذية — مولونغا ـ التي تجوس خلسة وتقتل الرجال وتغتصب النساء ما لم تؤدَّ طقوس معينة. تستمر هذه الطقوس خمس ليال يسودها الرقص الذي يؤديه الرجال فقط وهم ملونون يرتدون ملابس مزينة. وفي الليلة الخامسة يأتي مولونغا شخصياً يمثله رجل مزخرف بالعملة الذهبية والريش، يحمل رمحاً طويلاً مزين الرأس بالريش، ويثب من الظلام على المشاهدين ويتظاهر وكأنه سيخترقهم. عندها تصبح الإثارة كبيرة والصرخات والزعقات عالية، لكنه بعد مهايأة هجوم آخر يختفي العفريت خلف جنح الظلام. وفي الليلة الأخيرة من السنة تُطهَّر قصور الملوك في كمبوديا من الشياطين. ويلون الرجال أنفسهم وكأنهم عفاريت وتطاردهم الفيلة في فناء القصور. وبعد أن يُطردوا يمددون خيطاً مقدساً من القطن حو ل القصر ليمنعهم من العودة. وفي منذرآباد، وهي مقاطعة في ميسوري جنوبي الهند، عندما تتفشى بينهم الكوليرا أو جدري الماء، يتجمع السكان ويتوسلون لعفريت المرض الممثل بمجسم خشبي يحملونه في منتصف الليل إلى المنطقة المجاورة. ويقوم سكان المنطقة المجاورة بدورهم في نقله إلى جيرانهم وهكذا حتى يُطرد العفريت من قرية إلى أخرى ليصل إلى ضفة نهر حيث يلقون به هناك.

لكن غالباً ما تُطرد العفاريت دون تمثيلها على الإطلاق، لكنهم يدركون وجودها غير مرئية على أداة أو مادة ملموسة ينقلونها بعيداً. وهنا من المناسب أن نميز بين الطرد الدوري والطرد المعتمد على مناسبات معينة. لنبدأ بالطرد المتفرق.

2ـ الطرد المتفرق للشياطين المحمولة على أدوات مادية.

قد تكون الأداة التي تنقل العفاريت من أنواع عديدة منها سفينة صغيرة أو قارب. ففي المنطقة الجنوبية من جزيرة سيرام، عندما تعاني القرية برمتها من المرض، يصنعون سفينة صغيرة ويملؤونها بالأرز، والتبغ، والبيض وغيره من المواد التي يساهم بها كل الناس. ويرفعون فوق السفينة شراعاً صغيراً. وعندما يصبح كل شيء جاهزاً، ينادي رجل بأعلى صوته:(أنت أيها المرض، أنت ياجدري الماء، يا ملاريا، ويا حصبة.. إلخ، يامن زرتمونا وأقمتم بيننا طويلاً وكبدتمونا الخسائر المؤلمة، ستتوقفون الآن عن إصابتنا، وقد أعددنا هذه السفينة لكم وزودناها بعليق يكفي لرحلتكم. لن ينقصكم الطعام أبداً، ولا أوراق التنبول، ولا جوز الأريكا ولا التبغ. ارحلوا وابحروا بعيداً عنا على الفور؛ ولا تقتربوا منا ثانيةً؛ بل اذهبوا بعيداً من هنا. فليسوقكم المد والجزر والرياح بسرعة بعيداً حتى نعيش زمناً خالياً من المرض، لا طلعت عليكم شمس.) ثم يحمل عشرة رجال من أصل اثني عشر رجلاً السفينة إلى الشاطئ، ويتركونها تتجرف مع نسيم البر، وهم كلهم قناعة أنهم تحرروا من المرض إلى الأبد، أو على الأقل حتى المرة القادمة. وإذا ما أصابهم المرض ثانيةً، فهم على يقين من أنه ليس المرض نفسه بل مرض مختلف، والذي سيُطرد في الوقت المناسب وبالطريقة عينها. وعندما تغيب السفينة المحملة بالعفريت عن الأنظار، يعودون إلى القرية حيث ينادي منادٍ:(لقد رحل المرض، واندثر، لقد طرد بعيداً في البحر.) هنا يخرج الناس من بيوتهم يتناقلون الخبر بفرحة كبيرة، ضاربين بالنواقيس والأدوات الرنانة.

ويلجؤون إلى طقوس مشابهة في جزر شرقي الهند. في تيمورلاوت، لتضليل العفاريت التي تسبب المرض، يصنعون قارباً ذا شراع مثلث وفيه صورة لرجل، ومزود بمؤونة رحلة طويلة، ويتركونه ينجرف مع المد والجزر والرياح. وهو يُدفع نحو البحر يصرخ الناس:(اذهب أيها المرض من هنا؛ ارجع؛ فماذا تفعل في هذه الأرض الفقيرة؟) ثم يقتلون خنزيراً بعد مضي ثلاثة أيام على هذا الطقس، ويقدمون جزءاً من لحمه لداديلا الذي يعيش في الشمس. يقول أحد أكبر الرجال:(يا سيدنا الكبير، أتوسل إليك أن تعافي أحفادنا، وأولادنا، ونساءنا ورجالنا حتى نتمكن من أكل لحم الخنزير والأرز ونشرب خمرة النخيل. سأفي بوعدي. كُلْ قِسْمَتك، وعافِ جميع أهل

القرية.) وإذا ما حط القارب على أي بقعة مأهولة، سيتفشى فيها المرض. لذلك يسبب القارب القادم ذعراً كبيراً بين أهالي السواحل، الذين يحرقونه على الفور. ففي جزيرة بورو، يبلغ طول القارب الذي يحمل العفاريت عشرين قدماً وهو مجهز بأشرعة ومجاذيف ومرساة وغيرها، ومزود بمؤونة وفيرة. ويستمر الناس في ضرب الطبول ودق النواقيس ليلةً ونهاراً كاملين، ويندفعون ليخيفوا العفاريت. وفي الصباح التالي، يضرب عشرة من الرجال العتيدين الناس بالأغصان المغمسة سابقاً بوعاء ماء خزفي. وحالما يفعلون ذلك يركضون إلى الشاطئ ويضعون الأغصان على القارب، ويبحرون قارباً آخر بسرعة فائقة، ويجرون القارب المحمل بالمرض بعيداً في عمق البحر. ثم يتركونه هناك وينادي أحدهم:(يا جدنا جدري الماء، اذهب بعيداً، اذهب بإرادتك، وقم بزيارة بلد أخرى؛ لقد أعددنا لك طعاماً يكفي للرحلة، وليس لدينا ما نعطيه أكثر من ذلك.) عندما يترجلون على البر يعودون ويغتسلون في البحر بشكل جماعي. في هذا الطقس كان الغرض من ضرب الناس بالأغصان واضحاً، ألا وهو تخليصهم من عفاريت المرض المفترض أنها تنتقل إلى الأغصان. لهذا كانوا يسرعون بإيداع القارب في البحر وإرساله بعيداً. ولهذا في المقاطعات البعيدة عن البحر من سيرام، عندما يتفشى جدري الماء أو أي مرض آخر، يضرب الكاهن جميع البيوت بأغصان مقدسة يرمونها لاحقاً في النهر حتى ينتهي بها المآل في البحر، تماماً كما كان يفعل الووتياك في روسيا الذين استخدموا العصي لطرد الشياطين من القرية ورميهم في النهر، الذي ينقل الأحمال الضارة بعيداً. وقد شاعت خطة وضع دمى في القارب لتمثل المرضى كي تجتذب العفاريت خلفها. والمثال الذي سقناه من القبائل الوثنية على ساحل بورنيو إنما يهدف إلى طرد المرض الوبائي على الشكل التالي. يحفرون صوراً لأشكال بشرية من لب نخيل الساغو ويضعونها على رمث أو قارب أو سفينة ماليزية بكامل أشرعتها ومزودة بالأرز والأطعمة الأخرى. ويزينون القارب بورود نخيل الأريكا وبأشرطة مصنوعة من أوراقه، وبعد اكتمال زينته يتركونه يطفو مع المد والجزر، والناس كلهم أمل أن يكون المرض قد رحل معه.

وغالباً ما تأخذ الأداة التي تحمل العفاريت أو مرض المجتمع بعيداً على شكل كبش فداء. في الهند الوسطى، عندما تتفشى الكوليرا في قرية، يذهب كل منهم إلى بيته بعد غروب الشمس. ثم يتجمع الكهنة في الشوارع ويأخذون من سقف كل

بيت قشة يحرقونها كهدية مع أرز وسمنة وكركم، يقدمونها في مقام ما شرق القرية. ويلطخون الدجاج باللون القرمزي ويقودونه باتجاه الرياح، لأنهم يعتقدون أنها تحمل المرض معها. وإذا أخفقت في ذلك يجربون المعيز، وأخيراً الخنازير. وعندما تصيب الكوليرا البهار، والمالان والكورمي في الهند، يأخذون عنزة أو جاموسة شريطةَ أن تكون سوداء قدر الإمكان. ثم بعد صر بعض الحبوب، وأفصاص ثوم ورصاص أحمر في قماش أصفر، يأخذونها خارج القرية. ثم ينقلون الحيوان خارج حدود القرية ولا يسمحون له بالعودة. وأحياناً يلطخون الجاموسة بخضاب أحمر ويسوقونها إلى القرية المجاورة حيث تحمل معها الوباء.

ولدى كل عائلة من عائلات الدينكا، وهم شعب رعوي في منطقة النيل الأبيض، بقرة مقدسة. عندما تتهدد البلاد بالحرب أوالمجاعة أو أي كارثة عامة، يطلب قادة القرية من عائلة معينة تسليم بقرتهم المقدسة ليستخدموها ككبش فداء. تقود النساء ذلك الحيوان إلى شفا النهر ثم يعبرنه إلى الضفة الأخرى ويتركنها تسيب حتى تأكلها الوحوش الضارية. ثم تعود النساء بصمت دون النظر إلى الخلف، فهن يتخيلن أنهن لو نظرن ولو نظرة سريعة إلى الخلف لبطل مفعول الطقس. وفي عام 1857 عندما عانى الأيمارا وهم هنود بوليفيا من الوباء، يحمِّلون على لاما ملابس أناس أصابهم الوباء ويرشون النبيذ على الملابس ويتركون الحيوان يسيب في الجبال على أمل أنه يبعد المرض. غالباً ما يكون كبش الفداء رجلاً. فمثلاً من فينة إلى أخرى كانت الآلهة تحذِّر ملك أوغندة من أعدائه البانيرو الذين ينصبون السحر له ولشعبه كي يمرضوا ويموتوا. ولمنع مصيبة كهذه، كان يرسل الملك كبش فداء إلى حدود بورنيو، أرض الأعداء. كان كبش الفداء إما رجلاً أو صبياً أو امرأة مع ابنها، يختارونه بعلامة مميزة أو عطل جسدي ميزته به الآلهة ليميزه الناس على أنه ضحية. ومع الضحايا البشرية كانوا يرسلون بقرة، وعنزاً، وطائراً، وكلباً؛ وكان يرافقهم حارس قوي إلى المنطقة التي حددها الله. وهناك كانوا يكسرون أطراف الضحية ويتركونها تموت ميتة مطوَّلة في أرض الأعداء لأنها لاتستطيع حتى الزحف إذا ما أرادت العودة إلى أوغندة. وكانوا يعتقدون أن الوباء قد انتقل إلى الأضاحي ومن ثم إلى الأشخاص وأخيراً يعود إلى البلد الذي أتى منها.

كوقاية من الوباء، يختار بعض قبائل الصين الأصلية رجلاً عتيداً ليقوم بدور كبش الفداء. وبعد أن يلطخ وجهه بالألوان، وبمساعدة الكاهن يؤدي حركات غريبة ليجذب إليه التأثيرات الوبائية الضارة. ثم يطارد الرجالُ والنساءُ كبش الفداء ويقرعون الأجراس والطبلات ويقودونه بسرعة كبيرة خارج المدينة أوالقرية. وفي البنجاب هناك علاج لطاعون الماشية. يستأجرون رجلاً من جماعة تشامار المنغلقة، ويديرون وجهه عن القرية، ويعلمونه بمنجل سُخن حتى يصل درجة الاحمرار، ويتركونه يسيب في الأدغال آخذاً معه طاعون الماشية. ويمنع منعاً باتاً من النظر إلى الخلف.

3ـ طرد الشياطين الدوري على أداة مادية

شأنه شأن الطرد المباشر غير المرئي وللأسباب نفسها، تحول الطرد الأداتي عبر كبش الفداء أو أي أداة أخرى مع مرور الزمن إلى طرد دوري. ففي كل سنة، غالباً في آذار يرسل أهالي جُزر ليتي وموا ولاكور في أرشبيلاغو الهندية، الشياطين إلى البحر كل عام. يصنعون قارباً طوله حوالي ستة أقدام ويزودونه بالأشرعة والمجاذيف ودفة قيادة وتجهيزات أخرى، ثم تضع فيه كل عائلة القليل من الأرز والفاكهة وطيراً وبيضتين وحشرات ضارة في الحقول وغيرها. ثم يتركونه ينجرف إلى البحر قائلين:(ابعد عنا كل أنواع الأمراض، خذها إلى الجزر الأخرى، إلى بلاد أخرى، وزعها على الأماكن في الشرق، حيث تشرق الشمس.) ويرسل الباياجا في بورنيو سنوياً قارباً محملاً بذنوب الناس ومصائبها. وسوف يعاني كل البحارة المشؤمون من مآسي ما يحمله هذا القارب. ويمارس الداسون في مقاطعة تواران في بورنيو البريطانية الشمالية العادة نفسها. ويحتل الطقس الأهمية الكبرى من بين كل طقوس السنة. ويهدف إلى جلب الحظ الحسن إلى القرية في أثناء السنة القادمة عن طريق طرد الأرواح الشريرة التي تجمعت حول البيوت في أثناء الاثني عشر شهراً المنصرمة. وتُلقى مهمة طرد الشياطين بشكل رئيسي على عاتق النساء. تحمل إحداهن خنزيراً رضيعاً في سلة على ظهرها؛ بينما تحمل بقية النسوة صولجانات يهاجمن بها الخنزير في الوقت المناسب؛ فإن صرخاته تساعد في جذب الأرواح الهائمة. ترقص النسوة في كل بيت، ضاربات الصنجات النحاسية أو تقرقعن

بأجراس نحاسية صغيرة بكلتا يديهن. وعندما يكررن هذا الأداء في كل بيت، يتجه الموكب نحو النهر، وتتبعهن الأرواح الشريرة التي طاردنها من البيوت إلى حافة النهر. وهناك يكون بانتظارهن عوامة أُعدت لهذا الغرض وأوثقت إلى الضفة. تحتوي العوامة على عطايا من الأطعمة والأقمشة وأواني الطبخ والسيوف، بينما يعج سطحها بمجسمات الرجال والنساء والحيوانات والطيور، كلها مصنوعة من أوراق نخيل الساغو. وعندما تصعد كل الأرواح الشريرة إلى العوامة، يدفعنها ويتركنها تطفو مع التيار حاملة العفاريت معها. وإذا رست العوامة قريباً من القرية يسارعون إلى دفعها كيلا يترجل المسافرون غير المرئيين ويعودون إلى القرية. أخيراً، وبعد أن قامت صرخات الخنزيرالصغير بدورها في خداع العفاريت في الخروج من أماكن اندساسها، يُقتل الخنزير وتُرمى جثته بعيداً.

وفي كل سنة عند بداية الفصل الجاف، يحمل أهالي جزيرة نيكوبار مجسم سفينة إلى قراهم. ويطاردون الشياطين من أكواخهم ويقودونها إلى قارب يبحر مع الريح. وقد وصف هذا الطقس أحد ملقني التعاليم المسيحية الذي شاهده في كارنيكوبار عام 1897. مدة ثلاثة أيام كان الناس منشغلين في تحضير عوّامتين كبيرتين على شكل جندولين مجهزين بأشرعة ومحملين بأوراق شجر معينة فيها خاصية طرد الشياطين. في حين كان الشباب منشغلين بهذا العمل، يجلس طاردو الأرواح الشريرة والكبار في منزل يغنون الأغاني واحداً تلو الآخر؛ لكنهم غالباً ما يقتربون من الشاطئ مسلحين بالهراوات مانعين الشيطان من الدخول إلى القرية. ويحمل اليوم الرابع من هذا الطقس المهيب إسم **طرد الشيطان بالأشرعة**. يتجمع أهالي القرية في المساء، وتجلب النساء سلات الرماد وحزم أوراق طرد الشياطين. يقسِّمون هذه الأوراق على الجميع صغاراً وكباراً. ثم تحمل مجموعة من الرجال الأقوياء يحرسهم أحد طاردي الأرواح، يحملون أحد القوارب إلى البحر على يمين مقبرة القرية، ويتركونه يعوم على الماء. وحالما يعودون، تأخذ مجموعة رجال أخرى القارب الآخر إلى الشاطئ ويتركونه يعوم على البحر، لكن هذه المرة على يسار المقبرة. والآن بعد أن بدأت رحلة القاربين المحملين بالعفاريت، ترمي النسوة الرماد من الشاطئ ويصرخ الحشد قائلين:(اغرب عنا أيها الشيطان، ولا تعد ثانيةً!) وبمساعدة الرياح والمد والجزر المواتيين يبحر الجندول بعيداً وبسرعة، وفي تلك الليلة يحتفل

الناس جميعاً بفرحة كبيرة لأن الشيطان قد غادر باتجاه كاورا. وهناك طرد شياطين مشابه يحصل مرة كل سنة في قرى نيكوبار الأخرى؛ لكن في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة.

وعند الكثير من أصلاء الصين البدائيين، يقام احتفال كبير مصحوب بالسُكْر والصخب في الشهر الثالث من كل سنة. يُقام بفرح كبير لما يعتقدونه إبادة كلية لجميع أمراض الشهور الاثني عشر الماضية. ويكون هلاكهم على الشكل التالي. يملؤون جرة فخارية كبيرة مملوءة بالبارود، والحجارة، وقطع حديدية ثم يدفنونها في الأرض. ويمدون خطاً من البارود إلى الجرة ويشعلون طرف الخط بعود ثقاب فتنفجر الجرة بمحتواها. تمثل الحجارة وقطع الحديد أمراض السنة الماضية ومصائبها، كما يعتقدون أن تبعثرها وانفجارها يزيل تلك الأمراض والمصائب.

ليس الطرد السنوي للشياطين المتجسدة أمراً خفياً علينا في أوروبا. ففي مساء أحد الفصح الشرقي يأخذ غجر جنوبي أوروبا وعاءً خشبياً مثل علبة الياقات ويضعونها على قطعتين من الخشب وكأنها مهد. ويضعون فيها أعشاباً وعقاقير نباتية مع جثة أفعى مجففة أو سحلية. على جميع الموجودين أن يلمسوها بأصابعهم. ثم يلفون الوعاء بصوف أبيض وأحمر، ويحمله رجل مسن من خيمة إلى خيمة ثم يلقيه في مياه جارية، لكن ليس قبل أن يبصق كل من الأفراد فيها بصقة واحدة، وتقرأ عليها الساحرة بعض السحر. يعتقدون أن أداء هذا الطقس يطرد الأمراض التي أصابتهم في أثناء السنة، وأنه لو وجد أي شخص الوعاء وفتحه بدافع الفضول، فسوف يصيبه ويصيب أهله كل الأمراض التي آلت إليه بعد أن تخلص منها الآخرون.

ويأتي كبش الفداء الذي تُطرد عبره الأمراض المتراكمة طوال العام، يأتي أحياناً على شكل حيوان. فمثلاً يقيم قوم الغارو في أسام، إضافةً إلى الأضاحي فداءً لحالات المرض الفردية، يقيمون طقساً شاملاً للجماعة أو القرية مرة كل سنة، يُقصد منه حماية أفراده من أخطار الغابة، ومن الحظ العاثر أثناء السنة القادمة. ويُعتَبَر أسونغتاتا الجزءَ الرئيس من هذه الطقوس، وهوعلى الشكل التالي. بالقرب من حدود كل قرية كبيرة يمكن ملاحظة عدد من الحجارة المثبتة على الأرض

بشكل عشوائي دون نظام معين. يسمون هذه الحجارة أسونغ، وتقدم عليها الأضاحي التي تطلبها أسونفتاتا. بعد مرور شهر على تقديم عنز كأضحية، يصبح من الضروري التضحية بقرد أو بفأر البامبو. يربطون حبلاً على رقبة الحيوان الذي اختاروه ويقوده رجلان كل من جانب إلى كل بيوت القرية على التوالي. وفي الوقت نفسه يقوم أهل القرية المتجمعون بضرب الجدران من الخارج ليخيفوا ويخرجوا الأرواح الشريرة التي اتخذتها مسكناً لها. وبعد إكمال الجولة حول القرية يقودون الفأر أو القرد إلى تخوم القرية ويقتلونه بضربة واحدة تخرج أمعاءه ثم يوضع متصالباً على البامبو المنتصب على الأرض. ويضعون حول الحيوان المصلوب بامبو حاد الأطراف يشكل حاجزاً مانعاً حوله. بقيت هذه ذكرى عن أيام قامت هذه الحواجز بدور خط دفاعي ضد الأعداء، وهي الآن رمز لإبعاد المرض وأخطار الحيوانات المفترسة التي كانت تهدد حياتهم. ويجب عليهم اصطياد قرد اللانغور النحيل قبل التضحية به بعدة أيام، وإذا استحال إيجاده فيمكن أن يحل محله قرد بني؛ لكن قرد الهالوك لايصلح لذلك. هنا يشكل القرد أو الفأر المصلوب كبش فداء عام يخلِّص بمعاناته البديلة الناسَ من كل الأمراض والحظ العاثر طوال السنة القادمة.

وفي يوم محدد من كل سنة أيضاً يأخذ قوم بوتيا من جوهار في هيمالايا الغربية، يأخذون كلباً، ويسكرونه بمشروب مسكر وحشيش وقنب هندي مخدر، وبعد إطعامه المُربَّى يقودونه إلى القرية ويطلقونه فيها. ثم يطاردونه ويقتلونه بالعصي والحجارة لأنهم يعتقدون أنهم عندما يفعلون هذا لا يصيبهم مرض أو مكروه طوال السنة القادمة. وفي بعض أنحاء بريدالبين كانت تسود عادة قديماً في عيد رأس السنة الميلادية، إذ كانوا يأخذون كلباً إلى الباب ويعطونه قطعة خبز ثم يطردونه قائلين:(اغرب بعيداً أيها الكلب، ولتحل عليك كل ميتات البشر وفقدان المواشي الحاصلة هذه السنة!) وفي يوم التكفير الذي يصادف في العاشر من الشهر السابع، يضع الحبر اليهودي الأكبر يديه على رأس عنز حي ويقر بمظالم أطفال إسرائيل، ويكون بهذا قد نقل آثام الناس إلى تلك البهيمة، ثم يتركها تهيم في البراري.

ويمكن أن يكون كبش الفداء الذي تحل فيه ذنوب الناس بشكل دوري كائناً بشرياً. ففي أونيتشا، كانوا يضحّون بكائنين بشريين سنوياً ليأخذا ذنوب

البلاد. وكانت الأضاحي تُطارد من قبل متبرعين من عامة الناس. وكل من ارتكب ذنباً كبيراً في أثناء العام الفائت مثل فتنة، أو سرقة، أو زنا، أو نَصَبَ سحراً، يساهم بما يعادل دولارين أو أكثر بقليل. ثم يشترون بالمال شخصين مريضين يُقدمان كأضحيتين، واحدة عن النهر وواحدة عن البر. وكانوا يستأجرون رجلاً من المدينة كي يقتلهما. وفي الثامن والعشرين من شباط من العام 1858، شهد المحترم ج.سي. تايلور قتل واحدة من هذه الأضاحي. كانت الأضحية امرأة في التاسعة عشر أوالعشرين من عمرها. جرّوها حيةً ووجهها إلى الأرض من منزل الملك إلى النهر، وهي مسافة تبلغ ميلين، وكان الحشد الذي يرافقها يصرخ:(الخباثة! الخباثة!) وما قصدوه من هذا الطقس هو تخليص البلاد من الآثام. وكان الجسد يُجر بطريقة لا رحمة فيها كي يتمكن من أخذ كل الخباثة. ويُقال أن عادات مشابهة مازالت تُقام سنوياً عند قبائل دلتا النيجر رغم يقظة الحكومة البريطانية وحرصها على منعها. وعند زنوج اليوروبا في أفريقيا الغربية يختارون أضحية بشرية قد تكون من الأحرار أو العبيد أو من النبلاء أو من عائلة ثرية، أو من منبت متواضع، ويسمونه أولواو. يطعمونه جيداً ويغذونه ويقدمون له كل ما يرغب به أثناء فترة حجزه. وعندما يحين وقت التضحية به، يقودونه ضمن موكب في شوارع مدينة الملك الذي سيضحي به لسلامة حكومته وسلامة كل عائلة وكل فرد في مملكته لأنه سيحمل عنهم كل الذنوب والآثام والمصائب والموت دون استثناء. ولإخفاء هويته يذرون الرماد على رأسه ويلونون وجهه بالطباشير، ثم يخرج الجميع من بيوتهم ليضع كل منهم يده عليه ليحمله ذنوبه وآثامه ومعاناته وموته. وبعد انتهاء هذا الاستعراض يدخلونه الحرم ويقطعون رأسه. وتشكل كلماته الأخيرة وأنينه إشارة ينفجر عند سماعها الجمهور الخفير بصرخات الفرح لأنها تعني قبول الأضحية وأن الغضب الإلهي قد همد.

وجرت العادة في سيام إن يفردوا امرأة تدهورت بالفسق، ويحملونها على نقالة ويجوبون بها الشوارع على وقع موسيقا الطبول والمزامير. تحتقرها الغوغاء وترميها بالقاذورات. وبعد المرور على جميع المدينة يرمونها على كومة من الروث أو وشيع من الشوك أو خارج الأسوار ويمنعونها من اجتياز الأسوار ثانيةً. يعتقدون أنها قد سحبت إليها جميع الأرواح الشريرة والآثار الضارة من الجو. أما باتاك سومطرة فيقدمون إما حصاناً أحمر أو جاموساً كأضحية عامة لتطهير البلاد ولاكتساب فضائل الآلهة.

ويقال إنه في السابق كانوا يربطون رجلاً على وتد بدلاً من الجاموس وعندما يقتلون الحيوان كانوا يسوقون الرجل بعيداً، لايكلمه أحد أو يستقبله أحد أو يعطيه طعاماً. لاشك في أنهم يفترضون أنه يحمل آثام الناس ومصائبهم.

وأحياناً يكون كبش الفداء حيواناً إلهياً. يشترك أهل مالابار مع الهندوس في إجلالهم للبقرة، ويعتبرون قتلها وأكلها جريمة شنيعة مثل قتل النفس أو القتل العمد. مع ذلك ينقل البرامان ذنوب الناس إلى بقرة أو أكثر ويأخذونها إلى مكان يحدده البرامان لمحاكمة البهائم. وعندما كان المصريون القدامى يضحون بثور يستحضرون إلى رأسه كل الشرور التي قد تصيبهم أو تصيب أرض مصر، ومن ثم يبيعون رأس الثور للإغريق أو يرمونه في النهر. لايمكننا القول أن المصريين قد عبدوا الثور خلال الفترة المعروفة لدينا من التاريخ، لأنهم كانوا يقتلونه ويأكلونه. لكن هناك الكثير من الدلالات التي تؤدي إلى النتيجة القائلة إن الماشية كلها، أبقاراً وثيراناً، كانت تعتبر مقدسة لديهم. ولم يضحوا بالثيران إلا إذا كانت تتمتع بعلامات طبيعية معينة؛ يتفحصها الكاهن قبل التضحية بها؛ وإذا توفرت فيها العلامات المطلوبة يوضع عليها ختماً يجعلها مؤهلة للتضحية؛ وكل من يضحي بثور غير مختوم، ينفذ به حكم الإعدام. والأكثر من ذلك، لعبت عبادة الثيران السوداء أبيس ومنيفيس، في السابق على وجه الخصوص، دوراً هاماً في الديانة المصرية؛ وكل الثيران التي ماتت ميتة طبيعية، كانت تدفن بعناية في ضواحي المدن، ثم تؤخذ عظامها لاحقاً إلى جميع أنحاء مصر ثم يعاد دفنها في مكان واحد؛ وعند التضحية بثور في شعائر أيسيس العظيمة يضرب كل العابدون صدورهم ويندبون. على العموم لنا هنا أن نتوقع أن الثيران كانت تُعتبر مقدسة أصلاً عند المصريين، شأنها شأن البقر، والثور المذبوح الذي يودعون كل مصائب الناس في رأسه، كان يوماً ما كبش فداء إلهي. وليس من المستبعد أن يكون الخروف الذي يضحى به سنوياً عند قوم آلمادي في أفريقيا الوسطى هو كبش فداء إلهي، وربما يفسر هذا الافتراض تضحية الزوني بالسلاحف.

أخيراً، قد يكون كبش الفداء إنساناً إلهياً.، لهذا يعبد الغوند في الهند غنسيام ديو، أي **حامي المحاصيل**، وفي الاحتفال يُقال أن الله نفسه ينزل إلى رأس أحد العابدين فيصيبه فجأة بنوبة بعد أن يصعق ويندفع إلى الغابة حيث يعتقد أنه يموت

مجنوناً. لكنهم يعيدونه ثانيةً ولا يستعيد حواسه إلا بعد يوم أو يومين. يعتقد الناس أن هناك إفراداً لرجل معين ككبش فداء يحمل ذنوب القرية كلها. وفي معبد القمر يحتفظ ألبان كوكاسوس الشرقية بعدد من العبيد المقدسين الذين نزل عليهم الوحي أو النبوءة. وعندما تظهر على أحد هؤلاء الرجال أعراض غير عادية من الإلهام أو الخبل، ويهيم وحده جيئة وذهاباً في الغابة، مثل الغوند في الأدغال، يربطه الكاهن الأكبر بسلسلة مقدسة ويحتفظ به ويرفهه سنة كاملة. وبعد مضي السنة يدهنونه بالمراهم ويقودونه إلى التضحية. أما الرجل الذي احترف ذبح الأضاحي البشرية والذي أكسبته الممارسة براعة في عمله، فيتقدم من الحشد ويقحم رمحاً مقدساً في الضحية ليخترق قلبه. من الطريقة التي يسقط فيها الضحية تخرج نُذُر النحس لمصلحة العامة. ثم يحملون الجثة إلى مكان يقف عليه الناس كشعيرة تطهيرية. وتدل هذه الظروف الأخيرة على أن ذنوب الناس قد انتقلت إلى الضحية، تماماً كما كان ينقل الكاهن اليهودي ذنوب الناس إلى كبش الفداء عن طريق وضع يديه على رأس الحيوان؛ وبما أنهم كانوا يعتقدون أن روحاً إلهية قد سيطرت عليه، يصبح هذا المثال بلاشك مثالاً على الإله البشري المذبوح لتخليص الناس من الآثام والشرور.

ويمكن أن نحصل على دلالات كثيرة من طقس كبش الفداء في التيبت. تبدأ السنة في التيبت مع ظهور القمر الجديد حوالى الخامس عشر من شباط. ومدة ثلاثة وعشرين يوماً بعد ذلك تخرج حكومة لهاسا العاصمة من أيدي الحكام العاديين ويوضع الحكم بيد كاهن دير ديبانغ الذي يدفع أكبر مبلغ مقابل هذا الامتياز. ويسمى كاسب هذا المزاد جالنو، ويعلن وصوله للسلطة بنفسه عندما يمشي في شوارع لهاسا ومعه عصاً فضية. يجتمع كل الكهنة من الأديرة المجاورة ليمنحوه الولاء. يمارس الجالنو سلطته بطريقة كيفية تخدم مصلحته فقط، يفرض غرامات لمصلحته، لأنه هو الذي اشتراها بمقابل، حتى يجني مايعادل عشرة أضعاف ما دفعه من المال. يمشي رجاله في الشوارع يبحثون عن أي خطيئة يتذرعون بها ليفرضوا غرامة على السكان. تفرض الضرائب على كل بيت في لهاسا خلال هذه الفترة، وأي جنحة أو إساءة مهما كانت صغيرة تقابل بأشد الغرامات. وتهرب جميع الطبقات العاملة خارج المدينة من قسوة الجالنو حتى تنقضي فترته. لكن إذا خرج

سواد الناس دخل الكاهن. تفتح جميع الأديرة البوذية أبوابها ضمن دائرة تبلغ أميالاً وترحّل سكانها. وتعج الطرقات الآتية من الجبال المجاورة إلى لهاسا بالرهبان الهارعين إلى العاصمة، منهم من أتى على الأقدام ومنهم على ظهور الخيل ومنهم يركبون الجحاش أو الثيران الخائرة، كلهم يحملون كتب الصلاة وأدوات مطبخية. في جموع غفيرة، يأتي الناس مثقلين كخشاريم النحل في عباءاتهم الحمراء وسط فوضى واضطراب لا يوصف. وتعترض الشوارعَ جماعات الرجال المقدسين وهم ينشدون الصلوات أو يطلقون صيحات هائجة. يتجمعون ويتدافعون ويتشاجرون ويتخاصمون؛ فترى بينهم أنوفاً حمراء، وعيوناً مكدمة ورؤوساً مكسرة. طوال النهار من قبل بزوغ الفجر وحتى حلول الظلام، يقوم رهبان العباءات الحمراء بالخدمات في جو ممتلئ بالبخور في معبد ماشيندراناث العظيم في لهاسا، وهو كاتدرائية في بناء واسع في مركز المدينة تحيط به المحال التجارية. وفيه أوثان معبودة مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة. يتلقى الكهنة الصدقات ثلاث مرات يومياً وهي عبارة عن عطايا من الشاي والحساء والمال.

وبعد أربعة وعشرين يوماً من استلام الجالنو للسلطة، يعود إليها ثانيةً، ويمارس حكمه العشوائي مدة عشرة أيام. في اليوم الأول من هذه الفترة يجتمع الكهنة في الكاتدرائية ويصلون للآلهة لدرء المرض والشرور الأخرى عن الناس، ويضحون برجل كعطية سلام. لا يُقتل الرجل بشكل مباشر، لكنه يخضع لطقس غالباً ما يؤدي إلى الموت. يرمون الحبوب على رأسه، ويلونون نصف وجهه بالأبيض ونصفه الآخر بالأسود فيصبح متنكراً بشكل عجيب، ويحمل معطفاً جلدياً على ذراعه، ويسمونه **ملك الأيام**. يجلس يومياً في السوق يأخذ مايحلو له، ويمشي وهو يلوح بذيل ثور فوق الناس الذين ينقلون حظهم العاثر إليه. وفي اليوم العاشر، يمشي الجميع إلى المعبد العظيم ويصطفون في رتل أمامه. ويأتون بملك الأيام من المعبد ويتلقى تبرعات قليلة من الجموع المحتشدة. ثم يحتقرُ الجالنو قائلاً له:(ماندركه عبر الحواس الخمس ليس وهماً. وكل ما تعظنا به كذبٌ.) وغير ذلك من العبارات. أما الجالنو الذي يمثل اللاما الكبير في تلك الفترة، يعارض هذه الأراء الهرطقية؛ ثم يحتدم النقاش إلى أن يتفقا في النهاية على حسم النزاع عبر رمية نرد. فإذا كانت رمية النرد ضده، على الجالنو أن يحل محل كبش الفداء. وإذا كسب ملك الأيام يتكهنون بمصيبة كبيرة ستصيبهم، وإذا كسب الجالنو يسود المرح لأن كسبه يعني عموم

السعد وأن الآلهة قد قبلت الأضحية التي تحمل ذنوب الناس في لهاسا. يأتي الحظ دائماً لصالح الجالنو الذي يلقي ستاً بنجاح غير منقطع، بينما يحظى نده على رميات أحادية فقط. قد يبدو هذا غريباً في الوهلة الأولى؛ لكن الغرابة تزول إذا ما علمنا أن نرد الجالنو عليه ستات، أما نرد ملك الأيام عليه واحدات فقط. وعندما يرى ملك الأيام العناية الإلهية ضده تراه يهرب على حصانه الأبيض، ومعه كلب أبيض وطير أبيض وملح وأشياء أخرى مما قدمت له الحكومة. مازال وجهه ملوناً نصفه أبيض ونصفه أسود ومازال يرتدي معطفه الجلدي. يطارده الناس جميعاً يزعقون وينعبون ويطلقون وابل من الطلقات الخلبية خلفه. وبعد أن يقودوه خارج المدينة بهذا الشكل يحتجزونه في غرفة الرعب في دير ساماياس، محاطاً بصور الشيطان البشعة المرعبة وجلود الأفاعي الضخمة وجلود الوحوش الضارية. هنا يرحل إلى جبال تشيتانغ حيث يمكث منبوذاً عدة شهور أو سنة في وكر ضيق. وإذا مات قبل انقضاء الفترة يرى الناس في ذلك فألاً ميموناً؛ وإذا ما نجا، فيمكنه أن يعود إلى لهاسا وأن يلعب دور كبش الفداء ثانيةً في السنة القادمة.

في عاصمة البوذية المنعزلة التي تماثل روما في أوروبا، مازال يقام طقس غريب وممتع لأنه يُظهر بوضوح التدرج الديني في سلسلة من المخلِّصين يُخلَّصون بأضاحٍ تحل محلهم بالنيابة، وفيها آلهة تخضع لعملية تحجُّر فتحتفظ بفضائلها وتتخلص من آلامها ومن جزاء الإله. ويمكننا أن نبصر دون غضاضة خلف الملوك المؤقتين، الآلهة الفانين الذين يشترون عقار السلطة والمجد بثمن يكلفهم حياتهم. إنه بلا شك بديل اللاما المؤقت الكبير؛ وهو مُعرَّض، أو كان ذات يوم معرضاً لأن يكون كبش فداء يفتدي الناس لكونه يُقدَّم كبديل عن كبش الفداء الحقيقي – ملك الأيام – إذا ما فصل النرد النزاع ضده. صحيح أن الشروط التي يحسم بها النزاع قد هزلت حتى صارت إلى شكلها التافه، لكن أشكالاً كهذه ليست مجرد نمو فطر يرتفع في الليل. وإذا تحولت الآن إلى شكليات لا حياة فيها، وقشور فارغة من معناها، فلابد أنها كانت يوماً تتمتع بالحيوية والمغزى؛ وإذا أصبحت اليوم ممرات معتمة تؤدي إلى فراغ، فلابد أنها كانت في الأيام الغابرة ممرات تؤدي إلى مكان محدد، أقله الموت. الموت الذي يسعى إليه كبش الفداء التيبتي الذي يُقتل بعد فترة الرخصة القصيرة التي يتمتع بها في السوق. ويمكن أن نستدل على توقعنا هذا بالقياس؛ الطلقات الخلبية التي تطلق خلفه، وكون الطقس يؤدي إلى الموت، والإيمان بأن موته هو فأل سعد، كل هذا يؤكد الأمر. وليس مدهشاً أن يكون الجالنو، وبعد

دفعه بسخاء ليحل محل الإله لأسابيع، قد فضل أن يموت بالنيابة على أن يموت في شخصه عندما يحين الوقت. إن الواجب المؤلم والذي لامناص منه كان يقع على شيطان مسكين، ومنبوذين اجتماعياً، وبؤساء قست عليهم الحياة حتى صاروا على استعداد لأن يلقوا بأنفسهم في التهلكة بعد مضي أيام قليلة من الملذات. لاحظوا أنه بينما يسمح الوقت للمندوب الأصلي ـ الجالنو ـ أن يقيس فترته بالأسابيع، تقلصت فترة مندوب المندوب إلى أيام، عشرة أيام لبعض السلطات وسبع أيام لسلطات أخرى. ولا في شك أن حبلاً قصيراً كان يكفي لتقييد غنمةٍ سوداء أو مريضة؛ رمل قليل جداً في الساعة الرملية، سرعان ما ينزل، ويكفي لمن أضاع الكثير من السنوات النفيسة. وفي المسخرة التي يتسم بها الرجل متعدد الألوان الذي يجوب سوق لهاس، ويكنس المصائب بذيل الثور الأسود، يمكننا أن نرى بديل البديل، ووكيلاً وضع على كاهله الحمل الثقيل عندما يُرفع عن الأكتاف النبيلة. لكن الدلائل، إذا ما تتبعناها بالشكل الصحيح، لا تنقطع عند الجالنو بل تستمرمباشرة إلى بابا لهاس نفسه، اللاما الأكبر، الذي يمثل الجالنو بديلَه المعاصر. يؤدي قياس الكثير من العادات في بلدان عديدة إلى النتيجة القائلة إن الإله البشري يتنازل لبديله عن قواه الروحية مدة معينة، وهو الآن بديل يموت عنه أو كان يفعل ذلك يوماً ما. وهكذا عبر سديم العصور الذي لم يضئه التاريخ، يلوح شخص البابا البوذي المأساوي كبديل لله على أرض آسيا، يلوح باهتاً حزيناً شأنه شأن الإله البشري الذي حمل مآسي الناس، والراعي الطيب الذي قدم حياته رخيصة لأجل أغنامه.

4ـ عموميات عن كبوش الفداء

إن التحقيق السابق عن عادة طرد الشياطين من القرية أو المدينة يوحي إلينا ببعض النقاط.

النقطة الأولى: لن ندخل في جدال حول تطابق الهدف من طرد الشيطان المباشر أو طرده عبر وسيط، أي في ما إذا كانوا يدركون الشياطين على أنها غير مرئية أم متجسدة في شكل مادي، لأن هذا أمر ثانوي تماماً أمام الهدف الرئيس من الطقس وهو تفعيل التخلص الكامل من كل الأمراض التي كانت تصيب شعباً ما. وإذا كانت هناك حاجة لربط نوعَي الطرد، فيمكن أن نحققها عن طريق ممارسةٍ مثل إبعاد الشياطين عبر وسيلة ـ نقالة أو قارب. إنها ممارسة تجمع الشياطين غير المرئية

وغير الملموسة ثم تنقلها بعيداً عبر أداة أو وسيلة مرئية وملموسة. وليس كبش الفداء إلا وسيلة من هذه الوسائل.

النقطة الثانية، عند اللجوء إلى التخلص الدوري العام للشياطين، يأتي الفاصل بين الاحتفالات سنة كاملة، ويصادف موعد الطقس عادةً مع تغير واضح في الفصل، مثل بداية الشتاء أو نهايته في المناطق القطبية الشمالية والمناطق المعتدلة، وبداية الفصل الماطر أو نهايته في المدارين. ويعزو البدائي نسبة الوفيات المتزايدة التي تأتي نتيجة للتغيرات المناخية خاصةً عند من يعاني من سوء التغذية أو سوء اللباس أو سوء المسكن، يعزوها لعمل العفاريت التي يتوجب عليه أن يطردها. من هنا نرى أنه في المناطق المدارية من بريطانيا الجديدة والبيرو، تطرد الشياطين أو كانت تطرد عند بداية الفصل الماطر؛ لذلك في السواحل الكئيبة لبلاد بافين، يطردون الشياطين عند اقتراب الشتاء القطبي القارس. وعندما ألِفت القبيلة الزراعة، توافق موعد طرد الشياطين بشكل طبيعي مع فترة الزراعة السنوية مثل البدار والحصاد لكن هذه النشاطات بحد ذاتها متوافقة مع تغيرات الفصل، وبالتالي لايقتضي انتقال المجتمع من الصيد إلى الرعوية ومن ثم إلى الزراعية تغييراً في موعد الاحتفال بهذه الشعيرة السنوية العظيمة. وتقيم بعض المجتمعات الزراعية في الهند وهندوس الكوش، كما رأينا، طقس التخلص العام من العفاريت عند الحصاد، بينما يقيم البعض الآخر منهم الطقس في وقت البدار. لكن مهما كان الفصل الذي يقام به الطقس، يبقى طرد الشياطين العام مع بداية السنة الجديدة. لأنه، قبل الدخول بالسنة الجديدة، يحرص الناس على التخلص من مشاكلهم الماضية، لهذا تفتتح الكثير من المجتمعات السنة الجديدة بطرد عام للأرواح الشريرة.

النقطة الثالثة: علينا أن نلاحظ كيف يعقب أو يسبق طرد الشياطين العام والدوري فترةٌ من الرخصة العامة، يلقون فيها جانباً القيودَ الاجتماعية، ولايعاقبون على الجرائم إلا المميت منها. في غينيا وتونكوين تسبق فترةُ الرخصة طردَ العفاريت العام؛ كما يعتبر تعليق الحكومة العادية في لهاسا قبل طرد كبش الفداء أثراً باقياً عن فترة الرخصة العامة. وعند هنود الهوس تتبع فترةُ الرخصة طردَ الشيطان. وعند الإركوا من الصعب تحديد ما إذا كانت الرخصة قبل أم بعد طرد الشياطين. في كل الأحوال، لابد من تعليل تراخي قواعد السلوك غير العادي التي تسبق أو تعقب

طرد الشياطين العام. من الناحية الأولى، عندما يأخذ التخلص العام من الشيطان والتكفير عن الذنوب شكله المباشر، يُشجع الرجال على إطلاق العنان لرغباتهم، وكلهم ثقة أن الطقس التالي سينهي كل الأخطاء المتراكمة بسرعة كبيرة. ومن الناحية الأخرى، وبعد الانتهاء من الطقس تتحرر عقول الناس من الإحساس بالاضطهاد، الذي يعملون تحت وطأته، ومن الجو المشحون بالشياطين؛ وعند أول فرحة، يقفزون من فوق الحدود المفروضة عليهم بحكم العادات والأخلاقيات. وعندما يُقام الطقس في أوقات الحصاد، يثير الخيرُ المادي المتمثل بوفور الغذاء هياجَ النشوة.

عندما يكون اهتمامنا منصبّاً على عادة التخلص من الشرور خاصة عند انتقالها إلى الله الذي سيذبح لاحقاً علينا أن نركز على استخدام الرجل الإله أو الحيوان الإله ككبش فداء. وربما كان انتشار عادة استخدام الإله الإنسان أو الإله الحيوان ككبش فداء أكثر مما يبدو في الأمثلة التي سقناها. لأنه، كما أشرنا سابقاً، يعود تاريخ قتل الإله إلى زمن بعيد في التاريخ البشري أكثر منه في العصور اللاحقة، حتى عندما استمرت العادة كممارسة، كانت معرضة لسوء التفسير، إذ تم نسيان الشخصية الإلهية بشكليها البشري والحيواني فصارت تعتبر مجرد ضحية عادية. ربما كان هذا هو الحال عندما يكون إلهاً بشرياً يُقتل، لأنه عندما تتحضر الأمة دون التخلي عن الأضاحي البشرية بالكامل، تختار ضحاياها من البؤساء المحكوم عليهم بالموت أصلاً، حتى امتزج قتل الإله أحياناً بإعدام المجرم.

وإذا ما سألنا عن سبب اختيار الإله الذي يأخذ على عاتقه حمل ذنوب الناس ومعاناتهم، ربما كان الجواب أنه في ممارسة استخدام الإله ككبش فداء، لدينا اقتران بين عادتين كانتا يوماً ما منفصلتين مستقلتين. من الناحية الأولى، رأينا كيف جرت العادة أن يُقتل إنسان إلهي أو حيوان إلهي بهدف إنقاذ حياته الإلهية من الضعف الناجم عن التقدم بالسن. ومن الناحية الأخرى، رأينا كيف تمارس عادة طرد الشياطين والتخلص من الذنوب مرةً كل سنة. الآن، إذا ما خطر للناس أن يقرنوا هاتين العادتين، لكانت النتيجة أن يستخدموا إلهاً ميتاً ككبش فداء، إلهاً كان يقتل، أصلاً ليس من أجل حمل الذنوب، بل لإنقاذ الحياة الإلهية من انحلال

التقدم بالسن؛ لكن، بما أنه سيقتل لا محالة، ربما فكر الناس بانتهاز الفرصة لتحميله أعباء المعاناة والذنوب فيحملها إلى العالم المجهول وراء القبر.

إن استخدام الإله ككبش فداء يزيل الغموض الذي يكتنف العادات الأوربية الشعبية مثل إبعاد الموت. وقد وضحنا الأرضية التي تجعلنا نعتقد أن هذا الطقس المسمى الموت كان أصلاً روح النبات التي كانت تقتل سنوياً في الربيع كي تعود إلى الحياة ثانيةً بكامل شبابها وحيويتها. لكن كما أشرت، يحتوي الطقس على صفات معينة لايمكن تفسيرها على أساس هذه الفرضية وحدها. من هذه الصفات هي علائم المتعة التي ترافق إخراج الموت ودفنه أو حرقه، والخوف والاشمئزاز اللذان يخيمان على حامليه. لكن هذه العلائم تصبح جلية إذا ما افترضنا أن الموت لم يكن مجرد إله النبات الميت، بل هو أيضاً كبش فداء عام يحمل الشرور التي نزلت بالناس خلال العام المنصرم. الفرحة في هذه المناسبة شيء طبيعي ومناسب؛ لكن الخوف والاشمئزاز من الإله الميت هما في الحقيقة ليسا خوفاً واشمئزازاً منه بالذات لكن من المصائب والذنوب التي تحملها. ومن الصعب التمييز، أو على الأقل رسم حدود فاصلة بين الحامل والمحول. عندما يطفح المحمول بالصفات الشنيعة، يخاف الناس من الحامل حتى عندما يكون مجرد وسيلة. كذلك رأينا كيف كانت شعوب الهند الشرقية تخاف وتتجنب القوارب المحملة بالأمراض والذنوب. وهناك صفة تدعم النظرة التي تعتبر الموت في هذه العادات الشعبية كبش فداء بالإضافة إلى أنه روح النبات الإلهية. إنها توقيت احتفال الطرد الذي يصادف دائماً في الربيع، خصوصاً عند الشعوب السلافية، لأن السنة السلافية تبدأ في الربيع، فيأتي طقس إبعاد الموت مثالاً على انتشار عادة طرد الشرور المتراكمة في أثناء السنة المنصرمة قبل الدخول في السنة الجديدة.

الفصل الثامن والخمسون

1ـ كبش الفداء البشري في روما القديمة

لقد صرنا الآن مستعدين لبحث استخدام كبش الفداء البشري في العصور القديمة. في الرابع عشر من آذار من كل سنة، يغلفون رجلاً بالجلود ويقودونه في موكب في شوارع روما، يضربونه بعصي طويلة بيضاء ثم يطردونه خارج المدينة. وكانوا يسمونه ماموريوس فيتوريوس، أي مارس القديم، وبما أن الطقس يحصل في اليوم السابق لأول بدر من السنة الرومانية القديمة (التي تبدأ في الأول من آذار مارس) فلابد أن ذلك الرجل المكسو بالجلد ممثل مارس الخاص بالسنة الماضية الذي يُطرد عند بداية السنة الجديدة. لم يكن مارس أصلاً إله الحرب بل إله النبات، لأن المزارع الروماني يصلي لمارس لازدهار حنطته وعنبه وأشجاره المثمرة ومحاصيلة؛ وكانت الأضاحي تُقدَّم لمارس في كلية أرفال الأخوية التي اختصت بتقديم الأضاحي لأجل نمو المحاصيل، وكانوا يوجهون عرائضهم لمارس حصراً؛ ولمارس وحده كانت تقدم أضحية الحصان في تشرين الأول لضمان حصاد وفير. وكان المزارعون يقدمون لمارس أضحية لأجل المواشي، تحت إسم **مارس الغابة**. وقد رأينا سابقاً أنهم كانوا يعتقدون أن الماشية هي برعاية آلهة الأشجار. مرة أخرى نقول أن تكريس الشهر الأخضر آذار للإله مارس إنما يدل على أنه إله الخضرة الشاطئة. لهذا نرى تطابقاً بين العادة الرومانية لطرد مارس القديم في بداية السنة الجديدة في الربيع مع العادة السلافية لإخراج الموت، إذا كانت رؤيتنا حول العادة اللاحقة صحيحة. لقد تناول الباحثون سابقاً التشابه بين العادتين الرومانية والسلافية، واعتبروا أن ماموريوس فيتوريوس وما يشبهه من شخصيات في الطقوس السلافية ممثِّلين عن السنة القديمة أكثر من كونهم إله النبات القديم. من الممكن أن تكون هذه الطقوس قد فُسِّرَت على هذا النحو حتى من قبل الناس الذين كانوا

يمارسونها لاحقاً. لكن تشخيص الفترة هو أرقى تجريدياً من أن يكون بدائياً. على أي حال، في الطقسين الروماني والسلافي يبدو أن ممثل الإله قد عومل ليس على أنه إله النبات فقط، بل ككبش فداء أيضاً، لأنه كان يُطرد، وإلا لماذا يُطرد إله النبات من المدينة. لكن من الناحية الأخرى، إذا كان ممثل الإله كبش فداء يصبح لزاماً عليهم أن يطردوه خارج الحدود حتى يبتعد بأحمال المآسي إلى بلاد أخرى. في الحقيقة يبدو أن ماموريوس فيتوريوس كان يُطرد إلى بلاد الأوسكان، أعداء الرومان.

2ـ كبش الفداء في اليونان القديمة

ألِفَ الإغريق القدامى أيضاً استخدام كبش الفداء البشري. ففي كايرونيا مسقط رأس بلوتارك، كان يقيم جلالة رئيس المدينة وكل رب أسرة في منزله طقساً مشابهاً. كانوا يسمونه **طرد الجوع**. يضربون فيه عبداً بالعصي ويطردونه من المنزل مع قولهم:(اخرج أيها الجوع، وادخلي أيتها العافية والثروة.) وعندما شغل بلوتارك منصب رئيس المدينة أدى هذا الطقس في مجلس المدينة، ودوَّن النقاش الذي أثير في أثناء أداء تلك العادة.

لكن عادة كبش الفداء أخذت في اليونان المتحضرة أشكالاً أقتم من الشعيرة البريئة التي رأسها بلوتارك التّقيُّ الخلوق. عندما أصاب مارسيليا، إحدى أروع وأكبر المستعمرات الإغريقية، أصابها الطاعون، كان يَهَب أحد أفقر الرجال نفسه ككبش فداء. وكان يعيش سنة كاملة على حساب العامة، يتناول أفضل الأطعمة وأنقاها. وبعد مضي سنة يلبسونه اللباس المقدس المزين بالأغصان المقدسة، ويقودونه في شوارع المدينة كلها، بينما يصلي المصلون كي تنزل على رأسه شرور الناس كلها. ثم كانوا يلقونه خارج المدينة أو يرجمونه بالحجارة خارج أسوارها حتى الموت. كما كان أهل أثينا يحتفظون بكائنات حقيرة غير مفيدة على حساب العامة، وعندما تحل على المدينة مصيبة مثل الطاعون أو المجاعة، كانوا يذبحون اثنين من هذه الكائنات ويرمونهما خارجاً. كان أحد هذه الكائنات يُذبَح لأجل الرجال والآخر لأجل النساء. يرتدي السابق شريطاً أسود حول رقبته، والآخر شريطاً من

القماش الأبيض. أحياناً كانت الأضحية المقدمة لأجل النساء امرأة. وكانا يُقادان في أرجاء المدينة ثم يُذبحان بالرجم خارج أسوارها. لكن هذه الأضاحي لم تقتصر على مناسبات المصائب العامة؛ بل كانت تقام كل سنة في مهرجان ثارجيليا في أيار. وكانوا يقودون أضحيتين واحدة عن النساء وآخرى عن الرجال في جميع أرجاء أثينا ثم تُرجَمَان حتى الموت. وكانت مدينة أبديرا في ثريث تُطهر سنوياً على يد كل الناس. وكانوا يخصصون أحد المواطنين لهذا الغرض ويرجمونه حتى الموت ككبش فداء أو كأضحية بديلة عن حياة الآخرين. وكان يحرم من عضوية الكنيسة مدة ستة أيام قبل إعدامه كي يحمل وحده ذنوب الناس جميعاً.

وفي لوفرزليب وهي جُرفٌ مرتفع أبيض عن نهاية جزيرتهم، اعتاد اللوكاديون أن يقذفوا سنوياً بمجرم في البحر ككبش فداء. لكن للتخفيف من وطأة سقوطه كانوا يربطون إليه ريشاً وطيوراً حية، وينتظره في الأسفل أسَيْطِلٌ من القوارب الصغيرة لتلتقطه وتنقله خارج الحدود. وربما كانت هذه الوقاية البشرية شكلاً أقل حدة من عادة قديمة كانوا يرمون فيها كبش الفداء في البحر ليموت غرقاً. ويحصل الطقس اللوكيدي في موعد التضحية بأبولو، الذي له معبد وحرم في تلك المنطقة. وفي أماكن أخرى يرمون من حَرَمِ أبولو شاباً بالبحر ويصلون قائلين:(كن تطهيراً لنا.) اعتقدوا أن هذا الطقس يخلص الناس من الشرور التي أصابتهم، أو حسب تحليل آخر، يدفعون الدَّيْنَ المترتب عليهم للبحر. وحسب ممارسة إغريق آسيا الصغرى في القرن السادس قبل الميلاد، كانت عادة كبش الفداء على الشكل التالي. عندما تعاني المدينة من الطاعون أو المجاعة أو من مصيبة عامة، يختارون شخصاً بشعاً أو مشوهاً ليأخذ على عاتقه الشرور التي نزلت في المجتمع. يأخذونه إلى مكان مناسب ويضعون في يده تيناً يابساً ورغيفاً من خبز الشعير وجبنةً ليأكلها. ثم يضربونه سبع مرات على أعضائه التناسلية بنبات العنصل وأغصان التين البري وأشجار برية أخرى على وقع نغمة شبَّابة خاصة. وبعد ذلك يحرقونه على كومة من حطب أشجار الغابة؛ ثم يلقون برماده في البحر. ويبدو أن هناك عادة مشابهة يحتفل بها سنوياً إغريقُ آسيا في موعد احتفال الحصاد في ثارجيليا.

في الشعيرة التي شرحناها تواً، لايمكن أن يكون المقصود من تطهير الضحية بالعنصل وأغصان التين البري وغيرها، تأجيجاً لمعاناته وإلا لاستخدموا أيَّة عصاً

لضربه. لقد فسر مانهاردت المعنى الحقيقي لهذا الجزء من الطقس قائلاً إن القدامى عزوا إلى العنصل قوة سحرية تمنع تأثير الشر، لهذا يعلقونها على أبواب دورهم ليستفيدوا منها في الشعائر التطهيرية. من هنا تأتي العادة الأركادية من ضرب مجسم بان بالأسواط في أثناء الاحتفال، أو عندما يعود الصيادون خالي الوفاض، لابد أنها تعني، ليس إنزال العقوبة بالإله بل تطهيره من الآثار الضارة التي كانت تعيق طريقه في أثناء ممارسة مهامه الإلهية كإله من واجبه تأمين الطرائد للصيادين. كذلك يهدف ضرب كبش الفداء على أعضائه التناسلية بنبات العنصل وغيره إلى تحرير قواه التناسلية من الكبح والسحر الخناس الذي وُضِع تحته أو أيّة قوى خبيثة أخرى. وعلينا أن نلاحظ من التضحية به أول موسم الحصاد في أيار في ثراجيليا، أنه ممثل إله خالق النبات ومخصبه. كان ممثل الإله يُذبح سنوياً كما ذكرت سابقاً لأجل الحفاظ على النشاط الأبدي للحياة الإلهية دون أن يفسد مع تقدمه بالسن؛ وقبل أن يُقتل من الطبيعي أن تنشط قواه التناسلية بهدف نقلها بكامل قوتها إلى خَلَفِه ـ ذلك الإله الجديد أوالتجسيد الجديد للإله القديم ـ الذي سيحل محل الإله المقتول على الفور. وللأسباب ذاتها يعاملون كبش الفداء بالطريقة عينها في أوقات الغرق والمجاعة. إذا لم يأت المحصول على الشكل الذي ينتظره المُزارع، يعزى إخفاقه إلى قوى تكاثر الله الذي وظيفته الأساسية إنتاج ثمار الأرض. وربما يعتقدون أنه يقع تحت تأثير سحر يجعله مسناً ضعيفاً. بالتالي كان يُذبح في شخص ممثله كي يولد شاباً من جديد، وينفخ نشاطه الفتيّ في طاقات الطبيعة الراكدة. وبناء على المبدأ نفسه، يمكننا فهم سبب ضرب ماموريوس فيتوريوس بالعصي، وضرب العبد في الطقس الكيروني بأغصان شجرة يعزون إليها قوىً سحرية، ولماذا ينهالون على مجسم الموت بالضرب بالعصي والحجارة في بعض أنحاء أوروبا، ولماذا يُجلد المجرم الذي يلعب دور الله قبل أن يُصلب في بابل. لم يكن هدف الجلد زيادة آلام الإله المعاني، بل لإخراج الآثار السيئة التي يقع تحت تأثيرها في اللحظة الحرجة.

افترضنا حتى الآن أن ضحايا ثارجيليا البشرية تمثل أرواح النبات بشكل عام، لكن المسترور. باتون يشير إلى أن هؤلاء البؤساء المساكين أخذوا شكل أرواح أشجار التين بخاصة. كما أشار لعملية تخصيب أشجار التين المستصلحة عن طريق تعليق حبال من التين البري بين الأغصان. اتُّبع هذا التخصيب في اليونان وآسيا

الصغرى في حزيران أي بعد شهر من تاريخ ثارجيليا. وهنا يريد أن يقول أن وضع التين الأسود والأبيض حول أعناق الضحيتين البشريتين، التي يمثل إحداها الرجال والأخرى النساء، ربما كانت محاكاة مباشرة لعملية التخصيب المقصودة، بناءً على مبدأ السحر بالمحاكاة، لمساعدة تخصيب أشجار التين. وبما أن التخصيب هو في حقيقة الأمر عملية تزاوج شجرة تين ذكر مع شجرة تين أنثى، يفترض المستر باتون أن تحابب الأشجار، أيضاً بناءً على مبدأ سحر المحاكاة، يثير تحابباً بين ضحيتين بشريتين إحداهما امرأة. وبناء على هذه النظرة، تأتي ممارسة ضرب الضحايا البشرية على أعضائها التناسلية بأغصان أشجار التين البري والعنصل تأتي سحراً يُقصد منه إثارة القوى التكاثرية عند الرجل والمرأة والمشخصين هنا بشجرة تين ذكر وأخرى أنثى على التوالي، وأنهما باتحادهما عبر الزواج، حقيقياً كان أم ممثلاً، يقصدون مساعدة الأشجار على حمل الثمار.

هناك الكثير من حالات القياس التي تدعم التفسير الذي اعتمدته لتبرير ضرب كبش الفداء البشري بنباتات معينة. عند قوم الكاي في غينيا الألمانية الجديدة، عندما يرغب أحدهم في أن يجعل براعم الموز تحمل الثمار بسرعة، كان يضربها بعصاً قطعها من شجرة موز أثمرت سابقاً، فتنتقل الإثمارية إلى العصا المقطوعة من شجرة مثمرة ثم عبر الملامسة إلى أشجار الموز الصغيرة. كذلك في كليدونيا الجديدة يضرب المزارع نباتات القلقاس بأحد الأغصان برفق قائلاً:(إني أضرب هذا القلقاس كي يكبر) ويقوم بعدها بزرع الغصن في الأرض عند نهاية الحقل. أما لدى هنود البرازيل عند مصب الأمازون، فعندما يرغب الرجل بزيادة حجم عضوه التناسلي، يضربه بثمرة نبات مائي يختارها لشكلها وهي تنمو بكثرة على ضفاف النهر. على هذا الطقس أن يقام قبل أو بعد البدر بثلاثة أيام. وفي مقاطعة بيكيس في هنغاريا، يضربون المرأة العاقر بعصاً استخدمت لفصل كلبين يتزاوجان. يفترضون أن خاصية التخصيب تنتقل إلى العصا ومنها إلى المرأة. ويعتقد التورادجا في سيليبيس الوسطى أن نبتة طرابين الدراكاينا تتمتع بروح قوية لأنه عندما تقطعها تعاود النمو بسرعة. لذلك عندما يمرض أحدهم، يضربه أصدقاؤه أحياناً على ناصيته بأوراق الدراكاينا لتقوية روحه الضعيفة بروح النبتة القوية.

تدعم عمليات القياس هذه التفاسير التي أتى بها سَلَفَاي مانهاردت وباتون، والتي سَحَبْتُها على ضرب الضحايا البشرية عند الإغريق في احتفال ثارجيليا عند الحصاد. بما أن هذا الضرب كان يمارس على أعضاء الضحايا التناسلية بأغصان نضرة خضراء، من الطبيعي أن نرى فيه سحراً يهدف إلى زيادة القدرات التكاثرية للرجال أو النساء، إما بنقل إثمارية النبات والأغصان إليها أو بتخليصها من الآثار الضارة؛ وما يؤكد هذا التفسير هو تمثيل الضحيتين من الجنسين، إحداهما عن الرجال والثانية عن النساء. أما موعد قيام الطقس وتحديداً عند حصاد الحنطة، فهو يدل على أن للشعيرة مغزىً زراعياً. وبما أن المقصود من تلك الشعيرة تخصيب أشجار التين، تستخدم حبال التين الأسود والأبيض حول رقاب الضحايا بالإضافة إلى الضرب الممارس على أعضائها التناسلية بأغصان أشجار التين البرية؛ لأن هذه العملية تشبه تماماً الإجراء الذي كان ومازال المزارع الإغريقي يلجأ إليه لتخصيب أشجار التين. وعندما نتذكر الدور الهام الذي لعبه تخصيب النخيل الاصطناعي من قديم الزمان ليس في الزراعة فقط، بل في ديانة بلاد الرافدين أيضاً، ينتفي أي شك في المكانة المقدسة التي احتلها التخصيب الاصطناعي لأشجار التين في شعائر الديانة الإغريقية.

إذا كانت هذه النظرة دقيقة، فلابد أننا توصلنا إلى النتيجة التالية. في حين تظهر الضحايا البشرية في ثارجيليا في وقت لاحق على شكل كبوش فداء عامة تحمل ذنوب الناس جميعاً ومصائبهم وآلامهم، ربما نُظر إليها في مرحلة أقدم على أنها تجسيد للنبات، كالحنطة وعلى الأخص التين؛ وكان المقصود من الضرب الذي يتلقاه الموت الذي يميتونه، التحكم بقوى النبات بغية تنشيطها بعد أن بدأت بالضعف والانحلال تحت وطأة قيظ الصيف الإغريقي.

تتحاشى نظرتنا عن كبش الفداء الإغريقي، إذا كانت صحيحة، الاعتراض القائم ضد الحجة الرئيسة في هذا الكتاب: إذا كان كاهن أريسيا يُذبح على أنه ممثل لروح الأيك، أين ما يوازي هذه العادة في القديم البعيد؟ لكن قدمنا حججاً تدعم اعتقادنا أن الكائن البشري الذي كان يُذبح بشكل متقطع أو بشكل دوري على يد الإغريق الآسيويين، كان يُعامل كتجسيد للنبات. وربما كان أهالي أثينا يعاملون الأشخاص الذين يحتفظون بهم للتضحية يعاملونهم كإلهيين، ولم يعيروا

انتباهاً لكونهم منبوذين إجتماعياً. بالنسبة للبدائيين لم يختاروا الشخص لكونه ممثلاً أو مجسداً للإله من حيث أخلاقه العالية أو مكانته الاجتماعية. فالإلهام الإلهي يهبط على الصالح أوالطالح، على المتغطرس أو الوضيع على حد سواء. وإذا اعتاد إغريق آسيا وأهالي أثينا على التضحية بأناس يعتبرونهم تجسيداً للآلهة، فليس هناك مايدعو لاستبعاد أنهم مارسوا العادة بطريقة شبه بربرية في أيطاليا القديمة بعيداً عن أيك أريسيا. وهنا أعتزم تقديم الأدلة على ذلك.

3ـ ساتورناليا الروماني

(عيد القصف والعربدة)

رأينا كيف استُخدم الكثير من الأشخاص لإقامة فترة رخصة سنوية. الفترة التي اعتاد فيها الناس الإلقاء بقيود القوانين والأخلاقيات جانباً والمبالغة في المتعة والصخب، الفترة التي تجد فيها العواطف المكبوتة منفساً لاتستطيع الخروج منه بطريقة أرزن في الحياة العادية. وغالباً ما كان هيجان هذه الدوافع البشرية المكتومة ينحل ليصل إلى لهو شهوة وحشية وإلى جريمة تحدث أكثر ما تحدث في آخر العام وغالباً ما ترتبط بفصل زراعي معين خصوصاً البدار أو الحصاد. من أشهر فترات الرخصة هذه تلك التي أخذت في اللغة المعاصرة تسمية ساتورناليا. إنه احتفال مشهور يُقام في كانون الأول، آخر شهور السنة الرومانية، وربما كان إحياءً لذكرى اعتلاء الإله ساتورن ـ زحل – إله البدار والزراعة الذي عاش قديماً على الأرض وكان ملك إيطاليا الصالح الخير، والذي وحَّد سكان الجبال المبعثرين وعلَّمهم استصلاح الأرض ووضع لهم القوانين وأسس السلام. كان حكمه عصراً ذهبياً خيالياً عمَّ به الخير بكثرة، ولم تحصل في أثنائه حرب تنغص العالم السعيد، لم يكن هناك ثمة رغبة بالكسب المشؤوم الذي يعمل عمله مثل السم في دم الفلاحين، الكادحين منهم أو القانعين. في عهده لم يكن هناك مُلكية خاصة أو عبودية، فكل الناس يملكون كل الأشياء على حد سواء. وفي النهاية اختفى الملك الصالح فجأة لكن ذكراه ظلت باقية عصوراً طويلة، فأُقيمت المقامات على شرفه، وسميت الجبال والأماكن العالية في إيطاليا باسمه. مع ذلك كان عهده

اللامع مشوباً ببعض الظلال: إذ قالوا إن مذابحه قد تلطخت بدماء الضحايا البشرية فأتى بعده عصر كان أكثر رحمة استبدلوا فيه المجسمات بالضحايا. عن هذا الجانب المظلم من ديانة الإله، لم يترك الكتاب القدامى إي أثر يصفون فيه الساتورناليا. يبدو أن العربدة والجري وراء الملذات كانت سمة هذا المهرجان القديم الذي كان يستمر سبعة أيام في الشوارع والساحات العامة وبيوت روما القديمة من السابع عشر من كانون الأول إلى الثالث والعشرين منه.

لم يترك هذا الاحتفال أي أثر في نفوس الناس أكثر مما تركه منح الرخصة للعبيد، حين تُزال الفروق بين الطبقات الحرة والمستعبدة. يجوز للعبد أن يشتم سادته ويسكر مثلهم، ويجلس على مائدتهم دون أن توجه له أية ملامة أوانتقاد على سلوكٍ لو فعله في غير هذه المناسبة لعوقب بالجلد أوالسجن أو الموت. والأكثر من ذلك، كان السادة يتبادلون المواقع مع عبيدهم وكانوا يخدمونهم على الموائد؛ فلا يجلس السيد على المائدة حتى يفرغ العبد من طعامه. كان يحصل تبديل مواقع لدرجة أن كل رب أسرة يمثل جمهورية تُحاكَم فيها أكبر شخصيات الدولة على يد العبيد الذين يعطون أوامرهم ويسنون القوانين وكأنهم قد مُنحوا فعلاً كرم الرئاسة أو شرف هيئة المحكمة. على شاكلة انقلاب السلطة الممنوحة للرقيق في ساتورناليا، كان تمثيل الملكية التي يُلقي الأحرار لأجلها القرعة في الفصل نفسه. والشخص الذي تقع عليه القرعة يتمتع بلقب الملك فيصدر الأوامر ذات الطبيعة اللعوبة والهزلية لرعايه المؤقتين. فمثلاً، يأمر أحدَهم بخلط الخمر، وآخر بشربه، ويأمر آخر بالغناء، وآخر بالرقص، وآخر بالتكلم بحق نفسه أشياء مشينة، وآخر يحمل فتاة المزمار على ظهره ويجوب بها المنزل.

عندما نتذكر أن الحرية الممنوحة للعبيد في هذا الفصل البهيج هي تقليد لحالة المجتمع في أيام ساتورن، زحل، وأن الساتورناليا لم تكن سوى إحياءً مؤقتاً أو استعادةً لعهد ذلك الملك السعيد، نميل إلى الإعتقاد أن الملك المزيف الذي يرأس العربدة هو تمثيل لما كان يقوم به ساتورن نفسه. ويتأكد هذا الحدس بقوة عندما نتعرف على تقرير يصف الاحتفال بساتورناليا على يد الجنود المتمركزين في الدانوب في عهد ماكسميان ودايوكليتيان. وقد احتُفظ بالتقرير عن طريق قصة استشهاد القديس داسيوس التي نُبشت من مخطوطة إغريقية في مكتبة باريس

ونشرها البروفيسور فرانزكومونت في غنت. وهناك وصفان مختصران للحدث أو العادة في مخطوطتين، واحدة في برلين والأخرى في ميلان؛ رأت إحدى هاتين المخطوطتين النور في كتاب غامض في أربينو في العام 1727 ، لكنهم لم يدركوا أهميتها في تاريخ الديانة الرومانية قديمة كانت أم حديثة، حتى أتى البروفسور كامونت ليلفت انتباه الباحثين إلى الروايات الثلاثة عن طريق نشرها جميعاً منذ بضع سنوات. وحسب هذه الروايات التي تبدو حقيقية كلها، والتي ترتكز أطولها على وثائق رسمية، احتفل الجنود في دوروستورام في مويسيا الدنيا، سنة بعد سنة على الشكل التالي. قبل الاحتفال بثلاثين يوماً اختاروا من بينهم شاباً وسيماً بالقرعة، ثم ألبسوه اللباس الملكي حتى صار يشبه ساتورن. ثم ذهب محاطاً بعدد كبير من الجنود وجاب الأماكن العامة، وهي الرخصة المطلقة لإرضاء أية رغبة له حتى لو كانت خسيسة ومعيبة. لكن إذا ما جعل فترته ممتعة، تمضي أيامها بسرعة قبل أن تنتهي بمأساة؛ لأنه عند انقضاء فترة الثلاثين يوماً التي تسبق احتفال ساتورناليا، عليه أن يقطع حنجرته على مذبح الإله الذي يمثله. وفي عام 303 ميلادي، وقعت القرعة على الجندي المسيحي داسيوس، لكنه رفض أن يلعب دور الإله الوثني وأن يلطخ أيامه الأخيرة بالخلاعة. وأخفقت التهديدات التي وجهها إليه قائده باسوس، كما أخفقت محاولات إقناعه في إرجاعه عن ثباته، وبالتالي قطعوا رأسه. وقد دُوِّن موعد استشهاده في سجل الشهداء المسيحيين، في دوروستورام، والذي حدده الجندي جون، الساعة الرابعة من يوم الجمعة، العشرون من تشرين الثاني، الموافق للرابع والعشرين من الشهر القمري.

منذ نشر البرفسور كامونت هذه الرواية، اعتُبِرت ذات قيمة تاريخية كبيرة بعد أن كانت موضع شك ونكران. وفي سرداب الكاتدرائية الذي يتوج رعن أنكونا - القن الخارج من الجبل والداخل في البحر – مازال هناك من بين الأشياء القديمة تابوت رخام يحمل نقشاً إغريقياً من طراز عصر جستنيان، يقول:(هنا يجثم الشهيد المقدس داسيوس القادم من دوروستورام.) تم نقل التابوت إلى سرداب الكاتدرائية عام 1848 من كنيسة سان بيليغرينو التي نُقش تحت مذبحها العالي باللغة اللاتينية مامعناه إن الشهيد يرقد بين القديسين الآخرين. ولا نعلم منذ متى أتى التابوت إلى كنيسة سان بيليغرينو، لكن ما سجل عليه أنه نُقل إلى هناك عام

1650. وربما نقل رفاة القديس إلى شنكونا حمايةً له في عصر الفوضى الذي تبع الاستشهاد ولأن مويسيا احتُلت ونُهبت بهجمات متعاقبة على يد الغزاة البرابرة. وعلى كل الأحوال، تؤكد جميع الأدلة في سجلات الشهداء المسيحيين بالإضافة إلى آثار قبره أن داسيوس لم يكن قديساً أسطورياً بل رجلاً حقيقياً واجه بدافعٍ من إيمانه الموتَ في دوراستورام في القرون الأولى بعد الميلاد. وبما أن جميع قصص الشهداء مجهولي الأسماء تؤكد هذه الحقيقة، فلنا أن نتقبل قصة القديس داسيوس وأسبابها خصوصاً أنها دقيقة، واقعية، وخالية من أية عناصر إعجازية. بالتالي نستنتج أن التقرير الذي يصف احتفال الجنود الرومان في ساتورناليا هوتقرير جدير بالثقة.

كما يلقي هذا التقرير الضوء على منصب الملك في الساتورناليا. إنه اللورد ميرسول الذي ترأس العربدة الشتائية في روما في عصر هوراس وتاسيتوس. ويبدو أن مهمته لم تكن مجرد تهريج يقصد منه إثارة الصخب والجلبة أو إثارة الضوضاء إلى مستوى العنف في أثناء توهج النار وطقطقتها في الموقد، وتعج الشوارع بالحشود المبتهجة، أو يظهر تاج الثلج في الأجواء الصقيعية في الشمال. عندما نقارن ملك المتعة الهزلي، ذلك الميتروبوليس المتحضر بمثيله المتجهم في ذلك المخيم البدائي على الدانوب، وعندما نتذكر أعداد هذه الشخصيات الهزلية والمأساموية في الوقت نفسه، والتي صارت ترتدي في بلاد أخرى وفي عصور أخرى ذلك التاج التمثيلي، مكسوة باللباس الملكي، وتلعب دورها ساعات قصيرة أو أياماً معدودة، ثم تذهب إلى حتفها المبكر، لايمكننا أن نشك أن ملك ساتورناليا في روما، كما وصفه الكتاب الكلاسيكيون، ما هو إلا نسخة مزيفة وتقليداً عن الأصل الذي حُفِظت صفاته لنا عبر استشهاد القديس داسيوس. أي أن ما تقوله سجلات الشهداء المسيحيين مطابق تماماً للشعائر الأخرى في أماكن أخرى لم يعرفها داسيوس، وأن الوصف في منتهى الدقة؛ والأكثر من ذلك، بما أن عادة قتل من يلعب دور الملك كممثل للإله، لايمكن أن تكون قد نتجت عن ممارسة تعيينه ليرأس عربدة العيد، في حين العكس ممكن جداً، إذن من حقنا افتراض أنه في عصور أكثر بربر ية، كانت هذه الممارسة عامة في إيطاليا القديمة أو في كل مكان كان يُعبد فيه ساتورن وكانوا يختارون رجلاً يلعب الدور ويتمتع بصلاحيات ساتورن خلال فترة

معينة، ومن ثم يموت على يد الآخرين أو بيد نفسه، قتلاً بسكين أو بالنار أو شنقاً على هيئة إله خير وهب الحياة للعالم. ففي روما والمدن العظيمة الأخرى راحت هذه الممارسة الشرسة تضعف مع تقدم الحضارة قبل عصر أوغسطين بوقت طويل وتحولت إلى شكل أكثر براءة كما جاءت في وصف الكتاب الكلاسيكيين الذين ذكروا عبارات عابرة عن عيد ملك ساتورناليا. لكن ظلت بشكلها الأشرس باقية في المناطق النائية حتى بعد توحيد إيطاليا ورغم محاولة الحكومة الإيطالية قمع هذه الممارسة البربرية التي مازال يذكرها الفلاحون من وقت إلى آخر كونهم يرتكسون إليها في أحط أشكال الخرافة، كما يمارسها الجنود الهمجيون على أطراف الأمبراطورية حيث تضعف قبضة الأمبراطورية الرومانية الحديدية.

إن التشابة بين ساتورناليا القديم وكرنفال إيطاليا الحديث قائم عبر المعطيات التي بين أيدينا، لا بل هو تشابه لا يرقى إلى حد التطابق. رأينا كيف أنه في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا، إي في الدول حيث كان تأثير روما قوياً وطويل الأمد، يتسم الاحتفال بوجود شخص كاركاتيري يمثل موسم البهجة والذي بعد فترة مجد وإسراف في الملذات، يقتل أو يحرق أمام العامة وسط حزن مفتعل أو فرحة حقيقية. إذا كانت نظرتنا إلى هذا الاحتفال صحيحة، فليس هذا الشخص الخيالي سوى خلفاً مباشراً لملك ساتورناليا القديم، سيد العربدة، أو الرجل الحقيقي الذي يمثل ساتورن، والذي يُقتل في شخصه المفترض بعد انقضاء العربدة. **ملك الفول** في مسرحية **الليلة الثانية عشر**، و **أسقف الحمقى** من العصور الوسطى، و **رئيس المجانين** أو **لورد ميرسول** كلها شخصيات من النوع نفسه أو ربما تعود إلى المنشأ ذاته. وهناك احتمال كبير أن يكون ملك الغابة في أريسيا عاش ومات كتجسيد لإله الأجمة، وله أمثاله ممن ذبحوا سنة بعد سنة في روما القديمة على أنهم الملك ساتورن، إله البذور المبدورة والشاطئة.

الفصل التاسع والخمسون
قتل الله في المكسيك

لم تظهر عادة قتل إنسان كممثل للإله أكثر وضوحاً أو أكثر قدسية مما ظهرت عند قوم أزتيك في المكسيك القديمة. لقد تعرفنا تماماً بشعائر هذه الأضاحي الكبيرة لأن الإسبان وصفوها وصفاً دقيقاً عندما احتلوا المكسيك في القرن السادس عشر، وقد دفعهم فضولهم لاكتشاف هذه المنطقة البعيدة التي فسرت لنا ديانتها الشرسة البربرية أموراً كثيرة عن طريق قياسها مع شعائر وتعاليم كنيستنا. قال جوسوي أكوستا :(كانوا يأخذون أسيراً يعتقدون أنه خيِّر؛ وقبل أن يضموه إلى أوثانهم، يسمونه باسم المعبود الذي سيضحون به لأجله ويلبسونه الزينة التي يلبسها ذلك المعبود نفسها. وأثناء فترة هذا التمثيل التي قد تدوم سنة أو ستة شهور، أو في أماكن أخرى أقل من ذلك، يعبدونه ويجلونه بالطريقة التي يجلون بها الإله الذي يمثله؛ وفي الوقت نفسه يتمتع الرجل ويمرح ويأكل ويشرب ما يحلو له. وعندما يجوب الشوارع، يأتيه الناس لأداء العبادة ويجلبون له الصدقات ومعهم أطفالهم ومرضاهم كي يباركهم ويشفيهم، ويتحمل منهم الكثير لأنه عليه أن يقوم بهذا كله على حساب راحته، لذلك يرافقه اثنا عشر رجلاً كي لا يهرب. وكان يتجول على وقع أنغام الناي كي يحضِّر الناس أنفسهم لعبادته. وما إن يحل وقت الاحتفال حتى يصبح بديناً، فيقتلونه ويفتحون جثته ويأكلونه على أنه أضحية مقدسة.)

الآن سنتناول هذا الوصف العام للعادة بأمثال أدق. ففي احتفال يسمى توكسكاتل، وهو أكبر احتفال بالسنة المكسيكية، يذبحون شاباً سنوياً على أنه تزكاتليبوكا (إله الآلهة) بعد أن يرعوه ويعبدوه طوال العام. وحسب الراهب الفرنسيسكي ساهاغوم، وهو أعرف العارفين بالديانة الأزتيكية، يصادف قتل

الإله البشري مع عيد الفصح أو ربما بعد بضعة أيام. إذن هو موافق لتاريخ الاحتفال المسيحي وصفاته من موت المخلّص وبعثه. ويقول بصراحة أكثر أن التضحية تحصل في اليوم الأول من الشهر الأزتيكي الخامس الذي يبدأ في الثالث والعشرين إلى السابع والعشرين من نيسان.

في هذا الاحتفال يموت الإله الأعظم بالشخص الذي يمثله ويحيا بشخص آخر حَكَمَ عليه قدرُه أن يتمتع بشرف الألوهية مدة سنة قبل أن يموت مثل أسلافه. يفردون شاباً لشموخه، ويختارونه لجماله الجسدي. على الإله أن يكون خالياً من أي عيب، نحيلاً كالقصبة، منتصباً كالعمود، لا طويلاً ولا قصيراً. وإذا ما صار بديناً مع مرورالزمن، يجبرونه على تخفيف وزنه عن طريق تناول الماء المالح. ولكي يتصرف بشموخ ورشاقة يدربونه على سلوك نبلاء الدرجة الأولى، فيتكلم بلباقة ورصانة، يعزف الناي، يدخن السيغار ويسعط في جو من الغضب إذا ما شم ورداً. يتبوأ في المعبد مكانة مشرّفة حيث ينتظره النبلاء لتقديم الولاء، يجلبون له اللحم ويخدمونه كأمير. حتى الملك نفسه يراه فائق الجمال لأنه يعتبره إلهاً. يلصقون على رأسه ريش الصقر ويثبتون ريش الديك على شعره الذي ينسدل حتى خاصرته. ويكللون حاجبيه بإكليل ورود كالذرة المشوية، تنزل الورود على كتفيه وتحت إبطيه. تتدلى الزينة الذهبية من أنفه، وتزين ذراعَيه أساور الساعدين، وتعلق على ساقيه الأجراس الذهبية التي تجلجل مع كل خطوة يخطوها؛ وتتدلى من أذنيه أقراط من الفيروز، ويزين معصميه أساور مرصعة بالفيروز، وتحيط برقبته قلادات الصدف المتدلي على صدره، ويلبس عباءة من الشبك وحول خاصرته يلبس شالاً فارهاً. عندما يتحرك هذا المجوهَرُ الرفيع التهذيب في الشوارع وهو يعزف على الناي، وينفخ بالسيغار، ويفوح بالعطر، يرمي الناسُ بأنفسهم أمامه على الأرض ويصلون له بالآهات والدموع، يأخذون الغبار عن يديه ويضعونه في أفواههم مع عميق الخضوع والذلة. تأتي النساء، والأطفال على أيديهن ويقدمنهم له، محيّيات إياه كإله، ويسميه الناس لورداً. يرد على كل من يقدم له الصلاة بتحية حزينة ودمثة. ولكي لا يهرب، يحيطه ثمانية حراس باللباس الملكي، أربعة منهم حليقو الغُرَّة مثل عبيد القصر، وأربعة بجدائل المحاربين المنسدلة؛ وإذا تمكن من الهرب، على رئيس الحرس أن يحل محله ويموت بالنيابة عنه. تُبدل ملابسه قبل موته بثمانين يوماً،

وتقدم له أربع فتيات متغذيات بشكل دقيق، على أنهن إلاهات: إلهة الورود وإلهة الذرة الصغيرة، وإلهة أُمّنا في الماء، وإلهة الملح، يقدّمن كعروسات يعاشرهن. وأثناء الأيام الخمسة الأخيرة، تنهال على الضحية تشريفات إلهية. يبقى الملك في مكانه بينما تمشي حاشيته خلف الإله البشري. وتتتالى الولائم المقدسة والرقصات في مواعيد وأمكنة محددة. وفي اليوم الأخير يبحرالشاب محاطاً بزوجاته ورعاياه في جندول مغطى بظلة ملكية وينقل عبر البحيرة إلى تلة صغيرة على الضفة الأخرى، يسمونها **جبل الفراق**، فعليه يودّع زوجاته لآخر مرة. ثم بصحبة رعاياه فقط، يذهب إلى معبد منعزل صغير على جانب الطريق. مثل سائر المعابد المكسيكية، يبنى على شكل هرم وعندما يصعد الشاب الدرج يكسر عند كل درجة أحد النايات التي عزف عليها في أيام مجده. وعندما يبلغ القمة يمسكه الكهنة وينزلونه على ظهره على لوح حجري ويقوم أحدهم بقطع صدره، ويقحم يده فيه ويسحب قلبه ويرفعه أضحية للشمس. أما جثة الإله الميت فلا تتدحرج على الدرج مثل سائر الجثث، بل تُحمل إلى أسفل المعبد حيث يقطعون الرأس ويبصقون على المنخس. هكذا كانت نهاية الرجل الذي يمثل أعظم الآلهة في الهيكل المكسيكي.

في المكسيك لم يقتصر شرف حياة الإله القصيرة، والموت العنيف الذي يحمل القوة نفسها، على الرجال فقط، بل كانت النساء تُجبر على هذا المجد وتشارك في المصير ذاته كممثلات للإلاهات. ففي احتفال كبير في أيلول، والذي كان يسبقه صيام شديد يدوم سبعة أيام، يكرسن أَمَةً شابة في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، يختارونها من أجمل الفتيات كي تمثل إلهة الذرة تشكومسكوهواتل. ويزينونها بزينة الإلهة، ويضعن تاجاً على رأسها وقلادة من الذرة حول رقبتها ويديها، ويربطون الريش الأخضر على التاج تمثيلاً لكوز الذرة. يفعلون هذا للدلالة على أن الذرة شبه ناضجة في وقت الاحتفال، لكن بما أنها ماتزال غضة، يختارون فتاةً في سنٍ غضٍ لتلعب دور إلهة الذرة. يقودون الفتاة المسكينة بزينتها الكاملة والريش يتمايل على رأسها، من بيت إلى بيت وهم يرقصون بمرح ويبشرون الناس بانقضاء كدر الصيام وحرمانه.

يجتمع كل الناس في المساء في المعبد المضاء بعدد كبير من المصابيح ويقضون الليل دون نوم. وفي منتصف الليل تعزف الأبواق والنايات والمزامير لحناً مقدساً،

ويأتون بمحفة أوهيكل محمول يزينونه بقواليح الذرة والفلفل ويملؤونه بأنواع البذور التي توضع على باب الغرفة التي تحتوي على مجسم الإلهة الخشبي. أما الغرفة فتعج بالزينة والأكاليل من الداخل والخارج، أكاليل قواليح الذرة والفلفل واليقطين والورود وأنواع البذور حتى تصبح أعجوبة تستحق المشاهدة؛ الأرض عارمة بعطايا التُّقاة المخضوضرة. وعندما تتوقف الموسيقا يأتي الكهنة بموكب مقدس ومعهم أصحاب المقامات الرفيعة، تتلألأ الأضواء وينتشر دخان البخور، وفي وسطهم فتاة تلعب دور الإلهة. ثم يجعلونها تعتلي الهيكل حيث تقف على الذرة والفلفل واليقطين الذي يفرش الأرض، وتضع يديها على مقبضين كيلا تسقط أرضاً. ثم يؤرجح الكهنة البخور حولها؛ فتنطلق الموسيقا ثانيةً، يخطو أثناءها رجل رفيع المقام إلى الفتاة وبيده موسى، وببراعة كبيرة يجز الريش الأخضر عن رأسها مع الشعر المثبت إليه من الجذور. ثم يقدم الريش مع الشعر لمجسم الإلهة الخشبي بقدسية خاشعة وضمن طقس دقيق الخطوات، ويبكي وهو يشكرها على ثمار الأرض والمحصول الوفير الذي منحته للناس ذلك العام؛ وبينما هو يبكي ويصلي، يبكي ويصلي معه الناس الواقفون في قاعات المعبد. وعند انتهاء الطقس، تنزل الفتاة من الهيكل وتذهب محروسةً إلى المكان الذي تقضي فيه بقية الليلة. بينما يظل الناس يشاهدون قاعات المعبد على ضوء المشاعل حتى بزوغ الفجر.

وعندما يأتي الصباح تكون القاعات ما تزال تعج بالجموع الذين يعتبرون مغادرتهم المعبد تدنيساً للمقدسات، يأتي الكهنة بالفتاة المكسوة بلباس الإلهة والتاج على رأسها وقوالح الذرة حول رقبتها. تصعد الهيكل ثانية وتتمسك بالمقابض. ثم يرفعها كبار المعبد على أكتافهم. بينما يؤرجح بعضهم البخورَ، ويغني بعضهم الآخر، ويعزف آخرون على الآلات الموسيقية ثم يمشون بموكب إلى قاعة الإله هينزلأوبوتشتلي ويعودون ثانية إلى القاعة حيث مجسم إلهة الذرة الخشبي الذي تشخصه الفتاة. وهناك يجعلون الفتاة تنزل عن الهيكل وتقف على كومة من الحنطة والخضارالتي تفرش أرض الغرفة المقدسة. وهنا يأتي النبلاء ويصطفون في طابور وهم يحملون صحوناً ممتلئة بالدماء المتخثر المسحوب من الأذنين من قبيل التكفير أثناء فترة صيام السبعة أيام. واحداً تلو الآخر، يقرفصون أمامها، وهذا ما يشابه الركوع لدينا، ثم يلقون أمامها رقائق الدماء المتخثرة كعطية لقاء ما تنعم

عليهم كتجسيد لإلهة الذرة. وبعد أن يقدم الرجال دماءهم لممثلة الإلهة البشرية، تشكل النساء طابوراً طويلاً مشابهاً لطابور الرجال ويقدمن اللحم للفتاة والدم المكشوط من الصحون. يستمر الطقس وقتاً طويلاً، فالكبار والصغار، الرفيعون والوضيعون، كل الناس بلا استثناء عليهم أن يمروا أمام الإلهة المتجسدة ويقدمون لها العطايا. وعندما ينتهي الطقس يعود الناس إلى بيوتهم وقلوبهم عامرة بالفرحة ليأكلوا من كل أنواع الطعام وهم يفرحون كما يفرح المسيحيون عندما يأكلون في عيد الفصح من الطيبات بعد الصوم الكبير. وبعد أن يكتفوا من الطعام والشراب والراحة بعد انتظار يوم كامل، يعودون إلى المعبد نشيطين ليروا نهاية الاحتفال التي تأتي على الشكل التالي. بعد تجمع الناس يبخر الكهنة الفتاة ممثلة الإلهة، ثم يلقونها على ظهرها على كومة من الحنطة والبذور ويقطعون رأسها، ويأخذون دمها في وعاء ويرشونه على مجسم الإلهة الخشبي وجدران الغرفة وتتكوم عطايا الحنطة واليقطين والفلفل والخضار على الأرض. وبعد ذلك يكابر أحد الكهنة للقيام بسلخ الجسد منزوع الرأس. بعد الانتهاء من السلخ يكسونه باللباس الذي لبسته الفتاة ويضعون على رأسه التاج وعلى عنقه قلادة قولحات الذرة الذهبية والريش والذهب الذي كان على يديها ويقودونه أمام الناس وسط الرقص ودق الطبول وهو يمثل دور القائد البهي على رأس الموكب. وهنا عليه أن يتحمل بصعوبة وطأة لباس الفتاة وجلدها الدبق والضيق بالنسبة له كرجل كامل النمو.

في العادة السابقة، يبدو ارتباط الفتاة بإلهة الذرة ارتباطاً كاملاً. قولحات الذرة الذهبية على عنقها، وقولحات الذرة الإصطناعية التي تحملها بين يديها، والريش الأخضر الملصق على شعرها وهو كما بلغنا تمثيل لشعر الذرة الأخضر، كل هذا يجعلها تشخيصاً لروح الحنطة؛ بالإضافة إلى ما بلغنا صراحةً أنهم يختارونها فتاةً صغيرة لتمثل الذرة الصغيرة التي لم تكن قد نضجت بعد في موعد الاحتفال. ويصبح ارتباطها بالذرة وإلهة الذرة ارتباطاً صريحاً عندما تقف على أكوام الذرة لتتلقى عطايا الدم ولاءً من الناس الذين يشكرونها على ما تنعم عليهم. ويبدو أن قطع رأسها على كومة الحنطة والبذور، ورش دمائها على مجسم إلهة الذرة وأكوام الذرة والفلفل واليقطين والبذور والخضار، يبدو أنه يرمي إلى تسريع وتقوية محاصيل الحنطة والثمار كافةً عن طريق بث دم إلهة الحنطة فيها. وبالقياس إلى

هذه الأضحية المكسيكية التي لا نقاش حولها، يمكن دعم التفسير الذي اعتمدناه لشرح الضحايا البشرية الأخرى المقدمة لأجل المحاصيل. وإذا كانت الفتاة المكسيكية التي يرش دمها على الذرة هي فعلاً إلهة الذرة، نصبح متأكدين بصدد دماء الباوني الذي يرش على بذور الحنطة المشخصة بروح الحنطة الأنثى؛ ثم ينطبق هذا على سائر الكائنات البشرية التي تذبحها الأعراق الأخرى لأجل تحسين نمو المحاصيل.

وأخيراً، يبدو أن المقصود من الفصل الأخير من هذه الدراما المقدسة التي تُسلخ فيها جثة ملكة الذرة الميتة ويُرتدى جلدها، من قبل رجل يرقص أمام الناس بلباسه المريع، المقصود هو ضمان بعث الإله تماماً بعد موته. إذا كانت هذه القضية صحيحة، فيمكننا أن نرجع أن ممارسة قتل الممثل البشري للإله ربما اعتُبر – بشكل عام أو ربما دائماً – أنه مجرد وسيلة لتخليد الطاقات الإلهية بكامل نشاطها وحيويتها، دون الوقوع في ضعف التقدم بالسن الذي عانوا منه عندما سمحوا للإله أن يموت موتاً طبيعياً.

وتكفي الشعائر المكسيكية لإثبات أن الضحايا البشرية من هذا النوع قد سادت على ما أعتقد في أريسيا بشكل منتظم وقد قدمها أناس لم يكن مستواهم الثقافي وضيعاً، وربما كان أعلى من مستوى الأعراق الإيطالية في مرحلةٍ يعود أصلها إلى ما قبل الكهنوت الأريسي. ومجرد وجود الدليل القاطع على انتشار هذه الأضاحي في أحد أجزاء العالم، يمكن أن يقوي احتمالية انتشارها في أماكن تفتقر إلى دليل وجودها أو تفتقر إلى الأدلة الموثوقة. وإذا ما أخذنا الأمور بمجملها، تثبت الحقائق التي عرضناها أن عادة قتل الإنسان الذي يعتبره عابدوه إلهاً قد سادت في الكثير من أنحاء العالم.

الفصل الستون
بين السماء والأرض

1ـ لا يلمس الأرض

في مستهل هذا الكتاب طرحنا سؤالين للبحث: لماذا كان على كاهن أريسيا أن يذبح سلفه؟ ولماذا قبل ذلك، كان عليه أن يقطع الغصن الذهبي؟ لقد أجبنا حتى الآن على السؤال الأول. كان كاهن أريسيا ـ إذا كنت مصيباً ـ إلهاً بشرياً وملكاً مقدساً تعتمد على حياته رفاهيةُ المجتمع ومسيرة الطبيعة كافةً اعتماداً كلياً. ويبدو أن أفكارهم عن العلاقة بينهم كعابدين ورعايا وبينه كعاهل روحي كانت مهتزة وغامضة، ونخطئ عندما نحاول تحديد العلاقة على أسس منطقية دقيقة. كل ما يعرفه الناس أو يتخيلونه أنهم بشكل ما هم وماشيتهم ومحاصيلهم يعتمدون على الملك الإلهي بشكل مبهم، وبالتالي يعتمدون عليه في السراء والضراء حسب صحته ومرضه، وعليه تعيش القطعان أو تموت من المرض، وتعطي الحقول محاصيل وفيرة أو شحيحة. وأسوأ شر يتوقعونه هو موت مليكهم الطبيعي عبر المرض أو الطعن بالسن لأن هذا في رأي تابعيه يؤدي إلى نتائج كارثية عليهم وعلى ممتلكاتهم؛ وتكسح الأوبئة الفتاكة الناس والبهائم، وترفض الأرض العطاء، وربما تفكك هيكل الطبيعة. وللوقاية من هذه المصائب من الضروري قتل الملك وهو في ريعان رجولته الإلهية، كي تنتقل حياته المقدسة بكامل قواها إلى خلفه، وتجدد شبابها وهكذا في تسلسل متوالٍ عبر خط أبدي من التجسدات القوية كي تبقى نشيطة وشابة أبداً، ضماناً وأماناً لتجديد شباب الناس والدواب عبر الأجيال، دون إخفاق البدار والحصاد، أو إخفاق الصيف والشتاء، أو خذلان المطر أو أشعة الشمس. وإذا كان حدسي صحيحاً، فهذا هو سبب قتل كاهن أريسيا، ملك الغابة نيمي، بشكل منتظم بسيف خلفه.

لكن علينا أن نسأل، ما هو الغصن الذهبي؟ ولماذا كان على كل مرشح لكهانة أريسيا أن يقطعه قبل أن يتمكن من ذبح الكاهن؟ سأحاول الآن الإجابة على هذين السؤالين.

من المناسب أن نبدأ بالنظر إلى المبدأين أو المُحَرَّمَين اللذين كما رأينا يقيدان حياة الكهنة أو الملوك الإلهيين. المبدأ الأول الذي أريد أن ألفت انتباه القارئ إليه هو أن الشخص الإلهي لا يمكن أن تلمس قدماه الأرض. كان يطبِّق هذا المبدأ حَبْرُ زابوتيك الأكبر المكسيكي؛ فهو يدنس قدسيته إذا ما لمست قدماه الأرض. ولم تطأ قدما مونتيزوما أمبراطور المكسيك الأرض قط؛ بل كان دائماً يُحمل على أكتاف النبلاء، وإذا ما ترجل في أي مكان، فرشوا له بساطاً مزداناً ثميناً ليطأ عليه. كما كانوا يعتبرون وطء ميكادو اليابان للأرض عيباً وخزياً؛ وفي القرن السادس عشر كان هذا كافياً لعزله عن منصبه. كان يُحمل على أكتاف الرجال خارج القصر، أما داخل القصر فكانت تفرش أمامه الأبسطة الثمينة المشغولة بإتقان. أما ملك وملكة تاهيتي فلا يطآن الأرض إلا ضمن ممتلكاتهم الموروثة لأن الأرض التي يطآنها تصبح مقدسة. وعند السفر من مكان إلى آخر كانا يُحملان على أكتاف الرجال المقدسين، إذ كان يلازمهما دائماً أزواج مقدسون؛ وعند ضرورة تبديل حامليهم، كان الملك والملكة يُنقلان من كتف إلى كتف دون السماح لأقدامهما لمس الأرض. وكان فألاً شريراً أن يلمس ملك دوسوما الأرض، وإذا ما حصل هذا، فعليه أن يتبع طقساً تكفيرياً. وضمن القصر كان يمشي ملك فارس على سجاد لا يطؤه أحد غيره، ولم يره أحد قط وهو على أقدامه بل على العربة أو الخيل، وكان يُحمل على عرشه الذهبي من مكان إلى آخر. وسابقاً لا ملوك أوغندة ولا أمهاتهم ولاملكاتهم مشوا على أقدامهم خارج الباحات الفسيحة التي عاشوا فيها. وعندما كانوا يبرحونها كانوا يُحمَلون على أكتاف رجال من عشيرة الجواميس الذين كانوا يتناوبون على مرافقة الشخوص الملكية في رحلاتهم. كان الملك يقف منفرج الساقين على كتفَي مرافقيه وقدمه مثنية تحت ذراعي الحامل. وعندما يتعب أحد هؤلاء الحملة يُنقل الملك إلى كتف شخص آخر دون السماح للأقدام الملكية أن تلمس الأرض. وبهذه الطريقة كانوا ينتقلون بخطوة

سريعة مسافات بعيدة يومياً عندما يكون الملك في رحلة. وكان للحَمَلة الخاصين كوخ خاص في باحة الملك كي يكونوا دائماً جاهزين عندما يحتاج إليهم الملك.

وعند الباكوبا أو الباشنغو، هناك قوم في الإقليم الشمالي للكونغو، وحتى عدة سنوات مضت، كان يمنع على ذوي الدم الملكي أن يلمسوا الأرض؛ كما يتوجب عليهم أن يجلسوا تحت واقية وعلى كرسي أو على ظهر أحد العبيد الذي يربض على يديه وأقدامه؛ وتوضع أقدامهم على أقدام الآخرين. وعندما ينتقلون يُحملون على ظهور الرجال؛ أما الملك فكان ينتقل على نقالة مرفوعة على أعمدة. أما عند قوم الإلبو القريبين من أوكا، في نيجيريا الجنوبية، فكان على كاهن الأرض أن يمتنع عن الكثير من المحرمات منها ألا يرى جثة، وإذا ما صادف جثة في الطريق فعليه أن يغطي عينيه بعصابة. كما عليه أن يمتنع عن الكثير من الأطعمة مثل البيض والطيور بأنواعها، ولحم الضأن، والكلاب، وظبي الأشجار وغيرها. كما يُمنع من ارتداء أو لمسه القناع، ويُمنع على كل مقنع أن يدخل منزله. وإذا ما دخل كلب منزله يُقتَل ويُلقى به بعيداً. وكونه كاهن الأرض، لايمكنه أن يجلس على أرض جرداء، ولا يأكل أشياء سقطت على الأرض، كما لا يجوز أن ينزل عليه التراب. وبناءً على ذلك، اقتضت الشعيرة البراهمانية أن يطأ الملك أثناء توليه الحكم على جلد نمر وصفيحة ذهبية وهو ينتعل حذاءً من جلد الخنزير البري، ولا يطأ بعد ذلك الأرض بأقدام حافية.

بالإضافة إلى منع الأشخاص المقدسين أو المحرمين من أن يلمسوا الأرض بأقدامهم بشكل دائم، هناك آخرون يتمتعون بسمة القدسية أو التحريم فقط في مناسبات معينة، فينطبق عليهم التحريم في مواسم محددة يستنشقون في أثنائها عطر القدسية. فمثلاً عند الكايان أو الباهو في بورنيو الوسطى، اعتادت الكاهنات أن يقمن بشعائر معينة لايدسن فيها على الأرض، كما توضع لهن الألواح كي يطأن عليها. كما يحاط المحاربون أثناء الحرب بجو من التحريم؛ فلا يجلس أحدهم على أرض عارية طوال مدة الرحلة الحربية. وفي لاوس يثير صيد الفيلة الكثير من المحرمات، أحدها ألا يلمس الصياد الرئيس الأرض بقدميه. وبالتالي، عندما يترجل عن فيله، يفرش الآخرون له سجادةً كي يطأ عليها.

أما القدسية أو القوة السحرية، أو المحرم أو مهما كانت التسميات التي نطلقها على تلك الميزة الغامضة التي تحيط بالأشخاص المقدسين المحرمين، إنما يدركها الفيلسوف البدائي على أنها المادة الفيزيائية أو السائل الذي يُشحن به الإنسان المقدس تماماً كما تُشحن بلورات شاركو بالكهرباء في بطارية لايدن؛ وتماماً كما تُفَرَّغ الكهرباء عن طريق ملامسة ناقل جيد، كذلك تُفَرَّغ الشحنة السحرية أو القدسية من الرَّجُلِ إلى الأرض التي تقوم مقام الناقل الممتاز للسائل السحري حسب هذه النظرية. ومن هنا ولكي نحافظ على الشحنة من الهدر والضياع، على الشخص المحرم أن يُمنَع وبشدة من لمس الأرض؛ وباللغة الكهربائية، عليه أن يُعزل للحفاظ على المادة النفيسة أو السائل الذي يطفح مثل الزجاجة. كما ينصح في الكثير من الحالات بعزل الشخص المحرم كاحتياط ليس لذاته بل لأجل الآخرين؛ لأن القدسية أو المحرم مادة متفجرة قوية قابلة للانفجار بأدنى لمسة. ومن الضروري لأجل السلامة العامة أن نحافظ عليه ضمن قيود شديدة كي لا ينفجر ويتلف أو يدمر كل ما يلامسه.

2ـ لا يرى الشمس

المبدأ الثاني الذي علينا أن نبحثه هنا، هو ألا يرى الشخص الإلهي الشمس. وكان يلتزم بهذا المبدأ الميكادو وحبر زابوتيكس. كان يُنظر إلى الأخير على أنه إله لا تستحق الأرض أن تحتويه، ولا أن تسطع عليه الشمس. كما لايسمح اليابانيون أن يتعرض هذا الشخص المقدس للهواء الطلق، كما لا تستحق الشمس أن تسطع على رأسه. أما هنود غرانادا في أمريكا الجنوبية، فكانوا يحبسون الحكام والقواد نساءً كانوا أم ورجالاً عدة سنين وهم في مرحلة الطفولة، أحياناً سبع سنين، كل هذا كيلا يروا الشمس لأنهم لو رأوها لصادرت منهم ألوهيتهم، كما كانوا يأكلون طعاماً محدداً. أما المسؤولون عن حبسهم فكانوا يذهبون إلى مكان إقامتهم ويجلدونهم بعنف. فمثلاً، كان على وارث عرش بوغوتا وهو ابن أخت الملك، أن يخضع لتدريب صعب منذ طفولته؛ فكان يعيش في مكان منعزل في معبد حيث لايمكن أن يرى الشمس ولا يأكل الملح ولا يتحدث إلى امرأة؛ وكان محاطاً بالحرس الذين يراقبون سلوكه ويلاحظون تصرفاته؛ وإذا ما خالف إحدى

القواعد المفروضة عليه، يُعتبر شائناً ويُسلب من حقوقه في العرش. كذلك وارث مملكة ساغامسو، وقبل أن يرث التاج، كان عليه أن يصوم سبع سنين في المعبد مغلقاً عليه في الظلام لا يرى الشمس أو الضوء. أما الأمير الذي كان سيصبح إنكا في البيرو فكان عليه أن يصوم شهراً دون أن يرى الضوء.

3ـ عزل الفتيات عند البلوغ

من الواضح أن مبدأي عدم لمس الأرض أو رؤية الشمس كانا يُطبَّقان إما بشكل منفصل أو مجتمعين من قبل الفتيات عندما يبلغن سن البلوغ في أنحاء كثيرة من العالم. مثلاً، كانت زنجيات لانغو البالغات يُحجزن في أكواخ منعزلة، لايلمسن الأرض بأي من أجزاء أجسامهن العارية. أما عند قبائل الزولو والقبائل القريبة منها في جنوب أفريقيا، وعندما تظهر علامات البلوغ على فتاة وهي تمشي أو تجتمع مع صاحباتها في الغابة أو تعمل في الحقل كانت تركض إلى النهر وتختبئ بين القصب مدة يوم كامل، كيلا يراها الرجال. وتغطي وجهها بدثار سميك كيلا تراه الشمس فيذبل حتى يبلغ الهيكل من تعرضه لأشعتها. وبعد الظلام تعود إلى بيتها وتنعزل في كوخ بعضَ الوقت. أما عند أوانكوند، وهي قبيلة في شمالي بحيرة ناياسا، ساد مبدأ عزل الفتاة بعد أول طمث لها مع بعض زميلاتها في بيت معتم. وتغطى الأرض بأوراق الموز الجافة، ولايجوز أن تُشعل النار في المنزل الذي يسمونه منزل سيدات بلا قلوب.

في إيرلندة الجديدة تحبس الفتيات في أقفاص صغيرة مدة أربع أو خمس سنوات في الظلام ولا يسمح لهن بوطء الأرض بأقدامهن. وقد وصف شاهد عيان هذه العادة. يقول:(سمعت من أحد المدرسين عن عادة غريبة تتعلق بالصبايا هنا، فطلبت من المدير أن يأخذني إلى منزل فيه هؤلاء الصبايا. كان المنزل بطول خمسة وعشرين قدماً، وكان مبنياً ضمن سياج من القصب والبامبو، وعُلِّق في مدخله حزمة من العشب الجاف دلالة على التحريم التام. في داخل المنزل بنيت ثلاثة هياكل مخروطية على ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام وبقطر يعادل عشرة إلى اثني عشرة قدماً عند القاعدة، وعلى ارتفاع أربعة أو خمسة أقدام من الأرض بدأ الهيكل يستدق حتى بلغ

نقطة واحدة عند القمة. صنعت الأقفاص من أوراق شجر البانـدانوس العريضة، مُحوكَة ببعضها بعضاً بحيث لا تسمح للضوء بالدخول وربما تسمح للقليل من الهواء. على أحد جوانبه هناك فتحة يغطيها باب مزدوج من أوراق شجر الكاكاو المضفورة أو شجر البانـدانوس. وعلى ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض هناك منصة من البامبو تشكل أرضية الهيكل. وأبلغونا أنه في كل من هذه الأقفاص كانت تُحجز فتاة صبية على كل منهن أن تبقى هكذا أربع أو خمس سنوات دون السماح لهن بالخروج من منزلهن. لم أصدق ما سمعت فطلبت من المدير أن أرى ما في الأقفاص وأن أقدم للفتيات بالداخل بعضِ الهدايا من الخرز، فقال لي أن الأمر مُحرَّم، ولا يُسمَح إلا لأقاربهن المقربين من رؤيتهن؛ لكني أعتقد أن الخرز كان مغرياً فقام بإبعاد عجوز كانت مسؤولة عنهن وهي الوحيدة المخولة بفتح الأبواب. بينما كنا ننتظر سمعت الفتيات يتكلمن مع المدير بتبرم وكأنهن يشتكين من شيء ما ويعبرن عن خوفهن. أتت العجوز بعد فترة وبالتأكيد لم تكن سَجَّانة لطيفة أو حارسة ودودة؛ كما أنها لم ترغب في أن يسمح المدير لنا برؤية الفتيات فهي لم تحيينا إلا ببعض النظرات المجاملة. على أي حال، كان عليها أن تفتح الباب عندما طلب منها المدير ذلك، فاسترقت الفتيات النظر إلينا ثم رفعن أيديهن باتجاهنا لأخذ الخرز. أما أنا فوقفت بشكل مقصود على مسافة معينة على أمل أن أستجرَّهن خارجاً كي أتمكن من رؤية ما بداخل الأقفاص فكانت محاولة وضعتنا أمام صعوبة أخرى، لأنه لايسمح لتلك الفتيات بوطء أقدامهن الأرض طوال فترة حبسهن في هذه الأقفاص. لكنهن كن راغبات بالحصول على الخرز مما اضطر العجوز أن تأتي بقطع أكثر من البامبو والخشب لتضعهاعلى الأرض ثم ذهبت إلى إحدى الفتيات وأمسكت بيدها لتساعدها على الانتقال من قطعة خشبية لأخرى كي تقترب بما فيه الكفاية لتحصل على الخرز الذي في يدي. عندها دخلت لأفتش ما بداخل القفص الذي خرجت منه الفتاة لكني ما استطعت إلا بصعوبة أن أضع رأسي ضمنه، كان الجو حاراً وخانقاً وكان المكان نظيفاً ليس فيه سوى بعض البامبو لأجل الماء. كان هناك متسع فقط لجلوس الفتاة واستلقائها بطريقة مطوية على منصة البامبو. وعندما تغلق الأبواب يخيم الظلام بشكل شبه كامل. لايسمح للفتيات بالخروج إلا مرة كل يوم ليتحممن في حوض خشبي قريب من القفص.

يقولون أنهن يتعرقن بكثرة. يوضعن في هذه الأقفاص الخانقة وهن صغيرات ولا يخرجن منها حتى يصبحن شابات فتقام لهن وليمة زواج ضخمة. بلغت إحداهن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، وأبلغنا المدير أنها أتمت خمس سنوات في حرمها وأنها ستخرج عما قريب. وهناك اثنتان بلغتا من العمر ثماني أو عشر سنين، ومازال أمامهن عدة سنوات من الإقامة.

وفي كابادي، وهي مقاطعة من غينيا الجديدة البريطانية، تحجز بنات القائد في بيوتهن مدة سنتين أو ثلاث سنوات عندما يبلغن الثانية أو الثالثة عشرة من العمر، ولا يسمح لهن بالنزول من منزلهن تحت أية ذريعة. كما يعمدون إلى تظليل المنزل بحيث لا تسطع عليه الشمس. أما عند قوم يابيم أو بوكاوا، وهما قبيلتان متجاورتان ونسيبتان على الساحل الشمالي من غينيا الجديدة، فتُعزل الفتاة عندما تبلغ سن البلوغ لمدة خمسة أو ستة أسابيع في الحجرة الداخلية من المنزل؛ ولايجوز لها أن تجلس على الأرض؛ كي لا تنتقل النجاسة إليها، لذلك يضعون جذع شجرة كي تجثم عليه. كما لايجوز أن تطأ الأرض بقدميها، وإذا اضطرت للخروج من المنزل مدة قصيرة، عليها أن تتلفع وتمشي على أنصاف صدف جوز الهند المربوطة إلى قدميها بنباتات متعرشة وكأنها صندل. وعند أوتدانوم، عندما تبلغ الفتيات سن الثامنة أو العاشرة، يُحبسن في غرفة صغيرة أو في قبو المنزل، وتنقطع علاقتهن مع العالم وقتاً طويلاً. القبو مثل بقية أجزاء المنزل مرفوع على أعمدة فوق الأرض لا يأتيه الضوء إلا من نافذة صغيرة مفتوحة على مكان خاو بحيث تبقى الفتاة في ظلام شبه دامس. لايمكنها أن تغادر الغرفة تحت أي ظرف مهما كان مُلِحّاً. كما لايجوز لأي من أفراد عائلتها أن يراها طوال فترة الحبس، باستثناء أَمَةٍ واحدة تُكلَّف بمهمة رعايتها. وفي أثناء فترة حبسها التي تدوم سبع سنين، تشغل الفتاة نفسها في حياكة البسط أو أعمال يدوية أخرى. كما يُعاق نموها الجسدي بسبب قلة التمارين الطويلة الأمد. وعندما تبلغ الأنوثة، تُخرَج من عزلتها وبشرتها شاحبة مثل الشمع. وهنا ترى الشمس والأرض والماء والأشجار والأزهار وكأنها وُلدت من جديد. ثم تُقام وليمة كبيرة، ويُقتل أحد العبيد وتضرج الفتاة بدمائه. وفي سيرام، كانت تُحبس الفتيات اللواتي يبلغن سن البلوغ في كوخ مظلم. وفي ياب، وهي إحدى جزر كارولين، إذا ما أتاها الطمث وهي في الطريق العام، لا يمكنها أن تجلس على الأرض بل عليها أن

تتوسل آخرين كي يحضروا لها صدفات جوز الهند لتضعها تحتها. ثم تُحبس عدة أيام على مقربة من منزل ذويها، بعدها تُلزم بالنوم مدة مئة يوم في منازل خاصة مزودة بحاجات النساء الطامثات.

وفي جزيرة مابوياغ، في مضيق توريس، عندما تظهر على الفتاة علامات البلوغ، يبنون حلقة من الشجيرات في زاوية مظلمة من المنزل. ويزينون الفتاة بأحزمة الخصر وأساور السواعد والخلخال في موقع تحت الركبتين، كما ترتدي إكليل خرز على رأسها وصدفات مزينة على أذنيها وصدرها وظهرها وتجثم وسط الشجيرات المتعالية حولها بحيث لا يرى منها سوى رأسها. تبقى في هذه الحالة من العزلة مدة ثلاثة شهور. طوال هذه المدة لايجوز أن تسطع عليها الشمس، لكن يسمح لها ليلاً بالتسلل خارج الكوخ وعندئذ يجب أن تُغير الشجيرات التي تحيط به. لايمكنها أن تأكل الطعام بيدها، بل تطعمها واحدة أو اثنتان من النساء المسنات، وخاصة خالاتها اللواتي يكلَّفن برعايتها. تطبخ إحدى هذه النساء الطعام على نار خاصة في الغابة. كما تمنع الفتاة من تناول بيوض السلاحف في أثناء هذه المدة التي تتكاثر فيها السلاحف، أما الخضار فهي مسموحة بكافة أنواعها. لايجوز أن يدخل المنزل أثناء عزلتها رجلٌ حتى لو كان أباها لأنه لو رآها لأصابه النحس في صيد السمك، وربما تكسر جندوله في رحلة الصيد القادمة. وعند نهاية الشهور الثلاثة تحملها راعياتها إلى جدول مياه عذبة رابطات أكتافهن بحيث لا تلمس قدماها الأرض في حين تشكل نساء القبيلة حلقة حولها وهن يرافقنها إلى الشاطئ. وعندما تصل إلى الشاطئ تُجرد من زينتها ويتمايل من يحملها إلى الجدول حيث يغطسنها وينضم النسوة المرافقات فيرشنّ الماء عليها وعلى حاملاتها. وعندما يخرجن من الماء تكوِّم اثنتان من مرافقاتها كومة من العشب كي تجثم عليها. وتركض أخرى إلى الحيد البحري وتلتقط سرطاناً صغيراً وتمزق فكيه ثم تسرع عائدة إلى الجدول. وهنا في الوقت نفسه تُضرم النار ويشوى عليها الفكان. ثم تطعمها مرافقاتها من الفكين المشويين. وهنا يزيِّنَّها من جديد وتمشي النسوة جميعاً إلى القرية في صف واحد بينما تمشي الفتاة وسط الصف بين خالتيها اللتين يمسكانها من معصميها. أما زوجا خالتيها فيقودانها إلى منزل أحدهما حيث يشترك الجميع بالطعام، عندها يسمح

للفتاة أن تأكل بنفسها بالطريقة العادية. يعقب الوليمة رقصة تشارك فيها الفتيات بشكل رئيس، فيرقصن بين خالتيها اللتين كانتا مسؤولتين عنها في أثناء عزلتها.

أما قبيلة ياريكانا عند رأس شبه جزيرة يورك في كوينزلاند الشمالية، عندما تبلغ الفتاة، يُقال إنها تعيش وحدها شهراً أو ستة أسابيع؛ لايراها رجلٌ قط، لكن يسمح لأي امرأة أن تزورها. تبقى في كوخ أو مأوىً صنع خصيصاً لأجلها، تستلقي فيه على ظهرها. لايمكنها أن ترى الشمس، وقبيل الغروب عليها أن تُبقي ناظريها إلى الأسفل كيلا يصاب أنفها بمرض، على حد اعتقادهم. وي أثناء عزلتها لا يجوز أن تأكل أي شيء يعيش في الماء المالح، ولوفعلت لقتلتها أفعى. ترعاها امرأة مسنة تؤمِّن لها الجذور واليام والماء. كما جرت العادة عند بعض القبائل الأسترالية أن يدفنوا فتياتهم في هذا الموسم على عمق لا بأس به في الأرض كي يخبئوهن من أشعة الشمس.

ويعتقد بعض هنود كاليفورنيا أنه عندما يأتي الفتاة أولُ طمث، تمتلكها قوة خارقة إلى درجة معينة، ولاتعتبر هذه القوة مدنسة أو شريرة دائماً، لكن غالباً ما يكون هناك شعور قوي بالشر. لا تعزل عن عائلتها ومجتمعها فحسب، بل يحاولون أيضاً عزل العالم من حولها. ومن إحدى الوصايا المُلِحَّة التي يأمرونها بها هي ألا تنظر حولها، بل تبقي رأسها مطأطئاً ويُمنع عليها أن ترى العالم والشمس. كما تُغطى عند بعض القبائل بدثار. والكثير من العادات هذه تشبه العادات السائدة في شمال المحيط الهادي، مثل منع الفتاة من لمس أو حك رأسها بيدها، بل تستخدم أداة للقيام بذلك. وأحياناً لا تأكل حتى تُطعَم، وفي حالات أخرى تصوم بالكامل.

وعند هنود تشينوك الذين يسكنون ساحل ولاية واشنطن، عندما تصل ابنة القائد سن البلوغ، يمنع عليها مدة خمسة أيام أن ترى الناس؛ ولايمكنها أن تنظر إليهم أو إلى الشمس ولا أن تقطف توتاً. فهم يعتقدون أنها لو نظرت إلى السماء يسوء الطقس، وأنها لو قطفت التوت تمطر السماء؛ وعندما تعلق منشفتها على شجرة البيسية تذبل الشجرة على الفور. كما تخرج من المنزل من باب منفصل وتستحم في غدير بعيد عن القرية. كما تصوم بضعة أيام ولا تأكل طعاماً طازجاً أياماً عدة.

أما هنود الآهت أو النوتكا في جزيرة فانكوفر، عندما تبلغ الفتاة سن البلوغ توضع في قبو من نوع خاص وتُحاط من كل الجهات بحصير بحيث لا تُرى الشمس

أو النار. وتبقى الفتاة في هذا القفص عدة أيام. تُعطى الماء ولا تُعطى الطعام. وكلما بقيت الفتاة في اعتزالها وقتاً أطول، زاد من شرف ذويها. لكنها تُعاب طوال حياتها إذا ما علم أحد أنها رأت الشمس أو النار في أثناء امتحانها الأولي. كما يرسمون صوراً لطائر العاصفة الأسطوري على الحجاب الذي يختبئ خلفه. وفي أثناء اعتزالها لايمكنها أن تتحرك أو تستلقي بل عليها أن تبقى في وضعية القرفصاء. كما لايمكنها أن تلمس شعرها بيديها لكن يسمح لها أن تحك رأسها بمشك أو قطعة من العظم. كما يمنع عليها حك جسمها لأنهم يعتقدون أن هذا سيترك ندبة. ولا تأكل طعاماً طازجاً مدة ثمانية شهور بعد البلوغ، وخصوصاً السلمون. كما يجب عليها أن تأكل بنفسها وأن تستخدم كوباً وصحناً خاصَين بها.

وفي قبيلة تسيتاوت في كولومبيا البريطانية ترتدي الفتاة عندما تبلغ قبعة جلدية كبيرة تتدلى على وجهها بحيث تحجب الشمس. ويعتقدون أن تَعَرُّضَ وجهها للشمس أو للسماء يسبب هطول المطر. كما تحمي تلك القبعة وجهها من النار التي لا يجوز أن تلفح بشرتها، ولهذا الغرض ترتدي قفازات لتحمي يديها. ولايجوز لها أن ترى الدماء إلا إذا طُلي وجهها بالأسود؛ وإلا ستُصاب بالعمى. تلبس تلك القبعة مدة سنتين وتعيش في كوخ وحدها، رغم أنها لا تُمنع من رؤية الناس. وعند انقضاء السنتين يأخذ رجلٌ القبعة عن رأسها ويرميها بعيداً. وفي قبيلة بيلكولا في كولومبيا البريطانية عندما تبلغ الفتاة عليها أن تبقى في سقيفة مجهزة بموقد خاص تستخدمها كغرفة للنوم. ولا يسمح لها بالنزول إلى الجزء السفلي من المنزل، ولا يجوز لها أن تجلس بجانب موقد العائلة. كما يتوجب عليها أن تبقى ساكنة بلا حراك مدة أربعة أيام في وضعية الجلوس. تصوم في أثناء النهار بعد أن تأكل القليل من الطعام والشراب في الصباح الباكر. وبعد أيام الاعتزال الأربعة يمكنها أن تغادر غرفتها من فتحة خاصة في الأرض فقط، لأن المنزل مرفوع على أعمدة. وحتى ذلك الوقت لايمكنها أن تدخل الغرفة الرئيسة. وعندما تغادر المنزل ترتدي قبعة كبيرة تحميها من أشعة الشمس. ويُعتقد أنه إذا ما سطعت الشمس على وجهها فإنها ستعاني من عينيها. ويمكنها أن تقطف التوت من الجبال، لكن لا يجوز لها الاقتراب من النهر أو البحر مدة سنة كاملة. وإذا ما أكلت سلموناً طازجاً تخسر حواسها أو يتحول فمها إلى منقار طويل.

وعند هنود تلينكيت أو كولوس في ألاسكا، عندما تبدي الفتاة علامات الأنوثة تُحجز في كوخ صغير أو قفص مسدود من جميع الجهات إلا من فتحة صغيرة للهواء. في هذا المسكن المظلم والقذر، عليها أن تبقى سنة كاملة دون نار أو تمارين أو مُرافق. ولا يجوز لأي شخص أن يقترب منها إلا أمها أو الأَمَة ليزودانها بطعام يضعانه في نافذة صغيرة. وعليها أن تشرب من عظم الجناح أو من جمجمة صقر أبيض الرأس. ويمكن أن تقصر فترة اعتزالها في بعض الأماكن لتصبح ستة أو ثلاثة شهور وربما أقل. كما يتوجب عليها أن ترتدي قبعة بحواشي طويلة كي لا تلوث السماء بنظراتها؛ لأنهم يعتقدون أنها لاتستحق أن تسطع عليها الشمس، ويتخيلون أن نظرتها تفسد حظ الصيادين وصيادي السمك وتجعل الأشياء تتحجر وتصيب أشياء كثيرة بالأذى. وعند نهاية فترة الاعتزال يحرقون ملابسها ويصنعون لها ملابس جديدة ويقيمون لها وليمة يشقون في أثنائها شرماً تحت شفتها السفلى بشكل موازٍ لفمها ويقحمون في الشرم قطعاً من الخشب والصدف كي يبقى الشق منفرجاً. وعند الكونياغ وهم قوم من الأسكيمو في ألاسكا، توضع الفتاة عندما تبلغ في كوخ صغير عليها أن تبقى فيه على يديها وأقدامها مدة ستة شهور، ثم يوسِّعون الكوخ قليلاً ليسمحوا لها أن ترفع ظهرها، وعليها أن تبقى في الوضعية الجديدة مدة ستة شهور أخرى. طوال هذه الفترة يعتبرونها نجسة لا يخالطها أحد.

وعندما تظهر أعراض البلوغ على فتاة أول مرة يخيط قوم غوارانيس في جنوبي البرازيل على حدود الباراغواي، يخيطون لها أرجوحة شبكية، يتركون فيها فتحة صغيرة للتنفس. في هذه الحالة يلفونها ويكفنونها وكأنها جثة، ويتركونها هكذا يومين أو ثلاثة حسبما تزول عنها الأعراض. ويجب عليها في أثناء هذه المدة أن تتبع صياماً صارماً. وبعد ذلك يُعهد بها إلى قيِّمَةٍ تقص شعرها وتلازمها لتمنعها من تناول اللحوم بكافة أنواعها ريثما ينمو شعرها ليغطي أذنيها. وفي ظروف مماثلة يرفع قوم تشيريغوانو في جنوب شرق بوليفيا، يرفعون الفتاة على أرجوحة بقرب السقف لتبقى هناك مدة شهر: وفي الشهر التالي، ينزلون الأرجوحة إلى نصف المسافة عن السقف؛ وفي الشهر الثالث يدخلون الكوخ وهم مسلحون بالعصي ويضربون في كل اتجاه ويقولون أنهم يقتلون الأفعى التي جرحت الفتاة.

وعند الماتاكو وهي قبيلة هندية في غرانتشاكو، على الفتاة عندما تبلغ، أن تبقى في اعتزالها فترة ما. تُغطى بالكامل بأغصان أو بأشياء أخرى في ركن الكوخ لاترى أحداً أو تتكلم معه. ولا يجوز أن تأكل في أثناء هذه المدة لا اللحم ولا السمك. وفي الوقت نفسه يضرب رجل على الطبل أمام المنزل. وعند الليوراكاري وهي قبيلة هندية في شرقي بوليفيا، عندما يلاحظ على الفتاة علائم البلوغ يأمر أبوها ببناء كوخ صغير من سعف النخيل قرب المنزل، ويحبس ابنته بحيث لا ترى الضوء كما تتبع صوماً صارماً مدة أربعة أيام.

أما عند الماكوسي في غينيا البريطانية، فعندما تبلغ الفتاة سن البلوغ، تُعلَّق في أرجوحة شبكية في أعلى ارتفاع ممكن من الكوخ. في الأيام الأولى، لايمكنها مغادرة الكوخ نهاراً، لكن عليها أن تنزل في الليل وتضرم النار وتقضي الليل بجانبها، وإلا أصابها التقرح في رقبتها وحنجرتها وأعضاء أخرى من جسمها. ومادام أن الأعراض في أوجها، فعليها أن تتبع صياماً صارماً. وعندما تخمد الأعراض تنزل وتقيم في حجرة صغيرة صُنِعت خصيصاً لها في أكثر أركان الكوخ ظلمة. يمكنها أن تطبخ طعامها في الصباح لكن على نار منفصلة وفي وعاء خاص بها. وبعد حوالى عشرة أيام يأتي الساحر ويخرج السحر متمتماً كلاماً سحرياً ونافخاً عليها وعلى الأشياء الثمينة التي لمستها. ثم يكسرون الأواني والكؤوس التي استخدمتها ويدفنون أجزاءها المكسرة. وبعد حمامها الأول على أمها أن تضربها، ولكن ليس بعد ذلك. الآن تصبح طاهرة ويمكنها الاختلاط بالآخرين. وهناك هنود آخرون في غينيا يعرضون الفتاة بعد حجزها في أرجوحة في أعلى نقاط الكوخ مدة شهر، يعرضونها إلى نمل كبير الحجم لسعته مؤلمة. وأحياناً بالإضافة إلى لسع النمل، على الملسوعة أن تصوم ليلاً نهاراً مادامت معلقة عالياً في أرجوحتها حتى تصبح جلداً وعظماً عندما تنزل.

وعندما تصل السيدة الهندوسية البلوغ تُحفظ في غرفة مظلمة مدة أربعة أيام، وتمنع من رؤية الشمس. وبما أنها تعتبر نجسة، لا يجوز لأحد أن يلمسها. كما يقتصر طعامها على الأرز المسلوق والحليب والسكر وخثارة اللبن وتمرالهند دون ملح. وفي صباح اليوم الخامس تذهب إلى حوض مجاور مصحوبة بخمس نساء أزواجهن على قيد الحياة. ويدهنَّ أنفسهن بالزعفران الهندي ثم يستحمَّن ويَعُدْن إلى منازلهن

ويرمين الحصير والأشياء الأخرى خارج الحجرة. كما يجبر الرارهيبراهمان في البنغال الفتاةَ عندما تبلغ يجبرونها على العيش وحدها ولايسمحون لها برؤية وجه أي من الذكور. وتبقى عدة أيام محبوسة في غرفة مظلمة تقدم أثناءها عدة كفارات. يمنع عليها تناول السمك واللحم واللحم الحلو؛ كما يتوجب عليها أن تعيش على الأرز والسمن. ويعتقد التيانا في المالابار أن الفتاة تبقى نجسة مدة أربعة أيام بدءاً من أول يوم بالطمث. في أثناء هذه المدة عليها أن تبقى في الجزء الشمالي من المنزل حيث تنام على حصير من الأعشاب من نوع خاص وفي غرفة مزينة بالأكاليل من أوراق جوز الهند النضرة. ترافقها فتاة أخرى تنام معها، لكن لايجوز لها أن تلمس أي شخص سواها أو أي شجرة أو نبتة. كما لايجوز لها أن ترى السماء، والويل لها إن رأت قطة أو غراباً! على طعامها أن ينحصر بالخضار دون الملح والتمرهندي والتوابل. وتتسلح بسكين ضد الأرواح الشريرة التي تسكن الحصير أو تسكن فيها.

وفي كمبوديا عندما تبلغ الفتاة سن البلوغ، توضع في السرير تحت ناموسية مدة مئة يوم. عادة يكتفون بأربعة أو بخمسة أو بعشرة أو بعشرين يوماً؛ لكن لابد من المرور بهذه التجربة حتى في الطقس الحار تحت شبكة الناموسية ضيقة الفتحات. ويقول تقرير آخر أن عليها البقاء في الظل. وقد يدوم اعتزالها بضعة أيام وحتى عدة سنين اعتماداً على مستوى العائلة وموقعها الاجتماعي. كما يتوجب عليها أن تلتزم بعدد من القواعد كأن لا يراها رجل غريب وألا تأكل اللحم أو السمك وغيره، ولا تبارح منزلها حتى إلى المعبد. يمكنها كسر الاعتزال في أثناء الخسوف أو الكسوف، فتذهب في أثناء هذه المدة إلى الكاهن وتقدم له الصلوات لأنهم يفترضون أنه هو الذي مسك تلك الأجرام السماوية بين أسنانه. وفي هذا الخرق للاعتزال وخروج المرأة أمام الناس أثناء الكسوف أو الخسوف دليلٌ على التوصية الحرفية التي تمنع الفتيات اللواتي يرين الشمس من الدخول إلى عالم النساء.

انتشرت إحدى الخرافات انتشاراً واسعاً وبقي أثرها في الأساطير والحكايا الشعبية. تحكي الأسطورة الإغريقية القديمة عن داناي الذي حبسها أبوها في غرفة تحت الأرض أو في برج نحاسي، فحبلت من زيوس الذي أتاها على شكل زخة مطر من ذهب. وهناك مثيل لهذه الأسطورة يرويها كيرغيس عن أسلافه في سيبيريا. كان لأحد الخانات (الأمراء) ابنة جميلة حبسها في بيت حديدي مظلم بحيث لا يراها أي

رجل. وكانت تقوم على خدمتها امرأة عجوز. عندما وصلت الفتاة إلى سن البلوغ سألت المرأةَ العجوز:(أين تذهبين عادةً؟) فأجابت المرأةُ:(هناك عالم مضيء. في العالم المضيء يعيش أبوك وأمك وسائر أصناف البشر. أنا أذهب إلى هناك.) فقالت الفتاة:(يا أمي الطيبة، أرني العالم المضيء ولن أخبر أحداً قط.) فأخرجتها المرأة من البيت الحديدي. عندما شاهدت الفتاة العالم المضيء أُغمي عليها وسقطت أرضاً، فوقعت عليها عين الله، فحبلت منه. غضب أبوها غضباً شديداً، ووضعها في صندوق ذهبي وأرسلها في اليم(الذهب الخرافي يطفو في بلاد الخرافات). ربما ترمز زخة المطر في القصة الإغريقية، وعين الله في أسطورة كيرغيز ترمزان إلى الشمس وضوء الشمس. أما فكرة أن تحبل المرأة من الشمس فهي فكرة واسعة الانتشار في الأساطير، وهناك آثار لها في عادات الزواج.

4ـ أسباب اعتزال الفتيات عند البلوغ

إن الدافع وراء القيود المفروضة على الفتيات عندما يبلغن سن البلوغ هو الخوف المتأصل عند الرجل من دم الطمث. يخافه في كل الأوقات خاصة عند أول ظهور له لأن القيود المفروضة على المرأة عند أول طمث هي أكثر صرامة من النزيف الغامض. وهناك أدلة أدرجناها سابقاً على هذا الخوف وعلى العادات التي بُنيت عليه: ولكن بما أن الخوف، ولا شيء سوى الخوف، سيطر على العقل البدائي بشكل دوري وأثر في حياته وأعرافه، من الأفضل أن نتناول الأمر بأمثلة أوسع.

عند قبيلة خليج إنكاونتر في جنوب أستراليا، هناك خرافة تجبر المرأة على الانفصال عن المخيم في أثناء مرضها الشهري، عندما يقترب منها فتىً أو فتاة، تصرخ، فيقوم على الفور بصنع دائرة حولها بغية تجنبها. وإذا ما أهملَت الفتاة هذا التحذير تصبح عرضة للاحتقار، وأحياناً تتعرض إلى الضرب من قبل زوجها أو أقاربها المقربين، فهم يبلغون الأطفال من صغرهم أن كل من يرى الدم يشيب، وتذوي قواه قبل البلوغ. ويعتقد أفراد قبيلة الدايري في أستراليا الوسطى أنه إذا ما أكلت امرأةٌ السمك أو استحمت في نهر في أثناء هذه الفترة، يموت السمك ويجف الماء. أما قبيلة أرونتا وهي من المنطقة نفسها، فتُمنَع المرأة الطامث من جمع بصيلات

إرياكورا، التي تعتبر غذاءً أساسياً للرجال والنساء. ويعتقدون أنه إذا ما خرقت إحداهن تلك العادة سينضب مخزون البصيلات.

تغالي بعض القبائل الأسترالية في عزل المرأة الطامث، فيعاقبونها عقاباً قاسياً يتعدى الاحتقار أو الضرب، ففي قبيلة ويكلبورا أنظمة تمنع المرأة من دخول المخيم من الطريق الذي يدخل منه الرجال، وأي خرق لهذه القاعدة في مخيم كبيرعقوبته الموت. كل هذا يعود إلى خوفهم من فترة الحيض عند المرأة. يبعدون المرأة عن المخيم، مسافة لا تقل عن ميل واحد. تضع المرأة في هذه الحالة أغصاناً من شجرة طوطمهم على عوراتها، ويراقبونها ويحرسونها باستمرار لأنه لو شاهدها أي رجل على هذه الحالة، لسوء حظه سيموت. وإذا ما سمحت المرأة أن يراها أحد ربما تُقتَل. وعندما تنتهي المرأة من حيضها يلونونها بالأبيض والأحمر، ويغطون رأسها بالريش ثم تعود إلى المعسكر.

وفي مورالاغ وهي إحدى جزر مضيق توريس، لايسمح للمراة الحائض أن تأكل أي شئ يعيش في البحر، وإلا تخفق المسامك كلها. وفي غاليلا، إلى الغرب من غينيا الجديدة، لا يُسمح للنساء في أثناء العادة الشهرية أن يدخلن حقول التبغ وإلا أصاب المرضُ الزرعَ. أما قوم مينانغكاباور من سومطرة فَهُم مقتنعون أنه عندما تقترب امرأة غير نظيفة من حقل الأرز يفسد المحصول.

يعتقد شعب القناصين بوشمين في جنوب أفريقيا أن نظرة واحدة من فتاة في فترة اعتزالها الصارم تكفي لتثبيت الرجل بالوضعية التي هو فيها مهما كان يعمل أو يحمل في يده، ثم يتحول إلى شجرة تتكلم. وتعتقد قبائل مربِّي المواشي في جنوب أفريقيا أن ماشيتهم تموت إذا شربت امرأةٌ حائض من حليبها؛ ويشعرون بالكارثة نفسها إذا ما سقطت قطرة من دمها على الأرض ومر فوقها ثور. ولدرء مثل هذه المصيبة، تمنع النساء بشكل عام وليس فقط الحائضات من الدخول إلى حظائر الماشية، كما يُمنعن من استخدام الممرات العادية عندما يدخلن القرية أو ينتقلن من كوخ إلى آخر. كما يُجبرون على رسم آثار دائرية ليتجنبوا وقوف أو استلقاء الماشية وسط القرية. ويمكن رؤية آثار النساء هذه في كل قرية من قرى الكافير. كذلك هو الأمر بالنسبة للمرأة الحائض عند الباغاندا، لايجوز أن تشرب الحائض الحليب أو تقترب من أية آنية حليب؛ أو تلمس شيئاً من مقتنيات زوجها، أو تجلس على

بساط، أو تطبخ طعاماً. وإذا ما لمست أي شيء يخصه، فكأنها تمارس سحراً يُقصد منه تدميره أو كأنها تتمنى له الموت. وإذا ما اضطرت للإمساك بأي من أشيائه، فإنه سيمرض حتماً؛ وإذا لمست أسلحته، سيموت في المعركة القادمة لا محالة. كما يمنع الباغاندا المرأة من زيارة البئر؛ وإذا فعلت، يخافون من أن يجف الماء، أما هي فإنها ستمرض وتموت إلا إذا اعترفت بغلطتها للحكيم وقام بإجراء الكفارة عن فعلتها. وعند قوم أكيكويو في شرقي أفريقيا البريطانية، إذ بنوا كوخاً جديداً في القرية وصادف أن كانت المرأة في الحيض في ذلك اليوم الذي تشعل فيه النار الأولى، فيجب أن يُكسَّر الكوخ ويدمر في اليوم التالي. ولايجوز أبداً أن تنام المرأة فيه ليلة أخرى؛ لأن لعنة حلت عليها وعلى الكوخ.

حسبما جاء في التلمود، إذا مرت امرأة في بداية حيضها بين رجلين، تقتل أحدهما. ويعتقد الفلاحون في لبنان أن النساء الحائضات هن سبب المصائب؛ فظلالهن تُذبِل الورود وتُميتُ الأشجار، وتأسر حركة الأفاعي؛ وإذا امتطت حائض حصاناً، يموت أو يصيبه العجز مدة طويلة.

يعتقد الغواريكوايري في أورينوكو أنه عندما تكون المرأة في الدورة الشهرية تتسبب بموت كل شيء تطؤه، وإذا وطئ رجل في مكان مرت به، تتورم قدماه. ومن بين هنود بريبري في كوستاريكا تستخدم المرأة الحائض أوراق الموز بدلاً من الصحون، وعندما تنتهي من تلك الأوراق ترميها في مكان بعيد؛ لأنه لو عثرت عليها بقرة وأكلتها تموت البهيمة وتتمحق. كما أنها تشرب فقط من أوانٍ خاصة لأن الشخص الذي يشرب من الآنية نفسها بعد ذلك سيهزل ويموت.

جرت العادة عند معظم قبائل هنود أمريكا الجنوبية أن تُعزل النساء الحائضات عن المخيم أو القرية ويعشن في مدة نجاستهن في أكواخ خاصة أو مأوى يناسبهن. يعشن في ذلك المكان منفصلات، يأكلن وينمن لوحدهن، ويدفئن أنفسهن بنيرانهن الخاصة، ويمتنعن تماماً عن التواصل مع الرجال الذين يتجنبونهن وكأنهن مصابات بالطاعون.

وللمزيد من الأمثلة، يجبر الكريك وأقاربهم في الولايات المتحدة النساء الحائضات على العيش في أكواخ منعزلة على مقربة من القرية. وعلى النساء أن يُقِمن هناك رغم خطر الغزو المباغت من قبل الأعداء. يعتقدون أن الاقتراب منهن في

أثناء الحيض تلويث خطير وبشع. وإذا ما قُتِلت إحدى النساء على يد الأعداء عليهن أن ينظفن أنفسهن بأوراق وأعشاب وجذور معينة. ويتخيل الستسيلي، وهم هنود كولومبيا البريطانية أنه لو مرت امرأة خائض فوق حزمة من السهام، تفقد السهام فعاليتها وحتى إنها تسبب الموت لصاحبها؛ وكذلك إذا مرت أمام صياد يحمل بندقية، يخفق السلاح في إطلاق النار ثانيةً. وعند شيوايز وهنود آخرون في منطقة خليج هادسون، تُعزل النساء الحائضات عن المخيم، وتسكن أكواخاً مصنوعة من الأغصان. يلبسن أردية طويلة تغطي الرأس والصدر بالكامل. ولايمكنهن أن يلمسن أثاث المنزل أو أشياء يستخدمها الرجال؛ لأن هذا يدنسها مما يؤدي إلى مصيبة لاحقة كالمرض أو الموت. كما يتوجب عليهن أن يشربن من عظم إوزة. ولايجوز لهن أن يمشين في الممرات العادية أو يعبرن مسارات الدواب. ولايسمح لهن أن يمشين على الأنهار أو البحيرات الجليدية، أو قرب مكان يصطاد فيه الرجال القندس، أو مكان نُصبَت فيه شبكة الصيد، فاقترابهن يمنع الظفر بالصيد. كما يُمنَعن في تلك الفترة من تناول الطعام من رأس أي حيوان، كذلك يمنعن من عبور طريق حُمل عليه مؤخراً رأس أيل أو موظ أو قندس وكثير من الحيوانات الأخرى، على ظهور الناس أو على الزلاجات. كما يعتبر انتهاك هذه العادة أمراً جللاً؛ لأنهم متيقنون أن هذا يؤدي إلى منع الصياد من النجاح في رحلاته القادمة. لذلك يمنع قوم اللاب النساءَ الحائضات من المشي على الشاطئ حيث اعتاد الصيادون القيام بالصيد. ويعتقد الأسكيمو في مضيق بيرينغ أنه إذا ما اقترب الصيادون من النساء وهم في طريقهم فإنهم لن يلتقطوا أية طريدة. ولأسباب مماثلة لايسمح هنود كارير للمرأة الحائض من المرور على طريق الدواب؛ وإذا اضطر الأمر فإنها تُحمَل فوق ذلك الطريق. ويعتقدون أنها إذا ما خاضت في جدول أو بحيرة، سيموت السمك.

وليست العادات الأوربية الحديثة أقل مغالاة من تلك التي سادت عند البدائيين بما يتعلق بمجموعة الخرافات التي تكتنف طبيعة الحيض عند المرأة. حسب أقدم موسوعة متوفرة لدينا – تاريخ بليني الطبيعي – هناك قائمة من المخاوف المتعلقة بالحيض أطول من قائمة مخاوف البرابرة. وحسب بليني، إن لمسة من المرأة الحائض تكفي لتحول الخمر إلى خل، وتصيب الزرع، وتقتل النبات، وتذبل الحدائق، وتسقط الثمار عن الأشجار، وتعتم المرايا، وتثلم السكاكين وتصدئ الحديد

والنحاس (خاصة عند محاق القمر)، وتقتل النحل، أو على الأقل، تخرجهم من أفيرهم، وتسبب إجهاض المهر، وغير ذلك. كذلك في أنحاء متعددة من أوروبا، مازالوا يعتقدون أنه عندما تدخل امرأة حائض إلى مصنع الجعة تجعل البيرة حامضة؛ وإذا ما لمست البيرة أو الخمر أو الخل أو الحليب، يفسد على الفور؛ وإذا ماصنعت مربى فلن يبقى سليماً مدة طويلة؛ وإذا اعتلت مهرة، تجهض؛ وإذا ما لمست البراعم، تذبل؛ وإذا ماتسلقت شجرة توت، تموت الشجرة. ويعتقد شعب البرانسويك، أنه إذا ما ساعدت امرأة حائض في قتل خنزير، ينتن اللحم ويتفسخ. وفي جزيرة كاليمنوس الإغريقية لاتذهب المرأة الحائض إلى البئر لجلب الماء، ولا تعبر جدولاً جارياً ولا تدخل البحر. ويقال أن مجرد وجودها في قارب يثير العواصف.

إذن المقصود من عزل النساء في أثناء الحيض هو تحييد الآثار الخطيرة المفترض أنها تنبعث منهن في هذه الفترة. وكون الخطر كبيراً عند الحيض الأول، يأخذون حيطة غير عادية في عزل الفتيات اللواتي طرأ عليهن التغير المفاجئ. وقد بحثنا نوعين من الحيطة أعلاه، تحديداً، عدم لمس الفتيات الأرض أو عدم رؤية الشمس. وتهدف هذه القواعد إلى إبقاء الفتاة معلقة بين الأرض والسماء. ويمكن اعتبارها في منأىً عن إنزال الأذى وهي معلقة إلى السقف أو مغلفة ضمن أرجوحة كما في أمريكا الجنوبية، أو مرفوعة عن الأرض في قفص ضيق ومظلم، لأنه بهذا الشكل المنعزل عن الأرض والسماء، لاتستطيع تسميم أي من مصادر الحياة الكبرى عن طريق العدوى. بالمختصر، لاتعتبر مؤذية مادام أنها – باللغة الكهربائية – معزولة. والغرض من فرض الحيطة في فصل الفتاة أو عزلها هو سلامتها وسلامة الآخرين على حد سواء. فهم يعتقدون أنها ستعاني إذا ما أهملت هذا النظام المفروض عليها. ورأينا كيف يعتقد فتيات الزولو أنهن يذوين حتى الهيكل إذا ما سطعت الشمس عليهن عندما يبلغن سن البلوغ، ويتخيل الماكوسي أنه إذا ما خرقت امرأة هذه القواعد، ستعاني من آلام في أنحاء كثيرة من جسمها. بالمختصر، يرون أنها مشحونة بطاقة قوية تصبح مدمرة لها ولكل من يلامسها، ما لم تُحاصر. وتهدف جميع هذه المحرمات إلى ضغط هذه الطاقة ضمن القيود الضرورية توخياً للسلامة.

وينطبق التفسير نفسه على القواعد المفروضة على الملوك الإلهيين والكهنة. ولا يميز العقل البدائي من الناحية المادية بين نجاسة النساء عند البلوغ وبين حرمة

القديسين. فهما مظهران مختلفان للطاقة الغامضة نفسها والتي بحد ذاتها ليست خيرة ولا شريرة، لكنها تصبح كذلك إذا ما طُبِّقَت بشكل سيء أو بشكل حسن. ولايمكن للأشخاص الإلهيين أن يلمسوا الأرض أو يروا الشمس لسببين: الأول، تفريغ العنف المميت إذا ما لمس الأرض أو السماء؛ والثاني، الخوف من تفريغ الكائن الإلهي من فضيلته السماوية ويصبح عاجزاً في المستقبل عن أداء وظائفه السحرية التي ترتبط بها سلامة الناس بل العالم بأسره. لذا فالمقصود من القواعد المدرجة تحت تسمية المحرمات التي درسناها سابقاً في هذا الكتاب؛ المقصود منها الحفاظ على حياة الشخص الإلهي وبالتالي حياة رعاياه وعابديه. وهل من مكان أقل ضرراً وأكثر أمناً لحفظ حياته النفيسة والخطيرة في آن معاً، من كونه لا في السماء ولا في الأرض، بل في مكان معلق بينهما.

الفصل الواحد والستون
أسطورة بالدر

الإله الذي يُقال أن حياته لا في السماء ولا في الأرض بل في مكان بينهما كان بالدر الإسكندنافي، ذلك الإله الجميل، ابن الإله الأكبر أودين، وهو الأحكم والأرحم ومعشوق الآلهة الخالدين. وكانت قصة موته كما رواها إيدا على الشكل التالي. ذات يوم حَلُم بالدر حلماً ثقيلاً ينذر بموته. وعقدت الآلهة مجلساً قرروا فيه تأمينه ضد جميع الأخطار. فأخذت الإلهة فريغ عهداً من النار والماء، الحديد وكل المعادن، الطيور، والأشياء الزاحفة، ألا تؤذي بالدر. بعد هذا العهد اعتبر بالدر منيعاً. فرِحت الآلهة ووضعوه وسطهم بينما أطلق بعضهم عليه النار، وحاول آخرون قطعه، وآخرون رموا عليه الحجارة. لكنهم مهما فعلوا، لايمكن لأي شئ أن يؤذيه؛ فكان الجميع مسرورين لذلك، إلا لوكي، الخالق المؤذي، الذي امتعض وذهب على شكل امرأة عجوز إلى فريغ، التي أخبرته أن أسلحة الآلهة لن تؤذي بالدر، لأنها أخذت القَسَم منهم على عدم إيذائه. فسألها لوكي:(هل أقسمت كل الأشياء على الحفاظ على بالدر؟) فأجابته:(هناك في شرق والهالا نبتة تدعى الهدال؛ على ما أعتقد، أنها أصغر من أن تقسم.) فذهب لوكي إلى المكان واقتلع الهدال وأتى بها إلى مجمع الآلهة. هناك وجد الإله الأعمى هوثر خارج الدائرة. سأله لوكي:(لماذا لم تطلق على بالدر؟) فأجاب هوثر:(لأني لا أعرف أين يقف؛ بالإضافة إلى أنني لا أملك سلاحاً." فقال لوكي:(افعل كما فعلت بقية الآلهة وأظهر الشرف لبالدر، كما فعلوا كلهم. سأريك أين يقف، واطلق عليه هذا الغصين.) أخذ هوثر الهدال ورماها على بالدر كما أوصاه لوكي. ضربت الهدالُ بالدر واخترقته فوقع ميتاً. فكان هذا أفظع مصيبة أصابت الآلهة والناس. أخذوا جثة بالدر إلى شاطئ البحر حيث كانت ترسو سفينة بالدر المسماة القرن المحلق، وكانت أضخم السفن جميعاً. تمنت الآلهة

أن ترسل السفينة وتحرق جثة بالدر، لكنها أعيتهم ولم تتحرك. فأرسلوا في طلب عملاقة تدعى هايروكين، فجاءت تركب ذئباً ودفعت السفينة دفعةً جعلت النار تلمع من تحت مزالجها، واهتزت الأرض بكاملها. أُخِذَت جثة بالدر ووُضِعت على كومة الجنازة فوق السفينة. عندما شاهدت نانا ذلك انفجر قلبها بالأسى وماتت، فوُضِعت على كومة الجنازة مع زوجها، وأُضرمت فيهما النار. كما حُرق حصان بالدر مع كل زينته على الكومة نفسها.

إن كان شخصاً حقيقياً أو مجرد شخصية أسطورية، يُعبد بالدر في النرويج. ولبالدر حرم عظيم على أحد خلجان سونفيورد التي تخترق عميقاً جبال النرويج المقدسة بما فيها من غابات الصنوبر الداكنة قبل بلوغها مياه الزقاق البحري المعتمة التي تكتنفها الأجراف. تسمى أيكة بالدر، وهي عبارة عن أجراف شاهقة تحيط بأرض مقدسة تحوي معبداً فسيحاً عليه صور الكثير من الآلهة التي لم يصل أي منهم إلى مستوى تبجيل وعبادة بالدر. ينظر الوثنيون إلى المكان بخشية عظيمة إلى درجة أنه لايمكن لأي شخص أن يؤذي آخر فيه، أو يسرق ماشيته أويدنس نفسه مع النساء. أما النساء فيعتنين بمجسمات الآلهة في المعبد؛ يدفئنها على النار، ويدهنها بالزيت، ويجففنها بالأقمشة.

مهما كان الجوهر أو النواة التاريخية وراء هذه القشور الأسطورية لملحمة بالدر، تبقى تفاصيل القصة دلالة على أنها تنتمي إلى نوع من الأساطير التي لها شعيرة درامية، أو بالأحرى، تم أداؤها كطقوس سحرية بغية الوصول إلى تلك الآثار الطبيعية التي يصفونها باللغة البلاغية. لا تصل أي أسطورة إلى تفاصيل دقيقة أكثر من وصولهاعندما تكون على شكل كلمات في كتاب أوتُحكى أوتُمثَّل على أنها شعيرة مقدسة. يمكن اعتبار قصة بالدر النرويجية من هذا النوع والتي تصبح ممكنة إذا ما أثبتنا أن الطقوس تشبه أحداث الرواية التي أداها النرويجيون والشعوب الأوربية الأخرى. الحدثان الأساسيان في الرواية هما: أولاً، اقتلاع الهدال، والثاني موت أو حرق الإله؛ ولكليهما مثيلهما في الشعائر السنوية منفصلة كانت أم مجتمعة، لدى الشعوب في أنحاء متفرقة من أوروبا. سنناقش هذه الشعائر في الفصول اللاحقة. وسنبدأ باحتفالات النار السنوية، كما سنعود إلى اقتلاع الهدال فيما بعد.

الفصل الثاني والستون
احتفالات النار في أوروبا

1ـ احتفالات النار بشكل عام

اعتاد الفلاحون في جميع أنحاء أوروبا ومنذ فجر التاريخ، إضرام المشاعل في أيام معينة من السنة، والرقص حولها والقفز فوقها. وهناك أدلة تاريخية تثبت انتشار هذه العادة في العصور الوسطى، وأدلة ضمنية قوية تدل على وجود عادات مماثلة كانت سائدة قديماً، وتعود إلى ما قبل انتشار المسيحية بوقت طويل. وأقدم هذه الأدلة على اتباعها في شمالي أوروبا هو محاولة المجمع الكنسي في القرن الثامن عشر قمع هذه الشعائر لأنها وثنية. كم وكم من المجسمات حُرقت في هذه المشاعل، كما كانوا يمثلون حرق شخص حي فيها؛ وهناك مايبرر اعتقادنا أنهم كانوا قديماً يحرقون كائنات بشرية حية في هذه المناسبات. نظرة سريعة على هذه العادات تكشف عن آثار الأضاحي البشرية، وتلقي الضوء على معناها.

تنتشر هذه المشاعل في الربيع ومنتصف الصيف بشكل رئيس؛ وفي بعض الأماكن عند نهاية الخريف وفي أثناء الشتاء، خصوصاً في الواحد والثلاثين من تشرين الأول عيد الرعب، وفي عيد ميلاد المسيح وعشية عيد الغطاس. يمنعني المتسع من الاسترسال بوصف هذه الإحتفالات؛ لذلك سأكتفي بعينات تبين خواصها العامة. وسنبدأ باحتفال النار في الربيع، الذي يصادف الأحد الأول من الصوم الكبير، عشية عيد الفصح، ويوم أيار.

2ـ نيران الصوم

انتشرت عادة إضرام المشاعل في الأحد الأول من الصوم الكبير في بلجيكا، وشمال فرنسا، وفي أنحاء كثيرة من ألمانيا. ففي اردينيس البلجيكية ولمدة أسبوع أو أسبوعين قبل عيد النار الكبيرة، كما يسمونها، يخرج الأطفال من مزرعة إلى مزرعة يجمعون الوقود. وفي غراندهالو، يطارد الأطفال كل من يرفض تلبية طلبهم في اليوم التالي ويحاولون تسويد وجهه بالرماد والشحار. وعندما يأتي اليوم يقطعون أغصان الأشجار خاصة العرعر ونبات الوزال أو المقشة، وفي المساء يضرمون ناراً كبيرة على كل قمم الجبال. وهناك قولٌ يوجب رؤية سبعة مشاعل حول القرية إذا ما أرادوا لها أن تنجو من الحرائق. وإذا ما تجمد الميوس في ذلك الوقت، عليهم أيضاً أن يضرموا المشاعل على الجليد. وفي هالو الكبير ينصبون عموداً يسمونه ماكرال أي الساحرة، في منتصف الكومة، وتضرم النار على يد آخر رجل تزوج في القرية. وفي جوار مورلانولز يلقون رجلاً من القش في تلك النار. يرقص الشبان والأطفال حول المشاعل، ويقفزون فوق الجمر ليضمنوا محصولاً جيداً أو زواجاً سعيداً خلال السنة القادمة، أو كوسيلة لحماية أنفسهم من المغص. وفي برابانت، في الأحد نفسه، وحتى بداية القرن التاسع عشر، يتنكر الرجال والنساء بزينة نسائية ويذهبون ومعهم المشاعل إلى الحقول، حيث يرقصون ويغنون الأغاني بهدف طرد ما يزعمون أنه الباذر الشرير الذي يذكرونه في الإنجيل عن هذا اليوم. وفي باتورجس، في مقاطعة هاينو، وحتى عام 1840 ظلت العادة منتشرة تحت اسم سكوفيون. وكل سنة عند الأحد الأول من الصوم الكبير والذي يسمونه عيد سكوفيون الصغير، اعتاد الأطفال الجري في الحدائق والبساتين ومعهم المشاعل، يصرخون بأعلى صوتهم:

"احملوا التفاح، احملوا الأجاص، والتوت الأسود لسكوفيون!"

وعند التلفظ بهذه الكلمات يدور حامل المشعل بجمره المتوهج ويدفعه بين أغصان أشجار التفاح والإجاص والتوت. ويسمون الأحد التالي سكوفيون الصغير، ويكررون ما فعلوه في سكورفيون الصغير منذ بعد الظهر وحتى حلول الظلام.

وفي الجزء الفرنسي من أردينيز كان كل أهل القرية يرقصون ويغنون حول المشاعل المضاءة في اليوم الأول من الصوم الكبير، لكن هنا يُضرِمُ النارَ أحياناً آخرُ

المتزوجين وأحياناً آخرُ المتزوجات. ومازالت هذه العادة سارية في تلك المقاطعة. يحرقون القطط في النار أو يشوونها فوقها حتى الموت؛ وبينما هم يفعلون ذلك يسوق الرعاة قطعانهم في دخانها ولهبها كوسيلة مضمونة لحمايتها من المرض والسحر. وفي بعض النواحي يعتقدون أنه كلما كانت الرقصة حول النار أكثر حيوية كلما تحسن محصول تلك السنة.

وفي المقاطعة الفرنسية فرانس كومتي، إلى الغرب من جبال جورا، يُعرف الأحد الأول من الصوم الكبير بأحد الجمرات، لما يضرمونه من نار في ذلك اليوم. ويوم السبت أو الأحد يجهز الفتيان عربة ويجرونها في الشوارع، ويتوقفون عند بوابة كل منزل ويتوسلون للفتيات اللواتي يقفن هناك أن يعطوهن حزماً من الحطب. وعندما يجمعون ما يكفي من الوقود ينقلونه إلى مكان قريب من القرية، يضعونه في كومة ويضرمون بها النار. يحضر جميع أهالي الأبرشية لمشاهدة المشعل. وفي بعض القرى، عندما تنطلق أجراس البشارة، يصرخون إشعاراً برؤيتهم للنار: (إلى النار! إلى النار!) ثم يرقص الفتيان والفتيات والأطفال حول اللهب، وعندما تخمد النار يتبارون بالقفز من فوق الجمر المتوهج. وكل من يقفز دون أن يُشيط رداءَه سيتزوج خلال سنة. كما يحمل الصغار مشاعل مضاءة في الشوارع أوالحقول، وعندما يمرون ببستان يصرخون:(ثمار أكثر من الأوراق!) وحتى السنوات القليلة الماضية في لافيرون، في منطقة دوبس، يتولى الأزواج الصغار مسؤولية تحضيرهذه المشاعل. وفي منتصف المشعلة ينصبون عموداً عليه مجسم ديك خشبي مربوط إلى أعلاه. ثم يُقام سباق يحصل الفائز به على الديك كجائزة.

وفي أفرين تُضرم المشاعل في كل مكان عشية الأحد الأول من الصيام الكبير. في كل قرية وَضَيعة وحتى في كل حي وكل مزرعة منعزلة هناك مشاعل يسمونها فيغو، تتوهج عندما يسدل الظلام ستائره. ويمكن رؤية النيران تتألق على المرتفعات والسهول؛ ويرقص الناس حولها ويقفزون خلال اللهب. ثم ينتقلون إلى طقس الشعلة القشية المربوطة إلى أعلى عمود. وعندما تحترق نصف المحرقة، يشعل الواقفون مشاعل من لهبها ويحملونها إلى البساتين المجاورة، والحقول، والحدائق وإلى كل مكان فيه أشجار مثمرة. ويغنون وهم يسيرون بأعلى صوتهم:(غرانو،

ياصديقي، غرانو يا أبي، غرانو يا أمي، ثم يمررون المشاعل المحترقة تحت أغصان الأشجار وهم يغنون:

(احترق يا جمر النار؛ من كل غصن ملء سلة!) وفي بعض القرى يركض الناس في الحقول المبدورة ويهزون الرماد من المشاعل إلى الأرض؛ ثم يضعون بعض المشاعل في أعشاش الطيور كي يضع الدجاج الكثير من البيض خلال السنة القادمة. وبعد أداء هذه الطقوس يذهب الجميع إلى بيوتهم ويحتفلون على عشاءٍ تشكل الفطائرُ والفطائرُ المحلاة طبَقَه الرئيس. من الواضح هنا أن تقريب النار من الأشجار المثمرة، والحقول المبدورة، وأعشاش الدواجن هو سحر يُقصد منه ضمان الخصب؛ أما التضرع المقدم إلى غرانو والذي يعطي اسمه للمشاعل، ربما كان، كما يقترح الدكتور بوميرول، هو الإله السلتي القديم غرانوس، الذي يوازي أبولو عند الرومان، والذي تؤكد عبادتَه النقوشُ الموجودة فقط في فرنسا وأسكتلندة وعلى نهر الدانوب.

يبدو أن طقس حمل المشاعل القشية المضرمة في البساتين والحقول لتخصيبها في اليوم الأول من الصوم الكبير، شائع في فرنسا، وأحياناً يترافق هذا الطقس مع إقامة المشعلات الكبيرة. ففي مقاطعة بيكاردي يحمل الناس المشاعل إلى الحقول في الأحد الأول من الصوم الكبير ليطردوا فئران الحقول، والشيلم، والسناج. ويتخيلون أنهم بهذا يعطون الحقول منفعة كبيرة ويتسببون للبصل أن ينمو أكثر. يركض الأطفال بين الحقول والمشاعل في أيديهم، ليكسبوا الأرض خصباً أكثر. وفي فيرجي، وهي قرية من قرى جورا وكومبدين، تضرم المشاعل في هذا الموسم في أعالي الجبال، ويذهب حاملوها إلى كل منزل في القرية، يطلبون البازلاء المحمصة ويجبرون كل الأزواج الذين تزوجوا خلال ذلك العام على أن يرقصوا. وفي بيري، وهي مقاطعة في وسط فرنسا الوسطى، يبدو أن المشاعل لا تضاء في ذلك اليوم، لكن عندما تغرب الشمس ينتشر أهالي القرى في البلد مسلحين بالمشاعل القشية المتوهجة، وينتشرون في البلد كي يطهروا الحقول وعرائش العنب والبساتين. وعند رؤيتهم من بعيد، تظهر الجموع التي تحمل الأضواء المتحركة كأنها مجموعات من السراب تطارد بعضها بعضاً عبر السهوب، وعلى طول السفوح، وإلى الأودية. كما يلوح الرجال بمشاعلهم على الأشجار المثمرة، وتربط النساء والأطفال عُصابات من

قش القمح حول جذوع الأشجار. ويبدو أن أثر هذا الطقس يمنع أوبئة متعددة تعاني منها ثمار الأرض؛ كما تعطي أشرطة القش الإثمارية للأشجار التي تُربَط حول جذوعها.

في ألمانيا والنمسا وسويسرا وفي الموسم نفسه تنتشر العادات عينها. ففي جبال إيفيل، بروسيا الراينية، وفي اليوم الأول من الصوم الكبير، اعتاد الصغار على جمع القش والأجمات من البيوت، يحملونها إلى رابية، ثم يكومونها حول شجرة زان صغيرة يربطون إليها قطعة خشب بشكل متعامد لتشكل صليباً. وكانوا يسمون هذا الشكل **الكوخ** أو **القلعة**. تُضرم النار فيها ويمشي الأطفال حول القلعة الملتهبة حاسري الرأس، ويحمل كل منهم مشعلاً مضاءً ويتلو صلاتَه بصوت مرتفع. وأحياناً يشعلون رجلاً من القش في الكوخ. يلاحظ الناس الاتجاه الذي يأتي منه الدخان؛ فإذا اتجه الدخان نحو حقول الحنطة، كان المحصول وافراً. وفي اليوم نفسه، في بعض أنحاء إيفيل، يصنعون الدولاب القشي الكبير ويجرّونه بثلاثة أحصنة إلى قمة الجبل. يمشي إليه أطفال القرية عند حلول الظلام، ويضرمون فيه النار، ويدحرجونه إلى أسفل السهل وهو مشتعل. وفي أوبرستافلد، على آخر شاب تزوج في القرية أن يؤمِّن هذا الدولاب. وبالقرب من إتشرناخ في لوكسومبورغ، يسمون الطقس نفسه **حرق الساحرة**. وفي فورالبورغ، وعند الأحد الأول من الصوم الكبير، يحيطون شجرةَ تنوب نحيفة بكومة من القش والحطب. ويربطون إلى أعلى الشجرة مجسماً يصنعونه من القماش القديم ويحشونه بالبارود. وفي الليل يضرمون كل شئ ويرقص الفتية والفتيات حول النار، وهم يؤرجحون المشاعل وينشدون أناشيد نميز منها الكلمات التالية :(الحنطة في سلال الذَّري، والمحراث في الأرض.) وفي سوابيا، في الأحد الأول من الصوم الكبير، يصنعون مجسماً من القماش ويربطونه إلى عمود، ويسمونه **الساحرة** أو **العجوز**، أو **جدة الشتاء**. يثبتون هذا المجسم وسط كومة من الخشب ويشعلونها. وفي أثناء احتراق الساحرة، يرمي الصغار أقراصاً ملتهبة في الهواء. وهي عبارة عن قطع خشبية مدوَّرة يبلغ قطر كل منها بضع إنشات، محزوزة الحواف بحيث تشبه أشعة الشمس أو النجوم. وفي هذه القطعة ثقب في المنتصف يربطونها منه إلى نهاية عصاً. وقبل إلقاء القرص يشعلونه ويؤرجحون العصا جيئة وذهاباً، والقوة الدافعة المنتقلة إلى القرص تزداد برطم العصا بحدة على لوح مائل.

على هذه الحالة، يُلقى القرص مرتفعاً عالياً في الهواء محدثاً منحنىً نارياً طويلاً قبل أن ينـزل إلى الأرض. يأخـذون الجمـرات المتفحمـة والـساحرة المحترقـة إلى المنـازل ويـدفنونها في حقـول الكتـان في الليلـة نفـسها، معتقـدين أنهـا تحمـي الحقـول مـن الطفيليـات. وفي جبـال رون الواقعـة علـى الحـدود بـين هـوس وبافاريـا، اعتـاد النـاس المشي إلى أعلـى الجبل أو الرابيـة في الأحـد الأول مـن الـصوم الـكبير. يحمـل الفتيـان والأطفال مشاعل ومقشات مغمسة بـالقطران، وهـراوات مغلّفة بـالقش. ثـم يـضرمون النار بدولاب مغلف بمواد محترقة، ويدحرجونه إلى أسفل الجبل؛ وينـدفع الـشبان بـين الحقول ومعهم المشاعل والمقشات المحترقة ويرمونهـا أخيراً في كومـة ويقفـون حولهـا وهم ينشدون ترنيمـة أو أغنيـة محليـة. الهـدف مـن الجـري في الحقـول ومعهـم المـشاعل المحترقة هو طرد الزارع الشرير. أو أن الجـري هـو علـى شـرف العـذراء، كـي تحفـظ ثمار السنة القادمة وتباركها. وفي قرى مجاورة لهاس الواقعة بـين جبـال رون وفوجـل، يعتقدون أنه حيث يمر الدولاب المحترق تكون الحقول آمنة من العواصف والبَرَد.

في سويسرا أيضاً اعتادوا إضرام المشاعل في الأماكن العالية عشية الأحـد الأول من الصوم الـكبير، ولهذا يُعرف ذلك اليوم بـأحد الـشرارة. ففـي إقليم لوسيرن مـثلاً كـان الـصبية يجولـون مـن بيـت إلى آخـر يطلبـون الخـشب والقـش، ويكومونـه في مكان واضح أو جبل حول عمود يضعون عليـه مجسماً قشياً يـدعى الـساحرة. وعنـد حلـول الليـل تُشعَل الكومـة ويـرقص الـصغار حولهـا بهيـاج كـبير، بعـضهم يطقطـق بالأسـواط أو يقـرع الأجـراس؛ وعنـدما ينخفض مـستوى النـار يقفـزون فوقهـا. كـانوا يـسمون هـذا الطقـس حـرق الـساحرة. وفي بعـض أنحـاء الإقلـيم اعتـادوا أيـضاً تغليـف الـدواليب بـالقش والـشوك، وحرقهـا ودفعهـا لتتـدحرج أسـفل الـهضبة. كلمـا رأوا الكثير من النيران تتوهج وتتألق في الظلام كلما توقعوا محصولاً أوفـر لتلـك الـسنة؛ وكلما قفزوا عالياً في أثناء الرقص كلما نما الكتـان أكثـر. وفي بعض المقاطعـات كان على المتزوج الأخير أو المتزوجة الأخيرة أن تضرم المشعلة.

من الصعب التمييز بين هذه المشاعل المضرمة في الأحد الأول من الصوم الـكبير وبين حرق المجسم الذي يسمونه الموت كجزء من طقس حمل الموت الذي يصادف في الموسم نفسه. ورأينا كيف أنه في سباخندورف في النمسا، سيليسيا، وفي صباح يـوم روبرت(ربما ثلاثاء الاعتراف؟) يلبسون رجلاً قشياً معطفاً من الفرو مع قبعة من الفرو

ويوضع في حفرة خارج القرية ثم يُحرق، وبينما هو يشتعل يختطف كل منهم قطعة منه يربطها إلى أغصان أعلى شجرةٍ في البستان أو يدفنها في حقله معتقداً أن هذا يحسّن من المحصول، ويسمون هذا الطقس **دفن الموت**. حتى عندما لايسمون الرجل القشي **الموت**، يقصدون من اتباع العادة الغرض ذاته، فهم بالأصل لا يصرّحون بما يقصدونه من الطقس. وفي كوبيل، في جبال إيفيل، يصنع الصبية رجلاً قشياً في ثلاثاء الاعتراف. ويحاكم المجسم رسمياً ويُتّهَم بارتكابه السرقات التي حصلت في المنطقة ذلك العام. وبعد إدانته يقودون الرجل القشي في أرجاء القرية، يقتلونه ثم يحرقونه على محرقة، ويرقصون حول الكومة المشتعلة، وعلى آخر عروس أن تقفز فوق النار. وفي اولدنبورغ، في مساء ثلاثاء الاعتراف، اعتاد الناس أن يصنعوا باقات من القش يشعلونها من تلك النار ثم يركضون في الحقول ملوحين بها، مغنين الأغاني بوحشية. وأخيراً يحرقون الرجل القشي في الحقل. وفي مقاطعة داسلدورف، كانوا يحرقون الرجل القشي في يوم ثلاثاء الاعتراف والذي كان يُصنع من حزمة غير مدروسة من الحنطة. وفي الإثنين الأول من الإعتدال الربيعي يجر زعران زيوريخ رجلاً قشياً على عربة صغيرة في الشوارع، وفي أثناء ذلك تحمل الفتيات شجرة أيار ويجلن بها. وعندما يدق ناقوس الصلاة، يُحرق رجل القش. وفي مقاطعة آشين في ثلاثاء الرماد، اعتادوا على تغليف رجل بقش البازلاء وأخذه إلى مكان معين. هنا يسحبونه بهدوء خارج غلافه ثم يحرقون القش فيعتقد الأطفال أنه الرجل الذي يُحرق. وفي فالدايليدرو(تيرول)، في اليوم الأخير من الاحتفال يصنعون مجسماً من القش والأجمات ويحرقونه. ويسمون هذا المجسم **المرأة المسنة**، ويسمون الطقس الذي يُحرَق به **حرق المسنة**.

3ـ نيران الفصح

هناك مناسبة أخرى تُقام فيها أحتفالات النار وهي عيد الفصح، ويصادف يوم السبت الذي يأتي قبل أحد الفصح. اعتادوا في ذلك اليوم في الدول الكاثوليكية أن يطفئوا جميع أنوار الكنيسة ليصنعوا ناراً جديدة، أحياناً بحجر الصوان والفولاذ، وأحياناً بالزجاج المحترق. من هذه النيران يشعلون شمعة الفصح التي تُشعل منها كل المصابيح المطفأة في الكنيسة. وفي العديد من أنحاء ألمانيا يضرمون مشعلة أيضاً

بواسطة النار الجديدة في مكان مفتوح قرب الكنيسة. ولأنها مقدسة يأتي الناس بعصي السنديان والبندق والزان ويحرقونها على النار حتى تصبح فحماً. ثم يأخذون بعضاً من هذه العصي المتفحمة إلى منازلهم ليشعلوا بها النار الجديدة، على وقع الصلاة التي يطلبون فيها من الله أن يحفظ ديارهم من الحريق، والبرق والوابل. بهذا الشكل يحصل كل منزل على نار جديدة. كما يحتفظون ببعض هذه العصي طوال السنة وتوضع على الموقد أثناء العواصف الشديدة لتحمي المنزل من الصاعقة، أو يقحمونها في السقف بالنية ذاتها. وتوضع عصي أخرى في الحقول والبساتين والسهوب، مع صلاة يطلبون فيها من الله أن يحفظهم من البلاء ووابل البَرَد. ويعتقد أن هذه الحقول والبساتين تعيش أكثر من غيرها؛ ولا يضرب حنطتها البَرَد، ولا تلتهمها الفئران، أو الطفيليات أو الخنافس، ولا تستطيع الساحرات إنزال الضرر فيها، أما حبوبها فتكون ملآنة مكتنزة مرصوصة على بعضها بعضاً. كما يضعون هذه العصي المتفحمة مع المحراث. ويخلطون رماد مشعلة الفصح مع رماد أغصان النخيل المقدسة، ببذور البدار. كما يحرقون مجسماً خشبياً يسمونه جوداز في تلك النار المقدسة، وحتى عندما أقلعوا عن هذه العادة أخذت المشاعل في بعض المناطق إسم حرق جوداز.

وفي مانسترلاند تُضرم نيران الفصح على مرتفعات محددة، معروفة بجبال شموع الفصح. يجتمع الناس جميعاً حول النار. يرتل الشبان والشابات ترانيم الفصح، ويمشون حول النار حتى تهمد. ثم تقفز الفتيات فوق النار الواحدة تلو الأخرى، يساعد كلاً منهن شابان يمسكان بيديها ويركضان بجانبها. وعند الشفق يركض الصبية ومعهم باقات القش المشتعلة في الحقول كي يجعلوا منها أرضاً أكثر إثمارية. وفي دلمنهورست، جرت العادة أن يقطعوا شجرتين، ويغرسوهما في الأرض جنباً إلى جنب ويضعوا اثنتا عشرة عبوة من القطران على كل واحدة منهما. ثم يكومون الأجمات حول الشجرتين، وفي مساء سبت الفصح بعد أن يندفع الصبية ومعهم عصي الفول المشتعلة، يضرمون النار في الكومة كلها. وعند نهاية الطقس يحاول الزعران تسويد بعضهم بعضاً وتسويد ملابس الكبار. وفي ألتمارك، يُعتقد أنه مادامت نار مشاعل الفصح مرئية، فإن الحنطة ستنمو جيداً على مدار السنة،

ولا ينـدلع فيهـا أي حريـق. وفي براونـرود، في جبـال هـارز، جـرت العـادة أن يحـرقـوا سنجاباً في مشعلة الفصح. وفي ألتمارك كانوا يشعلون فيها العظام.

وبالقرب من فورشهيم في فرانكين العليا، كانوا يحرقون رجلاً قشياً - يسمونه جوداز - في ساحة الكنيسة في يوم سبت الفصح. تسهم القرية كاملةً بخشب تلك المحرقة التي يهلك فيها جوداز، ثم يحتفظون بالعصي المتفحمة ليضعوها في الحقول يوم عيد والبورجس (الأول من أيار) لحماية القمح من الآفات والعفن الفطري. ومنذ مئة سنة أو أكثر في ألثينبورغ في بافاريا العليا جرت العادة التالية: بعد الظهر من سبت الفصح تجمع الفتيات الخشب ويكومونه في حقل حنطة، وينصبون في منتصف الكومة صليباً خشبياً طويلاً مغلفاً بالقش. وبعد صلاة المساء يشعلون مصابيحهم من الشمعة المقدسة في الكنيسة، ويركضون بها بالسرعة القصوى نحو المحرقة يحاول كل منهم أن يكون أول الواصلين إليها. أول من يصل هو الذي يضرم النار فيها. لايجوز لا مرأة أو فتاة أن تقترب من المشعلة، بل يُسمح لهن بالمشاهدة من بعيد. وعند ارتفاع اللهب يبتهج الفتية ويفرحون وهم يصرخون:(ها نحن نحرق جوداز.) أما الذي يسبق ويضرم النار في المحرقة، فتكافئه النساء في اليوم التالي بأن تعطيه بيضاً ملوناً عند باب الكنيسة. والهدف من الطقس كله هو درء الوابل. وفي قرىً أخرى من بافاريا العليا، يقيمون الطقس بين التاسعة والعاشرة ليلاً من يوم سبت الفصح، ويسمونه **حرق رجل الفصح**. وعلى مرتفع على بعد ميل من القرية ينصب الفتية صليباً طويلاً مغلفاً بالقش بحيث يبدو كرجل مادّاً ذراعيه. إنه رجل الفصح. لايجوز لرجل دون الثامنة عشرة من العمر أن يشارك في هذا الطقس. يقف أحد الشباب بجانب رجل الفصح ماسكاً بيده شمعة مقدسة جلبها من الكنيسة كي يُشعل بها. يقف بقية الشبان على مسافات متساوية في حلقة كبيرة حول الصليب. وعند إصدار إشارة معينة يركضون ثلاث مرات حول الحلقة، وعند إصدار إشارة أخرى يركضون مباشرة إلى الصليب وبجانبه الفتى الذي يحمل الشمعة المشتعلة؛ من يصل إلى الهدف أولاً له الحق في إضرام النار برجل الفصح. عظيمة هي التهليلة التي يصدرونها عند الاحتراق. وعندما يأكله اللهب، يختارون ثلاثة فتية من بقية الشبان، ويرسم كل منهم دائرة ثلاث مرات على الأرض حول الرماد مستخدماً عصاً. ثم يتركون المكان جميعاً. وفي إثنين الفصح يجمعون الرماد وينثرونه فوق

حقولهم، ويغرسون في حقولهم أغصان النخيل التي قُدست يوم أحد النخيل، كما يغرسون العصي التي تفحمت وقُدست يوم الجمعة الطيبة، كل هذا بهدف حماية الحقول من زخات البَرَد. وفي بعض أنحاء سوابيا، لايجوز إضرام نيران الفصح بالحديد أو الفولاذ أو الصوان، بل تُضرم باحتكاك الخشب.

يبدو أن عادة نيران الفصح قد انتشرت في وسط ألمانيا وغربها من الشمال إلى الجنوب. ونجدها أيضاً في هولندا حيث تضرم النيران في أعلى القمم، ويرقص الناس حولها ويقفزون خلال اللهب أو فوق الجمر المتوهج. هنا أيضاً – كما في ألمانيا – تستخدم المادة التي يجمعها الصبية من أبواب المنازل. وفي أنحاء كثيرة من السويد يطلقون العصي الملتهبة في كل الاتجاهات عشية الفصح، ويحرقون مشعلات ضخمة على الهضاب والمرتفعات. يعتقد البعض أن القصد من هذا هو إبعاد القزم الخرافي الجبار والأرواح الشريرة التي تنشط في هذا الموسم.

4ـ نيران بِلتين

وفي مرتفعات اسكتلندة الوسطى، كانت تُضرم نيران بلتين ضمن طقس كبير في الأول من أيار، وتتضح فيها آثار الضحايا البشرية بجلاء. ظلت عادة إضرام المشاعل منتشرة في مناطق كثيرة حتى أواسط القرن الثامن عشر، وقدم لنا الكتَّاب وصفاً ممتعاً للطقس الطريف الذي استمر في بلادنا طويلاً، فأعطونا صورة واضحة عن تلك الوثنية القديمة. وهذا هو الوصف الذي أعيدت صياغته باستخدام كلمات الكاتب. ينقل إلينا جون رامسي أكمل هذه الوصوف وهو مالك أوتشيتريتاير، بالقرب من كريف، وراعي بورنز وصديق السير والتر سكوت. يقول:(إن أكبر الاحتفالات الكهنية في الديانة السلتية القديمة درويد هو يوم أيار الذي كان يُقام في بعض المرتفعات مصحوباً بطقوس استثنائية..... مثل بقية عبادات ديانة الدرويديين، يبدو أن احتفال بلتين كان يقام على الهضاب والمرتفعات لأنهم لو اعتبروا مقامه في بيت من صنع الإنسان لحطُّوا من شأن معبود يتسع معبده الكون بأسره. لذلك كانوا يقدمون ضحاياهم في الهواء الطلق، وغالباً على قمم الجبال، حيث يستطيعون رؤية أكبر قدر ممكن من الطبيعة، وأقرب إلى موضع الدفء والسيطرة. وحسب التقاليد، كانت تُقام الاحتفالات في أعالي الجبال خلال المئة سنة الماضية. لكن مع انحدار الخرافة صار الناس يحتفلون في ضياعهم على هضبة

أو مكان مرتفع ترعى حوله قطعانهم. إلى هناك يذهب الصغار في الصباح، ويحفرون خندقاً وفوقه مجلس للأصحاب. وفي وسطه كومة من الخشب أو أي محروقات أخرى كانوا يشعلونها قديماً بطريقة كانوا مضطرين لاستخدامها. رغم أنهم ولسنوات عديدة خلت صاروا يكتفون بالنار العادية، لكنهم مازالوا يعودون إلى النار القديمة في الحالات الاضطرارية.

(قبل ليلة، يحرص الجميع على إطفاء الأضواء جميعاً، وفي الصباح التالي يحضرون ما يكفي لتأجيج النار المقدسة. ويبدو أن أكثر الطرق بدائية هي تلك التي يستخدمونها في جزر سكاي، ومول، وتيري؛ إذ يأتون بلوح من السنديان ويحدثون ثقباً في منتصفه. ويصنعون إسفيناً من اللوح نفسه يتناسب مع الثقب. لكن في بعض الأنحاء تختلف الآلية فيستخدمون إطاراً مربع الشكل من الخشب الأخضر في وسطه جذع محوري. في بعض المناطق يحتاج تدوير المحور إلى تسعة أشخاص وفي بعضها الآخر سبعة وعشرون شخصاً. وإذا كان أي من هؤلاء الأشخاص قد ارتكب جريمة كالقتل أو الزنا أو السرقة أو أي جريمة شنيعة أخرى، يتخيلون أن النار لن تشتعل أو أنها تفقد فعاليتها المعتادة. وحال انطلاق أية شرارة جراء الاحتكاك العنيف في الخشب، يضعون عليه فطوراً تنمو على أشجار البتولا القديمة لأنها سريعة الاشتعال. توحي هذه النار أنها قد نزلت من السماء ويُعزى لها فضائل كثيرة. فهي تحمي من السحر الشرير، وفائقة الفعالية في الوقاية من الأمراض الشريرة التي تصيب البشر والماشية؛ ولديها القدرة على تغيير طبيعة أكثر المواد سمية.

وبعد إضرام المشاعل بالطريقة البدائية، يحضر الأصدقاء طعامهم. وحالما ينتهون من وجبتهم يتمتعون بالرقص والغناء حول النار مدة معينة. وقبيل الانتهاء من هذه التسلية، يقدم الشخص راعي الوليمة كعكة كبيرة مُعدَّة بالبيض وعلى جوانبها المحار، ويسمونها كعكة بلتين، وهي مقسمة إلى عدد من القطع بحيث توزع على كل الحضور. وهناك قطعة واحدة يسمون من يأخذها - كائناً من كان - المرأة الشريرة، وهي عبارة فيها الكثير من العيب. وعند معرفة صاحب القطعة، يمسكه بعض الحضور ويصنعون منه فُرجة عندما يهمون بإلقائه في النار لولا تدخل الأغلبية لإنقاذه. وفي بعض المناطق يمددونه على الأرض وكأنهم سيقطعونه إلى أربعة

أقسام. ثم يرشقونه بقشور البيض ويحتفظ بذلك اللقب الكريه طوال ذلك العام. مادام الناس يذكرون ذلك الاحتفال، يتقصدون ذكره على أنه ميت.

وفي أبرشية كالاندر، وهي مقاطعة جميلة في بيرثشاير الغربية، كانت عادة بلتين منتشرة في نهاية القرن الثامن عشر، وقد وصفوها لنا على الشكل التالي:(عند حلول اليوم الأول من أيار، والذي يسمونه يوم بلتين، يلتقي صبية القرية أو الضيعة أو الناحية في البرية. يحفرون دائرة في المرج، بحيث تتسع لهم جميعاً. ثم يضرمون ناراً ويُعِدُّون وجبة من البيض والحليب. ثم يعجنون كعكة من دقيق الشوفان ويشوونها على حجارة أكتسبت حرارتها من الجمر. وبعد تناول تلك القسترد، يقطِّعون الكعكة إلى قطع كثيرة متشابهة بالشكل والحجم بحيث تكفي للحضور جميعاً. ثم يدهنون إحدى هذه القطع بالنشاء حتى تسود بالكامل. ويضعون كل قطع الكعك في إناء. ويقوم كل منهم وهو معصب العينين بسحب قطعة من الكعك. ومن يلمس منهم القلنسوة مؤهل للبقاء حتى القطعة الأخيرة. أما من يسحب القطعة السوداء فهو المكرس للتضحية به للإله بعل الذي يتوسلون فضيلته كي يجعل السنة مباركة على الناس والدواب. هناك القليل من الشك في أن هذه الضحايا البشرية كانت تُقدم يوماً ما في هذه البلاد كما تُقدم في الشرق على الرغم من أنها تحولت الآن من شكل التضحية إلى مجرد إجبار الشخص المكرس على القفز ثلاث مرات بين اللهب؛ وهي الطقوس التي ارتبطت بهذا الاحتفال.

يخبرنا توماس بينانت الذي سافر في بيرثشاير عام 1769، أنه في الأول من أيار، يقيم رعاة كل قرية عيد بلتين وهو عبارة عن تضحية ريفية. يحفرون في الأرض خندقاً مربعاً تاركين المرج في المنتصف؛ ليقيموا عليه نار الحطب التي يرفقونها بشراب الكودل من البيض والزبدة، وطحين الشوفان مع الحليب، مع مكونات الكودل والكثير من البيرة لأنه يجب على كل واحد منهم الإسهام بشيء ما. تبدأ الشعيرة بإراقة بعضاً من شراب الكودل على الأرض تكريماً للإله. وهنا يأخذ كل منهم كعكة الشوفان، التي يصعد منها تسع عقد مربعة تمثل كل منها كائناً معيناً، المفترض أنه يحفظ قطعانهم، أو أنه حيوان معين، يسبب تدميراً فعلياً لهم. كل شخص يدير وجهه نحو النار، ويأخذ إحدى العقد ويرميها فوق كتفيه قائلاً،(إليك هذه؛ فاحفظ خيلنا؛ هذه لك، فاحفظ غنمنا، وغيرها.) ثم يقيمون الطقس ذاته

للحيوانات المؤذية:(إليك هذه، أيهاالثعلب؛ وهذه إليك، أيها الغراب ذو القلنسوة! وهذه لك، أيها الصقر!) وعند الانتهاء من الطقس، يتعشون من الكودل، ويقوم شخصان بتخبئة ما يفيض منه كي يستهلكوه للغرض عينه عندما يجتمعون ثانيةً يوم الأحد التالي.)

وهذا كاتب آخر من القرن الثامن عشر، يصف لنا احتفال بلتين كما كان يُقام في أبرشية بيرثشاير فيقول:(يقام هنا في الأول من أيار سنوياً احتفال يدعى بلتين. يقيمة في الدرجة الأولى رعاة البقر الذين يجتمعون بالعشرات في الحقول ويصنعون عشاءً لأنفسهم من الحليب المغلي والبيض. يأكلون هذه الأطباق مع نوع من الكعك المحضر خصيصاً لهذه المناسبة، ويجعلون قطعاً تشبه الحلمات بارزة على وجه الكعك.) وفي آخر تقرير لهذا الاحتفال لم يأت ذكر المشاعل، لكن ربما كانت تشعل لأن كاتباً معاصراً لذلك الكاتب أخبرنا أنه في أبرشية كيركميشيل، وهي بجوار لوجيرايت من الجهة الشرقية، عن عادة لم تندثر بعد وهي إضرام النيران في الحقول وتحضير الكعك المقدس في الأول من أيار. ويمكننا أن نتوقع أن عقد الكعك كانت تُستخدم سابقاً بهدف تحديد من هو عجوز بلتين الشريرة، أو الضحية التي سترمى في النار. وظل ذلك الأثر في عادة خبز كعك الشوفان ودحرجته إلى أسفل الجبل عند الظهيرة في الأول من أيار؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الشخص الذي تُكسر كعكته سيموت أو يحل عليه النحس خلال السنة القادمة. هذا الكعك أو ما يسمى الخبز المنزلي في أسكتلندة، كان يُخبز بالطريقة المعتادة، لكنه كان يُمسح بمخيض البيض واللبن أو القشدة مع القليل من الشوفان. يبدو أن هذه العادة قد انتشرت في كنغوسيي وما حولها في إنفرنيسشاير.

وفي الشمال الشرقي من أسكتلندة استمرت نيران بلتين حتى أواخر القرن الثامن عشر؛ إذ كان الرعاة يأتون من عدة مزارع ويجمعون الخشب الجاف ويضرمون فيه النار، ويرقصون ثلاث مرات حول الكومة المشتعلة. لكن في هذه المنطقة، وحسب مصدر آخر، كانت نيران بلتين لاتضرم في الأول من أيار بل في الثاني منه، وكانوا يسمون هذا النمط القديم **مشاعل**. اعتقد القدامى أنه في المساء والليل، تخرج الساحرات من بيوتهن ويسعين لنصب السحر ولسرقة حليب البقر. ولإبطال سحرهن، يضعون قطعاً من خشب شجرة الغبيراء بخاصة، وصريمة الجدي

على أبواب حظائر الأبقار، ويضرم كل مزارع أو كل عامل في المزرعة النار. وكانت الغماء والقش والرتم والوزال تُكوَّم وتُضرم فيها النار بُعَيْد غروب الشمس. يلقي بعض المتفرجين المزيد من الخشب في النار المتأججة، بينما يأخذ آخرون قسماً منها بالمذاري أو العصي ويركضون هنا وهناك، وهم يرفعونها بأعلى ما يستطيعون. وفي الوقت نفسه يرقص الصغار حول النار أو يركضون خلال الدخان وهم يصرخون:(يا أيتها النار، توهجي واحرقي الساحرات؛ يانار! يانار! احرقي الساحرات.) وفي بعض المناطق كانوا يدحرجون كعكة كبيرة من الشعير أو الشوفان خلال الرماد. وعندما تهمد النار، يبعثر الناس الرماد على مساحات واسعة، ويستمرون هكذا حتى يحلك الظلام وهم يصرخون:(يا نار، احرقي الساحرات!)

وفي هيبرايد يصنعون خبزاً منزلياً من النوع نفسه الذي يصنعونه في عيد القديس ميكائيل، لكنه أصغر حجماً. لم يعد يُصنع في يويست، لكن مازال الأب الآن يذكر جده الذي كان يصنع ذلك الخبز قبل خمس وعشرين سنة. وكانوا أيضاً يصنعون الجبنة في الأول من أيار، ويحتفظون بها حتى بلتين التالي كنوع من السحر لإبطال السحر المرصود الذي يُراد منه الإقلال من إنتاج الحليب. ويبدو أن بلتين هو نفسه في مناطق أخرى. إذ يطفئون ناراً ويشعلون أخرى على قمة الجبل، ويقودون الماشية حولها باتجاه دوران الشمس لحمايتها من طاعون الماشية طوال السنة. ويأخذ كل منهم ناراً منها ليشعل النار في منزله.

وفي ويلز كانوا أيضاً يضرمون نار بلتين في بداية أيار، لكن في الثالث منه. وكانوا أحياناً يستخرجون اللهب من احتكاك قطعتين من خشب السنديان، حسب الوصف التالي:(كان يقلب تسعة رجال جيوبهم بحيث يخرجون الجزء الداخلي إلى الخارج، ليتأكدوا أنها قد خلت من كل قطعة نقود، كما يجردوا أنفسهم من أي قطعة معدنية. ثم يخرجون إلى أقرب غابة ويجمعون عصياً من تسعة أنواع مختلفة من الأشجار، ويأخذونها إلى المكان الذي يعدون فيه النار. وهناك يحفرون دائرة في المرج وتوضع العصي بشكل متصالب. ويقف الناس حول العصي ويشاهدون العملية. يأخذ أحد الرجال قطعتين من السنديان ويفركهما حتى تطلقا لهباً. ثم يوجهون اللهب إلى العصي فتندلع نار كبيرة. أحياناً يصنعون اثنتين من تلك النيران الواحدة بجانب الأخرى. ويسمون هذه النار أو النارين المشعلة. ثم يقطّعون كعك الشوفان

وكعك الطحين الأسمر إلى أربع قطع، ويضعونها في كيس طحين صغير، ثم يأخذ كل من الحضور قطعة منها. أما القطعة الأخيرة فهي من نصيب حامل الكيس. كل من يسحب قطعة كعك من الطحين الأسمر يتوجب عليه ان يقفز فوق النار ثلاث مرات، لاعتقادهم أنها وسيلة يضمنون بها محصولاً وفيراً. ويمكن سماع صيحات أولئك الذين يتوجب عليهم أن يواجهوا المحنة من بعيد، وبينما هم يقفزون ثلاث مرات فوق اللهب أو بين النارين، يرقص ساحبو قطع كعك الشوفان ويغنون ويصفقون استحساناً لحظهم.)

أما اعتقاد الناس أن القفز فوق المشعلة أو الجري بين نارين يضمن محصولاً وفيراً فهو موضوع جدير بالتمحيص. ويشير كاتب آخر عن التقاليد الشعبية الويلزية، إلى كيفية بلوغهم الهدف المزعوم، فيقول:(إن النيران التي تُضرم في أيار أو منتصف الصيف تحمي البلاد من السحر الأمر الذي يتيح الفرصة أمام محصول جيد؛ لأنهم يرون في الرماد سحراً قوياً.) ولاعتقادهم أن حرارة النار تخصب الحقول، ليس بالتسريع المباشر لنمو البذور في الأرض، لكن بإبطال تأثير السحر الشرير، أو ربما بحرق الساحرات.

يبدو أن نيران بلتين كانت سائدة أيضاً في إيرلندة، ويقول كورماك أن اسم بلتين يعني النار المحظوظة، أو النارين، والتي كان معتنقو ديانة درويد في إيرين يقيمونها في ذلك اليوم كتعاويذ عظيمة؛ وكانوا يأتون بالماشية إلى تلك النيران، ويمررونها بين النارين حمايةً لها من أمراض تلك السنة.) أما عادة سَوق الماشية خلال النار أو بين النارين فمازالت باقية في ذاكرة الإيرلنديين الأحياء.

يعتبر الأول من أيار احتفالاً عظيماً في وسط وجنوب السويد. ويصنعون عشية الاحتفال مشاعل ضخمة يضرمونها جراء ضرب حجرين من الصوان ويشعلون النار على جميع الهضاب والروابي. وتقيم كل ضيعة نارها الخاصة ويرقصون حولها في حلقة. وكانوا قديماً يراقبون النار ما إذا كانت تتجه نحو الشمال أوالجنوب. فإذا مالت نحو الشمال سيكون الربيع بارداً، وإذا مالت نحو الجنوب سيكون لطيفاً جميلاً. وفي بوهيميا، عشية يوم أيار، يشعل الناس النيران على الهضاب والروابي، وعند معابر الطرق، وفي المراعي ويرقصون حولها، ويقفزون فوق الجمر المتوهج وخلال اللهب. ويسمون هذا الطقس حرق الساحرات. وفي بعض الأماكن اعتادوا

على حرق مجسم يمثل الساحرة. علينا هنا أن نتذكر أنه عشية يوم أيار أي ليلة والبورجيس سيئة السمعة، تسرع الساحرات خِفْيَةً في كل مكان لينفذن مهامهن الشيطانية. في هذه الليلة الشريرة يشعل الأطفال في فويغلاند المشاعل على المرتفعات ويقفزون فوقها. كما يلوحون بالمقشات المشتعلة في الهواء. وكلما ارتفعت النيران كلما زادت البركة على الحقول. ويسمون إشعال النيران في ليلة والبورجيس طرد الساحرات وهي عادة انتشرت انتشاراً واسعاً في تيرول، ومورافيا وساكسونيا، وسيليسيا.

5ـ نيران منتصف الصيف

من أكثر المواسم التي انتشرت فيها احتفالات النيران في أوروبا هو الاعتدال الصيفي في الرابع والعشرين من حزيران. وتركوا للمسيحية أثراً بسيطاً عليها فقط بتسميتها عيد القديس يوحنا المعمدان، لكن ما من شك في أنه احتفال يعود إلى وقت طويل قبل ميلاد المسيح. الاعتدال الصيفي أو عيد منتصف الصيف، هو منعطف واضح في مسيرة الشمس عندما تكف عن الارتفاع في القُبَّة الزرقاء وتبدأ خطاها بالتراجع على دروب السماء. لم يكن من الممكن أن تمر هذه اللحظات دون إثارة القلق في نفس البدائي عندما بدأ يلاحظ ويتأمل مسارات نور الشمس عبر قبة السماء؛ ولم يلحظ عجزه أمام دورة التغيرات الطبيعية، وربما تخيل أنه يستطيع أن يساعد الشمس في انحدارها الظاهري ويمكن أن يدعم بيديه الضعيفتين خطاها العاجزة بإعادة إضرام اللهب المتخامد في ذلك المصباح الأحمر. ربما هذه هي الأفكار التي ظهرت فيها احتفالات منتصف الصيف في المجتمع الفلاحي الأوربي. أياً كان منشؤها، إنها سادت في هذه المنطقة من الكرة الأرضية، من إيرلندة غرباً وحتى روسيا شرقاً، ومن النرويج والسويد شمالاً إلى إسبانيا واليونان جنوباً. وحسب الكاتب الذي ينتمي إلى العصور الوسطى، تتميز احتفالات منتصف الصيف بثلاث صفات هي المشاعل، وموكب المشاعل حول الحقول، وعادة دحرجة الدواليب. ويخبرنا عن حرق الصِّبية للعظام وشتى أنواع القاذورات لإصدار دخان كريه يطرد التنانين المؤذية التي تتزاوج في حر الصيف فتسمم الآبار والأنهار عن طريق إلقاء

بذورها فيها؛ كما يشرح عادة دحرجة دولاب يمثل الشمس التي تبدأ بالهبوط بعد أن وصلت إلى أعلى نقطة في دائرة البروج.

في جوهرها تشبه احتفالاتُ منتصف الصيف احتفالات نيران الربيع. وفيما يلي سنوضح بالأمثلة أوجه ذلك التشابه.

يعلمنا أحد كتاب النصف الأول من القرن السادس عشر أنه في كل قرية أو مدينة تقريباً من ألمانيا كانوا يضرمون المشاعل العامة عشية عيد يوحنا المعمدان، ويجتمع حولها الناس كباراً وصغاراً إناثاً وذكوراً، ويمضون الوقت في الرقص والغناء. يرتدي الناس في تلك المناسبات أكاليل الأعشاب البرية ورعي الحمام وينظرون إلى النار من وراء باقات العايق التي يمسكونها بأيديهم، معتقدين أن هذا يضمن لأعينهم حالة صحية جيدة طوال العام. وعندما يغادر كل منهم يرمي بباقة العايق في النار قائلاً:(فليغرب عني الحظ العاثر، وليحترق مع هذه الباقة.) وفي كونز الدنيا، هناك قرية على سفح جبل مطلّة على موسيل، يقيم أهلها احتفالات منتصف الصيف على الشكل التالي. يجمعون كمية من القش على قمة منحدر جبل سترومبورغ. وعلى كل قاطن أو على الأقل كل رب منزل أن يسهم في هذه الكومة. وعند حلول الظلام يجتمع كل الذكور صغاراً وكباراً على قمة الجبل؛ ولا يُسمح للإناث أن يشاركنهم، بل يأخذن مواقعهن عند ينبوع في منتصف الطريق إلى أسفل المنحدر. وعلى الذروة دولاب كبير مغلف بالقش اشترك في جمعه كل أهالي القرية؛ ويصنعون المشاعل مما تبقى من القش. وعلى كل من جانبي الدولاب يبرز جذع شجرة بمقدار ثلاثة أقدام، بحيث يتمكن الفتيان من التحكم به وهم ينزلونه. أما رئيس المدينة المجاورة سيرك، الذي يعطونه سلة من التوت لقاء خدماته، فيصدر الإشارة؛ فيضرمون النار في الدولاب من مشعل مشتعل فيندلع فيه اللهب، يمسك اثنان من الفتية، قويي السواعد والساقين، سريعي الحركة، يمسكان المقبضين ويبدأان بالجري به نحو أسفل السفح، ويحرصان أن يبقياه مشتعلاً وهو يتدحرج أسفل الجبل. يهدف الشابان بشكل رئيس أن يدخلاه نهرَ موسيل وهو متوهج النار؛ لكنهم نادراً ما ينجحان في مهمتهما، لأن كروم العنب التي تغطي الجزء الأكبر من المنحدر تعيق حركتهما. يدور الدولاب ماراً أمام النساء والفتيات اللواتي يقفن عند الينبوع، فيرفعن صرخات الفرح، ويردُّ عليهم الرجال في أعلى الجبل بمثلها؛

كما يردُّ على الصرخات سكان القرى المجاورة الذين يراقبون المشهد من جبالهم على الضفة المقابلة لموسيل. وإذا انتقل الدولاب الناري بنجاح إلى ضفة النهر وانطفأ في الماء، ينتظر الناس غلة عنب وفيرة تلك السنة، ويحق لسكان كونز أن ينتزعوا ملء عربة من العنب من الكروم المجاورة. ومن ناحية أخرى، يعتقدون أنهم لو أهملوا أداء ذلك الطقس فسوف تصاب الماشية بالدوار والتشنج وترقص في حظائرها.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، كانت نيران منتصف الصيف تُضرم في جميع أنحاء بافاريا العليا. وكانت تشتعل على الجبال بخاصة، لكن على مجال واسع في المنخفضات أيضاً، كما بلغنا أنه في ظلمة الليل وسكونه كانت الجماعات المتنقلة تقدم عرضاً رائعاً وهم يحملون المشاعل المتوهجة المتألقة. وكانت الماشية تُساق خلال النار لتخليصها من المرض وحمايتها من الطاعون أو أي أذية يمكن أن تصيبها خلال العام القادم. ويطفئ الكثير من أرباب المنازل نيران مواقدهم المنزلية ويشعلونها ثانية بجمرة مأخوذة من مشعلة منتصف الصيف. ويعرف الناس مقدار نمو كتانهم من المقدار الذي ترتفع فيه نيران المشاعل؛ وكل من يقفز فوق الكومة المشتعلة يصبح واثقاً أنه لن يصاب بآلام الظهر جراء عمله في حصاد الحنطة.

هناك علاقة دقيقة بين نيران منتصف الصيف وبين الحصاد. في بادين يجمع الأطفال الوقود من المنازل لإضرام مشعلة منتصف الصيف في عيد القديس يوحنا؛ ويقفز الفتية والفتيات فوق النار أزواجاً أزواجا. ويعتقدون في بعض الأماكن أن كل من يقفز فوق النيران لا يعاني من آلام الظهر عندما يعمل في الحصاد. وأحياناً يصرخ الصغار وهم يقفزون فوق اللهب قائلين:(اكبري، حتى تصبح خيوط القنب ثلاثة أذرع!) يبدو أن فكرة نمو الكتان أو الحنطة بقدر ارتفاع اللهب منتشرة في بادين. وكانوا يعتقدون أن الأبوين اللذين يقفزان أعلى فوق النار سينعمان بأوفر محصول؛ وكل من لايشارك في المشعلة يفقد محصوله البركة وتعجز خيوطه عن النمو. وفي إدرسليبين، بالقرب من سانغرهاوسن، كانوا ينصبون عموداً طويلاً ويعلقون عليه برميلاً من القطران، يربطونه بسلسلة فيتدلى إلى مستوى قريب من الأرض. ثم يضرمون النار فيه ويؤرجحونه حول العمود وسط صيحات الفرح.

في الدانمارك والنرويج كانت نيران منتصف الصيف تُضرم عشية عيد القديس يوحنا في الشوارع والأماكن المفتوحة والجبال، لاعتقاد الناس أن هذه النيران تقضي على المرض المتفشي بين الماشية. ويقال إن هذه النيران مازالت تضرم في جميع أنحاء النرويج عشية منتصف الصيف كي تبعد الساحرات اللواتي يطرن طيلة تلك الليلة حتى بلوكبورغ حيث تعيش الساحرة الكبرى. وأسعد ليالي السنة في السويد هي عشية عيد القديس يوحنا الذي يسمونه (القديس هانس). وفي جميع أنحاء ذلك البلد خصوصاً في مقاطعتي يوهوس وسكانيا المجاورتين للنرويج، تحيي تلك الليلة مع إطلاق العيارات النارية من مدافع ضخمة كانوا يسمونها سابقاً مشاعل بالدير، التي تُشعل عند الغسق على الجبال والمرتفعات ويرمون منها جذوات ملتهبة على المناطق المحيطة. ويرقص الناس حول النار ويقفزون فوقها. وفي بعض أنحاء نورلاند عشية عيد القديس يوحنا ، تُضرم النيران على معابر الطرق. أما وقودها فمن تسعة أنواع مختلفة من الخشب يرميها المشاهدون في النار كفائط العلجوم لتعطل عمل العفاريت الأقزام والأرواح الشريرة الأخرى التي يعتقدون أنها تسرح تلك الليلة؛ لأنه في ذلك الموسم الغامض تنفتح الجبال وتتدفق من كهوفها العميقة العفاريت الدهاة ليرقصوا ويلهوا فترة محدودة. ويعتقد الفلاحون أنه إن وُجد أي من هذه العفاريت في مكان قريب يظهر نفسه، وإذا ما شوهد حيوان، مثل عنز أو عنزة، بالقرب من الجذوة المتوهجة، أو النار المطقطقة، يتيقن الفلاحون أنه الشر بعينه. والجدير بالذكر أنه في السويد يأخذ عيد القديس يوحنا شكل احتفال مائي بالإضافة إلى كونه احتفال ناري؛ لأنهم يعتقدون أن هناك ينابيع معينة تمتلك فضائل طبية عديدة، ويلجأ الكثير من المرضى إليها للتخلص من عللهم.

وفي النمسا تشبه الخرافات وعادات منتصف الصيف تلك العادات السائدة في ألمانيا. ففي بعض أنحاء تيرول تُضرم النيران وتُقذف الأقراص الملتهبة في الهواء. وفي أدنى وادي إين يجولون بمجسم رث الثياب في أرجاء القرية في عيد منتصف الصيف، ثم يُحرقونه. ويسمونه موزع الحظ وهي كلمة تحولت فيما بعد إلى لوثر. وفي أمبراس، حيث يُحرق مجسم مارتن لوثر في إحدى القرى، ويقولون أنه لو دخل أحدٌ القرية بين الحادية عشرة والثانية عشرة في ليلة القديس يوحنا ، واغتسل من ثلاثة آبار يرى كل من سيموت في السنة القادمة. وفي غراتز، في عشية عيد القديس يوحنا

(الثالث والعشرون من حزيران) يصنع عامة الناس دمية يسمونها **تاترمان**، يجرونها إلى مكان تجمع الناس ويضربونها بالمقشات المشتعلة حتى تلتهب. وفي رويت، تيرول، اعتقد الناس أن الكتان ينمو على قدر ما يقفزون فوق مشاعل منتصف الصيف، ويأخذون قطعاً من الخشب المتفحم من النار ويضعونها في حقول الكتان في تلك الليلة بالذات ويتركونها هناك حتى موسم حصاد الكتان. وفي النمسا الدنيا، يشعلون المشاعل على المرتفعات ويثب الصبية حولها ويلوحون بالمشاعل المضرمة والمغمسة بالزفت. وكل من يقفز ثلاثاً عبرها لا يعاني من أي حمى طوال ذلك العام. وغالباً ما يدهنون دواليب العربات بالزفت ويطلقونها تتدحرج إلى أسفل الجبل.

مازالت المشاعل تُضرم في جميع أنحاء بوهيميا عشية منتصف الصيف. يذهب الفتيان بعد الظهر من منزل إلى منزل ليجمعوا الوقود في عربات يجرونها باليد. ويهددون بعواقب وخيمة أولئك الشحيحين الذين يرفضون إعطاءهم الإعانة. وأحياناً يقطع الشبان شجرة تنوب طويلة مستقيمة من الغابة وينصبونها على مرتفع حيث تتحلى الفتيات بباقات الورود الصغيرة وأكاليل الزهور والأشرطة الحمراء. ويكومون الأجمات حولها، وعند حلول الليل يضرمون النار فيها جميعاً. وبينما يتعالى اللهب يتسلق الشبان الشجرة لينزلوا الأكاليل التي وضعتها الفتيات عليها. وبعد ذلك يقف الفتيان والفتيات على نسقين متقابلين على جانبي النار وينظرون إلى بعضهم بعضاً من وراء الأكاليل ليروا إن كانوا صادقين مع بعضهم بعضاً ويتزوجون خلال العام القادم. كما تلقي الفتيات الأكاليل إلى الرجال عبر اللهب، والويل للجبان الذي يخفق بالتقاط الإكليل الذي ألقته محبوبته. وعندما تخمد النار يمسك كل زوج بالأيدي ويقفزان ثلاثاً عبرها. وكل من يفعل ذلك يتحرر من احتمال الإصابة بالقشعريرة طوال السنة القادمة، كما ينمو الكتان على قدر ارتفاع ما يقفز إليه الشبان. أما الفتاة التي ترى تسعة مشاعل عشية منتصف الصيف فسوف تتزوج قبل انقضاء ذلك العام. ثم يحملون بعناية الأكاليل المسفوعة ويحتفظون بها مدة سنة؛ يحرقون جزءاً من الإكليل في الموقد في أثناء العاصفة ويتلون الصلاة التي يُقدَّم بعضها للماشية المريضة أو الأبقار المولِّدة، وبعضها الآخر يتلى مع تبخير المنزل وحظيرة الماشية كي يبقى الإنسان والدواب في صحة وعافية. وأحياناً يدهنون عجلات العربة بالزبيب، ثم تُضرم فيها النار وتُدفع إلى أسفل الجبل. وغالباً ما يجمع

الصِّبية كل ما يعثرون عليه من مكانس مهترئة، ويغمسونها في الزفت، ويلوحون بها بعد إشعالها، ثم يقذفونها عالياً في الهواء، أو يندفعون إلى أسفل الجبل أفواجاً أفواجا وهم يصرخون ملوحين بالمقشات الملتهبة. أما أعقاب المقشات وجذوات النار فيحتفظون بها ليضعوها في بساتين الملفوف لحمايتها من اليساريع والبعوض. كما يغرس بعض الناس عصي متفحمة في حقولهم المبدورة وأسقف بيوتهم كتعاويذ ضد البرق والطقس السيء؛ أو يتخيلون أن الرماد الموضوع في الأسقف يمنع أي حريق قد يصيب المنزل. وفي بعض المناطق، يتوجون أو يزنّرون أنفسهم بالأكاليل أو الأعشاب البرية في أثناء احتراق مشاعل منتصف الصيف، لأن هذا يعني الحماية من الأشباح والساحرات والمرض؛ وعلى الأخص إكليل الأعشاب البرية الذي يعتبر واقياً أكيداً من آلام العيون. وأحياناً تنظر الفتيات إلى المشاعل من وراء الأكاليل والورود البرية، وهن يصلين للنار كي تقوي عيونهن وجفونهن. وكل من تفعل ذلك ثلاثاً لن يصيبها التهاب العيون طوال تلك السنة. وفي بعض أنحاء بوهيميا اعتادوا تمرير الأبقار عبر نيران منتصف الصيف لحمايتها من السحر.

في سلوفاكيا يحتفلون أيضاً بعيد منتصف الصيف بشعائر مشابهة. وقد رأينا سابقاً في روسيا كيف يقفز الرجال والنساء عشية عيد القديس يوحنا فوق المشعلة أزواجاً أزواجا وهم يحملون مجسماً قشياً يسمونه كوبالو على ذراعهم. وفي بعض المناطق الروسية يرتدي الصغار أكاليل الورود وأحزمة الأعشاب المقدسة عندما يقفزون خلال الدخان أو اللهب؛ وأحياناً يسوقون الماشية خلال النار لحمايتها من السحر والساحرات النهمات للحليب. وفي روسيا الصغرى يغرسون وتداً في الأرض في عيد القديس يوحنا، ويغلفونه بالقش، ويضرمون فيه النار. وبينما يتعالى اللهب تلقي نساء الفلاحين أغصان البتولا في النار ويقلن:(فلتكن خيوط الكتان بطول هذا الغصن!) وفي روثينيا يضرمون المشاعل من لهب نشأ عن احتكاك الخشب. وبينما يقوم كبار الجماعة بمخض النار، يلتزم البقية صمتاً وقوراً، لكن عندما ينطلق اللهب من الخشب، تتعالى أصواتهم بغناء الفرح. وحالما تُضرم المشاعل يمسك الصغار بأيدي بعضهم بعضاً ويقفزون أزواجا خلال الدخان أو اللهب، ثم يقودون الماشية لتعبر خلال النار أيضاً.

في العديد من أنحاء بروسيا وليتوانيا، يضرمون نيراناً هائلة عشية منتصف الصيف فترى النيران تتوهج على جميع القمم على مد النظر. من المفترض أن تكون هذه النيران حامية من السحر والرعد والوابل وأمراض الماشية خاصةً إذا ما ساقوا الماشية في الصباح التالي إلى مكان احتراق النار. وعلاوة على ذلك، تؤمِّن المشاعلُ المزارع من فنون السَّحَرة الذين يحاولون سرقة الحليب من الأبقار عن طريق نصب السحر. لذلك ترى الصغار في الصباح التالي يشعلون المشاعل ويذهبون من بيت إلى بيت يجمعون أباريق الحليب. وللسبب نفسه يثبتون مثاقب وأعشاب برية على البوابة أو السياج الذي تعبره الماشية في طريقها إلى المراعي لأن هذا يحميها من السحر. وفي ماسورين، وهي مقاطعة في شرق بروسيا يقطنها فرع من العائلة البولندية، جرت العادة عشية منتصف الصيف أن يطفئوا نيران القرية كلها. ثم يغرسون وتد سنديان في الأرض ويثبتون عليه دولاباً وكأنه محور. يدوِّر أهالي القرية الدولاب على التناوب بحيث يدور بسرعة كبيرة حتى تصدر عنه نار عن طريق الاحتكاك. ثم يأخذ كل منهم جذوة من النار الجديدة ليضرم بها النار في موقد منزله. وفي سيبيريا عشية منتصف الصيف يشعل الرعاة مشاعل من لحاء البتولا ويمشون حول زرائب الغنم ومرابط الماشية؛ ثم يتسلقون الجبال ويتركون المشاعل تنطفئ من تلقاء ذاتها.

ولدى الماغيار في هنغاريا يتميز احتفال النار في منتصف الصيف بمزايا الاحتفال ذاته في الكثير من أنحاء أوروبا؛ إذ جرت العادة أن يشعلوا المشاعل على المرتفعات ويقفزوا فوقها، ومن طريقة قفز الشبان يتنبأ المتفرجون إن كانوا سيتزوجون قريباً أم لا. في هذا اليوم أيضاً يضرم رعاة الخنازير الهنغاريون ناراً عن طريق تدوير عجلة حول محور خشبي ملفوفة حوله خيوط القنب، ويمررون خنازيرهم خلال النار حمايةً لها من المرض.

أما إيثونيو روسيا الذين ينتمون، مثل الماغيار، إلى العرق التوراني الكبير، فيحتفلون أيضاً بالاعتدال الصيفي بالطريقة المعتادة. ويعتقدون أن نيران عيد القديس يوحنا تبعد الساحرات عن الماشية، ويقولون أن كل من لا يأتي النار ينتشر الشوك بين شعيره والأعشاب الضارة بين شوفانه. وفي جزيرة أويسيل الإثوانية، يصرخون بينما هم يرمون الوقود في نار منتصف الصيف قائلين:(الأعشاب الضارة إلى النار، والكتان إلى الحقل،) أو يلقون ثلاث ورقات في النار ويقولون:(انمُ أطول ياكتان!)

ثم يأخذون عصي متفحمة من المشعلة إلى المنزل ويحتفظون بها للحفاظ على حياة ماشيتهم. وفي بعض أنحاء الجزيرة يصنعون النار من أكوام الأجمات وأشياء سريعة الاحتراق حول شجرة ترفرف فوقها رايةٌ. وكل من ينجح في إنزال الراية بواسطة عصا قبل أن يلحقها النار سينعم بحظ سعيد. وكانت تستمر الاحتفالات سابقاً حتى بزوغ النهار، وتنتهي بمشاهد الفسق التي تظهر شناعتها مع حلول الصباح الصيفي.

وعند الانتقال من شرق أوروبا إلى غربها، نستمر في مشاهدة الاحتفال بالانقلاب الصيفي بشعائر تشمل الصفات العامة نفسها. وحتى منتصف القرن التاسع عشر سادت عادة إضرام نار منتصف الصيف في فرنسا حتى أنه يصعب العثور على مدينة أو قرية تخلو منها. يرقص الناس حولها أو يقفزون فوقها ويأخذون عصياً متفحمة من المشاعل إلى بيوتهم ليحموا منازلهم من البرق والحريق والسحر.

وفي بيتاني ظلت عادة مشاعل منتصف الصيف منتشرة حتى يومنا هذا. وعندما تخمد النار يركع الجميع حول المشعلة ويتلو رجل مسن الصلاة بصوت مرتفع. ثم ينهضون جميعاً ويمشون حولها؛ ومع الدورة الثالثة يقفون ويمسك كل منهم حصاة ويرميها في الكومة المشتعلة ثم يتفرقون. وفي بريتاني وبيري ساد اعتقاد بأن الفتاة التي ترقص حول مشاعل منتصف الصيف تسع مرات ستتزوج خلال تلك السنة. وفي وادي أورن جرت العادة أن يضرموا المشعلة لحظة غروب الشمس خلف الأفق؛ ويسوق الفلاحون ماشيتهم خلال النار ليحصنوها ضد السحر والسحرة الذين يحاولون سرقة الحليب والزبدة. وفي جزميجيز، نوماندي، وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، تميزت احتفالات منتصف الصيف بصفات فريدة تحمل طابع القِدَم السحيق. كل سنة، في الثالث والعشرين من حزيران، أي عشية عيد القديس يوحنا، تنتقي أخوية الذئب الأخضر رئيساً يختارونه دائماً من ضيعة كونيهاوت. ولدى انتخابه يحمل رئيس الأخوية لقب الذئب الأخضر، ويُعطى لباساً خاصاً مؤلفاً من عباءة خضراء طويلة وقبعة خضراء طويلة جداً على شكل مخروط ودون حافة. يسوقونه بقدسية على رأس الإخوان وهم ينشدون ترنيمة القديس يوحنا، وأمامهم الصليب والعَلَم المقدس إلى مكان يُدعى تشوكوي. وهنا يستقبل الكاهنُ الموكبَ وقائد الجوقة والجوقة الذين يقودون الأخوية إلى كنيسة الأبرشية. وبعد سماع القداس ينتقل الجميع إلى منزل الذئب الأخضر حيث تُقدَّم لهم وجبة. وفي الليل تُضرم النار على وقع الجرس

اليدوي الذي يقرعه شاب وصبية وهما مزينان بالورود. ثم يمسك ذئباً أخضر بأيدي إخوانه وينزلون قبعاتهم على أكتافهم ويركضون حول النار خلف الرجل الذي اختير ذئب السنة القادمة. من كل سلسلة الرجال ليس هناك رجلان الأول والأخير محرر كل منهما يداً واحدة، لكن مهمتهما هي القبض ثلاث مرات على الذئب الأخضر الجديد الذي يضربهم بعصا طويلة يحملها محاولاً الهرب. وعندما ينجحون بالقبض عليه يأخذونه إلى النار المشتعلة ويتظاهرون بأنهم يلقونه فيها. وبعد الانتهاء من هذا الطقس يعودان إلى منزل الذئب الأخضر حيث يوضع أمامهم طعام فقير للعشاء. وحتى منتصف الليل يسود نوع من القدسية الدينية. لكن عندما تدق الساعة الثانية عشرة كل هذا ينقلب، ويفسح الكبت المجال أمام الرخصة؛ وتحل أغاني العربدة محل الترانيم التقية، وتعجز كلمات التهدج على الظهور أمام الأصوات الهادرة التي يطلقها أخوة الذئب الأخضر المغتبطون. وفي اليوم التالي، يحتفل الأشخاص أنفسهم وبالطريقة الفرحة الصاخبة ذاتها بالرابع والعشرين من حزيران أو عيد منتصف الصيف. وهناك طقس قِوامه التجمع عند سماع أصوات التراشق بالبنادق، ورغيف هائل من الخبز المقدس يكدسونه على طبقات فيرتفع على شكل هرم من الخضرة المزينة بالأشرطة. وبعد ذلك يوضع الجرس اليدوي عند المذبح ليُعهَد به للرجل الذي سيصبح الذئب الأخضر للعام القادم.

وفي شاتوتيري، منطقة آيسين، استمرت عادة إضرام النار والرقص حولها في عيد منتصف الصيف للقديس يوحنا، استمرت حتى عام 1850؛ إذ كانت النيران تُضرم خاصة عندما يكون حزيران ماطراً، ويعتقد الناس أن إضرام المشاعل يوقف المطر. وفي فوزسج مازالت عادة المشاعل على قمم الجبال متبعة عشية منتصف الصيف؛ لاعتقاد الناس أنها تحفظ ثمار الأرض وتضمن محصولاً جيداً.

وكانت المشاعل تُضرم تقريباً في جميع ضياع بواتو عشية عيد القديس يوحنا. ويمشي الناس حولها ثلاث مرات وهم يحملون غصناً من شجر الجوز. وتقوم الراعيات والأطفال بتمرير أغصان نبات آذان الدب والجوز عبر اللهب؛ ويفترضون أن الجوز يشفي من آلام الأسنان أما آذان الدب فتحمي الماشية من المرض والسحر. وعندما تخمد النار يأخذ الناس الرماد إلى بيوتهم بغية الاحتفاظ بها كواقٍ من العاصفة، أو

ينثرونها في الحقول بغية القضاء على غصن الحنطة والشليم أو الزؤان. في بواتو جرت العادة أن يدحرجوا دولاباً مغلفاً بالقش عبر الحقول بغية الرفع من خصوبتها.

وفي المناطق الجبلية من كومنجز، وهي منطقة في فرنسا الجنوبية، يصنعون نار منتصف الصيف عن طريق فلع جذع شجرة طويلة ويحشون الشق بالقُشارة وإضرام النار في الجميع. كما يربطون إكليل ورود إلى أعلى الشجرة، ولحظة إضرام النار يتسلق آخر رجل تزوج على سُلَّم وينزل الورود. وفي المناطق السهلية من المقاطعة نفسها تتألف مواد نار منتصف الصيف من وقود مُكدَّس بالطريقة المعتادة؛ لكن يجب أن يكومها رجال تزوجوا بعد احتفال منتصف الصيف الماضي، وعلى كل متزوج حديث أن يضع إكليلاً من الورود على قمة الكومة.

مازالت نيران منتصف الصيف منتشرة في بروفينس. ويذهب الأطفال من منزل إلى آخر يطلبون الوقود، ونادراً ما يُردُّون خاليي الوفاض. وسابقاً كان الكاهن والعُمدة وشخصيات المنطقة الكبيرة يذهبون في موكب إلى المشعلة ويتكرَّمون بإضرام النار؛ ثم يمشون مجتمعين ثلاث مرات حول الكومة المشتعلة. وفي آيكس يختارون ملكاً شكلياً من بين الشبان لمهارته في الإطلاق على رئيس احتفال منتصف الصيف. ثم يختار المهمين شخصيات مملكته ليرافقوه إلى المشعلة، يشعلها ويكون أول من يرقص حولها. وفي اليوم التالي يغدق الورود على مرافقية. يستمر عهده سنة كاملة يتمتع خلالها بصلاحيات معينة مثل السماح له بحضور قداس آمر فرسان القديس يوحنا في عيد القديس يوحنا؛ ويعطى حق الصيد، كما يمنع نزول الجنود إلى منزله. وفي مرسيليا في هذا اليوم تختار إحدى الطوائف ملك الآلام أو الفأس المضاعف؛ لكن لايبدو أنه يشعل المشعلة التي يُقال إنها تضرم ضمن طقس كبير يقيمه الخديوي أو سلطات أخرى.

وفي بلجيكا اندثرت عادة إضرام مشاعل منتصف الصيف من المدن الكبيرة منذ وقت طويل، لكنها مازالت سائدة في المناطق النائية والقرى. في ذلك الريف يحتفلون بعشية عيد القديس بطرس في التاسع والعشرين من حزيران بإشعال المشاعل والرقص حولها تماماً مثل أولئك الذين يحيون ذكرى القديس يوحنا. ويقول بعض الناس أن نيران القديس بطرس، شأنها شأن نيران القديس يوحنا، يمكن أن تُضرم لإبعاد التنانين. وفي فلاندرز الفرنسية وحتى عام 1789 كانوا يمثلون رجلاً

بمجسم قشي ويحرقونه في مشعلة منتصف الصيف، بالإضافة إلى مجسم امرأة يحرقونها في عيد القديس بطرس أي التاسع والعشرون من حزيران. كما يقفز الناس في بلجيكا فوق مشاعل منتصف الصيف ليحموا أنفسهم من تشنجات المعدة، ويحتفظون بالرماد في بيوتهم ليعيقوا نشوب الحريق.

ومازالت تقام مشاعل منتصف الصيف في أنحاء كثيرة من بلادنا ويرقص حولها الناس ويقفزون فوقها. وفي ويلز، ثلاثة أنواع أو تسعة أنواع من الأخشاب المختلفة يحرق منها حزم حتى التفحم ويحتفظون بها من منتصف الصيف السابق وتعتبر ضروريةً لإنشاء المشعلة التي كانت تقام غالباً على مكان مرتفع. وفي فل غلامورجان يلفون دولاب عربة بسنابل القمح ويشعلونه ويتركونه يتدحرج إلى أسفل الجبل. فإذا ظل مشتعلاً فترة طويلة يتوقعون حصاداً وفيراً لذلك العام. وعشية منتصف الصيف في جزيرة مان اعتادواعلى إضرام النيران لتهب مع الريح باتجاه كل حقل كي يمر الدخان فوق الحنطة، ويلفون ماشيتهم بنبات الوزال أوالرتم عدة مرات. وفي إيرلندة كانوا يقودون الماشية وخاصة العاقر منها خلال نيران منتصف الصيف، ويرمون الرماد في الحقول ليخصبوها، ويقحمون فحماً حياً فيها لمنع الآفات. وفي أسكتلندة هناك القليل من آثار نيران منتصف الصيف؛ لكن في ذلك الموسم في الأراضي المرتفعة من بيرثشاير اعتاد رعاة البقر الدوران حول زرائبهم ثلاث مرات باتجاه الشمس ومعهم المشاعل المضرمة. ويفعلون هذا لتطهير قطعانهم وحمايتها من المرض.

إن ممارسة إضرام المشاعل عشية منتصف الصيف والرقص أو القفز فوقها كانت وظلت حتى وقت ليس بالبعيد شائعة في جميع أنحاء إسبانيا وفي بعض أنحاء إيطاليا وصقلية. وفي مالطة يضرمون نيراناً كبيرة في الشوارع والساحات والمدن والقرى عشية عيد القديس يوحنا(منتصف الصيف)؛ وكان الرئيس الأكبر هو من يضرم النار في كومة من براميل الزفت أمام المستشفى المقدسة. وفي اليونان أيضاً سادت العادة ذاتها ويقال أنها مازالت قائمة في جميع أنحاء اليونان. ويصرحون بأحد أسباب قيامها وهو التخلص من البراغيث. وهناك تقرير آخر يقول أن النساء يصرخن وهن يقفزن فوق النار، (إني أترك ذنوبي خلفي.) وفي ليسبوس يُضرم نيران القديس يوحنا ثلاثةُ أشخاص، ويقفز الناس فوقها ثلاث مرات وفي كل مرة يضعون حجراً

على رأسهم ويقولون:(إني أقفز فوق نار الأرنب البري، ورأسي حجر!) وفي غاليمونس من المفترض أن تضمن نيران منتصف الصيف الوفور للسنة القادمة بالإضافة إلى الخلاص من البراغيث. ويرقص الناس حول النار وهم يغنون والحجارة على رؤوسهم، ثم يقفزون فوق النار المتقدة أو الجذوات المتوهجة. وعندما ينخفض احتراق النار يضعون صلباناً على سيقانهم ثم يذهبون مباشرة ليغتسلوا في البحر.

كما انتشرت عادة إضرام النيران في منتصف الصيف عند الشعوب المحمدية في شمال أفريقيا وخاصة في المغرب والجزائر عند البربر والكثير من العرب أو القبائل المتكلمة باللغة العربية. في هذه البلدان يأتي عيد منتصف الصيف في الرابع والعشرين من حزيران، (على الطراز القديم) ويدعى الأنصارى. وتضرم النيران في الساحات ومعابر الطرق والحقول وأحياناً على أرض البيادر. ويبحثون عن النباتات التي تعطي دخاناً أكثر ورائحة عطرة ليستخدموها وقوداً في هذه المناسبات؛ ومن بين النباتات المستخدمة الشمر والزعتر والسذاب وبذور البقدونس الأفرنجي والكمون والبوبنج وإبرة الراعي والدرهم الملكي. ويعرّض الناس أنفسهم وخاصة أطفالهم للدخان ويهشون به نحو بساتينهم ومحاصيلهم. كما يقفزون عبر النيران، وفي بعض المناطق على كل واحد منهم أن يكرر القفزة سبع مرات. كما يأخذون الجذوات المحترقة من النار إلى بيوتهم لتبخيرها. ويمررون أشياء عبر النار، ويقربون منها المريض وهم يتلفظون بصلوات تتمنى الشفاء. ويعتبر رماد النيران ذا خاصية مفيدة لأنه في بعض المناطق يفركون به شعرهم وجسمهم. ويعتقدون في مناطق أخرى أن القفز فوق النيران يخلصهم من النحس، ويمنح الذرية للأبترين. أما برابرة منطقة رِف في شمال المغرب فيستفيدون من نيران منتصف الصيف فائدة كبيرة لأجل أنفسهم وماشيتهم وأشجارهم المثمرة. يقفزون فوق المشاعل معتقدين أن هذا يؤمِّن لهم الصحة الجيدة ويضرمون النيران تحت الأشجار المثمرة ليمنعوا سقوط الثمار قبل أوانها. ويتخيلون أنهم عندما يفركون مرهم الرماد على رؤوسهم إنما يمنعون شعرهم من التساقط. وقالوا أن الفائدة من كل هذه العادات المغربية تكمن بالكامل في الدخان الذي يتمتع بمزايا سحرية تبعد النحس عن الناس والحيوان والأشجار المثمرة والمحاصيل.

ويتميز احتفال المحمديين بمنتصف الصيف. بالتالي، وبما أن التقويم المحمدي قمري، يحصل فيه خطأ جراء الانتقال، وبما أن المحمديين ملتزمون تماماً بالقمر، من الضروري عدم مراعاة إقامة الاحتفال في تاريخ ثابت حسب السنة الشمسية؛ فينتقلون تدريجياً مع القمر حسب مدار الأرض حول الشمس. هذه الحقيقة تدل على أن المحمديين في شمال أفريقيا شأنهم شأن المسيحيين في أوروبا، يفصلون الاحتفال كلياً عن الدين الذي يُقِرُّونه أمام الناس، وهو أثر باق للوثنية الموغلة في القدم.

6ـ نيران عيد كل القديسين

من التحقيق السابق يمكننا التوقع أنه في أوساط أجدادنا الوثنيين كان احتفال منتصف الصيف هو أكبر احتفالات الشعوب الأوربية وأكثرها انتشاراً. وليس من قبيل المصادفة أن يتوافق الاحتفال مع الاعتدال الصيفي. بل على الأرجح قام أسلافنا الوثنيون بتحديد توقيت احتفال النار بحيث يتوافق مع وصول الشمس إلى أعلى نقطة في مسارها في السماء. وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن مؤسس الإحتفال الأول قد لاحظ الاعتدالين ونقطة تحول الشمس في مسارها الواضح في السماء وأنهم نظموا مواعيد احتفالاتهم إلى حد معين على اعتبارات فلكية.

وإذا ما اعتبرنا أن هذا ينطبق على ما يمكن أن نسميه أصلاء هذه القارة، يبدو أنه لا ينطبق على الشعوب السلتية الذين سكنوا في طرف أوروبا، والخلجان الناتئة في شمال غرب المحيط الأطلسي. لم يُوَقَّت احتفال النار الرئيس عند السلتيين - الذي استمر في منطقة محدودة بأبهة ضئيلة، إلى العصر الحديث وحتى إلى يومنا هذا – اعتماداً على موقع الشمس في السماء، بل كانوا يقيمون احتفالين يبعد الأول عن الآخر ستة شهور، أحدهم عشية يوم أيار والآخر عشية **الهالو** أوالهالوين، كما هو معروف اليوم، أي الواحد والثلاثون من تشرين الأول، اليوم الذي يسبق عيد كل القديسين. ولايتوافق هذان التاريخان مع أي من مفصلي السنة الشمسية أي الاعتدالين أو الانقلابين. كما لا يتفقان مع الموسمين الزراعين الأساسيين، وهما البدار في الربيع والحصاد في الخريف، ففي الأول من أيار تكون البذور قد أودعت الأرض منذ وقت طويل؛ وفي الفاتح من تشرين الأول، يكون المحصول قد حُصد

وأودع المخازن، وتكون الحقول جرداء والأشجار المثمرة عارية والأوراق الصفراء ترفرف وهي تهوي نحو الأرض. لكن الأول من أيار والأول من تشرين الأول هما نقطتا تحول في السنة في أوروبا؛ الأول يواكب الحرارة اللطيفة وخضرة الصيف الغنية، والآخر يعلن دخول قحل الشتاء وبرده. لكن هذه النقاط من السنة، كما أشار كاتب مثقف مبدع، لا تعني للمُزارع الأوربي كثيراً إلا أنها ذات علاقة عميقة بالراعي لأنه يسوق ماشيته إلى البرية لترعى العشب الطازج، ومع حلول الشتاء يعيدهم بأمان إلى حظيرتهم. بالتالي من المحتمل جداً أن يكون تصيف السلتيين للسنة في بداية أيار وبداية تشرين الثاني عائداً إلى أصله في وقت كان فيه السلتيون شعباً رعوياً يعتمدون في وجودهم على قطعانهم، من هنا يكتسب هذان الموعدان أهمية كبيرة؛ فيهما تُخرج الماشية من مكان سكنها عند بداية الصيف وتُعاد إليه في أوائل الشتاء. حتى في وسط أوروبا، بعيداً عن المناطق التي يحتلها السلتيون الآن، يمكن ملاحظة تصيفهم للسنة بهذا الشكل، ففي الأول من أيار يأتي عيد ليلة والبورجس، ويأتي احتفال كل الأرواح عند بداية تشرين الثاني، الذي يخفي تحت عباءته الرقيقة احتفالاً وثنياً قديماً وهو عيد الموتى. من هنا يمكننا أن نتوقع أنه في كل مكان من أوروبا هناك تقسيم علوي سماوي للسنة حسب الانقلابين والمسبوقين بتقسيم أرضي دنيوي وهما بداية الصيف والشتاء.

ينم تشابه الاحتفالين السلتيين الكبيرين في الأول من أيار والأول من تشرين الثاني، أو لنكن أدق، عشية هذين اليومين، من حيث طريقة احتفالهما والخرافة المتعلقة بهما والصفة القديمة التي تطبعهما، ينم عن أصل وثني خالص موغل في القدم. لقد شرحنا سابقاً احتفال الأول من أيار، أو كما يسميه السلتيون **بلتين**، الذي يبشر بالصيف، وبقي علينا أن نتناول احتفال **هالوين** الذي يعلن قدوم الشتاء.

من بين الاحتفالين يتمتع احتفال هالوين بأهمية أكبر وذلك لتوقيت السلتيين له كبداية للسنة وليس **بلتين**. في جزيرة مان وهي إحدى المعاقل التي تتبع التقاليد السلتية وتتكلم اللغة السلتية والتي صمدت طويلاً ضد حصار الغزاة السكسونيين، كانوا يعتبرون الأول من تشرين الثاني (الطراز القديم) بداية العام الجديد وحتى وقت قريب. وهكذا كان يجول المهرج في هالوين (الطراز القديم)، ويغني باللغة المانية أغاني خاصة بِعِيد هوغماني والتي مستهلها :(الليلة ليلة السنة الجديدة،

هوغونا!) وفي إيرلندة القديمة كانوا يضرمون ناراً جديدة كل سنة في هالوين أو عشية سامهاين، ومن هذا اللهب المقدس تُشعَل كل نيران إيرلندة من جديد. تدل هذه العادة بوضوح إلى سامهاين أو عيد كل القديسين(الأول من تشرين الثاني) كعيد رأس السنة؛ لأنه من الطبيعي أن تُشعل النيران السنوية في بداية السنة كي تعم بركتها على شهور السنة كلها. وهناك تأكيد آخر يدل على تأريخ السلتيين للسنة في الأول من تشرين الثاني وهو مضاعفة التنبؤات والتكهنات التي يلجأ إليها السلتيون في عيد هالوين للتحقق من مصيرهم، خاصةً حظهم الذي ينتظرهم في السنة القادمة؛ وأي وقت أكثر منطقية من بداية السنة لاستخدام هذه الوسائل للحملقة في المستقبل؟ كموسم للفأل والعِرافة، يبدو أن هالوين سبق بلتين بوقت طويل في مخيلة السلتيين؛ وهذا ما يجعلنا نتوقع بقوة أن سنتهم كانت تبدأ بهالوين وليس ببلتين. وهناك ظرف مهم يشير إلى النتيجة نفسها لارتباط الموتى بهالوين. ليس فقط عند السلتيين بل في جميع أنحاء أوروبا، يبدو أن هالوين الذي يميز الانتقال من الخريف إلى الشتاء، كان قديماً اليوم الذي تزور فيه الأرواح المغادرة بيوتها القديمة لتدفئ نفسها بالنار ولتؤنس نفسها بالهتافات المشجعة التي يطلقها الأقربون المحبون في المطبخ أو الردهة. وربما كان من الطبيعي أن يجبر حلولُ الشتاء الأرواحَ الفقيرة المرتجفة الجائعة على الخروج من الحقول الجرداء والبرية الخاوية من الخضرة لتأوي إلى مواقد الأكواخ التي كانت يوماً مألوفة بالنسبة إليها. ألم ترجع الماشية الخائرة من مراعيها الصيفية في الغابات والجبال كي تُطعَم وتُرعى في حظائرها عندما تصفر الريح الهائجة بين الأغصان المتأرجحة والجروف الثلجية التي ملأت التجاويف؟ وهل يستطيع الإنسان الخير، امرأةً كان ام رجلاً، أن يحرم أرواح موتاه من الترحاب الذي يمنحه لماشيته؟

ليس من المفترض أن تكون أرواح الموتى هي الوحيدة التي تحوم غير مرئية في ذلك اليوم الذي يسلِّم فيه الخريفُ السنةَ الشاحبة للشتاءِ، بل تسرع الساحرات لأداء مهامهن الشريرة، فتطير بعضهن في الهواء راكبات مكانس، وبعضهن تعدو في الشوارع على الهرر المنزلية التي تتحول تلك الليلة إلى جياد سوداء فاحمة، كما تتحرر الجنيات وكل البعابع لتصول وتجول بحُريَّة.

اختلط في هالوين بهاء الغموض والروع في عقول الفلاحين السلتيين وصار الاحتفال الشعبي، على الأقل في العصور الحديثة، خالياً من جو الكآبة؛ وحل محله جو المرح والتسلية فأصبحت ليلة العيد أكثر ليالي السنة مرحاً. ومن بين الأشياء التي تميزت فيها مرتفعات أسكتلندة هو استثمار الاحتفال في خلق جمال رومانسي، جراء استعار النيران من حين إلى آخر على تلك المرتفعات. في اليوم الأخير للخريف كان الأطفال يجمعون السراخس وبراميل القطران وسيقان نبات يدعى غينيسغ وكل ما يرتبط بالمشاعل. ثم يضعونها في كومة على مرتفع قريب من المنزل ويطمح كل منهم بإعداد أكبر كومة. تألقت جميع المناطق بالمشاعل وامتد وهجها فوق البحيرات العليا، وشكلت تلك النيران مشهداً غاية في الروعة على تلك المرتفعات. مثل نيران بلتين في الأول من أيار، ولم تشع مشاعل هالوين مثلما شاعت في مرتفعات بيرثشاير. وظلت تستعر في أبرشية كالاندر حتى نهاية القرن الثامن عشر. وعندما تخمد النار، يجمعون الرماد ويرسمون به دائرة، وتضع كل عائلة اهتمت بالمشعلة حجراً ضمن الدائرة قرب المحيط. وإذا ما وجدوا أياً من هذه الحجارة قد أوذي أو أُزيح من مكانه يتيقن الناس أن الشخص الذي يمثله الحجرُ كان منذوراً، ولن يعيش أكثر من اثني عشر شهراً بدءاً من ذلك اليوم. وفي بالكهيدر وحتى أواخر القرن التاسع عشر كان كل رب منزل يضرم مشعلة في هالوين، واستمرت العادة بعدها عند الأطفال. وكانت تضرم النيران على ربوة مرتفعة قرب المنزل؛ دون الرقص حولها. وكانت نيران هالوين تضرم أيضاً في بعض مقاطعات شمال شرق أسكتلندة مثل بوشان. كما يتوجب على أهالي القرية والمزارعين أن يقيموا نيرانهم. وكان الصبية يذهبون في القرى من منزل إلى آخر ويطلبون الخُث من كل منزل وهم يقولون:(اعطونا الخُث لنحرق الساحرات.) وعندما يجمعون ما يكفي من الخث يكومونه مع القش والرتم والمواد المشتعلة الأخرى ويشعلونها. ثم يستلقي كل من الشبان الواحد تلو الآخر على الأرض أقرب ما يمكن إلى النار دون أن يُلذع، كي يمر الدخان فوقه. أما الآخرون فيركضون خلال الدخان ويقفزون فوق رفيقهم الساجد. وبعد انتهاء احتراق الكومة يتسابقون في بعثرة الرماد على أوسع مساحة ممكنة.

وجرت العادة في شمالي ويلز أن تقيم كل عائلة مشعلة كبيرة في هالوين يسمونها كويل كويث. وكان على هذه المشعلة أن تكون في مكان ظاهر قرب

المنزل؛ وقبيل أن تخمد تماماً يلقي كل منهم حجراً أبيض فيها يميزه بعلامة قبل إلقائه. وبعد أن يتلوا صلواتهم حول النار يذهبون إلى النوم. في الصباح الباكر، وحالما يستيقظون يأتون للبحث عن حجارتهم، ومن لايعثر على حجره سيموت قبل أن يرى الهالوين القادم. وحسب قول السير جون رايس، لم تنقرض عادة إضرام مشاعل هالوين على الجبال في ويلز، ومازال المسنون الباقون على قيد الحياة يذكرون كيف كان ينتظر من أسهم في صنع المشعلة آخرَ شرارة فيها فينطلق مسرعاً وهو يصرخ:(فلتقبض الخنزيرة السوداء المحصودة على الأخير!) يشير السير جون أن هذا القول ينضوي أصلاً على أن أحدهم كان ضحية الموت الحقيقي. وحتى الوقت الحالي مازال هذا القول شائعاً في كارنارشاير حيث يخيفون الأطفال أحياناً بالخنزيرة السوداء المبتورة. الآن يمكننا أن نفهم لماذا على كل شخص في بريتاني الدنيا أن يلقي بحصاة في النار في مشعلة منتصف الصيف. ولاشك في أن هناك، كما في ويلز ومرتفعات أسكتلندة، نُذُرٌ للحياة والموت التي يرونها خلال موقع الحصى أو حالتها في صباح عيد كل القديسين. ويمكن ملاحظة وجود هذه العادة بين ثلاثة فروع في السلالة السلتية، وربما تعود إلى وقت ما قبل تشتتهم، أو على الأقل إلى وقت ما قبل دخول الأعراق الغريبة لتدق أوتاد الانفصال بينهم.

وفي جزيرة مان أيضاً، هناك قرية سلتية أخرى ظلت تحتفل بهالوين حتى العصور الحديثة، وذلك بإضرام النيران مصحوبة بكل الطقوس المعتادة والمقصود منها منع تأثير الجان والساحرات المهلك.

7ـ نيران منتصف الشتاء

إذا احتفل الوثنيون في أوروبا القديمة ـ وقد كان لدينا مبرر قوي لاعتقادنا هذا ـ بمناسبة منتصف الصيف بإقامة عيد ناري كبير ظلت منه آثار في أماكن عديدة إلى يومنا هذا، من الطبيعي أن نتوقع أنهم أقاموا شعائر مماثلة في منتصف الشتاء؛ لأن منتصف الصيف ومنتصف الشتاء هما أكبر منعطفين في مسار الشمس الظاهر في السماء. وحسب رؤية الإنسان البدائي. لاشيء أفضل من إضرام النيران على الأرض من اللحظتين اللتين تبدأ فيهما نار وحرارة ذلك الجرم الكبير بالتعاظم أو التضاؤل.

يبدو أن عيد نيران منتصف الشتاء القديم استمر في المسيحية المعاصرة حتى سنوات قريبة خلت، ويسمونها في إنكلترا تارة خشب عيد الميلاد، وتارة ألواح عيد الميلاد. انتشرت العادة في أوروبا انتشاراً واسعاً، لكنها ازدهرت أكثر في إنكلترا وفرنسا وبين السلافيين الجنوبيين؛ أو لنقل أن أكمل التقارير عن هذه العادة قد أتانا من هذه المناطق. وقد أشار جون براند الباحث في الأشياء الأثرية إلى أن خشب الميلاد كان مثيل مشعلة منتصف الصيف، وكان يُشعل في البيوت بدلاً من العراء بسبب الطقس البارد والعاصف. ودعم هذه النظرة الكثيرُ من الخرافات المتعلقة بخشب الميلاد، خرافات ليس لها أية علاقة ظاهرة بالمسيحية بل تحمل معها بصمة أصلها الوثني الواضح. إن الاحتفالين الانقلابيين هما عيدان ناريان بالدرجة نفسها. لكن الاحتفال الشتوي كان يقام ضمن البيوت، فأخذ طابعاً شخصياً بالمقارنة مع الاحتفال الصيفي العام، الذي يجتمع فيه الناس في العراء أو على مرتفع ملحوظ، ويضرمون فيه مشاعل ضخمة، ويرقصون ويمرحون حولها بفرح.

وحتى أواسط القرن التاسع عشر ظلت عادة أخشاب الميلاد متبعةً في بعض أنحاء ألمانيا الوسطى. ففي أودية سيغ ولاهن، كانت أخشاب الميلاد عبارة عن قطعة ثقيلة من السنديان تصمم لتوضع على أرض الموقد، وربما ظلت هناك فلا يكتمل احتراقها طوال السنة رغم ما يشتعل فوقها من نيران. ويطحنون ما يبقى من خشب السنة الماضية وينثرونه في الحقول في الليلة الأخيرة من أعياد الميلاد، لاعتقادهم أن هذا يحسن من نمو المحاصيل. وفي بعض قرى ويستفاليا جرت العادة أن يسحبوا خشب الميلاد عندما يتفحم قليلاً ويحتفظوا به بعناية ليضعوه على النار كلما قصفت العاصفة لاعتقادهم أن البرق لا يصيب المنزل الذي يعسعس فيه خشب الميلاد. وفي قرى أخرى من وستفاليا سادت عادة قديمة يربطون فيها خشب الميلاد مع آخر حزمة من الحصاد.

وفي مناطق عديدة من فرنسا، وخاصة بروفنس، مورست عادة خشب الميلاد لمدة طويلة. واستنكر كاتب فرنسي من القرن السابع عشر تلك العادة الخرافية لأنهم يؤمنون بما يسمونه جذوة الميلاد أو خشب الميلاد الذي يضعونه لأول مرة في مواقدهم عشية عيد الميلاد ثم يضعونه على النار مدة قصيرة كل يوم حتى الليلة الأخيرة من أعياد الميلاد، كما يظنون أنهم لو وضعوه تحت السرير يحميهم من

الحريق والعاصفة طوال السنة القادمة، كما يحمي سكان المنزل من الإصابة بالتقرحات الجلدية في كعب القدمين طوال الشتاء، ويشفي الماشية من آفات عديدة؛ وإذا ما نُقعت قطعة منه في الماء الذي تشرب منه الأبقار فإنه يساعدها على الحمل؛ وأخيراً إذا ما نُثر رماده على الحقول يحمي القمح من العفن الفطري.

وفي بعض أنحاء فلاندرز وفرنسا ما تبقى من عادة خشب الميلاد هو وضعه تحت السرير بانتظام ليحميهم من العاصفة والبرق؛ وفي بيري عندما يُسمع الرعد، يأخذ أحد أفراد الأسرة قطعة من ذلك الخشب ويرميها في النار، لاعتقادهم أنها تقي من البرق. كذلك في بيريغورد، يجمعون الفحم والرماد بعناية ويحتفظون به للشفاء من تورم الغدد الصم؛ أما القسم الذي لم يُحرق من الجذع فيستخدمه الحارث في صنع إسفين لمحراثه لأنهم يزعمون أنه يجعله يستمر وقتاً أطول بحالة جيدة؛ كما تحتفظ النساء بقطع منه حتى الليلة الأخيرة من أعياد الميلاد لأجل دجاجها. ويتخيل بعضهن أنهن سينعمن بدجاج يساوي عدده الشرارات التي تنطلق من جذوات الخشب عند هزها. وفي أماكن أخرى يطفئون الجذوة تحت السرير ليطردوا الفطريات. وفي أماكن عديدة من فرنسا يُعتَقَد أن الخشب المتفحم يحمي المنزل من السحر والبرق.

كذلك هي عادات خشب الميلاد ومعتقداته في إنكلترا. يقول جون براند أنه عشية الميلاد :(اعتاد أجدادنا على إشعال الشموع بحجوم غير عادية ووضع لوح من الخشب على النار ويسمونه خشب الميلاد أو لوح الميلاد مع كسرات من الشجرة المقطوع منها نفسها ويحتفظون بكسراتها طوال ذلك العام بغرض الحماية من الشر طوال فترة احتفاظهم بها. من المفترض أيضاً أن تحمي تلك الكسرات المنزل من الحريق والبرق.

في هذا اليوم يحيي السلافيون وخاصة الصربيون شعائر جلب خشب الميلاد بقدسية كبيرة. وغالباً ما يكون الخشب لوحاً من السنديان وأحياناً من الزيتون أو الزان. ويعتقدون أنهم سيرزقون عجولاً وخرفاناً وخنازير وذريةً بقدر ما يطلقون شراراً من الخشب المحترق. ويحمل بعض الناس قطعة من الخشب إلى الحقول لتحميها من وابل البَرَد. وفي ألبانيا وحتى سنوات قليلة خلت ظل حرق الخشب شائعاً في عيد الميلاد، وكانوا ينثرون الرماد على الحقول ليجعلوها خصبةً. أما الهوزول وهم شعب سلافي من كارباثيان، فيشعلون النار عن طريق حك الخشب عشية عيد الميلاد

(التقويم القديم في الخامس من كانون الثاني) ويبقونه مشتعلاً حتى الليلة الثانية عشرة.

واعتقدوا متيقنين أن لبقايا خشب الميلاد خاصية حماية المنزل من الحريق وخاصة البرق إذا ما تم الاحتفاظ به طوال السنة. وبما أن خشب الميلاد هو غالباً من السنديان، من الممكن أن تكون هذه العادة أثراً باقياً عن العقيدة الإريانية التي تربط شجرة السنديان بإله الرعد. أليس من الممكن أن تعود البركة المنسوبة إلى الرماد في شفاء الناس والماشية وتخصيبهما، في جعل الماشية تحمل والأرض تثمر، أليس من الممكن أن تعود إلى المصدر نفسه؟ إنه سؤال جدير بالبحث.

8ـ نار الحاجة

تُقام مهرجانات النار التي شرحناها كلها بشكل دوري وفي مواعيد محددة من العام. لكن بالإضافة إلى تلك الاحتفالات المنتظمة أقام الفلاحون في العديد من أنحاء أوروبا شعائر نارية لجؤوا إليها في فترات غير منتظمة وهي أوقات المصائب والمحن، وأكثرها عندما يصيب الماشيةَ مرضٌ وبائي. لايمكن أن يكتمل أي تفسير لمهرجانات النار الأوربية دون اعتبار هذه الشعائر الاستثنائية التي أسرت انتباهنا لأنها تُعتبر مصدر كل الاحتفالات النارية الأخرى وأصلها؛ والتي بالتأكيد تعود إلى تاريخ موغل في القدم. تعرف هذه النيران عند الشعوب التيوتونية بـ نار الحاجة. وأحياناً يسمونها نار البرية ليميزوها عن النار المنزلية التي يشعلونها بالطرق العادية. وعند الشعوب السلافية يسمونها نار العيش.

يمكن تتبع تاريخ هذه العادة من بدايات العصور الوسطى عندما استنكرت الكنيسةُ الخرافةَ الوثنية وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما كانت تمارس أحياناً في مناطق عديدة من ألمانيا، وإنكلترا، وأسكتلندة، وإيرلندة. ويبدو أنه استمرت أكثر لدى الشعوب السلافية. أما المناسبة المعتادة لأداء الشعيرة فهي تفشي الطاعون أو مرض يصيب الماشية. اعتقدوا أن نار الحاجة هي العلاج الناجع. والحيوانات التي كانت تتعرض للأمراض هي الأبقار والخنازير والخيل وأحياناً الإوز. وكإجراء أولي ضروري، على جميع النيران في المنطقة المجاورة أن تُطفأ،

بحيث لا يبقى أي بصيص منها؛ وكانوا يظنون أنه لو بقي نور واحد مشتعلاً في الليل لما استطاعوا إضرام نار الحاجة. وأحياناً يكتفون بإطفاء نيران القرية؛ وأحياناً نيران القرى المجاورة أو الأبرشية كلها. وفي بعض أنحاء مرتفعات أسكتلندة فرضت القاعدة على كل المنازل على بعد جدولي ماء جاريين أن تطفيء نيرانها في اليوم المحدد. وغالباً ما تُقام نار الحاجة في العراء، لكن في بعض أنحاء صربيا يقيمونها في غرفة مظلمة؛ وأحياناً على معبر طرق أو في حفرة في الطريق. وفي مرتفعات أسكتلندة، المكان المناسب لأداء الشعيرة هو روابٍ صغيرة أو جزر في الأنهار.

إن الطريقة النظامية لصنع نار الحاجة هي حك قطعتين من الخشب دون استخدام الحجار القداحة أو الفولاذ. وقرأنا عن حالة استثنائية في جنوب سلافيا، وهي ضرب قطعة من الحديد على سندان. وعند استخدام الخشب، يختارون السنديان، لكن في أدنى الراين، تُشعل النار باحتكاك خشب السنديان بخشب التنوب. وفي البلدان السلافية سمعنا عن استخدام خشب الحور والإجاص والكورنيل للغرض ذاته. تقضي القاعدة العامة حك قطعتين جافتين من الخشب. وأحياناً يرون من الضروري استخدام تسعة أنواع من الخشب، لكن لحرقها في النار أكثر من استخدامها في حكها ببعضها بضاً للشروع بنار الحاجة. تختلف طريقة إشعال نار الحاجة الخاصة من منطقة إلى أخرى؛ وأكثرها شيوعاً هي التالية. يغرسون عمودين في الأرض يبعد أحدهما عن الآخر قدماً ونصف القدم. لكل من العمودين من الجهة المقابلة للآخر محجر يوضع فيه قطعة متصالبة ناعمة أو بكرة. ويتم حشو المحجر بالكتان ويُربط طرفا كل بكرة في المحجرين. ولجعله أكثر اشتعالاً يكسون البكرة بالقطران. ثم يلفون البكرة بحبل، ويمسك كل طرف منه رجلان أو أكثر ويسحبون الحبل جيئة وذهاباً كي تدور البكرة بسرعة حتى يشتعل الكتان في المحجرين جراء الاحتكاك. يأخذون الشرارة على الفور في نسالة الكتان أو مشّاقة الحبال ويلوحون بها في دائرة حتى تتوهج، ويقربون منها القش فيشتعل ويشعلون منه الوقود التي أعِدَّت لهذا الغرض. ويشكل الدولاب أو دولاب آل أو المغزل جزءاً من الآلية؛ وفي أبردينشاير يسمونه **الدولاب الكبير**؛ وفي جزيرة مول يدورونه من الشرق إلى الغرب على تسعة مغازل من خشب السنديان. وأحياناً يوجبون استخدام دولاب عربة لصنع النار، أو يوجبون أن يكون المحوران اللذان يدوران جديدين. ويقال أيضاً

إن الحبل الذي يدوِّر البكرة يجب أن يكون جديداً أيضاً؛ وإن أمكن يجب حياكته من خيطان أُخِذت من حبل مشنقة استخدمت في الإعدام، لكن هذا ليس ضرورة ملحة بل من قبيل الوصول بالوسيلة إلى حد الكمال.

وهناك العديد من القواعد المفروضة على الأشخاص الذين يصنعون نار الحاجة. قيل إنه على الشخصين اللذين يسحبان الحبل الذي يلتف حول البكرة أن يكونا أخوين أو على الأقل يحملان الاسم المعمودي نفسه؛ وأحياناً يكتفون بكونهما شابين عفيفين. وفي بعض قرى برونسويك اعتقدوا أن مشاركة الجميع في سحب الحبل لا يجدي نفعاً مادام أنهم لا يحملون الاسم المسيحي نفسه. وفي سيليسيا، لصناعة نار الحاجة يستخدمون خشب شجرة أسقطها أَخَوَان توأمان. وفي جزر أسكتلندة الغربية تُشعل النار من قبل واحد وثمانين رجلاً متزوجاً يفركان لوحين من الخشب على بعضهما بعضاً، تسعة بعد تسعة على التوالي؛ وفي يويست الشمالية رُزِق واحد وثمانون رجلاً ساهموا بصنع النار، رزقوا أولاداً ذكوراً لكنه لم يبلغنا إن كانوا كلهم متزوجين أم عازبين. ويقيم الصربيون أحياناً نار الحاجة على يد فتىً وفتاة بين الحادية عشرة والرابعة عشرة من العمر واللذان يقومان بالعمل عراة بالكامل في غرفة مظلمة؛ وأحياناً يقيمها مسنٌ ومسنةٌ في الظلام أيضاً. وفي بلغاريا يتعرى صانعو نار الحاجة من ملابسهم، وفي كيثيس ينزعون عن أنفسهم كل شيء معدني. وإذا أخفقوا بعد حك طويل باستخلاص النار يكتشفون أن هناك ناراً مازالت مشتعلة في القرية فيقومون ببحث حثيث، منزلاً بعد منزل، وإذا ما عثروا على نار مضرمة، تُطفأ النار ويُعاقب صاحب المنزل ويوبخ بعنف؛ وتُفرَض في حقه غرامة باهظة.

وبعد إشعال نار الحاجة، يضرمون المشعلة منها، وحالما توشك على الخمود، تُقاد الحيوانات المريضة فوق الجمر المتوهج، وأحياناً حسب أولوية منتظمة: الخنازير أولاً، بعدها الأبقار وأخيراً الخيل. وأحياناً يسوقونها مرتين أو ثلاث مرات عبر الدخان واللهب وربما يموت بعضها من سفع النار. وبعد مرور الدواب كلها عبر الرماد والجمر، يرشون بعضهم بعضاً ويسودون أنفسهم بالشحار؛ ومن يُصَبْ بالسواد الأكثر يمشِ بفخر خلف الماشية إلى القرية ولا يغسل نفسه مدة طويلة. ويحمل الناس بعض الجمرات من المشعلة إلى بيوتهم ليشعلوا النيران في منازلهم. وبعد انطفاء هذه

الجمرات بالماء توضع في المعلف الذي تأكل منه الماشية، وتُحفظ فيها مدة معينة. ويُنثر رماد نار الحاجة في الحقول ليحمي المحاصيل من الطفيليات، وأحياناً يُؤخذ إلى المنازل ليستخدموه علاجاً للأمراض وذلك بنثره على مكان الوجع أو يشربه المريض بعد مزجه بالماء. وفي الجزر الغربية من أسكتلندة وما يتبعها من المناطق البرية، وحالما يُعاد إشعال النار في مواقد المنازل باستخدام نار الحاجة، يضعون عليها وعاءً ممتلئاً بالماء، ثم يرشون الماء بعد تسخينه على الناس المصابة بالطاعون أوعلى الماشية الملوثة بطاعون الماشية. وكانت تُعزى خاصية معينة لدخان المشعلة؛ ففي السويد كانوا يدخنون به الشِّباك لتلتقط سمكاً أوفر والأشجار المثمرة كي تحمل أكثر. وفي مرتفعات أسكتلندة اعتقدوا أن نار الحاجة علاج فعال للسحر. وفي جزيرة مول، عندما يضرمون النار كعلاج لطاعون الماشية، سمعنا عن إرفاق الشعيرة بالتضحية بعِجْلَةٍ مريضة، تُقطَّع إرباً وترمى في النار. ويرى الفلاحون السلافيون البلغاريون في طاعون الماشية شيطاناً شريراً أو مصاص دماء شنيع يمكن حجزه عند الخليج بفصله عن القطعان بحاجز ناري. وفي بعض أنحاء ألمانيا لا ينتظر الناس تفشي طاعون الماشية بل يحترزون بإشعال نار الحاجة سنوياً لمنع حدوث الكارثة. كذلك في بولندة، اعتاد الفلاحون إشعال النيران في شوارع القرية كل سنة في عيد القديس روكوز، ويسوقون الماشية ثلاث مرات فيها ليحموا الدواب من ذلك المرض. ورأينا أنه في هيبرايدز، تُقاد الماشية سنوياً حول نيران بلتين للغرض ذاته. وفي بعض أقاليم سويسرا مازال الأطفال يشعلون نار الحاجة عن طريق حك الخشب بهدف تفريق الضباب.

الفصل الثالث والستون
تفسير احتفالات النار

1ـ في احتفالات النار بشكل عام

من التحقيق السابق في احتفالات النار العامة يمكننا رصد بعض الأمور الشاملة. بادئ ذي بدء، لا يثير تشابة الطقوس أي دهشة على الإطلاق. وأوجه التشابه هذه كثيرة منها تماثل مواعيدها وانتشارها في جميع أنحاء أوروبا وإضرام المشاعل الكبيرة والقفز فوقها وسوق الماشية خلالها أو حولها، وينطبق الشيء ذاته على المواكب أو التسابق بالمشاعل المضرمة في الحقول، والبساتين والمراعي، وحظائر الماشية. أما رمي الأقراص الملتهبة في الهواء ودحرجة دولاب ملتهب أسفل الجبل فهما عادتان أقل شيوعاً. وتتميز طقوس خشب الميلاد عن الاحتفالات النارية الأخرى بأنها خاصة ومنزلية. لكن تميزها هذا قد يعود إلى طقس منتصف الشتاء السيء، الذي لايسمح للتجمع العام من ناحية، ومن ناحية أخرى، ربما يسبب انصباب المطر أو تساقط الثلج إزالة الهدف الذي اجتمعوا من أجله وذلك بإطفاء النار في أية لحظة. بعيداً عن هذه الفروقات المحلية والموسمية، يبقى هناك تشابه شديد بين احتفالات النار وطقوسها من حيث مواعيدها في المناطق قاطبةً. كذلك تتشابه الفوائد التي يتوقع الناس أن يجنوها منها. استخدمت بأشكالها العديدة مثل محارق تضرم في مواعيد ثابتة، أو مشاعل تُحمَل من مكان إلى آخر، أو جذوات ورماد مأخوذ من كومة الوقود المعسعسة، كلها استُخرمت كتحفيز إيجابي يهدف إلى تحسين نمو المحاصيل ورفع مستوى الإنسان والدواب، أو كتأثير سلبي يهدف إلى منع الأخطار والمصائب التي تهددهم مثل الرعد والبرق أو الحرائق المدمرة، أو الآفات أو العفن أو الفطريات أو العقم أو الجدب أو الأمراض، بالإضافة إلى السحر الذي لا يقل خطورة عن هذه الأخطار كلها.

لكن من الطبيعي أن نسأل: كيف لهذه الفوائد العظيمة أن تُجنى عبر وسائل غاية في البساطة؟ وما الطريقة التي يتخيل الناس أنها تمنحهم هذه الخيرات كلها أو تَقيهم هذه الأخطار الكثيرة باستخدام النار والدخان، والجمر والرماد؟ لقد قدمنا تفسيرين مختلفين لاحتفالات النار على لسان باحثين معاصرين. من الناحية الأولى اعتبرناها سحراً شمسياً أو طقوساً سحرية يقصد منها، اعتماداً على مبدأ سحر المحاكاة، تأمين المورد المطلوب للناس والحيوانات والنباتات عن طريق إضرام النيران التي تقلد على الأرض مصدر الضوء والحرارة الكبير في السماء. كان هذا رأي ويلهلم مانهاردت. ويمكن أن نسميه النظرية الشمسية. ومن الناحية الأخرى، تأتي الحجة المضادة بأن هذه النيران الطقوسية ليس لها بالضرورة علاقة بالشمس بل تهدف ببساطة إلى التطهير كونها مصممة لحرق أو تدمير الآثار الضارة من أية زاوية نراها: بشكلها الشخصي كساحرات وعفاريت ووحوش ممسوخة، أو بشكلها اللاشخصي كنوع من تلويث الهواء وفساده. وكانت هذه نظرة الدكتور إدوارد سترمارك، وعلى مايدو يوجين موغ. ويمكن أن نسميها النظرية التطهيرية. من الواضح أن النظريتين تسلمان بمفهومي النار المختلفين واللذين يلعبان الدور الأساسي في الشعائر. يعتبر أحدُ الآراء النارَ، شأنها شأن الشمس على خط العرض، قوةً وهابةً خلاقةً ترعى نمو النباتات وتطور كل ما من شأنه أن يحفظ العافية ويؤمن السعادة؛ أما النظرة الأخرى فترى في النار قوة قاسية مدمرة تفجر وتستهلك العناصر الضارة التي تهدد حياة الناس والحيوانات والنباتات، ماديةً كانت أم روحية. حسب النظرية الأولى، النار هي مثيرة محفزة، وحسب النظرية الثانية، هي مطهِّرة؛ حسب النظرة الأولى هي إيجابية وحسب النظرة الثانية هي سلبية.

مع أن التفسيرين مختلفان في الصفة التي يعزوانها للنار، إلا أنهما يصلان إلى حد التعارض التام. فإذا افترضنا أن المقصود من النار المضرمة في هذه الاحتفالات هو بشكل رئيس تقليد حرارة الشمس وضوئها، ألا يمكن اعتبار السمة التطهيرية والتعقيمية التي يعزوها عامة الناس للنار هي نفسها مشتقة مباشرة من الشمس؟ بهذه الطريقة نصل إلى نتيجة أنه إذا كان تقليد الشمس في هذه الطقوس أصيلاً وأساسياً، يصبح التطهير أو التعقيم ثانوياً مشتقاً. إنها النتيجة التي تحتل موقعاً وسطاً بين نظريتين متضادتين آخذة العناصر الحقيقية من كل منهما، وهذا

هوالموقف الذي أخذته في طبعات سابقة من هذا الكتاب، لكن في الوقت نفسه تحيز الدكتور وسترمارك بقوة لمصلحة النظرية التطهيرية فقط، وأجد نفسي الآن مضطراً للاعتراف أن نظرته أقوى ولدى التمعن بالحقائق ترجح الكفة لصالحه. لكن الحقيقة ليست واضحة إلى درجة أننا نرفض فيها النظرية الشمسية دون نقاش، وبالتالي أقترح تقديم الأدلة التي تصب في مصلحتها أولاً قبل تقديم ما يصب في نقضها؛ فالنظرية التي تبناها شخص عاقل ذكي مثل مانهاردت جديرة بالإصغاء بكل احترام.

2ـ النظرية الشمسية لاحتفالات النار

في فصل سابق من هذا العمل رأينا كيف لجأ البدائيون للسحر بغية صنع أشعة الشمس، ولاعجب أذا فعل الإنسان البدائي في أوروبا الشيء ذاته. بالفعل عندما نأخذ بعين الاعتبار المناخ البارد والغائم في أوروبا معظم أوقات السنة، نرى أنه من الطبيعي أن يلعب السحر الشمسي دوراً أكبر من الممارسات الخرافية التي لعبتها الشعوب القريبة من خط الاستواء والتي تنعم بأشعة شمس أكثر مما تحتاج. وقد دعم هذه النظرة للاحتفالات حجج كثيرة منها تاريخها، وطبيعة شعائرها، والأثر الذي يُعتقد أنها تمارسه على الطقس والخضرة.

إذا ما أخذنا تواريخ االإحتفالات بعين الاعتبار نجد أن توافقها مع الانقلابين الصيفي والشتوي ليس مجرد مصادفة، أي أنها أقيمت مع أعلى وأخفض نقطتين تصلهما الشمس في السماء عند الظهيرة. في الحقيقة لم يعد الأمر مجرد توقع عندما نتناول احتفال منتصف الشتاء في عيد الميلاد؛ خصوصاً بعد ما بلغتنا شهادة واضحة من القدامى أن الكنيسة أخذت الاحتفال عن احتفال وثني يقام عند ميلاد الشمس، ويصادف على حد تفكيرهم بعد أقصر يوم من السنة، حينما لاحظوا ازدياد حرارتها وضوئها منذ ذلك التاريخ وحتى تبلغ نموها الكامل في منتصف الصيف. لذا ليس توقعاً أن يكون خشب الميلاد الذي يميز احتفال عيد ميلاد المسيح، أصلاً لمساعدة الشمس في منتصف الشتاء كي تشعل نورها المتخامد ثانيةً.

ليس الأمر تواريخ الاحتفالات فقط بل طريقة القيام بها والتي توحي بتقليد الشمس بشكل مقصود. ليست عادة دحرجة الدولاب المشتعل أسفل الجبل إلا تقليداً لمسار الشمس في السماء، كما يتوافق التقليد مع عيد منتصف الصيف عندما تبدأ الشمس بالانحدار السنوي. بالحقيقة، فسرنا العادة على هذا الشكل بناءً على ما سجلوه عنها؛ وهل هناك تقليد أكثر حيوية من دوران براميل القطران المشتعلة والمتأرجحة حول العمود. كذلك ممارسة رمي الأقراص المشتعلة – والتي يقولون أنها تشبه الشمس – في الهواء في احتفالاتٍ هي بحد ذاتها جزء من سحر المحاكاة. في هذه الحالة كما في حالات كثيرة أخرى، يفترضون أن القوة السحرية تبلغ تأثيرها بالمحاكاة أو التعاطف: عن طريق تقليد النتيجة المرجوة بتنفيذها فعلاً: أي أن تمثيل تقدم الشمس بشكل مزيف في السماء يساعد ذلك الجرم على متابعة رحلته السماوية بسرعة ودقة. أما تسمية نار السماء التي تعرف بها نار منتصف الصيف فتدل بوضوح على إدراكهم للعلاقة بين اللهب الأرضي واللهب السماوي.

كذلك تظهر النار كما كانت تُشعل بالأصل لتؤكد نظرية أنها تقليد للشمس. ورأى بعض الباحثين أن نيران الاحتفالات الدورية كانت تُضرم دائماً بحك قطعتين من الخشب. ومازالت هكذا في بعض المناطق في عيد الفصح ومهرجانات منتصف الصيف، ويعبرون صراحةً أنها كانت تضرم بهذا الشكل في بلتين في أسكتلندة وويلز. لكن ما يجعل الأمر أكيداً هو ضرورة استخدام حك الخشب في الشروع بنار الحاجة، أو بتدوير دولاب يمثل الشمس لهذا الغرض. ويمكن اعتبار الطريقة تأكيداً إضافياً على نظرية أنها كانت سحراً شمسياً بالأصل. وقد أشار كوهن إلى بعض الأدلة التي تثبت أن نار منتصف الصيف كانت تشعل بهذا الشكل. رأينا كيف أن الكثير من رعاة الخنازير الهنغاريين ينتجون نار عشية منتصف الصيف بتدوير دولاب حول محور خشبي ملفوف بخيوط القنب، وأنهم يسوقون خنازيرهم خلال نار أضرمت بهذا الشكل. وفي أوبرميدلنجن في سوابيا، يصنعون ما يسمونه نار السماء في عيد القديس سفيتوس (الخامس عشر من حزيران) عن طريق إشعال دولاب عربة مدهون بالزفت ومغلف بالقش، ومربوط إلى عمود ارتفاعه إثنا عشر قدماً، وقد أدخل رأس العمود في محور الدولاب. كانت تقام هذه النار على قمة الجبل، وعندما يتصاعد اللهب يقول الناس عبارات معينة رافعين

أيديهم إلى السماء وشاخصين أعينهم إليها. إن تثبيت الدولاب وإشعاله يوحي بأن النار كانت أصلاً تُنتج بطريقة إنتاج نار الحاجة نفسها، أي بتدوير الدولاب. أما اليوم الذي يُقام فيه الطقس (الخامس عشر من حزيران) فهو قريب من منتصف الصيف؛ ورأينا أن نار ماسورين كانت تُقام بالفعل في منتصف الصيف عن طريق تدوير دولاب بسرعة حول عمود من السنديان، على الرغم من أنهم لم يقولوا أن النار الجديدة قد استخدمت لإشعال المشعلة. لكن علينا أن نبقي في أذهاننا أنه في جميع هذه الحالات، ربما كان استخدام الدولاب مجرد أداة ميكانيكية لرفع الاحتكاك وتسهيل عملية صنع النار؛ ولا ينطوي على أي معان رمزية.

تضع التأثيرات المفترضة لهذه النيران، دورية كانت أم طارئة، الطقس والخضرة في موقع يدعم فكرة كونها سحراً شمسياً لأن الآثار المعزوة لها تشبه آثار أشعة الشمس. لذا ساد اعتقاد فرنسي أنه في حزيران الماطر يسبب إشعالُ مشاعل منتصف الصيف إيقافَ المطر، بمعنى أنها تبعثر الغيوم الداكنة وتجعل الشمس تتدلع بهالتها الوهاجة فتجفف الأرض والأشجار. وهنا يمكن تفسير استخدام الأطفال السويسريين لنار الحاجة بهدف تفريق الضباب على أنه سحر شمسي. في جبال فوسجز يؤمن الناس بمساعدة نيران منتصف الصيف في الحفاظ على ثمار الأرض وضمان المحاصيل الجيدة. وفي السويد يمكن التنبؤ بدفء أو برودة الموسم من اتجاه هبوب لهيب مشعلة عيد أيار؛ فإذا هب نحو الجنوب يكون الطقس حاراً، ونحو الشمال بارداً. أما الآن فلا أحد منا يرى في اتجاه اللهب سوى أمر يتعلق بحركة الهواء ليس إلا. لكن هذه الحالة حتماً واحدة من الحالات التي تحول فيها السحر إلى كهانة. لذلك في جبال إيفيل، عندما يهب الدخان نحو حقول الحنطة، يرون فيه فأل حصاد وفير. لكن النظرة السابقة لم تعتبر الدخان واللهيب مبشراً بالحصاد الوفير بل بجلبه بالفعل، لأن حرارة اللهيب تفعل فعل أشعة الشمس على الحنطة. ربما بناء على هذه الفكرة أشعل الناس في جزيرة مان النيران لتتجه نحو حقولهم كي يهب عليها الدخان. وفي جنوب إفريقيا، في شهر نيسان تقريباً يضرم قوم ماتابيليس نيراناً ضخمة بحيث تتجه نحو بساتينهم، فهم يعتقدون أن الدخان يساعد على إنضاج المحاصيل عندما يمر فوقها. كذلك يحرق الزولو عقاقير على نار موضوعة باتجاه البساتين فيتحسن المحصول جراء الدخان الذي يمر على النباتات.

كذلك يعتقد فلاحو أوروبا أن الحنطة تتابع النمو مادام أن نار المشعلة المستعرة مرئية، ويمكن تفسيرهذا على أنه أثر باق لإيمانهم بقوة المشاعل التسريعية والتخصيبية. ويظهر الاعتقاد ذاته في فكرة أن الجذوات المأخوذة من المشاعل المغروسة في الحقول تحسن نمو المحاصيل، ويعتقد أنها وراء عادات بدار بذور الكتان باتجاه اللهيب، أو مزج رماد المحرقة ببذور الحنطة عند البدار ونثر الرماد فوق الحقول بغية تخصيبها، ووضع قطعة من خشب الميلاد في المحراث لجعل البذور أقدر على العيش. أما الفكرة السائدة بين الناس عن نمو خيوط الكتان أو القنب بارتفاع اللهيب أو بقدر ما يقفز الناس فوقه فتعود بوضوح إلى الأفكار نفسها. كذلك في كونز، على ضفاف ماسيل، إذا تدحرج الدولاب الملتهب أسفل الجبل ووصل النهرَ قبل أن ينطفئ، كانوا يرحبون به كدليل على وفور غلال العنب. ولشدة اعتقادهم بهذا كانوا يفرضون على مالكي كروم القرى المجاورة ضريبة عندما يؤدون الطقس بشكل ناجح. هنا يمكن اعتبار الدولاب غير المنطفئ تمثيلاً للشمس غير المحجوبة بالغيوم، والتي بدورها تنذر بغلة وفيرة. وللسبب ذاته كانوا يأخذون ثمن أشعة الشمس التي استجلبوها، من العربة المحملة بالخمر الأبيض الآتية من كروم العنب. كذلك كانوا في فيلغرامورغان يدحرجون دولاباً مستعراً في عيد منتصف الصيف، وإذا انطفأت النار قبل وصول الدولاب إلى أسفل الجبل، يتوقع الناس حصاداً سيئاً؛ أما إذا ظل مشتعلاً مدة طويلة فيتوقع المزارعون محصولاً وفيراً ذلك الصيف. من الطبيعي هنا أن نتوقع أن العقل البدائي البسيط تتبّع العلاقة المباشرة بين نار الدولاب ونار الشمس لأنها تؤثر في المحصول.

ساد معتقد عام يقول أن التأثير التخصيبي للمشاعل لا يقتصر على عالم الخضرة بل يتعداه إلى الحيوانات. ويظهر هذا في العادة الإيرلندية التي يقودون فيها الماشية خلال نيران منتصف الصيف، وساد معتقد فرنسي يقول إن نقع خشب الميلاد في الماء يساعد البقر على الحمل، وتقول الفكرة الصربية والفرنسية إن الدجاج والعجول والخرفان والأولاد يتكاثرون بعدد الشرارات المنطلقة من خشب الميلاد، ويظهر معتقدهم واضحاً في العادة الفرنسية التي يضعون فيها رماد المشاعل في أعشاش الطيور ليجعلوا الدجاج يبيض أكثر، وفي الممارسة الألمانية التي يمزجون فيها رماد المشاعل بشراب الماشية كي يطول عمرها. كما أن هناك إشارات واضحة

إلى أن الإخصابية البشرية تزدهر جراء حرارة النيران اللطيفة. وفي المغرب العربي يعتقد الناس أن الزوجين العقيمين يمكن أن ينجبا إذا ما قفزا فوق مشعلة منتصف الصيف. ويقول المعتقد الإيرلندي أن الفتاة التي تقفز فوق مشعلة منتصف الصيف ثلاث مرات ستتزوج وتكون أماً لعدة أولاد. وفي فلاندرز تقفز النساء فوق نيران منتصف الصيف لتجعل مخاضها هيناً؛ وفي بعض أنحاء فرنسا يعتقدون أنه إذا ما رقصت الفتاة حول النيران تسع مرات تتيقن أنها ستتزوج خلال العام القادم، وفي بوهيميا يتخيلون أنها ستتزوج بمجرد رؤيتها لتسعة محارق. من الناحية الأخرى، في ليكرين يقول الناس إنه إذا ما قفز شاب وشابة فوق نار منتصف الصيف سويةً دون أي أثر يصيبهما من النار، ستصبح الصبية أماً خلال اثني عشر شهراً؛ فالنار أخصبتها دون أن تلمسها. وفي بعض أنحاء سويسرا وفرنسا، وهم يشعلون خشب الميلاد يتلون صلاة يتمنون فيها أن تحمل النساء أطفالاً، وتتجب العنزات الجدايا، والنعاج الحمول. وما يدل على الفكرة نفسها هي القاعدة السائدة في بعض الأماكن التي تقضي بوجوب إشعال المشاعل من قبل أخر شخص تزوج، لايهم إن كان يأخذ الأثر التخصيبي من النار أو يعطيه لها. أما الممارسة السائدة لقفز المحبين فوق النيران يداً بيد، فربما تعود إلى الفكرة ذاتها وهي مباركة زواجهما بالذرية؛ ويفسر الدافع نفسه العادةَ التي توجب على أزواج تلك السنة أن يرقصوا على ضوء المشاعل. أما مشاهد الفجور والتهتك التي تميز احتفال منتصف الصيف في إثونيا، والتي ميزت احتفال عيد أيار عندنا فربما انبثقت ليس من مجرد رخصة للتسلية، بل من الفكرة البدائية التي تبرر مثل هذا القصف. وإذا كان الأمر غير ملزم بقيد غامض يربط بين حياة الإنسان ومسارات الأجرام في هذا المنعطف من السنة.

غالباً ما تُرفق احتفالات إضرام المحارق بعادة حمل المشاعل والتجوال في أنحاء الحقول والبساتين والمراعي والقطعان؛ ولانشك أبداً في أنهما طريقتان مختلفتان لبلوغ الهدف نفسه وهو تحديداً، الفوائد التي يعتقدون أنها تنبثق من النار، ثابتةً كانت أم متحركة. بالتالي إذا ما قبلنا النظرية الشمسية للمحارق، يتوجب علينا تطبيقها على المشاعل، ويتوجب علينا أن نفترض أن ممارسة المشي أو الركض بالمشاعل المستعرة في أرجاء القرية هي ببساطة وسيلة لنشر أثر الشمس الخير الذي يمثله اللهيب المتلألئ تمثيلاً ضعيفاً. وربما يقال دعماً لهذه النظرة أنه أحياناً تُحمل

المشاعل في أرجاء الحقول للوصول إلى هدف معلن وهو تخصيبها، وللغرض نفسه يأتي غرس فحم المحارق في الحقول ليمنع الآفات. وعشية اليوم الثاني عشر في نورماندي يركض الرجال والنساء والأطفال ركضاً هائجاً في الحقول والبساتين ومعهم المشاعل ويلوحون بها حول الأغصان ويضربون بها على جذوع الأشجار المثمرة كي يحرقوا الطحالب ويطردوا الخلد وفئران الحقل. يعتقدون أن هذا الطقس يؤدي هدفاً مضاعفاً وهو طرد الفطور التي يشكل تكاثرها طامة كبرى، ومنح الإخصابية للأشجار؛ ويتخيلون أنه كلما طال الطقس كلما كثر محصول الثمار في ذلك الخريف. في بوهيميا يقولون إن الحنطة تنمو أعلى إذا ما ألقوا بالجمر عالياً في الهواء. لا تقتصر هذه الأفكار على أوروبا، ففي كوريا وقبل احتفال السنة الجديدة بعدة أيام، يؤرجح مخصيو القصر مشاعل مستعرة، وهم ينشدون الرقيات، ومن المفترض أن يؤمّن هذا السلوك محصولاً سخياً في الموسم القادم. أما عادة دحرجة دولاب مشتعل فوق الحقول والتي كانت متبعة في بواتو بهدف التخصيب، فربما تجسد الفكرة نفسها بوضوح أكبر؛ لأنه بهذه الطريقة، ليس ضوء الشمس وحرارتها المتمثلين بالمشاعل التي تمرر فوق الأرض بل ممثل الشمس هو الذي يعطيها الأثر التسريعي الإيجابي. مرة أخرى، إن عادة حمل الجمرات المستعرة حول الماشية تساوي بوضوح سوق الحيوانات عبر المشعلة؛ وإذا كانت المشعلة سحراً شمسياً، فلابد أن المشاعل سحر شمسي أيضاً.

3ـ النظرية التطهيرية لاحتفالات النار

لقد بحثنا حتى الآن ما يسمى النظرية الشمسية لاحتفالات النار الأوربية والتي تضرم كسحر يؤمن مورداً وفيراً من أشعة الشمس للإنسان والحيوان والحنطة والثمار. وبقي علينا أن نتناول ما يمكن أن يقال ضد هذه النظرية ومع النظرة القائلة بأن هذه الشعائر لم تستخدم بهدف خلقي بل كوسيلة تطهيرية تنظف الإنسان والحيوان والنبات عن طريق حرق وإتلاف العناصر الضارة ـ مادية كانت أم روحية ـ التي تهدد كلَّ شيء حي بالمرض والموت.

أولاً علينا أن نلاحظ قضية هامة وهي أن الناس الذين يمارسون عادات النار لايدَّعون النظرية الشمسية في تفسيرها، بل يؤكدون على النظرية التطهيرية. وهذا يعتبر حجة قوية لمصلحة النظرية التطهيرية وضد النظرية الشمسية، لأن تفسير العادة الشائعة لا يُرفَض إلا لأمر جلل. وفي هذه الحالة ليس هناك سبب وجيه لرفضه. إن مفهوم النار كقوة مدمرة والتي يمكن أن تتحول لإهلاك الأشياء الشريرة، هي بسيطة وواضحة إلى درجة أنه من الصعب تجنبها حتى من قبل عقول الفلاحين البسطاء الذين بدأت عندهم هذه الاحتفالات. ومن الناحية الأخرى إن فكرة النار المنبجسة عن الشمس، أو بكل الأحوال متعلقة برابط التعاطف الفيزيائي، هي أكثر تعقيداً كسحر يقصد منه إنتاج أشعة الشمس، وغير قابل للنكران، مع ذلك عندما نحاول تفسير عادة شائعة علينا ألا نلجأ إلى فكرة أعقد في حين يكون في متناولنا فكرة أبسط وأوضح معززة بشهادة الناس أنفسهم. بالنسبة لقضية احتفالات النار، إن الجانب التدميري للنار هو الذي يتمعن فيه الناس مراراً وتكراراً؛ ومن المفيد هنا أن يكون الشر الأكبر الذي تُوجَّه ضده النار هو السحر. وقد بلغنا مراراً وتكراراً أن المقصود من النارهو حرق الساحرات وصدُّهن؛ وأحياناً تأتي النية واضحة بحرق مجسم ساحرة بالنار. وعندما نتذكر القبضة القوية التي هيمن بها السحر البغيض على العقول الأوربية في كل العصور، فربما نشك أن يكون الهدف الأساس من احتفالات النار هو تدمير الساحرات أو التخلص منهن بهذه البساطة، في حين كان يُعتبر سوادهن الأعظم مكرسات للمصائب والكوارث التي تصيب الناس وماشيتهم ومحاصيلهم.

ويتأكد هذا الشك عندما نتأمل الشرور التي يُفترض من المحارق والمشاعل أن تخلصهم منها. على ما أعتقد تحتل أمراض الماشية المرتبة الأولى بين هذه الشرور. وأخطر الأضرار التي يمكن للساحرات أن تلحقه بالقطعان ـ على حد اعتقادهم ـ هو سرقة الحليب من الأبقار. وكم هو مناسب لبحثنا أن تُضرم نار الحاجة التي ربما اعتبرت أصل احتفالات النار الدورية، تُضرم أساساً كعلاج لطاعون الماشية أو أمراض الماشية الأخرى. وتوحي لنا الظروف ما هو مرجع على الأرضية العامة: إن إضرام نار الحاجة يعود إلى وقت كان يعيش فيه أسلافنا الأوربيون بشكل رئيس على ما تنتجه القطعان، وإلى وقت كانت تؤدي فيه الزراعة دوراً ثانوياً في حياتهم.

لذا فإن الساحرات والذئاب هما العدوان اللدودان اللذان مازال يخافهما الراعي في أنحاء كثيرة من أوروبا، ولا عجب أن يلجأ إلى النار كوسيلة فعالة لمنعهما معاً. وعند الشعوب السلافية يبدو أن الأعداء الذين تُصمَّم ضدهم نار الحاجة ليسوا ساحرات حية مثل مصاصي الدماء وأرواح شريرة أخرى، ولا يهدف الطقس إلى محق تلك الكائنات المؤذية بل إلى طردها باللهب. لكن هذه الأمور لاتخدم غرضنا الآن لكونها غير مادية. المهم أن ننتبه أن نار الحاجة عند السلافيين ـ والتي ربما كانت أصل كل النيران الطقسية، وهي موضوع بحثنا الآن ـ ليست سحراً شمسياً، بل هي حتماً وسيلة لحماية الإنسان ضد هجمات الكائنات المؤذية التي يعتقد الفلاح أنه يحرقها ويخيفها بلظى النار، تماماً كما يحرق ويخيف الحيوانات المفترسة.

كذلك يفترض أن تحمي المشاعل الحقولَ من الوابلِ والمسكنَ من الرعدِ والبرقِ، فحسب اعتقادهم ليس الوابل والعواصف إلا من صنع الساحرات؛ من هنا فإن النار التي تمنع الساحرات تلعب بالضرورة في الوقت ذاته دور تعويذة ضد الوابل والرعد والبرق. ثم أن الجمر المأخوذ من المشاعل والذي يحفظ في البيوت ليحميها من الحريق؛ وعلى الرغم مما يقومون به على أساس مبدأ السحر التعاطفي ـ التجانسي، يعتقدون أن إحدى النارين تقوم بدور الحماية من الأخرى، ويمكن أن يكون المقصود هو إيقاف ساحرات الحريق عند الخليج. مرة أخرى نقول إن الناس يقفزون فوق المشاعل كوقاية من المغص وينظرون إلى اللهب بإمعان للحفاظ على أعينهم بصحة جيدة وحمايتها من الإلتهاب في ألمانيا، وفي أماكن أخرى ينصبون مكائد للساحرات. ويعتقدون أن القفز فوق نار منتصف الصيف أو الطواف حولها إنما يمنع الناس من الشعور بالألم في أثناء عملهم بالحصاد؛ ويسمون هذه الآلام في ألمانيا **ضربات الساحرة** ويعزونه للسحر.

لكن إذا اعتُبرت المحارق والمشاعل في احتفالات النار سلاحاً موجهاً أساساً ضد الساحرات والسحرة، ينسحب هذا التفسير على الأقراص الملتهبة المقذوفة في الهواء وعلى الدواليب الملتهبة التي تتدحرج نحو أسفل الجبل في هذه المناسبات؛ فالمقصود من الأقراص والدواليب هو حرق الساحرات اللواتي يحُمن خفية في الهواء أو يسكنَّ الحقول والبساتين وكروم العنب وسفوح الجبال دون أن يراهن أحد. ويُعتَقد أن الساحرات يركبن الهواء باستمرار على عصاة مقشة أو وسيلة أخرى تخدم الغرض

نفسه؛ فكيف لنا أن ننال منهن إلا بالقذائف الملتهبة، أقراصاً كانت أم جمرات لتحقق إصابتهن وهن يمضين مسرعات في الظلام؟ كما يعتقد الفلاح السلافي الجنوبي أن الساحرات يركبن في الظلام على سُحِب الوابل؛ لذلك يقذف على السحب كي يوقِع الساحرات وهو يلعنهن قائلاً:(اللعنة، اللعنة يا هاروديس، أمك وثنية، لعنها الله وقيدها بدم المخلِّص.) كما يأتي بوعاء من الفحم المتوهج الذي وضع عليه زيتاً مقدساً، وأوراق الغار ونبات الأفسنتين ليصدر دخاناً. من المفترض أن يصعد الدخان إلى السحب ويخدر الساحرات فيقعن على الأرض. وحتى لا يقعن بلطف، بل ليؤذين أنفسهن، يأتي الفلاح الجلف بكرسي ويقلبه رأساً على عقب كي تتكسر أرجل الساحرات على أرجل الكرسي. والأسوأ من ذلك أنه يضع المناجل والزوابير ونصول الأسلحة المخيفة إلى الأعلى كي يجرح ويشوه الساحرات المسكينات عندما يقعن فجأة من السحب.

بناءً على هذه النظرة يفترض أن يأتي الخصبُ نتيجة استخدام النار على شكل محرقة، أو مشاعل، أو أقراص، أو دواليب متدحرجة وغيرها، وليس نتيجة مباشرة لارتفاع حرارة الشمس التي ولدتها النار بشكل سحري؛ إنها مجرد نتيجة غير مباشرة تم التوصل إليها عبر تحرير قوى النبات والحيوان التكاثرية من عوائق السحر المميتة. وما ينطبق على تكاثر النباتات والحيوانات ينطبق على خصوبة الجنسين البشريين. فالمفروض أن المشاعل تحسِّن الزواج وتهب الذرية للأزواج العقيمين. وليس هذا المفعول السعيد بحاجة إلى أن يأتي مباشرة من تسريع الطاقة المخصبة في النار؛ بل يمكن أن يأتي بشكل غير مباشر من قدرة النار على إزالة العوائق التي ينصبها السحرة والساحرات الشريرات لمنع اتحاد الرجل مع زوجته.

بالمجمل، نرجح بالأدلة نظرية بَرَكة نيران الطقوس التطهيرية على النظرية المرتبطة بالشمس.

الفصل الرابع والستون
حرق الكائنات البشرية في النيران

1ـ حرق المجسمات في النيران

علينا أن نسأل، ما معنى حرق المجسمات في النار في هذه الاحتفالات؟ بعد البحث السابق يبدو الجواب واضحاً. بما أن النيران مُعَدَّة لحرق الساحرات، وبما أن المجسمات التي تُلقى في النار تُدعى أحياناً الساحر، نصبح أمام النتيجة القائلة أن كل المجسمات الهالكة في اللهيب في هذه المناسبات تمثل السحرة أو المشعوذين، وأن عادة حرقها هي بديل عن حرق الشريرين والشريرات، لأنك من حيث مبدأ السحر التعاطفي ـ التجانسي أو سحر المحاكاة، إنما أنت تدمرالساحرة نفسها خلال تدمير مجسمها. هذه هي النظرة الأكثر احتمالية في تفسير حرق المجسمات القشية بشكلها البشري في هذه الاحتفالات.

مع ذلك ربما لا ينطبق هذا التفسير على جميع الحالات، بل يحتاج بعضُها إلى تفسير آخر. لأن المجسمات التي تحرق بهذا الشكل، كما أشرت سابقاً، بالكاد تنفصل عن مجسمات الموت التي تُحرق أو تدمر في الربيع؛ وقد أعطينا أدلة على مايسمى مجسمات الموت كممثل حقيقي لروح الشجرة أو روح الخضرة. ترُى هل ينطبق هذا التفسير نفسه على المجسمات الأخرى التي تحرق في الربيع ومشاعل منتصف الصيف؟ الجواب: نعم، يفعل ذلك. فبما أنهم يضعون قطع ما يمسى الموت في حقولهم لتنمية المحاصيل، كذلك يضعون جذوات المجسمات المحترقة في مشاعل الربيع، يضعونها في الحقول كي تطرد الطفيليات عن المحصول. أما القاعدة التي تقضي أن تقفز العروس التي تزوجت أخيراً فوق النار التي حُرِق فيها الرجل القشي في ثلاثاء الاعتراف، ربما المقصود منها جعلها خصيبة. لكن كما رأينا تُعزى قوة مُبَارَكَةِ النساء بشكل خاص لروح الشجرة؛ لذا فقفز العروس فوق المجسم المحترق

إنما هو رمز تخصيب روح الشجرة أو روح الخضرة. إن اعتبار المجسم ممثلاً لروح الخضرة يصبح ثابتاً عندما نلاحظ أنه يتألف من حزمة حنطة غير مدروسة، أو مغطاة من رأسها إلى أخمصها بالورود. علينا أن نلاحظ أيضاً أنهم يحرقون بدلاً من الدمية والأشجار الحية أوالمقطوعة يحرقون أحياناً مشاعل في الربيع ومنتصف الصيف. وعندما نأخذ بعين الاعتبار تكرار تمثيل روح الشجرة بشكل بشري، لا نعود مبالغين عندما نعتبر الشجرة والمجسم شيئين مترادفين في تمثيلهما لروح الشجرة لأنهما تارة يَحرقون شجرة في المشعلة وتارة مجسماً. ويتأكد هذا عندما نلاحظ أولاً، حمل المجسم المحترق مع شجرة أيار في آن معاً، إذ يحمل الصِّبية المجسمَ وتحمل الفتيات الشجرة؛ وثانياً، ربط المجسم أحياناً إلى شجرة حية وحرقه معها. في هذه الحالات لايمكننا الشك في أن روح الشجرة تُمثَّل بشكل مضاعف: أي الشجرة والمجسم. ومن الطبيعي أن تُنسى صفة المجسم كممثل لروح الخضرة الخيرة. إن عادة حرق الإله الخير عادة مستهجنة جداً حسب أنماط التفكير اللاحقة، إلى درجة أنها تعجز عن تقديم التفسير المناسب. ومن الطبيعي جداً أن يرى الناس في المجسم الذي يحرقونه أشخاصاً يمقتونهم بناء على أسس عديدة، مثل جودا إسكاريوت، ولوثر والساحر.

لقد بحثنا الأسباب العامة لقتل الإله الخير أو ممثله في الفصل السابق. لكن عندما يكون ذلك الإله هو إله الخضرة، فهناك مبرر آخر لقتله بالنار. فالضوء والحرارة ضروريان لنمو الخضرة؛ وبناءً على مبدأ السحر التعاطفي، وبتعريض ممثل الخضرة الشخصي لأثرهما، يتم تأمين هذين الشيئين الضروريين للأشجار والمحصول. بكلمات أخرى، بحرق روح الخضرة في النار التي تمثل الشمس، نضمن شمساً وفيرة ولو فترة قصيرة. وربما جادل أحدهم في أنه إذا كان المقصود هو تأمين أشعة شمس كافية للخضرة، فمن الأفضل الحصول على الغرض نفسه حسب مبادئ السحر التعاطفي، بمجرد تمرير ممثل الخضرة خلال النار بدلاً من حرقه. في الحقيقة هذا ما يحصل أحياناً. ففي روسيا كما رأينا، لا يحرقون مجسم كوبالو القشي في نار منتصف الصيف بل يمررونه جيئة وذهاباً عبرها. لكن للأسباب التي شرحناها سابقاً، من الضروري أن يموت الإله؛ لذلك يعرون كوبالو من زينته في اليوم التالي ويلقونه في الجدول. في هذه العادة الروسية، إذا لم يكن تمرير المجسم

خلال النار مجرد تطهير، فهو إذن سحر شمسي؛ أما قتل الإله فهو عمل مستقل، وربما كانت طريقة قتله - أي الغرق - سحراً مطرياً. لكن لم يجد الناس ضرورة في هذا التمييز الدقيق؛ للأسباب العديدة التي حددناها سابقاً، بل رأوا الفائدة في تعريض إله الخضرة إلى قَدْرٍ من الحرارة، ورأوا في قتله شيئاً مفيداً فاتبعوا طريقة في غاية البساطة للحصول على الفائدتين معاً: إنها الحرق.

2ـ حرق الرجال والحيوانات في النيران

في عادات احتفالات النار الشائعة سماتٌ تدل على ممارسة سابقة للتضحية بالبشر. وما يثبت اعتقادنا أنه في أوروبا مررنا بأشخاص أحياء يمثلون روح الشجرة وروح الحنطة وعانوا من الموت جراء هذا التمثيل. إذن ليس هناك ما يمنع أن يكونوا قد حُرقوا بغية الوصول إلى منافع خاصة لا يبلغونها إلا بموتهم بهذه الطريقة، فالمعاناة البشرية لا تدخل في حسبان الإنسان البدائي. وفي احتفالات النار التي نناقشها، يتظاهرون أحياناً بحرق الناس مما يقرِّب لأذهاننا أنها إحياء مخفف لعادة قديمة كان يُحرق فيها الناس بشكل فعلي. ففي أتشن كما رأينا، يمثل الدورَ رجلٌ مكسو بقش البازلاء بذكاء يجعل الأطفال يصدقون أنه حُرِق بالفعل. وفي دجوميجيز في نورماندي يُكسى رجلٌ بالأخضر ويُعطى لقب الذئب الأخضر، ويُطارد من قبل رفاقه، وعندما يُقبض عليه يتظاهرون أنهم يرمونه في مشعلة منتصف الصيف. كذلك في نيران بلتين في أسكتلندة كان يقبض على الضحية المزيفة ويرمونه في اللهيب أمام الناس، وبعد فترة يتظاهرون أنهم يتكلمون معه وهو ميت. كذلك في مشاعل هالوين في شمال شرق أسكتلندة يمكننا أن نرى تمثيلاً كهذا في عادة يقربون فيها فتىً إلى النار بحيث يتمكن بقية الفتيان من القفز فوقه. أما الملك الاسمي في أيكس الذي يحكم سنة كاملة ويكون أول الراقصين حول مشعلة منتصف الصيف، فربما كان في غابر الزمان يؤدي دوراً لا يقبله لما يقضيه الدور من جعله وقوداً لنار صار لاحقاً يشعلها فقط. في العادات التالية ربما كان مانهاردت محقاً عندما اعتبر آثار عادة حرق مجسم مكسو بالأوراق تمثيلاً لروح الحنطة. وفي ولفيك في النمسا، وفي عيد منتصف الصيف، يكسون صبياً بالكامل

بأغصان التوب الخضراء ويذهب من منزل إلى آخر برفقة مجموعة صاخبة يجمعون الخشب للمشعلة. ويغني عندما يأخذ الخشب الأغنية التالية:

ما أريده هو أشجار الغابة

لا تعطوني الحليب الحامض،

بل اعطوني البيرة والخمر،

كي يفرح رجل الخشب ويغتبط.

وفي بعض أنحاء بافاريا أيضاً يَكسو الصبيةُ الذين يذهبون من منزل إلى آخر ويجمعون وقود مشعلة منتصف الصيف يَكْسون أحدَهم من رأسه لأخمصه بأغصان التوب الخضراء ويقودونه بالحبل في جميع أرجاء القرية. وفي موشيم، ورتيمبورغ، تستمر نار القديس يوحنا أربعة عشر يوماً، وتنتهي يوم الأحد الثاني بعد عيد منتصف الصيف. في هذا اليوم الأخير يتركون المشعلة بعهدة الأطفال، بينما ينسحب الكبار إلى الغابة حيث يُكسُون شاباً بالأوراق والأغصان، ثم يذهب متنكراً إلى النار ويبعثرها ويطفئها بقدميه فيهرب كل الحاضرين خوفاً من منظره.

ويمكن أن نذهب عميقاً أكثر عندما نبحث في أثار جلية تعود إلى مئة سنة خلت وتبين عادة الضحايا البشرية التي كانت تقدم في هذه المناسبات والتي استمرت حتى الآن في نيران بلتين في مرتفعات أسكتلندة، أي عند السلتيين القاطنين في زاوية نائية من أوروبا منعزلين انعزالاً شبه تام عن التأثيرات الأجنبية، الأمر الذي جعلهم يحافظون على وثنيتهم القديمة ربما أكثر من أي شعب آخر في غرب أوروبا. وهناك مغزىً كبير في تقديم السلتيين لضحايا بشريين عبر النار بشكل دوري، وهي قضية ثابتة بالأدلة القاطعة. وأقدم وصفٍ لهذه الضحايا هو وصف يوليوس سيزر عندما احتل بلاد السلتيين المستقلين في غاول، فسنحت له فرصة كبيرة لدراسة الديانة القومية السلتية وعاداتها عندما كانت حيَّة، فقطف من نعناعها الأصيل قبل أن تذوب في بوتقة الحضارة الرومانية. يبدو أن سيزر قد استخدم كلماته الخاصة ناقلاً وصف المكتشف الإغريقي بوسيدونيوس الذي تَنَقَّل في غاول قبل أن يأتي سيزر بجيوشه الرومانية إلى القناة الإنكليزية. ويبدو أن الجغرافي الإغريقي ستاربو والمؤرخ ديودوراس قد استمدا وصفهما من عمل بوسيدونيوس لكن عمل كل منهما على

حدة، ومنفصلين عن سيزر، في كل من هذه الوصوف المستمَدة تفاصيل غير متوفرة بالوصفين الآخرين. وعند جمعها تمكنّا من استعادة تقرير بوسيدونيوس بأرجحية لابأس بها، فحصلنا على الصورة التي قدم فيها السلتيين الضحايا في غاول عند نهاية القرن الثاني الميلادي. إليكم الخطوط العريضة لتلك العادة. يحتجز السلتيون المجرمين المُدانين كي يُقدموا أضاحي للآلهة في الاحتفال الكبير الذي يُقام مرة كل خمس سنوات. وكلما زاد عدد هذه الأضاحي، كلما زادت خصوبة الأرض. وفي حال لم يتوفر ما يكفي من المجرمين لتقديم الضحايا، كانوا يلجؤون إلى سد نقص القرابين من أسرى الحرب. وعندما يحين موعدها ينفذ الكهنة أو الدرويد تقديم الأضاحي فيرمون بعضها بالسهام ويخوزقون بعضها الآخر، ويَحرقون بعض الأضاحي وهي حيّة بالطريقة التالية. يبنون تماثيل ضخمة من شبكة من الأملود او الخشب والأعشاب، ويضعون ضمنها رجالاً وماشية وحيوانات أخرى وكلها على قيد الحياة، ثم يضرمون فيها النار.

هكذا كانت تقام الاحتفالات الكبيرة كل خمس سنوات. لكن بالإضافة إلى هذه الاحتفالات الخمسية على مدى واسع، وزهق الكثير من الأرواح البشرية، لنا أن نتوقع قيام احتفالات مماثلة من النوع نفسه على مجال أضيق كل سنة، ومن هذه الاحتفالات السنوية انحدرت الاحتفالات النارية التي مازالت تقام في أنحاء كثيرة من أوروبا. ويذكرنا منظر التماثيل الضخمة المصنوعة من صفصاف السلالين والمغطاة بالأعشاب والتي يضع فيها الدرويد ضحاياهم، تذكرنا بالهيكل المورق الذي يكسو ممثلي روح الشجرة البشريين. وبما أنهم يؤمنون بارتباط خصوبة الأرض بأداء هذه الأضاحي، يرى مانهاردت في الضحايا السلتية المغلفة بالصفصاف والأعشاب، ممثلاً لروح الشجرة أو لروح الخضرة.

ظل لتماثيل درويد الأملودية العملاقة ممثلين حتى وقت قريب، وربما حتى الآن، في احتفالات الربيع ومنتصف الصيف الأوربية. في دوواي، وحتى أوائل القرن التاسع عشر على الأقل، كانوا يقيمون موكباً سنوياً في أقرب يوم أحد إلى السابع من حزيران. ويتميز هذا الموكب بتمثال ضخم يبلغ طوله عشرين إلى ثلاثين قدماً، ومصنوع من الصفصاف ويسمونه **العملاق**، ينقلونه في الشوارع على عربات وحبال من صنع من يوضع ضمن التمثال. ويسلحون التمثال برمح وسيف وخوذة ودرع وكأنه

فارس. وتمشي خلفه زوجته وثلاثة من أطفاله، وكلهم مصنوعون من الصفصاف وعلى الشاكلة نفسها، لكن على شكل مصغر. وفي دانكيرك يقيمون موكب العمالقة في عيد منتصف الصيف، الرابع والعشرين من حزيران. وجذب الإحتفال الذي يسمونه حمقى دانكيرك جماهير غفيرة من المشاهدين. وكان العملاق عبارة عن تمثال ضخم من الأملود بارتفاع خمسة وأربعين قدماً، مكسواً برداء أزرق طويل مع أشرطة ذهبية تصل حتى قدميه لتخفي أكثر من اثني عشر رجلاً كانوا يرقّصونه ويهزون رأسه للمتفرجين. وكان هذا التمثال الضخم يحمل اسم بابا رويس، ويحمل في جيبه طفلاً وثّاباً بأبعاد برويكينفانغ الخرافي. وكانت تمشي ابنة العملاق وراء أبيها، وهي مثله من الأملود لكن بحجم أصغر. أُقيمت تلك العمالقة في معظم القرى والمدن في برابانت وفلاندرز وكانوا يجولون بها ليفرحوا الناس الذين أحبوا هذه الأشكال الجميلة وتكلموا عنها بحماس وطني ولم يملُّوا النظر إليها. وفي انتويرب كان العملاق كبيراً لا يدخل من بوابة المدينة؛ لذا لم يكن قادراً على زيارة أنداده العمالقة في المدن المجاورة كما يفعل العمالقة البلجيكيين في تلك المناسبات المقدسة.

وفي إنكلترا بقيت صفات العمالقة الاصطناعيين في احتفال منتصف الصيف. وهذا كاتب من القرن السادس عشر يحكي عن مهرجان منتصف الصيف في لندن، حيث كانت عمالقة بشعة تمشي في الطرقات لإفراح الناس وهي مسلحة بكافة أنواع الأسلحة ومحشوة بنسالة الكتان والتي يسترق الأطفال الأذكياء النظر فيها فيرونها ويسخرون منها أشد سخرية. وفي تشيستر يحتوي مهرجان منتصف الصيف على أربعة مجسمات ضخمة وقد وضعت فيها الحيوانات ودمى الأحصنة وأشكال أخرى. وفي كوفنتري كانت زوجة العملاق تقف بجانبه. وفي بورفورد في أوكسفوردشاير، كانوا يحتفلون بعيد منتصف الصيف بفرح كبير وهم يحملون عملاقاً وتنيناً جيئة وذهاباً في المدينة. وآخرهذه العمالقة الجوالة كان في ساليبوري، وقد شاهده القدامى وهو يندثر ويُهمَل عام 1844. كان جسم العملاق عبارة عن لوح خشبٍ وطارةٍ، مثل التي كان يلبسها جاك الأخضر في عيد أيار.

ما يميز العمالقة في هذه الحالات هو أنها تسير في موكب، وأحياناً تُحرق في نيران منتصف الصيف. كذلك اعتاد أهالي روأور في باريس على صنع مجسم

أملودي كبير يلبسونه لباس جندي ويجولون به جيئة وذهاباً عدة أيام، ثم يحرقونه بقدسية في الثالث من تموز وسط الحشود التي تغني سالف ريجينا. وهو الشخص الذي يحمل لقب الملك والذي يرأس الطقس والمشعل المستعر في يده. وكانوا يبعثرون قطع المجسم المحترقة بين الناس الذين يتدافعون للحصول عليها. وقد ألغيت العادة عام 1743. وفي بير أيديفرانس، كانوا يحرقون سنوياً عملاقاً ضخماً من الأملود يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر قدماً سنوياً عشية منتصف الصيف.

وهناك مايماثل العادة الدرويدية التي يحرقون فيها الحيوانات المحبوسة في قفص أملودي، هناك مايماثلها في احتفالات الربيع ومنتصف الصيف في لوكن في باريني، إذ ينصبون عموداً مجوفاً من الأملود القوي عشية منتصف الصيف. يرتفع العمود حتى ستين قدماً في مركز أكبر قرية في الضاحية، تتداخل فيه الأوراق حتى أعلاه؛ في حين تشكل أجمل الورود أرضية للمشهد ككل. ثم يملؤون العمود بكل المواد المحترقة. وفي ساعة معينة – حوالي الثامنة مساءً – يأتي موكب كبير من رجال الدين يتبعهم الشبان والرجال والسيدات بلباس العيد يتدفقون من المدينة وهم يغنون التراتيم ويأخذون مكانهم حول العمود. وفي الوقت نفسه تضرم المشاعل الجميلة على قمم الجبال المحيطة. ويلقون أكبر عدد ممكن من الأفاعي الملتقطة ضمن تجويف العمود الذي تضرم به النار بواسطة المشاعل التي يحملها خمسون فتىً ورجل ويرقصون بتعابير هائجة حوله. تتلوى الأفاعي نحو الأعلى هاربة من النار، حتى تبلغ أعلى العمود ثم تسقط محاولة النجاة بحياتها وسط هياج المتفرجين المتحمسين. هذا أفضل طقس سنوي بالنسبة لسكان لاتشون والمناطق المجاورة، وتعزى هذه العادة المحلية إلى أصل وثني. وفي نيران منتصف الصيف التي كانت تضرم سابقاً في محلة غريف في باريس، جرت العادة أن يحرقوا سلة وبرميلاً أو كيساً مملوءاً بقطط حية كانت تُعلق على صارية طويلة وسط المشعلة؛ وأحياناً كانوا يحرقون ثعلباً. وكان الناس يجمعون الجمر والرماد ويأخذونها إلى منازلهم معتقدين أنها تجلب الحظ الجيد. وغالباً ما كان ملوك فرنسا يشهدون هذه المناظر بل يشعلون المشعلة بأيديهم. وفي 1648 أتى لويس الرابع عشر يلبس تاجاً من الورود، ويحمل باقة من الزهور في يده، وأشعل النار ورقص عندها، وبعد ذلك اشترك في الوليمة المقامة في مجلس المدينة. كانت هذه آخر مشعلة منتصف صيف يرأسها ملك في باريس. وفي

ميتز كانت تضرم نيران منتصف الصيف بأبهة كبيرة في مكان مستوٍ، وكانوا يحرقون فيها عشرات القطط المحبوسة في أقفاص أملودية لإمتاع الناس. كذلك في غاب، في أعالي الألب، كانت تُشوى القطط على مشاعل منتصف الصيف. وفي روسيا كانوا أحياناً يحرقون ديكاً في مشعلة منتصف الصيف؛ وفي ميسين أو ثورونجيا كانوا يُلقون رأس حصان فيها. كما كانوا يشعلون أحياناً حيوانات في مشاعل الربيع. وفي فوسيجز كانت تحرق القطط يوم ثلاثاء المرافع؛ وفي الألزاس كانت تُرمى في مشاعل عيد الفصح. وفي منطقة أردينيز كانوا يُلقون القطط في المشاعل المضرمة في الأحد الأول من الصيام الكبير؛ وأحياناً، وإمعاناً بالعنف، كانوا يعلقونها فوق النار من أعلى العمود ويشوونها حيةً، فالقطة التي تمثل الشر تستحق دائماً المزيد من المعاناة. وفي أثناء موت تلك الكائنات وسط اللهيب، كان يطوق الرعاة قطعانهم ويجبرونها على القفز فوق النار، معتقدين أنها الوسيلة الناجعة في الحفاظ عليها من المرض والسحر. ورأينا أيضاً كيف تُحرق السناجيب في نار عيد الفصح.

ويمكن تتبع شعائر السلتيين في غاول في الاحتفالات الشعبية في أوروبا المعاصرة. وطبعاً لها بقاياها في فرنسا أو بالأحرى المنطقة التي تشملها غاول قديماً، وهي آثار واضحة مثل عادات حرق العمالقة الأملودية والحيوانات المحبوسة في شِبَاك الأملود والسلل. وكل هذه العادات تقام في منتصف الصيف أو في موعد قريب منه. من هذا كله يمكننا أن نستدل على أن الشعائر الأصلية التي أتت منها الشعائر الحالية المنقوصة كانت تقام بقدسية. ويتناسب هذا الاستنتاج مع ما توصلنا إليه من التحقيق العام حول العادات الشعبية الأوربية، وهي أن احتفال منتصف الصيف كان الأوسع انتشاراً والأكثر قدسية من كل الاحتفالات السنوية التي أقامها الإريانيون البدائيون في أوروبا. وفي الوقت ذاته علينا أن نضع باعتبارنا أنه عند السلتيين الأوربيين كان احتفال النار الرئيس هو بلتين (عيد أيار) والهالوين (آخر أيام تشرين الأول)؛ وهذا ما يجعلنا نرتاب في ألا يكون السلتيون في غاول قد احتفلوا بشعائر النار الرئيسة، بما فيها حرق الأضاحي البشرية والحيوانية، في بداية أيار أو بداية تشرين الثاني أكثر منه في منتصف الصيف.

علينا أن نسأل أيضاً ما معنى هذه الأضاحي؟ ولماذا كان يُحرق الرجال والحيوانات في هذه النيران حتى الموت؟ إذا كنا مصيبين في تفسير احتفالات النار الأوربية المعاصرة كمحاولات لتقويض قوة السحر عن طريق حرق أو منع الساحرات والمشعوذين، يبدو أنه علينا أن نفسر الضحايا البشرية عند السلتيين بالطريقة ذاتها؛ أي علينا أن نفترض أن الرجال الذين حرقهم الدرويد في تماثيل الأملود كانوا قد حُكِم عليهم بالموت بتهمة السحر والشعوذة، وتم اختيار الإعدام بالنار وهم أحياء كطريقة للتخلص من هذه الكائنات المؤذية والخطيرة. وينطبق التفسير نفسه على الماشية والحيوانات البرية المختلفة التي حرقها السلتيون مع الرجال. وربما كانوا يعتبرونها إما واقعة تحت السحر أو أنها سحرة ومشعوذون نقلوا أنفسهم إلى الحيوانات بقصد مواصلة المكائد ضد مصلحة أندادهم من الكائنات. هذا التوقع الذي يتأكد بملاحظة الضحايا التي تُحرق بالمشاعل المعاصرة وهي القطط، سيما أن القطط، باستثناء الأرانب الوحشية، هي الحيوانات التي تنتقل إليها الساحرات، ويمكن استثناء الأرانب الوحشية من هذه الفئة من الحيوانات. كذلك رأينا كيف حُرقت الأفاعي والثعالب في مشاعل منتصف الصيف؛ وقيل إن الساحرات الويلزية والألمانية تأخذ شكل الثعالب والأفاعي. باختصار، عندما نأخذ بالاعتبار أنواع الحيوانات الكثيرة التي تتمتع الساحرات بالتلبس فيها، يسهل علينا تبرير تنوع الحيوانات المحروقة في احتفالات غاول القديمة وأوروبا الحديثة؛ ونظن أن هذه الضحايا كلها هلكت باللهيب، ليس لأنها حيوانات بل لأن الساحرات اتخذتها شكلاً حيوانياً لأغراض شنيعة. إحدى فوائد تفسير الضحايا السلتية بالطريقة هذه أنها تؤمن الانسجام والاتساق في المعاملة التي يبديها الأوربيون للساحرات من قديم الزمان وحتى قرنين غابرين، عندما وضع تيار الفكر العقلاني المتنامي حداً للسحر ومنع عادات حرق الساحرات. الآن نستطيع أن نفهم لماذا اعتقد الدرويد أنه كلما ازداد عدد الأشخاص المحكومين بالموت، كلما ازدادت خصوبة الأرض. بالنسبة للقارئ المعاصر وفي الوهلة الأولى لا تتبين له العلاقة بين عمل الشانق وإثمارية الأرض. لكن بعد القليل من التأمل يقتنع أنه عندما يكون المجرمون الذين يهلكون على الخازوق أو على المشانق هم سحرة، يفرحون بالآفة التي تصيب المحاصيل أو يسعدون عندما يضعونها عرضة للوابل، هنا يصبح إعدام هؤلاء الحقيرين ضرورة

للحفاظ على الحصاد الوفير بعد إزالة الأسباب الرئيسة التي تشل جهود المزارعين وتخيب آمالهم.

لقد فسر مانهاردت هذه الضحايا الدرويدية بطريقة أخرى، فاعتبر الرجال الذين يُحرقون في تماثيل الأملود يمثلون أرواح الخضرة، وبالتالي تأتي عادة حرقهم طقساً سحرياً يقصد منه ضمان أشعة الشمس الضرورية للمحاصيل. كذلك يميل إلى الاعتقاد أن الحيوانات التي كانت تُحرق في المشاعل تمثل روح الحنطة التي تأخذ شكلاً حيوانياً. لاشك في أن هذه النظرية جديرة بالدفاع ومايعطيها أهميةً إضافية هي خبرة وهيمنة مانهاردت. وقد تبنيناها في الطبعات السابقة من هذا الكتاب؛ لكن تحتفظ نظرية هلاك الرجال والحيوانات على أنها سحرة تحتفظ بأهميتها. ومايدعم هذه النظرة الأخيرة شهادة الناس الذين شاركوا باحتفالات النيران، فالاسم الشائع لهذه العادة هو حرق الساحرات، وأحياناً يحرقون مجسماتهن في اللهيب، والنيران، في حين يخدم جمرهن ورمادهن في الحماية من السحر. من ناحية أخرى ليس هناك مايثبت أن الناس يعتبرون المجسمات أوالحيوانات المحروقة في النيران ممثلة عن روح الخضرة، أو أن المشاعل هي سحر شمسي. أما بالنسبة للأفاعي التي كانت تُحرق في نار منتصف الصيف في لاتشون، فلا أرى فيها ما يدل على أنها اعتبرت تجسيداً لروح الشجرة أو روح الحنطة في أوروبا، رغم أن الفكرة كانت مجهولة في أنحاء أخرى من العالم. إذا الإيمان بتحول الساحرات إلى شكل حيوانات عميق الجذور لدى العامة، يصبح الخوف من هذه الكائنات الخارقة قوياً إلى درجة أنهم يتخذون الجانب الأكثر أمناً وهو حرق القطط والحيوانات الأخرى في النار كتجسيد للساحرات أكثر من موتهن على أنهن ممثلات لروح الخضرة.

الفصل الخامس والستون
بالدر والهَدال

يمكن للقارئ أن يتذكر أن التقرير السابق عن احتفالات النار الشعبية في أوروبا أنها من وحي الإله النرويجي بالدر، الذي يقال أنه قُتل بنبات الهدال وحُرق في نار كبيرة. علينا الآن أن نتساءل إلى أي مدى تلقي هذه العادات التي بحثناها الضوء على هذه الأسطورة. ولنبدأ بالهَدَال، أداة قتل بالدر.

منذ زمان سحيق ظل الهدال موضوع تبجيل خرافي في أوروبا. وكان يعبده الدرويد، حسب نص الكاتب بليني المشهور. وبعد تعداد أنواع الهدال المختلفة، يتابع القول:(في بحث هذه القضية علينا ألا نغفل المحبة التي يكنها أهل الغاول للهدال. الدرويد، هكذا يسمون سحرتهم، لايرون أقدس من الهدال والشجرة التي ينمو عليها الهدال، شريطة أن تكون الشجرة هي السنديان. لكن بعيداً عن هذا يختارون خشب السنديان لأيكهم المقدس ولا يؤدون أي شعيرة مقدسة دون أوراق السنديان؛ لذا يمكن اعتبار اسم درويد مشتقاً من التسمية الإغريقية لعبادتهم للسنديان. فهم يعتقدون أن كل ما سينمو على هذه الشجرة هو مُرسَل من السماء، وهو علامة تدل على أن الإله قد اختاره بنفسه. نادراً ما يصادفون الهدال؛ لكن عندما يعثرون عليه، يجمعونه ضمن طقس قدسي في اليوم السادس من الشهر القمري، اليوم الذي يبدؤون به تأريخ شهورهم، وسنيهم ودورة الثلاثين سنة، لأنه في اليوم السادس يكون القمر في أوج نشاطه ولم يقض نصف دورته. وبعد التحضيرات المطلوبة للتضحية والاحتفال تحت الشجرة، يهتفون لها ويرحبون بها على أنها الشافي العام ويجلبون إلى المكان ثورين أبيضين لم يربط قرناهما من قبل. يتسلق كاهن مرتدٍ ثوباً أبيض الشجرة ويقطع الهدال بمنجل ذهبي، ويجمعونه في قماش أبيض. ثم يقدمون الضحايا، ويصلون لله أن يباركهم من عنده. يعتقدون أن جرعة من الدواء

المُعَدّ من الهدال يجعل الحيوانات العاقرة تنجب، كما أن الهدال دواء ضد كل السموم.)

في نصٍ آخر لبليني يخبرنا أنهم يعتبرون دواء الهدال الذي ينمو على شجرة السنديان هو الأكثر فعالية، ويعتبر بعض الخرافيين أثره أقوى من النباتات التي تُجمع في الأول من الشهر دون استخدام الحديد؛ خصوصاً عندما لا تلمس هذه النباتات الأرض عند جمعها؛ فالهدال المجموع بهذه الطريقة يعتبر علاجاً للصرع المزمن؛ ويساعد النساء اللواتي تحمله على الولادة، وهو علاج ناجع للقرحة إذا ما مضغ المريض قطعة منه ووضع قطعة أخرى مكان الألم. ويقول أيضاً أن الهدال، مثل الخل والبيض، وسيلة ممتازة لإطفاء النار.

إذا كان ما أشار إليه بليني في النصوص السابقة هي المعتقدات السائدة بين أبناء عصره في إيطاليا، فإن الدرويد والإيطاليين متفقون إلى حد معين على الخواص التي يتمتع بها الهدال الذي ينمو على السنديان؛ فكلاهما يعتبره علاجاً فعالاً لعدد من الأمراض، وكلاهما يعزو له البركة التسريعية، فيعتقد الدرويد أن جرعة منه كافية لتخصيب الماشية العاقرة، ويعتبر الإيطاليون أن مجرد حمل المرأة لقطعة منه يساعدها على وضع طفلها. واعتقد الشعبان أنه للحصول على ميزاته الطبية، لابد من جمعه بطريقة معينة وفي وقت معين. لايجوز قطعه بأداة حديدية، لهذا السبب يقطعه الدرويد بأداة ذهبية؛ ويجب ألا يلمس الأرض، لذلك يحمله الدرويد بالقماش. وفي اختيارهم لتوقيت جمعه، يصر الشعبان على مشاهدة القمر؛ ويختلفان بتحديد اليوم، فيفضل الطليان الأولَ منه والدرويد اليوم السادسَ.

يمكن مقارنة هذه المعتقدات الغاولية القديمة بشأن خواص الهدال الطبية العجيبة، يمكن مقارنتها مع معتقدات الآينو في اليابان. قرأنا عنهم (أنهم مثل سائر الأمم ذات الأصل الشمالي، يتناولون الهدال بإجلال خاص. وينظرون إليه على أنه دواء، يصلح لكل داء تقريباً، بعضهم يتناولونه مع الطعام وآخرون يشربون مغليه بشكل منفصل. ويفضلون أوراقه على توته، لأن الأخير فيه ميزة اللزوجة القوية التي يحتاجونها لأغراض عامة... ويفترض الكثيرون أن لهذه النبتة قدرة على جعل البساتين تثمر أكثر. وعند استخدام تلك النبتة لهذا السبب، يفرمون الأوراق إلى قطع صغيرة ويصلون عليها ثم يبدرونها مع الدخن أو البذور الأخرى، ويأكلون

بعضها مع الطعام. ومن المعروف أيضاً أن النساء العاقرات يأكلن من الهدال كي يحملن. ويفترضون أن للهدال الذي ينمو على الصفصاف أعظم الأثر لأنهم يعتبرون الصفصاف شجرة لها قدسية خاصة.

لذا يوافق الآينو الدرويد في اعتبارهم الهدال علاجاً لكل الأمراض تقريباً، ويتفقون مع الطليان القدامى أنه يساعد النساء على الوضع. كذلك اعتقد الدرويد أن الهدال شافٍ شامل أو دواء لكل داء إذا ما قورن برأي الوالو في سينيغامبيا. يجل هذا الشعبُ نوعاً من الهدال يسمونه توب؛ ويضعون أوراقاً منه على أنفسهم عندما يذهبون إلى الحرب ليحميهم من الجروح، وكأن هذه الأوراق تعاويذ حقيقية. ويضيف الكاتب الفرنسي الذي يكتب عن هذه الممارسة قائلاً :(أليس طريفاً أن يكون الهدال في هذه المنطقة من إفريقيا كما كان في خرافات الغاول؟ ربما يعود التحيز لهذا النبات الذي يشمل البلدين إلى الأصل نفسه؛ فالسود والبيض رأوا كل على حدة، شيئاً خارقاً في تلك النبتة التي تنمو وتزدهر دون جذور ضاربة في الأرض. ألا يمكن أن يعتقدوا أنها نبتة نزلت من السماء هدية من الإله؟

ما يؤكد هذا الاقتراح عن أصل الخرافة هواعتقاد الدرويد، على حد قول بليني، أن كل ماينمو على شجرة السنديان قد أُرسل من السماء لأنها شجرة اختارها الإله بنفسه. يفسر هذا الاعتقاد سبب قطع الدرويد للهدال، ليس بسكين عادية بل بمحش ذهبي، وسبب بذلهم كل الجهد كيلا يلمس الهدال الأرض؛ وربما اعتقدوا أن هذا النبات السماوي يُدنس عندما يلمس الأرض فيفقد بركته العجيبة. يمكن مقارنة شعيرة الدرويد في قطع الهدال، مع الشعيرة المتبعة عند الكمبوديين في الحالة الموصوفة نفسها. يقولون إنه عندما ترى نبات السحلب ينمو بطريقة طفيلية على شجرة التمرهندي، عليك أن ترتدي رداءً أبيض وتأخذ آنية خزفية جديدةً، وتتسلق الشجرة عند الظهيرة وتقطف النبات وتضعه في الوعاء وتترك الوعاء يقع على الأرض. بعد ذلك تصنع مغلياً في الوعاء ليمنح نعمة المناعة. تماماً كما في إفريقيا، يصنعون في كمبوديا مغلياً من نبات طفيلي ليحققوا الفائدة نفسها إما بالشرب أو الغسل. في كلا المنطقتين نتوقع أن تكون فكرة المناعة قد أتت من الموقع الآمن الذي يحتله النبات فوق الأرض، ومن يمتلكه يساعده الحظ بامتلاك السلامة من الأمراض التي تصيب الإنسان على الأرض. وقد سقنا سابقاً أمثلة من المخزون

الكبير الذي أنشأه العقل البدائي بناءً على الأساس نفسه من بعض الأشياء على غيرها. مهما كان أصل هذه المعتقدات والممارسات المتعلقة بالهدال، من المؤكد أن لبعضها ما يماثلها في العادات الفلاحية الأوربية المعاصرة. هناك قاعدة متبعة في أنحاء عديدة من أوروبا وهي أن الهدال لايجوز أن يُقطع بالطريقة المعتادة بل يجب ضربه أو إسقاطة بحجر من الشجرة التي ينمو عليها. في مقاطعة أرغاو في سويسرا، (يعتبر كل أهالي الريف جميع الطفيليات مقدسة، وعلى الأخص الهدال الذي ينمو على السنديان. ويعزون قوى عظيمة له لكنهم يتخوفون من قطعه بالطريقة المعتادة. بدلاً من ذلك يتبعون الطريقة التالية. عندما تكون الشمس في برجها التاسع والقمر مضمحلاً، أي في اليوم الأول أو الثاني أو الثالث أوالرابع من الشهرالقمري الجديد، على المرء أن يطلق سهماً على هدال السنديان وأن يلتقطه في اليد اليسرى وهو يسقط. هذا الهدال هو علاج لكل مرض يصيب الأطفال.) هنا بين الفلاحين السويديين، كما عند الدرويد قديماً، تعزى فضيلة خاصة للهدال الذي ينمو على السنديان: لايجوز أن يُقطع بالطريقة المعتادة: ويجب أن يُلتقط قبل أن يسقط على الأرض؛ ويعتبر شفاءً من كل داء، وخصوصاً أمراض الأطفال. كما سادت خرافة في السويد أن الهدال يفقد فضيلته مالم يُرمَ وهو على السنديان أو يُسقط بضرب الحجارة. كذلك اعتقد الناس في ويلز وحتى أوائل القرن التاسع عشر، أن قوة الهدال لا تكون إلا بالإطلاق عليه أو ضربه بالحجارة في المكان الذي ينمو فيه.

بما يتعلق بفضائل الهدال الشفائية يوافق الفلاحون المعاصرون وحتى المتعلمون إلى حد معين رأي القدامى. يبدو أن الدرويد يسمون النبتة وربما الشجرة التي تنمو عليها **الشافي الشامل**؛ وما زالت تسمية الشافي الشامل تطلق على الهدال في اللغة السلتية المعاصرة في بريتاني، ويلز، أيرلندة وأسكتلندة. في صباح عيد القديس يوحنا (صباح منتصف الصيف)يخرج فلاحو بيدومونت ولومباردي للبحث عن أوراق السنديان ليصنعوا زيت القديس يوحنا الذي يفترض أنه يشفي الجروح الناتجة عن أدوات حادة. ربما كان زيت القديس يوحنا بالأصل هو ببساطة الهدال، أو المغلي المصنوع منه. ففي هولستين ما زال الهداب، وخاصة هداب السنديان، يعتبر شافياً كلياً للجروح الساخنة، وسحراً أكيداً لضمان نجاح الصيد؛ وفي لاكاون، جنوب فرنسا، ساد اعتقاد قديم عند الدرويد أن الهدال ترياق ضد كل السموم التي

مازالت سائدة عند الفلاحين؛ ويستخدمون النبتة لمريض المعدة أو يعطونه مغليها ليشربه. كذلك هناك اعتقاد قديم يقول أن الهدال كدواء للصرع استمر حتى وقتنا الحاضر ليس في أوساط الجهلة بل عند المثقفين أيضاً. في السويد يعتقدون أن المصاب بمرض السقوط (الصرع) يمكنه أن يتفادى نوبات المرض إذا ما حمل سكيناً مقبضها من هدال السنديان؛ وفي ألمانيا ولسبب مشابه يعلقون حول رقبة الأطفال قطعاً من الهدال. وفي المقاطعة الفرنسية بوربوني، الدواء الشائع لمرض الصرع هو مغلي الهدال الذي جُمع وهو على السنديان في عيد القديس يوحنا ومغلي مع طحين الجاودار. لذلك في بوتسفورد في لنكشاير يستخدم مغلي الهدال كمخفف لهذا المرض الخطير. في الحقيقة كانوا ينصحون بالهدال كعلاج للصرع على أعلى المستويات الطبية في إنكلترا وهولندة وحتى القرن الثامن عشر.

لكن شهد رأي المهنة الطبي حول علاج الهداب تغييراً جوهرياً. في حين اعتقد الدرويد أن الهدال دواء لكل شيء، يرى الأطباء المعاصرون أنه لا يشفي من شيء. وإذا كانوا محقين في ذلك، نصل إلى النتيجة أن الإيمان القديم الواسع الانتشار حول فضيلة الهداب الطبية هو خرافة خالصة اعتمدت على مجرد خيالهم الذي يدل على جهلهم والذي حدتهم إليه الطبيعة الطفيلية للنبات، وموقعه على أغصان الشجر وكأنه يحمي من الأخطار التي تتعرض لها الحيوانات والنباتات على الأرض. من هذا المنطلق نستطيع أن نفهم لماذا وُصف الهدال بشكل متواصل كعلاج لمرض السقوط. بما أن الهدال لايمكن أن يسقط إلى الأرض، هذا يعني أن مرضى الصرع من الممكن ألا يسقطوا في أثناء النوبة ماداموا يحملون قطعة من الهدال في جيبهم أو مغليه في معدتهم. هذا التسلسل المنطقي ربما مازال حتى الآن مفحماً برأي الكثير من الأعراق البشرية.

كذلك يشارك الطليان القدامى الرأي بشأن قدرة الهدال على إطفاء النار يشاركون فلاحي السويد الذين يعلقون باقات هدال السنديان على أسقف غرفهم حماية من الضُّر بشكل عام ومن الحريق بشكل خاص. هناك إشارة إلى خاصية الهدال هذه وهي نعت الناس له في مقاطعة أرغاو في سويسرا بـ **مقشة العواصف**. ومقشة العواصف هذه عبارة عن حزمة أغصان خشنة كثيفة شعثاء اعتُقد أنها تأتي من ومضة برق؛ لذلك في بوهيميا يحرقون مقشة العواصف ليحموا المنزل من أن

يُصاب بالصاعقة. وكونها مصنوعة من البرق يمكنها حسب مبدأ التعاطف أن تحمي من البرق، في الحقيقة كنوع من أنواع نواقل البرق. من هنا نرى أن النار التي يراد من الهدال منعها عن المنازل يجب أن تُشعل بالبرق؛ رغم أنهم لايشكُّون في أن النبات فعال ضد الحريق بشكل عام.

كذلك يقوم الهدال بدور المفتاح العام وناقل للبرق؛ فهو يفتح جميع الأقفال. لكن أعظم فضائله أنه يؤمِّن حماية قوية من السحر. ولاشك في أن هذا هو السبب الذي يجعل النمساويين يضعون غصناً منه في سُدَّة المنزل لحمايته من الكوابيس؛ وربما كان هذا سبب ما يقولونه في شمالي بريطانيا أنه إذا أردت لألبانك أن تستمر طويلاً فعليك أن تعطي غصناً من الهدال لأول بقرة تنجب عجولاً بعد عيد رأس السنة الجديدة، فالشائع بينهم أنه ما من شيء أخطر على الحليب والزبدة من السحر. كذلك في ويلز، ولضمان الحظ الجيد للألبان، اعتاد الناس أن يعطوا غصن هدال لأول بقرة تنجب عجلاً بعد الساعة الأولى من السنة الجديدة؛ وفي المناطق النائية من ويلز، حيث يكثر الهدال ترى غماراً منه في منازل المزارع. وعندما يندر الهدال، كان أهالي ويلز يقولون، (لا هدال، لا حظ)؛ ويتوقعون محصولاً جيداً من الحنطة عندما يكثر الهدال. وفي السويد يبحثون عن الهدال بكدٍّ بعد عشية عيد القديس يوحنا لاعتقادهم أنه (يمتلك درجة عالية من الخواص الغامضة؛ وأنه إذا ما علق غصنٌ منه في سقف المسكن، أو حظيرة الخيل، أو معلف الأبقار، يعجز الترول عن إنزال الأذى بالإنسان والحيوان.)

لقد اختلفت الآراء حول زمن جمع الهدال. فالدرويد جمعوه بادئ الأمر في السادس من الشهر القمري، أما الطليان ففي الأول منه. وفي العصور الحديثة يفضل بعضهم ليلة البدر من شهر آذار، وآخرون القمر الغائب في الشتاء عندما تكون الشمس في برجها التاسع. لكن الوقت المفضل هو عشية منتصف الصيف أو عيد منتصف الصيف. رأينا أنه في فرنسا والسويد تعزى فضائل خاصة للهدال المجموع في منتصف الصيف. وكانت القاعدة في السويد (أن يجمع ليلة عشية منتصف الصيف عندما تكون الشمس والقمر في برج قوتهما.) كذلك يعتقدون في ويلز أن غصناً من الهدال يُجمع عشية القديس يوحنا (منتصف الصيف)، أو في أي وقت قبل ظهور التوت، يقلل من أحلام التنبؤ، جيدة كانت أم سيئة، إذا ما وضع تحت وسادة النوم.

إذن الهدال هو أحد النباتات الكثيرة التي يعتقد أن فضائلها الطبية تتعاظم مع تعاظم الشمس في أطول يوم من السنة. لذا يبدو توقعنا منطقياً إذا ما قلنا إنه في نظر الدرويد الذين يبجلون النبتة كثيراً يكتسب الهدال المقدس قسطاً مضاعفاً من القوى الغامضة في الانقلاب الحاصل في حزيران، وبالتالي يمكن أن يُقطع بانتظام ضمن طقس مقدس عشية منتصف الصيف.

مع أن الهدال هو الأداة التي قُتل بها بالدر، من المؤكد أنهم يجمعونه لأجل مزاياه الغامضة عشية منتصف الصيف في البلاد الإسكندنافية، وهي موطن بالدر. تنمو هذه النبتة على أشجار الإجاص والسنديان والأشجار ذات الرطوبة العالية في جميع المناطق السويدية الأكثر اعتدالاً. لذلك يولَدُ أحد الحدثين الرئيسين من أسطورة بالدر في احتفال منتصف الصيف الكبير في اسكندنافية. لكن الحدث الآخر وهو حرق جسم بالدر في محرقة، له مثيله في المشاعل التي مازالت تستعر أو استمرت في الاستعار حتى وقت قريب في الدانمارك والنرويج والسويد عشية منتصف الصيف. في الحقيقة لم نتبين أن مجسماً يُحرق في هذه المشاعل؛ لكن حرق المجسم هو الجزء الذي يمكن أن يكون قد حُذف بعد نسيان معناه. أما التسمية التي أطلقت سابقاً على نار الابتهاج في السويد تجعل علاقتها ببالدر بعيدة عن أي شك، وتقرِّب إمكانية حرق ممثلٍ حيٍ لبالدر أو مجسمٍ له في تلك النيران سنوياً. منتصف الصيف هو موسم بالدر المقدس، والشاعر السويدي **تيغنر**، عندما وضع حرق بالدر في منتصف الصيف، إنما اتبع على الأرجح تقليداً قديماً يعتبر الانقلاب الصيفي هو الزمن الذي واجه فيه الإله الخيِّر حتفه.

بهذا نكون قد أثبتنا أن لحوادث أسطورة بالدر الرئيسة ما يماثلها في احتفالات النار عند الفلاحين الأوربيين التي تعود بلا شك إلى وقت طويل قبل قدوم المسيحية. والتظاهر برمي الضحية في نار بلتين، والمعاملة المشابهة لذلك الرجل، ومستقبل الذئب الأخضر في محرقة منتصف الصيف في نورماندي، يمكن تفسيرها على أنها آثار باقية عن عادة قديمة كانوا فعلاً يحرقون فيها الكائنات البشرية في هذه المناسبات؛ ورداء **الذئب الأخضر** الأخضر، بالإضافة لغلاف الشاب الذي يطفيء نار منتصف الصيف بقدميه في موشيم، كل هذا يدل أن الأشخاص الذين قضوا في هذه الاحتفالات إنما فعلوا ذلك بشخص أرواح الشجرة أو آلهة الخضرة. من كل هذا

يمكننا أن نستقرئ أنه في أسطورة بالدر من الناحية الأولى، واحتفالات النار وعادة جمع الهدال من الناحية الثانية، لدينا نصفان مكسوران عن أصل واحد. بكلمات أخرى، لنا أن نتوقع وبدرجة لا بأس بها من الاحتمالية، أن أسطورة موت بالدر لم تكن مجرد أسطورة، أي مجرد وصف ظواهر فيزيائية مأخوذة من الحياة البشرية، لكنها في الوقت نفسه قصة تُروى لتبرر حرق ممثل الإله سنوياً، وقطع الهدال ضمن طقس مقدس. وإذا كنت محقاً، شكلت قصة نهاية بالدر المأساوية نصاً لدراما مقدسة ظلت تُمثل سنة بعد سنة كشعيرة سحرية تجعل الشمس تسطع، والأشجار تنمو والمحاصيل تزدهر، وتحرس الإنسان والدواب من الفنون المؤذية التي يمارسها الجان والعفاريت والساحرات والمشعوذون. بالمختصر، تنتمي القصة إلى فئة الأساطير الطبيعية التي يُقصد منها إكمال الشعيرة؛ وهنا، كالمعتاد، تأخذ الأسطورة موقعها من السحر تماماً كما تأخذ النظرية موقعها من الممارسة.

لكن أذا كانت، الضحايا أي بالدر البشريين، قد ماتوا في الربيع أو منتصف الصيف، وهم يجسدون أرواح الشجرة أو آلهة الخضرة، يبدو أن بالدر نفسه كان روح شجرة إو إله خضرة. هنا تتولد لدينا رغبة في تحديد نوع الشجرة أو الأشجار التي حُرق ممثلها الشخصي في احتفالات النار. ويمكننا الوثوق أنه لم تكن الضحية ممثلاً للخضرة بشكل عام عندما واجهت الموت لأن فكرة تجريد الخضرة صعبة على البدائي. من المحتمل جداً أن تكون الضحية في بادئ الأمر تمثل نوعاً معيناً من الأشجار المقدسة. لكن من بين الأشجار الأوربية كلها، ما من شجرة أبرز من السنديان كشجرة مقدسة عند الإريان. ورأينا أن عبادتها مشهودة لدى الفروع الإريانية في أوروبا؛ من هنا نستنتج أن جذع الشجرة العرق الإرياني كان يُبَجِّل السنديان قبل التفرع، وأن موطنهم البدائي كان مغطىً بغابات السنديان.

عند التأمل بالشخصية البدائية والتشابه الكبير بين احتفالات النار المقامة لدى جميع الفروع الإريانية في أوروبا، يمكننا أن نتوقع أنها جزء من طقوس الجذع الدينية التي حملتها الشعوب معها عندما انتشرت تاركة موطنها القديم. لكن، إن كنت محقاً، تحمل هذه الاحتفالات النارية سمة رئيسة وهي حرق رجل يمثل روح الشجرة. وإذا ما نظرنا إلى المكانة التي تحتلها شجرة السنديان في ديانة الإريانيين، نعرف أن الشجرة التي كانت أصلاً تُمثل في احتفالات النار هي السنديان، الأمر

الذي لا يقبل النقاش عند السلتيين والليتوانيين، وهو مؤكد عند الألمان كجزء أساسي من ديانتهم المحافِظة. أقدم الطرق البدائية في إنتاج النار هي حك قطعتين من الخشب ببعضهما بعضاً حتى تشتعلا؛ ورأينا أن هذه الطريقة التي ما زالت مستخدمة في أوروبا عند إشعال النيران المقدسة مثل نار الحاجة، كانت متبعة سابقاً في جميع احتفالات النار التي نبحثها هنا. وأحياناً يُفرَض على نار الحاجة أو أي نار مقدسة أخرى أن تكون نتاج احتكاك نوع معين من الخشب؛ وهو السنديان. لكن إذا كانت النار المقدسة قد أشعِلت بانتظام جراء حك خشب السنديان، فلنا أن نتوقع أن الخشب الذي كان يغذي النار هو من المادة نفسها. في الحقيقة، يبدو أن نار فيستا الدائمة في روما كانت تُغذى بخشب السنديان، والسنديان هو الخشب الذي كان يُحرق تحت شجرة السنديان المقدسة في حَرَمِ روموف الليتواني الكبير. أما استخدام خشب السنديان سابقاً في نيران منتصف الصيف فيمكن توقعه من العادة التي يقال أنها مازالت متبعة في الكثير من مناطق ألمانيا الجبلية، وهي إقامة نار المنزل الريفي يوم منتصف الصيف بإشعال لوح كبير من خشب السنديان. يضعونه في الموقد بحيث لايشتعل بسرعة بل يعسعس حتى نهاية السنة. ولدى حلول منتصف الصيف القادم يستبدلونه بخشب جديد ويأخذون الخشب القديم المتفحم ويخلطونه مع بذور الحنطة أو يبعثرونه في البستان معتقدين أنه يحمي الطعام المطبوخ في الموقد من السحر، ويضمن الحظ الجيد للمنزل، ويرفع من نمو المحاصيل، ويحيمها من الآفات والفطريات. إذن هناك مايوازي هذه العادة في بعض أنحاء ألمانيا وفرنسا وإنكلترا وصربيا ومناطق سلافية أخرى وهو خشب الميلاد المصنوع من السنديان. النتيجة العامة هي أنه في هذه الطقوس الدورية أو العارضة أشعل الإريان القدامى وغذوا النار بخشب السنديان المقدس.

لكن إذا كانت النار في هذه الشعائر المقدسة قد صنعت من خشب السنديان، هذا يقتضي أن أي رجل يُحرق فيها هو تشخيص لروح تلك الشجرة بالذات. وهكذا يُحرق السنديان المقدس مرتين؛ خشب الشجرة المحترق بالنار والإنسان الحي الذي يمثل روح السنديان. تتأكد النتيجة التي استخلصناها من الشعوب الإريانية الأوربية بشكل عام تتأكد بالاستخدام الخاص للإسكندنافيين للهدال – وعادتهم في جمعه في منتصف الصيف ـ الذي يأخذ مكان حرق الضحية في نار منتصف

الصيف. تبدو هذه العادة من حيث الظاهر أنها منقطعة الصلة بنيران منتصف الصيف التي تُحرق فيها ضحايا بشرية أو مجسمات أخرى. حتى إذا كانت النار تُصنع أصلاً من السنديان، لماذا يرون ضرورة في اقتلاع الهدال؟ إن أسطورة بالدر تربط بين عادات منتصف الصيف من جمع الهدال وإشعال النيران الأمرين اللذين لا يمكن فصلهما عن العادات التي نبحثها. تبين الأسطورة العلاقة الحيوية التي يعتقد أنها كانت موجودة بين الهدال والممثل البشري للسنديان الذي حُرق في النار. حسب الأسطورة، لايمكن أن يكون بالدر قد قتل بشيء نزل من السماء أو خرج من الأرض، إلا الهدال؛ ولطالما أن الهدال باق على السنديان، فإنه لم يكن خالداً فقط بل حصيناً أيضاً. وإذا افترضنا أن بالدر كان السنديان، يصبح أصل الأسطورة واضحاً بائناً. كانوا ينظرون إلى الهدال على أنه مركز حياة السنديان، ومادام أنه سليم فلايمكن لأي شيء أن يقتل أو حتى يؤذي السنديان. أتت فكرة مركز حياة السنديان بشكل طبيعي من ملاحظة الإنسان البدائي لدوام خضرة الهدال بعد تساقط أوراق السنديان كشجرة نفضية. في الشتاء تأمل عابدو الشجرة بخشوع منظر أوراق الهدال النضرة بين أغصان السنديان العارية وخشعوا لها كعلامة للحياة الإلهية التي توقفت عن تنشيط الأغصان وظلت تنبض في الهدال، كما ينبض قلب النائم في جسد لا حراك فيه. من هنا عندما توجب على الإله أن يُقتل، وعندما كان على الشجرة المقدسة أن تُحرق — كان ضرورياً أن يشرعوا بقطع الهدال. لأنه ما بقي الهدال سليماً (ربما أعتقدوا هذا) ظل السنديان منيعاً؛ فتطيش كل ضربات سكاكينهم وفؤوسهم دون إنزال الضرر على سطحه. لكن ما إن يُنزع عن السنديان قلبُه المقدس - الهدال - تبدأ الشجرة بالانحناء حتى تتهاوى. وعندما صارت روح السنديان تُمثل برجل حي، كان من المنطقي أنه مثل الشجرة التي يمثلها، لايمكن أن يُقتل أو يُجرح ما بقي ظل الهدال سليماً. واقتلاع الهدال كان يوماً ما علامة على موته وسبباً له.

بناءً على هذه النظرة ليس بالدر المنيع إلا تشخيصاً للسنديان المحمل بالهدال. وما يؤكد هذا التفسيرَ المعتقدُ الإيطالي القديم القائل بأنه لا يمكن تدمير الهدال بالنار أو الماء؛ لأن الطفيليات تبدو مستعصية على التدمير، وهي تنقل صفة المناعة بسهولة إلى لشجرة التي تنمو عليها، مادام على صلة ببعضهما بعضاً. أو لنضع

الفكرة نفسها بشكل أسطوري، لقد أودع إله السنديان الرحيم حياته في الهدال الحصين الذي ينمو بين أوراقه؛ وما بقي الهدال في مكانه ظل الإله منيعاً؛ هكذا حتى أتى عدو ماكر وتعرف على سر المناعة، فنزع الهدال عن السنديان قاتلاً إله السنديان وحارقاً جسده في نار دون أن يترك أي أثر عليه ما هو يحتفظ بالطفيليات غير القابلة للاحتراق بين أغصانه.

أن فكرة وجود كائن حياتُه، بشكل ما، خارجَ جسده لَشيء غريب على الكثير من القراء ولم تُفهم بعد بتأثيرها الكامل على الخرافة البدائية، لذا يبدو مناسباً أن نشرح ذلك بأمثلة مستمدة من القصة والعادة. فنأتي إلى النتيجة القائلة إننا عندما نفترض هذه الفكرة عن تفسير علاقة بالدر بالهدال، إنما نفترض مبدأً راسخاً في عقل الإنسان البدائي.

الفصل السادس والستون
الروح الخارجية في الحكايات الشعبية

في فصل سابق من هذا العمل رأينا أنه في رأي البدائيين يمكن أن تغيب الروح عن الجسد دون التسبب بالموت. ويعتقدون أن هذه الغيابات المؤقتة قد تعرض صاحبها إلى خطر كبير لأن تجوال الروح معرَّض للعديد من الحوادث المؤلمة على يد الأعداء وغير ذلك. وإذا كانت سلامة الروح في غيابها، لماذا لاتغيب لأجلٍ غير مسمى؟ بالحقيقة، قد يرغب الإنسان وبعد حسابات دقيقة ألا تعود روحه إلى جسده أبداً. بما أن الإنسان البدائي عاجز عن تصور الحياة بشكل مجرد مثل كونها **إمكانية الإحساس الدائم** أو كونها **تعديل دائم بالترتيبات الداخلية مع العلاقات الخارجية**، يرى أنها شيء مادي محسوس، يمكن رؤيتها أو الإمساك بها، أو حفظها في صندوق أو آنية، وهي عرضةٌ للرض أو الكسر أو التحطم. لا حاجة أن تكون الروح ضمن الإنسان، بل يمكن أن تغيب عنه وتستمر ببث الحياة فيه عن طريق التعاطف أو التحكم عن بعد. ومادام أن هذا الشيء الذي يسميه **حياته** أو **روحه** سليماً غير متأذٍ، يبقى الإنسان بخير؛ وإذا لحق به الأذى، يعاني الإنسان؛ وإذا دُمِّر، يموت. أو دعنا نقولها بشكل آخر، عندما يمرض الإنسان أو يموت، الشئ المادي الذي يسميه حياته أو روحه، داخل جسمه أو خارجها، يكون قد لحق به الأذى أو دُمِّر. لكن هناك ظروف تتحمل فيها الروح ضرراً أكبر إذا كانت ضمن الجسد أكثر من كونها آمنة في مكان سري. بالتالي، في ظروف كهذه، يأخذ البدائي روحه خارج جسده ويُوْدِعُها مكاناً آمناً حفاظاً على سلامتها، بنية إعادتها إلى جسمه بعد عبور الخطر. وإذا ما اكتشف مكاناً في غاية الأمان، قد يقتنع أن يتركها هناك بشكل دائم. من فوائد هذا بقاء الروح سليمة في المكان الذي أودعها فيه بالتالي يبقى الإنسان خالداً، لا يمكن لأحد أن يقتل جسده لأن حياته ليست فيه.

هناك أدلة من الحكايات الشعبية على هذاالمعتقد البدائي، وأفضل مثال عليها هي القصة النرويجية التي تحكي عن (عملاق لا قلب له في جسده). تنتشر هذه القصص بشكل واسع في جميع أنحاء العالم، ومن عددها الكبير وتنوع حوادثها وتفاصيلها التي تجسد فكرة سائدة يمكننا أن نتوقع أن مفهوم الروح الخارجية قد سيطر بقوة على عقول الناس في مراحل التاريخ الأولى. لأن تلك الحكايات الشعبية إنما هي انعكاس صادق للعالم كما يراه العقل البدائي؛ ونحن واثقون أن أي فكرة تخطر لأذهانهم، مهما كانت مجردة بالنسبة إلينا، هي بالنسبة إليهم معتقد عادي. وتزداد هذه الثقة تأكيداً عندما نجري مقارنة بين الحكايا الشعبية ومعتقدات البدائي الفعلية وممارساته، بما يخص القوة المفترضة لفصل الروح عن جسدها وقتاً طويلاً أو قصيراً. سنعود إلى هذا بعد شرح بعض العينات من هذه الحكايات. وسنختار العينات بحيث تشرح الصفات المميزة لهذه الحكايات وانتشارها الواسع.

في بادئ الأمر تُروى قصة الروح الخارجية بأشكال عديدة منها المشعوذ، والعملاق، أو كائنات أخرى من عبقر، وهي خالدة منيعة لأنها تحفظ روحها مخبأةً بعيداً في مكان سري؛ لكن أميرة حسناء أسيرة في قلعة مسحورة تكيد له وتعطي سره للبطل الذي يبحث عن روح المشعوذ، أو قلبه، أو حياته أو مقتله (كلها تسميات للمسمى نفسه) ويدمرها، فيُقتَل المشعوذ في الوقت نفسه. وهناك قصة هندية تحكي عن مشعوذ يدعى بنشكين الذي يأسر ملكةً مدة اثني عشر عاماً. يطلب منها الزواج فترفضه. أتى أخيراً ابن الملكة لينقذها. بعد أن اتفقت الملكة مع ابنها على قتل بنشكين، راحت تتكلم معه بلطف وتظاهرت أنها قررت الزواج منه. ثم قالت له:(أخبرني، هل أنت خالد تماماً؟ ألا يستطيع الموت أن يبلغك؟ وهل أنت ساحر كبير إلى درجة أنك لا تشعر بمعاناة البشر؟) فقال:(نعم، أنا لست كالآخرين. هناك بعيداً بعيداً، على بعد مئات ألوف الأميال، مكان منعزل مغطىً بغابة كثيفة. في وسط تلك الغابة دائرة من أشجار النخيل، وفي مركز تلك الدائرة هناك ست جرار مملوءة بالماء موضوعة الواحدة فوق الأخرى، وتحت الجرة السادسة هناك قفص صغير فيه ببغاء أخضر صغير؛ ـ على حياة هذا الببغاء تعتمد حياتي؛ ـ إذا قُتل الببغاء أموت أنا.) ثم أضاف (لكن الببغاء لايؤذى أبداً، بسبب استحالة الوصول إلى ذلك المكان، وبسبب وجود ألف جني يحرس الدائرة كرمى لي، ويقتلون كل من

يقترب من المكان.) لكن ابن الملكة تغلب على كل المصاعب حتى بلغ الببغاء وجلبه إلى باب قصر الساحر، وراح يلعب به. رآه المشعوذ بنشكين وخرج إليه. حاول إقناع الفتى أن يعطيه إياه. صرخ بنشكين:(أعطني ببغائي!) فمسك الفتى الببغاء وانتزع أحد جناحيه؛ فسقطت ذراع المشعوذ. ثم مد بنشكين يده اليسرى صارخا:(اعطني ببغائي!) فانتزع الفتى جناح الببغاء الآخر، فسقطت ذراع المشعوذ اليسرى. صرخ المشعوذ وهو يخر على ركبتيه:(أعطني ببغائي!) فانتزع الفتى ساق الببغاء اليمنى، فسقطت ساق المشعوذ اليمنى؛ ثم انتزع الأمير ساق الببغاء اليسرى فسقطت ساق المشعوذ اليسرى. لم يبق منه سوى الجذع والرأس؛ لكنه مازال يدوّر عينيه، ثم صرخ: (أعطني ببغائي!) فصرخ الفتى:(خذ ببغاءك، ثم مصع رقبة الببغاء ورماها للمشعوذ؛ وهو يفعل ذلك انفصل رأس المشعوذ عن جسمه، ومات بعد إطلاق أنين مخيف! وفي رواية هندية أخرى طلبت ابنة الغول من أبيها:(بابا، أين تحفظ روحك؟) فأجاب:(في شجرة على بعد ستة عشر ميلاً من هنا. يحيط بالشجرة النمور والدببة والعقارب والأفاعي؛ وعلى قمة الشجرة ثعبان عظيم ضخم؛ على رأسه قفص صغير فيه طائر، في ذلك الطائر تكمن روحي.) فكانت نهاية الغول مثل نهاية المشعوذ في القصة السابقة. عند خلع جناحي وساقي الطائر، سقطت ساقا وذراعا الغول؛ وعند انتزاع رقبته سقط الغول ميتاً. وفي القصة البنغالية، يقال أن غيلان تعيش في سيلان، وحياتها كلها تكمن في ليمونة. يقطّع فتىً الليمونة إلى قطع فيموت الغيلان جميعاً.

وتروي القصة السيامية أو الكمبودية، المشتقة ربما من القصة الهندية، حكاية ملك سيلان المدعو ثوساكان أو رافانا، الذي استطاع بفن السحر أن يخرج روحه خارج جسمه ويضعها في صندوق في القصر عندما يخرج إلى الحرب. وهذا ما يجعله محصناً في المعركة. وقبل الدخول في معركة مع راما، أودع روحه مع ناسك يدعى عين النار، أمانة يجب الحفاظ عليها. وفي أثناء القتال دُهش راما عندما رأى السهام تتكسر على جسم الملك ولا تجرحه. لكن أحد حلفاء راما يعرف سر مناعة الملك، فحول نفسه بفعل السحر إلى شكل ملك وذهب إلى الناسك وطلب منه أن يرد له روحه. ولدى استلامها ارتفع عالياً في السماء وطار إلى راما ثم ضغط على الصندوق حتى لم يبق نَفَسٌ واحدٌ في جسم ملك سيلان، فمات. وتروي القصة البنغالية حكاية أميرٍ ذهبَ إلى مكان بعيد وزرع بيده شجرة في باحة قصر أبيه،

وقال لأبويه:(هذه الشجرة هي حياتي. عندما ترون الشجرة خضراء نضرة، اعلموا أن أموري بخير؛ وعندما ترونها تذوي في بعض أجزائها، اعلموا أني في حالة سيئة؛ وعندما ترون الشجرة تذبل كلها، اعلموا أني قد قضيت نحبي.) وفي رواية هندية أخرى انطلق أمير في سفر، وترك وراءه نبتة شعير وأمرهم بالعناية بها ورعايتها؛ لأنها إذا ازدهرت كانت حياته بخير، وإذا ضعفت، سيصيبه الشيء نفسه. ماتت النبتة. ومع قطع رأس الأمير وتدحرج رأسه، انشطرت إلى نصفين وسقطت حبات الشعير على الأرض.

سادت فكرة الروح الخارجية في الروايات الإغريقية القديمة والحديثة. عندما كان ميليغار في اليوم السابع من عمره، ظهرت الأقدار لأمه وأخبرتها أنه سيموت عندما تخمد الجذوة التي تشتعل في الموقد. أبعدت الأم الجذوة عن النار وحفظتها في صندوق. وبعد سنين طويلة غضبت من ابنها لأنه قتل أخاها فحرقت الجذوة في النار وقضى ميليغار وهو يتألم، وكأن لهيباً يفترس أعضاءه الحيوية. وكان للملك ميغارا نيسوس شعر بنفسجي في منتصف رأسه، وقُدِّر له أن يموت عندما ينفصل ذلك الشعر عن رأسه. وعندما كان محاصراً على يد الكريتانيين، وقعت ابنة الملك في حب ملكهم مينوس فاقتلعت الشعر القاتل عن رأس أبيها، فمات. وفي الرواية الإغريقية الحديثة، تكمن قوة الملك في ثلاث شعرات ذهبية في رأسه. عندما اقتلعتها أمه هزل وضعف حتى قتل على يد أعدائه. وفي رواية إغريقية أخرى ارتبطت حياة أحد السحرة بثلاث حمامات موجودة في بطن عفر بري. عندما ماتت اليمامة الأولى مرض الساحر؛ وعندما ماتت اليمامة الثانية تفاقم مرضه؛ ومات عندما ماتت اليمامة الأخيرة. وفي قصة إغريقية أخرى من النوع نفسه تكمن قوة غول في ثلاثة طيور مغردة في عفر بري. يقتل البطل طيرين منها، ويأتي الغول إلى بيته ويرتمي على الأرض متألماً. يري البطلُ الغولَ الطائرَ الثالث فيتوسل أن يتركه يطير أو يعطيه إياه ليأكله. لكن البطل يمصع رقبة الطائر فيموت الغول في مكانه.

وفي الرواية الرومانية الحديثة التي تحكي قصة **علاء الدين والفانوس السحري** يخبر الساحرُ الأميرةَ التي يأسرها في صخرة طافية وسط المحيط، يخبرها أنه لن يموت. نقلت الأميرةُ الخبرَ إلأى زوجها الأمير الذي أتى لإنقاذها. قال الأمير للأميرة:(لابد من وجود شيءمميت، سليه عنه!) ولما سألته أخبرها عن أفعوان في الغابة له ستة

رؤوس، في رأسه الأوسط أرنب ذكر، وفي رأس الأرنب الذكر طائر، وفي رأس الطائر حجر كريم، وإذا وضع هذا الحجر تحت وسادته يموت. جلب الأمير الحجر ووضعته الأميرة تحت الوسادة. وما إن وضع الساحر رأسه على الوسادة حتى أطلق ثلاث زعقات قوية، ودار ثلاث دورات ثم مات.

شاع هذا النوع من هذه الحكايات بين الشعوب السلافية. تحكي قصة روسية عن كوشتشي الساحر الذي لا يموت والذي يحبس أميرة في سجن ضمن قلعته الذهبية. في أحد الأيام اقترب منها رجل وهي تتجول في الحديقة وحيدة حزينة وبشَّرها بإمكانية الهروب معه، فذهبت إلى الساحر وتملقت بكلمات إطراء كاذبة. قالت:(يا أعز صديق إلى قلبي، اخبرني رجاءً، ألا يمكن أن تموت؟) فأجاب:(طبعاً لا) فقالت؛ (وأين مقتلك؟ هل هو في مسكنك؟) فأجاب:(إنه في مقشة تحت العتبة.) فمسكت الأميرة المقشة ورمتها في النار، لكن رغم احتراق المقشة، بقي الساحر حياً ولم تحترق به شعرة. بعد هذه المحاولة المخفقة بوَّزت الأميرة وقالت:(أنت لا تحبني، لأنك لم تخبرني عن مقتلك؛ مع ذلك أنا لست غاضبة منك، بل أحبك من كل قلبي.) بهذه الكلمات المُداهِنة استعطفت الساحر كي يخبرها حقيقة مقتله. ضحك وقال:(لماذا تريدين أن تعرفي؟ حسناً، وهذا الحب بيننا، سأخبرك أين يقع موتي. في حقل هناك ثلاث شجرات سنديان، تحت جذور أكبر واحدة منها هناك دودة، إذا ما عثر أحد على تلك الدودة وسحقها، سأموت على الفور.) عندما سمعت الأميرة تلك الكلمات ذهبت مباشرةً إلى عشيقها وأخبرته بكل شيء؛ وراح يبحث حتى وجد أشجار السنديان ونقَّب عن الدودة حتى وجدها وسحقها. ثم هرع إلى قلعة الساحر فأخبرته الأميرة أنه مازال على قيد الحياة. ثم عادت للتزلف والتملق ثانيةً، لكن هذه المرة بالغت بمكيدتها، ففتح قلبه لها وأخبرها الحقيقة. قال:(موتي بعيد من هنا وصعب المنال، في المحيط الواسع. في ذلك البحر جزيرة، وعلى الجزيرة شجرة سنديان، تحت الشجرة صندوق حديدي، في الصندوق سلة، وفي السلة أرنب بري، وفي الأرنب بطة، وفي البطة بيضة؛ من يعثر على تلك البيضة ويكسرها، يقتلني على الفور.) بالطبع وجد الأميرُ البيضة المميتة. والبيضة في يده واجه الساحرَ الذي لا يموت. كاد المسخ أن يقتله، لكن الأمير ضغط على البيضة فصرخ الساحر، والتفت إلى الأميرة الكاذبة التي وقفت تبتسم،

وقال(أليس من حبي لك أخبرتك عن مقتلي؟ أهذا ما تكافئينني به؟!) في تلك اللحظة همَّ بالإمساك بسيفه المعلق على وتد في الجدار؛ لكن قبل أن يبلغه كسر الأميرُ البيضة، فمات الساحر الذي لا يموت في اللحظة نفسها. وتقول رواية أخرى أنه مات بضرب البيضة الغامضة على جبينه – فانفكت آخر حلقة سحرية ارتبطت فيها حياته. وفي رواية أخرى للقصة نفسها، لكن عن الأفعى، كانت الضربة المميتة من حجر صغير في صفار البيضة الموجودة في الأرنب الموجود داخل الحجر الموجود في الجزيرة.

هناك فرع من الشعوب التيوتونية انتشرت عندهم قصص الروح الخارجية. يروي السكسونيون في ترانسلفانيا قصة شاب أطلق النار على ساحرة مراراً وتكراراً. اخترقتها الطلقات لكنها لم تصبها بأذىً، واكتفت بالضحك والسخرية عليه وقالت: (أنت يا دودة الأرض السخيفة، أطلق قدر ما تستطيع، فإنك لن تؤذيني. واعلم أن حياتي ليست بي، بل في مكان بعيد، بعيد جداً. في الجبل بركة، وعلى البركة تسبح بطة، في البطة بيضة، في البيضة ضوء يشتعل، ذلك الضوء هو حياتي. إذا استطعت إطفاءه سأواجه حتفي. لكن هذا لن يحصل أبداً.) حصل الشاب على البيضة، وسحقها وأطفأ النور، ومع انطفائها انطفأت حياة الساحرة. وفي القصة الألمانية، هناك آكل لحوم البشر يدعى الجسد دون روح، يحفظ اللاروح روحه في صندوق على صخرة وسط البحر الأحمر. حصل جندي على الصندوق وذهب به إلى اللاروح الذي توسل إليه أن يعيده له. فتح الجندي الصندوق وأخرج الروح ورماها خلف ظهره. في اللحظة نفسها سقط آكل لحوم البشر على الأرض ميتاً.

وفي قصة ألمانية أخرى، يعيش ساحر مع صبية وحيدين وسط غابة واسعة كئيبة. عندما شاخ الساحر، خافت أن يموت ويتركها وحيدة في الغابة. قال لها مؤكداً:(طفلتي العزيزة، أنا لا أموت، وليس هناك قلب في صدري). لكنها لجّت عليه أن يخبرها عن مكان قلبه. فقال:(بعيداً عن هذا المكان، هناك كنيسة عظيمة على أرض منعزلة مجهولة. الكنيسة محصنة بأبواب حديدية وحولها خندق مائي عميق. يطير طائر في الكنيسة، في ذلك الطائر يكمن قلبي. مادام أن الطائر حي، فأنا أحيا. لايموت من تلقائه، ولا يستطيع أحد أن يلتقطه؛ لذا لا يمكن أن أموت، ولا حاجة للقلق.) كان عريسها يقف أمامها قبل أن يخفيها الساحر، جاهد

في الوصول إلى الكنيسة والتقط الطائر. جلبه للصبية، فأودعت الشاب تحت سرير الساحر. سرعان ما أتى الساحر يتوجع من الألم. بكت الفتاة وقالت:(يا حسرةً، أبي يموت؛ لقد صار في صدره قلب.) أجاب الساحر:(يا ابنتي أمسكي لسانك. لا يمكن أن أموت. إنها وعكة وسرعان ما تمر.) في تلك اللحظة ضغط الشاب على الطائر ضغطاً خفيفاً؛ وهو يفعل ذلك شعر الساحر العجوز بضعف قوي وجلس على الأرض. ثم ضغط الشاب أكثر فسقط الساحر مغمىً عليه. صرخت الصبية: (الآن اعصره حتى الموت.) نفذ عشيقها الأمر فمات الطائر ومات معه الساحر مرمياً على الأرض.

وفي القصة النرويجية يخبر عملاق ليس به قلب الأميرةَ الأسيرةَ:(بعيداً، هناك جزيرة ضمن بحيرة، في الجزيرة كنيسة، وفي الكنيسة بئر، في البئر تسبح بطة، وفي البطة بيضة، وفي البيضة يكمن قلبي.) حصل بطل القصة على البيضة بمساعدة حيواناتٍ عامَلَها معامَلَة لطيفة. عندما عصر البيضة صرخ العملاق باسترحام طالباً حياته. كسر البطل البيضة فانفجر العملاق على الفور. وفي قصة نرويجية أخرى، يخبر غول الجبال الأميرة الأسيرة التي لايمكنها أن تعود إلى منزلها حتى تجد حبة رمل تحت اللسان التاسع للرأس التاسع لتنين معين؛ لكن إذا ما أتت حبة الرمل هذه على الصخرة التي يعيش عليها الغيلان، تنفجر جميعاً وتتحول الصخرة إلى قصر مطلي بالذهب والبحيرة إلى سهب أخضر. يحصل البطل على الحبة ويأخذها إلى الصخرة العالية التي يعيش عليها الغيلان. وتنفجر الغيلان كلها ويموت كما توقع أحدهم.

في القصة السلتية، المسجلة في المرتفعات الغربية من أسكتلندة، تسأل ملكة أسيرة العملاقَ عن مكان روحه. وبعد تكرارها لخداعه عدة مرات أفضى لها بسره المميت:(هناك حجرٌ لَوْحِيٌ كبير تحت العتبة. وتحت الحجر كبش مخصي. في بطن الكبش بطة، وفي بطن البطة بيضة، في البيضة تكمن روحي.) في اليوم التالي عندما ذهب العملاق، سعت الملكة وراء البيضة، ولما عثرت عليها كسرتها بيديها، وفي اللحظة نفسها سقط العملاق ميتاً وهو قادم إلى بيته عند الغسق. وفي قصة سلتية أخرى يختطف وحش بحري ابنة الملك، ويعلن الصائغ أنه ما من طريقة لقتل الوحش إلا الذهاب إلى بحيرة في الهور، هناك أيلة بيضاء الحوافر نحيلة الساقين، سريعة

الحركة تدعى إليدشيزفيون، يجب التقاطها، يخرج منها طائر الهوداي، يجب القبض عليه والعثور على البيضة في فم سمكة تراوت فيه، في البيضة تكمن روح الوحش. كالمعتاد تتكسر البيضة ويموت الوحش.

وفي القصة الإيرلندية نقرأ عن عملاق احتفظ بصبية جميلة في سجنِ قلعتِه على قمة جبل مغطىً بعظام الأبطال البيضاء الذين حاولوا تحرير الحسناء الأسيرة عبثاً. في النهاية، اكتشف البطل بعد محاولة الضرب والقطع دون أية نتيجة، اكتشف أن الطريقة الوحيدة لقتله هي فرك حيوان الخلد على صدره الأيمن ببيضة خاصة كانت في البطة، والبيضة كانت في صندوق، والصندوق كان مقفلاً وموضوعاً في قاع البحر. بمساعدة بعض الحيوانات المُعِينة، جعل البطل من نفسه سيد البيضة النفيسة وقتل العملاق بمجرد ضربها على الخلد وعلى صدره الأيمن. كذلك في القصة البريتونية كان هناك عملاق لايؤذيه ماء ولا حديد ولا فولاذ. يخبر زوجته السابعة التي تزوجها بعد أن قتل جميع أسلافها، :(أنا خالد، ولا يمكن لآحد أن يؤذيني إلا إذا فرك على صدري ببيضة، البيضة في حمامة، الحمامة في بطن أرنب بري، الأرنب في بطن الذئب، والذئب في بطن أخي وأخي يعيش على بعد ألف فرسخ. لذا أنا في غاية الاطمئنان.) كافح أحد الجنود حتى حصل على البيضة، وفركها على صدر العملاق الذي قضى على الفور. في قصة بريتونية أخرى، عملاق يسكن في شجرة بقس تنمو في حديقة القصر؛ ولقتله لا بد من شطر جذرها الأكبر بضربة فأس واحدة دون إنزال الأذى بجذورها الأصغر. وكالعادة يؤدي البطل هذه المهمة وفي الوقت نفسه يسقط العملاق ميتاً.

لقد تابعنا حتى الآن فكرة الروح الخارجية في الحكايات الشعبية التي روتها الشعوب الإريانية من الهند وحتى إيرلندة. بقي علينا أن نثبت ورود الفكرة نفسها في الحكايات الشعبية لدى الشعوب من غير السلالة الإريانية. في مصر القديمة هناك قصة الأخوين التي كُتبت في عهد رمسيس الثاني، حوالي 1300 ق.م، وتحكي أن أحد الأخوين سحر قلبه ووضعه في زهرة شجرة أقاقيا، وعندما قُطعت االزهرة استفزازاً لزوجته، سقط ميتاً على الفور، لكنه انبعث عندما وجد أخوه القلب المفقود في ثمرة توت الأقاقيا ووضعها في كوب من الماء العذب.

وفي قصة سيف الملوك في ألف ليلة وليلة، يخبر الجنيُّ ابنةَ ملك الهند الأسيرة، (عندما ولِدتُ أعلن الفلكيون أن دماراً روحياً سيحصل على يد أحد أبناء الملوك الآدميين. لذلك أخذتُ روحي ووضعتُها في حوصلة عصفور دوري وحبستُ العصفور في علبة، ثم وضعتُه في علبة صغيرة أخرى، ثم وضعتُ العلبة في صناديق صغيرة، ووضعتُ الصناديق في سبع خزائن والخزائن في سبع صناديق من الرخام على الجانب الآخر من المحيط؛ لأنه مكان بعيد عن متناول الآدميين.) لكن سيف الملوك حصل على الصندوق وعلَّقه، فوقع الجني على كومة من الرماد الأسود. وفي القصة الكابيلية يعلن غول أن مقتله بعيد جداً ضمن بيضة، والبيضة ضمن حمامة، والحمامة في جمل، والجمل في البحر. لكن البطل يحصل على البيضة ويكسرها بين يديه، فيموت الغول. وفي الحكاية الشعبية الماغيارية، تحتجز ساحرة عجوز أميراً شاباً يدعى أمبروز في باطن الأرض. وتفضي إليه أنها تربي عفراً برياً في السهب، فإذا قُتِل وأخرجوا أرنباً من جوفه، ومن جوف الأرنب حمامة، ومن جوف الحمامة صندوق صغير، وداخل الصندوق خنفساء سوداء وأخرى مضيئة: في الخنفساء المضيئة تكمن حياتها وفي السوداء تكمن قوتها، لا تموت الساحرة حتى تموت الخنفستان. انتظر أمبروز الساحرة الشمطاء حتى خرجت وقتل الخنزير البري، واستخرج الأرنب؛ ومن الأرنب الحمامة، ومن الحمامة العلبة، ومن العلبة خنفستين؛ ثم يقتل الخنفساء السوداء ويترك المضيئة حية. فقدت الساحرة قوتها على الفور، واضطرت أن ترتمي على فراشها فور عودتها إلى بيتها. الآن وقد عرف أمبروز كيف يهرب من سجنه ويصعد إلى طبقات الهواء العليا، أقدم على قتل الخنفساء المضيئة وماتت الساحرة على الفور. وفي الرواية الكالماكية نقرأ عن أحد الخانات الذي يتحدى رجلاً حكيماً أن يستخدم كل ما عنده من مهارة لسرقة الحجر الكريم الذي تعتمد عليه حياته. سرق الحكيم التعويذة بينما كان الخان وحراسه نائمين؛ لكنه لم يكتف بهذا بل ترك برهاناً على حذاقته بأن ربط الخان النائم بعمود إمعاناً بإهانة الخان. في اليوم التالي قال الخانُ للحكيم أنه استطاع التسامح بكل شيء، لكنه لم يتحمل ربطه بالعمود؛ ثم أمر صديقه الظريف أن يعدمه فوراً. وما كان من الحكيم بعد أن فعل ما فعل من إهانة للكرامة الملكية، إلا أن رمى التعويذة التي في يده على الأرض؛ فنزف الدم من منخري الخان حتى مات.

وفي القصيدة التتارية تصارع بطلان اسمهما أكمولوت وبولات صراعاً مميتاً. طعن أكمولوت عدوه بسهم اخترقه، وتمكن منه فرماه أرضاً، لكن كل هذا لم يقتل بولات. دام الصراع ثلاث سنوات دون جديد حتى رأى أحد أصدقاء أكمولوت علبة ذهب معلقة بخيط أبيض متدلٍ من السماء، وظن أنها تحتوي روح بولات. فأطلق سهماً على الخيط الأبيض، فسقطت العلبة. فتحها فوجد فيها عشرة طيور بيضاء، في أحدها تكمن روح بولات. بكى بولات عندما رآهم يعثرون على روحه في العلبة. قُتِلت الطيور واحداً تلو الآخر، وبهذا تمكن أكمولوت من قتل عدوه بسهولة. ذهب أخَان ليقاتلا أخين آخرين فأخفيا روحهما على شكل عشبة بيضاء بستة سيقان ووضعاها في حفرة عميقة. رآهما أحد أعدائهما يفعلان ذلك، فحفر حتى عثر على روحهما ووضعهما في قرن كبش ذهبي، ثم وضع قرن الكبش في جعبته. عرف المقاتلان اللذان سُرِقا أن ليس لهما أي فرصة في النصر، فأقاما السلام مع عدوهما. وفي قصيدة تتارية أخرى، يتحدى عفريتٌ جميعَ الآلهة والأبطال. أخيراً قاتل شاب باسل العفريت، ووثق يديه وقدميه، ثم قطّعه بسيفه لكن العفريت لم يمت. سأله الشاب:(أين تخبئ روحك؟ لو كانت روحك في جسمك لمتَّ منذ زمن بعيد.) أجاب العفريت:(إنها في أفعىً باثني عشر رأس، الأفعى في حقيبة على صهوة حصان. عندما تقتل الأفعى تقتلني معها.) انتزع الشاب الحقيبة عن صهوة الحصان وقتل الأفعى ذات الاثني عشر رأساً، فقضى العفريت. وفي قصيدة تتارية أخرى هناك بطل - يدعى كوك تشان - يضع نصف قوَّته في خاتم ذهبي نسائي. بعد ذلك صارع كوك تشان بطلاً مدة طويلة ولم يتمكن منه، حتى ألقت امرأةٌ الخاتمَ في فمه فاكتسب قوة كاملة، عندها تمكن من قتل عدوه.

وفي القصة المنغولية بطل يدعى جورو، يسيطر على عدوه اللاما تشوريدونغ بالطريقة التالية. يرسل اللاما والساحرُ روحَه على شكل دبور ليلسع عيني جورو. لكن جورو يلتقط الدبور بيده فيسبب بذلك للاما أن يفقد وعيه ثم يسترده مراراً وتكراراً. وفي قصيدة تتارية يفتح شابان جسم ساحرة عجوز ويمزقان أحشاءها، لكن دون جدوى، أي بقيت على قيد الحياة. ولدى سؤالها عن مكان روحها، أجابت أنها على شكل أفعى رقطاء بسبعة رؤوس وسط نعل حذاء. شطر أحد الشابين حذاءها بسيفه وأخرج الحية الرقطاء وقطّع رؤوسها السبعة فماتت الساحرة.

وهناك قصيدة تتارية أخرى تصف صراعاً دام طويلاً بين البطل كارتاغا والمرأة الإوزة. مُحِقت الأقمار ثم اكتملت دون أن يُحسم صراعهما؛ مرت سنوات وسنوات والصراع جارٍ. اكتشف الحصان الأرقط والحصان الأسود أن روح المرأة الإوزة ليست ضمنها. هناك تسعة بحور تحت التربة السوداء وعند مصب تلك البحور ترتفع صخرة من نحاس؛ ترتفع إلى مستوى سطح الأرض، ترتفع بين الأرض والسماء. عند قاعدة الصخرة النحاسية هناك صندوق أسود، في الصندوق الأسود علبة ذهبية، في العلبة الذهبية روح المرأة الإوزة. روح المرأة الإوزة تكمن في سبعة طيور صغيرة؛ إذا قُتلت الطيور تموت المرأة الإوزة مباشرة. جرى الحصانان إلى قاعدة الصخرة النحاسية، وفتحا الصندوق الأسود، واستعادا العلبة الذهبية. ثم حول الحصان الأرقط نفسه إلى رجل أصلع، وفتح العلبة الذهبية، وقطع رؤوس الطيور السبعة، فماتت المرأة الإوزة. وفي قصيدة تتارية أخرى، يطارد بطل أُخته التي طردت ماشيته، ويُنصح أن يكف عن المطاردة لأن أخته أخذت روحه في سيفٍ وسهمٍ ذهبيين، وإذا طاردته ستقتله بمجرد أنها ألقت السيف الذهبي أو أطلقت عليه السهم الذهبي.

وتروي القصيدة الماليزية أنه في مدينة إندرابورا كان يعيش يوماً تاجر ناجح ثري لكنه أبتر. وبينما كان يتمشى مع زوجته بجانب النهر وجدا طفلة رضيعة جميلة كالملاك، فتبنياها وسمياها بيداساري. طلب التاجر أن يصنعوا له سمكة من ذهب ونقل روحَ الفتاة إلى داخل السمكة. ثم وضع السمكة الذهبية في صندوق ذهبي مملوء بالماء وخبأه في الحديقة. وعندما كبرت الفتاة صارت امرأة جميلة. وكان لملك إندرابورا زوجة صبية جميلة عاشت في خوف من أن يتزوج الملك زوجة ثانية. وعندما سمعت الملكة عن السحر المعمول لبيداساري قررت أن تخرجها من طريقها. استجرتها إلى القصر وعذبتها عذاباً أليماً؛ لكن بيداساري لم تمت لأن روحها لم تكن فيها. وعندما بلغ العذاب مبلغاً لاتتحمله قالت للملكة:(إذا أردتني أن أموت عليك أن تأتي بالصندوق من بركة أبي.) أحضروا الصندوق وفتحوه فوجدوا سمكة ذهبية في الماء. قالت الفتاة:(روحي في هذه السمكة. عليك أن تخرجيها من الماء في الصباح، وتعيديها إليه في المساء. لا تدعيها حرة في النهار بل اربطيها إلى عنقك.) وما إن فعلت الملكة ذلك دخلت الفتاة في غيبوبة. لكن عندما أُعيدت السمكة إلى الماء ثانيةً استعادت بيداساري وعيها. عندما رأت الملكة الفتاة

في قوتها الكاملة أرسلتها إلى أبويها بالتبني. حاول الأبوان تخليص ابنتهما من العذاب القادم فقررا إقصاءها عن المدينة. بنيا لها منزلاً في مكان منعزل ونقلاها إليه. عاشت الفتاة هناك وحدها تخضع إلى التقلبات التي تتعرض لها السمكة الذهبية التي مازالت تشكل روحها. والسمكة خارج الماء في النهار، كانت تعيش الفتاة في غيبوبة؛ وتنتعش في المساء عندما تُعاد السمكة إلى الماء. ذات يوم كان الملك في رحلة صيد. وجد بيداساري مغمىً عليها ففتنه جمالُها. حاول أن يوقظها لكن عبثاً. في اليوم التالي وقبيل المساء عاود زيارتها فوجدها غائبة عن الوعي. لكن عند حلول الظلام صحت وأخبرت الملك عن سر حياتها. عاد الملك إلى القصر، وأخذ السمكة من الملكة ووضعها في الماء. استردت الفتاة وعيها واتخذها زوجة له.

هناك قصة أخرى عن الروح الخارجية في نياس، وهي جزيرة إلى الغرب من سومطرة. ذات يوم قبض الأعداء على رئيس وحاولوا قتله فأخفقوا. لم يستطع الماء أن يغرقه، ولا النار أن تحرقه ولا الفولاذ أن يخترقه. في النهاية أفشت زوجته السر. على رأسه شعرة قاسية كسلك النحاس؛ بهذا السلك ارتبطت حياته. وعند اقتلاع الشعرة غادرته روحه نهائياً.

وتروي قصة من جنوب نيجيريا عن ملك احتفظ بروحه في طائر بني صغير استقر على شجرة طويلة بجانب مدخل القصر. ارتبطت حياة الملك بهذا الطائر وكل من يقتله يقتل الملك في الوقت نفسه ويظفر بالملكة. أبلغت الملكة السر إلى عشيقها الذي أطلق على الطائر سهمه وقتل الملك واحتل العرش الشاغر. وهناك قصة يخبرها قوم بارانغا من جنوب أفريقيا عن حياة قبيلة كاملة موضوعة ضمن قطة. عندما تزوجت إحدى بنات القبيلة، واسمها تيتيشان، توسلت لذويها أن يعطوها الهرة النفيسة لتأخذها معها إلى بيتها الجديد. لكنهم رفضوا ذلك قائلين:(أنت تعلمين جيداً أن حياتنا مرتبطة بها)؛ وعرضوا عليها أن تأخذ غزالاً أو فيلاً بدلاً من القطة. لم ترض الفتاة بشيء سوى القطة. بالنهاية أخذتها معها وحبستها في مكان لا يراها أحد؛ حتى زوجها لا يعلم عن أمرها شيئاً. ذات يوم عندما خرجت تعمل في الحقل هربت القطة من مخبئها ودخلت الكوخ، ثم ارتدت شِراك الزوج الحربية وراحت ترقص بها وتغني. انجذب بعض الأطفال إلى الصوت فرأوا القطة العجيبة وعبَّروا عن دهشتهم، فتوثبت القطة وشتمتهم. لذا ذهبوا إلى صاحب الكوخ وقالوا:(هناك

شخص يرقص في بيتك، وانهال علينا بالشتائم.) فقال صاحب الكوخ:(أمسكوا ألسنتكم، وها أنا قادم لأضع حداً لأكاذيبكم.) ذهب خفية وراء الباب واسترق النظر، فرأى القطة ترقص، وتتبختر وتغني بأم عينه. أطلق عليها النار، فسقطت ميتة. وفي اللحظة نفسها سقطت عائلة الفتاة حيث كانت تعمل على أرض الحقل؛ فقالت الفتاة:(لقد قُتِلتُ في البيت.) وبما تبقى فيها من قوة طلبت من زوجها أن يلف القطة بحصير ويأخذها إلى بيت أهلها. اجتمع أقرباؤها كلهم، ولاموها كل اللوم على إصرارها أن تأخذ القطة معها إلى قرية زوجها. وحالما فتحت الحصير بدؤوا بالسقوط واحداً تلو الآخر. وبهذا دُمِّرت عشيرة القطط؛ وأغلق الزوج الوحيد بوابة القرية ووضع عليها غصناً، وعاد إلى بيته وحكى لأصحابه قصة قتل القطة الذي تسبب بمقتل العشيرة كلها، لأن حياتهم تعتمد على حياة تلك القطة.

ونصادف قصصاً من النوع نفسه عند هنود أمريكا الشمالية. يحكي قوم النافاجو عن كائن خرافي يدعى **المرأة التي تتحول إلى دبة**، والتي تعلمت كيف تحول نفسها من ذئبة غابة إلى دبة. كانت محاربة منيعة عظيمة؛ لأنها عندما تذهب إلى الحرب تخرج أعضاءها الحيوية وتخبئها فلا يستطيع أحدٌ أن يقتلها؛ وعندما تنقضي المعركة تعيد أعضاءها إلى مكانها. أما قوم كواكيوتل من كولومبيا البريطانية، فيحكون قصة غولةٍ لايمكن قتلها لأن حياتها كانت في غصن شوكران. صادفها فتىً شجاع في الغابة، وسحق رأسها بحجر، وبعثر دماغها، وكسر عظامها، ورماها في الماء. ذهب إلى بيته بعد أن ظن أنه تخلص منها، وإذ به يرى امرأة راسخة على الأرض وحذرته قائلةً:(لن تدوم طويلاً. أعلم أنك حاولت قتل الغولة. وهذه هي المرة الرابعة التي يحاول فيها شخص أن يقتلها. هي لا تموت البتة؛ وها هي تحيا من جديد. اذهب هناك، وحالما تراها وهي تدخل اطلق عليها فتموت. ما إن فرغت المرأة من كلامها حتى دخلت الغولة وهي تغني. أطلق الفتى على حياتها فسقطت ميتة.

الفصل السابع والستون
الروح الخارجية في الأعراف الشعبية

1ـ الروح الخارجية في الجمادات

إذن ففكرة إيداع الروح وقتاً طويلاً أو قصيراً في مكان آمن خارج نطاق الجسم أو حتى في الشعر، هي فكرة سائدة لدى الكثير من الأعراق. وما علينا إثباته الآن أن الفكرة ليست مجرد تلفيقات خيالية ابتكرت لتزيين الرواية، بل هي ركن أساس من أركان العقيدة البدائية، وكانت سبباً في ظهور مجموعة من العادات التي تعتمد على تلك العقيدة.

رأينا كيف يلجأ البطل في هذه القصص إلى نزع روحه عن جسمه عندما يتهيأ للمعركة، كي يصبح جسمه منيعاً لايموت في أثناء المصادمة. وبالنية نفسها ينزع روحه من جسده عند مواجهة أخطار عديدة خيالية كانت أم حقيقية. مثال على ذلك هو أهل ميناهاسا في سيليبس: عندما ينتقلون إلى منزل جديد يجمع الكاهن أرواح أفراد العائلة كلها في حقيبة ويعيدها إلى أصحابها، لأنهم يعتقدون أن لحظة دخول المنزل هي لحظة مفعمة بأخطار القوى الخارقة للطبيعة. في سيليبس الجنوبية، عندما تكون المرأة على فراش المرض، ويذهب رسول لإحضار الطبيب أوالقابلة، يحمل شيئاً مصنوعاً من الحديد مثل سكينٍ لفرم اللحم ويسلمها للطبيب. وعلى الطبيب أن يحتفظ بهذا الشيء المعدني في منزله حتى تنتهي المرأة من النِّفاس، ويعيده لها عندما يأخذ مبلغاً من المال مقابل عمله هذا. تمثل السكين أو ذلك الشيء المعدني روح المرأة التي يعتقد أنها في هذا الوقت العصيب يجب أن تكون خارج جسمها توخياً للسلامة. على الطبيب أن يعتني عناية مشددة بذلك الشيء لأن ضَياعَه يعني ضياعَ المرأة، وأي مكروه يصيبه يصيب المرأة.

أما قوم الداياك في بينويه وهي مقاطعة في جنوب شرق بورنيو، فعندما يولد لهم طفل يرسلون في طلب الطبيب الذي يستحضر روح الطفل إلى نصف جوزة هند ويغطيها بقماش ويضعها على صينية مربعة أو على طبق معلق في السقف بالحبال. ويكرر هذا الطقس عند كل شهر قمري جديد مدة سنة كاملة. لم يشرح الكاتب الغرضَ المقصود من الطقس لكن يمكننا أن نتوقع أنه يضع روح الطفل في مكان أكثر أمناً من جسده الضعيف. وما يؤكد هذاالتوقع المبرر الذي يعلنونه عن عادة مماثلة متبعة في مكان آخر في أرشيبيلاغو الهندية. وفي جزر الكاي، عندما يُرزقون بطفل جديد في العائلة يفلقون جوزة هند فارغة ثم يعيدون تركيبها ثانيةً، ويمكن أن ترى مثل هذه الجوزة معلقة بجانب مجسم خشبي بسيط التفاصيل لأحد الأسلاف. يعتقدون أن روح الطفل قد أُودعت في جوزة الهند كي تكون في مأمن من الأرواح الشريرة؛ لكن عندما يكبر الطفل ويشتد عوده تأخذ الروح مكانها الدائم في جسمه. كذلك يفعل الأسكيمو في ألاسكا، فعندما يمرض طفل، يقوم الطبيب باستخراج روحه من جسمه ويضعها ضمن حجاب لحمايتها وعلى الأغلب يضعها في حقيبته الخاصة ليضمن سلامتها. من الممكن اعتبار الكثير من الحجابات أو التعاويذ عبارة عن صناديق للأرواح، مثل الخزانات الفولاذية. واعتادت المرأة المسنة عند قوم مانغانجي في مقاطعة شاير الغربية في أفريقيا الوسطى البريطانية، اعتادت أن تلبس حول عنقها زينة مجوفة من العاج، بطول ثلاثة إنشات وتسميها حياتها أو روحها. بالطبع لا تتنازل عنها أبداً؛ وقد حاول أحد المزارعين أن يشتريها منها لكنها رفضت تماماً. وعندما كان جيمس ماكدونالد يجلس يوماً في منزله المخصص لرئيس هولوبي، ينتظر ظهور الرجل العظيم الذي كان منشغلاً في تقليد نفسه الأوسمة، أشار أحد الأهالي إلى قرني ثور فخمين وقال:(روح نيتيم في هذين القرنين.) والقرنان هما لثور قُتل كأضحية ويعتبران مقدسين. ربطهما الساحر في السقف ليحمي المنزل وسكانه من العاصفة. ويزيد السيد ماكدونالد قائلاً: (ليست الفكرة غريبة على أفكار أهالي جنوب أفريقيا. يمكن لروح الإنسان هناك أن تعيش في سقف منزله، أو في شجرة، أو في نبع ماء، أو في بعض التلال المقدسة.) وعند أهالي جزيرة الغزلان الأصليين في غينيا الجديدة هناك جمعية سرية تحمل اسم إنجيت. يستلم من ينضم إليها حجراً على شكل كائن بشري أو حيواني، ويعتقد أن

روحه ترتبط بذلك الحجر. وإذا ما انكسر الحجر يتشاءمون بمعنى أن صاحبه سيموت قريباً. وإذا ما عاش الإنسان رغم أن حجره قد انكسر، يقولون أنه ليس الروح المناسبة له، فيستلم حجراً آخر. وقد أخبر أحد الفلكيين الأمبراطور رومانوس لوكابينوس أن حياة سيميون وهو أمير بلغاريا، مرتبطة بعمود في القسطنطسنية، فإذا نُزع تاج العمود يموت سيميون على الفور. أخذ الأمبراطور بهذه الإشارة ونزع التاج، ثم استقصى عن الخبر فوجد أن سيميون قد مات بنوبة قلبية في بلغاريا.

كذلك رأينا أنه في الحكايات الشعبية يمكن أن تتمثل أوترتبط قوة الرجل أو روحه بشعره، وعندما يُقصُّ شعره يضعف أو يموت. لذلك يعتقد أصلاء أمبوينا أن قوتهم تكمن في شَعرهم ويفقدونها عندما يحلقونه. وقد صمد مجرم أمام التعذيب في محكمة هولندية صمد في نكرانه الذنب المتهم به، وعندما حُلق شعره اعترف على الفور. وتحمَّل رجل يُحكَم بتهمة القتل، دون استكانة كل التعذيب المُمارس عليه حتى رأى الحلاق يقف ومعه مقص. سأل المجرم عن غرض استعمال المقص فقالوا له أنهم سيقصون شعره فتوسل إليهم ألا يفعلوا وأفصح عن كل ما في صدره. وعندما تخفق محاولات التعذيب بانتزاع الاعتراف من السجين، تمارس السلطات الهولندية قص الشعر.

هنا في أوروبا اعتقد الناس أن قوة الساحرات الشريرة تكمن في شعورهن، ولاشيء يمكن أن يؤثر فيهن مادمن يحافظن عليها. جرت العادة في فرنسا أن يحلقوا جسم المتهمين كله مع تطبيق السحرعليهم قبل تسليمهم للمعذِّبين. وقد شاهد ميلايوس تعذيب بعض الأشخاص في تولواس بعد أن أخفقوا في انتزاع الاعتراف منهم حتى حلقوا شعرهم بالكامل. وما إن تعروا من شعورهم حتى أقروا بحقيقة التهم الموجهة إليهم. وهناك امرأة تبدو تقية تعرضت للتعذيب بتهمة الشعوذة، وتحملت الآلام بتماسك منقطع النظير. وعندما نتفوا شعرها بالكامل اعترفت بذنبها. وكان المحقق المتميز يبرنجر يكتفي بحلق شعر رأس المتهمين بالشعوذة، أما زميله كومانوس، فحلق شعر جسم سبع وأربعين امرأة قبل تعذيبهن باللهيب. وكانت له صلاحية مطلقة بممارسة هذه الطريقة، لأن الشيطان نفسه في العظة التي ألقاها من منبر كنيسة بيرويك الشمالية، طمأن أتباعه بأن أكد لهم أنه ما من ضرٍ يصيبهم (مادام أن شعورهم عليهم، ويجب ألا يسمحوا لها بالسقوط.) كذلك في باستر وهي

مقاطعة في الهند، (إذا ثبتت تهمة الشعوذة على أحدهم، يجلدونه أمام الجموع ويحلقون شعره لأن فيه القوة الشريرة، ويقال إن أسنانه بارزة كي لا ينطق التعاويذ.... وعلى النساء اللواتي يُتَّهَمن بالسحر وتثبت عليهن التهمة، تطبق عليهن العقوبة نفسها، وبعد حلق شعورهن يلصق على شجرة بمكان عام.) لذلك عند قوم بهيلز في الهند، عندما تدان امرأة بالشعوذة وبعد أن تخضع لجيمع أشكال الضغط كأن تُربَط على شجرة ويتدلى رأسها نحو الأسفل ويضع الفلفل في عينيها، يقطعون خصلة من شعرها ويدفنونها في الأرض، (وذلك لقطع آخر صلة تربط بينها وبين قوى الشر.) كذلك الأمر لدى قوم الأزتيك في المكسيك، عندما يقوم السحرة أو الساحرات بأعمال شريرة ويأتي وقت وضع حد لحياتهم الكريهة، يلقون القبض عليهم ويجزون الشعر عن ناصيتهم، الأمر الذي يسلبهم قوة السحر والشعوذة، ثم ينهون وجودهم البغيض بالموت.

2ـ الروح الخارجية في النباتات

لقد أثبتنا ارتباط حياة الشخص في الحكايات الشعبية أحياناً بحياة نبتة ويتبع ذبولَها موتُ الشخص. لدى قوم مبينغاس في أفريقيا الغربية بالقرب من غابون، عندما يولد طفلان في يوم واحد يغرس ذووهما شجرتين من نفس النوع ويرقصون حولهما. يعتقدون أن حياة كل طفل منهما ترتبط بواحدة من الشجرتين؛ وإذا ماتت الشجرة أو قُطعت يثقون كل الثقة أن الطفل المرتبط سيموت على الفور. وفي الكاميرون يُعتقد أن حياة الشخص مرتبطة بحياة شجرة. احتفظ رئيس أولدتاون في كالابار بروحه في أيكة مقدسة قرب نبع ماء. عندما قطع بعض الأوربيين تلك الأيكة من قبيل المرح أو الجهل، سخطت الروح وهددت المجرمين، على حد قول الملك، بالقيام بكل ما يتاح ضدهم من أفعال شريرة.

ويربط بعض البابوان حياة المولود الجديد بشجرة يقحمون حصاة في لحائها. ويفترضون أن هذا يمكّنهم من السيطرة تماماً على حياة الطفل؛ فإذا ما قُطعت الشجرة يموت الطفل. وبعد ولادة الطفل عند قوم الماوري يدفنون الحبل السري في مكان مقدس ويغرسون شجيرة صغيرة فوقه. يدلهم نمو الشجرة على حياة الطفل؛

فإن ترعرعت، سيكبر الطفل وإن ذوت وماتت يتنبأ الأبوان للطفل بأسوأ الأشياء. وفي بعض أنحاء فيجي يدفنون حبل الوليد السري مع جوزة هند أو شريحة من شجرة بردفروت، ويعتقدون أن حياة الطفل مرتبطة صميمياً بحياة الشجرة. وعند داياك اللاندك وتاجان وهما مقاطعتان في بورنيو الهولندية، اعتادوا على غرس شجرة مثمرة للوليد، وساد اعتقاد عام مفاده أن قدر الطفل مرتبط بقدر الشجرة. فإذا أطلقت براعمها بسرعة، ستجري أمور الطفل على مايرام؛ وإذا تقزمت وذبلت، لا يصيب مثيلها الآدمي إلا المصائب.

ويقال إنه مازالت هناك عائلات في روسيا وألمانيا وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا تمارس عادة غرس شجرة عندما تُرزَق بمولود جديد. ويأملون أن تنمو الشجرة مع نمو الطفل ويولونها عناية خاصة. ومازالت العادة متبعة بشكل واسع في إقليم آرغاو في سويسرا؛ إذ يغرسون شجرة تفاح للصبي وشجرة إجاص للفتاة، ويعتقد الناس أن الطفل سيكبر أو يتضاءل مع الشجرة. وفي ميكلنبورغ يرمون المشيمة عند جذع شجرة فتية، ويعتقد أن الطفل سينمو مع الشجرة. وبالقرب من قلعة دالهوسي، وهي قريبة من إدنبورغ، هناك شجرة سنديان تدعى شجرة إدجويل، ويعتقد أنها مرتبطة مع قدر العائلة بروابط غامضة؛ ويقولون إنه عندما يموت أحد أفراد الأسرة أو يشرف على الموت يسقط غصن من تلك الشجرة. لذا عندما رأوا غصناً كبيراً يقع من الشجرة في أحد أيام تموز الهادئة من عام 1874 قال ساكن الحراج المسن متعجباً: (لقد مات المخبأ!) وسرعان ما وصل نبأ موت فوكس مول، أيرل دالهوسي الحادي عشر.

في إنكلترا يمر الأطفال أحياناً في شجرة دردار مفلوعة كعلاج للفتق، بالتالي يفترضون صلة تعاطفية بينهم وبين الشجرة. ينمو الدردار على أطراف شيرلي هيث، على الطريق بين هوكيهاوس وبيرمنغهام. (مرَّ توماس تشيلنغورث، وهو ابن صاحب مزرعة مجاورة، وعمره الآن خمس وثلاثون سنة، مر عندما كان في السنة الأولى من عمره بشجرة من تلك الأشجار، وهي الآن قوية يرعاها بعناية لا يسمح لأحد أن يلمس غصناً منها، لاعتقادهم أن حياة المريض تعتمد على حياة الشجرة، وعندما تُقطع، ومهما كان المريض بعيداً يعود إليه الفتاق ويتبعه تموُّت ثم ينتهي بالموت، تماماً كما حصل بالرجل الذي كان يسوق العربة في ذلك الطريق نفسه.) ويضيف

الكاتب قائلاً :(ليس غريباً أن يعيش الأشخاص فترة معينة بعد سقوط الشجرة.) ولجعل العلاج ناجعاً يجب فلع شجرة الدردار طولياً مسافة بضعة أقدام كي تتسع لمرور الطفل عارياً ثلاث مرات أو تسع مرات في الشق عند شروق الشمس. وفي غرب إنكلترا يقال أن مرور الطفل يجب أن يكون بمواجهة الشمس. وحالما ينتهي الطقس يُعاد ربط الشجرة ويُسدُّ الصدع بالوحل أوالصلصال. وساد معتقد أنه حالما يُغلق الصدع يشفى الفتق؛ وإن بقي الشق مفتوحاً يبقى الفتق مفتوحاً أيضاً، وإذا ماتت الشجرة يتبعها موت الطفل المحتم.

ومارسوا في أنحاء أخرى من أوروبا مثل ألمانيا وفرنسا والدانمارك والسويد علاجاً مشابهاً لأمراض عدة وخاصة الفتق؛ لكنهم يستخدمون لهذا الغرض ليس شجرة دردار بل شجرة سنديان؛ وأحياناً يُنصح بشجرة حور. في مكلنبورغ، إنكلترا، يؤمنون بعلاقة تعاطفية بين الشجرة والطفل، بمعنى أنه إذا قُطعت الشجرة مات الطفل.

3ـ الروح الخارجية في الحيوانات

كما هو الأمر في الحكايات الشعبية، لا تقتصر روابط التعاطف الفيزيائي على الأشياء الجامدة والنباتات، بل تتعداه إلى رابط يقوم بين الإنسان والحيوان، بحيث يعتمد ازدهار أحدهما على إذدهار الآخر، وعندما يموت الحيوان يموت الإنسان. وفي العادات كما في الحكايات، السحرة وحدهم هم القادرون على نقل الروح من الإنسان إلى الحيوان. يعتقد الياكوت في سيبيريا إن كل ساحر أو طبيب ساحر يحفظ روحه أو إحدى أرواحه متجسدة في حيوان مخفي تماماً عن العالم. ويقول أحد السحرة: (لا يمكن لأحد أن يعثر على روحي الخارجية، فهي مخبأة بعيداً في جبال إدزيكناسك الصخرية.) فقط عند نهاية العام، عندما يذوب الثلج وتسوَد الأرض، تظهر أرواحه الخارجية على شكل حيوانات بين سكان المنطقة. على الرغم من أنها تتجول هنا وهناك إلا أن أحداً لايستطيع أحد أن يراها سوى السحرة. بعض هذه الحيوانات قوية وبعضها ضعيف. تتحرك الحيوانات القوية بسرعة وهي تزأر، وتتسل الضعيفة خلسةً. وعندما تتشاجر الحيوانات يضعف الساحر

صاحب الروح المغلوبة ويمرض ثم يموت. أجبن السحرة هم المتجسدون على شكل كلاب، لأن الكلب لا يؤمِّن السلام لمثيله الآدمي، بل يقضم قلبه ويمزق جسده. والسحرة الأقوياء هم الذين أرواحهم الخارجية على شكل فحول، وظباء، ودببة سوداء، وصقور أو خنازير برية. كذلك يعتبر المساموايد وهم قوم من إقليم توروكنسك، أن لكل ساحرٍ طبيبٍ روحٌ على شكل خنزير بري يقوده بحزام سحري. وعندما يموت الخنزير يموت الساحر نفسه؛ وقد ورد في القصص عن معارك بين السحرة الذين يرسلون أرواحهم للقتال قبل التصادم الشخصي. كما يؤمِن الماليزيون بإمكانية انتقال روح شخص إلى شخص أو حيوان آخر، وبالأحرى يمكن أن تتكون علاقة غامضة بينهما بحيث يعتمد قدر أحدهم على قدر الآخر.

وعند الميلانيزيين في موتا، وهي إحدى جزر الهيبرايد الجديدة، تطبق فكرة الروح الخارجية في الحياة اليومية. في اللغة الموتاوي هناك كلمة tamaniu وتعني (الشيء المُتَجَسِّد أوغير المُتَجَسِّد الذي يَعتقد الإنسانُ أن وجوده مرتبط صميمياً مع وجوده.... وليس لكل من سكن **موتا** مُتَجَسَّدُه المرتبط؛ يتخيل بعضهم فقط أن لهم علاقة بسحلية، أو أفعى، أو ربما حجر؛ ولمعرفة المُتَجَسَّد يتم البحث عنه عن طريق شرب نقيع أوراق معينة وتكديس الثُفالة؛ وأول شيء حي يُرى في الكومة أو عليها هو المُتَجَسَّد المرتبط. يتفرجون على المُتَجَسَّد ولا يعبدونه؛ ويعتقد أصلاء الجزيرة أنه يتجاوب عند مناداته، وأن حياة الإنسان مرتبطة بحياة مُتَجَسَّده المرتبط، وإذا مات المُتَجَسَّد الحي أو انكسر المُتَجَسَّد الجامد أو ضاع، يموت الشخص المرتبط. لذلك في حالة المرض يبحثون عن المُتَجَسَّد المرتبط ليتأكدوا من سلامته وحالته الجيدة.

انتشرت نظرية الروح الخارجية المودعة في حيوان في أفريقيا الغربية وعلى الأخص نيجيريا والكاميرون والغابون. ويؤمِن قوم **فان** في الغابون بأنه لابد من ارتباط كل ساحر بحيوان مفترس في أثناء طقوس دخوله المهنة وتطبيق شعيرة الدم الأخوي أو التآخي، وهي عبارة عن سحب دم من أذن الحيوان وسحب دم من يد الساحر، ثم يُطعَّم دم الحيوان بدم الساحر ودم الساحر بدم الحيوان. وهنا تقوم بينهما علاقة اتحاد بحيث إذا مات أحدهما يموت الآخر. ويُعتقد أن الاتحاد مع الساحر يُكسِبُ قوة كبيرة يستطيع المستفيد أن يسخرها لمصلحته بعدة طرق. وبعد الاتحاد يصبح الساحر منيعاً مناعة تشبه مناعة الساحر الذي يودع حياته في مكان

آمن حسب ما ورد في الحكايات الشعبية. ولا يقتصر الإتحاد على المصير بل يصبح الحيوان أليفاً مع حليفه، يطيعه في كل ما يأمره به، وهذا ما يجعل استخدامه لإيذاء الأعداء أو قتلهم ممكناً. لهذا السبب لا يختارون تبادل الدم الأخوي مع حيوان منزلي أليف، بل حيوان مفترس شرس وخطير، مثل النمر، أو الأفعى السوداء، أو تمساح، أو فرس النهر، أو خنزير بري، أو نسر. يحتل النمر المنزلة الأولى بين هذه الحيوانات المرتبطة بسَحَرة الفان، ثم تأتي الأفعى السوداء بالمرتبة الثانية؛ أما النسر فهو نادر الارتباط. تختص الساحرات بالارتباط بحيوانات تختلف عما يختاره الساحرون من حيوانات كأرواح خارجية. مثلاً لاتتآلف الساحرة مع النمر، بل مع حيوانات سامة حاقدة مثل الأفعى، أو الأفعى المُقَرَّنة، أو الأفعى السوداء، وأحياناً الأفعى الخضراء التي تعيش على أشجار الموز؛ أو ربما الشوحة، أو البومة، أو أي طائر ليلي آخر. في كل الحالات لايشمل العقد الغامض الذي يوحد الساحر بالحيوان أو الطائر لايشمل النوع كله بل ينحصر بالحليف فردياً، وعندما يموت الفرد بالذات يموت حليفه بشكل طبيعي.

في المناطق العائدة للكاميرون من وادي كروس ريفر يعتنق الأصلاء هذه المعتقدات. يختار الناس وخاصة أهل القرية حيوانات متنوعة يرون أنها ترتبط معهم بعلاقة ودية أو علاقة قرابة وطيدة. وهي إما حيوانات قوية أو يمكنها الاختفاء بسهولة في الأدغال مثل أفراس النهر والفيلة والنمور والتماسيح والغوريلات والأسماك والأفاعي. ويعتبرون قدرتها على الاختفاء شرطاً لازماً عندما يختارون الحيوانات المؤالفة لأنهم يريدون من الحيوان الصديق أو المُعِين أن يؤذي عدو صاحبه خلسةً؛ فمثلاً، يخرج فرس النهر فجأة من الماء ويقلب زورق العدو. ويتوقعون وجود علاقة تعاطفية بين الحيوانات وقرائنها أو أصدقائها الآدميين، فلحظة موت الحيوان يموت الرجل أيضاً، والعكس بالعكس. وهذا يعني أنه لا يمكن قتل الحيوان القريب أو إزعاجه خوفاً من إيذاء أو قتل الأشخاص الذين تتضافر حياتهم مع حياة هذه البهائم الغاشمة. ولايمنع من كانت الفيلة حيواناتهم القرينة أن يصطادوا الفيلة. لأنهم لا يحترمون النوع كله بل أفراد معينة منه، أي المقترنين بالودية مع أناس أو نساء معينان؛ ويتخيلون أنهم يميزون دائماً إخوانهم الفيلة عن بقية الفيلة العادية. ويقال أن التمييز متبادل. عندما يقابل الصياد الذي اتخذ فيلاً كصديق عندما يقابل فيلاً

بشرياً، إذا صح التعبير، يرفع الحيوان النبيل مخلبه في وجهه وكأنه يقول: (لا تطلق النار.) وإذا كان الصياد غير إنساني وأطلق على الفيل وجرحه، يمرض الشخص المرتبط بذلك الفيل.

ويعتقد البالونغ في الكاميرون أن لكل شخص روحين: واحدة في جسمه والثانية في حيوان كالفيل أو خنزير بري أو نمر. وعندما يعود الرجل إلى منزله شاعراً بالمرض يقول:(إني أشرفت على الموت) ثم يموت، فيجزم الناس أن إحدى أرواحه قد قُتلت في خنزير بري أو في نمر وأن موت روحه الخارجية تسببت بموت روح جسمه. وهناك إيمان مشابه بالأرواح الخارجية للبشر الأحياء عند قوم إيبوس، وهي قبيلة كبيرة في دلتا النيجر. يعتقدون أنه يمكن لروح الإنسان أن تخرج من جسده فترة معينة في أثناء حياته وتتخذ مقاماً آخر في حيوان. ومن يرغب في إحراز هذه القوة يلجأ إلى عقّار معين يأخذه من رجل حكيم ويخلطه بطعامه. بعد ذلك تخرج روحه وتدخل في حيوان. وإذا صادف أن قُتل الحيوان المسكون بروح الرجل، يموت الرجل؛ وإذا ما جُرح الحيوان تغطي البثرات جسم الرجل. يحرض هذا المعتقد على الكثير من أفعال الغموض؛ فمثلاً يدعي الكثير من المحتالين الخبثاء أنهم دسوا عَقّاراً سحرياً في طعام العدو، وبهذا يهربون روح الآخر إلى حيوانٍ وهذا ما يدمر الكائن، ومعه الرجل الذي تسكن فيه روحه.

يعتقد زنوج الكالابار القاطنون على مصب نهر النيجر أن لكل شخص أربع أرواح تعيش خارج جسمه على شكل حيوان في الغابة. ويمكن لهذه الروح الخارجية ـ أو كما تسميها الآنسة كنغسلي روح الشجيرة ـ يمكن أن تكون حيواناً مثل النمر أو السمكة أو السلحفاة؛ لكنها ليست حيواناً منزلياً أو نباتاً. ولايستطيع الإنسان أن يراها إلا إذا كان موهوباً ببصيرة إضافية، لكن العراف قادر على تحديد أي نوع من الكائنات هي، وبعد أن يعرف الشخص ذلك يحرص على ألا يقتل أي فرد من نوعه، لا بل ويعارض أي شخص يحاول ذلك. للرجل وأبنائه نوع الحيوانات نفسه، وكذلك الأم وبناتها. لكن أحياناً يتبع كل أولاد العائلة روح أبيهم أو روح أمهم، على سبيل المثال، إذا كانت روح الأب الخارجية نمراً تكون روح الأولاد الخارجية، صبية وفتيات، النمر. وإذا كانت روح الأم الخارجية مثلاً سلحفاة تكون روح الأطفال صبية وفتيات سلحفاة أيضاً. وترتبط حياة الإنسان بشكل

صميمي بالحيوان الذي يَعتَبر روحَه الخارجية فيه، وأي أذية تحصل للحيوان لابد من أن تحصل للإنسان، وموت الحيوان يتبعه موت الإنسان. والعكس بالعكس، عندما يموت الإنسان، تعجز روح الشجيرة عن إيجاد مكان تخلد إليه، ويصيبها الجنون فترمي بنفسها في النار أو تتهجم على الناس فيضربونها على رأسها فتموت.

وبالقرب من إيكيت في كالابار الشمالية هناك بحيرة مقدسة يصونونها بعناية لاعتقاد الناس أن أرواحهم الخارجية تسكن في أسماكها، وكلما تُقتل سمكة، تزهق روح آدمية في الوقت نفسه. وكان هناك تمساح ضخم في نهر كالابار منذ سنوات قليلة، يعتقد الناس أنه يحتوي على روح الرئيس الخارجية التي تسكن جسمه في ديوكتاون. ومن قبيل التسلية كان يصطاد معاون القنصل حيواناً بين الحين والآخر، وذات يوم ضربه أحد الضباط. في الوقت نفسه جُرحت ساق الرئيس وصار طريح الفراش. صرح الرئيس أن كلباً عضه، لكن الحكماء هزوا رؤوسهم رافضين القبول بهذه الحجة الواهية. وعند العديد من القبائل على ضفاف نهر النيجر بين لوكوجا والدلتا ساد معتقد عن إمكانية امتلاك الإنسان لما يسمى **النفس الأخرى** على شكل حيوان مثل التمساح أو فرس النهر. ويعتقدون أن حياة هذا الشخص مرتبطة بالحيوان إلى حد أنه مهما حصل للأول يتأثر به الآخر، وإذا مات أحدهما مات الآخر على الفور. ومنذ وقت قريب صادف أن اصطاد أحد الإنكليز فرس نهر بالقرب من القرية؛ ثم أتت صديقات امرأة في نفس الليلة وطلبت تعويضاً يعادل خمس ليرات على مقتل صديقتهم التي ماتت الليلة نفسها في القرية وبالطبع حصلن على ما يطلبن.

وعند الزابوتيك في أمريكا الوسطى عندما توشك المرأة الحامل على الوضع يجتمع أقرباؤها في الكوخ ويرسمون أشكال حيوانات مختلفة على الأرض، وكلما يكمل أحدهم شكلاً يمحوه. يستمرون في هذا حتى اللحظة التي تلد فيها المرأة، والشكل المكتمل في تلك اللحظة يسمونه **نفس الطفل الأخرى**. وعندما يكبر الطفل يجلب الحيوان الذي يمثله ويعتني به لأن صحته ووجوده مرتبطة بصحة ووجود ذلك الحيوان، ولأنهما سيموتان في اللحظة نفسها، أو على الأرجح عندما يموت الحيوان يموت الإنسان. وعند هنود غواتيمالا والهندوراس هناك مايسمى **ناغوال**، وهو عبارة عن شيء حي أو جامد، لكن على الأغلب حيوان، يقابل شخصاً معيناً

ويوازيه بالخير والشر، بالكرب والرخاء. ويقول كاتب قديم إن الشيطان يوهمهم أن حياتهم تعتمد على حياة ذلك الحيوان الذي يعتبرونه روحهم الأليفة. ويعتقدون أنه عندما يموت الحيوان لابد من أنهم يموتون؛ وعندما يُطارَد، يتسرع نبض قلبهم؛ وعندما يدوخ، يُغمى عليهم؛ لا بل، ويوهمهم الشيطان أنهم يظهرون بمظهر الحيوان الذي اختاروه (وهو عادة بطة أو ظبية أو أسد أو نمر أو كلب أو نسر) ويقتلون أو يموتون في ذلك الشكل. وهم على قناعة تامة أن موت ناغوالهم يؤدي إلى موتهم. وتؤكد الأسطورة أنه في المعارك الأولى مع الإسبانيين على نجد كوتزلتينانغو، حاربت ناغوالات الرؤساء الهنود على شكل أفاعٍ. وكان ناغوال القائد الأعلى هو الأكثر وضوحاً لأنه على شكل طائر متألق بريشه الأخضر المضيء. وقد قتل القائد الإسباني بدرو إلفارادو الطائر برمحه وفي اللحظة نفسها سقط القائد الهندي ميتاً على الأرض.

وعند العديد من قبائل جنوب شرق أستراليا يعتبر كل من الجنسين نوعاً حيوانياً معيناً بالطريقة نفسها التي اعتبر فيها هنود أمريكا الوسطى ناغوالهم لكن بفارق واحد. في حين يعرف الهنود من حيث الظاهر حيوانهم الفردي الذي ترتبط به حياتهم، لا يعرف الأستراليون أن حياة كل فرد منهم مرتبط بفرد معين من النوع الحيواني، بل ما يعرفونه هو فقط النوع الحيواني ككل. فتكون النتيجة أن يحافظ كل شخص على جميع أفراد النوع الحيواني الذي ترتبط معه كل رجال قبيلتهم؛ وكل امرأة ترعى وتحافظ على الحيوان الذي ترتبط به حياتهن؛ لأنهن يعلمن أن موت أي فرد من الحيوانات يؤدي إلى موت فرد منهن؛ تماماً كما مات الرئيس الهندي بعد قتل الطائر الأخضر، ومات بنتشكين بعد قتل الببغاء في الحكاية الخرافية. لنأخذ مثالاً آخر وهم قبيلة وتسوبالوك في جنوب شرق أستراليا الذين يعتقدون أن حياة الخفاش هي حياة الرجل، وحياة السبد وهو طائر ليلي هي حياة المرأة. وكلما مات أحدهما يقصُر عمرُ رجل أو امرأة. بهذه الحالة يخاف كل رجل وامرأة أن يكون هو الضحية، ويُثارُ خصام عنيف بين أفراد القبيلة بهذا الدافع. وعلمت عن بعض خصاماتهم التي تخاصم فيها رجال القبيلة مع نسائها، ولم تحسم المعركة من هو المنتصر، لأن النساء كن يكلن الرجال بضربات قوية من عِصيِّهِن اليامية، كما أصيبت النساء بجروح جراء ضربات رماح الرجال. ويقول أحدهم أن

الخفاش هو أخ الرجل والسبد هو زوجته. وكانت تختلف من قبيلة إلى أخرى الأنواعُ التي ترتبط بها حياة الرجال والنساء على التوالي. في غنباور كريك عند موري الدنيا كان الخفاش حيوان النساء ولا يقتله الأهالي لأنه لو قُتل سينجم عنه حتماً وفاة إحدى النساء. لكن أياً كانت الكائنات المرتبطة بالنساء أوالرجال فإن المعتقد بحد ذاته والخصومات التي انتشرت بينهم قد سادت في جزء كبير من جنوب شرق أستراليا ، وربما توسعت أكثر من ذلك. كانوا يأخذون هذا المعتقد بجدية كبيرة وكانت الخصومات على درجة الجدية نفسها. لذلك عند بعض قبائل فكتوريا ينتمي الخفاش العادي إلى الرجال الذين يحمونه من الأذى، حتى لو كادوا يقتلون زوجاتهن لأجله. وتنتمي بومة السرخس وهي نوع من السبد للنساء. ورغم أن الطائر هو مؤشر شؤم ويخلق الرعب في الليل بزعقاته، تحميه النساء بكل غيرة. وإذا ما قتل رجل أحد هذه الطيور ينزل عليهم السخط كما لو أنه أحد أبنائهن، ويضربنه بعصيهن الطويلة.

لاتعتمد الحماية الغيور التي يؤمنها الرجا ل والنساء الأستراليون للخفافيش والبومات على التوالي (لأن الخفافيش والبومات هي الكائنات المكرسة للجنسين) لا تعتمد على اعتبارات أنانية بحتة. لأن كل شخص يعتقد أنه ليس حياته فقط بل حياة آبائه وإخوانه وأبنائه كلهم مرتبطة بحياة خفافيش معينة، وحمايته لنوع الخفافيش هي حماية كل الذكور من أقاربه بالإضافة إلى حماية حياته الخاصة. كذلك تعتقد كل امرأة أن حياة أمها وبناتها وأخواتها وغيرهن تساوي حياتها هي بالذات، وترتبط بحياة البومات، وحمايتها لنوع البومة إنما تحمي كل الإناث من قريباتها بالإضافة إلى حياتها هي بالذات. كذلك يفترضون أن حياة الرجال محتواة في حيوانات معينة، وبالكاد تتميز الحيوانات عن الرجال، أو الرجال عن الحيوانات. إذا كانت حياة أخي جون في خفاش، والخفاش هو أخي كما هو جون؛ هذا يعني أن جون هو خفاش لأن حياته في خفاش. وإذا كانت حياة أختي ماري في بومة، إذن البومة أختي وماري بومة. هذه نتيجة طبيعية لم يخفق الأستراليون في استنباطها. عندما يكون الخفاش هو حيوان الرجل، يسمى أخاه؛ وعندما تكون البومة حياة المرأة، تسمى أختها. وبالتالي يخاطب الرجلُ المرأةَ على أنها بومة، وهي تخاطبه على أنه خفاش. وعلى الشاكلة نفسها يتم تخصيص حيوانات أخرى للجنسين على

التوالي في قبائل أخرى. على سبيل المثال، عند الكورناي طيور **الأمو** هي إخوان الرجال، وكل الرجال هم أمو، وكل طيور الهازج هي أخوات النساء، وكل النساء هن طيور الهازج.

عندما يسمي البدائي نفسه باسم حيوان ويناديه على أنه أخوه ويرفض أن يقتله، يقال عن الحيوان أنه طوطمه. بالتالي يمكن نعت القبائل في جنوب شرق أستراليا الذين يعتبرون الخفاش والبومة، والأمو والطائر الهازج، يمكن نعتها بذلك الطواطم من الجنسين. لكن ربط الطوطم بالجنس شيء نادر نسبياً، ولم نكتشف حالة مماثلة إلا في أستراليا. بل الشائع أن يكون الطوطم غير مرتبط بالجنس، بل بالعشيرة، وهو وراثي عبر الخط الذكري أو الأنثوي. لاتختلف علاقة الفرد بنوع طوطم العشيرة عن العلاقة بجنس الطوطم؛ فهو لايقتله ويتكلم عنه على أنه أخوه، ويسمي نفسه باسمه. فإذا كانت العلاقات متشابهة فالتفسير الذي ينطبق على واحد منها ينطبق على الآخر. إذاً فالسبب الذي يجعل العشيرة تبجل نوعاً معيناً من الحيوانات أو النباتات(فطوطم العشيرة قد يكون نباتاً) وتسمي نفسها باسمه، هو اعتقادهم أن حياة كل فرد من العشيرة مرتبط بحيوان معين أو نبات معين، وأن موته أو موتها هو نتيجة قتل ذلك الحيوان أو تدمير ذلك النبات. يوضح هذا التفسير للطوطمية بدقة تعريف السير جورج غري للطوطم أو الكوبونغ في أستراليا الغربية. يقول السير جورج غري:(هناك علاقة غامضة بين العائلة والكوبونغ الخاص بها، علاقة تمنع أي فرد من أفراد العائلة أن يقتل الحيوان الذي ينتمي إليه كوبونغها إذا ما كان نائماً؛ بالحقيقة هو لا يقتله إلا كارهاً ولايفعل إلا بعد أن يعطيه الفرصة للهرب. وهذا ما يتضح من معتقد العائلة أن أحد أفراد هذا النوع هو أقرب صديق، وقتله جريمة عظمى، وعليها أن تتجنبه. اتخذ أحد الأصلاء نباتاً ككوبونغ له ولايمكن أن يجمع ذلك النبات إلا في ظروف معينة، وفي فترة محددة من السنة. وهنا سنلاحظ أنه على الرغم من تجنب كل رجل جميع الحيوانات أو نباتات النوع، لكنها ليست كلها متساوية من حيث القيمة بالنسبة إليه؛ بل هناك فرد معين يحتل في قلبه مكانة خاصة؛ لكن بما أنه لا يعرف أياً منهم هو ذلك الفرد، هو مضطر إلى أن يتحاشى أفراد النوع كلها خوفاً من أن يؤذي أياً منها. كذلك ينسجم هذا التفسير لطوطم العشيرة مع الأثر المفترض لقتل أحد أفراد الطوطم. ذات يوم قتل أحد

السود غراباً. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام مات أحد الغربان (أي أحد أفراد عشيرة الغربان) واسمه لاري. ظل يتوجع عدة أيام، لكن قتل طوطمه عَجَّل في موته. هنا يسبب موتُ طائر الغراب موتَ رجل من عشيرة الغربان، تماماً كما حصل للطواطم الجنسية، أي قتل خفاش يسبب موت الرجل الخفاش وقتل البومة يسبب موت امرأة البومة. كذلك يأتي قتل ناغواله سبباً في موت هندي من أمريكا الوسطى، وقتل روح الشجيرة يسبب موت زنجي الكالابار، وقتل الحيوان الذي أودعت فيه حياته يسبب موت العملاق الساحر في الحكاية الخرافية.

هنا تأتي قصة **العملاق الذي ليس له قلب في صدره** لتبرر العلاقة المفترضة بين الرجل وطوطمه. الطوطم هو ببساطة الوعاء الذي يحفظ الشخصُ حياتَه فيه، كما حفظ بنتشكين حياته في ببغاء، وحفظ بيداساري روحه في سمكة ذهبية. وأي اعتراض يكون باطلاً إذا ما وُجِّه ضد فكرة أن للبدائي طوطمين، طوطم جنسي وطوطم عشيرة وترتبط روحه بحيوانين مختلفين، وموت أحدهما يقتضي موته. وإذا أُتيح للإنسان أمكنة أكثر حيوية من جسمه، لماذا لا يتخذها البدائي مسكناً لروحه، ولماذا لا يختار مكاناً أفضل من ذلك المكان الخارج عن جسمه؟ أي لماذا لاينقل قسماً منها إلى حيوان والقسم الآخر إلى حيوان آخر؟ إن قابلية انقسام الحياة، أو بالأحرى إمكانية تعددية الأرواح، هي فكرة مطروحة في كثير من الحقائق المعروفة، وظهرت عند فلاسفةٍ مثل أفلاطون كما ظهرت للبدائيين. ولا يكون الإصرار على وحدتها وعدم قابليتها للتقسيم شيئاً ضرورياً، إلا عندما تتحول فكرة الروح من فرضية شبه علمية إلى عقيدة دينية. وبما أن البدائي غير مقيد بالعقيدة، يتمتع بحرية تفسير حقائق الحياة بناءً على افتراض عدد من الأرواح يرى أنها ضرورية. المثال على ذلك هو قوم الكاريب الذين يفترضون وجود روح في الرأس، وأخرى في القلب، وأرواح أخرى في كل الأماكن التي فيها شرايين تنبض. ويفسر بعض هنود الهيداتسا ظواهر الموت التدريجي عندما تموت الأطراف أولاً، مفترضين أن للإنسان أربع أرواح تغادر الجسم الواحدة تلو الأخرى ولا يحصل الموت الكامل إلا بمغادرة جميع الأرواح. ويعتقد بعض الداياك في بورنيو والماليزيون في شبه الجزيرة أن لكل إنسان سبع أرواح. أما قوم ألفور بوسو في سيليبيس فيؤيدون فكرة وجود ثلاث أرواح. ويفترض أصلاء لاوس أن في الجسم ثلاثين روحاً تسكن في الأيدي والأقدام

والفم والعينين وغيرها. ومن وجهة النظر البدائية، من الممكن جداً أن يكون للإنسان روح في طوطم جنسه وأخرى في طوطم عشيرته. لكن كما قلت لم نصادف طواطم الجنسين إلا في أستراليا؛ فيتأكد لنا مبدأ أن البدائي الذي يمارس الطوطمية لا يحتاج إلى أكثر من روح واحدة خارج جسمه في المرة الواحدة.

إن تفسير الطوطم على أنه إناء يحفظ فيه الإنسان روحه أو أحد أرواحه هو تفسير صحيح، ويفصح الطوطميون مثل باتاك سومطرة صراحة عن اعتقادهم أن كل واحد منهم يحفظ على الأقل إحدى أرواحه خارج جسمه، وأن تدمير هذه الروح الخارجية يؤدي إلى موت صاحبها. يُقسَم الباتاك إلى عشائر مصاهرة من الغرباء المتحدرين عبر الخط الذكوري؛ ويمنع على كل عشيرة أن تأكل لحم حيوان معين. أي لا يجوز أن تأكل إحدى هذه العشائر النمر، وأخرى القرد، وأخرى التمساح، وأخرى الكلب، وأخرى القطة، وأخرى الجاموس الأبيض، وأخرى الجراد. والمبرر الذي يقدمه أفراد العشيرة لعدم تناولهم لحم حيوان معين هو إما أنهم ينحدرون من نوع الحيوان نفسه، وبالتالي ستهاجر روحهم بعد الموت إلى أحد هذه الحيوانات، أو أنهم أو أجدادهم التزموا باحترام تلك الحيوانات. وأحياناً وليس دائماً تحمل العشيرة اسم الحيوان. بهذا تكون الطوطمية عند الباتاك طوطمية كاملة. لكن يعتقد كل فرد من الباتاك أن له سبع أرواح أو على أقل تقدير ثلاث أرواح. تتواجد إحدى هذه الأرواح دائماً خارج جسمه، لكن رغم ذلك، كلما تموت تلك الروح مهما كانت بعيدة في تلك اللحظة يموت الشخص أيضاً. لم يذكر الكاتب الذي يتحدث عن هذا المعتقد أي شئ عن طواطم الباتاك؛ لكن بالقياس على الأدلة الواردة عند الأستراليين، والأمريكيين الأوسطيين، والأفارقة، لنا أن نتوقع أن الروح الخارجية التي موتُها يتبعه موت الإنسان تسكن في الحيوان أو النبات الطوطمي.

بناءً على هذه النظرة، لايمكننا أن نشك في أن الباتاكي لايقر صراحةً أن روحه الخارجية في طوطمه، بل يزعم أسباباً أخرى وراء احترامه لحيوان أو نبات عشيرته المقدس. وإذا كان إيمان البدائي عميقاً بأن حياته مرتبطة بشيء خارجي، من المستبعد جداً أن يفشي هذا السر لغريب. البدائيُّ ظنونٌ وحريصٌ لأبعد الحدود عندما يمس الأمرُ حياتَه السرية ومعتقداته.؛ وقد أقام الأوربيون بين البدائيين سنين عديدة دون أن يعرفوا أركان إيمانهم الرئيسية، وكل ما استطاعوا كشفه كان

نتيجة مصادفة. إذن يعيش البدائي خوفاً دائماً وشديداً من قتله عن طريق السحر؛ ويتخيل أن أتفه أشيائه الخاصة – قصاصات شعره وأظافره، بصاقه، بقايا طعامه، اسمه الخاص – قد تصبح مدمرة له على يد الساحر، وهو حريص كل الحرص على أن يخفيها أو يدمرها. وإذا كان حذراً وسرياً في أشياء تشكل الخط الأول للدفاع عن حياته، فكم تتوقع حرصه إذا ما تعلق الأمر بقلعته وتحصيناته التي تحفظ وجوده؟ عندما تسأل الأميرةُ العملاقَ في الحكاية الخرافية عن مكان روحه، يعطيها على الأغلب أجوبة كاذبة أو مراوغة، ولايفضي بسره إلا بعد مداهنة وتملق شديدين. يشبه العملاقُ بتكتمه الغيور البدائيَ الرعديد والماكر؛ لكن في حين تقتضي الضرورة في القصة أن يكشف العملاق عن سره، ما من شيء يعفي البدائي من هذا الالتزام؛ وما من إغراء يجعله يخاطر بروحه ويكشف مكان اختبائها لغريب. ولاعجب أن يبقى لغز البدائي المركزي سراً لوقت طويل، ولا عجب أنه علينا أن نجمع أجزاءه من البقايا المبعثرة ومن الذكريات الباقية في الحكايات الخرافية.

4ـ شعيرة الموت والبعث

تلقي هذه النظرة للطوطمية الضوء على فئة من الشعائر الدينية التي ليس لها، على حد علمي، تفسير حتى الآن. اعتادت القبائل البدائية وخاصة المعروفة بممارستها للطوطمية أن يخضع فتيانها عند بلوغهم إلى شعائر الدخول في سن الرجولة، وأكثرها شيوعاً هي التظاهر بقتل الفتى وإعادته للحياة ثانيةً. وتصبح هذه الشعائر واضحة إذا ما افترضنا أنها تتألف من استخلاص روح الشباب لنقلها إلى طوطمه. فاستخلاص روحه هو قتل الشباب أو على الأقل إدخاله في غشية الموت التي بالكاد يميزها البدائي عن الموت نفسه. ثم تُعزى صحوته إما إلى الاستعادة التدريجية لنظامه من الصدمة القوية التي تلقاها، أو، على الأرجح، نفخ الحياة الجديدة فيه من قِبَل الطوطم. لذا فجوهر شعائر الدخول في الرجولة، مادامت تقليداً للموت والبعث، فهي تبادل الحياة أو الأرواح بين الإنسان وطوطمه. ويظهر المعتقد البدائي بوضوح خلال إمكانية تبادل الأرواح في قصة الصياد باسك الذي أكد أنه قُتِل على يد دبٍ، لكن بعد أن فعل الدب ذلك نفخ فيه روحه، فمات جسد الدب،

وصار الصياد دباً على اعتباره يعيش على روح الدب. يوازي انبعاث الصياد الميت كدب، حسب النظرية المقترحة هنا، ما يحل - في هذا الطقس - محل قتل الفتى عند البلوغ وإعادته للحياة ثانيةً. يموت الفتى كإنسان ويعود للحياة كحيوان؛ فروح الحيوان تسكنه، وروحه الآدمية في الحيوان. من حقه إذن أن يسمي نفسه دباً أو ذئباً، كلٌ حسب طوطمه؛ ومن حقه أن يعامل الدببة أو الذئاب كإخوانه لأنها تُسكِن أرواحه وأرواح أقاربه.

إليكم بعض الأمثلة عن هذا الموت والبعث المفترَضَين. عند قبيلة الوانجي أو الوانجيبون في نيوساوثويلزي يمر الشباب الذين يقاربون سن الرجولة في طقوس سرية لا يشهدها إلا الرجال الداخلون سابقاً. يتألف الطقس من عدة عمليات منها خلع أحد الأسنان وإعطاء المبتدئ اسماً جديداً، ليدل على التحول من الشباب إلى الرجولة. عندما يقتلعون السن يستخدمون أداة يسمونها خوار الثور وهي عبارة عن قطعة خشب مسطحة بحواف مسننة كالمنشار ومربوطة بخيط، تدور بحيث تطلق طنيناً عالياً. لايسمح لغير المنسبين إلى الرجولة أن يروا هذه الأداة. كما يمنع على النساء أن يشهدن هذه الطقوس تحت طائلة الموت. ويصرحون أن الشباب يواجَهون من قبل كائن خرافي يدعى ثوروملين أو على الأغلب دارامولون الذي يأخذ الشاب بعيداً، يقتله، وفي بعض الروايات يقطعه ثم يعيده للحياة ويقتلع أحد أسنانه. إن إيمانهم بقوة ثوريملين يقين لا يتزعزع.

ويقول أوالاروي من نهر دارلنغ الأعلى أن شبحاً يقابل الفتى عند دخوله الرجولة، ثم يقتله ويعيده للحياة شاباً من جديد. ويقول أصلاء نهرَي موري ولانشلان الأدنى أن ثرومالون هو الذي يقتل المبتدئين وينعشهم. وعند قبيلة أزنماتجيرا في أستراليا الوسطى، يعتقد النساء والأطفال أن روحاً تدعى توتتايريكا تقتل الشاب وتعيده للحياة ثانية خلال فترة دخوله الرجولة. أما الشعائر المتبعة عند هذه القبيلة هي الشعائر المتبعة عند بقية قبائل أستراليا الوسطى نفسها، فهي تشمل عمليات الختان أو وصم أسفل العضو الذكري؛ وحالما يفرغ الشاب من عملية الوصم يتلقى من أبيه عصاً مقدسة (شورينغا)، ويُبْلِغُه أن روحه مرتبطة بالماضي السحيق.وعندما يخرج إلى الغابة ليتخلص من جروحه، عليه أن يؤرجح الأداة المسماة خوار الثور، أو يَنْزِلُ كائن يعيش في السماء وينقض عليه ويحمله. وعند قبيلة البنبينغا على الساحل

الغربـي مـن خليج كاربنتاريـا يعتقـد النـساء والأطفـال أن صـوت أداة خـوار الثـور المستخدمة في طقوس الدخول في الرجولة صادر عن روح ـ تدعى كاتاجالينا ـ تعيش في كثيب نملٍ. تخرج هذه الروح وتلتهم الفتى، ثم تعيده فيما بعد إلى الحياة. كذلك الأمـر عنـد جيرانهـم الأنـولا حيـث تتخيـل النـساء أن صـوت أزيـز الآلـة صـادر عـن روح تدعى غنابايا التي تبتلع الفتى عند دخوله الرجولة ثم تلفظه على شكل رجل منتسب إلى الرجولة.

وعند القبائل المستقرة بالقرب من الساحل الجنوبي من نيوساوثويلز، ومـن بينهم قبيلة ساحل مورنغ التي تعتبر قبيلة نموذجيـة، يعرضـون مـسرحية بعـث المبتـدئين عنـد طقوس الدخول بشكل تصويري مفصل. وقد وصـف لنـا شـاهد عيـان ذلـك الطقـس علـى الـشكل التـالي. يـستلقي رجـل متنكـر بأليـاف لحـاء خيطيـة في اللحـد ويغطـى بالقليل من العصي والتراب. يمسك غصناً صغيراً في يده، وكأنـه مـزروع في التربـة، كمـا يغرسـون عـصياً أخـرى في التربـة لرفـع مفعـول التمثيـل. ثـم يـأتون بالمبتـدئين ويضعونهم بجانـب اللحـد. بعدهـا يـأتي موكـب مـن الرجـال متنكـرين بأليـاف لحـاء خيطية ويقتربون من المكان. إنهـم يمثلـون فريقـاً مـن الأطبـاء يقـودهم اثنـان مـن عِلْيَة القـوم الـذين كـانوا قـد أتـوا للحـج إلى قبر أخ طبيـب مـدفون هنـاك. يخـرج الموكـب الصغير من بين الصخور وهو ينشد ابتهالاً لداراموولون، ويقف بجانب اللحد في الجهـة المقابلة للمبتـدئين، ويـأخذ الـرجلان المسنان موقعـاً خلـف الراقـصين. تـستمر الرقـصة والأغنية بعض الوقت حتى تبدأ الشجرة، التي يبدو أنهـا تنمـو مـن اللحـد، بالحركـة. يصرخ الرجال بالمبتدئين:(انظروا هنـاك!) ويشيرون إلى الأوراق المهتزة. وتهتـز الـشجرة أكثر فأكثر عندما ينظـرون، ثـم تتحـرك بعنـف وتسقط علـى الأرض، وسـط هيـاج رقـص وغنـاء الجوقـة تـصعد كومـة العـصي عـن الميـت المفـترض ويثـب بقـوة ويـرقص ويغني في اللحد، ويخرج من فمه المواد السحرية الـتي يفـترض أنـه تلقاهـا مباشـرة مـن داراموولون.

مثـل الكـثير مـن القبـائـل الأسـترالية، تفـرض بعـض القبـائـل في غينيـا الجديـدة الشمالية مثل اليابين والبوكـاوا والكـاي والتـامي، تفـرض علـى ذكورهـا أن يُختتـوا قبل سن البلوغ الكامل؛ وتطلب منهم الدخول في القبيلة بعد الخضوع لطقس قوامـه الختـان الـذي يطبقونـه كمـا تطبقـه بعـض القبـائـل الأسـترالية، كعمليـة ابـتلاعهم

ولفظهم من قبل وحش أسطوري يُسْمَع صوته من طنين أداة خوار الثور. بالحقيقة، لاتتوقف قبائل غينيا الجديدة عند إيمان النساء والأطفال، بل يمثلونه بشكل مسرحي ضمن شعيرة دخول فعلية يُمنع على النساء والأطفال حضورها. لهذا الغرض ينصبون كوخاً بطول مئة قدم، إما في القرية أو في مكان منعزل في الغابة. ويجعلون شكله على هيئة وحش أسطوري؛ بحيث تكون نهايته التي تمثل رأس الوحش عالية، وتستدق في الطرف الآخر. وينبشون نخلة تتبول بجذورها ويستخدمونها لتمثل ذلك الكائن العظيم ويجعلون أليافها المعنقدة مكان شعره؛ ولإكمال الصورة يزين فنان محلي النهاية السفلى للشجرة بمنظار لعينيه وبفم فاغر. وبعد انفصالٍ باكٍ عن أمهاتهم ونسائهم اللواتي يؤْمِنَّ أو يتظاهرن أنهن يؤمنَّ بالوحش الذي يبتلع أعِزَّاءهم. يوضع المبتدئون وجهاً لوجه أمام الكائن الضخم الذي يطلق الجعير المُنكِد الذي هو بالحقيقة طنين أدوات خوار الثور التي يدوِّرها رجال مختبئون في جوف الوحش. ويقومون بتمثيل عملية الإزدراد الفعلية بعدة أشكال. يتمثل الابتلاع عند قوم تامي بتمرير المرشحين أمام نسق من الرجال الذين يحملون أدوات خوار الثور على رؤوسهم؛ وعند الكاي يصورونه بشكل أدق فيجعلونهم يمرون تحت سقالة يقف عليها رجل يهايئ تعابير الابتلاع ويأخذ بُقَّ ماءٍ كلما مر تحته أحد المبتدئين المذعورين. لكن تقديم خنزير في الوقت المناسب افتداءً للشاب، يغري الوحش فَيَلين ويلفظ ضحيته؛ ويَقبَل الرجلُ الذي يمثل الوحشَ الهديةَ بالنيابة فيُسمع صوت قرقرة الماء الذي ابتُلِع تواً ويُنْفَثُ بقوة على المبتدئ. وهذا يدل على أن الشاب قد تحرر من بطن الوحش. لكن عليه الآن أن يمر بالعملية الأخطر والأكثر إيلاماً وهي الختان الذي يأتي بعد هذا مباشرةً. يقوم مُجْرِي العملية بالجَرح بواسطة سكين ويزعمون أنه العض أو الخدش الذي أنزله الوحش بالمبتدئ في أثناء تهوعه أو لفظه من معدته الكبيرة. وفي أثناء العملية يَصْدُرُ صوتٌ صاعق جراء تدوير أدوات خوار الثور لتمثيل هدير ذلك الكائن المخيف الذي يبتلع الشاب.

عندما يموت أحد الفتيان مصادفة من آثار هذه العملية، يُدفن سراً في الغابة، ويخبرون أمه المنكوبة أن للوحش معدة خنزير بالإضافة إلى معدة إنسان، ولسوء حظه انزلق ابنها إلى المعدة الخاطئة التي لا يمكن انتشاله منها. وبعد ختان الفتيان يجب أن يبقوا منعزلين عدة شهور يتجنبون الاحتكاك بالنساء أو حتى رؤيتهن.

يعيشون في كوخ طويل يمثل بطن الوحش. وعندما يُصنَّفوا من عداد الرجال يؤخذون ضمن طقس فخم إلى القرية ويستقبلون بنشيج النساء ودموع فرحهن، وكأن اللحد أخرج موتاه. في البداية يبقي الشبان عيونهم مقفلة تماماً أو حتى مضمدة بالكلس، ويظهِرون وكأنهم لا يفهمون الأوامر التي تصدر إليهم ممن هم أكبر منهم سناً. وتدريجياً، يعون أنفسهم وكأنهم يفيقون من سبات، وفي اليوم التالي يستحمون ويغسلون طبقة الكلس التي تغطي أجسامهم.

هناك دلالة مهمة وراء استخدام كل قبائل غينيا الجديدة للعبارة ذاتها التي تدل على خوار الثور وعلى الوحش الذي يفترض أنه يبتلع المبتدئين عند ختانهم، والذي يُمثِّل هديره المخيف بطنين يصدر عن أدوات خشبية. ومن الجدير بالذكر أن ثلاث من أصل أربع لغات تستخدم العبارة نفسها لتسمية خوار الثور والوحش والتي تعني أيضاً شبح الموتى أو روحهم، أما اللغة الرابعة وهي الكاي فتشير إلى المُسمى نفسه بعبارة الجد. من هنا نعرف أن الكائن الذي يبتلع المبتدئين ويلفظهم عند دخولهم الرجولة هو شبح قوي أو روح سلفية، وأن أداة خوار الثور التي تحمل اسمه هي ممثله المادي. وهذا ما يفسر السرية الشديدة التي تحيط الأداة المقدسة ومنع النساء من رؤيتها. وعندما لايستخدمون هذه الأدوات تُخزَّن في منازل أعضاء النادي الرجال، في مكان لا تدخله امرأة؛ بالحقيقة لايجوز لأي امرأة أو شخص لم يدخل الرجولة أن يرى تلك الأدوات تحت طائلة الموت. كذلك عند تجيري أو كايا كايا، وهم قبيلة كبيرة على الساحل الجنوبي لغينيا الجديدة الهولندية، يطلقون اسم خوار الثور sosom على عملاق أسطوري يُفترَض أنه يظهر كل سنة مع الرياح الموسمية. وعندما يأتي، يُقام على شرفه احتفال تُدوَّر فيه أدوات خوار الثور. يُقدم الفتيان للعملاق، ويقتلهم، ولكن مراعاة لمشاعرهم يعيدهم للحياة ثانيةً.

وفي المنطقة الوسطى من فيتيليفو في الجزر الفيجية، كانت تقام مسرحية الموت والبعث بقدسية أكبر أمام عيون الشباب عند دخولهم الرجولة. في مكان مغلق مقدس، يُعرض عليهم شجار الموتى، على ما يبدو الرجال الموتى تحت الأرض، ثم تُفتح أجسادهم المضرجة بالدماء، فتنتؤ أحشاؤهم. وعندما يطلق الكاهن الأعلى صرخة قوية ينهض الموتى على أقدامهم ويركضون إلى النهر ليتطهروا وينظفوا أنفسهم من الدماء وأحشاء الخنازير المتدلية منها. ثم يعودون بسرعة إلى المكان

المغلق المقدس وكأنهم عادوا إلى الحياة، نظيفين، نشيطين، ومكللين، تتمايل أجسامهم على وقع موسيقا ترنيمة مقدسة، ويأخذون أمكنتهم أمام المبتدئين. هكذا كانت تجري أحداث مسرحية الموت والبعث.

ويقيم أهالي روك وهي جزيرة بين غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة، يقيمون احتفالات يرقص فيها رجلٌ أو رجلان في شوارع القرية، وهما متنكران يغطيان رأسيهما بقناع خشبي، ويتبعهما بقية الرجال. يطلبان من الأهالي أن يسلموهما الصبية المختونين والذين لم يبتلعهم **مارسابا** (الشيطان) بعد. يأتي الصبية مرتجفين مرتعدين، ثم يمرون من بين ساقَي الرجلين المتنكرَين. يمشي الموكب في أرجاء القرية مرة ثانية ويعلن أن مارسابا قد ابتلع الفتيان ولن يلفظهم حتى يتلقى هدايا مثل الخنازير والقلقاس وغيرها. فيسهم كل أهالي القرية بما تيسر من مؤن والتي تُستَهلك باسم مارسابا.

وفي غربي سيرام يُدخَل الفتيان عند بلوغهم جمعية كاكيا التي اعتبرها الكتّاب المعاصرون جمعية سياسية تهدف إلى مناهضة الهيمنة الأجنبية. لكن في واقع الأمر، ليست إلا لتحقيق أهداف دينية بحتة، على الرغم من استخدام كهنتهم نفوذهم القوي لأمور سياسية أحياناً. إنها الجمعية الأقوى انتشاراً بين المؤسسات البدائية التي تهدف بشكل رئيس إلى تنظيم الشبان. في السنوات الأخيرة الماضية، استطاع عالم الأعراق **ريديل** أن يميز طبيعة هذه الجمعية. المقر الكاكياني هو عبارة عن كوخ مستطيل الشكل، يُقام تحت أعتم الأشجار ظلاً في أعماق الغابة، ويُبنى بحيث لا يدخله إلا القليل القليل من الضوء فيستحيل على أحد أن يرى ما يجري بداخله. هناك مقرٌ مماثل في كل قرية. يُؤخذ الفتيان الذين وجب تسبيبهم إلى ذلك المكان معصوبي الأعين، يتبعهم أهلهم وأقاربهم. يقود كلَّ فتى باليد رجلان يقومان بدور الوصي، فيعتنيان به في أثناء فترة التسبيب. وعندما يجتمع الجميع أمام الكوخ ينادي الكاهن الشياطين بصوت عالٍ. وعلى الفور يُسمع هدير شنيع من داخل الكوخ. إنه صوت أبواق البامبو التي أُدخلت خفية إلى الكوخ من باب خلفي، لذلك يخاف الأطفال والنساء الصوت لاعتقادهم أنه صوت الشياطين. يدخل الكاهن الكوخ، ويتبعه الفتية، الواحد تلو الآخر. وحالما يدخل آخر الفتيان، يُسمَع صوت تكسير وصراخ ضرب سيوف أو رماح تقطر دماً، ثم تُدخل في سقف الكوخ.

وهذه علامة تدل على أن الفتيان قد قطعت رؤوسهم، وأن الشيطان قد أخذهم إلى العالم الآخر كي يولِّدهم ويحوِّلهم من جديد. وعند رؤية السيوف المدماة تصرخ النسوة وتعول قائلات إن الشيطان قد قتل أولادهن. في بعض الأماكن يُدفَع الفتيان خلال فتحة على شكل فكَّي تمساح أو منقار نعامة أسترالية، عندها يُقال أن الشيطان قد ابتلعهم. يمكث الفتيان في الكوخ مدة خمسة أو تسعة أيام يجلسون في الظلام ويسمعون صفيرَ أبواق البامبو، ومن حين إلى آخر إطلاقَ نار من البنادق وضربَ سيوف. يستحمون كل يوم، وتُدهن أجسامُهم ووجوههم بصبغة صفراء كي يكتسبوا مظهر خروجهم من جوف الشيطان. وفي أثناء قيامهم في المقر الكاكياني يوشم كلُّ فتى باستخدام الشوك بصليبٍ أو صليبين على صدره أو ذراعه. إلا إذا كانوا نائمين، عليهم أن يجلسوا بوضعية الجثوم دون تحريك أية عضلة. وبينما هم جالسون على نسق مادِّين أيديهم، يضع الكاهن بوقه وفمه على يَدَي كل فتىً، ويتلفظ بأنغام غريبة، مقلداً الأرواح. ويحذر الفتيان تحت طائلة الموت، من مخالفة قواعد المجتمع الكاكياني ومن إفشاء ما مروا به في المقر الكاكياني. ويطلب الكهنة من الفتيان أن يحسنوا معاملة أقاربهم في الدم ويعلمونهم مبادئ القبيلة وأسرارها.

في الوقت نفسه تذهب أمهات الفتيان وأخواتهم إلى منازلهن ليندبن ويبكين أبناءهن. لكن بعد يوم أو يومين يعود الرجل أوالرجلان اللذان لعبا دور الوصي على المبتدئين، يعودان إلى القرية ومعهما نبأ سعيد وهو أن الشيطان، وبعد تشفع الكهنة، قد أعاد الفتيان إلى الحياة. يأتي الرجلان بالنبأ ملطَّخين بالدم ويتظاهران أنهما دائخان وكأنهما رسولان قد أتيا لتوهما من العالم السفلي. قبل مغادرة المقر الكاكياني، يتلقى كل فتى من الكاهن عصا مزينة من الطرفين برأس ديك أو بريش نعامة أسترالية. من المفترض أن الفتية قد أتوا بهذه العصي من الشيطان عندما عادوا إلى الحياة، وتقوم هذه العصي بدور العلامة المميزة التي تدل على أن الشبان كانوا في عالم الأرواح. وعندما يعودون إلى بيوتهم، يدخلون بالمقلوب أو يدخلون من الباب الخلفي وكأنهم نسوا كيف يمشون بالشكل الصحيح. وإذا ما قُدِّم لهم طبق من الطعام مسكوه بالمقلوب أي رأساً على عقب. ويظلوا بُكماً يدلون على الأشياء بالإشارة فقط. يقومون بهذا كله لإثبات أنهم مازالوا تحت تأثير الشيطان أو الأرواح.

ومن واجب أوصيائهم أن يعلموهم كل التصرفات اليومية العامة وكأنهم أطفالٌ حديثو الولادة. وعند مغادرة المقر الكاكياني يُمنَع على الفتيان أكل نوع معين من الفواكه حتى يحين موعد الاحتفال بالشعائر القادمة. ولمدة عشرين أو ثلاثين يوماً، لايجوز أن يمشط شعرَهم أمهاتُهم أو أخواتُهم. في نهاية تلك الفترة يأخذهم الكاهن الأعلى إلى الغابة ويقص خصلة من مقدمة رأس كل منهم. وبعد شعائر التسبيب هذه يُعتبَر الفتيان رجالاً قادرين على الزواج، ويُعتبَر زواجهم قبل ذلك فضيحةً.

وفي منطقة الكونغو الدنيا يقوم أعضاء جمعية سرية تدعى نديمبو، أو كانوا يقومون سابقاً، بتقليد الموت والبعث. يطبق النديمبو شعائر التسبيب على الشكل التالي. يطلب الأطباء من أحد ما أن يتظاهر أن نوبة أصابته فسقط، ويحملونه وهو على هذه الحالة إلى مكان مغلق خارج المدينة. يسمون هذا الشخص **نديمبو الميت**. ويحذو الفتية والفتيات حذوه.... من المفترض أنهم ماتوا. لكن يقدم لهم الأهل والأقارب الطعام، وبعد فترة تتراوح حسب العادات بين ثلاثة شهور وثلاث سنوات، يتدبر الأطباء أمر إعادتهم إلى الحياة ثانيةً.... وبعد دفع المال للأطباء، وبعد توفير مايكفي من المال أو ما يحتاجون لإقامة الاحتفال، يُعاد فتيان وفتيات نديمبو إلى الحياة. في البداية يتظاهرون وكأنهم لايعرفون أحداً ولايعرفون شيئاً؛ ولا حتى يعرفون كيف يمضغون اللقمة، فيقوم أصدقاؤهم بالمهمة عنهم. ويريدون الحصول على كل شئ يرونه جميلاً، وربما ضربوا كل من يرفض أن يمنحهم ذلك من غير المنتسبين، وربما خنقوهم أو قتلوهم. ولا يخافون عواقب فعلهم لاعتقاد الناس أنهم جاهلون. وأحياناً يتكلمون الرطانة وهي بربرة مبهمة، ويتصرفون وكأنهم عادوا من عالم الأرواح. وبعد ذلك يُعرفون بلقب آخر وهو **نديمبو الميت**.... وقد سمعنا أن هذه العادة متبعةً في أعلى النهر بالإضافة إلى منطقة الشلالات.

وعند بعض القبائل الهندية في أمريكا الشمالية هناك جمعيات دينية لاتقبل المنتسبين ما لم يكونوا قد خضعوا لشعيرة التظاهر بالموت والبعث. في 1766 أو 1767 شهد الكابتن جوناثان كارفر مراسم قبول أحد المرشحين للجمعية التي تدعى جمعية الروح الأنيسة (أي الجمعية الأنيسة) وهي شائعة عند قبيلة نودويسيز و سيوان و داكوتان في منطقة البحيرات الكبرى. يركع المرشح أمام القائد الذي يخبره أنه هو نفسه منزعج جداً من الروح التي سينقلها له خلال بضع لحظات؛ والتي

سترديه قتيلاً، لكنه سيعيده إلى الحياة على الفور. ويضيف أن الأمر ضروري مهما كان مخيفاً لأنه يؤهله للتمتع بمزايا الجمعية عند قبوله فيها. وهو يقول هذه الكلمات يتوتر وتتغير عواطفه فتصبح عنيفة وتتشوه ملامحه وينتفض جسمه كله. في هذه المرحلة من الشعيرة يلقي القائد شيئاً من يده يشبه حبة الفول بالشكل واللون، فيتظاهر الفتى أنها دخلت فمه، فيسقط على الأرض فوراً وكأن طلقة اخترقته. يبقى الرجل ملقىً وكأنه ميت لكن وتحت تأثير وابل الضربات يبدأ بإصدار علامات استرداد الوعي، ويلفظ من فمه حبة الفول أو ذلك الشيء الذي تلقاه من القائد، ثم يعود للحياة. وعند قبائل أخرى مثل أوجيبواي ووينيباغو وداكوتا وسيو، يستخدمون في قتل المرشح ما يسمى حقيبة الطب، وهي عبارة عن حقيبة مصنوعة من جلد حيوان (القضاعة، القطة البرية، الأفعى، الدب، الراكون، الذئب، البومة وابن عرس) لكن شكلها لا يدل بوضوح على الحيوان الذي صنعت من جلده. يقتني كل عضو في هذه الجمعية واحدة من هذه الحقائب التي يحفظ فيها بقايا ونثريات يصنع منها طبه وسحره. ويعتقدون أن لهذه الحقيبة القدرة على إخراج الروح أو النَّفَس مثلما لها القدرة على صرع الإنسان وقتله. أما الطريقة التي يتبعونها في قتل الإنسان من هذه الحقيبة فهي طعنه بشيء منها؛ فيسقط ميتاً، ثم يُطعن ثانيةً فيعود إلى الحياة.

وقد شاهد جون ر. جيويت الذي نجا من سفينة غارقة ووقع في أسر هنود الباتاك، شاهد طقساً يندرج تحت هذا النوع من العادات. يطلق الملك أو القائد الهندي رصاصاً من مسدسه أمام أذن ابنه فيسقط على الفور وكأنه أرداه قتيلاً، عندها تطلق نساء العائلة أعلى عويل ممكن، وينتفن شعور رؤوسهن، ويصرخن أن الأمير قد مات؛ وفي الوقت نفسه يهرع عدد كبير من السكان إلى المنزل مسلحين بالخناجر والبنادق وغيرها، يسألون عن سبب الصراخ. ويتبع الرجالَ اثنان يرتديان جلد ذئب، وقناعين على وجهيهما ليمثلا رأس الحيوان. يدخل الآخر إلى المنزل على رجليه وساقيه وكأنه بهيمة، ويرفع الأمير على ظهره وينسحب بالطريقة نفسها التي دخل بها. وفي مكان آخر يذكر جيويت أن الأمير الشاب وهو فتى في الحادية عشرة من عمره — يلبس قناعاً يمثل رأس الذئب. وبما أن الهنود في هذه المنطقة من أمريكا مقسَّمون إلى عشائر طواطم، والعشيرة الرئيسة هم طوطم الذئب، وبما أن أفراد

كل عشيرة يرتدون شيئاً من حيوان طوطمهم، فمن الممكن أن يكون هذا الأمير من قبيلة الذئاب، وأن الطقس الذي يصفه جيويت يمثل قتل الفتى ليولد ذئباً من جديد، وبالطريقة التي افترض فيها صياد باسك نفسه أنه قُتل وعاد للحياة من جديد على شكل دب.

تم تأكيد هذا الوصف الأولي الذي يمكن أن يكون حدسياً، تم تأكيده من قبل الدكتورفرانز بواس، رغم أن الجمعية التي حصل منها الأمير على القبول كانت من طوطم سري يدعى تلوكوالا، وهي عشيرة أفرادها يقلدون الذئاب. وعلى كل عضو جديد ينتسب للجمعية أن يدخل عبر الذئاب. يظهر في الليل هنود يمثلون قطيعاً من الذئاب ويرتدون جلود الذئاب ويلبسون أقنعة الذئاب، ويقبضون على المبتدئ ويحملونه إلى الغابة. وعندما يسمع الأهالي الذئاب خارج القرية ويأتون لتخليص المبتدئ، يسوِّد كل أعضاء الجمعية وجوههم ويغنون، (إنه لفخر كبير أنني من تلوكوالا.) وفي اليوم التالي يأتي الذئاب بالمبتدئ ميتاً، وعلى أعضاء الجمعية أن يُحْيُوه. من المفترض أن تكون الذئاب قد وضعت حجراً سحرياً في جسمه ويجب نزعه قبل أن يعود إلى الحياة. وريثما يفعلون ذلك تُترك الجثة ملقية خارج المنزل. يذهب ساحران وينزعان الحجر الذي يبدو أنه من المرو، فينتعش المبتدئ. وعند هنود النيسكا من كولومبيا البريطانية، وهم عشائر رئيسة أربع: الغراب، الذئب، الصقر، والدب حسب ما يبجلون من طواطم، يُعاد المبتدئ دائماً على يد حيوان طوطمي اصطناعي. وعندما يوشك الرجل على الدخول في الجمعية السرية المسماة **أولالا**، يستل أصدقاؤه سكاكينهم ويتظاهرون بقتله. وفي واقع الأمر، إنما يتركونه ينزلق بعيداً وهم يقطعون رأسه الزائف الذي يحل محله ببراعة. ثم يغطون الرأس المقطوع على الأرض، وتبدأ النسوة بالندب والعويل. ويقدم أقرباؤه وليمة جنازة يحرقون أثناءها مجسماً. أي أنها جنازة كاملة الأركان. ولمدة سنة كاملة يبقى المبتدئ غائباً لا يراه أحدٌ من أعضاء الجمعية. وبعد انقضاء تلك الفترة يعود حياً، يُحمَل على حيوان اصطناعي يمثل الطوطم.

في هذه الطقوس يكمن جوهرالشعيرة في قتل المبتدئ بشخصه الآدمي وإعادته للحياة على شكل حيوان يُعتبر روحاً حارسة أو مرتبطاً بقرابة وطيدة. وعلينا أن نتذكر هنود غواتيمالا الذين ترتبط حياتهم بحيوان معين ولديهم القدرة على الظهور

بشكل كائن معين يتّحدون معه تعاطفياً. وهنا يبدو من المنطقي أنه في حالات كهذه ربما يتخيل هنود كولومبيا البريطانية أن حياتهم تعتمد على حياة واحد من هذه الأنواع التي يتشبهون بها عبر لباسهم. وإن لم يكن هذا ركناً من أركان معتقدات هنود كولومبيا حتى يومنا هذا، فلابد من أنه كان كذلك عند أجدادهم في الماضي، الأمر الذي طبع طقوسهم بالعشائرية الطوطمية وبالجمعيات السرية. ورغم اختلاف هذين المجتمعين بالطريقة التي يحصل خلالها الإنسان على العضوية – يولد الإنسان في طوطم قبيلته ويُقبل في جمعية سرية فيما بعد – لانشك في أنهما متقاربان جداً في أصولهما وطريقة تفكيرهما. وإذا كنت مصيباً، إنها فكرة تأسيس علاقة تعاطفية مع الحيوان، الروح، أو أي كائن قوي آخر يعول عليه الإنسانُ لحماية روحه أو جزءٍ معين منه، ويتلقى منه بالمقابل نعمة القوى السحرية.

بناءً على النظرية المطروحة هنا، أينما وجدت الطوطمية، وحيثما يتظاهرون بموت المبتدئ وعودته إلى الحياة، يكون الإيمان بإمكانية إيداع الروح بشكل دائم في شيء أو حيوان أو نبات وغيرها، وتكون الرغبة الفعلية في ذلك. ويمكن طرح السؤال على الشكل التالي: لماذا يرغب الناس بإيداع روحهم خارج جسمهم؟ فيأتي الجواب الوحيد: مثلما اعتقد العملاق في الحكايات الخرافية، يعتقدون أن إيداعها أسلم من اصطحابها أينما ذهبوا، تماماً كما يفضل الناس إيداع أموالهم في المصرف على حملها معهم. ورأينا كيف تودع الروح أحياناً في ظروف حرجة في مكان آمن إلى أن ينقضي الخطر. أما في مجتمعات كالطوطمية لايلجؤون لذلك في أوقات الخطر فقط؛ إنما يطبقونها كأنظمة على كل فرد منهم أوعلى الأقل يتوجب على كل ذكر منهم أن يمارسها. والمرحلة التي يجب على كل منتسب أن يمارسها فيها هي سن البلوغ؛ وهذه هي الحقيقة التي تثبت تجنب المجتمعات الطوطمية وما يشبهها من أنظمة، للخطر الذي تعرَّض إليه المنتسب قبل البلوغ الجنسي، ويعتقد أن الخطر الذي يخافونه إنما يحصل خلال علاقة الجنسين ببعضهما بعضاً. ومن السهل أن نثبت من مجموعة الحقائق أن العلاقة الجنسية مرتبطة في العقل البدائي مع أخطار جدية كثيرة؛ لكن الطبيعة الدقيقة للخطر الذي يهابونه مازالت غامضة. ونحن على أمل أن معرفة أدق لأنماط التفكير البدائي ستكشف يوماً ما عن اللغز البدائي الرئيس، وتقدم لنا المفتاح لا لإدراك الطوطمية فحسب بل لفهم أصل نظام الزواج.

الفصل الثامن والستون
الغصن الذهبي

إذن تنسجم النظرية القائلة أن حياة بالدر هي في الهدال تماماً مع أنماط التفكير البدائية. قد يبدو الأمر متناقضاً: إذا كانت حياته في هدال، كيف له أن يكون قد قُتل بضربة من الهدال. لكن إذا أدركنا أن حياة الشخص متجسدة بشيء معين، أي يرتبط وجوده بوجود ذلك الشيء، ودماره يؤدي إلى دماره، نجد أنفسنا نعتبر هذا الشيء ونتكلم عنه على أنه حياته أو موته، كما حصل في الحكايات الخرافية. وإذا كان موت الإنسان في شيء معين، من الطبيعي أن يُقتل بضربة منه. في الحكايات الخرافية يُقتل كوشتشي (الكائن الذي لا يموت) بضربة من بيضة أو حجر اختبأت حياته أو موته فيه؛ وتتفجر الأغوال عندما توضع على رأسها حبة رمل – لا شك في أنها تحتوي حياتها وموتها ـ؛ ويموت الساحر عندما يوضع الحجر الذي يحتوي حياته وموته تحت إبطه؛ ويحذَّر البطل التتاري من أنه قد يُقتل بسهم ذهبي أو بسيف ذهبي خُزِّنَت فيه روحه.

وهنا خطرت ببالهم فكرة وجود حياة شجرة السنديان في هدال، كما قلت، عن طريق ملاحظة أنه في الشتاء يبقى الهدال أخضر على شجرة السنديان رغم أن الشجرة قد نفضت أوراقها. لكن موقع النبتة ـ التي لا تنمو من الأرض بل من الجذع أو الأغصان – يؤكد هذه الفكرة. ربما فكر البدائي أن شجرة السنديان، شأنها في ذلك شأنه هو، بحثت عن طريقة تودع فيها حياتها في مكان آمن، فاختارت الهدال، كونه لا على الأرض ولا في السماء، فظنته أفضل مكان لكونه بعيداً عن الضرر. في فصل سابق رأينا كيف أراد الإنسان البدائي للحفاظ على حياته الإلهية إبقاءها معلقة بين السماء والأرض، حيث تكون إمكانية تعرضها للأخطار التي تحف حياة الإنسان على الأرض أضأل ما يمكن. يمكننا إذن أن نفهم لماذا كان

المبدأ الطبي الشعبي الذي يقضي بعدم جواز لمس الهدال للأرض؛ لأنه لو لمس الأرض لفقد فضيلته في الشفاء. ربما كان هذا استمراراً للخرافة القديمة التي تمنع ملامسة النبتة التي تتركز فيها حياة الشجرة المقدسة للأرض. وفي الأسطورة الهندية المُساوية لأسطورة بالدر، يُقْسِم إندرا للعفريت ناموتسي أنه سيقتله في وقت لا ليل ولا نهار، لا بقوس ولا برمح، لا براحة اليد ولا بقبضتها، لا بالرَّطِب ولا الجاف. وقد قتله عند شفق الفجر بأن رشه بزبد البحر. زبد البحر هو الشيء الذي قد يختاره البدائي ليودع حياته فيه، لأنه يحتل موقعاً وسطاً بين الأرض والسماء أو البحر والسماء، موضعاً يراه البدائي آمناً. ليس من المدهش إذن أن يكون زبد النهر طوطماً لعشيرة في الهند.

تتأكد النظرة القائلة أن الهدال يكتسب مزاياه الغامضة جزئياً من عدم نموه على الأرض، تتأكد بالخرافة الموازية عن **رماد الجبل** أو نبتة **الغبيراء**. في جاتلاند يرون أن الغبيراء التي تنمو على شجرة أخرى كبيرة الفعالية ضد السحر: ولأنها لاتنمو على الأرض ليس للسحرة سلطة عليها؛ وللحصول على فعاليتها القصوى يجب قطعها في عيد الصعود أو المعراج. ولأنها توضع فوق البوابات لتمنع دخول السحرة. في السويد والنرويج يعزون القوى السحرية للغبيراء الطائرة، أي للشجرة التي لاتنمو بالطريقة العادية على الأرض بل تنمو على شجرة أخرى، أو على سطح المنزل، أو على جرف صخري، حيث تنبثق من بذور رمتها الطيور. ويقولون إنه على من يخرج في الظلام أن يحمل معه قطعة من الغبيراء الطائرة فيمضغها؛ وإلا سيعرض نفسه للسحر أو يجمد فلا يستطيع الحراك من مكانه. تماماً كما في البلاد الإسكندنافية، تعتبر الغبيراء الطفيلية مضاداً للسحر، ومازال الهدال الطفيلي في ألمانيا يعتبر حامياً من السحر، وفي السويد، يجمعون الهدال عشية منتصف الصيف ويعلقونه بالقرب من سقف المنزل أو حظيرة الخيل أو معلف البقرة، معتقدين أنه يجعل القزم الخرافي **ترول** عاجزاً عن إيذاء الإنسان أو الحيوان.

ما يؤيد النظرة التي ترى في الهدال أداة قتل بالدر بالإضافة إلى احتوائها لحياته، هو قياسها بالخرافة الأسكتلندية. جرى العرف أن قدر أهالي **هاي** من **إيرول** وهي منطقة في بيرثشاير، بالقرب من اللسان البحري **تاي**، أن قدرهم مرتبط بالهدال الذي ينمو على شجرة سنديان كبيرة. وهذا واحد من أفراد عائلة هاي

يسجل اعتقادهم على الشكل التالي. (لقد اندثرت تقريباً شعارات العائلات في أدنى البلاد؛ لكنها تظهر بالإشارة القديمة .MS، بالإضافة إلى بعض عادات قليلٍ من الناس في بيرثشاير، والتي تَعتبر الهدال شعاراً للهاي. كان هناك بالقرب من إيرول، وليس بعيداً عن حجر الصقر، شجرة سنديان ضخمة لا أحد يعلم كم عمرها، تنمو عليها الكثير من النباتات: وقد ربطوا بها الكثير من السحر والأساطير، ويُقال إن استمرار عائلة الهاي مرتبط بوجودها. ويُعتقد أن قطع أي غصن من الهدال على يد واحد من الهاي عشية عيد الهالوماس بخنجر جديد، وبعد الدوران حول الشجرة ثلاث مرات باتجاه دوران الشمس، مع التلفظ بسحر معين، كان سحراً ضد أي سحر، وحماية لا تخطل في يوم الوغى. وإذا ما أتى أحدهم بغصن مزهر بالطريقة نفسها ووضعه في مهد الطفل، فإنه يحميه من التحول بفعل سحر الجان إلى طفل جني قزم مروَّس الأذنين. وما يؤكد ذلك أنه عندما ماتت جذور السنديانة، صار العشب ينمو على أرض إيرول، واحتل الغراب عش الصقر. من أكبر الكبائر التي يرتكبها أحد أفراد الهاي أن يقتل صقراً أبيض، وأن يقطع فرعاً من سنديانة إيرول. لا أعرف متى ماتت الشجرة القديمة. باعت عائلة الهاي العقّار، وطبعاً يقولون أن الشجرة قد قُطعت قبل ذلك بوقت قصير.) وهناك تسجيل شعري للخرافة القديمة يعزونه لتوماس السَّجاع.

عندما ضرب الهدال على سنديانة إيرول،

وجثمت السنديانة راسخة،

تكدس التبن، والباز الرمادي

جفل قبل العاصفة.

لكن عندما ماتت جذور السنديانة،

واضمحل الهدال على صدرها الذاوي،

نما العشب على مصلى إيرول،

وزعق الغراب في عش الصقر.

ليس جديداً أن يكون الغصن الذهبي هو نفسه الهدال. صحيح أن فيرجل لم يحدده بل اكتفى بمقارنته بالهدال. لكن من الممكن أن يكون هذا مجرد أسلوب

شعري لوصف سحر تلك النبتة المتواضعة الغامض، أو على الأرجح، اعتمد وصفه على الخرافة الشعبية التي تقول إنه في أوقات معينة يتألق الهدال في مجده الخرافي الخارق. ويخبرنا الشاعر كيف دلَّت حمامتان أينياسَ على الوادي الدجي الذي ينمو في أعماقه الغصن الذهبي، والذي (يسطع منه الذهب المتلألئ. كما يبرد الهدال في الغابات في الشتاء – وهي نبتة ليست من أصل الشجرة – خضراء بأوراق نضرة ويذوي توتها الأصفر على الجذع؛ هكذا يبدو الذهب المورق على السنديانة الواطئة الظليلة، وهكذا تطلق حفيفها من الأوراق الذهبية مع النسيم العليل.) هنا يصف فيرجل الغصن الذهبي وهو لا شيء سوى الهدال الذي يراه عبر سديم الشعر أو عبر الخرافة الشعبية.

لقد قدمنا حتى الآن الأرضية التي اعتقدنا بناءً عليها أن كاهن أيك أريسيا – ملك الغابة – يشخص الشجرة التي ينمو عليها الغصن الذهبي. وإذا كانت الشجرة هي السنديانة، إذن فملك الغابة هو تشخيص لروح السنديان. لذا يسهل علينا فهم سبب ضرورة قطع الغصن الذهبي قبل قتله. وكونه روح السنديان كانت حياته وموته في هدال السنديان، ومادام أن الهدال سليمٌ، يبقى مثل بالدر، حياً لا يموت. وقبل قتله كان من الضروري أن يُقطع الهدال، وربما ـ حسب حالة بالدر ـ برميه بالغصن. ولإكمال القياس، من الضروري افتراض أن ملك الغابة كان يُحرَق سابقاً، حياً أم ميتاً، في احتفال نيران منتصف الصيف، الذي يقام في أيك أريسيا. إن النار الدائمة التي تُضرم في الأيك، مثل النار الدائمة التي تستعر في معبد فيستا في روما تحت السنديانة في روموف، ربما كانت تغذى بخشب السنديان المقدس؛ وهكذا ربما كان ملك الغابة يُحرَق سابقاً في نار السنديان العظيمة. وفي وقت لاحق، كما قلت سابقاً، كان يطول توالي المنصب أو يقصر، حسب القاعدة التي تسمح له بالعيش وإثبات حقه الإلهي بسواعده القوية. لكنه تَمَكّنَ من التخلص من النار ليُقتَل بالسيف.

ويبدو أنه في عصر سحيق القدم في قلب إيطاليا، وبجانب بحيرة نيمي الجميلة، كانت تحصل سنوياً المأساة النارية نفسها التي صار التجار والجنود الطليان يشهدونها مع أشقائهم الرعاع، وهم سلتيو غاول، والتي، إذا كانت نسور روما قد انقضَّت على النرويج، نراها تُعاد مع القليل من الفوارق عند إريان الشمال البرابرة. وربما كانت الشعيرة ركناً أساسياً من عبادة الإريان القديمة للسنديان.

بقي علينا أن نسأل السؤال التالي: لماذا سُمي الهدال الغصن الذهبي؟ إن توت الهدال الأصفر والمائل إلى الأبيض يكفي لتبرير التسمية، لكن فيرجيل يقول إن الغصن كان ذهبياً بالكامل، ساقه وأوراقه. وربما اشتُق الاسم من اللون الأصفر الذهبي الفخم الذي يأخذه غصن الهدال عندما يُقطع ويُحفَظ لشهور؛ عندها لا يقتصر اللون الوضاء على الأوراق بل ينتشر إلى الساق ليصبح الغصن ذهبياً بالكامل. يعلق فلاحو بريتون باقات كبيرة من الهدال أمام بيوتهم، وفي شهر حزيران يتضح فيها اللون الذهبي. وفي بعض أنحاء بيرتاني، وخصوصاً بالقرب من موربيهام، تُعلق أغصان الهدال فوق أبواب الزرائب والحظائر لحماية الخيل والماشية، ربما من السحر.

وربما يفسر لونُ الغصن الأصفر الذابل سبب افتراضهم تمتع الهدال بخاصية الكشف عن كنوز الأرض؛ واعتماداً على مبادئ السحر التجانسي التعاطفي هناك تآلف طبيعي بين الغصن الأصفر والذهب الأصفر. ويؤكد هذا الاقتراح قياس الميزات العجيبة التي يعزوها العامة لبذور السرخس الأسطورية التي يعتقدون أنها تبرعم مثل الذهب أو النار عشية منتصف الصيف. لذلك يُقال في بوهيميا إنه (في عيد القديس يوحنا، ينبثق من بذور السراخس براعم ذهبية تسطع كالنار.) ومن خواص بذور السراخس الأسطورية أن كل من يمتلكها أو ينزل الجبل وهي في يده سيكتشف عرقاً من ذهب أو يعثر على كنز يسطع كاللهيب الأزرق. ويقولون في روسيا إنه إذا نجحت في التقاط برعم عجيب من السرخس في منتصف ليلة منتصف الصيف، ما عليك إلا أن تلقيه عالياً في السماء فينزل كالنجم إلى مكان مَخبَأ الكنز. ويجمع الباحثون عن الكنوز في بريتاني بذور السراخس في منتصف ليلة منتصف الصيف ويحفظونها حتى يأتي أحد الشعانين القادم؛ ثم يلقونها على الأرض في مكان يتوقعون وجود كنز مدفون فيه. ويتخيل فلاحو تيرول أنه يمكن رؤية الكنوز المخبأة كاللهيب المتوهج عشية منتصف الصيف، وأن بذور السراخس التي تُجمع في موسم غامض، وضمن الحيطة المعتادة، تساعد في رفع الكنز إلى سطح الأرض. وفي مقاطعة سويسرية، فريبورغ، اعتاد الناس على البحث عن بذور السراخس عشية القديس يوحنا على أمل الفوز بالكنز الذي يجلبه إليهم حتى بمساعدة الشيطان. وفي بوهيميا يقولون أن كل من يحصل على برعم سرخس ذهبي

في هذا الموسم يمتلك مفتاح كنوز مخبأة؛ وإذا ما نشرت السيدة قماشاً تحت برعم سريع الذبول، ينزل على القماش ذهب أحمر. وفي تريول وبوهيميا، إذا ما وَضَعْتَ بذورَ سراخس مع مّالِك، لاينقص المال مهما أنفقت منه. وأحياناً يفترضون أنه إذا ما برعمت بذرة سرخس ليلة عيد ميلاد المسيح، فسوف يصبح كل من يلتقطها غنياً. وفي ستيريا يقولون إن من يجمع بذور السراخس ليلة ميلاد المسيح يصبح قادراً على إكراه الشيطان على إحضار حقيبة من المال.

وبناءً على مبدأ تلاقي المتشابهات، من المفترض أن تكشف بذور السراخس عن الذهب لأنها هي نفسها ذهبية؛ ولسبب مشابه تجعل مالكها غنياً برصيد لا ينضب من الذهب. لكن بذور السراخس توصف بالنارية أو المتوهجة أيضاً، لذا عندما نفكر باليومين العظيمين اللذين تجمع فيهما البذور الخرافية وهما عشية منتصف الصيف وعيد ميلاد المسيح – أي الانقلابين (عيد ميلاد المسيح ليس إلا احتفالاً وثنياً قديماً بالانقلاب الشتوي) – علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الجانب الناري لبذور السراخس كجانب أساسي، ونعتبر مظهره الذهبي هو الجانب الفرعي المشتق. في الحقيقة، يبدو أن بذور السراخس هي انبجاس نار الشمس عند نقطتي تحول مسارها، الانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي. وما يؤكد هذه النظرة هي القصة الألمانية التي تحكي عن صياد حصل على بذور سرخس عندما أطلق النار على الشمس ظهيرة منتصف الصيف؛ مما تسبب بنزول ثلاث قطرات من الدم، التي التقطها بقطعة قماش أبيض فكانت بذور السرخس. من الواضح هنا أن الدم هو دم الشمس الذي اشتقت منه بذور السراخس مباشرة. لذا يمكن اعتبار بذور السرخس ذهبية، لأنها انبجاس نار الشمس الذهبية.

مثل بذور السراخس يُجمع الهدال في منتصف الصيف أو عيد ميلاد المسيح – أي إما في الانقلاب الصيفي أو الانقلاب الشتوي – ومثل بذور السراخس، يُفترض أن للهدال قوة الكشف عن كنوز الأرض. ويصنع الناس في السويد، في منتصف الصيف، عِصِيّاً إلهية من الهدال، أو من أربعة أنواع من أخشاب مختلفة أحدها الهدال. ويضع الباحثُ عن الكنوز العصا على الأرض بعد غروب الشمس. إذا وقعت مباشرة فوق الكنز ترى العصا تتحرك وكأن فيها حياة. إذا كان الهدال قادراً على الكشف عن الذهب، فلابد من أنه يحمل خواص الغصن الذهبي؛ وإذا كان جمعه

في الاعتدالين، ألا يجب أن يكون الغصن الذهبي مثل بذور السراخس الذهبية، انبجاساً لنار الشمس؟ لايمكن الإجابة عن السؤال بالإيجاب البسيط. لقد رأينا كيف يشعل الإريانيون القدامى نيران الانقلابين والنيران الطقوسية الأخرى كسحر شمسي، أي بنية تزويد الشمس بنار جديدة؛ وبما أن هذه النيران تُصنع عادة باحتكاك أو احتراق خشب السنديان، ربما بدا للآريين القدامى أنه يجب تزويد الشمس دورياً بنار تسكن في السنديان المقدس. بالأحرى، ربما بدا لهم أن السنديان هو مخزن النار الحقيقي الذي نمد الشمس منه. لكن إذا كانت حياة السنديان تستمد من الهدال، فلابد من احتواء الهدال على بذور النار التي يمكن استخراجها بحك خشب السنديان. فبدلاً من القول إن الهدال هو انبجاس نار الشمس، ربما كان أصح أن نقول إن نار الشمس هي انبجاس من الهدال. ولا عجب إذن عندما نقول إن الهدال يسطع ببهاء الذهب، وأن يسمى الغصن الذهبي. وربما اعتُقد أنه مثل بذور السراخس لا يملك مظاهره الذهبية إلا في أوقات محددة، خصوصاً منتصف الصيف عندما تُسحب النار من السنديان لإشعال الشمس. في بلفيرياتش، شروبشاير، يُعتقد، وضمن حدود الذاكرة، أن شجرة السنديان تبرعم عشية منتصف الصيف وتذوي قبل بزوغ النهار. وعلى المرأة التي تريد أن تعرف حظها في الزواج أن تمد قطعة قماش بيضاء تحت الشجرة في الليل، وفي الصباح تجد القليل من الغبار وهو كل ما يتبقى من الزهرة. عليها أن تضع القليل منه تحت وسادتها، فيظهر لها زوج المستقبل في الحلم. على ما أعتقد إن إزهار السنديان السريع هذا، هو الهدال بمواصفات الغصن الذهبي. ومايؤكد هذا التوقع هو جمع غصن هدال حقيقي في ويلز وفي منتصف الصيف ووضعه تحت الوسادة لاستجلاب الأحلام التنبؤية؛ ثم أن طريقة التقاط برعم السنديان الخيالي هي الطريقة نفسها التي يستخدمها الدرويد لالتقاط الهدال الحقيقي عندما يسقط عن غصن السنديان جراء قطعه بالمحش الذهبي. وعلى حدود شروبشاير مع ويلز، ربما كان اعتقادهم أن السنديان يبرعم عشية منتصف الصيف من أصل ويلزي مباشر، على الرغم من أن المعتقد هو جزء من العقيدة الإريانية البدائية. وفي بعض أنحاء أيطاليا، كما رأينا، مازال الفلاحون يذهبون صباح منتصف الصيف للبحث عن أشجار السنديان (زيت القديس يوحنا) الذي شأنه شأن الهدال يشفي الجروح وربما كان الهدال نفسه بمظهره المجيد. إذن

من السهل فهم كيف تتحول تسميةٌ مثل الغصن الذهبي من وصف بسيط لمظهر شجرة عادي لاستخدامه للدلالة على طفيليات لا معنى لها. ربما رأينا أيضاً كيف اعتقدوا قديماً أن الهدال يمتلك خاصية إطفاء الحريق، ولهذا مازال يُحفظ في البيوت ليحميها من الحرائق المدمرة. وتدل طبيعته النارية وحسب مبادئ التعاطف والتجانس على استخدامه كعلاج أو كواقٍ من الجروح والحرائق.

ربما تفسر هذه الاعتبارات جزئياً لماذا جعل فيرجل إينياس يحمل غصن هدال مجيد عند نزوله إلى العالم السفلي المظلم. ويصف الشاعر كيف تمتد غابة معتمة واسعة على بوابات جهنم، وكيف يتبع البطلُ حمامتين طائرتين أغرتاه، وجالتا في أعماق الغابة كي يرى عميقاً تحت ظلال الأشجار ضوء الغصن الذهبي المتلألئ وهو يضيء الأغصان المتلبدة فوق رأسه. إذا كان الهدال ذلك الغصن الأصفر الذابل في غابات الخريف الحزينة قد احتوى على بذور النار، أي صديق أفضل لمسافر بائس في العالم السفلي المظلم من غصن يكون ضوءاً لقدميه وعصاً ومُتّكأً ليديه؟ بإمكانه بعد التسلح بهذا الغصن أن يواجه بجرأة الأشباح المخيفة التي تعترض طريقه في رحلته الخطيرة. لهذا عندما يأتي إينياس الخارج من الغابة إلى ضفاف ستيكس فإنه يمشي ببطء مع الجدول المتضائل خلال المستنقع الشيطاني الجهنمي، في حين يرفض قائد القارب الفظ أن يُقِلّه في قاربه، ما عليه إلا أن يسحب الغصن الذهبي من كنفه ويرفعه، فيجبن المتوعد عند رؤية المنظر ويستقبل البطل بصبر إلى مركبه المجنون، الذي يغرق عميقاً في الماء تحت وطأة وزن الإنسان غيرالعادي. حتى في الأزمان القريبة، رأينا كيف اعتُبر الهدال حماية من السحرة والعفاريت الأقزام، وقد عزا إليه القدامى الفضيلة السحرية نفسها. وإذا كانت هذه النبتة الطفيلية قادرة، كما يعتقد بعض فلاحينا، على فتح كل الأقفال، فلماذا لا تقوم بدور (افتح يا سمسم) في يَدَي إينياس لفتح بوابات الموت؟

نستطيع أن نتوقع لماذا أتى فيربيوس وقد أربكته الشمس. فإذا كان فيربيوس هو روح الشجرة، فلابد من أنه روح السنديان الذي ينمو عليه الغصن الذهبي؛ وهو أول ملوك الغابة. كروح السنديان يُطلَب منه أن يُشعِل نار الشمس بشكل دوري، لذلك ما أسهل أن يُربَك بالشمس. وبالطريقة نفسها يمكننا تفسير لماذا وُصِف بالدر، روح السنديان، بأنه الوجه الجميل الذي ينبعث منه النور، ولماذا كان يعتبر

هو الشمس. يمكننا القول إنه في المجتمع البدائي، عندما كانت الطريقة الوحيدة المعروفة لصنع النار هي احتكاك الخشب فلابد أن الإنسان البدائي قد أدرك النار على أنها مُخَزَّنة، مثل النسغ أو العصير في الأشجار، ويمكنه استخلاصها ببعض الجهد. ويعلن هنود سينال في كاليفورنيا إيمانهم أن العالم كله كان يوماً ما كرةً من نار، وانتقل العنصر إلى الأشجار، والآن يمكنه الخروج عند احتكاك قطعتين من الخشب. كذلك الأمر عند هنود ميدو في كاليفورنيا الذين يعتبرون أن أصل الأرض كرة من مادة منصهرة، ومنها صعدت النار من الجذور إلى الساق والأغصان حيث يستطيع الهنود استخراجها عبر التدريب. وفي **نامولك** وهي إحدى جزر كارولين، يقولون إن الآلهة قد علَّمت الإنسان فن صنع النار. أعطى **أولوفايت**، معلم اللهيب الماكر، النار لطائر **موي** وأمَرَه أن ينقلها إلى الأرض في منقاره. طار الطائر من شجرة إلى شجرة وخزَّن طاقة النار الكامنة في الخشب، الذي يستطيع الإنسان أن يستخرجها منه بالاحتكاك. وتقول الترنيمة الفيدية في الهند إن إله النار آغني قد وُلِد في الغابة، وهو رحم النباتات، أو مُوَزَّع في النباتات. ويقال أيضاً إنه دخل جميع النباتات ويهلك عند هلاكها. وعندما يسمى رحم الأشجار والنبات، فتلك إشارة جانبية إلى النار التي تظهر في الغابات جراء احتكاك أغصان الأشجار.

يعتبر الإنسان البدائي أن الشجرةَ التي ضربها البرق إنما تلقت ضِعفَي أو ثلاثة أضعاف الكمية من النار؛ أولم ير بأم عينيه الوميض وهو يدخل جذعها؟ من هنا نستطيع أن نفسر الكثير من الأساطير المتعلقة بالأشجار التي ضربها البرق. عندما يرغب هنود ثومبسون في كولومبيا البريطانية أن يضرموا النار في منازل أعدائهم، كانوا يرمونها بسهام مصنوعة من شجرة ضربها البرق أو فيها شظايا من خشب كهذا. ويرفض فلاحو ويندي في ساكسوني أن يشعلوا في مواقدهم خشب أشجار ضربها البرق؛ لأن وقوداً كهذا سيحرق المنزل. وبالطريقة نفسها لا يستخدم الثونغا من جنوب أفريقيا خشباً كهذا كوقود يتدفؤون عليه. وعلى العكس، عندما يضرم البرق النار في شجرة، يطفئ قوم ويناموانغا من شمال روديسيا نيران القرية كلها ويطينون مواقدهم من جديد، في حين ينقل القادة النار المضرمة بالبرق إلى الرئيس الذي يصلي عليها. ثم يرسل الرئيسُ النار الجديدة إلى جميع منازل قريته، ويكافئ أهلُ القرية رُسُلَ الرئيس على هذه العطية. هذا يعني أنهم ينظرون بإجلال

للنار المضرمة بالبرق، ويتضح الإجلال عندما يتكلمون عن الرعد والبرق على أنهما الإله نفسه قادماً إلى الأرض. كذلك يعتقد هنود ميدو من كاليفورنيا أن الإنسان الأكبر قد خلق العالم وكلَّ سكانه، وما البرق سوى ذلك الإنسان الذي ينزل بسرعة من السماء ليمنح الأشجار أذرعاً ملتهبة.

إن التبجيل الذي تبديه شعوب أوروبا القديمة للسنديان هو نظرية معقولة، والعلاقة التي تربط بين الشجرة وإله السماء، قد أتيا من تكرار ضرب السنديان بالبرق أكثر من أي شجرة أخرى في غاباتنا الأوروبية. خلال السنوات الماضية، يبدو أن الشجرة قد اكتسبت خصوصية عبر سلسلة من ملاحظات الباحثين العلميين الذين لم يدافعوا عن نظرية ميثولوجية يقفون إلى جانبها. من خواص السنديان أنه يسمح بمرور التيار الكهربائي أكثر من أي نوع آخر من الخشب، وربما جذبت هذه الحقيقة انتباه أجدادنا الأغرار الذين عاشوا في غابات واسعة غطت مساحة ضخمة من أوروبا؛ وربما فسروا الأمر بطريقتهم الدينية البسيطة بأن افترضوا أن إله السماء العظيم الذي عبدوه والذي سمعوا صوته المرعب في هدير الرعد، قد فضل السنديان على الأشجار كلها وأنه نزل إليها من السحابة الداكنة في وميض البرق، تاركاً علامة على وجوده أو مروره في شق أسود في الجذع والأوراق المحترقة أو الذابلة. كانت هذه الأشجار تُحاط بهالة من المجد لأنها كرسي إله السماء العاصف. ومن المؤكد أن الإغريق والرومان، شأنهم شأن بعض البدائيين، تعرفوا على إله السماء العظيم وإله السنديان عبر وميض البرق الذي يضرب الأرض، وراحوا يحيطون كل بقعة ضربها البرق ويعاملونها بقدسية. ولسنا متسرعين إذا ما افترضنا أن أجدادنا من السلتيين والألمان في غابات أوروبا الوسطى قد أبدوا وللأسباب نفسها احتراماً مماثلاً لشجرة السنديان المصعوقة بالبرق.

لقد قدم أو ألمح جاكوب غريم منذ وقت طويل إلى سبب إجلال الإريان للسنديان وربطهم إله السماء والرعد الأكبر بهذه الشجرة، ثم أتى في السنوات القليلة الماضية و. وورد فلاور ليؤكد بقوة ما قاله غريم. وربما كان تفسيراً أبسط مما تبنيته سابقاً، وهو أنهم عبدوا الشجرة للمنافع التي جناها أجدادنا منها، خاصةً النار التي استخرجوها من احتكاك خشبها؛ وارتكزت علاقة السنديان بالسماء على إيمانهم أن وميض البرق لم يكن سوى شرارة استخرجها إله السماء جراء حك

قطعتين من خشب السنديان بعضهما ببعض في السماء العالية، تماماً كما أشعل العابدون البدائيون النار في الغابة على الأرض. بناءً على هذه النظرية اشتُق إله السماء والرعد من إله السنديان الأصلي؛ وما أفضله هو النظرية القائلة بأن الإله الأصلي لأسلافنا الإريان هو إله السماء والرعد، وليس ربطه بالسنديان سوى نتيجة تكرار ضرب البرق لتلك الشجرة. وإذا جاب الإريان، كما يعتقد بعضهم، بقطعانهم بَوادي روسيا وآسيا الوسطى قبل أن يدخلوا ظلمة الغابات الأوروبية فربما عبدوا إله القبة الزرقاء الغائمة والبرق والرعد قبل أن يفكروا بربطه بالسنديان المصعوق في موطنهم الجديد.

ربما كان للنظرية الجديدة فوائد أكثر لما تلقيه من ضوء على القدسية الخاصة المعزوة للهدال الذي ينمو على السنديان. ومجرد ندرة هذا النمو لاتكفي لتبرير المدى الذي تستمر عليه الخرافة. وقد قدم لنا بليني إشارة تدل على الأصل الحقيقي لعبادة الدرويد للنبتة لأنهم يعتقدون أنها نزلت من السماء لتكون علامة على الشجرة التي تنمو عليها قد اختارها الله بنفسه. ألا يمكن أن يعتقدوا أن الهدال قد سقط إلى السنديان بومضة برق؟ وما يؤكد هذا التوقع هو التسمية مكنسة الرعد التي استُخدمت للدلالة على الهدال في منطقة أرغاو السويسرية، ولأن اللقب ينضوي على علاقة وطيدة بين الرعد وتلك النبتة الطفيلية؛ في الحقيقة مكنسة الرعد تسمية شائعة في ألمانيا للدلالة على الناميات الزائدة على الغصن، لأن الجاهل يعتقد أن هذا النمو الطفيلي هو نتيجة البرق. وإذا كنا محقين في هذا التوقع، يصبح السبب الحقيقي لعبادة الدرويد للسنديانة التي تحمل هدالاً وليس أي أشجار أخرى في الغابة هو اعتقادهم أنها لم تُضرب بالبرق فقط بل تحمل بين أغصانها انبثاقاً مرئياً للنار الانقلابية؛ وعندما يقطعون الهدال ضمن شعائر غامضة إنما يضمنون لأنفسهم المزايا السحرية للعاصفة. إذا كان الأمر كذلك، فيمكننا أن نستنتج أنهم اعتبروا الهدال انبثاق البرق أكثر منه شمس منتصف الصيف. وربما يمكننا أن ندمج النظرتين المتباعدتين من حيث الظاهر بافتراضنا أنه حسب العقيدة الإريانية القديمة نزل الهدال من الشمس في يوم منتصف الصيف مع ومضة برق. لكن هذا الدمجُ دمج اصطناعي وليس هناك، بحدود معرفتي، أدلة تدعمه. ولا أقول إنه بناءً على المبادئ الغامضة، يمكننا أن نوفق بين التفسيرين أم لا؛ لكن حتى لو تبين

أنهما نظرتان متعارضتان، فلايمنع تناقضُهما البدائيَ من اعتناقهما باليقين المتحمس ذاته؛ لأنه مثل الغالبية العظمى للبشر، البدائي فوق التكبيل بقيود المنطق المتحذلق. في محاولته لتتبع مسار فكره التائه في أدغال جهله المطبق وخوفه الأعمى، علينا أن نتذكر أننا نطأ على أرض مسحورة، ويجب أن نحذر من أخذ الأشكال الضبابية، التي تعترض مسارنا أو تحوم وتبربر في الظلام، على أنها حقائق متماسكة. ولا يمكننا أن نضع أنفسنا مكان الإنسان البدائي، ونرى الأشياء بعينيه، ونشعر بقلوبنا تنبض بالعواطف التي أثارته. لذلك كل نظرياتنا عنه وعن طرقه قد تشرد بعيداً عن اليقين؛ وأكثر ما يمكن الطموح إليه في هذه القضايا هو درجة معقولة من الاحتمالية.

ولاختتام هذه الاستفسارات يمكننا القول إنه إذا كان بالدر بالفعل، كما توقعت، تشخيصاً للسنديان الذي يحمل هدالاً، يمكن أن نفسر موته — حسب النظرية الجديدة ـ بضربة من البرق. ويستمر الهدال الذي همد فيه لهيب البرق، بين الأغصان مادام أن ضرراً لم يصب إله السنديان الخيِّر والرحيم الذي حافظ على حياته مخزنة آمنة بين السماء والأرض في تلك النبتة الطفيلية الغامضة؛ لكن عندما تنفصل حياته أو موته عن الغصن وتُرمى على الجذع، تسقط الشجرة ويموت الله بصعقة العاصفة.

وكل ما قلناه عن بالدر في غابات السنديان في بلاد اسكندنافيا ينطبق ـ بكل ما فيه من عدم ثقة في الأسئلة الغامضة وغير الواثقة — على كاهن ديانا، ملك الغابة في أريسيا ضمن غابات السنديان في إيطاليا. وربما تجسد في لحم ودم إله السماء الإيطالي العظيم، جوبيتر، الذي نزل رأفة بالعباد في ومضة برق ليعيش بين الناس في الهدال — مقشة الرعد — الغصن الذهبي — وينمو على السنديان المقدس في وهاد نيمي. إذا كان الأمر كذلك، فلا عجب أن يَحْرُسَ الكاهنُ بسيفه المستل الغصنَ الغامض الذي يحتوي حياة الإله في حياته. أما الإلهة التي خدمها وتزوجها فقد كانت هي نفسها، إذا كنت محقاً، ملكة السماء، زوجة إله السماء الحقيقية. فهي أيضاً أحبت العزلة في الغابات والوحدة في الجبال، وتنظر وهي تحوم عالياً في الليالي الصاحية وكأنها القمر الفضي، تنظر بسعادة غامرة إلى صورتها الجميلة المنعكسة على المياه الهادئة، وجه البحيرة اللامع، مرآة ديانا.

الفصل التاسع والستون
وداعاً يا نيمي

علينا الآن أن ننهي استفسارنا، لكن كما يحصل غالباً في البحث عن الحقيقة، كلما أجبنا عن سؤال، نثير أسئلة أكثر؛ ونحن نسلك الطريق إلى هدفنا علينا أن نعبر طرق أخرى انفتحت أمامنا فقادتنا، أو يبدو أنها قادتنا إلى وجهات غير الأيك المقدس في نيمي. سلكنا بعض هذه الممرات لمسافة قصيرة؛ أما الممرات الأخرى، إذا سنحت الفرصة، فسوف يبحث فيها الكاتب والقارئ معاً يوماً ما. أما الآن فقد سافرنا سويةً بما فيه الكفاية، وحان وقت الفراق. مع ذلك وقبل الوداع، يمكننا أن نسأل أنفسنا، إن كنا قد توصلنا إلى نتيجة عامة، أو أخذنا درساً، إن أمكن عبر الأمل والتشجيع، من سجل هموم أخطاء البشر وحماقاتهم التي رافقت بحثنا في هذا الكتاب.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار، من الناحية الأولى، تشابه حاجات الإنسان الأساسية في كل مكان وكل زمان، ومن الناحية الثانية، الفرق الكبير بين الوسائل التي اعتمدها لتلبيتها في العصور المختلفة، فربما خَلُصْنا إلى القول إن حركة الفكر السَّاميَة، بحدود قدرتنا على متابعتها، قد انتقلت من السحر عبر الدين إلى العلم. يعتمد الإنسان السحري على قوته الخاصة ليواجه الصعوبات والأخطار التي تحيط به من كل جانب. ويؤمن بنظام راسخ ومحدد للطبيعة يمكنه الاعتماد عليه، وبمقدوره التحكم به لبلوغ أغراضه. وعندما اكتشف أنه مخطئ، لاحظ بحزن أن نظام الطبيعة الذي افترضه والطريقة التي اتبعها للتحكم به هما خيال واهم، فكف عن الاعتماد على ذكائه الخاص وجهوده الذاتية، ووضع نفسه ذليلاً تحت رحمة كائنات عظيمة غير مرئية خلف حجاب الطبيعة، والتي يعزو إليها الآن كل القوى البعيدة المنال التي كان يوماً ما ينتحلها لنفسه. وهكذا بدأ السحر

يتلاشى في العقول الذكية ليحل محله الدين، والذي يفسر ترابط الظواهر الطبيعية بناءً على إرادة وعاطفة ونزوات كائنات روحانية تشبه الإنسان، لكنها أقوى منه.

ولكن مع مرور الزمن أثبت هذا التفسير عدم كفايته، لأنه افترض أن تتابع الأحداث الطبيعية لايقوم على قوانين ثابتة، بل متغيرة إلى حد ما وغير منتظمة، وأنه افتراضٌ مخالف للملاحظة. على العكس، كلما تفحصنا تسلسل الأحداث كلما اندهشنا من الاتساق المتماسك، ومن الدقة الكبيرة التي أينما تابعناها، نراها تنطبق على كل العمليات الطبيعية. ومع كل تقدم في مجال المعرفة تتوسع دائرة النظام وبالتالي تتحدد دائرة الفوضى الظاهرية في هذا العالم، حتى الآن نحن مستعدون للتنبؤ أنه حتى في المجالات التي تبدو فيه المصادفة والفوضى حاكمتين، تستطيع المعرفة الأكمل أن تقلص الفوضى الظاهرية في المعمورة. إذن مازالت العقول الذكية تضغط باتجاه أجوبة أعمق لألغاز الكون، وصارت ترفض النظرية الدينية وتعتبرها ناقصة، وتعود إلى موقف السحر القديم بالتسليم الظاهري، لما اعتبره السحر ضمنياً، لاستنباط نظام ثابت لتسلسل أحداث الطبيعة التي إذا ما لوحظت بدقة، تمكِّننا من التنبؤ بمسار الطبيعة بيقين والعمل على هذا الأساس. بالمختصر، حل العلم محل الدين في تفسيره للطبيعة.

يشترك العلمُ مع السحر في إيمانه بالنظام كمبدأ يحكم الأشياء كلها، لكن لايحتاج قراء هذا الكتاب من يذكرهم أن النظام الذي يفترضه السحر يختلف كل الاختلاف عن النظام الذي يعتمده العلم. ويظهر الاختلاف طبعاً في المناهج المختلفة التي توصلا إليها. فالنظام الذي يتبناه السحر هو فقط توسع، عبر القياس الخاطئ، بالنظام الذي تخطر وفقه الأفكار في عقولنا، أما النظام الذي يستنبطه العلم فهو عبر ملاحظة دقيقة ودؤوبة للظواهرالطبيعية نفسها. إن وفرة النتائج التي توصل إليها العلم وتماسكها وروعتها تمنحنا ثقة عظيمة بسلامة منهجه. وأخيراً بعد أن تَلَمَّسَ طريقه في ظلمة عصور لا تُعد ولاتحصى، توصل الإنسان إلى دليل للمتاهة، وإلى مفتاح ذهبي يفتح الكثير من أقفال كنوز الطبيعة. وربما لا نغالي عندما نقول إن الأمل بالتطور – أخلاقياً كان أم فكرياً أم مادياً – في المستقبل مرهون بالعلم، وأي عائق يوضع أمام الاكتشاف العلمي هو جريمة بحق البشرية.

مع ذلك يحذرنا تاريخ الفكر من اعتبار نظرية العلم كاملة ونهائية بالضرورة، على الرغم من أنها أفضل ما صاغه الإنسان حتى الآن. وعلينا أن نتذكر أنه خلف التعميمات العلمية، في الحديث العام، ليست قوانين الطبيعة سوى افتراضات استُنبطت لإيجاد تفسير لخيالات الظل الفكرية المستمرة التغيير والتي نعظمها بأسماء عالمية وكونية فخمة. في التحليل السابق ليس السحر والدين والعلم إلا نظريات فكرية؛ فمثلما حل العلم محل سلفه، لابد أنه سيُستأصل يوماً بفرضية أكمل، وربما بنظرة مختلفة كل الإختلاف للظواهر الطبيعية – وعن تسجيل الظلال على الشاشة – بطريقة لا يستطيع جيلنا أن يكوِّن عنها أية فكرة. تَقَدُّمُ المعرفة هو تطور لامحدود باتجاه هدف يتراجع أمامنا باستمرار. ولسنا بحاجة لأن نردد هذا القول عن المطاردة التي لا تنتهي:

لاتكن في المدينة مع الرذيلة

فأبونا سعى وراء الفضيلة والحكمة

تتمخض عن هذه المطاردة أشياء عظيمة، على الرغم من أنها لا تروق لنا أحياناً. وستعلو فوق البَحَّارة في المستقبل نجوم أبهى – سيظهر يوليسيز عظيم آخر في ميدان الفكر – من النجوم التي تضيء الطريق أمامنا. ربما أصبحت أحلامُ السحر حقائقَ العلم في اليقظة. لكن ظلاً معتماً يقف في وجه هذه الصورة المستقبلية الجميلة. فمهما ازدادت المعرفة والقوة التي تخبئها الطبيعة له، لايحلم الإنسان أن يقاوم القوى العظيمة الجارفة التي تعمل بصمت وعناد لأجل تدمير هذا الكون المضاء بالنجوم والذي تسبح فيه أرضنا كالذرة أو الهباء. في العصور القادمة قد يتنبأ الإنسان وربما يتحكم بمسارات الغيوم والرياح، لكنه لا يقوى بيديه الضعيفتين على أن ينشط كوكبنا المتراخي في مداره أو أن يعيد إضرام نار الشمس المتخامدة. مع ذلك ربما يواسي الفيلسوفُ الذي يرتعد أمام فكرة هذه الكوارث البعيدة، يواسي نفسَه بالتأمل أن هذه التوجسات من أخطار مخيفة قادمة، تخص الأرض والشمس، هي أجزاء من ذلك العالم الوهمي الذي استحضره الفكر من الفراغ، وأن الأشباح التي استحضرتها الساحرة الذكية اليوم قد تمنعها غداً. إنها أوهام مثل أشياء كثيرة نراها صلبة بعيننا المجردة، وقد تنصهر أو تتلاشى في الهواء.

دون الغوص عميقاً في المستقبل، يمكننا أن نشرح مسار الفكر هنا بتشبيهه بشبكة مُحاكة بثلاثة خيوط مختلفة – خيط السحر الأسود، وخيط الدين الأحمر، وخيط العلم الأبيض، فإذا استطعنا بالعلم جمع هذه الحقائق البسيطة، عبر ملاحظة الطبيعة، التي حفظ الناس عنها مخزوناً، لو استطعنا أن ننظر إلى شبكة الفكر من بدايتها، لأدركنا أنها كانت أولاً مربعات من الأسود والأبيض أو رقعة من أفكار صحيحة وأفكار خاطئة، لم يتخللها بعد خيط الدين الأحمر. وعند التقدم أكثر في النسيج سنرى عند بداية الشبك ظهور الخيط الأحمر متداخلاً مع الأبيض والأسود حتى يصبح بقعة قرمزية داكنة، ثم تضعف هذه البقعة بشكل طفيف عند دخول خيط العلم. ويمكننا تشبيه حالة الفكر المعاصرة بما فيه من تباعد بالأهداف وتضارب بالميول، بتلك الشبكة المبقعة بخيوط من ألوان مختلفة تتغير كلما مددنا القماش أكثر فأكثر. هل ستستمر الحركة العظيمة التي مازالت تغير وببطء لون الفكر، هل ستستمر إلى المستقبل القريب؟ أو هل ستعتقل مجموعةُ ردود أفعال عن ذلك التقدم ما قد أُحرِز حتى الآن أو تخربه؟ واستمراراً بتشبيهنا الرمزي، ماذا سيكون لون الشبكة التي يحوكها لنا القدر في نَوْلِ الزمنِ الطَّنان؟ هل سيكون أبيض أم أحمر؟ لايمكننا التنبؤ الآن. نور متلألئ خافت يضيء القسم الخلفي من الشبكة. غيوم وظلام دامس يخبئ الطرف الآخر.

لقد انتهت رحلة الاكتشاف وقد أرخى قاربنا أشرعته المتعبة في الميناء. مرة أخرى لنأخذ طريقنا عائدين إلى نيمي. الوقت الآن هو المساء، ونحن نصعد سفح طريق أبيان إلى جبل ألبان، نظرنا إلى الخلف فرأينا السماء تشتعل بالغروب، ويحط مجدها الذهبي وكأنها هالة قديس ميت فوق روما وتلمس ناره قبة القديس بطرس. منظر يُحفر في الذاكرة بمجرد رؤيته. التفتنا لنشق طريقنا في الظلام على طول سفح الجبل حتى وصلنا إلى نيمي ونظرنا إلى البحيرة في الوادي السحيق، وهي تختفي في ظلام المساء. لقد تغير المكان قليلاً عما كان عليه عندما كانت تتلقى ديانا الولاء من عابديها في الأيك المقدس. اختفى معبد إلهة الأجمة ولم يعد ملك الغابة يقف خفيراً على الغصن الذهبي. لكن غابة نيمي ما زالت خضراء، وراحت الشمس تختفي خلفها في الغرب. هنا نسمع مع تعاظم النسيم صوت أجراس كنيسة أريسيا تدق أجراس البشارة. تحية لمريم! تدق بقدسية وجمال في المدينة البعيدة ويغيب الصوت عبر مستنقعات كامباغنان الواسعة. مات الملك، عاش الملك، تحية لمريم.

الفهرس



هذا الكتاب

الغصن الذهبي هو دراسة موسعة في الأساطير والأعراف الوثنية، بحث فيها الكاتب الميثولوجي الكبير سير جيمس فرايزر في المعتقدات البدائية فكشف عن جذور شجرة نعيش على أغصانها الآن. واجه كتابه موجة احتجاج واسعة مما اضطره إلى حذف المواد المثيرة للسخط العام.

الأسطورة والوثنية والبدائية عبارات تبدو للقارئ المعاصر منقطعة الصلة بالحاضر ولا تفيدنا بشئ. لكن إذا ما أمعنا النظر في سلوكنا اليومي الآن نجد أنفسنا نمارس عادات لا نعرف أساسها، فنعطيها مبررات سطحية. إذن نحن بدائيون بشكل ما.

في معرض قراءة الكتاب سيكتشف القارئ أن الكثير من العادات والمعتقدات التي نعتنقها الآن هي مجرد استمرار منمق لمعتقدات بدائية يرفضها البعض عندما نعطيها تسميات قديمة وينعتها بالعبث والتخلف، وهم أنفسهم يقبلونها إذا ما ألبسناها الحلة العصرية. ربما ساعدنا هذا الكتاب على معرفة أنفسنا بشكل أعمق عندما نتعرف جذور سلوكنا اليومي.



9789933444655

دار الفرقد

للطباعة والنشر - دمشق - سوريا